كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

نقلها الى العربية

نبيه أمين فارس   منير البعلبكي

الطبعة الخامسة

دار العلم للملايين
بيروت

تصميم غلاف : علي مولا

تاريخ الشعوب الاسلامية

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

نقله إلى العربية

نبيه أمين فارس   منير البعلبكي

الطبعة الخامسة

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الأولى ، حزيران ١٩٤٨
الطبعة الثانيـــة ، آذار ١٩٥٣
الطبعة الثالثـــة ، ايلول ١٩٦٠
الطبعة الرابعة ، تشرين الثاني ١٩٦٥
الطبعة الخامسة ، تموز ١٩٦٨

مقدمة الطبعة الأولى

ليس بين المعنيين بالدراسات العربية والاسلامية من يجهل الأستاذ كارل بروكلمان ، المستشرق الألماني الشهير ، وكتابه في تاريخ الأدب العربي ، ذلك الأثر القيم الذي لا يستغني عنه باحثٌ في هذه الناحية من التراث الاسلامي .

والواقع ان لبروكلمان كتاباً آخر لا يقلّ عن كتابه ذاك شأناً وقيمة ، إن لم يَفُقْهُ . ذلك هو « تاريخ الشعوب الاسلامية » الذي أخرجه للناس عام ١٩٣٩ ، والذي يُسعدنا ان نقدمه اليوم إلى قراء العربية .

ولعلنا لا نعدو جانب الحقيقة إذا قلنا إن أحداً من المؤرخين ، من شرقيين ومستشرقين ، لم يسبق العلاّمة بروكلمان إلى مثل هذا الكتاب الجامع الذي يستغرق بين دفتيه تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا . فقد عهدنا المؤرخين يستهلون مؤلفاتهم بالجاهلية ليختموها بسقوط بغدادِ في يد المغول سنة ١٢٥٨ أو بالفتح العثماني عام ١٥١٦ ، ومن هنا كان تاريخ العرب والاسلام إبان العصر العثماني بخاصة هو الحلقة المفقودة في هاتيك الكتب جميعاً . وكأننا ببروكلمان قد أدرك هذه الواقعة التي لا مبرر لها عند معظم من عُنوا بالتأريخ للعرب والمسلمين إلاّ غموض تلك الحقبة ووعورة البحث في مجاهلها ، فأفرد نحواً من مائة وخمسين صفحة من كتابه هذا لدراسة التاريخ العثماني والحضارة العثمانية ، ليُتمّ السلسلة بعدُ بدراسة الاسلام في العصر الحديث .

ولقد قسم بروكلمان كتابه إلى أبواب خمسة :

١ ــ العرب والامبراطورية العربية . (وينتظم تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى سقوط الأمويين) .

٢ ــ الامبراطورية الاسلامية وانحلالها . (وينتظم الخلافة العباسية ، ونشوء

الدويلات المستقلة ، والاسلام في الاندلس وشمالي إفريقية ، والحروب الصليبية ، ودولة المماليك) .

٣ ــ الاتراك العثمانيون . (ويشمل التاريخ العثماني حتى مطلع القرن التاسع عشر ، والحضارة العثمانية في أوج الامبراطورية ، والصراع العثماني الفارسي).

٤ ــ الاسلام في القرن التاسع عشر . (وهو يدرس العلاقات بين الامبراطورية العثمانية ومصر ، والحياة الفكرية فيهما جميعاً ، وأحوال شمالي افريقية ، والسودان ، وإيران ، وافغانستان ، في ذلك القرن) .

٥ ــ الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية . (ويبحث في التاريخ الحديث لكل من تركية ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرقي الأردن ، والعراق ، وإيران ، وافغانستان) .

ولقد آثرنا أن نُخرج كلاً من هذه الأبواب في جزء برأسه ، بعد أن خصصنا لكل جزء فهرساً مستقلاً للأعلام ، تسهيلاً للمراجعة وزيادة في الفائدة . أما لائحة المراجع المفصلة ولائحة الأحداث التاريخية الرئيسية فقد ارجأناها إلى الجزء الأخير .

وكان من الطبيعي أن نُدخِل على الكتاب بعض الاضافات التفسيرية ، وهي تظهر في المتن محصورةً بين مُعقّفين [ ] ، وفي الهامش مُرفقة بالنص على انها من وضع المعربين . أما الهوامش التي وضعها المؤلف أصلاً فقد قيدناها برقم متسلسل .

وإذ كان في الكتاب بضعة آراء خاصة بالمؤلف تتنافى أحياناً مع وجهة النظر الاسلامية ، فقد عهدنا بالتعليق عليها إلى زميلنا الدكتور عمر فروخ ، أستاذ الفلسفة في كلية المقاصد الاسلامية في بيروت ، وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، فله منا أجزل الشكر .

ولسنا في حاجة الى القول إن هذا لا يفيد ، بالضرورة ، موافقتنا المؤلف على آرائه الباقية جميعاً . لأننا لم نستهدف بالتعليق إلاّ تلك الآراء التي تتصل بحياة الرسول وتعاليم الاسلام .

حزيران ١٩٤٨ **المعربان**

مقدمة الطبعة الخامسة

هذه طبعة جديدة من «تاريخ الشعوب الاسلامية» نقدمها اليوم الى القراء بحلة جديدة ، وقطع جديد ، بعد أن جمعنا اجزاء هذا السفر الخمسة في مجلد واحد تسهيلاً للمراجعة وأدخلنا على الطبعة السابقة بعض التنقيحات الضرورية .

ولسنا نشك في ان هذه الطبعة سوف تحظى بما حظيت به الطبعات السابقة من اقبال القراء ورضا العلماء . والحمد لله أولاً وآخراً .

تموز ١٩٦٨ المعربان

من مقدمة الأصل الألماني

لا تزال كتابة تاريخ الشعوب والدول الاسلامية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ضرباً من المحاولة الخطرة ، لأن مصادر مثل هذا التاريخ لم تصبح بعد في متناول البحث ، ولم تخضع بعد للتحليل النقدي . وليس يجرؤ فردٌ واحد على النهوض بهذا العبء . ومع ذلك فمن الخير ، في ما يبدو ، ان نقدم للمعنيين بمسائل السياسة الدولية نظرة طائر عن مصاير المسلمين التي تتشابك اليوم بأحداث العالم على العموم بأكثر مما تشابكت في أي وقت مضى ، والتي لا يمكن أن تُعرض إلاّ عرضاً أبتر ناقصاً في كتب المراجع ، وتواريخ العالم العامة .

ولقد حاولت أن أقدم إلى قراء هذا الكتاب ، بالاضافة إلى التاريخ السياسي ، لمحة عن الحياة الثقافية والفكرية بقدر ما يسمح به مجال هذه الصفحات المحدودة.

وليس من شك في أن الخرائط الأولية التي يجدها القارىء في هذا الكتاب لا يمكن أن تغني عن الأطلس التاريخي الذي لا تزال الدراسات الاسلامية مفتقرة اليه . وإنما قصدنا بها إلى أن نبرز للقارىء الخطوط الكبرى للرقعة التي انبسط فيها هذا التاريخ وازدهر ، ليس غير . أما لوائح المصادر فلم نضمنها إلا المراجع الحديثة الأكثر أهمية ، ولكننا أشرنا ، ههنا وهناك ، إشارات مباشرة الى بعض الدراسات المفردة في الهوامش . ولست في حاجة إلى القول لزملائي المتخصصين انهم يجب ألا يتوقعوا في هذا الكتاب لوائح

شاملة بمصادر التاريخ الاسلامي . ومهما يكن من أمر فانهم سيدركون في غير ما صعوبة أي إلى العلماء أنا مدين ديناً كبيراً ، ومع ذلك فأحب الا أغفل الاشارة بخاصة إلى آثار ولهاوْزِنْ J. Wellhausen وكَيَتْاني L. Caetani في ما يتصل بتاريخ العرب ، وآثار بارتولد W. Barthold ومينورسكي V Minorsky في ما يتصل بآسية الوسطى ، وآثار ويتّك P. Wittek عن الامـــبراطورية العثمانية .

كارل بروكلمان

العَرَبُ والإمبَراطوريّة العَربيّة

بلاد العرب قبل الإسلام

بلاد العرب ، أو « جزيرة العرب » كما يدعوها سكانها أنفسهم ، تشكل جيولوجي اوليّ في جنوب غربي آسية تبلغ مساحته مليون ميل مربع تقريباً . فمنذ الدور الجوراسي كان المحيط الهندي العميق والخليج الفارسي يفصلانها عن الهند وفارس اللتين لا يزال تركيبهما الجبلي بارزاً في منطقة عُمان الساحلية . وفي الزمن الثالث فُصلت بلاد العرب عن شمالي افريقية بظهور البحر الأحمر ظهوراً مفاجئاً ارتفع بسلسلة جبال السراة الغربية (التي يبلغ علو احد جبالها ، النبي شُعَيب ، الواقع غربي العاصمة اليمنية ، صنعاء ، في الجنوب) أكثر من ١٢,٣٠٠ قدم . وأمام هذه السلسلة تمتد سهول تِهامة الساحلية نحواً من ثلاثين ميلاً . ويعرف قسمها الشمالي مع البلاد الجبلية بالحجاز . وتتميز هذه السلسلة الجبلية التي تحيط بالساحل بتلك الفطور المتعارضة الظاهرة في بعض نواحيها ، والتي احدثتها فيها براكين كانت في وقت مضى تنفث حِممها النارية التي تؤلف اليوم هذه الطبقة من الأرض المعروفة بالحرّة . ولهذه السلسلة نتوءان يتجهان نحو الشرق وينفذان إلى السهول الواقعة شمالي المدينة ، هما جبلا أجأ وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمّر . والواقع ان هذين الجبلين يخترقان بادية الشام التي تمتد حتى مستنقعات دجلة والفرات في الشرق ، والنِجاد الكلسية ، السورية الفلسطينية ، في الغرب ، كما يخترقان فرع هذه

البادية الجنوبي ، النّفود ، من مرتفعات نجد الوسطى ، وهي النجاد الصحراوية الكبرى التي تتألف من الصخر البدائي المغطى بالحجر الرملي ، والتي تنحدر إلى الخليج الفارسي في الشرق . وإنما يفصل نجداً عن آكام عُمان الجبلية ، الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي ، صحراء رملية كبيرة تدعى الرُبع الخالي ، وهي التي اخترقها أول مرة برترام توماس في شباط ١٩٣١ ، ثم اخترقها من بعده سِنْجِن فيلبي بين كانون الثاني وآذار سنة ١٩٣٢ . وليس في هذه البيداء من الأودية ذات المياه إلا عدد قليل كوادي سِرحان في الشمال ، ووادي الرُمّة ووادي الدواسر في الجنوب ، وهي أهم هذه الأودية جميعاً . وفي فصل الأمطار تمتلىء الأودية بالمياه التي قد تجتمع لتؤلف رافداً متفرعاً ، ثم ما تلبث أن تجفّ في أغلب الأحوال بعد أن تضفي ، على الأقلّ ، بعض الخصب على البقاع التي تشربتها . وقد تنشأ عن ذلك في بعض الأحيان (على ما نرى في تيماء وخَيْبر على طرف المناطق الحِرارية الواقعة في الشمال الغربي) بضع بِرَك دفينة تتفجر منها بعدُ آبارٌ عميقة تساعد على زراعة النخيل . والواقع ان فيلبي قد وجد في واحة الافلاج بحيرة يبلغ عرضها اربعمائة متر . ويبلغ طولها ألفاً ومئتين وخمسين متراً . ولكن هذه الاجسام المائية قد تكون مُضِرّة أحياناً . ولعلّ منطقة اليمامة في جنوبي نجد ، التي كانت لا تزال مزدهرة عَهْدَ النبي محمد ، إنما خربت بسبب كارثة من كوارث الفيضان .

والمناطق الجنوبية ، حيث تُفرغ الرياح الموسمية أمطارها على سفوح السلسلة الجبلية ، هي المناطق الوحيدة التي يمكن أن تقوم فيها زراعة رابحة ، أو بَسْتَنَة ناجحة ، من طريق توفير المياه وحسن تصريفها . أما البوادي الشمالية ، في ما عدا الواحات ، فلا تقدّم من أسباب الحياة إلى البدو الرحّل — الذين ينتجعون بمواشيهم مواطن الكلأ النابت بعد هطول الأمطار — غير الهزيل الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع . ومن المتعذّر ان نقرّر ما اذا كان مُناخ بلاد العرب ، كما استنتج بعضهم ، كان أكثر اعتدالاً خلال التاريخ ، ثم انتهى مع الأيام إلى جفاف تدريجي ، أم لم يكن .

وسكان شبه الجزيرة — العرب — هم الممثلون الرئيسيون لما دعاه اويغن فيشر **Eugen Fischer** الجنس الشرقي ، الذي ينماز بالرأس الطويل والوجه الضيّق والانف الاقنى وبنتوء مؤخرة الجمجمة نتوءاً شديداً ، كما ينماز بالقامة المربوعة والبِنْية المهزولة دائماً . انه ضرب من جنس البحر المتوسط السائد في شمال إفريقية . ولقد اختلط العرب ، في الشمال ، بالجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى الذي ساد في وقت من الاوقات في آسية الصغرى وفي غربي النِجاد الايرانية ايضاً ، والذي حُفظ في اصفى اشكاله بين الأرمن المعاصرين الذين يتميزون بالانحدار الشديد في مؤخرة الجمجمة ، وبالأنف الضخم المتقوّس . ولا بد ان يكون هذا الجنس ، في ما يظهر ، قد انتشر في زمن ما في اتجاه الجنوب لأننا نقع منذ القِدَم على خصائصه المميزة عند العرب اليمنيين . وابتداء من الالف الثالث قبل الميلاد شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربية تندفع نحو الشمال في فترات من القحط بالغة الخطورة . فاذا بالبابليين يَغْشَوْن العراق ويقتبسون فيه ثقافة السومريين ، وإذا بالكنعانيين واليهود والآراميين يهبطون سورية وفلسطين ، ويستعيرون ، مع الفينيقيين ، ثقافة الجنس المعروف بجنس الشرق الأدنى ، ذلك الجنس الذي أورثهم كذلك بعض صفاته الجسمانية . أما لغتهم ، التي ندعوهم من أجلها ساميين ، فقد احتفظت بخصائصها الرئيسية التي يربطها بالعربية نسبٌ وثيق ، على الرغم مما طرأ عليها من تعديل كبير .

حضارة بلاد العرب الجنوبية

وفي جنوبي بلاد العرب ، حيث كان المناخ أكثر ملاءمة للزراعة ، ازدهرت منذ الألف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية قامت على أساس الزراعة والتجارة . وفي الحق ان السدود المنشأة لخزن المياه وتصريفها ، والمدن المحصنة ، والقصور

والهياكل القائمة في تلك الأصقاع لا تزال إلى اليوم تشهد على ما كان يتمتع به بُناتها من الصناعة الزاهرة ، وما كانوا يتحلّوْن به من التقوى والنزعة الاجتماعية . أما حياتهم الفكرية ، فيؤخذ من النقوش التي خلفوها أنها لم تتعدّ وضع مجموعة من القوانين التي نظمت شؤون الملكية العقارية وغيرها عندهم تنظيماً دقيقاً . وما ان أطلّ الألف الثاني قبل الميلاد حتى كان المَعينيون ، من قبائل العرب الجنوبية ، قد توسّعوا في مستعمراتهم التجارية بعيداً نحو الشمال . وعقِبتهم سَبَأ فأنشأوا مملكة تعتمد على الاسر الارستوقراطية المتنفّذة ، وبذلك حاولوا دون نشوء أي سلطة مركزية قوية . ثم خَلَفَ من بعدهم خلفاؤهم الحِمْيَريون ، الذين ما عتّموا أن فقدوا مصدر ازدهارهم الرئيسي عندما تحوّل قسمٌ من تجارتهم الهندية الى مصر إبّان الحقبة الهيلينية ، وان كانوا لا يزالون ، في سنة ٢٤ ق . م ، قادرين على التخلص من الخضوع لتأثير الامبراطورية الرومانية السياسيّ بعد ان أخفقت محاولة ايليوس جالّوس لأخضاعهم لسيطرة الامبراطور اوغوسطوس . والواقع ان اليهودية قد وُفقت إلى أن تكسب نفوذاً في امبراطوريتهم ، فترة من الزمان ، حتى لقد اعتنقها بعض حكامهم ، واضطهدوا المسيحية ، فعَلْ ذي نُواس المتوفى سنة ٥٢٥ وعلى الرغم من ذلك استطاعت المسيحية أن تَثْبُتَ للخطوب ، وبخاصة في نَجْران ، حتى ظهور الاسلام . أما سقوط الدولة الحِميْرية النهائي فقد تمّ على يد الحبشة ، التي سبق لأسلاف الحميريّين أنفسهم أن استعمروها في وقت من الأوقات . فهناك كان النصر قد عُقِدَ للمسيحية منذ القرن الرابع . وفي سنة ٥٣٠ ق . م . سار الحاكم الحبشيّ أبرهــة — بتحريض من بيزنطة التي كانت تتوق إلى الاشتباك بعدوّها القديمة ، فارس ، في الجنوب أيضاً — إلى بلاد العرب الجنوبية فاستولى عليها واندفع لمهاجمة الفرس في الشمال . ولكنه لم يوفّق للتقدّم إلى ما وراء مكة . ومهما يكن من أمر ، فقد استولى على البلاد ، بعد أربعين عاماً ، أحد قُوّاد الملك الساساني ، كسرى الأول (انو شروان) بعد أن عجز ابن ابرهة وخليفته الثاني عن الدفاع عنها .

وهكذا ظلت بلاد العرب الجنوبية ولايةً فارسية إلى أن فتحها المسلمون .

الأحوال الاجتماعية في شمال الجزيرة

فاذا انتقلنا إلى أحوال بلاد العرب الشمالية وجدنا الصحراء ، التي تؤلف معظم البلاد ، هي التي تقرّر الأحوالَ الاجتماعية (١) . ذلك أن مراعيها الشتيتة لا تكفي إلا لإقاتة المواشي الصغيرة والجمل الذي تُشبع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة ، والذي يجد فيه العربيّ قِوام طعامه ولباسه . وإذ كانت العناية بهذا الحيوان لا تمكن إلا بالرحلة والضّرب في المناطق النائية فقد صار كل تنظيم سياسيّ قائمٍ على الاستقرار في السّكنى أمراً متعذراً على البدوي . والصلة الدموية وحدها هي التي تُعيّن الفَلَك الذي تضطرب فيه حياة البدو . فهي تربط الأسرَ بالعشائر ، والعشائر بالقبائل . وحتى الشعوب لا تزال تعيّن انسابها بواسطة قرابة دموية مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسبّيّ يشبه نظام الانساب عند اليهود القدماء . ولكن هذا الشعور الاجتماعي لا ينتظم الشعب كله ، إنه يمتدّ من العشيرة التي تشمل الأسر القريبة الضاربة خيامها جنباً إلى جنب ، إلى القبيلة التي تعدّ بضعة آلاف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى . وكل من يجترىء على التقدّم إلى منطقة قبيلة غريبة إنما يعرّض نفسه للقتل أو السلب على يد اولئك الأغراب الذين لا يَعْدُون أن يكونوا أعداءَه . وهو لن ينجو من مثل هذا المصير إلا إذا وُفّق إلى أن يلمس ثياب عدوه أو خيمته ، أو أن يدخل عليه منزلَهُ . وقد تُمنح هذه الحماية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب نفس ، وقد يضمّ أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً إلى عشيرته ضمّاً لا انفصام له . وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثّل جماعاتٍ كبيرةً ، تُعتبر في أول الأمر دخيلةً ، حتى إذا انقضت

---

(١) انظر ولهاوزن J. Wellhausen, Fin Gemeinewesen ohne Obrigkeit, Rede zur Feier des Geburtstages S. Majestât am 27. Januar 1900, Gôttingen.

بضعة أجيال مُنحت جميع حقوق الصلة الدموية .

والبدوي كائنٌ فرديّ النزعة مفرط الأنانية ، قبل كل شيء . ولا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الاسلام ان يقول في دعائه : « اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا احداً » * ومع ذلك فالجميع متساوون ، ضمن اطار القبيلة ، في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية الدموية . فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في الملمات ، وليس له أن يتساءل أهو ظالم أم مظلوم . وليس من شك في ان هذا الواجب يقع ، باديء الأمر ، على عاتق العشيرة التي يعنيها الأمر ، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرتها إلاّ اذا كانت العشيرة ضعيفة قليلة الحول . ولكن هذا المجتمع القائم على أساس المساواة والحرية العامة يتكشفُ ، مع ذلك ، عن نزعات متعددة نحو تركز السلطة . وإنما ترتضي العشائر أو القبائل لزعامتها رجالاً استطاعوا بسجاياهم وكفاءاتهم أن ينتزعوا اعتراف الناس بتقدمهم ، عن رضاً وطيب نفس . وعلى الرغم من ان هذه المرتبة كثيراً ما تنتقل من الأب إلى الابن ، فيتعين على هذا الأخير أن يحققها لنفسه بأن يقيم الدليل ، مستقلاً ، على شدة بأسه وقوة مراسه . وليس لهؤلاء الزعماء (السادة) حقوق فعلية على الاطلاق ، وان تكن نزعة الناس الى الاستماع لهم في المجالس العامة ، أقوى من نزعتهم إلى الاستماع لغيرهم . اما واجباتهم فهي ، على العكس ، كبيرة متعددة . إنهم في حال الحرب خليقون بأن يكونوا أبداً على استعداد للتضحية بأرواحهم ، وهم في حال السلم خليقون بأن يضحوا بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة وابتغاء اغاثة المعوزين من أفرادها . ولكن مهمتهم الرئيسية أن يحافظوا على وحدة القبيلة ، التي كثيراً ما تتهددها المصالح الشخصية بأعظم الأخطار .

والخلافات التي قد تنشب بين أعضاء القبيلة الواحدة على ملكية شيء ما ، تسوّى في المجالس اليومية . أما حين ينشب الخلاف بين أفراد ينتسبون إلى

(*) البخاري – ادب : ٢٧ ، ابو داود – طهارة : ١٣٦ ، صلاة ١٤٩ . (المعربان)

قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون إلى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة ، أو إلى امرأة تَمتَّتْ لها هاتان الميزتان ، وكثيراً ما يكون الحَكَم في هذه الحال كاهناً أو عرّافاً . ولكن حُكم الحَكم لا يكون ملزماً للمختصين إلا اذا ارتضاه الفريقان ، أو حتّمه تفوّق احدهما على الآخر في قوته وبأسه . ولما كان زعماء القبيلة أنفسهم لا يملكون القوة التنفيذية أيضاً ، فقد انعدم عند البدو وجود القانون الجنائي ، وأمسى من الضروري ان يفزع كل فرد إلى استخلاص العدالة من قاتل نسيبه أو سالبه ، بالطرق الشخصية . أما إذا عُثر على احد البدو مقتولاً بيد مجهولة في منطقة احدى العشائر ، ووقعت الشبهة على احد أفرادها فعندئذ تقسم العشيرة الايمان على براءته . وقد يُجرح صدق هذا القسَم ويبطل فعله بقسم آخر تقسمه عشيرة القتيل . وإنما تقع تبعة الثأر للقتيل على عاتق أقرب الناس اليه . وإذْ كانت عشيرة الجاني تنزع في الأعم الأغلب إلى أن تنصره ، فقد يتولد عن الانتقام للدم ثأر جديد لا يلبث ان يتطاول ، في كثير من الاحيان ، فيستغرق أجيالاً تتجدد فيها المنازعات وتسفك الدماء . صحيح ان جريمة الدم قد يكفر عنها بالديات يقدمها أهل القاتل جمالاً ونياقاً إلى أهل القتيل ، وصحيح ان من واجب الزعماء في القبيلة أن يعملوا على ايجاد تسوية بين المتخاصمين ، من غير أن يملكوا حق فرضها عليهم ، ولكن العشائر كثيراً ما لا تنتهي إلى الأخذ بهذه التسويات إلا بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها عطر مَنْشِم .. أما إذا أسلِم القاتل ، طوعاً لا كرهاً ، إلى الفريق الآخر ليُنْزل فيه انتقامه ، فعندئذ لا يبقى مجال للثأر . ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة فهي تفضل أن تقتل الجاني على ان تسلمه طوعاً ويلحق بها العار . ان حاسة الشرف السامية هذه التي تَسِمُ جميع أعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض عليه صرح الأخلاق عنده .

مكة والمدينة

وعلى العموم فقد كان هذا القانون الصحراوي نفسه موضع التنفيذ أيضاً

في مدن الحجاز : الطائف ، ومكة ، والمدينة . ففي هذه المدن كانت العشائر المختلفة ، كما كان البدو في خيامهم ، تعيش عيش الحرية والاستقلال فلا تقرّ بالطاعة لأحد . وليس من شك في ان شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء ، قد وجد في مكة (٢) ما يخفف من غلوائه بعض الشيء ، بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة ، ومن التجارة التي كانت تعتمد على ازدهارها . وإذ كان كل فرد من أبناء مكة معنياً بهذه الشؤون فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها أكثر تعقداً . وتفوّق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة أعظم مما كان في الصحراء . أما في المدينة ، حيث قامت موارد العيش الرئيسية على الزراعة والعناية بالنخيل فقد كانت الحيـــاة لاجتماعية أمعن في السذاجة مما كانت عليه في مكة . حتى إذا آذن فجر الاسلام بالانبلاج كانت الثارات الدموية قد تعددت إلى درجة بعيدة ، حتى لقد صار الفرد لا يكاد يجرأ على مغادرة منطقته المحصنة من غيز أن يعرض نفسه لأشد الأخطار (٣) .

سورية والأنباط

أما في الشمال ، في بادية الشام ، فقد خضع العرب لتيارات السياسية العالمية قبل اخوانهم عرب الجزيرة ، بزمن طويل (٤) . فمنذ عهد الملك الاشوري تغلاثفالاسر الثالث (٧٤٥ — ٧٢٨ ق . م) . كان للعرب هناك

---

(٢) انظر لامنس **H. Lammens, La République marchandise de la Mecque vers l'an 600 de notre ère, Bull. de l'Inst. Egypt. 5 série, t. 4, p. 23-54 ; La Mecque à la veille de l'Hégire, Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth, 1924 ; La cité arabe de Taif à la veille de de l'Hégire, 1922.**

(٣) انظر ولهاوزن ؛ **J. Wellhausen, Medina vor dem Islam Skizzen und Vorarbeiten, 4 Heft, I, Berlin, 1889.**

(٤) انظر هـ. ديسو **H. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant l'islamisme, Paris, 1907.**

مملكة عاصمتها الجَوف تعاقبت على عرشها الملِكات ، وظلت خاضعة لنفوذ اشور حتى عهد اسرحدّون (٦٨١ – ٦٦٩ ق . م) . ليس هذا فقط ، بل لقد جعل الملك البابلي نبونايدس (٥٥٦ – ٥٣٩ ق . م) . مقره فترة من الزمان في واحة تيماء التي كانت قاعدة لحملاته على الغرب . ولقد وُجد في تلك الواحة نقشٌ آرامي يرجع الى العهد الفارسي ، يدل على النظام الديني في تلك المدينة وما ينطوي عليه من كهنة وهيا كل وآلهة خاصة بكل منها . وفي عهد الاخيمينيين المتأخرين نشأت دولة الأنباط ، التي سيطرت خلال العهد الهيليني على تجارة القوافل الناشطة بين بلاد العرب الجنوبية والمدينة ، والتي احتفظت باستقلالها ، بسبب من تقاعس خلفاء الاسكندر الكبير عن العمل لتحقيق مشروعه الأخير القاضي بالاستيلاء على بلاد العرب بحراً ، من جهتي الشرق والغرب في وقت واحد . وكانت عاصمتهم سَلع أو البتراء ، وهي قلعة جبلية تقع على منتصف الطريق تقريباً بين البحر الميت ورأس الخليج العربي . ولا تزال آثار سَلع الهامة والكتابات المختلفة التي نُقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة إلى اليوم على ما كان لها من حضارة زاهية . ولقد اصطنع الأنباط في هذه النقوش اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية ، حتى في ظل الأخيمينيين . واقتبسوا ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين من الدول الهيلينية المجاورة . فلما كان عهد الرومان لم يتعرض اباطرتهم لاستقلال الانباط بوصفهم حلفاء لهم ، وظلت الحال كذلك حتى عهد ترايان . وإذ كان الانباط قد وقفوا قبل ذلك موقفاً غامضاً إبان الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، فقد قضى الرومان على استقلال سَلع سنة ١٠٦م ، وضموها إلى امبراطوريتهم ، فعُرفت عندهم باسم « المقاطعة العربيه » . ولقد فُصلت المقاطعات المتحضرة عن الصحراء بسلسلة من الحصون كانت أقل مناعة على كل حال من السور المحصن الذي قام في الشمال بين الراين

الدانوب (٥). وفي بادىء الامر تحوّلت تجارة سَلَع إلى بُصرى ، ومن وهناك كانت القوافل تنطلق نحو قِنّسرين، جنوبي لبنان ، وحمص ، والرّهاء ، والحَضْر في اتجاه الشمال والشرق.

تدمر

وكانت تدمر التي خلّفت دولة الأنباط اسعد حظاً من سابقتها . وكانت السيادة فيها للعرب ، على الرغم من ان الآراميين المتأثرين بالحضارة الاغريقية كانوا يؤلفون أغلبية السكان فيها . وفي أثناء الحروب التي دارت بين رومة والبارثيين التزمت تدمر الحياد ، فكانت خطة حكيمة زادت في قوتها ومنعتها . وهكذا استطاعت في عهد اوغسطوس أن تعزّز مركزها الاقتصادي . فأنشأت علاقات تجارية مع كثير من البلدان النائية كرومة ، وداسية ، وبلاد الغال (فرنسة) . واسبانية . والواقع ان تدمر حظيت بعطف خاص من اسرة سفيروس الامبراطورية التي كانت نصف ساميّة . وفي عهد الامبراطور الكسندر سفيروس قويت اسرة يوليوس اوريليانس سبتيموس وتعاظم بأسها هناك . وابتداء من سنة ٢٦٠ م ، خاضت تدمر حروباً ناجحة ضد الفرس ، مكّنت مَلكها أُذَينة ، من بسط سلطانه على سوريا كلها . ليس هذا فحسب ، بل لقد اعترف الامبراطور الروماني الضعيف غلّيينس بأذينة امبراطوراً على المشرق . ولما توفي أذينة عام ٢٦٨ تولت امرأته زنوبيا ، زمام الحكم من بعده ، وظلت تُصرّف شؤون المملكة حتى سنة ٢٧٣ ، عندما دمّر الامبراطور اورليانوس مدينة تدمر . وليس من شك في ان نهاية زنوبيا الفاجعة قد خلّفت في نفوس عرب الصحراء آثاراً بعيدة الغور . وفي

---

(٥) تجدر الإشارة هنا إلى أن الكلمات القليلة التي اقتبستها العربية عن اللاتينية ترجع كلها إلى أصل عسكري : فكلمة « **Strata** » (التي تقابل كلمة « **Street** » أي شارع في اللغة الانكليزية) هي الأصل للكلمة العربية « الصراط » ؛ وكلمة « **castra** » هي الأصل لكلمة « قصر » العربية (ومنها **Alcazar** الإسبانية) ، وكلمة « **Balatium** » (**Pfalz** في الألمانية) هي الأصل لكلمة « بلد » العربية .

الحق ان سيرة الملكة زنوبيا كانت لا تزال تروى في عصور الاسلام الأولى ، بعد أن تباعدت كثيراً عن أساسها التاريخي الصحيح .

دولة الغساسنة

وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال . ومن ذلك الحين صار الرومان ، وخلفاؤهم البيزنطيون . قادرين دائماً على ان يكسبوا عطف بعض العرب ويتخذوهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم في صد غارات البدو على المناطق المتحضرة . والواقع انهم اصطنعوا الغساسنة في الشام ، وكان اليهم حكم المناطق الواقعة شرقي الأردن . وأشهر ملوك هذه الاسرة الحارث الخامس الذي جعله يوستنيانوس بطريقاً (اي قائداً) وأنعم عليه « بالتاج » عام ٥٢٩ م ومنحه السلطة المطلقة على جميع العرب في شمالي سورية . ولكن هذه السلطة العريضة التي كانت للحارث الخامس لم تلبث ان تجزأت بعد وفاته فتوزعتها إمارات صغرى متناثرة . حتى إذا انتصر اباطرة الروم البيزنطيين على الفرس تركوا حكم البلاد الى أهلها . ولم يوفق ملك غساني آخر إلى اخضاع جميع السوريين العرب لسلطته العليا إلاّ قبيل الفتح الاسلامي (٦) .

اللخميون

واتّبع الفرس ، أعداء الرومان التقليديون ، السياسة نفسها نحو العرب . والمفروض ان سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢) نفسه هو الذي عيّن عمرو بن عديّ ، من بني لخْم ، ملكاً على العرب في العراق . ولكن النقوش التي وجدت على قبر امرىء القيس ابنه ، في النمارة ، جنوب شرقي دمشق ، تدل

(٦) انظر نولدكه Th. Noldeke, Die Ghassanischen Fursten aus dem Hause Gafnas, Abh. der Akademie der Wissenschaften, Berlin, 1887. وقد نقل الأستاذان الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزي هذا الكتاب إلى العربية بعنوان « أمراء غسان » . (المعربان)

في الظاهر على ان هذا الملك كان خاضعاً لنفوذ الرومان ، حوالي سنة ٣٢٨ م . أما خلفاؤه فقد جعلوا مقرّهم ، بوصفهم عمالاً للفرس ، في الحيرة الواقعة على نحو عشرة أميال جنوبي بابل الخربة . ولقد كان هؤلاء ابداً على حرب مع الغساسنة الذين استولى ملكهم المنذر على الحيرة حوالي ٥٧٥ م ودمرها . واعتنق اتباعهم المذهب النسطوري المسيحي فترة من الزمان ، في حين تعلقوا هم انفسهم تعلقاً شديداً بمعتقداتهم الوثنية ، فلم يخرج عليها أحدٌ منهم غير النعمان الثالث (٥٨٠ — ٦٠٢ م) الذي اعتنق النصرانية ، ظاهراً على الأقل . ولكن النعمان الثالث هذا ، وهو آخر ملوكهم ، لم يكن سهل القياد ، فضاق الفرس به ذرعاً ، فاستدرجه كسرى الثاني إلى عاصمته المدائن ، وخلعه عن العرش . وما هي إلاّ سنوات حتى ظهرت نتائج هذا الصنيع ، فهاجم ثلاثة آلاف عربي المنطقة الفراتية ، سنة ٦١٠ م ، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة في ذي قار . وليس من شك في ان زوال هذه الرقابة القوية عن الحدود قد يسّر الفتح الاسلامي لتلك البلاد أيضاً في ما بعد .

الوثنية العربية

وكانت الحياة الدينية عند العرب ، كحياتهم السياسية ، في مستوى بدائي إلى أبعد الحدود (٧) . فلقد اعتقد العرب (الجاهليون) كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة الدُنيا ، ان الطبيعة من حولهم مشحونة بقوى أعظم من قوى الانسان ، ولكن بالأمكان تسخيرها لخدمته بطرائق خاصة . حتى إذا ارتقى المستوى الديني عند العرب بعض الشيء ، تمثّلوا هذه القوى روحاً بشرية ، ذات طاقات خطيرة ، فأصبحت في عُرفهم شياطين . والواقع أن الساميين اعتبروا الاشجارَ ، والكهوف ، والينابيع ، والحجارة العراض ، على الخصوص ، مأهولة بالأرواح . ومن هنا قدّس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في

---

(٧) انظر ولهاوزن : **J. Wellhausen, Reste arabsichen Heidentums, 2, ed. Berlin, 1897.**

سَلْع وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدّس المسلمون الحجر الاسود * القائم في زاوية من الكعبة ، في مكة . ولكن هذه العفاريت لم تكن تحظى عندهم بصفة القداسة إلا بعد أن تصرّح بأسمائها للبشر ، على ما فَعَلَ يهوه أمامَ يعقوب في حُلمه ببيت إيل . حتى إذا صرّح أحد هذه الشياطين باسمه أمسى في الامكان اللجوء اليه لجوءاً ذا غَنَاء . ومن طريق الشعائر الدينية ، التي تؤلف التضحية نواتَها ، ارتبطت الآلهة برباط دموي مع القبائل المقدّسة لها ، وأصبحت بمثابة الحامي الذي تلوذ به القبيلة ، بل بمثابة جدّها وسيدها الأعلى ، وبذلك لم يعد من الميسور تحقيق أصلها الأول بعد أن اضطربت الانساب واختلطت على هذا النحو . وكانت كل قبيلة تتعبّد لالهها الخاص ، ولكنها كانت تعترف في الوقت نفسه بسلطان آلهة القبائل الأخرى في مناطقها الخاصة . ومهما يكن من أمر ، فلم تكن الصلة بين القبيلة ، عند العرب ، وبين إلهها وثيقةً جداً كما كانت الصلة عند بني إسرائيل مثلاً ، بين يهوه وشعبه . ولقد كانت بعض العشائر تتخذ أحياناً أسماء آلهة غير التي تدين لها القبيلة ، كما كانت بعض القبائل تشترك أحياناً في عبادة إله واحد . وكانت للآلهة مقامات ثابتة ، حتى إذا ارتحلت القبيلة ، قامت بخدمة المقام وعبادة آلهـةِ القبيلةُ التي تحلّ محلها . وقد جرت العادة ان تزور القبيلةُ المرتحلة المقام مرّة أو مرتين في العام ، أيام الاعياد .

ولقد حظيت بعض الأماكن المقدسة بشهرة خاصة . فكانت القبائل المختلفة تحجّ إلى عكاظ ، مثلاً ، وإلى مكة من مطارحَ نائية . وكان السلام

(*) إن استلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي لا إلى تقديس الحجر نفسه . لما أعاد القرشيون بناء الكعبة اختلفوا على من يعيد الحجر الأسود إلى مكانه . ومر محمد قبل البعثة فدعوه إلى الفصل بينهم ، فأمر أربعة من رؤسائهم بأن يأتوا برداء ، ثم وضع الحجر بيده في وسط الرداء فحمله أربعة من رؤسائهم إلى قرب الكعبة ، ورفعه هو بيده ووضعه مكانه . ولقد وقف عمر بن الخطاب يوماً أمام هذا الحجر الأسود وقال : « اني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . فقيمة الحجر الأسود تاريخية لا دينية ، لأن تقديس الحجر مناقض لحقيقة التوحيد في الإسلام . (ع. ف.)

الالهي يخيم على الصحراء في الاعياد الدينية (المواسم) فيكفّ الناس عن القتال والحرب . والواقع ان الأسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ، ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الروحي بالاضافة إلى البضائع والعروض المادية . وإلى هذه الأسواق ، وبالتالي إلى الدين بصورة غير مباشرة ، يعود معظم الفضل في توحيد نظرة العرب الجاهليين ، إلى العالم ، وصهر عاداتهم ومفاهيم الشرف عندهم في بوتقة واحدة ، ومنحهم لغة شعرية مركّزة تسمو على جميع اللهجات وتستغرقها .

وثمة آلهات ثلاث استطاعت أن ترتفع بنفسها ، بصورة خاصة ، عن مرتبة الشياطين الدنيا . الأولى ، ، إلاهة القضاء والقدر ، التي تقابل إلاهة الحظّ المخلّص **Tyche Soteira** عند الأغريق ، وكانت معروفة في مكة ، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة . والثانية اللات ، اي « الالاهة » التي كانت تعرف في الطائف بـ « الرّبة » اي « السيدة » والتي شبّهها هيرودوتس بالاهة الفلك **Urania** . وهي تقابل الأم الكبرى للآلهة ، عشتروت ، عند الساميين الشماليين . أما الثالثة العزّى ، أي « الكلية القدرة والعزّة » ، فلم تكن غير شكل آخر للالاهة الثانية ، اللات ، وكانوا يعبدونها في صورة الكوكب السماوي ، الزهرة (فينوس) .

وبالاضافة الى جميع هذه الآلهة اعتقد العرب (القدماء) ككثير غيرهم من الشعوب البدائية ، باله هو خالق الكون . هذا الاله هو « الله » الذي لم ينقل العرب فكرته عن اليهود والنصارى ، كما يظن كثيرٌ من الباحثين. وليس من شك في أن العرب كانوا في أول الأمر يؤدون الشعائر الدينية إلى تلك الآلهة التي كانت أقرب اليهم من الله ، رب العالمين العظيم . حتى إذا أوشك فجر الاسلام أن يبزغ لم تبقَ هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الديني بكامله . وهكذا انحطّ شأن هده العبادة وانحطّت دلالتها ، انحطاطاً متواصلاً كان يرافقه ابداً تعاظمٌ في أهمية الشعور الديني العام القائم على أساس الايمان بالله . وفي مكة أخذ « الله » يحتل شيئاً فشيئاً محل هبل ،

الاله القمري القديم ، كرب للكعبة .ولهذا السبب لم يتردد أحد الشعراء المسيحيين في الحيرة ، وهو عَدِيّ بن زيد ، في ان يدعوه ، بعد المسيح ، شاهداً على قسَم ٍ . وكان الله هو حامي العقود ، بالرغم من أن الخلافات الناشبة عليها كانت تُسوّى في أحد الأماكن المقدسة ، في رعاية أحد الأصنام أو الاوثان . وكان يُعتبر بصورة خاصة وليّ الضيوف الغرباء ، وإن قُدّمت واجبات الفرد نحو قريبه على واجباته نحوه (أي نحو الله) . والبدوي يعتبر القضاء المحتومَ ارادةَ الله الثابتة التي لا مُبدّل لها . والواقع ان هذا الاعتقاد بالقضاء لم يكن ليُدخل في رُوع العربي الخورَ والضعف ، ولكنه كان يحفزُه على بلوغ أهدافه من غير مساعدة عُلوية ، ويحمله بالاضافة إلى ذلك على التقليل من أهمية الجهود البشرية كلّها ، على ما تنطق به هذه الأبيات لأمرىء القيس (الذي قضى أيامه في محاولات متطاولة عابثة ايدته فيها الدولة البيزنطية بسبيل استعادة السلطة التي كان جدّه قد حققها لأسرته ، كِنْدة ، على قبائل بلاد العرب الشمالية) :

أرانا مُوضِعينَ لأمْرِ غَيْبٍ ... وَنُسْحَرُ بالطّعام وبالشراب
عصافيرٌ وذِبّانٌ ودودٌ ... وأجرأ من مُجَلّحةِ الذئاب
إلى عِرقِ الثرى وَشَجتْ عروقي ... وهذا الموتُ يسلُبُني شبابي
ونَفْسي سوف يَسلُبُني وجِرمي ... فيُلْحقني وشيكاً بالتراب
وقد طوّفتُ في الآفاق حتى ... رَضيتُ من الغنيمةِ بالإياب
أبعدَ الحارثِ الملكِ ابن عمرو ... وبعدَ الخيرِ حُجرٍ ذي القباب
أُرَجّي من صُروف الدهر ليناً ... ولم تَغْفُلْ عن الصمّ الهضاب
وأعلَمُ أنني عمّا قليلٍ ... سأنشبُ في شبا ظُفُرٍ وناب
كما لاقى أبي حُجْرٌ وجَدّي ... ولا أنسى قتيلاً بالكُلاب

اليهودية والنصرانية

ولقد ساعدت الأديان السماوية ، التي كان لها منذ زمن طويل أنصار

وأتباع في بلاد العرب ، على استعجال هذا التفسخ في الوثنية العربية واستفحاله. ففي جنوب الجزيرة بلغت اليهودية ، في فترة من الزمان ، كما ذكرنا آنفاً ، مبلغاً من القوة ظهرت آثاره في اعتناق الحكام لها ، واضطهادهم المسيحيين المنهمكين في النضال ضدّها . ومنذ القرن الاول بعد الميلاد واليهود يهاجرون الى الواحات الواقعة في الشمال الغربي ، إلى تيماء ، وخيبر ، ويثرب ، وفَدَك ، ليصبحوا فيها من ذوي الثراء . صحيحٌ أنها انكمشوا على أنفسهم في أحياء منعزلة ، ولكنهم استطاعوا من غير شك أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم ، وان يُذيبوهم في بوتقتهم . وكانوا يتكلمون اللغة نفسها التي يتخاطب بها السكان . وعلى الرغم من شدّة الحاجة إلى خدماتهم ، كفلاحين وتجار وصاغة ، فقد كان البدو لا يثقون بهم . ومن هنا لم تستطع اليهودية أن تؤثر في حياة العرب الدينية تأثيراً أكبر من الذي كان لها في الواقع .

أما النصرانية فتأتّت للعرب ، الذين يمتازون بحساسيتهم البالغة للانطباعات الخارجية ، من طريق مغايرة كل المغايرة . فقد كان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالآراميين الذين استوطنوا تلك الديار ، والذين لوّنت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلويناً تامّاً . والواقع أن النصرانية تمتّعت في ظلّ الامبراطورية الرومانية بقوّة اجتذاب عظيمة ، لمجرد كونها دين الدولة الرسمي . ومع ذلك فقد انضوت الأسرة اللخمية ، العاملة في الحيرة لخدمة الفرس ، آخر الأمر ، تحت لواء المسيحية ، مُعتقد أتباعها الحضريين . وليس من شك في أن بلاد العرب الداخلية ، وبخاصة مدن الحجاز التجارية ، لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها ، بسبب من اتصالها الدائم بقبائل الشمال . وليس من شك أيضاً في ان الرهبان الذين انتثرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء ، كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية . أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية ، فكان طبيعياً أن تكون أقدرَ على النجاح في نشر تعاليمها من كنيسة الدولة الرسمية .

والعرب كما أشرنا سابقاً مدينون بأحساسهم أنهم يؤلّفون أمةً واحدة ، على الرغم من اختلافاتهم القبلية ، لموهبتهم الروحية العامة في الدرجة الأولى ، أعني للشعر الذي ترعرع عندهم وازدهر في رعاية الدين ، الى حدّ ما. فأغلبُ الظنّ أن الشعر عند العرب قد ارتبط ، منذ نشأته الأولى بالدين. وليس من شك في أنه وجد حافزه الأول في غريزة اللهو ، وفي المتعة التي كان يجدها الانسان البدائي في الصوت والأيقاع ، فتساعده على احتمال أعباء الحياة ؛ ولا يبعد أن يكون الحُداء ، عند البدو ، قد نتج عن وَخْد الأبل. ولكنّ الكلمة الملفوظة لفظاً مَهيباً استطاعت في الوقت نفسه أن تضمن للانسان البدائي الحصول على التأثير المقصود بواسطة قواه الخاصة. ليس غير. وبهذه الطريقة ساعد فنّ البلاغة القديم على خدمة السحر ، الذي لم يكن يتعارض في هذا الطور من أطوار الحياة الفكرية مع الدين. وفي أوقات الحرب بخاصّة ، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة ، كما طلب باراق من بلعام. حتى إذا ضعف الايمان بقوّة اللعنة السحرية تطوّرت إلى القصيدة الهجائية ، وانتقلت من دائرة التناحر بين القبائل إلى دائرة التشاحن بين الأشخاص ، لتنتهي آخر الأمر ، بوصفها سلاحاً مخوفاً ، إلى أن تتبذّل فتصبح مورد رزق لشاعر لا يخشى الفضيحة والتهديد. كذلك لم يمثّل الحب الجنسيّ في الشعر العربي ، كما هو الحال عند الشعوب البدائية جداً ، إلا دوراً ثانوياً. ذلك أن الشاعر الجاهلي كان يصطنعه ، في الشعر الفني الذي لم يُحفظ لنا غيره ، كمقدمة للغرض الذي يقصد اليه ، وهو التمدّح بنفسه ، أو الاشادة بمحامد قبيلته ، أو مدح سيّده أو أميره ، إذا كان شاعراً محترفاً. وإنما كانت هذه القصائد ، كما يدعونها ، تجري على سَنَنٍ تقليدي مرسوم. كان الشاعر يستهل قصيدته بالحنين إلى أيامه الصالحة التي سعد فيها بالحب ؛ وقبل أن يبلغ غرضه الحقيقي كان يعمد إلى إمتاع سامعيه بأبيات في وصف الطبيعة. والحق ان

العرب قد وُفقوا إلى الابداع في وصف الصحراء وحيواناتها النموذجية، كالجمل الذي اتصلت حياتهم به اتصالاً وثيقاً . ولكن هذه اللوحات التصويرية المبدعة نفسها ، لم تعتمد على الملاحظة الشخصية أيضاً، بل أفرغت في قوالبَ تحدرت إلى الشعراء من الأجيال القديمة . ومن هنا لم يُفسح هذا الفنّ مجالاً واسعاً أمام الشعراء لأظهار شخصياتهم إلا في القليل النادر حيث تكون المفارقة صريحة جداً . (ومن افضل الأمثلة على ذلك) امرؤ القيس الشاعر ، الملك الضِلّيل ، الذي سبق لآبائه من كندة العشيرة العربية اليمانية ، ان وحدوا القبائل البدوية الشديدة الشكيمة في الشمال ، عند بداءة القرن السادس ، ووجهوها في غزوات مُخربة على الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، والذي انفق عُمرَهُ في السعي لاسترداد مجد اسرته هذه إلى أن مات آخر الأمر مسموماً ، كضيف للامبراطور البيزنطي ، في أنقرة بآسية الصغرى ؛ وزهير شاعر الحكمة العملية الجامعة ؛ والاعشى المُنشد المحترف، الذي قاده تَطوافه في سبيل التكسب إلى جنوبي بلاد العرب . ولم يكن اصطناع اللغة العامة للتعبير الشعري وقفاً على الشعراء الفنيين وحدهم ، فقد شاركهم في ذلك رعاة هُذَيل الذين كانوا يضربون خيامهم قرب مكة ، فاصطنعوا في أشعارهم لغةً تختلف اختلافاً بيناً عن لغة التخاطب اليومية ، على الرغم من استمدادها من جميع اللهجات ، وفَهْم العرب لها في كل مكان . ويبدو ان هذه اللغة الغنائية ، أو الشعرية ، التي نجد مثيلها عند كثير من الشعوب البدائية ، لم تَسُدْ في نجد والحجاز فقط ، بل امتدّت سيادتها إلى قلب البلاد العراقية أيضاً . ثم انها صارت امّ العربية الفصحى التي جعلها الاسلام لغةً عالميةً في الشرق الأدنى ، وعلى طول الساحل الجنوبي من البحر المتوسط بكامله .

محمّد الرسول

تقع مكة ، البلد الذي ولد فيه النبي العربي (والذي دعاه بطليموس « ماكورابا »، ولعلّ مردّ ذلك إلى كلمة « مِقْرب » العربية الجنوبية ، ومعناها « الهيكل ») * في الحجاز في وادٍ صخريّ غير ذي زرع يمتد من الشمال إلى الجنوب بين جبل ابي قُبَيسٍ في الشرق ، وجبل الهندي في الغرب . وفي وسط مكة تقوم الكعبة . وهي بناء ذو أربع زوايا (يبلغ ارتفاعه اليوم بعد مختلف التجديدات التي تعاقبت عليه ١٦ يردة ونصف) يحتضن في احداها الحجر الاسود ، ولعله أقدم وثن عُبد في تلك الديار ، على ارتفاع ٥٨ إنشاً ونصف عن سطح الأرض . وكانت الكعبة تضمّ تمثال الاله القمريّ هُبَل ، بالاضافة إلى الآلهة الثلاث المعبودة ، اللاّت والعزّى ومَناة . وفي فِناء الهيكل تدفقت مياه بئر زمزم المشهورة ، التي نشأت حولها البلدة على التحقيق . وكانت هذه الرقعة من الأرض تُعتبر ، قبل محمد أيضاً ،

(*) إن بروكلمان ثقة في اللغات السامية . ولكني أعرض على القارىء تفسيراً آخر ألصق فيما أرى بالحقيقة . لقد سمى القرآن الكريم مكة « مكة وبكة » . وبكة هي الوادي ومكة لغة (صيغة) أخرى ، ومنه البقاع وبعلبك (وادي بعل) . وهذا أدل على مركز مكة ، لأن مكة في واد غير ذي زرع كما وصفها القرآن الكريم . ثم إن « ماكورابا » (أو على الأصح ماكارابا — حسب اللهجة الآرامية الشرقية لا السريانية الغربيـــة) يصح ان تعني الوادي العظيم أو وادي الرب . ولعل بطليموس أخذ الاسم من طريق الآراميين (ع. ف) .

حـَرَماً مقدساً . وكانت السلطة في مكة لقبيلة قريش . وأعظم بيوتها مخزوم وأميّة . وإنما قامت ثروتها على التجارة ، ذات الصلة الوثيقة بالحج إلى الكعبة ، وإلى جبل عرفات المجاور . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت مكة ملتقى القوافل التجارية الضاربة بين بلاد العرب الجنوبية وسورية . فكان السلام العام يخيم مرتين في العام ، (الأولى في رجب سابع الأشهر العربية ، والثانية ابتداء من الشهر الحادي عشر حتّى (ختام) الشهر الأول من السنة الجديدة ، أي طوال ذي القعدة وذي الحجة والمحرّم) على المدن وعلى شمالي الجزيرة بكامله حتّى يكون في ميسور القوافل المجهزة في مكة أن تبلغ الأمصار التي تقصد اليها في سلامة وأمن .

شباب النبي

لسنا نعلم علمَ اليقين السنة التي ولد فيها النبي . والمشهور ان ولادته كانت حوالى سنة ٥٧٠ ، ولكن الذي لا شك فيه انها متأخرة عن ذلك بعض (٨) الشيء . * وليس يبدو ان عشيرته . هاشم ، قد لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكة . والواقع أن الروايات الاسلامية قد سعت إلى أن تحيط النبي بهالة من التمجيد منذ اللحظة الأولى ، ولكن هذا لا ينفي حقيقة مقررة ، وهي أن اسرته كانت تعاني في الحقبة التي وُلد فيها ظروفاً قاسية جداً . والمعتقد ان والده ، عبدالله بن عبدالمطلب ، كان تاجراً صغيراً ، مات في رحلة تجارية

---

(٨) أنظر لامنس ؛ H. Lammens, L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sira, **Journal Asiatique**, série X, t 17. p. 209 - 250.

(*) كانت ولادة محمد رسول الله عام ٥٧٠ — ٥٧١ للميلاد على وجه التقريب ولكن لم تكن بعد ذلك بزمن طويل . والأب هنري لامنس اليسوعي قد حاول أن يؤخر ذلك عشر سنوات حتى ينقض القول الشرعي الذي يقول إن محمداً بعث على رأس الأربعين من عمره ، ويخرج إلى القول إنه ما دام الأنبياء يبعثون على رأس الأربعين ومحمد قد صدع بالدعوة على رأس الثلاثين فمحمد ليس نبياً . ولامنس غير ثقة في البحوث الإسلامية لأن غايته الدس لا البحث عن الحقيقة . ويلام بروكلمان على الأخذ برأي لامنس ، فلامنس معروف في أوروبة بهذه النزعة . (ع. ف.)

إلى المدينة ، قبل ولادة النبي بشهرين . وبعد سنوات قليلة ماتت عن محمد أمه ، آمنة الزهرية ، أيضاً ، فنشأ يتيماً في كنف جده عبد المطلب ، ثم في كنف عمه ابي طالب . ولسنا نملك بيّنة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى إلا هذه الآيات القرآنية من سورة الضحى (٩٣ : ٦ — ١١) :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

زواجه

وعندما شبّ محمد عمل في تجارة لخديجة ، وهي ثيّبٌ غنية ، كانت تستقلّ بتجارة ورثتها عن زوجيها السالفين . ذلك بأن نساء العرب في الجاهلية ، والمستقلات منهنّ اقتصادياً بصورة خاصة ، كنّ يتمتعن بحرية أوسع بكثير من التي تمتع بها النساء في العهود التوالي . ويظهر ان محمداً قد رافق ، في هذا الدور ، بعض القوافل المكية إلى الجنوب ، وربما إلى بصرى التي كانت ، بوصفها القلعة البيزنطية الرئيسية في المنطقة الواقعة شرقي الأردن ، مركزاً من مراكز تجارة القمح . فأظهر حتى في تلك السنّ المبكرة مواهب عالية . ومهما يكن من شيء فقد شعرت خديجه نحوه بتعلق شديد ، على الرغم من انها كانت تكبره بخمس عشرة سنة تقريباً ، فعرضت عليه الزواج منها ، فقبل . والذي يبدو ان هذا الزواج لم يضمن له حاجاته المادية فحسب . بل حمل اليه الارتياح من نواح أخرى أيضاً . ولقد وُلد لمحمد من خديجة أربع بنات ، وصبيّان لم يلبثا أن تُوفيا في سنّ الطفولة . وليس من شك في أنه انصرف بُعيد زواجه إلى تحقيق مشروعات زوجه التجارية في حماسة وعزم ، كما لم يُنكر في مراحل حياته التالية ، أنه كان تاجراً . وكان مُولعاً في حديثه المجازيّ بالصور والاستعارات التجارية .

وأغلب الظن أن محمداً قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكّرة جداً . وهو أمر لم يكن مستغرباً عند أصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصّرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمأهم الروحي . وتذهب الروايات إلى انه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والانجيل هزيلة إلى حدّ بعيد * ومع الأيام أخذ الايمان بالله يعمر قلبه ويملك عليه نفسه ، فيتجلى له فراغ الآلهة الأخرى . ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله . ولقد أشار اليهنّ في احدى الآيات الموحاة اليه بقوله : « تلك الغرانيق (٩) العُلى وإن شفاعتهنّ تُرتضى » .

أما بعد ذلك حين قوي شعور النبي بالوحدانية فلم يعترف بغير الملائكة

(*) أكثر المبشرين والمستشرقين يذكرون ان الرسول اتصل ببعض النصارى واليهود وأخذ عنهم عدداً من المعلومات الدينية والتاريخية . ثم هم يذكرون ان هذه المعلومات كانت خاطئة أو ناقصة . أما وجه الحق فخلاف ذلك . إلا أنني لا أريد أن أرد هنا على المبشرين والمستشرقين مفنداً جميع أقوالهم فذلك مما يطول ، وبما اشتغل به نفر من العلماء أيضاً كالشيخ محمد عبده . ولكني أقول ان العرب أنفسهم قالوا للرسول إن ما في القرآن يشبه بعض ما يقوله علماء اليهود ، فنزلت الآيات الكريمة (٢٦ : ١٩٢ - ١٩٧) :« وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر (كتب) الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني إسرائيل ؟ » فالخلاف إذن لا يتناول ان بعض المعلومات التي في القرآن تشبه بعض المعلومات التي في التوراة ، بل في زعم هؤلاء بأن القرآن فهم هذه المعلومات فهماً خاطئاً في رأيهم أو أخذها من مصادر غير موثوقة . فالقضية كانت من العرب الأولين ومن المستشرقين اليوم قضية تعصب فقط . (ع. ف.)

(٩) الغرنوق في الواقع « مالك الحزين » الأبيض . ولعل معرفة غامضة قد اتصلت بالنبي عن الطائر المقدس عند المصريين ، العنقاء ، أو مالك الحزين الكدري ، قابل : S Hess in **Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft,** 69 (1915) pp. 385-8.

شفعاء عند الله ، وجاءت السورة الثالثة والخمسون وفيها إنكار لأن تكون الآلهة الثلاث بنات الله . ولم يستطع التقليد المتأخر أن يعتبر ذلك التسليم الا تحولاً أغراه به الشيطان ، ولذلك ارجئت حوادثه إلى أشد أوقات النبي ضيقاً في مكة ، ثم ما لبث أن أنكره وتبرأ منه في اليوم التالي * .

(*) الكلام في هذا الموضوع كثير ، وجله خارج عن الحقيقة. وخلاصة الموضوع توجز في ما يلي :

زعم قوم من الرواة ان الرسول قرأ يوماً في سورة النجم (السورة ٥٣) : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » (الآيتان ١٩ — ٢٠) ثم قرأ بعدها : « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى . »

وأمسك المبشرون وبعض المستشرقين بهذه الرواية وزعموا ان الرسول إنما فعل ذلك لما قاومه مشركو مكة ، فأحب ان يتقرب منهم فمدح آلهتهم ثم عدوا عمله هذا تراجعاً عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الأصنام .

ولقد وجدت ان أحسن رد على هذه الفرية ما ذكره العالم الهندي المشهور مولانا محمد علي :
(The Holy Qur'an, second edition) Lahore, 1920, p. 1016, note 2382.
قال إن هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري ، ومع ذلك فانها لا ظل لها من الحقيقة ، فان كل عمل من أعمال رسول الله مناقض لمثل هذا الاتجاه . أضف إلى ذلك أن الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات . وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة .

على اننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحق أو إلى صحيح البخاري وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول شيئاً إلا ذكره لم نر لقصة الغرانيق أثراً . وابن إسحق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة أو تزيد . أما البخاري فقد كان معاصراً للواقدي ، ومع ذلك لم يذكر هذه القصة . ثم ان الواقدي معروف عند المحدثين بأنه يضع الأحاديث وانه غير ثقة فيما يروي ، وكذلك لم يذكرها أحد من رواة الحديث .

وإذا عدنا إلى قراءة الآيات نفسها بالتسلسل وجدناها : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى (جائرة) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . »

فليس من المعقول ان تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية وصلب دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهنالك تفاصيل كثيرة في نقض هذه الرواية لا جدوى من ذكرها هنا . (ع. ف)

ولكن بينما كان بعض معاصري النبي ، كأمية بن ابي الصلت شاعر الطائف ، وهي بلدة بحذاء مكة ، يكتفون بوحدانية عامة ، كان محمد يأخذ بأسباب التحنث والتنسك ، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي ، ليالي بطولها في غارْ حراء ، قرب مكة . لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة ، فكان يضجّ في أعماق نفسه هذا السؤال : إلى متى يمدّهم الله في ضلالهم ، ما دام هو عزّ وجلّ قد تجلّى ، آخر الأمر ، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه ؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة انه مدعوّ إلى اداء هذه الرسالة ، رسالة النبوّة * ولكنّ حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدّد شكوكه إلا بعد أن خضع لاحدى الخبرات الخارقة في غار حراء . ذلك بأن طائفاً تجلى له هناك يوماً ، هو الملك جبريل ، على ما تمثله محمد في ما بعد ، فأوحى اليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة . وآمنت زوجه ، في الحال ، برسالته المقدسة ، وتحرّر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكرّرت الحالات التي ناداه فيها الصوت الالهي وتكاثرت . ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ما ظن انه قد سمعه ، كوحي من عند الله ** ولكن ذلك لم يثر ، أول الأمر ، اهتماماً كبيراً بين مواطنيه ولم يلهب أحاسيسهم ومشاعرهم . فقد كانوا متعوّدين أن يظهر في كل قبيلة تقريباً ، كما يظهر الشاعر ، « كاهن » يستطيع أن يعزو أحكامه فيما يتعلق بالخلافات والمشكلات الغامضة (من قتل وسرقة ، أو شرود إبلٍ وضياعها) المعروضة عليه ،

(*) إن المستشرقين ينظرون إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نظرة عادية مجردة من الصوت الإلهي . وما ذلك إلا من قبيل التعصب الديني المبني على عداء سياسي إنهم ينكرون ان يكون « محمد » ذا نبوة صحيحة بينما هم يقرون بهذه النبوة نفسها لجميع أنبياء بني إسرائيل . ونحن في هذه الأمور لا نغمض أعيننا عن آرائهم ، ولكننا نفند الفاسد منها وندل على موضع التحامل فيها ، ليعرف القارىء ما يجب ان يدع مما يجب ان يأخذ . (ع. ف)

(**) هذه الفكرة « ظن انه قد سمعه » ترد عند الكتاب الغربيين كنتيجة لرأيهم المبسوط في الحاشية السابقة . وهم في ذلك مخطئون خطأ مبنياً على التعصب فقط ، ذلك لأننا لو حملناهم على الدليل العقلي في شأن الأنبياء جميعاً لكان تعبيرهم هذا خارجاً على الأدب في حق « محمد » وخارجاً على العلم أيضاً . (ع. ف)

إلى « صاحب » له غيبيّ ، وان يذيعها في الناس نثراً مسجوعاً ، كما فعل النبي فيما نُزّل عليه من وحي * ومن هنا كان على محمد ان يحتاط مرة بعد مرة ، من أن يضعه مواطنوه في مصفّ هؤلاء الكهان ومرتبتهم .

وكان في صُلب الآيات الأولى الموحاة إلى محمد توقعٌ ليوم حساب يُبعث فيه كل فرد على حدة ، فيجازى بما قدّمت يداه . ولقد خشي هو نفسه هذا اليوم ، كما خشيه المسيحيون الأولون . وكما كان أتباع الفرق المسيحية في عصره لا يزالون يخشونه ، في أغلب الظن . ولم يتكلم إلا في ما بعد ، عن يوم حساب شامل ينتظم أفرادَ شعبه جميعاً ؛ ويمحو اعداء الله واعداءه عن وجه الأرض ، معارضاً هذه الصور المخوفة ، بصور مقابلة تمثل نعيم الفردوس ومباهجه في ألوان زاهية . والواقع ان المعتقدات الفارسية لزمته ، كما لزمت المسيحيين الآراميين . وبالمناسبة نذكر ان احد التماثيل المنحوتة في تدمر يمثل الموتى وهم يتناولون الطعام في ثياب العيد .

وإنما يظهر هذا السمو الروحي الذي عرفه النبي في تلك السنوات الأولى من بعثته في اسلوب الآيات نفسه ، فهي زاخرة بالصور الرائعة ، عابقة بالنفس الخطابي الذي يضج بين جنباته التناغم الموسيقي ، والاحساس الشعري الأصيل . ثم إنها كانت ، كنفثات الكهان الوثنيين ، قصيرة جداً ، في العادة ، ومقدّماً لها بصيغ قَسَمية غير مألوفة .

المؤمنون السابقون

واقتفى أثر زوجة محمد وبناته ، في الايمان برسالته، ابن عمه عليّ، ومولاه

(*) إن هذه الموازنة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهان موازنة أثارها كفار مكة في أيام محمد نفسه يوم قالوا انه كاهن ، شاعر ، مجنون ، كما ورد ذلك على لسانهم في القرآن الكريم . على ان كل دراسة علمية وتاريخية تدل على خطل هذا الرأي ، لو لجأنا فقط الى نتيجة ما انكشفت عنه الكهانة والى الأثر الذي تركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في العالم .
(ع. ف)

وعتيقه زيد ، وصديقاه ابو بكر وسَعْد بن ابي وقاص . والحق ان ترتيب هؤلاء المؤمنين الصادقين الأولين ، من حيث السّبقُ الى الدخول في الدين الجديد ، أمرٌ مختلفٌ فيه ، وكثيراً ما خَضَع للتقديم والتأخير تَبعاً لاعتبارات سياسية ، في ما بعد (١٠) أما أتباع محمد الآخرون فكانوا في هذه الفترة كلهم ارقّاء وفقراء على الرغم من انه كان أوّلَ الأمر ، في ما يبدو ، على صلات حسنة بالطبقة الحاكمة أيضاً ، تلك الطبقة التي شاركها افتخارَها بالحرَم المقدّس القائم في مكة . والواقع أن هذه الطبقة لم تستشعر الخطر إلا بعدَ أن هاجم النبي الايمان بآلهة آبائه وأجداده . ولقد اعتبرت ان أكثر تَعاليمه كراهية إلى نفسها الاعتقادُ بأنّ الأجساد سوف تُحشر يوم القيامة . وفضلاً عن ذلك فقد كره أفراد هذه الطبقة الحاكمة أن يَروْا إلى محمد ، وهو الذي ينتسب إلى بيت دون بيوتهم مقاماً ، على رأس جماعة تشكّل ، على صغرها ، دولة ضمنَ الدولة . ومن هنا كان عليه أن يدفع كيدَ خصومه في آيات تزايد عنفها مع الأيام ، حتى لقد انتهت إلى أن تُصبح لعنات عليهم . ولقد سمّى عمَّهُ ، ابا لهَب نفسه ، في إحداها .

ودعا محمدٌ أتباعه إلى أن يُقرّوا بوحدانية الله، وإلى أن يُسلموا أمرهم إلى الله ، فعُرِف دينه بالاسلام . ولعله جمع منهم ، في وقت مبكر جداً ، أموال الصدقة ، أو الزكاة ، لتنفق في إعالة المعوزين من أتباعه . ولكن هذا الفرض لم يصبح له شأنه العظيم إلا في المدينة ، في ما بعد . وكان واجب المؤمنين الرئيسي ، الذي يعلنون بواسطته- انتماءهم إلى الجماعة الجديدة ، الصلاة مرتين ، أول الأمر ، ثم ثلاث مرات ، وأخيراً خمس مرات في اليوم الواحد . أما الشعائر الدينية الأخرى كالدعاء إلى الله — وبخاصة في الصلوات الليلية — الذي كان محمد يمارسه في حرارة ، على منوال الزهّاد النصارى ، فكانت تعتبر مسائل خاصة . ولكن الذي لا شك فيه ان هذه

---

(١٠) راجع نولدكه Th. Nôldeke, **Zur tendenziôsen Gestaltung der Urgeschichte des Islams, Z D M G,** 52 (1898), pp. 16-38.

الصلوات كان يقدّم لها ، منذ البدء ، بالوضوء ، الذي كان مألوفاً أيضاً عند بعض الفرق النصرانية *

في غمرة هذا النضال الناصب المخفق ، ضد جحود مواطنيه الارستقراطيين وإنكارهم ، كان محمد يعزّي نفسه بالأنبياء السابقين الذين لم تكن مهمتهم مع أقوامهم أسهل من مهمته . وهكذا نجده ، في عهده الأول ، يكثر من الاشارة الى قصص هؤلاء الأنبياء ، وإلى قصة موسى بخاصة . وليس من شك في ان معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود ، وحافلة بالاخطاء ، وقد يكون مديناً ببعض هذه الأخطاء للاساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ** ، ولكنه مدين بذلك ، ديناً أكبر ، للمعلمين المسيحيين الذين عرّفوه بانجيل الطفولة ، وبحديث أهل الكهف السبعة ، وحديث الاسكندر ، وغيرها من الموضوعات التي تتواتر في كتب العصر الوسيط *** . وكان إلى جانب ذلك قصص عربية كتلك التي تتحدث عن هلاك قبيلة ثمود ، التي قد يكون وضع لها قصة النبي صالح الثانوية ، كملحق ضروري . وههنا ، في هذه القصص ، نجد ان اسلوبه ينزع إلى أن يكون أكثر اسهاباً وأقل توقداً ، كما نجد انه كان يوشّح هذه القصص بمناقشات خطابية تدور على محور اثبات وجود الله بمختلف الدلائل التي تقدمها الطبيعة .

(*) يعلن القرآن الكريم في غير ما آية من آياته ان الإسلام ليس ديناً جديداً كله بل فيه إحياء لفروض جميلة في الأديان السابقة عفى عليها الزمن . ولكن الملاحظ ان تعبير الكتاب الغربيين عن هذا الإحياء يراد منه القول بأن الإسلام « أخذ » ذلك عن الأديان المعاصرة تزيداً واحتياجاً او جمعاً من غير تخير . (ع ف)

(**) *Haggadah* وهي القصص التلمودي المفسر لحوادث التوراة . (المعربان)

(***) القصص في القرآن الكريم للعبرة في الدرجة الأولى وللتاريخ في الدرجة الثانية . من أجل ذلك لم يلجأ القرآن الكريم إلى « تفصيل السرد التاريخي » ولكنه رمى إلى « العظة » من الحوادث فأوجز وأجمل وضرب الأمثال فقط ليحمل البشر على الاعتبار بما أصاب أسلافهم الأقدمين . أما ما يظنه الكتاب الغربيون خطأ في فهم الإسلام لمادة الإنجيل فراجع إلى أن القرآن قد تضمن آراء طوائف مسيحية اضطهدها ملوك النصارى وباباواتهم . (ع. ف)

بيد أن اعداءه ما لبثوا ان تخطوا مرحلة الانكار المجرد لتعاليمه . لقد استشعروا خطر انتشار دينه الجديد على مصالحهم العامة ، فأنشأوا يضطهدون الموالي والمُعْتَقين الذين أظهروا ايمانهم به ، ويسومونهم سوء العذاب أما النبي نفسه فظل في نجوة من ذلك كله ، بفضل حماية عشيرته له . والواقع أن ابا بكر ، صديق محمد ، أنفق في ما يقال جزءاً كبيراً من أمواله في شراء حرية الشهداء ، ولكن امكانياته كانت أعجز من أن تدفع الاهانة عن جميع اخوانه المؤمنين ، ما في ذلك شك . من أجل هذا عزم النبي على أن يقي بعض أتباعه ، على الاقل ، من أذى مضطهديهم ، بواسطة الهجرة . وإذ كان لا يعتبر ، في ذلك الوقت ، ان دينه يختلف اختلافاً كبيراً عن النصرانية فقد وجه أتباعه إلى أراضي النجاشي ، أقرب ممثل سياسي للنصرانية يمكن أن يحتمي به . وكانت لمواطني محمد الوثنيين علاقات ببلاد العرب الجنوبية الخاضعة آنذاك لسلطان الامبراطورية الفارسية . ولكن فارس كانت عدواً قديماً للدول المسيحية . وكان مواطنو محمد المكّيون قد تلقوا نبأ انتصار الفرس على البيزنطيين في سورية ، سنة ٦١٤ ، بالبشر والابتهاج ، في حين أنذر هو الفرس ، في السورة الثلاثين من القرآن ، بأنهم سيُغلبون في بضع سنين . ومن هنا لم يخطىء النبي الحساب عندما افترض أن النجاشي النصراني سيُنزل في حماه أتباعه الهاربين من اضطهاد الوثنيين . والمعروف ان هذه الهجرة كانت في السنة الخامسة من بعثة محمد النبوية ، وانه كان بين المهاجرين — وعدّتهم اثنان وثمانون رجلاً ، وبضع نساء — بنت الرسول رُقيّة وزوجها عثمان ، الذي أصبح في ما بعد الخليفة الثالث .

إسلام عمر

وفي هذه الأثناء ، كان أزر المسلمين الذين تخلفوا في مكة يشتد ويقوى ، بأسلام شخصية جديدة ذات شأن ، أعني عمر بن الخطاب ، الذي ينتسب من

جهة أمه إلى « مخزوم » ، البيت القوي الغني ، والذي احلته سجاياه وفضائله مكاناً علياً في البلدة . والواقع ان هذا الحدث كان له دويّ عظيم بين المكيين ، وقد زاد من خطره ان عمر كان حتى ذلك الوقت من أبرز خصوم محمد وأشدهم عليه . وكان من آثار ذلك ان قرّر المكيون التعويض عن هذه الخسارة باللجوء الى تدابير جديدة أقسى . فقاطعوا محمداً وجميع أتباعه وحاصروهم في الحي الذي يسكنونه في شِعب ابي طالب . وعلى الرغم من أن أبا طالب ، عم النبي وكافله ، لم يدخل في الدين الجديد ، فقد رفض ، في غضب وغيظ ، اقتراح المكيين بأن يتخلى عن حماية محمد .

والواقع أن المكيين ما لبثوا أن اضطُروا إلى أن يرفعوا الحصار بعد أن أخفقوا في تنفيذه بصورة مجدية . ولكن رُزأين ثقيلين نزلا بالنبي عقب ذلك بقليل ، ففقَد في السنة نفسها ، ٦١٩ ، زوجه (خديجة) وعمه أبا طالب جميعاً . وكان على ابي لهب أن يحلّ محل أخيه أبي طالب في حماية النبي ، على الرغم من خصومته له ، وعلى الرغم من أن النبي لعنه في إحدى السّوَر ، لأن رئاسة البيت الهاشمي كانت قد آلت إلى أبي لهب بعد وفاة أبي طالب ، فهو مكلّف بحماية ابن أخيه ، بحكم الشرف والقرابة . ومهما يكن من شيء ، فقد كان من غير الطبيعي أن تدوم هذه الصلة زمناً طويلاً ..

هذا الوضع اليائس أوقع في نفس محمد أن عليه أن يلتمس الخلاص خارج مكة . وبعد أن قام بمحاولات عابثة لاكتساب الأتباع في الاسواق الكبرى المجاورة ، توجه إلى الطائف ، وهي مدينة تقع إلى جنوبي مكة ، وتربط سكانها ، بني ثقيف ، روابط تجارية وثيقة بالمكيين . ولكنه لم يجد عند هؤلاء أكثر مما وجده عند أبناء بلده من الاستعداد لقبول رسالته ، فسَخِروا به ، وأغروا به سفهاءهم فحصبوه بالحصا ، فاضطُرّ إلى أن يلتجيء إلى حمى رجل وثني من أبناء قبيلته . ولم يجرؤ على العودة إلى مكة إلا بعد أن أجاره احد أشراف عشيرته *

(*) هو المطعم بن عدي . (المعربان)

وفي آذار سنة ٦٢٠ ، إبان موسم الحج التالي ، حاول محمدّ أن ينشر دعوته بين جماهير العرب المتدفقين على مكة كالسيل ، من أطراف الجزيرة كلها . وفيما هو منصرف إلى ذلك التقى أفراداً من قبيلة الخَزْرَج المقيمة في المدينة . وكان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، بينها وبين الوثنيين ضغائن متطاولة ، فكانت في أغلب الظن تتوعد الوثنيين بقرب ظهور المسيح الذي سينتقم لها من مضطهديها : ومن هنا ألِفَ المدنيون فكرة الرسول الالهي ، فدخلوا في الاسلام ، لأنهم كانوا قبل كل شيء معدّين للافكار الدينية ، بحكم الوضع في مدينتهم ، إعداداً يختلف كل الاختلاف عن إعداد المكيين الآخذين بأسباب النّعمة والترف .

المدينة

وإنما تقع بلدتهم ، التي كانت حتّى ذلك الحين تُعرف بـ « يثرب » لا بـ « المدينة » (مدينة رسول الله) كما دُعيت بعد ، في سهل وافر المياه في شمالي الحجاز ، قرب سلسلة الجبال التي تفصل نجداً عن تهامة . وكانت يثرب ، كسائر المدن المتحضرة في واحات بلاد العرب الشمالية الغربية ، تتألف من أراضٍ محروثة وبيوت مستقرة متناثرة بين أشجار النخيل ، والحدائق والحقول المزروعة . وكانت السيادة في هذه الواحة لقبيلتي الأوس والخزرج اللتين شرّفهما النبي بعدُ بلقب « الانصار » الجامع . وكان الأوس والخزرج يعتبرون أنفسهم من عرب الجنوب . والمفروض ان المدينة كانت ، قبل هجرتهم اليها ، في أيدي اليهود . ولكن سلطان اليهود الاقتصادي تضاءل في ما يبدو بسبب من حملة الحاكم الحبشي أبرهة ، على بلاد اليمن ، ومن ذلك الحين كان على اليهود أن يعيشوا موزعين بين أفراد الأوس والخزرج الذين بدأوا حياتهم أول الأمر ، دُخلاء على يثرب . والواقع أن بني قَيَنُقاع هم القبيلة اليهودية الوحيدة التي احتفظت بمساكنها المجتمعة المنعزلة ، ولكنها خسرت كذلك أرضها . ولم يحتفظ بالأرض ، من اليهود ، غير بني النضير

وبني قُريظة الذين عاشوا مع الأوس ، وانتهوا قبيل بعثة النبي بقليل ، إلى أن ينشئوا علاقات سياسية معهم ، على قدم المساواة .

وتحضّر عرب يثرب فأصبحوا يحرثون الأرض ويسكنون في دور مسيّجة ، ولكنهم لم يكونوا قد تجردوا بعد من عادات الحياة البدوية الحرة . فكانوا غير خاضعين لسلطة مركزية ما ، ولكنهم لم يعودوا قادرين – بسبب من حياتهم المستقرة – ان يتجنبوا الخلافات الدائمة في ما بينهم ، كما تجنبوها في الايام السابقة . وهكذا كانوا أبداً في صراع داخلي انتهى أخيراً إلى فتنة أهلية نشبت بين قبيلتي الأوس والخزرج فقسمت المدينة إلى معسكرين متنابذين . وخضع الأوس للخزرج ، وارتضى فريقٌ منهم صُلحاً ذليلاً جعلهم في منزلة الدخلاء بعد أن خسروا أرضهم ، في حين آثر فريق منهم الرحيل عن الأرض ، في إباء وشمم . بيد أن الأوس ما لبثوا ان اتحدوا وعقدوا حِلفاً مع قبيلتي النضير وقريظة اليهوديتين ، ومن ثم تغلبوا على الخزرج في معركة كبيرة حاسمة جرت في بُعاث ، بعد صراع طويل . ولم يعقب هذه المعركة صلح شريف بين الفريقين . بل استمر النزاع بينهما عنيفاً مميتاً ، حتى لقد اصبح الرجل منهم لا يستطيع أن يخرج في حاجة دون أن يعرّض نفسه للموت . والذي لا ريب فيه ان كلتا القبيلتين قد وجدت آخر الأمر ان مثل هذه الحال لا يمكن أن تُطاق طويلاً ، خاصة وانهما لم تكونا قد فقدتا بعدُ الشعورَ بالوحدة التي تشدّهما برباطها . ولكن أحداً من افرادهما لم يكن يملك من النفوذ الأدبي قدراً كافياً لجمع الصفوف وتقريب وجهات النظر . والواقع ان الحَكَم الذي طالما تاقت اليه القبيلتان ، كان لا بد له ان يأتي من الخارج . ولقد كان من الجائز أن تقع هذه المهمة على عاتق كاهن وثنيّ ما ، ولكن شيئاً مثل ذلك لم يحدث ، فاذا الخلاف الدموي بين أبناء العمومة يمهّد السبيل أمام النبي .

ورجع الخزرجيون الستة الذين التقاهم محمدٌ في موسم الحج من سنة ٦٢٠ إلى ديارهم وانشأوا يبثون الدعوة للدين الجديد ، يساعدهم في ذلك أحد

المسلمين الذين سبق لهم ان هاجروا الى الحبشة . حتى إذا حال الحَوْلُ رجع خمسة منهم إلى مكة ، وفي صحبتهم سبعة من المؤمنين الجُدد . فاجتمعوا بمحمد في العَقَبة ، وهي مجازٌ بين منى ومكّة . وهناك فَرَض عليهم أركان الاسلام ، ثم وجههم إلى المدينة ، مرة ثانية ، بعد أن أرسل معهم مُقرئاً يجيد تلاوة القرآن .

وفي هذه الأثناء كان مسلمو مكة ، على ما تقول الروايات ، يعانون أزمة جديدة . ذلك ان حديثَ محمد عن إسرائه العجيب ، برفقة جبريل ، إلى بيت المقدس ومن ثم إلى السماء ، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين . ولكن ابا بكر ضرب بايمانه الراسخ مثلاً طيباً لهؤلاء المتشككين فزايلتهم الريَب والظنون . ومن الجائز أن تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير اليها بعدُ في الاساطير الشعرية التي خلّفتها لنا الكتب الاسلامية جميعها أقدمَ من ذلك عهداً ، ولعلها ترجع إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية * . وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجّد العرّاف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية . حتى إذا كان موسم الحج من سنة ٦٢٢ أقبل عدد كبير من المؤمنين الجدد من المدينة إلى مكة ، وبعضهم من الأوس ، وبعضهم من الخزرج ، فاجتمع بهم النبي في العقبة أيضاً ، ومعه عمّه العباس . وفي هذا الاجتماع اعلنَ العباسُ القومَ ان محمداً في عزّ من قومه ومنعة في بلده ، وانهم إن لم يكونوا على استعداد للوفاء له فمن الخير ان يدعوه بين آله وعشيرته ، فبايعوه على ان يمنعوه ولا يخذلوه .

(*) كان الإسراء في الدور المكي لا ريب في ذلك، ولكن في النصف الثاني منه على الأرجح. وصفة الإسراء موضع خلاف بين علماء المسلمين أيضاً . وأفضل هذه الصفات ما أشار إليه أحمد شوقي :

يتساءلون وأنت أطهر هيكل — بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما — نور وروحانيـــة وبهاء

(ع. ف)

وفي صيف ٦٢٢ غادر أتباع محمد مكة ووجهتهم المدينة ، في غير ما ضجة ولا إعلان . أما النبي نفسه ، وابو بكر معه ، فلم يلحق بهم حتى الخريف إذ كان عليه أن يسوي بعض شؤون أتباعه التجارية . وفي ٢٠ ايلول سنة ٦٢٢ وصل إلى قُباء ، وهي ضاحية تقع على نحو ثلاثة أرباع الميل جنوب المدينة . ولبث النبي في قُباء خمسة أيام قبل أن ينتقل إلى المدينة . ثم انه سار على راحلته ، فكان كلما مر على قبيلة ناداه رئيسها أن أقم عندنا فكان يقول لهم خلوا سبيلها فأنها مأمورة ، حتى بركت في حي الخزرج ، فنزل في بيت أحدهم . والواقع ان هذه الهجرة ، التي تمثل انقضاء عهد غير مستقر ، وبدء حياة جديدة ، كانت حدثاً هاماً جداً في تاريخ المسلمين ، حتى لقد اتخذوا في عهد عمر بن الخطاب مطلع تلك السنة بداءةً للتاريخ الاسلامي .

ولم يلبث النبي أن أنشأ منزلاً له خاصاً . وكان يتألف ، كمنازل أتباعه الجدد المدنيين ، من عدد من الغرف ، بعضها للشؤون المعاشية وبعضها للأعمال ، في وسط فناء تحيط به جدران من اللبن . وإنما شيدت الغرف من سعف النخل ، وسقفت بالخوص المغطى بطبقة من الكلس . ثم أضيف إلى مساكن النبي فيما بعد خباء ذو أثاث فخم قد فرشت أرضه بالبسط ، لاستقبال وفود القبائل استقبالاً لائقاً . ولقد ظل هذا الخباء ، طوال حياة النبي ، الفناء الذي يجتمع فيه المؤمنون لأداء الصلوات اليومية .

وكان اعتماد محمد الرئيسي ، في موطنه الجديد ، على مواطنيه الذين هاجروا معه من مكة . وفي حين ان المكيين ذوي اليسار انتشروا في أحياء البلدة ، فقد ظل عدد كبير من المهاجرين المعوزين الذين لا مال لهم ولا بيوت عندهم ، في جوار النبي ، فكانوا يبيتون في الصُّفّة ، وهي موضع مظلل في فناء المسجد . ولقد كان أهل الصُّفّة هؤلاء يشكلون حرَس الرسول ، كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد .

وفي السنة الثانية للهجرة نهض النبي بمهمة إصلاح ذات البين التي وقعت على عاتقه بطبيعة الحال. وكانت الحرب مع المكيين على وشك الوقوع، وذلك عندما عقد معاهدة مسهبة بين المدنيين، حفظ لنا التاريخ نصها. فاتفقت القبائل المختلفة على ان تؤلف جماعة واحدة في ظل الحماية الالهية. بيد أنه لما كان المؤمنون هم روح الجماعة المحركة، ولما كانت أعمالهم بحسب عرف العرب القديم ملزمة للجميع، فقد انتهوا آلياً إلى أن يحتلوا مقام الصدارة والغلبة وأُلغي نظام الثأر العام. كان على القاتل ان يدفع دمه ثمن جريمته، ولكن أحداً لم يعد يجوز له أن ينتصر له. وصار على الجماعة أن تقف صفاً واحداً في وجه الأعداء الخارجيين. أما اليهود فكان عليهم أن يُسهموا في نفقات الحرب، دون الاشتراك بها عملياً، إلا في الأحوال التي تكون فيها المدينة نفسها موضع الهجوم.

موقف النبي من اليهود

وتأثرت اتجاهات النبي الدينية، في الأيام الأولى من مقامه في المدينة، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود (١١). وأغلب الظن أنه كان يرجو، عقب وصوله الى المدينة، ان يدخل اليهود في دينه. وهكذا حاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي *.

(١١) أنظر فنسنك A. J. Wensinck, **Mohammed en de Jodente Medina,** Leiden, 1908.

(*) لا ريب في أن رسول الله قد أصبح في المدينة « ولي أمر المسلمين » فوق ما كان له من مقام الرسالة. ولقد عالج قضية اليهود بطرق مختلفة، ولكنه لم « يبدل شعائر الإسلام حتى يرضى عنها اليهود ». ويزعم المؤلف أن الرسول شرع صلاة الجمعة تشبهاً باليهود مع انه بعد أسطر سيقول بأنه خالفهم في السماح للمسلمين بالعمل قبل صلاة الجمعة (الظهر) وبعدها. أن فكرة « الجمعة » مخالفة تمام المخالفة لما عند النصارى واليهود معاً. إنها ظاهرة اجتماعيـة لا دينية، ولذلك لا تجوز صلاة الجمعة إلا في المصر (البلد) الذي يجتمع في مسجده أربعون رجلا بالغاً، وإلا لم تجب الجمعة في ذلك البلد. بينما اليهود « يسبتون » منذ عشية السبت إلى مساء السبت لا يعملون عملا. (ع. ف)

فشرع صوم العاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرّم ، على غرار الصوم اليهودي في يوم الكفّارة الذي يقع عندهم في العاشر من شهر تِشري . وبينما كان المؤمنون في مكة لا يصلّون إلا مرتين في اليوم ، ادخل في المدينة على غرار اليهودية أيضاً ، صلاة ثالثة عند الظهر . وإذ كان في وسعه ووسع أتباعه أن يقيموا الصلوات منذ عهده بالمدينة ، جهاراً ومن غير إزعاج ، فقد عيّن منادياً للصلاة يعرف بالمؤذن ، وليس من شك في أنه قد بدأ بذلك معارضته لكل من الديانتين الموحدتين . فبينا كان النفخ في الابواق هو وسيلة الدعوة إلى الصلاة في كُنُس اليهود الشرقية ، كان النّصارى يصطنعون النواقيس الخشبية بدلاً من أجراس الكنيسة . اما محمّد ، فقد وقع اختياره على الصوت البشري لدعوة أتباعه إلى الصلاة . كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار « السبت » اليهوديّ ، ولكنه خالف اليهود حين سمح للمؤمنين بأن ينصرفوا في ذلك النهار ، إلى شؤونهم الدنيوية ، قبل أداء الصلاة وبعدها .

ولم يطل العهد بمحمّد حتى شجر النزاع بينه وبين أحبار اليهود . فالواقع انهم على الرغم مما تمّ لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية ، كانوا يفوقون النبي الاميّ في المعلومات الوضعية وفي حدة الادراك * — فالفجوات المختلفة التي تكشّف عنها علمه « بالعهد القديم » ، والتي كان قد تركها عارية ، في السّور المكية ، لم يعد من الممكن أن تظل خافية عليهم * . ولكن إشارتهم الساخرة إلى هذه الفجوات كانت أعجز من أن تزعزع إيمانه بصحة ما يوحى اليه . بل إن معارضة اليهود لتعاليمه حملته على أن يستنتج أنهم قد ضلوا عن طريق الايمان الصحيح ، وانهم قد حرّفوا الكتاب المقدس الذي اعتقد هو نفسه بأنه مُنزل من عند الله .

(*) ان الرسول قد علم ان التوراة مبدلة لأن فرق اليهود كانت مختلفة ، وان السامريين (اليهود الذين يسكنون اليوم في نابلس) يقولون ان لديهم توراة هي الصحيحة ، بينما التوراة التي يملكها سائر اليهود غير صحيحة . ثم إن في العهد القديم أساطير كثيرة ، فاذا كان محمد قد رفضها فانه قد فعل ذلك على أساس علمي ، و « رفض الخطأ ليس جهلا . » (ع. ف)

ولم يلبث هذا الصراع مع اليهود أن جرّ ذيولاً عملية أيضاً . فمنذ ذلك الحين شرع النبي يؤكد تأكيداً متزايداً على الطابع العربي القومي الذي يطبع دينه . صحيح أنه لم يُلغِ صوم العاشوراء ، الذي اقتبسه عن اليهود ، والذي لا يزال بعض المسلمين اليوم يؤدّونه ، جرياً على العادة ، تطوّعاً واختياراً ، ولكنه أضاف إلى هذا الصوم صوماً آخر ، معمولاً به حتى اليوم ، يستغرق شهر رمضان بكامله ، وهو الشهر التاسع من أشهر السنة القمرية . وبينما يكتفي النصارى بمجرّد الامتناع عن أكل اللحم خلال صومهم الكبير ، نجد أن محمّداً كلّف أتباعه الامتناع عن كل ضرب من ضروب الغذاء طوال النهار ، مانحاً إياهم ، مقابل ذلك ، حرية الطعام بعد المغيب . ولسنا نعرف حتى الآن ما إذا كان محمد قد اقتبس هذه الفريضة عن إحدى الفرق الغنوستية أم عن المانيين الذين نفذ مبشروهم إلى بلاد العرب ايضاً . فقد كان لا يعرف شيئاً ، أو يكاد ، عن الحرّانيين في العراق ، الذين كانوا يصومون كذلك في شهر آذار ، تمجيداً للقمر .

وبعد أن قطع النبي الرجاء من ادخال اليهود في الاسلام ، أصبحت الأخبار المتداولة في مكة في مقدمة معتقداته الدينية . ولكي يزيد هذه الأخبار قيمة وشأناً رقي بها الى ابراهيم الذي صار يعدّه الآن مؤسس الدين الاسلامي الحق نفسه ، لا مجرد نبي من أنبياء الماضي المتعددين . لقد قرر أن ابراهيم هو الذي أسس الكعبة المقدسة في مكة لابنه اسماعيل ، وسنّ الحج اليها . ولا تحتاج هذه الكعبة ، لكي تُشد شداً محكماً إلى ملة ابراهيم الألهية ، إلاّ إلى أن تُطهر من تلك الانحرافات الوثنية الطارئة عليها في عصرٍ متأخر .

وبهذه الطريقة عين النبي أيضاً الهدف الأول والأبعد شأناً في سياسته الخارجية أعني إخضاع أبناء قومه الوثنيين . ولكن الظروف حالت بينه وبين الشروع في شنّ حملة نظامية مباشرة عليهم . فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة اخوانهم من قريش ، في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الأقوياء . بيد ان القوافل

المكية التي كانت تمر بالمدينة لم تلبث أن أثارت الرغبة في الغنيمة عند فقراء المؤمنين الذين عرفوا طعمَ الفاقة الملحة ، بوصفهم مهاجرين إلى المدينة المزدحمة بالسكان ، والذين ظل النبي يذكّرهم بالمظالم التي نزلت بهم . والمفروض أن محمداً قد قام بعدة محاولات مخففة لاعتراض هذه القوافل ، منذ السنة الأولى وأوائل السنة الثانية للهجرة . حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجه جماعة من الغزاة ، بأوامر سرية ، فوفقت إلى مباغتة (١٢) قافلة بالعروض ، كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حُرمة الشهر ، فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة . ولكن هذا النقض للقانون الخُلقي القبَلي لم يلبث أن أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها ، فما كان من محمد إلا أن أنكر صنيع أتباعه ، الذي تم وفقاً لرغباته ، بلا خلاف ، وعزاه إلى سوء فهمٍ لأوامره . ولم يجرؤ على اعلان شرعية الحرب ضد المشركين ، وتوزيع الغنائم ، حتى في الشهر الحرام ، الا في آيات متأخرة ، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه اثارة كافية * .

موقعة بدر

وبعد شهرين اثنين سنحت فرصة أخرى للهجوم على المشركين . وتفصيل ذلك ان القافلة الشامية العائدة من غزّة ، والتي أسهمت فيها جميع المصالح

---

(١٢) في وادي نخلة شرقي مكة .

(*) لقد عرض لرسول الله ان يقاتل في الأشهر الحرم على أساس واحد : « لا يجوز » ان يبدأ المسلمون القتال في الشهر الحرام ولكن « يجب » ان يدافع المسلمون عن أنفسهم حتى في الشهر الحرام . إن القرآن الكريم يذكر ذلك صراحة ولكن المؤلف يحب أن يتهكم فقط ويعلل الأمور تعليلا ناقصاً . جاء في القرآن الكريم :

(البقرة ١٩٤ وما بعدها) : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ... ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ... الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ... الخ .

فبدء القتال في الشهر الحرام إذن حرام ، ولكن رد العدوان واجب . (ع. ف)

التجارية المكّية تقريباً ، كانت في طريقهـــا إلى مكة . وكان على رأس هذه القافلة ابو سفيان ، زعيم البيت الأموي . فأمر محمدٌ ثلاثمائة متطوّع ، من المهاجرين والأنصار ، بالاغارة على القافلة . ولكنّ ابا سفيان كان مستعداً لمثل هذه الغارة ، فقاد رجاله على طول الساحل في طريق غير الطريق المعتادة . ثم إنه بعث رسولاً خاصاً فأنذر المكيين بالخطر المداهم ، فانطلقوا إلى الطريق الشمالية . وعددهم في ما تقول الروايات يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين . واعتزم محمدٌ ان يتربص لأبي سفيان في بدر ، وهو موضع على طريق القوافل ، ذو ماء سائغ للشاربين . وبدلاً من أن يجد حامية ضعيفة ألفى جيشاً قوياً كامل العدة يخرج للقائه . وكان على النبي ان يحشد جميع قواه المُلهمة ليحمل اتباعه على خوض هذه المعركة التي لم تتكافأ فيها القوى . حتى إذا وفق إلى ذلك ، استطاعت روح الطاعة والنظام التي اكتسبها أتباعه من شعائرهم الدينية اليومية ، ان تُحرز النصرَ على التفوق العددي الذي كان للمكيين ، غير المنظمين .

وكان لهذا الفوز الأول أثرٌ معنوي عظيم جداً . لقد فجعت كل اسرة من الاسر المكّية تقريباً بأحد افرادها ، فهي تندبه وتبكيه ، أو منيت بأسر أحد أعضائها فهي مضطرة إلى أن تفتديه . وفي المدينة ، قوّى هذا الفوز من نفوذ النبيّ شيئاً كثيراً ، وساعده على ان يتخذ إجراءات حازمة ضد مناوئيه ، الذين كان عليه ، حتى ذلك الحين ، أن يتحمل أذاهم ، ويصبر عليه . ومن هنا صار على اولئك المدنيين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية أن يدخلوا في الاسلام . وليس من شك في ان كثيراً منهم قد أسلموا ، ولمّا يدخلِ الأيمان في قلوبهم . ولقد ظلّ هؤلاء المنافقون مصدر قلق للنبي فترة من الزمان .

وكان موقف النبي من اليهود أقسى وأعنف . وكان على بني قينقاع ، وهم من الصاغة ، ان يستشعروا ، قبل غيرهم ، قوته وحزمه . فلم يكد ينقضي شهرٌ على معركة بدر حتى وجّه محمد رجاله عليهم — لقتلهم ،

في الظاهر ، رجلاً مسلماً كان قد قتل يهودياً إثر خلاف جرى بينهما — فاضطرّهم إلى الاستسلام ، بعد أن حاصرهم في حيّهم عدة أسابيع . وكان محمدٌ قد أصدر حكمه بالقضاء عليهم ، ولكنه عدل عن ذلك ، بناء على توسط سيد الخزرج ، إلى اخراجهم من ديارهم والاستيلاء على جميع ممتلكاتهم .

موقعة أحد

وواصل المسلمون هجماتهم على قوافل المكيين التجارية . فما كان من هؤلاء إلا أن وطنوا النفس ، مع جيرانهم بني ثقيف أهل الطائف ، وبعض القبائل البدوية ، على أن يثأروا لهزيمتهم في بدر ، فجمعوا جيشاً قوياً جداً — بالنسبة إلى ظروف العرب آنذاك — يبلغ عدده ، على ما تقول الروايات ، ثلاثة آلاف رجل ، بينهم سبعمائة دارع ، ومائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير . وإذ كانوا يصطحبون في هذه الغارة جمهرة من النساء ومتاعاً كثيراً ، فقد اضطروا إلى أن يتقدموا في اناة بالغة . حتى إذا وافت سنة ٦٢٤ ، وصلوا إلى السهل المنبسط من شمالي المدينة ، إلى جبل أُحُد ، على مسافة نصف ساعة من البلدة . وعلى الرغم من أن محمداً اعتزم بادىء الرأي ، حسب وصية سيد الخزرج ، أن لا يبرح المدينة حتى يُقبل المهاجمون ، فأنه لم يلبث ان ساير روح رجاله الحربية ، فاقتنع بضرورة الهجوم . ولكن همة المؤمنين ما لبثت أن اعتورها الضعف أمام هذا الجيش القوي ، ومع ذلك فقد أصرّ النبي على خوض المعركة في الميدان الطلق ، ولم يعرف اليأس سبيلاً إلى نفسه ، حتى عندما رأى إلى سيد الخزرج ينسحب بثلاثمائة رجل إلى المدينة . وعلى الرغم من هذه البداءة السيئة ، فقد كانت كفة المسلمين هي الراجحة ، أول الأمر ، فاندفعوا إلى معسكر العدو نفسه . ولكن الرماة ، الذين كان يفترض فيهم أن يحموا جناح محمد الأيسر ، ما لبثوا أن غادروا مراكزهم واندفعوا مع المندفعين ، خشية أن يفوتهم نصيبهم من الغنيمة .

وكان خالد بن الوليد ، الذي أظهر كثيراً من أعمال البطولة في خدمة الاسلام بعد ، على رأس فرقة الفرسان المكية ، فاغتنم هذه الفرصة واجتاح ميسرة المسلمين المكشوفة . وهكذا خسر المسلمون تلك المعركة . ولقد أصيب محمد نفسه بجراح طفيفة ، وسرى بين أصحابه نبأ كاذب زعم انه توفي ، فأسقط في ايديهم ، وفقدوا كل قدرة على المقاومة . وكان من حسن طالعهم ، ان المكيين عجزوا عن استثمار انتصارهم ، فقنعوا من الغنيمة بالأياب إلى بلدهم فرحين بالفوز .

ولم تؤثر هذه الهزيمة في مركز النبي ، ومكانته عند أتباعه ، خاصة وانهم استشعروا خطأهم إذ لم يطيعوا الأمر الصادر اليهم . ولكنها أثرت في مركزه ومكانته عند البدو المحليين . وإنما يظهر ذلك ، مثلاً ، في مقتل اربعين من رسله في ربوع قبيلة هوازن . وكان على محمد ان يعوّض هذه الخسارة التي أصابت مجده العسكري من طريق آخر . ففكر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النضير لسبب واه * وحاصرهم في حيّهم . وإذ لم يجروْ اخوانهم في الدين ، من بني قريظة ، على ان يسعفوهم ، فقد اضطروا إلى الاستسلام بعد حصار دام بضعة أسابيع . ثم انهم هاجروا إلى واحة خيبر ، التي تقع على مسافة عشرين ميلاً شمالي المدينة ، والتي كانت تنزل فيها جالية كبيرة من اليهود . ووزع النبي أراضي بني النضير على المهاجرين .

وعقب ذلك بقليل ، حُرّمت على المسلمين الخمر ، وكانت بعض الآيات (سورة ١٦ : ٦٩) ** قد أشادت بها كعطية من عطايا الله

(*) كانت مهاجمة بني النضير حلقة في سلسلة حروب المسلمين ضد اليهود . ذلك لأن اليهود كانوا يتجسسون للمشركين وكانوا يساعدونهم على قتال المسلمين مع ان بينهم وبين الرسول معاهدات على لزوم الحياد . فلما كانوا يخرقون هذا الحياد مرة بعد مرة فقد أراد الرسول ان يجليهم عن مساكنهم حتى يأمن كل شر منهم في المستقبل . (ع.ف.)

(**) « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً (بفتح ففتح) ورزقاً حسناً » . وجاء في « جامع البيان في تفسير القرآن » للطبري (مصر ، ١٣٢١) ج ١٤ ص ٨٢ – ٨٥ ما خلاصته : « قال بعضهم عنى بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن التمر والزبيب » ، وقال إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت . (المعربان)

الكبرى . وحُرم الميسر ، أو القمار على لحم الابل ، وكان سبباً في إفقار كثير من البدو . والواقع ان تحريم الخمر (سورة ٢ : ٢١٦ وسورة ٥ : ٩٢) كان يهدف إلى تقييد الشعراء الذين كانوا كثيراً ما يتغنون بمجالسهم الخمرية المعربدة ، هذه المجالس التي كانت خليقة بأن تفسد روح النظام العسكري الصارم الذي أراده محمد لأتباعه . ولكن بعض المسلمين لم يلبث أن خرج على القانون ، فعاقر الخمرة .

حصار المدينة

ووفق المكيون ، في الوقت نفسه ، إلى تكوين حلف عظيم ضد محمد . ففي آذار سنة ٦٢٧ تحرك إلى المدينة جيش مؤلف من حوالى عشرة آلاف رجل ، بينهم اربعة آلاف قرشي بقيادة ابي سفيان . وكانت حركة هذا الجيش سريعة فوق العادة ، هذه المرة ، مما اضطر محمداً إلى أن يتعجل الاستعداد لملاقاته في مدى اسبوع واحد . وإذ كان المهاجمون يفوقون جند محمد عدداً فلم يكن ثمة أدنى مجال للتصدي لهم في معركة مكشوفة من معارك الميدان . لقد تعين على محمد أن يتربص في المدينة نفسها ويحسّن مواقعه الحربية ، خاصة وان مثل هذا الوضع يُلزم جميع السكان بالخدمة العسكرية . وكانت المدينة محاطة بصفوف متصلة من المنازل ، من ثلاث جهات ، ولم تكن مفتوحة إلا من جهة الشمال . والمعروف أن محمداً حفر في هذه الجهة — باشارة سلمان ، وكان من قبلُ مولى فارسياً — خندقاً عريضاً يقيه وجنوده من هجمات الفرسان . ولم تكن هذه الطريقة الدفاعية مألوفة قبل ذلك ، في بلاد العرب . ولقد أثارت بلبلة واضطراباً شديدين حتى لقد سميت المعركة بسببها « وقعة الخندق » . والواقع أنها قد حققت للنبي غايته كاملة غير منقوصة ، فقد أحس العدو بوطأة الحصار عليه ، فلم يلبث أن تداخله الضعف والكلال ، لصعوبة حصوله على الأمداد في تلك البقاع الجرداء . حتى إذا أخفقت المفاوضات مع بني قريظة الذين

كانوا يسكنون في طرف المدينة بسبب من تردد هؤلاء وتذبذبهم ، ورأى المحاصَرون إلى مواشيهم وأنعامهم ، وهي أثمن ما يملكون ، تبيد زرافات زرافات من شدة القيظ ، وطنوا النفس على الانسحاب . وفي اليوم نفسه هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً ، على كل حال . فاستسلموا بعد حصار دام أسبوعين . وأمر النبي بقتل محاربيهم (وعددهم ستمائة) ، وباسترقاق نسائهم وأطفالهم ، ليكون في مصيرهم هذا عبرة لأمثالهم .

حديث الافك

وقام النبي ، خلال سنة ٦٢٧ أيضاً ، بحملات عدة على بعض القبائل البدوية ، ولقد أبعد في إحداها حتى لقارب مكة . وكانت هذه الغزوات آمنة الى حد ساعده على أن يصطحب فيها اثنتين من أزواجه . فاتفق مرة أن أضاعت زوجه المفضلة ، عائشة بنت أبي بكر – وكانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها – قلادتها فخرجت تبحث عنها مساء ، ففاتتها قوافل الغزاة ، ولم تعد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي ، وبرفقتها شاب كانت قد عرفته من قبل * وتطرّق الشك ، في إخلاص عائشة ، إلى نفس النبي ، فردها إلى بيت أبويها ، ولكن الله لم يلبث أن برّأها ، بعد شهر واحد في إحدى الآيات الموحاة إلى النبي ، مضيفاً في الوقت نفسه أن أي اتهام لامرأة بالخيانة الزوجية لا يؤيده اربعة شهود عيان يُعتبر فرية أو قذفاً يستحق عليه صاحبه مائة جلدة . وكان عليّ ، صهر النبي ، احد خصوم عائشة الذين ألحوا عليه في طلاقها . وليس من شك في أن جذور العداء الذي تكشفت عنه عائشة لعلي ، بعد أن استخلف على المسلمين ، ترجع إلى هذه الحقبة . ومهما يكن من شيء ، فلم يكن لحادثة العقد هذه أدنى تأثير في

(*) ان كل تاريخ – وتاريخ الاسلام على الأخص – كان عرضة لمؤامرات وافتراءات كثار ، هذه واحدة منها . (ع. ف)

وضع المرأة الاجتماعي في الاسلام ، كما قد يُظن : فالحجاب الذي تصطنعه النساء المتزوجات كان عادة عربية قديمة ، وكان النبي قد فرضه ، قبل هذه الحادثة ، لأسباب أخرى . والواقع ان الحجاب لم يحل بين النساء ، في الجاهلية وفي الاسلام أيضاً ، حتى عهد الأمويين ، وبين الظهور في الناس في كثير من الحرية ، والتأثير في المجتمع العربي تأثيراً مذكوراً في بعض الأحيان . إن مؤسسة « الحريم » التي وضع قواعدها العباسيون على غرار النموذج المسيحي — البيزنطي هي وحدها المسؤولة عن انحطاط المرأة في الشرق .

الحديبية

ومنذ أن اعترف محمد وهو في المدينة ، بقداسة الكعبة ، أصبح الاستيلاء عليها هدفه السياسي الأسمى . وليس من شك في انه قد حاول أول الأمر ، أن يعتمر مع أتباعه سنة ٦٢٧ . وعلى الرغم من ان حلفاءه البدو خيبوا آماله فلم يجيبوه إلى ما كان يرغب فيه من مرافقتهم ، فقد خرج إلى مكة في ثياب الحج على رأس الف وخمسمائة رجل ليس معهم من السلاح إلا سيف واحد . حتى إذا صار على مسافة عشرة أميال من مكة علم ان المكيين واحلافهم قد رابطوا أمام الباب الشمالي ، وبعثوا بفرسانهم في طريق المدينة . فلم يكن من محمد إلا أن اتجه غرباً ، وغافل طلائع الفرسان سالكاً طريقاً مختصراً حتى وصل إلى الحُدَيبية ، على تخوم المنطقة الحرام وهناك عسكرَ ، وشرع في مفاوضة المكيين ، باعثاً إلى مكة صهره عثمان الذي كان ، بوصفه أموياً ، ذا نفوذ عظيم . وانقضت ثلاثة أيام من غير أن يرجع عثمان فسرت شائعة بأنه قتل . وعلى الرغم من أن محمداً لم يكن مستعداً للمعركة فلم يكن في وسعه أن يرى إلى المكيين يخرقون القانون القبلي على هذا الشكل دون أن يثأر للقتيل . فدعا أصحابه إلى البيعة فجددوا عهدهم له ، تحت شجرة كبيرة ، فعرفت هذه البيعة ببيعة الرضوان وصارت

بعدُ مفخراً يعتز به من تشرف بها . ولكن تلك الإشاعة لم تلبث أن تبين بطلانها ، وأظهر المكيون رغبة أكيدة في الوصول إلى اتفاق سلمي . فبعثوا رسولاً من قبلهم إلى معسكر النبي . فعقد النبي معه صلحاً مدته عشر سنوات . وكان على النبي ، بموجب هذا الصلح ، أن يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، حتى إذا كان العام القابل دخلها مع المسلمين ، وكان على المكيين مقابل ذلك أن يخلوا مدينتهم ثلاثة أيام في العام حتى يستطيع المسلمون أن يؤدوا حجّهم في طمأنينة وأمن . ولقد تعهد محمد بأن يردّ على قريش كل من يجيئه من شبابها ، طوال مدة الصلح ، من غير إذن وليه ، في حين أن من جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه اليه . والواقع ان هذا التنازل قد زاد في غيظ المسلمين ، خاصة وان محمداً قد رضي عند كتابة وثيقة الصلح بأن يُغفل النص على صفته كرسول الله . ولكن المستقبل ما عتم أن برر موقفه هذا . صحيح أنه ، على أساس هذه المعاهدة ، قد رد إلى بني زهرة أحد مواليهم ولكن هذا الأخير لم يلبث أن قتل ، في الطريق إلى مكة ، احد الرجلين اللذين كانا يحرسانه ، وفر إلى الساحل . فما كان من اللاجئين المكيين الكثر ، الذين كانوا في الوضع نفسه ، إلا أن اجتمعوا تحت قيادته وطفقوا يهاجمون القوافل المكية . فلم يجد المكيون بداً من أن يطلبوا هم إلى النبي أن يلغي تلك المادة الخطرة من المعاهدة ، وان يتولى أمر هؤلاء العصاة بنفسه .

وفي نوّار من سنة ٦٢٨ حاول النبي أن يعوّض من فشله الظاهري * في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خَيبَر . فاستعان اليهود بأربعة آلاف بدوي من غطفان لحمايتهم ، حتى إذا جَبُن أهل خيبر عن مواجهة النبي في ميدان المعركة ، وآثروا أن يعتصموا في حصونهم ، لم يكن من الغطفانيين إلا أن انسحبوا بدورهم . وإذ كان

(*) راجع الحاشية الاولى من تعليقاتنا (ع.ف.)

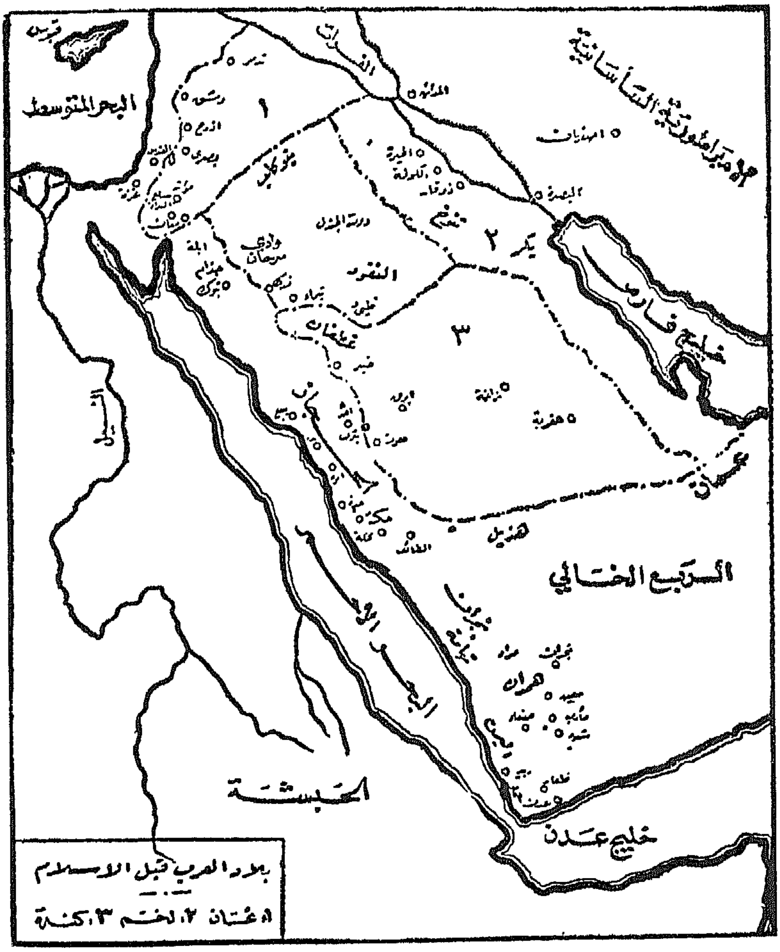
المسلمون غير مزودين بالسلاح الذي يقتضيه الحصار فقد عجزوا بادىء الأمر عن التغلب على اليهود . ولكن الخيانة مكنتهم أخيراً من أن يدخلوا أحد الأحياء . عندئذ أفادوا من السلاح الذي وجدوه هناك في مهاجمة الحصون الأخرى ، فاستسلم اليهود وصالحهم النبي على ان يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، ويخلّوا له جميع ممتلكاتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد بدا للنبي ، بعد ذلك ، أن من الخير أن لا يقيم المسلمون بعيداً عن المدينة ، لما في ذلك من إضعاف للجماعة الناشئة ، فسمح لليهود باستثمار أراضيهم على أن يدفعوا نصف ما يخرج منها للمسلمين . ولم يلبث يهود فَدَك ، ووادي القُرى ، وتيماء أن استسلموا بالشروط نفسها ، من غير مقاومة حيناً ، وبعد مقاومة يسيرة حيناً ، ولكن النبي ضم فدك إلى ملكه الخاص .

وكان في ميسور محمد ، بحكم المعاهدة ، أن يدخل مكة في موسم الحج القابل . ومع ان المشركين من المكيين غادروا البلد ، فقد ظل فيها ذوو قرباه وعلى رأسهم عمه العباس . ولقد تركت هذه الحجة انطباعة قوية في نفوس أعداء محمد حتى لقد توجه عدد من زعمائهم إلى المدينة ، سنة ٦٢٩ ، فأعلنوا اسلامهم . نخص بالذكر من هؤلاء خالد بن الوليد بطل أُحُد ، الذي عُرف بعد بـ « سيف الاسلام » وعمرو بن العاص الأموي ، أول أمير على مصر ، في ما بعد .

العلاقات مع البيزنطيين في مصر وسوريا

واسترعت هذه القوة العربية ، الناشئة حديثاً ، انتباه حكام الولايات البيزنطية المجاورة . وكان البيزنطيون قد انتزعوا مصر ، منذ قريب ، من أيدي الفرس الذين استولوا عليها في عهد الامبراطور هرقل . فبعث كورش ، حاكم مصر البيزنطي الجديد ، (الذي دعاه عرب الاسكندرية « المقوقس » متوهمين ان هذا اللفظ لقب من ألقاب الحاكم مع انه اطلق

على سبيل التهكم على البطريق الذي كان يضطلع أيام الفتح الاسلامي بالسلطة الزمنية أيضاً) إلى الرسول — بعد أن استطلع ولا شك حقيقة ذوقه — بهدايا كثيرة بينها جاريتان جميلتان . وأهدى النبي احدى هاتين الجاريتين إلى شاعره ، حسان بن ثابت ، الذي كانت مهمته الأشادة بمآثر المسلمين. اما الجارية الأخرى ، مارية ، فاستبقاها النبي لنفسه وبنى بها . وكم كان سروره عظيماً عندما وضعت له غلاماً ، لأن ازواجه جميعاً ، ما عدا



خديجة ، بقين عواقر . ولقد سماه ابراهيم تيمّناً باسم النبي الذي كـان يستشعر انه مدعوّ لإحياء ملته ، ولكن هذا الغلام لم يلبث أن مات ، وهو بعدُ في سنته الأولى ، ٢٧ كانون الثاني سنة ٦٣٢ .

أما علاقات المسلمين بالبيزنطيين في سورية فتطورت ، على عكس علاقتهم بالمقوقس ، تطوراً يؤذن باصطدام قريب . ذلك ان رسالة محمد كانت تغزو قبائل البدو في شمالي بلاد العرب أيضاً ، فكان لا بدّ له من الاحتكاك بالمواقع البيزنطية على الحدود . وفي سنة ٦٢٩ بعث محمد برسول إلى قائد قلعة بصرى ، شرقي الاردن ، فاعترضه بعضهم وقتلوه . فجهز النبي سَرِيّة عدّتها ثلاثة آلاف رجل ، ابتغاء الاقتصاص ممن قتله ، ووجهها شمالاً في شهر أيلول جاعلاً على رأسها زيد بن حارثة ، ابنه بالتبني . وزحفت جيوش الحدود الغسانية لقتال المسلمين ، فالتقتهم على مسافة بضعة أميال شمالي المدينة ، فنشبت بين الفريقين معركة كان النصر فيها حليف المؤمنين . ثم إنهم اندفعوا إلى الشمال حتى بلغوا مؤتة ، قرب الطرف الجنوبي من البحر الميت . وهنا التقى المسلمون بجيش كثيف كان قد حشده الروم تحت قيادة البطريق ، [أي القائد] ثيودوروس . وكان عدد الروم يفوق عدد المسلمين إلى حد بعيد ، فلم تكن المعركة متكافئة ، على الرغم من شجاعة المسلمين البالغة . وبعد أن قتل زيد ، وقتل بعده رجلان * كان محمد قد عينهما خلفين له في القيادة ، أخذ الراية خالد بن الوليد فأفرغ جهده في تخليص المسلمين ، بعد أن نهكهم التعب ، وصار يتأخر بهم قليلاً قليلاً إلى المدينة . ثم ان النبي حاول أن يخفف من الأثر السيء الذي خلّفته هذه الهزيمة ، فوجّه ، بعد مدة وجيزة ، عمرو بن العاص لقتال البدو في الصحراء الشمالية فأبلى عمرو بلاء حسناً ، ودخلت معظم هذه القبائل في الاسلام ، في العام نفسه .

(*) هما جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة . (المعربان)

وكان القرشيون قد يئسوا ، منذ زمان ، من التغلب على النبي مرةً ثانية ، فهم يحصرون اهتمامهم بالمحافظة على صلح الحُديبية حتى لا تتعرض تجارتهم لأخطار جديدة ، بعد الذي مُنيت به من نكبات . أما محمد فكان يترقب الفرص ليصفي حسابه معهم ، جملةً واحدة . واتفق أن نشأت مشادة بين احدى القبائل البدوية الداخلة في الاسلام وبين بعض مشايعي قريش ، اشترك فيها على ما يقال نفر من أهل مكة . وهكذا رأى محمد نفسه في حلٍ من صلح الحديبية بعد أن نقضته قريش .

وفي رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، مطلع سنة ٦٣٠ للميلاد . توجه محمد إلى مكة في جيش عظيم من المدنيين والبدو تبلغ عدته عشرة آلاف رجل . حتى إذا أصبح على منتصف الطريق إلى مكة خرج اليه جماعة من أهلها ، وفيهم عمه العباس . وانضووا تحت لوائه . ولم يتخلف في مكة إلا فئة قليلة اعتزمت أن تقاوم المسلمين مقاومة جدية . وبينما الرسول يعسكر بمر الظّهران ، شمال غربي مكة ، جاءه أبو سفيان نفسه ، الذي كان من قبل قلب المعارضة ، وأسلم . فأمن الرسول أسرته وجميع من دخل داره ومن أغلق عليه بابه ، ثم رجع إلى مكة ، فنصح لأهلها أن لا يعارضوا النبي في الدخول اليها ، فوجدت نصيحته أذناً مصغية عند مواطنيه ، ولم يتمسك بنظرية الحرب إلا نفرٌ ضئيل من المتعنتين . وأمر محمد جنوده بالتقدم إلى مكة من جهتين ، في وقت معاً ، فلم يلقوا شيئاً من المقاومة إلا عند الباب الجنوبي ، الذي كان يحتله حزب الحرب ، ولعلهم احتلوه للاحتفاظ بخط الرجعة فيشقون طريقهم منه الى اليمن ، ولكن خالد بن الوليد قضى على هذه المقاومة في يُسر كثير . وهكذا ألقت مكة بنفسها ، دونما صراع جدي ، على قدمي ابنها العظيم الذي آذته وأتباعه ، قبل ثماني سنوات ، واضطرتهم إلى الهجرة .

وعندما بلغ محمدٌ الكعبة طاف بها سَبْعاً على راحلته ، لامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرة . وبذلك ضمّ هذا الطقس الوثني إلى دينه . ثم انه أمر بازالة ما في الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها ، وطلب إلى المكيين أن ينزعوا ما قد يكون في بيوتهم الخاصة من صور وتماثيل ويسلموها إلى المسلمين ، على الرغم من انه لم يعتبر قبول مواطنيه الاسلامَ أمراً واقعاً بعد . ولم يعاقب بالقتل من خصومه القدماء إلا افراداً قلائل ذوي جرائم خاصة بهم ، بينهم مغنيتان سبق لهما أن انشدتا بعض الاغاني في السخرية به ، مُظهراً من التساهل والتسامح مع الآخرين قدراً عظيماً أثار حسد المدنيين ، على الرغم من أن الايام لم تلبث أن برهنت لهم ان تخوفهم من بقاء النبي في مكة كان في غير محله .

موقعة حنين

بيد ان النبي لم يسعد بهذا الظفر ، في مكة ، إلا خمسة عشر يوماً . كانت سحابة مشحونة بالخطر تجتمع في هذه الاثناء ضده . فقد تحالف بنو ثقيف أهل الطائف وهي المدينة التي تقع إلى جنوب مكة مباشرة — مع انسبائهم بطون هوازن المنتشرين انتشاراً واسعاً في نجد ، فألفوا جيشاً من ثلاثين الف مقاتل — وهو عدد هائل بالنسبة إلى ظروف العرب يومذاك — وعسكروا في أوطاس ، فلما خرج محمدُ اليهم هاجموه في حُنَيْن ، وشدّوا عليه شدّة رجل واحد . وكان البدو يؤلفون مقدمة جيش محمد فتراجعوا ، أول الأمر ، ولكن قوّاته المدنية المختارة أبت إلاّ الثبات في وجه الأحلاف الذين يفوقونها عدداً . ومهما يكن من أمر ، فقد وفّق معظم المقاتلين من هوازن إلى الفرار إلى الطائف ، لأن البدو ذكروا في احرج الأوقات صلات الدم والقربى التي تشدّهم بالاعداء فلم يجدّوا في إثرهم . ولكن غنائم معسكرهم الوافرة سقطت في ايدي المنتصرين ، فكان فيها ما ساعد النبي بعدُ على تأليف قلوب المكيين الداخلين حديثاً

في الاسلام ، من طريق العطايا والهبات .

حصار الطائف

وكانت خطط النبي ضد الطائف نفسها أقلّ نصيباً من النجاح . فتقدم في غير ما ابطاء ، ومن غير أن يفرغ لتقسيم الغنائم ، من ميدان المعركة في حُنين ، إلى خارج أسوارها مباشرة . ولكن ثقيفاً واجهته بمقاومة عنيدة لم يكن في طوقه القضاء عليها ، بعد ان اشتعلت النيران في آلات الحصار البدائية ، التي كان يستعملها فحطمتها . وما هي إلا ثلاثة اسابيع حتى اطرح محمد هذا المشروع المملّ ، ورجع إلى الغنائم التي كانت مكدسة في معسكر قرب ميدان المعركة . وكان عدد من البدو الذين سبق لهم ان فروا إلى الطائف ، قد اجتمعوا هناك ليفتدوا اقرباءهم ويستعيدوا ممتلكاتهم مقابل الدخول في الاسلام . وهكذا استطاع النبي في سهولة ويسر ، أن يترك الوثنيين محصورين في الطائف ، ويعهد بالتضييق عليهم إلى حلفائهم السابقين .

وبعد أن رجع النبي إلى المدينة ، أخذت الوفود تقبل عليه من جميع القبائل البدوية تقريباً ، خلال السنتين اللتين تلتا ، معلنةً اسلامها طوعاً واختياراً . ولم يُضطر في هذه الفترة ، إلا في القليل النادر ، إلى أن يشنّ حملات تأديبية اثاراً لرُسله الدينيين أو لجباة الضرائب المسلمين في حال الاعتداء عليهم . وفي سنة ٦٣٠ استسلمت الطائف أيضاً بعد أن شدد البدو عليها الخناق ، وانتهى امر بني ثقيف فيها إلى الجوع والاستجداء . وعبثاً حاول رسلهم الذين جاءوا معلنين استسلامهم ان يتلمسوا مهلة قصيرة لألاهتهم اللات ، فقد أبى النبي ذلك عليهم أشد الأباء . ثم إن أحد أفرادهم ، المغيرة بن شعبة ، الذي سبق له ان قصد إلى المدينة والذي سنراه بعدُ انتهازياً لا ذمة له ولا ذمام ، كلف بتحطيم صنم الاهة البلدة . ومن ذلك الحين انقضت مقاومة الوثنية للنبي ، من الوجهة الروحية . وإنما خضع العرب لسلطانه السياسي كقبائل مفردة . حتى بعض النصارى في بلاد العرب

الشمالية نزلوا عن دينهم في سهولة ويسر ، على الرغم من ان كنيسة نجران ، في جنوبي بلاد العرب — التي سبق لها ان برهنت عن تعلقها بإيمانها خلال فترة الاضطهاد العنيف في ظل احد ملوك اليمن اليهود — قد عضّت هذه المرة أيضاً على نصرانيتها بالنواجذ. ولقد استنفد النبي كل ما اوتيه من قوة الحجة ليقنع اسقف هذه الكنيسة ، ابا الحارث ، والأمير عبد المسيح ، بالدخول في الاسلام ، وكانا قد قدما المدينة لمفاوضته وجهاً لوجه ، فلم يوفق إلى ذلك. وأخيراً اكتفى محمد بأن يعقد معهما معاهدة تمنح نصارى نجران حرية المعتقد ، مقابل جزية ضخمة.

محمد والشعراء

والحق ان النبي انتهى ، في هذه الفترة ، إلى أن يبسط سلطته الجازمة على رقاع واسعة من بلاد العرب. وإنما يتجلى لنا ذلك من اعتراف معظم الشعراء الكبار ، في تلك الفترة ، بسلطانه. ونحن نعرف ان الشعراء لم يكونوا في العهد الوثني مفخرة قبائلهم فحسب بل كانوا يلعبون أدواراً سياسية هامة أيضاً ، من طريق مقدرتهم البيانية. ولقد دخل في الاسلام اثنان من أشهر شعراء ذلك العصر ، هما لبيد والاعشى. وكان لبيد قد حظي بشهرة واسعة ، حتى في أيام شبابه ، كناطق بلسان قبيلته ، كلاب ، إحدى قبائل هوازن. ولقد كان في جملة أعضاء الوفد الذي وجهته تلك القبيلة إلى المدينة ، سنة ٦٣١ ، ليفاوض في مسألة الانضمام إلى الجماعة السياسية الجديدة ، وفي ذلك الحين أعلن اسلامه. والواقع ان قصائد لبيد كانت تتميز دائماً بنفحة دينية ، فلما أسلم غلبت على شعره مسحة الدين ، فجاء نموذجاً للشعر الديني الاسلامي. أما الاعشى الذي جاب أطراف بلاد العرب كلها كشاعر طوّاف يتكسب بشعره المدحي ، ينظمه في الامراء المختلفين ، فقد مدح النبي في قصيدة عصماء ، وان تكن صحة روايتها ، كما وصلت الينا ، موضعاً للاعتراض. ولم يكن النبي ، في أعماقه ، شديد

الميل إلى شعرهما ، باعتبار ان الشعر من أجمل مظاهر الحياة الوثنية القديمة . صحيح انه هو نفسه قد اصطنع شاعراً خاصاً ، هو حسان بن ثابت الذي سبقت الاشارة اليه ، ليردّ على بلغاء البدو في اسلوبهم نفسه ، ولكنه كان شديداً على الشعراء الذين يجرأون على تسخير شعرهم للاساءة إلى الاسلام . وكان كعب بن زهير — وزهير هذا من أعظم الشعراء في الجاهلية — يحيا آنذاك مع قبيلة مزينة . وكان قد ورث فن أبيه الشعري ، ولاحظ في كراهية انتشارَ الدين الجديد ، الذي نفذ بتكاليفه الثقيلة نفاذاً عميقاً إلى تقاليد الحياة . فلما دخل أخوه بُجير في الاسلام ازداد غماً على غمّ ، وأطلق لمشاعره العنان ، في قصيدة ساخرةٍ مريرة . ولم يكن في وسع النبي أن يترك كعباً بلا عقاب ، فأهدر دمه ، فهو في خطر دائم إلى أن يوفق لنيل العفو من الرسول . ثم انه أفرغ كامل براعته الفنية في قصيدة رنانة مدح بها سيد العالم العربي الجديد ، وقصد الى المدينة فوفق إلى دخولها سالماً ، وراح يلتمس الوسيلة للمثول بين يدي محمد ، فحظيَ آخر الأمر بذلك . وعلى الرغم من أن قصيدته كانت مطبوعة على غرار الشعر القديم تماماً ، وخالية من أي نفحة دينية أو نَفَسٍ روحي فقد تركت أثراً عميقاً في نفس محمد حتى لقد خلع عليه بُردته الخاصة ، وكانت البردة في بلاد العرب ، كما كانت في فرنسة خلال العصور الوسطى ، كثيراً ما تقدّم جائزة للشعراء والمغنين . والواقع ان كعباً كان شديد الاعتزاز بالهدية النبوية فرفض النزول عنها ، حتى عندما قدّم له الخليفة معاوية ، بعدُ ، عشرة آلاف درهم فيها ، فكان على معاوية أن ينتظر حتى يُتَوفى كعب فيشتري البردة المباركة من ورثته . ومن ذلك الحين صارت تحفظ في خزانة أمير المؤمنين ، بوصفها احدى النفائس الغالية التي تضمها هذه الخزانة ، في دمشق أولاً ، ثم في بغداد حتى عام ١٢٥٨ عندما التهمتها ألسنة النيران أثناء غزو المغول للعاصمة العباسية .

تبوك

ولم يُقدَّر لمحمد نفسه أن يخوض غمرات القتال من جديد إلا مرة واحدة. وذلك بأن الهزيمة التي أنزلها البيزنطيون بجيوشه، في موئتة، ظلت على كل حال بلا ثأر. ومن هنا أمر أصحابه، في أشد أيام الصيف قيظاً من سنة ٦٣٠، بأن يحملوا على البيزنطيين. ولسنا نعرف على اليقين ما الذي دعاه إلى انتهاج هذه السبيل في ذلك الوقت بالذات، فقد يكون قصد إلى أن يشغل أتباعه المدنيين الذين كانوا لا يزالون في حال من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم «حُنين». ولعله كان يرجو إخضاع ما بقي من نصارى العرب، الذين كانت بيزنطة من ورائهم، تمدّهم وتساندهم. ثم إنه خرج بجيش عظيم يبلغ عدد رجاله ثلاثين الفاً ووجهته الشمال، حتى إذا بلغ تَبُوك، وهي واحة تزهو بما ينبت فيها من حنطة ونخيل، قرب الحدود البيزنطية، توقف بعد أن نال منه الجهد، واستشعر وطأة السنّ العالية، ولعله اقتنع بأن خططه للهجوم على الروم أمست غير ذات غناء. وهناك جاءه صاحب أيلة (العقبة اليوم) عند الطرف الشمالي الشرقي من جانب البحر الأحمر الأيمن، وكان نصرانياً، فأقسم له يمين الطاعة، فمنح الرسول نصارى تلك المنطقة حرية العبادة أيضاً مقابل تعهدهم بأداء الجزية.

وكان على الوثنية أن تخسر، وشيكاً، آخر معاقلها. فبعد فتح مكة تحمّل النبي صابراً، أول الأمر، الاحتفال بموسم الحج على الطريقة الوثنية القديمة. وفي سنة ٦٣٠ أرسل ابا بكر من المدينة إلى مكة كأمير للحاج، ولعله قصد بذلك إلى أن يتجنب شهود الأساليب الملتوية الشائعة هناك، فيكون في شهوده لها معنى إقرارها. حتى إذا فرغ الناس من حجهم وانتهوا إلى منى، تلا عليهم عليٌّ صهر النبي، بأمر منه، نصاً شرعياً لا يزال محفوظاً في مطلع السورة التاسعة من القرآن، وبه تبرّأ النبي، نهائياً، من المشركين: فلن يجوز، منذ اليوم، لكائن غير موئمن أن يوئدي الحج داخل

المنطقة المقدسة ، أما العهود التي عقدها النبي مع المشركين فتظل سارية حتى تستوفي آجالها المتفق عليها ، شرط أن يلتزم المشركون نصوصها في دقة . أما من لم يكن لديه عهد من النبي فليس له إلا أن يختار الاسلام ، او القتال حتى الموت . وكان للوثنيين أن ينقلبوا إلى منازلهم ، آمنين مطمئنين ، إلى ختام الأشهر الحُرُم ، فاذا انسلخ الأشهر الحُرُم فعندئذ يتعيّنُ على المسلمين أن يقاتلوهم حيث وجدوهم . والحق ان هذه البراءة كانت فعالة . فلم يضطر المسلمون ، إلا في الأحوال النادرة ، إلى أن يلجأوا الى اصطناع القوة ضمن بلاد العرب نفسها .

حجة الوداع

وفي أواخر السنة العاشرة للهجرة ، ربيع سنة ٦٣٢ ، أصبح في وسع محمد ان يعتبر ان رسالته في بلاد العرب قد تحققت . وللدلالة على ذلك حج إلى مكة مع نسائه جميعاً وعدد عظيم من المؤمنين ، حِجة الوداع ، كما تسمى في كتب السيرة . ولقد نقل الينا المسلمون كل ما قام به النبي من أعمال ، صغيرة كانت أم كبيرة ، في تلك الأيام ، بدقة واسهاب . وإنما يعتبر المسلمون هذه الحجة ، الى اليوم ، نموذجاً يحتذونه في اداء الشعائر المقدسة اداءً صحيحاً . والمفروض ان محمداً القى في اليوم الثاني أو الثالث خطبة في الناس أحدث فيها ، بصورة خاصة ، تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، وفرض فرائض الاسلام الأساسية على المؤمنين .

ولم يكد النبي يقضي حجه ويرجع إلى المدينة حتى أخذت مختلف الأنباء المقلقة ترشح اليها . ففي أواسط بلاد العرب أعلن مسيلمة ، أحد زعماء بني حنيفة ، العصيان ، وبعث إلى النبي برسالة وقحة يسأله فيها أن يعترف بأن له من الحقوق مثل ما له . كذلك ظهرت في الجانب الشرقي الأقصى من الجزيرة ، حيث بنو أسد ، حركة مريبة . ومع ذلك فقد اجتمع رأي النبي على ان يوجه حملة جديدة ضدّ البيزنطيين . وفي آذار سنة ٦٣٢

عهد بقيادة الجيوش التي أعدها لمحاربة النصارى إلى اسامة بن زيد ، أي إلى ابن قائد موتة الذي قتل في ميدانها . وبينا المسلمون يتخذون الأهبة لهذه الغزوة ، مرض النبي بداء الملاريا ، على الأرجح ، وكان من أمراض المدينة المألوفة . وعلى الرغم من أن سنيه لم تكن قد تجاوزت الستين ، على الأكثر ، فقد تطرق الضعف إلى نشاطه بسبب من المصاعب التي حفلت بها سنواته الأخيرة ، وبسبب من الحياة الزوجية الواسعة التي عاشها * .
وما هي إلا فترة قصيرة حتى استأذن نساءه ، وكان يبيت عند كل منهن ليلة ، أن يتمرض في بيت زوجه المفضلة ، عائشة . ثم انه اضطر بعد أن حث المؤمنين الذين أثارهم اختيار أسامة الشاب لرئاسة الحملة ، على الطاعة ، إلى ان يتخلى عن الصلاة بالناس ، وان يعهد بذلك إلى حميه وصديقه القديم ابي بكر . وألح المرض على النبي واشتد ، فصار يهذي في حال وعيه ، وفي يوم الأحد ، ٧ تموز ، حاول أن يملي وصيته الأخيرة ، ولكن عمر رأى من الخير أن يمنعه من ذلك خشية أن يكون في صدور بعض الأوامر عن النبي ، في تلك الحال التي لا تساعد على التفكير الصافي ، ما يتهدد بالخطر قضية المسلمين . وفي الليلة التالية زايلته الحمى بعض الشيء ، وبدا النبي في الصباح وعلى أساريره أمارات التقدم نحو العافية . حتى إذا اجتمع المؤمنون للصلاة انطلق محمد من بيت عائشة ليكحل عينيه بمرأى أصحابه كرّة أخرى . ولكنه لم يكد يأوي إلى فراشه حتى عاودته الحمى من جديد ، وأخذته آلام النزع . فلما كان الظهر ، شعرت عائشة بيده ترتخي في يدها . وطرق سمعها لآخر مرة ، دعاء رقيق : « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى ** » .

(*) عاش النبي ثلاثاً وستين سنة . ولا ريب أن المصاعب السياسية والاجتماعية التي حفلت بها سنواته الأخيرة قد أثرت في صحته . أما « الحياة الزوجية الواسعة » فتعبير بعيد عن التاريخ والعلم ، وهو تكهن لا يمكن الوصول إلى حقيقتــه . أضف إلى ذلك ان الرسول مرض فجأة وكان مرضه الحمى ، مما لا صلة له بما يذهب إليه المؤلف . (ع. ف)

(**) مالك ، « الموطأ » جنائز : ٤٥ . (المعربان)

محمّد وتعاليمه

إذا كانت الحماسة الدينية قد غلبت في مكة على محمد الذي أحسّ في ذات نفسه أنه رسول و « نذير » إلى أبناء موطنه ، فقد انتهى في المدينة إلى أن يُصبح زعيم جماعة سياسية ، ورجل دولة موهوباً لا ينثني عن هدفه النهائي ، وهو السيطرة على بلاد العرب ، ولا يجعل للاخفاق الموقّت ، من مثل معاهدة الحُدَيبية ، سبيلاً إلى إعاقته عما وقف نفسه له . ولقد كان يُعلن أحكامه السياسية ، في المدينة ، بوصفها جزءاً من القرآن * أي جزءاً من الوحي الالهي . ولكن كان لا بد من تعديل الأسلوب ليتلاءم مع المادة ، بينا ظلت الفاصلة (القافية) — وكثيراً ما كانت ضعيفة — هي علامة الأسلوب القرآني .

وليس يجوز أن نُطلق الحكم على دين محمد ، على أساس القرآن وحده طبعاً . وليست المسألة مسألة نظام مرتب ، إذا لم تكن الدقة والتماسك

(*) كانت الأحكام السياسية إذا نزلت في القرآن اعتبرت جزءاً منه ، أما مفردات خطط النبي وسياسته فكانت أموراً دنيوية بحتة . وقد سئل في معركة بدر فيما إذا كان ترتيب المعركة ، على الشكل الذي اتخذه ، وحياً من الله أم انه كان من عنده هو ، فأعلن ان ذلك من عنده هو . ولما اقترح عليه أن يبدل ترتيب المعركة فعل . (ع. ف)

الفكري أقوى جوانبه ، على الاطلاق . ولم يكن عالـَمهُ الفكري من ابداعه الخاص إلا إلى حد صغير * . فقد انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية ، فكيّفه محمد تكييفاً بارعاً وفقاً لحاجات شعبه الدينية . وبذلك ارتفع بهم إلى مستوىً أعلى من الايمان الفطري والحساسية الخلقية .

الجانب اللاهوتي

وإله محمد هو الرب الاله أولاً وآخراً . فمنذ العهد البابليّ والساميّ يتمثل إلهه سيداً عنيداً غريب الاطوار قاسياً لا يُسبرُ غور إرادته لأنها متقلبة غير مستقرة كأرادة طاغية شرقيّ . إن الله لا يفرض أحكامه لأنها مقدسة وعادلة ، بل يفرضها لأنه يُسعده أن يفعل ذلك . ففي مقدوره أن يعدلها أو ينسخها كما يرى موافقاً ، وفي أي ساعة يشاء . ولكن اله محمد هو إلى ذلك لطيف رحيم . لقد استشعر النبي نفسه هذا اللطف . فعرف أنه تعالى لا يرغب في ارهاق المؤمنين بالفروض الدينية بل يريد أن يخفف عنهم ، لما يعلم من ان الانسان خُلق ضعيفاً . (سورة ٤ : ٣٢) ، ومهما يكن من شيء ، فليس ثمة من اطراد في ما يتعلق بهذه الناحية . فأحياناً يُعين الله ، من الأزل وإلى الأبد ، مَن مِنَ البشر سينال النعمة والخلاص بواسطة الأيمان ، ومن سيتسكع في الكفر ويكون مصيره الهلاك الأبدي ، وأحياناً يحاول القرآن ان ينفي إرادة الانسان الحرة . فلا عجب إذا ما وجدنا بعدُ ان أعنف الخلافات الكلامية إنما احتدمت حول هذه النقطة بالذات . وأخيراً سادت العقيدة القائلة بالقضاء والقدر المطلقين ، وساد معها الجَبر الذي أمسى منذ ذلك الحين أحد العناصر الأساسية في نظرة الاسلام الشاملة .

(*) يبدو من هذا المكان ومن الصفحات التالية أن معلومات بروكلمن ضعيفة في ناحية الفقه والعبادات (وهذا غير مستغرب فالرجل لغوي في الدرجة الأولى) . من أجل ذلك أحب ان ألفت نظر القارىء الكريم إلى التفطن لذلك من غير أن أعلق على كل شيء ، وإلا اضطررت الى ان أبسط حقائق الدين الإسلامي من جديد . (ع. ف)

ليس هذا فحسب ، بل إن الوحدانية التجريدية التي كانت إلى حد كبير أساس قوة الاسلام على غزو القلوب واكتساب الاتباع لم تنشأ إلا تدريجاً . ولقد سبقت منا الاشارة إلى نزوع النبي الأولي إلى الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسية شفعاءَ عند الله . وفيما كان المفهوم الالهي يتبلور في وجدان محمد كانت بعض الصفات التشبيهية تجد سبيلها إلى هذا المفهوم . ولقد أدّى هذا أيضاً إلى نشوء اختلافات عنيفة في العقيدة ، خرج منها فريق السنة ، بما قال به من تفسير ظاهري بجميع الآيات القرآنية المتصلة بهذا الموضوع ، ظافراً آخر الأمر ، ظفراً يتوافق وروح واضع الشريعة نفسه .

والعقيدة الأساسية الثانية في الاسلام : ان محمداً رسول الله . لقد اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية * ، وعلّم أن الله قد بعث إلى كل شعب ، في أوقات معينة – ابتغاء تحذير الجنس البشري من الخطيئة ، وبخاصة خطيئة عبادة الأوثان – برسل أوحى اليهم بمشيئته من طريق المَلَك جبريل . وإنما تنتظم كتب اليهود والنصارى المقدسة هذا الوحي الألهي ، ولكنْ محرَّفاً عن مواضعه ، من غير شك . ويُعتبر يسوع (عيسى) الرسولَ المبعوث قبل صاحب الشريعة الاسلامية . وهو كأسلافه الأنبياء قد تنبأ بظهور محمد الذي هو على كل حال خاتم الرسل والنبيين . ولقد بُعث محمد إلى العرب قبل كل شيء ، ولكن كان على دينه ، الاسلام ، أن يعمل لأحياء ملة ابراهيم الخالصة ، التي حرّفها اليهود والنصارى ونَشرِها في أرجاء العالم كله . وليس من الميسور ان نقرّر ، على وجه الدقة ، ما

(*) الخطيئة الأصلية ، أو الخطيئة المميتة ، أو الخطيئة باطلاق هي « مفهوم » مسيحي ولا صلة له بالإسلام . إن خروج آدم من الجنة مع حواء لم يحمل الجنس البشري إثماً معيناً . ولقد أخرج آدم من الجنة قصاصاً له هو . أما سائر المسلمين فلا يعذبون عن آدم ولا بسبب آدم . والنبوة في الإسلام ليست نتيجة لخروج آدم من الجنة . بل هي « ظاهرة اجتماعية » إذ أن الأمم تحتاج بين عصر وعصر إلى من يهديها ويدلها على الصراط المستقيم . (ع. ف)

إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعوٌ لمثل هذه الرسالة العالمية * ، وفي أية فترة من فترات حياته كان ذلك . وكلمة الله إلى محمد هي القرآن . ولقد كان هذا الاسم يطلق ، أول الأمر ، على كل قطعة مفردة من الوحي ، ولم تُستعمل هذه اللفظة (ومعناها : القراءة) علَماً على مجموع الوحي ، إلا في ما بعد . والواقع ان القرآن ، بوصفه قانون الحياة ومحكّها ، إنما أكمِل للمسلمين بسنّة النبي ، أي بأقواله وأعماله كما وصلتنا في الحديث من طريق الصحابة .

ولكن القسم الأعظم من الحديث المتصل بسنّة الرسول لم ينشأ إلا بعد قرنين من ظهور الإسلام . ومن هنا تعيّن اصطناعه كمصدر لعقيدة النبي نفسه في كثير من الاحتياط والحذر .

اليوم الآخر

وفي مكة دارت فكرات محمد الدينية ، أول ما دارت ، على محور الآخرة . وإنما ترجع معتقداته في ما يتعلق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة . ولقد اعتقد بادىء الرأي أن القيامة على وشك الحلول ، ليجد نفسه مضطراً ، بعد ، إلى أن يُغفل تحديد ميقات لها ، لأن الله احتفظ بعلم ذلك لنفسه . وتوقع محمد أن تُعلن ساعة الحساب بنفخة هائلة أو دوي عظيم ، ثم تحدّث بعد عن النفخ في الصور أو عن نداء يوجهه احد الملائكة إيذاناً بقيام الساعة : وعندئذ تُزلزل الأرض في الحال ، وتُسيّر الجبال كالسراب أو تتطاير فهي تمرّ مرّ السحاب فتنقلب هباء منثوراً ، وعندئذ أيضاً تُفجّر البحار ،

(*) الحق أن الرسول قد دعا جميع الناس إلى الإسلام منذ اللحظة الأولى . فقد جاء في سورة المدثر ، وهي الثانيــة من حيث الترتيب التاريخي لسور القرآن : « نذيراً للبشر » . وجاء في سورة الفرقان وهي أيضاً سورة مكية : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمــين نذيراً » . (ع. ف)

وتدور الشمس على محورها ، ويخسف القمر وينشق وتنتثر الكواكب ، وتُفتح السماء فهي واهية ، لتكشف عن العالم الآخر وتعرضه على أعين البشر .

وفي يوم الحشر ، على ما جاء في السور القرآنية الأولى ، يُفتح الكتاب الالهي الذي ينتظم بين دفتيه جميعَ أعمال البشر ويبدأ الحساب على هذا الأساس . فيتلقى كل امرىء بياناً بأعماله ليقرأه بنفسه في صوت جهير ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيَهْ . ثم ان المتّقين يقفون إلى يمين الله فهم أصحاب الميمنة ، ويقف المجرمون إلى شماله ، فهم أصحاب المشأمة ، ويقف حذاء العرش الأتقَون ، وهؤلاء هم المقربون ، جموعاً ثلاثة . أما في السور التي تلت فيرسم القرآن هذا المشهد في الوان أكثر زهواً وأكثر حياة . هناك يزن الله الأعمال بالقسطاس المستقيم ، فيحاول المجرمون أن يجدوا لأنفسهم المعاذير ، ولكن رسلهم الذين بُعثوا في ازمانهم يشهدون عليهم . ويعقب الحساب مباشرةً الثواب أو العقاب . ويساق الذين اتقوا ربهم إلى جنة عَدْن التي تمثلها محمد ، وهو الذي نشأ وسط حاضرة عربية تقع في واد يلفح الوجوه بحرارته المحرقة ، قائمةً على رأس جبل بارد . وهناك ، في الجنة ، عين جارية ، فيها سُرر مرفوعة ونمارق وزرابيّ مصفوفة حولها . وفي الجنة يرتع الصالحون ووجوههم تطفح بشراً ، وعليهم ثياب خضر من سندس واستبرق ، ومناطق من فضة ، ويشربون من عين كان مزاجها كافوراً ، وزنجبيلا ، أو من رحيق مختوم بالمسك . وتحيط بالجنة أشجار دانية الظلال ، مذللة القطوف ، فهم يتخيرون من فاكهتها الكثيرة ما يشتهون . ليس هذا فقط . بل انهم لينعمون بمصاحبة الأبكار ذوات العيون الشديدة السواد (الحور) اللواتي وهبهن الله شباباً سرمدياً . ومباهج الجنة هذه ، كما هو واضح ، تتوجه إلى خيال الرجال دون غيرهم . أما النساء اللواتي منّاهن النبي الجنةَ أيضاً ، فقد وُعدن بالتحرر من البغض

والحسد ، وبمتعة الأحاديث الدينية ، ورضوان من الله أكبر .

وفيما تُفتح أبواب الجنة لأصحاب اليمين ، يساق أصحاب الشمال إلى جهنم ، وهي هوة سحيقة مليئة بالنيران الحامية . ويتوعد محمد الآثمين بأهوال أخرى غير النار ، ولكن من غير تدرّج نظامي في العقوبات كما هي الحال في التخيلات اليهودية والنصرانية للجحيم . وإذا كانت في الجنة عين كالتي وصفنا ففي جهنم عين آنية يشرب المجرمون من حميمها المنتن فيقطّع أمعاءهم . وبدلاً من الفاكهة يقدم اليهم نبات كريه الرائحة لا يسمن ولا يغني من جوع . ولقد سمى القرآن ، في ما بعد ، هذه الشجرة شجرة الزّقوم التي « تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين » (سورة ٣٧ : ٦٢ — ٦٣) . وفي مواطن أخرى يصور القرآن الجحيم موطناً للتعذيب ، فيه سلاسل واغلال ، يشرف عليه تسعة عشر من الملائكة تحت امرة قائد لهم . وإلى جانب عذاب الجسد يلقى أهل النار عذاب الروح ، واتهام الذات ، واللعنات ، والتوسلات المخفقة في سبيل النجاة . وعقوبات الجحيم سرمدية كمباهج الجنة . ولقد لقيت آمال اليهود في أن يقتصر عقاب الآثمين من شعب اسرائيل على عذاب موقت ، معارضةً شديدة إلى أبعد الحدود ، من محمد في المدينة .

الشعائر الدينية

وفرائض القرآن الدينية ليس لها صلة ملازمة بعقيدة المؤمن . إن لها ، كما هو الحال في اليهودية المتأخرة ، صفة الطقوس الخارجية . ونحن نجد بعض السنن الطقسية ، من مثل الوضوء قبل الصلاة ، تحتل عين المكان الذي تحتله الوصايا ذات القيم الأخلاقية الرفيعة ، كالامانة مثلاً . والواقع ان الوضوء أول الواجبات الدينية المفروضة على المؤمنين . أما إذا تعذر وجود الماء ففي الامكان الاستعاضة عنه بالرمل . وثاني الواجبات الصلاة نفسها . وهي تتألف من سلسلة من الصيَغ الثابتة غير المتغيرة ، والآيات

القرآنية التي تُردد في حركات جسمانية تتعاقب في اطـّراد وثبات . وجُماع هذه الصيَغ والحركات يُدعى « رَكعَة » . ويجب أن تكرّر مرتين على الأقل في كل صلاة . وبينا كان محمد وأصحابه يصلون مرتين في اليوم ، في مكة ، وثلاث مرات في المدينة ، كاليهود ، جعلت الطقوس المتأخرة ، المتأثرة بالفرس ، عدد الصلوات المفروضة في اليوم الواحد خمساً ، الأولى قبل الفجر ، والثانية عند الظهر ، والثالثة من الأصيل حتى غروب الشمس ، والرابعة عند المغرب ، والخامسة في العشاء . والمؤذن هو الذي يدعو الناس إلى الصلاة في مواقيتها ، من مِئذنة المسجد . وإنما عرف العرب هذه المآذن ، أولَ ما عرفوها . في البلدان المفتوحة ، التي استعاروا منها طُرُزَها المعمارية . وكانت النماذج التي نقلوا عنها في بلدان البحر المتوسط المنائرَ ، وفي الشام ابراج الكنائس وابراج الحراسة ، وفي فارس والهند ابراج الاشارات . وكانت المآذن بادىء الأمر غير متصلة اتصالاً وثيقاً بالمساجد . والواقع ان العثمانيين هم أول من ضمّ المئذنة إلى المسجد في آسية الصغرى . وفي يوم الجمعة يؤدي المسلمون صلاة الظهر جماعةً . وهي تُرفق بالخطبة ، التي يلقيها إمام المصلين ، أو أحد المبشرين الرسميين في ما بعد ، والتي تُختَم ، بعد صلاة صامتة ، بالشهادة والدعاء لمحمد وآل بيته ، وللعُصبة المختارة من السابقين الأولين إلى الاسلام ، ولجميع المؤمنين وبالتماس التأييد الالهي للجيوش الاسلامية ، وبخاصة للأمير الحاكم — في التقليد المتأخر — الذي تعترف بولايته جماعة المصلين . وليس منبر المسجد الذي تُلقى من عليه الخطبة إلا شكلاً متطوراً من أشكال السُدّة التي اعتاد النبي ، وفقاً للتقليد الشرقي القديم ، ان يرقاها في المناسبات الرسمية . وكان أول من اصطنع هذا المنبر عمال الامصار الذين كانوا يؤمون الناس في أيام الجمعة ، في الصلاة العامة ، بأنفسهم . ولم يُصبح ارتقاء المنبر للخطابة في الناس عادة شائعة إلا في المائة الثانية للهجرة . وبسبيل التميز عن اليهود ، لم يحظر النبي ، كما رأينا سابقاً ، على أتباعه العمل في الجُمَع ،

بل ترك لهم حرية التجارة والسعي وراء الرزق .

وثالث الواجبات الدينية الرئيسية الصوم ، أي الامتناع عن الطعام والشراب وجميع المتع الأخرى ، كالروائح الزكية مثلاً ، من الفجر حتى غروب الشمس ، طوال شهر رمضان . وإذْ كان هذا الشهر ، يقع بحكم السنة القمرية ، في الشتاء حيناً وفي الصيف حيناً فقد صار القيام بهذا الفرض ، وبخاصة في بلدان المناطق الحارة ، عملاً جاهداً كثيراً ما يقتضي المؤمنين تضحيات قاسية . وتعتبر ليلة السابع والعشرين من رمضان مباركةً بشكل خاص . إنها « ليلة القَدْر » التي دُعي فيها النبي إلى اداء الرسالة من طريق السورة السادسة والتسعين . وليس يُعفى من واجب الصيام إلاّ المرضى والمسافرون والجنود السائرون إلى الميدان ، ولكن عليهم أن يعوّضوا عن كل يوم يفطرون فيه ، بيوم آخر ، يصومونه بعد .

الحج

ورابع الواجبات الدينية التي يُفرَض اداؤها على كل مسلم (ومسلمة) مرة في العمر ، على الأقل ، هو الحج إلى مكة (١٣) . ولا مبرر للتخلف عن القيام به إلا الفقر ، أو المرض ، أو الأسر . وعندما يصل الحاج إلى حدود المنطقة المقدسة يستبدل بثيابه لباس الحج (الإحرام) وهو يتألف من قطعتين من القماش ، كائناً ما كان ، تُطرح احداهما حول الكتفين ، وتحيط الأخرى بالخصر . ولا يجوز أن يضاف إلى ذلك غير نعل للرجل . أما الرأس فيتعيّن أن يظلّ حاسراً حتى في قيظ الصيف ولهيبه . ذلك هو اللباس الذي كان يُصطنع في أطوار المدنية الأولى المنقضية ، وهو طقس لا يزال باقياً في الاسلام بقاءَه في الأديان الأخرى . وفي مكة نفسها يزور الحاج ، أول ما يزور ، الكعبة . والكعبةُ بناء يكاد يكون مكعّبَ الشكل ،

(١٣) انظر سنوك هورجرونيه **Snouck Hurgronje, Het Mekkaansche Feest, Leiden, 1860.**

إذ يبلغ طوله اربعين قدماً ، ويبلغ عرضه ثلاثين قدماً ، ويتراوح ارتفاعه بين خمسة وثلاثين وبين أربعين قدماً . وهي مكسوة بالقماش من جوانبها الأربعة جميعاً . وتقوم الكعبةُ في وسط رقعة من الارض المكشوفة ، أو أقرب ما يكون إلى وسطها ، تبلغ حوالى مائتي خطوة طولاً ، ومائة وخمسين خطوة عرضاً ، وليس عليها اليوم إلا بعض الأبنية الصغيرة المنشأة على أطرافها ، يُحيط بها صفان من الاعمدة . وكانت الكعبة ، قبل الفتح ، تنتظم صوراً للآلهة ، أما الآن فلعلها لا تحتوي غير الثريات وأسباب النظافة . وزوايا الكعبة تشير ، على وجه التقريب ، إلى الجهات الأربع . ويضم الحائط اليماني ، على ارتفاع خمسة أقدام عن سطح الأرض ، الحجرَ الاسود الشهير الذي يتألف اليوم من عدد من الحجارة الصغيرة وثلاثة أحجار أكبر منها ، والذي يشدّ بعضَ اجزائه إلى بعض شريطٌ فضي . ولعل هذا الحجر أقدم الأوثان التي عرفتها مكة قبل الاسلام * ، وهو يشبه الحجارة المقدسة الأخرى التي كثيراً ما نجدها عند الساميين . ولقد أخذ محمدٌ عادة تقبيله أثناء الحج دون أن يضع لها أساساً معيناً . والحق اننا لا نجد منذ فجر الاسلام ضعفاً في معارضة كل تقديس للحجارة والانصاب ، على اعتبار أن ذلك ضرب من الوثنية . وإلى جانب الكعبة تقوم بئر زمزم التي تذهب الرواية إلى انها قد أنقذت اسماعيل ، جدّ عرب الشمال ، وأمه هاجر ، من الموت عطشاً . وبعد أن يطوف المؤمنون حول الكعبة يشربون من مائها ، في احتفال وإعظام . ثم يعقب ذلك السعي بين الصفا والمَروة ، وهما علَمان على تلّين ، لا يبدو انهما يرتفعان اليوم إلا قليلاً عن سطح الأرض . وتمتاز الصفا ، وتقع على بُعد خمسين خطوةً تقريباً من جنوب شرقيّ المسجد ، بثلاثة عقود يُرتقى اليها بثلاث درجات حجرية . أما المروة فتقع على نحو ستمائة قدم ، بعيداً عن الصفا ،

(*) مر معنا أن تقبيل الحجر الأسود عمل رمزي تاريخي لا دخل له في العقيدة الإيمانية ولا في العبادة . (ع. ف)

ولها منبر يُرتقى اليه أيضاً على درجات . وعلى المسلم ان يجتاز المسافة بين التلّين سبعَ مرات مهرولاً ، بحيث ينتهي عند المروة . وبذلك تتم شعائر الحج الاصغر ، العُمرة . ولقد أضيف هذا الحج إلى الكعبة في شهر رجب ، قبل محمد بزمن طويل ، على ما يظهر ، إلى الحج في شهر ذي الحجة (آخر أشهر السنة) الذي كان في الاصل مقتصراً على الاجتماع في عرَفات .

وفي الحج السنوي الكبير ، في الثامن من ذي الحجة ، يمرّ الحجّاج ، بعد الطواف الأول حول الكعبة ، بمِنى ، حيث كان يجب أن يبيتوا ليلتهم السابقة ، إن استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، ومن ثم يُفيضون إلى السهل الواسع الممتد عند سفح جبل عرفات ، وهو مرتفعٌ صخري يقع شرقي مكة ، على مسافة تجتازها الأبل في مدى أربع ساعات . وتذهب الروايات الاسلامية إلى أن جبريل قد علّم آدمَ الصلاةَ على قمّة عرفات . وإحياءً لهذه الذكرى ، يستغرق الحجّاج في التأمل ، هناك ، فترة طويلة ، تبدأ ظهر التاسع من ذي الحجّة ، وتنتهي عند غروب الشمس . حتى إذا هبط الليل عادوا ليقضوا ليلتهم في المزدَلفة ، بين عرفات ومنى . وفي صباح اليوم التالي يقصدون إلى منى . وبعد أن ينالوا قسطاً من الراحة فيها يجتمعون أمام ركام من الحجارة [وهي جمرة العقَبة] يتعين على كل حاج ان يرميه بسبعٍ من الحصى . والمفروض ان يكون ذلك احياء لذكرى ابراهيم الذي طرد مرة ، بهذه الطريقة ، الشيطانَ الذي اعترض سبيله . وها هنا يُختم العيد بشعيرة التضحية . من أجل ذلك يسوق البدو إلى مِنى قطعاناً عظيمة من الخراف ، [الهَدْي] ، فيولي كل من الحجاج وجهه قِبلَ مكة ويذبح أحد هذه الخراف وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله اكبر ! » ثم إن الحجاج يخلعون ثياب الإحرام ويقصون شعورهم التي لم يكن جائزاً أن تَقرَبها الموسى خلال الفترة المقدسة . وعندئذ يعودون إلى مكة ، فيطوفون حولها سبع مرات أخَر ، ويسعَوْن بين الصفا والمروة ، إذا لم يكونوا قد سعَوا بينهما عند وصولهم مباشرة إلى

مكة ، بعد تقبيل الكعبة . ويقضي الحجاج فترةَ ما بين الحادي عشر والثالث عشر من ذي الحجة في مِنى ، فيختلفون إلى الموائد الغنية ، فرحين مستبشرين . والواقع ان الصيام الذي يُعتبر عملاً صالحاً يستحق عليه فاعله المثوبةَ ، في كل حين ، مُحرم تحريماً صريحاً خلال هذه الأيام . وليس يبقى بعد ذلك من شعائر الحج غير القاء سبع حصَيات ، كل يوم ، على جمرة [العَقَبة] المشار اليها آنفاً وعلى اثنتين صُغْريَين ، غيرَ بعيد عنها .

وهذه الايام الثلاثة تُعتبر عيداً ، أيضاً ، لاولئك المسلمين الذين لم يشاركوا في الحج . انه العيد الكبير الذي يدعوه الاتراك « قربان بَيرَم » ، أو عيد الأضحى ، ويتعين أثناءه أن يذبح خروف في كل بيت من بيوت المسلمين .

أما الفرض الخامس من فروض الاسلام ، الزكاة ، فقد انتهى إلى أن يكون ضريبة للدولة خلال تطور المجتمع الاسلامي ، على ما سنرى بعد . ولا تنبثق الصدقات من رغبة المسلم التقي في أن يسعف أخوانه المعوزين ، فحسب ، ولكنها تعتبر كذلك وسيلة تحرره من جزء من أمواله التي تشده إلى الدنيا الفانية ، وتبعدُه عن السعادة الأخروية .

الجهـاد

وإلى جانب هذه الفروض الدينية الخمسة التي تعتبر مقدسة ، نجد حياة المسلم الخاصة والعامة ، كلها محاطة بسلسلة طويلة من الواجبات التي يتعين عليه العمل بها كجزء من الدين . ولن نعرض هنا إلا لأهم هذه الواجبات عرضاً موجزاً .

يتحتّم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم : لأن محاربة غير المسلمين * واجب ديني . فأما أهل الوثنية فيجب أن يهاجموا

(*) يخلط المؤلف بين الكفار وبين أهل الكتاب . الكفار هم عبدة الأوثان(وإشارة القرآن=

في غير ما تردد ، وأما النصارى واليهود فلا تجوز مهاجمتهم إلا بعد أن يدعوا إلى الدخول في الاسلام ، فيرفضوا ثلاث مرات متواليات . حتى إذا هُزِم اعداء الدين كان نصيب رجالهم القتل ونصيب نسائهم وأطفالهم البيع في سوق الرقيق . وكل من يقتل في الجهاد من المسلمين يكون مأواه الجنة ، بوصفه شهيداً من الشهداء . ولكن من الجائز أن يعقد المسلمون المعاهدات مع اليهود والنصارى اسوة بالنبي . ولقد عومل الفرس أتباع زرادشت في ما بعد ، معاملة اليهود والنصارى إذ اعتبرهم المسلمون من « أهل الكتاب » . ولكن أمثال هذه العقود والمعاهدات إنما ترجيء واجب الجهاد ، ولا تنسخه .

وفي الحياة اليومية يخضع الطعام والشراب ، بخاصة ، لقواعد وقيود تتفق بعض الشيء وما جاء في التوراة . فجميع الحيوانات غير المذبوحة أو المقتنصة في الصيد لا يجوز ان تؤكل لانها نجس . كذلك يتنجس الدم واللحم إذا لامسهما شيء غير نظيف ، كالكافر مثلاً * ولقد حرم الاسلام على أتباعه أكل جوارح الوحوش والكلاب والقطط والخنازير جميعاً ، كما حرم جميع أنواع الشراب المسكر . وعلى الرغم من أن القرآن لا يذكر غير الخمر ، فقد وسع الفقهاء ، في ما بعد ، نطاق التحريم ، بالقياس ، حتى لشمل الكحول في مختلف أشكالها ، ولكن دونما نجاح مطرد في جميع الأحيان . وبالاضافة إلى الخمر ، يحرم القرآن الميسر الذي كان ، بوصفه اقتراعاً على جزور الجمال والنياق ، بصورة خاصة ، شائعاً جداً في بلاد العرب قبل الاسلام ومسؤولاً عن إفقار الكثيرين . أما تحريم التماثيل

= الكريم إنما هي إلى العرب من عبدة الأوثان) فهؤلاء يجب أن يقاتلوا (بالبناء للمجهول) لأن العربي لا يجوز أن يبقى وثنياً . أما أهل الكتاب كالنصارى واليهود (أينما كانوا) فلا سبيل عليهم . إنهم أحرار في دينهم وشؤونهم ولكن الإسلام يقاتلهم إذا نقضوا عهده أو حاربوه ، ما هو داخل في باب السياسة والحرب لا في باب الدين والدعوة . (ع. ف.)

(*) الصواب : إذا ذبحها كافر . (ع. ف.)

فقائم على اعتقاد خرافي مشترك بين عدد من شعوب الأرض ، لا يذكره (الاسلام) إلا في الحديث * . ومع ان المسلمين كثيراً ما خرجوا على هذا التحريم في أوج الحضارة الاسلامية فقد حال التحريم دون نمو فن النحت وازدهاره .

نظام الزواج

ومع ان نظام الزواج الاسلامي قد وضع حداً لحرية الاتصال الجنسي بين الرجال والنساء ، هذه الحرية التي كانت عامة في بلاد العرب الجاهلية ، فانه لم يلغ تعدّد الزوجات ، بل حدّد عدد هؤلاء الزوجات بأربع ، بالاضافة إلى ما تملكه يمين الرجل من الرقيق . ولم يُجز النبي لأحد غيره أن يتزوج عدداً غير محدود من النساء . ولكن الشرع ينص على ضرورة اعالة كل امرأة حسب مركزها الاجتماعي . ومن هنا وجب على الكثرة المطلقة من المسلمين أن يكتفوا بزوجة واحدة ، لأسباب اقتصادية على الأقل . والطلاق في الاسلام أمر ميسور جداً ** غيرّ شك ، ولكنه في الواقع لا يعدو أن يكون تعويضاً ضرورياً عما تفرضه العادة من الفصل بين الجنسين ، فصلاً ينتفي معه امكان زواج الحب ، أو يكاد . ولما كان في استطاعة كل مسلم أن يجمع ، إلى زوجاته الأربع الشرعيات ، العددَ الذي يروق له من السراري *** فقد اشتدت نزعة أبناء الأسر الموسرة

(*) جاء في الحديث : « إن أصحاب الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم » (سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات : ٥) وجاء أيضاً : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب و لا صورة » (صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق : ١٧) . (المعربان)

(**) الطلاق في الإسلام صعب جداً . ولكن غاب عن المؤلف أن الزواج في الإسلام « نظام اجتماعي » لا عقيدة دينية . وكم من دولة غربية راقية اليوم قد رفضت الزواج كعقيدة دينيـة وأقرته كنظام اجتماعي (زواج مـدني) وجعلت الطلاق فيه أهون ممـا هو في الإسلام أضعافاً مضاعفة . (ع. ف)

(***) إن الجمع بين أربع زوجات أمر عسير جداً (حتى في الدين) وللسراري نظام أشد=

إلى الاستخفاف بالحياة العائلية الهادئة . وشرعية الطفل لا تعتمد على الوضع الذي تكون عليه أمه ، بل على اعتراف والده به ، فحسب ، الأمر الذي يساوي بين حقوق أبناء الجارية وأبناء الحرة في الميراث . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت نبالة النسب ، خلال القرون الأولى من الاسلام ، تتأثر إلى حد بعيد بالخؤولة أيضاً ، في أوساط الارستقراطية العربية على الأقل . وليس من شك في أن نظام الحريم الذي ظهر ، أول ما ظهر ، في العصر العباسي ، هو الذي فتح باب الهجانة على مصراعيه .

الرق في الإسلام

ولم يتعرّض محمدٌ لنظام الرقيق باكثر مما تعرّضت الكنيسة المسيحية الأولى لهذا الأساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء ، ولكنه لطّفَ من حدة هذا النظام بطرائق مختلفات . وعلى كل حال فالرقيق في الاسلام ، سواء أوُلد في منزل صاحبه أو اشتري من سوق النخاسة أو أسر في احدى الحروب ، يُعتبر من الناحية الشرعية متاعاً يمكن أن يُورث أو يُعتَق . والحق ان لمالك الرقيق حرية التصرف بشخص رقيقه وعمله ، ولكن يتعين عليه أن يحسن معاملته . أما إذا رغب السيد في أن تكون له ذرّية من احدى جواريه فعندئذ لا يجوز ان يبعث بها إلى خارج بيته ، حتى إذا توفي اكتسبت حريتها . وعلى الجملة فَعِتقُ العبدِ يعتبر في الاسلام عملاً صالحاً . كذلك يستطيع العبد أن يشتري حريته إذا وفّق إلى أن يجمع ثمنها بعرق جبينه ، ولكن العتيق يظل في مثل هـــذه الحال مرتبطاً بعض الارتباط بسيده كمولى من مواليه .

= عسراً . وكل ما فعله الإسلام انه سمح (بعد حرب أو زيادة عظيمة في عدد النساء) أن يدخل المسلم في « عصمته » عدداً من النساء يعولهن ويحفظ شرفهن ويهب اسمه لأبنائهن فلا ينصرفن إلى التزين لجميع أنواع الرجال وامتهان عرضهن في سبيل سد حاجاتهن الاقتصادية والنفسانيـــة ، ثم ملء العالم بنسل طبيعي غير شرعي يلقي على عاتق المجتمع أعباء كثاراً . (ع. ف)

أما القانون الجزائي في الاسلام فقد ظلّ على مستوى يقرب من السذاجة ، وهو لا يمثل إلا تقدماً ضئيلاً بالنسبة إلى مفاهيم القانون الوثنية القديمة. فالقاتل عرضةٌ للموت من طريق الثأر. والقتلُ من غير تعمّد يُعوّض عنه بالدية تُدفع إلى أهل القتيل. وقد يُقتص لضروب الأذى الجسماني التي يُلحقها شخص بآخر وفقاً لمبادىء المقابلة بالمِثل — « عينٌ بعين ، وسن بسنّ » — ولكن المجرم يستطيع أيضاً أن يفتدي نفسه بالتعويض على غريمه بالمال. وعقاب السارق قطع يده اليمنى ، حتى إذا عاود السرقة خضع لتشويه جسدي آخر. وعقوبة الزنا مائة جلدة بالسّوْط ، بيد أنه إذا أغوى رجل غير مسلم امرأةً مسلمة فعندئذ يصبح عرضة لعقوبة الموت. أما من جدّف على الله ، أو على النبي وأسلافه ، فيعاقب بالموت ، كالمرتدّ عن الاسلام ، اذا ما أصرّ على كفره. *

(*) الكلام على « القانون » يطلب تفنيداً واسعاً أشير هنا اليه فقط. إن المؤلف قد جمع كل شيء في « قانون الجزاء الإسلامي » في بضعة أسطر كثيرة الخطأ. إن القاتل في الإسلام لا يثأر منه ولكن الدولة تقتله — كما تفعل الدول اليوم — أما التجديف ففكرة مسيحية لا إسلامية. وقد حشرها المؤلف هنا حشراً. إن القتل عقاب المرتد عن الإسلام ، والارتداد عن الإسلام لا يكون إلا بشيئين فقط : جحد الله وإنكار نبوة محمد. وكل ما عدا ذلك لا يخرج عن الإسلام كما قال الغزالي. (ع. ف)

الخلفاء الأربعة الأول

ما كاد الرسول يلحق بالرفيق الأعلى حتى احدقت الاخطار بالرسالة التي وقف عليها حياته ، أعني توحيد بلاد العرب دينياً وسياسياً . ففي المدينة نفسها أحدث النبأ الذي لم يتوقّعه أحد اضطراباً هائلاً شغل الناس عن كل شيء ، حتى عن جثمان الرسول نفسه ، فلم يُدفن إلا في اليوم التالي . في بيت عائشة . والحق ان جميع الأحقاد السياسية التي كان النبي قد كبتها بنفوذه الأدبي لم تلبث أن ذرّت قرنها . فمن ناحية كان عدد المنافقين لا يزال في المدينة كبيراً جداً . ومن ناحية ثانية كان الانصار العريقون في المدينة يتوقون إلى التحرر من سلطان الأغلبية المتمثلة في المهاجرين ، ليصبحوا سادة موطنهم الوحيدين ، كرّة أخرى . ثم ان علياً ، ابن عم النبي وزوج بنته ، ادّعى لنفسه الحق في خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه أقرب الناس رحماً اليه . ولكنه كان ، كسعد بن عُبادة سيد الانصار ، الذي طمع في الخلافة أيضاً ، لا يملك من القوة أو من النفوذ ما يساعده على تحقيق طلبته . ومن هنا لم يلبث أصحاب محمد السابقون أن وُفقوا إلى اقناع الناس بالاعتراف بأبي بكر — والد عائشة زوج النبي ، وكان يتمتع مع عمر بن الخطاب وابي عبيدة بن الجرّاح بنفوذ كبير عند محمد — خليفةً له ، فلم يعد في وسع

الانصار إلا أن يبايعوا الأمير الجديد.

ارتداد البدو

ولكن موجة من الارتداد ما لبثت أن طغت على الحياة في بلاد العربَ. والواقع ان الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة إلا نادراً، كل ما في الأمر ان بعض العرب رغبوا في أن يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبة، في المدينة. ومما تجدرملاحظته ان الانبياء الذين تزعموا حركات الثورة عملوا، كما عمل محمد، باسم الله، لا باسم أي من الآلهة القديمة. ولقد أعلن بعض المرتدين انهم لا يزالون راغبين في أن يعبدوا الله، ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وإنما استاؤوا بخاصة من الرسل الدينيين الذين كان محمد يبعث بهم في السنوات السالفة إلى كثير من القبائل ليعلّموها الدين الجديد ويجمعوا من أفرادها الزكاة. فقد كان هؤلاء الرسل العاملون في خدمة الحكومة المدنية. مصدر إزعاج وإعنات في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتّع من قبل بكامل حريتها واستقلالها في مراعيها الخاصة.

وكان النبي قد شغل نفسه، في أيامه الأخيرة، باعداد الجيوش للانتقام من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين في موتة. فوجد أبو بكر نفسه مسؤولاً عن إنفاذ خطة النبي الأخيرة هذه، على الرغم من أن الأنباء المخوفة عن شيوع الاضطراب في انحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة من كل حدب وصَوب. وهكذا وجّه أبو بكر نخبة جيوش الاسلام الى الشمال تحت قيادة أسامة، ولكننا لانعرف شيئاً عما استطاعت هذه الحملة ان تحققه من الأعمال، بل لسنا نعرف ما إذا كانت قد اجتازت الحدود البيزنطية أم لا. و مهما يكن، فقد قضى أسامة وجنوده شهرين خارج المدينة، وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين في مركز لا يساعدها كثيراً على الدفاع عن نفسها. والواقع ان أسداً وغطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبُت لهم ويصدهم

عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة ، فعَهِد عندئذ بالقيادة إلى « سيف الله » المجرّب ، خالد بن الوليد ، الذي هزم كلتا القبيلتين عند بئر بزاخة هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام في الحال .

مسيلمة وسجاح

أما فتنة بني حَنيفة في اليمامة فقد كانت أمرّ عوداً وأشد خطراً . ففيما كان محمد لا يزال على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل اسمه مَسْلَمَة — وقد دعاه المسلمون مُسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير — وادعى النبوّة ، مطالباً حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها . وطبيعي ان لا تحمل الينا الروايات الاسلامية غير نتف صغيرة من تفكيره الديني . والذي يبدو ان مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً ، فأوصى بالصيام وحرم الخمرة ، وحض أتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي إلى أن يرزق ابناً ذكراً ، فحسب . وفي الواقع اننا نقع في خطبه على أصداء من الافكار المسيحية بأكثر مما نجد في أحاديث محمد . فقد أفرغت في لغة رجل بدوي يحرث الأرض ، فهو يتكلم عن « الشاء السود ، وعن اللبن الأبيض ، وعن الطاحنات والخابزات ، وعن الضفدعة التي تعيش في الماء والطين ، ولكنه يتكلم أيضاً عن مملكة السماء ، وعن ذاك الذي سيأتي من السماء . » ولقد كان لهذا الرجل ، على الرغم من سذاجته ، اثر كبير في نفوس أتباعه حتى ان كثيراً منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه .

وفي شمالي الجزيرة أضرمت امرأة تدعى « سَجاح » نيران حركة تشبه حركة مسلمة ، بين أفراد قبيلة تميم ، النازلة على مقربة من الحدود الفارسية . وإنما ظهرت سجاح ، أول ما ظهرت ، بين اخوالها بني تغلب في العراق ، وكانت النصرانية واسعة الانتشار فيهم . حتى إذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم الذين

كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب ، فهم يؤلهون الشمس ، على الخصوص . ولم يؤيدها أولَ الأمر غير أقربائها الادنين ، بني حنظلة ، ولكنها ما لبثت أن بسطت سلطانها على القبيلة برمتها . وتذهب الروايات إلى انها اتجهت بعدُ إلى الجنوب وعقدت حلفاً مع مسلمة ، ولكنهما لم يوفقا إلى توحيد قوى أتباعهما في نضال مشترك ضدّ المدينة . وهكذا لم يعتم الحليفان أن افترقا ، فرجعت سجاح إلى العراق ، حيث اختتمت نشاطها العام . وفي الاخبار أنها ماتت على الاسلام . والواقع انه عندما ظهر خالد بن الوليد في أراضي تميم تقدم اليه القوم بالطاعة في كل مكان تقريباً ، ولم يشذّ عن هذا الاجماع ويخلص لايمانه بسجاح ، حتى النهاية ، إلا مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، من حنظلة،الذي ارتد عن الاسلام ، عقب وفاة النبي مباشرة . ولكن خالداً ما لبث أن طوّقه وجنوده فاضطر الى الاستسلام أيضاً . ومع ذلك فقد أمر خالد بقتله ، وبقتل جميع أتباعه طمعاً منه في زوجة مالك الجميلة ، على ما تقول الرواية .

وبعد اخضاع تميم انقلب خالد إلى اليمامة لقتال أصحاب مسلمة وكانوا قد هزموا قوة اسلامية يقودها عِكرِمة . وسار مسلمة بعد هذا النجاح الأولي حتى بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة في عَقْرَبة ، لم تعرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قبل . ولكي يُلهب خالد طموح رجاله ، فقد جعل كلا من المهاجرين والانصار والبدو يحارب مستقلاً عن الآخر . وكانت قوة مسلمة التي تتألف من بني حنيفة تفوق قوة خالد عدداً ، فقاتلت قتالاً شديداً ، فانكشف المسلمون وأشرفوا على الهزيمة . ولكن سخرية بني حنيفة بهم دعتهم إلى أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد ، فوفقوا أولاً إلى أن يضعوا حداً لتقدم العدو ، وما لبثوا أن ردّوه على عقبيه شيئاً بعد شيء . فلما رأى بنو حنيفة ان الهزيمة لا بدّ واقعة بهم تراجعوا إلى حديقة واسعة ، ابتغاء ان يجدوا في حيطانها المنيعة ما يقوي مركزهم ويقيهم عادية هجوم المسلمين . غير ان هذا العمل بالذات هو الذي انتهى بهم

إلى الهزيمة ، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت ، كما تدعوها الروايات ، وفتكوا بأعدائهم فتكاً ذريعاً لم ينج منه أحد ، حتى مسلمة نفسه . ولم تكن خسائر المسلمين يسيرة ، فقد استشهد من المهاجرين والانصار وحدهم سبعمائة رجل ، بينهم كثير من أصحاب الرسول السابقين إلى الاسلام ، وكبار حفظة القرآن

والحق ان هذه الغلبة التي اشتراها المسلمون بثمنٍ غالٍ ، لم تقرر مصاير بني حنيفة فحسب ، بل مصاير العرب على الجملة . فقد احتمت فلول قوات مسلمة ، المشتتة ، في حصونها ثم استسلمت حذرَ الموت . وبذلك قضي هنالك على الثورة قضاء مبرماً .

فتح البحرين وعمان

وعرفت البحرين ، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج الفارسي والتي تم اخضاعها قبيل وفاة النبي ، محاولةً أخرى للتخلص من سلطان المسلمين . ففي هَجَر ، العاصمة ، تزعم حركة الردة رجل من نسل المناذرة الذين سبق لهم ان بسطوا سلطتهم على هذه المقاطعات . ولكن العلاء [الحَضْرَمي] ، وهو العامل الذي عيّنه محمد نفسه على البحرين ، اعتصم في حصن يقع إلى الشمال من هَجَر ، وثبت هناك يقاوم المرتدين حتى أقبل خالد لنجدته بعد أن قضى على مَسلمة . ثم ان خالداً سار بنفسه إلى هَجَر ، فأخضع الثورة في غير مشقة . أما سكان السواحل ، ومعظمهم من الفرس فقد أبدوا مقاومة أطول وأعنف . والواقع أن زعيمهم فيروز ظل معتصماً في الزارة ، الواقعة على ساحل البحر (ولعلها القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر . وعندئذ فقط استطاع عامل المنطقة : العلاء ، أن يُكرهه على الاستسلام ، بعد أن قطع عنه الماء .

فاذا انتقلنا إلى عُمان نجد ان السكان ، ومعظمهم من صيادي الأسماك وقرصان البحر ، قد وفقوا إلى الاحتفاظ باستقلالهم طوال العصور الوسطى

كلها ، تقريباً ، حتى عهد سلاطين مَسقط الحاليين . وفي ذلك الحين نشبت ثورة على سلالة الجُلَنْدي الحاكمة التي سيطرت على تلك المنطقة ، فاغتنمها المسلمون فرصة للتدخل . وكان الملك عمرو قد دخل في الاسلام ، ولكن الاعراب في الداخل ثاروا على جباة الضرائب الذين وجههم اليهم ، بناء على أمر الحكومة المركزية . فطلب ابو بكر إلى عِكرمة ، الذي أبلى بلاء حسناً في مقاتلة مسلمة ، ولكن على غير طائل ، ان يخف إلى نجدة الملك ، فاضطر الاعراب إلى الخضوع لقوات المسلمين المشتركة .

فتح حضرموت واليمن

ومن عُمان سار عكرمة إلى حضرموت واليمن ، حيث كانت الثورة قد نشبت في وقت مبكر جداً ، وكانت عنيفة قضى المسلمون في اطفاء نيرانها مدة طويلة لم يقضوا مثلها في المناطق الأخرى . وفي الوقت الذي أخذ الاسلام ينتشر أثناءه في البلاد كان الاعراب النازلون في الجزء الشمالي منها ، أي تِهامة ، قد قضوا — أو كادوا — على السكان السَبَئيين القدماء القاطنين في الجزء الجنوبي الخصب الواقع تحت نفوذ الفرس . وإذ قد أصاب الانحطاط السريع الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى الثاني (ابْرَويز) الساساني ، سنة ٦٢٨ ، فقد تُركت الولايات العربية ، وبخاصة اليمن النائية ، لتدير شؤونها بنفسها . وفي غمرة من هذه الفوضى العامة التي اجتاحت البلاد ، أعلنت قبائل كثيرة اسلامها ، من طريق الوفود التي بعثت بها إلى المدينة ، عقب فتح مكة . ولقد وُفق النبي ، قبل وفاته ، إلى اقرار النظام في البلاد ، وإلى تعيين ما يجب أن تؤديه من الضرائب تعييناً صار في ما بعد مثلاً يحتذى . ومع ذلك فلم يقضِ عماله على صغار الحكام المحليين المتعددين ، بل عاضدوهم كما يعاضد ممثلو الدول الاستعمارية اليوم الامراء الوطنيين . ولقد أنشأوا نظاماً للمراقبة عاماً ، ونظموا شؤون التشريع والعبادة ، وجبوا الضرائب ، قبل كل شيء . وإذ كان هذا المظهر غير الشعبي من

مظاهر سلطة العمال الرسمية ، كثيراً ما يحملهم على اصطناع تدابير قاسية ، فقد ثار عليهم الناس في حضرموت ، والنبي لا يزال على قيد الحياة ، ثورة لم تلبث أن قمعت بأقصى الشدة . وحتى قبل هذه الثورة ، ظهر في قبيلة الأوس رجل ادّعى النبوّة اسمه عَبْهلة * ذو الحمار « أي راكب الحمار » (منذ القدم والحمار يعتبر في الشرق ، عموماً ، الدابة التي يمتطيها المخلّص المنتظر [زكريا ٩ : ٩] . وهذا هو السبب الذي من اجله دخل يسوع القدس وهو راكب على اتان ، والذي من أجله سُمّيَ مؤسس احدى الفرق المتعصبة الناشئة في شمالي افريقية في القرن العاشر « ذا الحمار » . بل ان احد الذين ثاروا في مطلع هذا القرن على سلطان مراكش اشتهر بلقب « بو حمارة ») . وكانت الوحدانية منتشرة انتشاراً واسعاً على أيدي اليهود والمسيحيين في جنوبي بلاد العرب ، ومن هنا لم يدعُ ، ذو الحمار ، الناس إلى عبادة صنم ما ، أو وثن ما ، ولكنه دعاهم إلى أن يعبدوا الله الرحيم . وجاءته الانباء بمرض النبي محمد بُعيد عودته من حجة الوداع ، فشجعه ذلك على اعلان دعوته ، فهاجم من نجران العاملَ الفارسي الذي كان لا يزال مقيماً في صنعاء . حتى إذا هزمه أمست اليمن كلها منطرحة على قدميه . ولكن محمداً استطاع ، برغم مرضه ، أن يفيد من نفوذه هناك ، من طريق رسله ورسائله ، حتى لقد اجتمع المخلصون له على حرب النبي الكاذب . ثم ان [الابناء ، وهم] ارستقراطيو صنعاء الفُرس ، اتفقوا في ما بينهم ، بتحريض من أحد الرسل المسلمين ، على قتل عبهلة ، فتم ذلك على ما تقول الروايات قبل وفاة محمد بيوم واحد . ولكن ردّة أخرى ما لبثت أن عقبت هذا النصر الاسلامي الموقت . ذلك بأن رجلاً اسمه قيس [بن عبد يغوث] ، وكان أحد أصحاب عبهلة واعلاهم مقاماً ، أعلن الثورة على الفُرس بمعاونة العرب وتأييدهم . فما كان من ابي بكر إلا ان وجّه اليه جيشاً يقوده عاملٌ كان محمدٌ نفسه قد عينه على جزء من حضرموت ، فقضى على الفتنة وأقر

(*) هو الأسود العنسي . (المعربان)

الأمن في البلاد .

وهكذا ، وبعد أن خضعت بلاد العرب كلها في هذه الفترة القصيرة من الوقت ، نسبياً ، لسلطة الاسلام ، صار في مقدور ابي بكر أن ينفذ خطة النبي الأخيرة ، تلك التي تقضي بنشر الايمان في ما وراء حدود الوطن الأم . ذلك بأنه كان عليه ان يوجد فرصةً من النشاط الخارجي لهذه القوى التي كانت في الماضي على استعداد دائم لأن تتفانى في منازعات لا نهاية لها . ولكنه بدلاً من أن يهاجم بيزنطة – كما حاول النبي من قبله ، إذ غالى في تقويم قوة أصحابه ولم يحالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية ، وبخاصة في ما يتعلق ببيزنطة – تطلّع أول الأمر إلى المشرق ، نحو الأمبراطورية الفارسية ، بعد أن رأى إلى ضعفها البيّن ، منذ عهد غير قصير .

فارس في ظل الساسانيين

وكانت فارس ورومة تتنازعان السيادة على الشرق الأدنى منذ قرون عديدة . وكان الساسانيون قد صدّوا تقدّم الدولة الرومانية الشرقية في الجزيرة ، كما صدّه أسلافهم الفرتيون في عهد الارساكيين . وفي عهد كسرى الثاني (٥٩٠ – ٦٢٨) اندفع الفرس في هجوم قوي على أعدائهم ففتحوا القدس ، واستولوا على مصر نفسها (١٤) ولكن الامبراطور هرقل لم يلبث أن انتزع من كسرى ثمرات النصر الذي تمّ له ، وتعقّبه حتى عاصمة مُلكه بعينها . وهناك قُتل الملك الفارسيّ ، بيد ابنه قُباذ الذي ما لبث أن فاوض الامبراطور في الصلح . ومن ذلك الحين والامبراطورية الساسانية تسير قدماً نحو مصيرها النهائي المحتوم إلى الدمار . والواقع ان هذه الامبراطورية لم تقم في يوم من الأيام على أساس عنصري متناغم ،

(١٤) هلل المكيون لهذه الانتصارات الفارسية . ولكن محمداً ، الذي كان لا يزال يشعر وتتئذ أن بينه وبين المسيحيين صلة قوية ، أعلن أتباعه (سورة ٣٠ : ١ – ٤) أن الهزيمة لا بد أن تحل بالفرس في وقت قريب .

ثابت . فالآريون الذين هاجروا إلى البلاد في عصر ما قبل التاريخ كانوا أقل جداً من سكان الشرق الأدنى الأصليين ، الذين استغرقوهم في وقت وجيز ، على الرغم من أن التعاليم الدينية الزرادشتية قد ذهبت إلى أبعد الحدود في سبيل الاحتفاظ بالصفاء العنصري ، فأوصت بالزواج من الأقارب دون غيرهم . وقد ساد الشكل الجسماني الخاص بجنس الشرق الأدنى سيادة تامة ، وتأثرت اللغة التي فرضها المهاجرون على أتباعهم تأثراً قوياً بلغة هؤلاء الأتباع . ومنذ تلك اللحظة التي نقل فيها الساسانيون مركز الثقل في امبراطوريتهم إلى بابل ، جاعلين العاصمة في المدائن ، والآراميون والمسيحيون يورثونهم ضروب المتاعب وألوان القلق . حتى إذا أنشأ النساطرة في الامبراطورية الساسانية كنيسة مستقلة عن بيزنطة ، سنة ٤٨٤ ، استطاعوا أن يكسبوا نفوذاً أعظم ، بين الايرانيين أيضاً ، لأن هؤلاء كانوا كثيراً ما يسامون سوء العذاب ، بين الفينة والفينة ، بسبب من تعصب كهنة النار الزرادشتيين .

وحاول الفرس مرتين ، في التاريخ ، أن يشقوا عصا الطاعة على هؤلاء الكهنة ، ولكن على غير جدوى . ففي عهد سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢) ظهر ماني كموسس لديانة غنوسية جديدة متأثرة بالنصرانية ، من ناحية ، وببابل وايران من ناحية ثانية ، فوفق في ما يبدو إلى أن يستميل اليه الملك الكبير نفسه . فلما انقضى عهد سابور ، وخلفه بهرام الأول ، القي ماني في غياهب السجن ، حيث قطع بقية أيامه . ثم كان عهد سابور الثاني (٣٠٩ — ٣٧٩) فاضطهد اتباع ماني في جميع أنحاء الامبراططورية . اما النجاح الذي قُدّر للمانوية في الامبراطورية الرومانية فكان أعظم جداً ، وبخاصة عند الاتراك ، جيران الفرس الشرقيين ، حيث تنافست مع البوذية في التمكين لحضارة محبة للسلام ، وتعميم بركاتها . ولكن المانوية ظلت ذات أثر فعال في موطنها الأصلي ، بابل ، حيث سنقع بعد على أثرها في الاسلام . وبعد قرنين من الزمان ، وفي فترة الفوضى التي عقبت هزيمة الملك فيروز ومصرعه

في المعركة التي خاضها ضد الهون البيض سنة ٤٨٤ ، ظهر معلم ديني آخر هو مَزْدَك الذي واصل ، فعلَ ماني من قبل ، النزعة الغنوسية في إيران ، ولكن تعاليمه أدت عند التطبيق إلى الاشتراكية في الزوجات والاموال . واعتنق الملك الجديد قباذ الأول مذهب مزدك سنة ٤٨٨ رجاة ان يضع حداً ، من غير شك ، لنفوذ رجال الدين وطبقة النبلاء الذي كان يتهدد النظام الملكي . ولكن رجال هاتين الطبقتين كانوا لا يزالون من القوة بمحلّ استطاعوا معه ان يخلعوا قباذ هذا حتى إذا خلفه ابنه كسرى الأول جعل الزرادشتية الرشيدة مذهب الدولة الرسمي ، من جديد ، فخلع عليه كهانها الشاكرون لصنيعه لقب « انوشِروان » اي الروح الخالدة . وكانت طبقة النبلاء قد تكوّنت ، في حالات كثيرة ، من امراء المقاطعات الذين كانوا مستقلين ، عملياً ، على عهد الأرساكيين ، والذين استطاع الساسانيون أن يحدّوا من استقلالهم ، وان لم يقدروا على إخضاعهم بالكلية . والواقع ان الدولة ما كان في ميسورها أن تستغني عن النبلاء ، لأن الفلاحين العاملين في أراضي هؤلاء كانوا يشكلون قلب الجيش ، أعني الفرسان المدججين بضروب الأسلحة والدروع الثقيلة . ومن ثم كانت مراتب القيادة العسكرية العليا ، كما كانت بعض مناصب البلاط ، وقفاً على أسر معينة ، يتوارثها الأبناء عن الآباء . وبعد وفاة قباذ الثاني في طاعون سنة ٦٢٨ تدخل هؤلاء النبلاء في شؤون الدولة ، كدأبهم من قبل ، تدخلاً لم يكن في صالحها ، فخلعوا سلسلة من الملوك بينهم بنتان من بنات كسرى الثاني . ولم يعد في مكنة أمير الجيوش الامبراطورية نفسه أن يثبت دعائم الملك المتداعية على الرغم من أن سلطته طغت في وقت من الأوقات على جميع مرافق الدولة وقواها . حتى إذا رقي العرش ، سنة ٦٣٢ ، يَزْدَجَرْد ، آخر ملوك الساسانيين ، كان العرب على أهبة الهجوم على الفرس ، والقضاء على استقلالهم بضربة حاسمة .

وكان المُثنى بن حارثة ، أحد قواد أبي بكر ، الذين اشتركوا في اخضاع ثوار البحرين ، قد شرع يشن الغزوات ، من تلك المنطقة ، على الحدود الفارسية . فلما تم لخالد بن الوليد القضاء على فتنة مسلمة في اليمامة أمره الخليفة بأن يتعاون والمثنى على غزو الفرس . فاتجها أول الأمر إلى الحيرة ، وكانت وقتئذ قد فقدت منذ زمن طويل ، مكانتها السالفة كسدّ خارجي يقي الفرس غزوات البدو ، بعد أن عزّل كسرى الثاني ، سنة ٦٠٢ ، المنذرَ الخامسَ آخر اللخميين . فهُزِم قائد حامية الحيرة الفارسي ، في أُلّيْس . وفي سنة ٦٣٣ سقطت الحيرة نفسها في أيدي المسلمين دون مقاومة أخرى .

غزو فلسطين

فلما تم لجند ابي بكر فتح جنوبي العراق في سهولة ويسر غير متوقعين ، تذكر المسلمون ، في حماسة شديدة ، الهدف الذي سبق للنبي أن عيّنه وهو احتلال الأرض المقدسة (١٥) . ومهما يكن من أمر ، فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظل الامبراطورية البيزنطية كما كان فريق منهم يعيشون في ظل الامبراطورية الفارسية ، فمن الضروري ان يحمل اليهم اخوانهم المؤمنون بركات الاسلام وآلاءه ، ويضموهم إلى الدولة القومية التي انشأوها منذ وقت قريب . أما العرب اتباع البيزنطيين في دمشق فلم يعد لهم قوة تخشى لأن الكنيسة الملكية التي كانت تقوم بنفقات جيوش الامبراطور هرقل امتنعت عن تقديمها لِما رزحت تحته من الديون الثقيلة الناشئة عن الحرب الفارسية . وبالنظر إلى صعوبة المشروع الذي سبق للمسلمين أن حاولوا تحقيقه مرتين ، دونما نجاح ، في عهد النبي ، فقد استعدت حكومة المدينة منذ البدء استعداداً خاصاً لهذه الحملة على بلاد الشام . وفي ربيع

---

(١٥) راجع دي غويه **M. J. de Goeje, Mémoire sur la conquête de la Syrie, 2 éd., Mém. d'hist et de géog, arabe II, Leiden, 1901.**

سنة ٦٣٤ جهز أبو بكر جيشين أحدهما تحت قيادة عمرو بن العاص ومهمته الهجوم على جنوب شرقي فلسطين ، والآخر تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان وشُرَحْبيل بن حَسَنَة ومهمته الهجوم على مقاطعة مُؤاب القديمة (البلقاء) . ولم توجّه الحكومة البيزنطية جيشاً كثيفاً لملاقاة عمرو إلا بعد أن تقدم في البلاد شوطاً حسناً . حتى إذا تمت هذه الانتصارات للمسلمين في الغرب أسرع خالد من العراق إلى شرقي الاردن وتولى إمرة الجيش العليا هناك ، ومن ثم سار لمساعدة عمرو .

موقعة اجنادين

وفي تموز أو آب نشبت بين الفريقين معركة تدعوها الروايات معركة اجنادَين (١٦) ، في فلسطين بين الرملة وبيت جبرين ، كتب فيها النصر لجيوش المسلمين الموحدة على قوات بيزنطة التي كان يقودها ارطيون * . وفيما كان ارطيون هذا يلجأ إلى بيت المقدس استطاع قواده ، في جهد كبير ، ان يضعوا حداً لتراجع قواتهم المنهزمة ، وان يحشدوها على الضفة الاخرى من الاردن . وكانوا قد فجّروا السدود في بيسان معطلين المخاضات عبر الاردن ، ولكن خالداً استطاع العبور على الرغم من ذلك كله . وفي كانون الثاني ٦٣٥ هاجم العدوّ مرة ثانية في فِحْل على المنحدرات الغربية من شرقي الاردن ، وطاردهم حتى دمشق . وفي الوقت نفسه كانت فرقة اسلامية صغيرة قد تقدمت إلى الشمال عبرّ المناطق الداخلية غير المحمية واستولت على مدينة حمص . وكان الامبراطور هرقل الذي قاد الحملة من هناك في السنة السابقة قد تراجع في الوقت نفسه إلى انطاكية . ثم ان خالداً نازل البيزنطيين في معركة أخرى على أبواب دمشق ، فهزمهم وحاصرهم في داخل المدينة . ودام الحصار الذي ألقاه خالد على دمشق

(١٦) انظر الهامش رقم ١٧ .

(*) في المصادر العربية « الارطبون » وهو تصحيف ظاهر .   (المعربان)

نصف عام استسلمت بعده في ايلول ٦٣٥ . ولأسباب نجهلها انتقلت القيادة العليا من خالد إلى أبي عبيدة ، ومع ذلك فقد ظل خالد في الواقع هو القوة الدافعة في الحملة . وكان هرقل قد بعث في هذه الاثناء بجيش جديد من انطاكية إلى سورية ، مهمته في أغلب الظن انقاذ دمشق . ولكن أوان الانقاذ كان قد فات ، ومع ذلك فقد استطاع هذا الجيش أن ينقذ حمص على الأقل . حتى إذا أقبل الخريف ، وعقبه الشتاء توقفت فيما يبدو العمليات الحربية بين الفريقين ، بعد صلح اتفقا عليه .

اليرموك

وفي صيف ٦٣٦ افتتح البيزنطيون المعركة ، من جديد ، بجيش عظيم يقوده تُوذر البطريق ، فالتقاهم المسلمون في اليرموك ، وهو رافد من روافد الأردن ، منشأه في حوران ومصبه في أدنى بحيرة طبرية (١٧) ، فأنزلوا بهم هناك ، في ٢٠ آب ، هزيمة شنعاء ، ذلك لأن الأرمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية ، غير راغبين في القتال . ثم ان المسلمين تقدموا شمالاً ، يحف بهم النصر من كل جانب ، فاحتلوا حمص للمرة الثانية .

خلافة عمر

وفي الوقت نفسه كانت المعارك ضد الفرس تدور في أنحاء الشرق . فبعد

---

(١٧) تخلط الروايات أحياناً بين هذه المعركة ومعركة أجنادين . ومن ثم توهم الناس ان هذه المعركة وقعت في اليرموث الوارد ذكره في التوراة ، أي في خربة يرموك التي تقع اليوم في سهل يهودا . وإذ لم يرد اسم أجنادين في أي موطن آخر فقد ذهب العالم الرومي ، ميدنيكوف **Myednikov** وهو مصيب في ما ذهب اليه ، من غير شك — إلى انها تحريف عن « جنابتين » (بتضعيف النون) لأن في جوار المكان الذي جرت فيه المعركة موضعين يدعى أحدهما جنابة الغربية والآخر جنابة الشرقية ، ولا يبعد ان يكونا قد جمعا على هذه الصيغة المثناة ، كما يحصل في كثير من الأحيان .

حملة خالد في ربيع ٦٣٤ تولى المثنّى ، البكريّ ، القيادة العليا في الحيرة . وفي تموز من السنه نفسها ، توفي الخليفة ابو بكر في المدينة ، فتولى الأمر من بعده عُمر ، وهو أقوى المهاجرين وأعلاهم مقاماً . وكما فعل من قبل في تسهيل الحملة السورية بعث الآن بالأمداد والنجدات إلى جند المسلمين في العراق ، بقيادة أبي عُبيد الثقفيّ ، ولكن الفرس كانوا كذلك يستعدون لقتال المسلمين وصدّهم عن سبيلهم ، فالتقوا المسلمين عند قُسّ الناطف قرب الحيرة . وهنا عبرَ ابو عبيد الفرات على جسر من السفن ، فدارت رحى الحرب بين الفريقين ، فهزم المسلمون وقتل ابو عبيد . ثم ان رجلاً من المسلمين ، تعمر الحماسة الفائقة صدره ، بادر فقطع الجسر وأفسده فوجد المثنّى عسراً شديداً في تأمين خط التّراجع للجيوش المنهزمة . والواقع ان سياسة الامبراطورية الفارسية الداخلية الشديدة التعقيد حالت بين المنتصرين واجتناء ثمرة انتصارهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فقد كان لهذه الهزيمة الأولى وقع سيء في نفس عمر زهّده في ميدان الحرب العراقي هذا .

القادسية

ولم يعاود الفرس الهجوم إلا في العام التالي . وكان المثنّى في انتظارهم عند البُوَيب ، على الضفة المقابلة من احدى قنوات الفرات الغربية . وهناك كتبت الهزيمة على الفرس ، بالرغم مما أبدوه من مقاومة باسلة ، واندفع المسلمون في البلاد غازين ظافرين . وفي مطلع صيف ٦٣٥ استعد الفرس لخوض معركة أخيرة حاسمة . وكان المثنى قد توفي فخلفه في القيادة العليا سعد بن أبي وقاص ، وهو من أسبق الصحابة إلى الاسلام ، وأشدهم إخلاصاً للنبي . وكان على رأس الجيش الفارسي رُستم نفسه ، قائد الجيش الامبراطوري. وقبيل ذلك كان يزدجرد قد تبوأ العرش الساساني ، بعد فترة طويلة من حكم النساء . وكان لا يزال في مقتبل العمر فانبرى بحزم وجدّ إلى دفع الخطر الذي كان يتهدد المقاطعة الخارجية على الحدود ، فنشبت في القادسية ،

غربي النجف الحاضر ، وعلى ثمانية عشر ميلاً ونصف من معسكر الجيش في الكوفة (التي انشئت بعد المعركة ثم تطورت إلى مدينة) معركة فاصلة بين المسلمين والفرس ، وذلك بعد ان ظل كل من الفريقين يترقب ان يكون عدوه هو البادىء بالهجوم طوال أسابيع عديدة . والواقع ان المصادر حافلة بالتفاصيل الرومانتيكية عن هذه المعركة ، ولكنها لا تكفي كلها لأن نكوّن صورة واضحة عن سيرها . وإذ كان من العسير على الفرس أن يحظوا بقيادة ستراتيجية موحدة ، وإذ كانت كل قبيلة من العرب تحارب مستقلة عن الأخرى فليس من شك في أن المعركة انتظمت سلسلة من المواقع المفردة . واياً ما كان فقد مني الفرس بهزيمة شنعاء ، في حين ان خسائر المسلمين ، الذين لم يتحققوا بالنصر إلا بفضل الامداد التي تدفقت عليهم من سورية أثناء المعركة ، كانت ثقيلة إلى درجة اضطرتهم بادىء الأمر إلى أن يَدعوا العدو ينسحب آمناً . ولكنّ المسلمين ما لبثوا ان تقدموا عبر الفرات ، إلى المدائن عاصمة الامبراطورية . وبعد محاولتين فاشلتين لتأخير تقدم الفاتحين كان على الفرس ان يتخلوا عن العراق ، فدخل العرب عاصمتهم . وكان من الطبيعي أن تصبح الغنائم التي وقعت في أيدي العرب هناك ، والتي تتحدث عنها الروايات حديثاً حافلاً بالعجائب ، حافزاً قوياً للعرب في الجزيرة لا سيما عندما اضطروا إلى تجهيز النجدات لتحل محل الخسائر التي ألمت بهم في الارواح . وكان الفرس قد انسحبوا أول الأمر إلى حُلوان في سفح سلسلة جبال « الصقر » . وهنا جمع يزدجرد فلول جيشه الامبراطوري وعزّزه بقوات جديدة . ثم صار يتقدم شيئاً فشيئاً نحو وادي نهر ديالي ، الذي يصب في دجلة شمالي المدائن ، فوجّه سعد ابن اخيه اليهم على رأس اثني عشر الف مقاتل ، فهزمهم في أواخر سنة ٦٣٧ في جَلُولاء ، على الضفة اليمنى من نهر ديالي ، وعند الطرف الشرقي من الممر الذي يخترق جبل حمرين على طريق القوافل القديمة بين العراق وايران . وعلى الرغم من ان البلاط الامبراطوري حاول الصمود فترة من الزمان في حصون

حلوان فقد كانت الأراضي السهلية الممتدة حتّى حدود « الجبال » قد سقطت في أيدي المسلمين الذين بادروا الى انشاء مسجد لهم في العاصمة ، ايذاناً بأن احتلالهم للبلاد يحمل طابع الاستمرار والاستقرار .

فتح الشام

وفي السنة نفسها أكمل فتح الشام أيضاً . وكان مركز القيادة الاسلامية ، في الجابية ، في الجولان على مسيرة يوم واحد الى جنوبي دمشق . وكانت الجابية مقر الأمراء الغسانيين من قبل ، وقد احتفظت بأهميتها العسكرية حتى عهد الامويين . ففي سنة ٦٣٧ خرج عمر إلى الجابية ومعه جلة الصحابة وخيارهم ، ما عدا علياً ، ليوطد الأمن في الأراضي المفتوحة . ولعل أسس نظام العطاء (الديوان) الذي ضمن للمشاركين في الحرب ولأعقابهم دخلاً ثابتاً من موارد البلاد المفتوحة ، كانت قد وضعت قبل « يوم الجابية » هذا الذي شهده جميع امراء الجيش العامل في سورية . ومن هناك وجّه عمر خالد بن ثابت لفتح بيت المقدس التي لم تلبث أن طلبت السلام . فتولى عمر نفسه عقد الصلح مع أهلها ، وكانت شروطه رفيقة غير ثقيلة . فقد أعطاهم عمر الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم كما منحهم الحرية الدينية على أن يعطوا الجزية للمسلمين ، وعلى أن لا يسكن ببيت المقدس معهم أحدٌ من اليهود . والواقع ان عمر سار بنفسه إلى بيت المقدس ، فدخل ساحة الهيكل المهجورة فأزال الردم بيده عن الصخرة المقدسة التي يعدّها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً منتصفَ الأرض ، وأمر ببناء المسجد هناك .

فتح الجزيرة

أما وقد أصبح المسلمون الآن سادة سورية والعراق فقد بات من المحقق أن تسقط الجزيرة في أيديهم من تلقاء نفسها . وكانت الجيوش البيزنطية لا تزال تحتفظ هناك ببعض المواقع المحصّنة . وكان الآراميون ، سكان

البلاد الأصليون ، خاضعين ابداً لاضطهاد الكنيسة الارثوذكسية السائدة آنذاك ، بسبب من قولهم بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ، فلم تكن بهم رغبة في الاحتفاظ بالوضع الراهن . ليس هذا فحسب بل لقد وفّقت قبائل العرب البدوية ، قبل عهد الاسلام بقرون ، إلى أن تجتاح البلاد ، وإلى أن تبسط سلطانها من حين إلى حين على الرهاء والحضر . وهكذا كانت بلاد الجزيرة على أتمّ الاستعداد للفتح العربي .

ابتدأ الهجوم الاسلامي من سورية . وتفصيل الامر أنه بعد وفاة أبي عبيدة سنة ٦٣٩ ، بطاعون عَمَوْاس (١٨) عيّن عمر عياض بن غَنْم عاملاً على حمص وقِنّسرين وأمره بالتوسع في بلاد الجزيرة . وفي النصف الثاني من السنة تقدم ابن غَنْم إلى تلك البلاد ، واضطر — في فترة لا تزيد على عام ونصف — جميع مدنها تقريباً إلى الاستسلام . ولم يقاوم المسلمين مقاومة جدية إلا مدينة رأس العين ، ولكنها لم تلبث أن خضعت . وفي سنة ٦٤١ قام عياض بغزوة على إرمينية نفسها ، ليقضيَ نحبه بعيد عودته إلى مقر إمارته بقليل .

فتح مصر

وفيما كان عياض يفتح الجزيرة ، انصرف المسلمون ، من جهة ثانية إلى فتح مصر (١٩) ، التي كانت من غير شك ، محط أنظار الحكومة الاسلامية الجديدة ، بوصفها اهراء ذات شهرة قديمة ، والتي كان النبي نفسه على علم باضطراب الأحوال فيها ، ففي سنة ٦٢٨ حاول الامبراطور هرقل ، بعد أن استخلص مصر من الفرس الفاتحين ، أن يربط القبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بالكنيسة الامبراطورية . وفي سنة ٦٣١ عين كورش

---

(١٨) لا تزال ذكراه حية اليوم إذ يعتبره الفلسطينيون المسلمون ولياً .

(١٩) راجع بتلر **A J. Butler, The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion,** Oxford, 1902.

(المعروف عند العرب بالمقوقس) الذي كان حتى ذلك الحين اسقف «فاسيس» في القبق (القوقاز) بطريركاً على الاسكندرية ورأساً للادارة المدنية في وقت معاً. ولكن سياسة المقوقس الكنسية وإلحاحه في جباية الضرائب الكثيرة ثقلا على القبط إلى درجة كان من الطبيعي معها أن يرحبوا بالعرب كمنقذين، فعل السوريين، وهم اخوانهم في الدين، من قبل. وتفصيل الأمر أن عمرو بن العاص الأموي، أول قائد للجيش العربي في فلسطين، هاجم من هناك سهل الفيوم الخصيب في كانون الأول سنة ٦٣٩، وليس معه من الجند عدد كاف لمثل هذا الصنيع، ومن غير أن يتلقى في ما يبدو، أمراً بذلك من الخليفة عمر، فوفق إلى احتلال الفرماء في كانون الثاني سنة ٦٤٠. ولم يجرؤ عمرو على أن يتقدم، أول الأمر، إلى أبعد من ذلك، بعد أن جمع القائد الأعلى تيودوروس جيشاً عظيماً في بابليون، أي ممفيس القديمة. وعندئذ بعث عمر بالزبير، أحد أصحاب رسول الله المقدمين، إلى مصر على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف رجل ابتغاء نجدة عمرو، ومراقبته أيضاً لما عرف عنه من ميل إلى الاستقلال بالرأي والعمل. وفي حزيران سنة ٦٤٠ أغرى عمرو البيزنطيين بالخروج من حصنهم وخوض المعركة ضده فهزمهم في عين شمس، وكان حصن بابليون لا يزال في الوقت ذاته صامداً في وجه المسلمين. ومن هناك دخل المقوقس نفسه في مفاوضات مع عمرو، ثم قصد إلى بيزنطة ليحظى بموافقة الامبراطور على التسوية التي أرادها مع العرب. ثم ان هرقل، الذي اعتبر المقوقس خائناً، توفي في ١١ شباط سنة ٦٤١. وفي الوقت نفسه كان الغزاة من العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخربين. وأرسل تيودوروس يلح في طلب الامداد، ولكن على غير طائل. فقد كان الأوصياء على الامبراطور الجديد، قسطنطين الثاني (٢٠) وكان آنذاك في الحادية عشرة من العمر، فقط، مضطرين إلى أن يتركوا الأحداث في الشرق

(٢٠) حفيد هرقل. رقي العرش بعد وفاة أبيه الذي دام حكمه أربعة أشهر فقط.

تتخذ سبيلها المظلم ، وذلك لحاجتهم الماسة إلى الاحتفاظ بجيوشهم في العاصمة نفسها ابتغاء القضاء على ثورة كانوا يتوقعونها ، ولانهماكهم من ناحية ثانية بالحرب ، ضدّ اللومبارديين في ايطالية . وفي يوم الاثنين الذي تلا الفصح ، ٩ نيسان سنة ٦٤١ استسلمت بابليون ، وتقدّم عمرو متمهّلاً ، عبر النيل ، إلى الاسكندرية . فما كان من الحكومة البيزنطية إلا أن بعثت بالمقوقس إلى مصر ، كرة أخرى ، ليفاوض عمراً . فتمّ الاتفاق بين الفريقين على ان يُعطي البيزنطيون جزية سنوية معينة ، وعلى ان يترك المسلمون للمسيحيين معابدهم ، ولا يتدخلوا في ادارة شؤونهم الاجتماعية . وعلى أساس هذه المعاهدة أخلى البيزنطيون الاسكندرية في ١٧ أيلول سنة ٦٤٢ فاحتلها العرب . ثم انشأ عمرو بن العاص المسجد الذي لا يزال يحمل اسمه في الفُسطاط ، معسكر بابليون ، التي أصبحت في ما بعد القاهرة القديمة ، فكان في ذلك إيذاناً مبدئياً باستيلاء الاسلام على وادي النيل . وفي عهد معاوية جُدّد هذا المسجد ، وكان مركزاً للمؤذنين ، فصارت له غُرفٌ صغيرة للحراسة ذات درجات مُنشأة على الزوايا ، وهو الشكل الأقدم للمئذنة ، الذي تطور بعدُ على ضروب من الطرُز ، والذي لا يزال قائماً إلى الوقت الحاضر في بعض مساجد القرى في مصر وآسية الصغرى (٢١) .

ولم يحاول الاسطول البيزنطي أن يظهر للمرة الثانية في الاسكندرية ابتغاء استردادها من المسلمين إلا في سنة ٦٤٥ . والواقع ان سكان المدينة فتحوا أبوابها في وجه البيزنطيين ، فما استطاع عمرو أن يخرجهم منها حتى سنة ٦٤٦ . وكان عمر بن الخطاب قد عزله ، قبل ذلك ، عن الحكم ، ولكنّ عثمان — خليفة عمر — ما لبث أن أعاده بعد أن أثبت الأمير الجديد عجزه عن النهوض بأعباء الادارة ومواجهة الأحداث في ذلك الظرف .

وتبنى المسلمون في مصر ، شأنهم في البلدان الأخرى ، مادة النظام الاداري

(٢١) راجع شاخت : J. Schacht in Ars Islamica V (1938), p. 46 ff.

الذي اتبعته الحكومات السابقة . بل إنهم ابقوا جميع الموظفين القدماء في مناصبهم ، التي ظلّ يشغلها الاقباط على العموم في ما بعد أيضاً . وكان للأمير ، الذي يمثل الخليفة ، السلطتان العسكرية والادارية ، وكان يعاونه ــ خشيةَ أن يتسع نفوذه بأكثر مما يجب ــ عامل هو بمثابة مدير للمال . والحق أننا مدينون للمناخ المصري الجافّ بهذه المجموعة الضخمة من ورق البردي التي لا نزال نحتفظ بها ، والتي تلقي نوراً ساطعاً على ماجريات الأمور آنذاك . فقد سبق للرومان ، رغبةً منهم في توفير الغذاء لحامياتهم ، كما سبق للبيزنطيين رغبة منهم في تموين عاصمتهم أيضاً ، أن اعتادوا تقدير ما يتوجب على كل قرية أن تقدّمه من محصول الحنطة فيها ، وهو لا يزال قيد الدرس بالنورَج . فلما استولى العرب على مصر احتفظوا بالحقوق نفسها لجنودهم وأسَرهم . فكان الحاكم المسلم يبعث في أواخر العام ، قُبيل موسم البَذر الجديد ، ببيان سنوي إلى كلّ منطقة ، وفيه نصّ على مقدار ما يتعيّن عليها تقديمه للدولة من محاصيلها . وكان رؤساء المناطق مسؤولين عن جباية هذه الضرائب عَيناً . وكان يساعدهم في ذلك جُباةٌ يتقاضَوْن خمسةً في المئة مما يجمعونه للدولة من الغلال ، مقابل خدماتهم وتعويضاً عن أي نقصٍ قد يحدث . وكان هؤلاء الجباة يقدّمون إلى الدولة ضماناً للحنطة التي ستجبى من الفلاحين إلى أن تودَع في مخازن الدولة في المناطق المفردة ، وفي عواصم المقاطعات بصورة خاصة . ومن هناك تُنقل الحنطة إلى العاصمة بطريق الماء ، عادةً ، لتوزّع بعد على الجنود وأسَرهم . وكان على المناطق أن تعطي ، بالاضافة إلى هذه الرسوم العينيّة ، ضريبةً مالية هي في الدرجة الأولى مقابلَ الحماية وحرية العبادة التي تضمنهما الدولة لها . ولم يكن للفلاحين موردٌ ماليّ غير تجارة الحنطة ، طبعاً . ولكن هذه التجارة كانت تراقب ، على الدوام ، مراقبة دقيقة من قبل الدولة : فقد كانت محاصيل الحنطة كلها تنقل إلى بيادر أميرية ، حيث تُعقد الصفقات ، في العادة ، أيضاً . ليس هذا فقط . بل لعل الدولة كانت تقبل في كثير من الاحيان

أن تأخذ الحنطة بدلاً من الرسوم النقديّة المعيّنة (٢٢) .

فتح فارس

وكان مصير الامبراطورية الفارسية قد تقرر ، في الوقت نفسه . ففي سنة ٦٤٠ غادر الملك يزدجرد حُلوان حيث لم يعد يستشعر السلامة ، بعد أن سقطت البلاد التي حولها في أيدي العرب ، وانسحب إلى فارس . وهناك أنشأ يستعد للمعركة الأخيرة . ولكن عُمر لم يمهله حتى يتهدد بالخطر المقاطعات التي ضمها العرب حديثاً الى ملكهم ، فوجّه اليه النعمان بن مُقرِّن على رأس جيش مؤلف من جميع الجنود الذين كانوا على الحدود آنذاك . ولم تكد تبدأ الحملة سيرها ، سنة ٦٤٢ ، حتّى وفق المسلمون إلى احتلال قرميسين * شمال شرقي حُلوان ، وبذلك سيطروا على المسالك المؤدية إلى المناطق الجبلية . ثم إنهم احتكّوا في نِهاوند ، جنوبي هَمَذان (أكبتنا القديمة) بقوات العدوّ وعلى رأسها القائد المحنك الفيرُزان . وكان جيش الفرس يفوق المسلمين عدداً . فاستمرت المعركة يومين اثنين . وحفّ الغموض بادىء الأمر بنتيجتها النهائية . فقد سقط في ساحتها النعمان نفسه ، ولكن خَلَفه حُذيفة بن اليمان ، الذي اختاره عمر من أوّل الأمر لقيادة الجيش إذا ما قضى النعمان في المعركة ، لم يلبث ان انتزع النصر للمسلمين .

بعد هذه الهزيمة التي حلت بالفرس لم يعد من الميسور مواصلة المقاومة الموحدة في قلب الامبراطورية . ومن هنا لجأت فلول الفرس إلى المدن المحصنة ،

---

(٢٢) راجع بيكر C. H. Becker, **Grundlagen der wirtschaftlichen Entwicklung Agyptens in den ersten Jahrhunderten des Islams, Islamstudien I**, Leipzig, 1924, 201 - 17.

راجع أيضاً « بل » : H. Bell, **The Administration of Egypt: under the Umayyad Khalifate, in Byzant. Zeitschrift XXVII.** (1928), 278 ff.

ولامنس : H. Lammens, **Etudes sur le siècle des Omayyades**, Beyrouth, 1930, 303-23.

(*) وجاءت أيضاً في المصادر « قرماسين » . (المعربان)

وطفقت تدافع عن كل منها دفاعاً مستقلاً في وجه المسلمين الذين كانوا يتابعون تقدمهم المطرد في احتلال البلاد. حتى إذا كانت سنة ٦٤٣ سقطت إصفهان، المدينة الرئيسية التي فزِعَ اليها يَزْدَجرد نفسُهُ بعد المعركة. وهكذا كان عليه الآن أن يلتمس النجاة في إصْطَخْر، وهي المدينة التي خلَفت برسيبولس العاصمة القديمة لمهد الفرس الأولين. وهناك حاصره المسلمون فترة من الزمان في غير ما جدوى، إذ كان أبناء البلاد في جميع المقاطعات، وبخاصة في «الجبال»، يقومون بمحاولة أخيرة يائسة لصد التيار العربي. حتى إذا لم يعد في مقدور الملك أن يثبت، في إصطخر نفسها، لبى دعوةً جاءته من مرزبان طبرستان لزيارتها — وطبرستان هي المنطقة الجبلية الواقعة عند الطرف الجنوبي من بحر قزوين — عله يجد عند حكام المقاطعات الشرقية بقية من المقاومة الفعالة. وعلى الرغم من أن أهالي خراسان — وهي المقاطعة التي كانت تفصل قديماً ما بين إيران والبوادي التركية — قد رحبوا به أحسنَ ترحيب فان أحداً لم يلبِّ نداءه إلى خوض الحرب ضد العدو. فتجددت في شخصه المأساة التي قضت قبل ألف سنة على دارا، آخر الاخيمينيين، في تلك البلاد نفسها. والحقّ أن عامله في خراسان لم يكتف بالتنكر له فحسب، بل عدا ذلك إلى اغراء الأمير التركي بمقاتلة الامبراطور. وهكذا خسر يزدجرد آخر أتباعه، ففر بنفسه إلى مرو، ولكن المدينة أوصدت أبوابها في وجهه. فاضطر إلى ان يلتمس النجاة في بيت رجل طحان. وفي سنة ٦٥١ بعث اليه عامل خراسان من فتك به في مخبأه الأخير هذا، فاختتمت بموته السلالة الساسانية. والواقع ان ذكرى يزدجرد لا تزال حية إلى اليوم بين البقية الباقية من معتنقي الدين الايراني القومي، أي عبدة النار في الهند، الذين يعتبرون يوم ارتقاء يزدجرد العرشَ بدءاً لتقويمهم الوطني.

سياسة عمر

ولكن هذا التوسع العظيم الذي تمّ للدولة العربية في الخارج لم يرافقه

تطور داخلي يتكافأ معه عظماً وتعقيداً . فقد كانت هذه الدولة تقوم على أساس ثيوقراطي من حيث المبدأ ، ولكنها لم تفصل في مسألة عظمى ، هي مسألة الزعامة الزمنية ولمن تكون ، فظلّت محلاً للخلاف بين المسلمين . وليس من شك في ان محمداً كانت له في حياته ، بوصفه رسول الله ، سلطة لا تحتمل الجدل . ولكنه تُوفي من غير أن يعين خليفة له . ولعل المؤمنين كانوا يتوقعون ، أثناء حياة النبي ، ان يظل هو على رأس الجماعة الاسلامية إلى يوم الحساب بالذات ، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى نشأت في المدينة منازعات حزبية كادت تتهدد كيان العرب السياسي الجديد بالانحلال التام .

وتفصيل الأمر انه كان على المسلمين أن يختاروا زعيماً يؤم الناس في الصلاة الجامعة ويشرف على مقدرات النظام الجديد . ولم تكن ثمة حقوقٌ وراثية ، بل لم تكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب . والقرآن نفسه الذي كان دستوراً يسير النبي على ضوئه في الحكم ، لم يشتمل على ايما توجيه يستعين به المسلمون على حلّ مشكلتهم ، ويهديهم سواء السبيل إلى معرفة الرجل الذي يجب أن يُدعى لخلافة الرسول . وما كان لشيء أن ينقذ سفينة الدولة من الغرق ، في غمرة هذا النزاع ، غير قرار جريء . والواقع ان أصحاب النبي المكيين ، المقدّمين عنده لسبقهم إلى الاسلام ، كانوا كثيراً ما يستشيرونه في شؤون الدولة ، وكانت خاصتهم تتألف من أبي بكر ، وعمر بن الخطاب . وكلاهما حَمُو الرسول ، ومن أبي عبيدة عامر بن عبدالله بن الجرّاح ، ذي المواهب العسكرية الممتازة (٢٣) . فلم يكد محمدٌ يموت حتى استولى هؤلاء على زمام الأمر . وكان عمر بن الخطاب أعظمهم شأناً . والروايات تصور لنا ، دائماً ، هذا الرجل الطويل القامة وهو يحمل سوطاً ينتهر به ابنته حفصة ، بل ينتهر سائر ازواج النبي

---

(٢٣) ولقد ذهب لامنس في كتابه « دراسات عن عصر الأمويين » ، كما ذهب قبل ذلك في مجموعة الكلية الشرقية (في بيروت) ج ٤ ، ص ١١٣ وما يلي ، إلى أن هذا « المثلث » قد حاول ، حتى في حياة النبي ، أن يحد من نزعته الأوتوقراطية

فيخفنه بأكثر مما يخفّفن محمداً نفسه . وأياً ما كان ، فهو لم يلِ أمر المسلمين مباشرة ، بل قدّم لهذه الولاية صديق الرسول الأول : أبا بكر . ولم يصبح هو صاحب السلطة ، بصورة رسمية ، إلا عندما توفي أبو بكر ، بعد عامين . وكان ابو بكر وعمر يدركان دائماً ، أتم الإدراك ، انهما يتوليان منصبهما كممثلين للنبي ، الذي هو أمير دولة الاسلام الثيوقراطية الأوحد . من أجل ذلك اصطنع ابوبكر لقبَ خليفة خليفة رسول الله ، في حين تسمى عمر ، باديء الرأي ، باسم خليفةِ رسول الله . حتى إذا ظهر له أن هذا اللقب غير عملي في الحياة اليومية اقتصر على لقب الخليفة وأمير المؤمنين .

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن أصحاب النبي من المهاجرين هم وحدهم أصحابَ النفوذ في الدولة ، بل شاركهم في ذلك نفرٌ من إخوانهم القرشيين الذين لم يُسلموا إلا بعد أن أسلم الناس ، وبعد أن تحقق لهم ان النصر مكتوبٌ للمسلمين ، بلا خلاف . وكان الأنصار ينقمون على القرشيين هذا النفوذَ . فقد أظهروا احتجاجهم ، حتى في حياة النبي ، على محاباته لبني قومه عند توزيع الغنائم ، وبخاصة الأراضي . ولكن المصالح المشتركة التي كانت تحمل الأوس والخزرج على الاتحاد في وجه المكيين لم تكن قد قضت بعد على ما بينهما من عداء قديم . ومن هنا كان في استطاعة محمد ان يهدّىءَ من روع الانصار مرةً بعد مرة . وفي النهاية كاد الانصار يخسرون مركز الأكثرية في المدينة . حتى إذا توفي النبي مُنيت محاولتهم الأخيرة إلى استعادة الاستقلال باخفاق ذريع بسبب من حَزم عمر وسرعة تقريره . وما لبثت الثورات التي نشبت في انحاء الجزيرة ان وحدت الانصار والمهاجرين وجمعتهم في وجه الخطر المشترك . فأسهمَ الأوّلون بقسط وافر في حروب الردّة ، وان لم يبرزوا في المراكز الرئيسية ، وأبلوا فيها بلاء حسناً . والواقع ان مهمة عمر كانت صعبة في وسط هذه البيئة التي طالما أثارتها الدسائس والحزازات الصغيرة ، وخاصة لأن أصحاب النبي السابقين إلى الاسلام كانوا يحصون عليه أعماله ، وكأنهم مجلس شيوخ

الدولة . وإذ كانت المشاكل الجديدة تواجه عمر في كل يوم تقريباً خلال الاثنتي عشرة سنة التي حكم فيها المسلمين فلم يكن في ميسوره أن يبتدع بعدُ نظاماً للدولة أشد إحكاماً .

وبانقضاء حروب الردّة ، رجعت القبائل العربية التي أعلنت العصيان بعد وفاة النبي والتي لم تخضع إلا بعد جُهد ومشقة ، إلى حظيرة الاسلام ، فجَنَت من ذلك فوائد كثيرة عوّضتها من ضياع استقلالها المُطلق . ومن ذلك الحين لم يعد يُسمح لدين غير الاسلام بالحياة ضمن شبه جزيرة العرب نفسها . وهكذا نقلَ عمر اليهود ، الذين سمح محمد لهم بالبقاء في خيبر ، إلى سورية (٢٤) وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربياً بنعمة الاسلام ، فهو يلتحق باحدى القبائل كمولىً من مواليها . ولكن أحداً ، أولَ الأمر ، لم يكن يتوقع ان يعتنق غير العرب الاسلام . وعلى هذا الاساس كان الغرض من الحرب المقدسة (الجهاد) إخضاع الأعاجم لسلطان العرب ، قبل كل شيء .

ومن هنا انتظمت الامبراطورية الثيوقراطية — التي نشأت بعد وفاة النبي عن الدولة القومية التي رفَعَ هو قواعدها — طبقتين متميزتين دينياً ، وبالتالي سياسياً . فقد كان المسلمون ، بوصفهم الحكام ، يؤلفون أيضاً طبقة المحاربين . والواقع أن أعمال التقوى اضطرت فترة من الزمان ، إلى أن تخلي مكان الصدارة للمطالب العسكرية . فلقد عبيء المسلمون تعبئة كاملة للعمل الحربي ، وصنّف الرجال الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية في قوائم الجيش على أساس القبيلة أو العشيرة . فكانوا ينزلون في المدن المفتوحة ، ولذلك دُعُوا أيضاً المهاجرين (وهو الاسم نفسه الذي اتخذه الأتراك النازلون ، بعد ذلك بقرون ، بين النصارى في شبه جزيرة البلقان) . ولكن مستعمرات عسكرية جديدة كانت تشيّد لهم في كثير من الأحوال

---

(٢٤) في جنوبي بلاد العرب فقط ظلت الجاليات اليهودية قادرة على البقاء .

كالفسطاط (القاهرة القديمة) في مصر، والقيروان في إفريقية الرومانية في ما بعد، وكالكوفة والبصرة في العراق، بشكلٍ خاصٍ.

والحقّ ان السلطة الاسلامية في البلاد المغلوبة احتفظت بتنظيمها العسكري إلى ما بعد ذلك بزمن طويل. وكان قوّاد الحاميات، في الوقت نفسه، أول حكام عيّنهم الخليفة. ليس هذا فحسب بل لقد كانوا هم الذين يؤمون الناس في الصلاة ويعظونهم في الجُمع، بسببٍ من أن الجند والجماعة كانوا سواء. كذلك كان من مهماتهم، أول الأمر، النظر في المظالم والحكم بين المتخاصمين، وهي مهمة لم يكن يعيّن لها رجالٌ مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية. أما ادارة الضرائب فكانت وحدها منوطةً، منذ البدء، بموظف مسؤول مباشرة تجاه الخليفة.

وكما كانت الحال قديماً في الصحراء، فان كثيراً من السلطات التي تتولاها الحكومة نفسها في الدول القائمة على أساس القانون قد تُركت الآن للقبائل، تستقل في تدبيرها كما تشاء. ولكن بينا كانت العشائر الصغرى في الصحراء هي التي تتولى شؤون النظام في ما بينها، كانت الجماعات القبلية الكبرى في المستعمرات العسكرية [الأجناد] تقوم بدور فعّال بسبب من انها تضم أعضاء المجموعات القبلية الصغرى التي جزأتها حملات الفتح.

وإذا كان العرب يؤلفون طبقة المحاربين فقد كان الأعاجم، من الجهة الثانية، هم الرعية، أي القطيع، وجمعها رعايا، كما يدعوهم تشبيه ساميٌ قديم كان مألوفاً حتى عند الاشوريين. وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة، كانت الرعية تدفع الجزية، عاملةً بذلك على إعالة المسلمين. ولكن الدولة كانت قليلة الاهتمام بشؤون الأعاجم الداخلية، كما كانت قليلةَ الاهتمام بشؤون القبائل الداخلية، بل لعل اهتمامها بشؤون هذه كان اكبر وأبعد. وكان الاساقفة هم الذين تولوا شؤون الرعية في البلدان التي كانت من قبلُ مسيحية. أما في فارس فاحتفظ

الدهاقنة ، أو رؤساء الاقاليم ، بمكانتهم العليا .

واحتفظت المدن والأرياف التي استسلمت للمسلمين دون قتال بحريتها وأملاكها . ولقد عُينت الجزية التي كان عليها ان تعطيها مقابل ذلك ، تعييناً مباشراً ، كجزء من شروط الاستسلام . اما المقاطعات التي فُتحت عَنوةً فقد أصبحت غنيمةً للمسلمين . واستولت الدولة على خمس هذه المقاطعات بالاضافة إلى الأراضي الأميرية السابقة التي هجرها أصحابها ، بينا توزّع المحاربون الذين شاركوا في الفتح كلّ ما عدا ذلك ، بما فيه ملكية الأراضي وسكانها . وإذ كان المسلمون لا يستطيعون أن يغادروا المراكز العسكرية ليستقروا على الأرض ويحرثوها ، فقد كان لا بُدّ من إبقاء المالكين الأصليين في مواطنهم ، على كل حال . ومن هنا لم يكن وضْع المقاطعات المفتوحة ، من الوجهة العملية ، ليتميّز تميّزاً جوهرياً عن وضع المناطق التي استسلمت طوعاً واختياراً إلا من حيث أن الجزية المفروضة عليها قابلةٌ لأن تُزاد ، اعتباطاً في أي وقت . وأيّاً ما كان فقد احتفظت الدولة بعائدات هذه الجزية لنفسها . واكتفت بأن اقتطعت أعطيات ثابتةً منها لتوزّع على المحاربين وأعقابهم . ولقد سبقت منا الاشارة إلى أنّ عمرَ هو الذي وضع الخطوط الكبرى لهذا النظام في يوم الجابية .

مصرع عمر

وفي سنة ٦٤٤ ، قُتِل عُمر لدُنْ عودته من الحج الذي اعتاد أداءَهُ كلّ عام ، وهو في غمرة نضاله الجليل بسبيل نشر راية الاسلام ، وعزمُ الشباب لمّا يزل — أو يكاد — ملءَ بُردَيه . ذلك بأنّ غلاماً فارسياً ، هو أبو لؤلؤة فيروز — وكان يعمل في المدينة في خدمة حاكم الكوفة المغيرة ابن شعبة — جاءَ الخليفة يشتكي اليه شدة الخراج الذي كان يتعين عليه أن يجمعه لسيده ، فلم يسمع منه . فلما كان صباح اليوم التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤمّ الناس في صلاة الصبح طعنه الفارسي بخنجره طعنتين ،

كانت احداهما قاتلةً . وإذ قد جاءه الموتُ فُجاءةً ، فلم يكن في ميسور عمر أن يتخذ أي اجراء في ما يتصل بالخلافة . وكان ابو عبيدة — وهو أقرب الناس اليه بعد أبي بكر — قد توفي قبله . وليس بالأمكان أن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عين ، على فراش الموت ، أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته . وكانت وفاته في ٢٣ تشرين الثاني سنة ٦٤٤ .

واجتمع للنظر في انتخاب الخليفة الجديد كلٌ من صهري النبي عليّ وعثمان ، وثلاثةٌ من أقرب أصحابه اليه — عبد الرحمن بن عوف والزبير (ابن العوّام) وسعد بن أبي وقّاص . أما طلحة الذي كان من المفروض أن يشترك في المؤتمر عضواً سادساً فلم يكن في المدينة آنذاك ، ولم يستطع بلوغها في الوقت المناسب . وإنما وقع اختيار هذا المجلس الانتخابي على أقلّ أعضائه شأناً ، عثمان بن عفان الأمويّ . ولعلّ أصله الارستقراطي هذا ، الذي عوّضه من قلة مقدرته الشخصية حتى في عينيّ النبي ، كان له أثره الحاسم في انتخابه . وليس من شك أيضاً في أن أعضاء المجلس آثروا اختياره رغبةً منهم في أن يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه ، في سهولة ويُسر . ولكن الأيام ما لبثت أن خيّبت رجاءهم هذا ، مع العلم بأن ذلك لم يكن ناشئاً عن قوة شخصية الخليفة نفسه ، على التحقيق ، بقدر ما كان راجعاً إلى عشيرته التي استسلم هو نفسُه لسلطانها استسلاماً مطلقاً . والواقع أن الأمويين هم أنسباء بني هاشم ، عشيرة النبي ، ولكنهم كانوا في العصر الجاهلي أرفع منهم مكاناً وأشد قوةً وبأساً . وكان سيدهم البارع ، أبو سفيان ، قلبَ المعارضة القرشية للنبي طوالَ سنوات عديدة . حتى إذا تم للمسلمين فتح مكة استقر معظم الأمويين في المدينة ، حيث عمِل النبي على إرضائهم وتأليف قلوبهم ، بشتى الطرق والاساليب . وفي عهد أبي بكر وعمر وُفق يزيد بن أبي سفيان ، ووفقَ أخوه معاوية من بعده ، إلى أن يبلغا مرتبةً بارزة في الدولة . فلما كانت

لخلافة عثمان انتهى الأمويون إلى القمة ، لأن عهده كان في الواقع عهد اسرته وعشيرته . فلقد ترك تصريف الشؤون لنسيبه مروان في المدينة ، وعين أقرباءه حكاماً على جميع الامارات الرئيسية . ومن هنا رأى أصحاب النبي القدماء — الذين أثروا ثراء ضخماً أثناء الفتوح والذين اقتنوا بالاضافة إلى أملاكهم الاصلية في مكة املاكاً مثلها في الطائف وأراضي واسعة أيضاً — ان مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى أن تسيطر على كل شيء . ولقد حاولوا بادىء الأمر ان يحرّروا الخليفة من سلطان اسرته فباءت محاولاتهم بالاخفاق . وعندئذ أعلنوه الخصومة شخصياً . وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس حوله إلا نفرٌ من الأصدقاء ، وخاصة بعد أن وقفت عائشة « أم المؤمنين » أرملة النبي الشابة ، المحبة للفتنة ، في جانب خصومه . كذلك استطاع أعداء الخليفة أن يستثيروا العرب في الولايات ، فانقلبوا على عثمان .

عثمان والفتنة

وتفصيل الأمر ان المحاربين في سبيل الله أخذوا يدركون شيئاً فشيئاً ، بعد أن انقضى صخب السنوات الأولى من حرب الفتح ، انهم عملوا ما يتنافى مع مصلحتهم عندما تركوا الحكومة تستأثر بجميع الغنائم العقارية . ذلك بأن هذا الوضع قد مكن الدولة من الاستقلال بنفسها عن الجيش — الذي تدين له بكل شيء على كل حال — بعد أن تفردت بتقرير الأجور الواجب دفعها ، وصارت قادرة على الضرب على أيدي مثيري الشغب بالكلية . والحق ان روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الفينة والفينة من طريق الهجوم على صندوق المال الاقليمي وسلبه ، ومن طريق الاحتجاج على ارسال الاموال الفائضة إلى العاصمة ، بوجه خاص .

صحيح ان عمر كان قد أحدث هذا النظام من قبل فلم يجرؤ أحد على رفضه وعصيانه . ولكن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية ، وبخاصة

بعد أن أخذت عليه أهواء عماله وأخطاؤهم ، وهم في الأعم الأغلب من ذوي قرباه . فلم يكد يتخذ بعض الاجراءات الحساسة حتى لقيَ نقداً شائناً في كل مكان .. وفي سنة ٦٥٣ ظهر الاختلاف في قراءات القرآن أثناء غزوة ارمينية بين جيوش الشام وجيوش العراق . وإذ كان التوتر بين سكان هذين القطرين على أشده آنئذ فقد كان من الطبيعي ان يؤدي ذلك الخلاف على أيّ القراءات القرآنية أصح ، إلى اشتباكات عنيفة بين الجنود . ولكي يحول الخليفة دون تجدّد هذه الحوادث عزم على اعتماد نسخة رسمية من القرآن . والواقع ان اجزاء كثيرة من الوحي كانت قد دُوّنت بشكل منجّم متفرق حتى في أيام النبي . فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت ، المدني الشاب الذي كان يكتب الوحي للرسول ، بأن يجمع صحف القرآن كلها . ولكن ذلك لم يعدُ أن يكون عملاً شخصياً ليس له صفة رسمية عامة . حتى إذا توفي عمر انتقلت هذه الصحف إلى ابنته حفصة . ثم ان عثمان حَصَلَ على هذه المجموعة الأولى ، فعهد إلى زيد ، وثلاثة نفر من جلة القرشيين ، بأن يعيدوا النظر فيها كرّة أخرى . ففرغوا لما نُدِبوا له وأدّوا مهمتهم في عناية فائقة يشهد عليها اقتران عملهم بالقبول والأعظام ، في كل مكان ، من غير معارضة . ومع ذلك فقد وجد الكوفيون في هذا الصنيع مادة خصبة أفادوا منها في اثارة الناس على عثمان ، آنذاك . وكان في جملة الناقمين عبدالله ابن مسعود ، وهو من أقدم أصحاب الرسول ، وكان يعتبر نفسه أحد الثقات الكبار في القرآن . ولقد ذهب إلى أن النسخة التي اقرّها عثمان محرّفة ، غير كاملة ، متهماً زيداً وأصحابه باستبعاد الآيات التي تلعن الأمويين وتذكرهم مع اعداء الرسول .

واستطاع خصوم الخليفة في المدينة ، وعلى رأسهم علي وطلحة والزبير ، أن يفيدوا من الاستياء العام . ومع انهم كانوا يعتبرون من واجبهم الدفاع عن الثيوقراطية الصحيحة ضد إدارة عثمان الدنيوية فلم يجرؤوا على النضال ضده جهاراً ، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الأمصار الذين تركزت في

أيديهم قوة الاسلام المادية على كل حال . وفي سنة ٦٥٥ أعلن الزعماء أهلَ الأمصار بأن مجال النضال الفعال في سبيل الاسلام بات في المدينة ارحب منه في المقاطعات النائية الواقعة على الحدود . واندلعت النار في الكوفة . ففي حزيران سنة ٦٥٥ اعترضت قوة تتألف من ألف شخص على رأسهم مالك الأشتر اليمني الذي كان موالياً لعليّ شخصياً ، سبيل عامل الكوفة ، سعيد ، عند عودته من الحج ومنعته من دخول البلدة . وحسب عثمان أن في ميسوره ان يدفع الكارثة كرّة أخرى ، فاستبدل بسعيد رجلاً آخر يرضى عنه الكوفيون .

وفي مصر لم يتورع عثمان عن خلع عمرو بن العاص ، فاتح البلاد ، وتعيين نسيبه [عبد الله بن سعد] ابن ابي سرْح، حاكماً مكانه على الرغم من أن النبي أهدَر مرة دمَ هذا الأخير . واشتدت النقمة على عثمان في مصر ، وانضم إلى عمرو في إذكائها محمد بن أبي حُذيفة وهو ابن أبي بكر الصديق بالتبني ومن أشياع عليّ المتحمسين . وفيما كانت احدى المعارك البحرية الكبرى * تدور ، على الشاطىء الليقيائي بين الاسطول المصري وبين البيزنطيين في عهد الامبراطور قسطنطين الثاني ، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر احدى السفن زاعمين ان الجهاد الحق قد انتهى إلى أن يُهمل ويُطرّح . فلما كانت السنة التالية سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مصر إلى المدينة ليشنوا هناك الحرب التي يريدها الله ضد العدو الداخلي . وفي نيسان سنة ٦٥٦ بلغ هؤلاء أبواب المدينة ، فإذا معظم أهلها يقفون إلى جانبهم . وكان عثمان ، وهو في ذلك الحين سيد أقوى امبراطورية على وجه الأرض ، لا يملك في مقره سلاحاً مهما يكن ، يدفع به الناقمين ، ومن هنا تعين عليه أن يباشر المفاوضات مع خمسمائة ثائر ، فوفق إلى اقناعهم بالانسحاب واعداً إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق

(*) هي معركة ذات الصواري . (المعربان)

مطالبهم . ولكن الأمويين لم يلبثوا أن أطلّعوا رؤوسهم ثانية ، وحملوا الخليفة على أن يؤكد ، في خطبة الجمعة التالية ، ان المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال . فاستاء أهل المدينة لذلك أشد الاستياء حتى لقد عيروا عثمان ورجموه بالحجارة . فسقط مَغشياً عليه وحمله القوم إلى خارج المسجد، الذي لم تطأه قدماه بَعدَ ذلك قطّ .

وتجمهر المدّنيون حول منزل عثمان ورفضوا أن يتزحزحوا من أماكنهم . ورجع المصريون أيضاً ، مدعين أنه قد وقعت في أيديهم رسالة من عثمان إلى عامله ابن ابي سَرح يأمره فيها بالفتك بالزعماء عقب عودتهم ، على الرغم من ان الخليفة أنكر أن تكون له معرفة بالرسالة التي وضعت نصبَ عينيه . عندئذ طلب اليه الثائرون أن يستقيل ما دام من الممكن أن يجري شيء كهذا من غير علمه . ولكن عثمان رفض ، في أنفة وكبر ، أن يحقق هذا الاقتراح الجريء الذي تقدم به الثائرون ، فحاصروه في منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسبائه وبعض العبيد والموالي . اما المحرّضون الفعليون على الثورة ، علي وطلحة والزبير ، فآثروا أن يتباعدوا إنقاذاً للمظاهر . وأما عائشة ، الداهية ، فتركت المدينة تحت ستار الحج إلى مكة ، لكي لا تشهد الوقائع في ما بعد .

وانتهى النضال الى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان رجلاً من المصريين بحجر فقتله . وطالب الثائرون بتسليم القاتل فلم يجابوا إلى طلبهم ، فانقضوا على المنزل من الأراضي المجاورة ، وقتلوا الخليفة الذي كان يتلو القرآن في هدوء ، من غير أن يشترك في المعركة ، وانتهبوا ما في بيته . وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ حزيران ٦٥٦ فسال دم الخليفة على نسخة القرآن التي كان يقرأ فيها . وإنما خُبئت هذه النسخة ، كأثر مقدس ، ولكن عدداً من خزائن الكتب لم تلبث أن تنازعت في ما بعد شرف امتلاكها فزعمت أن نسختها هي الأصلية . ودفنت امرأة عثمان ــ نائلة الكلبية ، التي أصيبت أيضاً بجراح ــ جثةَ الخليفة الصريع في سكينة الليل ، يساعدها

بعض الاصدقاء وأرسلتْ بعض أصابع نائلة المقطوعة إلى ابن عم عثمان ، معاوية أمير سورية ، فكان يلوح بها من على المنبر ليستثير حماسة الناس للأخذ بثأر الخليفة . وكان معاوية قد وجه إلى المدينة قوات لنصرة عثمان ، فلم تكد تعلم بمصرعه حتى رجعت وهي في منتصف الطريق .

علي في العراق

وكان علي — وهو صهر الرسول والرجل الذي أمسى الآن الشخصية الأولى في الاسلام ، بلا خلاف — قد أمَّ الناس في الصلاة ، حتى في أثناء الحصار ، وعيّن أميراً على الحجاج إلى مكة ، أيضاً . وفي نفس اليوم الذي صُرع فيه عثمان ، بايَع الناس علياً بالخلافة في مسجد [المدينة] ولكن طلحة والزبير اللذين كانا حتى تلك اللحظة يعملان في ما يظهر لمصلحة علي ، تخلفا عن مبايعته ، وحملاه تبعة مقتل عثمان ، ثم انهما لحقا عائشة ، الى مكة . وكانت ام المؤمنين لا تزال تُضمر لعلي عداءها القديم ، فما كادت تعلم انه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين الى الاثئار للرجل القتيل . فاستجاب لدعوتها الامويون وأناس آخرون شركوها في كره علي ليس غير . ونزولاً عند رأي ابن عامر ، عزموا على التقدم الى البصرة حيث كانت له منذ زمن طويل ، وما تزال ، صلات واسعة جداً . حتى اذا انقضت أربعة أشهر على مقتل عثمان خرج المتآمرون ، بعد ان تجمعوا في معسكر على الطريق العامة المؤدية الى العراق .

ولم يكادوا يبلغون البصرة حتى فتكوا غدراً بأميرها الذي آثر ان ينتظر الأمر من عليّ على ان ينضم اليهم . حتى اذا وفقوا الى الاستيلاء على المدينة [البصرة] نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمامة الناس في الصلاة ، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف موقتاً بأن سمت لهذه المهمة ابن اختها عبدالله بن الزبير .

ولم يكن لعليّ جيش في المدينة [يثرب] ، ومن هنا تعين عليه أن

يغادرها أيضاً. ففي تشرين الاول سنة ٦٥٦ سار الى العراق يصحبه مائة رجل تقريباً ، رجاة ان يجد أشياعاً ينصرونه في الكوفة ، وهي المستعمرة العسكرية الثانية في العراق ، التي كان أهلوها يتحسسون بشيء من الحسد للبصرة منذ اللحظة الاولى . وكان قبيل سيره اليها قد بعث بابنه الحسن ليعمل على أكتساب المحاربين الكوفيين الى صفه ، فوفق الحسن الى ما نُدب له . وفيما كان علي لا يزال في معسكره بذي قار اجتمع حوله اثنا عشر ألف كوفي ، فسار بهم من هناك الى البصرة . وبعد اخفاق السفارة مع طلحة والزبير نشبت المعركة . فأما الأول فجرح جرحاً أودى بحياته ، وأما الثاني فقد أخرج من الميدان بتبكيت الضمير والندامة ، وقتل فيما هو يفر . وتوقفت المعركة أمام الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة وتستفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة . ولم تتم الغلبة لعلي إلا بعد أن عقر الجمل ، الذي خلع اسمه على هذه المعركة ، في ٤ كانون الاول سنة ٦٥٦ . وعرضت عائشة على المنتصر تأييدها ، ولكنه رفضه ، ثم انها توفيت في ١٣ تموز سنة ٦٧٨ وهي في السادسة والستين من عمرها . واعترف لعلي بالخلافة في جميع أنحاء العراق فظل فيه وجعل الكوفة مقرّه .

الحياة الجديدة في المدينة

وهكذا انتقل دور الزعامة من بلاد العرب ، ومن المدينة بشكل خاص ، الى الامصار حيث كانت القوة المادية قد تركزت منذ زمن طويل . والواقع ان أصحاب الرسول الذين ظلوا في المدينة فقدوا نفوذهم السياسي كله ، فاقتنعوا بالانكباب على دراسة الحديث . وأخذوا يتناقشون في حماسة بالغة في السنّة النبوية التي كان من المفروض ان يكيّف كل من الفرد والجماعة حياته على وَفقها ، والتي جُعلت قدوة وقياساً . ولكن العبادات الدينيــة نفسها ، على ما نرى في عدد من الصلوات اليومية ، لم تستطع ان تنجو من تأثير البيئة الجديدة . أما النظريات التي قال بها رجال المدينة في ما

يتصل بصفة الخلافة فلم تتحقق تحققاً كاملاً في يوم من الايام .

وأما في الشؤون المدنية فقد حاول المسلمون في كل مسألة فردية ان يكيّفوا العرف الشائع حتى يستوي مع مبادىء الاسلام . ولا يبعد ان يكون ذلك العرف الشائع قد تأثر بالقوانين الرومانية في المستعمرات . وكان جواز هذا الامر أو عدم جوازه يُقرّر على أساس أخلاقي أكثر مما يُقر على أساس قانوني . واحتفظت السنة بطابعها الشفهي زمناً طويلاً . وكان كل ما يُدوّن منها يظل في أيدي بعض الافراد . وانقضى قرنٌ كامل قبل ان يدوّن الحديث والسنّة . والواقع ان المدينة التي بسطت سلطانها فترة من الزمان على الشرق الادنى انتهت إلى أن تكون الآن مركز العلم الذي ينهل من موارده الاتقياء ، في حين ان الارستوقراطية التي كانت تهتم بالدنيا أكثر من اهتمامها بأمور الآخرة ، والتي أقصاها أهل الامصار عن تعهّد شؤون الدولة ، انغمست في مباهج الحياة العابثة ومتارفها . ففي مكة بنى أحد المواطنين الاثرياء أول قاعة للعب والقراءة ، فكان الضيوف يجدون فيها الشطرنج وغيره من العاب الرّقع ، كما يجدون الكتب سواء بسواء . وفي المدينة غذا الشاعر الأحوص الشعرَ الغزليّ ، وكيّف يونس الفارسي الموسيقى فأدخل عليها ألحاناً جديدة لتعزيز حياة الترف . ولكن ملاهي المدنيين لم تكن بريئة الى هذا الحد دائماً . فما هي الا فترة حتى اكتسبت مدينة الرسول شهرة واسعة في حسن استقبالها لأفضل المغنيات ، وأسهلهنّ قياداً .

معركة صفين

وورث معاوية بن ابي سفيان ، رأس البيت الاموي وأمير سورية ، مهمة المطالبة بدم عثمان . بيد أنه كان عليه ، قبل ان يحقق هذه المهمة ان يُبعد عن بلاد الشام الخطر البيزنطي الذي لا يزال يتهددها . وفي سبيل ذلك كان في حاجة الى الاستيلاء على مصر قبل كل شيء . ولقد وُفق

الى ان يأسر الامير الذي وجّهه علي اليها ، ولكن عليه قبل ان يتغلب على مصر نفسها ان يصفي الحساب مع علي الذي كان من همه ، بوصفه خليفة ، ان تُقِرّ له بالأمر أجزاء الامبراطورية كلها . وفي ربيع سنة ٦٥٧ سار علي بجيوشه في اتجاه الشمال الغربي ، وخرج معاوية لملاقاته على الحدود السورية في صِفّين ، الواقعة على الصفة اليمنى من الفرات ، بين الرقة وبالس ، فوق رقعة ضيقة من المستنقعات ، تزدحم بالاشجار ولا تخترقها غير طريق واحدة معبّدة .

وانقضى شهر على الاقل في مفاوضات عقيمة ، بعد أن رفض علي أن ينزل عند رغبة معاوية في تسليم قتلة عثمان . وفي شهر نوّار اشتبكت قوات الفريقين ، فنجح عليّ في ان يشق طريقه الى النهر . وفي ١٩ حزيران أهلّ المحرم ، أحد الاشهر الحُرُم ، فاتفق الفريقان على عقد هدنة موقتة ، ولكن المفاوضات لم تكن ناجحة في هذا الشهر أيضاً . فلما انقضى الشهر الحرام استؤنفت المعركة من جديد . وكانت ، الى حين ، سجالاً بين الفريقين . وكانت الحماسة عندهما فاترة ، لأن الجيشين كانا يتألفان ، الى حد بعيد ، من افراد القبائل نفسها . وعلى الرغم من ان السوريين كانوا أحسن تدريباً من العراقيين غير المنظمين ، فقد نجح العراقيون ، بقيادة مالك الاشتر ، أحد أشياع عليّ المتحمّسين ، في الضغط على خصومهم وإحراجهم الى درجة حملت معاوية على التفكير في الفرار . وفي هذه الاثناء كان حفظة القرآن الاتقياء يبذلون أقصى الجهد ، لدى الفريقين ، بسبيل السلام . وتذهب الروايات الى أنه في هذه اللحظة الحرجة أشار الداهية عمرو بن العاص ، فاتح مصر واميرها السابق على معاوية بأن يبعث بقوات جديدة ، رافعةً المصاحف على رؤوس الرماح دلالةً على انها تحكّم كلمة الله ، لا كلمة السيف ، في أي الرجلين يجب ان يلي أمر المسلمين . ومع ان هذه الحادثة قد تكون وهمية ، فالذي لا شك فيه ان أهل العراق قد أجبروا علياً الذي اعتبر ان النصر قد كُتب له ، على ان يقف المعركة

ويبدأ المفاوضات مع معاوية كرة أخرى . ثم إن الفريقين اتفقا على اختيار حكَمين هما عمرو بن العاص بالنيابة عن معاوية ، وابو موسى الأشعري بالنيابة عن علي ، ليحكما بين المتخاصمين على أساس القرآن . وكان من المفروض ان يجتمعا في شهر رمضان ، وفي مكان يقع بين سورية والعراق .

واجتمع الرجلان في أذرُح ، بين معان وسلع في بلاد أدوم القديمة [وهي الشراة عند العرب] وكان يصحب كلاً من الحكمين حاشية تتألف من اربعمائة رجل ، كما شهد المفاوضات عددٌ من أصحاب الرسول البارزين . واذ لم يوضع للاجتماع ، قبل انعقاده ، هدف معيّن ، فقد اختلف الفريقان ، وكانت أبحاثهما على طرفي نقيض . فقد كان العراقيون يتوقعون ان يحصلوا على الاعتراف الرسمي بخلافة علي ، في حين كان معاوية يطالب ببحث ما اذا كانت تبعة علي في مقتل عثمان تجعله غير أهل للحكم . ولكن مندوبه اعتبر كلاً من علي ومعاويـــة مدّعياً للخلافة ، واستطاع بعدد من الايحاءات الموفقة أن يقنع خصمه بخلع الرجلين معاً . ولم يكن في وسع علي ان ينزل عند هذا الحكم ، ورأى نفسه مضطراً الى ان يحنث بيمينه . وإذ قد وضع عليّ نفسه ، بهذا الصنيع ، على طرف الخطأ ، فقد أطلق جنود معاوية أنفسهم لقب الخليفة على ابن ابي سفيان ، منذ ذلك الحين .

الخوارج

ولم يلبث مركز علي في العراق ان تضعضع الى حد بعيد . والواقع انه كان لا يزال في طريق العودة من صفين عندما لامه جماعة من جيشه ، معظمهم من بني تميم ، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنزول عند قرار هيئة محكمة من البشر . وكان من رأيهم ان الحكم لله وحده ، فانشقوا عن علي وانسحبوا الى قرية حَرُوراء ، غير بعيد من الكوفة ، وانتخبوا أحدهم ، عبد الله الراسبي ، خليفةً عليهم . حتى اذا ذاع قرار هيئة

التحكيم في الكوفة غادر عدد كبير من أشياع عليّ البلد كمهاجرين أو خوارج (٢٥) وانضموا الى أتباع الراسبي في حَرُوراء . وكان زعيمهم قد أقام معسكراً على طريق فارس ، غير بعيد من المكان الذي انشئت عليه بغداد في ما بعد ، على جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة . وهنا هاجم عليّ الثائرين في ١٧ تموز سنة ٦٥٨ ، وهزمهم هزيمة شنعاء لم يكن في ميسورها ، على كل حال ، ان تستأصل شأفة الفرقة .

مصرع علي

وفي الوقت نفسه ، كان معاوية قد أخذ الاهبة لفتح مصر من جديد ، بعد ان صرفه هجوم عليّ عن تحقيق هذا المشروع فترة ما . ولقد حاول أمير مصر الجديد ان يصدّ جيوش معاوية ، فيما كانت تتقدم الى وادي النيل ، ولكنه أخفق في محاولته ، في تموز سنة ٦٥٨ . ثم ان معاوية وكلَ استكمال الفتح الى عمرو بن العاص ، وكفى نفسه مؤونة هجوم بيزنطي بأن عقد في السنة نفسها هدنة مع الامبراطور قسطنطين الثاني مقابل جزية سنوية يؤديها اليه . وفي آخر نوار سنة ٦٦٠ بويع معاوية بالخلافة رسمياً ، في مدينة القدس . واذ تابعت جيوشه مهاجمة العراق بدون انقطاع فقد اضطر عليّ إلى ان يستعد لحملة يوجهها الى سورية . ولكنه قتل في مسجد الكوفة ، ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١ ، قبل ان يبدأ المعركة ضد أهل الشام . وانما كان قتله انتقاماً لاهل النهروان ، وقد أغرت به امرأة اسمها قَطام حبيبها ابنَ مُلجَم ، جاعلةً دم عليّ مهراً لها .

---

(٢٥) أطلق هذا الاسم في ما بعد على جماعات أخرى ثارت في وجه الحكومة القائمة ، وعلى فرق مختلفة ليس يجمع بينها غير وجهة النظر المتطرفة في الخلافة (القـائلة بأن الخليفة هو الذي تنتخبه الجماعة ولو كان عبداً أسود) . ولا تزال بقاياهم تعيش اليوم في عمان (بضم الميم) ، وفي طرابلس الغرب . انظر : **J. Wellhausen, Die religiös - politischen Oppositionsparteien im altea Islam, Abbandlungen d. Ges.d. Wiss, Zu Göttingen,** N.F., V 2, Berlin, 1901.

الأمويّونْ

كان معاوية (٢٦) قد اتخذ طريقه الى العراق ، مجتازاً الجزيرة قبل مقتل عليّ . وخلف علياً أول الامر ، ابنه الحسن . ولم يكن الحسن هذا رجل الساعة فلم يرتضِ ان يَقود جنوده في هجوم على خصمه . والواقع أنه آثر مفاوضة معاوية و تنازل عن حقه في الخلافة على ان تُترك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة . وكان عبدالله بن عباس ، جد السلالة العباسية التي ارتقت بعدُ عرش الخلافة ، قد استولى قبل ذلك على ما في بيت مال البصرة وانضم الى صفوف معاوية .

وعهد معاوية لولاته على الكوفة والبصرة بمهمة عسيرة تقتضيهم تثبيت سلطته بين العراقيين الرافعين أبداً راية الثورة والعصيان. وانما ولّى على الكوفة المغيرةَ بن شعبة ، وهو رجل انتهازيّ لا ذمة له ولا ذمام اضطرّ في شبابه الى ان يغادر مسقط رأسه ، الطائف ، بسبب جريمة قتل ، حتى اذا كانت سنة ٦٢٩ وفد على محمد في المدينة . ثم انه حطّم صنم إلاهة البلدة ، بأمر مــــن الرسول ، وأظهر من التقوى ما جعله في جملة الارستوقراطية

(٢٦) راجع لامنس : **H. Lammens, Etude sur le règne du calife Omaiyade Moawiya I, Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth, 1906.**

الاسلامية الجديدة . ولقد أدّى أثناء الحروب ضد الامبراطورية الساسانية خدمات دبلوماسية عديدة من طريق معرفته باللسان الفارسي . من أجل ذلك كافأه عمر بالامارة على البحرين ليعهدَ اليه بعد ذلك بعمل أعظم خطراً ، اعني الامارة على البصرة . وفي سنة ٦٣٨ عُزل من منصبه بسبب من سوء السيرة الاخلاقية ، ولكنه لم يلبث أن لمعَ من جديد بفضل الحرب الاهلية التي أظهر فيها حكمة وكياسة . فلما وُلي أمر الكوفة جعل من همّه أن يُفسد ، بدهاء بارع ، بين الخوارج واتباع عليّ ، الشيعة ، وبذلك استطاع ان يَشغل الكوفيين عن معارضة الامويين معارضة فعّالة ، على الرغم من أنهم لم يكونوا يكتمون كراهيتهم لأهل الشام .

وكان أمير البصرة من أبناء الطائف أيضاً . ولكن من أصل يحفّ به الغموض . والواقع ان الناس لم تعرف الا اسم امه سُميّة ، وكانت سبيّة ، ولذلك دُعي زياد ابن ابيه . وبدأ زياد (٢٧) حياته كاتباً في جيش البصرة . ثم إن علياً أرسله الى بلاد فارس فوفق فيها الى اكتساب ولاء الفرس بفضل سياسته الحكيمة ، ومن غير ما لجوء الى العنف ، وبذلك احتفظ بها مستقلة عن معاوية حتى سنة ٦٦٢ ، عندما شرع مواطنه ، المغيرة ، يفاوض معاوية في امره . فما كان من معاوية الا ان استقدمه الى دمشق واعترف به ابناً غير شرعي لأبيه ، ابي سفيان . ومن ذلك الحين تفانى زياد في خدمة البيت الأموي فولاه معاوية البصرة فدشن حكمه فيها بخطبة مرتجلة ، طارت لها شهرة واسعة في الادب العربي . ولقد نص فيها على انه سيُنزل أقسى العقوبة في حق كل من تحدثه نفسه بالخروج على السلطان من الكوفيين . والواقع ان شدّته الحديدية استطاعت ان توقع في نفوس الناس هيبةَ الدولة ، وكانت من قبل مفقودة بحكم المنازعات الناشبة بين القبائل . فما هي إلا فترة وجيزة

(٢٧) انظر لامنس **H. Lammens, Ziyad ibn Abihi, viceroi de l'Iraq, lieutenant de Moawiya, Rivista degli studi orientali IV, 1—45, 199 — 236, 632 — 693 ; Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930, 27 — 162.**

حتى سادَ البلاد ، وساد قلب البادية نفسها ، أمنٌ لم تعهده من قبل . حتى اذا توفي المغيرة سنة ٦٧٠ ، صار زياد أميراً على البصرة والكوفة جميعاً .

وكان من تقاعس سلفه وضعفه ان أقدم أتباع عليّ على ثورة مسلحة جاءت فرصة سانحة لزياد لتصفية الحساب مع العلويين مرةً والى الابد . وبعد ان أخمد زياد هذه الثورة دونما جهد كبير ، حل منظمات المقاتلين القَبَلية السابقة وأعاد تنظيمهم في جماعات أربع على رأس كل منها رجل من الموالين للبيت الأموي . ثم انه أنزل الكوفيين — وكانوا أعظم الثوار تشيعاً — وأُسَرَهم ، وعدداً كبيراً من البدو يبلغ الخمسين ألفاً ، في خراسان ، المقاطعة الفارسية الشرقية . ومن البصرة استقل زيادٌ ، أو كاد ، بحكم نصف الامبراطورية الشرقي برمته ، هذا النصف الذي تم فتحه من البصرة ، في حين تركز اهتمام معاوية في الغرب . وفي الحق انه كان عند ثقة معاوية الكبرى به .

سورية في ظل معاوية

وبخلافة معاوية أصبحت سورية قاعدة الدولة . واذا كانت الكثرة المطلقة من السكان العرب في العراق لم تخرج من الصحراء الى مواطنها الجديدة الا نتيجة لحروب الفتح ، فقد كان معظم السوريين العرب يعيشون في بلاد الشام منذ قرون متطاولة . واذ قد احتك هؤلاء السوريون دهراً صالحاً بالكنيسة المسيحية وبالامبراطورية الرومانية فقد تعودوا الخضوع للنظام الذي يقتضيه قيام الدولة . ولقد اعتبروا معاوية ، الذي جعل مقر حكمه في دمشق ، الوارث الشرعي لامرائهم القدماء من آل جفنة . وكانت امرأته سيدة ارستوقراطية كيّسة من قبيلة كلب اليمانية ، وهي أقوى القبائل في سورية . وبذلك ضمن معاوية لابنه يزيد ، ولي العهد ، تأييد ذوي قرباه . ليس هذا فحسب ، بل لقد استطاع معاوية ، بعطاياه ومواهبه السخية ، ان يكتسب خصومه السابقين من الهاشميين . أما أنسباؤه الامويون فعاملَهم

في حذر متبصّر حكيم ، خشية ان يصبحوا خطراً عليه أو على ابنه . وكان أبداً قادراً على أن يُفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بسبيل مصالحه العائلية . وكان العرب على وفاق مع السكان المسيحيين الآراميي الأصل ، الذين عرفوهم منذ الزمان الاقدم . ذلك بأن العرب لم يعيشوا هنا ، كما عاشوا في العراق ، في معسكرات منشأة حديثاً ، ولكنهم استوطنوا المدن الكبرى ، واختلطوا بالمسيحيين اختلاطاً بعيداً حتى لقد كانوا يؤدون وإياهم فرائضهم الدينية ، في مواطن كثيرة ، تحت سقف واحد . وفي بلاط معاوية لعب سرجون بن منصور ، النصراني ، دور المستشار المالي المتنفّذ . وحفظ النصارى لمعاوية وآلهِ هذا التسامح فأخلصوا لهم وأعظموهم إعظاماً لا نزال نقع عليه في الروايات النصرانية وحتى في كتب التاريخ الاسبانية . والواقع ان معاوية لم يحكم العرب كطاغية شرقيّ ، بل كسيد من سادة القبائل القدماء . وكان من عادته ان يجتمع بُعيد صلاة الجمعة في المسجد الى رؤوس القوم وأشرافهم فيباحثهم من على المنبر ، الذي كان بالنسبة إليه منصة للحكم أكثر منه سُدّة للوعظ ، في مختلف الشؤون السياسية . وكان يعقد أمثال هذه المجالس في قصره ، باطراد . وكثيراً ما كان يستقبل وفود الامصار أيضاً ، فيسمع لشكاواهم ويوفق بين القبائل المتخالفة . والحق ان أمثال هذه الاعمال كانت تتكشف أبداً عن السمة الرئيسية في شخصيته ، أعني الرصانة الرفيقة والحلم اللذين كانا يُعتبران شيمة السيد الأولى ، بسبب من ندرتهما عند العرب . وأقام معاوية الدولة الاسلامية ، من جديد ، على الاسس التي وضعها عمر والتي تقوضت أثناء الحرب الاهلية ، وذلك بأن رجع ، كسلفه العظيم ، الى النظام الاداري الهيليني الروماني الذي ثبتَ صلاحه على مرّ الاجيال . وفي ما يتصل بالشؤون المالية أعاد معاوية النظر في الضرائب التي كانت الامصار لا تدفعها ، الى الخزانة المركزية ، حتى ذلك الحين ، إلا على كره وبعد تردّد . ونظم جبايتها في اطراد ، في حين أعفى أهل الامصار من جزء من الاعطية العظيمة التي كان الحكام

السابقون قد سمحوا بها لأتباعهم . ليس هذا فقط ، بل لقد عُني معاوية بشؤون الحجاز ، الذي أصابه إهمال كثير منذ ان نشبت الحرب الاهلية ، فعزز الزراعة بمشروعات واسعة لتحسين طرائق الحراثة .

الصراع ضد البيزنطيين

وكان معاوية يعتبر دائماً ان الحرب ضد البيزنطيين من أهم واجباته وأخطرها شأناً (٢٨) . وانما بدأ نضاله ضد البيزنطيين منذ كان اميراً ، على عهد عمر ، عندما وجد ان المدن الفينيقية الساحلية كانت لا تزال في أيدي البيزنطيين . والواقع انه لم يفز في انتزاعها منهم نهائياً الا بمحاولة ثانية قام بها في خلافة عثمان . فقد كان عليه لكي يضمن النجاح في ما ندبَ نفسه له ان ينازل خصومه في البحر أيضاً ، وكان عمر يعارض في الاقدام على هذه المغامرة . ومن هنا لم يوفق معاوية الى الخروج بالعرب الى هذا الميدان الذي لم يعرفوه من قبل ، والذي ما لبثوا ان ألفوه ، الا بعد ان وَلِيَ عثمان أمر الناس . وفي صيف سنة ٦٤٩ هاجم معاوية قبرس ، وما هي الا ست سنوات فحسب حتّى كان يجهز أسطولاً بحرياً للهجوم على القسطنطينية نفسها . وهرع الامبراطور قسطنطين الثاني حفيد هرقل ، الى ملاقاته على الساحل الليقياني ، ولكن الاسطول العربي هزمه هزيمة ماحقة . وبالرغم من هذا النصر ، فقد ظل العرب عاجزين عن بلوغ هدفهم ، لأن معاوية الذي كان في الوقت نفسه ، يتقدم بجيوشه براً ، لم يستطع ان يعدو ، في تقدمه قيسارية في كبدوكية ، وكان على معاوية ، عندئذ ، ان يساوم على الصلح مع بيزنطة لينصرف الى قتال عليّ ، حتّى اذا وحّد الامبراطورية من جديد استأنف النضال ضد البيزنطيين من طريق الغزوات الصيفية التي كان يشنها على آسية الصغرى ، كل عام . والواقع ان جيوشه بلغت أبواب

(٢٨) راجع ولهاوزن J. Wellhausen, Die Kampfe der Araber mit den Rhomaern in der Zeit der Umaijaden, Nachr. d. Ges. d. Wiss., Gottingen, 1901, p. 91 ff.

العاصمة البيزنطية مرتين ، ولكن الامبراطورية البيزنطية استطاعت ، بفضل تفوقها في الحضارة [آنئذ] ، ان ترد تلك الهجمات * . وفي سنة ٦٦٧ دعا أحد الثائرين في إرمينية العرب الى دخولها ، ولكنهم ما كادوا يبلغون مَلَطْيَة ، حتى كان الامبراطور قد أخمد نار الثورة . ومع ذلك فقد تابعوا تقدمهم حتى خلكيدون . عندئذ ألحق معاوية ابنه يزيد ، الذي كان يعيش حتى ذلك الحين حياة لهو وعبث ، بالقوات المقاتلة . وبعد ان ثبت العرب في خلكيدون ، طوال الشتاء ، اندفعوا حتى بيزنطة نفسها في الربيع ، ولكنهم اضطروا إلى ان يرفعوا عنها الحصار حالما بدأ الصيف ليعودوا ادراجهم إلى الشام . وفي سنة ٦٧٤ قام معاوية بمحاولة جبارة أخرى بسبيل النفاذ الى قلب الدولة النصرانية . فوجه لذلك أسطولاً عظيماً لم يلبث ان نجح في الاستيلاء على « جزيرة أرواد » على الضفة الجنوبية من بحر مرمرا . ومن هنالك طفق يزعج العاصمة البيزنطية طوال سبع سنوات ، ولكن شيئاً لم يكن لينال من حصونها القوية ومن نارها الاغريقية . وأخيراً يئس معاوية من هذا النضال العقيم ، وعقد الصلح مع بيزنطة .

فتح شمالي افريقية

وأحرز العرب انتصارات دائمة على المسيحيين في ميدان القتال الآخر ، في إفريقية (٢٩) . فما كادت تنقضي سنة ٦٤٧ حتى كان ابن أبي سرْح ، أمير مصر من قِبل عثمان ، قد أتم فتح طرابلس الغرب . ولكنه اكتفى

(*) ويشبهها المؤلف بهجمات البرابرة في أوروبة . (المعربان)

(٢٩) راجع كوديل : M. Caudel, Les premières invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, Journal asiatique, 1900, série IX t. 13, 14.

وراجع أيضاً توري : Ch. Torrey, The Muhammedan Conquest of Egypt and North Africa, publications in Semitic philology of the University of Yale, 1901, 279 - 300.

وراجع أيضاً بكر : C. H. Becker, « The Expansion of the Saracens » in Cambridge Medieval History, II, 329 — 390 (1912).

آنذاك بفرض الجزية على أهلها . وفي سنة ٦٦٧ استأنف أمير [مصر] من قبل معاوية ، ابن حُديج ، الحرب ضد النصارى في الغرب ، فأوغل في غزوته الاولى حتى لشارف صقلية . ولكن المؤسس الحقيقي للحكم العربي في افريقية الشمالية هو عقبة بن نافع ، ابن خالة عمرو فاتح مصر . وكان عقبة قد فتح برقة بعد ان سار عليها بجيوشه من مصر . وفي سنة ٦٧٠ وُفّق بمعاونة البربر ، الى القضاء على الحكم النصراني في شمالي افريقية جملة واحدة . ثم عُزل بعد ان انشأ مستعمرة عسكرية في القيروان . ولكن خليفة معاوية [يزيد] أعاده الى عمله سنة ٦٨٢ ، فسار في حملة جديدة نحو الغرب . وظل يتقدم حتى بلغ المحيط ، على ما يظهر . وعلى الرغم من أنه اجتاز بجيوشه مناطق القبائل البربرية حتى الاطلس الاوسط فان البربر لم يخضعوا له خضوعاً كاملاً . فقد فرّ زعيمهم كُسَيلة (الذي كان عقبة قد أسره) لينظم بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية الباقية في البلاد ، المقاومة ضد العرب . بعد ذلك قسم عقبة جيشه في غير ما حذر ، واندفع في الطريق الى جبال أوراس على رأس فرقة صغيرة . وفي سنة ٦٨٣ أوقع به البربر ، عند تهوذا على طرف الصحراء الكبرى ، فقُتل وقتل المسلمون جميعهم . والواقع ان المسجد الذي يضم رفاته في المنطقة التي تحمل اسمه ، سيدي عقبة ، جنوبي بِسْكَرَة هو أقدم أثر من فن العمارة الاسلامية في إفريقية ، ويعود الى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بسيطة بدائية .

يزيد الأول – كربلاء

وتوفي معاوية في ١٨ نيسان سنة ٦٨٠ ، فخلفه ابنه يزيد (٣٠) ، وكان معاوية قد أخذ له البيعة في حياته . وكان زعماء الارستوقراطية الاسلامية – الحسين ثاني ابناء علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير – قد تخلفوا

(٣٠) أنظر لامنس : **H. Lammens, Le califat de Jésid I, Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth, IV, 233 — 312.**

عن البيعة . فلما عُرضت عليهم ثانية ، بعد وفاة معاوية ، لم يبايع الا ابن عمر ، في حين قصد الحسين وابن الزبير الى مكة تخلصاً من أمير المدينة المكلف من قبل يزيد بأخذ البيعة منهما . وألحّ أهل الكوفة على الحسين في القدوم اليهم ومبايعته بالأمر . فاستجاب الحسين لهذا الاغراء ولكنه لم يجد في العراق التأييد الذي توقّعه . وكان قد بعث بابن عمه مسلم بن عَقيل ليمهد له سبيل العمل هناك ، قبل مغادرته مكة ، فأسره عامل يزيد ، عُبيد الله بن زياد ، وقتله . وفيما كان الحسين في طريقه الى الكوفة اعترضته طلائع جيش عبيدالله . واذ قد أبى أن يعود من حيث أتى رافقوه حتى كربلاء غربي الفرات ، على نحو اثنين وستين ميلاً الى الجنوب الغربي من بغداد عند طرف الصحراء . ثم انهم حاصروه هناك رجاة ان يُكرهه الظمأ على الاستسلام . وفي العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ . الموافق للعاشر من تشرين الاول سنة ٦٨٠ م . أنذره قائد جيش يزيد ، عمر بن سعد بن أبي وقاص ، صاحب رسول الله والقائد العسكري البارز [بسوء العاقبة] . ومع أنه لم يكن في استطاعة الحسين ان يتوقع تأييداً أكثر من أتباعه الكوفيين الذين أفزعهم مقتل مُسلم ، فقد أبى ان يستسلم لعمر بن سعد ، مبالغاً في اتكاله على الحصانة التي كان يتمتع بها بوصفه حفيد الرسول . وهكذا دارت رحى المعركة ، وما لبث الحسين ان سقط في الميدان . ثم انهم حملوا رأسه الى يزيد فحزن حزناً عميقاً لهذه النتيجة التي لم يكن يتوقعها ، وأمر بارجاع العلويين الذين نجوا من المذبحة الى المدينة وباكرامهم . والحق ان ميتة الشهداء التي ماتها الحسين ، والتي لم يكن لها أي أثر سياسي ، قد عجلت في التطور الديني للشيعة ، حزب علي ، الذي أصبح في ما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب [الشعوبية] . واليوم لا يزال ضريح الحسين في كربلاء أقدس محجة عند الشيعة ، وبخاصة الفرس ، الذين ما فتئوا يعتبرون الثواء الاخير في جواره غاية ما يطمعون فيه .

ابن الزبير في مكة

أما عبدالله بن الزبير الذي تحدى الخليفة في حرمَ مكة المقدّس فقد

كان أشد خطراً على ملك بني أمية . فمن هناك استثار ابن الزبير المدنيين ، الذين كانوا على أتمّ الاستعداد للتنكّر للدولة التي سابت مدينتهم زهوها القديم . وحاول يزيد ان يخطب ودّهم ، مرة ثانية ، سنة ٦٨٣ ، ولكن على غير طائل . وما هي إلا فترة حتى هوجم الأمويون المقيمون في المدينة ويبلغ عددهم نحواً من ألف رجل ، واضطروا الى ان يحتموا في كنف زعيمهم مروان بن الحكم بن العاص الذي كان اميراً على الحجاز فترةً من الزمان ، في عهد معاوية . وأرسل الخليفة جيشاً مؤلفاً من اثني عشر ألف سوري لنجدتهم ، بقيادة مسلم بن عقبة ، الذي أظهر كفاءةً وعزماً يوم كان يعمل تحت إمرة والده . واستسلم الامويون المحاصرون في المدينة ، على ان تكون لهم حرية الانسحاب منها . ثم انضموا الى قوات مسلم على الطريق الى سورية . وفي آب ٦٨٣ عَسْكَرَ مسلم في الحرة ، وهي الارض الصخرية البركانية الواقعة شمالي المدينة . وأجّل مسلمٌ أهل المدينة ، ولكنهم لم يبالوا والتحموا مع جند الخليفة في معركة انتهت بالقضاء على زهرة الأشراف من قريش والانصار . وفي اليوم التالي دعا مسلمٌ الناس للبيعة ليزيد ، بعد ان أصدر أمره بتقتيل زعماء الثورة الذين نجوا من الموت .

ومن المدينة توجه مسلمٌ الى مكة ولكنه قضى في الطريق ، فاستُخلف على الجند الحُصَيْن بن نُمير . وبعد ان حاصر الحصين مكةَ طوال شهرين بلغه نعيُ الخليفة يزيد [فأوقف القتال] وفاوض عبدالله بن الزبير ، وعرض عليه البيعة بالخلافة شرط أن يهدر الدماء التي كانت بين جند الشام وأهل الحرم ، وان يخرج إلى سورية حتى تبقى قاعدة الدولة هناك . ولكن عبدالله رفض الموافقة على الشرط الثاني ، ومع ذلك فقد رفع الحُصَين الحصار ورجع إلى الشام .

وتوفي يزيد في ١١ تشرين الثاني سنة ٦٨٣ . صحيحٌ أنه انصرف حتى في عهد خلافته ، الى الخمر والموسيقى واللهو بأكثر مما انصرف إلى شؤون الدولة ، وأنه قد وضع حداً للحرب البيزنطية التي لم يشارك فيها ، وهو

أميرٌ ، الا في تردد وعلى كُره . وصحيحٌ أيضاً أن الروايات النصرانيـــة تشيد بحبه الفائق للقصْف والشراب . ولكنه مع ذلك استطاع ان يُحدث خلال حكمه القصير ، وفي شكل لا يخلو من البراعة ، إصلاحاً في الادارة المالية ، وان يوجه اهتمامه الى ري الغوطة ، واحة دمشق . وكان ابنه معاوية الثاني حَدَثاً عندما بويع في دمشق بالخلافة ، ولكنه توفي بعد ان حكم فترةً قصيرةً جداً .

مروان الأول – الصراع بين الكلبية والقيسية

وفي أيام معاوية الثاني نشبت الحروب ، في سورية ، بين القبائل العربية ، لتستمر متقدة الأوار منذ ذلك الحين ، طوال العهد الاموي . ذلك بأن قبائل عرب الشمال القيسية التي نزل بعضها كغطفان ومضر وغيرهما ، في سورية الشمالية وفي الجزيرة والعراق لم تكن مرتاحة إلى محاباة معاوية الاول نفسه لبني كلب اليمانيين ، وهم يؤلفون القبيلة الرئيسية في قضاعة النازلين بين تدمر والبلقاء (موآب القديمة)(٣١) فلما استوثق الأمر لعبدالله بن الزبير في العراق ثارت قيس بزعامة زُفر بن الحارث وطردت أمير قِنسرين ، وكان من كلب . وبعد وفاة معاوية بايع أمير حمص أيضاً عبدالله بن الزبير بالخلافة . واخيراً انقلب الضحّاك بن قيس ، الذي كان ذا نفوذ في دمشق ، على الامويين وحازَبَ ابن الزبير . وأظهر مروان رأس البيت الأموي الذي نزل دمشق بعد وفاة يزيد ، ميلاً الى التنازل عن حقوقه للخليفة المقيم في مكة ، بادىء الامر ، ولكنه ما لبث ان نزل

---

(٣١) يميل جرلد زيهر إلى اعتبار العداوة بين عرب الشمال وعرب الجنوب نتيجة ثانويـــة للخصومة بين قريش والأنصار الذين كانوا يعدون من عرب الجنوب . ولكن الذي يبدو ان هذه الظاهرة قد نشأت ، منذ البدء ، من عداوة قائمة على أساس الجنس بين عرب الشمال، وهم شرقيون خلص ، وبين عرب الجنوب الذين تسري في عروقهم دماء غريبة مختلطة . والحق أن الخصومـــة بين قيس ويمن ظلت تعمل عملها ، بعـــد ذلك ، بزمن طويل . وسنقع على آثارهـــا واضحة في تاريخ الأندلس .

عند رغبة أتباعه فتلقى البيعة في الجابية ، في ٢٢ حزيران سنة ٦٨٤ . وهنا انضم اليه خال يزيد ، حسان بن بَحدَل ، وكان بوصفه أميراً على الاردن يتمتع وحده ، من بين أنصار الامويين جميعاً ، بسلطة فعلية ما . فسار مروان معه الى دمشق ، فخرج القيسيون للقائه في سهل مرج راهط ، شمالي دمشق ، فكُتب له النصر عليهم . وفي آب سنة ٦٨٤ تلقى مروان البيعة في دمشق أيضاً ، بعد ان استولى على بيت مال الدولة مقدماً . ومع ان هذا النصر في مرج راهط قد ثبّت دعائم الحكم الاموي ، فان العداوة بين قيس وكلب ما لبثت ان استعرَ أوارها بعد قليل ، بسبب من الثارات التي لازمت النزاع بينهما ، لتدكّ أساس الدولة الأموية وتقضي عليها .

ولم يُقيّض لمروان من الحكم الا فترة قصيرة ، ولكنها كانت حافلة بالمنازعات المتواصلة ، ولقد وفّق الى الاستيلاء على مصر بهجوم مفاجيء شنّه عليها ، فيما كان امراوه في فلسطين يحمون موخرة جيشه ، ويصدون هجوم مُصعب ، أخي عبدالله بن الزبير . وكان على مروان ، باديء الرأي ، أن يُسنِد ولاية العهد لأحد أبناء يزيد ، ولكنه استطاع بعد سلسلة من المفاوضات المتطاولة أن يُقنع هذا الاخير بالتنازل عن حقه في الخلافة لولديه هو : عبد الملك ، وعبدالعزيز ، وكان أصغرهما ، وقد عيّنه أميراً على مصر .

وكان الخليفة ، الذي سبق أن أصيب بجرح بالغ في الدفاع عن عثمان ، وبآخر في موقعة الجمل ، يُشارف عامه السبعين عندما تخَطّفه الطاعون الوافد على سورية من العراق للمرة الثانية ، في ٧ نوّار سنة ٦٨٥ ، كما تخطّف معاوية الثاني من قبله . أما الرواية التي تذهب الى ان امرأته ، وهي أرملة يزيد ، قد خنقته انتقاماً لابنها الذي حرم حقّه في الخلافة ، فقطعة من الخيال .

عبدالملك وثورة المختار

والواقع أنه كان على ابنه عبد الملك ان يستهل الآن نضالاً عنيفاً لإقرار

ملك أبيه . فقد كان زُفر ، زعيم قيس الضاربة في الفرات ، لا يزال يتحداه في سورية ، وكانت الامصار الأخرى تدين بالطاعة لابن الزبير . ليس هذا فقط ، بل لقد كان عليه ان يدافع عن سورية الشمالية ، ضد البيزنطيين ، سنتين بكاملهما ، حتى اذا فرغ من ذلك استطاع ان يصرف همته الى العراق وعليه آنذاك مصعب بن الزبير . وكان مصعب، قبل ان يفرغ لقتال عبد الملك ، يواجه في العراق عقبات كبرى ، ذلك بأن العلويين أخلدوا الى السكينة بعد مصرع الحسين في كربلاء ، وقد أعوزهم القادة الموهوبون . وما هي الا فترة حتى برز بينهم القائد الذي يرتجون في شخص المختار الثقفي ، وهو يتيم نشأ في كنف عمه ، أمير المدائن من قبل علي(٣٢) . وكان المختار قد شارك في ثورة مسلم بن عقيل فقبض عليه وألقي في غياهب السجن ، حتى اذا أطلق سراحه التحق بابن الزبير في مكة . وبعد ثلاث سنوات ظهر من جديد في العراق وأخذ يدعو في ما يظهر ، لأحد أبناء عليّ الصغار ، محمد المعروف بابن الحنفية ، نسبة الى أمه . واذ كان محمدٌ هذا لا يجري في عروقه شيء من دم النبي عن طريق فاطمة ، واذ كان بسبب من ذلك لا يستطيع ان يدعي الحق في الخلافة وان يتصدر لها ، فقد سارع المختار الى انتهاج سبيل آخر : طفق يبشر ، بوحي من الملك جبريل على ما زعم ، وبنثر غامض مسجوع يطبع على غرار القرآن ، بظهور المهدي ، فُجاءة ، عند انتهاء العالم ليملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت جوْراً . ولقد وُفّق الى ان يجتذب اليه الموالى من الآراميين والفرس الذين اعتنقوا الاسلام ، والذين كان العرب ينظرون اليهم كمواطنين من

(٣٢) أنظر فان جالدر : **H. G. van Gelder, Mochtar, de valsche Propet, Leiden, 1888.**

وانظر أيضاً فان فلوتن : G. van Vloten, **Recherches sur la domination arabe, le chitisme et les croyances messianique sous le califat des Omaiyades, Verh, d. Akad.,** Amsterdam, 1894, Nr. 3.

وانظر أيضاً ولهاوزن : J. Welhausen, **Die religiös - politischen Opposit-ionsparteien im alten Islam, 74 – 89.**

الدرجة الثانية ، وامتر عليهم ابراهيم بن مالك الاشتر ، أحد قواد علي المشهورين . ونجح ابراهيم في التغلب على عرب الكوفة ، ومن ثم بسّط المختار سلطانه على العراق كله وعلى الامصار الشرقية ، حيث انضوت الشعوب المغلوبة على أمرها تحت لوائه في حماسة واندفاع . ولكنه لم يستطع ان يكتسب عطف عرب الكوفة الذين اغتنموا فرصة انشغال ابن الاشتر وجنوده في حرب عبد الملك ، للهجوم عليه [أي على المختار] . والواقع ان المختار كان في حال من الخطر الشديد عندما تداركه جيشُه ، بعد ان سمع بأنباء الكوفة ، وانقذه من أهلها . فما كان منه الا أن أنزل عقوبة وحشية بجميع خصومه بحجة أنهم شركاء في الجريمة التي انتهت باستشهاد الحسين . وبعد يومين ، هزم ابن الاشتر الجيش السوري — وكان يقوده عُبَيد الله بن زياد الذي أنفذ مجزرة كربلاء — في خازر حيث قُتل ابن زياد نفسه . ولكن المختار لم يهنأ بهذا الظفر العظيم الذي احتفل به احتفالاً غريباً ، بعد ان نصب عرشاً فارغاً ، وسجد أمامه سجوده أمام عرش الله ، إذ تلا هذا الظفر سقوطه . ذلك ان مصعباً الذي كان حتى الآن مستقراً في البصرة أثناء حرب الخوارج ما لبث ان هاجمه واضطره بعد معركتين داميتين ، الى ان يعتصم في قلعة الكوفة . وضرب مصعب الحصار على القلعة فدافع المختار وجنوده عن أنفسهم دفاعاً دام أربعة أشهر ، قُتل بعدها المختار في هجوم قام به في ٤ نيسان سنة ٦٨٧ . وعاشت تعاليمه في عقائد الشيعة ، المتصلة بشؤون الآخرة ، على الرغم من ان مصعب بن الزبير أباد اتباعه في وحشية بالغة .

واستطاع مصعب ان يخضع بعض الحركات الاموية الصغرى في العراق ، ولكن عبد الملك نفسه ما عتم ان ظهر بجيشه في العراق ، سنة ٦٩١ ، في وقت كانت أفضل جيوش مصعب منهمكة أثناءه في النضال ضد الخوارج . فتقدّم مصعب لقتال الخليفة شمالي بغداد ، عند دير الجاثليق على الضفة الغربية من دجلة . بيد ان رجاله خانوه ، وشرعوا يفاوضون الخليفة ،

الذي أبى ان يقرّهم على خيانتهم ، والذي أظهر الرغبة في التفاهم مع مصعب عارضاً عليه إمارة العراق إذا ما انضمّ الى صفوفه . ولكن مصعباً كان صادق الاخلاص لأخيه ، فرفض عرض عبد الملك ، وقضى في ميدان المعركة في منتصف تشرين الاول .

هزيمة ابن الزبير

لم يبق أمام عبد الملك الآن الا عبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز كله من مقرّه في مكّة . فوجه اليه الحجاج بن يوسف ، وهو ثقفيّ من الطائف ، استطاع ان يكسب رضا الخليفة في حملته على مصعب ، واتخذ الحجاج من مسقط رأسه قاعدة لعملياته الحربية ، ليتقدّم من هناك الى مكة ، وليرميها بالمنجنيق من جبل ابي قُبيس ، غير مبال بحرمتها وقدسيتها . ولكن منافس الخليفة استطاع ان يثبت سبعة أشهر أخرى في منطقة الكعبة ليُقتل في مناوشة جرت في تشرين الاول سنة ٦٩٢ ، بعد ان انفضّ عنه الناس حتّى أبناؤه أنفسهم . وهكذا استعادت الامبراطورية وحدتها . وكافأ عبد الملك القائد الظافر بأن عيّنه أميراً على الحجاز ، بالاضافة الى اليمن واليمامة . وبعد ان أقرّ الامن والنظام في هذه الاصقاع طوال سنتين ، دعاه عبد الملك إلى تولي أعباء أخطر عمل في الدولة ، فعيّنه أميراً على العراق ، خلَفاً لبشر ، أخي الخليفة المتوفى . ولقد استهل اضطلاعه بمهام الحكم في الكوفة بخطبة طارت لها شهرة واسعة كخطبة سلفه زياد .

الحرب البيزنطية

واستأنف عبد الملك ، بعد ان قضى على منافسه في الخلافة ، حرب البيزنطيين التي خمدت نارها طوال خمسة عشر عاماً ، والتي سبق له ان اضطرّ الى وقفها بجزية يدفعها الى اعدائه . والمفروض ان استئناف الاعمال الحربية كان ذا صلة بالاصلاح النقدي الذي أحدثه عبد الملك . فالروايات

الأسطورية تذهب الى ان النقد البيزنطي كان وحده المتداول في الامبراطورية العربية ، حتى ذلك الحين ، وان النقود المضروبة في داخل البلاد ايضاً كانت تحمل نقوشاً يونانية . وكان البيزنطيون بدورهم يحصلون على ورقهم من مصر حيث كان يُصنع لهم في مصانع الدولة ، حاملاً الكتابات النصرانية وإشارة الصليب كسمة مائية . والمقول ان الخليفة قد استبدل الشهادتين بهذه جميعاً . ومن هنا هدد البيزنطيون بأن يجعلوا على الدينار الذهبي ، الذي كان العرب لا يزالون يعتمدون على البيزنطيين في الحصول عليه ، نقوشاً عدائية للرسول ، فما كان من عبد الملك إلا أن عزم على ان يضرب نقود دولته في دمشق ، سنة ٦٩٣ فيقتفي الحجاج أثره في الكوفة ، في السنة التالية . وكان من نتيجة ذلك ان اصطُنعت العربية في الديوان ، بعد ان كان باليونانية في سورية ، وبالفارسية في العراق على الرغم من ان الموظفين ظلوا ، كما كانوا في السابق ، كلهم من الاعاجم (٣٣) . ثم إن عبد الملك حدّ كثيراً من الحريات الممنوحة سابقاً للرعايا المسيحيين ، ابتغاء تعزيز وحدة الامبرطورية وضمانها .

كذلك أدخل عبد الملك روحاً جديدة الى بلاطه . كان أسلافه يعاملون الرعية على طريقة شيوخ القبائل العربية القدماء . فلما انتهى اليه الامر خرج على هذه السنة وحكم المملكة حكماً مطلقاً . واذ كان هو ممثل الثيوقراطية فقد وسع من نفوذ الفقهاء ، وأدى فروضه الدينية بامانة وحرص . ولكن هذا لم يمنعه من أن يدعو الى بلاطه الشاعر النصراني ، الأخطل ، الذي وُلد في الحيرة من قبيلة تغلب ، والذي سبق ليزيد الاول ان أفاد من خدماته . ذلك بأن الاخطل لم يكن متقيداً بأي من الاعتبارات الدينية ، ومن هنا استطاع الخليفة حمله على ان يتعرض بشعره البليغ الأثر للمعارضين من

(٣٣) بعد أن تولى عبد الملك الحكم أرسل أثناسيوس بار جماية من الرهـاء إلى عبد العزيز أخي الخليفة في مصر ليعيد تنظيم الإدارة . ولقد أصبح اثناسيوس في مركزه هـذا ذا غنى استطاع معه أن يشيد كنيستين عظيمتين من أمواله الخاصة .

أتقياء أهل المدينة ، الذين كانوا لا يفتأون يزعجون الدولة بين الفينة والفينة [٣٤] .

وضمن عبد الملك ولاء الامصار بأن جعل امارة كل منها الى أحد أنسبائه ، ما خلا العراق . ولقد عيّن على مصر وشمالي افريقية حيث قُضيَ نهائياً على المعارضة البربرية ، في عهده ، أخاه عبد العزيز الذي سبق لابيه أن عهد له بالخلافة بعد عبد الملك . والواقع ان عبد الملك سعى الى اقناع أخيه بالتنازل عن حقه في الخلافة ، فلم يُفلح ، ومهما يكن من الأمر فقد توفي عبد العزيز قبله . وهكذا خلف الوليد أباه ، سنة ٧٠٥ ، من غير ما معارضة .

الفتوح في عهد الوليد

وبعث الوليد بالجيش العربي الى ما وراء حدود الامبراطورية كرّة أخرى . فسقطت طوانة ، من أعمال آسية الصغرى ، في أيدي العرب بعد حصار طويل ، وان لم تخرج الحملة التي رسم خطتها للاستيلاء على القسطنطينية الى حيز العمل . أما الفتوح في الشرق فبدأت من العراق ، الذي كان الحجاج أميراً عليه وعلى ايران كلها [٣٥] . ففي سنة ٧٠٤ عين عبد الملك ، بناء على اشارة الحجاج ، قُتَيْبَة بن مُسلم أميراً على خراسان ، وهي المقاطعة الشرقية التي تمتد من نهر جَيحون (آمودريا) حتى « الهندوكوش » . والواقع ان الشعبين الايراني والتركي كانا هناك على احتكاك متواصل منذ قرون . فلما كانت الفترة التي نؤرخ لها ، وسع الاتراك — الذين سندرس جاهليتهم في تفصيل أكبر عندما نبحث دخولهم الحاسم في دنيا الاسلام — مملكتهم في اتجاه الغرب ، على عهد قابغان [٣٦] قاغان * (الذي يدعوه

---

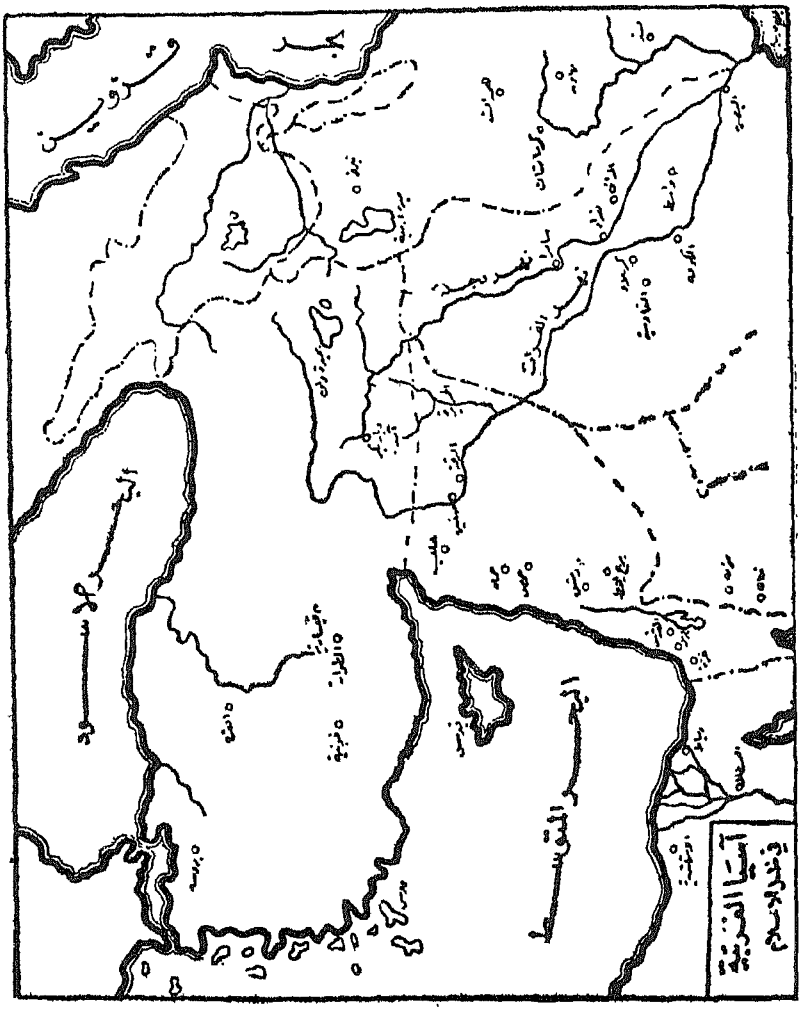
(٣٤) راجع لامنس, H. Lammens, Un poète royal à la cour de Damas, Etudes sur le siècle des Omayyades, 210—62.

(٣٥) تجد تفصيلات أوسع في كتاب جب H. A. R. Gibb, The Arab Conquests in Central Asia.

(٣٦) راجع تنظيمات الأتراك القبلية في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(*) وجاء في المصادر العربية : خاقان . (المعربان)

الصينيون متشوتي) بعد ان حرّروها من السيطرة الصينية . واستقر واحد من أتباعهم ، بوصفه « طرخاناً » ، في سَمَرقند ، عاصمة بلاد الصغد ، في ما وراء النهر ، على الضفة الجنوبية من نهر الزَرَفْشان * . وعلى الضفاف السّفلى من هذا النهر تقع بُخارى ، حيث كانت احدى الأسر التركية



(*) وهو نهر الصغد ونهر الصغانيان . (المعربان)

الحاكمة تبسط سلطانها على رعية مختلطة ، فارسية وتركية . وفي عهد هذه الاسرة الأخيرة نشبت منازعات عرفَ قتيبة كيف يستغلها بأن قلد رجلاً في مقتبل العمر منصب الأمارة هناك . واعتنق هذا الشابّ الاسلام ، فاذا بدين محمد راسخ الجذور ، بعدُ ، في بخارى . وأخضع طرخان سمرقند لقتيبة أيضاً ، ولكن رعاياه الناقمين عليه ما لبثوا أن خلعوه . وتمرّد خلفُه ، غورك * ، أول الأمر ، على المسلمين ، ولكن قتيبة اضطرّه إلى الاستسلام بعد حصار طويل . ومع أنه احتفظ بعرشه ، فقد كان عليه أن يقبل حامية عربية . ومن ذلك الحين ثبتت دعائم الاسلام ، بالرغم من بعض الاضطرابات ، في كلتا المدينتين اللتين أصبحتا في ما بعد أعظم حصونه شأناً في آسية الوسطى . ومن هناك اندفع قتيبة في اتجاه الشرق قاصداً فَرغانة . فلما كان صيف سنة ٧١٤ جاءه نعي الحجّاج فانسحب إلى قاعدته في مَرْو . وفي السنة التالية توفي الوليد أيضاً ، فخشي قتيبة أن ينتقم منه سليمان ، وارث العرش ، لما كان بينهما من خصومة عنيفة تمثّلت في إحجام الأول عن مبايعة الثاني بالخلافة ، ولكن القائد الكبير ما لبث أن قُتل في ثورة من ثورات الجند. وفي سنة ٧١١ بدأ أمير البصرة من قبَل الحجّاج، صهرُه محمد بن القاسم ، في غزو السِّند من جنوبي بلاد فارس وبلوخستان ، مما فتح أمام الاسلام في الهند ميداناً جديداً من ميادين النفوذ الواسعة (٣٧) .

فتح الأندلس

أما في الغرب فقد جازَ العرب ، في خلافة الوليد ، مضيق جبل طارق ، وانزلوا في ٢٥ — ٢٦ تموز سنة ٧١١ ضربة قاضية بالمملكة القوطية التي عملت الاضطرابات الداخلية على تفسّخها ، في معركة وادي بَكّة ، الذي

(*) وجاءت في المصادر العربية « غوزك » (المعربان)

(٣٧) راجع في ما يتصل بالإسلام في الهند كتاب « تاريخ الهند » للسير جورج دنبار Sir George Dunbar, A History Of India, 2 vols , London, 1936, 3d ed. 1943. ولا تتناول الصفحات التالية هذا البحث .

سُمّي خطأ ، في وقت من الاوقات ، باسم شريش الفرنتيرة . وفي هذه المعركة قُتل لذريق آخر ملوك القوط . وكان الجيش الظافر يتألف في كثرته المطلقة من البربر الذين كان موسى بن نُصير ، أمير إفريقية الشمالية (الذي عيّنه عبدالعزيز وأقرّه الوليد في منصبه) قد بعث بهم في بادىء الأمر عبر المضيق كفرقة استطلاع ، ليس غير ، بقيادة مولاه طارق بن زياد . ولا يزال الجبل الذي جمع طارقٌ جنوده فوقه ، بعد ان نزل بهم إلى البر يحمل اسمه إلى اليوم . والواقع ان هذا الظفر غير المتوقّع الذي أحرزه طارق أثار الحسد في نفس سيده ، فما كان منه إلا أن لحقَ به ، في الحال ، على رأس جيوش عربية ، في معظمها ، واندفع متوغلاً في البلاد حتى انتهى إلى أبعد مما انتهى اليه طارق . وأتمّ موسى في هذه الحملة فتح مدينة شَذُونة وقَرْمونة ليقضي بعد ذلك عاماً كاملاً في حصار إشبيلية وماردة ، بينا كانت بعض جيوش الاسلام تقاتل الأمير القوطي تُدمير في أوريولة . ثم إنه التقى بجيش مولاه طارق عند طُليطلة فوُفّق بالاشتراك معه إلى اخضاع اسبانية الشمالية كلها من سَرَقُسْطة إلى نَبْرَة (نافار) . وفي سنة ٧١٤ رجع موسى إلى إفريقية بغنائم عظيمة ، وسار في موكب نصر إلى سورية ، حيث كان الوليد ينتظره بفراغ صبر . وما كاد يبلغ دمشق ، حتّى توفي الخليفة في شباط سنة ٧١٥ . وله من العمر أربعون عاماً .

وقطفَ الوليد ، في داخل امبراطوريته ، ثمرات النشاط الذي بذله ابوه ، فاعتُرف به في كل مكان عاهلاً مطلق الأرادة . ولقد عمل على إقصاء النصارى شيئاً بعد شيء عن الجهاز الأداري ، حتى لقد استغنى عن خدمات أسرة سرجون بن منصور التي كانت تدير الشؤون المالية منذ عهد معاوية نفسه . وكان ، ككثير من الملوك الشرقيين القدماء ، مولعاً بالاعمال العمرانية ، لا لمجرّد التباهي والاعتزاز فحسب ، بل ابتغاء تعزيز موارد أملاكه أيضاً .

الجامع الأموي بدمشق

وليس من شك في أن الأثر الرئيسي الذي تقوم عليه شهرة الوليد ،

من حيث العمران ، هو جامع دمشق الكبير الذي يدعى عادة الجامع الأموي . كانت البساطة هي الطابع الغالب على شكل المكان الذي يُفرد للصلاة ، فكانت المساجد تتألف من فناء في أحد طرفيه سقيفة ، على غرار بيت النبي في المدينة . ولكن هذه البساطة لم تلبث أن أصبحت زياً قديماً . والواقع ان معسكرات الجيش الفاتح الاولى ، في الكوفة والبصرة بالعراق ، وفي الفسطاط بمصر أيضاً ، اكتفت بتقليد مسجد النبي القديم . حتى اذا كانت خلافة عمر وعثمان وسّعا مسجديْ المدينة ومكة بعد ان اشتريا المنازل المجاورة لهما ، واستعاضا عن السقائف البسيطة [المصنوعة في الغالب من سعف النخل] بسقائف من حجر . واقتفت الامصار إثر مكة والمدينة ، في ذلك . فجهز سعد بن أبي وقاص مسجدَ الكوفة بأعمدة مأخوذة من مباني الساسانيين وكنائس الحيرة . وفي عهد معاوية أدخلت تحسيناتٌ جديدة على مسجدي الكوفة والبصرة (٣٨) . فالى جانب المحراب ، المتجه نحو مكة [القبلة] أقيمت دور الدولة الرسمية ، لأن إمامة الناس في الصلاة الجامعة انتقلت في العاصمة والامصار الى الخليفة وعمّاله . وتذهب الروايات الى ان عثمان نفسه قد ابتنى مقصورة خشبية في مسجد المدينة مخافة أن يعتدي عليه أحد . فلما كانت خلافة الامويين حذا أمراء الامصار حذْوَه ، في كل مكان . وفي عهد عبد الملك تعذّر على اتباعه الحج الى الكعبة بسبب من استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزبير على مكة ، فحاول ان ينشىء في القدس بدلاً من البيت الحرام . وهناك على الصخرة المقدسة التي استنّ عمر نفسه الصلاة عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيد عبد الملك ما يدعى اليوم قبة الصخرة (وتسمى ، خطأ ، مسجد عمر) . ثم ان الجامع

(٣٨) في ذلك الحين لم تكن أرض المسجد مفروشة بالحصباء ، فكان المؤمنون ينفضون أيديهم من ترابها بعيد أداء الصلاة . وخشي زياد أن تصبح هذه الحركة جزءاً من الصلاة ، مع تراخي الأيام ، فأزال التراب وفرش الأرض بالحصباء . راجع البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٧ ، وراجع أيضاً دي غويه :

M. J. de Goege, review of Wellhausen, Arab. Reich in Museum, 1902.

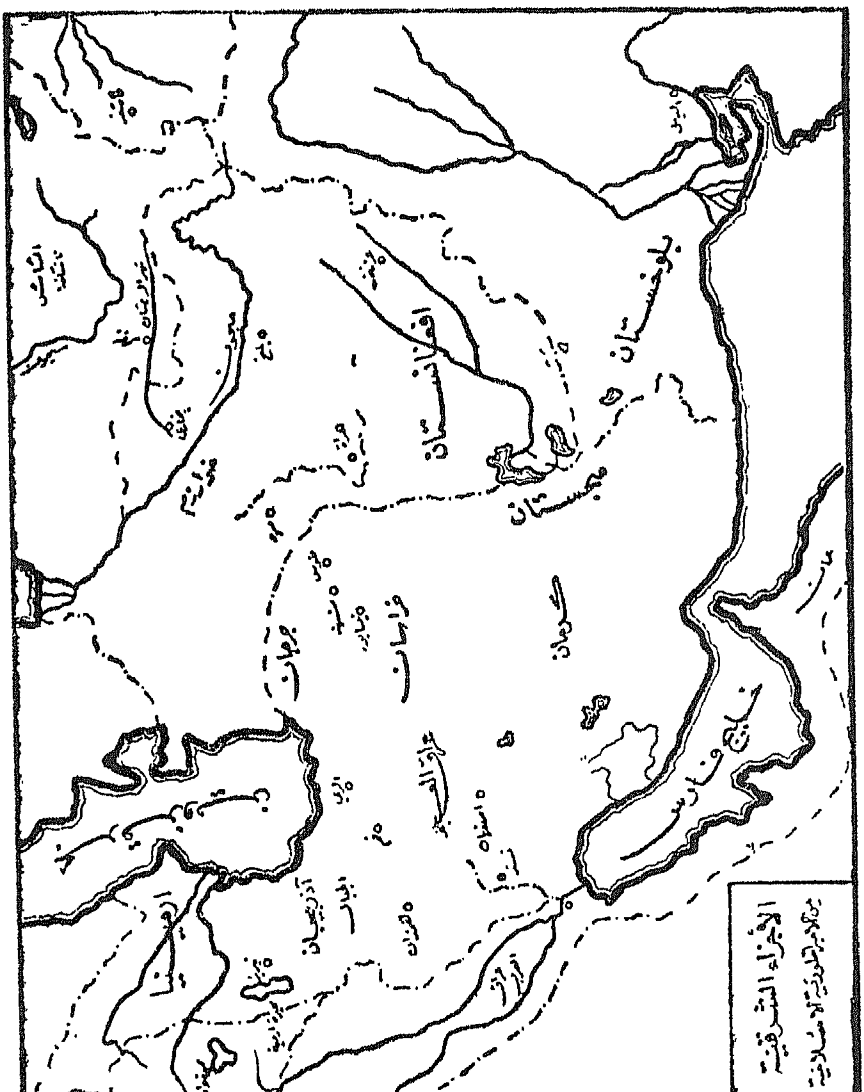
الاقصى ، الذي يدين باسمه لقصة إسراء النبي ، أنشيء بعدُ على فناء الهيكل . ولقد أدخلَ عبد الملك تلك الاجزاء التي كانت لا تزال قائمة من كنيسة يوستنيانوس ، في البناء ، مشيداً رواقاً ذا ثلاثة صفوف من الاعمدة ، أضيف اليه في ما بعد الجناحان والقبة واربع بلاطات [٣٩] .

وفي دمشق نفسها عاصمة الامبراطورية ، اكتفى المسلمون حتى ذلك الحين بمسجد صغير متواضع . وكان يقوم في الجزء المركزي من المدينة ، حتى في العصور الوثنية ، هيكلٌ كبير جدّد بناءه الرومان – ولعل ذلك كان في عهد الامبراطور ترايان – على طراز هيكل الشمس المشهور في تدمر ، ولكن على نطاق أوسع . ولا تزال بقايا أعمدة هذا البناء ماثلة للعيان في جوار الجامع . وفي سنة ٣٧٩ شُيدت على أنقاض هذا الهيكل الوثني كنيسة كرّست ليوحنا المعمدان ، وقد جُدد بناؤها في عهد اركاديوس ابن هونوريوس . والواقع ان هذه الكنيسة ظلت كلها ملكاً للنصارى . أما القول ان المسلمين احتلوا بعد الفتح مباشرة نصف الكنيسة لاقامة شعائرهم الدينية وتركوا نصفها الآخر للنصارى ، مكافأة لهم على استسلامهم ، فمن اختراع الروايات الاسلامية المتأخرة ، التي لم يَعُدْ في ميسورها ان تفهم مثل هذا التساهل مع النصارى . وفيما نرى الخلفاء الاولين يصونون حقوق النصارى ، نجد الوليد ينتزع ، سنة ٧٠٥ ، الكنيسة منهم [٤٠] ، ثم يعيد إنشاءها بأن ضمّ اليها الجدار الجنوبي والرواق الملاصق من الهيكل السابق . فاستحالت الى رواق معمّد ذي ثلاث بلاطات وأقواس محمولة على أركان ، وجناحين على غرار معبد خلكي في بيزنطة ، وسقف خشبي . أما القبة الحجرية الشامخة فوق منتصف الجناحين فليس من شك في انها شيدت بأيعاز

(٣٩) راجع تاريخ العمارة والتخطيط في كتاب ديز : E. Diez, Die Kunst der Islamischen Vôlker, Berlin, 1915, p. 12 ff.

(٤٠) أنظر لامنس H. Lammens, Le Calife Walid et le partage de la Mosquée des Omayyades de Damas, Etudes sur le siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930, pp. 269–302.

من عُمال الفسيفساء البيزنطيين الذين عهد اليهم بتزيين داخل البناء وتزويقه . ولقد ربطت زوايا البلاطة الوسطى من الجناحين ، على غرار الكنائس السورية ، بالدائرة السفلى من القبة بواسطة محاريب نصف دائرية . كذلك طُليت تيجان



الاعمدة بالذهب وزُينت الجدران بالرخام المطعّم وبالفسيفساء التي تُمثل مدناً وأشجاراً من كل نوع .

وأقيمت مئذنة جديدة على أساس البرج القديم في الزاوية الجنوبية الغربية من الرواق العتيق . وفي الجانب الشمالي من مدخل الجامع ارتفعت « مئذنة العروس » . وحول الفناء الى جهة الشمال ، أنشيء رواقٌ شامخٌ عال . وهنا أيضاً وجد هـ . تيرش H. Thiersch النموذج لهذا الجمع بين الرواق ذي العمد وبين المدخل الذي قلدته بعدُ مساجد كثيرة في معابد بيزنطة وفي رومة حيث وُضِع مدخل القصر الامبراطوري كفناء رئيسي مع غرفة للاستقبال والتشريفات . وهذه في دورها اتبعت نموذجاً كلاسيكياً .وإنما شيّدت هذه المنشآت في الامصار بواسطة السخرة . وتتحدث إحدى أوراق البرديّ المصري عن الجهود التي بُذلت في هذا البناء . كان العُمال كلهم من الاجانب ، من غير استثناء . وفي الروايات الأدبية إشارة الى ألف ومائتي عامل من بيزنطة . وكذلك تحدثنا أوراق البرديّ عن رجل فارسيّ كان يعمل هناك . من أجل ذلك كلّه ، نستطيع ان نقول ، في اطمئنان كثير ، إن طراز البناء لا يمكن ان يكون متشاكلاً مطّرداً . ليس هذا فقط . بل لم يكن بدّ من اللجوء الى الكفاءات الفنية الاجنبية ، في ما بعد ، أيضاً . ففي القرن الثاني عشر رفعَ ساعةَ المسجد الكبيرة رجلٌ من الفرس . ومن أسف ، أن يستهدف هذا الجامع ، الذي يعتبر أقدم آثار العمارة الاسلامية في سورية ، لضربات الجدّ العاثر غير مرّة . ففي سني ١٠٦٩ ، و ١٤٠٠ و ١٨٩٣ نشبت النيران في البناء فأتت عليه وكادت تلتهم جدران الاساس نفسها .

الحجاج يقاتل الخوارج وابن الأشعث

وفي عهد عبدالملك والوليد كان يحكم العراق – وهو أهم بلدان الامبراطورية بعد سورية – التي تُعتبر نواتها – الحجاج بن يوسف الذي تقلد الأمر هناك سنة ٦٩٣ ، كما ذكرنا آنفاً . وكانت مهمّة الحجاج في العراق ، عسيرة

جداً . فقد غلظت قلوب العراقيين بفعل الحروب المتطاولة في سبيل الخلافة . ففي الكوفة كان الهياج الناشىء عن الاضطرابات التي ثارت في أيام النبي الكاذب ، المختار [الثقفيّ] ، لا يزال يُحدث ذُعراً ورعدة . وكان الخوارج لا يزالون معسكرين خارج ابواب البصرة . وكانت قد ظهرت فيهم فرقة جديدة ، هي فرقة الازارقة ، التي كانت تكفّر كلّ من يخالفها ويأبى الايمان بعقائدها ، وتهدر دمه ودم زوجته واولاده أيضاً . ولقد سبق للمهلّب بن أبي صفرة ان قاتلهم باسم مُصعب ، حتى اذا قُتل هذا الاخير استسلم لعبدالملك فأبقاه في منصب القيادة . وفي سنة ٦٨٨ انتخب الازارقة خليفة جديداً ، هو قَطَرَيّ بن الفُجاءة التميمي الذي اشتهر أيضاً بالشعر والذي كان ابداً يتهدد العراق من خوزستان . والحق انه سبّب للمهلّب كثيراً من البلاء ، خاصة وان أميري عبدالملك السابقين على العراق لم يمدّاه — حسداً منهما — بالمساعدات الكافية . وكان الحجاج هو أوّل من وضع تحت تصرفه جيوشاً جديدة ، استطاع بها ان يتعقب الثوار الى قلب كرمان ، المقاطعة الفارسية . ثم ان المنازعات أطلعت رأسها في صفوف الثوار ، فتابع قطريّ السير مع العرب قاصداً طبرستان ، في حين تخلّف الموالي في مدينة جيرفت وانتخبوا زعيماً جديداً . وهنا وُفق المهلب إلى ان يتغلب عليهم في سهولة ويسر . أما في طبرستان فاضطهد أتباع قطري الاهلين اضطهاداً موجعاً . فما كان من زعيمهم إلا ان استعدى أمير الري على العرب ، فأعداه وأوقع بهم هزيمة ساحقة . وقضى قطري نفسه في ميدان هذه المعركة (٦٩٧ أو ٦٩٨) . وثمة زعيم خارجي آخر ظل يتهدد العراق من الموصل ، طوال سنتين ، هو شَبيب الشيباني . وكان شبيبٌ هذا من كبار قطاع الطرق حقاً وكان نصارى البلاد يعطفون عليه ، وبذلك استطاع أن يتحدى جيوش الحجاج من مكامنه المتنقلة أبداً من مكان الى مكان . ولم يكن في مقدور الدولة أن تتغلب عليه إلا في سنة ٦٩٧ ، بعد أن سيّر الخليفة الأمداد لمقاتلته ، فحلت الهزيمة بساحته ، عند نهر دُجيل ، وغرق في مياهه . والواقع ان

إقرار الحجّاج بالفضل للجيوش السورية التي أقبلت لمساعدته ما لبث ان أثار سخط الارستقراطية المحلية .

وما كاد الحجاج يقضي على الثوار في مقاطعة كرمان ، وكانت تحكم من العراق ، حتى سيّر جيشاً مجهّزاً أحسن تجهيز لاخضاع بلاد سيجستان المجاورة التي كان يحكمها في ذلك الحين أمير من أصل تركي . وعهد الحجاج بقيادة هذا الجيش (جيش الطواويس) الى عبد الرحمن بن الاشعث ، الذي يرجع نسبه الى بيت كندة الملكي القديم . فكان عبد الرحمن يتّبع في فتح البلاد سياسة تقوم على اصطناع الروية وعدم التفريط بأرواح الجند ، فعدّ الحجاج ذلك منه ضعفاً وتراخياً ، وأمره بالاسراع في الفتح [والايغال في أرض الاعداء] . فجمع ابن الاشعث امراء جنده واستشارهم في الأمر ، بعد ان تأكد لديه انهم يبغضون الحجاج بقدر ما يبغضون هذه الحرب في تلك البلاد المتوحشة . فأظهروا رغبتهم في مبايعة ابن الاشعث في الحال على ان يسير بهم الى أوطانهم لقتال الحجاج . وهكذا عقد الصلح مع الاتراك ، وتوجه بجنوده متمهلاً ، نحو الغرب ، بعد ان انضمت اليه الحاميات التي في بلاد فارس . وعندما تقدّم الحجاج لمقاتلة الثوار هزَموه واحتلوا البصرة بينا احتفظ الحجاج بسلطانه على الضواحي . ومن هنالك استطاع ان يردّ الثوار على أعقابهم ، فانقلبوا قاصدين الكوفة . واضطر الخليفة الى ان يُنجد الحجاج كرّة أخرى ، بالجنود الشامية بقيادة ابنه عبدالله وأخيه محمد . والحق ان عبد الملك عهد الى هذين الرجلين في ان يفاوضا ابن الاشعث ، أولاً ، بل لقد فوضهما ان يلوّحا له بخلع الامير البغيض (الحجاج) . ومع ذلك فقد أصرّ ابن الاشعث على عدم اظهار الطاعة للخليفة ، فاضطرت جيوش الحكومة الى ان تهاجمه فتدحره في دير الجماجم أولاً ، ثم في مَسْكِن ، حيث انفضّ من حوله بعض اتباعه . وأخيراً لاذ عبد الرحمن بأمير سجستان التركي ، الذي أنقذه فعلاً من قبضة أحد القوّاد العرب ، ثمّ ما لبث ان أسلمَهُ لرُسُل الحجاج . ولكن ابن الاشعث انتحر وهو في بعض الطريق

سنة ٧٠٤ ، بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات .

بناء واسط وإصلاحات الحجاج

وبعد ان قضى الحجاج على هذه الفتنة الاخيرة من فتن العرب العراقيين ، صار في مقدوره أن يفرّغ لتدعيم سلطانه الذي أقامه على أساس من قوة بلاد الشام العسكرية . فبنى سنة ٧٠٢ مدينةً جديدة دعاها « واسط » على منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة ، المدينتين الثائرتين أبداً ، وجعلها معقله وقاعدةَ حكمه . ولم يسمح الحجاج بالعيش في واسط ، لغير الجند العربي الشاميّ ، ولغير أتراك ما وراء النهر الذين قدِموا البصرة كأسرى حرب ومنفيين في أغلب الاحوال ، أو قدموها من تلقاء أنفسهم أحياناً ، حتى إذا توفي سُمح للآراميين والفرس بالاستقرار هناك . والواقع ان هذه المدينة التي أحدثها الحجاج ، احتفظت ، بفضل موقعها الستراتيجي ، بمكانتها بين مدن العراق — كما احتفظت أختها مدينةُ كَسْكَر القائمة على الضفة الاخرى من دجلة — حتى في عهد العباسيين ، عندما اضطرّت إلى أن تتنازل لبغداد عن مركزها كقاعدة للحكومة .

ثم ان الحجاج قطف ، في عهد الوليد ، ثمرات العمل الشاق الذي قام به في عهد عبد الملك . ذلك بأن الخليفة الجديد كان يثق بأمير العراق ثقة كاملة ، بل كان يستشعر انه مدينٌ له بشيء كثير بعد ان نصره على عبد العزيز [بن مروان] في مسألة الخلافة . ومن هنا أفرغ الحجاج همته للعمل الصادق بسبيل إنعاش البلاد التي انهكتها عشرون سنة من الحرب . وانما كان هذا الانعاش يقتضيه في المحل الاول ، إصلاح القنوات التي تحمل مياه النهرين [دجلة والفرات] إلى أطراف البلاد وتعهّدها بالعناية الدائمة ، وإصلاح السدود التي تصون خصب الأرض من عادية الصحراء ، والتي قد تنفجر لأقل عطب . ولقد قاوم الحجاج بشدة ، الهجرات الريفية الى المدن الكبيرة وأقام التجارة على قواعد من الطمأنينة والثقة باصلاح نظام

النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس . ليس هذا فحسب . بل ان الروايات لتذهب الى أنه عُني باعجام القرآن . ولعلّ من جملة الأسباب التي حملته على ذلك سبباً سياسياً لأن حفظة القرآن كانوا أبداً ، منذ أيام عثمان ، على استعداد لاثارة مشاعر الناس ضد الحكومة ، فكافأه الحُفاظ على هذه العناية بأن نشروا تلك الحكاية التي تقول انه كان أيام شبابه معلم صبيان في مسقط رأسه بالطائف . وكان جرير هو الشاعر المعاصر الوحيد الذي شايع الحجاج فترة من زمان . وكان قد ظهرّ من قبل على الأقران ، في العراق ، عهدَ مصعب بن الزبير ، وخاض معركة حامية مع خصمه في الشعر ، الفرزدق . وكما اصطنع عبد الملك الاخطل النصراني في نضاله ضد المعارضة من أهل المدينة ، كذلك استعمل الحجاج جريراً للاشادة بمجده ، ورفع القناع عن خصوم الحكم الشامي السرّيين ، في البلاد .

سليمان بن عبد الملك

وخلفَ الوليدَ أخوه سليمان ، وفقاً لما قد جرت به إرادة أبيهما . وكان الحجاج قد قاوم ذلك أشد مقاومة ، في السنوات الاخيرة من حياته ، ونصح الى الخليفة ان يرفع ابنه الى عرش الخلافة . والواقع ان موقف الحجاج هذا قد أثار نقمة سليمان عليه ، ولكن الاخير لم يستطع ان يصب جام غضبه إلا على عماله . فما كاد يرتقي العرش حتى خلعَ أمير المدينة ، عثمان المرّي . وأراد عامل خراسان ، قتيبة بن مسلم ، الذي أحاطته فتوحاته بهالة رائعة من المجد ، ان يستبق مصيره ، فدعا جيوشه الى اعلان الثورة على الخليفة ، ولكن بني تميم ، وكانت القطيعة قد وقعت بينه وبينهم ، تمرّدوا عليه وقتلوه . ثم ان الخليفة الجديد قلّد إمارة الحجاج عدو الحجاج اللدود ، يزيد ، ابن القائد المشهور المهلب بن ابي صُفرة . وكان يزيد هذا قد خلف أباه ، بعد وفاته ، كعامل على خراسان ، ولكن الخلاف ما لبث ان نشب بينه وبين رئيسه في العراق . وكان الحجاج قد تزوّج من

أخته ، ولكنه رفض وساطتها في خشونة ، وسعى الى ان يحمل الخليفة على خلع يزيد ، بل لقد ألقاه في السجن عاماً كاملاً . ثم إن يزيد وُفّق الى الفرار الى الرملة ملتحقاً بوليّ العهد الذي بعث به بعدُ الى العراق ، حيث يستطيع ان يُنزل انتقامه بأتباع سلفه . وولى الخليفة (نزولاً عند رغبة يزيد ، على ما يقال) الخراج عاملاً آخر من عماله لأن يزيد لم يشأ ان يعرّض نفسه لبغضاء الشعب الذي كان يئن تحت وطأة الضرائب الباهظة . وقد يكون الواقع ان الخليفة فعل ذلك من تلقاء نفسه متبعاً في ذلك سُنة مجرّبة . وما لبث يزيد ان اصطدم بصاحب الخراج ، بعد ان رفض هذا الاخير تلبية مطالبه من خزانة الدولة . وهكذا تطلّع الى عمل يكون أعوَد عليه ، فالتمس من الخليفة نقله الى خراسان ، مع احتفاظه بالسلطة المطلقة في العراق ، ففعل . وكانت انتصاراته العسكرية في الشرق هزيلة لا خطر لها . أضف الى ذلك انه استثار سخط الناس ، من طريق السلب والابتزاز ، الى درجة جعلت الخليفة يذهب ، قبيل وفاته ، الى حدّ التفكير في محاسبته . واخيراً لقيَ يزيد جزاءه في عهد خليفتيْ سليمان .

واتخذ سليمان مقرّه في الرملة بفلسطين حيث كان يعيش قبل ان يلي أمر المسلمين ، وحيث اكتسب محبة السكان وولاءهم . وأنشأ في دابق ، في شمالي سورية ، معسكراً كبيراً للحرب ضد البيزنطيين ، وكان كثيراً ما يختلف اليه بنفسه ابتغاءَ الاشراف على سير العمل فيه . بيد انه لم يوفّق الى تحقيق ايما نصر حاسم . صحيح ان جيوشه تقدمت غرباً ، بعد ان حاصرت عمّورية في خريف سنة ٧١٥ وشتاتُها على غير طائل ، حتى لقد بلغت برغاموس وساردس وطوّقت القسطنطينية عاماً بتمامه . ولكنها اضطرت بعدُ الى التراجع تجرّر أذيال الخيبة (٤١) . وتُوفي سليمان بعد ذلك بسنة

(٤١) لم يكن لهـذه الغزوات من نتيجة غـير إغراق سوق الرقيق بأسرى الحرب من الروم (اليونانيين) . ولقد اتفق مرة أن كان سليمان في المدينة ، في طريق عودته من الحج ، فوهب أربعمائة من الروم لبعض المقربين اليه هناك ، فأعملوا السيف في رقابهم ، على ما نجد في قصيدة فخرية لجرير ، وكان من الذين شاركوا في هذا الصنيع .

في دابق في أيلول ٧١٧ .

عمر بن عبد العزيز والإصلاح الداخلي

وانما نصّت وصية عبد الملك على ان يلي الأمرَ من بعده أخوه . ومع ذلك فقد أخذ سليمان البيعة لابنه أيوب . وإذ قد توفي هذا قبل أبيه فقد نزل سليمان عند إرادة الفقيه رجاء بن حَيْوَة وعهد بالخلافة الى ابن عمه الورع ، عمر بن عبد العزيز ، الذي كان في الواقع قادراً على تولّيها ، غير مُدافَع .

ولد عُمر الثاني (ابن عبد العزيز أمير مصر الذي عُمّر طويلاً) المتصلُ نسبه من جهة أمه بعمر الاول اتصالاً كان موضعَ فخره الشديد — في المدينة حيث أنفق أيام شبابه يعايش تابعي الرسول الاتقياء ويخالطهم . وكان لا يزال على أوثق الصلات بهم في سنة ٧٠٦ عندما عيّنه الوليد أميراً على الحجاز . فدعا عشرة من الفقهاء الاتقياء وألّف منهم مجلساً دائماً يستشيره [فلا يقطع أمراً إلا برأيه] ، ضامناً بهذا ان تجيء أعماله كلها وَفقاً لسنّة الرسول . ولكن الحجّاج ما لبث ان حمل الوليد على عزله ، بسبب من أنه فتحَ أبواب المدينة في وجه اللاجئين من العراق ، وان لم يفقد الوليد حبّه له وإعجابه به .

وما كاد عُمر يلي أمرَ الناس حتى أصدر أمره الى الجيوش الاسلامية العاملة في آسية الصغرى بالقُفول ، رغبةً منه في الانصراف إلى الاصلاح الداخلي وتحقيق مُثُل الحياة السياسية التي عمَرت وجدانه منذ شبابه الأول في المدينة . بيد أن حُبّه للسلام لم يستطع ان يكبح جماح عُماله ، في أقصى الغرب ، فجازوا جبال البرانس ، وانقضّوا على فرنسة الجنوبية ، حيث أقاموا مركزاً دائماً للقيادة في أربونة ، ولعلهم فعلوا ذلك في عهد خلافته بالذات . والتمس عمر عطف العلويين ، خصوم بني أمية القدماء بأن وضع تحت تصرفهم واحة فَدَك التي سبق للنبي ان احتفظ بها لنفسه بعد

الفتح ثم صارت من أملاك الدولة ، وبأن الغى سبّ عليّ بن ابي طالب على المنابر ، وكان اسلافه من الامويين يلعنونه حتى لقد أمسى عادة مُتّبعة . كذلك استمال النصارى ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فعوّضهم من كنيسة القديس حنا ، التي كان الوليد قد وضع يده عايها ، في دمشق ، بكنيسة القديس توما في الغوطة ، على الرغم من انها قد حُولت إلى جامع منذ الفتح ، بخلاف ما نصت عليه شروط الاستسلام . ليس هذا فحسب ، بل لقد خفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرس وأيلَة * (على خليج العقبة) ونجران في جنوبي بلاد العرب . أما الموالي فقد ساوى بينهم وبين العرب في الوضع الشرعي — وكان وضعهم من قبل دون وضع العرب ، كما كان سبباً في إثارة قلاقل كثيرة في بلاد العراق — وأعفى المحاربين منهم في خُراسان من الخراج ، بالاضافة الى أعطياتهم مُثبتاً بذلك دعائم الامبراطورية لخلفائه .

الإصلاح المالي

ولكن أعظم ما عُني به عمر بن عبد العزيز الاصلاحُ المالي . ذلك بأن سياسة الخراج التي أحدثها عمر الاول قد أخفقت في تحقيق غاياتها ، بعد ان تملّك كثيرٌ من المسلمين الاراضي في البلدان المفتوحة وطالبوا باعفائها من الخراج ، وبعد أن اعتنق كثيرٌ من سكان الارياف الملزمين بدفع الجزية من ناحية ثانية ، الدين الاسلامي وصار في ميسورهم التخلص من اداء الخراج ، للسكنى في الحواضر . ولقد تأتّى الحجاج لهذه المعضلة من طريق تحريم الهجرة [الى الحواضر] وفرض الضريبة على أملاك المسلمين أنفسهم . أما عمر بن عبد العزيز فتأتّى لها من الناحية المقابلة ، ملتزماً مبدأ إسقاط الجزية عن جميع المسلمين ، باعثاً في الوقت نفسه قاعدة كان عمر الاول قد سنّها قِوامُها أن جماع الاراضي المفتوحة إنما

(*) وهي العقبة اليوم . (المعربان)

هو فيء للجماعة الاسلامية ، وبذلك حظر على الفرد المسلم ان يستولي على شيء منها ، في المستقبل . فاذا دخل أحد الفلاحين من أهل الذمة في الاسلام ضمت أرضه الى ممتلكات الجماعة في القرية . فاذا رغب في مواصلة حراثتها كان عليه ان يُـكريها ، وهذا الاكراء يساعد الجماعة على اداء ما يتوجب عليها من الخراج ، ومهما يكن من أمر فقد كانت مقاصد عمر صالحة ، وهي لم تصدر ، كما زعم بعضهم ، عن عقل لاهوتي يسعى وراء الآخرة . ولكنه لم يُعطَ الفرصة الكافية لانفاذها ، في همة ونشاط ، خلال حكمه القصير — فقد توفي في ٩ شباط ٧٢٠ — حتى اذا قام خلفاؤه من بعده آثروا الأخذ بطريقة الحجاج فهي أسهل وأدعى الى الراحة .

يزيد الثاني

وكان على خليفة عمر ، يزيد الثاني ، ثالث أبناء عبد الملك ، أن يواجه ثورة اندلعت في العراق بعد ارتقائه عرش الخلافة ، مباشرة . ذلك ان عمر الثاني كان قد سجن يزيد بن المهلب ، عامل خراسان ، لأنه لم يؤدِّ الى بيت مال المسلمين خمس الغنيمة التي تمت له في حملته الاخيرة ، وكان قد بالغ في وصفها مباهاة وتفاخراً . ولم يكن ليطمع في ان تأتيه الرحمة من جانب يزيد بن عبد الملك الذي كان متزوجاً ببنت أخي الحجاج — عدوه القديم . وهكذا فرّ من محبسه بحلب الى البصرة حيث حرض قبيلته ، الازْد ، وأقرباءهم من عرب الجنوب ، على إعلان الجهاد ضد الامويين بوصفهم أعداء الدين . وانضوت فارس وكرمان تحت رايته . ولقد حاول الخليفة بادىء ذي بدء الاتصال بابن المهلب ولكنه ما لبث ان سيّر على الثائرين مَسلمة بن عبد الملك ، الذي لمع نجمه في عهد أسلافه ، وأثبت كفايته في معارك آسية الصغرى . فنشبت المعركة بين الفريقين في ٢٥ آب سنة ٧٢٠ قرب قرية العَقْر ، بين واسط والكوفة . فكانت الغلبة لجند الخليفة ،

وقضى يزيد بن المهلب نفسه ، واستبيحت أسرته فقُتل الرجال منهم ، وبيع النساء والاطفال ، خلافاً للعرف الشائع ، في أسواق الرقيق.

والروايات المعادية للامويين تصور يزيد الثاني ، كما صورت سميّه [يزيد الاول] من قبل ، رجلاً مستهتراً انغمس في مناعم اللهو والموسيقى ، وشغلته القيان والمغنيات ، فترك شؤون الامصار الى امرائه وعماله يصرّفونها كيف يشاؤون. والواقع ان عهده القصير ظل حافلاً بضروب النشاط الجدّي ، حتى بعد القضاء على الفتنة في العراق. فلقد وحد الادارة في مكة والمدينة ، وأدخل اصلاحات على ديوان القبائل في مصر ، وكان أساساً لأعطياتهم. ليس هذا فحسب ، بل لقد حاول ان يعالج المظالم الناتجة عن اصلاحات عمر الثاني المالية باجراءات لم تلاق رضىً لدى الناس من مثل فرض الخراج على الاراضي ، من جديد ، بعد أن ألغاه أسلافه في كثير من الامصار والولايات. واصطنع في سياسة النصارى اتجاهاً غير اتجاه عمر بن عبد العزيز القائم على أساس الاحترام والود. فلم يكتف بالاستيلاء على عدد من كنائسهم ، بل أمر ، الى ذلك ، بتحطيم تماثيلهم الدينية (٤٢) وانه لمن العسير ان ينسب الى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعلــه يحزن لوفاة جارية من جواريه المقرّبات – كما تحاول بعض الروايات المتأخرة ان تثبت – حزناً أدى الى وفاته في كانون الثاني سنة ٧٢٤ في قصر أرْبَد (أو إزبِد حسب روايات أخرى) في شرق الاردن.

قصور الأمويين الصحراوية

والحق ان الايام حفظت لنا ، في حال حسنة ، عدداً من قصور البلقاء الصحراوية هذه ، التي كان خلفاء بني أمية يفزعون اليها بين الفينة والفينة

---

(٤٢) لقد شهد عدد من النصارى والمسلمين بصحة الأمر الذي يتصل بهذه المسألة ، وإن يكن ولهاوزن قد شك في ذلك. راجع كيتاني :

Caetani, Chronographia Islamica, II, p. 1284, 19.

للاستجمام من متاعب الحكم . ففي ميسورنا أن نكوّن فكرة عن هندستها المعمارية . وأشهر هذه القصور قصر المشتّى الذي أهدى السلطان عبد الحميد جزءاً كبيراً من « افريز » واجهته الى القيصر وليم الثاني ، فهي معروضة اليوم في متحف القيصر فردريك ببرلين . وهو يُعتبر نموذجاً لأول الطرازين المتمثلين في الصحراء أعني المخيم البدوي الحجري (٤٣) . وانما يقوم هذا القصر على رقعة مربعة من الارض طول كل من جوانبها ١٥٧ يردة ، يحيط بها سور محصّن بالابراج . وتتكشف الجهة الجنوبية عن واجهة فخمة ينهض في وسطها الباب الخارجي ، محاطاً بدوره ببرجين اثنين . أما داخل القصر فينقسم الى ثلاث بلاطات . ففي الوسط يؤدي المدخل والمنطقة المحيطة به عبر فناء مكشوف ينبسط في وسطه حوض ماء — الى دهليز الامير الذي ينتهي الى قاعة ذات ثلاثة محاريب مقببة . ويكتنف هذه القاعة ، من اليمين والشمال ، عقدان اسطوانيا الشكل يتألفان من الاقواس المدببة المنخفضة التي تميّز بها الفن الفارسي ، والفن الاسلامي ، في ما بعد . والذي يستدل من التعاريج أنه كان بالنية ، في الاصل ، بناء عدد من الغرف في كل . ولكن شيئاً من ذلك لم يتمّ . ولقد زُينت واجهة الباب الخارجي « بأفاريز » تتراوح نقوشها من خطوط أفقية الى خطوط عمودية ، ويتوّجها ما يشبه الوسادة المسطحة ، في حين ان تيجان أعمدة الرواق من الرخام المجلوب ، المموّه بالازرق الرمادي ، وهو اللون المفضل في بلاد الجزيرة . أما تاج قوس النصر وخلفيّة الواجهة الخارجية فقد جُعلا على ظاهر الواجهة كالشبائك أو السجاد . وتتكشف واجهة الرواق عن مثل النبات الشائك الذي تتكشف عنه الاعمدة ولكنها مُفرغة في لون اسود

---

(٤٣) انظر ديز E. Diez, Die Kunst der islamischen Vôlker, p. 23 ff.
وراجع للمؤلف نفسه مقالا في الموسوعة الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٦١٢ — ٦١٤ .
أنظر أيضاً لامنس H. Lammens, La Badia et la Hira sous les Omaiyy-ades, in Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth, IV.

قائم. أما قاعة العرش، فتمتاز بمحاريب تحيط بها الاعمدة، وهو أسلوب سنجده بعدُ في محاريب الصلاة في المساجد.

وإذا كنا لا نستطيع ان نقيم الدليل القاطع على أصل قصر المشتى الاموي، بالرغم من أن «أموية» القصر راجحة رجحاناً كبيراً (٤٤)، فالحقّ ان النقوش التي حُفظت لنا في قصر آخر قائم الى شرقي الطرف الشمالي من البحر الميت – أعني قُصير عَمْرة الذي اكتشفه موزل – لتنهض دليلاً مباشراً على انشائه في النصف الاول من القرن الثامن. ومن أسف اننا لا نستطيع ان نتحقّق من اسم باني القصر، هنا أيضاً. فعلى أحد جدران القصر نجد رسوم أربعة ملوك، يُفترض أنهم يمثلون الامبراطوريات التي دانت للاسلام، وقد نُقش فوقها بالحروف العربية واليونانية ما يميز كلاً منها من كلٍّ في عين الناظر. فهذا قيصر، وهذا كسرى، وهذا النجاشي (ملك الحبشة) وهذا لذريق (آخر ملوك أسبانية القوط). والى جانب ملوك هذه الامبراطوريات العالمية، الاربعة، يقوم رسمان آخران لم يُنقش فوقهما شيء. واذ كان هؤلاء مرتّبين وَفقاً لمواقع ممالكهم الجغرافية، فقد ذهب، فان برشِن، الى ان الصورة الثالثة التي تلي صورة كسرى تمثل صاحب امبراطورية تقع شرقي فارس، فهي إما ان تكون صورة متشوي (خاقان تركستان الشرقية الذي قُتِل سنة ٧١٦) واما ان تكون صورة امبراطور الصين نفسه. ويتبيّن الناظر، في خلفيّة الرسم، وجهين آخرين لا شك في انهما يمثلان أميرين ثانويين من جملة الامراء الذين اكتسح الاسلام ديارهم. والراجح على الظن ان الوجه الثالث منهم يجب ان يكون رسم أمير لبلد يقع شرقي الحبشة، ولعله أحد الامراء الاتراك أو الهنود كداهر مثلاً صاحب السند (التي فُتحت سنة ٧١٢). وعلى هذا الاساس

---

(٤٤) يذهب لامنس (في الموسوعة الإسلامية ج ٤، ص ١١١٢) إلى أنه شيد للوليد الثاني. ولكن الفقرة التي اعتمدها لامنس من كتاب تاريخ بطارقة الإسكندرية لا تشير على التحقيق إلى قصر المشتى.

فقد نستطيع ان نعتبر الوليد الاول مشيداً لهذا القصر . ويشتمل البناء الناهض من حجر كلسي يضرب الى الحمرة ، على قاعة رئيسية مسقوفة بثلاثة عقود أسطوانية وهي تؤدي مقابلَ المدخل ، الى محراب ذي عقد اسطواني منخفض تقوم على كل من جانبيه غرفة هي بدورها ذات عقد اسطواني ، وعلى شكل هيكل . ويدخل الضياء الى هذه الفسحة من ست نوافذ صغيرة في جدران العقود الاسطوانية الامامية . والى جهة الشرق تجاورُ الغرفةَ الرئيسية ثلاث غرف صغيرة أولاها مسقوفة بعقد اسطواني والثانية بعقد مصلّب ، والثالثة بقُبّة . وهذه تؤلف قسم الحمامات في القصر ، وهي مزوّدة بمقاعد تمتد على طول الجدران ، وبشبكة من أنابيب الماء . وانما تزدان هذه الغرف الاربع ، كلها ، برسوم حفظت لنا في حالة رائعة ، وهي تمثل آخر ما أبدعه الفن الهيليني في البلاد الآسيوية . وتظهر على جدار المحراب الامامي في الغرفة الرئيسية صورة رجل ذي لحية يلبس ثوب الامارة وتحيط برأسه هالة من نور ، وقد استوى على عرش ترتفع فوقه ظُلّة تستند الى عمد ، وواضح ان ذلك هو الخليفة ، والى يمينه تقوم امرأة رافعة ذراعها اليمنى ، وإلى يسارها رجل يحمل عصا ، وقد أشار كلٌّ منهما الى المتربع على العرش . ويحيط بنصف الدائرة سرب من طيور الصحراء المعروفة بالقطا التي كثيراً ما وصفها الشعراء . وحول قاعدة العرش تتلاطم أمواج البحر ، وقد بدت فيها الاسماك وظهر على متنها قارب من قوارب الصيد . وفي وسط الجدار الغربي تبرز امرأة عارية أمام حوض ماء ، كما يرى الى اليمين عدد من الرياضيين العارين في أوضاع مختلفة . أما في جهة اليسار فتقوم صور الملوك الذين ذكرنا آنفاً . وفي ما تبقى من ظاهر الجدار رسومٌ تمثل سباقاً للخيل ، وصيد حُمر الوحش والوعول ، ومناظر أخرى من شؤون الحياة ، ورسوماً رمزية للنساء . أما في القاعة المقببة فتظهر منطقة البروج والافلاك الشمالية ويتكشّف الحمام الاوسط عن مشاهد استحمام مع نساء عاريات ، في حين تمثل رقعتان هلاليتا الشكل في الغرفة الثالثة خلقَ الانسان ووقوعه

في الخطيئة . وعلى الجدار الامامي الايمن جلست امرأة في أشهر الحمل المتأخرة الى جهة اليسار ، وانتصب رجلٌ ولىّ الناظرَ ظهرَه ، الى جهة اليمين ، وقد انطرح بينهما ، في أسفل الصورة طفل يبكي ويرفس الارض برجليه . وعلى الجدار الامامي الأيسر وقفت امرأة أمام جثة رجل وافته المنية ، وملَكُ الموت ، عزرائيل ، يذودها عنه . ويمثل العقد الاسطواني أعمار الانسان في لوحات نصفية . أما اللوحات المربعة الّتي تحيط بهذه المناظر فتمثل ، كما تمثل الجدران عموماً ، صوراً عديدة من الحيوان والطير . وفي ما عدا هـذين القصرين من قصور البادية ، اللذين حفظتهما لنا الأيام في حال أفضل مما حفظت القصور الاخرى ، نعرف قصر « الموقّر » الذي شيّده يزيد الثاني ، وهو يقوم — على الطراز الساساني — على عقود ، ولكن يد الزمان عفته فلم يبقَ منه قائماً غير آساسه . ويجب ان لا نغفل أخيراً عن النص على ان الامويين أعادوا انشاء بعض الحصون الرومانية على تخوم بلاد العرب واتخذوها قصوراً لهم .

خلافة هشام

وخلف يزيد الثاني أخوه هشام (٤٥) الذي جعل مقره ، غالباً ، في الرصافة على الفرات ، وكان من حسن طالعه ان يجد في شخص خالد بن عبد الله القَسْري والياً على العراق يُذَكّرُ بسلفيه العظيمين زياد والحجاج . وإذ كان خالد ، بوصفه متحدراً من قبيلة لا شأن لها ، مُعتبراً فوق الاحزاب فقد وُفق الى أن يضع حداً لنشاط مثيري الفتنة من القيسية . ولكن أعظم خدماته للعراق إنما تمت له من طريق متابعته ، بشكل واسع ، لأعمال الاصلاح التي بدأها الحجاج . والواقع أنه جفف مستنقعات دجلة الادنى ، حول واسط ، فأحيا بذلك أراضي واسعة ، بعد موتها ، وسخّرها للزراعة ،

(٤٥) راجع غبريال : G. Gabriel, Il califato di Hisham, studi di storia omayyade, Mém. Soc. Arch. Alexandrie, VII, 2, 1935.

فعادت عليه بدخل عظيم .

ثورة زيد بن علي

والواقع ان خالداً أفاد من هذه المشاريع ثروةً طائلة ، ولكن ذلك لم يعرّضه لغضب الخليفة ، لأنه لم يقصّر يوماً في أداء ما يتوجب عليه من الضرائب الى البلاط في دمشق . حتّى اذا سمح لنفسه بأن ينزلق في مهاوي المضاربات بالحنطة نجح خصومه في حمل الخليفة على عزله ، بعد ولاية دامت خمسة عشر عاماً . وما كاد العراق ينجو من قبضته الحديدية حتّى زايله الاستقرار والامن . فخرج في الكوفة زيد بن عليّ (بن الحسين) ، أحد أحفدة عليّ ، مطالباً بحق بيته في الخلافة . فبايعه الناس على ان يتخذ كتاب الله وسُنة رسوله هادياً وإماماً ، وعلى ان يقاتل الحكام الآثمين ، ويحامي عن الضعيف ، ويقيم العدل في أمر أولئك الذين سُلبوا أعطياتهم ، ويوزع موارد الدولة بالتساوي ، ويستدعي الجنود المقاتلين في البلدان النائية . وعلى الرغم من ان أمير العراق ، يوسف بن عُمر الثقفي ، استطاع ان يُخمد الثورة ، في غير ما صعوبة ، بعد ان قتل زيداً في معركة دارت في الشوارع ، فالحقّ ان ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التي أدّت آخر الأمر الى سقوط الامويين . وفي القرن التاسع أسس أتباع زيد بن عليّ هذا دولة في اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاولة ، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التي ما تزال قائمة الى اليوم(٤٦) .

واستأنف هشام أيضاً الحرب ضد البيزنطيين ، وكانت قد تثاقلت وأصابها الفتور منذ أن أخفق المسلمون في هجومهم الاخير على العاصمة البيزنطية سنة ٧١٦ — ٧١٧ . ولكنّ المعارك التي خاضها جند هشام لم تؤدِ الى نصر

(٤٦) تذهب الزيدية إلى أن القيادة الروحية ، الإمامة ، دون غيرها ، يجب أن تكون في آل علي ، وتنكر المتطرف من العقائد الشيعية . ومن هنا لم يكن الخلاف بينها وبين الأكثرية السنية حاداً جداً .

دائم . ذلك بأنه كان عليهم عادة ان يُخلوا في الشتاء ، المواقع التي كسبوها أثناء الصيف . ولقد اضطر الخليفة مرة واحدة ، سنة ٧١٤ ، الى ان يشترك في القتال بنفسه عندما هاجم البيزنطيون مدينة ملطية بعد ان انزلوا بالعرب قبل عام واحد ، هزيمة قاسية في ربض أقرن من أعمال فريجية .

غزوات العرب في فرنسا

وفي عهد هشام وُفق العرب الى ان يندفعوا ، اندفاعاً أشد ، في اتجاه الغرب . فالواقع ان الخلاف بين العرب والبربر ، الذين استشعروا انهم مغبونون ، هو الذي كان يعوق المسلمين ، حتى ذلك الحين ، عن حرب النصارى في إسبانية . ولقد ذهب الزعيم البربري ، مُنازة ، الى حدّ الانفصال عن العرب ، والاستقلال على التخوم الشمالية ، والتحالف مع يوديس دوق أقيتانية . فما كان من هشام إلا أن ولى على الاندلس أميراً جديداً ، هو عبد الرحمن بن عبد الله [الغافقي] ، الذي قهر مُنازة ثم ارتدّ على يوديس فهزمه بين نهري جرونه ودوردوني ، وتابع تقدمه في اتجاه نهر لوار . ولكنه اصطدم هنا ، بين تور وبواتييه ، بشارل مارتل في تشرين الاول سنة ٧٣٢ . فصمد الفرنجة الاوسترازيون في وجه الحملة العربية ، لينسحب العرب بعدُ تحت جنح الليل ، وقد استشهد قائدهم عبد الرحمن . ومع ان الامراء الذين خلفوه استأنفوا غزواتهم على بلاد الغال ، فقد كانت الاضطرابات الداخلية كثيراً ما تعوقهم ، عن تحقيق أهدافهم من هذه المحاولات.

ثورة البربر

وكان أهل افريقية من البربر يظهرون الاستياء وعدم الرضا . ذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية ، على الرغم من كونهم مسلمين صالحين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدّسة [الجهاد] . وهكذا وجد رُسُل الخوارج المقبلون من العراق ، الى إفريقية ، النفوس مستعدة

لتلقي تعاليمهم ، فحرّضوا البربر على الخليفة الأموي وحرّكوهم لرفع راية العصيان . حتّى اذا تقدم البربر الى الخليفة بشكوى جديدة فلم يُستجب لهم ولم يسمح لهم بالمثول أمامه ، اندلعت في افريقية نيران ثورة هائلة امتدّت من مراكش الى القيروان . وكان الولاة الافريقيون أعجز من ان يخمدوا هذه الثورة العارمة بالرغم من ان عُقبة ، أمير الاندلس ، قد هرع لنجدتهم من إسبانية . ومن هنا تعين على هشام سنة ٧٤١ ان يوجه لقتال البربر جيشاً سورياً يقوده كلثوم بن عياض . ولكن هذا الجيش نفسه سقطَ دون الغاية في وجه شجاعتهم الفائقة . والواقع ان معركة كبرى نشبت بين الفريقين على ضفاف نهر « نوام » سنة ٧٤١ دارت الدائرة فيها على العرب فقُتل قائدهم كلثوم ، واضطر نسيبه بَلج بن بشر الى ان يقاتل أشرَسَ قتال ليشقّ طريقه الى الاندلس بثُلث جيشه الباقي ، فلم يوفق الى ذلك الا في عُسر كثير . ولقد كان على العرب ان ينتظروا عاماً واحداً حتى يُحرزوا نصراً يضمن لهم على الاقلّ الاستيلاء على القيروان .

وأكبر مثالب هشام بُخله ، فقد كان ينظر الى الدولة نظرته إلى إقليم يجب ان يُستثمر . ومن هنا كان أبداً يحمل ولاته على الامعان في ابتزاز الاموال من أفراد الرعية . ليس هذا فقط بل لقد زادَ في الخراج المفروض على قبرس ، وضاعف الخراج المفروض على الاسكندرية . ولقد دفعت سياسته بالفرس والترك في ما وراء النهر ، كما دفعت من قبل بالبربر في إفريقية ، الى إظهار السخط وعدم الرضا ، مما مهد السبيل ، في الشرق ، لرُسُل العبّاسيين ودُعاتهم . وتوفي هشام في ٦ شباط سنة ٧٤٣ تاركاً الامبراطورية في حال ليس أسوأ منها ولا أتعس .

الوليد الثاني

وخلف هشاماً ابنُ أخيه الوليد (الثاني) بن يزيد [٤٧] الذي ورث

(٤٧) أنظر غبريال : F. Gabriele, Al-Walid ibn Jezid il califfo e il poeta, Rivista di studi orientali, XV, 1934, 1-64.

عن أبيه موهبته الفنية ومزاجه المرح الطروب . وإذ كان عمه [هشام] يطمع في عزله من ولاية العهد فقد اضطر الى ان ينفق أيام شبابه بعيداً عن البلاط في قصر من قصور البادية في فلسطين . حتى اذا قضى هشام ، ودخل الوليد العاصمة رحّب به الناس ، على العموم ، وهللوا له ، مبتهجين بانقضاء عهد سلفه القائم على سياسة الاقتصاد وابتزاز الأموال . ولكن الوليد ما لبث ان خيّب آمال القوم فيه ، فلم تمضِ فترة من الزمن حتى انقلب إلى قصره الذي في البادية — حاملاً لقب الخلافة ، هذه المرة — ليفرغ هناك للّهو ، والخمر ، والشعر .

الشعر والشعراء

وكما ان الاسلام لم يؤثر — حتى ذلك الحين — غير تأثير ضئيل في عادات أتباعه العرب المرعية ، كذلك ظل شعرهم ، في جوهره ، أميناً لتقاليدهم القديمة . وكان مستوى الحياة قد ارتقى في البلدين العربيين الجديدين ، سورية والعراق ، عما كان عليه في الوطن الأمّ . وكانت الاحقاد القبلية قد اتخذت أشكالاً أكثر عنفاً ، وكان الصراع بين قيس وكلب قد استعرت ناره طوال عشرات من السنين . فكان طبيعياً ان تؤلف هذه الحزازات القبلية ، كما رأينا ، مادة الشعر في عهد الزهو الأموي أيام عبد الملك والحجاج فاختصم شاعر البلاط ، الاخطل ، ومنافساه جرير والفرزدق في إقذاع مُوجع لا عهد للعرب بمثله من قبل ، وسعت جمهرة ضخمة من شعراء الطبقة الثانية إلى أن تُقحم نفسها في ميدان هذا الهِراش الفاحش ، رغبةً منها في اكتساب الشهرة والصوت من هذه الطريق . والواقع ان الشعر السياسي كان هو النّفَس الغالب في ما بعد ، أيضاً . ففي خلافة هشام ناضل الكُميت بشعره دون حق آل النبي في الخلافة ، وحق أبناء فاطمة فيها بخاصة . ولم يعالج الشعراء وتراً من قيثارة القريض أرق من هذا الوتر الجافي وأعذب ، إلا في جزيرة العرب نفسها . ذلك بأن مكة

والمدينة انتهتا — بعد انقضاء دورهما السياسي — الى ان تُصبحا موطناً للهو والاستمتاع بمناعم الحياة . وبعد ان كاد النسيب بالنساء يكون مقصوراً على مقدمات القصائد في الشعر القديم والشعر الاسلامي — الذي كان استمراراً له في سورية والعراق — وُلِد الغَزَل كفنّ مستقل قائم بنفسه . ففي مكة ، وفي ظل عبد الملك ، نظم عمر بن أبي ربيعة ، من بني مخزوم الاشراف ، قصائده الرقيقة الحلوة ، التي يغلب عليها العنصر الشخصي ، وجعلها وقفاً على التغزل بمليحات النساء ، ومعظمهن من الحواج الى الكعبة ، من غير اعلان للجوى ، ولوعة الفراق ، وهما العمود الذي كان يدور عليه الشعر القديم . والواقع ان هذا الفن ، الجديد على جزيرة العرب ، كان محل إعجاب صارخ في طول البلاد وعرضها . وفي هذا العصر أيضاً فتح الوليد الثاني للعرب باباً جديداً للاباحية الشعرية ، هو القصيدة الخمرية . فعلى الرغم من ان الخمرة قد مثلت دوراً في شعر العرب الوثنيين ، إلا انها كانت تُتخذ ، هناك ، موضوعاً لافتخار الشاعر ، في الدرجة الاولى . والحق ان تحريم النبي للخمرة لم يقض على استراق القوم لمُتعها النشوى ، ولم يستطع ان يحول دون تمجيدها في الشعر بالكلية . ومع ذلك ، فنحن نستطيع ان نعدّ الوليد الثاني مخترع الفن الخمري الاسلامي حقاً ، هذا الفن الذي قُدّر له ان ينمو ويزدهر في ظل العباسيين . ولقد ترسّم الوليد ، في هذا الفن ، خُطى عديّ بن زيد الشاعر النصراني الذي لمع نجمه في آخر عهد المناذرة في الحيرة . وانما عرّف الوليدَ به نديمه القاسم بن طفيل ، وكان هو نفسه نصرانياً من الحيرة .

وما لبث الخليفة الغارق في متارف الحياة ومباهجها ، بين النساء والمغنين والشعراء ، أن أتى على ما كان هشام قد كنزه من المال ، ليُضطرّ بعدُ الى ان يُلحف بمطالبه على الولاة والعمال ، فِعلَ سلفه من قبله . ولقد أغضب الوليد ذوي قرباه [من الامويين] بأن جعل الخلافة من بعده لولديه ، على الرغم من انهما لم يبلغا سن الرشد ، وعلى الرغم من ان

كلاً منهما كان ابناً لأمَة. فما كان من الناقمين إلا أن أرادوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة، فبايعه الناس في دمشق من غير ما معارضة، وان يكن الوليد قد قاوم القوات التي وجهها يزيد اليه، وقاتل ببسالة أعظم مما كان يتوقّع منه. ثم انه انسحب الى قصره في البَخْراء، جنوبي تدمر، وأخذ مصحفاً ونشره يقرأ فيه، فدخل جند يزيد عليه وقتلوه، (١٧ نيسان سنة ٧٤٤)، في يوم كيوم عثمان.

مروان بن محمد — انحلال الامبراطورية

كان مصرع الوليد إيذاناً بانقضاء الدولة الأموية. ذلك بأن دعوة الخوارج الثورية التي نجحت نجاحاً كبيراً في الامصار ما لبثت ان انتشرت في سورية أيضاً، بعد ان أضاع الامويون أنفسهم هيبة الخلافة فيها، وكان ولاؤها قبل ذلك لهم، بلا خلاف. وهكذا بدأ التفسخ السياسي. وتوفي خلفُ الوليد، يزيد الثالث، في السنة نفسها (٢٥ أيلول). وهنا برز لسلالة عبد الملك منافس في شخص مروان بن محمد،[٤٨] أحد حفدة الخليفة مروان بن الحكم، وابن احدى الأماء الكرديات، وكان أبوه قد قاد الحملات ضد البيزنطيين فترة غير قصيرة من الزمان بوصفه أميراً على الجزيرة وإرمينية. وحارب مروان نفسُه في بلاد القبق اثنتي عشرة سنة، فأفاد من ذلك خبرة أعاد على أساسها تنظيم الآلة الحربية الاسلامية. وتفصيل الأمر ان النظام القديم القاضي باعطاء الجند اعطياتهم من مال الجزية، لم يعد يتكافأ مع هذه الحملات التي تقتضي ضبطاً أدقّ وأصرم. ومن هنا استبدل مروان بتنظيمات الجيش القبلية القديمة كتائبَ على نظام جديد يقودها جنود محترفون. وإنما كانت الجيوش القديمة تقاتل في صفوف

(٤٨) إن لقبه « حمار الجزيرة الوحشي »، هذا اللقب الذي يبدو لنا غريباً جداً، لم يقصد به إلى السخر، ولكن إلى المديح. ذلك ان الحمار الوحشي يعتبر (عندهم) أنبل حيوانات الطرد (الصيد).

ممتدة تجري أمامها المبارزات الفردية التي تقرر ، في الاعم الاغلب ، نتيجة المعركة . فخرج مروان على هذا العمود وألف وحدات عسكرية صغيرة ، خفيفة الحركة الى حد بعيد .

وكان مروان قد أبى مبايعة يزيد الثالث ، كما أبى مبايعة خلفه ابراهيم ابن الوليد . والواقع أنه سار بجيوشه على سورية ، ممثلاً في الظاهر حق وارثي الوليد في الخلافة ، فهزم جنود الحكومة التي أرسلت لحربه عند سلسلة لبنان الشرقية . وكان قائد جند الحكومة سليمان ، أحد أبناء الخليفة هشام ، قد قتل ابني الوليد فيما هو يتراجع الى دمشق ، ليفر من البلاد بعد ان استولى على جميع ما وصلت اليه يداه من مال . وفي ٧ كانون الاول سنة ٧٤٤ ، بويع مروان بالخلافة في دمشق ، ولكنه جعل مقره بعد في حرّان حيث كان يستطيع ان يعزز مركزه لدى القيسية الموالية له . فأغضب ذلك كلباً في سورية فثارت على مروان ، ولكنه لم يلبث ان أخمد ثورتها في السنة نفسها . ثم انه جهز من الكلبيين جيشاً كان من المفروض ان ينضم الى قواته الخاصة في حملة اراد توجيهها الى العراق ، ولم يكن قد خضع له بعد . فبينا هو في طريقه اليه ، بلغه ان سليمان [بن هشام] قد رفع راية الثورة عليه في الرصافة ، وكان يقيم فيها بعد ان حسّن له أهلها السوريون خلع مروان وبايعوه بالخلافة . واستولى سليمان على قِنّسرين ، فاضطر مروان الى ان يوقف سيره الى العراق لينقضّ على هشام فيهزمه هزيمة فرّ على أثرها الى حمص أولاً ، ومن ثم الى الكوفة . وإذ لم تُلقِ حمص السلاح الا بعد حصار دام أشهراً متعددة ، فقد أمر مروان بدكّ أسوارها ، كما أمر بتجريد بعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من المدن السورية من تحصيناتها . ولم يكد يطلّ صيف سنة ٧٤٦ حتى كان الأمر قد خلص لمروان ، حقاً ، في سورية كلها .

في هذه الاثناء ، كانت سلطة الامويين في شرق الامبراطورية قد زالت

بالكلية . ففي الكوفة نادى العلويون بعبد الله بن معاوية ، حفيد جعفر أخي علي ، إماماً . ولقد أكد هذا الاخير ان روح الله قد انتقلت من الرسول اليه بواسطة أجداده ، واضعاً بذلك أساس العقائد الشيعية الغالية في ما بعد . وعلى الرغم من انتصار الزيدية له ، وتمكنه من الاستيلاء على قلعة الكوفة في فترات مختلفة فقد وفق عامل الوليد الثاني على العراق ، عبدالله بن عمر ابن عبد العزيز ، إلى أن يوقع في جنده الهزيمة . وإذ قد مُنح عبد الله بن معاوية حق اختيار منفاه ، فقد قصد الى بلاد الجبال حيث تقاطر اليه خلقٌ كثير ، والتفوا حوله ، وكان للفرس عهد بفكرة « الشرعية » * التي يقول بها العلويون . ولقد جعل مقره بادىء الامر في إصفهان ، ثم في إصطخر ، وبسط سلطانه على الولايات المجاورة : خوزستان ، وفارس ، وكرمان . ثم انه فتح أبواب هذه البلاد في وجه الخوارج ، الذين هزمهم عامر بن ضبارة ، أحد قواد مروان ، فما كان من عامر هذا الا أن هاجمه فهزمه في مرو الشاذان سنة ٧٤٧ . ومن ثمّ فرّ عبد الله بن معاوية الى خراسان حيث قتله أبو مسلم ، البطل العباسي الذي سنتحدث عنه في ما يلي ، بعد ان رأى فيه منافساً له مزعجاً .

كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قد أبى أن يبايع لمروان بالخلافة ، فعيّن مروان النّضر بن سعيد الحَرَشيّ أميراً على العراق ووجهه لقتال عبد الله . ولقد استمر القتال بين الفريقين أربعة أشهر اضطرا بعدها إلى أن يتّحدا في وجه عدوّ لهما مشترك . وتفصيل ذلك أن حركة الخوارج لم تمت ، على الرغم مما بذله الحجاج ومن خلفه من الولاة في سبيل استئصال شأفتها . وأنما أطلعت رأسها الآن في الجزيرة الشمالية بين قبائل ربيعة التي كانت تَنْفَسُ على قريش بالخلافة . فبايعوا الضحّاك بن قيس الشيباني خليفة عليهم وتقدموا لحرب العاملين الامويين المتقاتلين على أبواب الكوفة .

---

* أو « النص والتعيين » . (المعربان)

فما كان من عبد الله بن عمر والنضر بن سعيد إلا ان تعاونا على الخوارج ، ولكن التوفيق خذلهما ، فاضطرا الى اخلاء الكوفة . ثم إن عبد الله بن عمر صالح الخوارج فثبّته الضحّاك أميراً على مَيسان وفارس . حتى إذا خُذل الضحاك زُج في احد السجون بحرّان ، ليموت ثمة بالطاعون سنة ٧٥٠ .

وبعد ان مكث الخوارج نحواً من عشرين شهراً في الكوفة انقلبوا الى الجزيرة واستولوا على الموصل ، وهكذا رأى مروان – وكان لا يزال منهمكاً في إقرار النظام في سورية – إلى الخطر يتهدد معقل دولته ودعامتها ، أعني الجزيرة . فوجه ابنه لمقاتلة الثائرين فهزموه في موقعة مشؤومة اضطر على أثرها للانسحاب الى ما وراء أسوار نَصيبين . وكان مروان قد وفق في هذه الاثناء إلى التمكين لنفسه في سورية فارتدّ على الخوارج بنفسه ، فهزمهم في أيلول سنة ٧٤٦ هزيمة شنعاء في موقعة حاسمة قُتل فيها خليفتهم نفسه ، كما قُتل ولي عهده أيضاً ، ولكن شوكتهم لم تُخْضَد نهائياً الا في السنة التالية عندما تمكن يزيد بن هُبيرة ، قائد جند مروان ، من ان ينتزع العراق منهم ثانية ، وبذلك صار في ميسور مروان ان يَكِلَ الى قائده مواصلة العمل على اقرار النظام في الشرق ، ليعود هو الى مقره في حرّان .

ظهور العباسيين في خراسان

ولم يكد مروان يستقرّ في حرّان ، مطمئناً الى انه قد بلغ الغاية وأصاب الهدف حتى برزت في الشرق أحداثٌ خليقة بأن تفسد عليه ثمرة جهده الطويل . وكان نصر بن سيّار ، أمير خراسان ، قد كتب منذ مدة ، الى دمشق بتحرّك العباسيين واجتماعهم في ظل الرايات السود ، طالباً اليها ان تنجده لدفع خطرهم . ولكن مروان لم يؤانس في نفسه المقدرة على تلبية نداء عامله ، على وجه السرعة .

وتفصيل الامر ان خصوم الدولة العربية من الفرس المتعصبين لقوميتهم

اتحدوا ، في خراسان [٤٩] ، مع أولئك المسلمين الاتقياء الذين دانوا بمبدأ « الشرعية » وقالوا بأن حكومة الامويين لم تكن منذ البدء خلافة حقاً ، بل ملكٌ دنيوي معاذ الله . ولقد ذهبوا الى ان آل النبي ، أي عَقِب علي ، هم أصحاب الحق في أن يسيطروا على الدولة الاسلامية . ولكن العباسيين استطاعوا ان يحوّلوا التيــار المعادي للامويــين ، في الشرق ، لمصلحتهم . وكان جدّهم ، عبد الله بن عباس وهو ابن عم الرسول وعلي ، قد سالمَ معاوية بعد مصرع علي فألحقه ببيت المال في البصرة . وإذ لم يجد سبيلاً إلى تمثيل دور سياسي ما فقد صرف همته الى الحديث يدرسه ويتزيّد فيه بالخيال الطياش والاستمداد من القصص التلمودي الذي قرّبه اليه نفرٌ من اليهود الداخلين في الاسلام . وفي خلافة عبد الملك قصد ابنه علي الى دمشق ، حتى اذا توفي الوليد أقام في الحُمَيْمة ، على طريق الحاج الشامي ، ليموت هناك عن سن عالية سنة ٧٣٦ ، وكان ابنه محمد قد تصدّر لأمامة الشيعة ، في حياة أبيه ، ليُدلي بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم . ولقد وجّها رُسُلهما إلى الجزء الشرقي من الامبراطورية ، حيث بثّوا الدعوة لهما فترةً من الزمن غير قصيرة ؛ حتى اذا كانت سنة ٧٤٦ وجّه ابراهيم أبا مسلم عبد الرحمن ابن مسلم الفارسي الاصل ، الى خُراسان ، وكان الدعاة قد مهّدوا له سبيل العمل فيها أحسن تمهيد . واستهلّ أبو مسلم نشاطه في المقاطعة التي كانت تنزلها خُزاعة ، وهناك خطب ، لأول مرة ، لبني العباس . وإذ كان أحد الزعماء لا يزال يعترض سبيله في تلك الديار ، فقد غادرها الى الماخُوان حيث جنح الى الاستئثار بالسلطة مثيراً بذلك مخاوف العرب وشكوكهم ، فسعوا الى الاجتماع عليه . ولكن الاحقاد القبلية التي كانت تمزق شملهم ، وشمل العرب في قلب الامبراطورية ، حالت دون اتحادهم في وجه العدو

---

(٤٩) انظر فان فلوتن : G. van Vloten, **De Opkomst der Abbasiden in Chorasan,** Leiden, 1896.

المشترك ، ليس هذا فحسب . بل لقد انضوى تحت لوائه فريق من عرب الجنوب . وكان أتباع أبي مسلم ، وكثرتهم الكاثرة من الفلاحين الفرس ، قد عاهدوه على كتاب الله وسنة نبيّه ، بأن يدينوا بالطاعة لأيما عضو من آل الرسول ينعقد عليه الرأي . ثم إن أبا مسلم ذهب إلى أبعد من هذا فألزمَ جنده ، على الخصوص ، بأن يطيعوا قوادهم طاعة عمياء ، من غير قيد أو شرط . ويقال إنه أول من اجتذب الى الاسلام نبلاء الفرس أصحاب الاملاك (الدهاقين) في خراسان ؛ ولكن دعايته كانت قائمة على أساس من المعتقدات الايرانية أيضاً ، فقد زعموا أنه قال بتناسخ الأرواح وادعى ان روح الله قد تجسدت فيه (٥٠) .

والحق ان تفرق كلمة العرب ساعد أبا مسلم على احتلال مرو ، مركز الواحة الخصيبة من وادي المرغاب . ومن هناك نشط لقتال أمير نيسابور ، نصر بن سيار ، وبذلك نشبت الحرب التي آلت بعدُ الى سقوط الامبراطورية الاموية . ولكن أبا مسلم لم ينهض هو نفسه بعبء الهجوم الاول ، وانما الذي نهض به قحطبة بن صالح الطائي الذي كان أحد نُقباء الحزب العباسي الاثني عشر في خراسان منذ سنة ٧١٨ ، والذي عقد له ابراهيم في مكة سنة ٧٤٧ ، لواءً أسود وعينه نائباً له . فلما سار قحطبة الى خراسان هزم ابن نَصر بن سيار في طُوس . وفرّ نصر نفسه الى جرجان . وفي حزيران سنة ٧٤٨ دخل أبو مسلم نيسابور . وكان امير العراق ، يزيد بن هبيرة ، قد لبى نداء نصر فوجّه الى جرجان جيشاً لنجدته ، فالتقاه قحطبة وهزمه في غرة آب سنة ٨٤٨ . ووافت المنيّة نصراً ، فيما كان يفر بنفسه من مكان الى مكان . فانضمت فلول جيشه إلى بقايا الجيش السوري في نهاوند بفارس

(٥٠) كان مريده هاشم المقنع يزعم انه – اي ابا مسلم – آخر تجسد للذات الالهية قبل المقنع نفسه . راجع بارتولد **W. Barthold** في الموسوعة الاسلامية ج ١ ص ١٠١ . نقلا عن النرشخي ، تاريخ بخارى – طبعة شيفر **Schefer** ص ٦٤ وما بعدها .

حيث حاصرهم الحسن بن قحطبة . ثم ان جيشاً سورياً ضخماً هُرع لنجدة المحاصرين ، بقيادة عامر المُريّ أمير كرمان ، ولكن قحطبة هزمه قرب إصفهان ، في ١٨ آذار سنة ٧٤٩ . حتّى اذا انقضت شهور على حصار نهاوند وافق السوريون المحاصرون على الاستسلام بعد ذلك في غير ما رحمة ولا استبقاء .

استيلاؤهم على العراق

ومن نهاوند سار قحطبة الى العراق . ولقد حاول بادىء الأمر ان يجتنب الاصطدام بأمير هذه البلاد ، الذي توجّه لقتاله عبر دجلة ، فقصد الى الكوفة في الحال . حتّى اذا لحق به يزيد بن هبيرة هاجم قحطبة معسكره في ٢٧ آب سنة ٧٤٩ قرب الانبار وأكرهه على التراجع الى واسط . وفي هذه الموقعة الليلية غرق قحطبة أو قُتل . ولكن ابنه الحسن ، الذي سبق له ان مثّل دور القائد المستقل حقاً ، ما لبث ان وليَ إمرة الجيش من بعده ، دونما حادث ، فوفق الى احتلال الكوفة .

وكانت هذه المدينة مركز الحركة العباسية منذ زمن طويل . وكان أبو سلمة [الخلاّل] ، « وزير آل محمد » ، يتولى شؤون الدعوة فيها سراً ، ويتصل من طريق رسله بأبي مسلم اتصالاً دائماً . فلما تم للحسن الاستيلاء عليها كشف أبو سلمة النقاب عن وجهه وصارت أمور المدينة اليه . وكان رأس البيت الهاشمي قد اعتقل في الحميمة قبيل ذلك ، بأمر من الخليفة مروان ، ثم سيق الى حرّان بعد أن نصح أهل بيته بالالتجاء الى الكوفة ، وأوصى الى أخيه أبي العباس . وفي تشرين الاول سنة ٧٤٩ وصل أربعة عشر عباسياً الى الكوفة .

وكان الوزير أبو سلمة — الذي لم يعاهد ابراهيم الا على أساس شخصي — غير راغب في ان ينزل عند حكمهم ، في سهولة ويسر ، فسعى الى أن يبقيهم

في معزل عن أهل خراسان . وتذهب الروايات إلى حدّ القول إنه شرع في مفاوضة العلويين على ان تكون الخلافة فيهم ، ولكن هؤلاء العلويين أعوزهم ، هذه المرة أيضاً ، رجل حازم يستطيعون تقديمه لزعامتهم . ثم ان ممثلاً لابي مسلم قصد أبا العباس على رأس وفد يتألف من اثني عشر رجلاً من زعماء الخراسانيين ، وسلموا عليه بالخلافة ، فاضطر أبو سلمة بعد ذلك الى ان يقلع عن معارضته . وفي ٢٨ تشرين الثاني سنة ٧٤٩ بايع الناس لابي العباس بالخلافة في مسجد الكوفة . فارتقى المنبر وخطبهم للمرة الاولى ، ولكن حمّى داهمته فيما هو يخطب ، فاضطر ان ينقطع عن الكلام ليتابع عمه داود التحدث باسمه . ولقد حاول في خطبته ان يحتج بكلام الله على ان بيته أحق بالخلافة من العلويين مؤكداً بخاصة على فضل أهل خراسان في تحرير العراق من نير السوريين البغيض . وعلى أي حال ، فالحق ان الخليفة لم يستشعر الطمأنينة كلها في الكوفة فخرج مع ابي سلمة الى معسكر الخراسانيين ليفارقه بعد قاصداً الى الحيرة . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تخلص من ابي سلمة ، الذي صُرع بيد أحد أصدقاء أبي مسلم المقربين .

وكان قحطبة قد عين [أبا] عون الازدي قائداً على الجيوش العامة في دجلة الاعلى . فلما سقطت الكوفة اضطر الى ان يتخلى عن القيادة لعبد الله ابن علي العباسي . وتوجه مروان لمقاتلة أهل خراسان فالتقى الفريقان على الضفة اليسرى من الزاب الاكبر حيث دارت المعركة بينهما تسعة أيام ، لتنتهي بهزيمة مروان . وتعقب أهل خُراسان آخر خلفاء بني أمية إلى حران ودمشق حتى ثغر الفرَماء على الشاطىء المصري . وألقت جميع المدن السورية السلاح مستسلمة للسلطان الجديد دونما معارضة ، ولم يقاوم فترة من الزمان غير دمشق وحدها . ثم ان مروان قُتل في معركة أخيرة وقعت عند بوصير ، في مصر السفلى ، في النصف الأول من شهر آب سنة ٧٥٠ .

أما معقل الامويين الاخير ، وهو مدينة واسط التي أنشأها الحجاج على مستنقعات دجلة ، فثبتت احد عشر شهراً أخرى على الرغم من الشقاق بين القيسية واليمنية من سكانها المحاصرين . والواقع ان العامل يزيد بن هُبيرة لم يفاوض جند العباسيين [في الصلح] إلا بعد ان جاءه نعي مروان . ومهما يكن من شيء فقد نقض العباسيون الشروط التي اتفق عليها الفريقان بعد أربعين يوماً من المفاوضة ، والتي أقرها أبو العباس بنفسه ، ففتكوا بالاسرى من الضباط الامويين ، وفيهم يزيد بن هبيرة ذاته .

وتعقب العباسيون البيت الاموي المتقوض في وحشية لم يُسمع بمثلها من قبل . ففي بلاد الشام كان رجالهم يتصيدون أفراد هذا البيت ويبيدونهم كالوحوش الضارية . ولم تسلم من انتقامهم قبور الخلفاء نفسها ، فانتهكوا حرمتها جميعاً ، خلا قبري معاوية وعمر بن عبد العزيز . ولم يُوفق الى النجاة من بطش العباسيين أحد من أفراد الأسرة الأموية غير [عبدالرحمن الداخل] أحد حفدة الخليفة هشام ، الذي فر الى الاندلس ليؤسس فيها امبراطورية جديدة .

وفي الحق ان السوريين لم يبالوا بادىء الامر بسقوط البيت الأموي الذي يدينون له بشيء كثير ، لما كانوا يستشعرون من كراهية لمروان بن محمد . ولكن حرب الافناء الوحشية التي انساق العباسيون في تيارها الجارف لم تلبث ان أحدثت رجعاً سيئاً في نفوس السوريين . ففي قنسرين ثارت القيسية بزعامة ابي محمد السفياني ، ولكن جند العباسيين بدد شملهم في تموز سنة ٧٥٢ فلاذ أبو محمد بالفرار ليقع في أيدي الجلادين العباسيين في الحجاز . والواقع ان اتباعه أبوا ان يصدقوا وفاته فظلوا يترقبون عودته ، كما يترقبون عودة المسيح ، ليجدد لسورية أيام الامبراطورية الخالية . وإذ قد خابت آمالهم في تحقيق هذه الأمنية فقد اضمحلت فكرة السفياني لتنطوي في ثنايا

العقيدة الاسلامية في ما يتصل بالمسيح الدجال . أما البقية الباقية من الفرق الموالية للامويين – هذه الفرق التي تجمع الاماني السياسية الى الآمال الدينية ، كما يفعل الشيعة – فتتمثل اليوم في اليزيدية الاكراد الذين يعيشون في جبل سنجار ، حول الموصل ، وينتشرون شمالاً حتى بلاد القبق الداخلية (٥١).

وبسقوط الامويين خسر العرب عموماً ، لا السوريون وحدهم ، السيادة المطلقة في الاسلام . فما هي إلا فترة وجيزة حتى ارتدت جزيرتهم الى سابق عهدها من التأخر الكلي . ولقد انتهى الداخلون في الاسلام من الاعاجم الى ان يصبحوا مساوين للعرب ، بعد ان كانوا يعاملون كمسلمين من الدرجة الثانية . واذ كان العباسيون مدينين بالنصر للشرق الايراني ، واذ كان تنظيم الخراسانيين العسكري قد ضمن لهم نصيبهم من النصر ، فقد رجحت كفة الفرس في الاسلام بعد قيام الدولة الجديدة ، وان لم يستطيعوا ان يقهروا ، نهائياً ، العنصر العربي الذي ظل أفراده يشغلون مراكز رفيعة في الادارة والجيش ، ويجدون سناداً قوياً في السلالة الهاشمية الحاكمة ، على كل حال . ومن هنا احتفظت العربية ، في الامبراطورية الجديدة ، بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية ، وفي مجمل الحياة الفكرية . وفي الدين فوق كل شيء .

---

(٥١) لقد اظهر جويدي Guidi الصلات التي تربط اليزيدية بالغلاة من مؤيدي الامويين ، الصلات التي أغفلها جمهور الباحثين من قبل ، معتمداً في ذلك على م. تيمور . انظر : **Rivista di Studi orientali. XIII, 1932, 266-300.**

الامبراطورية الاسلامية
وانحلالها

العبّاسيّون الأوّلون

لم يُتحْ للخليفة العباسي الاوّل ، ابي العباس عبدالله ، أن يحكم غير فترة قصيرة من الزمن ، ومن هنا خلدَ ذكره في التاريخ بوصفه — في المحلّ الأوّل — مبيدَ الأمويين . وإنما عُرف بالسفّاح ، وهو الاسم الذي اطلقه على نفسه في الخطبة التي ألقاها يوم بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة . وفي حزيران سنة ٧٥٤ خلفَه اخوه ابوجعفر عبدالله المنصور(٥٢) ليكون هو المؤسس الحقيقي لسلطان بني العباس . وكان على ابي جعفر بادىء الأمر أن يمكّن لنفسه بالقضاء على حركة عمه عبد الله بن علي الذي هبَّ يطالب بالخلافة — وكان يقيم في شمالي سورية مع الجيش الموجّه لقتال البيزنطيين — ولكنّ أبا مسلم ما لبث أن هزمه .

وقُدّر على هذا المولى الأمين الذي يدين له العباسيون ، قبل كل شيء ،

---

(٥٢) اصل اللقب « المنصور بالله » . والواقع ان الخلفاء العباسيين جميعاً تلقبوا في ما بعد بهذه الألقاب ذات المظهر الورع . ومن اراد التوسع في دراسة عصر المنصور فليراجع :
Noldeke, Orientalische Skizzen. Berlin, 1892, pp. 112 - 162 (Sketches from Eastern History, tr. by J. S. Black, London and Edinburgh, 1892. 107 - 145) .

بقيام دولتهم ، أن يصلى وشيكاً بجحود الخليفة الجديد وإنكاره للجميل . والحقّ أنه كان شديد الأدلال بالخدمات التي أداها لبني العباس . ففي سنة ٧٥٤ كتب الى السفاح يستأذنه في الحج ويسأله ان يوليه اقامة الموسم في الناس . ولكنّ السفّاح أخضعه لأمرة أخيه (المنصور) . وكانَ أبو مسلم قد اظهر للمنصور كثيراً من الاستقلال والتفرّد بالأمور ؛ فكان همّ المنصور الأول أن يُبعد أبا مسلم عن خراسان ، وهي معقله ومُستَقرّ قوّته وسلطانه . وعلى الرغم من أن ابا مسلم رفض ما عرضه عليه المنصور من الاضطلاع بأمارة مصر ، فقد سمح لنفسه بأن يُستَدْرَجَ إلى العراق حيث قُتِل ، على عينيْ الخليفة ، قرب العاصمة القديمة ، المدائن . ولقد وَجَد من يثأر له في شخص سُنْباذ الفارسي الذي رفع راية العصيان في خراسان وتوغل حتى بلاد الجبال . وهناك بين هَمَذان والريّ ، هزمته جيوش الخليفة وقضت عليه .

إخضاع العلويين

ولعلّ العلويين كانوا ، حتى اللحظة الأخيرة ، يعلّلون النفس بأن أهل خراسان يعملون لمصلحتهم * ، ومن هنا لم يذعنوا ، في الحال ، للأمر الواقع المتمثّل في استيلاء ابناء عمومتهم على السلطان . ولكنهم كانت تُعْوزهم ، كما أعوزت جدّهم من قبل ، العزيمة والحنكة السياسية . ولقد أظهروا معارضتهم للسّلالة الجديدة في المدينة ، على الخصوص ، بوصفها المركزّ الرئيسي للبيت العلوي ، وكان كثير من افراده قد تفرّقوا لذلك العهد ، في البلاد . فلم يكن من العامل الذي عيّنه المنصور على المدينة إلا أن سجن عدداً كبيراً منهم ، وبثّ رجاله للبحث عن زعيمهم محمد ، أحد حُفداء الحسن من جهة أبيه ، والحسين من جهة امه . فكان هذا العمل

(*) أي لمصلحة العلويين .

بالذات هو الذي عجّل باندلاع الثورة .

ففي ختام سنة ٧٦٢ ثار العلويون . واطلقوا سراح المعتقلين من ذوي قرباهم ، وحملوا الفقيه الشهير . مالك بن أنَس (صاحب المذهب المالكي المنتشر في إفريقية الشمالية كلها إلى اليوم) على ان يُحلّهم من يمين البيعة للعباسيين ، باعتبار انهم بايعوا مكرهين . وطبيعيّ ان يكون من اليسير على الجيش الخراساني الذي وجّهه المنصور الى المدينة ، التغلب على حركة الثائرين الساذجة ، اولئك الثائرين الذين ظنوا ان في استطاعتهم ان يحموا أنفسهم ، احسنَ الحماية ، بواسطة خندق كالذي اصطنعه الرسول . وقاوم محمد مقاومةً باسلةً قُتِل على اثرها ، وصودرت ممتلكات أسرته . أما المدينة نفسها فقد أحسنَ الخليفة معاملتها بعد أن أمسَتْ لا تشكل أي خطر عليـــه .

اما ثورة العلويين بقيادة ابراهيم ، اخي محمد ، في البصرة فكانت اعظم خطراً . ولكن ابراهيم هذا كانت تعوزه المقدرة السياسية أيضاً . فعلى الرغم من أنه وفق إلى احتلال البصرة ، واستطاع بما استخلصه فيها من اموال أن يكسب ولاء فارس والسُوس ، فقد رفض ان يسير إلى الكوفة حيث كان المنصور مُرابطاً بجيشٍ هزيل . فما كان من قائد جند المنصور ، عيسى ابن موسى ، الذي سبق له أن أخمدَ الثورة في المدينة ، الا أن تقدّم الى السوس في الحال فبسط سلطانه على البلاد ، ولكن بعد قتال عنيف . وأخيراً عزم ابراهيم على مهاجمة الكوفة ، ولكنه قتل في معركة نشبت بينه وبين جنود عيسى في باخَمْرَى ، جنوبي الكوفة ، في ١٤ شباط سنة ٧٦٣ .

بنـــاء بغداد

ولمّا تمّ للمنصور هذا الفوز الحاسم على العلويين جدّ في بناء عاصمة امبراطورية جديدة ، كان قد أقدم على تخطيطها بُعيد ارتقائـــه عرش

الخلافة . وكان أخوه قد أنشأ لنفسه مقراً في الهاشمية ، على ضفة الفرات اليسرى ، غير بعيد عن الانبار. ولكنّ قربها من الكوفة ، هذه المدينة المتمرّدة التي كلفت الامويين متاعب جساماً ، كان خليقاً بأن يتهدد الدولة الجديدة بالخطر ، في المستقبل . وبعد أن فكر المنصور في الأمر مليّاً وقع اختياره على قرية نصرانية صغيرة واقعة على الضفة الغربيّة من دجلة تدعى بغداد لتكون عاصمة لامبراطوريته . وكان الاختيار ممتازاً . والحقّ ان المنطقة ليست مدينة بازدهارها السريع لعناية الخليفة فحسب ، بل لموقعها الملائم الذي مكّنها من الاحتفاظ بأهمية بالغة ، حتى بعد انحلال الحضارة في العراق ، بالكليّة . وعلى ضفة دجلة اليسرى ، شيد الخليفة عن طريق حملة واسعة من العمل الالزامي ، قصوراً لنفسه ولحاشيته ، ومساجد ، ودوراً للحكومة مجتذباً التجار الى مدينته بشروط تساعدهم على الانشاء والتعمير ، جالباً مواد البناء في الدرجة الأولى من مقرّ الساسانيين القديم ، المدائن . وأنشأ المنصور في بغداد شبكة من القنوات وعقد فوقها بجسور ، وشيد من المنشآت المائية والتحصينات ما يسّر على الناس سبيل العيش الامين هناك . كذلك ضُمّت الى المدينة مجموعة من المناطق المجاورة أهمّها الكَرْخ (من الآرامية كرخا ، وتعني المدينة) . وعلى الضفة الشرقية ، حيث ينهض الجزء الرئيسي من بغداد اليوم ، بنى المنصور ، اول الأمر ، معسكراً لابنه المهدي . وأقطع ذوي قرباه ومواليه وقواده الارباض المحيطة بالمدينة . ولقد اطلق على عاصمته اسم « دار السلام » او « مدينة السلام » ، ولكن اسمها القديم ظل شائعاً على ألسنة الناس .

الأدارة

وكانت « روح » العاصمة الجديدة تختلف ، منذ البدء ، اختلافاً كلياً من « روح » دمشق . فعلى الرغم من ان العرب ظلوا يتوافدون على بلاط المنصور ايضاً ، فالواقع أنه لم يعد في ميسورهم ان يقرّبوا الخليفة ، كما كانوا

يفعلون زمن عبد الملك ، وكأنما هو الاول بين عددٍ من الاقران . فخليفة بغداد لم يكن ، بأي حال ، شيخاً من شيوخ القبائل ، بل خلَفٌ لملوك الفرس الكبار . وفي السنوات التوالي نشأ عند خلفاء بغداد شوقٌ الى استطلاع الكتب الفارسية عن اسلوب التشريفات الذي كان يتبعه الساسانيون ، ورغبة في محاكاته وتقليده . فلم يعد التقدّم في البلاط والمكانة في الحكومة امتيازاً وراثياً مقصوراً على الاشراف ، بل اصبح الخليفة يقدم من يشاء ، ويؤخر من يشاء . وانتهت الخِلعةُ[٥٣] ، ولم تكن معروفة زمن الامويين ، الى ان تكون آية على الحظوة عند الخلائف من بني العباس . وبينا كان الأمويون يكتفون ، في أغلب الاحيان ، بحاجب يُنيطون به أمر ادخال الناس عليهم ، نجد ان عدد الحجاب والخدم في البلاط العباسي يزداد في اطراد ، ولا عمل لهم الا الحؤول بين الخليفة وافراد الشعب واقامة العقبات بينه وبينهم . والواقع ان الخلفاء العباسيين نفضوا ايديهم ، او كادوا ، من تصريف شؤون الدولة ، ملقين عبء ذلك على غارب الوزراء . ولكنهم تصرفوا في ما يتصل بالموت والحياة مباشرة : فقد كان الجلاد — وهو ظاهرة لم تعرفها الحضارة العربية قبل ذلك العهد — يلازم الخليفة دائماً ، وكان النطع حاضراً ابداً ، قرب العرش ، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها .

كذلك تدين الامبراطورية العباسية للمنصور بالقواعد التي قامت عليها حكومتها . والواقع انه احتفظ ، في الأعم الاغلب ، بنظام العمل الذي جرى عليه البيزنطيون والساسانيون ، والذي جرّبه الامويون من قبل . وكان يسعى ابداً إلى ان يعيّن على رأس كل ولاية عاملاً كفوءاً بارعاً . صحيح انه لم يستطع ان ينسى آله وذوي قرباه في معرض هذا التعيين ، ولكنه مع ذلك لم يحجم ، مطلقاً ، عن رفع مواليه وعُتَقائه إلى اسمى المناصب . وكان في ميسوره ان يراقب ، أحسنَ المراقبة ، الادارةَ في الولايات من

(٥٣) ومنها اخذت كلمة(gala) .

طريق نظام البريد ، هذا النظام الذي نستطيع ان نقول انه لم يُنشَأ حقاً إلا في عهده ، بالرغم من وجوده ايامَ الامويين . وكان اصحاب البريد مسؤولين عن جهاز الاستعلامات كله في الحكومة ، ولكن واجبهم الرئيسي كان إبقاء الخليفة على اطلاع دائم بمسالك عمّالهِ في الحكم . وكانت تقاريرهم المطّردة ، الدقيقة ، ذات فائدة كبيرة للمصلحة العامة . فالأنباء التي اعتادوا ارسالها عن احوال الزرع ، مثلاً ، كانت تساعد على اتخاذ الاحتياطات المناسبة ضدَّ أيّ نقص في الغلال . ليس هذا فحسب ، بل إن سجلات المحطات البريدية التي وضعوها لتُؤلّفَ أحد المصادر التي نشأ عنها ، في الجيل الثاني ، علم الجغرافية عند العرب .

وقرّب المنصور الى بلاطه علماء الفقه والحديث الذين كانوا حتى ذلك الحين ، منعزلين في المدينة ، يتآمرون ، في السرّ على الدولة الأموية . لقد تمّ لهم ، في النهاية ، تحقيق المثل الأعلى الثيوقراطيّ الذي حلموا به ، بعد ان تولى آل بيت النبي زمام السلطان ، كرّةً اخرى . والأمر الذي لا شك فيه أن اثنين من مؤسسي أقدم المذاهب الفقهية الباقية الى اليوم ، كانا يعطفان على العلَوية . فأما أبو حنيفة مؤسس المذهب الحنفيّ ، فكان جدّهُ عبداً أُسر اثناء فتح كابُل ثم اعتقه سيده ، وكان من بني تَيم الله . بيد ان أتباعه ما لبثوا أن اخترعوا له نسباً يرقى الى احد ملوك الاساطير الايرانية القدماء . ومهما يكن من أمر ، فقد عاش ابو حنيفة ، بوصفه مولى من موالي تيم الله ، مستغنياً عن الناس من طريق التجارة بالحرير ، في الكوفة . ولقد كان من مؤيدي زيد بن إبراهيم في ثورته بالبصرة ، وفي سنة ٧٦٧ توفي في سجن بغداد . وكان يعقد حلقة للتدريس في الكوفة ويفتي في المسائل الشرعية . وهو في فتاواه يَلزَمُ السنّة [الحديث] لزوماً شديداً ولا يُفسح المجالَ امام الاجتهاد باكثر مما فعل أيّ من اصحاب المذاهب الاخرى . والحق أن حسد رجال المذاهب المتأخرين هو الذي أثار امثال هذه المآخذ عليه . ولقد سبق لنا أن رأينا في معاصره مالك بن انس ، مؤسس المذهب

المالكي ، في المدينة ، نصيراً للعلوية ، حتى اذا أخمدت ثورتهم عوقب على موقفه هذا بالجَلْد . ومهما يكن فقد أجلّه الخلفاء الذين تعاقبوا بعدُ إجلالاً عظيماً وزاره هرون الرشيد قبيل وفاته ، فيما كان يؤدي فريضة الحج . وبينا نشر تلامذة مالك مذهب استاذهم في الاندلس وشمالي إفريقية في المحل الاول ، التحق الحَنَفيّةُ وشيكاً بخدمة الحكومة المركزية . ولقد وفق ابو يوسُف ، بوصفه قاضي القضاة في الاسلام ، الى أن يظفر باقرار رسمي لمذهب ابي حنيفة . كذلك وضع كتاباً اساسياً لهرون الرشيد في الخراج . وكان قد سبقه احد كتاب المهدي الذين عملوا أول امرهم في الادارة الأموية إلى وصف الاوضاع الواقعية في كتاب ألفه عن الخراج .

الثورات في فارس . المقنع

وكان المنصور منهمكاً ، أبداً ، بصيانة حدود امبراطوريته العظيمة وتوسيعها حيثما أسعفته الأحوال . وعلى الرغم من ان الحروب المتواصلة ضد البيزنطيين لم تنجح في عهده اكثر مما نجحت في عهد الأمويين ، وعلى الرغم من ان الحملات ضد الخَزَر الاتراك في بلاد القَبْق (القوقاز) ، والدّيلم على الساحل الجنوبي من بحر الخَزَر ، والاتراك على الضفة الاخرى من نهر جَيحون ، وضد الهنود لم تؤدّ الى توسع ذي غناء ، على الرغم من ذلك كله فقد اظهرت هذه الاعمال الحربية كلها ان في استطاعة حكومة مركزية قوية ان تجابه امثال هذه الازمات والشدائد التي عجزت الاجيال المنحلة ، في ما بعد ، عن مجابهتها والتغلب عليها . وكان بنو العباس يستهدفون بين الفينة والفينة للخطر يأتيهم من الثورات المذهبية المضطرمة في خراسان ، الواقعة في اقصى الطرف الشرقي من الامبراطورية ، حيث احتك الاسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامانية * ، وحيث كان الدين الايراني القومي ،على

(*) نسبة الى كلمة شامان ، وتعود في النهاية الى أصل سنسكريتي بمعنى كاهن أو ساحر يزعمون انه كان في مقدوره الاتصال بالأرواح الصالحة والشريرة . وقد عمت هذه الديانة الشعوب النازلة في منطقة جبال اورال من مغول وأتراك . (المعربان)

الخصوص ، لا يزال يؤثر في عقول الناس تأثيراً قوياً . فليس من شك في ان المنصور نفسه قد تخلص من ابي مسلم ، وانه امر سنة ٧٥٨ ، بالفتك ببعض المتعصبين له من اهل خراسان [الراوندية] عندما ظهروا امام مقره في الهاشمية ليمجدوه بوصفه تجسداً للذات الألهية ، وكان قد سعى الى تهدئتهم بالكلام الرقيق ، فأبَوْا . ولكن رجلاً فارسياً من مرو ، ومن رجال ابي مسلم المقربين اليه — واسمه حكيم — ما لبث ان ظهر سنة ٧٧٨ في اتباعه وادّعى انه التجسد الجديد للذات الالهية ، بعد موت مولاه . وإذْ كان يبرز دائماً للجماهير وعلى وجهه نقاب موشىً بالذهب يزعمون ان الغرض منه ان يحجب ، كنقاب موسى ، بهاء الذات الالهية عن العيون الدنسة غير الجديرة بالنظر اليه ، فقد عُرف في التاريخ بلقبه ، « المقنّع » . ومن قلعة سنام قرب كَشّ في ما وراء النهر ، استطاع هذا الثائر ان يُخضع الاقليم كله ، في حين كانت ثورة اخرى من ثورات الخوارج تندلع نيرانها في خراسان . والواقع ان الخليفة قد سيّر إليه جيوشاً عديدة فتغلب عليها . واخيراً وُفّق جند الخليفة الى حصاره في قلعته ، فما كان منه إلا ان اضرم فيها النار ، فالتهمته وزوجاته واتباعه (٧٨٠ م) . وكانت العقائد الشيوعية التي بشّر بها مَزْدَك ، في العهد الساساني ، قد بُعِثَت قبل عام واحد في مقاطعة جُرجان ، لِتنفجر من جديد في شكل ثورة خطيرة ، على عهد الرشيد .

وفي شمالي افريقية ايضاً ، حيث لم يمتد حكم المنصور ، في اغلب الظن ، الى ابعد من القيروان — على أيّ حال — شبّت ثورة جديدة من ثورات البربر . ذلك بأن هؤلاء القوم ، على الرغم من دخولهم في الاسلام ، ثبتوا في وجه جميع المحاولات الرامية إلى تعريبهم ، واحتفظوا بحسّ قوميّ لا يزال حيّاً الى الوقت الحاضر . ومن هنا وجد الخوارج الذين كادوا يُستأصلون في قلب الامبراطورية ، الارض صالحةً بين البربر لبثّ دعايتهم ونشر أفكارهم ، مرةً بعد مرة .

وكان المنصور قد عيّن بادىء الأمر ابنَ عمه عيسى بن موسى — الذي ادّى خدمات جليلة للدولة باخضاعه ثورات العلويين — خَلَفاً له في الحكم. حتى إذا شبّ ابنه المهديّ رغب في أن ينقل ولاية العهد اليه. وهكذا حمل عيسى على التنازل عن حقه في الخلافة واكرَهَهُ على ان يُحلّ الناسَ من يمين البيعة الذي اقسموه له سنة ٧٦٧. فلما توفي المنصور، في ٧ تشرين الاول، سنة ٧٧٥، وهو عائد من الحج — وكان مولعاً بأن يتولى موسمه بنفسه — رقيَ المهدي العرش، من غير ان يعترضه احدٌ.

المهدي يحارب الزنادقة

وعلى الرغم من جميع مظاهر الأبهة التي نجدها في عهد المنصور، والجديرة بملك شرقي عظيم، فقد استطاع هذا الخليفة بفضل اقتصاده الشخصيّ، أن يترك خزانةً عامرةً بالأموال. وهكذا كان في ميسور المهدي أن يحيا في بلاطه حياةً آخذة بنصيب صالح من الرّفه والنعمة. ولكنه بالأضافة الى ذلك، خدم الامبراطورية خدمات جلى بأنشاء شبكة من الطرق العامة، وتحسين نظام البريد. وانتهت بغداد، بفضل موقعها الممتاز، إلى أن تُصبح في عهده مستودعاً رئيسياً للتجارة مع الهند. ولقد أظهر المهدي، فوق ذلك، تبصّراً وحسن دراية برعايته للصناعات الوطنية. بيد ان الثورات المذهبية التي سبق ان اشرنا إلى اشتعالها في الولايات الفارسية حملت الخليفة على ان يراقب، بشدة بالغة، حياة رعاياه العقلية، في قلب الامبراطورية ايضاً. والواقع ان المانوية، لا الزرادشتية الخالصة، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على اولئك الذين دخلوا حديثاً في الاسلام ثم لم يرتاحوا ارتياحاً كلياً لشعائره الصارمة؛ بل لقد كادت تكون [اي المانوية] دينَ الطبقات المثقفة. ولقد سبق للمنصور نفسه ان امر بعبد الله بن المقفع، الكاتب، ان يُقتلَ. وكان عبد الله هذا (واسمه الفارسي رُوزبة) ابن رجل يجمع الخراج للحجاج بن يوسف. وكان من اتباع عيسى بن عليّ عم السفاح

والمنصور ، [وعلى يديه] اسلم . ولقد نقل الى العربية عن الفهلوية تاريخ الفرس ، خُدَايْنامه ، والترجمة الفارسية لكتاب الامثال الهندي الموسوم بـ « كليلة ودمنة » ، ووضع عدداً من الرسائل في الحكمة السياسية على ما جاء عند الايرانيين . ويقال انه اثار حفيظة المنصور عليه يوم كلفه [سليمان وعيسى ابنا عليّ] بأن يكتب صيغة امان يتعهد فيه المنصور بأن لا يغدر [بأخيهما ابي العباس عبد الله] ، عم المنصور ، فأعدّ صيغة غامضة [بالغ فيها وشدد] . وثمة مجال للشك في ان هذه التهمة التي نسبت الى ابن المقفع هي وحدها السبب الذي حمل والي البصرة على ان يُنزل به ما انزل من وحشي العقاب . فقد يكون أثار شبهات السلطان وشكوكه من طريق مشاركته في نشاط الفرس السياسي الديني ، هذا النشاط الذي اثقلَ ، كما رأينا ، كاهل المنصور ، وأنقض ظهره .

وفي عهد المهدي لقي المصيرَ نفسه ، صالح بن عبد القدوس ، الشاعر ، الذي دعا في أحاديثه الدينية بالبصرة دعوة صريحة الى ثَنوية الفرس . ولقد حاول ان يتفادى عاقبة النقمة التي أثارتها هذه الدعوة عليه في الاوساط الفقهية ، بالفرار الى دمشق ، ولكن رجال المهدي تعقبوه ، ورجعوا به الى عاصمة الخلافة ليصلب سنة ٧٨٣ بتهمة الزندقة بعد ان اصبح لفظ الزنديق عَلماً شائعاً على من يُنسب الى البدعة ، في ذلك العصر . والحق ان هذه الكلمة كانت على عهد الساسانيين ، صفة يُنبزُ بها كل من يجروُ على تفسير « الأبستاق » * تفسيراً جديداً ، غير رشيد ، (زَند) ، وكانت تُطلق على أتباع ماني ومزدك ، بخاصة . وفي السنة نفسها قُتل بشار بن بُرد ، الشاعر الضرير ، الذي لم يتورّع عن أن يصرّح في شعره بتعبده للنار ، كأسلافه . وإذ قد كان في الوقت عينه معروفاً بسلاطة اللسان ، لا يعفّ عن التعرض للخليفة نفسه ، في هجائه ، فقد عللت الرواية نهايته المفجعة

(*) أو « الأفستا » كما ترد في بعض المؤلفات الحديثة . (المعربان)

كما عللت نهاية ابن المقفع بهذا الزيغ السياسي . ومهما يكن من امر ، فحوالي ذلك الوقت بالذات عهد المهدي في ملاحقة الزنادقة إلى عامل خاص يدعى « العريف » . ويقال ان هذا العامل ظل ينشط اول الامر طوال سنوات ثلاث . حتّى إذا قضى المهدي وجاء من بعده خلفاؤه وُجهت همّة « ديوان التفتيش » هذا نحو محاربة الآراء المذهبية ايضاً ، ضمنَ إطار الاسلام الفكري نفسه ، وهي آراء كانت تزعج الحكومة لسبب ما ، وإن لم تكن تنطوي في ما عدا ذلك ، على أيّما أذى او ضرر .

بين موسى وهرون

وتوفي المهدي ، بعد حكم دام عشر سنوات ، فخلفه ابنه موسى ، سنة ٧٨٥ ، متخذاً لنفسه لقب الهادي . ولقد قاوم موسى نفوذ أُمه الخيزُران التي سبق لها ان شاركت مشاركة بعيدة في تصريف شؤون الدولة إبان خلافة زوجها ، وكادت تسيطر عليه سيطرة تامة . وكانت الخيزران قبل ذلك جارية بربرية . والحق ان موسى حاول ان يُكرِه أخاه هرون ، وكان أثيراً عند أُمه ، على التنازل عن ولاية العهد ، ولكن عبثاً . وفي ١٥ ايلول سنة ٧٨٦ قُتل الهادي وهو في دار حريمه ، قرب الموصل ، بتحريض من الخيزران ، ما في ذلك شك . وما عتمت أن ظهرت ، منذ هذه الساعة ، تلك الآفات التي أدت ، آخر الامر ، الى هلاك الاسرة العباسية .

وفي عهد الرشيد ، الذي امتدّ ثلاثاً وعشرين سنة ، بلغت الخلافة العباسية أوج سلطانها وقوتها(٥٤) . ولما كان الرّفه المادي قد انتهى في هذا العهد ايضاً ، الى غاية لم يسبق له ان بلغها من قبل ، فقد قويت نزعة الأجيال المتأخرة الى ان ترى في الخليفة هرون الرشيد ملكاً مثالياً ، وان تعزوَ الى مواهبه

---

(٥٤) راجع اوديسيو G. Audisio, Harun ar Rashid, Caliph of Baghdad, New-York, 1951. وراجع أيضاً ن. عبود N. Abbott, Two Queens of Baghdad, Chicago 1946.

الشخصية ما هو مدينٌ به لمجرّد الظروف المواتية في ايامه .

الرشيد والبرامكة

وعهدَ الرشيد الى وزرائه في تصريف شؤون الدولة كلها تقريباً ، في السنوات الأولى من حكمه . والواقع أن منصب الوزارة كان منذ عهد غير قصير وقفاً على آل بَرْمَك[٥٥] المتحدرين من اسرة كهنوت متقدمة في نوبَهار ، احدى الصوامع البوذية في بلخ . وقد ادعت الرواية الفارسية في ما بعد ، بدافع من النعرة القومية ، ان هذه الاسرة كانت من كهنة الفرس عبدة النار . فبعد مقتل ابي سَلَمَة استوزر السفاح خالد بن برمك ، أو على الاصح عيّنه عنده كاتباً اول . حتّى إذا كانت خلافة المنصور احتفظ خالد بالاشراف على الشؤون المالية ولمعَ اسمه ، بشكل خاص ، في بناء بغداد . ولكنه كان في الوقت نفسه جندياً بارعاً خدم ، أيام الشباب ، تحت لواء أبي مسلم وقَحْطَبَة . ليس هذا فحسب بل لقد وُفق سنة ٧٦٥ — ٧٦٩ إلى أن يقضي ، بوصفه والياً على طَبَرِسْتان ، على آخر إمارة وطنية في جبل دُماوَند ، واشترك في الحروب ضد البيزنطيين ، وهو في سن عالية . فكان طبيعياً أن يُفيد من هذه المناصب كلها ، شأن جميع الموظفين ، ثروة ضخمة . ومن هنا وجدنا المنصور ، قبيل وفاته ، يصادر[٥٦] منه حوالي ثلاثة ملايين درهم ، ثم يمنحه إمارة المَوصل التي كانت تُعد ، لقربها من الأكراد الآخذين بأسباب الشغب والفتنة ، منصباً ذا أهمية خاصة . وفي الوقت نفسه تسنم ابنه يحيى ولاية آذَرْبَيجان ، حتّى اذا كانت خلافة المهدي استدعي الى بغداد . وفي سنة ٧٧٧ ، عندما عُين هرون أميراً على الولايات

---

(٥٥)راجع بوفا L. Bouvat, Les Barmécides d'après les historiens arabes et persans, Paris, 1912.

(٥٦)لما كانت القروض الحكومية لا تزال غير معروفة ، لذلك العهد ، فقد كانت أمثال هذه الابتزازات ، التي خضع لويلاتها العمال والموظفون الذين أثروا من طريق الوظيفة ، تؤلف وسيلة مطردة لملء خزانة الدولة بعد فراغها . وكان عندهم اصطلاح خاص لذلك هو : «المصادرة».

الغربية بالاضافة إلى إرمينية وآذربيجان ، خطا يحيى خطوة جديدة نحو المجد إذ اصطنعه هرون رئيساً لامناء سره . والحق ان يحيى ظل مخلصاً لسيده يوم جهدَ الهادي في حمل هرون على التنازل عن ولاية العهد ، بل إن الرواية لتذهب الى انه فقد حريته ، فترة من الزمان ، بسبب من ذلك . فلم يكد هرون يلي عرش الخلافة حتى كافأ يحيى على اخلاصه فرفعه الى مقام الوزارة . وهكذا حكم هو وابناه ، الفضل وجعفر ، الامبراطورية الاسلامية ، من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٣ حكماً مطلقاً ، وان يكن قد خضع خلال السنوات الاولى من وزارته لرقابة شديدة من أمّ الخليفة . وبينا وُفق الفضل ، بوصفه اميراً على الولايات الشرقية ، إلى تحقيق انتصارات باهرة في الحقلين العسكري والعمراني ، ظل جعفر في العاصمة ، إلى جانب الخليفة الذي كان يقدّمه ويؤثره ، تاركاً أمر الولايات التي عُهد اليه بادارتها او على الاصح باستغلالها ، الى مندوبين من قِبله . وكان طبيعياً أن تؤدي هذه الصداقة الى ملل الخليفة ، مع الايام . وتعزو الروايات سبب الخلاف الاخير إلى حادثة غرامية محصلها ان الخليفة عقد لجعفر على اخته العباسة عقداً صُورياً حتى يكون في ميسوره أن يأنس بالاجتماع بهما في وقت معاً ، ولكن جعفراً أساء اصطناع هذه الحرية التي تمت له . فلم تكد أم الخليفة تقضي نحبها سنة ٧٩٠ حتى انتزع الرشيد ، على ما تقول المصادر أيضاً ، خاتم الدولة من جعفر ، وحوّل جزءاً من صلاحياته الى خصمه وخلفه ، الفضل بن الربيع . وفي أوائل سنة ٨٠٣ ، عندما قفل الرشيد من الحج — وكان يتولى إمرته في أغلب الاحوال بنفسه — أمر بجعفر أن يُقتل في ليل ٢٩ كانون الثاني ، ليعلق رأسه على الجسر المركزي ببغداد ، ويقطع جسمه نصفين يُعرض كلٌ منهما على واحد من الجسرين الآخرين . اما ابوه واخوته فاعتقلوا وصودرت ممتلكاتهم . ثم ان الرشيد نقل مقره ، بعد نكبة البرامكة ، الى الرَّقة على الفرات .

ولم يخل عهد الرشيد من ثورات تعاقبت في داخل الامبراطورية . ففي

سورية اندلعت نار الخصومة القديمة ، شديدة حامية ، بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، سنة ٧٩٦ . وفي دمشق اغتنمت السوقة فرصة الاضطراب للامعان في اعمال النهب والسلب . ولم يستتب الامن في تلك الديار الا بعد ان خرج جعفر بنفسه اليها ، وأمر بتجريد السكان جميعاً ، من السلاح .

الأغالبة في شمالي إفريقية

وتوالت الانتفاضات على عمال الخليفة ، في إفريقية ، من غير انقطاع . وهنا اعاد الامنَ الى نصابه ، بادىء الرأي ، ابراهيم بن الأغلب ، الذي قُتِل والده —وكان أميراً على إفريقية ، وأصله من مَرو الرُّوذ— في ثورة سنة ٧٦٧ . وفي سنة ٧٩٥ عُهد الى ابراهيم في الولاية على اقليم الزّاب الواقع جنوبي الجزائر على جانبيْ بِسكَرة . حتّى اذا طرد الثوارُ خلف ابيه [محمدَ] ابن مقاتل هرع ابن الأغلب الى نصرته سنة ٧٩٩ ، وببراعة فائقة أقرّ الأمن والنظام في تلك الأرجاء . فكافأه الرشيد على حُسن بلائه بأن كتب له بالعهد الى افريقية لقاء خراج سنوي قدره اربعون الف دينار . وفي الحال شرع ابن الاغلب في انشاء مدينة جديدة على ثلاثة اميال جنوبي القيروان ، دعاها العباسية وجعلها قاعدة لأمارته . فلما كانت السنة التالية صار في مقدوره ان يستقبل فيها سفراء شارلمان الذين جاءوا ، في الظاهر ، يطلبون آثار القدّيس سيبريون في حين ان هدفهم الحقيقي ، غير شك ، كان انشاء علاقات ديبلوماسية مع المسلمين ، واستمزاج ابن الاغلب في ما يتعلق بالقيام بعمل مشترك ضد اسبانية (٥٧) .

والحق ان الرشيد نفسه مدينٌ بشهرته في الغرب لعلاقاته الشهيرة مع ملك الفرنجة الكبير ، هذه العلاقات التي تذهب الرواية الى أنه انشأها هو نفسه من طريق وفد بعث به الى اكس لاشابل . وأياً ما كان ، فليس عند المصادر العربية ما تقوله في هذا الشأن . ولعل الامر كله لا يعدو ، في أغلب

(٥٧) انظر Eginhardi Annales Francorum, year 801.

الظنّ ، كون بعض التجار الشرقيين قد انتحلوا ، لدى شارلمان ، صفة السفراء الناطقين باسم الخليفة ، من غير تفويض(٥٨) .

واستمر النضال ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد ، ولكنه لم يُؤتِ من الثمرات شيئاً اكثر من إكراه الامبراطور نِقْفور بعد فتح هِرقلة ، سنة ٨٠٦ ، على التعهد بأداء جزية للمسلمين . وكان ثَمّة في ايران ايضاً اضطراب متصل . حتى اذا ثار رافع بن ليث في سمرقند ، سنة ٨٠٥ ، وبسطَ سلطانه على بلاد ما وراء النهر كلها ، اضطر الخليفة إلى أن يسير بنفسه لمقاتلته . ولكن الأجل لم يمهله ، فما كاد يبلغ طُوس في خراسان حتى مرض ومات ، يوم ٢٤ آذار سنة ٨٠٩

الشعر في العراق

وازداد مُلك هرون بهاء بما أطلعه الأدب العربي من ثمرات يانعة في أرض الحضارة البابلية القديمة الخصبة . فقد خلف شعراءَ البادية الذين استغرقت الخصومات القبلية والمنافسات التافهة معظم نشاطهم ايام الأمويين جيلٌ جديدٌ من شعراء الحواضر . وتكاثرت شواغل الناس ، فهم لا يجدون متسعاً من الوقت يفرغون فيه لقصائد الشعراء القدماء الطويلة المملة ؛ بل لقد فقدوا القوة على فهمها وتذوقها . فكان من الطبيعي أن يعمد الفن الجديد إلى تجزئتها ، محاولاً أن يغذُوَ كلاً من عناصرها المختلفة على حدة. وليس من شك في أن الافق الفكري لم يتسع [في الشعر الجديد] إلا قليلاً . فقد غنى القدماء الحب والخمر والطرد كما غناها المولدون ، وسخروا من خصومهم سخرية لاذعة كما كان يفعل المولدون . ليس هذا فحسب ،

---

(٥٨)أنظر شميت .F. F. Schmidt in Der Islam, III, 409-11
وانظر ايضاً بارتولد W. Barthold في المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٣٣٣ وما بعدها
والواقع أن المشرق لم يكن يعرف آنذاك ما ندعوه السلك الديبلوماسي بأكثر مما عرفته أوروبة
وكان المسلمون يعتمدون في أداء هذه المهام الديبلوماسية على الفقهاء ، في الأعم الأغلب .

بل لقد وُفق القدماء في بعض الأحيان إلى أن يوقعوا على أوتار أدعى الى استثارة الشجون ، وذلك في مراثٍ تندب الحياة الدنيا وتبكي زوالها. وكانت القصيدة الغزلية قد نهضت على ساقها وأصبحت فناً مستقلاً ، عهدَ عبد الملك ، في شعر عمر بن ابي ربيعة ؛ وكان الخليفة الوليد الثاني قد أحيا فن الخمرية. فلما نشأ الشعراء المولدون تعهدوا هذه الفنون كلها بالتنمية والتجويد. ولم يكتفوا باستعارة المحسّنات البيانية من لغة التخاطب العامة في عصرهم فحسب ، بل عدّوا ذلك ، في الأعم الأغلب ، الى الاستمداد من لغة البدو وكانت لا تزال تعتبر المثل الأعلى [في السلامة والفصاحة]. والحق ان مدائح الخلفاء ، والبرامكة جرت في معظم الاحوال على الأسلوب القديم ، حتى عند الشعراء الذين لا تنميهم اصولٌ عربية ، والذين عرفوا كيف يجيدون هذا الاسلوب ويتأتّون له برشاقة بارعة. فقد كان أشهر مدّاحي العباسيين ، مروان بن ابي حفصة ، حفيداً لرجل من يهود خراسان ، ولكنه كان ينزل اليمامة ، في العادة ، فلا يكاد يغادر البلاط ، بعد انشاد مدائحه في الخليفة ، حتى يفيء اليها من دون البلاد جميعاً. وكان خلَف الاحمر — وهو ابن عبد من فرغانة أعتقه سيده — من العلم بالشعر القديم والفناء فيه بمحلّ مكّنه من تقليده وروايته في الناس على انه من كلام الجاهليين(٥٩).

أما أشهر شعراء العصر ، ابو نواس — وهو ابن غسالة فارسية ، قضى أيام شبابه [الأوّل] في البصرة والكوفة — فكان متمكناً من العربية في جميع فروعها تمكناً عجيباً جعل الرواة يزعمون أنه لم يتمّ له الا من طريق الاقامة المتطاولة بين ظهراني الأعراب. ولكنه كان يفسح المجال ، في بعض قصائده ، لتعابير ينتزعها من لغة التخاطب اليومية. والذي لا شك

(٥٩) يرى كثير من علماء العربية أن خلف الأحمر هو واضع « لامية العرب » التي تنسبها الرواية الى الشنفرى ، أحد أبطال العرب اليمانيين ، قبل الإسلام ، والتي تعتبر من أشهر القصائد ، وأجملها في مقياس الذوق الأوروبي ايضاً (وقد ترجمها ردهاوس J. W. Redhouse سنة ١٨٨١ ، وهيوز G. Hughes سنة ١٨٩٦ ؛ قابل نيكلسون :
R. A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, p. 80.

فيه أنه كانت لهذا الشاعر موهبة اصيلة في الشعر الغنائي ، على الرغم من أنه كثيراً ما انقاد الى التحذلق السخيف . ولم يسلم شيء ، حتى الدين نفسه ، من استهتار ابي نواس في لهوه هذا . والواقع ان الاشارات البذيئة التي يحفل بها ديوانه ، في تصريح حيناً ، وفي تلميح حيناً ، لتدل دلالة واضحة على ذوق سامعيه الوضيع . والذي يظهر أن أبا نواس كان يمثل أيضاً دور النديم في البلاط وفي المجتمع البغدادي ، وهو الدور الذي لم يكن معاصره ابو دلامة ليجيد غيره[٦٠] . ولكن هذا العصر لم يعدم فريقاً آخر من الشعراء ، اخذوا بأسباب الجد وحاولوا أن يردعوا المجتمع البغدادي المنغمس في الملذات عن ضلالته . والمؤثرات النصرانية ظاهرة ، اوضح ما يكون ، في شعر ابي العتاهية الذي نَعِمَ ، وهو شابّ ، بحظوةٍ في بلاط الرشيد هيّأتها له قصائده الغزلية المستملحة ، لينقلب بعد الى تزهيد الناس في الحياة الدنيا بشدةٍ واندفاع بالغين ، حتى لقد أثار شكوك أولئك الذين أخذوا على عاتقهم تعقب الزنادقة .

ولقد قدّر للمغنيات اللواتي لعبن دوراً عظيم الأهمية في حياة بغداد الاجتماعية ، ان ينهضن بالنصيب الأوفى من خدمة الغزل الجديد ونشره في الناس ، شأنهن من قبل ، على عهد الأمويين ، في مكة والمدينة . وانقضت فترة تصدّر خلالها الحياة الفنية في بغداد وسامراء احد * ابناء الخليفة المهدي من جارية ديلمية ، وكان من هواة الموسيقى ؛ وتذكر الروايات انه احدث فيها احداثاً كثيرة زادت في الثروة الفنية . أما في عهد الرشيد وخلفائه فقد تزعم الحركة الموسيقية في العاصمة ابراهيم بن ماهان الموصلي ، ابن احد ملتزمي الخراج ، وولده إسحق . وكان كلٌّ منهما يدرب الجواري ويخرّجهن في الغناء ثم يبيعهن بأثمان عالية . والادب العربي حافل بالقصص الغرامي

---

(٦٠)من شخصية أبي دلامة هذا استوحى فون وبر C. M. von Weber الفكرة الرئيسية في الأوبرا التي وضعها باسم « أبو حسن » Abu Hasan

(*) هو إبراهيم بن المهدي (المعربان)

اللطيف الذي يتحدث عن هؤلاء الجواري ومحبيهن العاجزين عن النهوض بما يكلفهم اياه مالكو الجواري من مطالب فاحشة ، في بعض الاحيان .

والواقع ان العربية كانت لا تزال هي لغة الادب والتأليف ، غير منازعة . ومع ذلك فقد ظهر عددٌ من الشعراء ، الفارسيي الاصل ، الذين افتخروا في منظومهم ، جهاراً ، بتراث الآباء والاجداد ، ومجّدوا الفرس على حساب العرب . ولقد برزت هذه النزعة ، في صوره أشدّ وأوضح ، في النثر الذي كانت تتفتح براعمه في الوقت نفسه . فقد وضع رجل فارسي يدعى علاّن ، وكان نسّاخاً في مكتبة البلاط ايام الرشيد والمأمون ، كتاباً خاصاً حشر بين دفتيه مثالب القبائل العربية المشتركة في الشعر القديم ، فلُقب من اجل ذلك بالشعوبي ، أي المدافع عن تساوي الامم في الحقوق . كذلك تمثلت النزعة نفسها في عدد وافر من آثار ذلك العصر الكتابية (٦١) .

النحو وفقه اللغة

ولعل من اقوى الشواهد على مدى السيطرة التي كانت لا تزال للغة العربية ولماضي العرب العظيم على الحياة الفكرية في ذلك العهد هذين العلمين اللذين انصبّ عليهما اهتمام المثقفين آنذاك : فقه اللغة والتاريخ . فأما أولهما فكانت نشأته ذات صلة بالقرآن . ذلك بأنه كان من الضرورة الماسة ان يفهم هذا العددُ الغفير من الداخلين حديثاً في الاسلام ، والناشئين في بيئات لا تتكلم العربية ، كلامَ الله فهماً كاملاً ، وأن يُحسن أداءه في الصلاة المفروضة . ليس هذا فقط ، بل لقد كان من الضرورة الماسة ان تُمهّد السبيل امام هؤلاء الاعاجم الى امتلاك ناصية الدقائق المعنوية في العربية ، والتضلع من متنها الزاخر بالمفردات . والواقع انه كان يتعين على من يرغى

(٦١) أنظر جولدزيهر I. Goldziher, **Die Shu'ubijja und ihre Bekundung in der Wissenschaft**, in **Muhammedanische Studien**, I, Halle, 1889. p. 147 — 208.

في ان يحتل مكانة ما في المجتمع البغدادي ان تتم له معرفة دقيقة بالشعراء الجاهليين الذين ظلت اشعارهم النموذج المحتذى في حلقات الأدب ، وان تتم له القدرة على النظم على طريقتهم ايضاً . وهذا هو السبب الذي جعل معجم الخليل [بن أحمد] البصري اساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره . صحيح ان ترتيب هذا المعجم الكبير بحسب مخارج الحروف ، مبتدئاً بالعين التي هي اعمق حروف الحلق (ومن هنا دُعي «كتاب العين» وحسب) لم يلبث ان أثبت عدم صلاحه . فاطرحته الحلقات الأدبية ؛ ولكن طريقته الذاهبة الى شرح المفردات على اساس الشواهد الشعرية استطاعت ان تفرض نفسها على جميع المعاجم التي تلت . كذلك بدأت دراسة النصوص الشعرية نفسها في وقت مبكر ايضاً ، وكانت تستهدف البحث في مؤسسات الحياة البدوية وأوضاعها التي تؤلف قوام القصائد الجاهلية ، والتي كان اهل المدن يجهلونها ، في الجملة ؛ وتقصد الى جمع الاخبار المتصلة بالشعراء انفسهم ، لتنتهي آخر الأمر الى محاولات في تقويم الاثر الادبي وتعيين منزلته الفنية . وتنسب الروايات الى الخليل ايضاً اختراع العروض ووضع نحوٍ هو ، بالرغم من اعتماده على منطق ارسطو ، ثمرةٌ مستقلة كل الاستقلال من ثمرات الحضارة الجديدة . ثم إن سيبويه الفارسي ، احد تلاميذ الخليل ، قام بخدمة جليلة عندما وضع هذا العلم في صورة نظامية جرت عليها الأجيال المقبلة ، ولو ان الاسلوب الذي اعتمده كان بعيداً عن التوفيق . وكان ينافس سيبويه في علم النحو احدُ قراء القرآن [السبعة] ، الكسائي الكوفي ، الذي سبق له ان علم الرشيد نفسه ، ثم عهد اليه الرشيد في تأديب ولده الأمين . وفي بعض الروايات ان تلميذ الكسائي ، الفرّاء ، درّس تفسير القرآن في مسجد الكوفة . ومهما يكن من شيء ، فقد كان اكثر مقامه ببغداد . والمقول انه وضع مؤلفه في الحدود النحوية (ولم يصلنا هذا الكتاب) في قصر المأمون . وقد افترض العرب فيما بعد ، استناداً الى روايات التاريخ الأدبي ، أن الخلاف كان قائماً بين مذهبين لغويين — هما مذهب البصرة ومذهب الكوفة —

وان هذا الخلاف لم يُسوّ إلا بعد أجيال عندما اندمج المذهبان وتوحدا في مدرسة بغداد . ولكن الذي يظهر لنا أن المنافسات الفردية بين علماء هاتين المدينتين — البصرة والكوفة — قد بولغ فيها إلى حد لا مبرر له .

التاريخ

فإذا انتقلنا إلى العلم الثاني وجدنا أن العناية بالرواية التاريخية كانت شديدة جداً ، حتى في بلاد العرب قبل الاسلام . والواقع ان بلاد العرب لم تعرف الملاحم الشعرية ، فاذا بالحكايات عن ايام القبائل وثاراتها الناشئة في الغالب عن بواعث تافهة جداً تحل محل هذه الملاحم ، وتُحيي ذكراها في أشعار توضع على ألسن الأبطال . فلما استطارت الفتوح كان فيها لهذا الفن حافز غير متوقّع . وكانت القبائل المختلفة قد ضفرت من ملاحمها أكاليل الفخر ، مشيدة فيها بالدور الذي لعبته على مسرح المنازعات بين الامم . والحق ان هذه المآتي قد جُمعت وصنفت ، على شكل كتاب ، حتى في عهد الامويين . فأخرج احد افراد قبيلة الازد في الكوفة ، أبو مِخنف لوط بن يحيى ، هذه الاخبار في ترسّل رائع ينتظم اكثر من ثلاثين مقالة مستقلة ، تتألف كلٌّ منها في الاعم الاغلب من مشاهد مفردة ومحاورات . ونحن مدينون في بقاء مقالات ابي مخنف هذا وعدم ضياعها لمحمد بن السائب الكلبيّ ، احد علماء الكوفة وبصورة أخص لابنه هشام الذي نقل الطبري عنه هذه المقالات ، في تاريخه الكبير . وكان محمد بن السائب يعنى عناية خاصة بانساب القبائل العربية ، وقد حاول أن يحدد سني حكم اللخميين في الحيرة من النقوش التي على قبورهم ، والتي كانت لا تزال مصونة ، لعهده ، في كنائسهم . اما هشام ، الذي جمع آثار ابيه بين دفتي كتاب ضخم في الأنساب لا يزال باقياً الى اليوم ، فتذهب الروايات الى انه اكتسب عطف المهدي بمؤلف في مثالب الامويين أملاه على احد كتاب الخليفة ، وبذلك استطاع عماله ان يردّوا على رسالة مهينة كان قد بعث بها صاحب الاندلس [عبد الرحمن

الرحمن الداخل] . ليس هذا فحسب ، ولكننا مدينون لهشام ايضاً بمعلومات قيمة عن ديانة العرب الوثنيين في كتاب له آخر دعاه ، بوصفه مسلماً صالحاً ، «كتاب الاصنام» . وعلى الرغم من ان ابا مخنف ، بما هو كوفي ، كان يميل الى عليّ فأن أخباره لم تُظهر هذا التشيع شأن المؤلفات التي نسبت اليه بعد زمن طويل في ما يتصل باستشهاد الحسين في كربلاء ، وبالمختار ، النبي الكاذب . والواقع أن النزعة الشيعية اصرح واشف تقنعاً في تاريخ موقعة صفين الذي كتبه نصر بن مزاحِم المتوفى بالكوفة سنة ٨٢٧ ، ولقد انتهى الينا في نصه الاصلي ولا يزال يتلى الى اليوم ، في الدوائر الشيعية ، كسيرة قومية . وفي عهد الرشيد ظهر سيف بن عمر الاسدي ، ايضاً . ولقد صرف همته في تأريخه للفتوح ولارتداد العرب (بعيد وفاة الرسول) ولواقعة الجمل ، الى تمجيد قبيلته ، تميم ، وكان مولعاً بالخوض في المحسنات والتزاويق الخيالية . ومهما يكن من شيء ، فقد أُعجب الطبري اعجاباً شديداً بتاريخ سيف بن عمر هذا – وليس محل ثقة في التفاصيل على الاطلاق – حتى لقد اعتمده من دون سواه تقريباً ، وبذلك أضلّ المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه في تآليفهم .

اما المدينة فتميزت ، على العكس ، بالبحث التاريخي الدقيق . وكان ابو معشر الذي جاءها بادىء الامر ، كمولىً من موالي الهند والذي استقرّ بعدُ في بغداد ، هو اول من صنف كتاباً عن غزوات الرسول . وكان معنياً في الدرجة الاولى بتحري الدقة وتحقيق الأخبار . وتأسّاه في ذلك محمد ابن اسحق الذي قصد ايضاً الى بغداد ليتجنب ، في ما يبدو ، عداوة العلماء الذين حصروا اهتمامهم بالاحاديث الفقهية دون سواها . وهناك وضع للمنصور اول سيرة كاملة للرسول . وانما وصلتنا هذه السيرة في رواية متأخرة . فلما كانت خلافة الرشيد أتم هذا العمل الواقديّ ، مولى يحيى البرمكي . وكان الواقدي يُسرّ في ذات نفسه الولاء لعلي وآله ، ولكن ما صنفه من مغازي الرسول وفتوح البلدان لم يفسح له في مجال الاعراب

عن ولائه هذا . ثم ان تلميذه وكاتبه ابن سعد جمع في «كتاب الطبقات» الاخبار المتصلة بالنبي ، وصحابته والتابعين ، فعجل ذلك في ظهور كتب السيرة التي بالغت الاجيال المتأخرة في غربلة مادّتها وتنخّلها مبالغة بعيدة ، والتي ندين لها – بالاضافة الى كثير من الهراء الذي لا قيمة له – ببعض المعلومات ذات القيمة الكبيرة في التاريخ الثقافي . والواقع ان معالم التاريخ كلها ، حتى عند ابي معشر والواقدي ، اقتصرت على سني الخلفاء ، وشؤون عُمالهم الادارية ، وامراء الحج والصائفات ضد البيزنطيين . وقلما ازدانت هذه الكتب بشيء من تفاصيل الحوادث المهمة . ثم جاء الطبري ، المولود في آمُل من اعمال طبرستان ، فأتم العمل الذي بدأه سابقوه – ولعله اعتمد ايضاً اخبار سني الفرس الرسمية – وبذلك امسى اعظم مؤرخي الامبراطورية . والواقع ان الطبري استهل تاريخه بعصر ما قبل التوراة ، وفقاً للروايات الاسرائيلية المتأخرة التي جمعها مفسرو القرآن ، مضيفاً الى ذلك مختاراً من ترجمة ابن المقفع لكتاب خداينامه الفهلوي . أما في تاريخ الاسلام فاعتمد المصادر التي سبقت منا الاشارة اليها مردداً ما جاء فيها بأسانيده كلها . وبالاضافة الى هذا التاريخ الكبير صنّف الطبري تفسيراً واسعاً للقرآن اعتمد فيه جميع المصادر التي في متناوله . بيد ان غاية الغايات التي كان يطمح اليها الطبري هي إنشاء مذهب فقهي مستقل . ولقد تمّ له ذلك ، ولكن مذهبه لم يُعمر دهراً طويلاً .

الصراع بين الأمين والمأمون

وما كاد الرشيد يلحق بالرفيق الاعلى حتى خيف على الامبراطورية أن تنقسم شطرين (٦٢). وتفصيل ذلك ان الرشيد نفسه كان قد سمى ولده الأكبر محمداً الأمين ، ابن زُبيدة حفيدة المنصور ، ولياً للعهد واميراً على

(٦٢) راجع غابريالي G. Gabrieli, La successione di Harun ar-Rashid e la guerra fra al-Amin e al-Mamun, Rivista di studi orientali, 1929.

سورية في الوقت نفسه ، ولكنه عهد بالولايات الشرقية إلى ولده الآخر ، عبد الله المأمون ، وكانت أُمه أمَة فارسية ، بعد أن نص على انّ ايّ اعتداء يقوم به الأمين على حقوق اخيه يترتب عليه فقدانه العرش . ثم إن الرشيد عين ولداً له ثالثاً ، يدعى القاسم ، أميراً على الجزيرة الفراتية ، فتقلصت بذلك سلطة المأمون وضاقت . ومع ان الأمين عمد عقب ارتقائه عرش الخلافة الى جعل إمارة القاسم مقتصرة على قِنسرين فحسب ، فانه لم يجرؤ على التعرض للمأمون ، على الرغم من تحريض وزير ابيه الفضل بن الربيع . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فقد اضطر المأمون ، بادىء الامر ، الى التسليم بحقوق اخيه ، فيما كان وزيره الفضل بن سهل يستحثه على توحيد الامبراطورية . والواقع انه كان لا يزال يخشى الخطر الذي يتهدد الدولة من المشرق . فقد قُدّر لاهل التُبّت ، إبان الفتوح العربية في آسية الوسطى ، ان ينتصروا في سلسلة من المعارك ضد الصين ، بمعونة عرب كاشْغَر ولكنهم ، اي التبّتيين ، انتهوا بعد إلى ان يستشعروا الخطر من تقدم القوى الاسلامية ، ومن هنا ناصروا رافع بن ليث في ثورته بسمرقند ، فهم يهددون الآن بالهجوم على بلاد ما وراء النهر . بيد ان المأمون اضطر سنة ٨١٠ الى ان ان يلقي بالتحفظ عرض الحائط ، عندما اخذ الأمين يذكر اسم ابنه موسى في خطبة الجمعة ، بالاضافة الى اسم المأمون ، مثيراً بذلك شكوك هذا الاخير ومخاوفه ، في ما يتصل بولاية العهد . حتى اذا ذهب المأمون الى ابعد من ذلك وقطع جميع علاقاته ببغداد ، أعلن خلعهُ وعهد الى قائد جيوشه علي بن عيسى في اتخاذ جميع الاجراءات الضرورية ضده . بيد أن علياً هذا ما لبث ان قُتل في موقعة جرت بين قواته وجيوش المأمون ، يقودها طاهر بن الحسين ، في الريّ . وإنما كُتب النصر في تلك الموقعة لجند المأمون ، فلم يكن من الامين إلاّ أن بعث بجيش جديد كان نصيبه التشتت ايضاً . وعندئذ رفض الجند الذين وجههم الى الشرق للمرة الثالثة ان يتقدموا الى أبعد من خانِقين ، على الحدود العراقية . ليس هذا فحسب ، بل لقد

نشبت الثورات ضد الأمين في سورية ، وحوصر هو وأمه في العاصمة من قبل الحسين ابن قائده عليّ الذي قضى في الريّ ، ولكنّ نفراً من الذين أقاموا على الاخلاص له عادوا فأنقذوه من إساره . ولم تكد بلاد العرب تبايع المأمون حتّى انتهى قائداه طاهر وهَرْثَمَة إلى ابواب بغداد . وتساقطت المدينة منطقة اثر منطقة في ايديهما ، فاضطر الأمين ، آخر الأمر ، الى الاستسلام . وعلى الرغم من ان هرثَمَة قد أمّنه على حياته ثم سار به من قصره ، في اواخر ايلول سنة ٨١٣ ، على حرّاقة ، فقد هاجمه رجال طاهر وقتلوه .

الدولة الطاهرية

ومكث المأمون ، بادىء الأمر ، في مرو ، على الرغم من أن هذا النّصر الذي تمّ له جعله سيّد الامبراطورية الأوحد . فاغتنم العلويون فرصة غيابه عن العاصمة وشرعوا يصطادون في الماء العكر . وهكذا خرج بالكوفة محمد ابن ابراهيم بن طَبَاطَبا ، في اوائل سنة ٨١٥ ، وادّعى الخلافة ، ولكن هرثمة لم يلبث ان هزمه في سهولة ويُسر . والظاهر ان هرثمة نفسه انتهى ، بعد هذا النصر الجديد ، الى ان يكون خطراً على الخليفة ووزيره فأمرا به أن يُعتَقَل ، بُعَيْد دخوله مروَ ؛ وما هي إلا فترة وجيزة حتى أمرا بقتله فقُتِل . اما طاهر بن الحسين ، وكان يستحق من الخليفة المثوبة بمقدار ما استحقها هرثمة ، فقد أُرْسِل على رأس جيش هزيل الى الرقة ، على الفرات ، حيث كانت الثورة تلي الثورة . وفي سنة ٨١٧ دعا البغداديون المنصور ابن الخليفة المهديّ الى تولي السلطة ، فلم يستجب المنصور لهم بل أقام على ولائه للخليفة وسعى الى اقرار الأمن باسمه* . وحسبَ المأمون ، غيرَ شكّ ، أن في استطاعته اكتساب عطف العراقيين اذا عقد لعليّ بن موسى الرضا على ابنته ، وسمّاه ولياً للعهد . والواقع أنه أقدم على هذا الصنيع في آذار

(*) أي باسم الخليفة

سنة ٨١٧ ، باشارة من وزيره الفضل بن سهل واستبدل ، في الوقت نفسه ، رايات العلويين الخُضْر ، برايات العباسيين السود . ولكن العراقيين أبوا مبايعة عليّ ، ونادوا بابراهيم بن المهديّ ، الموسيقي الهاوي ، خليفة عليهم ، في ٢٤ حزيران فاضطرّ المأمون عندئذ الى ان يتخذ اجراءات فعالة في مركز الامبراطورية . وتذهب الروايات الى ان الفضل بن سهل كان يخدعه في الايام السالفة ، بتقارير كاذبة عن احوال العراق زاعماً ان صهره العلوي كان اول من كشف له عن حقيقة الحال هناك . ولم تكن الأمور في الشرق أدعى الى اطمئنان المأمون من الأمور في العراق . ذلك بأن العقائد التي بشر بها ابو مسلم وتلميذه المقنّع ، وهي القائلة بتناسخ الأرواح وتجسد الذات الالهية ، لم تلبث ان بُعثت في أذربيجان على يد بابَك [الخُرَّمي] الذي اجتمع حوله خلقٌ كثير واتسع سلطانه حتى لأوشك ان يعزل المقاطعات الفارسية عن الغرب . ومهما يكن من شيء فالواقع ان المأمون انطلق في سبيله الى طُوس مباشرةً ليستمد القوة من طريق الصلاة على ضريح ابيه الرشيد . وبينا هو في بعض الطريق قُتل وزيره ، وهو في الحمام ، بمدينة سَرْخَس * وفي طوس أيضاً توفي صهره من جراء اضطراب هضميّ في ما يظهر ، ولكن الراجح أن يكون قد دُسّ له السم فمات . وهناك دُفن في جوار هرون ؛ وإذ قد رفعه الشيعة ، في الحال ، إلى مرتبة الشهداء ، فان مدينة جديدة لم تلبث ان نشأت حول مزاره ، باسم « المشهد الرضوي » أو « المشهد » ، لتحل بعدُ محل طوس القديمة بكاملها ، وهي تُعد اليوم أعظم الاماكن الشيعية المقدسة بعد كربلاء (٦٣) واذ غلبت السوداءُ بعيد ذلك ، على الحسن

(*) وجاءت أيضاً « سرخس » بفتح ففتح فسكون (المعربان)

(٦٣) راجع سايكس P. M. Sykes, The Glory of the Shia World, the Tale of a Pilgrimage Translated, London. 1910. 234 - 57.

وراجع ديز Diez, Chorassanische Baudenkmaler, Berlin, 1918, p. 89 ff.

وكذلك راجع ستروثمان R. Strothmann, Die Zwölferschi'a, Leipzig, 1926, p. 171.

[بن سهل] اخي الوزير الفضل وأمير العسكر في واسط آنذاك (وكان العراقيون يكرهونه كرهاً شديداً) ، وتغير عقله حتّى شُدّ في الحديد وحبس في احد البيوت ، بحجة من هذا الاختلاط العقلي ، فقد خلع اهل بغداد ابراهيم بن المهدي ودعوا للمأمون بالخلافة ، فدخل العاصمة في آب سنة ٨١٩ . ولم يكد ينسحب من خراسان حتّى رفع الخوارج راية الثورة فيها . فعهد المأمون في إخمادها إلى طاهر ، الذي وُفق خلال فترة قصيرة إلى اقرار النظام في المقاطعة كلها . بيد ان طاهراً لم يلبث ان نازعته نفسه الى الاستقلال ، بعد ان استشعر انه قد أمسى في مأمن من الخليفة ، في تلك الديار النائية ، فأغفل سنة ٨٢٢ الدعاء له في خطبة الجمعة . وعلى الرغم من ان هذا الاغفال كان بمثابة الثورة الصريحة على المأمون فانه لم يجروْ على ان يرفض تعيين طلحة بن طاهر أميراً على خراسان بعد وفاة أبيه . واحتفظ أبناء طاهر وأحفاده ، الذين سيمرّ بنا ذكرهم بعد ، بسلطانهم هذا نحواً من قرن بطوله . والواقع ان هذه الأحداث أفقدت الامبراطورية الاسلامية أقصى ولاياتها الشرقية ، كما افقدتها اقصى ولاياتها الغربية (٦٤) .

ولمع من ابناء طاهر علم آخر ، اسدى للامبراطورية خدمات جلى في الولايات الغربية . ذلك هو عبد الله الذي استطاع القضاء نهائياً على نصر ابن شبث . وكان نصرٌ هذا من أنصار الأمين ، وكان قد استقلّ بعد وفاة سيده بأقليم حلب ، وظل على ذلك حتّى سنة ٨٢٥ عندما هزمه عبد الله . ثم إن المأمون كلف ابن طاهر إقرار الأمن والنظام في مصر ، حيث كانت نار الفتنة القديمة قد اندلعت بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، كرّة أخرى ، إبان الحرب بين الأخوين ؛ وقد ناصرت القيسية الأمين ، وناصرت

(٦٤) انظر روثشتاين W. Rothstein, **Zu asch - Schabustis. Bericht über die Tahiriden (Orientalische Studien, Th. Nöldeke gewidmet), Giessen,** 1906, I. 155 - 170.

وانظر ايضاً بارتولد W. Barthold, **Turkestan Down to the Mongol Invasion,** London, 1928, 207-22.

الكلبية المأمون. ولم تكد وحدة الامبراطورية تستقر ثانية حتى اندلعت القلاقل مرة اخرى عندما اقبلت جماعة من الاندلسيين (كان قد طردهم أمير الاندلس الاموي منها) واستولوا على الاسكندرية. ولكن عبد الله استطاع في فترة وجيزة إكراههم على الانسحاب إلى إقريطش، وإقامة الآلة الحكومية من جديد. وكان إرث اخيه طلحة في خراسان قد انتقل اليه، بعد وفاته. وكان المعتصم، وليّ العهد، قد تولى إمارة مصر. حتى اذا نشبت فيها ثورة القبط فعجز عن قمعها وحده، طلب المأمون الى عبد الله ان يتدخل شخصياً ويخمد نار الفتنة.

وكان المأمون يعهد بقيادة الحملات الحربية، في أواخر أيام خلافته، الى كبار رجاله العسكريين، في العادة. ومع ذلك فقد اضطر إلى أن يستأنف النضال ضد البيزنطيين بنفسه. ولعل المساعدة التي واصل البيزنطيون إسداءَها إلى بابك، المقيم على الثورة في آذربيجان بعد أن أخفقت جميع المحاولات للقضاء عليه، كانت هي الدافع الذي حمله على مهاجمة آسية الصغرى في آذار سنة ٨٣٠. وهكذا اشترك الخليفة ثلاث سنوات متعاقبة في حملات الصيف ضد البيزنطيين [الصوائف]. وتابع المعركة أيضاً بعد ان التمس الامبراطور تَوْفيل * الصلحَ سنة ٨٣٢ عقب سقوط « لؤلؤة »، امنع الحصون البيزنطية على الحدود قرب طرسوس. وفي آب سنة ٨٣٣ توفي المأمون في البُدَنْدون قرب طرسوس، في أثناء حملته الثالثة على البيزنطيين.

النهضة العلمية في عصر المأمون

وليس من شك في انه قدّر للمأمون ان يخدم الثقافة الاسلامية خدمة جلى خلال العشرين سنة من مقامه في بغداد، من طريق اهتمامه الشخصي بعلوم اليونان. والواقع ان دراسة هذه العلوم لم تنقطع يوماً من الايام في الاديرة السورية. ذلك لأن لاهوت آباء الكنيسة الاغريقية، وفي جملتهم

(*) Theophilus

ثاوَدُورُس المصِّيصي ذو الاثر العظيم في التفسير النسطوري للكتاب المقدس ، لم يكن ليفهم من غير الرجوع الى المصطلحات التي استمدها هذا اللاهوت من الفلسفة الارسطوطاليسية . ولكن الرياضيات والعلوم الطبيعية استطاعت دائماً ان تحظى ببعض الاهتمام ايضاً ، على الرغم من ان العناية بالمسائل الفكرية كانت محصورة عند السوريين في ايدي رجال الدين . وعلى الرغم من ان مدرسة الاسكندرية الطبية ، ذات الروح الفلسفية ، كانت قد لفظت انفاسها الاخيرة بعيد الفتح العربي الذي قطع ما بينها وبين بيزنطة ، فقد واصل السوريون في انطاكية وحرّان حماية تراثها وتنميته ، ونقلوه الى بغداد . والواقع ان اثر الكلية الطبية التي انشأها الساسانيون ، قبل ذلك ، في جُندِيسابور * من اعمال السوس ، كان أعظم من هذه الناحية . فمن هناك جاءت اسرة بَختيشُوع الشهيرة بمن انجبت من كبار الأطباء ، كجرجيس ابن جبريل الذي عالج الخليفة المنصور في بغداد ، وغيره ممن لمعت اسماؤهم في هذه الصناعة بعد عهد المنصور أيضاً ، وفي بغداد التقى الطب اليوناني بالطب الهندي على صعيد واحد . فقد سبق لهرون الرشيد نفسه ان استدعى مرة الطبيب الهندي مَنْكَه الى بغداد ، كما سبق للبرامكة أن أمروا بنقل بعض كتب الطب الهندية الى اللغة العربية (٦٥). فلما كانت خلافة المأمون لقيت هذه الجهود كلها عطفاً منه ورعاية . فلقد حاول أن يجمع في مكتبة بلاطه الموسومة ببيت الحكمة ، كنوزَ العلم الاسلامية إلى كنوز العلم الأجنبية ، وأمر بأن تُشترى المصنّفات اليونانية من آسية الصغرى . وفي عهده استهل ابو يوسف يعقوب الكِندي — « فيلسوف العرب » ، وأحد العقول الكبرى

(*) ووردت ايضاً بفتح الدال .

(٦٥) انظر براون E. G. Browne, **Arabian Medicine**, Cambridge, 1921.
وانظر ايضاً ميرهوف M. Meyerhof, **Von Alexandrien nach Bagdad, ein Beitrag zur Geschichte des philosophischen und medizinischen Unt.rrichts bei dem Arabern Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften, 1930.**

في تاريخ العالم ، كما دعاه كاردانو * سنة ١٥٥٢ — نشاطَهُ الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطاليسية والافلاطونية الجديدة من طريق الترجمة والاقتباس فحسب ، بل عدا ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرجَ من دراساتٍ في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبةٍ بروح تلك الفلسفة . والواقع ان الكِندي قد أثبت أنه ابن بيئته عندما عُنّي بالتنجيم وبكشف الغيب ، كعلمين من العلوم الجدية الخالصة . وعلى الرغم من وقوفه موقفاً سلبياً في ما يتصل بالدعاوى الخادعة التي كان يقول بها رجال « الكيمياء » في عصره ، فأنه لم يجد ايّما غضاضة في ان يُعنى بتقطير العطور . ليس هذا فحسب بل لقد عُني كذلك بعلم الحرب فوضع رسالةً ذكر فيها ما يزيد على خمسة وعشرين ضرباً من ضروب السيوف وَفْقاً لمصدر انتاجها من اليمن الى سرَنْديب (سيلان) حتى فرنسة والروسيا ، ووصفَ خصائص شَفَراتها كلٍّ على حدة ، وعَرضَ لبعض الفوائد في ما يتعلق باعادة طبع السيوف المفلولة ، بواسطة التبريد التدريجي (٦٦) .

وحظيت الرياضيات وعلم الفلك باهتمام خاص في بغداد . فترجم الحجاج بن يوسف بن مطر للخليفة المأمون مصنفات أُقليدُس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب بالمجَسْطِي ، وكان قد رفع الى الرشيد ترجمةً لكتاب « الأسطُقُسّات » (العناصر) لأقليدس . ولقد استعين في هذا الباب بالعلوم الهندية ايضاً . فقد سبق لابراهيم الفَزَاري أن ترجم للمنصور كتاب الفلك الهندي الموسوم بـ « السند هند » . ثم جاء محمد الخُوارِزْمي فلخّصه للمأمون . والخُوارزمي هو الذي اقتبسَ كتاب بطليموس في صورة الارض ، ووضع

(*) Gardano

(٦٦) انظر وليدي **A. Zeki Validi, Die Schwerter der Germanen nach arabischen Berichten des 9. bis II Jahrhunderts, Zeitschrift der Deutsch. Morg. Ges. 90, 1937, 20.**

اول كتاب مستقل في الجبر . ومن هنا ، فأن اسمه لا يزال خالداً إلى اليوم في كلمة algorithm * التي تعبر عن طريقة من طرق الحساب . وكانت للمأمون ايضاً معرفة بالمشكلات العملية في علم الفلك ، فقد أمر بمراجعة جداول بطليموس الفلكية [زيج] على اساس ملاحظات أجريت في بغداد ودمشق في آنٍ معاً ، كما أمر بقياس درجة من خط الهاجرة .

الحديث والفقه

كان موقف المأمون من مشكلات عصره اللاهوتية مماثلاً لموقفه من العلوم اليونانية ورعايته لها . والواقع أن الجهود الروحية انصرفت ، اكثر ما انصرفت ، خلال القرنين الاولين للاسلام ، الى محاولة التوفيق ما بين المثل اللاهوتية القائمة على أساس القرآن والسنة من ناحية ، والحقيقة من ناحية ثانية . فعلى الرغم من ان مصحف عثمان قد حسم الخلاف حول نص القرآن في وقت مبكر جداً ، فقد ظلت المسائل المتعلقة بقراءة هذا النص على وجه الصحة تشغلُ العلماء جيلاً بعد جيل . ولقد سبق لنا ، غير مرة ، ان رأينا قارئي القرآن يتعصبون للمذاهب السياسية ، حتى اذا تعاقبت الايام احتفظوا بنفوذهم في الحياة العامة . وكان تفسير القرآن لا يزال خاضعاً ، في الاعم الاغلب ، لسلطان القُصّاص الذين ظهروا قبل ذلك ، عهدَ الامويين ، والذين كانوا كثيراً ما يرافقون الجند ، أيام الحروب ، ليبعثوا في نفوسهم الحماسة بما يروونه على مسامعهم من قصص البطولة المنتزعة من تاريخ الانبياء . أما في ايام السلام فكان اهل التقوى يتحلقون حولهم في المساجد ، كما كانت جموع المتبطلين تحتشد حول زملائهم من القصاص في زوايا الشوارع ، سواء بسواء . ولدينا نصٌ يرجع الى القرن الثاني للهجرة يفيد أن أحد العراقيين كان يفسر القرآن للعرب والفرس ، وقد جلس الاولون الى يمينه ، والآخرون الى يساره ، باللغتين العربية والفارسية . وإنما كان هؤلاء يستعيرون في معظم

(*) ولا صلة لها بجداول اللوغارثم (logarithm) كما يتوهم بعضهم . (المعربان)

الأحوال ، مادة تفاسيرهم من القصص التلمودي المفسر لحوادث التوراة عند اليهود ، ومن الاساطير النصرانية التي انتهت الى علمهم بعد أن حُرّفت بسبب تعدد الروايات . ومن هذه الينابيع استقى محمد الكلبي أيضاً في تفسيره للقرآن ، وهو الذي تحدثنا عنه آنفاً بوصفه أحد رواد التأليف التاريخي عند العرب . وكان مُقاتِل البلخي ، وهو أحد معاصريه (وكان اصغر منه سناً) قد حاول ، قبل ذلك ، ان يصنّف مادة القرآن التشريعية ، وان يعين معانيها الاصطلاحية من طريق تعريفات دقيقة . ولقد ضُم هذا الجهدُ ، في ما بعد ، الى التفسير اللغوي الخالص الذي رفع لواءه الفرّاء ، تلميذ الكسائي ، النحوي الكوفي . ثم جاء الطبري فوضع تفسيره الجامع مشتملاً على ثمرات الجهود التي بذلها جيلٌ كامل من المفسرين . وكانت الاحاديث المتصلة بحياة الرسول وتعاليمه متداولة في هذا العهد ايضاً تداولاً يكاد يكون شفهياً خالصاً ، ولم تدوّن إلا في الاحوال النادرة ، كجمع بعض الأحاديث التي تتعلق بمسائل خاصة ، أو التي انفرد بها راوٍ واحد .

أما كتب الحديث القانونية الكبرى –كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الكتب التي رفعتها الجماعة الاسلامية في العصور التوالي إلى مقام من القداسة يكاد يُداني مقام القرآن – فلم تظهر إلا في الجيل التالي . ثم ان تطبيق سُنة النبي ، أي المثل الذي ضربه في حياته ، كما تنص عليه الأحاديث ، لم يلبث أن أصبح مصدر علم الفقه ، حيث لا تزال المعاملات والعبادات ، كما هي الحال في اكثر الحضارات البسيطة ، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً . وبالاضافة الى المذهبين الأقدمين ، مذهبِ أبي حنيفة في العراق ومذهب مالك في المدينة ، ظهر مذهب الاوزاعي في سورية ؛ ولقد ساد فترة من الزمان في شمالي إفريقية ثم طغى عليه المذهب المالكي . أما في سورية نفسها فلم يكد ينتشر حتى تقدّم عليه مذهب الشافعي الذي لم تكتب له الغلبة لا في الحجاز ، وهو موطن اسرته ، حيث كان لتلامذة مالك شأن كبير ، ولا في العراق حيث كانت السيادة لتلامذة ابي حنيفة ، ومن هنا حاول ان يضمن

لنفسه منطقة نفوذ جديدة في مصر . وكانت وفاته بالفُسطاط ، في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٢٠ . والحق ان الشافعي قد قام ببحث اوسع من أبحاث سابقيه في اصول الفقه ، على الرغم من انه شايعهم في عدم الشك في سلطان التقليد . ومهما يكن من شيء فقد احس أحمد بن حنبل ، في بغداد ، بأنه مضطرٌ إلى التوكيد على سلطان التقليد بأكثر مما فعل مالكٌ والشافعي . ولم يلبث رفضه الجافي لأيما خطة وسط ان قاده الى النزاع مع الدولة . ليس هذا فحسب ، بل ان تعصب أتباعه ظل أبداً يتهدد القانون والنظام في بغداد بأشد الخطر طوال عدة قرون تلت . حتى اذا كان العصر الحديث بُعث مذهب ابن حنبل على يد الحركة الوهابية ، في شبه جزيرة العرب ، فكان في ذلك حافزٌ قويّ دفع بالاسلام الذي تحجّر [مع الايام] نحو تطور أبعد .

المناظرات الكلامية

وكان النزاع على المسائل السياسية الطارئة على الجماعة بسبب خلافة علي قد أدى الى ظهور فرق اسلامية مختلفة . فالخوارج الذين ثاروا على علي ذهبوا في تعصبهم الى حد تكفير كل مسلم يقترف احدى الكبائر . ولقد عارضهم في ذلك المرجئة الذين قالوا بعدم جواز تكفير المسلم ، وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة ، في العالم الآخر ، لله وحده . وهذا الموقف المعتدل في ما يتصل بالسلوك الأخلاقي مكن الفقهاء المؤيدين للدولة الأموية من الرد على حدة المعارضة ؛ بل لقد كان في استطاعة علويي الهوى أن يوسّعوا على أنفسهم بواسطته ، فعِل ابي حنيفة ، على ما تقول الروايات . ففي خلافة هشام ، عندما اشتد أمر الدعوة العباسية إلى حد الظهور [علانية] — وإن بقيت في بادىء الأمر عاملة من وراء ستار العلويين وبخاصة فريق الزيدية المعتدل — التمس اتباع هذه الدعوة العباسية طريقاً وسطاً بين المذهبين مكنهم من أن يتخذوا موقفاً خاصاً محايداً من النزاع بين العلويين واخصامهم . ودعي اتباع هذا « الاعتزال » المعتزلة . والواقع ان هذا الاسم نفسه قد

أطلق على رجلين اثنين خرجا على شيخهما المحدّث الورع الحسن البصريّ ، المتوفي سنة ٧٢٨ ، ليؤسسا مذهبين خاصين بهما . فقد ذهبا الى ان المسلم صاحب الكبيرة ليس بالمؤمن وليس بالكافر ، ولكنه في منزلة بين المنزلتين . ويُعتبر واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن [البصري] أولّ المعتزلة . وقد اجتذب مذهبه عمرو بن عُبيد الذي كان أشدّ عداوة للعلوية من واصل نفسه ، ومن هنا لم يعترف بأبي بكر وعمر خليفتين شرعيين للرسول فحسب ، بل اعترف بعثمان خليفة شرعياً ايضاً . ولقد انتهى في ما بعد الى ان يصبح واعظاً للخليفة المنصور . والواقع ان واصلاً وعمراً شنا حرباً عنيفة على معاصرهما جَهْم بن صَفوان الذي قال بالجبر ، في حين كان المعتزلة يقولون بارادة الانسان الحرة . واياً ما كان ، فالذي يبدو انهما اخذا عن خصمهما هذا ، العقيدة القائلةَ بخلق القرآن وصفات الله . وكان واصل وعمرو على اوثق الصلة بالشاعر صالح بن عبد القدوس وحلقته ، بادىء الأمر ، ولكن خلافاً ما لبث ان نشب بين الفريقين ، فاذا بالنضال ضد تأثير المانوية الشديد في معتقدات الطبقة المثقفة يصبح في جملة هموم المعتزلة ومشاغلها الرئيسية . ولم يكن للمعتزلة معدىً ، في سبيل تدعيم معتقدهم في صفات الله ، عن اصطناع الطريقة التقليدية المتبعة في الفلسفة اليونانية ، على الرغم من رفضهم القاطع لنزعة هذه الفلسفة بطبيعة الحال . وبينا كان ممثلو السنة الخالصة يعتبرون كلمة الله ، القرآن ، ازلية كالله نفسه ، انتهى التفكير الاعتزالي في ما يتصل بالصفات الالهية الى الفكرة التي سبق لجهم بن صفوان ان قال بها ، وهي ان القرآن ليس ازلياً ، بل مخلوق . ولقد وُفق المعتزلة الى ان يثيروا شوق الخليفة المأمون نفسه الى هذه النظرية واهتمامه بها حتّى لقد اعلنها سنة ٨٢٧ عقيدة الدولة الرسمية ، وأمر بامتحان جميع الذين يرفضون القول بها كما امتُحنَ اتباع المانوية من قبل . وكان ضحية هذا الاضطهاد الفكري الاولى المحدّث المتحرج احمد بن حنبل . وتفصيل ذلك انه بينا كان المأمون معسكراً بطرسوس في احدى غزواته للبيزنطيين اعتُقِل ابن حنبل في بغداد وسيق

الى مقر قيادته مصفداً بالاغلال . ووافت المنون الخليفة قبل ان يبلغ العالم الاسير مقر القيادة . فلم يكن من رجال المأمون إلا أن عادوا به الى بغداد . ولكن اضطهاده لم ينقطع في عهد خليفة المأمون ايضاً . حتى اذا كانت خلافة المتوكل واشتد ساعد الرجعية استعاد ابن حنبل مكانته وحظوته . ولقد كان ثمة ميل الى اعتبار المعتزلة ممثلين لتفكير لاهوتي حرّ يقوم في الطرف المقابل للسنّة الرشيدة . ونحن نستطيع ان نقطع ، على اساس مما بسطناه آنفاً ، بأنهم لم يكونوا اقل تعصباً من فقهاء السنة بحالٍ ، وانهم لم يختلفوا منهم في الأساليب ، ولكن في بعض المعتقدات الخاصة فحسب .

المعتصم وحرسه

ورقي العرش بعد وفاة المأمون اخوه محمد ، وكان اميراً على مصر ، متخذاً لقب المعتصم بالله . ولم يجد المعتصم ايما معارضة ، لان الجيش الذي كان قد بايع العباس بن المأمون بالخلافة ما لبث أن انفضّ من حوله لدُن ظهور المعتصم المفاجىء . ولكن فقدان الامن في العراق كان في ذاته دليلاً على مقدار ما أصاب هيبة الخلفاء من أذىً بالغ . فلقد سبق للساسانيين ان نزلوا ، جنوبيّ العراق ، في المستنقعات الواقعة بين البصرة وواسط ، شعباً هندياً يُعرف بالزّط (جَت) كان قد غادر مواطنه الاصلية ، فعل أقربائه الغجر ، لأسباب مجهولة . وعلى الرغم من محاسنة المسلمين لهم ، إذ اصطنعوهم في الجيش من غير تمييز ، فانهم لم يلبثوا ان اصبحوا عنصر فتنة وفساد ، حتى في عصر المأمون ، فعطّلوا جميع المواصلات بين البصرة وبغداد ، طوال سنوات . فلما كانت خلافة المعتصم ، وجد نفسه مضطراً الى ان يتخذ اجراءات صارمة . ولكنه لم يوفق الى القضاء عليهم بصورة حاسمة ، وإجلائهم الى قلعة عين زَرْبة ، احد الثغور في قيليقية ، إلا سنة ٨٢٥ . وكان الصراع العنيف بين العرب من ناحية ، والفرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الاولى من خلافته ، قد حمل المعتصم قبل ذلك الحين على ان

يَكِل امر سلامته الشخصية الى فرقة من الموالي بعضها من البربر ، وغالبيتها من الاتراك . وإنما اقبل هؤلاء الاتراك من بلاد ما وراء النهر ، إما عن طريق النخاسة ، وإما على سبيل الجزية يؤديها الامراء الوطنيون الى خزانة الدولة الاسلامية . ولقد عهد المعتصم ، حتى ذلك الحين ، بتصريف شؤون هذه الفرقة الى رجال من غير الموالي ، ولكنه لم يلبث ان ملأ مناصب القيادة بمواليه الخصوصيين مبالغة منه في الحرص على سلامته الشخصية . والواقع ان هؤلاء الزعماء * انتهوا في وقت مبكر الى ان تكون لهم سلطة على الدولة . حتى اذا انقضت فترة غير طويلة اصبحوا هم سادة الدولة الحقيقيين ، وكان طبيعياً ان يتكشف خطر هؤلاء العبيد على العرب لبصائر الأذكياء من الرجال منذ ذلك الحين . وهكذا القى ابنُ سعد (الذي وضع كتبه في عهد المعتصم) ، على لسان احد الصحابة نبوءة مفادها ان الاتراك سيردّون العرب ، في يوم من الايام ، إلى بواديهم ** .

بيد ان أشهر قواد المعتصم ظل من غير شك ، رجلاً فارسياً اسمه حيدر ابن كاوُس ويدعى عادة بالأفشين نسبة الى اجداده ، وكانوا سابقاً امراء أشرُوسَنة في آسية الوسطى . ولقد وفق الأفشين الى القضاء على حكم بابك في آذربيجان بعد ان افتتح قلعته عنوة واستباحها في خريف سنة ٨٣٧ . وما هي الا فترة حتى انقضّ الأفشين على البيزنطيين الذين هاجموا في عهد الامبراطور توفيل الجزيرةَ وشمالي سورية . وهزم الأفشينُ الامبراطور ،

(*) ويشبههم المؤلف ، كغيره من المؤرخين ؛ بالحرس البريتوري الروماني . (المعربان)

(**) جاء في الحديث : « ان أمتي يسوقها قوم عراض الوجوه صغار الأعين ؛ كأن وجوههم الجحف (ثلاث مرات) حتى يلحقوهم بجزيرة العرب . أما السائقة فينجو من هرب منهم . وأما الثانية فيهلك بعض وينجو بعض . وأما الثالثة فيصطلمون كلهم من بقي منهم . قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال الترك . أما والذي نفسي بيده لتربطن خيولهم الى سواري مساجد المسلمين. وفي رواية عن أرقم بن يعقوب زيادة : كيف أنتم إذا خرجتم من أرضكم هذه الى جزيرة العرب ومنابت الشيح .

رواه أحمد في المسند ، وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في السنن ، وسعيد بن منصور في سننه ، ورواه ابو داود في سننه مختصراً ، وغيرهم .

واستولى على عمورية ، في غلاطية ، بعد ان لجأ ، إثر حصار متطاول ، إلى الخدعة . ولكن من الجائز جداً ان تكون هذه الانتصارات بالذات هي التي أثارت حسد الخليفة له . وعلى الرغم من انه احبط ، بعد رجوعه من حرب البيزنطيين ، مؤامرة جديدة هدفت إلى تنصيب العباس بن المأمون خليفة ، فقد اتهم بالارتداد عن الاسلام سنة ٨٤٠ وحبس في بناء خاص . ثم منع عنه الطعام إلا القليل حتى مات ، إذ لم يجرؤ أحد على أن يُنزل به عقوبة الصلب المألوفة .

بناء سامراء

واذا كان هرون الرشيد قد آثر في السنوات الاخيرة من حياته أن يفزع الى الرقة ، البلدة الريفية الصغيرة الواقعة على الفرات ، اجتناباً لصخب بغداد ، فقد عزم المعتصم على أن ينشيء ، سنة ٨٣٦ ، مقراً جديداً لنفسه في سامرّا ، القائمة على الضفة اليمنى من دجلة ، على مسافة مائة كيلومتر الى شمال بغداد . ولعل الاذن العربية توهمت ان اسم سامرا الفارسي يخفي في طياته نذير شؤم فحرّف في الاستعمال الرسمي الى « سُرَّ من رأى » . وعهد المعتصم في بنائها إلى أشناس ، احد قواده الاتراك ؛ فأنشأ فيها قناتين متفرعتين من دجلة نحو الشرق ، خلعتا على المدينة الجديدة ، بالاضافة الى النهر نفسه ، منعة الحصن البحري . وكانت المدينة تنتظم ، من قبل ، ثمانية اديرة نصرانية . ولقد شيد قصر الجوسق للمعتصم ، اولاً ، حتى اذا جاء من بعده خلفاؤه ، وكانوا سبعة حكموا طوال نصف قرن ، حلوا جيد المنطقة بقصور ومساجد جديدة . وعلى الرغم من انه لم يبق لنا من هذه المنشآت الفخمة ، التي أقيمت خلال تلك الفترة القصيرة من الازدهار ، الا خرائب وأطلال ، فالحق انها تقدم لنا صورة عن فن العمارة في العصر العباسي هي أنبض بالحياة من تلك التي تقدمها لنا بغداد ، حيث عبثت أيدي الاجيال المتأخرة بما ثبت من آثارها في وجه الاعصار المغولي . والواقع ان المعماريين المسلمين اعتمدوا

في الشرق ، كما اعتمدوا في الغرب ، التقاليد القديمة ، سواء بسواء . فقصر الخليفة المتوكل الموسوم بـ « بَرْكوارى » — وهو اهم بناء لا تزال آساسه محفوظة لنا في سامرا — إنما شيد على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم العام ، وتخطيط المساحات وشكل الواجهات . وهو مستطيلٌ ، يبلغ طول كل من جانبيه ثلثيْ الميل تقريباً . وعلى الجهة الغربية ، المنحدرة نحو النهر ، مقابل السطائح ، كانت تنهض ثلاثة عقود من آجُرّ تقود الى القسم المخصص للسكنى وقاعات الاستقبال العامة . وكانت هذه مجتمعةً ، على شكل صليب ، حول أروقة داخلية ثلاثة يحيط بها عددٌ من غرف الاستقبال والحمامات وغرف الخدم . وإلى الشرق ، كانت تحاذي القصرَ حديقةٌ ذات شلالات . وإلى الشمال ، كانت بركةُ ماء عظيمة تتوسط السراديب والآبار . وحول القصر كانت تقوم مساكن للحاشية وثكنات للحرس . أما مهندسو الجامع الكبير فتأسوا أثراً أعرق وأوفر حظاً من جلال القِدَم . ذلك بأنهم بَنَوا مئذنة هذا الجامع فوق قاعدة طولها ٣٢٨ يردة ، على طراز الأبراج البابلية ، ذات السلالم [الخارجية الملْويّة] ، وهي « الزِكّورة » . والحقّ أن الموارد العظيمة التي كانت لا تزال في متناول هؤلاء المعماريين ، على الرغم من ان الامبراطورية كانت في ذلك الوقت قد أخذت في الانحطاط ، لتَظْهَرُ لنا أوضح ما يكون الظهور من مساحة هذا الجامع الهائلة حقاً . فهو بمثابة مستطيل يبلغ مائتين وستين متراً طولاً ، ومائة وثمانين متراً عرضاً ، تقريباً . ويستغرق صحنه الداخلي ، المتوزّع على خمس وعشرين بلاطة ، أربعة وأربعين ألف متر مربع . وبحَسْبنا ، لكي نكون فكرة عن معنى هذا الرقم أن نذكر ، أن صحن كنيسة القديس بطرس في رومة يبلغ ١٥١٦٠ متراً مربعاً ، وصحن آيا صوفيا في استانبول يبلغ ٦٨٩٠ متراً ، في حين لا يزيد صحن كاتدرائية «كولون » على ٦١٢٦ متراً .

انحلال الخلافة ونشوء الدويلات

كان القواد الاتراك قد انتهوا في عهد ابن المعتصم وخلفه ، الواثق بالله ، (٨٤٢ – ٨٤٧) إلى غاية من النفوذ في بغداد حتى لقد اضطر الخليفة أن يخلع على أشناس لقب السلطان ، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخالصة . حتى اذا توفي الواثق في سن مبكرة ، كان وصيفٌ ، خلفُ أشناس ، قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أنْ يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه . والواقع انه نصب بادىء الأمر محمد بن الواثق ، وكان لا يزال دون سنّ الرشد ، خليفة على المسلمين ، بالاتفاق مع السلطات المدنية العليا ، من غير شك . وأياً ما كان ، فسرعان ما استبدل بمحمد هذا عمه جعفراً المتوكل على الله . ولكن الخليفة الجديد ما لبث ان حاول التخلص من نفوذ « صانعي الملوك » . وكان ابن الزيات من العاملين ضده ، فانتقم منه بعد انقضاء ثلاث سنوات على ولايته . وكذلك قضى على القائد التركي إيتاخ الذي سبق له ولوصيف ان ساعداه على ارتقاء العرش .

المتوكل وأبناؤه

وكان المتوكل يرجو أن يتخذ من الشافعية ، وهم من أهل السنة ، عضداً يجابهُ به العلويين الذين ما انفكوا يناضلون دون غاياتهم وامانيهم . وكان

مستشار المأمون ، قاضي القضاة احمد بن أبي دُؤاد الذي فُلِـجَ بعيد تولي المتوكل أمر المسلمين مباشرة ، قد تخلى عن منصبه لابنه محمد . ولكن المتوكل لم يلبث ان اعتقله واخوته في السنة الثانية من خلافته ، وصادر ممتلكاتهم جميعاً . ثم انه عهد بقضاء القضاة الى يحيى بن أكثم ، الشافعي المذهب ، الذي سبق ان كانت له مكانة مرموقة في عهد المأمون ، ولكنه اضطر الى ان يقنع ببعض المناصب ، في الولايات بسبب من كراهيته للمعتزلة . وفي سنوات ولايته الثلاث ، وكانت هذه اقصى ما سمح به جشع المتوكل ومكره ، احدث يحيى انقلاباً كاملاً [في الشعائر المتبعة] . فقد هُدم قبر الحسين في كربلاء ، ومُنع الناس من اتيانه . وأُطلق سراح جميع الفقهاء الذين كانوا قـد زُجَّ بهم في السجون لعدم تبنيهم عقيدة خلق القرآن ، وفي جملتهم احمد بن حنبل ، وحُرم البحث في هذه المسألة والجدال حولها . وكان على اهل الذمة الذين مثلوا دوراً عظيماً في بلاطات اسلاف المتوكل ، بوصفهم علماء وبوصفهم اطباء على الخصوص — والذين لم يكن في ميسور المتوكل نفسه الاستغناء عنهم بالكلية — ان يعانوا الاضطهاد في ظل هذا العهد البعيد عن التسامح . فقد امر المتوكل بهدم البِيَع النصرانية واليهودية المحدثة في بغداد ، وبأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بتصيير علامات معينة مهينة على ما ظهر من لباسهم ، وبالاقتصار في مراكبهم على البغال والحمر دون الخيل والبراذين . وكان المتوكل قد عقد ولاية العهد ، في مستهل خلافته ، لابنه الاكبر ، [المنتصر] ثم لابنيه الاصغرين [محمد المعتز وابراهيم المؤيد] من بعده . ولكن الفتح بن خاقان ، الاثير عند المتوكل ، اوغر صدره على المنتصر فقدم عليه اخاه المعتز في ولاية العهد . والواقع ان شوكة القواد الاتراك استعصت حتى على محمد [بن عبدالله] بن طاهر الذي أُسندت اليه ولاية الشرطة في بغداد ، سنة ٨٥١ . واذْ لم يكن الخليفة المسرف قادراً قط على استجابة مطالب حرسه فقد حاول سنة ٨٥٨ اجتناب سيطرتهم ، بأن جعل دمشق حاضرته ولكنه لم

يلبث ان بارحها عائداً الى العراق . حتى إذا تكشف المتوكل بعد ذلك عن حماقة وقصر نظر فحاول مصادرة ممتلكات القائد وصيف في بلاد الجبال ، تآمر هذا الاخير مع ولي العهد ، المنتصر ، على قتل المتوكل . ونفذت المؤامرة ليل التاسع من كانون الاول سنة ٨٦١ في « الجعفري » وهو القصر الذي كان المتوكل ، قد أقامه على أبواب سامرا ، قبل ذلك بفترة غير طويلة .

ولم يستطع المنتصر ، قاتل ابيه ، ان يحافظ على العرش اكثر من ستة اشهر ، بذل خلالها جهوداً عقيمة لاستخلاصه لنفسه من طريق اكراه اخويه ، المعتز والمؤيد ، على التنازل عن ولاية العهد ، ومن طريق محاسنة العلويين . وبعد ان قتله الاتراك بالسم رفعوا الى العرش ابن اخي المتوكل : احمد المستعين بالله . حتى اذا حكم اربع سنوات ليس غير ، فقد سلطته التي كانت قد تقلصت فعلاً الى طيف من الخيال بسبب النزاع المستمر بين امراء الجيش الاتراك . فقد اضطر بُغا ، الذي كان له فضلُ تنصيبه خليفةً ، الى ان يفر معه من وجه الخصوم الى بغداد ، في حين رُفع المعتز الى عرش الخلافة ، في سامرا . وحاول محمد [بن عبد الله] بن طاهر الذي كان المستعين قد عيّنه اميراً على العراق والمدينتين المقدستين ان يُنجد سيده المحاصر في بغداد ، ولكنه لم يلبث ، بعد خلاف نشب بينه وبين بُغا ، ان انقلب عليه . وهكذا لم يعد في ميسور المستعين أن يثبت في بغداد ، فاضطر الى خلع نفسه في كانون الثاني سنة ٨٦٦ ، ليُقتل في تشرين الأول من السنة نفسها في واسط .

وحاول المعتز أن يتخذ من حرسه المغاربة اداةً لمقاومة الاتراك الذين كان لهم ، على كل حال ، الفضل في ارتقائه كرسي الخلافة . ولكن الاتراك لم يلبثوا ، بعد ثلاث سنوات ونصف ، ان خلعوه عن العرش لعجزه عن سد حاجتهم الملحة الى المال . والحق ان خلفه ، محمد المهتدي بالله بن الواثق ، سعى عبثاً الى اجتناب مصير اسلافه ، فاختصر نفقات القصر الملكي لكي يعيد الى الجهاز المالي المضطرب شيئاً من النظام الذي فقده . وايا ما كان ،

فقد قُتل في معركة ضدّ موسى بن بُغا ، وهو لما يُتم السنة الاولى من ولايته .

ثورة الزنج في العراق

أما ما انتهت اليه الحكومة المركزية ، في ذلك العصر ، من ضعف بسبب من استبداد أمراء الجيش وتبدل الحكام المتواصل ، فيبدو لنا أوضحَ ما يكون اذا عرفنا ان دولة شُطّار من العبيد الهاربين من سادتهم قد ظهرت تحت سمع هذه الحكومة وبصرها وعلى ابواب العاصمة نفسها تقريباً ، فألقت الهول والرعب في العراق كله ، سنوات بكاملها . وتفصيل الأمر ان جماعة من زَنج افريقية الشرقية كانوا يعملون ، لمصلحة بعض المتعهدين البصريين في كسح السباخ العظيمة القائمة قرب البصرة . فظهر رجل فارسي اسمه عليّ بن محمد — وكان يزعم انه ينتسب الى عليّ وفاطمة من طريق زيد بن عليّ (من اجل ذلك فمن الجائز ان تكون نسبته هذه حقيقية ، لما كان عليه بيت زيد بن علي من كثرة العدد آنذاك) ودعا الزنج الى الخروج على مستثمريهم . والذي لا شك فيه أنه لم يناد بشيء من الاصلاح في الاحوال الاجتماعية ، ولكنه اكتفى بأن وعد هذا الشعب المظلوم — والعبيد في جملتهم — وعداً قاطعاً بتحسين حالهم وضمان الحرية والثروة لهم . وهو لم يصدر في دعوته على أساس من حقوق أسرته بل جاهر بعقيدة الخوارج التي ترفض كل تمييز قومي ، والتي بدت من غير شك ، سائغة عند اتباعه ، على الخصوص. وانما ظهر علي بن محمد هذا ، اول ما ظهر ، في ١٠ ايلول سنة ٨٦٩ ، وما هي الا فترة وجيزة حتى استولى على ضواحي البصرة . وسيرت عليه حكومة بغداد الجيش بعد الجيش ، فهزمت جميعاً ، خاصة وان المرتزقة من الزنج انحازت عموماً الى جانبه . كذلك لم يكن لسكان البصرة ، الذين نفروا بأنفسهم لحربه في ٢٣ تشرين الأول سنة ٨٦٩ ، طاقة على الثبات في وجه شجاعة رجاله الضارية . وسرعان ما قامت على قاعدته الحربية الجديدة هذه التي كان يسهل الدفاع عنها ، بسبب من تعدد القنوات الصغيرة والمستنقعات

القائمة حولها ، بلدة جديدة ، هي « المختارة » — ولقد استعمل اللبن في بنائها السريع اولاً ثم جهزت بالغنائم العظيمة التي استولى عليها . وهكذا بسط سلطانه على دجلة من مصبه ، ثم حمل على خوزستان (٦٧) .

ولكنّ تحسناً كان قد طرأ في الوقت نفسه ، على الموقف في العاصمة . فعلى الرغم من ان المعتمد بن المتوكل كان هو نفسه في غاية الضعف فقد ولى بُعيد ارتقائه العرش سنة ٨٧٠ ، أخاه الموفق بالله ، أمر الجيش . وكان الموفق هماماً حازماً ، فلم يكد يمكّن لنفسه في سامرا ، صيف سنة ٨٧١ ، حتى سير جيشاً لقتال الزنج ، ولكنه لم يستطع أن يشتبك معهم في معركة حاسمة ، على الرغم من بعض الانتصارات الأولية التي تمت له . وكانت قبائل البدو الضاربة في الاقليم المجاور قد انضمت بدورها الى صفوف الثائرين . وفي ٧ ايلول سنة ٨٧١ أوقع صاحب الزنج وأتباعه بالبصرة ، أثناء صلاة الجمعة ، فنهبوا المدينة الغنية ، وأعملوا السيف في رقاب أهلها — فمات منهم ثلاثمائة الف ، على ما تقول ابعد الروايات عن المبالغة — وأشعلوا النيران في مبانيها ، وكان الموفق نفسه قد خاض المعركة ضد الثائرين في نيسان ٨٧٢ ، فلم يقدر على شيء . واتفق ان برز من الشرق خطر جديد ، فاضطر الموفق الى ان يترك الزنج وشأنهم ، فترة من الزمن .

بين الصفارية والطاهرية في إيران

كان الخوارج ، الذين هُزموا في كل مكان تقريباً ، قد ثبتوا فترة طويلة في سجستان ، جنوب شرقي إيران ، وهي المقاطعة التي تفصل اليوم بين إيران الحالية وافغانستان . ولكنهم كانوا قد انحطوا الى درك اللصوصية والنهب في ذلك الاقليم النائي الذي تُرك امره في ايام هرون الرشيد للحكام الوطنيين ، فلم يُشدّ الى الادارة المركزية شداً محكماً . ومن هنا اضطر

---

(٦٧) انظر نولدكه Th. Nôldeke, « A Servile War in the East » in Sketches from Eastern History, tr. by J. S. Black, 1892, pp. 146—175.

أهل البلاد الى مقاتلتهم ، دفاعاً عن النفس ، فوفق أحد زعماء الفرق المتطوعة لهذا الصنيع الى الاستيلاء على العاصمة وطرد العامل الذي كان امير خراسان ، من آل طاهر ، قد عينه عليها . وكان في خدمة هذا الزعيم رجل اشتغل في حداثته بعمل الصُفر (النحاس) يدعى يعقوب الصفار . وكان يعقوب هذا من الشجاعة بمحل أوقع الرعب في نفوس الناس ، فعهد اليه سيده السابق بالقيادة العليا ليستقر هو في بغداد بعد ان قضى حجه الى مكة . والواقع ان أخاه حاول ان يُخضع يعقوب ، فلم يُوفق الى ذلك ، في حين كان الصَفّار ، الذي أمسى أميراً ، يفتح شيئاً فشيئاً مقاطعة سجستان برمتها ، ويسدي اليها خدمةً جلى بقطع دابر اللصوصية وأعمال النهب . ولم تكد تنقضي سبع سنوات على ذلك ، سنة ٨٦٧ ، حتى كان يعقوب قد هاجم أملاك آل طاهر الجنوبية في هَرَاة . ثم إنه سعى الى اكتساب عطف الخليفة ، فبعث اليه بهدايا سنيّة مما كان قد غنمه . وانما تظهر لنا المكانة الضئيلة التي كانت الحكومة المركزية لا تزال محتفظة بها في تلك الامصار عندما نعلم انها نزلت عند رغبة يعقوب فأقطعته ولاية كِرْمان المجاورة ، كما اقطعتها في الوقت ذاته عليّ بن الحسين ، أمير مقاطعة فارس . ولقد حاول علي هذا ان يسبق يعقوب الى احتلال الولاية ، ولكن الاخير هزم جنده وأسر قائده ، ثم تقدم لقتال علي نفسه فهزمه في ٢٦ نيسان سنة ٨٦٩ ، واستولى على عاصمته شيراز . واذ لم يكن في ميسوره ان يستولي على فارس ذاتها ، فقد ولى وجهه من جديد قِبَلَ المشرق وتحقق بمجد الجهاد ، من طريق نشر راية الاسلام ، في افغانستان . حتى اذا هاجم فارس كرة أخرى أقطعه الخليفة بَلخ ، وطُخارِسْتان والسند ابتغاء تحويل نظره عن الغرب .

وكانت أحوال آل طاهر في خراسان قد انتهت ، في الوقت نفسه ، الى غاية من الوهن بعيدة ، فلم يكن من يعقوب الا ان افاد من خيانة بعض اشراف تلك الديار للاستيلاء على عاصمتهم نِيسابور ، في آب سنة ٨٧٣ ، استيلاءً يسيراً لم يكد يقع فيه قتال . حتى اذا أصدر اليه الخليفة أمره بالجلاء

عن خراسان في الحال لم يأبه بذلك الامر ، بل سار بجنده الى طَبَرِستان التي تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين ، والتي كان حاكمها ، [الحسن] ابن زيد بن .... علي ، قد أنزل في كنفه ابنَ طاهر الطريد . وعلى الرغم من أنه أحرز ههنا نصراً أولياً ، فقد وجد نفسه مضطراً الى الانسحاب بسبب من وعورة الاقليم . فلما كان صيف سنة ٨٧٥ انقلب الى مقاطعة فارس من جديد وبسط سطانه عليها في سهولة ويسر ، ثم تقدم غرباً عبرَ خُوزستان . واذ كانت حكومة بغداد لا تزال منهمكة في تأديب الزنج فقد حاولت ان تغريه بالرجوع من حيث أتى ، فاعترفت به والياً على خراسان والمقاطعات المجاورة ، وعلى فارس ايضاً . ولكن شيئاً لم يكن ليصرف يعقوب عن طيّته ، فتابع سيره على بغداد . فخرج اليه الموفق ، نائب الخليفة في ذلك الوقت ، بجيش عظيم ، فالتقاه عند دير العاقول ، على نحو اثني عشر ميلاً جنوبي المدينة (بغداد) . وهنا مُني يعقوب بأول هزيمة جدية في حياته ، في ٨ نيسان ٨٧٦ . ومهما يكن من أمر ، فلم يجروْ الموفق على تعقبه حين انسحب الى تخوم العراق . وفي هذه الاثناء عرض صاحب الزنج على يعقوب عقد تحالف عسكري ، فأبى ذلك في غلظة وجفاء . ثم ان الموفق استأنف مفاوضاته مع يعقوب ، ولكن المنيـــة ادركت هذا الاخير قبل ان تنتهي المفاوضات الى أيما نتيجة في جُنديسابور ، ٥ حزيران ، سنة ٨٧٩ (٦٨) .

وخلف يعقوبَ أخوه عمرو ، وكان أول أمره مُكارياً وبنّاء ، ثم ما لبث ان تكشف عن مواهب عسكرية عالية . وفي الحال عقد الموفق معه معاهدة أقرّته والياً على ما تمّ لاخيه فتحه من البلدان . ليس هذا فحسب ،

---

(٦٨) راجع نولدكه Th. Nôldeke, « Yakub the Coppersmith » in Sketches, pp. 176–206

وراجع بارتولد W. Barthold, **Zur Geschichte der Saffariden, Orientalische Studien**, 1, 171–196.

بل لقد خلع عليه ولاية الشرطة ببغداد ، وهي رتبة اسمية ، غير شك ، كانت من قبل الى آل طاهر . ولكن الحُجُستاني ، احد رفاق يعقوب القدماء ، ما لبث ان شق عصا الطاعة على عمرو ، في خراسان ، وهزمه في ٧ تموز سنة ٨٨٠ ، واستولى على العاصمة نيسابور . والواقع ان عمراً اضطر الى ان يخلي له البلاد فترة من الزمن ، لينسحب الى موطنه الاصلي ، سجستان . وما هي إلا سنتان حتى قُتل الحجستاني ، فبسط عمرو سلطانه على خراسان ، كرةً اخرى .

والواقع ان النزاع بين يعقوب الصفّار والحكومة المركزية في بغداد قد أفسح في مجال العمل امام الزنج الذين لم يكتفوا بالاستيلاء على مدينة واسط الهامة ، بل عدّوا ذلك الى تثبيت اقدامهم في خوزستان . اما وقد فَرَغ الموفق الآن من امر الشرق ، فقد صار في ميسوره ان يستأنف النضال ضد اولئك الثائرين ، في عنف وفي حذر . وكان عليه ان ينشىء عدداً من السفن الحربية يستعين بها على مهاجمة مدينتهم المحوطة من جوانبها جميعاً بالقنوات . وانما نهض بعبء المعركة ابو العباس احمد بن الموفق ، الذي ارتقى عرش الخلافة بعدُ متخذاً لقب « المعتضد » . ولقد اكتفى بادىء الامر بانتصارات ثانوية وسعى الى ان يحمل ضباط جيش العدو ، وعامة الجند خاصة ، على القاء السلاح والتخلي عن اصحابهم . ولم يبرز الموفق نفسه الى ميدان القتال الا بعد عام واحد ، في الخريف . وبعد ان استولى على « المنيعة » ، وهي المدينة الثانية التي انشأها الزنج ، ارتد الى خوزستان لاستخلاصها من قبضتهم . وفي ربيع سنة ٨٨١ حاصر عاصمتهم نفسها ، « المختارة » ، وأنشأ قبالتها ، على الضفة الثانية من دجلة ، لاغراض عسكرية ، مدينة جديدة دعاها « الموفقية » . ونجح جند الخلافة ، في التقدم الى قلب عاصمة العدو ، غير مرة ، ولكن الموفق لم يغامر في شن هجوم حاسم إلا في تموز سنة ٨٨٣ ، عندما انضم الى جيشه جيش لؤلؤ ، الذي خان مولاه امير مصر ، وكان قائداً لجند الشام من قِبله . واخيراً سقطت المدينة أمام

اضربات لؤلؤ الحازمة في آب سنة ٨٨٣ ، وبذلك قُضي على تلك الجماعة الخارجة التي طالما عاثت فساداً في اغنى جزء من اراضي الخلافة .

الطولونيون في مصر

وفي تلك الاثناء كان غرب الامبراطورية قد تخلص بالكلية من نفوذ الحكومة المركزية كما تخلص الشرق ، سواء بسواء . وكانت مصر تخضع ، خلال العقود السابقة ، على العموم ، لحكم ولاة ، كان ينتدبهم الامراء العباسيون ، او القواد الاتراك ، لان هؤلاء آثروا ان يعيشوا على مواردهم في عاصمة الخلافة لكي يتسنى لهم رعاية مصالحهم عن كثب في ذلك الجو السياسي المضطرب . وفي سنة ٨٦٨ آل هذا المركز الى بايكباك التركي ، فبعث بأحمد بن طولون الى مصر لينوب عنه في حكمها . وكان طولون في الاصل مملوكاً تركياً من بخارى ، وكان قد انتهى في عهد المعتصم الى ان يصبح قائداً لحرس الخليفة . اما ابنه احمد فنشأ نشأة عسكرية قاسية . ولقد خدم بضع سنوات في طرسوس ، على الحدود البيزنطية ، فأعجب به الخليفة المستعين في سامّرا ، وعظمت منزلته عنده ، حتى لقد طلب اليه ، حين خلع نفسه من العرش سنة ٨٦٦ ، ان يحرسه في طريقه الى منفاه بواسط . ولكن احمد ترك الخليفة لجلاده ، ورجع ادراجه الى العاصمة ، حيث كان الخليفة الجديد (المعتز) منهمكاً في اغداق الجوائز والهبات على انصاره الذين ايدوه فيما احدث من انقلاب . وكان بايكباك ، زوج ام أحمد ، في جملة هؤلاء . والواقع ان احمد قد مكن لنفسه في مصر تمكيناً حمل يارجوخ التركي ، الذي خلف بايكباك في امتلاك البلاد [واختيار اميرها] ، على ان يثبته في عمله ، ويسعى الى توثيق العلاقة معه بتزويجه احدى بناته . حتى اذا كانت سنة ٨٧٣ وصارت مصر الى جعفر ابن الخليفة المعتمد ، بوصفها جزءاً من نصف الامبراطورية الغربي ، قنعت نفسه بمبلغ من المال [بينا بقي احمد مستأثراً بالسلطان] .

واحتفظ ابن طولون في السنوات القليلة الاولى من حكمه بمدير للمال مستقل ، هو احمد بن المدبّر الذي سبق له ان نهض بأعباء هذا المنصب في البلاد منذ سنة ٨٥٦ . ولما كان ابن المدبر قد استثار كراهية الناس له بما فرض عليهم من ضرائب واقامه من ضروب الاحتكار التي أنقضت ظهر الحياة الاقتصادية ، في كثير من شُعبها ، كما استثار مخاوف الحكومة المركزية بسبب مما تم له من ثروة ضخمة وجاه عريض ، فقد نجح ابن طولون في حمل حكومة بغداد على استدعائه ، على الرغم من ان مركز العامل الذي تعينه بغداد ظل قائماً بعد ذلك دهراً طويلاً . ومع الايام تخلص ابن طولون من سلطان العامل ، من طريق جزية معينة كان يؤديها اليه . حتى اذا عهد اليه الخليفة المهتدي في إخضاع عامل فلسطين المتمرد على الدولة ، ومنحه صلاحية تنظيم جيش من المماليك ، اغتنم هذه الفرصة لأنشاء جيش مستقل اتسع نطاقه يوماً بعد يوم . وإنما أخذ هذا الجيش بأقسى النظام ، رغبة منه في شد عناصره المتباينة ، بعضها الى بعض ، برباط محكم . وكان من ابرز هذه العناصر فريق الروم الذي بدا خطره في عهد ابن طولون نفسه ، ثم تعاظم في عهد خلفائه ، بصورة مُريعة ، بعد ان فاق العناصر الاخرى عدداً . ومن ثم صار في وسع ابن طولون أن يحتفظ لنفسه بثروة البلاد ، وقوامها الزراعة وصناعة النسيج المزدهرة ، وان ينمي هذه الثروة في اطراد ، من غير ما إساءة الى الحياة الاقتصادية العامة . أما شؤون العدل فكانت ، وفقاً للعادة التركية ، منوطة بقضاة يعينهم هو ، وبذلك كان جائزاً أن يظل منصب القاضي شاغراً ثماني سنوات متلاحقة . والحق ان غنى القطر المصري قد يسر له مضاهاة الخليفة في أبهة البلاط وفخامته . فأنشأ ، على طراز سامرا ، مدينة جديدة ، اختطها شمالي شرقي العاصمة المصرية القديمة الفسطاط (القاهرة القديمة) فوق رقعة من الارض أُقطعت لضباطه وموظفيه ، ومن هنا اسمها : القطائع . وكانت تسيطر على هذه المدينة الجديدة قلعته القائمة على الجرف الذي تكلله اليوم قلعة صلاح الدين . ولقد نقل الى مدينته هذه

حضارة العراق وفنونها . وكانت هذه ، كما اسلفنا ، مزيجاً من العناصر الفارسية والهلينية .

وعندما استبد الموفق على اخيه ، بعد ان قام بأمر الدولة مدة ، بذل غاية الجهد لتدعيم سلطة الحكومة المركزية في مصر ايضاً . ومع ان احمد ابن طولون وافق على ان يزيد مقدار الجزية بعض الشيء ، فقد أبى الانصياع لما أمره به الموفق من التخلي عن منصبه لامير سورية ، أماجور . ليس هذا فحسب ، بل لقد تقدم هو نفسه الى سورية ، عقب وفاة أماجور سنة ٨٧٧ ، حيث أخذ يمين الطاعة لنفسه . وإذ كان الموفق ما يزال في شغل شاغل بأمر الزنج في العراق فقد اضطر إلى أن يدع ابن طولون يتابع سيره على سورية ، في هدوء . ثم إن لؤلؤاً ، الذي كان ابن طولون قد خلّفه أميراً على سورية فضرب في اثناء امارته نقوداً باسمه — بدا له ان يخرج على مولاه سنة ٨٨١ ، مخافة ان يسلبه منافسه جزءاً من اراضيه ، في ما يظهر ، فانضوى تحت راية الموفق . فلم يكن من ابن طولون إلا أن دعا الخليفة إلى تحرير نفسه من وصاية أخيه ، والأقبال عليه في مصر . ثم انه توجه الى سورية ، حيث كانت الثورة قد اندلعت نارها على الحدود البيزنطية . وحاول الخليفة المعتمد ان يفرّ من الرقة ليلحق به ، فحيل بينه وبين ما حاول ، في اللحظة الأخيرة . وكان ابن طولون أبعد ما يكون عن التفكير في حرب الموفق إرضاء للخليفة . ومع ذلك فقد أعلنه العداوة بأن قطع الخطبة له كولي للعهد . فكان جواب خصمه عن هذا التحدي أن أمر بلعنه في المساجد . ولكن الموفق أيضاً كان أميل إلى الأخذ بتسوية سلمية للخلاف ، ومن أجل ذلك رفض أن يقدم للؤلؤ (٦٩)، عتيق ابن طولون ، جيشاً يغزو به مصر . ليس هذا فحسب ، بل لقد شرع في المفاوضة مع أحمد ، ولكن المنية عاجلت هذا الاخير ، في شمالي سورية ، (آذار سنة ٨٨٣) قبل أن تنتهي المفاوضات الى اتفاق .

---

(٦٩) وكان الموفق مديناً له في إخضاع الزنج .

واضطُر العباس ، ابنه الاكبر ، الذي سبق أن ثار عليه يوماً ، والذي كان بغيضاً للجيش بقدر ما كان بغيضاً لبطانة أبيه ، إلى أن يقسم يمين الولاء لأخيه الأصغر ، خُمارَوَيه ، وكان ذلك آخر العهد به . واعتقد الموفق أن من اليسير جداً التغلب على هذا الامير الغرّ فقطع مفاوضات الصلح . والواقع ان عامل الموصل من قبل احمد بن طولون انضمّ الى عامل دمشق ، وأبى أن يُقسم لخمارويه يمين الطاعة فتصدّت له قوات خمارويه واوقعت بجنوده هزيمة اولية ، فيما كانوا يعسكرون على العاصي حتى ينسلخ فصل الشتاء . بيد ان الموفق ما لبث أن بعث بابنه احمد – الخليفة المعتضد في ما بعد – على رأس جيش لنصرة الثائرين ، فمني المصريون بهزيمة شديدة . وإذ لم يكن في ميسور احمد وحليفه أن يتفقا على قسمة الغنائم ، فقد أمسى أحمد وحيداً في الميدان – بعد أن تخلى عنه حليفه – وليس معه في ما يظهر غير اربعة آلاف رجل . وفي هذه الاثناء (ربيع سنة ٨٨٥) سار خمارويه إلى فلسطين على رأس سبعين ألف مقاتل استوفوا حظهم من الراحة ، واشتبك مع جند الخلافة في معركة دارت في مكان يُدعى الطواحين قرب الرملة . ولم يلبث خماروية أن أدرك أنه خسر المعركة ، بالرغم من تفوق جيشه العددي ، فرجع أدراجه الى مصر . ولكن خصمه لم يحسن الافادة من النصر الذي تمّ له . فلم يكد يصطدم بمقاومة جديدة حتى رجع ادراجه إلى دمشق . حتى إذا لم يُلاق فيها حفاوةً ما ، سار إلى طرسوس . وإذ اصطدم بمقاومة هنا أيضاً غادر الميدان كله لخمارويه . وهكذا أصبح في وسع خمارويه أن يتفرغ لحرب خصومه الآخرين في سهولة ويُسر . وفي سنة ٨٨٦ عقدت بين الفريقين المتنازعين معاهدة صلح ضمنت للطولونيين الولاية على مصر وبلاد الشام والثغور طوال ثلاثين سنة ، مقابل جزية هزيلة يؤدونها . وفي خلال السنوات الاربع التالية وقعت بين خصوم خمارويه السابقين منازعات أفسحت أمامه مجال التوسع ، حتى لقد ضم الى سلطانه الموصل أيضاً . وفي سنة ٨٩١ توفي الموفق ؛ وبعد عام، مضى على أثره الخليفة

المعتمد ، فخلفه احمد بن الموفق متخذاً لقب المعتضد بالله . وعقد خمارويه مع المعتضد معاهدة جديدة مَهَرَها بزواج ابنته [قَطر الندى] من الخليفة ، على الرغم من ان هذا الزواج لم يتمّ فعلاً إلا بعد سنتين (٨٩٦) عندما جازت الاميرةُ سنَّ الثانية عشرة . والواقع أن أبهة الجهاز الذي جهّز به أميرُ مصر بنتَه أذهلت بلاط بغداد ، الذي اعتاد منذ فترة غير قصيرة حالاً هي أقرب الى الضيق منها الى السعة ، ودعت الى رواج إشاعة تقول بأن الخليفة لم يُقْبِل على هذه المصاهرة مع خمارويه إلا ابتغاءَ إفقارِه . وليس من شك في ان إسراف خمارويه استهلك جزءاً كبيراً من ممتلكاته . حتى لقد آل أمر الطولونيين الى الضعف بُعَيْد مقتله في دمشق ، اوائل سنة ٨٩٦ ، لأسبابٍ تتصل بفضيحة نسائية على ما يظهر . ولم يكد خَلَفُهُ ، ابو الجيش ، ينهض بعبء الحكم من بعده حتى خَلَعَهُ أخوه هرون قبل أن تنقضي تسعة أشهر على ولايته . ولم يكن هارون بقادرٍ على ان يقاوم ، مقاومةً فعالةً ، جيوش القرامطة التي شرعت تعيث في سوريا فساداً . وعندئذ التمس الدمشقيون انفسهم من الخليفة المكتفي (وهو الذي ارتقى العرش بعد المعتضد) أن يُنجدهم بجنوده . حتى اذا اعاد المكتفي الأمنَ الى نصابه في تلك الديار ، لم يبقَ من مبرر للأبقاء على الطولوني المستضعَف . وفيما كان أسطول من السفن الحربية يبحر من قِليقية الى الدلتا كانت الجيوش العراقية تتقدم إلى مصر عبر فلسطين . فلما سقطت دِمْياط ، قتل هرونَ انسباؤه في مقره بالعبّاسة ، ٣٠ كانون الأول سنة ٩٠٤ . وفي ١٢ كانون الثاني ٩٠٥ ، سقطت الفسطاط . اما « القطائع » التي بناها أحمد فدكت دكاً ، وسيق الباقون من أفراد اسرته الى دار الخلافة ، بغداد .

جامع ابن طولون

وبدت ايام الطولونيين ، بالنسبة الى ما حققه مَن خَلَفهم في الحكم ، عهداً ذهبياً في اعين الاجيال اللاحقة . فحُسنت احوال الناس المادية وازدهرت

ازدهاراً فائقاً بسياسة احمد المالية الرشيدة ، التي ازالت كثيراً من المظالم ووضعت ، فوق كل شيء ، حداً لاستغلال البلاط لمصلحة المستثمرين الغرباء . ومع انه لم يسلم لنا ، بسبب من تدمير مدينة القطائع ، ايّ من منشآت خمارويه العمرانية الفخمة ، فقد حفظت لنا الأيام جامع ابن طولون ، الذي شيده أحمد مؤسس الدولة الطولونية ، في غضون سني ٨٧٦ — ٨٧٩ والذي لا يزال يكشف لنا بوضوح ، على الرغم مما انزلته به يد الزمان من اذى ، عن حقيقة النشاط الفني في ذلك العهد ومداه . وانما شيد ابن طولون جامعه هذا على طراز جامع سامرّا الكبير ، وان تكن سعة الأول لا تعدو نصف سعة الآخر . فثمة خمسة صفوف من الدعائم تخترق صحن الجامع الرئيسي ، واحد منها اليوم في حال خربة ، في حين تخترق ساحاته المحاذية نافذتان ذواتا اقواس مدببة واعمدة صغيرة في الزوايا مندمجة في الحائط بين الدعائم والجدران الخارجية . وتتألف هذه من الآجر ، وهي مغشاة بجص زينت سطوحه البيضاء بحواش مخرمة . وبالاضافة الى النوافذ ترى حنيات مدببة متوجة بأكاليل متعددة الزخارف بارزتها . ومن الحائط ينبثق المحراب ، ولا تدخل نصف دائرته الا خطوتين في الحائط . وتحيط بثلاثة من جوانبه ، بين جدرانه والسور الخارجي أروقة مكشوفة تسمى الزيادات ، تقيه من عابري السبيل . اما المئذنة — وهي نسيج وحدها في فن العمارة الاسلامية — فقد انشئت على طراز سامرّاويّ . وهي تنهض خارج الجامع ، في طرفه الشمالي . والواقع ان بناءها القائم من الحجارة الكلسية لا يتكشف عن الشكل اللولبي المألوف في العراق ، ولكنه مفرغ في صورة مربع كأبراج الفرس المجوسية القديمة (٧٠) .

---

(٧٠) انظر ديز **E. Diez, Die Kunst der islamischen Vôlker, 44 ff.**
وانظر ايضاً زكي محمد حسن **Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane à la fin du IX siècle, 868-905, Paris, 1933.**

ولئن كان في استطاعة حكومة بغداد أن تفتح مصر من جديد ، بعد ان استقلت عنها زهاء اربعين سنة ، لقد فقدت بالكلية ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، سلطانها على بلاد العرب الجنوبية . ففي ذلك الاقليم النائي من الامبراطورية ، عجز الاسلام عن تعديل الأحوال الاجتماعية والسياسية تعديلاً جوهرياً كاملاً . ذلك ان الحكام الارستقراطيين ظلوا يحتفظون بقلاعهم ويفرضون سلطتهم على مناطق نفوذهم ؛ كما كانوا يفعلون عهدَ سبأ وحمير ، من غير أن يجدوا معارضة من ممثل الخليفة في صنعاء ، ما داموا يؤدّون نصيبهم من الجزية في شيء من الاطراد . ولقد ترك لنا احد هؤلاء الحكام المحليين — وهو الحسن الهمْداني الذي توفي في سجن صنعاء سنة ٩٤٥ بعد اشتباكات متلاحقة مع القوى السياسية المسيطرة على طبقته الارستقراطية — صورةً عن موطنه المستغرق في الافتخار بأمجاده الثقافية القديمة التي ليس لايّ من الأقاليم الاسلامية ما يضارعها ، وذلك في كتابيه « الأكليل » و « صفة جزيرة العرب » . والحق ان الحكومة العباسية قد رأت من الخير ، فترة من الزمان ، ان تشجع نشوء القوى المحلية إلى جانب عمالها الرسميين . يدلك على ذلك أن المأمون ، بعد ان أخفقت سياسته العلوية ، وجّه إلى بلاد العرب الجنوبية قوات خراسانية تحت قيادة جندي مجرّب اسمه محمد ، وكان يدّعي النسبة الى زياد بن أبيه اخي معاوية لأبيه وأمير العراق ، فوفّق محمدٌ هذا الى اخضاع المقاطعات الساحلية حتّى الشّحْر في حضرموت ومشارف البلاد لسلطانه ، في حين ظلت الاراضي الجبليـــة خاضعة للحاكمين في صنعاء . ومن مقرّه في زَبيـــد استطاع هو وأعقابهُ أن يحتفظوا بسلطتهم في البلاد طوال مائة وخمسين عاماً ، وإن لم يستقر لهم الأمر دوماً . ومهما يكن من شيء ، فقد كبحت سلطة خلفه الثاني كبحاً شديداً على يد يَعْفُر بن عبد الرحمن ، أحد الاشراف المحليين الذين شقوا عصا الطاعة على عامل المعتصم . ولقد استطاع يعفر من مقرّه في شِبام أن

يبسط سلطته في اتجاه الجنوب ، في حين وُفق ابنه الى حمل الحكومة المركزية على الاعتراف به أميراً على صنعاء . ولم يلبث العلويون أن أدلوا دلوهم بين الدلاء . فقد ظهر دعاة القرامطة ، وسيأتي ذكرهم قريباً ، في المناطق الجبلية النائية ، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بمركزهم طويلاً ، وان لم ينقطعوا عن بث دعايتهم الدينية السياسية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد نجح أحد أعقاب زيد بن علي في ان ينشيء لاسرته سلطة هناك استطاعت ان تصمد لعاديات الاجيال والقرون ، ولا تزال الى اليوم تؤلف عنصراً قوياً في تاريخ بلاد العرب . فبعد ان اخفقت المغامرة التي نهض زيد بعبئها ، في العراق ، ابتغاء القضاء على سلطة الخليفة الاموي هشام ، انسحب اعقابه الى المقاطعات الواقعة في اطراف الامبراطورية . واتفق ان كان اشراف طبرستان ومازندران على الساحل الجنوبي من بحر قزوين يتلمسون زعيماً يسندون اليه امورهم تخلصاً من جور الامراء من آل طاهر . فوضع الحسن بن زيد ، احد حفدة زيد بن علي ، نفسه في خدمتهم . وكان ينزل في مدينة الري ، ويمتاز من اجداده بقوة العزم وبراعة السياسة . ولقد وُفق هو واعقابه ، الى ان يثبتوا هناك مدة تزيد على نصف قرن (٨٦٤ — ٩٢٨) حفلت بالحروب المتطاولة . كذلك ظهر من اعقاب زيد ، يحيى بن الحسين ، حفيد القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالرّسّي نسبة الى الرَّسّ ، وعلقت عليه الآمال ، بسبب من علمه وورعه ، في ان يبعث اثناء امامته امجاد البيت [العلوي] . حتى اذا تبين له ، بعد زيارة قام بها لابناء عمومته في طبرستان ، أن من المتعذر عليه ان يمكّن لنفسه هناك ، وجه انظاره نحو بلاد العرب الجنوبية حيث كانت الفوضى ضاربة اطنابها ، وكان خبر هذه الفوضى معروفاً في المدينة . وفي ١٦ آذار سنة ٨٩٧ ظهر وخمسين رجلاً ليس غير أمام ابواب صَعْدَة وهي الموقف الرئيسي القائم على طريق الحاج بين مكة وصنعاء ، والباعد عن الاخيرة مسيرة خمسة ايام فقط . ومن هناك دعا الناس ، بوصفه الامام الهادي الى طاعة آل الرسول . وكما ساعدت الحزازات القبلية ،

التي دعي الرسول الى ازالتها ، على تدعيم مركزه كزعيم للمدينة ، فكذلك وفق الهادي الى اكتساب عدد متزايد من الاتباع بسبب من الحكومة التي اصلح بها ما بين المسلمين والنصارى في أسقفية نجران القديمة ، اولاً ، وما بين القبائل الضاربة في تلك المنطقة ، في ما بعد. ولكن سلطته ظلت مقتصرة على صعدة وما جاورها ، لان القرامطة ورجال الدولة اليعفرية في جنوبي البلاد كانوا ينازعونه نفوذه هناك. ومهما يكن من امر ، فقد ترك الهادي لابنائه ، بعد ان توفي في ١٨ آب سنة ٩١١ ، مركزاً مكيناً لم يلبثوا ان انطلقوا منه وبسطوا سلطانهم على البلاد كلها (٧١).

القرامطة

وفي عهد الخليفة المعتضد ، الذي خلف أباه الموفق في تدبير أمر الدولة سنة ٨٩١ ثم خلف عمه على عرش الخلافة بعد عام ، اصابت البلاد المحيطة بقلب الامبراطورية هزة جديدة سببتها حركة دينية سياسية خطيرة. فقد كان شائعاً في الاوساط الشيعية ان كل ما يعانيه العالم من جور سوف ينقضي عندما يظهر المهدي ، وهو الامام الاخير ، الذي ما فتيء يحيا في الخفاء ، فيملأ الأرض عدلاً ورحمة. حتى اذا اخفقت جهود آل علي المتلاحقة في سبيل الثورة على النظام القائم ، تعلقت آمال اتباعهم بانقضاء العالم في وقت قريب. وبينا كان فريق منهم — وهو الذي لم يتحقق بالقوة السياسية الا في ما بعد — ينتظر ظهور هذا المهدي في شخص الامام الثاني عشر ، انحصرت آمال الفريق الآخر في الامام السابع ، اسماعيل ، الذي توفي سنة ٧٦٢ ، قبل والده جعفر الصادق نفسه. والواقع ان هذا الحادث ، والى حد ابعد ، تلك الصفة المقدسة التي كان يتمتع بها العدد « سبعة » في بلاد المشرق ، هما اللذان ، هيئا من غير شك لهؤلاء « السبعية » أساس مُعتقدهم.

---

(٧١) راجع فان آرندونك C. van Arendonk, **De opkomst van het zaidietische imamat in Yemen**, Leiden, 1919.

ثم اضيفت الى هذا ، العقيدة الايرانية القائلة بالنعمة اللدنية ، والنظريات الغنوستية التي تعود بأصلها الى النساك ، وعناصر من الفلسفة اليونانية واخرى من المانوية — ديانة الطبقة المختارة — لتُصهر في عقيدة باطنية تتلاءم مع الميل المعروف في الشرق الى تأسيس الجمعيات السرية — ذلك الميل المتوارث عن جنس الشرق الادنى ، والذي كثيراً ما استغله المحرضون طمعاً في الوصول الى مآربهم السياسية . وانما وجدت هذه المعتقدات تعبيرها الادبي ، بعد قرن من الزمان ، في ما كتبه اخوان الصفا من رسائل هي اقرب شيء الى ان تكون موسوعة فلسفية . ولقد نشأ القرامطة كفرقة ، اول ما نشأوا ، في العراق سنة ٨٩٠ في المنطقة المحيطة بواسط ، حيث اخمدت ثورة الزنج قبل ذلك بقليل . فهناك انشأ رجل يدعى حمدان قَرمط (لعلها كلمة آرامية معناها « المعلم السرّي ») مركزاً لاتباعه دعاه ، على غرار النبي ، « دار الهجرة » . وانما دعيت الفرقة كلها « القرامطة » نسبة الى لقبه « قرمط » . والواقع ان الالفة (وهي الشركة في الاموال) سادت في هذه الخلية الاولى من خلايا تلك الحركة . فكان المريدون يقيمون « ولائم محبة » يتناولون فيها « طعام اهل الجنة » [البُلغة] متبعين في ذلك ، على الارجح ، مثّل فرقة الصابئة الغنوستية الأصيلة في تلك الديار منذ القدم . ليس هذا فحسب ، بل ان بعض الروايات لتذهب الى ان عَبْدان ، وهو صهر حمدان ، قد وضع كتاباً شرح فيه طريق المريد او الناجب الى بلاغات الفرقة السبعة . والغاية من هذه البلاغات السبعة التي رُفعت بعد الى تسعة ، ان تنتهي بالمريد الى ان يؤمن — من طريق الدراسة الدقيقة لمعتقده الديني — بأن جمال العقيدة الكلي لمّا ينكشفْ له بعد ، ومن ثمّ الى ان يشك في آساسها . وبذلك يصبح خاضعاً لسلطة الامام المستتر وممثليه الذين بقيت اشخاصهم مكتومة عنه دوماً ، ويعلّم ان كل ما اوحي به سابقاً من تنزيل وشرائع دينية انما يمثل حجاباً لمعنى باطني لا يدرك الا بالتأويل ، ليس غير . حتى اذا أُعدّ المريد هذا الاعداد أُخذ أخيراً بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه ، وحرر من جميع

القيود العقائدية ، ومن جميع اغلال القانون ، في وقت معاً . ثم ان احد الرئيسين [صاحب الناقة] * اللذين كان من المفروض ان يكونا مستقرين خارج السواد [العراق] ، استبدل بعبدان داعية اعظم نشاطاً منه هو زِكْرَوَيه الدِنداني ووجهه الى سورية . فنجح سنة ٩٠٠ في تحريك الاعراب من بني العُلَيْص للانتفاض على الدولة الطولونية التي كانت قد انتهت آنذاك الى حال من الضعف بعيد جداً . ونودي [بصاحب الناقة] خليفة [وتسمى بأمير المؤمنين] ابي عبد الله محمد وزعم انه من نسل علي . وعاث القرامطة فساداً في جميع المدن السورية ، ولم تسلم من وحشيتهم وتصمد لحصارهم غير دمشق وحدها . وفي سنة ٩٠١ توفي خليفتهم ، فقام بالأمر من بعده اخوه عبد الله احمد [صاحب الخال] ، ولكنه لم يلبث أن أسر ، بعد عامين ، وقتل في بغداد . وما هي إلا فترة قصيرة حتى قتل زكرويه أيضاً . وكانت حكومة بغداد قد مكنت لنفسها في سوريا بعد أن تم سقوط الطولونيين ، وبذلك صار في ميسورها القضاء على حركة القرامطة هناك ، وفي العراق .

ولكن القرامطة وفقوا إلى فوز راسخ في بلاد العرب . فحوالى سنة ٨٩٤ بعث صاحب الناقة أبا سعيد الحسن بن بَهرام الجَنّابي إلى الأحساء في منطقة البحرين على الخليج الفارسي . فنجح هذا ، بمساندة الاعراب من قبيلة عبد القيس ، في انشاء دولة مستقلة هناك جعل عاصمتها المؤمنية بدلاً من هَجَر ، العاصمة القديمة ، وهي الهُفُوف اليوم . وإنما حكم هو وخلفاؤه في تلك الديار بوصفهم مفوضين من قبل الإمام المستتر ، واعتبروا في كثير من الفطنة التقليد الاعرابي القديم ، فسمحوا لشيوخ القبائل بأن يشاركوا في اتخاذ المقررات السياسية . والواقع أن ابن أبي سعيد وخليفته أغار على العراق أكثر من مرة فسلب ونهب ، كما أغار على قوافل الحج (٩١٤ — ٩٤٣) . ليس هذا فحسب ، بل لقد استولى في ١٢ كانون الثاني سنة ٩٣٠

(*) والاخر صاحب الظهور (المعربان)

على مكة نفسها ونزع الحجر الاسود من الكعبة وأنفذه إلى عاصمته بالاحساء حيث ظل طوال ثلاثين سنة . أما محاولات القرامطة تثبيت أقدامهم في جنوبي بلاد العرب فكانت أقل حظاً من النجاح ، كما أسلفنا (٧٢) .

الصراع على الخلافة – عبد الله بن المعتز

واستغرق هذا النضال ضد القرامطة عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد بأطوله (٩٠٢–٩٠٨) . [حتى اذا توفي] حاول وزيره العباس بن الحسن [بن أيوب] الجَرْجَرائي (وكان قد استبد في أيامه بجميع السلطات في الداخل ، من غير أن يحسن يوماً اصطناعها في براعة) أن يمد في عمر وزارته من طريق اختيار جعفر ، أخي المكتفي ، لخلافة المسلمين وولاية أمرهم ، متخذاً لقب المقتدر بالله وهو بعد صبي في الثالثة عشرة . بيد أن خصوم الوزير ما لبثوا ان ائتمروا به وقتلوه . ثم خلعوا المقتدر وبايعوا عبد الله بن المعتز . وكأن نكد الطالع أبى إلا أن يكون مصير عبد الله هذا كمصير ابراهيم بن المهدي قبل تسعين عاماً . ذلك بأنه أفرغ همته ، وهو في ميعة الصبا ، للعلم والشعر فِعلَ ابراهيم من قبله . وكانت تترقرق على شعره أناقة ارستقراطية تجري على أساليب المحدثين ، وأسلوب أبي نواس بخاصة ، وتهفو بين الفينة والفينة إلى تقليد الشعراء الأقدمين . والحق أن الترف الذي كان لا يزال طاغياً على أوساط البلاط ، لذلك العهد ، رغم ما أصاب الدولة من ضعف سياسي ، كثيراً ما تجلى في شعره عن طريق الأناقة اللفظية . ولكنه كان الى ذلك أول من تغنى بمآتي ابن عمه الخليفة المعتضد في قصيدة بطولية كثيراً ما سقطت إلى درك أرجوزة تسجل الحوادث وتسردها . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان أول من حاول أن يجمع في نظام واحد

---

(٧٢) راجع دي غويه M. J. de Goeje, **Mémoire sur les Carmathes de Bahrain, 2nd edition, Leiden, 1880.**

وراجع ايضاً لويس **B. Lewis, The Origins of Isma'ilism, Cambridge, 1940.**

شتات الملاحظات التي أبداها بعض اللغويين المتأثرين بالفلسفة اليونانية ، في ما يتصل بالبديع ، والتي ضمنوها عدداً كبيراً من شروحهم للدواوين الشعرية . كذلك عني ابن المعتز عناية بعيدة بتاريخ الادب ، فوضع اول تاريخ للشعر المعاصر * . اما مدى انغماس هذا الشاعر في مناعم العيش وملذاته فيتضح لنا من كتابه الذي ألفه في آداب الشراب والخمر ** .

ومهما يكن من امر ، فلم يكد هذا الامير ، القليل الحظ ، يرتقي عرش الخلافة حتى خلعه انصار المقتدر في اليوم نفسه ، وعلى رأسهم مؤنس الخادم (وقد عاد حديثاً من مكة ، وكان قد نفي اليها بعد ان خدم المعتضد صاحباً للشرطة) . واستطاع مؤنس ورجاله ان يردوا هجمات أصحاب الخليفة المنافس عن دار الخلافة في القصر الحسني *** وان يفوزوا بالنصر بعد ان هاجموهم واشتبكوا معهم في معركة دارت في شوارع المدينة . وهكذا اضطر عبد الله ان يلتمس النجاة في بيت صديق له جوهري ، حيث قتل في ٢٩ كانون الاول سنة ٩٠٨ بعد اثني عشر يوماً من استخلافه . وحاول مؤنس ان يستغل نفوذه عند الخليفة الحدث ، [المقتدر] ليضمن لنفسه المكافأة على ما اسداه اليه من خدمة ، ولكن الوزير [أبا الحسن] بن الفرات كثيراً ما حال بينه وبين النجاح في تحقيق اغراضه . والواقع ان المقتدر نفسه سعى مرتين للتخلص من هذا الرجل [أي ابن الفرات] الذي اساء الى الدولة اساءة كبرى بجشعه وعدم كفايته . ولكنه كان يعاود في كل مرة تسنم المنصب الذي أُقصي عنه ، حتى اذا استرد منصبه للمرة الثالثة وُفق المقتدر الى قتله وقتل ابنه المُحَسِّن في ١٨ تموز سنة ٩٢٤ .

مالية الدولة في عهد المقتدر

ان معرفتنا بمالية الدولة في ظل المقتدر لتقوم على اساس صورة وصلت

(*) « طبقات الشعراء » (المعربان)

(**) « الجامع في الغناء » (المعربان)

(***) نسبة الى الحسن بن سهل . (المعربان)

الينا عن موازنة سنة ٩١٨ — ٩١٩ . فعلى الرغم من ان معظم الولايات استقلت عن بغداد بالكلية فقد واصلت اداء الجزية اليها بمقادير ضخمة . وكانت الولايات الشرقية ، في السنوات الاولى من الحكم العباسي ، تؤدي ما يتوجب عليها من الجزية فضة ، في حين كان النقد الذهبي سائداً في البلدان التي سلخت عن الامبراطورية الرومانية ، حيث مناجم الذهب المستثمرة منذ العصور القديمة . ثم ان الذهب المتدفق على بغداد ما لبث ان أخذ سبيله الى المشرق ايضاً ، فاذا بالفضة تفقد ما يزيد على نصف قيمتها النقدية الاصلية . حتى اذا دب الضعف في جسم الحكومة المركزية استعاد النقد الفضي مكانته شيئاً بعد شيء . ففي عهد المقتدر لم يقرّ للخليفة بالسلطان الفعلي الا في العراق وخوزستان وفارس والجزيرة الفراتية وسورية ومصر ، في حين لم يقرّ له بالسيادة المباشرة الا في عُمان وآذربيجان وارمينية . وبينما كان العراق يقدم لخزانة الدولة ، من طريق الخراج ، والرسوم المفروضة على الملاحة والانهار والمكوس ١,٥٤٧,٧٣٤ ديناراً[٧٣] ، والولايات الشرقية تقدم ٦,٢١٣,٢٨٣ ديناراً ومصر وسورية تقدمان ٤,٧٤٦,٤٩٢ ديناراً ، كان على الخليفة ان يكتفي برقم اجمالي لا يتجاوز ٢٢٦,٣٧٠ ديناراً من آذربيجان وارمينية . تضاف الى هذا كله ١,٧٦٨,٠١٥ ديناراً من موارد الضياع والاوقاف . اما ابواب النفقات الواجبة التغطية فكانت تنتظم العناية بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وطرق الحج ، وتحصين الثغور والتخوم ، ورواتب القضاة ، والمحتسبين (ولاة الحسبة) ودواوين النظر في المظالم ، وأصحاب البريد في جميع الولايات . ولكن المبالغ العظمى هي التي كانت تُنفق على بلاط الخليفة وجنده ، ومع ذلك فكثيراً ما كان في استطاعة الخلفاء وذوي قرباهم أن يجمعوا ثرواتٍ طائلة . ففي ابتداء عهد المقتدر وُجد في بيت مال سلفه خمسة عشر مليونَ دينار كان قد جمع المعتضد وحده تسعة ملايين منها . ومهما يكن من شيء ، فكثيراً ما كانت الموازنة تُختم بعجزٍ .

(٧٣) كان الدينار يعادل ، لذلك العهد ، ما يزيد على ستة عشر درهماً من الفضة .

وإذ كان من المتعذر تغطية العجز من طريق القروض ، كما هو الحال في الدول الحديثة العصرية ، فقد جرت العادة بأن تجمع المبالغ المطلوبة على شكل غرامات مالية تفرض على المثرين ، وهم في الأعم الأغلب من الموظفين الذين كانوا بدورهم يبتزون أموال الشعب دون حساب . وكان هذا الاجراء من الالفة عندهم بحيث اتخذوا له اصطلاحاً قانونياً خاصاً هو « المصادرة » . ففي سنة ٩١٤ صادر المقتدر ثروة أحد الصاغة ، وتقدر بأربعة ملايين دينار . ولم تكن الغرامات المالية المراوحة بين الخمسين ألف دينار والمئة ألف دينار أمراً نادر الحدوث . ولقد نتج عن عدم الامان هذا الذي تعرضت له الثروات النقدية أن صار امتلاك الاراضي والضياع ، بطبيعة الحال ، وسيلة الى تشغيل الاموال مرغوباً فيها ، خاصة وان الخراج المفروض عليها كان ضئيلاً ، نسبياً . وكانت الأراضي التي يملكها الحكام المحليون غير خاضعة ، في الجملة ، للضريبة ؛ وفي بعض الاحوال كانت تؤدي ضرائب محدودة . وكان الأثرياء كثيراً ما يقفون ممتلكاتهم للفقراء ، وللدفاع عن ثغور الدولة وتخومها ، وللمدينتين المقدستين ، وما الى هذا كله من ابواب البر ، وبذلك يتخلصون من اداء الضريبة عن هذه الممتلكات ، ويقونها غائلة المصادرة . وكان الواقف يحتفظ لنفسه بادارة ما وقفه من ممتلكات ، حتى اذا توفي انتهت الادارة الى اكبر ابنائه ، وهكذا .

ولقد نشأت في مصر ، عن هذه الأوقاف ، أوقاف ذرية صحيحة . والحق ان ام المقتدر نفسها حاولت ان تحافظ بهذه الطريقة على ما كانت تملكه من أراض ، ولكنها لم توفق الى ما أرادت . وتفصيل ذلك انه بعد وفاة ابنها ، استخلف القاهر ، وهو أخو المقتدر لأبيه ، فسعى الى حملها على الاعتراف بحل أوقافها العظيمة ، ولكنها امتنعت عن ذلك ، في عناد ، فلم يكن منه إلا أن أحضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه انه قد حل أوقافها جميعاً . بيد ان خزانة الدولة اصيبت بأعظم الأذى حين لجأ الخلفاء ، بسبب من ندرة النقد في ايديهم ، الى دفع أرزاق جنودهم بأقطاعهم

الأراضي ، كما وقع لأول مرة في عهد القاهر . أما في الولايات فقد فُصل فصلاً دقيقاً ما بين السلطة العسكرية والشئون المالية ، كما سبق أن اشرنا . وكان العمال المعاونون للأمراء في حكم الولايات يتعهدون بأن يقدموا الى الحكومة المركزية مقادير بعينها من المال كضريبة تدفعها الولاية الى خزانة الدولة ، ومن ثم يعملون على ان يجمعوا هذه المقادير من جمهور السكان ، ويجمعون مقادير اضافية معها تكون بمثابة ربح شخصي لهم . وكان مساعدوهم يطبعون على غرارهم في ذلك . أما إذا وفق احد الامراء إلى ان يسيطر على الإدارة المالية أيضاً ، كما تمّ لاحمد بن طولون في مصر ، فعندئذ يكون سلطانه قد أوفى على الغاية . ومع الايام اضطر الخلفاء ، بسبب من حاجتهم الى المال ، الى تقليد القواد الاتراك جباية الخراج في مناطق واسعة في العراق لكي يجمعوا منها ارزاق جنودهم ، ولذلك فقدت خزانة الدولة موارد تلك المقاطعات . حتى إذا ذهب الخلفاء الى أبعد من ذلك فصاروا يعمدون الى دفع أعطية القواد الصغار والجند بالطريقة ذاتها ، منيت الخزانة العامة باضرار تجلّ عن الوصف . ذلك بأن الاقطاعيين الكبار كانوا يصونون لمصلحتهم الشخصية على الأقل ، منشآت الري التي لابد منها لاحياء التربة واستثمارها احسن الاستثمار منفقين في سبيل ذلك نفقة ما تنقطع . اما الصغار منهم فكانوا يسومون فلاحيهم سوء العذاب ، حتى إذا استنزفوا آخر نقطة من مواردهم اعادوا الارض الى الحكومة وطالبوا باقطاع اغنى وأعود (٧٤) . ومهما يكن من أمر فقد كانت الحياة محفوفة بالمخاطر ، يعوزها الامن والطمأنينة ، لا في الارياف وحسب ، بل في حواضر العراق ايضاً . والواقع ان حرب الزنج وغارات القرامطة عملت على شل حركة التجارة

(٧٤) راجع فون كريمر A. von Kremer, Uber das Einnahmebudget des Abbasiden - Reiches vom Jahre 306 H (918-919), Abhandlungen der Wiener Akademie, 1887.

وراجع ايضاً بيكر C. H. Becker, Steuerpacht und Lehns wesen, Islam V, 81-92.

والمواصلات سنوات متطاولة. أما ترف الطبقات العليا فلم يكن يعدله من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع، على الرغم من الاقتصاد الذي اشتهر به الشرقيون، وعلى الرغم من ان قوة النقد الشرائية كانت لا تزال على شيء من الارتفاع، في ذلك العهد.

الصوفية والصوفيون

وكان مما يزيد في عنف الصراع الحزبي القائم بين الحكام ذلك التوتر الذي ساد علاقات الفرق الدينية والذي كان الدعاة يذكون ناره، على غير انقطاع. ولم يقتصر ذلك على مجرد الشقاق بين الشيعة والسنة. فقد كان الحنابلة المتحرجون ما ينفكون يثيرون الخلاف بين جماعات السنة انفسهم. ومن هنا حاول اصحاب النفوس الأكثر صفاء وعمقاً الفرارَ بأنفسهم من صخب المنازعات حول المسائل السياسية الدينية والقضايا المذهبية، الى «طمأنينة المشاهدة». والحق أن هذه النزعة إنما ترقى إلى عهد الامويين في العراق، حيث عمل في هذا الاتجاه كل من الحسن البصري (ت ٧٢٨) في البصرة، وجابر بن حيان الكيميائي الشيعي، وأبي العتاهية الشاعر، في الكوفة. حتى إذا أصبحت بغداد عاصمة الامبراطورية جمع المنصرفون الى حياة التأمل شملهم حلقات حلقات، فهم يلقون الدروس العامة في مساجدها وفي الأوساط المختلفةِ الخاصةِ بهم، وهم يحاولون ان يحركوا [في نفوسهم] الشعور الصوفي ويصقلوه بواسطة السماع (الموسيقى). ليس هذا فحسب، بل لقد استعاروا من رهبان النصارى أرديتهم الصوفية البيضاء، التي عرفوا بسببها بالصوفية. كذلك يبدو الأثر النصراني واضحاً في شكل رياضات المشاهدة عندهم، ولكن اصول الحركة كانت عربية واسلامية خالصة. وانما تظهر اهدافهم الاساسية اوضح ما يكون الظهور، في خطب الحسن البصريّ اولاً، ثم في اعترافات [وصايا] المحاسبي الذي ولد في البصرة سنة ٧٨١، ونزل بغداد في سن مبكرة ليموت فيها

سنة ٨٣٧ . وإذ قد ألفى ان الاسلام في عصره يتشعب إلى فرق واحزاب متعددة فقد حاول بادىء الامر أن يلتمس لهذه الامة زعيماً دينياً فلم يفلح . ثم انه ادرك — كما أدرك صاحب الشريعة الاسلامية — أن ليس في ميسور المرء أن يحظى بخلاصه الروحي إلا خارج نطاق المجتمع المحيط به ، وان الدراسة العميقة للقرآن خليقة بأن تكشف له عن الطريق القويم الذي يقوده إلى الله ، إذا ما أخذ نفسه أخذاً شديداً بتعاليم الكتاب [القرآن] وتأسى بالنبي في كثير من الدقة والصرامة . ذلك أن شعور المرء بأنه قد حاز رضا الخالق من طريق اتباع أوامره اتباعاً دقيقاً يغمر روحه بالشكران ويبعث في ذات نفسه حب الله . وانما يجوز الصوفي في طريقه هذا أحوالاً ومقامات تقوده بالتوبة ، والصبر ، إلى الانس بالله ، وأخيراً إلى مشاهدة الحق . ومثل هذه المحاولات لاتصال النفس بالله عن طريق غير منصوص عليها في السنّة ما كان ممكناً أن تنجو من النقد والاعتراض . وعلى الرغم من ان ما ذهب اليه المحاسبي لم يكن قد اعتُبر كفراً ، بصورة علنية ، فقد قال احمد بن حنبل بأن صلة هذه الآراء وثيقة جداً بالطرائق العقلية التي يتبعها المعتزلة . ثم ان الصوفية تطورت تطوراً جديداً على يد الجُنَيد الذي تتلمذ ، أول الامر ، على خاله السريّ السقَطي وتعرف بواسطته إلى تعاليم معروف الكرخي الزاهد . ولكن هذه التعاليم البسيطة لم تستطع ان تحمل إلى نفس الجنيد ارتياحاً باقي الاثر . ليس هذا فحسب ، بل لقد شجب نزعة استاذه الجديدة إلى أن يفرغ تعاليمه في ألفاظ الفقهاء . والواقع ان نقطة الدائرة في عالمه الفكري كانت محبة الله محبّةً تستولي على المرء استيلاءً كاملاً تتلاشى معه النفس كلها بالذات العليا . ثم جاء تلميذ الجنيد ، الحسين بن منصور الحلاج ، فطور هذه الفكرة التي كانت بمثابة النواة لكل حركة صوفية في ما بعد ، من طريق التطبيق الصارم . وإنما ولد الحلاج في فارس ، سنة ٨٥٨ ، من أب زرادشتي . وفي تستَر بخوزستان ، دخل حلقة سهل التستري ، وهو مفكر حرٌّ خلع على نظرية المحاسبي القائلة بضرورة الرجعة الى الله

ثوباً من التقشف المستمر أمسى منذ ذلك الحين تقليدياً ، وتحدث عن هالة النور التي تحيط (بطريقة سرية سابقة الوجود) ، بأرواح جميع المؤمنين وتمنحهم الحق في أن يشعروا أنهم في اتحاد بالله ، وهي صورة مستمدة من بعض المعتقدات الشيعية . ولم تلبث العاصمة ، بغداد ، ان اجتذبت الحلاج بزهوها ورونقها ، فقصد إليها ملتحقاً بالجنيد . حتى اذا صحبه نحواً من ست سنوات أغراه سهلٌ بالانفصال عنه بما أدخله في رُوْعه من أنه قد انتهى الى حال الاتحاد بالله ، تلك الحال التي كانت لا تزال هدفاً يتطلع اليه شيخه الجنيد . وهكذا انقلب داعياً يضرب في البلاد ، وتقوده رحلاته حتى الهند . ولقد اتصل خلال رحلاته هذه بالرازي ، أشهر اطباء العصر ، فتخرج عليه في الفلسفة اليونانية . وتذهب بعض الروايات الى انه اتصل كذلك بزعماء القرامطة . وبعد أن أدى فريضة الحج للمرة الثانية قفل إلى العاصمة سنة ٩٠٨ . وسرعان ما ازداد عدد تلامذته بسبب من عقائده الشطحية التي انتهت الى قوله بالاتحاد بالارادة الالهية من طريق الاقبال على الألم والوصول الى الروح الالهي بواسطة التقشف والزهد ؛ وهي حالٌ تسمح لصاحبها ، وهو الشاهد الالهي ، بأن يساوي نفسه بالحق ، ومن ثم يرتفع عنه التكليف ويزول . والواقع ان نشاط الحلاج هذا بدا خطراً جديداً على النظام الاجتماعي المتهافت ، ومن هنا لم يكن عسيراً على الفقهاء ان يوغروا صدر الحكام عليه . فألقي في غياهب السجن حيث قضى ثماني سنوات ذوى خلالها عوده وذهبت نضرته . والحق ان ام المقتدر وحاجبه نَصْراً سعيا في إنقاذه ، ولكن هذا الاهتمام نفسه جلب عليه نقمة الوزير ، حامد [ابن العباس] . وبعد محاكمة دامت سبعة اشهر اصدر قضاة المذاهب كلها قراراً اجماعياً بقتله ، فأعدم صلباً ، يوم ٢٦ آذار سنة ٩٢٢ ، في الباحة المنبسطة امام سجن بغداد الجديد ، ثم حُزّ رأسه واحرقت جثته . وليس من ريب في ان استشهاده هذا هو السبب الأول في ما تم لآرائه بعد من ذيوع وخطر . اما مريدوه فقد فروا بأنفسهم الى خراسان حيث مهدوا

الارض لنشوء ثمرة من اطيب ثمرات الثقافة الاسلامية ، أعني الشعر الصوفي عند الفرس والاتراك .

امرة الأمراء

كان الخليفة المقتدر عاجزاً عن تثبيت سلطته التي ما انفك القرامطة يتهددونها بخطر شديد ، حتى بعد ان تخلص من وزيره ابن الفرات . والواقع انه التمس العون من يوسف بن ابي الساج امير آذربيجان ، فلم يغن ذلك عنه شيئاً . وفي شباط سنة ٩٢٩ اضطره هياج الجيش الى التنازل عن العرش لأخيه محمد القاهر . حتى اذا استشعر القاهر – او على الاصح ، صاحب الشرطة الذي رفعه الى العرش – عجزه عن اشباع رغبات الجند المطالبين بأرزاقهم ، استدعي المقتدر كرّة اخرى ، وكان قد لاذ بالفرار مع وليّه مؤنس . ولكن الوحشة لم تلبث ان وقعت بينهما لان المقتدر استشعر انه لا يستطيع ان يثق بمؤنس الثقة كلها ، فاستعدى عليه صاحب شرطته الجديد محمد بن ياقوت . وعلى الرغم من ان هذا الاخير قد وُفق الى اخضاع الرجالة ، حامية بغداد المتمردة ، فقد اضطر الخليفة الى ان يبعده الى سجستان ، في تموز سنة ٩٣١ ، نزولاً عند رغبة مؤنس والحاحه . فلما كان شباط سنة ٩٣٢ استدعاه الخليفة وسيّره على رأس جيش لمقاتلة مؤنس ، الذي كان ينحدر الى بغداد من الموصل . ولكن محمداً لم يجروْ على ملاقاة مؤنس فانقلب الى العاصمة من جديد . وهنا لم يجد الخليفة بداً من ان يتقدم بنفسه على رأس الجند لقتال قائد جيوشه الأعلى ، الشاقّ عصا الطاعة . وكان المقتدر يُدرك جيداً انه سيقضي في الميدان ، ومن ثم وضع السواد فوق قفطانه الفضي وارتدى فوقه البردة النبوية وشد على حقويه منطقة النبي الحمراء وسيفه ، وجال جولة قصيرة سقط على اثرها صريعاً في ٣١ تشرين الاول سنة ٩٣٢ . ومع ان مؤنساً كان يرغب في استخلاف احمد بن المقتدر ، الذي حارب الى جانب ابيه ، فقد نجح محمد القاهر ، عم احمد هذا ، في

الاستيلاء على ازمة الحكم التي أقصي عنها من قبل. والواقع ان الوحشية والشحّ كانا أبرز خصاله. ولقد تنافس في السيطرة عليه كلٌ من الوزير ابن مقلة، وصاحب الشرطة محمد بن ياقوت، والأمير مؤنس. حتى اذا حاول القاهر التخلّص من وزيره دبّر هذا الاخير مؤامرةً لخلعه وتنصيب ابن المكتفي خليفةً على المسلمين. ولكنَّ المؤامرة لم تلبث ان افتضحت فخلع الخليفة مؤنساً وأمر بقتله. اما ابن مقلة فلاذ بالفرار، وطفق يجوب البلاد، في زي المكدّين، ليغري الناس بالثورة على الخليفة. وكان من نتائج ذلك ان هوجم القاهر في قصره، نيسان سنة ٩٣٤ فسملت عيناه وألقي في غياهب السجن بعد ان أبى التنازل عن العرش. ثم ان احمد ابن المقتدر رقي العرش متخذاً لقب الراضي. ولكنه اضطر الى التخلي عن السلطة لمحمد بن ياقوت، ثم لابن مقلة بعد ان زالت دولة محمد، في نيسان سنة ٩٣٥، حتى اذا انقضى على ذلك عام (نيسان سنة ٩٣٦) واستطاع المظفر، أخو محمد، ان يلقي القبض على الوزير، التمس الخليفة ظهيراً جديداً يستند اليه [فوقع اختياره] على محمد بن رائق وقلده لقب «أمير الأمراء» بعد ان عهد اليه بقيادة الجيوش العليا. ليس هذا فحسب بل لقد عينه رئيساً للحكومة وأمر بأن يُخطب له على المنابر، وهو تشريف خاص بالخلفاء واولياء العهد. وهكذا لم يعد للخليفة، بادىء الرأي، أيما سلطة خلا الزعامة الدينية العليا، وهي كل ما تبقّى لخلفائه ايضاً. ولكن ابن رائق اخفق في فرض سلطة الحكومة المركزية على شرق الامبراطورية، في حين لم يوفق الى صد القرامطة عن بغداد الا لقاء جزية تعهد بادائها اليهم. وما هي الا سنتان حتى اضطر ابن رائق الى ان يخلي مكانه لـ «بَجْكَمْ» الديلمي الذي استطاع ان يكبح عنان الحمدانيين والبويهيين فترة من الزمان.

بنو حمدان في الموصل وحلب

في القرن العاشر للميلاد وقع عبء الحرب ضد الروم البيزنطيين على

عاتق اسرة عربية النجار هي الاسرة الحمدانية . وتفصيل ذلك ان حمدان مؤسس هذه الاسرة ، ورأس بني تغلب ، استطاع ان يستولي سنة ٨٩٠ على قلعة ماردين في الجزيرة العليا ، من طريق التحالف مع الخوارج . وعلى الرغم من انه وقع آنذاك اسيراً في يد الخليفة ، فقد حظي بعفو هذا الاخير عنه بعد ان هزم ابنه الحسين الخوارج . وفي سنة ٩٠٥ عين ابو الهيجاء ، اخو الحسين ، اميراً على الموصل من قبل المقتدر ، فظل يحكمها بقية حياته حتى توفي سنة ٩٢٩ يساعده في ذلك ابنه الحسن ابتداء من سنة ٩٢٠ . والواقع ان الحسن لم يلبث ان بسط سلطانه على الجزيرة كلها وشمالي سورية . فلما كانت سنة ٩٤١ ، واضطر الخليفة المتقي الى ان يفرّ الى الموصل مع امير الامراء ابن رائق[٧٥] ، بعد ان تعددت هجمات البريدي واخوته من خوزستان ، على العراق ، قتل الحسنُ [بن حمدان] ابن رائق واكره الخليفة على ان يقلده إمرة الامراء ويخلع عليه لقب ناصر الدولة . ثم ان ناصر الدولة واخاه علياً الذي لقب في الوقت نفسه سيف الدولة ، أعادا الخليفة الى عاصمته ، بغداد . وأياً ما كان ، فلم يكد مُعز الدولة البويهي يحتل بغداد سنة ٩٤٥ حتى شن على الحمدانيين حرباً انتهت بسقوط دولتهم . وبقي ناصر الدولة [في امارته على الموصل وديار الجزيرة كلها والشام على ان يؤدي عنها جزية لمعز الدولة ويخطب فيها للبويهيين] . وعلى الرغم من محاولاته المستمرة للتهرب من القيام بتعهداته هذه فقد حافظ على مركزه إلى ان قبض عليه [ابنه ابو تَغْلِب] وحجرَ عليه بحجة عدم الكفاية ، وسجنه . وكان ذلك لسنة قبل وفاته في عام ٩٦٨ . والحق ان عهده كان أسوأ مثل للاستبداد الشرقي . ذلك بأن الضرائب الباهظة التي أنقضت ظهور أفراد رعيته عجزت عن اشباع مطامعه ، فوجه همه نحو ضم الكثرة العظمى من اراضي البلاد الى ممتلكاته الخاصة . ولقد كان في وسع ابنه الاحتفاظ باستقلاله فترةً قليلة في الموصل ، حتى اذا توفي سنة ٩٧٩ فقدَ اخوته

(٧٥) وكان قد وفق الى استعادة هذا المنصب بعد ان فقده .

وذريته هذا الاستقلال ، بعد ان اخضعهم البويهيون والفاطميون لسلطانهم .

بيد ان الشهرة التي حظي بها سيف الدولة ، اخو ناصر الدولة ، كانت أوسع وأبقى . لقد أدرك ان من المتعذر عليه التمكين لنفسه في العراق ، بوصفه عامل الخليفة المقدّم ؛ ضد الاتراك والبويهيين ، فولى وجهه شطر سورية . فانتزع حلب سنة ٩٤٥ من ايدي الاخشيدية ، المتغلبين على مصر . ثم انه حاول ان يبسط سلطانه على دمشق أيضاً ، ولكنه أخفق ، ليفرغ من ذلك الحين للمهمة التي وقف شبابه لها ، أعني النضال ضد البيزنطيين . وعلى الرغم من ان سيف الدولة أعلن الطاعة للفاطميين عندما نشروا سلطانهم على مصر ، وبالتالي اتبع المذهب الشيعي ، فقد احتفظ بسيادته التامة في جميع أرجاء ملكه . وكان قوام الحرب ضد البيزنطيين ، في القرون السابقة ، غزوات صيفية ومناوشات حول الحصون والقلاع يُكتب فيها النصر للعرب حيناً وللبيزنطيين حيناً . والواقع أن أولى حملات سيف الدولة على البيزنطيين ، سنة ٩٤٩ ، انتهت الى الإخفاق . حتى اذا حال الحول أعاد سيف الدولة الكرة على الاعداء ، فكان له النصر ، وغنم مغانم عظيمة . فلما أراد العودة أوقع به الروم في مضيق صعب من جبال طورس فاستردوا الغنائم جميعاً ونجا سيف الدولة في عدد يسير ، وما كاد . ونشأت على جانبي الحدود طبقة من الجنود المحترفين أقطعهم قوادهم الاراضي فاستقروا فيها وتبادلوا في فترات السلم —وكانت هذه أطول من فترات الحرب— أسباب الثقافة والحضارة . والظاهر ان عامل الامبراطور البيزنطي المقدّم ، برزوس فوكاس * استشعر اشتداد الخطر على الامبراطورية سنة ٩٥٣فقذف الى الميدان بجيش عظيم شارك فيه الروسُ والبلغار والخزر ، ولكن سيف الدولة ظهر عليه بجنده وهزمه هزيمة شنعاء قرب مَرْعَش . ثم ان يوحنا تسيميتشسيس (الدمستْق) ثأر لقومه ، بعد خمس سنوات ، فانتصر على العرب في بلادهم

(*) وتسميه المصادر العربية خطأ بالدمستق . (المعربان)

بالذات ، غير بعيد من حلب . كذلك مني سيف الدولة بهزيمة قاسية سنة ٩٦٢ على يديْ العامل البيزنطي نقفور . وسقطت حلب هي وقلعتها في ايدي الروم الذين كانوا يعيثون فساداً في الديار المحيطة بها ، ومع ذلك فقد كان في ميسور سيف الدولة ان يصد هجوماً قام بهٌ الروم ، بعد عامين ، على الرغم من فالج نصفي كان قد لحقه . وفي سنة ٩٦٧ توفي سيف الدولة في حلب ، فخلفه ابنه سعد الدولة ثم حفيده سعيد الدولة اللذان احتفظا بحلب حتى سنة ١٠٠٢ ، من طريق تحالف عقداه مع الروم البيزنطيين – وهم اعداء الحمدانيين القدماء – دفعاً لخطر الفاطميين المشترك على الفريقين المتحالفين .

الحياة الفكرية في ظل سيف الدولة

ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم ، في المحل الاول ، فليس من شك في انه مدين بذلك ، في المحل الثاني ، لعطفه على الفنون والعلوم ورعايته لها . وكان ابن عمه ابو فراس – الذي تولى اعمال منبج من قبله فحارب الروم دونها ، والذي اسره هؤلاء مرة فقضى في القسطنطينية سنتين – شاعراً بارعاً في وسعه ان يتلاعب بالعواطف ، وخصوصاً في قصائده الحزينة التي قالها وهو اسير [الروميات] . وله قصيدة في مدح العلويين حظيت بمقام عظيم عند الشيعة وهي تدرس وتشرح في أوساطهم حتى يومنا هذا . وفي سنة ٩٤٨ وفد على بلاط سيف الدولة الشاعر المتنبي ، احد الكواكب اللامعة التي كانت آخر ما ازدانت به سماء الأدب العربي . وانما يدين المتنبي بلقبه هذا الذي عرف به ، لهوس الشباب وطيشه اذ حاول ، بوصفه محرضاً قرمطياً ، ان يضرم نار الثورة بين الاعراب في بادية الشام ، بين الكوفة وتدمر . والواقع ان ما قاله من شعر حتى بعد تلك المحاولة ظل مشرباً بالصور القرمطية ، على الرغم من شدة عنايته بتهذيب ألفاظه الاعرابية التي اكتسبها من البادية . وقضى المتنبي

تسع سنوات في حلب غنى فيها مآتي الامير الحمداني ، ثم فارقها بعد وحشة وقعت بينه وبين ممدوحه ، ليفزع بآماله اول الأمر الى امير مصر التركي ، كافور الاخشيدي ، ومن ثم الى عضد الدولة البويهي في فارس . وفيما هو عائد من تلك الديار لقي حتفه في هجوم شنه عليه نفر من اللصوص قرب بغداد . والواقع ان المتنبي التزم في شعره شكل القصيدة القديمة في كثير من البراعة ، ولكنه على تعلقه بالاساليب الكلاسيكية والتزامه اياها بشدة فائقة ، بارى القدماء في غنى مفرداته ، وبزّهم باستعاراته الجريئة ، في كثير من الاحيان . وعلى الرغم من ان شعره كثيراً ما انتقد أعنف النقد من معاصريه — وبخاصة من المتعصبين لصفاء اللغة القديم — فقد نعمت قصائده المنبثقة عن روح عربية خالصة باعجاب العرب الاجماعي في جميع العصور ، بل انها ما تزال الى اليوم في ايدي المثقفين جميعاً ، حتى في عُمان الواقعة في اقصى جزيرة العرب ، يتدارسونها ، ويحفظونها ، ولا يقدمون عليها اثراً ادبياً غير مقامات الحريري . وفي دمشق ، اشترك العالم العربي كله ، سنة ١٩٣٦ ، في الاحتفال بذكرى انقضاء الف عام على وفاته .

ولم تقتصر الحركة الفكرية في بلاط سيف الدولة على الشعر والأدب بل عدتهما الى العلم ايضاً ، بروح ملؤها التفهم والادراك . فلمع في سمائه احد تلامذة ارسطو الكبار [ابو نصر] الفارابي التركي الأصل ، الذي أتم دروسه في بغداد . ومع ان مؤلفات ابن سينا استطاعت بعدُ ان تخرج كتابات الفارابي من دائرة التداول الأدبي ، ومع ان النظام الفكري الذي قال به الفارابي لم يستطع ان يحظى بسلطان دائم في العالم الاسلامي ، فالواقع ان هذا الرجل ليمثل بوصفه احد تلامذة الفلسفة اليونانية الأكثر استقلالاً ، ظاهرة بارزة جداً في تاريخ الحضارة الاسلامية .

البويهيون في فارس والعراق

في هذه الاثناء نشأت في شرق الامبراطورية ، وبين جمهرة من الحكام

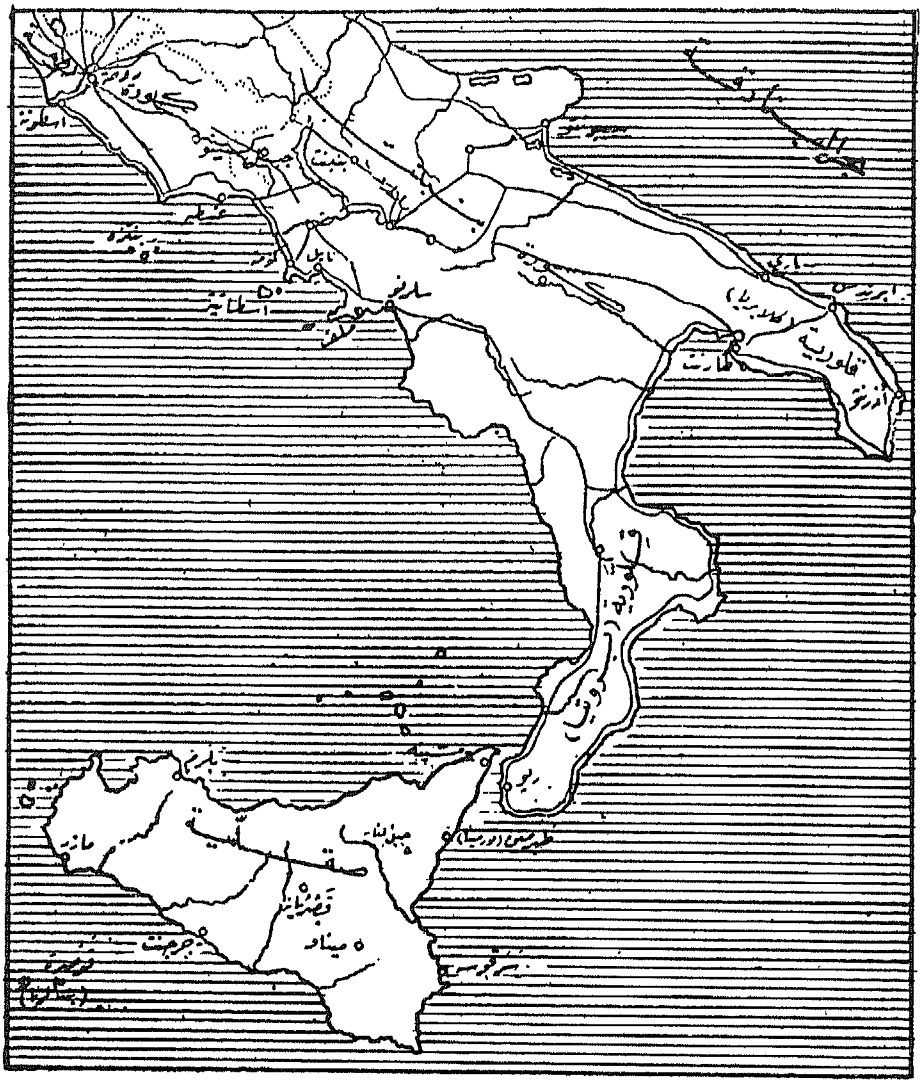
الصغار ، أسرة جديدة كتب لها ان تمثل دوراً رئيسياً في السياسة الاسلامية . وتفصيل ذلك ان رجلاً من الدّيلم اسمه مَرْداويج [بن زيار] استطاع ان يقضي على الزّيدية المتغلبين في طبرستان ليستقل بحكم تلك البلاد من دونهم . وكان يعمل في خدمته رجل من مواطنيه يدعى بُوَيه . وكان علي ابن بويه حاكماً على بلاد الكَرَج ، جنوب شرقي همذان . وهناك ثار على سيده سنة ٩٣٢ ، فاحتل إصفهان بعد أن أخرج منها حامية الخليفة القاهر . ومع ان مرداويج كان لا يزال قادراً على الاقتصاص من الثائرين بطردهم من المدينة واعادتها الى الخليفة ، فقد وفق عليٌّ بالتحالف مع اخوته الى بسط سلطانه في مناطق جديدة من فارس ، حتّى اذا كانت سنة ٩٣٤ استولى على شيراز ، وجعل منها مقره . وفي سنة ٩٣٥ ، عندما تمرد جند مرداويج الاتراك عليه فقتلوه ، استولى (الحسن) اخو علي على بلاد الجبال ، في حين كان أخ له آخر اسمه احمد قد فتح كِرمان .

وكانت الاحوال في بغداد قد انتهت ، في الوقت نفسه ، الى غاية من الفوضى يسرت عليه التدخل . ذلك ان المتقي (٩٤٠ – ٩٤٤) الذي تولى الخلافة بعد الراضي ، كان مجرد العوبة في ايدي القواد المتنافسين على السلطة ، من جهة ، وفي أيدي البريدي والي خوزستان ، وابن رائق ، والحمدانيين من جهة ثانية . حتّى اذا حاول الدخول في مفاوضات مع إخشيد مصر اعتقله توزون ، الامير التّركي وسمل عينيه . ولم يكن ابنه المستكفي احسن منه حالاً ، واكثر سلطاناً . فلما عجز الامراء المسيطرون عليه عن ارضاء الجند المطالبين بدفع ارزاقهم ، وعجزوا عن القضاء على شبح المجاعة التي كانت تهدد العراق بالخطر رأى من الخير ان يرحب بأحمد بن بويه منقذاً ومخلصاً ، وكان يزحف بجيوشه من كرمان ، في اتجاه الغرب . واستولى احمد على واسط بعد معركة نشبت بينه وبين البريدي والامير توزون . وفي كانون الاول سنة ٩٤٥ دخل بغداد ، ظافراً فقلده الخليفة إمرة الامراء وشرّفه بلقب « معز الدولة » . ومهما يكن من شيء ، فلم تكد تنقضي فترة وجيزة

حتى أُورد المستكفي موارد اسلافه ، بسبب من اتصاله في ما يقال ، بأعداء البويهيين . ثم جاء من بعده خلفاؤه المطيع (٩٤٦–٩٧٤) والطائع (٩٧٤–٩٩١)، والقادر (٩٩١–١٠٠٣) فما زادوا على ان كانوا مجرد صنائع للبويهيين يُجرون عليهم الرواتب . والواقع انه لم يبق لهم من السلطة الا مظاهرها كالسكّة والخطبة . اما [البويهيون] الذين تسلطوا على الخلفاء واستبدوا بهم فأقاموا في بغداد [حيث انشأوا « دار المملكة »] فترة ، وفي شيراز [عاصمتهم] فترة اخرى . ولم يستطيعوا ان يحتفظوا بسلطانهم الا بمنازعات دائمة مع سكان الجبال الايرانية ، أمثال الديلم ، الذين ما فتئوا يظهرون نزعات متزايدة الى الثورة ، ومع القبائل العربية في الجزيرة حيث قامت بين ظهرانيهم ، بعد سقوط الحمدانيين ، دويلات سرعان ما اصبحت اثراً بعد عين . وما لبثت ذرية هؤلاء الأخوة الثلاثة الذين انشأوا الدولة البويهية أن تنازعت غير مرة على الارث. فمنذ سنة ٩٧٦ أخذ عضد الدولة ، ابن الحسن بن بويه ، ينتزع من ابناء عمومته واخوته جميع ما كان في حوزتهم من البلاد ليضم العراق وفارس من جديد في ظلّ دولة موحدة . ولكن هذه الدولة لم تلبث ان انحلت سنة ٩٨٣ بسبب المنازعات التي نشبت بين ابنائه . وفي سنة ١٠٢٩ ظهر محمود بن سُبُكتكين التركي على [مجد الدولة بن فخر الدولة البويهي] المتغلب على الولايات الشرقية ، في حين قبض طُغْرلبك السلجوقي سنة ١٠٥٥ على [الملك الرحيم] الذي كان اليه حكم العراق . ولقد قضى كلٌّ من مجد الدولة والملك الرحيم آخر ايامه في السجن .

الاغالبة في افريقية وصقلية

كان المغرب قد تحرر منذ طويل من سلطان الخليفة العباسي . والواقع ان إفريقية استقلت استقلالاً مطلقاً ، في ظل الاغالبة ، ابتداءً من سنة ٨٠٠ م . على الرغم من ان هؤلاء لم ينقطعوا عن تذكير الخليفة بفتوحاتهم وانتشار سلطانهم بما كانوا يرسلونه اليه من غنيمة . ففي الغرب امتدت



دولتهم حتى بُونة ، وفي الجنوب الغربي امتدت حتى الزاب الذي كانت تحده ممتلكات دولة الرّستميّين اصحاب تاهَرْت ، وكان قد أسسها الاباضيون وهم فرقة من فرق الخوارج . اما في الشرق فقد بسطوا سلطانهم على طرابلس الغرب التي كانت ، على كل حال ، مهددة ً ابداً من قبل البربر في جبل

نفوسة ، وكانوا من الخوارج ايضاً . وكانت القيروان ، عاصمة دولتهم ، آهلةً ، بكليتها ، بالمهاجرين العرب الذين لم يكونوا على صلات حسنة مع البربر . ولقد حاول البربر ان يلتمسوا سناداً لهم يتقون به دعاوى العرب وصلفهم ، فلم يجدوا خيراً من الاخذ بعقائد الخوارج .

والحق أن الغنى والقوة اللذين تمّا للأغالبة [٧٦]، بسبب من الموقع الممتاز الذي تتمتع به اراضيهم ، ببقاعها الداخلية الخصبة ومرافئها المسيطرة على تجارة البحر الابيض المتوسط ، لا يزالان حتى اليوم ، يتجليان في جامع عاصمتهم ، القيروان ، الذي يعتبر من افخم المنشآت الدينية في الاسلام ، وان يكن دون مساجد سامراء ومصر ضخامة واتساعاً . وعلى الرغم من انه يُدعى «سيدي عُقْبة » ، نسبة الى الفاتح الاول ، فالواقع ان ما بناه عقبة لم يبق منه غير المحراب القائم اليوم وراء المحراب الحالي الذي يرقى ، هو والبناء جملةً ، الى عهد زيادة الله الاول . ويشتمل الصحن الرئيسي على سبعة عشر رواقاً يمتاز أوسطها — وهو أوسعها جميعاً — بصفين مزدوجين من الاساطين وتواكبه من جانبيه بلاطة معارضة تمتد بين حائط المحراب وصفٌ مزدوج من الاساطين . ولقد زخرف [ابو ابراهيم] احمد الأغلبي (٨٥٦ — ٨٦٣) هذا الجدار بالآجر القاشاني وتوج المحراب بقبة ؛ وفي عهده اقيم المنبر الشهير المصنوع من خشب الدُلب البغدادي . ويفصل الرواق الرئيسي عن الصحن ابواب خشبية رائعة ؛ وجميع اروقة الصحن تقوم على دعائم مرتكزة على اعمدة مزدوجة تزيد في جمال البناء . وفي سنة ٨٧٦ عندما تعاظم نفوذ الفقهاء المالكية المعروفين بتحرجهم الشديد ، في القيروان ، انشأ سابع امرائهم ابراهيم الثاني حاضرةً جديدة في رَقّادة ، على بُعد تسعة كيلومترات من الساحل ، فِعل العباسيين من قبلـه .

وفي عهد زيادة الله ، ثالث الاغالبة ، (٨١٧ — ٨٣٨) بدأ فتح صِقِلّية

---

(٧٦) انظر فوندرهايدن M. Vonderheyden, La Bérbérie orientale sous la dynastie des Benou Aglab, Paris, 1927.

فوُفق العرب بعد معارك متعدّدة تراوحت فيها حظوطهم بين الفوز والاخفاق الى تثبيت أقدامهم في الجزيرة بالاستيلاء على بَلَرْم في ايلول سنة ٨٣١ ، حتى اذا دخلت سنة ٨٤٠ كان العرب قد فتحوا ثلْث صقلية تقريباً . ومهما يكن من أمر ، فجيوش الاغالبة لم تحرز هذه الانتصارات منفردةً ، إذ كان يساعدها على ذلك جماعة من أهل الاندلس المغامرين الذين نزلوا أرض الجزيرة سنة ٨٣٠ ثم توالت عليهم الأمداد من الوطن . وفي سنة ٨٧٥ سقطت سَرَقُوسة أيضاً في ايدي الاغالبة . ولكن الشقاق بين مختلف القبائل العربية كان ههنا عظيماً بالغ الاثر كما كان في الاندلس ، حتى لقد اضطر ابراهيم الثاني الى ان يقصد بنفسه الى صقلية إقراراً لسلطة دولته وهيبتها هناك . ولكن وفاته لم تلبث أن تهددت هذا النصر الموقت بالخطر ، فاضطرّ العرب المتنازعون في ما بينهم الى ان يعقدوا معاهدة مع الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع . وايأً ما كان ، فان طَبَرْمِين التي تنازلوا عنها بموجب هذه المعاهدة ما عتمت ان سقطت في ايديهم كرة اخرى سنة ٩٦٥ . وفي الحق ان سنوات السلام الثلاث والسبعين التي قُدّر للعرب ان ينعموا بها في صقلية منذ ذلك الحين كانت كافية لنشر حضارتهم والتمكين لها في ربوع الجزيرة الى درجة بعيدة ، حملت النورمانديين الذين قضوا على الحكم العربي سنة ١٠٦٠ في عهد الكونت رُجار على أن يأخذوا عن العرب نظامهم الاداري ويقتبسوا العناصر الاساسية للثقافة الاسلامية في حياتهم الفكرية وفي فنهم ايضاً . وفي سنة ١١٥٤ ألف الأدريسي ،[العالم العربي] ، لرجار الثاني ، كتابه الشهير في صفة الارض [نزهة المشتاق في اختراق الآفاق] . ليس هذا فحسب بل ان فريدريك الثاني (١١٩٧ — ١٢٥٠) الذي خلف النورمانديين في حكم صقلية عني بتنمية هذا التراث اعجاباً منه بعلوم العرب وباساتذتهم اليونان .

الأدارسة في مراكش

ولم تستطع هذه المستعمرة الغنية [صقلية] ، بسبب من تقلب احوال

العرب فيها بين قوة وضعف ، ان تساعد على التمكين لسلطان الاغالبة بأفريقية والقضاء على الاضطرابات الدينية السياسية الناشبة في الداخل. فبالاضافة الى الخوارج الذين لم ينقطعوا يوماً عن تأليب البربر على العرب ، برزت الى الميدان السياسي ابتداءً من سنة ٧٨٠ قوة جديدة ، هي الشيعة ، وطفقت تعمل في سبيل الاستيلاء على السلطة . وتفصيل ذلك ان ادريس ابن عبد الله بن الحسن كان قد فر الى مصر ومنها الى شمالي مَرّاكش بعد ثورة مخفقة قام بها في المدينة . وهناك في مستقره الجديد بين قَبائل البربر ، اعتُرف به إماماً وتمكن من نشر سلطانه ، في نزاعه ضد الاغالبة ، حتى تِلِمْسان. ومات ادريس مسموماً ، وليس له من عقب غير ولد كانت امه لا تزال حاملاً به ، فلما وضعته سمي ادريس على اسم ابيه . ولقد قدّر لادريس الثاني هذا ان يؤسس عاصمة جديدة للدولة في فاس سنة ٨٠٨ . ولكن هذه الدولة ما لبثت ان أصابها الانحلال بعد ان توزّع ابناؤه إرث أبيهم فاستقل كلٌ بجزء من البلاد . حتى إذا كانت سنة ٩٣٠ بدأ خلفاؤه يفقدون ما في حوزتهم من البلاد ، شيئاً بعد شيء ، ليستولي على بعضه الامويون في الاندلس ، ولينتزع الفاطميون بعضه الآخر .

الفاطميون في شمالي افريقية ومصر

وعلى الرغم من أن الادارسة قد انشأوا دولتهم بقوة السلاح من غير ان يمكّنوا للعقائد الخاصة التي كان يقول بها مؤيدو اسرتهم ، فقد مهدوا السبيل ، بما كانوا يمثلونه من مبدأ الشرعية [النص والتعيين] ، لسلالة جديدة خلفتهم في افريقية فكانت اسعد منهم حظاً . ذلك انه ظهر في سَلَمْيَة قرب حماة ، حوالي سنة ٨٩٠ رجل اسمة محمد الحبيب * فادعى انه من اعقاب علي وفاطمة ، وبث الدعاة للمهدي المنتظر ظهوره من هذه الاسرة . والواقع ان صحة نسبه موضع خلاف شديد . وأياً ما كان ، فقد اعلن ولاءه

(*) يقابل عند الذين ينكرون نسب الفاطميين « ميمون القداح » (المعربان) .

للشيعة الاسماعيلية الذين سخروا العقائد الاسلامية لخدمة اغراضهم السياسية ــ فعل القرامطة غير الغرباء عنهم ــ من طريق تفسير القرآن تفسيراً مجازياً باطنياً (ومن هنا عُرفوا كذلك بالباطنية) . وكان في جملة من اجتذبتهم هذه العقائد في جنوبي بلاد العرب رجل يدعى ابا عبد الله استطاع في احد مواسم الحج بمكة ان يحظى بمبايعة جماعة من قبيلة كتامة البربرية ، فأمّروه على انفسهم وسار معهم الى بلادهم . وهناك جمع من حوله جيشاً حارب به بني الاغلب ، فهزم سنة ٩٠٩ آخرَهم ، زيادةَ الله الثاني ، هزيمة منكرة اكرهته على الفرار الى بلاد الجزيرة الفراتية . وهنا طلب المقتدرُ الى امير مصر أن يساعد زيادة الله على استعادة ملكه فتقاعس عن نجدته . وهكذا استقرت الامور لابي عبد الله في رقّادة ، عاصمة بني الاغلب ، وتولى زمام الحكم فيها فترة من الزمان . وبعد برهة ، توفي الفاطمي محمد ، ونجا ابنه عُبيد الله من حبائل الخليفة بالفرار الى افريقية ؛ وهناك ظهر . وعلى الرغم من ان امير سجِلْماسَة اعتقله مدة من الزمان فقد وفق داعية والده ، أبو عبيد الله ، الى انقاذه سنة ٩١٠ ورفعه الى عرش الخلافة ، في رَقّادة . ثم انه ابتنى عاصمة جديدة دعاها المهدية ، وتقع على الساحل القريب . وفيما كان جميع من سبق من الامراء المسلمين ، والامراء الامويون في الاندلس انفسهم ، يحكمون البلاد الواقعة في حوزتهم باسم خليفة بغداد نجد الخليفة الفاطمي يدّعي انه صاحب الحق الاوحد في الخلافة . وعلى الرغم من ان عبيد الله اضطر الى ان يقمع ثورة قام بها ابو عبد الله بعد أن اصيب في آماله العراض فقد نجح خلال سنوات قليلة في التمكين لسلطته وتثبيتها الى درجة مكنته من ان يوجه همته نحو الفتوح . والواقع ان عساكره اخضعت المغرب حتى مرّاكُش ، التي لم تلبث ان سقطت ، بعد وفاته سنة ٩٢٤ ، في يد خلَفِه ، وإن يكن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث قد اكرهه على ان يتوقف في الفتح عند سبتة . ولكن ثورة اخرى ما لبثت ان شبّت في وجه الفاطميين فتهددت دولتهم بخطر عظيم ، وذلك عندما قام في قبيلة

زناتة ، وهي من البربر الخوارج ، رجل متعصب يدعى ابا يزيد فناضل الفاطميين ، في جبل أوراس ، نضالاً ضارياً . وكان أبو يزيد يهدف الى التخلص من الحكم الفاطمي ، ويظهر في الناس راكباً حماره على طريقة الانبياء القدماء . والواقع ان هذا الخارجي قد وفق الى ان يبسط سلطانه على البلاد كلها ويطوّق «القائم» الخليفة الفاطمي ، في عاصمته ، المهدية ، عاماً كاملاً . ولكن هذا الحصار استنفد قواه ، فاضطر الى رفعه . ثم ان الهزائم توالت عليه ، وسقط هو في يد الخليفة الجديد [المنصور ابي طاهر] اسماعيل ، في ١٩ آب سنة ٩٤٧ ، بعد ان اجتاح الفاطميون آخر معاقله .

وكان عُبيد الله نفسه يطمح الى فتح مصر ، فشنّ عليها هجوماً مبدئياً لم يلبث ان أخفق . ففي سنة ٩١٤ احتل جيشه الاسكندرية ومنطقة الفيّوم ولكنه ما عتّم ان ارتد على اعقابه . وفي عهد ابنه [القائم] ابي القاسم [محمد] اندفع الفاطميون سنة ٩٢١ حتى مصر العليا ، ولكن مؤنساً ، قائد جيوش المقتدر ، انزل بهم كذلك هزيمة حاسمة . فلما كانت سنة ٩٣٥ وما بعدها ظهرت في مصر دولة جديدة استطاعت ان تصدّ الفاطميين عن حدودها جيلاً بكامله . ففي ذلك الحين وفد الى مصر ، محمد بن طُغْج ، بوصفه اميراً عليها ، وهو تركيّ سبق لجدّه وأبيه ان عملا في خدمة خليفة بغداد . وما انقضت سنتان حتى استطاع ان يثبّت دعائم سلطته الى حدّ ساعده على ان يلتمس من الخليفة الراضي تمييزه من سائر الامراء بأن يخلع عليه لقب الاخشيد الذي كان الامراء من أسرته يحملونه في موطنهم ، فرغانة ، قبل خضوعهم لسلطان الاسلام ، (كما فعل سنة ١٨٦٧ السلطان العثماني عبد العزيز عندما ميّز عامله اسماعيل باشا من سائر أقرانه بلقب الخديوي) . ولقد كان عليه بادىء ذيء بدء ان يقي مركزه هذا في مصر من مطامع أمير الامراء ، [محمد] ابن رائق الذي اضطر بعدُ ، على كل حال ، إلى ان يتخلى عن شبه جزيرة سينا — وليس عنها من غنًى للدفاع عن البلاد — وفلسطين الجنوبية حتى الرملة ، لقاء جزية يعطيها . فلما توفي ابن رائق

طمع ابن طغج نفسه في إمرة الامراء وشرع يفاوض في ذلك الخليفة المتقي ، وكان في الرقة على الفرات . بيد انه ما لبث ان تحقق ان الامرة الراسخة على قطر غني كمصر ، خيرٌ له وأبقى من منافسة القواد الاتراك ومنازعتهم على السلطان في عاصمة الامبراطورية المعدمة . وهكذا انصرف الى توطيد مركزه في مصر من طريق تعزيز الثغور السورية . وكان لا بدّ له ، هنا ، من أن يصطدم بسيف الدولة بن حمدان الذي اضطر آخر الأمر ، الى ان يتخلى له عن دمشق . وفي سنة ٩٤٦ توفي ابن طغج فنهض باعباء الدولة نيابة عن ولديه [انوجور ، وعليّ] خصيّ له حبشي يدعى كافوراً . حتّى اذا مات علي استولى كافور على الملك وأقطعه الخليفة مصر سنة ٩٦٦ ، فوفق الى أن يدفع عن مصر وسورية هجمات الفاطميين والحمدانيين . وفي سنة ٩٦٨ توفي كافور فخلفه أبو الفوارس أحمد ، حفيد ابن طغج ، وهو بعد في أول الصبا . وفي عهد أبي الفوارس هذا استأنف المعز [لدين الله] رابع الخلفاء الفاطميين ، خطة أسلافه الرامية الى فتح مصر . وكان للمعزّ قائد عظيم اسمه جوهر — وهو مولىً رومي — استطاع سنة ٩٥٨ ان يوطد سلطان الفاطميين في الغرب حتّى سبتة وطنجة . وفي ٥ شباط سنة ٩٦٩ خرج جوهر بجيشه من رقادة ، ووجهته مصر ، حتّى إذا شارف أبواب الاسكندرية أقبل عليه وفد مصري يعلنه استسلام البلاد . ولكنّ الجيش المصري لم يلبث ان استجمع شتاته ليستأنف النضال في حزيران ، فهزمه جوهر ، من غير ما عناء ، في معركة نشبت بين الفريقين ، قرب أهرام الجيزة . وفي مطلع شهر تموز دخل جوهر العاصمة المصرية ظافراً . وكما انشأ الطولونيّون من قبله قاعدة جديدة لحكومتهم في القطائع ، على أبواب العاصمة ، فقد شرع بدوره ، في ٩ تموز ، في بناء العاصمة الفاطمية المقبلة بين القناة القديمة التي كانت في يوم من الأيام تصل النيل بالسويس والتي طُمرت بعد ذلك ، وبين جبل المقطّم . وكما كانت المدن الاسلامية القديمة تنقسم الى أحياء مستقلة تنزل فيها القبائل العربية ، كلاًّ على حدة ، فكذلك قسم جوهر

المدينة الجديدة إلى حارات [خطط] لكلّ من الروم ، والارمن ، والبربر ، والاكراد ، والاتراك ، والزنج . ثم انه دعاها المنصورية . حتى إذا دخل المعزّ لدين الله البلاد بعد أربع سنوات خلع عليها اسم القاهرة المعزّية ، أي مدينة المعزّ التي تقهر المدن .

الحاكم بأمر الله – الدروز

وفي ظل الفاطميين الذين دام حكمهم نحواً من مائتين وخمس سنوات نعمت مصر بدرجة صالحة من الهدوء ، على الرغم من إرهاق البلاد الدائم بواسطة الضرائب . والواقع ان المعزّ وخليفته العزيز وضعا الأساس ، بمساعدة الموظفين اليهود والنصارى ، لادارة سليمة كان يرئسها الوزير ، ههنا أيضاً . فلما وليَ الأمر ثالث خلفاء مصر الفاطميين الحاكم أبو علي المنصور خلد لنفسه ذكراً يعود الى صفات مختلفة ، أساسها شذوذ نفساني ، أكثر مما يعود إلى خدماته للبلاد . وليس من شك أنه كان في السنوات الأولى من حكمه شديد العناية في أداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانياً في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها . فاستقدم من البصرة الحسنَ بن الهيثم ، العالم الطبيعي والرياضي الشهير (٧٧) الذي نقضَ في كتابه الرئيسي «كتاب المناظر» نظرية اوقليدس القديمة القائلة إن الأبصار يكون بخروج شيء من البصر إلى الى المبصَرات ، والذي انتهت اليه زعامة هذا العلم في أوروبا أيضاً ، حتى ظهور كبلر . والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدّل فيضان النيل الذي كان أساس خصب البلاد المصرية ، حتى إذا أخفق في إخراج حساباته النظرية مُخرَج العمل اضطرّ الى الاستخفاء ، فراراً من غضب الحاكم ، بقيةَ عُمر هذا الأخير . وليس من شك في أن السلطات المطلقة التي تمتع بها الحاكم ، والتي كانت لا تزال مُعزّزةً بالهالة الدينية ، أفسدت آخر الأمر عقله . فقد كان ينزع إلى إحياء قوانين الاسلام التي أفقدتها الحضارة

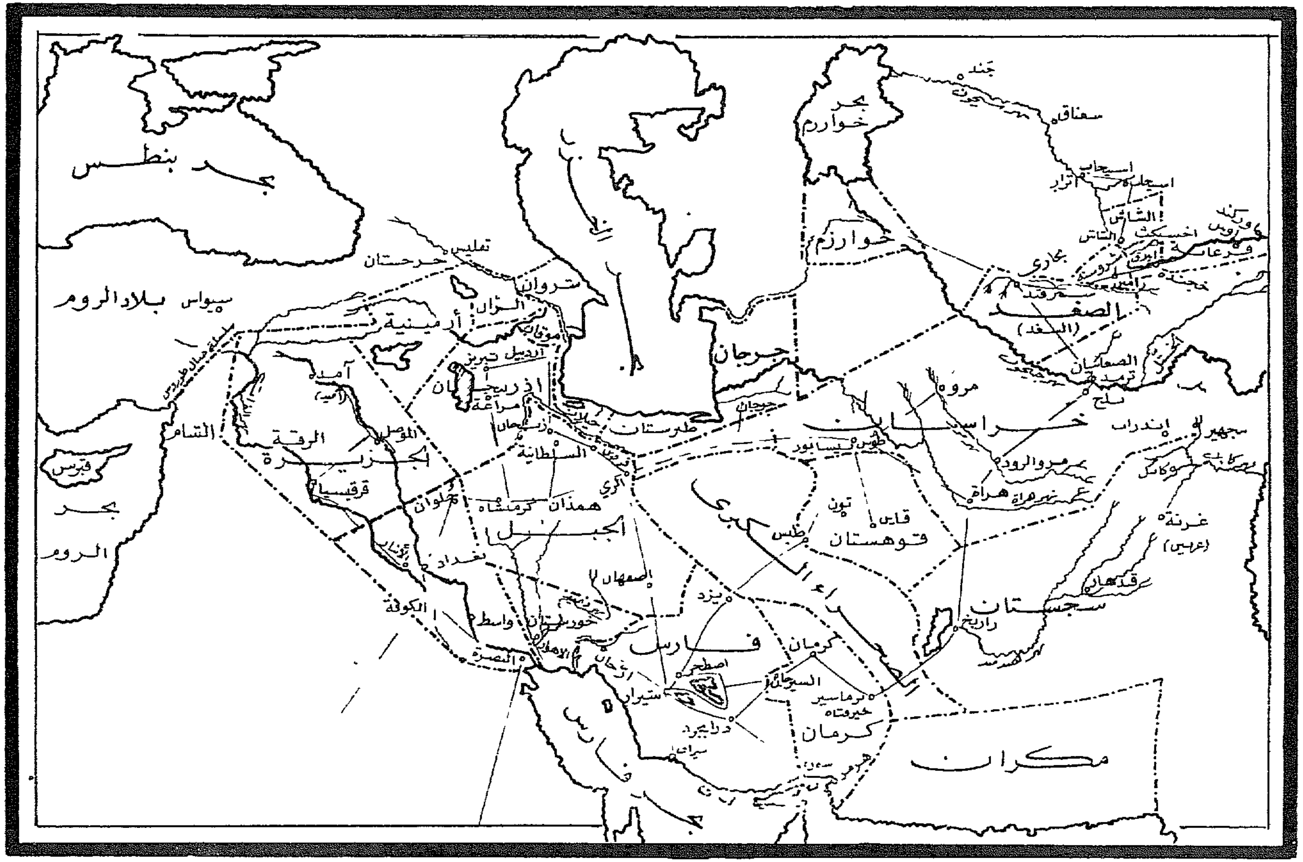
(٧٧) المعروف في الغرب بـ Alhazen

فعاليتها من مثل تحريم الخمرة الذي انتهى منذ زمن طويل الى ان يكون حرفاً مماتاً ؛ فلم يجد ما يتوسل به الى ذلك خيراً من استئصال الكرمة ، وهي التي لم يكن ممكناً أن تكثر زراعتها في مصر نفسها ، وتحريم استيراد جميع الأشربة المسكرة . ليس هذا فحسب ، بل لقد تغلغل في الحياة اليومية ، إلى حدّ أبعد ، من طريق القوانين التي قصد بها إلى أن يحد من طلب رعاياه للذة . فحرّم الموائد والموسيقى ، بل حرّم الشطرنج ومجرّد النزهة على ضفاف النيل . وشنّ الحاكم حرباً لا هوادة فيها على فسوق النساء ، اللواتي كان لا يزال في ميسورهن أن يجدن في المدن الكبرى فرصاً سوانح لاستراق لحظات الحب وانتهاب لذاته ، بالرغم من حياة الحريم . وانما اصطنع في هذه الحرب سلاحاً يقوم على نظام من المنع والردع على أيدي عيون من العجائز . حتى إذا بدا له أن هذا السلاح غير حاسم ، أصدر أمره الى جميع النساء بالتزام بيوتهن ، وانزل العقاب بكل من يصنع الأحذية النسائية ليكون في ذلك ما يساعد على انفاذ أمره إنفاذاً محكماً . كذلك أحيا الأنظمة القديمة التي تكره أهل الذمة على ارتداء ملابس تميزهم من المسلمين ، بل زاد هذه الأنظمة عسراً بأن أجبر اليهود على أن يضعوا الأجراس في أعناقهم ، كما ألزم [رجال] النصارى أن يتقلدوا في أعناقهم صلباناً خشبية زنة كل صليب منها خمسة أرطال . وكان طبيعياً أن يأخذ ، في بلاطه ، بأشد النزعات الشيعية تطرفاً وهي التي تعتبر الأمير الشرعيّ النسب تجسداً للذات الالهية ، وفقاً للتقليد الفارسي القديم . والراجح هو انه نفسه كان قد أخذ في ادعاء الالوهية ، حتى اذا وافته المنية قام محمد بن اسماعيل الدرَزي وخليفته حمزة بن أحمد الهادي في سورية يدعو الى مذهب جديد عرف أتباعه بالدروز ، على اسم مؤسسه ، وطغت فيه فكرة الحلول وبعض العقائد الوثنية القديمة ، بالاضافة الى ألوهية الحاكم ، على الاسلام وغمرته بالكلية . وفي لبنان بين سكان الجبال الشجعان المحبين للحرية ، وجدت هذه الفرقة اتباعاً متحمسين حملوا معتقداتهم خلال الأجيال ، ولا يزالون ، واثروا

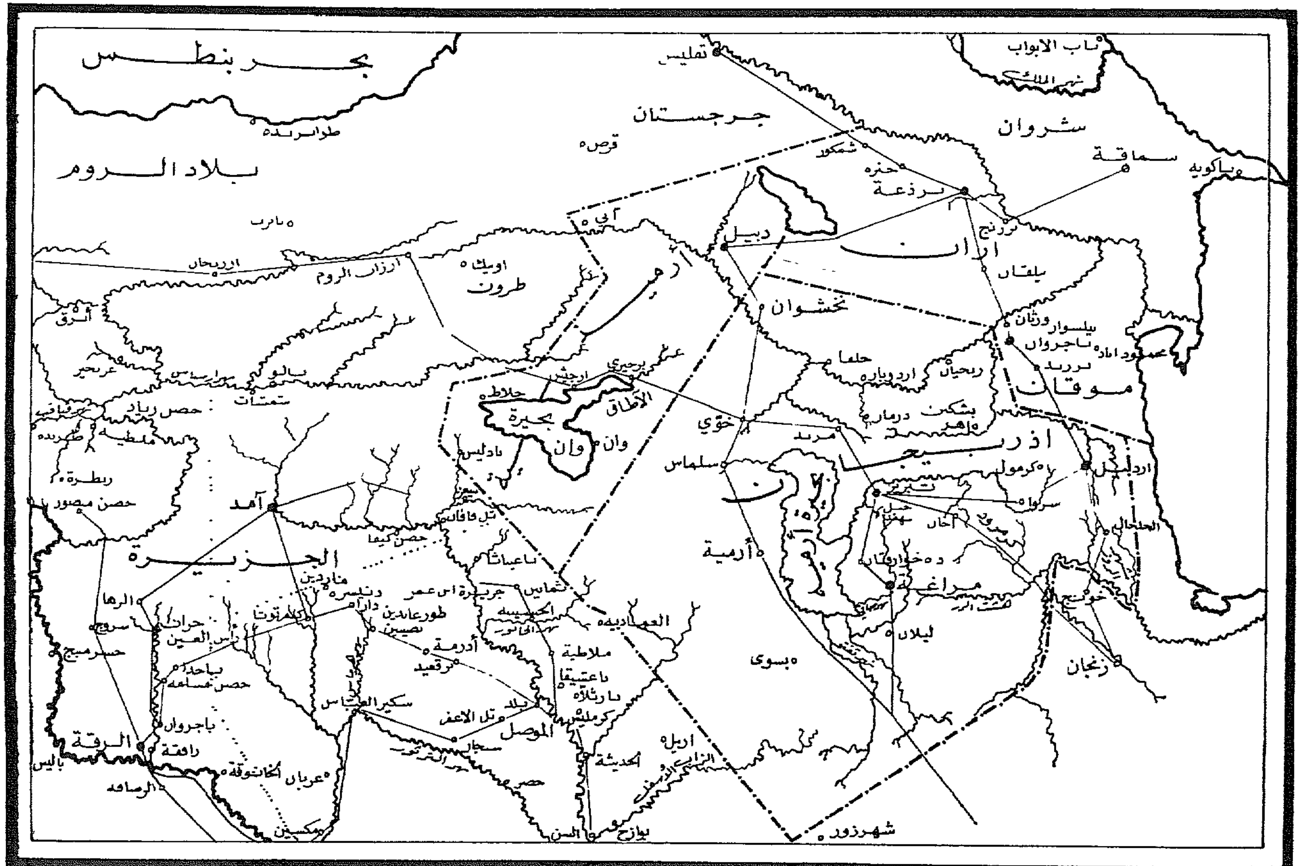
في مجرى التاريخ السوري ، في كثير من الأحيان . وليس من شك في ان نهاية الحاكم لا تزال لغزاً غامضاً ، لا لأسباب دينية فحسب ، بل لأسباب سياسية أيضاً . والمفروض انه ذهب ضحية لمؤامرة حاكتها سياسة عهده المتقلبة . ويقال انه قتل بتحريض من أعيان حاشيته في أوائل سنة ١٠٢١ فيما كان راكباً أمام ابواب القاهرة .

نهـاية الفاطميين

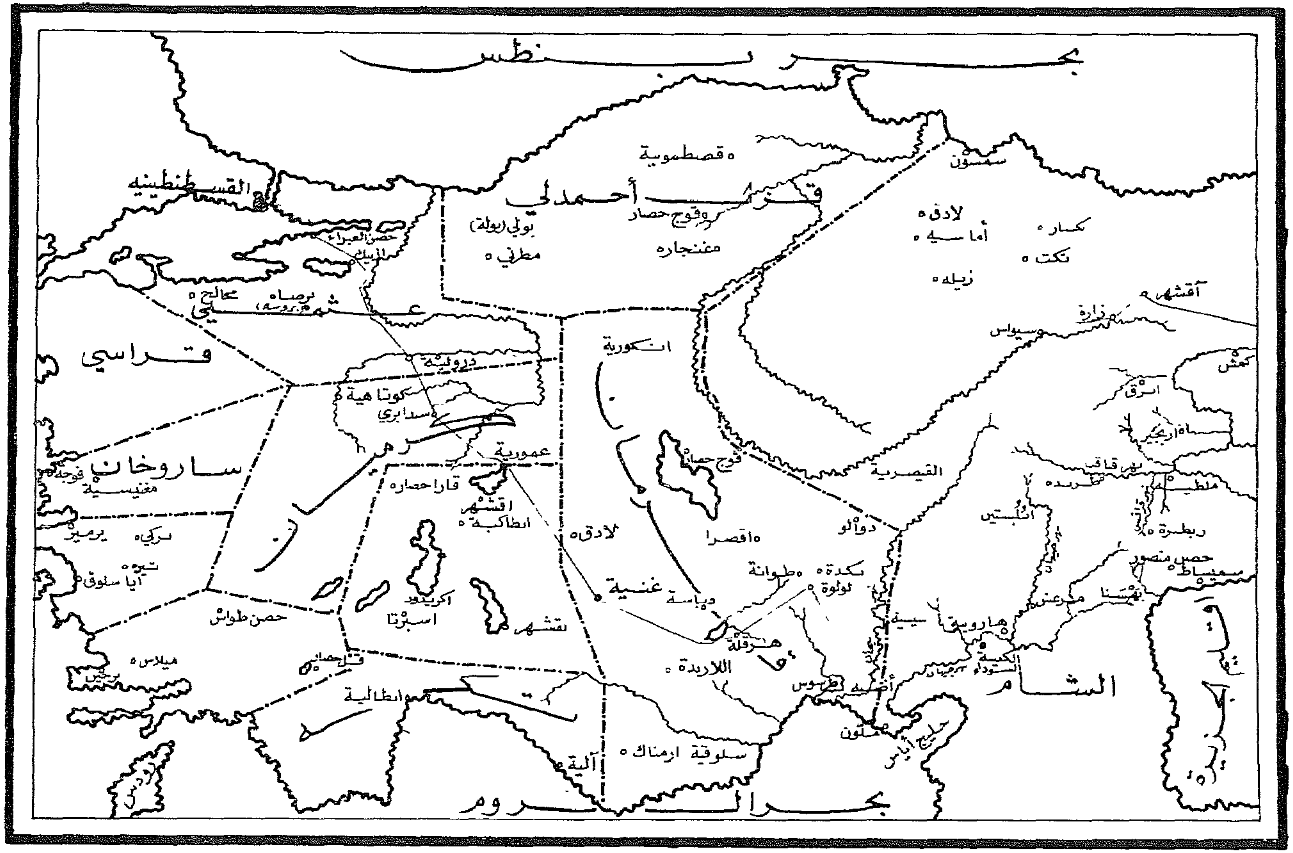
أما خلفاؤه فاستغرقوا ، على الجملة ، في متارف البلاط ، مثبتين عجزهم عن إخماد فتن المرتزقة وتقويم مساوىء البلاد الاقتصادية ، بعد أن انتابها في هذا الوقت بالذات انخفاض هائل في مستوى مياه النيل . ولم يتم إقرار النظام في أرجاء البلاد إلا في النصف الثاني من عهد المستنصر (١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، حفيد الحاكم ، عندما استطاع بدر الجمالي — وهو أرمنيّ برز أول الأمر كقائد عسكري في سورية ثم خُوّل سلطات واسعة سنة ١٠٧٣ — القضاء على استبداد القواد الأتراك وطغيان الامراء ، ولكنه لم يوفق إلى تثبيت سلطان الفاطميين في سورية (حيث كان امراء الدويلات يتهددونه بالخطر الدائم) والمحافظة عليه من هجمات السلاجقة الذين نهضوا في تلك الاثناء ، في الشرق . فما دخلت سنة ١٠٦٠ حتى سقطت حلب في ايدي المرداسية الذين ظهروا بين اعراب سورية . وفي سنة ١٠٧١ سقطت القدس في ايدي السلاجقة ، وتلتها دمشق ١٠٧٦ . حتى اذا توفي كل من الخليفة وبدر الجمالي سنة ١٠٩٤ لم يكن من الملك الافضل ، ابن الجمالي وخلفه ، إلا ان نصب المستعلي ابن المستنصر ، خليفةً ، وسيطر عليه سيطرة كاملة . والواقع ان الملك الافضل استطاع بادىء الامر أن يمكّن للحكم الفاطمي في سورية باستخلاص المدينة المقدسة من ايدي الدولة الارتُقيّة ، الخاضعة لسلطان السلاجقة ، وكانت قاعدتها في بيت المقدس . بيد انه تعين على الاسلام ان يجابه آنئذ خصماً جديداً عظيم الخطر ، اعني الصليبيين . ولم



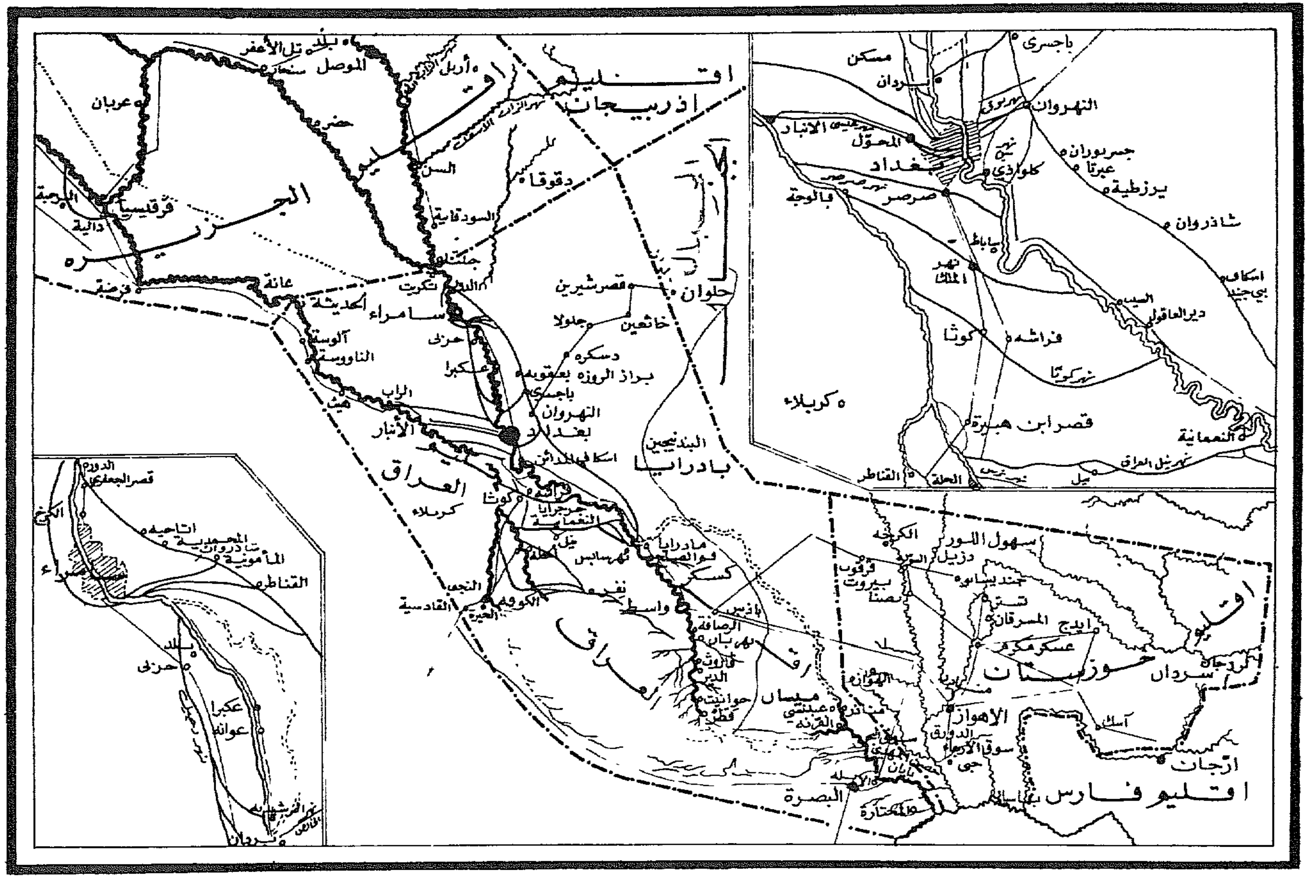
الطرق الرئيسية في الولايات الشرقية .. في عهد الخلافة العباسية



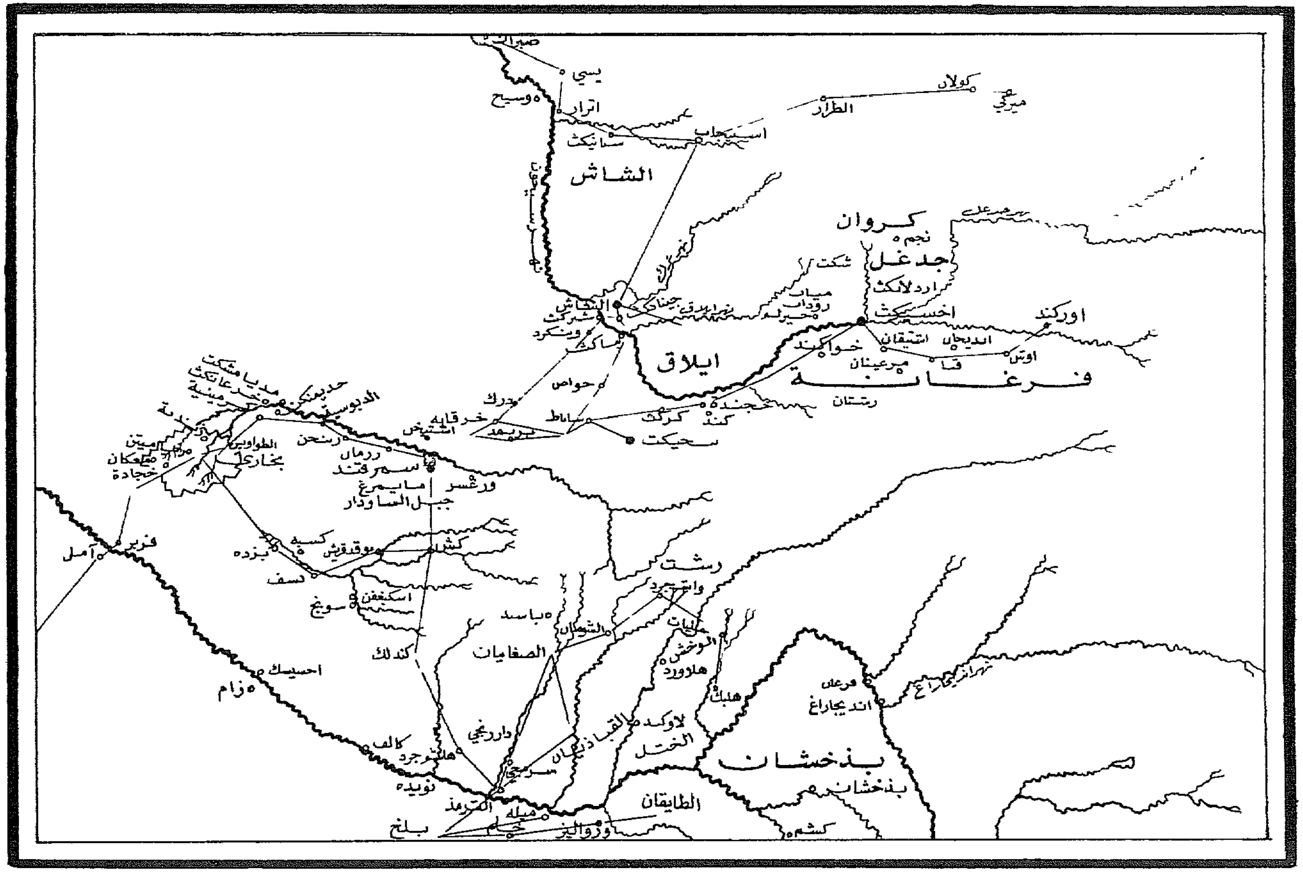
ولايات الثغور في الشمال الغربي .. مع قسم من الجزيرة وأذربيجان .



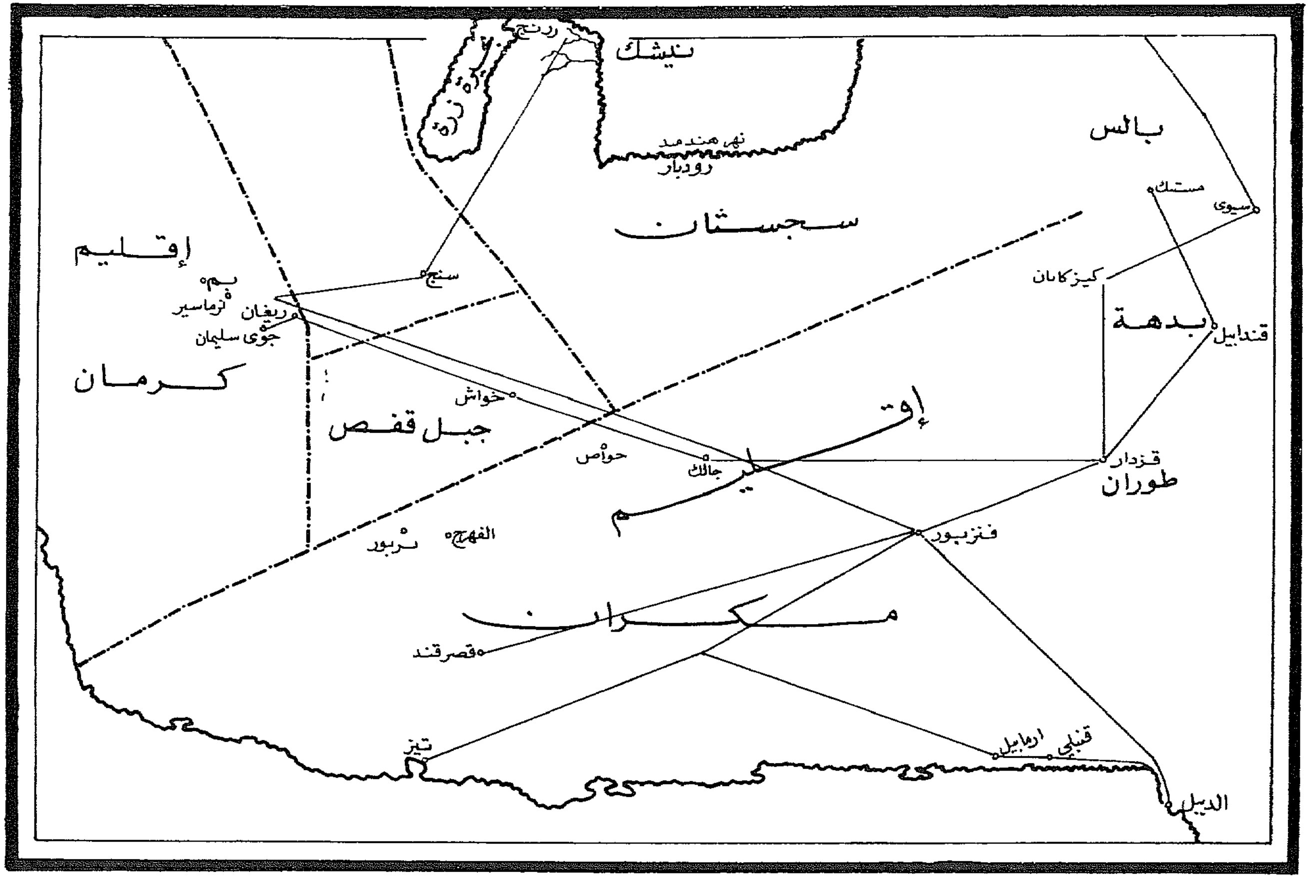
ولاية « بلاد الروم »



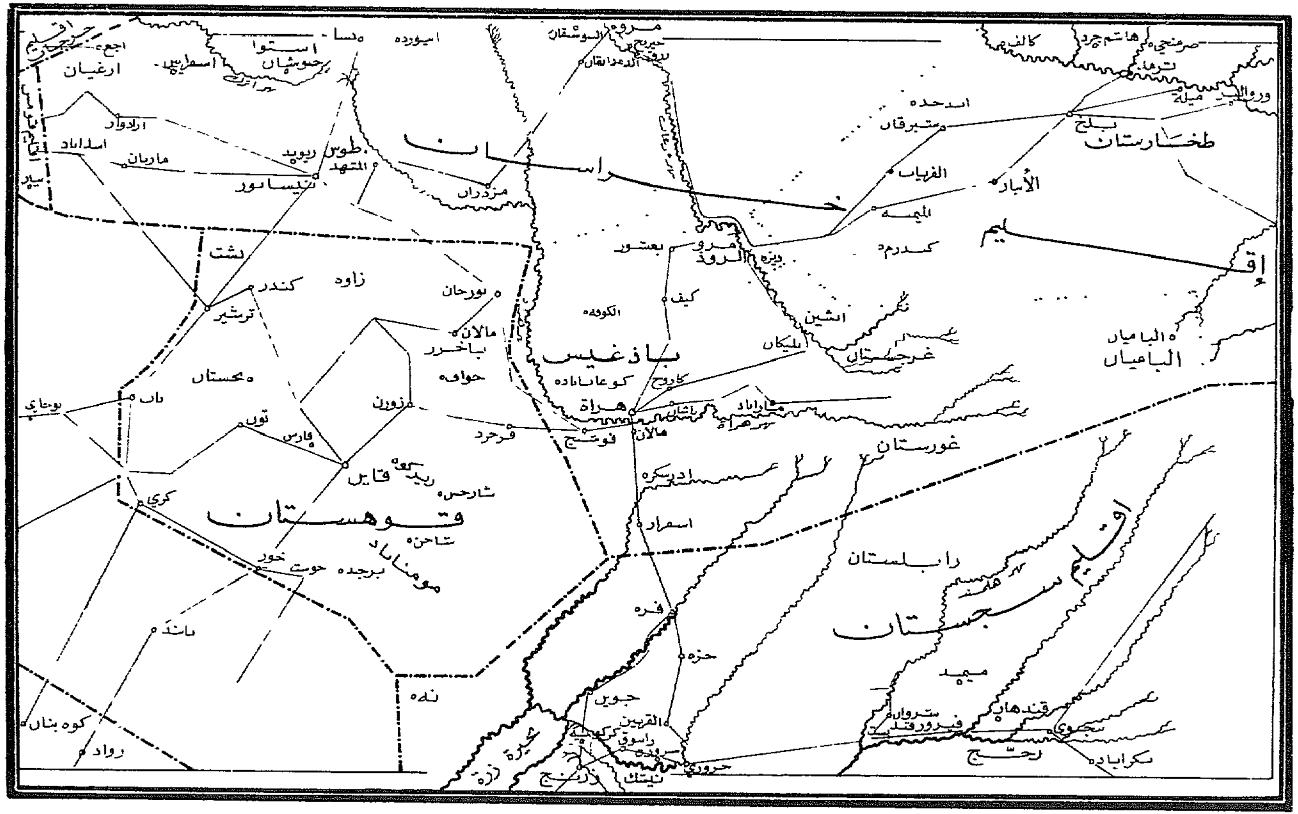
ولايتا العراق وخوزستان وقسم من ولاية الجزيرة



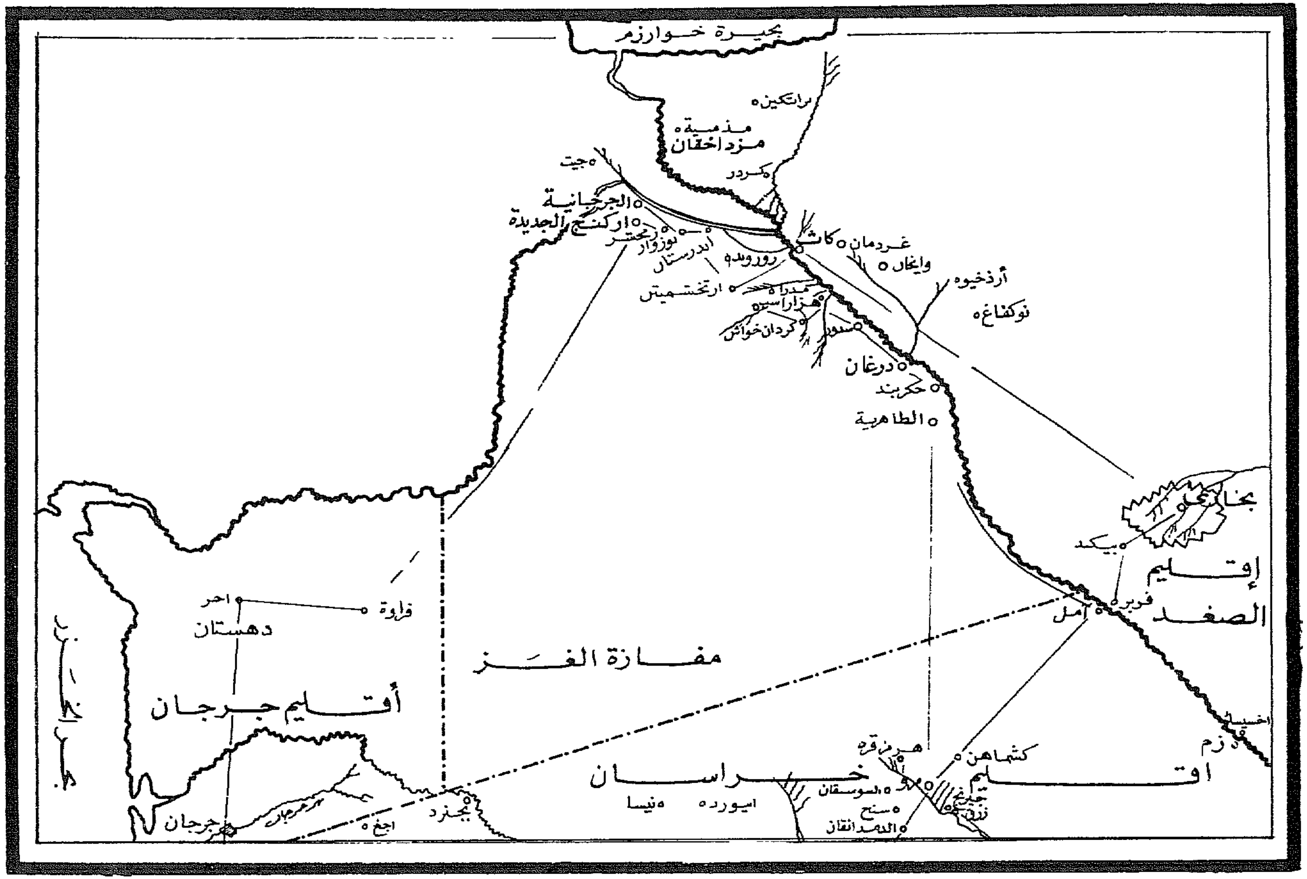
ولايتا سيحون وجيحون



ولاية مكران مع جزء من ولاية سجستان



اقليم قوهستان وخراسان وجزء من سجستان



ولاية « خوارزم »

يظهر خطر هؤلاء واضحاً في بادىء الامر بل استُخفّ به ولم يقدّر حق قدره ، وسط الفوضى التي عمت البلاد من جراء النزاع الدائم على الرئاسة بين الدويلات . ففي سنة ١٠٩٩ سقطت بيت المقدس في ايدي الصليبيين الذين استطاعوا في العقدين التاليين ان يقصروا حكم الفاطميين على منطقة صور وعسقلان الساحلية ، بعد سلسلة من المعارك كان النصر فيها حليف الفاطميين حيناً ، وحليف الصليبيين حيناً . وفي سنة ١١٢١ قتل الملك الأفضل اغتيالاً . فقد كان الخليفة « الآمر » كارهاً لوصايته واستبداده في الامر من دونه . عندئذ أدرك الدولة الأجل المحتوم . ففي غمرة النزاع بين الأمراء الصليبيين والاتراك في سورية والقواد المستبدين في العاصمة نفسها لم تهنأ البلاد بفترة من السلام الا على يد امير كفوء مقتدر [كالملك الصالح] طلائع ابن رُزّيك الذي استدعته الى الحكم نساء الخليفة « الظافر » المقتول في سنة ١١٥٤ . ولكنّ احدهم طعنه ، بعد ست سنوات ، بخنجره طعنة أردته قتيلاً . ولم يعد في طاقة العاضد ، آخر الفاطميين ، أن يدفع القوى المتفوّقة ، التي كانت لقواد السلاجقة المتغلبين في دمشق . فاضطر الى أن يعين أحدهم ، شيركوه ، وزيراً . وكان شيركوه هذا كردياً . وقد خلفه في الوزارة صلاح الدين الذي أزال ، كما سوف نرى ، آخر أثر من آثار سلطة الفاطميين الاسمية ، بصورة رسمية .

وعلى الرغم من ضعف الفاطميين الذي أطلع رأسه ، في سرعة ، فقد استطاعوا أن يضمنوا لمصر عهوداً متطاولة من الرخاء العظيم ، بفضل الادارة التي وضع أساسها الخليفتان الأوّلان . والواقع ان ابهة بلاطهم ، المشفوعة بنظام للتشريفات دقيق إلى ابعد الحدود ، لم يكن لها نظير عند أي من منافسيهم . وإن آثارهم العمرانية العظيمة ، من مثل جامع الحاكم والجامع الازهر الذي لا يزال مزدهراً الى يومنا هذا كأعظم المؤسسات المدرسية في الاسلام ، لتشهد للهمم العالية التي ابدعتها .

وأفلتت إفريقية ، وهي الولاية التي ظهرت فيها الدولة الفاطمية ، اول

ما ظهرت ، من قبضة الفاطميين بعد استقرارهم بمصر مباشرة . فقد أعلن يوسف بُلُكّين ابن زيري ، أول ولاتهم على افريقية ، استقلاله في سنة ٩٧٢ ، فلما كان عهد حفيده باديس اسس حادّ ، عم باديس ، دولة جديدة في الجزائر . وفي غمرة هذا الصراع المميت الذي استنفد المسلمون خلاله قوتهم ، استولى النورمانديون على صقلية ، عهدَ رُجار ، واستولى الجنويون و البيزيون على كورسيكا وسَردانية ، وكانت هذه الجزر كلها إلى المسلمين .

الفرس والأتراك

بين سكان التُبّت والصين في الشرق ، والجنس الآسيوي القديم (السيبيري) في الشمال ، والشعوب الفنلاندية الاوغرية في الغرب نشأ الشعب التركي، فوق سهول سيبيريا الشمالية الواسعة والبوادي القائمة بين بحر الخزر [قزوين] وجبال آلتاي ، من جماعة عرقية ولغوية لعلها كانت تنتظم في العصور الاولية المغولَ والتُنْكُت ايضاً . وكان يتولى زعامة هذا الشعب ، في العادة ، شخصيات حاكمة كبيرة من مثل تلك التي نشأت بين ظهراني الشعوب ذات الوضع القبلي الابوي والتي كثيراً ما نلتقي بها حيناً بعد حين في تاريخ تلك المناطق . حتى اذا دخل الاتراك في طور التاريخ ، بعد ان شرعوا في الاندفاع من سفوح تيان شان الى بوادي آسية الوسطى ، كانت قد تمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الاجناس البشرية بالخصائص الطورانية . وبينا ظهرت الملامح المغولية بين اتراك الشمال احتفظت الفروع الجنوبية بشكل جسدي متناسب الاعضاء يميل الى الكبر بعض الشيء ، ووجه متوسط الطول ، يتميز بانف مستقيم بارز ، وجبهة عالية شديدة الانحدار ، وشعر كثيف .

وفي القرن السادس للميلاد اصبح للاتراك دولتان قويتان امتدتا من منغوليا وتخوم الصين الشمالية حتى البحر الاسود. فأما موسس الدولة الشرقية «بُومين» فتوفي سنة ٥٥٢، واما اخوه «إستمي» الذي دانت له الاصقاع الغربية فعاش من بعده نحواً من ربع قرن. ثم ان اسرة تانْغ المالكة في الصين قضت على الدولة الشرقية حوالي سنة ٦٣٠، وعلى الدولة الغربية حوالي سنة ٦٥٩. بيد ان اتراك الشمال ما لبثوا ان خلعوا نير الاجنبي سنة ٦٨٢ ليحتفظوا باستقلالهم حتى سنة ٧٤٥. والواقع أن أقدم اثر حفظته الايام من آثار اللغة التركية تلك النقوش الطويلة التي اكتشفت على ضفاف نهر أُورخون في منغوليا، على الضريح المشترك لاثنين من امراء هذه الدولة، بِلْكاقاغان واخيه الاصغر كُلْتِكين، والتي ترقى الى سنة ٧٣١ وسنة ٧٣٤؛ وقد كُتبت بخط شبيه بالخط «الرُّوني» [الذي استعملته الشعوب الجرمانية حوالي القرن الثاني للميلاد] اقتبسوه عن الفرس واستنبطوه من الخط الآرامي. ولقد كانت كلٌّ من هاتين الدولتين البدويتين تنتظم مجموعات قبلية غير مُحكمة التنظيم، على رأسها خانات [امراء] يخضعون جميعاً لسلطة امير الحرب الاعلى، ويدعى «قاغان» (خاقان). وإنما ظهر «الخانات» من بين «باكوات» الاشراف الذين لا تزال عامة الشعب تخضع لهم طوعاً. ويُستدل من تنظيم الاعمال في هاتين الدولتين — هذا التنظيم الذي يمتاز بأوضاع وألقاب ثابتة، والذي ظلّ يُعمل بجزء منه في الدول التركية الاسلامية — أن الاتراك القدماء خطوا خطوات أولية في سبيل وضع مجموعة من القوانين العامة استعارها بعدُ خلفاؤهم في الحكم. كذلك نقل الصقالبة * هذا القانون التركي القديم عن الآواريين. وكانت الحياة القومية تتجلّى عندهم، أقوى ما يكون، في الاعياد وما كان يرافقها

(*) وهذا هو الاسم الذي اطلقه العرب على الـ Slavs (المعربان)

من طَرَدٍ ، ومن غزو وسلب . وكان من أهمّ واجبات الامير أن يهيء لها بسخاء .

أما حياتهم الدينية فكان يهيمن عليها « الشامان » [الفقير أو الكاهن] الذي كان في ميسوره ، من طريق غيبوبة كثيراً ما تكون مصطنعة ، ان يطرد الأرواح الشريرة المقيمة تحت الأرض ، وان يستنزل البركة من روحي الارض والماء الخيرتين ، وأرواح الاسلاف الطائفة في الجنة . ولم يكن أحد ليجروءُ على ان يتصل — من غير طريق « الشامان » — بالذات العليا ، السماء ، وهي الاله الذي برأ العالم ، والذي تخضع لحكمه الطباق السبع عشرة العليا الآهلة بالكائنات الصالحة . ولقد انتشر بين الاتراك قبل أن يفجأهم الاسلام [بقواه وتعاليمه] ايمان بقوة القضاء والقدر المتجسدة في العالم والزمان ، والتي كان يُعتقد ، بصورة شخصية خالصة ، انها تنضح بالحسد وبشهوة الانتقام من عظمة الانسان .

والواقع ان دولة من هذا الطراز لا يمكن أن تعيش إلا إذا قدّر لها زعيم حازم يجمع شتاتها ويستغلّ جيرانه من طريق الغزو وفرض الجزية . وحوالى سنة ٧٠٠ كان قد تمت للعرب ، عهد الامويين ، السيطرة على مراكز هذه الدولة الامامية المتطرفة في الغرب . وفي سنة ٧٤٥ سقطت المملكة الشمالية ايضاً في يد قوة تركية اخرى ، هي قبيلة أُويْغور ، وكانت تنزل ، أصلاً ، الى الشمال على ضفاف نهر سَلِنْغَة . والحق ان هذه القوة التركية الجديدة سمحت للنصارى السوريين من النساطرة وللمُرْسلين المانويين الذين وجههم الصُغْد الى تلك الديار ، بالتبشير في البلاد الواقعة في حوزتها . ولقد استعاضوا عن الاحرف القديمة بشكل مستحدث من الأحرف الآرامية التي سادت من بعد في الدولة المغولية ايضاً . وفي سنة ٨٤٠ ، عندما قضى القيرغيز على امبراطورية الأويغوريين في الشمال هاجر الاويغوريون الى المنطقة التي تؤلف اليوم تركستان الصينية ، والتي سبق للاتراك ان استقروا فيها من قبلهم . وهنا ظهرت بعثات التبشير البوذية أيضاً ، فتنافست والمبشرين

النصارى والمانويين في إنشاء لغة قوية ومرنة لهؤلاء الأتراك ، على الرغم من ان هذه اللغة لم تُصطنع بادىء ذي بدء إلا في الكتب المترجمة . وفي سنة ١٠٢٨ قضى التَنْكُتيون على إحدى إمارتي الاويغوريين ، تلك التي كانت قائمة في كانشو ؛ في حين استطاعت الاخرى الاستمرار الى أيام المغول . وكان القيرغيز الذين سبق لهم ان أخرجوهم من ممتلكات أسلافهم قد خضعوا قبل ذلك لسلطة قبيلة خِتاي[٧٨] المغولية . وتذهب الروايات الى ان سيّد [هذه القبيلة] قد طلب الى الاويغوريين — ذوي المكانة إذ كانت لهم حضارة أكثر تقدماً — ان يعودوا الى منازلهم الأولى ، فلم يفعلوا . وبينا كان صنائع المملكة التركية الغربية لا يزالون في أوائل القرن الثامن يسيطرون على تخوم ايران ، كانت هذه البلاد قد خضعت قبل ذلك لحكم الامويين ، وقدمت لاسواق الرقيق عدداً من ابنائها لا يقع تحت حصر . ولقد أظهرنا في موطن سابق كيف تم لهؤلاء الاستيلاء على الأمر في بغداد ، أيام العباسيين ، وكيف استطاع أفراد منهم ، أن يبسطوا سلطانهم فترة من الزمان على أمصار اخرى ، أيضاً .

السامانية في خراسان

وكانت مراكز السامانيين السابقة — ما وراء النهر ، وبخارى وسمرقند — تتمتع بهدوء نسبي في ظل حكومتهم المستنيرة في القرن التاسع . وكان مؤسس هذه الدولة سامان خوداه (أي سيد قرية سامان في منطقة بلخ) فارسياً اعتنق الاسلام في خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣) . وحوالى سنة ٨١٩ عيّن المأمون حفدة سامان الاربعة ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة ؛ وكانت ولايتهم أول الأمر من جهة آل طاهر . ثم إن أحمد ، أمير فرغانة ، سعى الى ان يبسط سلطته على سمرقند أيضاً . حتى اذا كانت سنة ٨٧٥ أقطع الخليفة نفسه نصرَ بن أحمد ، إقليم ما وراء النهر ،

(٧٨) وهو الاسم الذي لا يزال يطلق على الصين ، في اللغة الروسية ، الى اليوم .

فولى أخاه اسماعيل بخارى حيث وضع حداً للاضطراب السائد فيها منذ نشبت الحروب مع الصفارية ، وأكره أشرافها على الاستسلام. وفي سنة ٩٠٣ وُفق اسماعيل — بعد أن جرّد أخاه نصراً من كل سلطة فعلية — الى ان ينتزع خراسان من عمرو [بن الليث] الصفّاري ، ويستولي على طبرستان إثر انتصاره على محمد بن زيد العلوي. حتّى إذا جاء خلفاؤه من بعده فتحوا سجستان وجُرجان أيضاً ، ولكنهم خسروا طبرستان بعد ان استولى عليها آل بويه ، وتقلصت رقعة نفوذهم شيئاً بعد شيء في بلاد آبائهم وأجدادهم على يد الدولة التّركية القومية التّي أنشأها الإيِلك خانيّة * في تركستان ؛ وكان هؤلاء قد ظهروا باديء الامر في المناطق الواقعة شمالي تيان شان وجنوبيها ، ثم اندفعوا من هناك في اتجاه الغرب.

الشعر الفارسي

وأياً ما كان ، ففي النصف الاول من القرن العاشر ، عهدَ نصر الثاني (٩١٣ — ٩٤٢) ونوح الاول (٩٤٢ — ٩٥٤) ؛ كانت البلاد الواقعة في حوزة السامانية مركزاً لحضارة زاهرة. فقد كانت أراضي ما وراء النهر المنخفضة [الأغوار] ومياهها الغزيرة تُستغل من أمد بعيد وتدر محاصيل وافرة بفضل العناية المنظمة الحاذقة. وهنا تفتّح الوعي القومي عند الفرس من جديد بعد أن استعبدتهم سيادة العرب السياسية والدينية زمناً طويلاً. ومع ان الفرس تفوقوا على العرب في إدارة الدولة وفي النواحي الثقافية تفوقاً كبيراً ، منذ ابتداء الخلافة العباسية ، فقد كانت خدماتهم ومآتيهم ذات فائدة للعرب فيما بعد ، إذ لم يعد من الممكن إقصاء لغة التنزيل عن الشؤون العامة وعن الأدب جميعاً. بيد ان الفرس تذكروا ، هنا في الشرق ، لأول مرة ، شرف لسانهم القومي وعظمته. وعلى الرغم من أن اشراف الفرس من أصحاب الأراضي لم ينقطعوا يوماً عن العناية بمفاخرهم القومية

(*) ويقال أيضاً « الايلاق خانية » و « الأفراسيابيون ». (المعربان).

في سِيَر ملوكهم وأبطالهم ، وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس ، غير شك ، فن إنشاد الشعر ، فالحق ان تلقيح هذا الارث الروحي ، من جديد ، لم يتم إلا في بلاط السامانيين وعلى ايديهم . ففي ظل نصر الثاني لمعَ الرُّودكي * اول شاعر غنائي فارسي وصلتنا عنه اخبار على شيء من التفصيل . وعلى الرغم من ان شعره لم يخْلُ من الكلمات العربية ، وعلى الرغم من ان الاوزان التي اصطنعها كانت كأوزان جميع شعراء الفرس من بعده ، مفرغةً في القوالب العربية ، فقد دعا في منظومه الى فلسفة في الحياة بعيدة عن الهمّ والغم ، ناضحة بالحبور ، ومستوحاةٍ ، على الرغم من وصايا الاسلام لا من حب النساء والغناء فحسب ، بل من حب الخمر ايضاً . وكان الرودكي ، الى ذلك ، مؤسس « الملحمة التعليمية » ** ، وهي أخصب فروع الادب الفارسي على الاطلاق . فقد سلك في نظام من الشعرِ الفارسي كتاب كليلة ودمنة الهندي القديم الذي سبق للامبراطور الساساني كسرى انو شروان (٥٣١ ــ ٥٧٩) أن أمر بَرْزَويه ، طبيبه الخاص ، بترجمته الى الفهلوية ، والذي نقله الى العربية ، في صدر الدولة العباسية ، عبد الله بن المقفع ، الفارسي . كذلك نظم الرّودكي قصة السندباد والوزراء السبعة شعراً فارسياً . وفي عهد منصور بن نوح (٩٦١ ــ ٩٧٦) ترجم الوزير البلعمي الى الفارسية كتاب الطبري الكبير في تاريخ العالم *** واضعاً بذلك حجر الاساس في علم التاريخ عند الفرس ، هذا العلم الذي قدر له بعدُ ان ينتهي الى غايات بعيدة من النمو والازدهار . اما في حقول المعرفة العلمية الخالصة فالذي لا شك فيه ان العربية احتفظت ، هنا في الشرق ايضاً ، بمقام الصدارة . وهكذا نجد ابن سينا الفيلسوف والطبيب الشهير الذي بدأ انتاجه في عهد نوح بن منصور (٩٧٦ ــ ٩٩٧) ثامن الامراء السامانيين ، يضع بالعربية

(*) ويقال ايضاً الروذكي (المعربان)

(**) epic - didactic.

(***) تاريخ الرسل والملوك (المعربان)

مؤلفاته الفلسفية وكتابه « القانون » الذي كان المرجع الاساسي في علم الطب بأوروبة ، خلال القرون الوسطى ، والذي ساد فن الشفاء برمّته ، في فارس حتّى وقت قريب .

نشأة علم الجغرافية

وفي بلاط السامانيين بلغت الجغرافية العربية أوجها العلمي ايضاً على الرغم من ان العرب قد تكشفوا قبل ذلك بزمن طويل عن عناية خاصة بوصف البلدان يذكيها في جنوبي بلاد العرب بخاصة اعتزاز بالحضارة التي تمت لتلك الديار قبل الاسلام ، على ما نرى في « صفة جزيرة العرب » الذي وضعه الهمْداني المتوفى في سجن صنعاء ، سنة ٩٤٥ . والواقع ان نظام البريد والاستعلامات الذي اقتبسه الامويون عن ملوك الفرس الكبار وتعهده العباسيون الأولون بالتجويد والتوسيع ، كان قد قدّم للدولة منذ القرن التاسع شبكة من المواصلات أفاد منها أصحاب الوظائف في الامبراطورية . كذلك عنيت الكتب المؤلفة في الخراج بالتنظيم الامبراطوري . وفي بغداد ، مركز التجارة العالمية في ذلك الحين ، نشأ اهتمام كبير بشؤون البلدان والامبراطوريات والشعوب الاجنبية ، برز بصورة خاصة في مؤلفات الجاحظ الجغرافية المفقودة . وفي بلاط اسماعيل الساماني (٨٩٢–٩٠٧) ألف الوزير الجيهاني كتاباً لم يصلنا ايضاً ، استطرد فيه من بحث الضرائب الى وصف البلدان المجاورة . ثم إن أبا زيد البلخي ، وكان في خدمة اسماعيل ببلخ ، وضع مصوراً جغرافياً وجعله ذيلاً لأطلس إسلامي قديم موضوع على اساس كتاب اقتبسه الخوارزمي ، قبل عام ٨٤٦ ، عن جغرافية بطليموس . والواقع ان كتاب أبي زيد هذا عُدّل في ما بعد ليطابق الأحوال في الامبراطورية الفاطمية ، كما أضاف عليه أحد الأندلسيين إضافات جديدة تلائم بلاده . كذلك كان هذا الكتاب أساساً للأثر الكلاسيكي الذي وضعه المقدّسيّ ، الفلسطيني ، الذي أشاع الحياة ، سنة ٩٧٨ ، في هذا المصور

الجغرافي ، بما وضعه عليه من دراسة بارعة ، من الوجهة الادبية ، ومواد جمعها من رحلاته الشخصية ، حول البلاد الواقعة في حوزة كل من السامانيين والفاطميين . بيد أن المسعودي المتوفى في مصر سنة ٩٤٦ كان أوسع منه أفقاً ، فقادته شهوة الترحال ، بطريق الهند ، الى سيلان والبحر الصيني . ومع ذلك فلم يكن يعتبر نشاطه في ميدان الجغرافية إلا أساساً يقيم عليه مؤلفاته التاريخية المسهبة التي لم يصلنا منها غير نتف يسيرة ، مع الاسف .

انهيـــار الدولة السامانية

وأخيراً انتهى أمر السامانية نتيجة للآفة نفسها التي قضت على العباسيين . ذلك انهم انتهوا الى ما انتهى اليه العباسيون من الاعتماد على الاتراك ، كمصدر لا يزال بعيداً عن النضوب ، في إمداد جيوشهم بالعناصر الجديدة ، بل لقد ذهب السامانيون من هذه الناحية إلى ابعد ، لما كان في حوزتهم من البقاع الشاسعة الآهلة بالأتراك . والواقع ان الاتراك ما لبثوا ان نفذوا ، تدريجياً ، شأنهم في بغداد ، الى الرتب العليا في الجيش الساماني ، ومن ثمّ انتقلوا الى الادارة المدنية حيث أمسوا بعد برهة وجيزة خطراً على الدولة بسبب من السلطات الواسعة التي آلت اليهم . وكان عبد الملك الاول الساماني (٩٥٤ — ٩٦١) قد عين المملوك التركي ، ألبتكين ، قائداً عاماً في خراسان ابتغاء اقصائه ، في الدرجة الاولى ، عن العاصمة ، بعد ان تعاظم فيها سلطانه الى حد بعيد . حتى اذا توفي عبد الملك انسحب ألبتكين الى غَزْنة ، في جبال سليمان بافغانستان ، وكان ابوه حاكماً عليها من قبل . بيد ان المنية عاجلت ألبتكين هذا قبل ان يمسي خطراً على السامانيين . ولكن مملوكه سُبكتكين ، الذي صار صهره في ما بعد ، لم يلبث ان طرد سائر ورثته وانشأ ينشر سلطانه من طريق الفتوح في الهند . ولقد وفق في بادىء الأمر الى الاستيلاء على مدينة بُسْت في سجستان . وكان اميرها قد استعداه على رجل اغتصب عرشه ، فأعداه سبكتكين وقام بنصره . حتى اذا تخلف

هذا الامير عن اعطاء الجزية التي وعدَ بها لقاء تلك الخدمة خسر عرشه بالكلية . وكانت حملات سبكتكين أكثر نجاحاً في الهند ، حيث مهدت منازعات الامراء السبيل امام قواته فانتقل فيها من نصر الى نصر ، ورجع بالغنائم الوافرة . والواقع انه شنّ حملتين مظفرتين على ملك البنجاب ، جيّبال ، فأكرهه على أن يتخلى له عن اقليم كابُل الهامّ الواقع على الحدود والذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب . وهكذا اشتهر ببطل الاسلام وهازم الكافرين .

محمود الغزنوي

وكان ابنه محمود ، الذي ولاه السامانيون خراسان سنة ٩٩٤ هو ساعده الأيمن في هذه الحملات كلها . وفي سنة ٩٩٧ توفي سبكتكين فخلفه ابنه الأكبر اسماعيل ، وكان مبذراً قليل الكفاية . فلم يكن من أخيه محمود الا أن طلب اليه التنازل عن الملك ، فأبى . فلما كانت السنة التالية حمله على ذلك بقوة السلاح ، ورقيَ العرش متخذاً لقب السلطان بعد سبعة اشهر من وفاة أبيه . وفي السنة نفسها مات نوح الساماني أيضاً ، وخلفه ابنه منصور . فأصدر محمود أمره اليه بوجوب التخلي له عن خراسان ، ولايته القديمة ، ولكن منصوراً خُلع قبل أن يتم ذلك ، بعد ان سمل احد القواد الأتراك عينيه ، ورُفع أخوه عبد الملك الى عرش السامانية . وهنا صار في استطاعة محمود أن ينتحل صفة المدافع عن مبدأ « الشرعية » فطرد الثائر وسيده الجديد من بلخ واتخذها دار ملك له . والحق ان عبد الملك فرّ الى بخارى حيث ظفر به أيلك خان المتغلب على تركستان واقتاده الى الجُرجانية (كُرْكانج) . وحوالى سنة ١٠٠٤ قُتل المستنصر ، آخر السامانيين ، بعد عدة مغامرات مخفقة قام بها . ومهما يكن من أمر فقد نال محمودٌ اعتراف الخليفة الرسمي بدولته ، وكانت لا تزال مفتقرة اليه ، ولقّب كذلك بيمين الدولة .

الفتوح في الهند

كانت حياة محمود الغرنويّ حافلةً بالمغازي المتواصلة . ولقد سار بجيوشه إلى الهند مرة بعد مرة ؛ ففي سنة ١٠٠١ تمّ له فتح كابلستان ، وبعد ذلك بقليل فتح ملتان وقشمير وسعى إلى أن ينشر لواء الاسلام ويحله محلّ البرهمية في كل مكان . ثم انه اضطرّ سنة ١٠٠٦ الى أن يدفع عن ممتلكاته الشمالية هجوماً شنه عليها ايلك خان ، فهزمه محمود هزيمةً منكرة في سهل بلخ . وعلى الاثر انقلب الى الهند يواصل فيها أعمال الفتح ، فأخضع البنجاب حيث استطاع اعقابه من بعده أن يثبتوا سلطانهم ، في عاصمتهم لاهور ، طوال مائة وخمسين سنة . ومهما يكن ، فقد اندفع محمود في فتوحاته هذه بعيداً إلى ما وراء نهر الكنج ، ليختتم فتوحه في الهند سنة ١٠٢٥ باحتلال كُجرَات . وكان في الوقت نفسه قد بسط سلطانه في الشمال واستولى على خوارزم في الشرق والكرج [جورجيا] في الغرب . وفي سنة ١٠٢٦ انتزع الريّ من مجد الدولة البويهي واقتاده الى عاصمته ، غزنة .

البيروني

ولكنّ ذلك الجندي الجافي كان أبعد ما يكون عن العداوة لفنون السلم . فقد زين عاصمته بالأبنية الفخمة منتزعاً عتبات مسجده وقصره من اصنام هيكل سُومَنات البرهمي في كجرات بعد ان انتهبه سنة ١٠٢٦ ، وإذ قد حلّ الخراب بساحة المدينة ، بعدَ سقوط الدولة الغزنوية فلم يبق لنا من آثار محمود العمرانية غير مئذنة جامعه ، وغير ضريحه الذي أمر الانكليز بنقل ابوابه الخارجية الى الهند ، سنة ١٨٤٢ ، ظناً منهم أنها كانت هي ايضاً جزءاً من هيكل سُومَنات في وقت من الاوقات . والحق ان محموداً عرف كيف يجتذب الى بلاطه العلماء والشعراء ، ايضاً . ففي السنوات الأخيرة من حياته كان في خدمته عالمُ عصره العظيم وأحد كبار العلماء في الدنيا الاسلامية برمتها ، أبو الرّيحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة

١٠١٧ عندما استولى محمود على ممتلكات ولي نعمته سابقاً [أبي الحريص محمد بن علي بن] المأمون [آخر ملوك الدولة الخوارزمشاهية الاولى] . ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية المفتوحة . ولقد تعلّم السنسكريتية على بعض العلماء الوطنيين ، ففتحت له هذه المعرفة مغاليق الثقافة الهندية الغنية من الوجهتين العلمية والدينية . حتى اذا كانت سنة ١٠١٧ شرع في تأليف كتابه الشهير عن الهند * الذي يُعتبر ، بوصفه صورة كاملة عن عالمٍ ثقافي غريب ، نسيج وحده في الادب العربي ، والذي ادّى للدراسات الأوروبية خدمة جُلى ايضاً . وكان البيروني قد ألّف بجرجان سنة ١٠٠٠ ، وهو في ريّق الشباب ، كتاباً ** استعرض فيه تاريخ الشعوب كلها(٧٩) . وكان محمود ، بوصفه تركياً ، غيوراً على السنّة . ومن هنا آثر الادَب العربي على الادب الفارسي الذي كان حملة لوائه من الشيعة في الأعم الأغلب . والواقع أنه شنّ حرباً على اهل البدع جميعاً ، فلم يكتف باضطهاد الاسماعيلية ، وهم اكثر الشيعة تطرّفاً ومغالاة ، بل عدا ذلك إلى اضطهاد الفقهاء من أصحاب النزعة الاعتزالية . والذي لا شك فيه أنه لم يفهم إلا قليلاً من كتاب « اليَميني » الذي تغنّى فيه العُتبيّ ، صاحب البريد في كَنْج رُستاق ، بمآتيه وبُطولاته . ذلك بأن هذا الكتاب يُعد من النماذج الاولى لذلك الاسلوب البلاغي ، التافه الى حدّ مُثير للاشمئزاز ، المثقل بالمحسنات البديعية ، الذي تطرّق ، في عصر الانحطاط هذا ، من كتابات دواوين الفرس إلى كتب التاريخ العربية ، والذي اورث الاطنابَ في الشرق سمعةً غير صالحة .

(*) « تحقيق ما للهند » . (المعربان)

(**) « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (المعربان)

(٧٩) ترجم E. Sachau كتاب التاريخ الى الانكليزية واصدره في لندن سنة ١٨٧٩ ، كما ترجم كتاب « تحقيق ما للهند » في مجلدين صدرا سنة ١٨٨٨ واعيد طبعهما سنة ١٩١٠ بلندن ايضاً .

ولم يكن محمود بقادر على ان يفهم شيئاً من شعر الفردوسي ، شاعر الفرس الملحميّ الأكبر ، الذي سعى ، على غير طائل ، الى كسب عطفه ونيل الحظوة عنده ، وكان واحداً من رعاياه . والحق ان الاساطير المتصلة بملوك الفرس وابطالهم كانت حتى ذلك الحين تُنقل بطريق الرواية ، في المحل الاول ، وان تكن آساسها قد وُضعت قبل ذلك في المؤلفات النثرية الفهلوية التي نقلها ابن المقفع الى اللسان العربي ، جاعلاً اياها في متناول المؤرخين العرب وبخاصة الطبري . وفي سنة ٩٥٧ عهد موظف كبير يدعى ابا منصور المَعْمَريّ الى اربعة من الرجال في ان يعيدوا صياغة هذه الاساطير كلها في كتاب يضعونه نثراً باللغة الفارسية الحديثة لأبي منصور بن عبد الرزاق حاكم طوس ، في خراسان ، آنذاك . بيد أن اولى المحاولات الى اخراج هذه الثروة الادبية في الثوب الفني الجدير بها كانت محاولة الشاعر دقيقي الذي لمع في بلاط نوح بن منصور الساماني (٩٧٦ — ٩٩٧) ، ولكنه قُتل بيد أحد الغلمان ، ولما ينظم إلا نحواً من الف بيت . وفي حوالي سنة ٩٩٠ نهض بالمهمة من بعده الفردوسي * ، الشاعر الطوسي ، وكان قد تخطى الستين ، فأتمها في احد عشر عاماً . والواقع اننا نقع في الشاهنامة (كتاب الملوك) على روح الاسلوب الملحمي الفارسيّ في قمة اكتماله ؛ وانها لتنكشف ، برغم نمطيتها ورتابتها ، عن عبقرية شعرية بارعة . ولقد رفع الفردوسي ملحمته هذه الى سيد بلاده ، السلطان محمود ، بعد ان مجّده في مواطن كثيرة منها ذاهباً الى انه اشدّ الملوك بأساً وأرأفهم بالعباد . وطال انتظار الشاعر للجائزة المرجوّة . حتى اذا تحرك السلطان للانعام عليه لم تجد كفه بغير هبة حقيرة . فكان جواب الفردوسي هجاء لاذعاً قدّم به لملحمته الخالدة ، معارضاً ابياتها التي تمتدح السلطان . ولكي ينجو الفردوسي من غضب

(*) « فردوسي » من غير تعريف ، عند الفرس . (المعربان) .

محمود اتخذ سبيله في اتجاه الغرب ، قاصداً بلاط بهاء الدولة البويهي في بغداد حيث نظم ملحمة « يوسف وزليخا » التي تداني الألياذة طولَ نفس ، وتنهض دليلاً على النضارة النادرة التي يتميز بها قلب هذا الرجل المشرف على الثمانين . وعلى الرغم من أن ابياتها تجري في سهولة ورشاقة ، من قلمه ، لما تيسر له من طول المزاولة والاختبار ، فهي تعتبر ، عند الفرس ، دون الشاهنامة جودة ومكانة . ولكن الشاعر العجوز لم يلبث ان ضاق ذرعاً بالعراق وحياته التي تغاير كل المغايرة الحياة في بلاده ، فقفل الى بلده ، طوس ، بعد ان استوثق من عفو السلطان محمود . وهناك توفي بعد سنة ١٠٢٠ بقليل . والحق انَّ آثار الفردوسي التي تستغرق ، في نظام شعري كامل ، جُماع ذكريات الفرس الاسطورية والتاريخية والتي تلتزم أبداً ، رغم ضخامتها (إذ تبلغ نحواً من ثمانية أضعاف الألياذة) اسلوباً واحداً لا يتغير ، – إن هذه الآثار ليعتبرها الفرس ، بحق ، اعظم الروائع الشعرية في ادبهم كله . ولقد ظل اسلوب الفردوسي مثلاً يُحتذى في شعر الفرس الملحمي برمته ، ثم في شعر الاتراك ايضاً . ومن هنا كان طبيعياً جداً أن تحتفل الامة الإيرانية ، وقد تفتح عندها الوعي القومي في ظل الشاه رضا بهلوي ، بالعيد الالفي لشاعرها الأكبر سنة ١٩٣٤ . والحق ان هذا التاريخ قد اختير اختياراً تحكمياً ، او يكاد ، بالنظر إلى تضارب الروايات في تعيين السنة التي توفي فيها الشاعر .

السلاجقة

وإذ قد أظهر البويهيون عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية ، فلم يلبث الفرس ، هنا ايضاً ، ان طُردوا على يد الاتراك ذلك ان عشيرة جديدة نجمت بين الدولة الأيلكخانية بتركستان وسلاطين غزنة ، ثمّ تعاظمت قوتها حتى لقد انتهت الى السيطرة على الشرق الأدنى بكامله . فحوالى سنة ٩٧٠ خرج سلجوق ، مُقدّم الغُزّ مع عشيرته من

بادية القيرغيز إلى جَنْد ، حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أرال)*
ومن ثم انتقلوا إلى بخارى . ويتألف الغزّ ، الذين دُعوا ايضاً التركمان بعد دخولهم في الإسلام ، من مجموعة العشائر الكبرى التي أسست المملكة الشمالية في القرن السادس ، وما فتئت تتنقل منذ ذلك الحين في اتجاه الغرب . حتى إذا اعتنق هؤلاء الاتراك الاسلام انحازوا إلى السنّة التي كان فحوى معتقدها الواضح الرصين يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا عليها واعتنقوها بكل ما في نفوسهم الفظة من قوة وحماسة . ثم ان عشيرة سلجوق شاركت في الحروب القائمة بين السامانيين والقراخانية كما شاركت بعد ذلك في الحروب الناشبة بين الدولة الايلك خانية والدولة الغزنوية . ليس هذا فقط بل لقد شنّ السلاجقة غزوات مستقلة حملتهم في اتجاه الغرب حتى آذربيجان والعراق . وفي سنة ١٠٤٠ انتزع طغرلبك محمد وجَغري بك داود ، حفيدا سلجوق ، خراسانَ من مسعود بن محمود الغزنوي بعد ان أخفقت محاولتهما إلى الاستيلاء على سمرقند وبخارى ، فخُطب لداود في مرو ، وخُطب لطغرلبك في نيسابور . واذ لم يلبث الخلافُ ان نشب بين الغزنويين أنفسهم ، فقد وُفق السلاجقة إلى بسط سلطانهم على حساب غزنة ، فاحتلوا خُوارزم وطبرستانَ . وفي سنة ١٠٤٣ احتلوا عراق العجم (الجبال) نفسه . وبعد جهد يسير استطاعوا القضاء على الدولة البويهية بفارس . وكانوا كلما تقدموا غرباً اتخذوا حاضرة جديدة أقرب الى العراق ؛ ولقد وقع اختيارهم على الريّ اولاً ، وعلى إصفهان بعد ذلك .

وكان طبيعياً أن يرغب الخليفة العباسي « القائم » (١٠٣١ — ١٠٧٥) في ان يستبدل حماية هذا السلطان ، المتغلب حديثاً على بلاد الشرق ، بحماية الملك البويهيّ الذي كان أحد قواده الاتراك ، واسمه البساسيري ، قد جرّده من السلطة كلها . فلما كانت سنة ١٠٥٥ وانتهى طغرلبك إلى حلوان ،

(*) وتسمى أيضاً بحيرة الجند . (بفتح الجيم) . (المعربان)

استنجد به القائم وأمر بأن يُخطب له في جوامع العراق . أما الملك الرحيم ، آخر ملوك البويهيين ، فتوفي في سجن بالرّي سنة ١٠٥٨ . ولكنّ السلاجقة لم يستطيعوا إخضاع البساسيري في سهولة ويسر . وتفصيل ذلك ان البساسيري فرّ الى الشمال فتعقّبه طغرلبك حتى الموصل . وهنا انفصل عنه اخوه لأمّه ، ابراهيم بن ينال ، وانقلب الى همذان . فلم يكن من طغرلبك إلا أن سعى إلى إخضاعه ، فلم يتمّ له ذلك الا بعد أن انجده ألب ارسلان ، ابن اخيه داود ، وكان حاكماً على سجستان . وهكذا لقي ابراهيم حتفه ، في ٣ آب سنة ١٠٥٩ ، جزاء وفاقاً على خيانته . وعرف البساسيري كيف يفيد من هذا النزاع فحازَبَ قريشَ بن بدران ، أحد امراء الدولة العُقيلية العربية ، واستولى على بغداد بعد ان خلت ممن يحميها من الجند . و [استذمّ الخليفةُ من قريش بن بدران بذمام الله ورسوله وذمام العربية] فأعطاه ذلك وسار به الى عانة في بلاد الجزيرة ، بينا خطب البساسيري للمستنصر الفاطمي [وهتف باسم آل البيت] على منابر المدن التي آلت اليه . ولم يكد طغرلبك يقضي على حركة ابراهيم بن ينال حتى أعاد الخليفة الى بغداد ، فخلع عليه ، جزاء ما اسدى اليه من خدمة ، لقبَ ملك الشرق والغرب . وفر البساسيري الى واسط حيث قتل في معركة خاضها ضدّ جيوش السلاجقة ، أوائل سنة ١٠٦٠ .

وفي سنة ١٠٦٣ توفي طغرلبك فخلفه ابنُ اخيه ، ألب ارسلان ، الذي كان في السنوات الاخيرة من حياة أبيه ، داود ، على رأس الحكم في البلدان الخاضعة له . ولقد كان عليه بادىء الامر ان يقمع ثورة ابن عم ابيه [قُتُلْمِش] الذي عارضه في الملك . حتى إذا تمّ له ذلك شرع يوسع حدود مملكته من جهاتها جميعاً . ففي الشرق اخضع إمارة سُبران بين بُست وكابُل . وفي الغرب قاد بنفسه النضال ضد البيزنطيين غير مرة ، وان لم يوفق الى تحقيق أيّ نصر دائم في هذه الجبهة . ذلك بأنه هزم جند الروم في ملازْكِرْد ، وأسر امبراطورهم رومانوس ديوجين ، يوم ٢٦

آب سنة ١٠٧١ . حتى اذا أطلق سراح رومانوس لم يكن في ميسوره انفاذ احكام الصلح التي أقرّها ، لأنَّ عرش الروم كان قد آل ، في الوقت ذاته ، الى الامبراطور ميخائيل السابع . ولكن ألب أرسلان استطاع ان ينتزع من الفاطميين ما في يدهم من البلاد حتى دمشق . وفي كانون الاول سنة ١٠٧٢ عبر نهر جيحون في حملة أراد بها استرجاع موطن آبائه ، فقتله أحد الثوار الذين اعتزم أن يُنزل بهم عقوبة الموت .

ملكشاه والوزير نظام الملك

وعهد ألب ارسلان في الوصاية على ابنه ملكشاه ، ولم يكن قد بلغ الحلم بعدُ ، الى الوزير نظام الملك الذي سبق له أن خدم اباه * كوالٍ على خراسان . والواقع أن ملكشاه حاول غير مرة أن يتحرّر من نفوذ هذا الوصي ويضع حداً لسلطته المطلقة ، على الرغم من انه مدينٌ له بتثبيت عرشه واخضاع الثائرين من افراد بيته . ولكن التوفيق لم يحالفه في ما قصد اليه . ولقد تفرد نظام الملك ايضاً في تعيين الموقف الذي اتخذه من الخليفة ، ووضع قصر الخلافة تحت مراقبة موظفين مماثلين له . حتى إذا اصطدم بمعارضة الخليفة ، سنة ١٠٨٣ ، انتقم لنفسه بأن عادى ابن مروان ، صاحب ديار بكر ، آخر العمال الذين كانوا يخضعون للخليفة مباشرة . وفي ظل نظام الملك نعمت فارس والعراق ، من جديد ، بفترة الرخاء الى حد ما ، وإن يكن الوزير — او الاتابك ، كما كان يدعى بوصفه وصياً على السلطان — مديناً بشهرته ، في المحل الاول ، لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء ، وما ضمنه لهم من موارد بانشاء المدارس في جميع المدن الرئيسية ، في الامبراطورية . صحيحٌ ان ثمة ما يدل على أن فارس قد عرفت امثال هذه المنشآت ابتداء من آخر القرن العاشر ، ولكنها انما حظيت بعطف خاص من هذا الوزير السلجوقي الذي انشأ « النظامية » الحاملة اسمه ، في نيسابور

(*) اي أبا « ألب ارسلان » .

ثم في بغداد بين سنة ١٠٦٥ وسنة ١٠٦٧. وبينا كان وزير طغرلبك لا يزال يضطهد، في حماسة، فقهاء الأشعرية الذين عني زعيمهم [ابو الحسن] عليّ الأشعري المتوفي سنة ٩٣٥ بالتوفيق بين منهج المعتزلة الكلاميّ وبين تفكير السنة، نجد نظام الملك يشجع هذه النزعة الجديدة بالذات، ويؤيدها دون غيرها.

الغزالي

وبرعاية نظام الملك أتمّ الغزالي، آخر مفكر ديني كبير في الاسلام، رسالته في المدرسة النظامية بنيسابور أولاً ثم في نظامية بغداد. وانما بدأ الغزالي حياته العلمية بدراسة عميقة لمذاهب علماء الكلام الشرعية الفقهية ثم بعرضها في سلسلة مشرقة من كتب التدريس. حتى إذا قُتل وليّه ونصيره، نظام الملك، بخنجر أحد الاسماعيلية المتعصبين، عكف على دراسة العقائد الاسماعيلية ليكتب بعدُ عدداً من المباحث الجدلية في نقدها وتفنيدها. ولكن أياً من هذه المذاهب والمعتقدات التي «خاض غمراتها خوضَ الجسور لم يرو تعطشه الى «درك حقائق الامور»، فتخبّط برهةً في دياجير شكوكية حادة ظهر استعداده لها منذ شبابه الاول. وفيما هو يجوز هذه الازمة الروحية تمت له تجربة دينية حاسمة. فكما تحرّك النبي لاداء رسالته بدافع الخوف من الحساب المرتقب يومَ الحشر هكذا عصفت بالغزالي أعاصير من الأسئلة حول الآخرة والبعث. فلما كانت سنة ١٠٩٥ اعتزل منصبه السامي ببغداد وطفق يتنقل في البلاد، إبتغاء إعادة النظر في معتقداته جميعاً، بعد أن أمسى نهباً مقسّماً بين الايمان والعقل. واجتذبته الصوفية إلى ساحتها، شيئاً بعد شيء، حاملة الى قلبه اليقين الديني من طريق التجربة الشخصية. والواقعُ أنه سلخ احدى عشرة سنة في عزلة هادئة، كان معظمها في الشام، كتب إبانها كتابه «إحياء علوم الدين» الذي أذاعه في الناس في مستهلّ القرن الخامس للهجرة (حوالي ١١٠٦ م). ذلك ان بعض

الأحاديث المروية عن الرسول تذهب الى أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدّد للامة الاسلامية أمر دينها ؛ وقد استشعر الغزالي أنه مدعوّ لهذه المهمة ؛ فواصل ما كان الأشعري قد بدأه من التوفيق بين علم الكلام والفقه ، مُهيئاً لصرح العقيدة الاسلامية أساساً قائماً على الاسلوب الجدلي. ثم إنه نزل عند رغبة السلطان محمود السلجوقي (أخي بَركيارُق) الذي رقي العرش سنة ١١٠٤ ، ووزيره فخر الملك بن نظام الملك ، فعاود التدريس في نيسابور فترة يسيرة ، فزع بعدها إلى العزلة في مسقط رأسه ، طوس ، حيث توفي وليس له من العمر إلا أربعة وخمسون عاماً ، في ١٩ كانون الاول سنة ١١١١ . ومع أن معاصريه لم يفهموا آثاره فهماً صحيحاً ، في جميع الأحوال ، (ففي الاخبار مثلاً أن المتعصبين من أهل السنة في الاندلس أحرقوا كتبه) ، فالواقع انها حظيت عند الاجيال التالية بمحلّ عظيم ، وكانت بمثابة خميرة أفاد منها الأسلام في سيره بعدُ نحو التطوّر والتجديد.

عمر الخيام

وإلى جانب هذه العناية بالدراسات الفقهية في عصر السلاجقة نجد اهتماماً بالغاً في العلوم الطبيعية والرياضية أيضاً. وحسبنا أن نذكر في هذا المعرض الرياضي الشهير ، عمر الخيام ، وهو مواطن للغزالي توفي في أغلب الظن سنة ١١٣٢ . فقدكانت دراساته في علم الجبر أول محاولة ناجحة لحل المعادلات التكعيبية (وقد ميز منها ثلاث عشرة) ، ولم يحلها حلاً جبرياً فحسب ، بل حلاً هندسياً ايضاً. والواقع أن شهرته البعيدة كرياضي حملت السلطان ملكشاه جلال الدين على ان يعهد اليه في إصلاح التقويم الجلالي الذي لم يكتب له النجاح ولم يعم استعماله ، على الرغم من انه ، بلا شك ، أدقّ من التقويم الغريغوري المألوف. اما شهرته في اوروبة فتقوم في المحل الاول على الرباعيات الفارسية الثاقبة ، المقرونة باسمه ، التي تدعو في خفة حيناً وفي جد حيناً آخر ، الى الاستمتاع بمباهج الحياة ، وتذيب

آساس الاسلام في وحدة وجود صوفية . والحق ان رباعيات الخيام حظيت ، سنوات طوالاً ، بشعبية كبيرة في العالم الانكلوسكسوني ، بعد ان نقلها فيتزجرالد * ، بتصرف ، الى الشعر الانكليزي ، في حين كان الفضل في تعريف الالمان بها للرجل السياسي روزن ** . وعلى الرغم من ورود كثير من هذه الرباعيات في دواوين شعراء آخرين فقد انقضى عهد طويل قبل ان يساور الباحثين الشك في صحة نسبتها الى عمر الخيام . اما وقد وقفنا اليوم على مؤلفات الخيام الموثوقة في الفقه وما وراء الطبيعة فلم يبق محل للريب في ان ما تمثله هذه الرباعيات من استشراف للحياة لا يمكن ان يُعزى اليـــه .

القصص والمقامات

وفيما فرغ الفرس في هذا العصر الى الخوض في مشكلات الدين والعلم ، كان رجل من العرب يبدع كتاباً استغرق من جديد دقائق المعاني في اللسان العربي جميعاً . ذلك ان النثر العربي القصصي الذي استطاع في الجاهلية ، ان يصف لنا تلك المنازعات الصغرى الناشبة بين القبائل في صور غنية بالوقائع ، ولكن يعوزها التماسك ، انما تكشّف عن براعة ايضاً في استعراض الاحداث الكبرى التي تمت عصرَ الفتوح الاسلامية ، وتصوير النزاع على السلطة بين الاحزاب الاسلامية نفسها . ولقد رأينا آنفاً انه لم يكن بدٌ ، بادىء الامر ، من المؤثرات الثقافية الفارسية لتحويل هذه الصور القصيرة النفَس الى قصة مديدة مترابطة لتاريخ الامبراطورية . والواقع انه نشأت في العصر الاموي ، بالاضافة الى الاخبار المروية عن الغزوات والحروب ، مجموعة من الاخبار عن اشهر العاشقين كانت اساساً لعدد من الحكايات القصيرة التي فُصّلت بعدُ أحسن تفصيل وأروعه . ولكن مهمة العناية بهذه الحكايات

(*) **Fitzgerald**
(**) **Fr. Rosen**

تُركت ، على الجملة ، للقصّاص من العامة ، باعتبار ان ذلك الصنيع لا يليق بالطبقة المثقفة من الأمة . والحق ان نماذج من هذا الفن نقلت الينا من طريق فقهاء اللغــة دون غيرهم ، لما لمسوا من فائدتها في شرح القصائد التي كانوا ينقلونها من جيل الى جيل . كذلك ادخل الفرس ، في عهد مبكر ، شيئاً من ادب الهند القصصي الخصب الى الثقافة الاسلامية . ولكن كل ما نعلمه اليوم من هذه الآثار القصصية الوفيرة لا يعدو اسماءها المحفوظة لنا في كتاب الفهرست [للنديم] الذي يرجع الى اواخر القرن العاشر للميلاد . ولم يصلنا الا جزء من هذه المادة الواسعة في مجموعة الف ليلة وليلة التي لم تنشأ حتى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وفي القرن التاسع كان الاحتفال باللفظة نفسها لا يزال يطغى على كل اهتمام آخر في صناعة الادب . وانما يتمثل ذلك ، بخاصة ، في مؤلفات الجاحظ (وكان جمّاعة) المتوفي في بغداد سنة ٨٦٩ ، فهو لم يستطع ، حتى في كتاب « الحيوان » الذي ألّفه في شيخوخته ، وعلى الرغم مما بذله فيه من جهد موفق لتشويق قارئيه الى المسائل العلمية ، ان يعلو على جمع غير منتظم للتفاصيل المختلفة ، فدوّن رسائل وكتباً عديدة حفلت بالنوادر الطريفة الهادفة الى تصوير مختلف الطبقات الاجتماعية ، وضروب الطبائع البشرية . وكما كان البيت الفرْد اعظم شأناً عند الشاعر القديم من تماسك القصيدة وترابطها ، كذلك اعتقد الجاحظ وقراؤه ان فقرات الحكاية المفردة أحق بالعناية من بناء الحكاية ككلّ . والواقع ان الاحتفال باللفظة البارعة الصياغة كان قد انتهى بفن المناظرة الى غاية من الكمال بعيدة ، حتى عند الاعراب . وكان من نتيجة هذه الصناعة البلاغية ايضاً الادب الفهلويّ الدائر على محور التاريخ ، هذا الادب الذي زفّه ابن المقفع الى العرب بلسان عربي مبين . ولقد ازدهرت هذه الصناعة في المواعظ الدينية وكتابات الدواوين السياسية في ظل الخلافة العباسية ، وبخاصة في بلاطات الدويلات التي قامت على انقاضها . وعلى ايدي البروليتاريا الادبية التي نشأت في الحواضر ، وفي دوائر طلاب المناصب المخفقين ،

انحدر هذا الفن من تلك الدائرة الرسمية الى بلاغة مسجوعة كانت تساعد تلامذة فقهاء اللغة في تطوافهم من مكان الى مكان على ان يكسبوا عطف وليّ مثرٍ ، او أن يجدوا في ظله راحة قصيرة ، على الاقل . ولقد دُعيت خطب الكدية هذه « مقامات » ، وهو اصطلاح كان يطلق من قبل على المواعظ الدينية . فمنذ النصف الثاني من القرن العاشر وُفق بديع الزمان الهمذاني ، وكان يطلب الرزق عند صغار الامراء الفرس ، الى أن يسمو بهذا اللون من القول الى مرتبة الفن الادبي . فهو يُسمعنا على لسان راويته حكايات قصيرة تتدفق تدفقاً مسرحياً في نثر بارع السجع ، عما وقع لاحد الادباء الضاربين في الارض من نوادر شهدها هو بنفسه . ولكن بينا اصطنع الهمذاني هذا الشكل الموحد ليعبر بواسطته عن اغراض متباينة الى ابعد الحدود ، نجد الحريري الذي جرى على آثاره بعد مائة عام تقريباً يأخذ نفسه بتصوير هذه المشاهد دون غيرها . والحق ان الحريري كان على خلاف سلفه الذي عرف كيف يفيد من خبراته الشخصية كأديب متجول — بَرْجاسياً * موسراً ، وكان « صاحب الخبر » بمسقط رأسه ، مَشان البصرة ، حيث توفي سنة ١١٢٢ . ولقد حظيت مقاماته التي تروي مغامرات ابي زيد السَروجي بنجاح عظيم . وعلى الرغم من انه كان دون بديع الزمان في القدرة على التخيل فقد فاقه في اصطناع الانشاء البديعي المتكلف الذي امسى منذ ذلك الحين صفة لازمة لهذا الفن . ومن الخير ان نشير هنا الى ان مقامات الحريري وجدت من يقلدها في الآداب الاجنبية ، من مثل اليهودي الاسباني « الحريزي » في العبرية ، و « عبد يشوع » ، أسقف نصيبين في السريانية ، كما وجدت خير مرآة لها في اللغة الالمانية على يد روكرت ** في كتابه « مغامرات ابي زيد السروجي » *** ولقد ظل العرب يرون في مقامات الحريري وقصائد

---

bourgeois (*)

Ruckert (**)

Verwandlungen des Abu Said von Serug (***)

المتنبي أكمل تعبير عن روحهم ، حتى مطلع العصر الحديث .

الإدارة في امبراطورية السلاجقة

ونحن مدينون للوزير نظام الملك برسالة رائعة كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية ، حتى في عهد نظام الملك نفسه . ولقد وضعت هذه الرسالة باللغة الفارسية تلبية لرغبة السلطان قبيل وفاته سنة ١٠٩٢ ، ولكنها لم تنشر الا بعد اثنتين وعشرين سنة . وإذ قد افترض المؤلف ان قارئه على علم بالاحوال السائدة آنذاك ، فلسنا نقع في الرسالة على ما يبصّرنا كثيراً بتنظيم الدولة الداخلي . والواقع انه يحذّر السلطان من تدخل اصدقائه الشخصيين تدخلاً غير مسؤول في شؤون الدولة ، مقترحاً في الوقت نفسه اعادة انشاء المؤسسة البريدية القديمة وحمل اصحاب البريد على تزويد الحكومة بالانباء (وكان الب ارسلان ، ابو السلطان ، قد الغاها) ، ومطالباً بتشديد الرقابة من طريق العيون ورجال الاستخبارات السريين . والذي يظهر ان القضاء كان في حال خطرة : فقد حذّر من انتداب احد مماليك البلاط للنظر في الدعاوى وإصدار الأحكام لأن هذا المملوك خليقٌ بأن يستغل سلطته بابتزاز رسوم باهظة متباينة . وهنا نلمح اثراً آخر من آثار القاعدة الفاسدة التي كان الاتراك القدماء يعملون بها ، فيعهدون في شؤون القضاء الى موظفين يعينهم الامير ، على الرغم من ان نظام الملك لم يستطع أن يحول بين القضاة المعدّين إعداداً شرعياً ونزوعهم الى استغلال مناصبهم . كذلك حذّر نظام الملك ، بحقّ ، من تضخم الوظائف ، وهي حال كانت قائمة في ايام العباسيين . وهو يعرّفنا ، في الحقل العسكري ، بحقيقة هامة هي وجود الجيوش الاقطاعية الى جانب المرتزقة . والحق ان نظام الملك ، الذي لم يشغل نفسه ، على العموم ، بتحرّي الوقائع التاريخية ، قد أخطأ عندما اعتبر هذه النزعة ظاهرة جديدة بالكلية . فقد كانت قائمة على كل حال ، في عهد العباسيين ولو في شكل استثنائي . والمفروض انها

لم تعرف في الدولة الغزنوية . أما في عهد الاتراك في الغرب وبخاصة العثمانيين ، فقد انتهت هذه الظاهرة بعدُ الى أن تكون اساساً لبناء الدولة كله . ثم ان نظام الملك أشار بضرورة تحديد الأراضي التي يُقطعها السلطان تحديداً دقيقاً ، وقال بأقطاعها الى أجل مسمى . وأخيراً اضاف ، قبيل مقتله ، فصلاً جديداً نبّه فيه السلطان الى خطر الأسماعيلية على امبراطوريتـه .

ووسع ملكشاه حدود امبراطوريته أيضاً . وفي سنة ١٠٨٩ — ١٠٩٠ أخضع سمرقند وكاشغر . ليس هذا فقط ، بل لقد انتزع سورية من الفاطميين بالكليّة ، فنشأت في دمشق وبيت المقدس إمارتان ثانويتان خاضعتان لسلطانه . وتوجه ابن عمه سليمان بن قُتُلمش إلى آسية الصغرى ابتغاء الفتح . وسنعرض بعدُ لما جرى هنالك من أحداث .

الحشاشون

وفي عهد ملكشاه عرفت الامبراطورية عدواً داخلياً قُدّر له ان ينشر الذعر في ربوع الشرق الأدنى ، سنوات طوالاً . والواقع أن نظام الملك لم يحذّر السلطان من مكائد الطوائف الشيعية لغير ما سبب . ذلك بأن التشيّع ، الذي بدأ اول ما بدأ حزباً سلالياً خالصاً انضوى تحت لوائه الداخلون حديثاً في الاسلام ليناضلوا ضدّ السياسة العربية ، كان في كثير من الاحيان ستاراً يستخدمه الانتهازيون الذين لا ذمة لهم ولا ذمام ، لتحقيق أهدافهم الانانية الصرفة ، المناهضة للحكومة . وكان في جملة دعاة الشيعة المتنقلين في البلاد ، في عهد ملكشاه ، لاجتذاب الغوغاء من طريق التبشير بقرب ظهور المهدي الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين ، رجلٌ يدعى الحسن بن الصبّاح . والاسطورة تتحدّث عن الصداقة التي كانت تربطه ، أيام الشباب الأول ، بالوزير نظام الملك والرياضي الكبير عمر الخيام . ثم انه رحل الى مصر حيث استهوته الدعوة الفاطمية وانحاز الى صف نزار ابن الخليفة المستنصر ، ولكن نزاراً هذا لم يوفق الى ارتقاء العرش . ومن هنا عُرف

اتباع الحسن بالنزارية ايضاً ، وفي سنة ١٠٩٠ عاد الى فارس كداعية من دعاة الفاطميين فعسكَر مع عصبة قليلة من اتباعه أمام قلعة ألموت الجبلية « ملجأ العقبان » ، وتقع في ناحية روذبار على مسافة ستين فرسخاً الى الشمال من قزوين(٨٠)، ودعا قائد حاميتها من قبل ملكشاه الى ان يقسم يمين الولاء للمستنصر . حتى اذا رفض القائد ذلك هاجم الحسن القلعة واتخذها قاعدة لقواته . والواقع أنه نظّم جماعته ، على الطريقة الفاطمية ، وجعل اتباعه درجات ، منهم المقربون ومنهم ما دون ذلك . وبينا كان افراد الطبقة الأكثر اتصالاً به يحيون حياة إباحية لا يحدّ منها أيٌ من قيود الأخلاق او الدين ، كان اتباعهم يُنشّأون على اشد التعصب واغلظه . وكان المقدّمون في الجماعة يُدخلون في روع هؤلاء الاتباع ان في قتل رجل من اعداء الايمان الحق ، اذا اشار به زعيمهم ، ما يكسبهم رضواناً من الله ، ويدخلهم جنات النعيم . وكان هؤلاء الفتاك يدعون « الفدائيين او « الحشاشين » (ومن هنا اسمهم في اللغات الاجنبيــة assassins) والحق ان تعاطي المنبهات كان فاشياً في الحلقات الصوفية في غير هذا الموطن ايضاً . ففي القرن السادس عشر استعملت القهوة لمثل هذه الاغراض في بلاد العرب الجنوبية . وهكذا فليس بعيداً ان يكون ما نقله سائح البندقية العالمي ماركوبولو عن هؤلاء الحشاشين — وقد مرّ في منطقة ألموت بعد مائتي عام تقريباً (١٢٧١ او ١٢٧٢) مجرد خرافة . فقد اورد هذا السائح ان الفدائيين كانوا يُحملون اثناء تناولهم الحشيش ، الى جزء من حدائق ألموت الغناء الغاصة بالكواعب الحسان ، ليكون في ذلك ما يدفعهم الى إنفاذ ارادة الزعيم ، بعد ان يتذوقوا طعم اللذات التي تنتظرهم ، في العالم الآخر حيث يتبدلون بهذه الحدائق والكواعب جنات خالدات تزهو بالحور العين . ومن قلعة ألموت وفقت

---

(٨٠) أنظر إيفانوف **W. Ivanow in Geographical Journal, 1931 L X X X V I, 38 - 45.**

وراجع ايضاً . **Islamic Culture XII, 1938, 383, 392.**

هذه الجماعة الى الاستيلاء على حصون اخرى في فارس وسورية خلال فترة قصيرة من الزمن . وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية الى القضاء عليهم . حتى اذا كانت سنة ١٠٩٢ أنفذ الحشاشون حكم الموت في نظام الملك ، وان يكن ثمة مجال للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة بعد أن بلغ سن الرشد وضاق ذرعاً بنفوذ وزيره المتعاظم ، وسلطانه المطلق . واياً ما كان ، فقد توفي السلطان ، بعد مصرع الوزير بشهرين ، إلا قليلاً .

في ظل بركيارق وأخيه محمد

وكان على السلطان بَركيارقُ ، الذي سماه ملكشاه لخلافته ، ان يحامي عن حقوقه ، بادىء الأمر ، ضد أمّ اخيه ، محمود ، وليس له من العمر غير أربع سنوات ، وضد عمه تُتُش [بن ألب ارسلان] صاحب دمشق . وفيما كان هذا الصراع قائماً أظهر الخليفة المقتدي استعداده للاعتراف بمحمود سلطاناً ، ولكن بركيارق لم يلبث أن أحرز النصر على أشياع أخيه سنة ١٠٩٢ ، وانتقم من المقتدي بقتله . أما نضال بر كيارق ضد عمه تُتُش فتطاول سنة أخرى ، ولم ينته إلا بعد معركة قتل فيها هذا الأخير قرب الري بفارس ، وكان قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الفراتية ، وأكره المستظهر العباسي على إقامة الخطبة باسمه [اي باسم بركيارق] في المساجد . بيد أن الأمر لم يستقم لبر كيارق ، فخرج عليه نفرٌ آخرون من ذوي قرباه . وتفصيل ذلك ان عمه أرسلان أرْغون أعلن استقلاله بخراسان ، ولكن مملوكاً من مماليكه اغتاله سنة ١٠٩٦ فانتظمت البلاد في الامبراطورية ، كرةً اخرى . وفي سنة ١٠٩٩ خرج عليه أخوه محمد ، وكان أميراً على آذربيجان ، يسانده أخوه الثالث سنجر ، وكان بر كيارق قد عينه أميراً على خراسان ، وأكرهاه على الفرار الى جبال دالتّغان بعد معركتين كتب النصر فيهما للثائرين . ثم ان المعارك تعاقبت سجالاً بين الفريقين ، حتى اذا كانت سنة ١١٠٣ عُقد

بينهما صلح اعترف بركيارق ، بموجبه باستقلال اخيه محمد ، وعين اخاه سنجر أميراً من قبله على خراسان . فلما توفي بر كيارق ، بعد عام واحد ، تاركاً وراءه ولداً صغيراً ، استبدّ محمدٌ بالأمر كله .

وفي عهد محمد (١١٠٥ — ١١١٨) نعم الشرق بهدوء نسبي ، كرةً اخرى . ذلك بأنه أفرغ الجهد في تقويض أركان الدويلات الطفيلية التي ما انفكت تبرز في المناطق النائية . فهزم سنة ١١٠٨ الزعيم العربي ابا صدقة ، رأس بني مَزْيد ، وكانوا قد ظهروا في الحلة ، قرب بابل ، وبسطوا سلطانهم على القبائل النازلة في الجزيرة . بيد أنه لم يوفَّق ، على كل حال ، الى القضاء على سرطان الامبراطورية العضال ، الحشاشين ، على الرغم من انه اجتاح حصونهم في مواطن عدّة ، وانتهى سنة ١١١٨ الى ان يحاصر ألموت نفسها . ولكن محمداً توفي ، في ١٨ نيسان ، وسنّه سبعٌ وثلاثون ، قبل ان تستسلم القلعة . ولعله مات بسمٍ دسه له احد أنصار الحشاشين . والواقع ان جنده ما كادوا يتسامعون بنبأ وفاته حتى رفعوا الحصار في الحال ، إذ لم يعرفوا لمن سيكون ولاؤهم بعد .

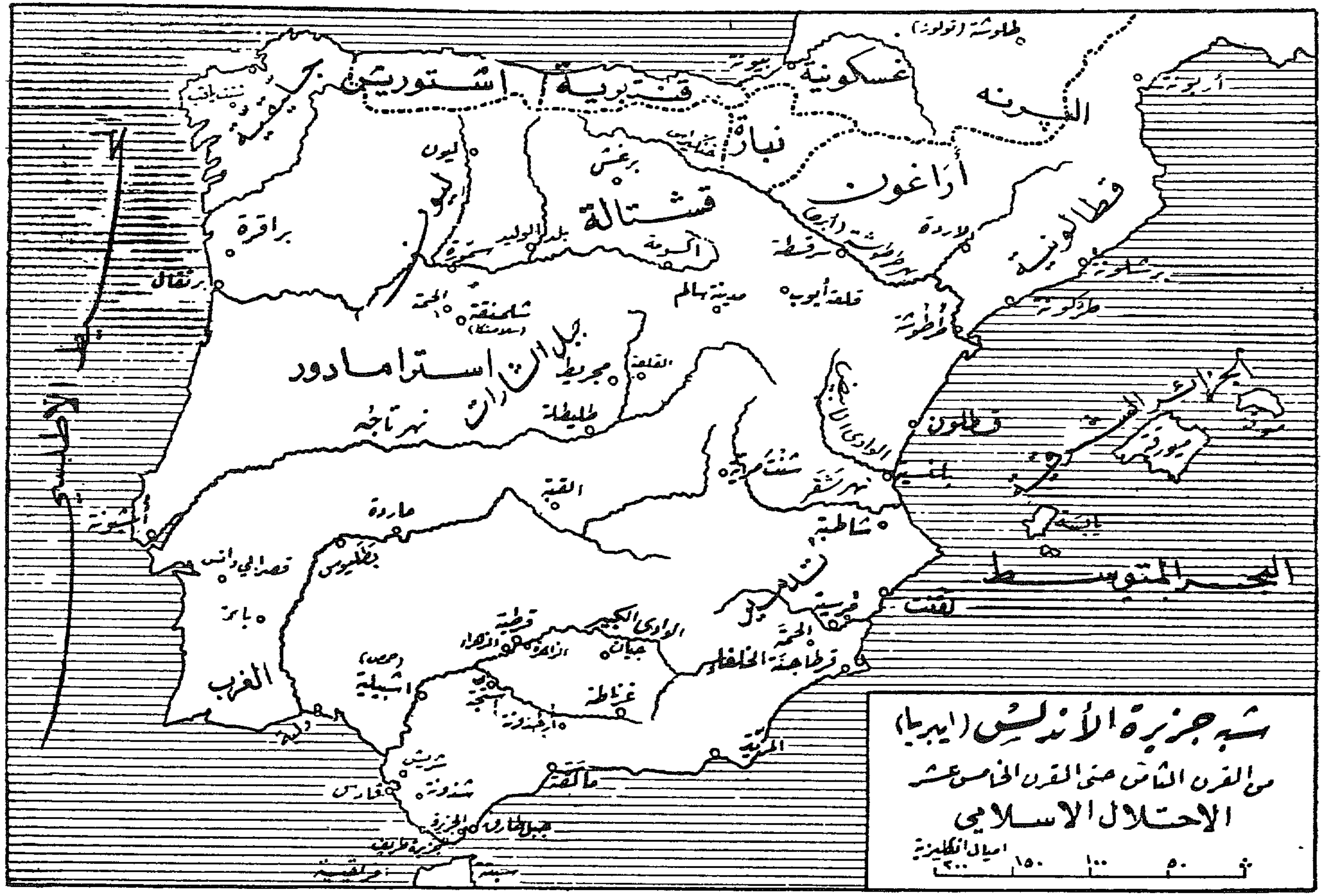
وعقب وفاة الحسن بن الصباح ، سنة ١١٢٤ ، مكن اتباعه لأنفسهم في سورية أيضاً ، واشتركوا في النضال ضد الصليبيين مرات عديدة . وفي سنة ١١٤٠ احتلوا قلعة مصْياد * ، على السفح الشرقي من جبل النُصيرية . وكانت قبل ذلك مقراً لنائب زعيمهم الأكبر [داعي الدعاة] في ألموت . وسنلتقي بهذا النائب بعد ، بوصفه شيخ الجبل ، وكان ذا أثر كبير في النزاع على السيادة في سورية .

وتجزأت الامبراطورية السلجوقية في سرعة بالغة . وفقد الامراء من هذا البيت سلطاتهم بالكلية بعد ان استبد بها من دونهم الاتابك ، الأوصياء عليهم . والحق ان بعض هؤلاء الاتابك استطاعوا من طريق الادارة الحازمة ، أن ينهضوا بمقاطعاتهم الصغيرة ويحسّنوا من أحوالها ، فترة من الزمان .

(*) وجاءت ايضاً على « مصياب » و « مصيات » و « مصياف » . (المعربان)

الاسلام في الاندلس وشمالي افريقية

في هذه الاثناء كان الاسلام قد تخطّى – منذ زمن طويل – الأوج الذي انتهى اليه في بلاد الاندلس. ففي عهد [مروان بن محمد]، آخر الخلفاء الامويين، توقّفت الحروب الظافرة ضد النصارى بسبب من الخلاف الناشب بين البربر والعرب، وبسبب من انشقاق العرب أنفسهم، في تلك الديار ايضاً، الى قيسيّة وكلبيّة. حتى اذا اخذت سلطة الامويين، في سورية، تضعف وتتضاءل عَبَرَ خمسمائة عربي على رأسهم بَلْج ابن بِشر من إفريقية الى الاندلس واستقروا في منطقتَي إلبِيرةَ وجَيّان. وكان حفيد الخليفة هشام، عبد الرحمن الملقّب بصقر قريش، قد فرّ قبل ذلك، إبقاء على نفسه من بطش العباسيين، الى شمالي افريقية حيث وجد الأمن في بلاط الرستَميّين في تاهرت. وإذ لم يكن ثمة مجال لأن يحتل مركزاً جديراً بنسبه الرفيع، فقد تطلع الى الاندلس التي كان اميرها يوسف ابن عبد الرحمن الفِهْري بعيداً عن رقابة العاصمة، وليس له من نصير غير زعيم القيسية الصُمَيل الكلابي. وبالاتفاق مع موالي المروانية استطاع الأمير الأموي أن يطأ الارض الأندلسية عند مرسى المُنكَّب في ايلول سنة ٧٥٥ ويمتشق الحسام في الحال ضد يوسف الفهري. وفي ١٥ نوار سنة ٧٥٦ جعل قرطبة قاعدة لدولته بعد أن بايعه الناس بالامارة. وما لبث


شبه جزيرة الأندلس (ايبريا)
من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر
الاحتلال الاسلامي
أميال انكليزية
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
البحر المتوسط
قشتالة
أراغون
نبارة
غسكونية
قطلونية
اشتوريش
قنتبرية
ليون
الغرب
استرامادور
جبال الشارات
نهر تاجه
الوادي الكبير
اشبيلية
قرطبة
غرناطة
طليطلة
مجريط
ماردة
بطليوس
بلنسية
شاطبة
مرسية
لقنت
المرية
مالقة
طرطوشة
سرقسطة
طركونة
ميورقة
يابسة
جبل طارق
شذونة
باجة
براقرة
برتقال

ان وفق الى جمع شتات القوة الاسلامية ووسع من نطاق سلطانه بمحاربة النصارى ، على الرغم مما حفل به حكمه الطويل (٧٥٦ – ٧٨٨) من ثورات داخلية متواصلة . وحاول يوسف الفهري ، أمير الاندلس السابق ، أن يستعيد قرطبة ، ولكنه سقط في الميدان ، سنة ٧٥٩ ، قرب طُلَيْطُلَة .
ولم ينقطع عرب الجنوب [اليمانية] والبربر عن معارضة الأموي والانقضاض عليه كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . والواقع ان شارلمان [قارله] ، مؤسس الامبراطورية الفرنجية القوية ، أسهمَ مرة في هذه الحروب . وتفصيل ذلك انه فيما كان في احد ايام شهر نوّار سنة ٧٧٧ يحتفل في مدينة بادربورن بانتصاره على السكسون وَفدَ عليه الشيخ سليمان العربي ، من زعماء اليمانية ، يصحبه نفر من اقرباء الامير يوسف ، فاستعدوه على الامويين . ولما كان شارلمان يرى ان من الخير ان تقوم علاقاته بالقوة الاسلامية النامية ، على اساس من الود ، ولما كان عبد الرحمن قد صُوّر له في الظاهر ، كمغتصب للسلطة الشرعية فقد وعد ذلك الوفد بنصره وتأييده . وكان التدبير يقضي أن يبعث شارلمان بجنده عبر جبال البَرانِس [البُرت] فيلتحق بهم في الحال يوسف امير بَرْشِلونة ، في حين يعلن اقرباء يوسف وافراد قبيلته، فِهر، العصيان على الامويين في الجنوب الشرقي من البلاد . ولكن نيران الثورة اندلعت قبل ميقاتها المتفق عليه فأخمدها عبد الرحمن ، تسانده اليمانية . حتى اذا ظهر الفرنجة أمام ابواب سَرَقُسْطَة ، سنة ٧٧٨ ، أبى أهلها أن يقسموا يمين الطاعة للشيخ سليمان العربي ، وكان في مدينتهم ، وأوصدوا الأبواب في وجه النصارى . وفي أثناء الحصار جاء شارلمان نبأ الثورة الجديدة التي قام بها السكسون بعيد خروجه لقتال الامويين ، فاضطر الى التخلي عن مشروعه الاسباني في الحال . وفيما هو يجتاز جبال البرنس راجعاً ، انقضّ البَشْكَنْس * على مؤخرة جيوشه (وكانت تحت قيادة رَتلانْد

(*) أو البشكنش (بضم الكاف وفتح النون) .

حاكم الساحل البريطاني) * في باب الشزري ** وانزلوا بها هزيمة سارت بذكرها الأساطير . ولم يكد الفرنجة ينسحبون حتى اندفع عبد الرحمن في اتجاه الشمال . فوفق سنة ٧٨٠ الى احتلال سَرَقُسطة ، وإلحاقها بأمارته ، ولو الى حين ، والى اخضاع البشكنس ايضاً . وفي سنة ٧٨٨ توفي عبد الرحمن تاركاً لابنه هشام دولة حسنة التنظيم يدعمها جيش قويّ . ولقد كانت هذه الدولة محتاجة — لكي يقيّض لها البقاء حيناً من الدهر — الى حكام من طبقته ، مستعدين ابداً لبذل كل شيء في سبيل اقرار سلطانهم وتثبيته. والواقع ان همته القعساء استطاعت ان تحول دون انتشار جراثيم الشقاق المتفشية في البلاد ، ولكنها عجزت عن ان تجتث اصولها بالكلية . ذلك أن الارستقراطية العربية لم تخضع لسلطانه القويّ إلا على كره ، وان مقاومة الداخلين حديثاً في الدين [وهم المولدون] ضدّ دعاوى الزعماء المسلمين كانت قد أطلعت رأسها ، هنا في المغرب ايضاً .

النضال ضد النصارى في شمالي اسبانيا

كذلك عجز خلفاؤه عن مصاولة الدول النصرانية ، التي كانت ما تزال قائمة في شبه الجزيرة ، بالسهولة التي كانت في ميسور مؤسس الدولة نفسه . فلم يكد ألفونس الثاني [إذْفونْش أو الادْفونش] يرتقي عرش أشتُوريش حتى ظهرت في البلاد روح جديدة لم تكن من قبل . فقد تحالف ألفونس مع البشكنس وفرنجة أقيتانية فتمّ له بذلك انتزاع برشلونة من ثالث الأمراء الأمويين ، الحكَم الأول ، سنة ٨٠١ ، بل لقد عدا ذلك الى احتلال أُشْبونة (لسبون) فترة قصيرة من الزمن ، في غزوة قام بها باتجاه الجنوب . أما في داخل البلاد فكان الحكَم الذي رقي العرش عندما توفي أبوه ، هشام ، سنة ٧٩٨ ، بعد حكم لم يطل أكثر من سبع سنوات ، منهمكاً في التمكين

(*) نسبة الى بريطانية الصغرى في الشمال الغربي من فرنسة .
(**) Ronceveaux

لدولته والنضال دونها مبدياً في هذا الميدان عزيمةً كالتي عُرف بها جدّه من قبل . وكان مذهب الاوزاعي ، في الفقه ، سائداً حتّى ذلك الحين في الاندلس ، سيادته في سورية . ولكن مذهب مالك الذي كان قد ساد افريقية الشمالية برمّتها ما لبث ان حلّ محله ، حتّى في أيام أبيه [هشام] على الارجح . وكان فقهاء هذا المذهب يتميزون منذ البدء بالحرص على السنّة والتعصب في انفاذها . فكان طبيعياً ان ينقموا من الحكَم انغماسه في الملذات شأن أجداده من خلفاء الشام ، واستخفافه بأحكام الشريعة ، وان يثيروا عليه غضب المولدين ، يساعدهم في ذلك الحانقون من طبقة الاشراف . وهكذا اضطر الحكم مرتين ، الأولى سنة ٨٠٥ والثانية سنة ٨٠٦ ، الى ان يطفىء نيران الفتنة في عاصمته ، قرطبة . اما في طليطلة ، فقد تحالف المولدون مع مواطنيهم من النصارى الذين لم يسلموا واستقلوا بمدينتهم غير آبهين بالأمير . والحق انه لم يوفق الى اخضاع المدينة الثائرة إلا بعد ان عين حاكماً عليها أحد المولدين المتفانين في الاخلاص له ، عَمروس بن يوسف ، الذي أقام كميناً للزعماء المنشقين وذبحهم واحداً بعد واحد عند حُفرة * أعدها في فناء قصره المشيد حديثاً . وكان عبد الرحمن قد اضطر الى ان يتخذ حرساً من المماليك الاجانب يقيه شر الناقمين من رعيته ، فعْل خلفاء بني العباس . ولقد دعي هؤلاء الأجانب « الخُرس » . وفي أواخر مُلك الحكم سنة ٨١٧ ، حرّض الفقهاء سكان ضاحية قرطبة الجنوبية عند الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير ، على العصيان فاندفعوا يريدون قصر الأمير . فلم يكن من حرسه إلاّ ان أعملوا السيف في رقاب الثائرين ، حتّى اذا قضوا عليهم أصدر أمره بدكّ تلك الضاحية دكّاً ونفي أهلها منها ، وعددهم نحو من ستين ألف نسمة ، ليُنثروا في البلاد . وفي حين نزل عشرون الفاً منهم في فاس حيث ظل الحي الذي قطنوه يعرف في ما بعد بـ « عدوة الاندلسيين » اتجه الآخرون نحو مصر ليمكنوا لانفسهم بادىء الامر في

(*) وتعرف « بوقعة الحفرة » . (المعربان)

الاسكندرية . والواقع انهم استطاعوا ، بالاتفـــاق مع جماعة اخرى من المغامرين ، ان يحتفظوا بالمدينة طوال عشر سنوات ، على الرغم مما بذله عمال العباسيين من جهود بسبيل استردادها . حتى اذا تم لهؤلاء العمال اخضاعهم أبعدوا الى جزيرة إقْريطش .

النصارى والمولدون يثيرون الاضطرابات

وفي عهد عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ — ٨٥٢) ، الذي خلف الحكم — وكان [أي عبد الرحمن] مستضعفاً — اعلنت طليطلة استقلالها عن الدولة ، كرةً اخرى ، في حين عانت الحكومة مصاعب جديدة في قرطبة ايضاً بسبب من النصارى الذين آثروا حتى ذلك الحين النزول على حكم المسلمين المُتسامح ، وتأثروا تأثراً قوياً بالثقافة الاسلامية المتفوقة . وأياً ما كان ، فقد هبّ الآن غلاة المتعصبين من النصارى ، من مثل الراهب يولوجيوس ، فحركوا في نفوسهم كامن الايمان ، حتى لقد اشتاق كثيرٌ منهم الى التحقق بشرف الشهادة من طريق لعن الرسول . والواقـــع ان رئيس الاساقفة « ريكافرِد » دعا ، بتحريض من الامير ، الى عقد مؤتمر يشجب فيه هذا الازدراء الطائش بالموت . ومع ذلك فقد ظل نفوذ رجال الدين الصغار مصدر ازعاج للحكومة ، لا يكاد ينقطع . وعجز الأمير عن وضع حدٍ لهذه الحركة بالقسوة التي اصطنعها ابوه . صحيحٌ ان الفقيه يحيى بن يحيى تلميذ مالك بن أنس نفسه ، لعب دوراً كبيراً في البلاط ، ولكنه كان معنياً في المحل الأول بأن ينشر لواء المذهب المالكي في اسبانيا كلها . والحق ان الامير كان خاضعاً لسلطان زوجته ، طَروب ، الاثيرة عنده ، ومولاها نصر ، الخصيّ الاسباني ، بأكثر مما خضع لسلطان يحي . ولقد شارك طروباً ونصراً في نفوذهما هذا ، الموسيقيّ زِرْياب ، تلميذ اسحق المَوْصلي ، الذي غادر العراق بعد أن استشعر حسد استاذه له . وكانت له شهرة واسعة تسامع بها أهل الأندلس انفسهم ، فلم يكد يطأ أرض قرطبة حتى قصد

الأمير لاستقباله ، سنة ٨٢٢ . وما هي الا فترة يسيرة حتّى وفق زرياب الى أن يعيّن الاتجاه الموسيقي في البلاط . ليس هذا فحسب بل لقد حرك طموح الأمير الى مضاهاة الخليفة البغدادي في الاغراق في الترف والاخذ باسباب اللذات . وكانت القلاقل الداخلية ، التي اضطرت الامير الى اخضاع ماردِة وطليطلة بقوة السلاح ، لا تزال آخذة في الازدياد عندما أغار النورمانديون على اسبانية سنة ٨٤٤ واحتلوا إشبيلية . ولقد بعث الأمير بشاعر بلاطه ، يحيى ابن الحكم الغزال ، الى مقر زعيم النورمانديين ، باحدى الجزر الدانمركية ليفاوضه في الصلح . حتّى اذا أتم مهمته حمل إلى الأندلس ، لأول مرّة ، صورة عن الشعوب الشمالية واحوالها .

فلما رقي العرش بعد عبد الرحمن الاميرُ محمد الاول (٨٥٢ — ٨٨٦) الذي نُشّيء على روح التعصب الديني المتمثلة في الفقهاء ، وسع مسافة الخُلف بين عنصري السكان ، بعد أن أخذ عقلاء النصارى ومعتدليهم بذنب المتعصبين منهم . فلم يكن من نصارى طليطلة ، لشدّة ما حلّ بهم من ضيق ، إلا أن التمسوا الغوثَ من أرْدُون الاول ملك لِيون . وفي سنة ٨٥٤ غزا قائده «كونت بيرزا» ديار الاسلام ، وهزم جند الأمير في وادي سليط . وعلى الرغم من ان المسلمين لم يلبثوا ان انزلوا بأهل طليطلة ثلاث هزائم قاسية فقد تردد محمد في القاء حصار متطاول فعّال ، على المدينة ، وبذلك استطاعت ان تحتفظ باستقلالها ثماني سنوات اخرى . والحق ان المثل الذي ضربته طليطلة كان له صداه الموحي في قرطبة ايضاً . فعلى الرغم من ان موجة الاستشهاد كانت قد انتهت هنا الى الخور والانقطاع بعد وفاة كل من يولوجيوس وليو كريشيا (٨٥٩ م) فقد ظلت مآثر هؤلاء الشهداء ذات أثر بيّن في طول البلاد وعرضها . حتّى اذا انقضت عشرون سنة وسعى محمد الى عقد صلح مع الفونس الكبير ، تعيّن عليه ان يسلم اليه رفات يولوجيوس ، وكان قد نودي به قديساً . وإذ كان محمد معنياً باصلاح مالية الدولة بعد ان افسدها تبذير ابيه ، فقد غالى في الشح الى حد التفريط

بشؤون الدفاع العسكري عن مملكته . ومن هنا فكثيراً ما وجد نفسه ، في نزاعه مع أشْتوريش ونَبْرة (نافار) ، في مأزق حرج . وفي أرَغون اعلن موسى المولّد وابناؤه استقلالهم عن الحكومة المركزية ، بينا ثار في بَطَلْيَوْس سنة ٨٧٥ مولّد آخر يدعى [عبد الرحمن بن مروان] ، يسانده ألفونس الثالث ملك اشتوريش . اما في الشمال فقد طغى التعارض القائم بين الوعي القومي عند الاسبان وبين الحكم العربي الاجنبي على الصراع الديني بين النصرانية والاسلام ، حتّى لقد جاز لابن مروان ان يتطلع الى مزاج من الدينين جديد يصطنعه لشعبه . كذلك كان للانتصارات الاسبانية في الشمال اثرٌ حافزٌ في اهل الجنوب الذين التزموا ، حتّى ذلك الحين ، جانب الهدوء . ففي سنة ٨٨٤ خرج المرتدّ عمر بن حفصون في جبال تاكُرُنّا ، بين رُنْدة ومالَقة ، على الحكم الأموي ، واعتصم سنوات عديدة في قلعة بُبشتر بعد ان عجزت السلطة المركزية الاسلامية عن إخضاعه ، حتّى في عهد الامير مُنذر الذي خلف محمداً واشترك في حرب ابن حفصون ، وهو ولي للعهد ، ولم تكد تنقضي على ارتقائه العرش سنتان حتّى دس له السم اخوه عبد الله (٨٨٨ – ٩١٢) الذي سارع الى عقد الصلح مع الثائرين .

والواقع انه لم يضطر الى اتخاذ هذا الموقف عن ضعف او عجز ، بل بسبب الاضطراب السائد ارجاء دولته . ذلك بأن كبار اصحاب الاراضي من العرب ، من مثل الامير نفسه ، اعتادوا منذ زمن طويل ان يجمعوا حولهم كتائب من العبيد يسلحونهم في بعض الاحيان للدفاع عن اقطاعاتهم. وكان احد هؤلاء الاقطاعيين ، كُرَيْب بن خلدون ، قد استولى بمثل هذه الكتائب على اقليم الشرف بكامله ، بعيد ارتقاء عبد الله عرش الامويين . حتّى اذا نقض المولدون في إشبيلية ، بالاشتراك مع البربر النازلين في الجبال المجاورة ، عهد ولائهم للأمير ، وقف كريب الى جانب الامير في الذود عن السيادة العربية ، فتم لهما اخضاع اهل اشبيلية . بيد ان الامير لم يلبث ان اختلف مع زعيم عربي آخر يدعى ابراهيم بن حجاج ، فما كان من هذا

الاخير الا ان تخلص من كريب بن خلدون وتحالف مع ابن حفصون . وإذ كان رجال الاقطاع يتحدّون الامير في سائر الاقاليم ، فقد اضطر الى ان يقر بسيادة ابراهيم ، على اشبيلية ، على الرغم من ان الهزيمة حلت بساحة ابراهيم ، في النهاية . ليس هذا فحسب ، بل لقد تحالف نصارى قرطبة بزعامة شَربَنْد (سرفاندو) مع ابن حفصون ، وعندئذ تعين على عبد الله ان يحشد قواته لمعركة فاصلة . فهاجم الثائر في قلعة بلاي ، جنوبي قرطبة ، وأكرهه على الانسحاب الى ببشتر . وهنا ازداد موقف ابن حفصون حرجاً . ذلك بأنه ارتد عن الاسلام الى النصرانية فاكتسب عداء رعيته ، وكان معظمهم قد اعتنقوا الاسلام عن إيمان به وانشراح له من غير ان يكون في ميسور النصارى إمداده بمساعدة ما . ثم ان عبد الله أفرغ الجهد في القضاء على خصومه الكثار فواقعهم في معارك متصلة الحلقات . ومع أن الغلبة كتبت عليه في بعض هذه المعارك فقد وفق آخر الامر الى أن يحفظ على الدولة هيبتها ويمكّن لها في البلاد .

عصر الزهو في ظل عبد الرحمن الثالث

وفي تشرين الاول سنة ٩١٢ ، توفي عبد الله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث ابن محمد الذي سبق لعبد الله ان قتله . ولقد قدّر لعبد الرحمن هذا أن يصبح أعظم الامراء الامويين في اسبانية الاسلامية ، وان يحكم نحواً من خمسين سنة (٩١٢ — ٩٦١) عمل في أوائلها على ان يتم ما بدأه جده من إقرار السلام في ربوع البلاد ، وسط مصاعب هائلة ، ليفرغ بعدُ لتوطيد سلطانه في الخارج . والحق انه استطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء المقدّمين من رجال الارستقراطية العربية في مقاطعتي جيان وإلبيرة ، على الرغم من ان ابن حفصون ظل محتفظاً باستقلاله في معاقل تاكرنا الجبلية حتى وفاته سنة ٩١٧ . فلما كانت السنة التالية ألقى احد ابنائه ، سليمان ، السلاحَ ، في حين حاول ابنه جعفر ، ان يلتمس النجاة من طريق الدخول

في الاسلام ، من جديد ، فكان جزاؤه القتل من أتباعه النصارى . اما ابنه الاصغر حفص ، فقد واصل النضال في بُبَشْتَر — حصن الثوار الرئيسي — ليضطر سنة ٩٢٨ الى الاستسلام . وكانت الحصون الأخرى قد وضعت السلاح قبل ذلك ، فدكها جند عبد الرحمن دكاً واستاقوا وجوه البلاد الى قرطبة . وفي سنة ٩٣٠ كانت طليطلة وحدها لا تزال محتفظة باستقلالها . ولكن هذه المدينة الجمهورية التي تمتعت بالحرية ثمانين عاماً لم تلبث ان انطرحت بدورها على قدمي الامير بعد حصار دام سنتين . وفي سني ٩٢٠ — ٩٢٤ هزم عبد الرحمن أردُون الثاني ، ملك ليون ، الذي سبق له ان تحالف مع شانجُه (سانشو) ملك نبرة (نافار) فردّ المسلمين الى ما وراء ماردَة في الجنوب ، وحتى تُطيلة ، و «قَلَنْبِيَرّة» في الشمال ، وتعقبهم خلف الحدود .

ولم يغفل عبد الرحمن ، وهو يوطد دعائم الامبراطورية الأموية في الداخل ، عن سياسة الفاطميين الذين كانوا يعملون ، في ذلك الحين ، على بسط سلطانهم في المغرب وغيره . وفي سنة ٩٢٩ عارض عبد الرحمن دعوى الفاطميين فتسمى ، مثلهم ، باسم امير المؤمنين وخلع على نفسه ، تبعاً للتقليد الشرقي ، لقب «الناصر لدين الله» . ليس هذا فحسب ، بل لقد انشأ في الوقت ذاته اسطولاً يدفع به عدوان الفاطميين . وفي سنة ٩٣١ سبق خصومه الى احتلال سَبْتَة في مراكش على الطرف الشرقي من مضيق جبل طارق [على الشاطىء الافريقي] . ولم يلبث صغار الامراء ، في افريقية ، ان التمسوا حمايته ، مخافةَ الفاطميين ، وبذلك استطاع ان يبسط سلطانه على شمالي افريقية حتى تاهَرْت ، التي احتلها الفاطميون سنة ٩٠٨ .

واقتدى عبد الرحمن بخلفاء بني العباس فأنشأ جيشاً من المماليك الأجانب يوطد بواسطته حكمه . وبينا اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم هذه ، العناصر التركية نجد الامويين في الاندلس يعتمدون الصقالبة — اي السّلاف — وهو اسمٌ جامع كانوا يطلقونه على اسرى الحرب من جميع البلاد الاوروبية .

ذلك بأن أوروبة الغربية عرفت في هذا العصر ازدهاراً كبيراً في تجارة الرقيق . وكان اليهود في الأعم الاغلب ، همُ القابضين على زمام هذه التجارة التي كان يذهب ضحيتها ، في المحل الاول ، اسرى الحروب الناشبة على طول المستنقعات الالمانية الشرقية المأهولة بالسلاف ، بعد ان يُباعوا في اسواق الرقيق بأسبانية ، من طريق فرنسة . وكانت « فردون » مركزاً رئيسياً لأعداد الخصيان الذين كان اهل الاندلس يصطنعونهم في خدمة النساء ، تَبعاً للعُرف السائد في بغداد . وكانت بيزنطة تقدم انواعاً اخرى من الرقيق تغنمهُ من غزواتها لشواطىء البحر الاسود . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان القرصان الاسبان انفسهم يغذّون سوق الرقيق بثمرات غاراتهم على الشواطىء الفرنسية والأيطالية . وحظي هؤلاء الصقالبة ، في الاندلس ، بعطف كبير من سادتهم الامويين حتى لقد انتهوا في كثير من الاحيان الى درجة عالية من الغنى والنفوذ شأن الأتراك في بغداد ايضاً . والواقع ان عبد الرحمن كان يثق بهم اكثر مما يثق بأفراد الارستقراطية العربية الذين تهددوا اسلافه في احوال عدة ، بخطر عظيم . ومن هنا نجده في بعض الأحيان يعهد في قياد جيش برمته ، الى أحد الضباط من الصقالبة . ففي سنة ٩٣٩ قاد نجدة الصقلبي الجيش الذي وجهه الخليفة لقتال رُدْمير (راميرو) الثاني ملك ليون وحلفائه النَّبرويين (النافاريين) ، ولكن هذا الصنيع لم يرُقْ للعرب فوقفوا في معركة الخندق موقفاً سلبياً أدى الى اشنع هزيمة مُني بها عبد الرحمن في حياته . وفي اواخر سني حكمه ، اخضع عبد الرحمن خصومه النصارى ايضاً . وكان رُدمير الثاني قد اشتبك في نزاع مع كونت قشْتالة . حتى اذا توفي ، اصطرع ابناه اردون الثالث وشانجه على العرش . وإذ كان القشتاليون يؤيدون شانجه فقد عقد أردون الصلح مع عبد الرحمن ، وألزم نفسه بأداء الجزية اليه . ولم يلبث شانجه ان خلف أردون سنة ٩٥٥ ، فنقض هذه المعاهدة . ولكن ابن أخيه خرج عليه وطرده من دياره ، فاضطر الى أن يلتمس الأمن في حضرة الملكة طُوطَه العجوز

صاحبة نبرة . ثم إنه قصد والملكة الى قرطبة يسأل عبد الرحمن ان يعينه على عدوه . ولقد أجابه عبد الرحمن لما طلب ، مقابل تنازله عن مجموعة من الحصون القائمة على الحدود ، فرجع بفضل الجيوش الاسلامية ملكاً على بلاده السليبة .

وفي عهد عبد الرحمن الذي تميز ، على تطاوله ، بالاستقرار الداخلي ، شهدت الاندلس تفتّحَ حضارة زاهية أثارت إعجاب اوروبة في العصر الوسيط . ذلك أن الزراعة ، والبستنة ، والتجارة ، والصناعة انتهت كلها إلى درجة من الازدهار بعيدة . فقد زرع العربُ الحبوب وأدخلوا إلى اوروبا زراعة النخيل . ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة إلى اليوم في حقول النخيل في ألْش ، جنوبي مقاطعة بَلَنْسِية . وامتازت الأندلس بصناعاتها اليدوية ، التي تعتمد المعدنَ والجلد ، بصورة خاصة . وحتى اليوم ، لا يزال الجلد القرطبي يخلد اسم العاصمة الاندلسية في السوق العالمية . والحق أن دخل الدولة السنوي ، من طريق الضرائب والمكوس بلغ ، عهد عبد الرحمن ، ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار . وفي بعض الروايات أن ثلث هذا المبلغ كان يُرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية ، في حين كان الخليفة يدّخر ثلثه الثاني في خزانته ، ويَقفُ الباقي على مشروعات البناء التي أحلته منزلة جديرة بأعظم رجال العمران في الإسلام .

جامع قرطبة الكبير

واتجهت همة الحكام هنا ، في جملة ما اتجهت اليه ، نحو إنشاء المساجد الفخمة وزخرفتها ، كما كانت الحال في المشرق ، سواء بسواء . والواقع أن الفاتحين الأولين اجتزأوا في قرطبة بنصف كاتدرائية القديس فنسنت محلاً لعبادتهم . أما أقدم جوامعها فهو الذي رفعَ قواعده مؤسس الدولة الاموية بالاندلس سنة ٧٨٥ — ٧٨٦ . وانما تم بناؤه في اثني عشر شهراً ليس غير ، وهي سرعة ألجأت عبد الرحمن إلى الاستعانة بأعمدة بعض

الكنائس التي كانت في أغلب الظن ، أطلالاً دارسة ، سواء أكانت تيجانها متساوقة مع اساطينها أم لم تكن . كذلك نقل المسلمون ، عن المعماريين القوط الغربيين ، تلك العقود المشيدة على صورة نعال الافراس والتي تربط الأعمدة بعضها ببعض بواسطة أقواسها المكوّنة من تعاقب حجارة وقطع من الآجر إسفينية الشكل بيضاء حيناً ، وملونة حيناً آخر . ولقد نهض على هذه ، وفي مستوى أعلى من مستوى العقود الأولى ، صفٌ ثانٍ ينتهي إلى سقف كان في الأصل من الخشب المنحوت الملوّن . حتى اذا توفي عبد الرحمن أفرغ خلفاؤه جهدهم في خدمة هذا الجامع ، فشيد هشام الأول مئذنته ومدد عبد الرحمن الثاني أروقته الأحد عشر بأن أضاف إلى طولها سبعة عقود أُخرى ، وأقام محراباً إضافياً . أما محمد الاول فرفع المقصورة . ثم جاء عبد الله ، وكان ، من غير شك ، شديد الحرص على ان يحيط نفسه بأسباب السلامة ، حذرَ الاعتداء ، فأنشأ ممشى مظلّلاً [ساباطاً] يربط ما بين الجامع وقصره الذي يحاذيه من جهة الغرب ، فإذا هما يؤلفان كلاً واحداً ، كما كانت الحال على عهد الامويين في الشام . ثم ان زلزالاً أصاب مئذنة الجامع فأخربها ، فاستبدل بها عبد الرحمن الثالث ، سنة ٩٥١ ، مئذنة جديدة فخمة شُيد على طرازها فيما بعد برج جيرالدا الشهير في اشبيلية ، وعدد آخر من المآذن في المغرب ، وزاد خلفه الحكم الثاني في امتداد أروقته الاحد عشر بأن اضاف الى طولها اربعة عشر عقداً امتدت نحواً من مائة متر الى الجنوب ، كما اقام محراباً جديداً (على ما جاء في نقش يرقى الى سنة ٩٦٥) . وشيد داراً ذات ثماني زوايا (وهي لا تزال قائمة الى يومنا هذا تضم كنيسة « زنكرون ») تعلوها قبة معقودة برخامات على هيئة الحلزون مضلعة ، ومقصورة جديدة « تحتوي على ثلاث غرف تمثل بأقواسها المتقاطعة المفلطحة وقببها الفريدة ذات الاضلاع ، القمة التي

بلغها فن البناء في هذا الجامع[٨١]. واخيراً اضاف الحاجب المنصور الى الاروقة الأحد عشر الطوال ثمانية اروقة اخرى وسبعة صفوف من الاعمدة. وهكذا انتهى الجامع الى ان ينتظم تسعة عشر رواقاً - في كل منها خمسة وثلاثون عموداً. وعُزل الصحن المركزي المؤدي الى المحراب عن الصحن الرئيسي.

وكان يحيط بالجامع سورٌ يتراوح ارتفاعه ما بين مترين وثلاثة امتار. وكان يمتد في شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب، وقد توجته شرفات عالية. وإذ كانت الارض التي قام عليها منحدرة نحو النهر فقد تعيّن ان تكون آساسه ضخمةً جداً. وكان المصلون يدخلون الجامع من واحد وعشرين باباً تزدان جميعاً بالنحاس الاصفر المخرّم. اما اليوم فهي موصدة، في الغالب. وكانت النوافذ والكوى الموصدة التي تشبه المحاريب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط التي تشبه الابراج تزين واجهة الجامع. والواقع ان عدداً قليلاً من ابواب الجامع قد خصص للنساء، فهن يَلجْنَها الى مقاصير رُفعَت لهنّ. فالاسلام لم يقتبس المقاصير النسائية التي كانت تميز الكنائس البيزنطية في البلاد الاخرى. اما ساحة الجامع (وكانت محوطة بشرفات عفتْ آثارها) فقد اكتمل بناؤها في سنة ٩٥٧. وكان في وسطها حوض قامت حوله اعمدة تحمل عقوداً من الصخر المنحوت. وكان المؤمنون يتوضأون بمياه الحوض، قبيل أداء الصّلاة.

الزهراء

وازدهرت العاصمة الاندلسية، عهد عبد الرحمن، بمنشآت دنيوية فخمة لم يبق منها غير اوصافها في كتب التاريخ. وليس من شك في ان اعظم هذه المنشآت مدينة الزهراء التي اسماها باسم جارية أثيرة لديه.

(٨١) راجع ديز E. Diez, Die Kunst der islamischen Völker, p. 50.

(*) ويسمى ايضاً بلاطاً وجمعها بلاطات.

وانما شرع في بناء هذه المدينة سنة ٩٣٦ ، عند سفح جبل العروس ، القائم على ثلاثة اميال عربية تقريباً ، الى الشمال من قرطبة . وهناك حشد عبد الرحمن عشرة آلاف عامل لم ينفضوا أيديهم من البناء إلا بعد خمسة وعشرين عاماً بطولها . والواقع ان « الزهراء » أنشئت طبقات ثلاثاً ، بعضها فوق بعض ، على منحدر الجبل . ففي الطبقة الدنيا انبسطت الجنائن والبساتين ، وفي الطبقة الوسطى قامت منازل الموظفين في البلاط ؛ اما قصر الخليفة فكان يشرف على ذلك كله . وكانت قاعته الرئيسية تتألف بكاملها من الذهب والرخام ذي الألوان المتعددة ، وقد اشرقت في وسطها جوهرةٌ أهداها [الى عبد الرحمن] الامبراطور ليو البيزنطي ؛ [صاحب القسطنطينية] . ونهضت الابواب الثمانية على قواعد من الرخام الملوّن والبلور ، علتها أرتجةٌ مقوّسة من الأبنوس المذهب والعاج المطعم بالجوهر . وكان في بيت منام الخليفة حوض ماء يزدهي باثني عشر تمثالاً على صورة الحيوان من الذهب الأحمر . والواقع ان القصر امتدّ على مسافة ٢٧٠٠ ذراع من الشرق الى الغرب ، و ١٥٠٠ ذراع من الشمال الى الجنوب . وكان له الفٌ وخمسمائة باب يزينها الحديد المذهب والنحاس . اما الاعمدة البالغ عددها اربعة آلاف وثلاثمائة عمودٍ فقد جُلب بعضها من افريقية ، وجلب بعضها الآخر من ارض الفرنجة . بيد أن خلفاء عبد الرحمن عجزوا عن صيانة هذا البناء الفخيم . فلم يبق قائماً منه ، عند النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، غير اجزاء قليلة . أما اليوم فليس يهتدى الى موقعه السابق إلا من أردام من الاوساخ قائمة في ما يسمى « قرطبة القديمة » على مسافة ميل من المدينة الحالية ، على سفح الجبل [جبل العروس] .

الحياة الفكرية في الاندلس

ونعمت الاندلس ، الى جانب هذا الازدهار الماديّ ، بحركة فكرية ناشطة . ويحزننا ان يكون ما نعرفه عن حال الشعر الاندلسي في هذه الفترة

الزاهية ليس شيئاً بالنسبة لما نعلمه عن تطور هذا الشعر خلال عهود الانحطاط السياسي في اسبانية الاسلامية ، بَعْدُ . ولكن الذي يخيل الينا ان الشعر في الاندلس كالشعر في الشام دارَ ، اول ما دار ، على محور العصبية القبلية التقليدي ، فهو في معظمه مدح وهجاء . ففي بلاط الأمويين تفتحت ، تحت تأثير الفن البغدادي المعاصر ، براعم المديح المثقل بالاطراء الغريب المستهجن . ولكن المزاج الاندلسي استطاع ان ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة كمثل تلك التي نفخها الفرس في هذه القوالب عينها ، بالمشرق . والحق أن ما نقع عليه في شعر الأندلسيين من رقةٍ خاصةٍ في الأحاسيس ، وعمقٍ في العواطف ، وما نلمسه عندهم من استجابة ، تكاد تكون عصرية ، لمفاتن الطبيعة والفن وتصويرها في كثير من التلطف والتبصر ، كل اولئك ليس إلا ارثاً ايبيرياً رومانياً يميس في غلالة من لغة الفاتحين العرب ، كما لاحظ الكونت فون شاك — من قبل . اما في الحقل العلمي فقد عني اهل الاندلس منذ البدء بالفقه واللغة عناية خاصة . وليس من شك في أن التزام المذهب المالكي ، السائد في الاندلس ، لعمود السنة قد جنّب هذه البلاد شرور الاختلاف التي نشب عنيفاً صاخباً ، في بغداد والمشرق حول أساليب الدراسة الدينية وطرائقها . وهكذا لم يلبث الاهتمام بالماضي أن فاق ، في بلاد الاندلس ، التفكير الديني الخالص . ولسوف نجد ان الصوفية قد بلغت ، هنا ، صورتها النهائية ، هذه الصورة التي سادت ، آخر الامر ، المشرق ايضاً .

وانما يرجع الفضل في اثارة اهتمام الاندلسيين بمسائل الفلسفة الى ابن مَسَرّة القرطبي ، الذي كان يرئس ، حوالي سنة ٩٠٠ (٨٢) حلقة من الطلاب والمريدين تجتمع اليه في احدى الصوامع القائمة على منحدرات جبل

Count A. von Schack (*)

(٨٢) أما سنة ٩١٢ التي نص عليهـا آسين بالاسيوس Asin Palacios في ملحق دائرة المعارف الاسلامية فهي في الواقع سنة ارتقاء عبد الرحمن (الثالث) عرش الاندلس .

قرطبة [جبل العروس] حتّى إذا اتّهم بالزندقة أدى فريضة الحج ، ليعود الى الوطن بعد ارتقاء عبد الرحمن الثالث عرش قرطبة ، فيواصل نشاطه التعليمي حتّى وفاته سنة ٩٣١ . ولا يزال من المتعذر علينا ان نقرر كيف وصلت الى علمه الميتافيزيقيةُ المنسوبة الى أمبيذقليس ، والملقحة بالافلاطونية الجديدة . والحق ان نظرية الفيض التّي تقول بصدور العـالم عن الموجود الاول ، اي الله ، بواسطة العقل والنفس الكلية والكون قد قادته الى الاعتقاد بأنه يتعين على النفس الانسانية ان تعاود سلوك هذه الطريق ، كرة اخرى ، ومن هنا لا يختم الموت مصيرها . ولما كانت هذه الطريق الى الكمال تُسلك ، احسن ما تسلك ، جماعةً فقد نشأت في عدد من المدن الاندلسية حلقات على غرار حلقة قرطبة ، ظلتْ تنعقد ، رغم اضطهاد السنّة ، حتّى القرن الثالث عشر .

ونزعَ اهل الاندلس الاصليون إلى الافتخار بفضائل آبائهم واجدادهم وتقديمهم على العرب ، فِعلَ الفرس في المشرق . وفي عهد عبد الرحمن الثالث اشتدت هذه النزعة حتّى لقد اجترأ على التبشير بها القاضي ابو محمد عبد الله بن الحسن ، وكان من عظم المنزلة بحيث كان الخليفة نفسه يحضر مجالسه(٨٣) . وفي سنة ٩٤٢ عرفت قرطبة فقه اللغة على يد [أبي علي] القالي ، الذي وُلد في إرمينية وتلقى دروسه في بغداد . أما علم التاريخ ، وهو من العلوم التّي حظيت باحتفال كبير في الشرق الاسلامي والاندلس ، سواء بسواء ، فكاد يقتصر على المتصلين بالبلاط ، ومن هنا لم يكن في طوقه قط ان يتحقق بالنزاهة ، والتجرد في رواية الاخبار . ولقد عني مؤرخو الاندلس ، فوق كل شيء ، بوقائع الفتح الاسلامي ؛ وبلغ ذلك أوجه في التاريخ الشهير الذي صنّفه محمد ابن القوطية(٨٤) ، احد معاصري القالي ،

---

(٨٣) راجع جولدزيهر Goldziher, in Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, 53, 605.

(٨٤) أي ابن المرأة القوطية .

كما عـُنوا بالتأريخ للعلماء والاعيان شأن المشارقة . اما في حقليّ الطب والعلوم الطبيعية فقد حاول المغاربة التحرّر من سلطان التقليد المشرقيّ . والواقع ان الاندلس عرفت ، عهد عبد الرحمن الثالث ، ترجمةً جديدة لنظريات ديسقوريدُس في الادوية المفردة ، وُضعت على اساس نسخة يونانية أُرسلت إليه من القسطنطينية . وكان ولده ، الحَكم الثاني ، نصيراً صادقاً للعلم والعلماء . وكان يبعث الى بلاد المشرق بمن يشتري له نفائس المؤلفات ، حتى لقد اجتمع في خزانة كتبه ، في ما يقال ، اربعمائة الف مجلد . ليس هذا فقط ، بل لقد عمل على نشر المعرفة في ربوع البلاد ، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة ، وادخل اليها الفقراء من الطلاب مجاناً .

الحكم الثاني

ووُفق الحَكم الثاني ، المستنصر بالله ، خلال عهده الذي دام خمس عشرة سنة فقط (٩٦١ — ٩٧٦) إلى تعزيز تراث ابيه في الداخل ، وحمايته من غارات جيرانه النصارى ، الذين لم يلبثوا أن خضعوا له جميعاً ، واحداً بعد واحد . ولكن الفالج اصابه في السنوات الأخيرة من حياته فاضطر إلى أن يعهد في تصريف الشؤون ، في الأعم الأغلب ، الى وزيره الأول جعفر [بن عثمان] المُصْحفي ، ولم يكن على كثير من المقدرة والحنكة . وكان كبير الوزراء يُعرَف ، في الاندلس ، بالحاجب ، وهو الاسم الذي سبق للامويين ، في دمشق ، أن أطلقوه على ضابط الاتصال بين الخليفة وافراد رعيته ، هذا الموظف الذي كان يتمتع ، من هذه الطريق ، بنفوذ كبير في الدولة . وفي إفريقية ، كان ضغط الفاطميين على الممتلكات الأموية قد خف كثيراً بعد انتقالهم الى مصر . ولكن مصاعب جديدة لم تلبث أن نشأت عن الصراع بين مجموعتين كبيرتين من البربر هما زَناتـَة التي أخضعها الامويون وصنهاجـَة التي لا يزال اسمها خالداً في السنغال ، في اسم النهر الذي كان يحُدّ أراضيها . وما إن أطلت سنة ٩٤٠ حتى كان أحد زعمائهم

زيري بن مناد قد مكّن لنفسه في أشير، جنوبي الجزائر. حتى اذا كانت سنة ٩٧١ قُتل في احدى المعارك ضد صنائع الحَكم وكان له ولد اسمه بُلُكّين * فعهد اليه المعز الفاطمي، بعد انتقاله الى القاهرة، في ادارة المقاطعات الافريقية وعاصمتها القيروان، فثأر لأبيه في هجوم شنّه على الممتلكات الاموية في إفريقية حتى سِجلماسة. والواقع انه استولى على تِلمسان سنة ٩٧٣. واحتل فاس وسِجلماسة سنة ٩٧٩.

الحاجب المنصور

وانما جرّأه على ذلك اضطراب الاحوال في الاندلس. ذلك ان الحكم الثاني توفي سنة ٩٧٦ بعد ان احتسب أولاده جميعاً إلا هشاماً الصغير، فخلفه على العرش، وليس له من العمر غير عشر سنوات. وكانت أمه من البَشكنس تُدعى «صُبح»، فتولت الاحكام باسمه، يساعدها في ذلك أحد سَراة العرب، محمد ابن ابي عامر المنصور. والواقع ان محمداً هذا كان في أوّل أمره وكيلاً على املاك صُبْح. وكانت له منزلةٌ في نفسها، فرفعته الى منصب وزير المال. ولقد وُفّق في وزارته هذه إلى أن يخفف من نفقات الجيوش المتوجهة الى افريقية في مهامّ خاصة؛ وكانت ثقيلة باهظة، من طريق مفاوضات بارعة قام بها مع القائد، غالب، الذي تزوّج محمدٌ من ابنته في ما بعد. ولم يكد هشام يرتقي عرش قرطبة حتى أزاح محمدٌ الحاجب جعفرَ المُصْحفي عن منصبه، يساعده في ذلك غالبٌ صاحب مدينة سالم، وحدّ من سلطان امراء الجيش الصقالبة الذين انتهوا الى أن يمثلوا في قرطبة دور الأتراك في بغداد. وسرعان ما خفق قلبُ محمد بحبّ صبح، وخفق قلب صبح بحبه، فتعاونا على اقصاء الخليفة الحدَث عن دفّة الحكم وحجباه عن الناس فلم يكن أحد يراه ويصل اليه. وفي سنة ٩٧٨ شرع محمد في انشاء عاصمة جديدة على أبواب قرطبة، دعاها المدينة

(*) ووردت ايضاً: بلجين (بالجيم المضعفة).

الزاهرة ؛ وما هي إلا فترة حتى أصبحت « الزاهرة » قاعدة الحكومة الفعلية . ورماه الفقهاء — وكانوا لا يزالون أصحاب نفوذ وخطر — بتهمة الزندقة ، فلم يحجم عن التزلف اليهم بتحريق الكتب الفلسفية والعلمية التي جمعها الحكم الثاني في خزانته . وكانت سياسة الأمويين في افريقية تقتضيهم نفقات ثقيلة وتهدد مكانة الأندلس بالخطر ، من غير أن تعود عليها بفائدات ذات غناء ؛ فانتهج محمد في سياسة افريقية نهجاً جديداً قوامه الاحتفاظ بالسيطرة القوية على سبتة دون غيرها ، وترك الامراء الوطنيين يحكمون الأقسام الداخلية من البلاد ، كتابعين للدولة الأموية في قرطبة . وفي سنة ٩٨٥ حاول ابن جنون الادريسي حبس الجزية المفروضة عليه ، واستعادة الممتلكات التي كانت لآبائه من قبل . فاضطر محمد الى اصطناع العنف ، وحرض ابن عم الامير الثائر على خلعه وقتله . اما سياسته في ما يتصل بالدول النصرانية في الشمال فكانت تقوم على أساس القوة . فلم يكد يقضي على معارضة حميه ، غالب ، حتى اعاد تنظيم الجيش ، مستعيناً بالمرتزقة من البربر والنصارى من افريقية وشمالي اسبانية ، بدلاً من الصقالبة الذين لم تكن له ثقة بهم . والحق ان سلطانه على هؤلاء المرتزقة النصارى كان من الشدة والاحكام بحيث اجترأ على ان يسيرهم لقتال اخوانهم في الدين . فجرد حملة مظفرة على ليون اكسبته لقب « المنصور بالله » . ولكنه لم يوفق الى اخضاع تلك البلاد اخضاعاً كاملاً إلا سنة ٩٨٧ . وفي حملته الثالثة والعشرين ، سنة ٩٨٥ ، اقتحم برشلونة واستولى عليها . وفي سنة ٩٩٧ أخرب كنيسة القديس يعقوب « شانت ياقو » ، * أشهر الأماكن النصرانية المقدسة في الاندلس ولم يبق منها إلا قبر القديس نفسه ، ليس غير . وكان المنصور قد نزل عن منصب الحجابة لابنه عبد الملك ، سنة ٩٩١ ، حتى اذا كانت سنة ٩٩٧ تسمى بالسيد والملك الكريم ، وبذلك أمسى الخليفة بمثابة الاسير في قصره ، كزميله العباسي ببغداد . وفي ١٠ آب سنة ١٠٠٢ توفي

(*) ويقال « شنت ياقو » و « شنت يعقوب » اي القديس يعقوب . (المعربان)

المنصور فيما هو عائدٌ من حملته الثانية والخمسين التي اخضع فيها قلانِس .

الدولة العامرية تستمر

ووُفق ابنه عبد الملك ، بادىء الأمر ، الى أن يخلفه في منصبه ، من غيرِ ما معارضة ، فواصل حملاته في شمالي الاندلس . ولكن أخاه عبد الرحمن ائتمر به فمات مسموماً بعد ست سنوات ليس غير . وبلغت الحماقة بعبد الرحمن هذا — ويُعرف باسم شَنجول نسبةً الى امه ، وهي احدى بنات شانجُه ملك نَبرة — مبلغاً جعله يطلب من هشام ان يوليه عهده ، [ففعل] . فبينا هو غائب يوماً في حملة على نصارى جِلّيقية اعلن الأمويون الثورة عليه — بعد أن حُرموا حقهم من ولاية العهد — وخلعوا هشاماً ليبايعوا ابن عمه محمداً الثاني ، الذي تلقب بالمهدي . فلما جاء عبد الرحمن نبأ الانقلاب قفلَ الى قرطبة لحرب المهديّ ، ولكن المرتزقة خذلتهُ ، فقتل على ابواب المدينة .

الصراع بين المهدي وسليمان

ودمّر الخليفة الجديد مدينة الحاجب المنصور « الزاهرة » وسعى الى ان يكسر شوكة المرتزقة البربر بعد ان انضمّ اليهم جماعة من صنهاجة ، احدى القبائل الافريقية التي كانت من قبل معادية للدولة الاموية في الاندلس ، فحذف اسماءهم من سجل الاعطيات . وإذ لم يستطع ان يعتاض منهم بجند آخرين فقد ائتمروا به وخلعوه في السنة نفسها ، مبايعين سليمان [بن الحكم] حفيد عبد الرحمن الثالث . وكان سليمان هذا قد قاد البربر في حرب النصارى في قلعة رَباح * ووادي الحجارة ، ثمّ احتلّ قرطبة . ولكن المهديّ استعدى على خصمه القائد « واضحاً » ، امير مدينة سالم ، والكونت ريموند [راي موند] صاحب برشلونة ، والكونت ارمنغول صاحب

(*) Calatrava

« ارغل » ، فهزموا البربر على ابواب قرطبة ؛ وكفّرت العاصمة البائسة عن اختلافات المطالبين بالعرش ، بما انزله بها الفاتحون من سلب ونهب . ومهما يكن من أمر فقد ظل البربر يسيطرون على البلاد المجاورة ، عازلين قرطبة عن العالم الخارجيّ . وضاقت المدينة ذرعاً بهذه الحال ، فدُبرت مؤامرة للتخلص من المهدي ــ وكان اضعفَ من ان يَدْفع عن نفسه شراً كهذا ــ فقُتِل سنة ١٠١٠ ورُفع هشام الثاني الى العرش ، كرّة أخرى . ولكن واضحاً عجزَ عن ان يُقرّ السلام بينه وبين البربر . وأخيراً أكره هؤلاء اهلَ قرطبة على تجديد ولائهم لسليمان . وإذ تخلى سليمان عن السلطة كلها للبربر فقد استنجد اهل قرطبة بعليّ بن حمود حاكم سبتة السابق ، وينتسب إلى الادارسة امراء مراكش القدماء . ولم يكد ابن حمود يقضي على سليمان حتى ثار به اهل قرطبة وقتلوه . ثم إن اثنين من الادارسة تنازعا السلطانَ وسبعةٌ من الأمويين المطالبين بالعرش . واذ لم يستطع احدٌ منهم ان يبسط سلطته المطلقة على المدينة ، بعد سقوط آخر الامويين ، فقد استولى هشام الثالث على زمام الامر في قرطبة ، وانشأ جمهورية ارستقراطية كالتي انشئت من قبل في طليطلة .

ملوك الطوائف

وتفسّخت الاندلس ، منذ اليوم ، وتفرق اهلها شيعاً ، ففي كلّ ناحية أميرٌ ودولة . وعلى الجملة فقد استبدّ البربر بالسلطان في كلٍّ من المدن الجنوبية ، في حين استبدّ الصقالبة بالسلطة في كلٍّ من المدن الشرقية . واذا كان الاسلام قد استطاع ان يَتَشَبَّثَ في شبه الجزيرة بعد أن توزّعت هذه الدويلاتُ الهزيلة تراثه الواسعَ العريضَ ، فالفضل في ذلك ، من غير شك ، لاختلاف النصارى وتناحرهم . وليس في هذه الأسر واحدةٌ تستحق ان نقف عندها وقفةً عاجلة غير بني عَبّاد أصحاب اشبيلية . وكان الأمر في هذه المدينة قد انتهى إلى الطبقة الأرستوقراطية ، شأنها في ذلك شأن قرطبة

بعد انحلال الخلافة الأموية . وكان قاسم بن حمود [الادريسي] ، اخو عليّ الذي شارك في النزاع على قرطبة ، قد مكّن لنفسه في مالقة وسعى لبسط سلطانه على اشبيلية أيضاً . ولكن القاضي محمد بن عبّاد ، من [بني لخم] اليمانيين ، تصدّر للدفاع عن استقلال مدينته ، فوُفق على الرغم من انه لم يكن يحمل اكثر من لقب القاضي ، إلى ان يترك لذريّته مُلكاً حسناً ، بعد ان تغلب على عدد من صغار الامراء المجاورين . فلما نهض بالأمر من بعده سنة ١٠٤٢ ابنه عبّاد جرى على خطة أبيه هذه ، فنجح نجاحاً ملحوظاً . وبينا كان محمد حريصاً على ان يخلع على حكمه صفة شرعية من طريق اعتراف امويٍّ ، على يد هشام ، بسلطته ، نجد ابنه عبّاداً يؤانس من نفسه القوة على قبول البيعة والتسمي بالمعتضد ، على طريقة الخلفاء . والواقع انه قضى على خصومه جميعاً بقساوة لا داعي لها وتجنب ، من طريق المفاوضة البارعة ، ضربات فرديناند (فردلند) الأول ملك قشتالة وليون الذي استأنف نضاله ، عنيفاً قاسياً ، ضدّ المسلمين . حتى إذا توفي المعتضد ، ١٠٦٩ ، ترك لابنه محمد المعتمد دولة عريضة ، نسبياً ، تكاد تنتظم القسم الجنوبي الغربي من الاندلس برمته . وفي سنة ١٠٧١ وفق المعتمد إلى فتح قرطبة أيضاً ، ولكنه اضطرّ الى التراجع عنها بعد ان استولى عليها أحد المطالبين بالعرش ، يؤيده أمير طليطلة . وكما سبق للمعتمد نفسه ان قاد أحد جيوش أبيه ، ولما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، كذلك تولى ابنه عبّاد زمام الأحكام في قرطبة ، حيث قضى نحبه . ولم يقدّر للمعتمد ان يثأر لابنه حتى سنة ١٠٧٨ عندما استرد قرطبة وانتزع من أمير طليطلة الجزء الجنوبي من ممتلكاته . واذا كان المعتضد قد استطاع ان يتقي عدوان فرديناند ملك قشتالة بجزية أدّاها اليه ، فقد تعين على ابنه المعتمد أن يرى الى الخطر يتهدد مُلكه من جانب الفونس السادس ، ابن فرديناند ، ذي المطامح الكبيرة . ففي سنة ١٠٨٠ سار الفونس يريد طليطلة ، فلم يوفق الى فتحها الا بعد حصار دام خمس سنوات .

وفي هذه الاثناء غزا بلاد المعتمد (سنة ١٠٨٢) ليغسل اهانةً وجهت الى [ثقته] الذي كان يأخذ الجزية ، وكان يهودياً ، فاندفع في هذه الغزوة حتى بلغ جزيرة طريف . فلما أتمّ الفونس فتح طليطلة طالب بالأراضي التي سبق للمعتمد أن انتزعها من أمراء تلك المدينة . فلم يكن من المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ، وقد تحققوا عظم الخطر النصراني عليهم ، إلا ان استنجدوا بالمرابطين ، الذين سنتحدث عن ظهورهم في شمالي إفريقية ، بعد قليل . والواقع انه دفع وزملاءه ثمن هذه المساعدة غالياً . فما ان نزلت الهزيمة بالعدو حتى فقدوا عروشهم جميعاً ، واحداً بعد واحد . أما المعتمد فاقتيد إلى افريقية حيث مات في سجن أغمات ، بمراكش ، سنة ١٠٩٥ .

تطور الحركة الأدبية

وحفل هذا العصر الذي انتهت فيه الأندلس إلى هوةٍ سحيقة من الانحطاط السياسي ، بحصاد ثقافي عظيم . ومردّ ذلك الى انّ ملوك الطوائف كانوا كلما ضعف سلطانهم ، ازدادوا تنافساً في اجتذاب الشعراء الى بلاطاتهم ، وشراء مدائحهم الطنانة ، الجارية على الأسلوب القديم ، بالجوائز السنية . وإنما نبغ أعظم رجال هذه الصناعة ، احمد بن درّاج القَسطلي ، في قرطبة ، ايام الحاجب المنصور . ولقد كان لقلم ابن درّاج هذا جولات في الميدان السياسي ؛ ذلك بأن الاندلس جرت منذ البدء على السنن المشرقي من حيث الاحتفال بالرسائل الرسمية المتبادلة بين الأمراء وإفراغها في قوالب فنية مجوّدة . أما معاصره الاصغر ـ ابن شُهيد ، الذي قعد به الصمم عن المشاركة في حياة البلاط ، فقد طارت له شهرة واسعة من طريق منظوماته الطريفة المرحة . والحقّ انه صنّف رسالة رائعة * نقد فيها أدب معاصريه واسلافهم ، وأخرجها مُخرج رحلة إلى وادي الجن . والواقع ان هذا الاطار الفني ، إطار الرحلة الى ما وراء العالم المنظور ، انما استعاره بعد عشرين سنة ، على

(*) رسالة « التوابع والزوابع » . (المعربان)

وجه التقريب ، أبو العلاء المعري * الشاعر السوري ، واصطنعه وسيلة لنقد مشاهير الشعراء في [الجاهلية] والإسلام . وكان الشاعر ابن زيدون قد انتهى ، بعد سقوط الأمويين ، الى مكانة مرموقة في جمهورية قرطبة الارستقراطية . ولكن حبه للشاعرة ولادة [بنت المستكفي] ، التي يجري في عروقها الدم الأموي ، لم يلبث ان خلق خصومة ادبية بينه وبين منافسه في حبها ، ابن عَبدوس ، أكبر وزراء ابن جَهْوَر ، صاحب قرطبة . والواقع ان الرسالة التي كتبها [على لسان ولاّدة] الى الوزير ابن عبدوس يهجوه ويتهكّم به — وهي ملأى بالاشارات التاريخية — أورثته شهرة طبّقت آفاق البلاد . ولكنها افقدته في الوقت نفسه حريته ، إذ اتّهمه خصمه بموالاة الأمويين . ثم انه أعمل الحيلة في فراره من سجنه ليقضي فترة صالحة بعيداً عن مسقط رأسه . ولم تُقدّر له العودة الى قرطبة إلا بعد وفاة ابن جهور . وسرعان ما اصطنعه ابنه [أبو الوليد] ، واتخذه سفيراً له . ومن هنا تمت لابن زيدون صلات وثيقة بملوك الطوائف جميعاً . حتى اذا تغير عليه صاحب قرطبة خلص الى المعتضد بن عباد ملك اشبيلية فقرّبه [والقى اليه مقاليد وزارته] . ولما مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد كان له كما كان ابوه ، فخدمه ابن زيدون خدمات جلى ، وبخاصة إبان فتح قرطبة . والحق ان رسائله الهزلية ، التافهة على كل حال ، لتمثل كالمقامات التي اخرجها الحريري في الشرق بعد نصف قرن ، محاولة أخيرة من جانب الروح العربية الى التماس فن ملائم من القول ، خارج نطاق الشعر التقليدي . وانما بزّهُ في رشاقة الأسلوب منافسه في بلاط المعتمد ، [ابوبكر محمد] بن عمّار الذي اكتسب عطف الملك منذ أيام ولايته على شِلْب من قِبَل ابيه . وما هي الا فترة حتى استشعر ابن عمّار أن ابن زيدون يوشك ان يتقدم عليه عند المعتمد ، بسبب من خدماته في فتح قرطبة ، فاتخذ من فتنة اليهود في اشبيلية ذريعة الى التخلص منه فسيره الى تلك المدينة لأخضاع الثورة فيها ، وهناك

(*) في « رسالة الغفران » . (المعربان)

توفي بعد برهة يسيرة . واخيراً سوّل الطموح لابن عمّار أمراً . فلم يكن منه إلا ان استقل بمُرسيَة بعد ان فتحها، وخلع طاعة المعتمد. فقبض عليه المعتمد وقتله سنة ١٠٨٦ . أما مبلغ إعجاب البربر بالأدب العربي واقبالهم عليه ، بالرغم من نزوعهم إلى تعزيز شخصيتهم القومية فيتجلى لنا من قصة بني الأفطس ، ملوك بَطَلْيَوْس . فقد كان جدهم [الاعلى] من المرتزقة البربر الذين استقدمهم الحاجب المنصور الى اسبانية ، واصطنعهم لنفسه . وفي سنة ١٠٢٢ وُفّق واحد من ذريته إلى أن يخلف الامير الذي كان يعمل هو في خدمته كوزير ، متخذاً لنفسه بعدُ ، وفقاً لسنة العصر ، نسباً عربياً . أما ابنه المظفّر الذي خلفه سنة ١٠٤٥ فقد اعتزل السياسة ، بعد أن استسلم لفرديناند [فردلند] الأول من غير مقاومة ، ليلتمس الشهرة الأدبية كمؤلف لمجموعة طريفة من النوادر والأخبار سماها باسمه « المظفّريّ » . وكان ابن عبدون الشاعر وزيراً لابنه عُمر المتوكل الذي استطاع بعد وفاة أخيه يحيى سنة ١٠٨١ ، ان يفرض سلطانه على الأراضي التي كان حُكمها الى آبائه من قبل ، ويحتفظ بها حتى سنة ١٠٩٤ عندما غلبه عليها المرابطون . والواقع ان قصيدة ابن عبدون التي بكى فيها دولةَ بني الأفطس ، مُكثراً من الاشارات التاريخية الى مصاير الدول ومصارعها منذ عهد دارا ، قد جعلت لهذا البيت شهرة ، في الأدب العربي ، لا يستحقها .

الموشحات والأزجال

وتعلّق هؤلاء الشعراء ، وكثير غيرهم ممن نشأوا في ظروف أشد عسراً وقنعوا بجوائز أقل قدراً ، تعلقاً وثيقاً بأساليب الشعر ولغته الكلاسيكية التي فقدت ، منذ زمن طويل ، كلّ أثر من آثار الحياة . بيد ان نفوذ المولدين الجدد ذوي الأصل الأسباني كان عظيماً الى درجة ساعدتهم على ان يكون لهم تأثيرهم في حقل الأدب أيضاً . ففي بلاط الأمير عبد الله [بن محمد]

لأموي (٨٨٨ — ٩١٢) اجترأ الشاعر الأعمى المقدّم [بن مُعافى] القبريّ *
على تحطيم وحدة الشكل الرتيبة التي تمتاز بها القصيدة ، وتجزئتها الى اسماط متعددات . والحق أنه اصطنع في ذلك اللغةَ العامية تتخللها العناصر الاسبانية ؛ ومن هنا نستطيع ان نفترض انه قلد اسلوب الشعر الاسباني ، من حيث تعدد الأسماط والأجزاء ، ايضاً . ونجح هذا التجديد الشعبيّ نجاحاً عظيماً ، حتى لقد فرغ لممارسته نفرٌ من جلة العلماء ، من مثل ابن عبد ربّه الذي أطلق عليه لقب أول شاعر كبير في المغرب ، والذي وضع في « عقده » كتاباً من كتب الأدب التزم فيه عمود التقليد المشرقي أشد ما يكون الالتزام ؛ ومن مثل الرَّمادي ، اول شاعر كبير في الاندلس ، الذي لمع إبان سقوط الامويين ، وكان بوصفه تلميذاً للقالي اللغوي الكبير ، مالكاً لناصية العربية الفصحى بمحاسنها جميعاً . ثم إن ابن قُزْمان ، الذي اتصل ايام شبابه على ما يقال بآخر ملوك بني الافطس في بطليوس ، ادخل الى الأدب العربي فناً شعرياً جديداً كان شائعاً في اسبانية من قبل ، هو الزجل الذي لم يَعد يخضع لأوزان الشعر المتعارفة بل للمقاطع . بيد ان حالة وطنه التعسة (وسنأتي على ذكرها في ما بعد) حالت دون تقلبه في النّعمة ، في بلاطات الامراء ، شأن غيره من قبل . فهو يتنقل في البلاد متكسباً بشعره مستعيناً على ارضاء الناس بقرد يلاعبه ، حتى إذا بلغ سناً عالية استقر في أحد مساجد قرطبة ، وقطع الأيامَ في خدمته . ولقد كان عليه ، في الواقع ، ان يروض نفسه على الغرائز الدنيا التي كان مستمعوه يخضعون لسلطانها ، فاذا هو يستثير فيهم نزوات الحب الشاذ . وهكذا طُويت صفحة هذا الفن الذي ازدهر يوماً ، في اسبانيا ازدهاراً عظيماً .

التصنيف في الحب

وحتى في عصر العباسيين ، زها الغزل ، وكان في العهود العربية السالفة

(*) وترد خطأ في كثير من المصادر الحديثة « ابن معافر » ، وهو تصحيف . (المعربان)

رهن الاساليب التقليدية المكرورة . فلئن كان نظام الحريم قد حال دون الاتصال بالحرائر من النساء ، لقد كانت الحياة بما تحفل به من الأماء والمغنيات والجواري تساعد كثيراً على إذكاء العواطف واستثارتها . ولم يستحيِ اتقياء الفقهاء انفسهم من هذه العواطف ، ذاهبين في ذلك الى حد تبويبها في ضَرْب من النظام المتماسك . وتفصيل ذلك ان داود بن علي (ت ٨٨٤) كان قد انشأ في بغداد مذهباً فقهياً جديداً تنكّر للاجتهاد بأكثر مما تنكر له الحنابلة انفسهم ، ولم يأخذ بغير المعنى الحرفي الخالص لنص القرآن والحديث ؛ ومن هنا دعي تلامذته بالظاهرية ، على سبيل المقابلة بينهم وبين الباطنية . ثم ان ابنه محمداً خلفه في زعامة المذهب ، وليس له من العمر غير ستة عشر عاماً ، فصنف في شبابه مجموعة من المختارات الشعرية جعل الجزء الأول منها ، وقد وصلنا دون غيره من الأجزاء ، وقفاً على الحب ، وشفعه بدراسة تحليلية لمظاهره كما تتجلى في الشعر . * كذلك الف ابن حزم ، الفقيه الظاهري الاندلسي ، في شبابه ، كتاباً تناول فيه بالبحث المفصل مختلف الرغبات الحبية وظواهرها ، ممثلاً لذلك كله بطائفة من المقطوعات الشعرية ، معظمها من نظمه[٨٥]. وههنا نقع ، في حال من النضج الكامل ، على جميع الاغراض الشعرية التي راجت بعد في الغرب ، في اناشيد التروبادور البروفنساليين ، واغاني الجرمان الغرامية ** واغلب الظن ان فن هؤلاء جميعاً قد خضع للمؤثرات الاندلسية ، وان يكن متعذراً من غير شك ، تعيين السبل التي نتقلت بواسطتها هذه المؤثرات عبر الجزء الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية ، ابسبب من ان علمنا بحضارة الشمال في تلك الايام ضئيل الى أبعد الحدود .

(*) « كتاب الزهرة » ، نشره لويس نيكل وابراهيم طوقان (شيكاغو وبيروت ، ١٩٣٢) .

(٨٥) طوق الحمامة (في الإلفة والألاف) . وقد نقله (الى الانكليزية) لويس نيكل ، باريس سنة ١٩٣١ .

(**) Minnesingers

ونشطَ البحث العلمي في الأندلس في حرية تفوق تلك التي تمتع بها الشعرُ نفسه . ذلك بأنه ، على خلاف الشعر ، لم يكن يعتمد اعتماداً عظيماً على عطف الامراء ورعايتهم ، ومن هنا استطاع ان يتابع أداء رسالته ، غير متأثر بضعف المسلمين السياسي إلا قليلاً . ومن ألمع رجال العلم الأندلسيين ابن حَزْم الذي ذكرنا آنفاً ، والذي كان جده الأعلى اسبانياً من أصل قوطي أو كلتي إيبيري ، ثم أسلم . ولد بقرطبة سنة ٩٩٤ وكان أبوه وزيراً للحاجب المنصور ، فشب في إقطاع اسرته في مَنْتَ ليشَم في كورة لَبْلَة موكَّلاً بالاضافة الى تحصيله العلمي باتّباع الحب ، والغزل . بيد أن سقوط الدولة العامرية (التي رفع الحاجب المنصور قواعدها) طوّح فُجاءةً بمجد اسرته وجاهها . والواقع أن الحرب الأهلية التي قضت عليها قذفت به ، بادىء الأمر ، الى ألمَرِيّة ، حتى اذا غُلب سليمان على أمره اتهم بالتواطؤ مع الأمويين ونُفي بعد اعتقال دام عدة شهور ، وفي بلنسية اتصل بعبد الرحمن الرابع ، الأموي ، الذي استطاع أن يحتفظ بخلافته ، فترة من الزمان ، هناك . فلما كانت سنة ١٠١٨ تمكن ابن حزم من العودة الى مسقط رأسه ، حيث وزرَ لعبد الرحمن الخامس الخليفة الأموي ، سبعة أسابيع تقضّت هنيئة سعيدة بين أواخر سنة ١٠٢٣ وأوائل سنة ١٠٢٤ . وفي ١٠٢٧ نجده في شاطِبة حيث اختتم صفحة شبابه برسالته في الحب ، الآنف ذكرها . وما هي إلا فترة يسيرة حتى شرع في وضع مؤلفه الديني التاريخي العظيم ، « الفِصَل ، في الملل والأهواء والنحل » . وهو كتاب لم يُسبق الى مثله في الأدب العالمي ، عرض فيه لمختلف الفرق الاسلامية ، وللديانتين اليهودية والنصرانية ، أيضاً ، بأقسى النقد وألذعه ، طاعناً عليها ومندّداً بأصحابها جميعاً . ومع انه كان في أول أمره من الشافعية ، الذين حظوا في قرطبة بتأييد عبد الرحمن الثالث ، كسدّ في وجه فقهاء المالكية ، فقد انقلب الآن إلى صعيد الظاهرية الرافعين لواء الاسلام كما كان عليه منذ نشأته الأولى ،

وشاركهم في حربهم ضد تعنت الأشعرية ، وضد الصوفية ، وتقديس الأولياء ، والخرافات جميعاً . ولسنا نعرف شيئاً دقيقاً عما قام به في النصف الثاني من حياته ، هذه الفترة التي وضع فيها عدداً ضخماً من المؤلفات التاريخية والفقهية . والواقع انه اخفق ، إبان تلك الفوضى التي طغت على هذه الحقبة ، في انشاء مذهب خاص به . ثم إنه وجد الامن عند حاكم جزيرة مَيُورْقة طوال عشر سنوات (١٠٣٨—١٠٤٨) تمكن في ختامها احد المالكية المتعصبين من إبعاده عنها بسبب خلاف نشب بينهما . ومهما يكن من أمر ، فقد قضى ابن حزم آخر سني حياته في إقطاع أُسرته حيث توفي سنة ١٠٦٤ . وعلى الرغم من انه لم ينجح في التمكين لمذهبه ، فليس من شك في انه قد كانت لهذا المذهب آثار مستنهِضة في وسط التحجر الذي استولى على الحياة الدينية في الأندلس .

وكان الطب يُعتبر في بلاطات الاندلس ، شأنه في المشرق ، أرفع العلوم اليونانية شأناً وأسماها مقاماً . ولقد ألّف ابو القاسم الزهراوي[٨٦]، المنسوب الى الزهراء ضاحية قرطبة والمتوفى حوالى سنة ١٠٢٣ ، كتاباً * جامعاً لأبواب الطب كلها . والحق ان الأجيال التالية احتفلت احتفالاً خاصاً بالجزء المفرد للجراحة في هذا الكتاب ، بما يشتمل عليه من وصف مفصّل للآلات الجراحية ، فنقل الى اللاتينية في القرن الخامس عشر ، ونشر في طبعات عدة .

اليهود في الأندلس

وشارك اليهود في هذه الحياة الثقافية مشاركة فعالة . والواقع انهم كانوا [قبل الفتح الاسلامي] مُنبثين في طول البلاد وعرضها بين القوط ، وانهم عملوا في خدمة أمراء النصارى كموظفين ماليين . فلما آلت مقاليد

---

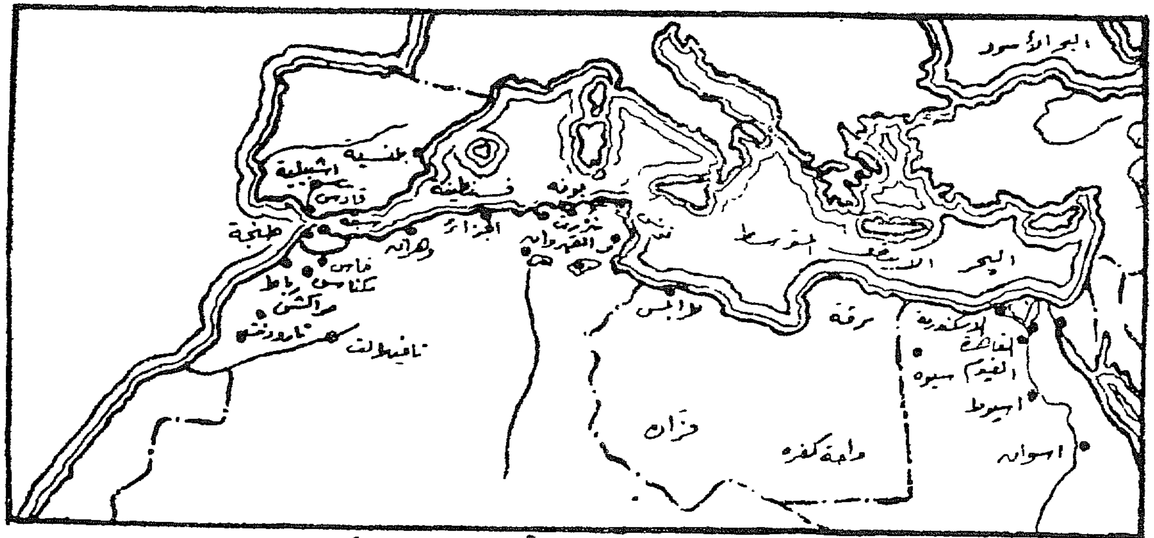
(٨٦) ويسميه الفرنجة Abulcasis .

(*) « التصريف لمن عجز عن التأليف » . (المعربان)

الدولة الأموية الى عبد الرحمن الثالث عهدَ الى طبيبه اليهودي . حَسْداي ابن شَبْروط ، بشؤون المال ايضاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد استطاع احد اليهود ، اسماعيل بن نَغْزالة * ان يبلغ منصب الوزارة في ظل الامير البربري حَبّوس الذي استولى على الامر في غرناطة حوالي سنة ١٠٢٤ — بعد أن اعتزل الحكم عمّهُ زاوي بن زيري — والذي دام عهدُه حتى سنة ١٠٣٨ . وهكذا خلعت عليه الجالية اليهودية ، وكانت كثيرة العدد هناك منذ العصور القديمة ، لقب « ناجد » الخاص بالامراء . وكان المؤلف الذي صبا الى أن يخلد به اسمه في عالم الادب مقتصراً على دراسة القصص اليهودي الذي عُنِيَ في الاندلس — كالقصص العربي — عناية خاصة بالابحاث اللغوية . اما سليمان بن يحيى بن جَبيرول ، الذي حظي فترة برعاية ابن نغزالة وتأييده ، فمدينٌ بشهرته عند اليهود لقصائده العبرية التي تتكشف ، في وضوح ، عن اثر الشعر العربي في الأدب العبري . ولكنه فرغ ايضاً لدراسة فلسفة ابن مسرّة ، دراسة عميقة ، ضمّنها كتابه « ينبوع الحياة » الذي نقله الى اللاتينية اليهودي المتنصر ، يوحنا الاسباني الطليطلي ، فاكتسب صاحبه شهرة بين فلاسفة اللاهوت المدرسيين في الغرب حيث حُرّف اسمه فصار Avicebrol او Avicebron . والذي لا شك فيه ان يهود الاندلس لم يكونوا دائماً في نجوة من الاضطهاد . ولقد سبقت منا الاشارة الى الثورة التي اندلعت ضدهم في اشبيلية ، والتي عُهد الى الشاعر ابن زيدون في اخمادها . فلما تمّ السلطان للمرابطين انتهى اليهود الى حال من العسر بالغة ، حتى لقد اضطر والد الطبيب والفيلسوف الشهير ، ابن ميمون ، الى ان يغادر قرطبة حوالى سنة ١١٥٠ الى إفريقية اولاً ، ثم إلى فلسطين . اما ابن ميمون نفسه ففزع الى مصر حيث نعم باستقرار موصول الحلقات ، ساعده على الدرس والانتاج .

(*) « صموئيل بن نجدله » .

في ذلك الوقت كانت إفريقية الشمالية الغربية ، التي تأثرت دويلاتها المختلفة حتى تلك الآونة ، بالاندلس من ناحية والجزائر من ناحية ثانية ، تتمخض بحركة قُدّر لها بعدُ أن تسيطر على كامل الجزء الغربي من العالم الاسلامي . ومع ان قبائل البربر ، من اهل الصحراء الكبرى ، شرعت تدخل ، شكلياً ، في الدين الاسلامي منذ القرن التاسع وما بعده ، فالحق ان وضعهم الديني كان لا يزال على مستوى منخفض جداً . إننا نعرف من النقوش الرومانية ، في شمال إفريقية ، مثلاً ، ان الاله « باكه » ظل يحتل عند قبيلة بَرْغَوَاطة مقام « الله » حتى الربع الاول من القرن الثاني للهجرة . ليس هذا فحسب . بل اننا نجد الى اليوم ان بعض قبائل البربر في شمال افريقية لا تزال أمينة للدين الذي وجدت عليه آباءها ، ولعاداتهم وتقاليدهم ، على الرغم من اعتناقها الاسلام اسمياً . والواقع ان جميع الاديان العالمية قد اضطرت الى ان تتساهل مع معتقدات معتنقيها الجُدد السابقة . ففي مصر والشام نفسيهما ، حيث كانت النصرانية قد مهدت السبيل للاسلام ، استطاعت بقايا المعتقدات الشعبية الوثنية ان تعيش في تقديس الاولياء وفي بعض العادات المتصلة بالاعياد . ومما تحسن ملاحظته ان الجهود التي بذلها الأعاجم المنضوون تحت لواء الدين الجديد ، في جميع البلدان الاسلامية ، لانتزاع المساواة السياسية والاجتماعية التي أنكرها عليهم العرب بادىء الأمر ، انما كانت على أشدها في شمالي افريقية ، على الخصوص . ذلك بأن روح البربر الديمقراطية كانت تأبى ، على الدوام ، الخضوع للعرب والاستسلام لمشيئتهم . فمنذ ايام الفتح الاول والارض الافريقية مرتع خصب للثورات التي يعزوها المؤرخون المسلمون الى الخوارج . وليس من شك في ان ما لقيه هؤلاء الخوارج من أُذن مصغية ينهض دليلاً على ثورة الروح القومية ، عند البربر ، في وجه سيادة العرب . ومن هنا كان في ميسور أيما داعية يتوجه في دعوته الى مشاعر البربر القومية ويحملهم على



الأندلسُ وشماليُّ إفريقية

مناهضة السلطة القائمة ان يعتمد على تأييدهم البعيد ونصرتهم البالغة .

المرابطون

وفي قبيلة لَمْتونة ، احدى قبائل صنهاجة الضاربة في اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال والمسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة ، ظهر يحيى ابن ابراهيم الجدّالي وانتهى الى مقام الزعامة بعد ان دبت الفوضى في جسم المملكة القبلية القديمة . وحج يحيى هذا سنة ١٠٤٨ – ١٠٤٩ الى مكة ، فاستشعر حاجة قومه الى اصلاح ديني ، واعتلجت في نفسه نزعة عارمة الى تحقيق هذا الاصلاح بعد الفراغ من حجه . وفيما هو عائد الى بلاده لقي في نَفيس ، من أعمال الاقليم الذي عُرف بعد بمراكش ، فقيهاً عالماً اسمه عبد الله بن يس الجزُولي . وأُعجب الفقيه بيحيى ، فصحبه ليعلم قومه احكام الدين الحنيف . ولكن دروس ابن يس لم تثر بادىء الرأي ، غير رجع ضئيل بين البربر ، فما كان منه إلا ان جمع فئة قليلة من اتباعه المخلصين واعتزل بهم في جزيرة السنغال حيث ابتنى لهم رباطاً ، أي قاعدة أمامية يرابطون فيها للجهاد ضد الكفار ، ويفرغون فيها كذلك للعبادة والتأملات الروحية . والحق انه لم يهدف من إصلاحه إلى محاربة المساوىء المتصلة بحياة الافراد الخاصة فحسب ، بل عدا ذلك الى مساوىء الحكم كأرهاق الرعية بالضرائب الفادحة . وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثر فيها مريدوه . حتى لقد صار في ميسوره ان يوجههم للنضال ضد الامراء المستبدين في الطرف الشمالي من الصحراء . وترك ابن يس قيادة « المرابطين » العسكرية ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في لمتونة . حتى اذا توفي [يحيى] سنة ١٠٥٦ خلفه اخوه ابو بكر وابن عمه يوسف بن تاشْفين . وكان ابو بكر قد بنى بزينب ارملة امير أغمات بعد استيلائه على هذه المدينة ، فقدّر لها ان تمثل دوراً حاسماً في ظلّ أبي بكر وظلّ يوسف جميعاً . وفي سنة ١٠٥٩ قضى ابن يس نحبه في معركة خاضها ضد قبيلة برغواطة البربرية ، على شاطىء الاطلسي

– وكانت تتبع رسولاً منها ، وتُعتبر في جملة الكافرين – فتولى زمام الحكومة من بعده القائدان : ابو بكر ويوسف . حتى إذا ذرّ الشقاق قرنه بين ابناء العشيرة الذين لم يبرحوا ديارهم في الجنوب اضطرا الى الافتراق . فانقلب ابو بكر الى الصحراء الكبرى ليقرّ فيها النظام ، في حين تابع ابن عمه – وكان أبو بكر قد تخلى له عن امرأته – فتُوحه في الشمال . وفي سنة ١٠٦٢ بنى يوسف مدينة مراكش وجعلها داراً له . ثم استولى على فاس سنة ١٠٧٠ وعلى طنجة سنة ١٠٧٨ ، وبسط سلطانه بين سنة ١٠٨٠ وسنة ١٠٨٢ على افريقية الشمالية حتى بلاد الجزائر . وعندما حاول ابو بكر أن يمكن لنفسه في الشمال ايضاً ردّه يوسف الى الصحراء الكبرى حيث توفي سنة ١٠٨٧ . وبذلك تمت ليوسف زعامة المرابطين العليا من شاطىء افريقية الشمالي الى السنغال .

وكانت دولة المغرب التابعة للفاطميين قد خسرت ممتلكاتها في جزر البحر المتوسط ، بعد ان استولى عليها النصارى ؛ كما كان قد اضعفها قبل ذلك ايضاً اقتسام الدولة الزيرية بتونس ، والدولة الحمادية بالجزائر لأراضيها . ثم ان تهور المستنصر الفاطمي عجل في سقوط هذه الاقاليم . ذلك بأن أعراب بني هلال وسُليم المشهورين بشدة البأس وقوة الشكيمة كانوا قد استقروا في مصر مع غيرهم من أبناء القبائل العربية ، منذ أكثر من مئة عام . وكان الخليفة العزيز الفاطمي قد اكرههم ، بعد قتال شديد ، على الانكفاء من الدلتا الى مصر العليا . وهناك اتصلوا بالقرامطة وأمسوا خطراً على الخلافة الفاطمية . فلما كانت خلافة المستنصر رغب في التخلص منهم فوجههم الى القيروان سنة ١٠٥٢ حيث التمسوا لأنفسهم مراكز جديدة في شمالي افريقية . وانما قصد من وراء ذلك ايضاً إلى الاقتصاص من المعزّ بن باديس الزيري الذي خلع طاعته ، وحارب التشيع في البلاد الواقعة في حوزته . وما لبث البدو ان اجتاحوا الأراضي السهلية وعاثوا فيها فساداً . فاضطر المعز الى الاعتصام بمقره في المهدية ، بينا نشأت في المدن الاخرى جمهوريات

أرستوقراطية . وقضى الغزاة على الحركة الثقافية التي كانت ناشطة في تلك الديار ، قضاء مُبرماً ، وبذلك مهدوا السبيل لانتصار المرابطين .

المرابطون في الأندلس

وفي الوقت نفسه كان ألفونس السادس ملك قشتالة وليون قد أفاد ، أعظم ما تكون الافادة ، من ضعف ملوك الطوائف في الاندلس . فبعد سقوط طليطلة استشعر المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، أن الخطر يتهدده مباشرة . وهكذا اتفق مع صاحبي بطليوس وغرناطة ، وهما اقرب جيرانه اليه ، فوجهوا بعثة قوامها قضاة مدنهم الرئيسية الى يوسف بن تاشفين تلتمس منه أن يبعث الى الأندلس بجيش يدفع عنها غارة النصارى . وكان ابن تاشْفين قد وُفق قبيل ذلك الى انتزاع سبتة من بني حمود . ومن هنا اعلن استعداده لاجابة الوفد الى ما طلب ، واحترامه لممتلكات حلفائه ، شريطة ان يُمنح الجزيرة الخضراء لتكون مركز انطلاق لجيوشه . وإذ كانت البعثة غير مخولة حق البت في مثل هذا التنازل فقد فارقت ابن تاشفين وهي لا تحمل جواباً منه حاسماً . ولكن ابن تاشفين لم يلبث ان استصدر من فقهائه فتوى تجيز له احتلال الجزيرة الخضراء ، برغم ارادة حكامها الشرعيين ، في سبيل الجهاد ضد النصارى ، فوجه اليها سنة ١٠٨٦ اسطولاً لم يجرؤ الراضي ابن المعتمد وعامل الجزيرة من قِبله ، على مقاومته . وما هي الا فترة قصيرة حتى جاز ابن تاشفين نفسه الزقاق الى الجزيرة الخضراء ، ونظم شؤونها وأتم تحصينها ، ومن ثم سار الى اشبيلية فأقبل عليه المعتمد والامراء المجاورون ، مرحبين خاشعين . وكان ألفونس يحاصر سرقسطة ، فما ان جاءه نبأ قدومه حتى ارتد للقائه إلى ان بلغ الاقليم المحيط ببطليوس . وطلب ابن تاشفين الى الفونس أن يُلقي السلاح فأبى . فنشبت بينهما ، في الزّلاّقة (٢٣ تشرين الأول) معركة هُزم فيها النصارى هزيمة شنعاء . فاضطر ألفونس من جراء ذلك الى ان يُخلي إقليم بلنسية ويرفع الحصار عن سرقسطة . ولكنه

اصطنع حصن اللِّيط * بين مرسية ولُورَقة ، قاعدة للهجوم على اراضي المعتمد . ورجع ابن تاشفين الى المغرب ، بعد ان توفي ابنه الذي كان قد أقامه نائباً عنه في سبتة . وعجز الثلاثة الآلاف بربري الذين ظلوا في الاندلس عن صد القشتاليين . وكان السيد رُذريق ** قد اقام نفسه وصياً على الملك القادر الذي عوضه الفونس من مدينة طليطلة بمدينة بلنسية . فاستنجد الامراء من جميع اطراف الاندلس بيوسف بن تاشفين ؛ حتى إذا فزع المعتمد ابن عباد الى بلاطه مستصرخاً ، عزم على القيام بحملته العسكرية الثانية على بلاد الاندلس . وفي ربيع سنة ١٠٩٠ أجاز جيشه الزقاقَ الى الجزيرة الخضراء ، فانضم اليه أمراء مالقة وغرناطة وألمرية ، فضلاً عن المعتمد ، وتقدموا جميعاً إلى حصن الليط فثبت لهجومهم الأول ، فلم يكن بدٌّ من محاصرته مدة تطاولت إلى ما بعد حلول الشتاء . ومهما يكن من شيء ، فقد ذر قرن الشقاق ، في معسكر المسلمين ، خارج حصن الليط ، بين ملوك الطوائف ، وبخاصة بين المعتصم صاحب ألمرية والمعتمد صاحب اشبيلية ، وبلغت منهما الجهالة مبلغاً جعلهما يحتكمان الى ابن تاشفين . وفي مطلع الشتاء سار الفونس الى حصن الليط بجيش قوي ، ابتغاء انتزاعه من المسلمين . فما كان من ابن تاشفين إلا أن انسحب الى لورقة اجتناباً للالتحام بقوات الفونس في معركة لا يدري نتائجها ، بسبب من عدم ثقته بحلفائه الاندلسيين . ولم يكن الفونس نفسه راضياً عن سحب حاميته من حصن الليط الى قشتالة بعد أن تركه — وقد أشرف على الخراب من فعـــل ضرب [المنجنيق] المتواصل — طعاماً للنار . وحتى في أثناء الحصار جاء القضاة الى ابن تاشفين يشكون اليه عجز ملوك الطوائف وضياع هيبتهم فأعار الفاتح شكاواهم أذناً مصغية . والحق ان مؤازرة الفقهاء قد مكنته في تلك الآونة من تحقيق

(*) أسمى العرب Alédo ايضاً « لبيط و نبطيط » . (المعربان)

(**) Rodrigo el Campeador « رذريق القنبيطور » وهو صاحب الأسطورة التي بنى عليها الشاعر الفرنسي كورني مسرحيته الشهيرة « السيد » Le Cid (المعربان)

خطة رسمها ، غير شك ، منذ زمن طويل ، للاستيلاء على البلاد كلها . وكان اول ما قام به ، لهذه الجهة ، ان استصدر من قاضي غرناطة وقاضي مالقة فتوى تقول بأن ملوك الطوائف ليسوا أهلاً للحكم بسبب من خروجهم المتواصل على أحكام القرآن . ولم يكتف بذلك ، بل عمد الى استطلاع رأي أشهر فقهاء المشارقة في هذا الحكم ، زيادة في الاطمئنان ، فأيدوه جميعاً ، وفي جملتهم الفقيه الكبير ، الغزالي . ثم ان يوسف عهد الى نسيبه سير ابن ابي بكر في انفاذ مشروعه هذا ، موثراً ان يعود هو إلى المغرب . وعجز ملوك الطوائف عن الصمود في وجه الجيوش البربرية . ولم يوفق الى الاحتفاظ بالعرش غير صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكتسب رضا الفاتحين بالهدايا السنية . حتى اذا توفي سنة ١١١٠ نُحي ابنه عن العرش في الحال .

وفي سنة ١١٠٦ توفي ابن تاشفين تاركاً لابنه عليّ أقوى امبراطورية عرفها الغرب الاسلامي حتى ذلك الحين . بيد ان التنظيم الداخلي لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف كان ابعد ما يكون عن الاحكام والتماسك . ولم يلبث عليّ ان انصرف بكليته الى اشواقه الدينية فاذا بالفقهاء الذين أسهموا بنصيب عظيم في تأسيس الامبراطورية بالذات ، يصبحون الآن وكلمتهم هي العليا في الدولة . ولكن التعصب التقليدي استغرق حياتهم الدينية كلها ، فهم لا يتسامحون بأيما نزعة ، ولو طفيفة ، الى التدين الفردي . والواقع ان كتاب إحياء علوم الدين للغزالي اثار عند انتشاره في الاندلس عاصفة من الاستياء وكان من حقه ان يثير نزعة الى محاسبة النفس . ليس هذا فحسب ، بل لقد أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى اتهموا فيها مجدد أمر الدين الاسلامي [الغزالي] بالابتداع والهرطقة فأحرق كتابه في قرطبة ، على مشهد من جماهير الشعب ، وفُرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها . ومن هنا لم يكن عجيباً ان تكون وطأة رجال الدين اشد على غير المسلمين وأثقل . فاضطر يهود أليسانة ، وهم أغنى اليهود في الاندلس ، الى ان يشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة ، في حين آثر غيرهم ان يبرحوا البلاد ،

فعلَ والد الفيلسوف ابن ميمون. ولم يكن النصارى المستعربة * الذين اتخذوا العربية لغة لهم في كل مكان، احسن حالاً، وأنعم بالاً. ولعلهم من اجل ذلك رحبوا بالهجمات المتكررة التي كان امراء النصرانية يقومون بها على الديار الاسلامية والتي عجز البربر عن مقاومتها، مقاومة فعالة، بعد ان انغمسوا في متارف الحضارة الاندلسية ومناعمها. ففي ١٩ كانون الاول سنة ١١١٨ تمّ لألفونس الاول ملك أرَغون فتح سرقسطة، معقل الاسلام الامامي في الشمال، وكانت محل نزاع بين ملوك المسلمين والنصارى زمناً طويلاً. وفي سنة ١١٢٥ اندفع الى ابعد من ذلك في اتجاه الجنوب. ومع انه لم يوفق الى تحقيق ما رمى اليه من الاستيلاء على غرناطة فقد انزل بالمسلمين هزيمة مُنكرة قرب مدينة أليسانة اليهودية. عندئذ اصدر ابن رشد، اشهر قضاة ذلك العصر، وجدّ الفيلسوف الشهير، فتوى بضرورة إجلاء النصارى الذين القيت عليهم تبعة هذه الهزيمة، الى مراكش، حيث أُنزلوا في سَلا ومَكْناسَة. ولكن الاستياء من حكم المرابطين لم يلبث ان تعاظم في المدن الاسلامية ايضاً، لان جيوش البربر عاثت في الارض بضراوة لا تقلُ عن ضراوة المرتزقة من جنود الامراء من قبل، وشلت حركة العمل والتجارة.

الموحـــدون

ومهما يكن من شيء، فسرعان ما اختمرت بين قبائل البربر في شمالي افريقية جراثيم حركة جديدة[٨٧]. ذلك بأن النزاع الفقهي قد دعا الى ظهور خصم خطير حمل راية الثورة على حكم المرابطين. فالى جانب مذهب مالك الذي استعاد سلطانه في افريقية ايضاً، بعد تحررها من سلطان الفاطميين

(*) mozarabs

(٨٧) راجع ميليه R. Millet, Les Almohades, Histoire d'une dynastie berbère, Paris, 1923.

سنة ١٠٤٩ ، طغت على المغرب من اقصاه الى اقصاه موجةٌ عارمة من التعصب للسنة تذهب الى تفسير جميع الآيات القرآنية المجسِّمة للذات الالهية تفسيراً حرفياً ، وتعدّ كل مناقشة فيها بدعة او هرطقة . والواقع ان ممثلي هذه النزعة كانوا يعتبرون ان مماحكاتهم المبنية على اساس المتون المعترف بها هي وحدها العلم ، وكل ما عداها هراء لا طائل تحته . وكان مذهب المعتزلة العقلاني * قد تخاذل في وجه هذه النزعة كما رأينا ، حتى في قلب العالم الاسلامي حيث نعم فترة من الزمان بحماية الدولة . وأياً ما كان ، فقد لمع في بغداد ، مطلعَ القرن العاشر ، ابو الحسن علي الاشعري (ت سنة ٩٣٥) ، الذي بدأ حياته معتزلياً ثم انقلبَ ، في سن الاربعين ، الى السنّة وعمل في سبيل تطويرها جدلياً ** وإقامتها على اساس علمي . ولقد كان على تلامذة الاشعري ان يجاهدوا دهراً طويلاً لانتزاع الاعتراف الرسمي بطريقته هذه . فقد كانت هذه الطريقة حتى في السنوات الاولى من حُكم ألب أرسلان تُشجبُ ، من على منابر المساجد ، كبدعة من البدع . ولكن الوزير السلجوقي الكبير ، نظام المُلك ، لم يلبث ان ايدها بنصره داعياً الجُوَيني ، المشهور بأمام الحرمين ، والقُشَيري الى التدريس في الكلية التي انشأها في بغداد [المدرسة النظامية] . وعلى الرغم من معارضة الحنابلة الرجعية ـ هذه المعارضة التي كانت تتمثل بين الفينة والفينة في شغب الغوغاء ـ فقد تمت السيادة ، آخر الأمر ، للمذهب الاشعري في بلاد الشرق . ثم جاء الغزالي فأتم ما بدأ به الاشعري ، جاعلاً العودة الى القرآن والسنة العمودَ الهادي في الفقه عنده ، ولكنه اعترف ايضاً ، بالاضافة الى عقيدة اهل السنة ، بحقوق الصوفية المعتدلة .

وحوالي سنة ١١٠٧ رحل الى بغداد محمد بن تُومَرْت من قبيلة مَصْمودة البربرية ، ومن أبناء جبل السُوس في الجنوب الغربي من مراكش الحالية ، بعد أن قضى فترة يسيرة في قرطبة حيث شهد إحراق مصنفات الغزالي ،

---

rationalist (*)
dialectically (**)

وحيث اثارت كتب ابن حزم في نفسه كثيراً من التأمل والتفكير . وانما قصد ابن تومرت من رحلته هذه الى اتمام تحصيله الفقهي من معينه الفياض في بغداد . وهناك وقف على تعاليم الاشعري ، وسرعان ما اعتنقها بالغيرة التي امتاز بها بنو جنسه البربر . فلما رجع الى المغرب أعلن حرباً شعواء على مفاهيم الفقه المجسِّمة ، السائدة هناك ، داعياً الناس الى طريقته التي تؤكد في الدرجة الاولى جانب التوحيد ، ومن هنا عُرف اتباعه بالموحدين . اما في صعيد الفقه العملي فقد وضع اعظم التأكيد على السنة كنموذج يحتذى في الحياة ، بينا كان لاجتهادات الفقهاء التشريعية المحل الأرفع في عهد المرابطين . ولكي يكفل محمد بن تومرت لنفسه اعظم قدر من تأييد أنصاره في هذا النضال ضد المساوىء السائدة في زمانه ، فقد أوقع في روع الموحدين انه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً ، بعد أن مُلئت جوراً . والواقع انه ناهض ، شأن المرابطين من قبله ، جميع ضروب الابتزاز غير القائمة على أساس التقاليد الاسلامية القديمة ، وهو ما يُؤذن بأن المرابطين لم يلتزموا المبادىء التي كانوا يبشرون بها في خطبهم ومواعظهم .

وبعد أن طاف محمد بن تومرت في مراكش وغيرها من المدن الكبيرة فنبذته لاتجاهاته العنيفة ، وتكشّف له اهلها عن قلوب غُلف وآذان صُم ، انقلب إلى قبيلته في الأطلس (جبال درن) فنجح في نشر تعاليمه بين افرادها . ثم انه بنى مسجداً في تينْمَلّل قرب منبع نهر نفيس ، وبذلك وضع الاساس لعاصمة الموحدين الاولى . ولقد جمع الى نفسه بوصفه مهدياً وإماماً ، مجلساً يتألف من مريديه العشرة السابقين الى قبول دعوته ، وهم المسمون « بالجماعة » ليضيف اليه بعدُ مجلساً آخر ينتظم خمسين مندوباً عن مختلف القبائل البربرية . ولقد عرف ابن تومرت كيف يتملق الوعي القومي عند البربر باستحداثه الأذان للصلاة باللسان البربري . وإذ كان اتباعه يعدّون سائر الناس كفاراً ، فقد كان في وسعه أن يشن الهجوم على دولة المرابطين في وقت قريب . فاستولى بادىء الأمر على جبل السوس . وفي سنة ١١٣٠

كانت مراكش ممتنعة ، ما تزال ، على قواته . ثم ان ابن تومرت توفي ، بعد أربعة اشهر ، فخلفه أخلص اتباعه له عبد المؤمن بن علي ، وكان قبل وفاة المهدي ينوب منابه في قيادة الجيش . ولما كان عبد المؤمن من غير المصامدة فقد كتم مجلس العشرة ، في ما يظهر ، نبأ وفاة المهدي طوال سنتين ، ليعلن بعدُ خلافته له . وفي السنوات العشر التوالي أنزل الخليفة الجديد الهزيمة بجيوش المرابطين ، واحداً بعد آخر . وكانت دولة المرابطين آخذة في الضعف والانحلال . فلقد سبق لهم ان هاجموا النورمانديين في صقلية ، سنة ١١٢٢ ، يساعدهم في ذلك الحسن الزيري . وما عتم هؤلاء ان انتقموا لأنفسهم ، فطردوا الزيري من عاصمته ، المهدية ، سنة ١١٤٨ — ١١٤٩ واحتلوا الشاطىء الممتد من السوس الى طرابلس ، فترة من الزمان . أضف الى ذلك ان النصارى كانوا يتقدمون في الأندلس ويتهددون سلامة الدولة بخطر عظيم .

وتوفي عليّ خليفة المرابطين المستضعف ، في سنة ١١٤٣ فقام من بعده ابنه تاشفين ، فأفرغ جهده في محاولات مخفقة لصد تيار الموحدين . وبعد أن حوصر في تلمسان طوال عام واحد فرّ في محاذاة الشاطىء الى وهران رجاةَ أن يوفق الى الفرار من هناك الى الاندلس مع الأسطول الذي استدعاه من ألمرية . ولكنه سقط بفرسه ، من على شاهق ، في البحر — قبل ان يبلغ سفنه — فقتل (سنة ١١٤٥ أو ١١٤٦) فيما هو هاربٌ من جيوش الموحدين التي كانت قد احتلت المدينة .

ونشأت في الأندلس ، بعد سقوط المرابطين ، عدة دويلات صغيرة كانت أعجز من ان تقاوم النصارى وتقف تقدمهم . ففي سنة ١١٤٧ وفق ألفونس الأول ، ملك برتقال (البورتغال) الى ان ينتزع عاصمة ملكه ، أشبونة ، نهائياً ، من أيدي المسلمين ، وكان النصارى قد احتلوها في مستهل حكم المرابطين ، ليعاود سير بن أبي بكر فتحها سنة ١١١٠ . وفي السنة التالية اندفع ألفونس السابع ملك قشتالة في توغله في البلاد حتى انتهى الى قرطبة . ولكن الموحدين تصدوا له هنـــاك فاضطر ان يقف عند

ذلك الحد وينقلب على عقبيه . وكان خليفة الموحدين [عبد المؤمن بن علي] قد قضى على آخر مقاومة لحكمه في شمالي افريقية بعد معارك دامية ضد البربر ، ومن ثم غدا في ميسوره ان يتقدم لقتال أعدائه الخارجيين بعزيمة أشد وأقوى . ولقد كان أول ما فعله ان وجه قائده برّاز الى الاندلس فأكره أتباع المرابطين ، بعد معركة ضارية ، على الانكفاء حتّى الجزائر الشرقية * حرّر الخليفة بنفسه الساحل الافريقي من سلطان النورمانديين الصقليين . وكان يعتزم ان يقوم ، بعد إتمام هذه الحملة ، برحلة الى الاندلس ، ولكن المنية عاجلته فقضى نحبه سنة ١١٦٣ .

ابن طفيل وابن رشد

وفي عهد ولده ابي يعقوب يوسف (١١٦٣ — ١١٨٤) وحفيده يعقوب المنصور (١١٨٤ — ١١٩٩) بلغ الموحدون غاية قوتهم . والواقع ان يوسف أتم اخضاع اسبانية الاسلامية ، ليُقتل بعدئذ ابان حصار شَنْتَرين في معركة وضد الأمير شانجة البرتغالي . وكان والده من قبله قد خضد شوكة المالكية المتعصبين وحدّ من نفوذهم فلما رقي هو عرش الخلافة قرّب اليه الفلاسفة ورفع شأنهم ، وكانت الفلسفة من قبل ذلك محرّمة . فوفد على بلاطه ، من الاندلس ، اعظم فيلسوفين انجبهما الغرب الاسلامي : ابن طفيل وابن رشد . وكان ابن طفيل ، المولود في وادي آش قرب غرناطة ، قد نزل بادىء الامر غرناطة وعمل فيها كطبيب ، ثم شغل منصب امين السرّ لعامل غرناطة من قِبل الموحدين . وفي سنة ١١٥٤ عُين بناء على اشارة رئيسه ، اميناً لسر [الامير ابي سعيد] احد اولاد عبد المؤمن ، وكان اليه حكم سبتة وطنجة . وإنما يدين ابن طفيل بشهرته الى اقدم قصة فلسفية اخرجها الادب العربي

(*) وهو الاسم الذي أطلقه العرب على جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) . (المعربان)

للناس . وتفصيل ذلك ان ابن سينا كان قد وضع رسالة رمزية صوفية بعنوان «حي بن يقظان» ، فاستعار ابن طفيل بطلها لقصته الخيالية حول اسس العلم واساليبه . ولقد تخيل ابن طفيل ان «حياً» هذا ولد يتيماً في جزيرة خالية من الناس ، وانه استطاع من طريق الاتصال بالطبيعة ، ان يكتشف الأسس الضرورية للحضارة ، ويصل الى معرفة الالـه والعالم . حتى اذا تقدمت به السن وبلغ الخمسين ، وتمت له نظرة شاملة الى الوجود وقف ، من طريق أبسال وزير الملك سلامان ، صاحب احدى الجزر المجاورة ، على الديانة المنزلة ، فظهر له ولأبسال ان فلسفة احدهما لا تختلف في حقيقتها عن ديانة الآخر . ولكن الملك ، الذي تعرّف اليه حيّ بواسطة صديقه ، كان اعجز من ان يسمو بنفسه الى المستوى الرفيع الذي تمثله معتقداتهما فآثرا العودة الى الجزيرة المهجورة ليفرغا ، بقية عمرهما ، للتأمل والرياضة ، تاركين الملك وشعبه للتمسك بالرموز [التي تتمثل بالتزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة] لان هذه العبادة بدائية لا تليق ببطلي القصة . والواقع ان هذا الكتاب ، الذي نقل الى العبرية بعد مائتي عام ، ثم ترجم الى جميع اللغات المتمدنة تقريباً من طريق اللاتينية (٨٨) ، شاهدٌ بليغ على مدى الحرية التي نعمت بها حركة التوفيق بين التصوف والفلسفة في ظل الموحدين . ولعل ابن طفيل كان يتوقع ان يتابع ابن رشد الصغير ، حفيد قاضي قرطبة الشهير ، رسالته . فقد كان ابن طفيل هو الذي قدّم ابن رشد الى بلاط مراكش ، وهو الذي اوصى سنة ١١٨٢ بتعيينه خلفاً له في منصب طبيب البلاط . ولكن لما كان ابن رشد قد شغل طوال اثنتي عشرة سنة منصب جده وأبيه كقاضي قرطبة فقد اعفاه الخليفة من هذه المهمة . وليس من شك في ان اعظم آثار ابن رشد شروحه على كتب ارسطو ، هذه الشروح التي شجعه على وضعها الخليفة نفسه . والحق انها هي التي فتحت للغرب مغاليق الفلسفة

---

(٨٨) **The History of Hayy ibn Yaqzan,** tr. by Simon Ockley (1708), revised ed. by A. S. Fulton, London, 1929.

الهلينية ، بعد ان نقلها (اي هذه الشروح) ميخائيل الاسكتلندي الى اللاتينية ، في وقت باكر يرقى الى سنة ١٢٣٠ . اما في مصنفاته هو فقد كانت همته منصرفة الى التوفيق ما بين العقيدة الاسلامية ونتائج الدراسات الفلسفية . بيد ان موقفه من مسألة قِدم العالم (وقد دافع عنها ضد عقيدة الخلق من عدم) ومسألة عِلم الله لم يلبث ان اثار نقمة فقهاء الاندلس عليه ، كما حمل الكنيسة على تحريم نظرياته ، في القرن الثالث عشر . فحاطه خليفة يوسف ، يعقوبُ [المنصور] ، بادىء الأمر ، بحمايته ورعايته شأن ابيه من قبل . ولكنه اضطر في النهاية الى ان يتخلى عنه لشديد حاجته الى تأييد فقهاء الأندلس في نضاله ضد النصارى ، وكان يطلب عندهم ثأر أبيه ، وان ينفيه الى أليسانة ، قرب قرطبة ، بعد ان امتحنه محنة مؤلمة بأحراق مصنفاته جميعاً خلا الطبية والرياضية والفلكية . وسرعان ما تم للخليفة المنصور ، في ١٩ تموز سنة ١١٩٥ ، نصر مؤزّر على ألفونس الثامن ملك قشتالة ، في معركة جرت عند الأرَك ، على الرغم من انه لم يوفق الى حسن الافادة من نصره هذا لاضطراره الى ان يعود ، على جناح السرعة ، الى افريقية ، حيث اندلعت نار الثورة . حتى اذا أقر الأمن والنظام فيها عفا عن الفيلسوف واستدعاه الى بلاطه في مراكش . ولكن ابن رشد ما عتم ان توفي في ١٠ كانون الأول سنة ١١٩٨ . وفي السنة التالية توفي الخليفة أيضاً .

الضعف بعد القوة

بيد ان امبراطورية الموحدين التي انتظمت الاندلس وافريقية كلها الى تخوم مصر ، وهي رقعة واسعة لم تجتمع لأيّ من الدول الاسلامية من قبل ، ما لبثت ان اصابها الانحلال في ظل المستضعفين من خلفاء المؤسسين الأولين . فلم يكد محمد الناصر يخلف اباه يعقوب حتى واجهته الثورات من كل سبيل . وكان عليه بادىء الرأي ان يقمع ثورة قبيلة غُمارَة البربرية في الاطلس [جبال درن] حتى اذا تم له ذلك انقلب الى الجزء الشرقي من الامبراطورية

ابتغاء القضاء على ثورة يحيى بن غانية في افريقية . وبعد ان أعاد فتح المهدية ، عاصمة الأغالبة ، في كانون الثاني سنة ١٢٠٦ ، عهد في حكم الشرق الى عبد الواحد بن ابي حفص الهِنْتاتي ، الذي سبق لأبيه أن اسدى خدمات جلى الى مؤسس الامبراطورية ، والذي استطاع اعقابه ، بنو حفص ، أن يستقلوا بعدُ بتونس . كذلك قضى الناصر على البقية الباقية من حكم المرابطين . وكان بنو غانية قد استقلوا ، عقب خسارتهم الاندلس ، بالجزر الشرقية ، فلم يكن من الناصر إلا أن وجه لحربهم اسطولاً من الجزائر ، فوفق لانتزاع ميورقة منهم . بيد انه عجز عن ان يصد تقدم النصارى في الاندلس ، صداً حاسماً . ففي ١٦ تموز سنة ١٢١٢ شن ألفونس الثامن ملك قشتالة هجوماً على الأراضي الاسلامية وانزل بخليفة الموحدين عند حصن العُقاب هزيمة قاصمة على الرغم من تفوق الجيش الاسلامي في عدد الرجال تفوقاً كبيراً . عندئذ سارع الناصر الى فاس ، وما لبث ان عين ابنه يوسف نائباً على الدولة برمتها ، وكان يضطلع بهذه المهمة ، حتى ذلك الحين ، وزيره الضعيف ابن جامع . ثم انه توفي في رباط ، يوم ٢٥ كانون الاول سنة ١٢١٣ .

وخضع يوسف المستنصر ، خلال سني حكمه العشر ، خضوعاً تاماً لوزيره الذي لم يكن ليحدّ من سلطته غير النخبة الارستقراطية من الموحدين . وكان محمد ابن ابي حفص ، حاكم تونس ، قد أقسم يمين الولاء ليوسف على كره ؛ فلما توفي الخليفة [المستنصر يوسف] ورفع ابنُ جامع ، عبدَ الواحد أخا يعقوب المنصور الى عرش الخلافة ، شبت في البلاد ثورة شاملة . وفي مُرسية بالأندلس ، بويع عبد الله ، ابن اخي عبد الواحد بالخلافة متخذاً لنفسه لقب « العادل » . عندئذ خلع شيوخ مراكش عبد الواحد ونفوا الوزير . ولم يلبث ان برز للعادل ، في الاندلس ، خليفة منافس هو ابو محمد ، حاكم بَيّاسة ، الذي ادعى اول الامر انه من نسل عبد المؤمن ، ثم عاد فزعم انه من نسل حفص . والتمس ابو محمد نصرة الملك فرديناند

الثالث على عدوه ، فلبّى فرديناند النداء مغتبطاً ، بعد ان تنازل له ابو محمد عن بياسة نفسها . وفي سنة ١٢٢٥ هُزم العادل وقصد الى إفريقية تاركاً مهمة النضال ضدّ الثائرين والنصارى لأخيه أبي العلى . ولكن شيوخ مراكش أبوا ان يقسموا له يمين الولاء ونادوا بابن اخيه يحيى المعتصم خليفة عليهم . ثم ان العادل قاتلَ أتباعَ المعتصم فقُتل . عندئذ هب اخوه المأمون ، في الاندلس ، مطالباً بالعرش ، فوُفق بمساعدة فرديناند التي لم تُبذل له إلا لقاءَ تنازل إقليمي جديد ، إلى التمكين لنفسه في مراكش . حتى إذا طرَدَ يحيى [من مراكش] وتوهم انه قضى على المقاومة كلها إثر مذبحة فتك فيها [بمشايخ الموحدين] سعى الى توطيد دعائم سلطانه من طريق القضاء على عقائد الموحدين وسننهم التي جرى عليها المشايخ ، والعودة الى مذهب مالك . فلم يكن من أبي زكريا ابن ابي محمد ابن ابي حفص ، امير تونس ، إلا ان اتخذ من ذلك ذريعةً الى خلع طاعة المأمون . والواقع ان ابنه عبد الواحد الثاني ، الرشيد ، ارتد الى عقيدة التوحيد ، عقبَ ارتقائه العرش سنة ١٢٣٢ ؛ فلم يُغْنه صنيعهُ هذا شيئاً . ذلك ان أبا زكريا لم يكن قط على استعداد للتخلي عن استقلاله ، وان كثيراً من حكام المقاطعات والأمصار اقتفوا اثره . فقد كان يَغْمَراسَن ابن عبد الواد ، من قبيلة زَيّان ، يحكم تلمسان سنة ١٢٣٦ من قِبَل الرشيد ، نظرياً ، ولكنه في الواقع كان مستقلاً استقلالاً مطلقاً ، شأن أعقابه من بعده ، حتى سنة ١٣٩٣ . أما سقوط الموحدين النهائي فقد تم على ايدي بني مَرين ، من قبائل زَناتة البربرية ، الذين نجوا بأنفسهم ، بعد هزيمة مواطنيهم العامة ، سنة ١١٤٥ ، من طريق الفرار الى الصحراء الكبرى . وكانوا قبل سنة ١٢١٦ قد خرجوا من وادي مُلُوْيَة فشنوا غارة عبر مراكش الوسطى لم تُبقِ ولم تَذَرْ . ولقد وُفقوا بادىء الأمر الى أن يوطدوا اقدامهم في اراضي بني رياح ، من قبائل العرب . وعلى الرغم من ان قوات [الخليفة] السعيد ، الذي تولى الاحكام بعد الرشيد ، استطاعت سنة ١٢٤٤ ان تهزمهم وتُكرههم على الانكفاء ، فقد

استأنفوا تقدمهم في عهد خلفاء السعيد هذا . والظاهر ان اميرهم أبا يحيى ابن عبد الحق خاصم الموحدين خدمة لبني حفص ، واصطنع نفوذ الاولياء المراكشيين (وكان لهم شأن عظيم عند العامة) واستغله لمآربه الخاصة . كذلك سعى الى منح ذوي قرباه إقطاعات خصبة ، غنية . وزاد قواته المحاربة أضعافاً باستخدام المرتزقة الاجانب ؛ ومن ثم صار في ميسوره ان ينتزع المدينتين الهامتين فاس ومكناسة ؛ بالاضافة الى سلا ورباط الساحليتين ، من ايدي الموحدين . فلما كانت سنة ١٢٦٩ وبدأ النزاع على العرش ، كرةً اخرى ، في مراكش ، استولى ابو يوسف ، الذي خلف أبا يحيى ، على العاصمة . في سنة ١٢٧٥ قضى احد عمال ابي يوسف في الاطلس على البقية الاخيرة من سلالة الموحدين .

بنو الأحمر

وتصدّر لجهاد النصارى ، بعد انسحاب الموحدين من الاندلس ، محمد بن يوسف بن هُود ، وكان اجداده من قبل ملوكاً على سرقسطة . وانما ظهر ابن هود ، اول ما ظهر ، في مرسية . ومن هناك وفق تدريجياً الى ان يوحّد اهم المدن الأندلسية تحت رايته ، مستغلاً ضعف جيرانه من النصارى . ومهما يكن من شيء ، فقد عادت ليون الى الاتحاد مع قشتالة ، سنة ١٢٣٠ ، بعد وفاة الملك ألفونس ، وبذلك استأنف النصارى هجماتهم على المسلمين ، منزلين الهزيمة بابن هود ، في شَريش ، سنة ١٢٣١ . وفي الحال برزت الى الميدان شخصية عربية ، وحاولت ان تمكن لذاتها على حساب ابن هود . وتفصيل الامر انه كان يقيم في ارجونة ، شمالي جيان ، احد احفاد زعيم الخزرج في عهد النبي ، محمد بن يوسف بن احمد بن نصر الذي عُرفت اسرته ببني الاحمر : فسارع سنة ١٢٣١ الى اعلان نفسه أميراً على الاندلس ، وتم له الاستيلاء على جيان ، ووادي آش ، وبَسْطة . وفي سنة ١٢٣٥ احتل غرناطة ، وجعلها عاصمة لدولته النصرية ، لتظل

كذلك حتى سقوط هذه الدولة نهائياً. والواقع ان التناحر بين المسلمين أدى، وشيكاً، الى سقوط قرطبة، عاصمة اسبانية الاسلامية القديمة، في ايدي النصارى، في ٢٩ حزيران سنة ١٢٣٦. وبعد سنتين قُتل ابن هود غيلة، بعد ان خسر معركة أخرى خاضها ضد النصارى. ولكي يدفع ابن الاحمر عن دولته خطر المنافسين دخل في حماية فرديناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧ — ١٢٥٢)، كتابع له، مقابل جزية ضخمة. وفي سنة ١٢٤٨ اضطر الى أن يقدّم اليه [الى فرديناند] مساعدة حربية على اشبيلية. فلما آل الامر الى خلفه، محمد الثاني، (١٢٧٣ — ١٣٠٢) سعى الى التخلص من التزاماته الاقطاعية من طريق التعاون مع دولة بني مرين في مراكش. والحق ان ابا يوسف لم يتردد في التدخل في شؤون الاندلس، شأن المرابطين والموحدين من قبله، بعد ان تنازل له محمد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف، فأجاز جيوشه الى الاندلس اربع مرات متواليات. ومع انه استطاع ان يُوقع بالنصارى أذىً كثيراً، فقد عجز عن احداث أيما تعديل اساسي في الوضع الحربي. وسرعان ما أمسى جنود البربر، الذين تكفّل بنو نصر بأرزاق قسم منهم، عبئاً ثقيلاً على البلاد، كما كانوا في السابق. ومن هنا سعى محمد الى ان يستنجد بألفونس العاشر، ملك قشتالة، على حليفه المريني؛ وتقدّم يغمراسن [ابن عبد الواد] ايضاً لعرقلة حملة جيرانه بني مرين على الاندلس. فلما رقي العرش ابو الحسن، رابع خلفاء ابي يعقوب ابن عبد الحق المريني اطّرح سياسة اسلافه الاندلسية، وهكذا استطاع بنو نصر، بما انتهجوه من سياسة لبقة دائمة التقلب، ان يعمّروا مائتين وخمسين سنة اخرى، بوصفهم آخر سلالة اسلامية بالأندلس، في الأقليم الضيق الممتد من ساحل جبل طارق حتى ألمرية، والمنبسط في الداخل حتى سلسلة جبال رُندة وجبال إلبيرة.

محيي الدين بن عربي

وعرفت حضارة اسبانية الاسلامية، حتى في معقلها الاخير هذا،

عهداً من الاشراق والزهو البالغين . والواقع ان مفكرين عظيمين انجبتهما اسبانية الاسلامية في ذلك العهد اختتما حياتهما في الشرق . أما اولهما فابن عربي [٨٩]، الصوفي ، الذي وُلد بمُرسية ، في ٢٨ تموز سنة ١١٦٥ ، ودرس الفقه والتشريع في اشبيلية من سنة ١١٧٣ – ١٢٠٢ ثم قصد الى مكة حاجاً فقضى بقية عمره مطوّفاً في بلاد الشرق . وانما حمله تطوافه حتى آسية الصغرى ، ليستقر به المقام آخر الأمر ، في دمشق ، حيث توفي في تشرين الاول سنة ١٢٤٠ . والحق انه كان في وطنه الأم يجري في فلك ابن مسرّة الفكري . اما في مكة فقد خضع ابن عربي لتأثير العقائد القرمطية في وحدة الوجود . وليس من شك في ان انتاجه الضخم الذي بلغ ذروته في « الفتوحات المكية » بأجزائها السبعة عشر – وقد وضعها ما بين سنة ١٢٠١ وسنة ١٢٣١ ، وافرغ زبدتها في كتاب « فصوص الحكم » – نقول ان هذا الانتاج الضخم قد ساعد على تحقيق النصر الحاسم لهذا الضرب من العقيدة الصوفية على الجهود الصوفية القديمة بسبيل الزهد والصفاء . ولقد جرى ، في مجرىً مشابه ، تفكير مواطنه ابن سبعين الذي تُعزى اليه مجموعة سطحية جداً من الأجوبة عن مسائل فلسفية يقال ان فردريك الثاني ملك صقلية وجهها اليه . ففي اثناء قيامه بفريضة الحج الى مكة عام ١٢٧٠ تتبع عقيدة وحدة الوجود تلك ، الى غايتها المنطقية ، بأمانة واخلاص فريدين في التاريخ الاسلامي ، وسعى الى ارجاع نفسه الى الله واتحادها معه ، فأقبل على الانتحار .

ابن الخطيب وابن خلدون

وتستطيع هذه الامارة الصغيرة – إمارة بني الأحمر – ان تفخر ايضاً بمؤرخ كبير اضطربت حياته واختلفت عليه الأحوال بعد نَعمة وبؤس ، فهو يمثل أحسن تمثيل الحياة السياسية القلقة في هذه الدولة الهزيلة خلال القرن

---

(٨٩) راجع (ابو العلا) عفيفي A. E. Affifi, **The Mystical Philosophy of ibn - Arabi,** London, 1939.

الرابع عشر . وانما ولد هذا المؤرخ الكبير ، لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني سنة ١٣١٣ من أب كان يعمل في بلاط [السلطان ابي الحجاج] يوسف (١٣٣٣ – ١٣٥٤) ، حتى اذا توفي ابوه في معركة جزيرة طريف سنة ١٣٤١ ، اختاره الوزير ابن الجيّاب كاتباً له . وفي سنة ١٣٤٩ اجتاح الطاعون جنوبي اوروبة وبلدان البحر الابيض المتوسط ، فكان ابن الجياب في جملة ضحاياه ، ومن ثم شغل لسان الدين منصب الوزارة . وما برح في دستها حتى توفي سلطانه ، وتولى ابنه [محمد] مكانه فأقره على الوزارة ، ايام ولايته الاولى ، وهي قصيرة (١٣٥٤ – ١٣٥٩) . ولم يكن السلطان الجديد ، قد بلغ عند وفاة ابيه ، الحُلم ، فنهض بعبء الوصاية عليه احد قواد الجيش ، رضوان . ولقد أثار ذلك حسد قائد آخر يدعى ابا سعيد فاستولى على الحمراء ، قلعة غرناطة ، والاميرُ الحدث لا يزال في البلاد ، ونادى باسماعيل ، اخي الامير ، سلطاناً ، بعد ان القى الوزير ابنَ الخطيب في غيابة السجن . وكان السلطان ابو سالم قد رقي عرش الدولة المرينية في مراكش ، قبل ذلك بقليل ، فأفسحت له هذه الاضطرابات في مجال التدخل المرتقب ، في شؤون الاندلس . فيسّر لمحمد الخامس أمر الخروج من وادي آش ، حيث كان يعتصم ، واطلق سراح وزيره الذي لحق به الى دار غربته بمراكش . وفي مدينة سلا الساحلية فرغ الوزير للكتابة والتأليف ، في حين انصرفت همة السلطان الى السعي بسبيل استعادة مُلكه السليب . وانما ساعده على ذلك مساعدةٌ جلى ابن خلدون قاضي قضاة مراكش ، التي طارت له بعد شهرةٌ عريضة كمؤرخ . وكان ابن خلدون هذا ، المولود في تونس سنة ١٣٣٢ ، قد التحق بخدمة [السلطان] ابي الحسن المريني ، الذي فتح تونس سنة ١٣٤٧ ، في مراكش . فأقنعه بضرورة التنازل عن حصن رندة (وكان المراكشيون لا يزالون يحتلونه) لبني الاحمر ، ومن هناك وُفق محمد الخامس الى استعادة عاصمته ، غرناطة . وفي الحال تبعه ابنُ الخطيب ليتقلد مهام الوزارة ، وينتهي وشيكاً الى غاية مطلقة من النفوذ

والسلطان . وفي سنة ١٣٦١ غادر ابن خلدون مراكش بعد مقتل السلطان ابي سالم ، قاصداً الى غرناطة ايضاً . وعاش العالمان العظيمان في تلك الحاضرة ، صديقين حميمين ، طوال سنتين اثنتين . ولكن التنافس ما لبث ان عكر صفو صداقتهما . وكان ابن خلدون قد سفر لبني الاحمر لدى بَطرة صاحب قشتالة ، فاكتسب ثقته ، حتى لقد وعد بطرة بأن يعيد اليه جميع اقطاعات اسرته السابقة في اشبيلية اذا ما دخل في خدمته . ولكن ابن خلدون كان حصيفاً ، فلم يخن ملته ووطنه ، حتى اذا بدا له حسد ابن الخطيب قوياً صارخاً آثر التوجه الى افريقية حيث وزر لصاحب بجاية من بني حفص . وفي الوقت نفسه كان نجمُ ابن الخطيب آخذاً في الافول ايضاً . ذلك بأنه استغل نفوذه العريض للأثراء الشخصي ، جرياً على العادة الشائعة في ذلك العصر ، فأوغر حساده صدر السلطان عليه . حتى اذا آنس ابن الخطيب تنكُّر سلطانه له ، تفادى من النكبة بالفرار الى سبتة سنة ١٣٧١ متذرعاً بحجة القيام بجولة تفتيشية على حصون جبل طارق . وفي مراكش استقبله [السلطان] عبد العزيز المريني (١٣٦٦ — ١٣٧٢) واكرم وفادته ، وكان ابن الخطيب قد اكتسب عطف السلطان بأن ضمن له حياد عمه وخصومه الطامعين في الملك والمقيمين في غرناطة ، يوم ارتقائه العرش . ثم ان القاضي رماه بتهمة الالحاد مستنداً في ذلك الى بعض كتاباته ، واستصدر فتوى بقتله ، ولكن عبد العزيز ابى ان يسلمه الى أعدائه . وايًا ما كان فلم يكد ينقضي على ذلك عام واحد حتى توفي عبد العزيز ففقد ابن الخطيب فيه حامياً ونصيراً . وفي غمرة التنازع المحتوم على العرش اشترى احد المتصدرين لولاية الاحكام ، ابو العباس المستنصر ، تأييد صاحب غرناطة بأن وعده بتسليم الوزير السابق اليه . ثم ان تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة ، محمد بن زُمرُك ، المعروف في دنيا الشعر ، قصد الى فاس للاشراف على متابعة الدعوى عليه ، ولكن ابن الخطيب خُنق في سجنه ، قبل ان يُشرع في المحاكمة ، على سبيل الانتقام الشخصي . اما منافسه القديم ابن خَلدون ، فكان أسعد منه حظاً

فقد وفق — في خضم السياسة المتقلب ، وبين ظهراني امراء المغرب — الى ان يحتفظ دوماً بمنصب ذي خطر ، وذلك عن طريق التخلي عن هذا وذاك ، والانسحاب في الوقت المناسب من سفينة السياسة الغارقة . وفي سنة ١٣٧٨ شرع في تأليف تاريخه العام وهو آمنٌ في قلعة ابن سلامة ، الأمير العربي ، في بلاد بني تُوجين . حتى اذا قضى في هذا العمل أربعة أعوام استهوته خزائن الكتب بتونس فسار اليها ، وهناك فرغ لكتابة تاريخ البربر . وما عتمت تونس ان نبتْ به ، فقصد الى مصر وفي عزمه ان يؤدي فريضة الحج الى الكعبة . ولكنه مكث في القاهرة حيث عهد اليه السلطان برقوق ، [أول المماليك الجراكسة] في التدريس ، ثم في قضاء المالكية . وفي هذا المنصب السامي استطاع ان يقي نفسه غائلة المؤامرات جميعاً . فلما كانت سنة ١٤٠١ خرج في جيش المماليك لقتال المغول ، وعلى رأسهم تيمورلنك ، الذين كانوا يتهددون امبراطورية المماليك بخطر عظيم . ثم انه فاوض تيمورلنك هذا في شروط استسلام دمشق . وفي ١٧ آذار سنة ١٤٠٦ اطفأت المنون هذه الروح التي ما فتئت العناية تقيل عثرتها كرةً بعد كرة ، على الرغم من كوارث الزمان المتعاقبة .

وكان بين هذين الوزيرين المتنافسين فُروقٌ صارخة في صعيد النشاط الأدبي أيضاً . فابن الخطيب لا يعدو ان يكون ، في الواقع ، أديباً من أدباء ذلك العصر المثقفين ، تتمثل فيه مساوئهم ومواطن ضعفهم على اختلافها . ولعل قارئه لا يجانب شاكلة الصواب اذا زعم ان الاسلوب كان يعني ، بالنسبة اليه ، كل شيء تقريباً . والجدير بالذكر ان ابن الخطيب لم يتكشف عن هذا الاحتفال البالغ بالزخرف في رسائله النموذجية فحسب ، بل في مصنفاته التاريخية الكبرى حيث ينزع في كثير من الأحيان الى التضحية بصحة الرواية ودقتها على مذبح الصناعة اللفظية . والحق ان القرينة التاريخية لا تكاد تعني عنده شيئاً . ففي كتابه الكبير عن تاريخ غرناطة * وكتبه التاريخية

(*) الإحاطة في تاريخ غرناطة . (المعربان)

الأخرى كانت عنايته بأخبار زملائه الأدباء أعظم من عنايته بتصوير مجتمعهم الذي عاشوا فيه. أما ابن خلدون فلم تسمح له حياته البالغة الاضطراب بأن يفرغ للأسلوب ينمقه ويزخرفه. لقد كان مولعاً بمصاير الدول ومصارعها. وليس من شك في ان كتابه عن تاريخ البربر فريدٌ في الأدب العربي بما هو محاولة لتصوير حياة شعب بكامله في جميع مظاهرها، على أساس الملاحظة الشخصية والدراسة الجاهدة للمصادر. ولكنه مدينٌ بشهرته للمقدمة التي استهل بها تاريخه العام، على الخصوص. وبينا لا يرتفع تاريخه العام هذا فوق مستوى النموذج الذي وضعه الطبري في تاريخه، نجد ان ابن خلدون يحاول في مقدمته – التي استفاضت فغدت كتاباً برأسه – ان يرسم الخطوط الكبرى لأول فلسفة تاريخية عرفها الفكر الانساني. ومن الراهن ان الشريعة الاسلامية تطغى على آرائه في الدولة والاجتماع طغياناً كاملاً، ولكنه مع ذلك مزج بها عدداً من الملاحظات والاستنتاجات الثاقبة، التي انتزعها من حقبة صاخبة من التاريخ، عاش جزءاً منها في مقام الصدارة والرياسة، وعاشها كلها وسط تيار الاحداث الجاري. والواقع ان الاحكام السليمة الهادئة التي أصدرها حول مظاهر العلم الاسلامي والحضارة الاسلامية جميعاً، في تلك الدراسة ذات التصميم المنظم والعرض الواضح، لم تتيسر لأي من المؤلفين المسلمين، على الاطلاق(٩٠).

ابن جبير وابن بطوطة

وثمة كاتبان آخران من المغاربة تركا لنا صورتين زاهيتين بالالوان الغنية عن الثقافة الشرقية في عصرهما، مما لا تستطيع اي حقبة سابقة ان تُدلّ بمثله. اما اولهما فابن جُبير الاندلسي الذي ولد في بلنسية سنة ١١٤٥

(٩٠) انظر شميت N. Schmidt, **Ibn khaldun,** New York, 1930.
وراجع ايضاً جب H. A. R. Gibb in **Bulletin of the School of Oriental Studies,** Vol. 7, London, 1933, pp. 23 - 31.

والذي أبحر لأداء فريضة الحج سنة ١١٨٣ تكفيراً ، في ما يبدو ، عن شربه الخمر ، بعد ان اجبره على ذلك [ابو سعيد بن عبد المؤمن] صاحب غرناطة ، وكان ابن جبير كاتباً له ، يحضر مجالسه واسماره . وانما كان إبحاره من جزيرة طريف الى الاسكندرية ، ومن ثم بطريق القاهرة والبحر الاحمر الى مكة . حتى اذا فرغ من حجه انقلب الى العراق فالموصل ، فحلب ، فدمشق ، فعكا ، ومن ثم ركب البحر الى صقلية . ولقد كان من حسن طالعه ان تعرّف الى المشرق وهو لا يزال ينعم بالازدهار والامن في ظل صلاح الدين ، فدوّن مشاهداته فيه ، باسلوب بارع ولكنه خال على كل حالٍ ، من تصنع المحترفين ، من غير ان يتنكر يوماً لثقافته الفقهية . وبالروح المندفعة نفسها ، صوّر الحضارة الزاهرة التي وجدها في صقلية على عهد غليام الصالح النورماندي ؛ مؤكداً مرة بعد مرة ، في ابتهاج ظاهر ، انها لا تزال اسلامية في المحل الاول . وفي سنة ١١٨٥ بلغ غرناطة بطريق قرطاجنة . ولكن الحنين الى الاسفار لم يلبث ان استبدّ به بعد اربع سنوات فولى وجهه مرة ثانية ، قبل المشرق ، حيث قضى عامين آخرين . وعندما بلغ سن الثالثة والسبعين غامر في رحلة اخيرة الى الشرق ، ولكن المنية ادركته قبل ان يصل الى الاسكندرية . وبعد قرن من الزمان سنة ١٣٢٥ ابحر ابن بطّوطة ، المولود في طنجة ، الى مكة حاجاً ، وليس له من العمر غير واحد وعشرين عاماً . والواقع ان المشرق استطاع ان يفتّن هذا الرحالة الشاب بأكثر مما فتن سلفه الذي أفاد ابنُ بطوطة أو راويته من كتابه* إفادة غير محتشمة في ما يتصل بوصف المناطق التي زارها كلا الرحالتين ، جرياً مع العرف الادبي الشائع في ذلك الزمان . وإنما استغرقت اسفار ابن بطوطة نحواً من خمس وعشرين سنة ، فجاب [اولاً] أمصار فارس ، وآسية الصغرى ، وشبه جزيرة القِرم . ومن هناك رافق اميرة يونانية ، هي زوج السلطان أوزبك ، في زيارة لابويها

(*) « رحلة ابن جبير » .

في القسطنطينية . ومن الفولغا (نهر إتـِل) قصد الى الهند ، عبر آسية الوسطى ، فشغل طوال سنتين منصب قاض في دلهي (دهلي) . ولقد حاول ان يرافق بعثة سياسية الى الصين فلم يتجاوز جزائر [ذِيبة المَهَل] * حيث استقر سنة ونصف سنة تولى في اثنائها القضاء . وبعد ان وفق اخيراً الى زيارة الثغرين الصينيين زَيتون (تسو — ثونج) وكانتون قفل الى شبه جزيرة العرب ، من طريق سومَطرة ، ليبلغ فاس ، آخر الامر ، في أعقاب الخريف من سنة ١٣٤٩ . وما هي إلا سنوات ثلاث حتى خرج في رحلة اخرى الى بلدان الزنوج ، ليستقر بعد ذلك في مراكش حيث أملى وقائع اسفاره على احد الكتّاب ، تاركاً له صياغتها اللغوية والبيانية جميعاً . والحق ان احداً من الرحالين لا يدانيه في سعة استشرافه العالمي غير معاصره ، ماركو بولو ، البندقيّ الذي كان أسنّ منه ، بعض الشيء ، والذي عهد الى كاتب له في اخراج مذكراته اخراجاً أدبياً . وانما يؤلف كلٌّ من هذين الأثرين تتمة صالحة للاخر ، في ما يتصل بمعرفتنا بآسية ، لأن الرحالة البندقيّ وفُق الى ان يقدم الينا حقائق عن الشرق الأقصى أصح بكثير من تلك التي تسنى للرحالة المراكشي إيرادها ، في حين عوّض هذا الأخير من ذلك النقص بما كان له من معرفة أوثق بالأحوال الثقافية في العالم الذي وصفه . إن احداً منهما لم يكن عالماً جغرافياً ، ولكن معلومات الرحالة المسلم الطوبوغرافية أوثق وأجدر بالاعتماد من تلك التي نجدها في رحلة زميله النصراني . ولم يسمح ابن بطوطة لنفسه بأن يُخدَع ، من طريق النقل عن مصدر ادبي ، إلا في وصفه « لأرض الظلمات » ، بسبب من انه اطّرح ، في جنوبي الروسيا ، فكرة الرحلة الطويلة الشاقة الى ارض البلغار ، الذين كانوا لا يزالون ، آنذاك ، ينزلون على ضفاف الفولغا الأعلى .

Maldive Isles (*)

واحتفظت الفنون والصنائع بمستواها الرفيع في دولة بني نصر حتى ايامها الاخيرة ، واصبحت اساساً لثروة البلاد وغناها ، نخص بالذكر منها صناعة المعادن التي بلغت درجة من الدقة والكمال عظيمة . وبحسبنا دليلاً على ذلك ان آخر آثار العمارة الاسلامية في الاندلس واكثرها فخامة أعني حمراء غرناطة ، إنما شُيّد في عهد تلك الدولة . والواقع ان الجبل المشرف على المدينة كان يُقلّ قلعة في عهد الامويين ، ولكن تشييد قصر الحمراء الشهير بدأ ، اول ما بدأ ، في عهد محمد [الاول الغالب من بني نصر] ، ليتنافس أعقابه من بعده ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، في بناء قاعدة ملكهم . ولم تُصطنع الحجارة والآجرّ في بناء الحمراء إلا قليلاً . فهو في معظمه مشيد من حجر صناعي خاص مركب من التراب والكلس والحصى . وتتصل عقوده وقبابه وسقوفه بعضها ببعض اتصالا رفيقاً بواسطة ألواح وقضبان من الخشب . ولم يصل الينا شيء على الاطلاق من نماذج هذه الطريقة الفنية الخاصة التي نشأت أول الأمر في الجزيرة الفراتية من غير شك ، وذلك بسبب من ضعف المواد البنائية وعدم ثباتها على مدى الايام . وانما يحيط برابية القلعة سورٌ مستديرٌ تعلو له شرفات حصينة ، وقلاع عديدة تقيه غائلة العدوان . وفي داخل السور ينهض القصر ، تحيط به جنات مترامية الاطراف . وثمة ساحتان تؤديان من هذه الجنات الى البناء الداخلي . وفي الجنوب تطالع الزائر ساحة الرياحين التي تؤدي الى البرج العظيم وقاعة السفراء في الشمال . والجزء الجنوبي الشرقي من ساحة الرياحين يتصل بدار الاسود التي تقود مباشرة الى قاعات الحكم ؛ والتي تقود من جهة اليمين — الى دار ابن سرّاج ومن جهة اليسار الى قاعة الأختين . والواقع ان ساحة الرياحين سميت كذلك لأن قوارير الرياحين تحيط بقسم منها بكامله . أما دار الاسود فمدينة باسمها للاسود التي تقلّ البركة في وسطها ، حيث تلتقي مجاري المياه الممتدة من الجانبين . وتزدان واجهات

دار الاسود بتصاوير تمثل مشاهد فروسية وطرد ، فضلاً عن عشرة أمراء متكئين ، جنباً الى جنب ، على اريكة عريضة . « ولقد فُرشت الأرض بمربعات من الرخام الابيض . وعلى طول الاجزاء الدنيا من الجدران تنتشر طبقة من قطع القاشاني الملون ، يبلغ ارتفاعها نحواً من أربعة أقدام . أما الاجزاء العليا من الجدران فقد كسيت بالجص ، وامتدّ فوقها افريز ملاصق للسقف ؛ وكان ينبثق ، من فوق ذلك ، السقف المتدلي ، تدعمه أحياناً اعمدةٌ صغيرةٌ نصفية ، وهو يتألف من قطع من الخشب مرصوفة في طبقات وخلايا مصنوعة من الجصّ . وقد قامت على دعائم ناتئة من الجدران اساطينُ من الرخام انيقة السبك تعلوها تيجان منوعة الاشكال استقر عليها السقف وتخللتها قناطر خشبية مطلية بالجص . والشكل الغالب على هذه القناطر هو الشكل نصف الدائري المرتفع الذي يُشبه نعل الفرس شبهاً ضئيلاً . ولكن هذه القناطر كثيراً ما كانت تبدو على هيئة الأقواس المحددة بسبب من الجصّ الذي كسيت به . ولقد أقيمت في الجدران فجوات عميقة المدى متباينة الاحجام ، فأما كبراها فكانت مغطاة بالوسائد فهي مواطن تُلتمس فيها الراحة ، واما صُغراها فكانت تُقل أباريق الماء . وانتثرت فوق اقسام القصر جميعاً ، فوق الجدران والسقوف والاعمدة والاروقــة والفجوات ، ضروبٌ من الزخارف المترفة . وصيغت قطع القاشاني بأشكال هندسية غريبة متنوعة ، ونُقش الرخام اشكالاً أشكالاً ، وصُوّر الجصّ في آلاف وآلاف من الخطوط المنحنية البارزة ليمثل رسوماً من مختلف الانواع – نجوماً ، ومثمّنات ، ونباتات متباينة . ولقد أُرْفِقَ هذا كله بعدد هائل من النقوش الخطية امتدّت على طول الافريز ، والتفّت حول القناطر والنوافذ والفجوات او التقت في طغراآت نُثرت نثراً متناسقاً وزخرفت على المنوال نفسه . وكثيراً ما تراءت هذه الطغراآت ، لغير اهل الصناعة ، مجرد خطوط هندسية . وهذه النقوش ، بخلاف نقوش البناء الاخرى ، لا تواجه الناظر بحقائق واضحة ، ولكنها

تخاطبه بأبيات من الشعر الخيالي ، او من الوصف الهادىء الذي يميز الشعر الاندلسي . ويبلغ الوقع الذي يتركه جمال هذا القصر في النفس حد السحر عندما تتجلى امام الناظر الصور العديدة الرافلة في غلائل من الذوق الجميل . ولقد سُفحت على غرف القصر كلها أسنى الالوان واروعها في سخاء بالغ ، واسرافٍ عجيب . وكانت الغلبة في الاجزاء العليا من القصر للألوان الحمراء القانية والالوان الذهبية والزرقاء ، لعظم أثرها في العين والنفس ، في حين طغت في الاجزاء الدنيا منه ألوان البنفسج والارجوان والبرتقال . ولقد حُليت المربعات الرخامية البيضاء التي فرشت بها أرض القصر بمختلف الألوان ، على ما يستفاد من مختلف الآثار الباقية [٩١] . »

سقوط بني الأحمر وإخراج المسلمين من اسبانية

وفي سنة ١٤٧٩ عزمت ايزابل الكاثوليكية ، بعد ان تمّ اتحاد مملكتي قشتالة وارغون نتيجة لزواجها من فرديناند الثاني ، على ان تقضي نهائياً على بني الاحمر وتُخرج المسلمين جميعاً من أرض الاندلس . وكان في الشقاق المتصل الذي شتت شمل هذه السلالة الاسلامية ما ساعد ايزابل على إنفاذ عزمها ذاك . فقد ثار على أبي الحسن [علي] ، آخر امراء غرناطة ، كلٌ من ولديه أبي عبد الله محمد[٩٢] ، و[أبي الحجاج] يوسف . وفي هذا الصراع الذي وُفق ابو عبد الله في ختامه الى احتلال غرناطة ، تدخّل فرديناند زوج ايزابل بلباقة ودهاء . وبعد ان انتزع من العرب بعض المدن الصغرى التي دافعوا عنها ، أحياناً في شجاعة بالغة ، استسلمت له غرناطة ، اثر حصار متطاول ، في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وأُعطي أبو عبد الله ، بادىء الأمر ، ضيعة نزل فيها فترة من الزمان ، ولكنه لم يلبث ان هجرها

(٩١) اقتبس المؤلف هذا الوصف من Von Schack .

(٩٢) ويدعوه الاسبان Boabdil .

الى فاس ، حيث قضى أيامه الأخيرة . ثم إن ديوان التفتيش أكره من بقي من المسلمين في اسبانية على اعتناق النصرانية ، غير عابىء بما نصت عليه شروط الاستسلام . ولكن جموعاً غفيرة منهم جازت الزقاق الى مراكش فزهت على ايديهم حضارتها ، وانتشرت أنوارها في الأقاليم الجنوبية .

الشرق الأدنى في عهد الصليبيين وقيام دولة المماليك بمصر

تركنا تاريخ الشرق ، بعد وفاة السلطان محمد ، وقد تداعت امبراطورية السلاجقة الى السقوط . والواقع ان قوة جديدة كانت قد ظهرت في سورية ، قبل ذلك ، فتنافست مع امراء الاتراك واتابكتهم في تجزئة أراضي الخلافة السابقة ، أعني الصليبيين . وليس ههنا مجال الكلام على أهمية الحروب الصليبية بالنسبة الى أوروبا . أما بالنسبة الى العالم الإسلامي فقد كان الفرسان النصارى مجرّد منافسين مزعجين للاتراك ينازعونهم السلطان على سورية ، ولكن تألبهم الشديد المستمر على بيت المقدس الذي يعدّه المسلمون أرضاً مقدسة أيضاً هو الذي خلع على النضال ضدهم ، في ظل صلاح الدين على الأقل ، صبغة دخيلة من التعصب الديني . يدلك على ذلك ، في المحل الاول ، ما نشأ في تلك الفترة من مؤلفات شعبية توسلت بمغازي الرسول وصحابته إلى إذكاء روح الجهاد والتضحية في صدور الجند المكافحين عن الاسلام .

الصليبيون في سورية

عندما ظهر الصليبيون الأولون في سورية ، بقيادة غودفري دي بويون *

(*) جاء اسمه في المصادر العربية مصحفاً على صورة « كندفري » في ابن القلانسي ، « ذيل تاريخ دمشق » (بيروت ، ١٩٠٨) ص ١٣٨ .   (المعربان)

وجمهرة من الزعماء الفرنسيين والنورمانديين ، كانت البلادُ مُنجّمة بين عدد من الأمراء السلاجقة المختصمين المتناحرين ؛ ومن هنا لم يخفّ احدٌ منهمٌ لنجدة الامير الذي قُدّر له ان يتلقى الضربة اولاً ، وهو ياغي سيان صاحب انطاكية . وكان يحمي انطاكية نطاق قويٌ من الاسوار الممتدّة على طول الروابي المجاورة ، فتطاول حصار الصليبيين لها لتسقط بعد ذلك في ايدي الفرسان المهاجمين ، بخيانة [أحد المستحفظين للابراج] . وكانت القدس قد انتقلت ، في الوقت نفسه ، الى حوزة المصريين ، ولكن هؤلاء ما لبثوا ان اضطروا الى التخلي عن المدينة ، في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ ، من غير ما مقاومة جدية . ومن انطاكية بسط الصليبيون سلطانهم على شمالي سورية ، وكان بغدوين[٩٣] الاول قد اسس قبل ذلك إمارة في الرُّهاء ، سنة ١٠٩٨ . حتى اذا توفي غودفري دي بويون سنة ١١٠٠ ، وكان قد انتخب ملكاً على القدس ، رقي العرش من بعده بغدوين الاول ، هذا . وفي سنة ١١٠١ عَهِدَ الى القومص (الكونت) ريموند دي تولوز* في ان يفتح طرابلس الشام ، لتكون قاعدة لأمارة جديدة ، ولكن تلك المدينة المشرفة على الهضاب الخصبة ، لم تسقط في ايدي النصارى الا بعد حصار دام ثماني سنوات ، توفي ريموند اثناءه ، سنة ١١٠٥ ، في الحصن الذي أُنشىء لتطويق البلدة على الجبل المقابل لجبل صنجيل** . ثم إن الصليبيين احتفظوا بطرابلس مئة عام . .

آل زنكي في الموصل ودمشق

فلما كان الربع الثاني من القرن الثاني عشر اعتزّ الاسلام ، الذي انهكت

---

(٩٣) Baldwin I.

(*) « ريمند » في المصادر العربية . وعرف ريموند هذا عند العرب بصنجيل . (بفتح الصاد وكسر الجيم) (المعربان)

(**) نسبة الى St. Gilles وبني هذا الحصن على شفا الجرف فوق نهر ابي علي (قاديشا) (المعربان)

قواه منازعات السلاجقة على السيادة في سورية ، بسلالة عرفت كيف تشق طريقها الى الصدارة ، وكيف تحشد قوى المسلمين جميعاً ، لمدّة قصيرة من الزمان على الاقل ، في نضال عنيف ضد النصارى . وتفصيل ذلك ان الموصل كانت قد خضعت منذ سنة ١١٢٧ لعماد الدين زنكي ، التركي ، وكان في اول امره اتابكاً ، اي مؤدباً ، للاميرين السلجوقيين ألب ارسلان وفرخشاه . وكان عماد الدين جندياً بارعاً وسياسياً لبقاً . بل كان فوق ذلك إدارياً ممتازاً ، فوُفق بهذه الصفات التي اجتمعت له الى توسيع رقعة سلطانه ، شيئاً بعد شيء . حتى اذا توفي سنة ١١٤٦ كانت هذه الرقعة تنتظم كامل الجزيرة الفراتية تقريباً حتى الشمال ، حيث كان الأرتُقيون لا يزالون يحتفظون بماردين وجزء كبير من سورية . وكان عماد الدين رؤوفاً برعيّته معنياً بمصالحها . حتى لقد دعاه السكان ، غير مرة ، الى ان ينصرهم على جلاديهم السابقين . وساد العدل في ايامه واطمأن الناس الى سلامتهم الشخصية ، بعد ان اتى على تلك البلاد حين من الدهر عَدِمَ فيه الناس الثقة والأمن . فلقد كان ما حول المسجد الجامع في المدينة قاعاً صفصفاً ، عند ارتقائه العرش ، فاذا به عند وفاته ميدان مكتظ بالمباني العامرة . وليس من شك في ان أعظم مآتيه ، وآخرها ، انتزاعه الرهاء ، سنة ١١٤٤ من ايدي الفرنجة الذين سيطروا عليها نحواً من نصف قرن . وفي غمرة هذا النصر استشعر عماد الدين الخطر على دولته من مؤامرة كان بطلها ولي نعمته الامير ألب ارسلان السلجوقي نفسه . حتى اذا قضى على الفتنة في غير مشقة ، قُتل بيد [جماعة من مواليه اغتالوه ليلاً] في ١٥ ايلول سنة ١١٤٦ أثناء حصاره قلعة جَعْبر ، على الضفة اليسرى من الفرات الأوسط ، وكان في حوزة الدولة العُقَيلية .

واقتسم ابنا عماد الدين الارشدان مملكته فيما بينهما ؛ والحق ان احتفاظ هذه المملكة بوحدتها ، في وجه من تألب عليها من الاعداء ، كان أمراً عسيراً . فأما اكبرهما ، سيف الدين غازي ، فاستولى على الموصل والجزيرة حتى الخابور ، محتفظاً لنفسه بلقب الأتابك . وأما اصغرهما ، نور الدين

محمود ، فاستولى على سورية ، متخذاً من حلب قاعدة لحكمه . والواقع ان نور الدين ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل الى حد بعيد جداً . فبينا كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين ، طوال اجيال عدة ، يعتبرون ، ممالكهم إقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة ، كان هو أول من استشعر انه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته . ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة ، التي تمت له بالادارة البارعة والتي لم تُثقل كاهل رعيته على كل حال ، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالاعداء – وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة – فحسب ، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا * الدراويش ، وخانات المسافرين ، والمستشفيات ، ودُور العلم . ولقد انشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم ، والبيمارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه ، والذي لم يلبث ان نما وتطور الى مدرسة طبية راقية . ودفن نور الدين في المدرسة المعروفة باسمه .

وكانت سياسة نور الدين الخارجية تهدف قبل كل شيء الى طرد الفرنجة . وكان القومص (الكونت) جوسلين [٩٤] الثاني قد أعاد فتح الرهاء ، بعد وفاة عماد الدين مباشرة ، بمساعدة السكان المسيحيين ، ومعظمهم من الارمن . فلم يكن من نور الدين إلا ان انتقم من الخونة في حملة تأديبية مخيفة صُرع فيها جميع النصارى تقريباً . ومهما يكن من شيء فقد بعث سقوط الرهاء فكرة الحرب الصليبية في اوروبة ، من جديد . ووجد البابا اوجانيوس الثالث [٩٥] مبشراً مُلهباً للمشاعر وداعية بليغاً الى النضال ضد المسلمين ، في شخص القديس برنار [٩٦] فاذا بملك فرنسا لويز السابع ، وكونراد الثالث

(*) وتسمى ايضاً « تكايا » . (المعربان)

(٩٤) Joscelin II

(٩٥) Eugene III

(٩٦) St. Bernard de Clairvaux

[ملك الالمان] يستجيبان لدعوته سنة ١١٤٦ . ولكنّ جيوشهما مُنيت ، حتى في تقدمها الى المجر ، بخسائر قاصمة ، بسبب من الجوع والمرض اللذين فتكا بها فتكاً ذريعاً ، فلم يصل منها الى الارض المقدسة إلا فلول هزيلة متعَبَة . ومع ذلك فقد وطن الصليبيون عزمهم ، هناك ، على ان يشنوا هجوماً جديداً على المسلمين ، متجهين بأنظارهم نحو دمشق اولاً . وكان يحكم دمشق آنذاك مملوك يدعى مُعين الدين أنَر من قِبل مُجير الدين آبَق البُوري ، الذي يرقى نسبه الى احد اتابكة السلاجقة . فلما ظهرت الجيوش الصليبية أمام أبواب المدينة التمس المملوك النجدة من نور الدين ، ولكن الفرنجة اضطروا الى رفع الحصار قبل أن تتقدّم جيوشه إلى دمشق . والواقع ان الشقاق الذي دبّ في صفوف الصليبيين لم يلبث ان افسح لنورالدين في مجـال الهجوم . ذلك بأن ريموند ، قومص طرابلس ، استشعر الخطر يتهدده من حصن عرَيمَة الذي في حوزة القومص برتراند دي تولوز (٩٧) فاستعدى عليه كلاً من نور الدين ومُعين الدين اللذين هرعاً لنجدته ، فدكت جيوشهما حصن عريمة دكاً ، وحملت ريموند أسيراً الى حلب . وانقضت عدة سنوات لم تحدث خلالها غير مناوشات ثانوية بين المسلمين والفرنجة . وانما ظهر لنور الدين ، في هذه الاثناء ، أن من العسير عليه أن يطمئن ، بعدُ ، لمجير الدين الذي كان يخشى تعاظم سلطان نور الدين بأكثر مما كان يخشى الفرنجة بعد أن تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، واصطرعت إماراتهم الصغيرة وتناحرت . فلم يكن من نور الدين إلا ان وضع حداً لحكم مجير الدين هذا ، في نيسان سنة ١١٥٤ ، وأقطعه باديء الأمر حمص ، ثم [عوّضه منها] ببلدة أصغر تُدعى بالِس ، فلما كانت سنة ١١٥٨ اوشكت هذه المناوشات الصغيرة ، الدائرة في الدرجة الاولى حول محور الاستيلاء على قلعة حارم بين أنطاكية وحلب ، أن تتحوّل لأول مرة تحوّلاً خطراً ، وذلك عندما سار امبراطور بيزنطة ، مانيُوِل الاول (كومنينُس) ،

(٩٧) Bertrand de Toulouse

الى سورية ليقتص من الامير رينولد صاحب انطاكية الذي اجترأ على غزو قبرس . ولقد كان بَغْدوين الثالث على أهبة التحالف مع الامبراطور ضدّ نور الدين ، ولكن نور الدين عرف كيف يُفسد على بغدوين خطته ، من طريق التفاهم مع البيزنطيين الذين كان من همهم ، في المحل الاول ، أن يصونوا حدود مملكتهم ، مؤثرين العافية على التورّط في مغامرات جديدة .

الدولة الأيوبية

وكانت تعمل في خدمة عماد الدين وابنه نور الدين عشيرة كردية قُدّر لها أن تبلغ من القوة شأواً مكّنها ، بعـــدُ ، من القضاء على السيادة التركية في الشرق الأدنى . وتفصيل ذلك أنه كان لشاذي الكرديّ ولدان استهلاّ حياتهما السياسية في العراق . وكان ايوب ، وهو اكبرهما سنّاً ، حاكماً على مدينة تكْريت من قِبل الخليفة العباسي . ولكن اشتراك أخيه شيرْكوه في حادث من حوادث الاغتيال اضطر الاسرة الى الهجرة . فأما شيركوه فالتحق بخدمة عماد الدين زنكي ، وأما أيوب فالتحق بخدمة [مجير الدين آبق بن محمد] البُوري أمير دمشق . وعندما هاجم نور الدين دمشق كان أيوب على رأس حاميتها ، في حين كان شيركوه يقود القوات المحاصِرة . ومهما يكن من امر ، فقد اجتمع الاخوان اجتماعاً ودياً . ثم ان نور الدين عيّن أيوب حاكماً على دمشق ، وأقطع شيركوه حمص ، حيث حكمت ذرّيته طوال قرن من الزمان . اما شيركوه نفسه فقد قدّر له أن يبرز في ميدان أوسع وأرحب .

وكانت مصر تتخبط في هذه الاثناء في دياجير الفوضى والاضطراب . فلم يكد العاضد [لدين الله] آخر الخلفاء الفاطميين ، يرتقي العرش سنة ١١٦٠ حتى اغتيل الوزير طلائع بن رُزّيك الذي استطاع ان يُقر السلام في البلاد ، فترة وجيزة ، بعد أن مزقت شملها الفتن العسكرية . وفيما حُرم الخليفة نفسه جميع اسباب القوة ، تقريباً ، نشب الصراع بين رزيك

ابن الوزير القتيل وخلفه في الوزارة ، وبين شاوَر ، الذي سبق لطلائع ان عينه حاكماً على مصر العليا ، فاتخذ من قُوص قاعدة لحكمه . ذلك بأن الوزير الجديد حاول أن يعزل الحاكم الطموح ، فاشتجر بينهما قتال كتب النصر فيه لشاور (كانون الثاني سنة ١١٦٣) . ولكن أبناء شاور هذا ما لبثوا أن أساءوا اصطناع السلطان الذي تم لأبيهم إساءة شائنة ، فلم يكن من أحد قواده ، واسمه ضِرغام ، إلا أن خلع طاعته ، بالتواطؤ مع الخليفة ، في شهر آب من السنة نفسها . والواقع ان شاور اضطر الى أن يخلي له الميدان ، من غير مقاومة ، ليلتمس العون من نور الدين ، بدمشق . فعهد نور الدين في هذه المهمة الى شيركوه حاكم حمص . وفي نوار سنة ١١٦٤ هزمت الجيوش الشامية المجربة المرتزقة الفاطميين ، واعادت شاور الى منصبه في القاهرة . ولكن الخلاف بين شاور وشيركوه ما عتّم ان أطلع رأسه ، فلم يتورع شاور عن استنفار الملك أمَلْرِك ، صاحب القدس ، على الرجل الذي هرع لنصره ، يوماً . وطوّق الفرنجة شيركوه في بُلْبَيس ولكنهم عادوا فمنحوه حرية الانسحاب الى سورية ، بعد أن وجدوا أنفسهم في الشمال ، مهددين بسقوط قلعة حارم في يد نور الدين . وبعد ثلاث سنوات يمّم شيركوه شطر مصر ، كرّةً اخرى ، ولكنه أكره هذه المرة ايضاً على الانسحاب بعد أن أحرز فوزاً مبدئياً موزّراً ، بسبب من تطويق شاور واحلافه الفرنجة لابن اخيه صلاح الدين ابن ايوب ، في الاسكندرية ، وعجز المدينة عن الصمود . والحق انه تعين على مصر أن تدفع ثمن هذه المساعدة الفرنجية غالياً . فقد طالب الفرنجة ، بأن تقيم حاميةٌ منهم في مصر ، وبأن يكون لهم في القاهرة مُقيم أو مفوّض سامٍ ، فضلاً عن جزية ضخمة تؤدى اليهم . فكانت هذه المطالب سبباً في ازمة لم تلبث ان وقعت بين المتحالفين ، فحاصر الفرنجة شاور في القاهرة . وهنا لم يجد الخليفة العاضد بداً من الاستنجاد بنور الدين الذي أرسل شيركوه الى مصر للمرة الثالثة ، على الرغم من ان شاور كان قد وُفق ، في تلك الاثناء ، إلى أن يحمل الفرنجة

على الانسحاب مُضرماً النار في الفسطاط ، بعد أن عجز عن الاحتفاظ بها . حتى اذا حاول أن ينقض التزاماته نحو السوريين للمرة الثانية دعاه صلاح الدين ونفرٌ من المقدَّمين في الجيش للمفاوضة عند ضريح الامام الشافعي ، وهنالك بطشوا به في ١٨ كانون الثاني سنة ١١٦٩ . ثم ان العاضد استوزر شيركوه ، فوزر له شهرين اخترمته المنون بعد انقضائهما ، فخلفه صلاح الدين في هذا المنصب وتلقب بالملك الناصر ، في حين ثبّته نور الدين قائداً للجيوش السورية .

صلاح الدين يقضي على الخلافة الفاطمية بمصر

ووفق صلاح الدين ، بعزيمته الراسخة وموهبته الديبلوماسية النادرة ، الى أن يثب من غمرة هذا الوضع الحرج الدقيق الى قمة من القوة والسلطان لم ينته الى مثلها احد من امراء الاسلام منذ عهد طويل . ولقد تعين عليه بادىء الرأي ان يتخلص من العناصر الزنجية العاملة في جيش الفاطميين لعدم اطمئنانه الى ولائها . وفي الحال أدرك الفرنجة أيّ خطر يتهددهم اذا ما وليَ الاحكام في مصر سلطان موهوب الجانب ، فالتمسوا الأمداد من أوروبة . والواقع ان اسطولاً بيزنطياً وجيشاً من جنوبي ايطالية ما لبثا ان ظهرا امام ساحل دمياط . عندئذ استنجد صلاح الدين بنور الدين فوجه اليه قوات جديدة على رأسها والده ، ايوب . حتى اذا تطاول حصار دمياط ، وعجز البيزنطيون عن الحصول على حاجاتهم الضرورية الا بشقّ النفس ، قنع أملرك من الغنيمة بالاياب على ان يُعطى مبلغاً معيناً من المال . والراجح ان صلاح الدين لم يكن في حاجة قط الى اشارة من نور الدين لكي يقدم على خلع آخر الخلفاء الفاطميين . ومهما يكن من شيء ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للخليفة الفاطمي ، سنة ١١٧٢ ، وشرع منذ ذلك الحين يخطب لخليفة بغداد العباسي . وما هي الا فترة ، حتى توفي العاضد . ومع ان صلاح الدين لم يصطنع القوة في كبت النفوذ الشيعي فقد خسر الشيعة سنادهم الطبيعي

بسقوط الدولة الفاطمية ، لتنتشر راية السنة فوق ربوع مصر كلها في وقت قريب .

وكان طبيعياً ان يتطرق الى نفس نور الدين الشك في صحة ولاء صلاح الدين له ، بعد الذي رآه من تعاظم قوته واتساع سلطانه . فلم يكد الفرنجة ينسحبون من مصر حتى تطلع صلاح الدين الى فتح فلسطين توطيداً لمركزه في مصر ، شأن القوى التي حكمت بلاد النيل ، خلال التاريخ ، ورأت من واجبها ان تسيطر على هذه الرقعة من الشرق . وفي سنة ١١٧٢ احتل ميناء أيْلة على البحر الأحمر كقاعدة لأعمال الفتح هذه . حتى اذا رغب نور الدين في ان يثبت قدميه جنوبيّ فلسطين ، وطلب اليه ان يمده بالجند لفتح قلعتي الكرَك والشَوْبَك الصليبيتين الواقعتين شرقي نهر الاردن ، تعلل بأن اضطراب الحال في مصر لا يساعده على أداء هذا الواجب . وكان نور الدين قد بدأ يحشد الجيوش ابتغاء تأديب تابعه المتخلف عن نجدته ، ولكنه عاد ورضي عنه مرة اخرى بعد ان كاتبه صلاح الدين وتلطف له وتذلل امامه . وعندما شُغل صلاح الدين باخماد ثورة جديدة شبت نارها بمصر سنة ١١٧٢ عزم نور الدين على مهاجمته ، ولكن الموت لم يمهله فقضى في دمشق ، في ١٥ نوار من السنة نفسها .

ومع أن ابنه اسماعيل كان لا يزال في الحادية عشرة من عمره فقد بويع بادىء الأمر بالملك ، من غير معارضة ، متخذاً لنفسه لقب الملك الصالح . والوقع أن صلاح الدين نفسه كان في جملة من بايع اسماعيل هذا ، واعترف به . ولكن ابن عمه سيف الدين غازي ، صاحب الموصل ، الذي كان قد دخل بجيوشه المناطق التابعة لنور الدين رغبةً في إعانته على معركة مصر ، واصل احتلاله لمدن الجزيرة التي كان قد دخلها . واذ رأى الأوصياء على اسماعيل انفسهم مهددين في الوقت نفسه من الفرنجة ، قبلوا بالتخلي عن الأراضي التي انتزعها سيف الدين وانسحبوا مع الملك الصغير الى حلب ، حيث أملوا أن يكونوا في مركز افضل للدفاع عنه .

ومهما يكن ، فقد كان مركز صلاح الدين في أرض الكنانة مهدداً بالاخطار ما بقيت سورية منفصلة عن مصر ، وذلك لقرب الدويلات الصليبية منها ، بصورة خاصة . فلما توفي أملرك ملك القدس استراح صلاح الدين من خصم خطر ، وكان قد تمّ له قبيل ذلك النصرُ على نورمانديي صقلية الذين هاجموا الاسكندرية باسطولهم . وتظاهر صلاح الدين بالاخلاص للملك الصالح اسماعيل ولمصالحه ، فوجه اللوم الى اوصيائه لنزولهم عند رغبة صاحب الموصل [بالتخلي له عن الأراضي التي احتلها] ، وتقدم بجنوده الى ابواب دمشق ، متذرعاً بالدفاع عن حقوق اسماعيل الشرعية فيها . حتى اذا احتل المدينة(٩٨) ، فاوض الأوصياء على اسماعيل في الصلح . وإذ كان اولئك الأوصياء غير مطمئنين الى نيات صلاح الدين —وكانوا في ذلك على طرف الصواب— فقد آثروا التماس المعونة من الفرنجة . فلم يكن من صلاح الدين إلا ان آذنهم بهجوم حاسم ، فاحتل حماه وحمص ، وفي اعقاب سنة ١١٧٢ حاصر حلب . بيد أنه اصطدم هناك بمقاومة باسلة . من اجل ذلك اقترح على خصومه ان ينسحب هو من حماة وحمص على ان يقروه حاكماً على دمشق من قِبل اسماعيل . حتى اذا رفض اقتراحه هذا ، هاجم جيوش اسماعيل وسيف الدين مجتمعة ، في حماة ، فهزمها هزيمة منكرة ، ومن ثم حاصر اسماعيل في حلب ، كرة ثانية ، واكرهه على عقد صلح يجعل سلطانه قاصراً على تلك المدينة وحدها . واتخذ صلاح الدين ، في الوقت نفسه ، لقب السلطان ، وأقره الخليفة على ذلك وبعث اليه بخلعة مع احد الخواص .

وكان قائد حلب قد اغرى احد الحشاشين بقتل صلاح الدين ، اثناء حصاره الأول لهذه المدينة ، ولكن القائد الكبير نجا مما بُيّت له باعجوبة . ذلك ان زعيماً جديداً من زعماء الباطنية وفق بعد سنة ١١٦٩ الى ان يعيد

(٩٨) أما القلعة فاستسلمت بعد ذلك ببضعة أشهر .

تنظيم هذه الجماعة المخيفة في سورية جاعلاً من قلعة مَصْياد ، على السفوح الشرقية من جبال النصيرية ، مقراً له أمنع من عقاب الجو . وكان هذا الزعيم يدعى رشيد الدين سِنان ويعرف بشيخ الجبل . فلما عُقد صلح حلب ، بدا لصلاح الدين ان يتخلص من هذه الجماعة ، ولكنه لم يلبث ان رفع الحصار عن قلعتهم ، وعقد مع رشيد الدين صلحاً احترمت نصوصه ، في شهامة وشرف ، حتّى وفاة الشيخ .

وكانت سلطة صلاح الدين لا تزال بعيدة عن الثبات في سورية عندما حاول ، في سياسة من النظر البعيد ، ان يمكّن لحكمه في مصر بالسيطرة على مفتاح البحر الاحمر الجنوبي ايضاً . فوجه اخاه تُوران شاه الى هناك ، سنة ١١٧٣ ، وكانت السلالتان المسيطرتان على تلك الديار — وهما الحمدانية في صنعاء والنّجاحية في زَبِيْد — قد أُزيلتا على يد احد الخارجين المتعصبين . وتفصيل ذلك انه ظهر في تِهامة ، حوالي سنة ١١٥٩ ، رجل زعم انـه المهدي — كما زعم آخرون في التاريخ الاسلامي — وهم كثير — فتبعه بعض الاعراب واستولى على زبيد . واحتفظ حفيده عبد النبي ، الذي خلفه سنة ١١٦٢ ، بمركزه احد عشر عاماً . وليس من شك في ان سادة صلاح الدين قد اعتبروا القضاء على هذا المغتصب الملحد عملاً يرضي الله . واياً ما كان ، فلم تكد الحملة المصرية تنجز مهمتها ، في غير مشقة او عسر ، حتّى خلع توران شاه سائر الامراء في صنعاء ، ومن ثم حكم هو واعقابه البلاد ، حتّى سنة ١٢٢٨ ، كتابعين لذوي قرباهم الايوبيين في مصر .

حطين وفتح القدس

وكان الصليبيون يعتدون ابداً على تخوم المناطق الخاضعة لصلاح الدين في سورية . ولقد حاول ان يقف تقدمهم في جنوبي فلسطين ، ولكنه مني بهزيمة شنعاء عند الرملة . ولم يستطع صلاح الدين ان يثأر لنفسه من الصليبيين إلا بعد سنتين ، إذ كتب له النصر في مرج عيون . حتّى اذا عقد الصلح

أفاد منه صلاح الدين أحسن الافادة عاملاً على توطيد سلطانه وتوسيعه في شمالي سورية. وفي سنة ١١٨١ توفي اسماعيل، امير حلب، مستخلفاً من بعده ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل. ولكن عز الدين هذا آثر ان يترك حلب لأخيه زنكي لقاء تنازل هذا الاخير له عن جبال سنجار المتاخمة للممتلكات التي ورثها عن اسلافه. وقبل ان يثبت الحاكم الجديد قدميه في حلب، احتل صلاح الدين اراضيه. وفي السنة التالية هاجم بلاد الجزيرة وأكره عز الدين على الدخول في طاعته.

والواقع ان الصلح الذي عقد مع صلاح الدين، والذي كان غي دي لوسينيان خليفة بغدوين الخامس على عرش القدس، حريصاً على إدامته، كثيراً ما نُقضت احكامه بسبب من تمرد الامراء التابعين له وعدم تقيدهم بأوامره. فكان راجينالد دي شاتيون * أمير الكرك لا يني يوقع بقوافل الحجاج وقوافل التجارة من حصنه القائم على البلقاء (موآب القديمة) شرقي البحر الميت، فوق الجرف المسيطر على طريق القوافل من دمشق الى الحجاز، ومن دمشق الى مصر ايضاً. ولم يعد في استطاعة صلاح الدين ان يغض الطرف عن هذا كله، فعزم في اوائل سنة ١١٨٧ على ان يبطش بالمعتدين بطشة كبرى. ثم انه امر قواته السورية بالاحتشاد في حارم، ليسير هو نفسه الى منطقة الكرك فيلتقي هذه القوات عند بحيرة طبريا. عندئذ حشد ملك القدس جيشاً عظيماً من الفرسان في صفّورية. وبدلاً من ان ينتظر هجوم صلاح الدين في هذا الموقع الستراتيجي الصالح، نازعته نفسه الى ان يهاجم المسلمين في اتجاه طبرية، وكانوا قد احتلوها، فالتقى الفريقان في سهل مرتفع الى الغرب من البحيرة، صعب كثيرة الحجارة عديم المياه هو سهل حطّين. وهناك انزل صلاح الدين بالجيوش الصليبية هزيمة قاضية، وأسر ملك القدس نفسه. ومن ثم تساقطت حصون الصليبيين بعد ان اخلتها

(*) البرنس ارناط في المصادر العربية. (المعربان)

حامياتها ، في طول البلاد وعرضها ، في ايدي المسلمين ، خلال فترة قصيرة من الزمان . حتى اذا كان ايلول سنة ١١٨٧ انتهى صلاح الدين وجنوده الى ابواب القدس ، التي اضطرت الى الاستسلام في ذلك الشهر نفسه (٩٩). وعلى مشهد من جميع أفراد أسرة صلاح الدين تقريباً دخلت المدينة المقدسة ، مرة ثانية ، في حوزة المسلمين ، وهدم صلاح الدين جميع اماكن العبادة النصرانية في هذه البقعة المقدسة . وفي غير ما إبطاء ، سعى الى ان يقضي على آخر آثار الحكم الصليبي في المشرق . ولكن صور ، وكان يدافع عنها / كونراد ده مونتفرا ، صمدت في وجهه . أما طرابلس فلم ينقذها من السقوط في ايدي المسلمين غير اسطول نصراني معقود اللواء لوليم النورماندي ملك صقلية . والواقع ان سقوط القدس أحيا في أوروبة فكرة الحرب الصليبية من جديد . فحمل الصليب كلٌ من فردريك الاول [بربروسا] امبراطور ألمانية ، وفيليب [أوغسطس] ملك فرنسة ، وريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترة ، بعد ان اصلح البابا ما بينهم . وفي آب سنة ١١٨٩ طوّق الصليبيون عكا ، التي احسن صلاح الدين تحصينها ، عقب سقوطها في يده ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وخف صلاح الدين لانقاذ عكا من محاصريها المسيطرين على المرفأ ، وبذلك كانوا في وضع افضل من وضع المسلمين . ولكن فيليب وريكادوس قلب الاسد ما لبثا ان أمدّا الصليبيين ١١٩١ بقوات جديدة يعمر نفوس افرادها النشاط . وفي ١٢ تموز سنة ١١٩٢ استسلمت حامية عكا المطوقة . حتى اذا رفض صلاح الدين ان يدفع الى الصليبيين الفدية الباهظة التي فرضوها لاطلاق سراح السكان المسلمين فتك النصارى بأسراهم ، فأجابهم المسلمون بالمثل فكانت مجزرة مروّعة من الجانبين . وإذ لم يكن من المستطاع الوصول الى ايما نتائج حاسمة في الميدان فقد شرع الملك العادل ، أخو صلاح الدين ، يفاوض ريكاردوس

---

(٩٩) انظر بولدوين **M. W. Baldwin. Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem,** 1140 — 1187, London, 1938.

في الصلح . وكان هذا الاخير قد ملّ الحرب ، ورغب في القفول الى انكلترة خوفاً على ملكه من الضياع ، وهكذا عقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ . واحتفظ صلاح الدين بفتوحه حتى اللد والرملة وعسقلان ، وسمح للنصارى بزيارة القدس حجاجاً عُزلاً من السلاح .

ولم ينعم صلاح الدين بهذا الصلح الذي عقد أخيراً غير بضعة اشهر . ففي نهاية تشرين الثاني سار من القدس الى دمشق حيث حُم ّ ومات ، في شباط سنة ١١٩٣ ، وليس له من العمر غير خمسٍ وخمسين سنة . والحق ان حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من اشهر ملوك الشرق في اوروبة ؛ اما في الذاكرة الشرقية فلا يزال اسمه خالداً الى جانب اسمي هرون الرشيد وبيبرس ، كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ واهنأها . وليس من شك في ان قلة ضئيلة من امراء الاسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن ايما نزعة الى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ، ليس غير . ولم يستطع أعداؤه انفسهم إلا الاقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب . ليس هذا فحسب ، فقد كان صلاح الدين بالاضافة الى ذلك كله نصيراً للعلم . ولقد وُفّق الى نفر من العلماء حفظوا جميله له . فوضع كاتبه محمد الكاتب الاصفهاني [ابن العماد الاصفهاني] ، الذي خدمَ من قبل نُورَ الدين في دمشق ، والذي رافق صلاح الدين في حملاته جميعاً ، مؤلفاً أرّخ به لفتح القدس . ومن أسفٍ انه اثقل كتابه هذا بالمحسّنات اللفظية التي توقع في نفس القارىء ان الجانب اللغوي كان أهم ، عند المؤلف ، من الموضوع نفسه . اما السيرة التي كتبها قاضي جيشه في القدس ، بهاء الدين بن شداد ، فأسلس قياداً وأرقّ حاشية . كذلك عُنيَ القاضي الفاضل ، العسقلاني المولد — وقد بدأ حياته العامة في عهد آخر الفاطميين ، ثم نهض بعبء الادارة كلها ، منذ تم الأمر لصلاح الدين — بتدوين يوميّات رسمية ، طوال عهده بالادارة العامة ، ولكن يد الزمان لم تحفظ لنا منها ، مع الأسف ، غير نتف صغيرة . أما رسائله

الديوانية فلم يصل إلينا منها غير نصوص لم تُختر ، لسوء الحظ ، من أجل أهميتها التاريخية ، بل لجمالها الأسلوبي . وإنما نقع على صورة حية عن الثقافة ، في عصر صلاح الدين ، في مذكرات الفارس أُسامة بن مُنقذ ، [كتاب الاعتبار] ، وكانت أُسرته تحكم شَيْزَر شمالي حماه . وفي عهد البوريين بدمشق نشأت بين أُسامة هذا وبين فرسان الفرنجة صلات ود وصداقة . ثم إنه شارك في حملات نور الدين عليهم ، وانضوى تحت لواء صلاح الدين بدمشق ، على الرغم من بلوغه سناً عالية . ومع أنه كان متمكناً من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره ، على ما تشهد سائر كتبه ، فقد ازدراها بالكلية في مذكراته هذه . إنه ههنا يقصّ علينا ، في لهجة قصصية بسيطة ، مختلف مغامراته في الحرب والسلم ، وفي الطرد بصورة خاصة . وإنه ليبلغ غايةً عجيبة من النزاهة والتجرد في أحكامه على المسلمين والنصارى جميعاً.(١٠٠)

ولكن صلاح الدين كان ، الى ذلك ، نصيراً لفقهاء السنة الذين استطاع بواسطتهم ان يقضي قضاء حاسماً على نزعات الفاطميين الشيعية في مصر . والواقع أنه لم يستشعر الحاجة الى إقامة ديوان لامتحان الزنادقة إلا مرة واحدة . وتفصيل الأمر ان مهاجراً فارسياً من آسية الصغرى يدعى السُهرَوَردي انصرف في حلب ، وكان يلي أمورها الملك الظاهر بالنيابة عن أخيه صلاح الدين ، إلى آراء غنوستية قائمة على أساس الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية الجديدة ، بعد ان وقفَ على فلسفة أرسطو وافلاطون . وإنما تقوم تعاليمه على هذه القاعدة التي سبق للمتصوفة النصارى والمسلمين وللفلاسفة أن أشاروا اليها إشارات رفيقة ، والتي تقول بأن ثمة نوراً روحياً يتخلل الكون كاشراقٍ لدني هو جوهر الأشياء جميعاً . ولا تزال فلسفته الاشراقية هذه ظاهرة في نظام الدراويش الذي سبق أن انشأه في آسية الصغرى . والواقع ان تعاليمه

---

(١٠٠) وقد ترجم (الدكتور) فيليب حتي كتاب أسامة هذا (الى الإنكليزية) بعنوان **An Arab - Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades, New York, 1929.**

ما لبثت ان أثارت شكوك علماء السنة فزعموا انه يمثل عقيدة القرامطة المعادين للدولة . وهكذا لم يكن في وُسع صلاح الدين ، رغم اعتداله ، إلا ان يصدق حكم الموت الذي أصدره القضاء على الملحد ، (سنة ١١٩١) .

آثار صلاح الدين العمرانية

وخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات جلى في القدس والقاهرة . فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى (الذي اتخذه الصليبيون قصراً لهم) وتزيينه بالفسيفساء والرخام . ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبراً نفيساً أُتيَ به من حلب ، ولا يزال باقياً الى اليوم . وأما في القاهرة ، فقد شيد أول مدرسة ذات أربعة أروقة عند ضريح الأمام الشافعي . ولقد خدم اهدافه العسكرية بأنشاء قلعة القاهرة ، التي لم يُمهله الأجل حتى يُتمها . وكان منذ سنة ١١٧٩ قد رسم خطة لدمج القاهرة والفسطاط في وحدةٍ متماسكةٍ حصينةٍ . فشرع في بناء القلعة الى الشرق ، بين المحلتين ، على طراز القلاع الصليبية ، وكان يرجو ، في الوقت نفسه ، ان يتخذ هذه القلعة مقراً له . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان من همه ان يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرّض له من جهة الشام ، بسورٍ يمتد حتى جبل المقطم في الشرق . ولكنه لم يستطع ان يُنجز إلا جزءاً من مشروعه . إذ انشأ السور الشمالي ليس غير . اما سائر التحصينات فلم يباشر في انجازها بجدٍّ ، البتة .

الأيوبيون في سورية ومصر

وقسّم صلاح الدين الامبراطورية قبل وفاته ما بين وارثيه . فأما اكبر اولاده ، الملك الأفضل ، فقد عهد اليه بالسلطنة ، بوصفه رأسَ الأسرة ، بالاضافة الى دمشق ، وجنوبي سورية . وعهد الى ابنه الملك العزيز [عثمان] بالديار المصرية ، ولولده الملك الظاهر [غياث الدين] بحلب وشمالي

سورية . أما الملك العادل [سيف الدين] ، أخو صلاح الدين ، فورث ممتلكات الامبراطورية في الجزيرة الفراتية . ولم تكد تنقضي سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الخلاف بين اولاده . والواقع ان عمهم الملك العادل عرف كيف يحرّض بعضهم على بعض ، وبذلك استطاع القضاء عليهم واحداً بعد آخر . وفي حلب وحدها قدّر لذرية صلاح الدين البقاء حتى الغزو المغولي (سنة ١٢٦٠) . حتى اذا انقضى القرن الثاني عشر كان الملك العادل قد وُفق الى ان يوحّد معظم اجزاء الامبراطورية ، واعترف به افراد الاسرة المالكون في حلب واليمن سيداً . ومع ذلك فقد وزع ممتلكاته على بنيه ، وهو على قيد الحياة . فعهدَ بمصر الى الكامل ، وعهد بدمشق الى المعظم ، وعهد بالجزيرة الفراتية الى الاوْحد والفائز والاشرف على التعاقب ، فكانوا ينوبون عنه في حكمتها .

فردريك الثاني في فلسطين

واستطاع الايوبيون على الرغم من هذه القلاقل ان يصونوا البلاد الواقعة في حوزتهم من عدوان الصليبيين ، ومن عدوان جيرانهم في آسية الصغرى ايضاً . وكانت فكرة الحرب في سبيل الارض المقدسة قد انكمشت ، في تلك الفترة ، وعفّى عليها النسيان او كاد . ولكن اندراوس ملك المجر لم يلبث ان بعثها من مرقدها سنة ١٢١٧ ، فجهز حملة وجهها الى مصر . وكان الملك العادل قد توفي (سنة ١٢١٨) قبيل وصول الحملة الى دمياط فتعين على ابنه الملك الكامل ان يمكّن لسلطانه ، أول الامر ، في بلاده نفسها ، ومن هنا عجز عن الاحتفاظ بذلك الحصن الذي يسيطر على الجناح الايمن من دلتا النيل . بيد ان الصليبيين ما كان في طوقهم ان يثبتوا لهجمات الايوبيين المنظمة ، فاضطروا في السنة التالية الى الانسحاب من دمياط . وما هي إلا فترة وجيزة حتى أدّت دسائس السياسة الاوروبية المعقدة الى استئناف النزاع لامتلاك القدس . وتفصيل ذلك ان فردريك الثاني الذي رفعه البابا

انوسنت الثالث الى العرش [وكان البابا وصياً عليه] لم يكن مُلزَماً بأن يوافق على توسيع الدولة الكنسية على حساب الامبراطورية ، وبأن يمتنع عن التدخل في الانتخابات الاسقفية في المانية فحسب ـ وذلك لقاء ما حظي به من تأييد الكرسي البابوي ـ بل كان عليه ، الى ذلك ، ان ينذر لله على نفسه حملةً صليبية ، (سنة ١٢١٥) . وعلى اية حال فقد كان فردريك أبعد ما يكون عن التفكير في إيفاء هذا النذر ، لانهماكه الشديد في إقامة ادارة جديدة في صقلية ـ وقد آل اليه حكمها بعد النورمانديين ـ يستطيع بواسطتها أن يسترد ايطالية . والواقع انه عطف كالنورمانديين من قبل ، على الثقافة العربية ، واحتفظ بالمرتزقة العرب . وفي سنة ١٢٢٧ حرم البابا غريغوريوس التاسع الامبراطور فردريك ، بعد ان أسرف في المماطلة والتسويف . عندئذ سارع فردريك الى الأيفاء بنذره ، ميمماً وجهه ، من برنديسي ، شطر الارض المقدسة ، عام ١٢٢٨ . والواقع ان الملك الكامل كان قد اتصل به ، قبل ذلك ، ليضمن مساعدته له في صراعه ضد اخيه ، الملك المعظم ، في دمشق . حتى اذا هبط فردريك الثاني ارض فلسطين ، كان المعظم قد توفي ، وكان الكامل قد اسلم دمشق الى اخيه [الاشرف] يحكمها بالاضافة الى ممتلكاته في الجزيرة الفراتية . ومع ذلك فقد استؤنفت المفاوضات وتعهد الصليبيون بأن يحترموا ممتلكات الملك الكامل السورية مقابل تنازله لهم عن القدس وبيت لحم والناصرة ومجازين يوصلان الى كل من يافا وصيدا ، قبل ان يقتتل الفريقان في الميدان . وفي ١٨ آذار سنة ١٢٢٩ تُوج فردريك بوصفه زوجاً لأيزابل ملكة الارض المقدسة ، في كنيسة القيامة بالقدس . ولكن هذه الصفقة الديبلوماسية لم تصادف قبولاً عند النصارى والمسلمين على السواء . وفي الحق ، فقد أمرَ البابا بحرم شامل يفرض على المدينة المقدسة ، ما أقام فردريك هناك .

لويز التاسع في دمياط ـ شجرة الدر

وأفاد الملك الكامل من الصلح الذي دفع ثمنه في فلسطين ، فانصرف

الى نشر سلطانه في الشمال على حساب سلاجقة الروم. فأثار ذلك حسد اخيه الملك الاشرف في دمشق. ونجّت المنية الملك الكامل من منافسه هذا الذي توفي لدن وصول اخيه الى ابواب دمشق. ولكن الملك الكامل نفسه لم يلبث ان توفي على اثره (سنة ١٢٣٨)، فخلفه ابنه الملك العادل. ولم تنقض سنتان حتى ثار اخوه، الملك الصالح [ايوب] عليه واخرجه من مصر. ثم ان الملك الصالح استطاع، بقوة من الاتراك الخوارزْمية الفارّين من وجه جنكيزخان، ان يفتح القدس سنة ١٢٤٤، وكان قد احتلها موقتاً، سنة ١٢٣٩ [ابن عمه] امير الكرك [الناصر] داود [بن المعظم]، بعد انقضاء أجل المعاهدة المعقودة مع فردريك الثاني. ولكن الصالح خسر، من ناحية ثانية، مدينة دمشق، ليستولي عليها عمه الصالح اسماعيل، الذي كان قد اضطر بعد وفاة اخيه الملك الاشرف الى ان يُخلي المدينة للملك الكامل. ولكن الملك الصالح لم يلبث، بعد فتحه القدس، أن استرد دمشق، وبذلك تم توحيد امبراطورية صلاح الدين، بكاملها تقريباً، حتى حلب والجزيرة العليا من جديد. ومع ذلك فقد كان عهده حافلاً بالصراع ضد منافسيه من الأيوبيين انفسهم، وضد الفرنجة، وضد الاتراك الخوارزمية الذين كانوا دوماً على استعداد ليحاربوا في صفوف من يدفع لهم اعظم العطايا. وفي سنة ١٢٤٨، فيما كان [الصالح ايوب] يعمل في دمشق على تجهيز حملة لقتال يوسف الثاني، صاحب حلب، جاءته الانباء بغزو الفرنجة لمصر، كرّة اخرى، بقيادة لويز التاسع، ملك فرنسة، المعروف بالقديس. واحتل لويز وجنوده دمياط. بعد ان شاعت الفوضى في صفوف المدافعين عنها لـما علموا من مرض الصالح. حتى اذا توفي في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ كتمت امرأته شجرة الدر – وكانت من قبل جارية من جواريه – خبر وفاته، الى ان حضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة الفراتية. وكان توران شاه قد نُشّيء بعيداً عن مصر فشب جاهلاً لأحوالها بالكلية. ومن هنا آثر مماليكه الذين اصطحبهم من الجزيرة على المصريين

وجعلهم المقدّمين عنده ، فائتمر خصومه به وقتلوه في مستهل [نوار] عام ١٢٥٠ ؛ وكان قد وفق ، قبل ذلك ، الى استرجاع دمياط ، وأسرِ لويز التاسع نفسه . وعندئذ صدر الأمر الى الجيش باخلاء هذه المدينة من سكانها ودكها ، دفعاً لكل اعتداء يأتيها من جانب البحر منذ اليوم . وبعد مقتل توران شاه نصّب المماليك شجرة الدر ملكةً ، على ان يكون [عز الدين] أيبك [الجاشنكيري الصالحي *] اتابك العسكر . وما لبث ان اصبح لها بعلاً . وبسطت شجرة الدر سلطانها المطلق على مصر . ومن ثم فقد تعين على أيبك ان يمكّن لدولتها في سورية التي أبت الاعتراف بها . وفي سنة ١٢٥٧ سعى أيبك الى التخلص من شجرة الدر ، ولكنها عاجلته وقتلته في الحمام . ومهما يكن من شيء ، فقد أحجم المماليك ، بعد ذلك ، عن نصرة شجرة الدرّ ، وسرعان ما أوردوها مورد الردى . وإنما نهض بعبء الحكم من بعدها أحد المماليك المنصور نور الدين علي [ابن المعزّ عز الدين ايبك] .

وبالرغم من كل هذا الشغب والاضطراب فقد كان العهد الأيوبي عهد بركة وازدهار في مصر وسورية ، حتى بعد وفاة صلاح الدين . فقد عُني الايوبيون بالزراعة ، التي ما كان يمكن ان تزهو بغير الاهتمام بالموصول بنظام الري ، عناية فائقة لا تقلّ عن عنايتهم بالتجارة ، وكانت ابداً عرضة لضروب المخاطر بسبب من فقدان الأمن في طرق المواصلات التجارية . والواقع ان عداءهم للنصارى لم يعقهم عن عقد سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الاوروبية . ليس هذا فحسب ، بل إن اتصال المسلمين بفرسان الصليب ذلك الاتصال المراوح بين القتال والموادعة ، ساعد بدوره على نشوء حركة من التبادل الثقافي ، متعددة الوجوه . والذي يبدو أن الغرب إنما نقل عن الايوبيين طريقتهم في اصطناع علامات النسب على الاسلحة ،

(*) المعروف أيضاً بالتركماني . وقد لقب « بالمعز » عندما ولي السلطان . (المعربان)

وشارات الفرسان على الدروع بالاضافة الى بعض العادات الفروسية (١٠١) .

المماليك البحرية . معركة عين جالوت

واضطر الايوبيون ، كما اضطر العباسيون من قبلهم ، الى الاستعانة بالمماليك ، أي العبيد الارقاء ، يشترونهم بالأموال ، لأن اهل البلاد الواقعة في حوزتهم وقد بَعُدَ عهدهم بالجندية انتهوا ، منذ زمن طويل ، الى ان لا يصلحوا للخدمة العسكرية . وكثيراً ما كانوا يُدخلون في خدمتهم جماعات برمتها من الاتراك الهاربين من وجه المغول ، الى الشرق الأدنى . وما هي الا فترة وجيزة حتى نشأ من بين زعماء هؤلاء الصنائع ، كما حصل غير مرة في تاريخ الاسلام ، جيلٌ من الحكام جديد بسط سلطانه على مصر وسورية حتى الفتح العثماني . وكان أيبك ، وهو أولهم ، من حَرَس الملك الصالح [ايوب] المرابطين في جزيرة الروضة بالنيل ؛ ومن هنا عُرِف هو وخلفاؤه بالمماليك البحرية (نسبة الى «بحر» النيل) . وخلف أيبك ابنه عليٌ ، ثم قُطُز الوصي عليه . وبعد فترة وجيزة رقي العرش الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس . وكان بيبرس قد شارك في مقتل توران شاه ولاذ بالفرار الى سورية ، ولكنه آب الى مصر بعد أن تقلد قطز زمام الحكم .

وكان الأعصار المغولي يجتاح ، في ذلك الوقت ، بلدان الشرق الأدنى جميعاً ويهدد مصر بالخراب الذي ما بعده . فعهد اليه قطز في قيادة طليعة الجيوش التي وجهها الى فلسطين لقتال المغول ؛ فهزم المغولَ عند عين جالوت ، سنة ١٢٥٩ ، هزيمة صدت سيلهم الطامي لأول مرة ، وحوّلت مدهم الى جزر ، مظهراً في هذه الموقعة بسالة نادرة . والواقع انه كان يرجو ان يُقطعه السلطان حلب جزاء ما وُفق اليه من نصر مؤزر ؛ حتى إذا خاب

---

(١٠١) انظر : يعقوب ارتين باشا Yacoub Artin Pasha, **Contribution à l'étude du blason en Orient**, London, 1902.

وراجع ايضاً : ماير L. A. Mayer, **Saracenic Heraldry**, Oxford, 1933.

رجاؤه ، انقلب الى مصر فقتل قطز وبايعه الامراء سلطاناً عليهم . وهكذا يتعين علينا أن نذكر فضله العظيم على مصر لِما جنّبها من ويلات الغزو المغولي الذي عطل سير التطور الثقافيّ الهادىء في دنيا الاسلام كلها ، ما خلا الديار المصرية ، والذي سنتحدث عن آثاره الوخيمة في الفصل التالي . ولكن بيبرس كان ، الى ذلك ، كما بدا في ما بعد ، سياسياً بارعاً ايضاً . فلم يكد المغول يقوضون دعائم العرش العباسي في بغداد ويقضون على السلالة كلها تقريباً ، حتى اقام [بيبرس] في القاهرة خليفة من نسل بني العباس فقلده هذا [الخليفة] السلطنة وشاركه في الملك ، بعد أن أقسم [بيبرس] يمين الولاء للخليفة . وانما هدف الظاهر بيبرس من وراء ذلك الى توطيد عرشه واحباط ايما محاولة قد يقوم بها مدّعٍ من الايوبيين لاسترجاع الملك . والظاهر ان هذا الخليفة العباسي الاول كان يتمتع بقدر من العزيمة وارادة العمل فوق الذي اراده له بيبرس . وفي الحق انه خرج على رأس جيوش بيبرس ابتغاء استخلاص بغداد ، ولكن السلطان جهزه بجيش قليل العدد والعدة ، فاستطاع المغول القضاء عليه في سهولة ويسر . ومنذ ذلك الحين ، لم يزد خلفاؤه على ان يكونوا آلات طيّعة في أيدي المماليك .

عهد الظاهر بيبرس

ولئن حارب الظاهر بيبرس اعداءه ببسالة غير عادية ، فكثيراً ما كان يصطنع في حربهم الاساليب الديبلوماسية الماكرة ، البعيدة النظر . أما في فلسطين فكان عليه بعدُ ان يصفي حسابه مع الصليبيين عن طريق القتال . ولكنه وفق الى ان ينتزع حصن الاكراد ، وهو من أعظم حصون الصليبيين مناعة ، من ايدي فرسان الاسبتارية * ومدينة صفد من ايدي فرسان الداويّة ** ثم إن بيبرس انصرف الى حرب الحشاشين فاستولى على مصياد وعدد من

(*) St. John's Knights

(**) Templars أو الهيكليين .

من الحصون الثانوية ، ولكنه لم يعمد الى حل هذه الجماعة والقضاء عليها بالكلية ، إذ كان ينتوي ان يفيد من سفاكيها في تحقيق اغراضه الخاصة . كذلك استطاع بيبرس ان يغري آخر امير ايوبي مستقل ، وكانت اليه قلعة الكرك ، بالشخوص الى القاهرة حيث نقض بيبرس عهده ، وفتك بالامير وبابنه . وفي الشمال وضع بيبرس حدّاً لنشاط ملوك آسية الصغرى الأرمن بما شنه من غزوات متلاحقة على اراضيهم . وفي الجنود ألحق بلاد النوبة بمصر جاعلاً صلتها بها صلة التابع بالمتبوع . وحالت الظروف التي كان على مغول العراق ان يواجهوها في داخل امبراطوريتهم الآسيوية دون اثّارهم لهزيمتهم الاولى ، وان يكن بيبرس قد اضطرّ غير مرّة الى ان يدفع بعض غزواتهم الثانوية عن بلاده . وعقد بيبرس معـاهدة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل بليولوجس * اتقاءً لصليبية اوروبية جديدة . وكان ميخائيل هذا قد حرر امبراطوريته من حكم فرسان الفرنجة . اما في الداخل فقد وطد بيبرس دعائم امبراطوريته بنظام البريد الذي انشأه على الغرار الايراني العباسي . ولقد شيد لنفسه في القاهرة ضريحاً فخماً ، اقامه في المسجد الذي جلب مواد بنائه ، سنة ١٢٦٧ — ١٢٦٨ ، من مدينة يافا ، بعد فتحها ، والذي انتهى اليوم الى خراب . وإنما شُيد السور الخارجي الذي لا يزال قائماً الى اليوم من الحجر . اما البناء نفسه فمشيد من اللّبِن . وانما تقود الى داخل البناء ستة صفوف من الاعمدة تصل ما بينها عقود محدّدة ، وتوصل الى بلاطة معترضة تظللها — امام المحراب — قبة تشمل ثلاثة اروقة . وتنتظم الجوانبُ الاخرى من الفناء اروقة مزدوجة معمّدة . وللسور الخارجي ثلاثة مداخل بارزة بمحاريب وطغراءات واشكال هندسية ، بينا تقوم على الزوايا ابراج مستطيلة (١٠٢) .

(*) Michael Paleologus .

(١٠٢) انظر ديز E. Diez, Die Kunst der islamichen Vôlker, p. 58.

وعدّت الاجيال التالية عهدَ بيبرس ، كما عدّت عهدي الرشيد وصلاح الدين، من قبلُ ، أحد العصور الذهبية في الاسلام . والواقع ان مجموعة من الحكايات الخيالية لم تلبث أن نُسجت حول شخصيته في وقتٍ مبكر ؛ وهي حكايات تمتزج فيها أعماله البطولية بأساطير وخرافات ذات موضوعات منتزعة من القصص العامي الذي ألفته مصر منذ القدم . ولا تزال سيرة الظاهر بيبرس ، وقد تناولتها بالزيادة والاسهاب اجيالٌ من القُصاص ، تؤلف حتى اليوم منهلاً عذباً من مناهل التسلية يتهافت على وروده عامة المصريين بالاضافة الى سيرة «عنترة» البطولية ، وسيرة بني هلال البدوية ، وحكايات ألف ليلة وليلة الاسطورية .

المماليك البرجية

وأخذ بيبرس البيعة ، قبل وفاته بثماني سنوات ، لاكبر ابنائه [محمد] المدعوّ بَركة خان. حتى اذا توفي سنة ١٢٧٧ رقيَ هـذا العرشَ ، غيرَ مُدافعٍ ،[وتسمى بالملك السعيد]. بيد انه لم يلبث ان خُلع ، بعد سنتين اثنتين . فنهض بعبء الوصاية على سلامِش بن بيبرس وكان صبياً في السابعة ، قائدٌ من قواد الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس ، اسمه قَلاوون . وما هي إلا فترة حتى بدا لقلاوون هذا أن يستقل بالحكم من دون سيده الصغير ، [فخلعه] . والواقع أنه وُفق الى ان يدفع عن سورية غارات المغول ، كمثل توفيق بيبرس . ووسّع نطاق ممتلكاته في سورية على حساب الفرنجة ، وحررها من الامراء الذين تعيّن عليه بادىء الأمر أن يعترف بهم زملاء ، حتى اذا توفي سنة ١٢٩٠ قُيض له أن يترك السلطنة لابنه ، ليحتفظ اعقابه بها طوال اربعة اجيال ، حتى سنة ١٣٨٢ ، على الرغم من انهم كانوا دائماً في حاجة الى أن تُثبّت سلطتهم من طريق الانتخاب . وأيّاً ما كان ، فقد تولى العرش بعد ذلك [الملك الظاهر سيف الدين] برقوق وهو احد افراد الفرق العسكرية التي سبق لقلاوون ان ألفها من

المغول والجراكسة ، وجعل مقرها في ابراج قلعة القاهرة ؛ ومن هنا عُرف هؤلاء بالمماليك البرجية . وفي هذا العهد عُدِل عن نظام الوراثة ، وصار المماليك ينتخبون اوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، أو أعلاهم سناً في بعض الاحيان . ومن ذلك الحين تقلصت صلاحيات السلطان ، المطلقة نظرياً ، وانتهت شيئاً بعد شيء الى العدم . ذلك بأن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه زعماءُ المماليك المقدّمون . وكان هؤلاء شديدي الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية . والواقع أنهم عهدوا في تعزيز [طبقتهم هذه] بالعناصر الجديدة الى عُمال مخصوصين يرودون اسواق النخاسة الحافلة بالرقيق المجلوب من جنوبي الروسيا ومن بلاد القبق [القوقاس] بخاصة . وكانوا يدربون الاحداث منهم في قلعة القاهرة ، ومن ثم يوزعونهم بين الامراء . فهم يعملون في خدمتهم ويرتجون من طريق ذلك الترقية والتقديم . وكان المماليك ، علاوة على هذا ، يحتفظون بفرق عسكرية مجندة تُوزع على افرادها الاقطاعات لقاء خدماتهم . وما لبثت هذه الاقطاعات ان اصبحت املاكاً خاصة بهم تنتقل الى اعقابهم عن طريق الوراثة . والى هؤلاء مثلاً ينتسب خليل [بن ايبك الصفدي] مؤلف أحد الكتب الشهيرة المعتمدة الى اليوم في الفقه المالكي ، وقد توفي سنة ١٣٦٥ وكان قد شارك في تلك السنة نفسها بالدفاع ، مع حامية القاهرة ، عن الإسكندرية يوم غزاها ملك قبرس . وكانت مناصب القضاة والاستاذين في المدارس موقوفة وحدها على العلماء من اهل البلاد . أما في الادارة المدنية حيث حظي الكتّاب العُدول وكُتاب التوقيع بالمقام الأرفع ، فكان المماليك يقدمون النصارى واليهود على غيرهم .

الحياة الفكرية في عصر المماليك . ابن تيمية

هذا القلق المطرد في الوضع السياسي ، الذي اختصر سني حُكم السلاطين ولم يسمح لهم الا نادراً بأن يموتوا حتف أنفهم ، استتبع حالةً من القلق

وعدم الاطمئنان تهددت رجال البلاط والحكومة جميعاً ، في أرواحهم وممتلكاتهم ، مما لم تستهدف لمثله طبقة حاكمة من قبل الا في أسوأ أيـام الدولة الرومانية . فقد عجز الموظفون ، حتى اقدرهم ، عن الاحتفاظ بمناصبهم اكثر من ثلاث سنوات الا في القليل النادر . وكم من قاضٍ أُسند اليه القضاء ثم عزل عنه عشر مرات متواليات ، أو يزيد . ليس هذا فقط ، بل لقد كان ثمة نفوذ فقهاء السنة ورادعهم المعنوي ، اولئك الفقهاء الذين لم يتورّعوا عن اضطهاد رجلٍ صالحٍ مؤمن بالله اصدق الايمان وأشده ، كابن تَيْمِيّة (١٠٣) الحنبلي لاحجامه عن مجاراتهم في جميع ما ذهبوا اليه من رأي ، ولمقاومته كثيراً من مظاهر التدين لدى العامة كعبادة الرسل والاولياء . والواقع ان بيبرس نفسه اعترف بالمذهب الحنبلي مذهباً قويماً ، فعين للحنابلة في القاهرة قاضي قضاة أسوة بالمذاهب الثلاثة الاخرى . بيد ان الحنابلة استثاروا نقمة هذه المذاهب ، فعل شيخهم الأول في بغداد ، بما ادّعوه من انهم وحدهم الممثلون للعقيدة المحمدية الخالصة الرشيدة . وهكذا لم يلبث ابن تيمية ، الذي خلف اباه كمدرس بدمشق ، سنة ١٢٨٢ ، ان اتهم بالزندقة ، على اثر فتوى اصدرها جواباً عن سؤال ورده من حماة . ذلك بأن فتواه هذه تعارضت وآراء الشافعية ، فعزل من منصبه ، وسيقَ سنة ١٣٠٥ الى المحاكمة امام هيئة القضاء الشافعي في القاهرة ، لتصدر حكمها بسجنه . حتى إذا ارتقى نصيرُهُ السابق ، الملك الناصر ، العرش للمرة الثالثة ، عهد اليه بتدريس الفقه الحنبلي في المدرسة التي أنشأها ، واصطحبه الى دمشق ، سنة ١٣١٣ . ولكن ابن تيمية عاد فأثار نقمة الفقهاء ، كرةً ثانيةً ، سنة ١٣١٨ ، بفتوى خاصة بمسألة الطلاق ، فلم يستطع الملك الناصر نفسه ان يذود عنه ، فألقي في غيابة السجن خمسة أشهر ، استأنف بعدها تدريسهُ . وأياً ما كان ، فقد استطاع خصومه ان يحملوا

---

(١٠٣) راجع لاووست H. Laoust, Essai sur ... Ibn Taymiya, Cairo, 1939.

الدولة على اعتقاله منجديد ، في تموز سنة ١٣٢٦ ، على اساس من رأي قال به ، منذ سنة ١٣١٠ ، في ما يتصل بزيارة قبور الرسل والاولياء. والواقع انه استطاع ان يتابع نشاطه العلمي بادىء الأمر ، على الأقل ، وهو سجينٌ في قلعة دمشق ، حتى اذا حُبس عنه الورق والحبر أخذه الغمّ لهذه الاهانة ، فقضى نحبه في ٢٩ ايلول سنة ١٣٢٩ . ولئن كان معاصروه قد حاولوا قمع تعاليمه بالقوة ، فقد كُتب لها برغم ذلك ان تبقى حيةً في دوائر أتباعه المحدودة لتستمد منها الحركة الوهابية حافزها بعد اربعمائة من السنين ، ولتفيد منها بالتالي حركة التجدد الاسلامية في الجيل الحاضر. اما في حقول الثقافة الاخرى فقد أنتج السوريون والمصريون انتاجاً خصباً جداً ، في عهد المماليك ، كان لنا منه ثمرات يانعات ، وبخاصة في حقل التاريخ . ولكن هذا الانتاج يكاد يكون خلواً من الاصالة والابداع ، بالكلية .

الحياة الاقتصادية

والواقع ان هذا الانتاج الواسع العريض ، في عصر المماليك ، كان يجد سناده الاقتصادي في نظام الاوقاف الذي انشىء في عهد العباسيين ، والذي إنتهى في مصر وسورية الى غاية من الغنى تكاد تكون خيالية .(١٠٤) ذلك بأن كبار المثرين السوريين والمصريين ، كانوا كزملائهم العراقيين من قبل ، يقفون ممتلكاتهم الضخمة على وجوه البر وخدمة العلم ، صيانة لها من المصادرة ، فتدرّ على الاقل دخلاً ما للواقف وذريته ، ولكن هذه الاوقاف كانت تصدّ طبقة غير يسيرة من الامة ، عن طلب الرزق ، وتقود الى حياة من الكسل الديني والتدَرْوش ، مبعِدةً في الوقت ذاته مساحات شاسعة من الاراضي عن نطاق الاستثمار ، ومن هنا جاز اعتبارها مسؤولة الى حد بعيد عن الانحطاط الاقتصادي في الشرق . ومهما يكن من شيء ، فقد أُنشئت معظم الاوقاف في المدن ، فهي تُستغل من طريق

(١٠٤) انظر بيكر C. H. Becker, **Islam**, I, 93 ff.

الايجار دكاكينَ صغيرةً أو بيوتاً للصناعة وضروب العمل .

وكانت الطبقة الحاكمة ، اي المماليك ، تعتمد في معاشها على ما تُمنح من اقطاعات غنية في العادة . ولكن هذه الاقطاعات ما كانت لتتحول الى ممتلكات خاصة بالاسرة لان القانون كان يحرم وراثة الاقطاع . والواقع انه كان على الوارثين ، في حال وفاة المُقطَع ، ان يعيدوا الى خزانة الدولة التي أنشأت مكتباً خاصاً بهذه الشؤون ، ما كانت قد دفعته مقدماً الى المُقطَع لقاءَ سنواتٍ من الخدمة معيّنة حال الموت دون اتمامها . ولقد نشأت عن ذلك مشكلاتٌ عديدة اضطرت الدولة ، [بعدُ] الى تذليلها بقانون خاص . ولسنا في حاجة الى النص على أن الفلاحين العاملين على هذه الاقطاعات ، والذين حُرموا حق مبارحتها ، كانوا يُسلمون ، في غير ما رحمة ، الى اهواء المقطع ومحض ارادته .(١٠٥)

ليس هذا وحسب . بل لقد تميّز النظام الاقتصادي ، الى ذلك ، بضروب من المصادرة والاحتكار كانت تؤلف العمود الفقري لمالية الدولة ، على الرغم من شجب الشرائع الدينية لها ، واحتجاج الفقهاء على اصطناعها مرةً بعد مرّة . فكانت الدولة تبتاع بالأكراه معظم المحاصيل والمواد الرئيسية ثم تبيعها من جديد إلى تجار التجزئة بأسعار محددة . وليس من شك في ان الحكومة كانت تجد في هذا الاجراء وسيلة الى منع المضاربات التجارية في أيام الازمة ايضاً . والحق ان التجارة ازدهرت ازدهاراً فائقاً للعادة في عصر المماليك لأن مصر وسورية كانتا لا تزالان ، حتى ذلك الحين ، واقعتين على طريق التجارة الهندية الغنية التي نهضت بعبئها جمهوريات ايطالية التجارية . ولقد وفقت هذه الجمهوريات ، في كثير من الأحيان ، الى ان تنتزع لنفسها ، من طريق المعاهدات التي عقدتها مع المماليك ،

---

(١٠٥) راجع بولياك **A. N. Poliak, Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London, 1939.**

حقوقاً خاصة انتهت في ما بعد الى ان تصبح أساساً للامتيازات الاجنبية التي كان لها أبعد الاثر في تاريخ مصر ، حتى العصر الحديث .

فن العمارة

وهكذا تدفقت على سلاطين المماليك موارد ضخمة مكنتهم من ان يُعنوا بالعمارة على نطاق واسع غنيّ ، فجاءت آثارهم مضاهية لأروع الآثار في ازهى عصور الاسلام . واذ قد اعتاد المماليك منذ عصر قلاوون وما بعده ، ان يشيدوا منشآتهم بحجارة المقالع من مثل حجر الكلس المستخرج من المقطم ، وحجري البلور والصوان المستخرجين من مصر العليا ، فقد ثبتت آثارهم لعوادي الزمان اكثر مما ثبتت آثار من قبلهم ، ولا تزال الى اليوم تقرّر هيئة القاهرة المعمارية . وتحتل المدافن المكان الأول بين هذه الآثار . والواقع أن طراز الاضرحة المماليكية ، ذات القباب المرتفعة الجميلة ، إنما نُقل من تركستان الى مصر . وهكذا كان المماليك يعتبرون فن وطنهم الاول ، على الرغم من انهم انتُزعوا منه في سني الصبا الباكرة ، المثل الاعلى الذي يسعون الى تحقيقه بواسطة ممثليه الذين التمسوا الحماية في اكنافهم . وكانت القبة التركية تمتاز من القبة الفارسية كما شاعت في عهد الفاطميين والايوبيين ، بارتفاع دائرتها عن الجزء المستطيل او المربع من القاعدة التي تدعمها بواسطة أشباه محاريب مرتفعة عند الزوايا ، أو بواسطة صفوف متعاقبة من المثلثات الداعمة . وههنا خلد الطراز الخشبي الهندي ، الذي نشأت عنه [بعدُ] القبة الحجرية . وفي عهد السلطان حسن (١٣٤٧ — ١٣٥١) ظهر في القاهرة طراز جديد في بناء واجهات المساجد . فقد فُصّلت جدرانها الحجرية الشامخة الملساء بمحاريب متساوية ترتفع حتى قاعدة السقف ، لتنعقد عليها الحواشي الافقية المتدلية (البواكي) . وكانت النوافذ تُجعل في المحاريب . أما الجدار فكان يُتوّج ، في العادة ، بأكليل من الشرفات . وكان الباب الرئيسي ينهض ، على العموم ، في الزاوية وسط فجوة عميقة ،

ينتهي اليها المرء بواسطة سلّم مكشوف . والذي يبدو لنا ان هذا الطراز الذي يتمثل فيه الفن البابلي الاشوري القديم ، قد نُقل من الجزيرة العليا والمناطق الجبلية الكردية ، حيث قُدّر له ان يُحفظ ، وكأنه في متحف ، إلى آذربيجان وآسية الصغرى في الشمال ، والى مصر في الجنوب . ومن أروع الأمثلة على هذا الطراز جامع السلطان (وفيه ضريحه) والمدرسة التي انشأها وجعل فيها أروقة مستقلة لتدريس المذاهب الاربعة جميعاً .(١٠٦)

(١٠٦) انظر ديز .E. Diez, **Die Kunst der islamischen Völker**, 142 ff

الأتراك والمغول: انقضاء الخلافة

ولئن كان الاتراك قد أوقعوا اعظم الأذى ، خلال قرون متطاولة من سوء الادارة بحضارة إيران والعراق التي بلغت في يوم غايةً ما بعدها من الازدهار ، فقد كان من نصيب انسبائهم التتار او المُغُول ، في مستهل القرن الثالث عشر ، القضاء نهائياً على تلك الحضارة . والواقع ان المؤرخ العربي ، ابن الاثير ، لم يُجانب الحقيقة عندما قال في معرض كلامه على أحداث سنة ٦١٧ ه . (١٢٢٠) ، وفي لهجة باكية مؤثرة ، ان غزو المغول للشرق الأدنى هو أعظم كارثة حلت بالانسانية . ولعل العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً كبيراً في هذا الاجتياح المغولي ، شأنها من قبل في ما يتصل بخروج العرب من بلادهم لفتح العالم ؛ وبكلمة ثانية ، من الجائز ان يكون النزاع على المراعي ، بين مربي الخيول ورعاة المواشي ، قد لعب دوراً ما في هذا الحدث العظيم . ولكن الفضل في جمع شمل المُغُول وتوحيد صفوفهم ـ وكانوا من قبل قسمين كبيرين ، ألِف أولهما حياة التنقل على حدود الامبراطورية الصينية ، واقام ثانيهما في الشمال معتمداً في معاشه على الطرد وصيد الاسماك ـ إنما يرجع ، وفقاً لما جرت به سُنة التاريخ ، الى شخصية قوية هي هنا شخصية جِنكيزخان الذي استطاع ان يجتاح بجحافل المغول بلدان التمدن القديم ، في وحشية مدمرة ، متعطشة

الى الدم ، عُرف بها هذا العِرْق وكانت له طابعاً .

شاهات خوارزم

وكان الجزء الشرقي من امبراطورية الخلفاء السابقة ، قد أمسى ، بعد سقوط السلاجقة ، ألعوبةً في أيدي المتغلبين الاتراك الذين زرعت حروبهم المتواصلة الخراب والدمار في تلك البلدان المتحضرة . وليس يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام على هذه الاحداث الفاجعة ، فنجتزىء بالاشارة الخاطفة الى ابرز الوقائع وأهمها . فمنذ سنة ١٠٩٧ وما بعد وُفق سنجر ، احد وارثي السلطان السلجوقي ، الى ان يُعيد توحيد فارس والبلدان الواقعة على جانبي نهر جيحون ، فترةً قصيرة من الزمان ، ساد فيها السلام والامن . ولقد كان عليه ان يُقرّ ، على خوارِزم ، محمد بن أنوشْتِكين ، الذي سبق لبركيارق ان ولاه عليها والذي استقل متخذاً لقب خوارزمشاه ؛ كما اضطر الى ان يقر على سجستان تاج الدين أبا الفتح ابن طاهر ، وينتهي نسبه ، في الظاهر ، الى الصفارية . وخضع الغزنويون ، حكام ما وراء النهر المستقلون — وكانوا كأسلافهم يعتبرون غزو الهند عملهم الرئيسي — الى حد ما ، للسلطان سنجر . ولكن أتْسِز (١١٢٨ — ١١٥٦) الذي ولي عرش خوارِزم بعد ابيه محمد ما لبث ان سعى الى التحرر من نفوذ السلطان السلجوقي ، فخلعه السلطان جزاء عصيانه . حتى اذا بارح سنجر البلاد شق أتسزْ عصا الطاعة من جديد ، وحرض قبيلة قراخِتاي المغولية الباقية على الوثنية ، على مهاجمة سمرقند ، رغبة منه في صرف همة سنجر نحو الشرق . وكان اقرباء الاتراك هؤلاء — وقد ذكرنا شيئاً عن تاريخهم القديم في موطن سابق — قد حكموا بلاد الصين منذ سنة ٩١٦ ، وكانوا يُعرفون بسلالة لِياو ، ومن هنا لا يزال الروس الى اليوم يسمون الصين خِتاي . ولكن « الجرجينيين » وهم شعب تُنْكُتيّ ، طردوهم من هناك حوالي سنة ١١٢٥ . فارتدوا في اتجاه الغرب . وهاجم المغول ، بادىء الامر ، بلاد القِيرغيز على ضفاف

اليَنيسي . ثم هاجموا كاشغر وخُتَن في الجنوب . وفي ٩ ايلول سنة ١١٤١ انزلوا بسنجر وجنوده هزيمة منكرة على الضفة الاخرى من نهر جَيحون . ومن ذلك الحين صار اميرهم يحكم على رقعة واسعة من الأرض تمتد من الينيسي في الشمال الى بلخ في الجنوب ، ومن خوارزم التي إنقلب شاهها تابعاً له ، في الغرب ، حتى الامبراطورية الاويغورية في الشرق . واتخذ مقره قرب بَلاساغُون على ضفاف «تشُوِي» وهو النهر الرئيسي في تركستان الروسية اليوم . وكانت النصرانية التي نشرها المرسلون النساطرة في ربوعهم لا تزال تصطرع والاسلام الذي ظل في النهاية ارجح كفة وأعز نفراً بسبب من تشعب صلاته واتساعها (١٠٧) ، وأفاد أتسز احسن الافادة من مصائب سيده المطلق . ومع انه لم يستطع أن يحتفظ نهائياً بما استولى عليه من البلاد ، ليضطر آخر الأمر الى ان يجدد ولاءه لسيده القديم ، فأن ابنه إيل ارسلان الذي خلفهُ على العرش سنة ١١٥٦ ما لبث ان مكن للدولة الخوارزمشاهية ، فكان لها اثر حاسم في تاريخ آسية الوسطى ، فترة قصيرة من الزمان .

الدولة الغورية

وبعد ذلك بقليل سقطت الدولة الغزنوية في ايدي الجماعات التركية الجديدة ايضاً . وتفصيل ذلك انه كان يحكم بلاد الغُور الجبلية ، بين وادي هلْمَنْد ، وهراة في افغانستان ، امراء وطنيون من آل سُوري . وكان هؤلاء الامراء موالين للدولة الغزنوية ، عاملين في ظلها . وكان احدهم

---

(١٠٧) كانت للاوروبيين معرفة غامضة بهذه الأحوال . ولقد نشأ عن هذه المعرفة ، بعد الذي طرأ على لقب جورخان من تحريف ، الأسطورة الواسعة الانتشار عن امبراطورية برستر جون Prester John في الشرق الأقصى . راجع اوبرت ، **G. Oppert, Der Presbyter Johannes in Sage und Geschichte,** 2 nd edition, **Berlin, 1870.**
وراجع ايضاً زارنك **F. Zarncke, Der Priester Johannes, Leipzig, 1879**
(Kônigliche Sàchsische Gesellschaft für Wissenschaft, VII, XIX).

[قطب الدين محمد بن الحسين ، قد صاهر] بهرام شاه صاحب غزنة [فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته] فعاجله بهرام شاه بالقتل . عندئذ هب اخوه [سيف الدين سُوري بن الحسين] وسار الى غزنة طالباً ثأر اخيه ، سنة ١١٤٨ ، فأكره السلطان على الهرب عنها الى الهند . وهناك جَمع جموعاً كثيرة وعاد الى غزنة فخرج سوري الى لقائه فقهره بهرام شاه وقتلهُ ، ولكن إخوة سوري ما لبثوا أن حشدوا جحافلهم المتوحشة وأعادوا الكرة على غزنة سنة ١١٥٠ ففتحوها ودمروها تدميراً ؛ وليس في مشهدها اليوم غير مئذنتين تذكّران بتاريخها الغابر . ومن ذلك الحين عاش بهرام شاه في الهند ، جاعلاً مقره مدينة لاهور .

ثم ان الغوريين ساروا الى هراة ، مهاجمين ممتلكات سنجر . ولكن السلطان السلجوقي تصدى لهم وهزمهم ، وأسر زعيمهم طوال سنتين عاد بعد انقضائهما الى بلاده . اما الحملة التي شنها سنجر على عشائر الغُزّ التركمانية فلم يُكتب لها النجاح التي كتب لحملته على الغوريين . وتفصيل الأمر ان قبيلة قَراخِتاي المغولية كانت قد ازعجت هؤلاء الغزّ عن مراعيهم ، فحملتهم الحاجة الى اراضي سنجر . ولقد نزع الغز ، بادىء الامر ، الى الخضوع . ولكن استبداد عمال الخراج أكرههم على الثورة . فلما كانت سنة ١١٥٣ هزموا السلطان هزيمة قاصمة وأسروه ، طوال سنوات ثلاث . ولم يكد ينجو من اسرهم حتى جاء اجله سنة ١١٥٧ .

واجتاح الغُز ، بعد انتصارهم على سنجر ، البلاد التي كانت في حوزته يذبحون أهلها وينهبون أموالها . وخلف سنجر ابن اخيه محمود ، ولكن الوصي عليه ، المؤيد ، لم يلبث ان خلعه . فلما توفي إيل ارسلان وتنازع ابناه عرشه انحاز المؤيد الى جانب اصغرهما ولكن تَكَش ، وهو الأكبر ، هزمه سنة ١١٧٤ وقتله . والواقع أنه دارت بين الاخوين حروب طويلة اشترك فيها الغُز المنتشرون في طول البلاد وعرضها ايضاً . حتى اذا كانت سنة ١١٩٣ تمت لتكش السيطرةُ على المملكة برمتها ، بعد وفاة اخيه .

وأمنت خوارزم في عهده ، حتى سنة ١٢٠٠ ، غارات الغز لانهماك هؤلاء في الهجوم على ما تبقّى من ممتلكات الغزنويين في الهند. ولكن معز الدين الغوري لم يلبث ان هاجمها سنة ١٢٠٤ ، عقب وفاة تكش وارتقاء [ابنه] علاء الدين محمد الثاني ، العرش فباءت محاولته بالاخفاق ، واطبقت جموع القراختاي على قواته المرتدة فكادت تسحقها سحقاً . والحق ان هذه الهزيمة اصابت الحكم الغوري في الهند بأذى كبير . فما هي إلا فترة يسيرة حتى تنازع الامراء ، في تلك الديار ، على السلطان . ولكن ألتمش [شمس الدين] ، وكان من قبل مملوكاً تركياً ، استطاع ان يوحد المملكة كلها في ظله ، كرةً اخرى .

في عهد الناصر العباسي

وفي فارس ، احتك شاه خوارزم بمنطقة نفوذ الخليفة العباسي الناصر [لدين الله] (١١٨٠ — ١٢٢٥) الذي وفق الى تحرير بغداد من حكم امراء الجيش ، ومن ثم تقدم ، من عاصمته في العراق ، الى بسط سلطانه في اتجاه الشرق . والواقع ان هذا الخليفة الذي يعد آخر الدهاة من بني العباس حاول ان يمكّن لسلطته الهزيلة المثقلة ، بعمل بارع قوامه موالاة الشيعة ورعايتهم . ذلك بأنه نشأت في العراق منذ عدة قرون جماعات الفتوة (١٠٨) التي كان اول ظهورها ، بلا ريب ، على الحدود بين المجاهدين ، ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان نشطت في داخل الامبراطورية ، فكانت في ازمان الاضطراب السياسي كثيراً ما تروّع السكان وتوقع في قلوبهم الرعب ، أو تنقلب احياناً الى عصابات من الفتاك المجرمين . اما في زمن السلم فكانت الفتوة على اتصال بالفرق الصوفية . وانما سعى الناصر الى ان يسخر هذه الجماعات لخدمته ، من طريق تنظيمها تنظيماً جديداً وتزعّمها بنفسه .

---

(١٠٨) انظر تيشنر **F. Taeschner, Islamisches Ordensrittertum zur Zeit der Kreuzzüge, Die Welt als Geschichte, 1938, 387-402.**

واذ كان علي بن أبي طالب ، صهر الرسول ، هو الى حد ما « ملاكهم الحارس » بوصفه مثلهم الاعلى في البطولة ، فقد افسح الناصر لأعقاب عليّ وذريته في مجال النشاط في منظمة الفتوة الجديدة مفيداً من نفوذهم الادبي ، حريصاً في الوقت ذاته على ان تظل سيطرته سليمة لم تمس . ولما كانت هذه المنظمة الفروسية تعنى بالرياضة البدنية في حماسة واضحة فقد أقبل كثيرون من الامراء على الانتساب اليها ، معتبرين عضويتها زيادة في الشرف ، على الرغم من أن المنظمة لم تيسر للخليفة شيئاً مما كان يتطلع اليه من نفوذ سياسي عريض يأتيه من طريقها . صحيح أن زعيم الحشاشين الأكبر — وكان خطرهم قد تضاءل — أقسم برغم عقائده الشيعية يمين الطاعة والولاء للخليفة ، ولكن شيئاً ما لم ينتج عن هذا الحدث . ولم يكد تكش يُشغل في الشرق حتى سار وزير الخليفة [مؤيد الدين محمد بن علي المعروف بابن القصاب] الى خوزستان والاقاليم الفارسية المجاورة ففتحها . حتى اذا تمت لتكش الغلبة على اعدائه في الشرق سنة ١١٩٦ انقلب الى الغرب فاسترد ما كان قد فقده ، حتى تخوم خوزستان . وفي سنة ١٢١٤ تقدم الخليفة شمالاً ، نحو بلاد الجبال وكان قد استبد بها مملوك اسمه منكلي ؛ فحرض الخليفة عليه احد اصحابه ، اوزبك بن البهلوان صاحب آذربيجان [وكان منكلي قد أوحشه] ، فهزم منكلي وقتله ، مقيماً أوغلمش ، مملوك [اخيه] مكانه . حتى إذا سعى هذا الى عقد حلف مع علاء الدين محمد الثاني [ابن تكش] ، عهد الناصر الى احد الحشاشين في قتله ، فتم له ما أراد . وهنا عقد علاء الدين العزم على ان يقوض سلطان خصمه العنيد ، فدعا سنة ١٢١٧ الى مؤتمر ديني لتقرير أحقية العلويين بالخلافة ، وكان أتباعهم لا يزالون يملأون فارس من اقصاها الى اقصاها . ثم ان اختياره وقع على علويّ من ترمذ يدعى علاء الملك كمنافس للخليفة ، ومن ثم شرع في إعداد العدة لفتح بغداد ورفع علاء الملك الى عرش الخلافة . واتفق ان هجمت جحافل الشتاء ، في ذلك العام ، قبل ميقاتها المعلوم بمدة

صالحة فاضطر الى ان يرجع من حيث أتى (١٠٩) . وقبل ان يوفق الى إنفاذ خطته في العام التالي ، نزلت بالبلاد الاسلامية كارثة مهولة قلبت الوضع السياسي رأساً على عقب .

اولية المغول . جنكيز خان يفتح بلاد الصين

ذلك بأن الشعوب النازلة في قلب آسية تمخضت في ذلك الحين بهجرة أخرى عظيمة . وكان جيران الأتراك الشرقيون ، وهم قبائل يربطها بهم نسب قديم ، قد احتفظوا ببعض خصائص الجنس المغولي . ولقد سبق منا الكلام على احدى هذه القبائل ، قراختاي ، التي كانت اول من هاجر ، بعد قبائل الهُون ، في اتجاه الغرب . وفي ذلك الوقت كان انسباؤهم لا يزالون ينزلون في منغوليا الحالية ، وفي جنوبي سيبيريا . واطلق اهل الصين على هؤلاء اسم التتار ، وهو اسم نقع عليه حتّى في نقش اورخون العريق في القدم ، وقسموهم ثلاثة اقسام وفقاً لمراحل تطورهم . فأما جيرانهم الاقربون الذين نزلوا في ما وراء السور الصيني ، والذين كانوا قد تأثروا شيئاً كثيراً بالثقافة الصينية فدعوهم التتار البيض . والى شمال صحراء غوبي كان ينزل التتار السود ، وهم رحّل ، وكان المرسلون النساطرة قد مكنوا لأنفسهم في ما بينهم ، فتنصّرت قبائل الكِرايت التي كانت تعيش على ضفاف نهري أونون وكيرولين العليا وعلى ضفاف التولا ايضاً . وكانت شعوب الغابات تقطن شمالي هؤلاء التتار السود ، وتحيا حياة قوامها القنص والطرد ، وتعدّ القبائل الآنفة الذكر على الرغم من القربى بينها ، منحطة مستضعفة . وكانت الشامانية في اوج قوتها عندهم . وكان الاعتقاد بوجود

---

(١٠٩) ولقد شيد الخليفة ، تخليداً لذكرى نجاته من هذا الخطر ، باب الطلسم في بغداد ، وهو الذي اتخذ في ما بعد برجاً للبارود ، والذي نسفه الأتراك في الحرب العالمية الأولى فيما هم ينسحبون أمام القوات البريطانية الزاحفة . وانما جعلت فوق هذا الباب صورة الخليفة وعن يمينه تنين ، وعن شماله آخر وقد أمسك بفكي كل منهما يريد تمزيقه . ولقد ذهب فان برشام M. van Berchem الى أن هذين التنينين يرمزان الى خصمي الخليفة : الحشاشين والعلويين .

عالم من الارواح غيبي ، يضمن للسحرة ، اي للكهنة الشامانيين ، سلطاناً كبيراً على حياة الناس . وفي سنة ١١٥٥ رزق ييسوكاي [احد افراد أسرة قيات] — وهم متفرعون من التايجيوت ، احدى القبائل القناصة النازلة على مقربة من تخوم التتار السود — غلاماً هو بكره ، سماه تموجين . ولكن أبا الغلام ما لبث ان توفي سنة ١١٦٧ من غير ان يترك لتموجين منصباً معيناً او سلطة ثابتة ، لاننا نشك في ما اذا كان هو نفسه قد تمتع بسلطة ما على الاطلاق . وكان تموجين ذا همة عالية ، فاستطاع ان يجمع حوله نفراً من المغامرين ويخرج على رأسهم لغزو العشائر الاخرى التي تربطها بعشيرته صلة النسب ، والتي كانت اكثر من عشيرته هذه تمدناً . والواقع ان الحكومة الصينية كانت دائماً على استعداد لأن توقع الشقاق بين هؤلاء الجيران الذين لم يكن من اليسير عليها اخضاعهم ، وبذلك تكفي نفسها مؤونتهم . وكانت سلالة كِن الصينية قد أفنت سنة ١١٦١ قبيلة من التتار تدعى « مُغول » بمساعدة جيران هذه القبيلة النازلين على ضفاف بحيرة « بُويِرنور » . حتى اذا تعاظم شأن هؤلاء ، وخشي الصينيون بأسهم حشدوا لقتالهم النصارى من قبائل الكرايت . وهنا بدا لتموجين المغامر أن يشارك في هذا الصراع ، مستهلاً حياته السياسية المطالبة بثأر المغول ، الذين خلع اسمهم على اتباعه ، ومن ثم على شعبه برمته . ولكن الخلاف لم يلبث ان دب بين حلفاء الأمس ، حوالي سنة ١٢٠٢ ، فاذا بمركز تموجين يتحرج ، واذا به يضطر الى الانكفاء الى بحيرة بالْجيونا مع عصبة قليلة من اصحابه . وكان بين اصحابه هؤلاء ثلاثة نفر مسلمين ، اغلب الظن انهم من التجار الفرس الذين اعتادوا في ذلك الحين القيام برحلات تجارية الى الشرق الأقصى . والحق ان اثنين منهم رافقاه فترة طويلة في حملاته العسكرية ، ولعلهما أشارا عليه بشؤون كثيرة تتصل بتنظيم امبراطوريته . ولم تكد تقبل سنة ١٢٠٣ حتى كان تموجين قد نفى من البلاد حلفاءه السابقين بعد ان ناصبوه العداء ، فأطاعته قبائل منغوليا الشرقية جميعاً . وفي سنة

١٢٠٦ تم له اخضاع قبيلة النايمان النصرانية القوية ، في منغوليا الغربية . وفي ذلك الوقت خلع عليه احد الكهان الشامانيين لقب جنكيز خان الملكي (وان تكن بعض المصادر تنص على ان ذلك كان قبل بضع سنين) فعرف به عند الاجيال التالية . ثم انه دعا الى عقد المجلس التمثيلي الاول (قورولتاي) حيث رفع علماً يحمل صورة تسعة اذناب خيل بيضاء علامةً على شرف مركزه كحاكم ، ووضع الاسس الاولى لامبراطوريته . وكان جيشه الخاص ، ويبلغ عدده عشرة آلاف من اشداء الرجال ، هو قوام قوته وسلطانه . وكان الفٌ من هؤلاء الرجال يؤلفون حرسه الخاص . والواقع ان جنكيزخان اخضع حرسه هذا لتدريب عنيف اساسه العدل ، كان يشرف عليه بنفسه . وكان كل من افراد الحرس يعدّ مساوياً في الرتبة للقواد . وأخذ جنكيزخان عن النايمان استعمال خطّ الأويغور في دواوين الدولة . ولا مراء في انه لم يضع قط ، بادىء الامر ، خطط نظامية يتبعها في توسيع رقعة امبراطوريته . وانما كانت الحملات التي قام بها في السنوات القليلة التالية مجرد غارات على نطاق واسع لم يقصد من ورائها الى غير انتهاب جياد الخصوم وسبي نسائهم (١١٠) . وبعد عام من تدميره بلاد التنكت هاجم امبراطورية سلالة كِين ، في شمالي الصين . وفي سنة ١٢١٤ عقد بين الفريقين صلح مُهر بزواج جنكيزخان من احدى الاميرات الصينيات . ولكن الحرب لم تلبث ان نشبت بين جنكيزخان والصينيين كرة اخرى سنة ١٢١٥ . فتمّ لجنكيزخان هذه المرة فتح بكين . ومهما يكن من شيء ، فلم يكد الخان يغادر البلاد حتى استردت سلالة كِين حريتها من جديد . اما امراء هذه الاسرة الذين أخرجهم المغول من ديارهم ، فولوا وجوههم قِبَل المغرب وانقضوا على امبراطورية القراختاي ، وكانت قد ضعفت من جراء حروب خوارزمشاه [علاء الدين] محمد الذي تغلب في ما بعد على القراختاي ، في طَراز (تَلَس) ، سنة ١٢١٠ وفتح ما وراء النهر . وسقط باقي البلاد في يد

(١١٠) راجع بارتولد (نقلا عن رشيد الدين) في الموسوعة الإسلامية ج ١ ص ٨٥٧ .

كوجلك خان ، امير النايمان ، في حين دخل زملاؤه المجاورون — وهم امير الاويغور ، في الجنوب ، وخان القارلوق (الفرلُغ) في الشمال ، امير الالماق (الالماليغ) في وادي إلي — في طاعة جنكيز وحمايته .

فتح فارس

وبعد فتح بكين وجّه جنكيزخان ، سنة ١٢١٥ ، ابنه جُوجي نحو الغرب ليقاتل قبائل المِركيت الذين كانوا حلفاء للنايمان ، والذين سبق ان طردوا من مساكنهم الى بوادي القيرغيز . وفيما كان جوجي يقوم بهذه الحملة التقى جيشاً كان خوارزمشاه (محمد) قد سيره لاخضاع قبيلة القفجاق ، جيران المِركيت . وإذ قد ظلت المعركة سجالاً بين الفريقين ، آثر جوجي على ما يظهر ان يتجاهل الحادث على اعتبار انه سوء تفاهم ليس غير . وأياً ما كان فقد ارتأى خوارزمشاه أن يوفد الى جنكيز خان بعثة يستطلع من طريقها موارد العدو وعدته (١١١) . أما العلاقات التجارية بين الامبراطوريتين فليس من شك في انها كانت قائمة قبل ذلك .

ولكن الذي لا سبيل الى فهمه هو سلوك خوارزمشاه ، ذلك السلوك الغريب في اثناء النزاع الذي نشب سنة ١٢١٨ . ففي ذلك الحين مثل بين يديه ، في ما وراء النهر ، ثلاثة تجار مسلمين أوفدهم اليه جنكيز ، ومعهم هدايا عظيمة المقدار ، للسلام عليه بوصفه « ولده الاثير عنده » . وهو تعبير يفيد ، في لغة ذلك العصر الديبلوماسية ، معنى التبعية له . وتذهب المصادر التي بين ايدينا الى ان الشاه لم يعبر عن استيائه من ذلك الا بعد مثول الرسل بين يديه . واياً ما كان ، فنحن نشك في ان مقتل السفراء

---

(١١١) يعزو المؤرخون المتأخرون المعادون لبني العباس هـذه البادرة — توجيه رسل من المسلمين لأول مرة ، الى المغول — الى الخليفـة الناصر رغبة منه في ما زعمـوا ، في تحريض جنكيز خان على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض لمملكته ، وبذلك يشتغل خوارزمشاه عن الخليفة بنفسه .

على الحدود ونهب قوافلهم كان يمكن ان يتما من غير علمه ، وهو الذي عاد فأعمل السيف في رقاب رسل آخرين وفدوا عليه في بعثة جديدة ، وكان حقاً عليه إكرامهم والتلطف في معاملتهم .

ولم يكن في ميسور جنكيزخان ان يغضي على هذه الاهانة الفاحشة . وعلى الرغم من ان جزءاً من قواته كان لا يزال منهمكاً في الحرب الصينية فقد جمع نخبة جيشه وسار بها بنفسه ، يرافقه اولاده ، الى خوارزم ، فاضطر امير القارلوق والالمالق المسلمان الى المسارعة لنجدتها . وكان الموقف يقتضي خوارزمشاه محمد حشد قوات امبراطوريته كلها في الميدان ، ولكنه أهمل ذلك ، في غباء لا نكاد نجد له تأويلاً . ولو قد فعل ، اذن لأربت جيوشه على جيوش المغول . واذ لم يستطع ان يثق بجنود المقاطعات المفتوحة حديثاً فقد اكتفى بتحصين الثغور ، وعسكر في سمرقند ينتظر هجوم قوات المغول الرئيسية ، وكانت تشتمل على اربعة جيوش زاحفة تطرد أمامها سكان القرى المجاورة ، تهيئةً لالقاء الحصار على المدن . وفيما كان ابناء جنكيزخان يحاصرون الحصون القائمة على الحدود ، كان الخان الكبير ينقض بجيوشه على بخارى التي ما لبثت ان سقطت في يده ، بعد حصار وجيز ، فأعمل النهب فيها وقتل من اهلها خلقاً كثيراً ، وغادرها رماداً كأن لم تغن بالامس . وأُسقط في يد خوارزمشاه لدن تسامعَ بهذه الكارثة ، وملأ قلبه الرعب ، فتراجع الى بلخ ، ومن ثم الى نيسابور . اما جنكيزخان فسار الى سمرقند وغيرها من المدن الكبرى ففتحها بنفسه ، في حين سير بضع كتائب من جيشه لتعقب الشاه . والواقع انه كان في مكنة الشاه بشيء من العزيمة الصادقة وبما قد تبقّى لديه من قوات ، أن يهاجم هو المغول ، لا سيما وقد كانت جيوشه التركية تعلم علم اليقين أن المغول لن يُبقوا عليهم ، ومن هنا أبدت ثباتاً وشجاعة فائقين ، في الدفاع عن الحاميات المفردة المختلفة . ولكنه آثر ألا يفعل . وكان آخر ملجأ فزع اليه جزيرة صغيرة في بحر الخزَر ، وكان طالبوه من المغول قد أيسوا من اللحاق به ، فعادوا

عنه . وهناك توفي في ١١ كانون الثاني ١٢٢١ ، فخلفه ابنه الاكبر جلال الدين مَنْكُبَرْتي .

نهاية الدولة الخوارزمشاهية

وبينا تابع المغول عملهم التدميري على الساحل الجنوبي من بحر الخزر ليندفعوا بعد ذلك ، من طريق القبق ، الى الروسيا الجنوبية ، وينقلبوا الى مواطنهم الاولى عبر الفولغا ، كان اول عمل قام به جلال الدين بن محمد أن قفل الى خوارزم التي كانت لا تزال في يده . ولكن الاتراك في هذه المدينة كانوا قد بايعوا أخاه الأصغر ، أُزْلَغ ، الذي سبق لمحمد أن اختاره لولاية العهد . فاضطر جلال الدين ، بعد أن خذله الاتراك ، الى الشخوص الى غزنة ، حيث وفق الى ان يجمع جيشاً لحرب جنكيزخان ، بعيد استيلاء هذا الاخير على خوارزم وخراسان . وتمكن جلال الدين من أن يهزم احدى طلائع المغول قرب فَرْوان ، في الجبال القائمة بين باميان ووادي كابُل وغزنة . ولكن الخلاف لم يلبث ان نشب بين امراء جيشه ، فانفضّ من حوله التركمان وقبيلة الخَلَج فلم يعد في مركز يساعده على ان يغامر بهجوم جديد على المغول بذلك العدد القليل من الجند الذي أقام على ولائه . وهكذا اضطر الى ان يفر الى الهند . ولكن متعقبيه من المغول أعدوا له كميناً على ضفاف نهر مِهْران (السند) البعيدة الغور ، والتي لم يجروٌ على عبورها ، وقضوا على الكثرة المطلقة من جيشه ، في حين نجا هو بنفسه بعد ان خاض ، في حال من اليأس ، عباب النهر الغاضب (تشرين الثاني ١٢٢١) . وفي الهند استطاع ان يجمع حوله قوة صغيرة قوامها بعض المغامرين الاتراك المنتشرين في طول البلاد وعرضها . وكفّ جنكيزخان عن مطاردته فترة من الزمان ، وانسحب في تؤدة وتمهل الى منغوليا ، مواصلاً في الوقت نفسه مجازره المخوفة في اراضي الدولة الخوارزمشاهية السابقة .

وصمد جلال الدين ، في الهند ، ثلاث سنوات ، لجأ بعدها الى مقاطعة

كرمان الفارسية ، وكان قد فتحها « بُراق حاجب » الوصي على اخيه غياث الدين بيرشاه . وهنا ، وعلى التخوم الجبلية ما بين فارس وبلاد الجبال ، سلخ بضع سنوات اخرى هائماً على وجهه مع بعض الاتراك والمغول ، حتّى اذا كان يوم ١٦ آب ١٢٣١ انقض عليه رجل كردي متعطش للانتقام فأرداه قتيلاً . وليس من شك في ان جلال الدين كان يعوزه التنظيم الدقيق الشامل في جميع المعارك التي خاضها . ولكنه كان ، على اية حال ، آخر من دافع عن حياض الاسلام في وجه الوثنيين ، وهو من اجل ذلك خليق بهالة الاعجاب التي أحاط سيرته بها كاتبه المعروف بـ « النسوي » . اما سائر ملوك المسلمين وامرائهم ، سواء في ذلك الايوبيون في سورية والسلاجقة في آسية الصغرى ، فقد تنافسوا في التودد الى المغول ، رجاء ان يسمحوا لهم ، على الاقل ، بالاستقلال الداخلي في ظل السيادة المغولية .

خلفـــاء جنكيز

واستجم جنكيزخان ، بعد تغلبه على فارس ، بضع سنوات في البوادي التي خضعت له اخيراً ، ثم في موطنه الاول . حتّى اذا كانت سنة ١٢٢٥ خرج يريد مملكة التنكت في « هسيا » وهي مقاطعة قانصو الحالية التي تتداخل كالوتد ما بين الصين الشمالية والصين الجنوبية . ولكنـــه توفي قبيل سقوط العاصمة المحاصرة ، ببضعة ايام ، في آب سنة ١٢٢٧ . وكان قد قسم امبراطوريته جرياً على العادة الشائعة عند المغول . وكان ابنه الاكبر ، جوجي ، قد أقام في ما تم له فتحه من البلدان الغربية ، حيث أظهر من الاستقلال ما جعل اباه يفكر في حمله على الطاعة بقوة السلاح ، ولكنه توفي قبل ابيه بستة اشهر . وكان ولده الثاني ، جَغَتاي ، يُعد أفقه القوم واكثرهم تضلعاً من التشريع الذي وضع جنكيز قواعده ، فتم له بذلك ، وهو مقيم في مقره بوادي إلي ، ان يتمتع بنفوذ عظيم جداً ، على الرغم من انه لم يبذل جهداً للحصول على شيء من السلطة الرسمية . بيد انه ورث أخاه

جوجي بعد وفاته . وفي حين ورث الابن الاصغر ، تُولُوي ، وفقاً للعرف المغولي ، « بيت » ابيه اي كرسيه القبلي في منغوليا الشرقية ، اعلن جنكيز ابنه الثالث ، اوكتاي ، خاناً اكبر (قاءان) * ، واتخذ مقره على ضفاف نهر أورخون .

وفي اعقاب سنة ١٢٤١ واوائل سنة ١٢٤٢ تُوفي اوكتاي ليتبعه على الأثر اخوه جغتاي . وشجر الخلاف بين وارثيهما مدةً استشعرت خلالها ديار الاسلام شيئاً من الراحة والطمأنينة . وفي سنة ١٢٣٥ عهد المجلس التمثيلي الى باتو ، ثاني اولاد جوجي ، في إخضاع اوروبة الشرقية لحكم المغول . فخرج في السنة التالية لتحقيق ما نُدب له ، يرافقه اولاد جغتاي واوكتاي وتولوي ، فوفق سنة ١٢٣٧ الى ان يفتح عاصمة البلغار في وادي الفولغا . ثم انه فتح الروسيا في سني ١٢٣٧ — ١٢٤٠ ، وبولندة سنة ١٢٤١ — ١٢٤٢ ، والمجر ودلماسيا في السنة نفسها . وفي يوم الميلاد من سنة ١٢٤١ عبر باتو الدانوب (الطونة) المتجمد وفتح غران ؛ وفي ربيع ١٢٤٢ سار الى بلغارية ، ثم رجع في شتاء ١٢٤٢ — ١٢٤٣ الى منطقة الفولغا من طريق الأفلاق ** والبُغدان *** ونشب الخلاف ، حتى في هذه الحملة ، بين باتو وابناء عمومته . وكان اوكتاي قد توفي في كانون الاول سنة ١٢٤١ ؛ ولكن ابنه الأكبر ، كويُوك الذي سبق ان شق عصا الطاعة على باتو اثناء الحملة البلقانية ، لم يُعلن « خاناً أعظم » حتى سنة ١٢٤٦ . وبعد سنتين ليس غير ، فاجأ الموت كويوك في الحملة التي قام بها في اتجاه الغرب ، والتي كان باتو يعد العدة لدفع أذاها عن ممتلكاته . ورغب باتو ، بوصفه اكبر افراد الاسرة سناً ، في ان يسمي خليفته . فدعا احد المجالس التمثيلية

---

* « ملك الملوك » (المعربان)

** Wallachia

*** Moldavia

الى الانعقاد ، ولكن اخاه بركه وفق الى ان يحمل القوم على المناداة بـ « مَنْكو » اكبر اولاد تولوي ، خاناً اعظم . ولما كان ابناء جغتاي واوكتاي لم يشاركوا في ذلك فقد قتلوا جميعاً وقتل ذوو قرباهم ، عندما تقدموا في ما بعد ليقسموا يمين الطاعة ، بتهمة إضمار الخيانة . وهكذا انشطرت امبراطورية المغول شطرين تفصل ما بينها البادية القائمة بين نهر طرّاز ونهر « تشوي » . وفي حين تحكّم أعقاب باتو ، بوصفهم سادة « القبائل الذهبية * » في مصاير اوروبة الشرقية ، وفّق هولاكو ، اخو منكو ، الى ان يركز لواءه في الشرق الأدنى .

وعبر هولاكو في تقدمه غرباً نهر جيحون في غرة كانون الثاني سنة ١٢٥٦ ، فسارع صغار الامراء في فارس وبلاد القبق الى الدخول في طاعته وإعلان الولاء له . وكان من جملة هؤلاء زعيم الحشاشين الذين فقد اسمهم سحره القديم منذ زمن طويل ، ولكنهم ظلوا على أية حال قوة يحسب لها حساب ، لما كان في حوزتهم من الحصون المنيعة الى أبعد الحدود . ومهما يكن من الامر ، فقد أبى هولاكو ان يتقبل ولاء ركن الدين ، آخر زعماء الحشاشين ، وكان قد خلف أباه قبيل ذلك ، في هذه الزعامة ، بعد ان أورد منهل الردى ، بالاتفاق مع ابنه من غير شك . من أجل ذلك تعين عليه ان يفر الى حصن ميمون في ناحية ألموت ، حيث أقام معه نصير الدين الطوسي ، الرياضي الفلكي الشهير . ونصح له نصير الدين بالاستسلام من غير ما مقاومة البتة ، رغبةً منه في ان ينجو هو أيضاً ، بهذه الوسيلة . ولكن ركن الدين قُتل فيما كان يُحمل الى معسكر هولاكو . وطارد جنود هولاكو الحشاشين في أرجاء فارس كلها وأعملوا في رقابهم السيف . أما الطوسي فحظي عند هولاكو ، وصحبه في حملاته التالية بوصفه منجم البلاط . ثم انه عهد اليه في إنشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مَراغة بآذربيجان .

---

* أصل الاصطلاح في التركية « زر اوردو » ومعناها « المخيم الذهبي » . (المعربان)

وطمح هولاكو ، منذ البدء ، الى ان ينشيء لنفسه ، بوصفه تابعاً من اتباع اخيه ، امبراطورية خاصة في الغرب . وإذ انطرحت فارس على قدميه ، فقد انتهى الى ان يكون قاب قوسين أو أدنى من أراضي الخلافة العباسية في العراق . وكان قد تعاقب على عرش بغداد بعد وفاة الناصر ، الخليفة الحازم ذي الهمة العالية ، سنة ١٢٢٥ ، خلفاء مستضعفون [هم الظاهر بأمر الله ، والمستنصر بالله ، والمستعصم بالله] . والحق ان هولاكو ما كان في حاجة الى ان يحرض الشيعة من الفرس ، كالطوسي مثلاً ، على قصد بغداد والاستيلاء على هذه الغنيمة الباردة . ففي ١٧ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ سقطت العاصمة العباسية في أيدي المغول ، بعد فترة من المفاوضات أحجم فيها المستعصم عن الاستسلام في اللحظة المناسبة ، عندما استشعر عجزه الصريح عن حشد قواته بسبيل مقاومة جدية . وابقى هولاكو على المدينة نفسها مجنباً اياها ، في الأعم الأغلب ، ويلات التدمير والتخريب . أما الخليفة فقتل ، بعد ان نهب قصره وقتل معه جماعة أخرى من ذوي قرباه ، في حين فرّ بعضهم الى مصر حيث رفع السلطان بيبرس ، كما سبق منا القول ، أحدهم الى العرش كخليفة زائف تحت اسم المستنصر بالله ، رغبة منه في أن يخلع على حكمه صفة شرعية . ولقد ظلت هذه الخلافة الوهمية قائمة في مصر حتى انقضاء دولة المماليك عقب الفتح العثماني سنة ١٥١٦ – ١٥١٧ .

وأعلن أمراء سورية الصغـار خضوعهم لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة . أما مماليك مصر فكانوا أول من وقف في وجه الغزاة ، وقفة موفقة . وكان المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه على فلسطين . وفي ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ أنزلوا بالمغول هزيمة حاسمة عند عين جالوت ، قرب الناصرة * في حين كان هولاكو نفسه منهمكاً

* في الاصل ، قرب نابلس . (المعربان)

في حرب مع « القبائل الذهبية » بعد ان استشعر بركه خان الخطر يتهدده من جانب هولاكو وقوته الحديدة الطامحة . ذلك ان المماليك ، والسلطان بيبرس منهم خاصة ، استخلصوا سوريا برمتها ، شيئاً بعد شيء ، من ايدي هولاكو وخلفائه الأيلخانية . وكان الانحلال قد أصاب ، في الوقت نفسه ، قوة المغول المركزية من طريق التجزؤ ، فلم يبق في ميسورها ان تسعف جناحها الغربي بمساعدة ما .

غازان ووزيره رشيد الدين

وليس احد من ملوك الأيلخانية هؤلاء يستحق الاشارة غير غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤) بن ارغون حفيد هولاكو . صحيح أنه اختصر عمره ، فعل الكثرة من افراد شعبه ، بما أدمن على الشراب . ولكنه حاول ، خلال عهده القصير ، ان يعوض بلاد الفرس من بعض ما خسرته بسبب الجرائم التي اقترفها اسلافه فيها . وكان هولاكو نفسه قد استمسك بالوثنية — شأن اجداده الذين لم يلتمسوا قط ، بما فطروا عليه من روح الجندية ، أيّ مشاركة روحية مع رعاياهم — على الرغم من انه اظهر العطف على البوذيين ، كما اظهره على النصارى ابتغاء مرضاة زوجه النصرانية دُقوز خاتون . اما غازان ، من ناحية ثانية ، فنُشّيء في البوذية ، ولكنه اعتنق ، هو وجميع افراد جيشه الاسلام ، قبيل ارتقائه العرش ، وكان على أهبة ان يخوض المعركة ضد واحد من ابناء عمومته . والواقع انه اختار المذهب السني ، حتى اذا خلفه اخوه أُلجايتو خُدابنّده (١٣٠٩) رغب عن السنة ، وتشيع . ويستفاد من النقود المضروبة في عهد غازان انه تطلع الى الاستقلال عن الخان الاكبر المقيم في بكين ، وكان من قبل يعمل باسمه ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم « بقوة السماء » . واصطنع غازان ، في فرض سلطانه على ذوي قرباه وعلى امراء المغول ، ابلغ القسوة واثقل العنف ؛ وحتى الامير نَوروز ، الذي كان له الفضل في ارتقاء غازان العرش ، لم يلبث ان ذهب

ضحية هذه السياسة . وشجع غازان التطور الاقتصادي في امبراطوريته . فقد كان الخراج يفرض ، حتى عهده ، وفقاً لاهواء الحكام من المغول وعمالهم من الفرس ، فلما آل الحكم اليه امر ، اول ما امر ، بأن تُمسح الاراضي كلها من جديد ، وان تُتخذ نتائج ذلك اساساً في فرض الضريبة . واصدر سنة ١٣٠٤ قراراً أمر فيه بأن يحاط الرعايا علماً بكل ما يتصل بالضرائب من طريق تعليق البيانات الوافية حولها عند مداخل القرى او في المساجد ومعابد النصارى واليهود ، بل بأن يحاط البدو الرحل علماً بها في مراعيهم ، بواسطة النقش على الخشب او الحجارة او المعدن او الالواح المكتوبة . وانما نقل الينا ذلك مؤرخه رشيد الدين ، ثم جاءت النقوش المكتشفة في آني وانقرة ، والراقية الى عهد خلفائه ، مصدّقة لما ذهب اليه هذا المؤرخ(١١٢). وشجع غازان ايضاً السكنى في المناطق العديدة التي هجرها سكانها بسبب الاعصار المغولي ، والتي ظلت منذ ذلك الحين خاوية على عروشها . وأمر غازان باسقاط الضرائب عن كاهل المستعمرين الجدد . ليس هذا فحسب . فقد أدخل روحاً جديدة من الثقة في الميدان التجاري بأن الغى الاوراق المالية ذات القيمة التحكمية الرجراجة التي سبق لاسلافه ان احدثوها على الطريقة الصينية ، واحل مكانها نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة . وكان لهذه التدابير اثرها الواضح في موارد الدولة الرسمية فارتفعت من ١٧٠٠ تومان * الى ٢١٠٠ تومان ، اي حوالي اثني عشر مليون دولار . كذلك اعاد تنظيم القضاء في فارس بعد ان عبث به العرف المغولي ، وكان هذا العرف ساذجاً جداً ، غير محدود دائماً ، واعاد للشرع الاسلامي سلطانه وقوته . كذلك انشأ محكمة عليا مشتركة للقانونين الفارسي والاسلامي .

---

(١١٢) انظر ويتك ، نقلا عن بارتولد . W. Barthold ap. P. Wittek, Festschrift Jacob, 348.

* التومان عشرة آلاف عند الفرس . واصل الكلمة يعود الى كلمة مغولية بالمعنى نفسه . (المعربان)

ثم انه زين عاصمته تبريز بأبنية فخمة ، واقفاً اموالاً ضخمة على المساجد المحلية ودور العلم . وشيد مرصداً فلكياً ومدرسة للعلوم الدنيوية التي كان هو وغيره من ملوك المغول يقدرونها قدراً خاصاً لما لها من الفائدة العملية . والواقع ان رشيد الدين ، وزيره المطلق وطبيب بلاطه ، انما وضع كتابه المفصل في تاريخ المغول ، باللغة الفارسية ، واسمه « تاريخي غازاني » ، بناء على إشارة منه . وفي الكتاب ايضاً نص على ان غازان شارك في تأليفه بنفسه .

وخلف غازان أخوه ألجايتو خدابنده . وفي عهده احتفظ الأيلخانيون بقوتهم في أعلى ذرواتها . وكانت مدينة « السلطانية » الواقعة في شمالي العراق ، على الجبال الفاصلة بين نهري زَنْجان وأبْهَر ، قد اجتذبت اليها المغول ، لما تمتاز به من مناخ جبلي صحي ولما يحيط بها من المراعي ومواطن القنص والطرد ؛ وكان أرغون قد اقام فيها حصوناً قوية . فلما رزق الجايتو خدابنده ابنه أبا سعيد جعلها عاصمة ملكه . ولم يكن في ميسور السلطانية ، على اية حال ، ان تحتفظ بمركزها هذا مضاهية تبريز ذات الموقع الجغرافي الاصلح . ومكّن الجايتو لنفسه في الداخل بالقضاء على اميري جيلان وهراة . أما جهوده في سبيل السيطرة على آسية الصغرى واتخاذها سداً في وجه قوة المماليك فذهبت أدراج الرياح ، شأن جهوده في سبيل الحصول على مساعدة القوى النصرانية في اوروبة تحقيقاً لهذا الغرض .

طلائع الادب التركي

وفي عهد غازان وخلفائه — ثم في عهد انسبائهم ايضاً حتى حدود الصين — انتهت الفارسية الى ان تكون ، الى جانب التركية ، لغة الديوان الرسمية ، ولغة الاتصال الدولي . وكانت المرونة والطواعية تعوزان اللغة المغولية ؛ ولم يكن ثمة مجال لنشوء حياة فكرية مستقلة بين المغول . صحيح ان جنكيزخان اخذ عن النايمان ، كما أشرنا آنفاً ، الخط الأويغوري ، واصطنعه

في دواوين الدولة ، وهو خط يتحدّر من الشكل السرياني للابجدية السامية ، (تلك الابجدية التي يقوم على اساسها خطنا [اللاتيني] ايضاً) وكان المرسلون النساطرة قد عملوا على نشره منذ قرون ، حتى بلغ قلب آسية . والواقع ان هذا الخط اصطنع في كتابة اللغة التركية الشرقية ايضاً ، وحل محل الخط الشبيه بالخط الروني المتحدر بدوره من تحريف للابجدية السامية ، والذي اصطنعه اقدم من نعرف من الخانات الاتراك في تدوين تاريخهم في القرن الثامن على ضفاف نهر اورخون . ولكن الاتراك ايضاً لم يكونوا قد انشأوا أدباً مستقلاً ذا غناء يستطيع ان يضاهي الادب الفارسي ، على الرغم من ان الأويغور وفقوا في حاضرتهم ، طُرفان ، عند القسم الجنوبي من نهر تيان شان ، الى ترجمة جمهرة كبيرة من الكتب ، تحت تأثير البعثات التبشيرية البوذية والمانوية . وفي هذه الترجمات وُضع الخط الاويغوري ، للمرة الاولى ، موضع الاستعمال ؛ ولقد كشفت لنا « البعثة الالمانية الى آسية الوسطى » على الخصوص عن بقايا منها ، فسّرتها لأول مرة عبقرية العالم الالماني مولر * . والواقع اننا لا نعرف إلا نتفاً يسيرة من الادب القومي — الغنائي والملحمي — الذي ازدهر يوماً بين اتراك آسية الوسطى ، وذلك من طريق النماذج التي اقتبسها محمود الكاشغري (١٠٧٣) في كتابه [ديوان لغات الترك] وهو اقدم واوسع كتاب لتعليم اللغة التركية عرفه العرب . أما أول أثر أدبي تركي مستقل ، بعد نقوش اورخون ، فظهر عقب سقوط الدولة الاويغورية في كاشغر ، بنصف قرن . ففي هذه المدينة نظم « يوسف خاص حاجب » البلاساغوني (سنة ١٠٦٩ — ١٠٧٠) قصيدة تعليمية كبرى للسلطان بُغراخان حسن بن سليمان أرسلان قصد بها إلى ان يبرز حكمة الحياة للامراء بخاصة ، ومن هنا جعل عنوانها « قوداتقو بيليك » اي « علم السعادة » . ولقد بنى يوسف قصيدته هذه على آراء ابن سينا

---

* K. F. W. Müller

الفيلسوف وأفرغها في وزن شعري * مقتبس عن الاوزان الفارسية. وهو يضع مواعظه على ألسنة شخصيات رمزية من اختراعه ، فواحدة تمثل العدالة واخرى تمثل السعادة ، الى غير ذلك من الشخصيات . وانما تكشف لنا هذه الشخصيات ، على الرغم من ضروب التكلف الساذجة ، عن نواحٍ كثيرة في ما يتصل ببنية المجتمع والدولة في محيط الناظم الثقافي . والحق ان اثر الاسلام الغامر ليس يبدو واضحاً جلياً في هذه القصيدة ، في حين انه اخذ في الوضوح اكثر فأكثر في الأدب القومي الذي نشأ على هذا الغرار ، والذي كان يدور ، في الاعم الاغلب ، حول معراج النبي ، وسير الاولياء . ولم يكن الخط الاويغوري يُصطنع الا في احوال فردية ، ثم انه افسح المجال شيئاً بعد شيء للخط العربي . وجائز ان تكون النسخة الاصلية من قصيدة « قوداتقو بيليك » قد كتبت بهذا الخط العربي ايضاً . اما ما طرأ على الادب التركي الشرقي من تطور جديد اشتد معه الاثر الفارسي وتعاظم ، فلم يتم الا في عهد تيمور وخلفائه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

شاعرا الفرس سعدي وحافظ

وكان الادب الفارسي قد فزع ، إبان الاجتياح المغولي ، الى ولاية فارس في الجنوب الغربي من ايران . وكان احد اتابكة السلاجقة ، من آل سَلْغُر قد استقل سنة ١١٤٨ بتلك الديار واقام فيها دولة عمرت ١٣٠ سنة . ولقد ادّى اصحاب هذه الدولة السلغرية الجزية ، باديء الامر ، الى سلاجقة العراق ثم الى ملوك خوارزم واخيراً الى المغول . وفي ظل سعد ابن زنكي ، أحد اتابكية فارس هؤلاء ، نظم الشاعر سعدي[131] ، بين سنة ١٢٥٦ وسنة ١٢٩١ في مسقط رأسه شيراز ، حيث استقر بعد حياة

* هو البحر المتقارب . (المعربان)

(١١٣) وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى مولاه سعد بن زنكي .

قلقة مترحلة، كتابيه الرئيسيين اللذين ينزع فيهما نزعة اخلاقية وهما «كُلستان»* او «حديقة الورد» وهو مزاج من الشعر والنثر، و «بُوسْتان» وهو شعر كله. والواقع ان كل فارسي، حتّى يومنا هذا، ينظر الى الكتاب الاول (الذي نقله الى الألمانية في عام ١٦٥٤ آدم اوليريوس) كأفضل تعبير عن مظهر من مظاهر الخلق القومي كان سائداً في قوة ووضوح حتّى الثورة الوطنية، اعني النزعة الى التعصب الديني والسخرية، ومن هنا فهو اقرب الكتب الى قلبه. وكان الأمن والسلام قد اصبحا خبراً ماضياً في مدينة الورود شيراز، ايضاً، خلال مدة طويلة تقضت بعد سقوط الحكم الأيلخاني. وحوالي سنة ١٣٤٠ وفق الى الاستيلاء على المدينة الامير ابو اسحق بن محمود شاه إنجو ولكنه لم يلبث ان اضطر الى التخلي عنها، سنة ١٣٥٣، [لمبارز الدين] محمد المظفّري الذي كان يفخر بنسبه العربي الصريح، الراقي الى احدى القبائل التي نزلت خراسان في اثناء الفتح. ثم ان ابنه [جلال الدين] شاه شجاع خلفه سنة ١٣٦٤، وكان قد سمل، سنة ١٣٥٨، عيني ابيه والقاه في غيابة السجن. وفي عهده لمع اشهر شعراء الفرس الغنائيين جميعاً شمس الدين محمد، المشهور في تاريخ الادب باسم «حافظ» (اي الذي يحفظ القرآن). وكان حافظ من الشيعة الاثني عشرية. من اجل ذلك لم يستطع ان يتمتع بالحرية ويتنفس الصعداء إلا بعد وفاة محمد، الذي كان سنياً متعصباً. فلما رقي العرش شاه شجاع عطف على حافظ، وأسند اليه، بناء على اقتراح الوزير قوام الدين حسن احد اصدقاء الشاعر، تدريس التفسير في المدرسة بشيراز، فشغل هذا المنصب الى ان توفي سنة ١٣٨٩، بعد ان شهد غزوة تيمورلنك. والواقع ان شهرة حافظ طبقت آفاق البلاد الناطقة بالفارسية منذ نشر ديوانه سنة ١٣٦٨ — ١٣٦٩. وانما تمجد قصائده جمال الطبيعة، اول ما تمر بها يد الربيع الخيرة،

---

* نقل «كلستان» (بالكاف الفارسية) الى العربية جبرائيل بن يوسف الشهير بالمخلع (القاهرة ١٩٢١) (المعربان)

على الخصوص ، كما كان يتبدّى له في كثير من الأحيان على ضفاف [ركن آباد] وهي القناة التي حفرها ركن الدولة البويهي سنة ٩٥٠ لأرواء سهل شيراز ، وفي متنزّه المصلّى ، حيث ثوى في مقره الاخير . انها ترجّع صدى اغنية الهزار الدامعة ، وتغني مباهج الشباب والخمر ، والحب الشاذ الشائع في بلاد الشرق منذ أجيال ، وان تكن قد نزعت ، في ما يتصل بالكلام على هذا الحب ، الى التلطف والاحتياط . ليس هذا فحسب . بل انها لتسخر من الرياء بضروبه جميعاً ومن اي ضرب آخر من الغلاظة والجهل . وهي تنم عن قلب كبير وروح حرة اضطرتّهما ظروف الوطن البائسة الى الاستخفاف بقيم الحياة كلها ، ونشدان السعادة في الملذات وحدها . واذ خلع في ما بعد على اناشيده هذه الدنيوية جلباباً آخر من المعاني (يذكّر بالتفاسير الروحية التي وضعتها الكنيسة لسفر نشيد « الانشاد » النابض بالشهوة) فقد اكتسب هذا الشاعر الساحر الغاوي اتباعاً معجبين في الحلقات الروحية أيضاً. والحق ان جميع شعراء الفرس والاتراك اهتدوا ، بعد ، بهدي هذه القصائد ، بوصفها نماذج من الغزل ، كاملة ، لا تضاهي .

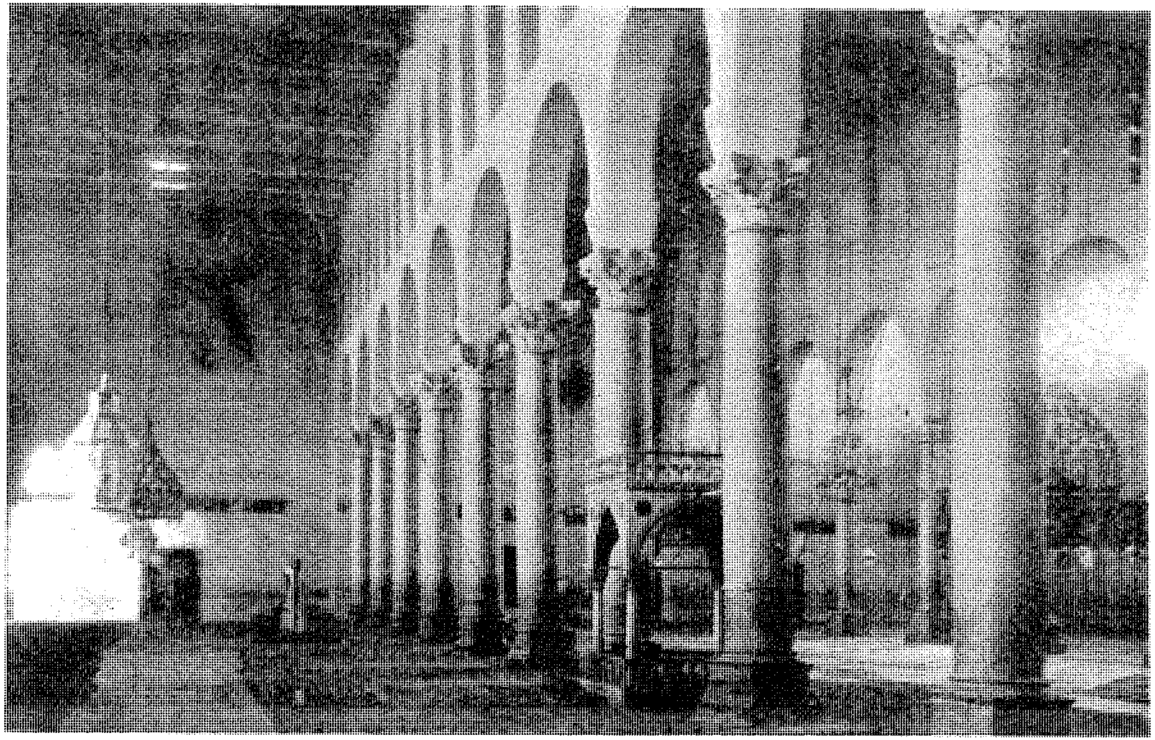
جلال الدين الرومي

أما جلال الدين الرومي المولود في بلخ سنة ١٢٠٧ ، وهو أعظم شاعر متصوف في الاسلام ، فنشأ خارج البلاد الفارسية . ذلك بأن أباه ، بهاء الدين ولد ، تعرّض لغضب [قطب الدين] محمد خوارزمشاه ، فاضطر الى ان ينزح عن البلاد . وبعد ان ضرب في الأرض مدة طويلة ، قيّض له سنة ١٢٢٦ ان يجد نصيراً وحامياً في شخص الأمير السلجوقي علاء الدين كَيْقُباد في قونية بآسية الصغرى . ولقد أسند اليه علاء الدين هذا منصباً من مناصب التدريس هناك ، حتى إذا توفي خلفه ابنه في هذا المنصب . وما هي إلا فترة يسيرة حتّى اتصل جلال الدين بالمتصوف شمس الدين التبريزي ، فاجتذبه اجتذاباً كلياً الى حياة التصوف ، فوسم جلال الدين

اديوانه في ما بعد باسم شمس الدين هذا : « ديوان شمس الدين تبريزي » . ثم انه انشأ الطريقة المولوية التي انتشرت انتشاراً واسعاً والتي كان لها ، حتى الثورة الوطنية في تركيا ، نفوذ عظيم جداً . وكان « دراويش » هذه الطريقة يهدفون الى حالة الوجد الصوفية على انغام الناي . والحق انه يقدم الينا في كتابه الرئيسي ، مثنوي[114] ، مجموعة غير منظمة ، من ا لحكايات الموضوعة على ألسنة الحيوان ، والقصص والتأملات ، مفرغة في قالب شعريّ رفيع يقصد آخر الأمر الى بسط العناصر الرئيسية في التفكير الصوفي ، وإلى افناء « الأنا » في الوحدة الوجودية . ولقد رفع أتباع جلال الدين كتاب مثنوي مقاماً علياً يكاد يداني مقام القرآن نفسه ؛ وانقضت حقبة من الدهر كان هذا الكتاب يتحكم خلالها في الاستشراف * الفكري الذي خذت به افضل العناصر في الامبراطورية العثمانية .

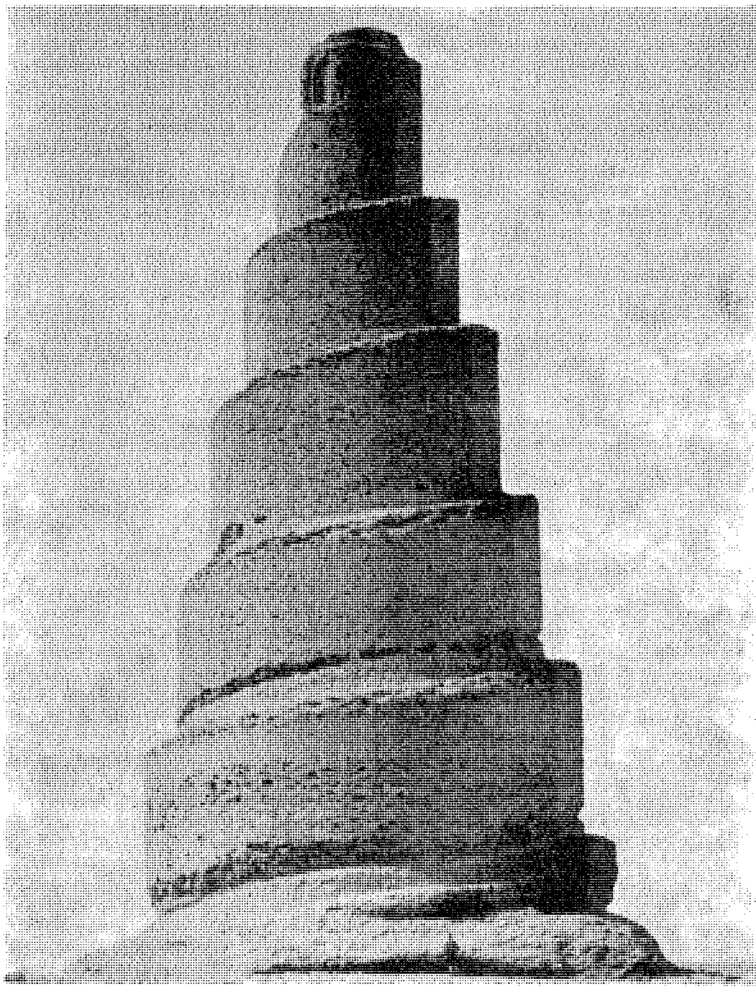
(١١٤) ويقع في ستة مجلدات .
* outlook

الأتراك العثمانيون وحضارتهم



داخل الجامع الكبير (المسجد الاموي) دمشق ٧٠٧ – ٧١٥ م

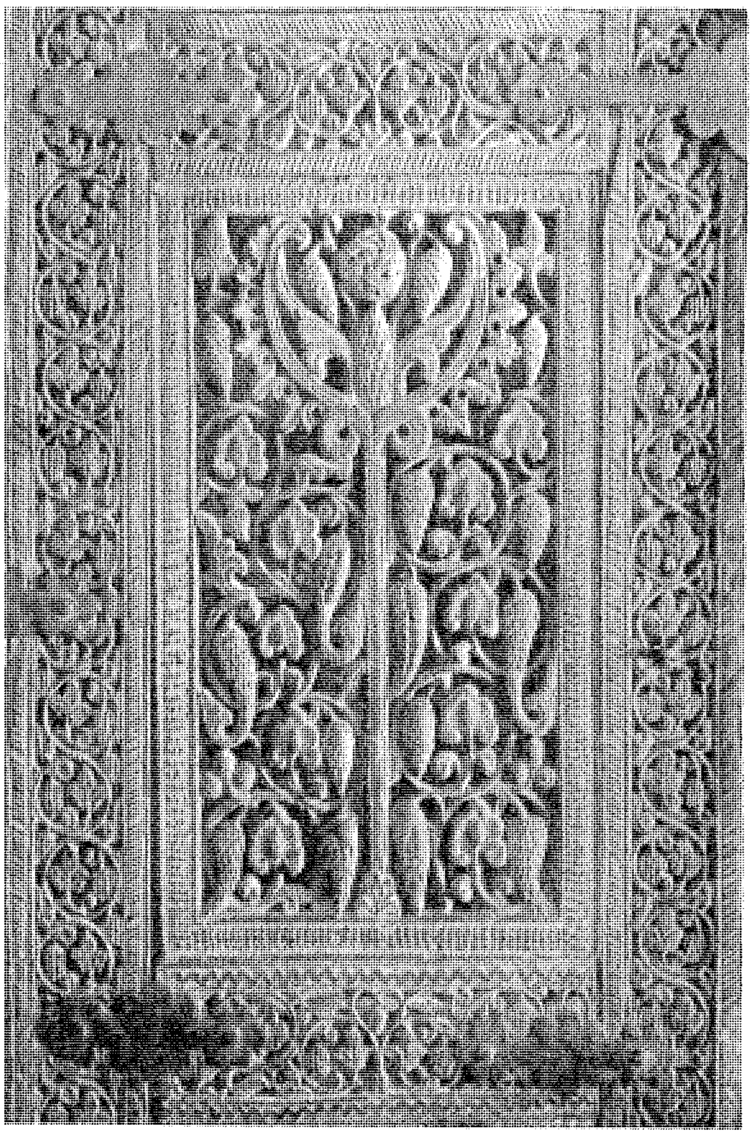
العصر الاموي



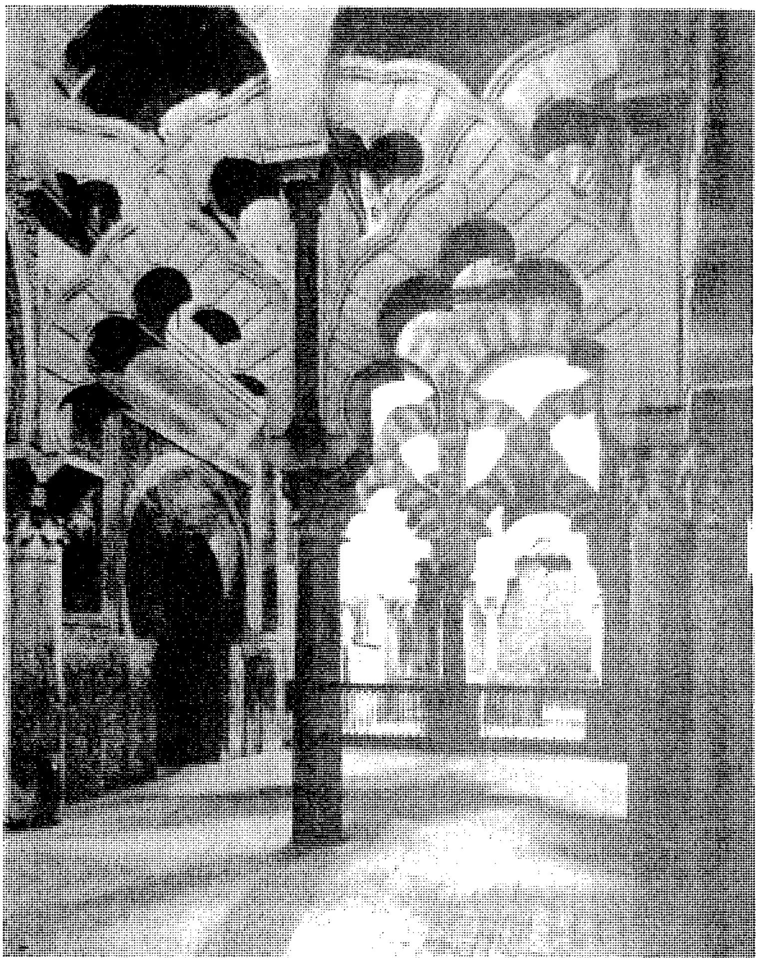
سامراء ـــ العراق

٨٤٨ ـ ٨٥٢ م

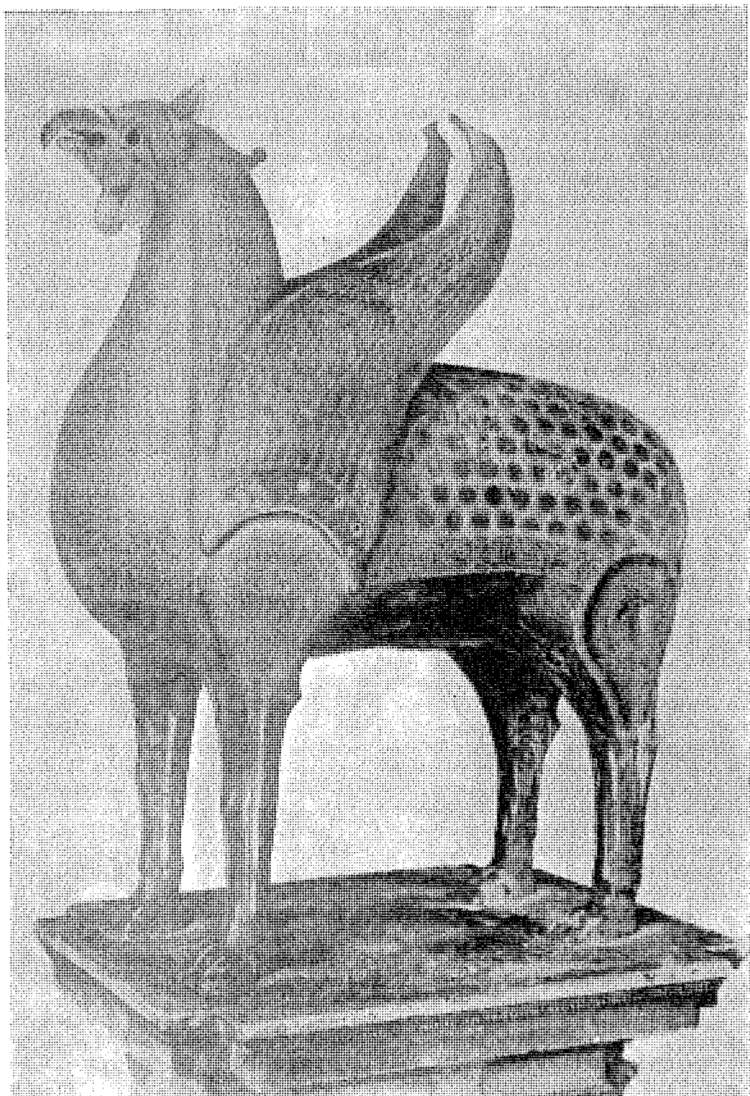
العصر العباسي الأول



باب المنبر في المسجد الجامع
القيروان — تونس ٨٦٢ م
العصر العباسي الأول



اروقة ومقرنصات امام المحراب في المسجد الجامع — قرطبة
(الحكم الثاني الاموي) ٩٦٥ م — الاندلس



العقاب المجنّح ـ برونز
القرن الحادي عشر
الفاطميون ـ مصر .

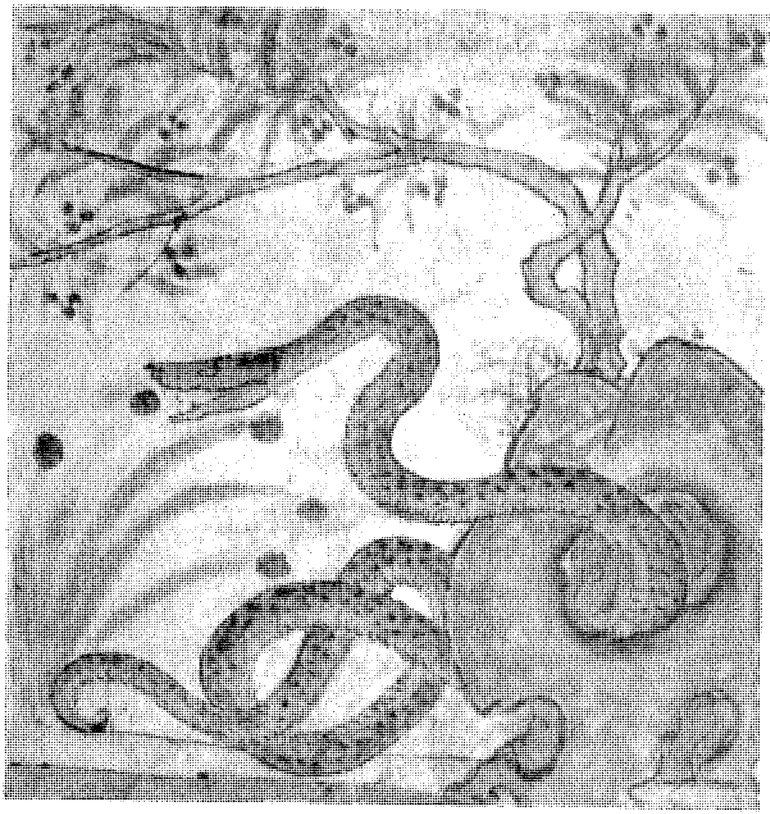


صفحة من القرآن الكريم ـ بالخط الكوفي

ايران ـ القرن الثاني عشر ـ العصر السلجوقي



خلقين مزخرف بالنقوش
هراة ـــ ايران ١١٦٢ م العصر السلجوقي



الأفعى – مأخوذة من كتاب « منافع الحيوان »
ايران ١٣٠٠ – العصر المنغولي

أصول الامبراطورية العثمانية واتساعها
حتى عهد سليمان الأول

بينا كانت جمهرة كبيرة من القبائل التركية ، لا تزال تختصم ، حوالي منتصف القرن الثالث عشر ، على بقايا الخلافة ـ هذه الخلافة التي أقامها العرب ، وسعى الى تقويضها الفرس ، وأجهز عليها المغول ـ نشأت في الجزء الشمالي الغربي منها ، في آسية الصغرى ، تلك الدولة التي قُدّر لها ان تعمّر أطول من سائر الدول التركية ، وان تنتهي الى ان تتولى قيادة العالم الاسلامي نحواً من خمسمائة عام (١١٥) .

والواقع ان المنازعات بين الغزاة من المسلمين والمرتزقة من البيزنطيين ، على تخوم سورية وآسية الوسطى ، لم تنقطع طوال قرون بتمامها ؛ وكانت الغلبة تكتب للمسلمين حيناً ، وللبيزنطيين حيناً ، ولكن احداً من الفريقين

(١١٥) انظر كوبريلي **M. F. Kôprûlû, Les Origines de l'Empire Ottoman, Paris 1935.**

وانظر ويتك **P. Wittek. The Rise of the Ottoman Empire, London, 1938**

وانظر ايضاً جبونز **H. A. Gibbons, Foundation of the Ottoman Empire, History of the Osmanlis, 1300 - 1403, Oxford, 1916.**

لم يحقق نصراً حاسماً على خصمه . وكانت قد نشأت على هذه التخوم جماعةٌ تتألف من مجاهدي المسلمين وعساكر الروم استطاعت برغم العداء القائم بين المسيحية والاسلام ، اللذين تفرقا شيعاً مختلفة وطوائف متباينة ، ان تغذّو مبادىء متشابهة في الفروسية ، وان تمكّن للتبادل الثقافي بين الدينين . وعندما رفع السلاجقة قواعد امبراطوريتهم ، حاول ألب أرسلان ان يعزّز حدودها بهجوم شنه على الاناضول . فهزم ، على النجاد الارمنية ، قوات الامبراطور البيزنطي رومانوس * ديوجين قرب مَلازْكِرد ** ، عام ١٠٧١ ، واقتاده اسيراً . وعلى الرغم من انه لم يفكر في الاحتفاظ بثمرة نصره هناك ، مطلقاً سراح أسيره بعد ان عقد معه معاهدة صلح شريف ، فقد أدى هذا النصر ، الى قيام حالة جديدة ، بالكلية ، في مقبلات الايام .

سليمان السلجوقي في آسية الصغرى

ونشأت في المناطق الواقعة على التخوم [الثغور] في جبال طورُس وقيليقية ، إماراتٌ ارمنية مستقلة انتهت بعدُ الى ان تؤلف مملكة إرمينية الصغرى . وفي مَلَطْيَة طرد جبريلُ الرومي الحكام المتحدرين من اصل ارمني ، والمنشقين على بيزنطة ، وكان جبريل هذا قد انتزع من خليفة بغداد نفسه اعترافاً بولايته على البلاد . ومهما يكن من شيء ، فقد كان في ضعف الثغور ، بعد ان تخلت العاصمة عن حمايتها ، ما شجّع الاتراك على شن غزوات جديدة ، ايضاً . وكان قُتُلْمِش ، أحد انسباء ألب ارسلان ، قد خلع طاعته ، سنة ١٠٦٣ ، ثم قُتل في الميدان . وفي سنة ١٠٧٢ بعث ملكشاه بن ألب ارسلان وخليفته بسليمان بن قتلمش الى آسية الصغرى ابتغاء إقصائه عن مركز الامبراطورية مع العصابات التركية التي كانت لا تزال تطوّف في طول الامبراطورية وعرضها ، معرّضة أمنها

(*) « ارمانوس » في المصادر . (المعربان)
(**) وجاءت ايضاً على منازكرد . (المعربان)

وسلامتها للخطر . وانتزع سليمان ، في هجوم جريء ، الجزء الشمالي الغربي من آسية الصغرى من ايدي البيزنطيين واتخذ نيقية مقراً له ، سنة ١٠٨١ ، فهو يهدد منها بيزنطة نفسها ، ولم تكن تبعد عنها الا قليلا . ولكن المسلمين ما لبثوا ان خسروا هذه القاعدة الأمامية القصوى اثناء الحملة الصليبية الاولى . وأياً ما كان ، فقد ظل الهدف الحقيقي الذي يرمي اليه سليمان هو التوسع في الشرق والانتهاء الى مركز من السلطة فيه . فما وافت سنة ١٠٨٤ حتى استولى على انطاكية ، ليُصرع بعد ذلك،سنة ١٠٨٦ في هجوم شنه على حلب . ولقد سعى ابنه قِلِج أرسلان الى ان ينشيء لنفسه قاعدة جديدة في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى ، ابتغاء إنفاذ الخطة التي رسمها ابوه . فاصطدم هناك بزعيم تركي اسمه دانِشْمَنْد ، ولعله يتحدر من أصل أرمني . وبمساعدة عصابات مؤلفة من الاتراك المقاتلين في الثغور استطاع دانشمند هذا أن يمكن لنفسه في سيواس التي تخلى عنها البيزنطيون ، وان يبسط سلطانه في اتجاه الشمال حتى أنْقِرَة وأماسِيَه ونكسار ، وفي اتجاه الجنوب حتى ألبِسْتان . وفي سنة ١١٠١ انتزع ملطية من جبريل بعد ان اخفقت محاولة بوهمند الى انقاذه . وإذ لم يخطر له على بال أن يركّز سلطته ، القائمة على أساس السلب ليس غير ، في حكومة مستقرّة فقد انحلت هذه السلطة عندما أعاد البيزنطيون ، يساعدهم الصليبيون ، ضم غربي الاناضول الى امبراطوريتهم . ولكن قِلِج أرسلان لم يوفق الى الاستيلاء على ملطية والتمكين لنفسه في ميّافارقين إلا بعد وفاة دانشمند سنة ١١٠٦ ، ليسعى من هناك ، شأن ابيه من قبله ، الى ان ينشيء منطقةً جديدة لنفوذه في الشرق . والواقع أنه لقي حتفه فيما هو يتقدم الى الموصل ، سنة ١١٠٧ ، في معركة نشبت على ضفاف الخابور .

خلفاء سليمان

بعد ذلك ، قصر خلفاؤه نشاطهم على آسية الصغرى . فاستولى ابنه

مسعود على قُونيِّة التي سبق للامبراطور [فردريك] بربروسا الألماني ان احتلها طوال اربعة عشر يوماً (١٨ — ٢٦ نوار سنة ١١٩٠) قبل ان قضى نحبه في لجج نهر اللامس في قيليقية بينا كان يتقدم نحو البلاد المقدسة في الحملة الصليبية الثالثة . والحق ان السهل المنبسط بين قونيّه وَقيساريّة (قيصرية) وهو جدّ خصيب اذا أحسن ريّه ، وينزله قومٌ من الروم لمّا يتأثروا بأهل الثغور — يسّرَ له ولخلفائه قاعدةً لانشاء دولة اسلامية سمحت لرعيتها بأن تقيم على دينها وتحيا حياتها الثقافية الخاصة ، فعل خلفاء المسلمين من قبل ، لكي تضمن للفاتحين ، من موارد جهودها ، ما يساعدهم على الانفاق عن سعة . وظلت مماكتهم تدعى « الروم » بوصفها أرضاً بيزنطيةً قديمة[١١٦] . ثم ان ابن مسعود ، قلج أرسلان الثاني ، وفّق اخيراً ، بهجوم مباغت شنّه في مجاز جارداق ، الى ان يصون حدوده من عدوان بيزنطة بعد أن هزم الامبراطور مانويل هزيمة ساحقة ، واكرهه على الصلح ، وكان [اي مانويل] يعمل ايضاً في سبيل استعادة سلطانه في الشرق . وبعد عدّة معارك مع خلفاء دانشمند ، اشترك فيها البيزنطيون وملوك « إرمينية الصغرى » ، انتزع منهم ملطية ، سنة ١١٧٧ وقضى على دولتهم سنة ١١٨٠ .

وفي عهد أولاده الذين عهد اليهم بادارة ممتلكاته وهو بعدُ على قيد الحياة ضعفت الدولة السلجوقية وتفسخت . حتى اذا تم تأسيس الأمبراطورية اللاتينية على يد فرسان الفرنجة ، في بيزنطة ، استغلّ كَيْخُسرو وابنه كَيكاوُس ، ضعفَ هذه الأخيرة وبسطا سلطانهما في اتجاه الجنوب والشمال . وقد استوليا على آطالية (آنطاليه) وسينوب وهما ثغران هامان يقع اولهما على البحر الابيض المتوسط ، وثانيهما على البحر الأسود . وبذلك انفتحت مملكتهما للتجارة العالمية ، واستطاعت بما عقدت من معاهدات تجارية

---

(١١٦) انظر ويتك P. Wittek, Le Sultan de Rum, in Mélanges Boisacq, Brussels, 1938.

ملائمة ، مع الجمهوريات الأيطالية ان تفيد من المقايضة بمحاصيلها الزراعية الوافرة . والواقع ان تدفق الثروة ، من جراء ذلك ، على البلاد مكّن الامراء من ان يرعوا صناعاتها اليدوية الفنية ، ويشجعوا على نشوء فن زاهرٍ من العمارة فيها .

وتمتاز العمارة عند السلاجقة بالواجهات الغنية الزخارف ، على الخصوص . فالمساجد والمدارس التي تم تشييدها في عهدهم تبدَهُ الناظرَ اول ما تبدهه بفخامة المداخل والأبواب . والواقع أننا نجد ههنا ، الى جانب الرسوم الهندسية وحواشي الخط ، صوراً تمثل ضروباً من النبات والحيوان ، وبذلك تحرّر الفن التركي الشعبي من نزعة الفنّ الاسلامي القديم ، الناشئة عن التجريد الساميّ ، الى تحاشي التصوير والتنكر له . اما في البيئة الثقافية التركية فقد ظلت هذه الزخرفة الحيوانية مقصورة على المنشآت العامة غير الدينية ، من مثل سور قونية ، في حين استغرق الطرازُ نفسهُ واجهات الكنائس في اوروبة الغربية ، من طريق إرمينية والروسيا (١١٧).

ولكنّ الثروة عادت على السلاجقة بعواقب وخيمة أيضاً . ذلك بانهم انغمسوا في المتارف فلانت نفوسهم ، وانقطعت الأسباب ما بينهم وبين الخدمة العسكرية ، على تراخي الايام ، ليتخلوا عن صناعة القتال للمرتزقة من الروم والأرمن والعرب . وفي سنة ١٢٣٩ على عهد كيخسرو الثاني ، أعلن الشعب سخطه على استهتار الامراء وتفسّخهم . ومهما يكن من شيء ، فقد قمعت الثورة التي قادها الدرويش بابا اسحق بقوة السلاح . ولكن المغول كانوا قد اقتحموا ، قبل ذلك ، أبواب آسية الصغرى ، وانزلوا بقوات كيخسرو الثاني هزيمة شنعاء ، في قوز طاغ سنة ١٢٤٣ . ومع ذلك فقد استطاع كيخسرو أن يشتري استقلاله من المغول بجزية ثقيلة تعهّد بدفعها اليهم . حتى إذا توفي سنة ١٢٤٥ ، ونشب النزاع بين

(١١٧) انظر ديز .E. Diez, **Die Kunst der islamischen Völker, p. 125.**

ولديه عزّ الدين وركن الدين توسط هولاكو بينهما ، جاعلاً الخط الممتد على طول نهر قيزِلْ إرْماق حداً يفصل ممتلكات كل منهما عن الآخر . وحاول عزّ الدين ان يحالف مماليك مصر الذين وفقوا ، دون غيرهم ، الى النجاح في مقارعة المغول ، فعوقب على ذلك بان حُرم ممتلكاته ، في حين أُخضع اخوه لرقابة عامل مغولي يُعرف باسم « بَرْوانه » . وما هي إلا فترة يسيرة ، حتى خلع هذا العامل ركنَ الدين ، ليتفرّد بالحكم بوصفه وصياً على غياث الدين ابن ركن الدين . عندئذ استنجد الامراء الاتراك [بالسلطان] بيبرس الذي هزم المغول عند ألبسْتان ، سنة ١٢٧٧ ، واندفع فاتحاً حتى بلغ قيسارية . وإذ لم يُلف أي تأييد في البلاد فقد تعين عليه ان يغادرها في وقت قريب ، فلم يكن من « أباقا » الا أن أنزل أشدّ العقاب بالامراء ، وبـ « برْوانه » ، لقعوده عن حرب بيبرس . وهكذا قضي نهائياً على استقلال المملكة .

إمارات الغزاة في غربي الأناضول

ولكنّ مُثُل الجهاد ما لبثت ان بُعثت من مرقدها ، في الثغور ، كرة اخرى ، إذ برح آسية الصغرى في اثر المغول عددٌ من زعماء الدين ورؤساء الطرق الصوفية ونزلوا بلاد الاناضول . وهناك أحيوا فكرة الحرب المقدسة [الجهاد] ضد البيزنطيين ، في حين انهمك هؤلاء في استعادة سلطتهم على البلقان ، مفرّطين بذلك في جانب الدفاع عن آسية الصغرى . وهكذا اجتاح الاتراك غربي آسية الصغرى ، من جديد ، وأقام امراء الغزاة دويلات مستقلة في مختلف المقاطعات . فنزل القَرَمانيون في ليقاوُنية القديمة وإيسوريا ، ونزل الكَرَمْيانيون في كوتاهية ، واستقر الحميديون في ميسيه ، والصاروخان في مَغنيسيه . ولم يُقض على هذه الامارات ، نهائياً ، الا عند ظهور العثمانيين . وبينا كان الغزاة السابقون يتقدمون برّاً ، نلاحظ ان واحدة من اقدم هذه الامارات واعظمها شأناً

قد نشأت نشأة بحرية . فمن سواحل ليقية وبمفيلية اندفع الاتراك بزعامة قبيلة المنتشا ، ومساعدة رواد البحر البيزنطيين الذين فقدوا حيويتهم بعد انحلال الاسطول سنة ١٢٨٤ ، الى قاريا (منتشا) ، وتوغلوا في حوض نهر مندرس ، ومن هذه السواحل التي احتضنت ، حتى في العصور القديمة ، دولة من دول القرصنة تهددت الامبراطورية الرومانية ذاتها بالخطر ، اجتاحوا شواطىء بحر إيجة ، بل فتحوا رودس ، واخضعوها لحكمهم حتى اخرجهم منها فرسان القديس يوحنا سنة ١٣١٠[١١٨] . وإذ قد وجدوا أنفسهم في مأزق صعب يهددهم باعظم الأخطار ، تحالفوا مع جارتهم الشمالية ، إمارة آيدين ، التي ظلت تشيع القلق والاضطراب في بحر إيجه ، الى أن وفق اهل البندقية الى عقد تحالف مع قبرس وفرسان القديس يوحنا فقضوا على سلطتهم باحتلال إزمير سنة ١٣٤٤ .

العثمانيون

وكان العثمانيون من بين اولئك الاتراك الذين حملوا راية النضال ضد البيزنطيين ، فحظوا بنجاح خاص . وتذهب الرواية التي تعرض لنشأتهم إلى ان عشيرة قايي ، احدى قبائل الغزّ التركية ، اضطرت الى ان تتراجع في وجه المغول المجتاحين لأراضي خراسان وتلتمس الحماية من خوارزمشاه جلال الدين منكبرتي الذي هداها الى المراعي القائمة في شمال غربي إرمينية . حتى اذا صُرع حاميهم عزم زعيمهم سليمان على العودة بهم الى نجاد آسية الوسطى ، بعيداً عن فوضى النزاع القائم بين الدويلات على ارض الحضارة القديمة . ولكنه لم يلبث ان قتل فيما هو يضرب في البلاد ، عند مخاضة على الفرات قرب مشارف حلب ، فانقلب ابنه الثالث ،

---

(١١٨) انظر ويتك P. Wittek, **Das Fûrstentum Mentesche, Studie zur Geschichte Westkleinasiens im 13. - 15. Jahrhundert (Istanbuler Mitteilungen, Published by the Istanbul Section of the Archaeological Institute of the German Reich II) Istanbul, 1934.**

أرْطُغرل ، بالقسم الأصغر من القبيلة ، على الأقل ، وهو يضم نحواً من مائة أسرة ، الى آسية الصغرى ، ليلتحق واياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي ، سلطان قونية . فأقطعه علاء الدين المستنقعات الواقعة على الحدود ، قبالة البيزنطيين ، عند سكود في وادي « قره صو » (الفرات الغربي) وجبلي طومانيج وأرمني طاغ ، وترك اليه توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه النصارى . وتزعم الرواية ان ابنه عثمان ، المولود على ما هو متعارف ، سنة ١٢٥٨ ، قد نقل مقره منذ سنة ١٢٨٨ ، من سكود الى ملانْجِنون التي تقع أبعد الى الجنوب ، والتي فتحها وجعل اسمها « قره جه حصار » .

ولكن هذه الرواية لا تثبت على النقد التاريخي . ففي نقوش جامع بروسّه الذي بناه اورخان بن عثمان سنة ١٣٣٤ نجد أنه يلقب نفسه بمجرد « السلطان » ، ابن سلطان الغزاة ، الغازي ابن الغازي مرزبان الآفاق ، بطل العالم »[١١٩] . وهذا اللقب « سلطان الغزاة » هو الذي عُرف به أحد معاصري أبيه ، أمير آيدين على ضفاف نهر مندرس ، بعد ان خلعه عليه أحد زعماء المولوية في قونية . وعلى الطريقة نفسها ، سبق لعثمان ، والد أورخان ، ان تسلم من حميه أدَه بالي ، رئيس المشايخ الصوفية ، منطقة الجهاد والسيف بوصفه غازياً (مجاهداً في سبيل الله) . كذلك كان السلاطين العثمانيون في استانبول ، في ما بعد ، يقلّدون سيف عثمان من قِبل امام جامع ايوب على القرن الذهبي ، وبذلك يتقبلون البيعة . فلما استأنف عثمان الحرب ضد البيزنطيين تقاطر اليه المجاهدون من ارجاء آسية الصغرى جميعاً ، ومن القبائل التركية على اختلافها . ولحق الـ « أخيان * » — أي جماعات الصناع والتجار المنظمة على غرار الطرق الصوفية والمنتشرة لذلك العهد في طول آسية الصغرى وعرضها — بالمجاهدين الى الدولة الناشئة

(١١٩) انظر ويتك P. Wittek, Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum, Byzantion XI (1936) 285 - 318, p. 315.

(*) جمع كلمة « أخي » التركية . (المعربان)

حيث خدموا المحاربين باستثمار غنائمهم . ويستبعد ان يكونوا قد قاموا بدور رئيسي في تأسيس الدولة ، كما قد ظُن سابقاً . ثم ان العلماء تبعوهم ممثلين للحضارة الاسلامية . أما في شؤون المال فقد أثبت النصارى واليهود انهم ضرورةٌ لا يستغنى عنها ، شأنهم في جميع الدول الاسلامية .

ومن « قره جه حصار » قاد عثمان شعبه القوي ، الذي كانت ترفده القبائل التركية كلها ، على الدوام ، بعناصر جديدة تزيد في قوته وحيويته ، الى بحر مرمرا والبحر الأسود . وفي اتجاه الغرب الى يني شَهر (يكي شهر) التي تسيطر على مخاضة نهر سقارية . وفي سنة ١٣٠٠ أقطع « قره‌جه حصار » لابنه اورخان ، من جديد . وكان المغول منهمكين ، في تلك الأثناء ، في القضاء على سلاجقة قونية فلم يعكروا على العثمانيين صفوهم في اقصى الشمال الغربي من آسية الصغرى .

وكان عثمان على فراش الاحتضار في سكود عندما توج ابنه أورخان ، سنة ١٣٢٦ ، اعماله الكبيرة باحتلال بروسّه الواقعة على سفح الاولمبوس « كَشيش طاغ » . ثم انه دفن اباه في كنيسة القصر ، التي حوّلت للتوّ والساعة الى مسجد . ومن ذلك الحين اضحت بروسّه مدينة العثمانيين المقدسة . وسرعان ما شيدت هنا ، في العاصمة الجديدة للمملكة ، منشآتٌ فخمةٌ رائعة . وليس من شك في ان اقدم مساجدها — أُولُو جامع ، وهو يتألف من صحن بسيط ترتفع أروقته الخمسة على اساطين مربعة ، وتعلو كل رواق اربع قباب قائمة جنباً الى جنب — لم يُبنَ الا في عهد مراد الاول ، خليفة أورخان . وفي سنة ١٣٢٧ سقطت إزْميد ايضاً في يد أورخان الذي عبّر ، بوصفه مسلماً صادقاً ، عن تقديره للمعرفة — تلك التي كانت رعايتها عنواناً من اعظم عناوين المجد عند الحكام المسلمين في جميع الأجيال — فانشأ أول جامعة عثمانية (مدرسة) وعهد في ادارتها الى داود القيصري ، احد العلماء الذين تلقوا علومهم في مصر .

وحاول البيزنطيون استخلاص نيقيه * على الأقل ، ولكن الجيش الذي اسندوا اليه هذه المهمة لم يلبث ان هزم عند طَاوْشَانْلي ** سنة ١٣٣٠ . وتعيّن على المدينة أن تستسلم للعثمانيين . وما هي إلا فترةٌ حتى استعادت مكانتها كمركز لصناعة القاشاني ، ومقرٍ لعدد من معاهد التعليم . وفي سنة ١٣٣٥ تنازعت أسرة اورخان الملكية عرشَ دويلة قَرَة سي المجاورة (في ميسيه القديمة) ، وكانت عاصمتها بَرْغَمَه ، فنشأت عن ذلك فرصة مواتيةٌ للتدخل في شؤون تلك البلاد . ولكنها لم تُخضع نهائياً — في ما يبدو — حتى سنة ١٣٤٥ .

الادارة العثمانية في عهد أورخان

وسرعان ما ظهرت الحاجة ملحّة ، الى تنظيمٍ اكثر تماسكاً وإحكاماً . ولما كان الامراء[١٢٠] انفسهم يُرجعون حقوقهم الاقليمية الى إرادة صدرت من سلطان قونية باقطاعهم أرضاً بعينها ، كذلك كانوا هم بدورهم يُقطعون أبناء قبائلهم ومن أبلى بلاءً حسناً من رفاقهم في السلاح ، إقطاعات في البلدان المفتوحة ، لقاء تعهدهم بتقديم الفرسان للخدمة العسكرية . والحق ان هذا الغرض العسكري من الاقطاعات كان يتمثل في دعوتها سناجق ، يعني رايات . ولقد جعلت بروسه ، بعد احتلالها ، عاصمةً لسنجق جديد أُقطع لوليّ العهد مراد وعُرف باسم « خُداوَند » (ارض الحاكم) . ثم انه نشأ في ما بعد سنجقان اولهما سلطان اونو (سلطان اوكي) وينتظم مراكز العثمانيين القبلية في الجنوب الشرقي وثانيهما قُوجَه إيلي ويشمل المناطق الساحلية في الشمال الغربي ، وقد دعيت باسم فاتحها وواليها الاول : آقجه قوجه .

(*) « إزنيق » عند الأتراك . (المعربان)

(**) Philokrene (المعربان)

(١٢٠) ظل الحكام العثمانيون يدعون أنفسهم بالأمراء ، في كثير من الأحيـان ، حتى سنة ١٤٧٣ .

وكانت النزعات الشيعية التي تتمثل في الدراويش ذوي النفوذ البعيد ، لا تزال تسيطر على الحياة الدينية عند العثمانيين ، سيطرة مطلقة كالتي كانت لها في القبائل التركية الاخرى . وكان المفروض في قانون المملكة الشرعي ان يستند – نظرياً على الاقل – الى التشريع الالهي الذي جاء به القرآن والى السنّة كما تصورها احاديث النبيّ الشفهية ، ليس غير . ومع ان الشيعة لم ترفض هي ايضاً هذه السنّة ، بحال من الاحوال ، فإنها على خلاف اهل السنّة ، بالمعنى الضيق المحدود ، لم تعترف بغير الائمة حملةً لحديث الرسول ، ولم تأخذ برواية احد من المحدثين غير المنتسبين الى الدوحة النبوية ، في حين اعتدّ اهل السنّة هؤلاء المحدثين ثقات كالمحدثين من آل البيت . ومهما يكن من شيء ، فلما كان هذان المصدران انفسهما لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها ، هذه الحياة التي تعقدت اكثر من ذي قبل والتي انتهت الى ان تنهض على اسس اقتصادية تغاير الأسس القديمة بالكلية ، فقد تعين على الدولة ان تعترف ، علاوة على الشرع الالهي ، بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة . ذلك بأن هذا الشرع الالهي ، كان ، حتى في ذلك الوقت ، أصلب من أن يجرؤ احدٌ على تكييفه وفقاً للاحوال الجديدة ، فِعلَ الفقهاء خلال القرون الاولى للهجرة . وهكذا نشأ « القانون » ، عند العثمانيين ، بالاضافة الى « الشرع الشريف » ؛ وقد أُقرّ له ، منذ البدء ، بالقدرة على التطور ، واضاف السلاطين اشياء كثيرة اليه ، في ما بعد .

وإنما تُنسب اقدم القوانين غير الدينية الى اخٍ للسلطان أورخان اسمه علاء الدين . وقد اعتزل العالم ، على ما تقول الرواية ، وهو في ميعة الشباب ، ثم انقلب الى البلاط واضعاً علمه بالقانون في خدمة الدولة . وهكذا جرى العرف على اعتباره اول وزراء الامبراطورية . ويقال انه انفق جهده ، بادىء الامر ، في معالجة شؤون ثلاثة : السكة (العملة أو النقد) واللباس ، والجيش .

السكة

والواقع ان حق الامير المسلم في ان يضرب النقود باسمه كان يعتبر منذ عهد طويل ، كالدعاء له على المنابر ، رمزاً الى استقلاله وسيادته . ولقد كان على الامراء العثمانيين ، بحكم تابعيتهم لسلاطين قونيه ، ان يسمحوا على اية حال لنقود هؤلاء السلاطين بحرية التداول في اراضيهم فترة طويلة من الزمان ، على الرغم من اهتمام الذين ارخوا للعثمانيين بالنص على انهم مارسوا حق ضرب النقود ، في عهد باكر جداً . ولكن الرواية القائلة ان علاء الدين لم يأمر بضرب النقود الفضية باسم اورخان حتى سنة ١٣٢٨ هي وحدها الرواية الموثوقة ، على التحقيق . ولقد جاءت هذه السكة الجديدة مماثلة للنقود التي ضربها السلاجقة على الغرار البيزنطي . والمعتقد ان وزنها الكامل كان يبلغ ستة قراريط ، اي ما يعادل ربع الدرهم المتداول في البلدان الاسلامية الاخرى . ولقد أطلق على القطعة النقدية ، كما كان الحال في آسية الصغرى كلها ، اسم « آقجه » (قطعة بيضاء) ترجمةً لكلمة « البيضاء » Aspron الشائعة في بيزنطة منذ القرن العاشر . واقدم ما حفظ لنا من هذه النقود يحمل على وجهه الاول كلمة الشهادة ، في حين يحمل على وجهه الثاني اسم الامير باللغة الدارجة « أوخان » * وهذا الدعاء : « خلد الله ملكه » . والجدير بالملاحظة اننا لا نقع في هذه النقود على ذكر لاسم الأب كما لا نقع على اشارة الى زمان الضرب ومكانه .

تنسيق اللباس

وقد يستولي الدهش على الغربي المحدث حين يسمع بمسألة تنسيق اللباس ، هذا التنسيق الذي كان واحداً من اقدم الاركان التي قامت عليها الدولة العثمانية . بيد ان اللباس كان في الحضارات القديمة لازماً من لوازم

(*) سقطت الراء من أورخان لأن اللهجة التركمانية العامية كثيراً ما أهملت لفظها أو اختلستها . (المعربان)

الشخصية الاساسية – شأن الزي العسكري الموحد اليوم – لا مجرد مظاهر ضرورية ، ولكنها خارجية ، تعتمد في الغالب على ذوق لابسها . والحق ان اللباس لا يميز الطبقات الاجتماعية ، بعضها من بعض ، فحسب ، ولكنه يميز بعض الشعوب من بعضها الآخر ، ايضاً . واذ كانت حقوق الشعوب في الدولة الاسلامية متفاوتة الى ابعد حدود التفاوت ، فلم يكن في وسع الشارع الا ان يعنى بفوارقها الظاهرة ايضاً . وكما ميز الطربوش الرجل العثماني من الرجل الاوروبي ، منذ اصدر محمود الثاني امره باصطناعه الى ان الغاه مصطفى كمال سنة ١٩٢٥ ، وكما لا يزال يميز المصري اليوم ، كذلك كان غطاء الرأس يعتبر ، طوال اجيال ، العلامة الفارقة في اللباس ، عند الشرقيين .

ولقد اختار علاء الدين لرجال البلاط والجند اللون الابيض علامةً مميزة لقلانسهم الطويلة المخروطية الشكل التي كانت شائعة في ذلك الوقت والتي كانت منتشرة في نواح مختلفة من بلاد الفرس حتى عهد قريب . أما السلطان نفسه ، واما البكوات في المناسبات الرسمية ، فكانوا يلفون قلانسهم بالعمامة ، التي لم يتسع نطاق استعمالها ، الا في ما بعد .

تنظيم الجيش

وفي ما يتصل بتنظيم الجيش تزعم بعض المصادر ان السلطان وأخاه اعتمدا قاضي العسكر في بيله جك ، قره خليل جاندرلي خير الدين باشا مستشاراً فنياً ، في حين ان بعض المصادر الاخرى لا تشير الى ظهوره حتى عهد مراد(١٢١) . والواقع أن الاتراك اشتهروا منذ خروجهم من البوادي ، بانهم فرسان بارعون جريئون الى حد التهوّر ، بيد انهم كانوا لا يفقهون معنى للتنظيم الفني . ولئن اثبتوا تفوقهم على مرتزقة البيزنطيين المتفسخة ،

(١٢١) انظر تنشنر وويتك **Fr. Taeschner and P. Wittek, Die Vezierfamilie der Gandarlyzade und ihre Denkmäler, Islam 18, 60 - 115.**

في الميدان الطلق ، فقد كانت حرب الحصون والمراكز المنيعة تتطلب مقدرات عسكرية اخرى . والحق ان الحاجة كانت أمسّ ما تكون الى انشاء جيش من المشاة . ولقد عمل السلطان ، بادىء الامر ، على تأليف ذلك الجيش من الاتراك انفسهم . فكانت الدولة تدفع الى اصحاب الاقطاعات العسكرية المنتخبين لفرق المشاة ، آقجة واحدة كل يوم ، طوال الحملة . وكانت هذه الفرق مقسمة الى وحدات تتألف من عشرة انفار ومئة نفر والف نفر . ولكن هذا التنظيم لم يصمد للتجارب . ذلك بأنّ هذه الخدمة العسكرية التي لم يكن للاتراك عهد بها من قبل حملت الناس على المغالاة في مطالبهم ، فوطّن اورخان نفسه على حل هذه القوّة بعد وقت قصير .

والمشهور ان جاندرلي هو الذي اقترح على اورخان إحياء العرف الاسلامي القديم الذي يقضي بان يحتفظ بيت المال بخمس الغنائم ، وبذلك ضمن للدولة مورداً يمكنها من الانفاق على جيش نظامي تحتفظ به على قدم الاستعداد . ولقد حاول ان يستعيض عن فرقة المشاة الاتراك بفرقة يؤلفها من النصارى الذين كانوا يألفون هذا النوع من الخدمة العسكرية . واذ كان من اهم المبادىء التي يقول بها الشرع الاسلامي ان للمسلمين وحدهم الحق في حمل السلاح ، فقد تعين على الدولة أن تُكره النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد ، على الدخول في الدين الاسلامي . وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بأن انتزعت الف غلام نصراني من بيوت آبائهم واكرهتهم على رفض معتقدهم ؛ بيد أن تطلّع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له . والواقع ان هذه « القوة الجديدة » (يني جري « يكي جري » ومنها الانكشارية) التي ترقى على ما يُظن الى سنة ١٣٣٠ نُظمت تنظيماً شبه ديني على غرار جمعيات الفرسان النصرانية التي انشئت للنضال ضد اعداء الكنيسة . وقد سبق لآسية الصغرى ان كانت دائماً ارضاً خصبة جداً لمختلف الطرق الدينية المنصرفة الى حياة الزهد والتصوف ، العاملةايضاً في حقل الخدمة الاجتماعية ،

وفي العناية بأمر الرحالة [المسافرين] الاجانب على الخصوص . وقد التحق بهذه الفرق جماعات من الشعب غير « المريدين » من مثل الـ « أخيان » الذي سبق ذكرهم . وهكذا انضوى الانكشارية تحت لواء الطريقة البكتاشية ؛ وتزعم الاسطورة ان مؤسسها قد بارك هذا الجيش الجديد ، عند انشائه . كذلك نعمت الخيالة بتنظيم أشد إحكاماً ، في عهد أورخان . وإنما جعل في أساس هذا التنظيم جيشاً يتألف من الفرسان المختارين ذوي الرواتب النظامية ويدعى « بولوكات اربعة » (الفرق الأربع) ــ وكان ينتظم اول الامر ، ٢٤٠٠ من الرجال الاشداء ليس غير ، ثم انتهى بعد الى ان ينتظم ستة عشر الف رجل . ولقد كلف هؤلاء امر حماية الراية الامبراطورية التي استعيض عنها منذ عهد السلطان سليم الاول بالراية النبوية . وبالأضافة الى هذه الفرق ظلت هناك كتائب الفرسان الاقطاعية ، او « المسلّمون » ، (المعفون من الضرائب) وكانت خاضعة لامرة بكوات السناجق .

بهذه الجيوش المنظمة تنظيماً جديداً استطاع اورخان ان يواصل حملاته ، في عنف متزايد ، على المدن الساحلية . فما هي الا فترة حتى حاولت الثغور البحرية الكبرى صيانة تجارتها من طريق الدخول في طاعته . وعلى الرغم من الاخفاق الذريع الذي مني به هجومه على بيزنطة نفسها ، سنة ١٣٣٧ ــ وكان يقصد الى الاقتصاص من الامبراطور قانتاقوزن لدخوله مع السلاجقة في حلف دفاعي ضده ــ فقد اوجس الامبراطور خيفة من جيوش اورخان المندفعة نحوه من الجوار القريب ، حتى لقد آثر التحالف معه ، موقتاً ، ليعود في سنة ١٣٤٥ فيزوجه ابنته ، ابتغاء توثيق صلاته به الى اقصى الحدود . ولكن هذا الزواج لم يحل بين العثمانيين والاندفاع الى الامام ، فقد وفقوا ، بقيادة وليّ العهد الامير سليمان ، الى تثبيت اقدامهم في غاليبولي ، في شبه جزيرة تراقيه سنة ١٣٥٧ . واياً ما كان ، فسرعان ما قضى سليمان نحبه ، بُعيد هذا النصر ، فدفن فيها .

وتوفي اورخان سنة ١٣٦٢ فخلفه على العرش ابنه الثاني ، مراد ، الذي اتجه اهتمامه ، في الحال ، نحو شبه جزيرة البلقان ، حيث كان عدد من صغار الحكام ، لا يكاد يحصى ، يتنازعون السلطان ، ويفني بعضهم بعضاً في حروب موصولة الحلقات . وكان عليه ، في الحق ، ان يقضي على جمهرة من الخصوم في آسية الصغرى قبل ان يندفع في ذلك الاتجاه . ففي انقرة التي سبق لاخيه سليمان ان ضمها الى ملك ابيه ، سنة ١٣٥٤ ، كانت الادارة لا تزال في المحلّ الأول ، في ايدي تجار كبار منخرطين في جماعات الـ « أخيان » وهو وضع طبيعي في ثغر من الثغور النائية آنذاك . وحسب هؤلاء التجار ان في استطاعتهم ان يستغلوا موت أورخان وقيام ابنه من بعده للتخلص من نير الحكم الاجنبي ، فتحالفوا مع جيرانهم سلاجقة قرمان . ولكن مراداً وفق الى القضاء على مناوئيه في حملة سريعة(١٢٢) قادته حتى تُوقات ، ومن ثم صار في ميسوره أن يفرغ للحرب البلقانية . فاتخذ ديمتُوقه قاعدة لأركان حربه ، وحمل على امراء البلقان فتساقطوا واحداً اثر واحد في قبضة العثمانيين الذين كانوا جادّين في سبيل تحقيق اهدافهم السياسية ذات الاثر البعيد . وفي سنة ١٣٦٢ فقد البيزنطيون أدْرَنة ، فاتخذها الامراء العثمانيون عاصمة لهم من سنة ١٣٦٦ حتى سقوط القسطنطينية . وحاول البابا اوربانوس الخامس ان يدعو النصارى الى صليبية تستنقذ ادرنة من ايدي المسلمين ، ولكن عبثاً . وعلى الرغم من ان جيشاً من فرسان النصارى ، يقوده اماديوس كونت سافوا ، استطاع ان يوطد اقدامه في غاليبولي فترة قصيرة من الزمان ، فقد أخفق في التفاهم مع البيزنطيين على خطة مشتركة ، فاضطر الى الانسحاب في وقت قريب . وانتهى الاباطرة من اسرة بليلوجيوس الى ان يصبحوا شيئاً بعد شيء

(١٢٢) انظر ويتك .P. Wittek, in **Festschrift Jacob**, 354

اكثر اعتماداً على الاتراك ، بل لقد تعين عليهم في ما بعد ان يقدموا الى هؤلاء مساعدة عسكرية عند فتح آلاشهر (فيلادلفيا) .

موقعة قوصوه

وكان لاختلاف صقالبة [سلاف] البلقان وتفرّق كلمتهم أثره في تغلب العثمانيين عليهم ، في سهولة ويسر . ففي سنة ١٣٧١ ، بينا كان مراد في آسية ، حاول الصرب* ان يقصوا عن اعناقهم نير الاستعباد الذي كان يتهددهم ، فشنوا هجوماً [على العثمانيين] بقيادة « ووقاجين » . ولكن حاجيّ إيلبَكي هزمهم هزيمة شنعاء عند شِرْمَن (جرمن) على ضفاف نهر مَريج فانتهوا الى ان يفقدوا ممتلكاتهم في مقدونية . ثم ان العثمانيين احتلوا بعد ذلك صوفيا ونيش ، سنة ١٣٨٥ — ١٣٨٦ . وأتم خيرالدين باشا فتح مقدونية من غاليبولي (حيث شيد سنة ١٣٨٥ الجامع الكبير : اسكي جامع) يساعده في ذلك قائد الجيش اورنوس بلك الذي التحق ، بعد سقوط اسرة قرەسي التي ينتمي اليها ، بخدمة سليمان . ومن كوملجِنه التي فتحها اورنوس ، استولى العثمانيون على سَرِي ، وكانت محل نزاع بين الصرب والبيزنطيين ، ومن هناك فتحوا سالونيك ، وأعملوا السلب والنهب في شمالي بلاد اليونان حتى أقرْنانيا . وكان قيصر بلغارية ، شِشمان الثالث ، قد اقتسم هو واخوه سَراسِمير المقيم في وِدِين (سنة ١٣٦٤) امبراطورية ابيهما الاسكندر وصاهر مراداً . ولكن تقدم مراد في البلقان لم يلبث أن أثار مخاوفه فعقد حلفاً مع الصرب والبشناق . وفي سنة ١٣٨٧ تصدى القائد التركي لالاشاهين للجيوش المتحالفة ، عند بلوِشنك ، فأوقعت به هزيمة ساحقة ، وقضت على جيشه قضاء يكادُ يكون تاماً . والواقع ان هذا النصر ما كان ليتم لولا انهماك مراد ، مرة اخرى ، في شؤون آسية . وكان ساوْجي ، وهو ابنه الأكبر ونائبه في

(*) وفي بعض المصادر وردت بالسين . (المعربان)

حكم اوروبة ، قد خرج على طاعته وعقد حلفاً مع احد الأمراء البيزنطيين وامير قرمان السلجوقي . ولكن الحلفاء هُزموا في قونية ، سنة ١٣٨٦ . وفي سنة ١٣٨٨ وفق علي باشا ابن قره خليل جاندرلي ، الى ان يثأر لهزيمة العثمانيين في البلقان . فعبر وثلاثين الفاً من رجاله مجاز « نادر » واحتل مدينتي تِرْنُوَه وُشملا . وُطوّق القيصر ششمان في نيقوبوليس على نهر الطونه (الدانوب) ، ولكن الاتراك صالحوه على أن يدفع اليهم الجزية ويتنازل لهم عن سِلِستْرَه . حتى اذا خرق هذا الاتفاق حاصروه كرة اخرى عند نيقوبوليس واكرهوه هذه المرة على التسليم دون قيد او شرط ، ولكنهم ابقوا على حياته وحفظوا له عرشه . وفي السنة التالية تمّ تحالف آخر كبير ضد العثمانيين . وهكذا التقى العثمانيون في ١٥ حزيران سنة ١٣٨٩ بالقوات الصربية - تساندها جيوش اضافية من البشناق والمجر والبلغار والالبانيين [الأرنأوط] - في ميدان الطيور السود (قُوصُوَه) حيث تنبع الأنهار الثلاثة : إيبار وفارادار * ودَرِينه ، وكان يقود العثمانيين هذه المرة مراد نفسه ، بعد أن جمع ابناه بايزيد ويعقوب واتباعه [امراء] صاروخان ومنتَشا وآيدين وحَمِيدْ الجيوشَ الاسيوية . وكانت المعركة عنيفة تنازع فيها الفريقان راية النصر ، غير مرة ، وأبدى النصارى من شديد المقاومة ما كلف العثمانيين خسائر فادحة ، وقُتل مراد نفسه في هذه المعركة . وتذهب الروايات التركية الى ان ميلوش كوبيلتش ، وهو مقاتلٌ صربيّ أصيب بجراح فانطرح في الميدان ، انما قتله غيلة وغدراً . واما الملاحم الصربية فتزعم أنه صُرع في خبائه بخناجر اثني عشر بطلاً اخذوا على أنفسهم عهداً بقتله . بيد ان العثمانيين ما لبثوا ان أسروا ملك الصرب ، لازار ، بعد ان انفضّ من حوله حلفاؤه ، وقطعوا رأسه ورؤوس رفاقه عند أسرهم وفقاً لأوامر السلطان المحتضر ، على ما يُزعم . وهنا لمّ وليّ العهد ، بايزيد ، وكان يقود الجناح الأيسر ، شمل قواته المتضعضعة

(*) « واردار » في التركية المكتوبة بالأحرف العربية . (المعربان)

وقادها الى النصر النهائي على القوات الصربية التي فتّ في ساعدها هلاك مليكها (١٢٣) .

وانصرف بايزيد بكليته — وبأكثر مما فعل اسلافه انفسهم — الى الاهتمام بالشؤون العسكرية ، هذه الشؤون التي لم يعد يعالجها بوصفه زعيماً لجماعة من الغزاة المجاهدين ، بل كرئيس لدولة عظمى . وما هي إلا فترة قصيرة حتى استشعر جيرانه مبلغ قوته وسلطانه . ففي سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيون آخر ممتلكاتهم في آسية الصغرى ، مدينة آلاشَهْر ، ليضطرّ الامبراطور الشاب مانويل ، بعد ذلك ، الى ان يُمدّ السلطان على اتباعه [اتباع مانويل] المخلصين . وبعد ثلاث سنوات أخضع البلغار إخضاعاً تاماً . ولقد رأس البطريرك يوثيميوس حركة المقاومة الأخيرة ، في العاصمة تِرنوَه ، بعد سقوط أميرهم ششمان .

صليبية جديدة

وكان طبيعياً ان تثير هذه الانتصارات العثمانية جزع الغرب ، فاذا بالبابا بونيفاسيوس التاسع يدعو الى الحرب ضد المسلمين في فرنسة ، والبلدان المجاورة لجبال الألب ، وجنوبي ألمانية ، واذا بالفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمد طويل تعود الى الظهور ، فلا يطل ربيع سنة ١٣٩٦ حتى يكون سيجسْموند ملك المجر قد استطاع ان يجمع حوله ، في بودا ، جيشاً قوياً من الفرسان تقاطروا اليه من بلدان أوروبة الغربية . ولكن فقدان روح النظام عند هؤلاء المحاربين في سبيل الايمان جعل حماستهم عديمة الجدوى بالكلية . وذهبت جميع جهود سيجسموند لقيادتهم في حرب منظمة أدراج الرياح . وهكذا وفق بايزيد ، في ٢٧ أيلول ، الى ان ينزل بهم ،

---

(١٢٣) راجع برون **M. Braun, Kosovo, Die Schlacht auf dem Amselfelde in geschichtlicher und epischer Uberlieferung (Slav. balt. Quellen und Forschungen, Published by R. Trautmann, VIII) Leipzig, 1937.**

عند نيقوبوليس ، هزيمة قاسية . وتوغلت الجيوش العثمانية اللاحقة بفلولهم حتى ستيريا . ثم ان بايزيد اقتصّ من حكام شبه جزيرة المورة اللاتين الذين حالفوا الصليبيين فدمر أراضيهم . وفي سنة ١٣٩٤ ارسل بايزيد ، وهو في أوج انتصاراته ، بعثة الى الخليفة المتوكل المقيم في القاهرة طالباً منه ان يخلع عليه لقب سلطان الروم لكي يسبغ على السلطة التي تمتع بها [هو] واجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته لدى العالم الاسلامي . ولم يكن في ميسور السلطان برقوق ، حامي الخليفة ، ان يأبى عليه اجابة بايزيد الى طلبه ، اذ كان يرى في العاهل العثماني حليفه الأوحد ضد المغول الذين كانوا يهددون كلاً من بايزيد وبرقوق بخطر عظيم .

الخطر المغولي

والحق أن المملكة العثمانية كانت ، منذ فترة من الزمان ، تستشعر هذا الخطر المغولي يتهددها من الشرق ، ويمنح الروم البيزنطيين ، في الوقت نفسه ، فرصة جديدة يتنفسون خلالها الصعداء . فقد ظهر في المغول الذين أنزلوا بالعالم الأسلامي ، للمرة الثانية ، ضروب الفظائع الوحشية على اختلافها ، بطل عسكري آخر يدعى تيمور (تيمورلنك) . وانما ولد هذا القائد العظيم سنة ١٣٣٦ ، في كشْ من اعمال ما وراء النهر ، متحدراً من سلالة جنكيزخان . وحوالي سنة ١٣٦٩ خلع تيمور امير خراسان وما وراء النهر (وهو ينتسب الى جغتاي ثاني ابناء جنكيز) الذي كان مجرد رئيس اسمي لحكومة يسيطر عليها الأشراف من الجنود الاتراك . وحوّل تيمور ممتلكات جغتاي هذا الى امبراطورية جعل عاصمتها سمرقند . وكانت الأحوال البدوية أغلب على هذه المدينة ، في عهد اسلافه ، فرفعها الى مستوى الحاضرة المستقرة ، وعهد الى الصنّاع الفرس في تجميلها بالأبنية الفخمة . وعطف تيمور ، بوصفه مسلماً صالحاً ، على العلماء ورجال الدين ، وبخاصة دراويش الطريقة النقشبندية . ومهما يكن من شيء ،

فلم يقنع تيمور بهذه الامبراطورية التي تمّ له انشاؤها ، بل سعى الى ان يستعيد كامل التراث الذي خلفه جنكيز خان ، فكان يضرم نيران الحروب ، سنوياً ، في طول البلاد وعرضها ، من موسكو الى نهر الكنج وحتى سورية غرباً . وادرك بايزيد بثاقب نظره ، أن لا مفر له من منازلة هذا الفاتح يوماً ما . من أجل ذلك اتجهت همته ، منذ سني حكمه الاولى ، الى تقوية مركزه في آسية . ففي سنة ١٣٩١ انتزع قونية من صهره امير قرمان ، وكان مراد ، ابو بايزيد ، قد أبقى عليه . فلما كانت السنة التالية ، وخسر هذا الامير معركة خاضها ضد قائده تيمور تاش ، استولى بايزيد على سائر ممتلكاته . ثم إن التركمان في قيسارية ، وتوقات ، وسيواس دخلوا في طاعته ، وفي سنة ١٣٩٣ فقد امير قَسْطَمُوني ممتلكاته ايضاً . وفرّ الأمراء الذين استولى العثمانيون على ديارهم الى حمى تيمور ، ليتابعوا من هناك النضال ضد بايزيد . حتى اذا تعرض بايزيد لصاحب ارْزَنْجان الأرمني ، ايضاً ، ظهر تيمور في آسية الصغرى سنة ١٤٠٠ — وكان يعتبر صاحب ارزنجان تابعاً له — واحتل سيواس وأعمل السيف في حاميتها ، فقضى على افرادها جميعاً ، وفيهم ارطغرل ، اكبر ابناء بايزيد .

واكتفى تيمور ، بادىء الرأي ، بهذه الحملة التأديبية ضد بايزيد ، ليولي وجهه نحو مصر في حملة تخريبية مظفرة ضد صاحبها ، السلطان فرج المملوكي . ولعله ذكر ما سبق لمماليك مصر ان ابدوه من مقاومة لهولاكو ، فأراد ان لا يعرض جناح جيشه للخطر . ثم انه قضى الشتاء التالي (١٤٠١ — ١٤٠٢) في قره باغ في ما وراء القوقاز [القبق] ، بين نهري كور وآراس ، وهناك أعد العدة لمعركة فاصلة يخوضها ضد العثمانيين .

بين بايزيد وتيمور

حتى اذا اطل ربيع سنة ١٤٠٢ بدأ تيمور هجومه متقدماً نحو سهل

انقره من طريق ارزنجان وتوقات وسيواس . وهنا ، ارتضى بايزيد خوض المعركة ، عند جِبِق آباد (جِبُوق آباد) اواخر شهر تموز ، على الرغم من ان مستشاريه ألحوا عليه بخلاف ذلك ، بسبب من حال الجيش وعدم استعداده ، وتفوق العدو تفوقاً عددياً هائلاً . والواقع ان العثمانيين كان يعوزهم ، في حربهم هذه ضد اخوانهم في الاسلام تلك الحماسة الدينية التي ألهبت نفوسهم في الحروب الاخرى . ومهما يكن من امر ، فلم تدخل الجيوش النصرانية الاضافية المعركة ، تحت لواء بايزيد ، الا على كره . وعلى الرغم من هذا ، فقد بدأت المعركة صباح العشرين من تموز سنة ١٤٠٢ ، في صالح الاتراك . فهاجم الفرسان الصرب الدارعون جند المغول ذوي السلاح الخفيف ، وشدوا عليهم في حماسة بالغة ، ولكن بايزيد طلب اليهم أن يرتدّوا ، خشية أن يطوقهم العدو . وتابع المغول تقدمهم ، حتى اذا بلغوا الخطوط العثمانية نزعت العساكر السلجوقية إلى القاء السلاح والفرار بعد ان رأوا امراءهم السابقين يقاتلون في صفوف الاعداء . وثبت بايزيد وحوالي خمسة آلاف من الانكشارية في وجه تيمور وجنوده ثباتاً باسلاً حتى المساء ، وعندها لم يعد في طوق المقاومة ان تدفع الهزيمة اكثر مما فعلت . فلما هبط الليل لاذ السلطان بالفرار ولكنه أسر هو وابنه موسى ، في حين فزع ابناه الآخران ، محمد وعيسى ، إلى قرمان . واحسن تيمور ، بادىء الأمر ، معاملة الاسير ، حتى إذا قام بمحاولة مخفقة إلى الهرب ، شدد عليه الاسر وحمله معه في قفص من حديد . وتوفي بايزيد في آق شَهِر من اعمال حَمِيد ، في ٨ آذار سنة ١٤٠٣ ، فأكرمه تيمور بأن سمح بدفنه في جامع بروسه .

واعاد تيمور امراء السلاجقة السابقين إلى إمارتهم ، في آسية الصغرى ، وفتح ازمير التي كان البيزنطيون قد انتزعوها من أُومُور بك صاحب آيدين . ولكنه أبقى الروم إيلي* للعثمانيين فآلت إلى سليمان بن بايزيد ،

(*) المشهورة بالروملي . (المعربان)

الذي اضطر الى ان يعترف بسلطة تيمور ، وان يحكم البلاد كتابع له .

ثم ان تيمور يمّم وجهه قِبَل المشرق ، من جديد ؛ قاصداً مقرّه في سمرقند . وفي ١٩ كانون الثاني سنة ١٤٠٥ ، توفي في أُطرار (أترار) بينا كان يشن حملة على بلاد الصين ، فتُركت آسية الصغرى لتدبر أمرها بنفسها .

خلفاء تيمور

وقسم ابنا تيمور شاه رُخْ ومِيران شاه ، امبراطوريته شطرين شرقياً وغربياً ، يفصل ما بينهما خط ممتد على محاذاة نجد إيران . واضطر ميران شاه ، وقد آل اليه أمر العراق وآذَرْبَيجان واجزاء من بلاد القبق [القوقاز] إلى أن يخضع لسلطان أخيه ، ليُقتل ، سنة ١٤٠٨ ، في معركة خاضها ضد زعيم جماعة من التركمان تدعو نفسها قرَهْ قُيُونْلي (الخروف الاسود) . وتنازع هؤلاء وخصومهم آق قيونلي (الخروف الابيض) على امتلاك الولايات الشمالية الغربية التابعة لشاه رُخْ الذي وحّد الامبراطورية تحت لوائه ، بعد وفاة اخيه . وكان شاه رخ واعقابه — وبخاصة « أُلُغ بك » الذي كان معنياً بعلم الفلك (١٤٤٧ — ١٤٥٢) — يشملون الشعر والعلوم برعايتهم ، فأدوا بذلك خدمة جليلة الى الادب الفارسي ، والأدب التركي الشرقي . ووفق ابو سعيد ، خليفة أُلغ بك (١٤٥٢ — ١٤٦٩) ، الى ان يعيد تثبيت سلطانه من العراق الى حدود الهند ، ولكنه قضى نحبه في موقعة جرت بينه وبين أُوزون حسن الذي سيأتي ذكره في ما بعد .

واتخذ حسين بايْقَرا مدينة هراة عاصمة له من سنة ١٤٦٩ الى سنة ١٥٠٦ ، فازدهرت شأن سمرقند من قبل وامست مركزاً زاهياً من مراكز الثقافة والفن الاسلاميين . ومهما يكن من امر ، فقد اشتد ضغط قبيلة الاوزبك التركمانية ، بقيادة زعيمها شَيباني [خان] ، على الاجزاء الشرقية من امبراطورية تيمور . وفي سنة ١٥٠٠ خلع شيباني هذا [السلطانَ]

بابر ، حفيد ابي سعيد ، عن عرشه في سمرقند ، واكرهه على الهجرة الى الهند ، حيث اسس امبراطورية المغول العظام . اما في الغرب فقد انتهى خلفاء تيمور الى وضع بالغ العسر بعد ان وفق الشاه اسماعيل الى اعادة توحيد ايران على انقاض دولة اردبيل الشيعية الدينية كما سنرى بعد .

النزاع بين أبناء بايزيد

ونشب النزاع بين ابناء بايزيد عقب وفاته مباشرة . وكان محمد ، وهو أشدهم بأساً واكثرهم نشاطاً ، قد فرّ من انقرة ، في اتجاه الشرق واعتصم بالجبال المحيطة بأماسيه وتوقات . ومن هناك هاجم أخاه الاكبر ، عيسى ، الذي احتل ، قبل ذلك ، مدينة بروسه ، ورفض ما اقترحه محمد من قسمة الممتلكات الاسيوية بينهما (سنة ١٤٠٣) ؛ وهزم محمدٌ أخاه عند أُولوباد ، ثم اندفع نحو بروسه ، في حين لاذ عيسى بالفرار الى بيزنطة . ثم إن أخاه سليمان الذي لم يقنع بالروم ايلي وحدها ، ما لبث ان امدّه بجند جديد ، فتوجه كرّة اخرى صوب آسية الصغرى ، ولكنه مُني فيها بهزيمة جديدة ولقي حتفه في قرمان . وفي اواخر سنة ١٤٠٤ عبر سليمان نفسه الدردنيل ، واخرج محمداً من بروسه ، حتى اذا كانت السنة التالية اخرجه من انقرة ايضاً . عندئذ هاجم موسى ، وهو رابع ابناء بايزيد ، بلاد الروم ايلي ، يؤيده الصرب ، بايعاز من محمد ، وكان موسى هذا قد أُسر في انقرة ، ثم اطلقه امير كَرَمْيان السلجوقي . ومهما يكن من شيء فقد هزم سليمان اخاه موسى ، في القرن الذهبي ، قرب القسطنطينية ، وطارده في الدردنيل .

غير ان حياة سليمان الصاخبة وسلوكه المستهتر حوّلا عنه ولاء بطانته . فلم يكد موسى يعاود الهجوم على قواته ، بعد ثلاث سنوات ، حتى خانه اصحابه ، قبل ان تبدأ المعركة . وفي تموز سنة ١٤١٠ قتله بعض الفلاحين فيما كان يلوذ بالفرار .

ولكن موسى ابى ان يعترف لمحمد بالسيادة . ولقد استهل عهده بحملة انتقامية شنها على الصرب الذين خانوه قبل ثلاث سنوات وكانت خيانتهم ، في زعمه ، سبب هزيمته ، ففتح تَسَاليه حتى اذا ثقلت وطأته على الامبراطور مانويل تحالف الامبراطور ومحمداً ضدّه . وقد تمّ هذا التحالف على يد سفير موسى نفسه ، وكان قد عُهد اليه في جمع الجزية ببيزنطة ، فخلع طاعة مولاه والتحق بخدمة محمد . وانتهى اول هجوم قام به الحليفان ، سنة ١٤١٠ ، الى الاخفاق ، عند « ياجيغيز » . ومن ذلك الحين انهمك محمد ، طوال سنتين ، بمحاربة أميري ازمير وانقرة في آسية الصغرى . ولم يفرغ لاستئناف الهجوم في اوروبة الا سنة ١٤١٢ . وبينا كانت جيوش موسى تعسكر على ابواب القسطنطينية ، اندفع [محمد] في اتجاه الشمال حتى نيش ، ليتعاون مع الصرب الذين اعلنوا الحرب على موسى . فلما كان الصيف التالي تقدم وحلفاءه من الصرب جنوباً . فلم يكن من موسى الا ان سار في ١٠ تموز سنة ١٤١٣ لملاقاتهم على سهل « جامورلى » الضيق ، عند منبسط نهر « إسكار » شرقي صوفيا ، ولكنه هُزم بعد مقاومة باسلة ، وأسر فيما هو يلوذ بالفرار ، ليُقتل خنقاً في معسكر أخيه . وكافأ محمد الصرب واليونان على مساعدتهم ، فمنحهم بعض الامتيازات الاقليمية .

وأقرّ معظم الامراء الصغار في اوروبة وآسية بسيادة محمد عليهم بعد مقاومة قصيرة . حتى اذا حاول ان يُكره البنادقة النازلين في جزر بحر ايجه على الدخول في طاعته ، تصدت له مدينة البندقية نفسها ، ليضطرّ بادىء الامر الى التخلي عن مطالبه ، بعد ان مُني اسطوله بهزيمة قاسية عند غاليبولي ، في ٢٩ نوار ١٤١٦ .

ثورة بدر الدين الصماونوي وبوركلوجه مصطفى

ولكن مدى الهزة التي تعرضت لها آساس الامبراطورية بسبب من

ظهور المغول وما تلاه من الحروب الاهلية إنما يتمثل في حركة مذهبية بارزة اتجهت الى مناصبة الاسلام نفسه العداء. وتفصيل ذلك ان بدر الدين الصِماوْنَوِي، قاضي العسكر السابق، وكبير وزراء موسى، وأحد اقرباء امير قونية السلجوقي، كان قد نزل في نيقية (إزنيق) بعد هزيمة مولاه. وهناك انصرف هذا الفقيه الجليل – الذي سبق ان أظهر تمكنه من الشرع الاسلامي في كتاب اصطُنع للتدريس برهة طويلة – الى صوفية متعصبة ترجع في الأصل، من غير شك، الى عقيدة المهدي الواسعة الانتشار عند الشيعة، ولكنها أبعدته آخر الامر من الاسلام؛ وجعلته غريباً عنه بالكلية. والواقع ان تعاليمه الجديدة التي قالت بالملكية المشتّركة وبأن النصارى يستوون والمسلمين في الايمان بالله وعبادته قد حظيت بقبول حسن عند فلاحي آسيا الصغرى الذين كانوا يعانون، في الجملة، إرهاقاً شديداً من سادتهم الاقطاعيين، والذين عاشت الافكار النصرانية في ديارهم، على اختلافها، بعد ان اختلطت ببعض الافكار الوثنية التي عرفتها آسية الصغرى في عهودها القديمة. ثم ان مريده وحاجبه السابق، بُوركْلُوجة مصطفى، جمع اتباعه حوله في جبل «ستيلاريوس»، عند الطرف الجنوبي من خليج إزمير، تجاه جزيرة خيوس (ساقز). وسرعان ما اخذ اتباعه في الاغارة على البلاد المجاورة حتى اقليم مغنيسية، وعلى رأسهم جماعة من الصوفية (الدراويش) المتعصبين. وكان شِشْمان الصربي، الذي اعتنق الاسلام، حاكماً على آيدين، فلما جاءه الامر بضرورة القضاء على الحركة الخطرة خرج لقتالهم بحماسة متهورة، في مخارم جبل «ستيلاريوس» حيث اوقع به الثائرون وقضوا عليه وعلى جنوده جميعاً. ولم تتحسن الأمور شيئاً ما في عهد خلفه علي بك الذي استطاع، على كل حال، أن ينجو بنفسه. وهكذا اضطرّ مراد بن محمد – وهو صبي لم يكد يبلغ الثانية عشرة من سنيه، وكان يقيم في اماسيه والياً عليها – الى أن يضمّ قواته الى قوات امير الروم ايلي، بايزيد باشا، وينقض على العصاة، فيذوقوا آخر

الأمر طعم الهزيمة عند جبل قَرَه بُرُون . ومات مصطفى على الصليب شهيد معتقده ، اما استاذه بدرالدين فكان قد فرّ قبل ذلك الى الأفلاق حيث جمع فلول اتباعه واحتل ممراً جبلياً في البلقان . حتى اذا تقدم محمد بنفسه لمقاتلته ، انضمت قوات بدرالدين الى جانبه بعد ان جاءها نبأ النهاية التي قُدرت لمصطفى . وهام بدرالدين على وجهه فترةً من زمان ، ولكنّ البقية الباقية من اتباعه ما لبثت ان أسلمته ، آخر الامر ، الى السلطان ، ليموت شنقاً في سَري ، سنة ١٤١٦ ، بتهمة الخيانة العظمى .

مراد الثاني والحرب ضد المجر

وفي سنة ١٤٢١ توفي محمد في أدرنة ؛ فخلفه مراد الثاني . ولقد تعين على مراد ان يحمي عرشه ، بادىء الرأي ، من مُدّع تحالف مع الامبراطور مانويل البيزنطي ، وزعم انه مصطفى بن بايزيد (الذي قُتل في أنقرة) ، لينصرف [مراد] بعد ذلك الى الدفاع عن سلطانه في آسية ، ضد أخيه مصطفى نفسه ، ولم يكن يتجاوز الثالثة عشرة . وحاول مراد ، بعد اخضاعه الثوار ، أن يقتص من الامبراطور مانويل باحتلال سالونيك ، فلم يكن من البنادقة الا ان اعترضوا سبيله ، واشتروا المدينة من الامبراطور . واقرّ مراد ، أول الأمر ، بملكيتهم للمدينة لقاء جزية يدفعونها اليه ، هادفاً بذلك الى كسب الوقت وإعداد العدة لصراع قريب . وفي سنة ١٤٣٠ عاود السلطانُ الهجوم ، حتى اذا كان يوم ٢٩ آذار ، احتل العثمانيون سالونيك عنوة ، ودمروها تدميراً مهولاً . ولم يعاود الازدهارُ هذه المدينة إلا تدريجياً ، على الرغم من استقرار المسلمين فيها بعد ، وتمتّعها بمرفأ ممتاز ضمن لها تجارةً واسعة في مختلف العهود .

ثم ان مُراداً حاول ان يبسط سلطانه ، شمالاً ، على البلقان ، فتصدّت له القوات المجرية . والواقع أن الهزائم التي أنزلها يوحنا هُونْيادي الترانسلفاني بالجيوش العثمانية هناك بعثت من جديد فكرة الحرب الصليبية العامة تشنها

النصرانية على اعدائها. ورحب النصارى باعلان البابا اوجانيوس الرابع لهذه الحرب ترحيباً حماسياً في المجر وبولندة، وهما أقرب الى الخطر من بلدان اوروبة الاخرى، وفي المانية وفرنسة أيضاً. وفي تموز سنة ١٤٤٣ غادر الجيش الصليبي مدينة بودا، ليُحرز في ٢٤ كانون الاول نصراً مؤزّراً عند جالوواز، بين صوفيا وفيليبوبوليس. ولكن الشتاء لم يُساعد المنتصرين على الافادة من نصرهم، واستغلاله. حتّى اذا رفع جورج كَسْتَرْيُوتا (اسكندر بك)، الذي نُشيء رهينة في البلاط العثماني، راية الثورة ضد العثمانيين في ألبانيا، وكان التوفيق حليفه، اضطر مراد الى طلب الصلح. وفي سنة ١٤٤٤ عُقد مجمع في سِكَنْدِين أجابه الى ما طلب، لمدة عشر سنوات.

ولكن البابا ادرك ان هذا الاتفاق قد عطل خططهُ بالكلية، فحض المجريين على نقض الصلح، على اعتبار ان العهود التي تعطى لغير المؤمنين لا تُلزم اصحابها. فلم يكن من المجريين الا ان غزوا البلدان البلقانية في ايلول من السنة نفسها — بحجة ان العثمانيين لم يُخلوا عدداً من القلاع الصربية، وفقاً لنصوص المعاهدة — وتقدموا على شواطىء البحر الأسود، واتصلوا بأسطول البندقية في غاليبولي. ولكن مراداً تقدم لقتال النصارى في ٩ تشرين الثاني، تحت أسوار وارْنه (فارنا) حيث انتصر عليهم انتصاراً عظيماً بفضل حمق الملك فلاديسلاف الذي لم يكن يتجاوز العشرين، والذي تأكّل نفسه الحسد لانتصارات هونيادي في بدء المعركة، فبرح المكان المعين له وصُرع في هجوم شنه على الانكشارية.

وحكم هونيادي بلاد المجر، بعد مصرع الملك فلاديسلاف، باسم ابنه القاصر، ولكنه لم يحاول ان يغسل عار وارنه الا بعد اربع سنوات. ففي اواخر ايلول سنة ١٤٤٨ سار الى بلاد الصرب، فالتقاه مراد في سهل قُوصُوَه، في ١٧ تشرين الأول. ولم يمض يومان حتى انحاز اهل الأفلاق، بعد معارك حامية، الى العثمانيين. ثم ان هونيادي حاول ان

يشق طريقه عبر الدانوب ، فوقع في ايدي أعدائه الصرب ، واضطر الى ان يعقد صلحاً لم تكن شروطه في مصلحته البتة .

الحياة الفكرية والفنية في عهد مراد

والحق ان عهد مراد يمثل من نواح متعددة نهاية الثقافة العثمانية القديمة . ففيه كانت طبقة النبلاء القديمة لا تزال قادرة على الاحتفاظ بنفوذها الذي سلبتها اياه ، بعد ، جماعة الداخلين حديثاً في الاسلام . وواصلت الحياة الدينية في هذا العهد دورانها في فلك الصوفية التي قررت الاتجاه الادبي ايضاً . فقد كانت قصائد الشاعر التركي الشرقي المتصوف ، احمد يَسَوي ، معروفة في الاناضول منذ القرن الثالث عشر بواسطة الطرق الصوفية التي نشرت تعاليمه . وانما قلده في فنه المفرغ في لغة شعبية وفي وزن تركي أصيل الشاعر يونس أمرّه الذي عاش في الاناضول في اوائل القرن الرابع عشر . ليس هذا فقط ، بل لقد ازدهر في قصور الامراء السلاجقة شعر ديوي يصطنع الطرائق الفارسية في النظم . فلما تجزأت الامبراطورية السلجوقية الى امارات صغيرة تقاسمت تراثها ، وانحط مستوى الثقافة العام ، اخذت اللغة التركية تحل محل لغتي الادب العالي ، العربية والفارسية ، ونشأ نثر ديني شعبي ، استهدف تفسير القرآن وتنمية [الحياة] الروحية . وفي بلاط مراد الذي شمل برعايته العلماء والشعراء والموسيقيين ، ظهرت أولى المؤلفات المسهبة في اللغة التركية ، وكانت الترجمة أساساً لاقدمها من غير شك .

محمد الثاني ، فتح القسطنطينية

وفي ٥ شباط سنة ١٤٥١ توفي مراد فخلفه ابنه محمد . ولقد استهل السلطان الجديد حكمه بأن امر بأخيه احمد فقتل ، ومن ذلك الحين انتهت عادة قتل السلطان اخوته الى ان تكون قاعدة شبه مطردة ، كلما ارتقى

عاهل عرش السلطنة ، وذلك بسبب من التجارب الفاجعة التي عانتها الاجيال السابقة .

وتجدر الاشارة الى ان محمداً قد اعتُبر خطأ عديم المقدرة والمواهب بسبب من ان أباه نحاه عن القيادة عندما اشتد الخطر في معركة وارنه ليتولاها هو بنفسه . وفي الحال ، حاول امير كرمان ، شأنه كلما رقي العرش سلطان جديد تقريباً ، ان يخلع طاعة العثمانيين . وبينا كان محمد منهمكاً في اخضاع الثوار في آسية الصغرى تهدده الامبراطور قسطنطين التاسع بأنه اذا لم يضاعف مبلغ الجزية السنوية التي كان [والده] يدفعها الى البيزنطيين لقاء احتفاظهم بالأمير اورخان ، حفيد سليمان ، فسيعمد الى تحريض هذا الامير وتأييده في المطالبة بالعرش . وقد كان هذا التهديد ، في الحق ، عملاً خاطلاً قرّر مصيره . فلم يكد محمد يرجع الى اوروبة اواخر سنة ١٤٥١ ، عقب حملته على كرمان ، حتى شيد قلعة « روم ايلي حصار » المنيعة ، على بعد لا يتجاوز سبعة كيلومترات من ابواب القسطنطينية ، عند اضيق نقطة من البوسفور ، الذي كانت تسيطر عليه ، من الجانب الآسيوي ، قلعة * خارجية اقامها بايزيد . عندئذ بعث الامبراطور بسفرائه للاحتجاج على هذا العمل ، فأمر محمد بهم فقطعت رؤوسهم . فكان ذلك ايذاناً منه باعلان الحرب على الامبراطور .

ولم تتلق بيزنطة المهددة ايما عون الا من المستعمرة الجنوبية في خيوس (ساقز) . اما البابا فقد اشترط لقاء تأييده لبيزنطة اتحاد الكنيستين ، غير ان تعصب الشعب قضى على هذا المشروع وجعل تحقيقه مستحيلاً — على الرغم من ان الامبراطور كان مستعداً للقيام حتى بهذه التضحية .

وكانت قوات الامبراطور المحاربة من القلة بحيث لم تكد تكفي لحماية الأسوار البيزنطية ويبلغ طولها مسيرة خمس ساعات أو يزيد ، ولكن

(*) « آناضولي حصار » ، واسمها الأصلي « كوزلجه حصار » . (المعربان)

حصون المدينة استطاعت ان تثبت نحواً من شهرين في وجه المشاة العثمانيين ، وكان ينقصهم في ذلك الحين المران والخبرة . ولم يستطع العثمانيون ان يشقوا طريقهم الى المدينة الا بهجوم مباشر شنوه في ٢٩ نوار ١٤٥٣ . وصُرع الامبراطور في القتال الذي دار في الشوارع . حتى اذا انتصف النهار دخل محمدٌ بنفسه المدينة ، واصدر امره الى جيوشه بوقف المجزرة ، ثم دخل كنيسة آيا صوفيا واستولى عليها رسمياً باسم الاسلام . ومنح محمد جنويّي غلَطه الذين التزموا الحياد اثناء الحصار شروطاً للصلح ملائمة ؛ ضمنت لهم حرية العيش والتملك ، لقاء تسليمهم اسلحتهم جميعاً ، كما ضمنت لهم حرية التجارة ، مقابل ادائهم الضرائب القانونية والمكوس كافة .

وكانت دول الغرب النصرانية قد عزمت ، بعد فوات الاوان ، على ان توجّه اسطولاً لنصرة بيزنطة . ولم يكد هذا الاسطول يصل الى ثغر نغربُونْت حتى تسامع رجاله بخبر سقوط القسطنطينية .

ورجع محمد الى ادرنة سنة ١٤٥٣ بعد ان أمر ببناء حصون القسطنطينية المخربة من جديد ، ليجعل من هذه المدينة بعدُ ، وهي نقطة الدائرة الطبيعية في امبراطوريته ، عاصمة له ومقراً . وايا ما كان ، فقد عمل محمد على تنظيم احوال اليونان [الروم] المغلوبين ، للتو والساعة . والواقع انه ابقى على استقلال البلغار الكنسي ، فعل اسلافه من قبله ، واعترف – وفقاً للفكرة الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية – بجميع السلطات الدينية اليونانية . بل انه زادها قوة الى قوة بأن وكل اليها امر القضاء المدني وتطبيق احكامه على اتباعها .

وكان من همّ محمد ، قبل كل شيء ، ان يعمل على زيادة عدد السكان في العاصمة بعد ان تقلص وتناقص . ولم يكد يعين ، في البطريركية ، ممثلاً حازماً للكنيسة الوطنية حتى رجع الى ارض الوطن ، بناء على دعوته ، عددٌ غفير من الروم الذين نزحوا عن ديارهم قبل الكارثة . ولقد استقر

بهم المقام حول البطريركية ، على الضفة الغربية من القرن الذهبي . وكان لهم من ثروتهم القائمة على التجارة ، ومن براعتهم التي جعلت الباب العالي ، بعد ، يعتمدهم في اتصاله بالدول الغربية ، ما ضمن لهم مركزاً رفيعاً في مختلف العهود . ليس هذا فحسب ، بل لقد اكره محمدٌ جماعات تمثل مختلف شعوب امبراطوريته على السكنى في العاصمة ايضاً ، حاشداً فيها ، على الخصوص ، جمهرة كبيرة من صقالبة (سلاف) الجنوب .

ولكن المسلمين تدفقوا ايضاً ، من آسية ، الى العاصمة الجديدة — التي ما لبث ان خضع لها معظم المسلمين في العالم — لكي يستغلوا مزايا المدينة التجارية ذات الموقع الجغرافي الفريد ، ولكي يفيدوا من الاوقاف التي انشأها هناك ، محمد وخلفاؤه ، لخدمة العلم وطلابه . وسرعان ما انتهت استانبول الى ان تصبح المركز الفكري الاول في العالم الاسلامي .

آثاره العمرانية ، آيا صوفيا

واختيرت كنيسة القديسة صوفيا لتكون جامع العاصمة الرئيسي عقب الفتح مباشرة ، فلم يقتض تكييفها وفقاً لحاجات الطقوس الاسلامية الا تعديلات قليلة . ولما كان الاسلام الرشيد ينهى عن تصوير الكائنات الحية فلم يكن بد من ان تغطى روائع الفسيفساء الذهبية التي تزين العقود وتمثل الفن البيزنطي احسن تمثيل ، بطبقة من الكلس . اما القبلة فقد ادخلت على تصميم هذا البناء الكنسي بواسطة محراب اصطنع في وسط جناح الكنيسة الجنوبي . والى يمين المحراب ، على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي الكبير ، أقيم المنبر تجاه المقصورة بمشبكاتها الخشبية المذهبة . ومهما يكن من شيء فالنقوش الضخمة التي كتب بعضها بأحرف يبلغ طولها تسعة امتار ، والتي تنتظم اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الخلفاء الاولين مرقومةً بماء الذهب على لوحات مستديرة كبيرة اقيمت على جدران الجامع وأساطينه ، فلم تُستحدث الا في عهد مراد الرابع (١٦٢٣ — ١٦٤٠) . اما من الخارج

فقد اقتضى تكييفها وفقاً للحاجات الاسلامية انشاء اربع مآذن ، رُفعت أولاها في عهد محمد نفسه ، ثم أُضيفت اليها ثلاثٌ أخر في عهد سليم الثاني وخلفائه . ولقد نصب سليم هذا ايضاً فوق القبة الرئيسية هلالاً من البرونز قطره ثلاثون متراً . وكما عُدل بالمخطط الاصلي لكثير من القباب الجرمانية عن شكله الاول بسبب من اضرحة الاساقفة التي اقيمت فيها ، فكذلك انتهت آيا صوفيا على تعاقب الأيام ، الى ان تنتظم انواعاً مختلفة من الاضافات كالتُرَب ، والمدارس ، والدعائم الخارجية بخاصة .

جامع السلطان محمد

وكان محمدٌ يعتبر من اعظم واجباته كحاكمٍ أن يشيد منشآتٍ جديدةً ايضاً ، فعهد الى المهندس اليوناني خريستو دولوس في ان يشيدَ الجامع المعروف باسمه (المحمدي او جامع السلطان محمد الفاتح) في قلب العاصمة ، على انقاض الكنيسة الرسولية التي كانت في وقت مضى مدفن الأباطرة . فنهض بعبء العمل ما بين سنة ١٤٦٣ وسنة ١٤٦٩ ؛ فاذا الجامع اروع آثار العمارة العثمانية وادناها الى الكمال . ومهما يكن من شيء فقد أخربت الزلازل بناء الجامع الاصلي ، مرّاتٍ متعددة آخرها سنة ١٧٦٧ حتى لقد عفت آثاره وغابت ، او كادت ، تحتَ البناء الحاضر . وههنا مزج المهندس ، كما أبان غُورلتْ ، * تصميمي الكنيسة الرسولية وكنيسة القديسة صوفيا . فأما الجزء الداخلي المصلب الشكل فتعلوه القبّة المركزية الضخمة التي تقوم على اربعة اعمدة بين اربعة من انصاف القباب المتماثلة في الاتساع ؛ في حين تظلل الزوايا اربعٌ من القباب أصغر حجماً . وينعم هذا الجزء الداخلي بالنور الساطع يتدفق اليه من صفوف النوافذ الستّة القائم بعضها فوق بعض . وثمة مئذنتان نحيلتان ترتفعان فوق الجامع الذي يحتل وملحقاته من المدارس والحمامات والمطابخ ، بالأضافة الى ما يدعونه الخان (وهو بيت ينزله

(*) Gurlitt

التجار الغرباء فيّطعمون وينامون) ودار العجزة والمستشفى ، قمةَ الربوة التي تعلو الجسر القديم ، بكاملها . والى يمين الباب الرئيسي لوحة رخامية رُقم عليها بأحرف من ذهب ، هذا الحديث النبوي ، الذي تحقق بعد : « لتفتحُنّ القسطنطينية ، ولنعم الامــير اميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش . » *

المدارس ودور الكتب والمستشفيات

وبالأضافة الى عشرة مساجد اخرى بنى محمد ، سنة ١٤٥٩ ، المسجد القائم قرب ضريح الشهيد أبي أيوب الانصاري الذي لقي وجه ربه سنة ٦٧٨ أثناء الهجوم العربيّ الاول على القسطنطينية ؛ فلما القى [العثمانيون] الحصار على القسطنطينية رأى الشيخ آق شمس الدين ، في ما يرى النائم ، مكان القبر ، « فاكتشفه » بالقرب من السور ، ملهباً بذلك العاطفة الدينية في نفوس جنده . والى جانب هذا المسجد المشيد كله بالرخام الابيض ، وفي مقام الشهيد الذي لا يعدو أن يكون بناء مربعاً بسيطاً تعلوه قبة ، كان السلاطين يُقلّدون ، في احتفال رسمي ، عقب ارتقائهم العرش ، سيف عثمان من يد شيخ الطريقة المولوية (بيوك جلبي) . ولقد دُفن ، غير بعيد من هذا المقام ، عدد من السلاطين ، واقربائهم ، وكبار النبلاء والوجهاء . وسرعان ما اضيفت الى كلٍ من هذه المساجد التي شيدها محمد مكتبات حافلة بكنوز من الآداب الأسلامية الثلاثة ** لا تضاهى غنى واتساعاً . ليس هذا فحسب ، بل لقد الحقت بهذه المساجد معاهد للتعليم تتسع لسكنى الأساتذة والطلاب ومستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات وآبار

(*) ورد في « الجامع الصغير » للسيوطي وفي « السراج المنير شرح الجامع الصغير » للعزيزي (مصر ١٣٠٤) جزء ٣ ص ١٩٢ . ولا ذكر للحديث في الكتب الستة أو كتب الحديث المتقدمة الأخرى. (المعربان)

(**) يقصد التراث الفكري بالعربية والفارسية والتركية . (المعربان)

كان السلاطين ووزراؤهم يتنافسون في انشائها وتعهدها .

والواقع ان تخطيط اهم المباني المدنية في العاصمة يرقى الى عهد الفاتح ايضاً ، فقد أعاد انشاء الاسوار المحيطة بها ، وبنى عند طرفها الجنوبي الغربي ، الى جانب بحر مرمرا ، قلعة الأبراج السبعة (يدي قوله) التي اتخذت في ما بعد سجناً للدولة ، فكانت تشهد في بعض الاحيان سفراء دول اوروبية عظمى في جملة المعتقلين ضمن حيطانها . وانشأ محمدٌ احواضاً لبناء السفن ودور صناعة (مخازن للسلاح) في الميناء ، وحتى القسم الاساسي من السوق العامة كان من عمله هو . وفي سنة ١٤٥٤ شرع في تشييد قصره ، السراية ، على ربوة مرتفعة في داخل المدينة . ولقد اصطُنع هذا القصر ، في ما بعد ، مقراً لوزير الحرب (سرعسكر) . ثم انه اخذ في بناء قصر جديد سنة ١٤٦٤ ، عند طرف المدينة الشرقي المبترد بمياه بحر مرمرا ، حيث كان اباطرة الروم ينزلون قبل ان نقل مانويل كومنينس مقر قيادته الى القرن الذهبي ، شمالي الفنار . والاثر المدني الوحيد الباقي من عهد محمد الفاتح هو « جينيلي كوشك » الذي شُرع في تشييده سنة ١٤٦٦ ، وأُتم سنة ١٤٧٢ ، وجدد بناؤه سنة ١٥٩٩ ، والذي يضم جانباً من المتحف الوطني ، اليوم .

إخضاع بلاد الصرب

كان اول هدف ترمي اليه سياسة [السلطان] محمد التمكين لسلطته في شمالي شبه الجزيرة البلقانية ، حيث كان المجر الاشداء في الحرب لا يزالون يتهددونها ، بحكم قربهم من تلك الديار ، بأعظم الأخطار . من اجل ذلك كان حتماً عليه ان يقضي على استقلال بلاد الصرب ، لكي يضمن لجيشه قاعدة ثابتةً يستطيع الانطلاق منها لحرب المجر . اما ذريعته الى ذلك فكانت تلك القرابة التي ربطته بسلالة لازارفتش السابقة من طريق زواجه ، من احدى اميرات هذا البيت المالك ، زواجاً اجبارياً . وهكذا

تقدم الى الأمير جورج برانكوفتش ، سنة ١٤٥٤ ، بالتخلي عن اماراته ، فلم يكن من هذا الأخير إلا ان التجأ الى حمى هونيادي في المجر . وعلى الرغم من ان المجريين طردوا القوات العثمانية من قلعة سَمَنْدْرِيه التي سبق لها احتلالها ، وهزموا قائد جيوش السلطان محمد ، فيروز بك ، عند كروشفاتز ، هزيمة قاسية ، فقد اضطروا الى ان يقنعوا بالاحتفاظ بخط الدانوب [نهر الطونه] ، بعد ان يئسوا من الحصول على الامدادات التي توقعوا قدومها من اوروبة . وفي سنة ١٤٥٦ ، تقدم محمد بنفسه الى بلغراد ، على رأس جيش عظيم ، وضرب الحصار عليها من جهة البر . ولكن هونيادي اندفع الى المدينة المحاصرة ، عبر الدانوب ، على رأس جيشٍ مختلط من الصليبيين ، وكثرتهم الكاثرة من الطبقات الدنيا التي حركها الراهب كابسترانو الى الجهاد ، فوفق في ٢٢ حزيران الى ان يقضي على هجوم العثمانيين الرئيسي في معركةٍ طاحنة اصيب فيها السلطان محمد نفسه بجرح بليغ ، فاضطر الى الانكفاء بجيشه الى صوفيا . ولكن كلا البطلين المدافعين عن بلغراد ، هونيادي وكابسترانو ، ما لبث ان توفي في السنة عينها ، يوم ١٤ آب ، ويوم ٢٣ تشرين الاول ، على التعاقب . حتى اذا توفي جورج برانكوفتش أيضاً ، بعد عامين اثنين ، واصطرع وارثوه في سبيل العرش وفق السلطان محمد الى اخضاع بلاد الصرب في غير ما مشقة ، والى تحطيم المقاومة الشعبية من طريق المذابح ، والاسترقاق ، واخراج الأهلين من ديارهم الى اجزاء الامبراطورية الاخرى .

وفي اثناء ذلك ، كان السلطان محمد قد هاجم ، في شبه جزيـــرة المورة ، الامير بليولوجوس الذي انتقض على حكمه بالاتفاق مع جورج كستريوتا (اسكندر بك) الالباني . وهنا اعيد الامن الى نصابه ايضاً بعد فظائع مهولة كانت توقع في نفس السلطان بهجة متعاظمة ، عاماً بعد عام .

وفي السنة ذاتها قضى محمدٌ ايضاً على آخر السلالات اليونانية [الرومية] في آسية الصغرى ، وهي سلالة كومنينس في طرابزون التي كانت حتى ذلك الحين تطمع في الحصول على تأييد اوزون حسن ، خان التركمان المعروفين باسم آق قيونلي . وكان اوزون حسن في حرب مع خصومه التركمان المعروفين باسم قره قيونلي والمتمذهبين بمذهب الشيعة ، في حين اخذ هو وعشيرته بمذهب السنة . وكان قد وضع الاساس ، وهو في مقره القبلي بديار بكر ، لدولة واسعة في ارمينية ، حتى اذا تم له النصر على قبائل قره قيونلي ضم اليها فارس والجزيرة الفراتية . وفي سنة ١٤٥٨ زوّج داود آخر اباطرة طرابزون من آل كومنينس ، كاترينا ابنة اخيه وسلفه كالو جوانّس ، من اوزون حسن . وفيما كان السلطان محمد منهمكاً في اخماد ثورة إسفنديار أوغلو في سينوب هاجم اوزون حسن — وكان قد اعلن رغبته في السيادة على شرقي آسية الصغرى بما وجّه من الرسل والسفراء الى القسطنطينية سنة ١٤٥٧ و ١٤٦٠ — الاراضيَ العثمانية ، واعمل السلب والنهب في البلاد المحيطة بتوقات وأماسيه . فلما كان ربيع سنة ١٤٦١ انقلب محمدٌ الى حرب التركمان بعد ان فرغ من فتنة سينوب . حتى اذا هزم قائدُهُ احمد باشا مقدمتهم لم يجرؤ اوزون حسن على ان يرمي بفرسانه ، المفتقرين الى النظام ، في وجه الانكشارية المنتصرين . والواقع ان والدته سارة خاتون التي اظهرت براعة ديبلوماسية فائقة في منازعات سابقة ، قصدت بنفسها الى معسكر السلطان محمد ، فمثلت بين يديه ، واستطاعت ان تثنيه عن القيام بأي هجوم جديد على ابنها . بيد انها عجزت عن ان تعطف قلبه على طرابزون ، فاحتلت القوات العثمانية المدينة وسيق آخر الاباطرة وجماعة النبلاء الى استانبول ، وبيع معظم السكان المدنيين في اسواق الرقيق . وأياً ما كان ، فقد وضع المنتصر جزءاً من الخزانة الامبراطورية تحت تصرف سارة خاتون لمصلحة كنتها [كاترينا] .

وكان نشاط محمد في المورة قد ترك ، قبل ذلك ، اسوأ الاثر في علاقاته بالبندقية ، وهي القوة الوحيدة التي كان لا يزال في استطاعتها ان تقاومه على الارض اليونانية . والواقع ان الخلاف بين الفريقين تفاقم غير مرة حتى امسى الاصطدام بينهما امراً محتوماً . فلما كان خريف سنة ١٤٦٢ اندلعت نار الحرب ، لسبب تافه حقير ، فاذا بعبئها الاعظم يقع على عاتق جورج كستريوتا الذي اغراه البنادقة بخرق الهدنة . وخاض السلطان محمد بنفسه غمرة القتال فحاصر جورج في قرُوْيَه ، ١٤٦٦ ، حتى اذا توفي هذا الاخير بعد عامين قضى محمد على استقلال الالبانيين ، وأقام قلعة إيلْبَصان في قلب بلادهم . وأخيراً استشعر البنادقة انفسهم قوة العثمانيين . وفي سنة ١٤٧٠ خسروا ، بعد حصار طويل ، مدينة نغربونت التي تقع في جزيرة أوبه ، وكانوا قد حكموها طوال ٢٦٤ سنة .

ولكن سادة البندقية ما لبثوا ان وجدوا حليفاً على العثمانيين . ذلك بأن أوزون حسن كان قد فتح فارس ، سنة ١٤٦٧ [١٢٤] ، وقضى على سلطة القره قيونلي فيها . وما هي الا فترة يسيرة حتى هاجمه خصمه جهان شاه ، سيد القره قيونلي ، في مقره القبلي بديار بكر ، ولكن أوزون حسن هزمه في ١١ تشرين الثاني سنة ١٤٦٧ ، فقضى نحبه وهو يطلق ساقيه للريح . وبينا كان أوزون حسن يتقدم جنوباً لحصار بغداد ، حظي حسن علي بن جهان شاه بمساعدة أبي سعيد ، أحد أعقاب تيمور . وفي آذار سنة ١٤٦٨ انطلق ابو سعيد هذا من خراسان واحتل العراق العجمي (الشمالي) برمته . حتى اذا ضرب الحصار على محمود آباد في السهول الواقعة جنوبي مجاري نهر آراس السفلى ، محاولاً طرد أوزون حسن من قره باغ ، وقع في الأسر ،

---

(١٢٤) انظر مينورسكي V. Minorsky, la Perse au XVé siècle entre la Turquie et Venise, Publications de la Société des Etudes Iraniennes, No. 7, Paris, 1933.

وأسلم الى احد افراد [السلالة التيمورية] المنافسين له في السلطان ، فأمر به فقتل . أما حسن علي فقد قتل ، في همذان بيد قوات أوزون حسن ، ومن ثم احتل هذا الاخير بلاد فارس كلها ، من غير مقاومة . وكان البنادقة قد بعثوا ، منذ سنة ١٤٦٣ ، برسول الى أوزون حسن ابتغاء عقد تحالف معه ، ضد العثمانيين . وفي شباط سنة ١٤٧١ رجع الرسول الى البندقية يصحبه سفير تركماني . ثم ان كاترينو زينو — وهو ابن اخت زوجة اوزون حسن الطرابزونية — ارسل بدلاً منه الى تبريز . وفي السنة نفسها بعث البنادقة بـ « جيوسافو باربارو » الى فارس ، يصحبه سفير من قبل أوزون حسن ، وستة مدافع ضخمة وستمائة بندقية ، وعتاد حربي ، يحرسها مائتان من القناصة مع ضباطهم . ولكنه توقف عن متابعة السير ، عند قبرس ، اذ كان ثمة اسطول بندقي معقود اللواء لـ « موسنيجو » يعمل على الشواطىء الجنوبية من آسية الصغرى ، محتلاً عدداً من المناطق الساحلية . وفي سنة ١٤٧٢ وجه أوزون حسن جيشاً من ديار بكر الى الأراضي العثمانية ، فعاث أفراده فساداً في كل من توقات وقيسارية ، ونهبوهما . وبعد أن تبودلت بين العثمانيين والتركمان مذكرات تزايدت لهجتها شدة وعنفاً ، مع الأيام ، لم ير السلطان محمد بُداً من ان يقصد بنفسه الى آسية الصغرى ، في آذار سنة ١٤٧٣ . وكان اوزون حسن قد اتخذ من ارزنجان مقراً لقيادته ، مُنزلاً هزيمة قاضية بطليعة القوات العثمانية ، في تَرْجان ، غرة آب سنة ١٤٧٣ . وفي ١٢ آب ، بينا كان يتعقب القوات العثمانية المتراجعة نحو طرابزون تقدمت وحدات الجيش العثماني الرئيسية ، يقودها محمد بنفسه ، لمقاتلته شمالي ارزنجان ، عند الجبال الفاصلة بين منابع الفرات ونهر جُورُوق . ودارت المعركة سجالاً بين الفرسان ، فترة غير قصيرة ، ولكن الانكشارية والمدفعية العثمانية كان لها ، آخر الامر ، فضل تقرير النصر النهائي . وعمل السلطان محمد بنصيحة كبير وزرائه فلم يتعقب أوزون حسن وجنوده ، بسببٍ من مصاعب المسالك والطرق . وسعى البنادقة جهدهم الى اغراء

اوزون حسن بشن هجوم جديد على العثمانيين ، ولكن بدون جدوى . ذلك بأن ثورتي اخيه أُويس وابنه أوغورلي محمد ، ثم انهماكه بعد اخمادهما في تنظيم شؤون فارس والعراق من جديد ، كل ذلك حال دون استئناف خططه في آسية الصغرى . حتى اذا توفي في ٦ كانون الثاني سنة ١٤٧٨ تردّت امبراطوريته ، شأن جميع الممالك السابقة التي نشأت على غرارها ، في مهاوي العدم .

وفي اوروبة تدفقت ارتال الغزاة العثمانية ، بعد ان تحطمت مقاومة الألبانيين ، [الارنأوط] من البوسنة الى حدود البندقية . وأخيراً اعلنت الجمهورية [البندقية] ، في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٤٧٩ ، استعدادها لعقد صلح شريف . والواقع انها تنازلت عن جميع ممتلكاتها في البانيا ، وفي جملتها دُراج (دوراجو) وانتيفاري وتخلت عن أوبه ولَمنوس ، كما تخلت عن سكان تايْنجيت في الموره . ليس هذا فقط . بل لقد اشترت بمائة الف « دوكه » وبجزية سنوية مقدارها عشرة آلاف « دوكه » حق التجارة الحرة في المشرق ، وحق تعيين عامل في غلطه ، قرب استانبول ، تعهد اليه في الاشراف على مصالحها ، كما كانت الحال قبل وقوع الحرب بينها وبين العثمانيين .

ووجد البنادقة بعض العزاء عندما أمسى مركز الجنويين ، قبيل ذلك ، بالغ الحرج ، فقد كان الجنويون اشدّ منافسيهم في تجارة المشرق خطراً . وكانت تجارتهم ، حتى ذلك الحين ، تستمد مزاياها الكبرى من ممتلكاتهم الواقعة على الشاطىء الشمالي من البحر الاسود ، ومن «كفه » في شبه جزيرة القرم على الخصوص . ولكن النزاع ما لبث ان نشب بينهم وبين زعماء التتار هناك ، واذ قد وقف كبير هؤلاء الزعماء ، منكلي كراي خان ، الى جانب الجنويين في هذا النزاع فقد التمس الزعماء مساندة العثمانيين . فلم يكن من السلطان محمد الا ان وجه اسطوله في الحال ، لقتال الجنويين ،

فاضطرت «كفّه» الى الاستسلام في ٦ حزيران. ودمرت المستعمرة الجنوية تدميراً كاملاً لم تقم لها قائمة من بعده، وحمل من لم يُسترقّ من اهلها الى استانبول. اما التتار فأمسوا تابعين للسلطان.

وهكذا استسلمت جميع قوات الارخبيل * للسيطرة العثمانية ما عدا فرسان القديس يوحنا في رودس. ولقد شن السلطان محمد هجوماً على جزيرتهم المنيعة التحصين، سنة ١٤٨٠، فلم يحالفه التوفيق. فأعاد الكرة في العام الذي تلا، ولكن المنية عاجلته ابان الحملة، فقضى نحبه في معسكره في تكفور جيري، بين اسكودار (اسكدار) و «جبسه» بآسية الصغرى، في ٣ نوار، سنة ١٤٨١، وعمره اثنان وخمسون عاماً.

الادب التركي في عهد محمد الثاني

والحق ان السلطان محمد ليمثل اصدق تمثيل العثماني القديم، بجميع فضائله ونقائصه. ذلك بأن همته الجبارة وسعيه الدائب في سبيل اهداف جديدة اقترنا بوحشية عدت قسوة عصره نفسه، بمراحل عديدة. وانه ليتحتم علينا ان نعود القهقرى الى عهد «الملوك الاشوريين الكبار» لنقع على ما يوازي معاملته لاسرى الحرب، هذه المعاملة التي كانت تعتمد اكثر ما تعتمد على قطع الجسد نصفين بواسطة المنشار. ولكن هذا الرجل الذي ارتكب في حروبه فظائع ابى رجاله انفسهم في بعض الاحيان، انفاذها، كان يجمع في شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية. فقد ناصر العلوم الاسلامية وناصر الشعر بما اغدقه على ممثليها من هبات مادية سخية. ليس هذا فحسب، بل لقد كان مولعاً بأن يختبر براعته الشخصية في ميدان الشعر، تاركاً للأجيال اللاحقة جمهرة من الاشعار اعتبرها جديرةً بأن تحفظ. وليس من شك في أن شعره يجري، كشعر

---

* ارخبيل بحر سفيد. (المعربان)

مواطنيه جميعــاً ، في فَلَك ثابت من الطرائــق الفارسيــة وان مضمونه الفكري لم يتعدَّ قط حدود القصيدة الغزلية الضيقة المعروفة منذ عهد حافظ ، والرامية الى اغراض ليست بالصوفية الخالصة ولا الشهوانية الخالصة ، ولكنها وسطٌ بين ذلك . والواقع ان السلطان محمداً كان شديد الاعجاب باللغة الفارسية ، عظيم القدر لها . يدلك على ذلك انه عهد الى الشاعر الاناضولي شَهِيدي في ان ينظم بالفارسية قصيدة تصور التاريخ العثماني على غرار الشاهنامه للفردوسي ، وان ديوان حَمِيدي ، احد شعراء بلاطه ، ينتظم قصائد بعضها باللغة الفارسية ، وبعضها باللغة التركية . ولقد كان من نتائج ذلك ان طغى على المحصول النثري في عهده ايضاً ذلك الاسلوب الصناعي ، المثقل بالالفاظ الاجنبية ، الذي نشأ في الدواوين الفارسية . وكان السلطان محمد من المعجبين بتراث الرعايا المحتقرين الفني ايضاً . ففي صيف سنة ١٤٥٨ بينا كان يحاول اقرار السلام في اليونان منح اثينا استقلالها الداخلي ، لافتتانه ببقايا التراث الكلاسيكي التي كانت لا تزال محتفظة بروعتها وجلالها . كذلك كان شديد الاهتمام بالنهضة التي تفتحت أكمامها في ايطالية، فقد طلب الى جمهورية راجوزه * مرةً ان تدفع اليه الجزية مخطوطات تجمع من ايطالية . والواقع انه تخطى التحريم الاسلامي للتصوير ، فعهد الى احد فناني البنادقة ، جنَتيل بلِّيني ، في ان يخرج له صورة زيتية . ولا تزال هذه الصورة محفوظة الى اليوم في مجموعة لايارد بالبندقية .

الصراع بين جم وبايزيد ابني محمد

وبعد وفاة محمد ، عانت الامبراطورية العثمانية ، كرة اخرى ، شرور الحرب الاهلية . ويبدو انه هو نفسه قد اوصى بخلافته لابنه الاصغر جَمّ ، الذي كان يقيم في قونية بوصفه حاكماً على قرمان . ومهما يكن من امر فقد حاول كبير الوزراء ان يعجل في تنصيب جم هذا ، من طريق كتمان

* راغوزه .

خبر الوفاة فترة من الزمان . ولكن خططه ما لبثت ان انكشفت للانكشارية فهاجموا القلعة في اسكودار ، وقتلوا الوزير ، حتى اذا اندلعت نيران الفوضى ، نهبوا بيوت اليهود والتجار الاجانب . ثم ان بايزيد ، اكبر الامراء سناً ، دخل مدينة اسكودار ، في ٢٠ نوار ، وكان حتى ذلك الحين ، حاكماً على اماسيه ، فاضطر ان يغفر لهم فظائع شغبهم ويزيد في اعطياتهم زيادة صارت منذ اليوم عرفاً ثابتاً يطلبون إنفاذه كلما تولى الاحكام سلطان جديد .

وكان قد اعترف بـ « جم » في اثناء ذلك ، سلطاناً في بروسه ، فاقترح على اخيه قسمة الامبراطورية الى شطرين اوروبي وآسيوي . ولكن بايزيد لم يوافق على ذلك ، بل هاجمه في آسية ، وهزمه عند ينى شهر في ٢٣ حزيران . والتجأ جم الى سلطان المماليك ، قايتباي ، في مصر . وبعد محاولة فاشلة في آسية الصغرى ، وكان قرمان اوغلو قاسم بك قد استدعاه اليها ، فرّ الى رودس حيث حاول ان يتحالف مع فرسان القديس يوحنا ومع الدول الغربية ضد اخيه . ولكن الفرسان ما عتموا ان عقدوا صلحاً ملائماً مع بايزيد وفرضوا عليه ضريبة لقاء الحجز على جم في جنوبي فرنسة . وفي سنة ١٤٨٨ أسلموه الى البابا انوسنت الثامن الذي كان يعتزم القيام بحملة صليبية ضد العثمانيين . ثم ان خلفه الاسكندر السادس[(١٢٥)] اضطر الى ان يسلمه الى ملك فرنسة ، شارل الثامن ، الذي حاصر رومة ، بين أواخر سنة ١٤٩٤ واوائل سنة ١٤٩٥ . ويُزعم ان البابا كان قد دس السم ، قبل ذلك ، لـ « جم » بتحريض من بايزيد ، فتوفي [اي جم] بنابولي ، في ٢٥ شباط ، سنة ١٤٩٥[(١٢٦)] .

---

(١٢٥) وهناك في « دار بورجيا » صورة لـ « جم » كان الرسام بنتوريتشيو قد وضعها للبابا ، وهي محفوظة في الغرفة الثالثة من الدار ، وتؤلف قسماً من اللوحة التي تدعى « حياة القديسين » مصورة مثول القديسة كاترينا الاسكندرانية امام الامبراطور مكسيميانوس .

(١٢٦) انظر تويازن **L. Thuasne, Djem - Sultan, Paris, 1892.**

وقد يكون للرهينة * التي استولت عليها الدول الغربية فترة طويلة من الزمان ، اثر فعال في اتجاه بايزيد نحو سياسة السلم ، ولكن هذه السياسة كانت تنسجم مع امياله التي فطر عليها ، ايضاً . فقد ورث كأخيه ، الموهبة الشعرية عن والده ، وكان يجد في رعاية العلوم متعة لعقله المتروي ، ولكنه لم يغفل واجباته كسلطان ، فعني على الخصوص بانشاء المباني العامة الفخمة ، وحسّن شبكة الطرق والجسور التي اقامها اسلافه في طول الامبراطورية وعرضها ، مستعيناً على ذلك بمهرة الصناع من اليونان [الروم] والبلغار . ومع ان هذه الشبكة انشئت في المحل الاول لاغراض عسكرية ، فقد يسرت حركة المواصلات العامة وأسدت اليها خدمة جليلة ، ايضاً . بيد ان أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل اسمه ، والذي شيده ما بين سنة ١٤٩٧ وسنة ١٥٠٣ تجاه السراية القديمة في استانبول . ويمتاز هذا المسجد من جميع مباني المدينة بفخامة مواده البنائية ، وبزخرفته على الطريقة الفارسية . وانما تظلل رواقه الامامي اشجار السرو والدلب الشامخة ، وتحيط به ، من جهاته الاربع ، عقود محددة مصنوعة من الرخام الابيض والاسود ، على التعاقب ، ناهضة على اعمدة ثمينة من اليشب ** والمرمر الاخضر ذات تيجان رشيقة مخروطية الشكل اعلاها اوسع من قاعدتها . وتعلو هذه العقود سقائف مقببة فخمة الزخرف . اما في وسط الصحن فيرتفع الحوض المثمن ، على عدد من الاعمدة . ولهذا المسجد اربعة ابواب خارجية عالية ، صنعت على الطريقة الفارسية ، وهو يمتاز ايضاً بمآذنه التي لا تنهض ، شأن مآذن المساجد الاخرى ، على الزوايا ، ولكن على اجنحة مستقلة . والواقع ان الحي المحيط بالمسجد ، ويشمل « السر عسكر » مقر الجامعة في الوقت

* اي جم .
** حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه أصفى منه .

الحاضر ، ما لبث ان عُرف كله بجي بايزيد ، (بيازيد ، اليوم) على اسم المسجد و [منشئه] .

وكان هذا السلطان المحب للسلام عاجزاً ايضاً عن ان يضع حداً للمنازعات القائمة على الحدود الشمالية من امبراطوريته ، إذ ظلت تنشب بشكل آلي بسبب من نزوع شعبه الى التوسع ، واحوال جيرانهم السياسية القلقة . وعلى الرغم من اخفاق الحملات التي شنها العثمانيون على ترانسلفانيا فقد وفقوا الى احتلال البوسنة برمتها ، كما احبطوا ، بهجماتهم التدميرية ، محاولات البولنديين لفتح البُغدان .

وحافظ بايزيد ، في السنوات الاولى من حكمه ، على علاقاته السلمية بالبنادقة ، غير ملقٍ بالاً الى احتلالهم قبرس وناقسوس . بيد ان العلاقات بين البندقية وفرنسة ما لبثت ان اوقعت الشك في نفسه . فلما كانت سنة ١٤٩٩ نشبت بين العثمانيين والبنادقة حرب جديدة . وبعد حملات ثلاث كانت سجالاً بين الفريقين ، عقد بايزيد مع البندقية صلحاً (سنة ١٥٠٣) قنع فيه بالاستيلاء على لَبانْتِي (ناوباقتوس) ومَسّينا . وليس من شك في ان الذي رغّبه في الصلح ما كان يتهدد امبراطوريته في الشرق من خطر . ذلك بأنه خلفت التركمان في فارس ، بزعامة الشاه اسماعيل ، سلالة وطنية(١٢٧) حظيت بتأييدالشيعة ، وكانوا لا يزالون منتشرين بكثرة في الامبراطورية العثمانية ايضاً . فكان حقاً على بايزيد ان يفرغ لمواجهة هذا الخطر .

النزاع بين سليم واحمد ابني يزيد

وتميزت ايام بايزيد الاخيرة بالصراع الوحشي الذي نشب بين ابنائه المتنازعين على العرش ، وهو بعد على قيد الحياة . وتفصيل ذلك انه اصطفى لخلافته ابنه احمد ، احب اولاده اليه ، بل لقد اظهر الرغبة في التنازل

(١٢٧) سنعرض لذلك في الفصل الثالث من هذا القسم .

له عن العرش . فلم يكن من ابنه سليم ، الملقب بـ « ياوُز سلطان » (اي السلطان المهول) لميوله العسكرية التي جعلت له شعبية اعظم بين افراد الجيش ، الا ان طالب بأن تسند اليه امور احدى الولايات العثمانية في اوروبة بدلاً من طرابزون . وكان سليم ، وهو اصغر سناً من احمد ، يهدف من وراء ذلك الى ان يحول دون ارتقاء اخيه عرش السلطنة . حتى اذا لم يجب الى طلبه هذا برز امام ابواب ادرنة ، سنة ١٥١١ ، على رأس خمسة وعشرين الف رجل ، وتحدى والده بالاستيلاء على سنجقي سمندريه وودين بعد ان لمس بين صفوف الانكشارية تأييداً حماسياً لما تظاهر به من الرغبة في ان ينشىء لنفسه امبراطورية جديدة في الشمال . ولم يوفق السلطان العجوز الى جمع قواته للدفاع المسلح ضد سليم [ابنه] الا بعد ان استولى هذا الاخير على ادرنة عنوةً . وفي ٣ آب سنة ١٥١١ هزم الوالد ولده عند جورْلي . واذ اضطر سليم الى ان يلتمس النجاة في حمى خان القرم ، فقد خطر لاحمد ان يحتفل بارتقاء العرش في استانبول نفسها ، ولكن عصيان الانكشارية أكرهه على العودة الى آسية . وفي نيسان سنة ١٥١٢ ظهر سليم امام ابواب استانبول كرة اخرى ، فاستقبلته الحامية استقبالاً حماسياً . ثم انه اكره اباه على التنازل عن العرش . فاتجه هذا الى مسقط رأسه ، ديمتوقه ، ليقضي ثمة ما تبقى من ايامه . ولكنه توفي في بعض الطريق ، في ٢٦ نوار ، بعد ان دُس له السم بتحريض من ابنه ، كما يعتقد جمهور المؤرخين ، وهو ظن صائب من غير شك .

ومكن أحمد لنفسه في بروسه ولكنه هزم وقتل في اوائل سنة ١٥١٣ ؛ اما ابنه مراد ففر إلى فارس . وكان الشيعة قد ثاروا في آسية الصغرى بزعامة شاه قولي (شيطان قولي) في السنة الأخيرة من حكم بايزيد ، اعتماداً منهم على تأييد أصحاب الأمر في فارس ، وهم شيعة أيضاً . ولكن سليماً أخمد هذه الفتنة ، وشرع ينفذ سياسة من الاضطهاد الديني العام ضد الشيعة المقيمين في بلاده . فلم يكن من شاه اسماعيل الا ان هب للاثئار لاخوانه

في المذهب ، مهاجماً في الحال آسية الصغرى . عندئذ دعا سليمٌ الناس الى الجهاد ضد الشيعة فأوقع الهزيمة بالشاه عند وادي جالدِران ، بين بحيرة أرمية وتبريز ، في ٢٣ آب سنة ١٥١٤ ثم تقدم الى عاصمة خصمه تبريز ، ومن هناك انشأ يفكر في التوسع في القارة الآسيوية .

ولكن دولة المماليك بمصر — وكانت القوة الثانية الكبرى في الاسلام يومئذ — اعترضت سبيله هناك . وذلك ان [المماليك] الجراكسة كانوا — شأن جميع حكام وادي النيل الاقوياء — قد احتلوا سورية منذ زمن طويل ، ومن هناك نشروا سلطانهم أبعد فأبعد الى الشمال . والواقع ان الاحتكاك بين العثمانيين والمماليك بدأ أول ما بدأ في عهد السلطان محمد الثاني ، على حدود آسية الصغرى وسورية . اضف الى ذلك ان المماليك اوجسوا خيفة من منافسة السلطان العثماني لهم في العناية بالحرمين الشريفين وبشؤون الحاج ، وكانت تُعتبر دائماً امتيازاً يستبد به اقوى ملوك المسلمين في كل عصر . ولقد أحسن المماليك الافادة من سياسة بايزيد غير العسكرية ، فبسطوا سلطانهم على أرمينية الصغرى وقيليقية ، وبسطوه في اتجاه الشمال أيضاً .

فتح سورية

هناك ، حيث التقت مناطق نفوذ العثمانيين والمصريين بمنطقة نفوذ الفرس كانت سلالة ذي القَدْر التركمانية قد نشرت سلطانها منذ منتصف القرن الرابع عشر على وادي طورُس ، من مرعش إلى ألبِستان ُوملطية حتى خرَبْوط . وكانت والدة السلطان سليم احدى أميرات هذه السلالة . وعلى الرغم من ان اباها علاء الدولة كان قد تسلم ولايته من محمد الثاني ، فقد كان اعجز من ان يتغلب على احد منافسيه ، من غير مساعدة المصريين . وفي سنة ١٥٠٧ نشب الخلاف بينه وبين شاه اسماعيل بعد ان رفض تزويجه احدى بناته ، فلم يكن من هذا الأخير الا ان انتزع منه خربوط وديار

بكر . واياً ما كان فقد اتهمه حفيده ، السلطان سليم ، بالوقوف موقفاً غامضاً اثناء حربه مع شاه اسماعيل . من اجل ذلك أصدر سليم امره ، في طريق عودته من فارس ، الى سنان باشا بمعاقبته على هذا السلوك . وهكذا قُتل علاء الدولة العجوز ، في المعركة ومنحت امارته إلى ابن أخيه علي بلك الذي صحب السلطان سليماً في الحملة الفارسية ، ثم أُلحقت نهائياً بالامبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان . وحاول قانصوه الغوري ، سلطان المماليك المتقدم في السن ، ان يقي نفسه من هذا العدوان على منطقة النفوذ المشتركة بينه وبين الفرس فعقد حلفاً مع شاه اسماعيل . حتى اذا خرج السلطان سليم في حملة جديدة على الشاه ، سار قانصوه الى حلب ، متظاهراً بالرغبة في اصلاح ذات البين . ولكن سليماً كان قد بلغ الأرض السورية فأغلظ معاملة السفراء الذين وجههم الغوري اليه لطلب الصلح ، وهكذا نشبت المعركة بين الفريقين في مرج دابق ، شمالي حلب ، في ٢٤ آب [١٥١٦] . واذ كان المماليك قد أهملوا سلاح المدفعية بالكلية ، بعد ان اعتبروه سلاحاً لا يليق بهم ، فقد منوا بهزيمة ساحقة ، وقتل سلطانهم فيما هو يلوذ بالفرار . وجثت سوريا كلها ، بعد ذلك ، على قدمي الفاتح ، فتابع سبيله الى دمشق ليدخلها في ٢٦ ايلول [من السنة نفسها] .

فتح مصر

وكان سليم راغباً ، بادىء الامر ، في ان يدع للمماليك حكم مصر شريطة ان يعترفوا بسيادته من طريقي الخطبة والسكة . ولكن طومان باي ، السلطان الجديد ، أبى ان يقر ذلك فسار سليم الى مصر لقتاله ، وفي ٢١ كانون الثاني ، سنة ١٥١٧ ، برزت جيوشه امام ابواب القاهرة ، حتى اذا كان اليوم التالي انزلت مدفعيته بالمماليك هزيمة حاسمة . اما قصر السلطان نفسه فلم يسقط في ايدي العثمانيين الا بعد قتال دامٍ في شوارع المدينة . وكان طومان باي قد فرّ الى الدلتا ولكنه لم يلبث ان سُلم غدراً الى اعدائه

فأمر السلطان سليم به فشنق في ١٣ نيسان ١٥١٧ .

وكان بين الرهائن الذين أسروا في المعركة ثم اعيدوا إلى القاهرة آخر الخلفاء العباسيين الذين سبق للمماليك أن منحوهم ، بعد سنة ١٢٦١ ، سلطة شكلية لكي يخلعوا على حكومتهم لوناً شرعياً . وتذهب الاسطورة إلى أن الخليفة العباسي [المتوكل على الله] قد حُمل الى استانبول حيث اكره على التنازل عن الخلافة للسلطان سليم . والحقيقة ان سليماً قد أعلن نفسه ، قبل ذلك ، خليفة على المسلمين في خطبة الجمعة ؛ وبوصفه خليفة استلم ، في شهر آب من سنة ١٥١٧ ، مفاتيح الكعبة . ومهما يكن من امر ، فقد ظلت صلة مصر بالامبراطورية العثمانية ضعيفة ، غير وثيقة . وكان السلطان قد عهد بادىء الأمر الى شمس الدين بن كمال باشا ، العالم الشهير ، في تنظيم شؤون مصر المالية ، فوجد ان الموارد التي يمكن أن تعود على السلطان من هذا الكسب الجديد هزيلة الى حد بعيد . ومع ذلك فقد تعاظم مقدار الجزية المستوفاة من مصر ، حتى في عهد سليمان ، تعاظماً كبيراً بعد ان استعادت البلاد حيويتها بسرعة ، وطفقت امكانياتها الاقتصادية الكبرى تؤتي ثمراتها . ولكن البكوات المماليك ما لبثوا ان انتهوا ، بفضل ممتلكاتهم الغنية ، الى غاية من النفوذ السياسي بعيدة ، حتى لقد اضطر حاكم مصر من قبل السلطان الى أن يقنع من السلطة بمجرد جمع الجزية .

نهاية السلطان سليم

واحدثت فتوح سليم ذعراً صارخاً في اوروبة ، حتى لقد خشي البابا ليو العاشر على المسيحية ان تتعرّض سلامتها للأذى ، فشرع يعد العدة لحرب صليبية جديدة . وانما خلدت ذكرى السلطان سليم عند الشعب التركي بوصفه بطلاً من أعظم الابطال العسكريين ؛ من اجل ذلك اطلق رجال تركية الفتاة اسم « ياوزْ سلطان سليم » على الطراد الالماني « غوبن » الذي فر من وجه الاسطول البريطاني الخاص بالبحر المتوسط ، في آب سنة ١٩١٤ ،

وانتهى الى حوزتهم . ولكن هذا الجندي الكبير كان مثل محمد الثاني ، فاتح القسطنطينية ، مولعاً بالشعر فهو ينظمه بالفارسية . ولقد نشر بول هورن ديوانه ، سنة ١٩٠٤ ، بأمر من القيصر ولهلم الثاني ، ليقدّم هدية الى السلطان عبد الحميد في طبعة ممتازة اخرجها مكتب الطباعة الامبراطوري . هذا وقد نشأ عن الصراع السياسي مع فارس أن وفق مذهب السنة الى إضعاف النزعات الشيعية — وكانت منتشرة في الاناضول منذ نشأت الامبراطورية ، وما تزال — وزحزحتها عن مراكزها .

ولعل سليماً كان يفكر في استئناف خطته لفتح الغرب ، يوم رجع الى أدرنة ، سنة ١٥١٨ . ومهما يكن من شيء ، فقد كان على أهبة الاستعداد لقتال فرسان القديس يوحنا في رودس عندما توفي ، إثر مرض ألمّ به ، في طريق عودته من استانبول الى ادرنه في ٢ ايلول سنة ١٥٢٠ .

سليمان الكبير يستولي على بلغراد ورودس

ورقي ابنه سليمان العرش ، من غير معارضة (١٢٨) . وكان ، وهو ولي للعهد ، مستكيناً خوفاً من نقمة ابيه الذي كان ينظر اليه نظرة شك وريبة ذاكراً بذلك حداثته هو . ولكن سليمان استطاع الآن أن يغذو خصائصه وكفاياته البارزة حتى بلغت غاية اكتمالها . والحق انه انصرف ، اول ما انصرف ، الى تحقيق اخطر ما تركه له اسلافه من مهامّ ، اعني الاستيلاء على الحدود الشمالية . وكان لويز الثاني — وهو قاصر لم يبلغ سن الرشد — يحكم المجر منذ سنة ١٥١٦ ، وكان زعماء البلاد غارقين في خضم من الخلافات الداخلية ، فلم يحسنوا الدفاع عن الحدود ، فتمكن العثمانيون بقيادة السلطان ، من احتلال بلغراد سنة ١٥٢١ . ثم ان سليمان اختصر ، بعد هذا النصر ، الحملة الشمالية ابتغاء إنفاذ خطة ابيه الاخيرة الهادفة الى

(١٢٨) انظر بابنجر Fr. Babinger, Suleyman der Grosse, Stuttgart,1922,2 vols.

فتح رودس ، حيث كان فرسان القديس يوحنا لا يزالون رغم انف العثمانيين ، يمدون حملات القرصان النصارى العائثين فساداً ، بالمساعدة . وفي نهاية تموز ، سنة ١٥٢٢ ضرب العثمانيون الحصار على القلعة ولكن قائد المنظمة الاكبر لم يستسلم الا في ٢١ كانون الاول ، بعد ان تكبد الجانبان المتقاتلان خسائر مريعة ، وبعد ان مُنح حرية الانسحاب مع جميع الفرسان ، وتعهدت الدولة بالمحافظة على سلامة اشخاصهم وممتلكاتهم ، وبأسقاط الجزية عن اهل الجزيرة الأصليين — وهم نصارى — خمس سنوات كاملة .

وكانت السياسة الفرنسية تقوم على مناهضة اسرة هابسبورج الملكية ، وبذلك استطاع سليمان ان يخطو خطوات بعيدة في سبيل إنفاذ خططه ضد جارته الشمالية . والحق ان العلاقات الودية ما لبثت ان نشأت ، منذ ذلك الحين ، بين بلاطي باريس واستانبول ، فضمنت لفرنسة ، طوال القرون التي تلت ، مركزاً ممتازاً بين الدول الكبرى في كل ما يتصل بالسياسة الشرقية .

استئناف الحرب في المجر

وفي سنة ١٥٢٦ استأنف سليمان الحرب ضد المجر . فقتل ملكهم الشاب ، لويز وليس له من العمر غير عشرين عاماً ، في موقعة مُهاج (موهاكس) المشؤومة ، وقتل معه صفوة رجاله ، في ٢٨ آب . وفي ١١ ايلول احتل العثمانيون مدينة بودا ، لأول مرة ، وجعلوها طعاماً للنار . ثم ان الحرب نشبت ما بين فرديناند ملك النمسا وجان زابوليا أمير ترانسلفانيا بسبب من النزاع على تاج المجر . فلم يكن من سليمان إلا ان ناصر زابوليا على خصمه واحتل بودا كرة أخرى في أيلول سنة ١٥٢٩ ليحتفل فيها بتتويج حليفه ملكاً [على المجر] . ومن ثم تقدم سليمان الى فينا ، فحاصرها ، ولكنه اضطر ، في ١٥ تشرين الأول ، الى ان يرفع الحصار عن المدينة لقلة المؤن . ولم تكن حملة سنة ١٥٣٢ اوفر حظاً من سابقتها ،

فقد صمدت قلعة كُوسَك * المجرية الصغيرة في وجه سليمان طوال شهر آب ، فكان عليه ان يقنع بتخريب السهول ، حتى سقوط هذه القلعة في ٢٨ من الشهر نفسه.. ولكن اسطول الامبراطور شارل الذي كان يقوده امير البحر الجنوي ، اندريا دوريا ، والذي كان يعمل في نجاح على شواطىء المورة ، لم يلبث ان اضاع على سليمان ثمرة النصر الجزئي . وفي السنة التالية اعلن السلطان استعداده لعقد معاهدة صلح يعترف فيها بالوضع الراهن لكل من ممتلكات الفريقين المتنازعين ، فقد كانت الأحوال الجارية في آسية ، تستدعي اهتمامه وعنايته .

الحرب في فارس

ذلك ان فارس خضعت ، منذ سنة ١٥٢٤ ، لحكم طَهْماسْب بن اسماعيل ؛ وكان طهماسب هذا قد أبى الاعتراف بالسلطان العثماني خليفة على المسلمين ، متأسياً في ذلك بوالده من قبله . وحدث ان عامل بغداد الفارسي ، [من قِبل طهماسب] خانَ سيده وانحاز الى سليمان فجهز الشاه حملة ضده واخضعه ، فاتخذ سليمان هذه الحملة ذريعة لاعلان الحرب على فارس . فلما كان صيف سنة ١٥٣٤ ، واضطر الشاه الى التراجع في وجه [القوات العثمانية] صار في ميسور سليمان ان يتقدم الى عاصمة الفرس ، تبريز ، وان يستولي على بغداد ، في تشرين الثاني ، من غير ما عناء . ثم ان سليمان أقر الأمن والنظام في هذه الولايات الواقعة على الحدود والتي كان يعتزم الاحتفاظ بها ، لينقلب بعدُ الى استانبول ، اوائل سنة ١٥٣٦ .

نشوء القوة البحرية العثمانية

وفي استانبول انصرف سليمان الى تعزيز قوته البحرية ، في المحل الأول ،

* Güns .

كوسيلة لغسل العار الذي لحق به في الحرب الاخيرة [بأوروبة] . وانما وجد عوناً كبيراً على هذه المهمة في شخص خير الدين بربروسا ، وهو قرصان يوناني من جزيرة « مَدَلْلي » (لسبوس) سلخ هو واخوه عَرّوج ، سنوات طوالاً يهدّدان بقرصنتهما شواطىء البحر الابيض المتوسط الغربية ، بصورة خاصة . والواقع ان الأحوال السياسية المضطربة في شمالي افريقية ، قد ساعدت هذين الرجلين على التمكين لنفسيهما في تلك الديار . وكان سلطان تونس * محمد [السادس ، ابن ابي] حفص قد عهد الى عَرّوج ، قبل ذلك في حكم جزيرة جَرْبَة . وكان الاسبان قد هاجموا شمال افريقية عدة مرات — لكي يتقوا شرّ القرصنة — فاحتلوا الجزر الجبلية الصغيرة الواقعة تجاه [مدينة] الجزائر على مدى نار المدافع منها ، ومن هناك سيطروا على مدخل الميناء . حتى اذا توفي فرديناند ، التمس اهل الجزائر المعونة من عروج ضد الاسبان الذين عطلوا عليهم مورد رزقهم الاكبر . فلم يكن منه الا ان استولى على المدينة [الجزائر] وضواحيها الخصيبة ؛ وعلى الرغم من انه عجز عن طرد الاسبان ، فقد اتقى عدوانهم على السواحل بمصاولات سفكت فيها دماء غزيرة . وفي سنة ١٥١٨ بسط نفوذه في اتجاه الغرب الى تِلِمْسان ، ولكنه قتل في معركة قطع عليه الاسبان ، فيها ، خط الرجعة . وكان قد خلف على الجزائر اخاه خير الدين الذي تولى بعدُ قيادة قواته . واذ قد رأى الى الحكام الجزائريين يتهددونه من كل جانب ، فقد استنجد بالسلطان سليم ، بعيد فتحه مصر مباشرة . فلم يكن من السلطان الا ان ألحقه في خدمته برتبة بكلر بك ** (امير) وامده بألفي جندي تركي ، مع مدفعيتهم ، وسمح له ان يزيد في عددهم من صفوف المرتزقة وان يمنحهم حقوق الانكشارية وامتيازاتهم . وفي سنة ١٥١٩ قام خير الدين بهجوم

* بضم النون وكسرها ايضاً . (المعربان)

** تلفظ كل من الكاف الاولى والثانية في هذه الكلمة « ياء » . (المعربان)

على تونس ، ولكن خيانة بعض جنده قطعت عليه سبيل الاتصال بقاعدة اعماله العسكرية ، فاضطر الى ان يستأنف السلب والنهب في جزيرة جيجَل . والواقع انه وفق هناك ، بما اكتسب من مغانم ، الى ان ينشيء جيشاً جديداً ، والى ان يفتح آخر الامر الجزائر ، ويطرد الاسبان من معاقلهم في جبل « بنيون » . وفي سنة ١٥٣٤ احتل تونس نفسها ، ولكن الاسبان ما لبثوا ان انتزعوها منه ، في عهد شارل الخامس ، حزيران سنة ١٥٣٥ . وانتقل بربروسا بعيد ذلك ، الى استانبول لكي يواصل الحرب البحرية ضد الاسبان في عزيمة اقوى وقوة أشد ، وكان قد عُين اميراً للبحر سنة ١٥٣٣ . وفي سنة ١٥٣٧ اعلن سليمان الحرب ، بتحريض منه ، على البنادقة ، ففقدوا خلال سنوات ثلاث جميع ممتلكاتهم في بحر ايجه حتى سواحل إقريطش وتينوس ومَيقونوس . ولكن عنايته الكبرى كانت لا تزال تتجه نحو تحقيق مطامحه السياسية في شمالي افريقية ، على الرغم من انه لم يُقيض له ، بعد ، ان يطأ ثراها ، كرة اخرى . من اجل ذلك ، أيّد في استانبول ، بحماسة بالغة ، مبدأ التحالف مع فرنسيس الاول ملك فرنسة ، ضد الامبراطور شارل الخامس ، وكان هذا قد هاجم في سنة ١٥٤١ الجزائر ، ولكن جيوش خير الدين ردته عنها . حتى اذا اندلعت نيران الحرب بين فرنسة واسبانية ، من جديد ، هاجم بربروسا ، على رأس اسطول تركي ، الشواطيء الايطالية ، وضرب الحصار على نيس (نيسه). بيد أن صلح كرَسبي الذي عقد سنة ١٥٤٤ ما لبث ان اضطره الى الانسحاب . وتوفي بربروسا بعد عامين اثنين تاركاً للسلطان اسطولاً مجهزاً تجهيزاً حسناً ، وبحارة تمرّست بالمعارك ، فغير عجيب ان تثبت بعدُ انها اداة فعالة في تنفيذ سياسة السلطان ومشروعاته .

وكان سليمان قد احرز نصراً موزراً على آل هابسبورج ، في البرّ ، وضم الى امبراطوريته مقاطعة ذات شأن عظيم. فلما كانت سنة ١٥٤٣ وتوفي جان زابوليا تقدم الى المجر ليحول دون الاعتراف بفرديناند ملكاً . فدخل في ٢ ايلول مدينة بودا وحوّل كنيستها الرئيسية الى مسجد ، واقام ادارة

عثمانية محلية تتولى الاحكام في بلاد المجر . وفي سنة ١٥٤٧ اضطر فرديناند الى ان يعقد صلحاً لمدة سبع سنوات ، بعد ان كان الاتراك قد تقدموا لفتح « غران » و « ستُولنوايزِنبَرْج . »

آثــار سليمان العمرانية

وفي سنة ١٥٥٠ شرع سليمان ، وقد بلغ أوج قوته وسلطانه ، في انشاء جامع عظيم ، في استانبول ، قُدّر له ان يكسف انوار آيا صوفيا نفسها ، كأثر من أجمل آثار الفن المعماري عند العثمانيين . ولقد أفرد لهذا البناء رقعةٌ فسيحة من الأرض ، الى شمالي السراية القديمة ، واضعاً عــدداً من الكنائس القديمة والمواد الاثرية تحت تصرف سِنان ، المهندس المعمار . وههنا ايضاً شُيد الصحن الخارجي في كثير من الفخامة التي تتمثل بخاصة في باب سلطاني اقيم على الطراز الفارسي مقابل المحراب . ونهضت فوق زوايا الصحن الأمامي مآذن اربع . أما البناء الرئيسي ذو البلاطات الثلاث فتتوّجه قبة فخمة تقوم على أربع أساطين مربعة ؛ وهي أعلى من قبة آيا صوفيا بخمسة أمتار . والواقع ان جميع جدران الجامع وأعمدته تزدان ، من الداخل ، بطبقة من الرخام المتعدّد الالوان ، في حين ان الجدار الخلفي يزهو ، هو والمحراب ، بالقاشاني الفارسي . ولقد عُهد في زخرفة نوافذ هذا الجدار التسع الى سَرْخوش ابراهيم ، اشهر الرسامين على الزجاج في ذلك العصر ، فأخرجها في ألوان متوقدة ، شديدة الوهج . والذي يؤخذ من السيرة التي وضعها سِنان المهندس المعمار مترجماً فيها لنفسه ، والتي طُبعت في استانبول سنة ١٨٦٥ ، انه * قد أُلحق بفرقة الانكشارية على عهد السلطان سليم الاول وانه شارك في حملات بلغراد ، وررودس ، ومُهاج (موهاكس) كمحارب ، في حين شارك في حصار فينا بوصفه رئيساً لفرقة المهندسين . وبعد إقامة

* اي سنان : وكان من الاولاد الاسرى الذين كانوا يؤخذون كجزء من الغنيمة : (ويدعوهم الاتراك عجم اوغلان) .

متطاولة في بغداد التحق بخدمة السراية ، ليعيّن بعد قليل رئيساً للمعمارين (سر معمار) . والحق أنه تكشّف في منصبه هذا عن نشاط عجيب فأنشأ ، بأمر من السلطان ، واحداً وثمانين جامعاً كبيراً ، واثنين وخمسين مسجداً صغيراً وخمساً وخمسين مدرسة ، وسبعة معاهد لدراسة القرآن ، وسبعة عشر مطعماً عمومياً ، وثلاثة مستشفيات ، وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن ، وسبعة جسور ، وثلاثة وثلاثين قصراً ، وثمانية عشر خاناً ، وخمسة متاحف ، وثلاثة وثلاثين حماماً ، وتسعة عشر ضريحاً (أو قُبة) .

الصراع بين ابنـــاء سليمان

وما عتم الصراع ان نشب بين أبناء سليمان بسبب من نظام الحـــريم (تعدّد الزوجات) ، هذا النظام الذي لم ينج أحدٌ من السلاطين العثمانيين من عواقبه الوخيمة ، إلا قليلاً . وتفصيل ذلك أن مصطفى ، ابنه البكر ، وكان أثيراً لدى الجيش أضحى موضع الريبة عند أبيه بسبب دسائس محظية روسية الاصل ، هي : « روقسلانه خُرّم » وصهرها الصدر الاعظم رُستَم . فلم يكن من سليمان إلا أن أمر بقتل ابنه هذا خنقاً في سرادقه في أرْكَلِـي ابان حملة قام بها [سليمان] على بلاد الفرس سنة ١٥٥٣ . ولكن حرباً فعلية ما لبثت ان شبت بعد ذلك بين ابناء روقسلانه ايضاً . وكان مصطفى رضا ، المهذب الخاص لسليم ثاني اولاد سليمان [من روقسلانه] قد القى بذور الشقاق — بتحريض من رستم ، على ما تقول المصادر — بين سليم هذا وأخيه بايزيد ، الذي كان أصغر منه سناً واوفر موهبة . وفي سنة ١٥٥٩ اتفق الاخوان على ان يجريا تبادلاً في الولايات التي يحكمانها ، وكان المفروض أن يستعيض بايزيد عن قونيه بأماسيه ، وأن يستعيض سليم عن مغنيسيه بكوتاهيه . بيد ان بايزيد أبى أن يرضخ لهذا التدبير وحشد جيوشه للقتال ، فهزم في قونيه ، في ٣٠ نوار سنة ١٥٥٩ ، وفر إلى فارس . ولكن الشاه أسلمه الى السلطان سليمان ، حتى اذا كان يوم ٢٥ ايلول سنة ١٥٦١ قدمه

والده الى جلاديه . وهكذا انتهى سليم ، اقلّ اولاد سليمان كفايةً ، وكان عربيداً سكيراً ، الى ان يصبح وارث العرش غير منازع .

ومال نجم سليمان — في اواخر ايامه — الى الافول ، في الشؤون الخارجية أيضاً . فلم تكد تدخل سنة ١٥٥١ حتّى اندلعت نار الحرب ، كرة اخرى ، في بلاد المجر . وانما تصدى لحرب العثمانيين في البحر اسطول اسباني متحالف مع فرسان القديس يوحنا الذين استقروا في مالطة ابتداء من سنة ١٥٣٠ ؛ والواقع ان سليمان بذل جهوداً كبيرة لاخراجهم من هناك ، ولكن جهوده كلها ذهبت ادراج الرياح . عندئذ حاول سليمان — من باب التعويض عن ذلك الاخفاق — أن يضع حداً لبطء الحملة المجرية . ففَصل من استانبول ، في اول نوار سنة ١٥٦٦ ، على رأس جيش قويّ ؛ وكان المرض قد ألمّ به قبل مسيره ، فلم يكد يبلغ سِكتْوار * — التي ثبتت في وجهه ، بقيادة [نقولا] زْرِيني ، شهراً كاملاً — حتّى اشتد عليه المرض فقضى نحبه في ليل ٥ — ٦ من ايلول ؛ وبعد يومين ليس غير سقطت خرائب القلعة في ايدي الانكشارية . ولقد خلع المؤرخون الغربيون على السلطان سليمان لقب « العظيم ** » تشريفاً له وتعظيماً ، في حين شرّفه العثمانيون بلقب القانوني ، (اي المتشرع) . والحق انه فاق جميع اسلافه في تعاظم القوة الخارجية تعاظماً يتجلى اروع ما يكون على ضوء التفسخ الذي اصاب الامبراطورية ، وشيكاً ، في ظل خلفائه . ومن هنا كان من الخير ان نقف عند وفاته لنتكلم على المراحل التي اجتازها الشعب التركي في تطوره الداخليّ .

---

* Szigeth

** « The Magnificent »

حضارة العثمانيين في أوج الامبراطورية

نظــام الاقطاع

لم يكن السلطان سليمان قائداً عسكرياً عظيماً ، فحسب ، بل كان إلى ذلك منظماً كبيراً حسّن المؤسّسات التي أنشأها أسلافه وتمّمها . فقد كانت الدولة ما تزال تقوم على أساس النظام الاقطاعي الذي اقتبسه الحكام الأولون على الغرار البيزنطيّ والذي سبق لسليمان ان دوّن احكامه تدويناً مفصلاً . وكان الجنود المستحقون للمكافأة يمنحون ، بادىء الامر ، إقطاعاً صغيراً يكون على مالكيه السابقين ، من الفلاحين ، ان يواصلوا حرثه وزرعه بوصفهم رعايا فهو يغلّ على المُقْطَع دخلاً يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ « أقجه » في السنة الواحدة . وكان على المقطَع ، لقاء ذلك ، ان يقدم الى الجيش عدداً من الفرسان يتراوح ما بين الاثنين والاربعة ، أو عدداً من البحارة لخدمة الاسطول . ومثل هذا الاقطاع كان يدعى « تيمار » وهي ترجمة فارسية لكلمة pronoia اليونانية ، المماثلة لكلمة cura اللاتينية . وكانت الخدمة الشخصية وحدها هي التي تؤهل التابع الاقطاعي لاقطاع أكبر ، يدعونه « زِعامَتْ » . اما ابنه فكان يتعين عليه ان يبدأ بـ « تيمار » .

وكان على صاحب الـ « زعامت » (الزعيم) الذي يبلغ دخله مائة الف « أقجه » أو يزيد ان يقدم للدولة رجلاً واحداً لكل خمسة آلاف « أقجه » . وكان المفروض ان تعادل « الاقجه » الفضية ، في العادة ، زنة ربع درهم . وفي ايام محمد الثاني كانت كل اربعين « أقجه » لا تزال تساوي « دوكه » حتى إذا كان عهد خلفائه تدهور النقد إلى درجة أصبحت معها كل ستين أقجه تعدل « دوكه » . بقيت الاقطاعات المدعوة « خاص » وهي اعظم من « الزعامت » . وانما كانت تمنح للولاة المحليين . ولم تكن لتخضع ، كالـ « تيمار » و الـ « زعامت » ، لتفتيش الدفترداريين المكلفين بمراقبة الاقطاعات . وفي عهد سليمان الأول كانت الأراضي المقطعة في اوروبة تقدم الى الدولة نحواً من ثمانين الف فرس . في حين كانت الأراضي المقطعة في آسية تقدم نحواً من خمسين الفاً . أما في الولايات الفارسية التي اخضعها العثمانيون فلم يبق من الميسور انشاء اقطاعات جديدة ، لان احداً لم يكن ليرغب في الاضطلاع بالالتزامات المتصلة بهذه المناطق المخربة بسبب من الحملات الحربية المتوالية .

والواقع أن قوى الفرسان الاقطاعية هذه الفت بادىء الأمر نواة الجيش العثماني . وكان سلاحهم القوس والنشاب ـ وقد عمّر استعمالهما أكثر ما عمر بين الآسيويين ـ والرمح الخفيف والسيف القصير ، وفي بعض الاحيان ، المخصرة الحديدية والمجنّ الصغير المستدير . اما الدرع والخوذة الشائكة فلم تصطنعا الا تدريجاً . وكانت العمامة هي لباس الرأس العام ، في العصور السالفة . وكانت تربية الخيل تعتبر اول واجبات التابع الاقطاعي ، بل ان اهمال ذلك قد يؤدي به الى فقدان الاقطاع ، في بعض الأحوال .

وكانت الاقطاعات العسكرية تنتظم في ألوية أو سناجق . ولم يزد عدد هذه السناجق ، اول الأمر ، على اثنين ليس غير ، بيد أنها تكاثرت بعدُ فبلغت عدتها ٢٩٠ سنجقاً . وكان يحكم السناجق بكوات يعقد لهم لواؤها كما كانت العادة حتى عند العرب انفسهم ، اذ كان اللواء رمزاً للسلطة

العسكرية العليا . وكان يرئس بكوات السناجق ، بادىء الرأي ، حاكمان يدعى كل منهما « بكلربك » ، ويشمل نفوذ احدهما الاناضول ، في حين يشمل نفوذ الآخر الروم إيلي (اوروبة) ، وكانا يحملان أيضاً لقب باشا . فأما باشا الاناضول فكان مقر قيادته أول الامر في انقره ، حتى اذا كانت سنة ١٤٥١ نُقل الى كوتاهيه . واما باشا الروم ايلي فاتخذ مدينة صوفيا له مقراً . والحق ان بكلربك الروم ايلي كان أرفع رتبة . من اجل ذلك حفل لواؤه بثلاثة من اذيال الفرَس ، في حين لم يكن زميله الاناضولي ليستحق غير اثنين فحسب . كذلك كان يمثل السلطان كقائد اعلى ، يتعين على الامراء انفسهم ان يطيعوه ويخضعوا له .

ولم يلجأ السلطان الى تعيين باشوات جدد الا بعد اتساع الامبراطورية اتساعاً مطرداً في آسية ، وقد كانوا على كلّ حال دون باشا الاناضول درجة على الرغم من ان جيوشهم كانت اكبر واعظم . وبعد ذلك بمدّة ، شرعت الدولة تضم بعض السناجق الى بعض لتؤلف البشالق (باشالق) اوالولايات ، ولم يكن عددها ليقل عن السبعين عند مطلع القرن التاسع عشر . والواقع ان هذا الصنيع بالذات كان عاملاً من عوامل الفساد الطارئة على ادارة الدولة ، هذه الادارة التي أقيمت ، اول ما اقيمت ، على المركزية الضيقة .

بيد ان النظام الاقطاعي ، الذي استطاع قبل ذلك ان يثبت للتجارب ثباتاً حسناً في موطن العثمانيين الاصلي الصغير ، ما عتّم ان أصابه الفساد في الامبراطورية الجديدة المطردة الاتساع . فقد اضطر السلطان الى ان يترك للبكلر بكوات امر إقطاع الاقطاعات الصغيرة شرط ان لا يزيد دخلها على ستة آلاف اقجه . ولكن هؤلاء البكلر بكوات لم يحجموا عن اقطاع ما في حوزتهم من « التيمارات » لاتباعهم الخصوصيين وللعبيد في الاعم الاغلب – ولا يُتوقع من مثل هؤلاء ان يقدموا مقابل ذلك أيما خدمة عسكرية – بدلاً من أن يُقطعوها المحاربين المجربين . ليس هذا فحسب ، بل لقد ذهبوا ، وشيكاً ، الى أبعد من هذا فصاروا يسرحون جنودهم

الاقطاعيين المجربين اذا ما تطرق الى نفوسهم اقل الشك في اصولهم العثمانية . وحاول سليمان ان يضع حداً لهذه المساوىء بواسطة « قانون نامه » الذي أصدره سنة ١٥٣٠ . فقد نزع من ايدي البكلر بكوات حق الاقطاع التحكمي ، وهكذا فقد تعين عليهم ان يقدموا ، منذ اليوم ، شهادة (تذكرة) بالرجل الذي يرغبون في منحه الاقطاع ، فاذا حظي الرجل برضا الباب العالي نفسه (ديوان الصدر الاعظم *) صدرت عن هذا المقام « براءة » بالاقطاع ، وثبتت هذه « البراءة » في السجل الخاص بالاقطاعات . ولقد نظمت الحقوق الوراثية الخاصة بأولاد اصحاب الاقطاعات تنظيماً دقيقاً . فلم يعد جائزاً ان ينتقل الاقطاع من لأب الى ولده ، مباشرة . بل لقد تعين على الولد ان يقنع باقطاع اصغر ، ريثما يقيم الدليل بأعماله العسكرية على انه خليق بأن يحظى من الدولة بالمثوبة والتقديم . وكان من المفروض ان يتوقف حجم الاقطاع الاولي على ما اذا كان الوالد قد استشهد في الميدان ، أم مات حتف أنفه . اما الاولاد القاصرون فكان من حقهم ايضاً أن يُقطعوا « تيماراً » ، حتى اذا بلغوا التاسعة عشرة ولم يتقدموا الى الخدمة العسكرية خسروا إقطاعهم هذا .

ولكن « قانون نامه » الذي اصدره سليمان لم يوفق الى استئصال شأفة تلك المساوىء جميعاً . فقد اهمل كثير من الاقطاعيين امر الحصول على موافقة الباب العالي على « تذكراتهم » بالصورة التي قدمها عليها « بكلر بكواتهم » وذلك هرباً من دفع الضرائب المفروضة ، هذه الضرائب التي كانت قيمتها تزداد ، في احيان كثيرة ، تحكماً واعتباطاً ، وفقاً لأهواء موظفي الباب العالي . ولم يكن من النادر ان يموت « السباهي » عن اقطاع له فتقطع اوصال هذا الارث الكبير حتى يمنح اولاده المتعددون اقطاعات صغيرة ، ليتقدموا عندئذ فقط الى الخدمة العسكرية ، على التعاقب . واخيراً

---

* كان الصدر الاعظم يدعى « اولو وزير » في القرن السادس عشر .

فقد كانت الخلافة الوراثية جائزة في مثل هذه الاقطاعات الآسيوية ، حتى ولو كان الوارث امرأة . ولكن مالكي الاقطاعات الكبرى شرعوا هم ايضاً ، يتهربون شيئاً فشيئاً من الوفاء بالتزاماتهم العسكرية . وآية ذلك ان عيّني علي ، ناظر المالية في عهد السلطان أحمد الأول ، يشكو في كتابه « قانون نامه » من ان رجلاً واحداً ـ من أصل عشرة من اصحاب التيمارات الذين كانوا يتنازعون على الموارد ايام الحصاد ـ لم يكن يبرز الى الميدان عندما يطلب اليهم خدمة العلَم . ولكن أياً من « عيني » هذا أو الصدر الاعظم نصوح باشا لم يوفق في ما بذل من جهد بسبيل اعادة تنظيم التجنيد على الاقل ، ولقد كانت نهاية نصوح العنيفة سنة ١٦١٤ [وقد أمر السلطان بخنقه] ناشئة بعض الشيء ، على كل حال ، عن جهوده الاصلاحية هذه .

الجيش

وهكذا انتهى المرتزقة الى ان يؤلفوا شيئاً بعد شيء ، نواة الجيش بدلاً من القوى الأقطاعية . وكانت اقدم فرق المرتزقة هذه فرق السباهيين ، وهم فرسان الباب العالي . والواقع (١٢٩) ان الديبلوماسي الفرنسي ، غيسلان دي بوسبك الذي مثل الامبراطور فرديناند هابسبورج من سنة ١٥٥٥ الى سنة ١٥٦٢ كسفير لدى السلطان سليمان الثاني ، والذي دوّن ملاحظاته الممتازة عن الامبراطورية العثمانية في عدة مؤلفات ، يتحدث باعجاب عن جمال افراسهم الرافلة بجهاز يتلألأ بالذهب والفضة والجواهر . اما الفرسان انفسهم فكانوا يلبسون ثياباً من قماش مقصب او من حرير مختلف ألوانه ، فهو حيناً قرمزي ، وهو حيناً اصفر زعفراني ، وهو حيناً ازرق قاتم . وكان سلاح كل منهم القوس والنشاب ، ومجناً صغيراً ، ورمحاً خفيفاً ، وسيفاً قصيراً مرصعاً في الاعم الاغلب بالحجارة الكريمة ، وصولجاناً معلقاً

---

(١٢٩) انظر The Turkish Letters, Oxford, 1927.

بقربوس السرج. والواقع ان الاسلحة النارية اليدوية لم تُصطنع الا سنة١٥٤٨ في الحملة على بلاد فارس ، ولكن هذه التجربة الاولى اخفقت اخفاقاً تاماً ، في حين كانت المدفعية معروفة ، قبل ذلك ، [عند العثمانيين] معرفةً جيـــدةً . فلما كانت الحروب الاوروبية اضطر العثمانيون لأول مرة الى اصطنـــاع السلاح الحديث ، كضرورة لا محيص عنها . ومع ذلك فقد ظلّ السباهيون ، يعتمدون على القوس والنشاب ، في المحل الأول ، حتى نهاية القرن السادس عشر .

وعُززت الفرق الأربع التي انشأها اورخان نفسه تعزيزاً كبيراً ، وبخاصة في اثناء الحملات الكبرى التي قام بها سليم وسليمان ؛ حتى اذا اقبلت سنة ١٥٣٤ كان عددها قد ارتفع الى ١١,٥٠٠ وكانت الفرق الثلاث الاولى تغذى بعناصر جديدة من الـ « إيج اوغلان » أي الغلمان النصارى الذين أسروا في الحرب ثم نُشّئوا في السراية ، بينا كانت الفرقة الرابعة ، وهي الكتيبة الاجنبية التي لم تحظ بالاعتبار الرفيع نفسه ، تُمدّ بعناصر من الرجال الداخلين حديثاً في الاسلام . والواقع ان هذه الكتيبة تفسخت تفسخاً واضحاً في اثناء الحروب الفارسية . ذلك بأن الشاه كان يدمر الولايات الواقعة على الحدود ، حالما تقترب جيوش الاعداء من بلاده ، ويأمر السكان بالانسحاب الى الداخل حتى يتعذر على المهاجمين ، او يكاد ، امر الاستعانة برجال البلاد وافراسها . وهكذا شق فرسان السباهية عصا الطاعة سنة ١٥٨٦ ، ولم تهدأ ثائرتهم الا بعد ان نزل السلطان عند رغبتهم القاضية بان يقودهم بنفسه الى بلاد الفرس . وفي اواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وقع الباب العالي في عجز مالي اضطر معه الى حبس ارزاق الجنود ، فثار فرسان السباهية ، غير مرة ، معلنين عجزهم عن الاستمرار في تغطية نفقات الحملات العسكرية بمرتباتهم الخاصة . ومع الأيام اتسعت شقة المفارقة بين حالة هذه الكتيبة التي يفرضها القانون وحالتها الواقعية ، وتعاظمت شيئاً فشيئاً .

ولئن كانت روح البداوة الآسيوية القديمة قد تهذبت ، الى حد كبير ، عند القوات الاقطاعية وفرسان السباهية ، بفضل المدنية والنظام الصارم ، فقد ظلت عنيفة قوية في نفوس الـ «آقينْجي» الذين يؤلفون طلائع الجيش الخيالة والذين لم تكن لهم تعويضات قانونية ، فهم يعتمدون في معاشهم على الاعفاء من دفع الضرائب ويفزعون عادة الى السلب والنهب . وكانت هذه الفرقة تتألف في الدرجة الاولى من فلاحي الاقطاعات الذين كانوا يقصدون ، من طريق النهب هذه ، الى التعويض عما يلحقهم من ظلم وعسف على ايدي سادتهم الاقطاعيين . وفي سنتي ١٤٧٧ — ١٤٧٨ حملت هذه العصابات اهوال التخريب الى سهول البندقية الخصيبة نفسها والى الاودية المرتفعة في جبال الالب في ناحية ستَيِيرْيا . ليس هذا فحسب . بل لقد عاثت هذه العصابات فساداً في بلاد المجر ، طوال قرن بأكمله ، واستاقت مئات الالوف من اهلها الى اسواق النخاسة .

ولم يكن الدور الذي مثلته القوات الاضافية المجموعة من البغدان * والأفلاق ** ومن تتار القرم ، والكُرْج والاكراد — وكانوا جميعاً يدفعون الجزية — ليختلف عن ذلك الذي مثلته فرق الـ «آقينجي» . وكان خان شبه جزيرة القرم يحتفظ بخمسين الف مقاتل على قدم الاستعداد للهجوم على اطراف بولندة كلما سنحت الفرصة المؤاتية . وكان اهل جورجيا (الكُرج) والاكراد يقومون بمثل هذه الغارات على الفرس .

الانكشارية

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الانكشارية لا يزالون هم قوام الجيش وعماده . وكان غلمان النصارى المختارون لتزويد هذا الجيش بالعناصر الجديدة يُنشَّأون في دور الحجّاب الاربع ، في ادرنة ، وفي السراية القديمة

* Moldavia
** Wallachia

والسراية الجديدة في استانبول ، وفي بيرَه . وكان الغلمان يصنفون اصنافاً خمسةً . وكان تدريبهم يلتزم المبادىء الانسانية الى أبعد الحدود ، على الرغم من صرامته ؛ ولا غرابة في ذلك فقد كانت الدولة تقصد الى ان تخلق منهم رجالاً ، لا عواجز او جبناء خوّارين . ولم يكن الصف الاعلى الذي يتخرج فيه حجاب السلطان الشخصيون لينتظم اكثر من خمسة وعشرين او اكثر من ثلاثين شاباً . والواقع ان هذا الصف كان مدرسة يُعد فيها المرشحون لتولي اعلى مناصب الدولة والبلاط . والكثرة الغالبة من رؤساء الوزراء انما تخرجت فيه . وعلى الرغم من ان اختيار الصبيان النصارى لهذه الخدمة كان امراً متبعاً في عهد مراد الثاني (١٤٢١ — ١٤٥١) فالحق انه لم ينظم تنظيماً محكماً الا في عهد سليم الاول . وكانت ضريبة الغلمان * تجمع كل خمس سنوات ، (ثم تقاصرت المدة في ما بعد حتى صارت تُجمع ، آخر الامر ، مرة كل سنة) في جميع البلدان البلقانية واليونان ، وفي المجر في ما بعد ايضاً . ولم يُعفَ من هذه الضريبة الا قليل من المناطق المتمتعة بمعاهدات ، من مثل استانبول ، وغلطة ، ورودس . وكان الاختيار يقع ، في بادىء الامر ، على غلام من كل خمسة فقط ، ثم صارت الدولة تنتزع ، في ما بعد ، جميع الغلمان السليمي البنية ممن تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة . ولم يكن ذلك كله ليخلو من التلاعب والعبث بالقانون ، فقد كان الموظفون يسمحون للآباء الاثرياء بأن يشتروا حرية ابنائهم ؛ وكانوا لا يُسلمون جميع المنتخبين الى دور الحجّاب ، ليبيعوا عدداً كبيراً منهم للنخاسين ، لحسابهم الخاص . ومهما يكن من شيء فقد كان في المستقبل اللامع الذي ينتظر الانكشارية ما يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة . والواقع انه استثار حسد الاتراك انفسهم ، فكانوا يسعون ، في احوال كثيرة ، الى دس ابنائهم في صفوف الغلمان من النصارى . ثم ان الدولة اهملت ضريبة

---

* « ديو شيرمه » في التركية . (المعربان)

الغلمان ، شيئاً بعد شيء ، حتى اذا آذن القرن السابع عشر بالانتهاء اقلعت عن ذلك بالكلية .

وكانت سن الالتحاق بجيش الانكشارية ، بادىء الامر ، هي الخامسة والعشرين ، حتى اذا وقعت الحروب الفارسية وفسد تنظيم الجيش ، انتهت هذه السن إلى التخفيض . ولم يزد عدد الانكشارية بوصفهم فرقة مختارة ، على خمسة عشر ألف رجل ، في يوم من الأيام . والواقع أن أيما زيادة في عدد الانكشارية أمست عملاً غير مرغوب فيه ، فصُرف النظر عنها بسبب التمرد الذي ذرّ قرنه سريعاً في صفوفهم . والحق أنهم لم يكتفوا بالإلحاح في طلب الهبات السخية كلما رقي العرش سلطان جديد ، بل عدوا ذلك إلى ما هو أخطر ، فأكرهوا السلطان سليماً الأول ، مثلا ، على أن يقطع ، أثناء الحرب الفارسية ، رأس الصدر الأعظم ، ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم نفسه . والواقع أن الدولة حاولت أن تخضد شوكتهم من طريق تفريقهم ، وتوزيعهم موقتاً على حاميات الحدود . ففي سنة ١٥٨١ ، مثلا ، لم يكن يعسكر منهم ، في استانبول ذاتها ، غير أربعة آلاف . وتقدم جيش الانكشارية خطوة جديدة ، في طريق التفسخ ، عندما سمحت الدولة لأفراده بالزواج ، حوالي نهاية القرن السادس عشر . فقد كان من نتائج هذا الإجراء العاجلة أن جُعل الانتماء إلى جيش الانكشارية وراثياً ، بصرف النظر عن المقدرة العسكرية . ثم كانت الحروب الفارسية المشؤومة ، عهد السلطان مراد الثالث ، فاضطرت الدولة إلى تقوية هذا الجيش كيفما اتفق ، حتى إذا دخلت سنة ١٦٦٠ كانت عِدّته قد بلغت ٥٤,٢٢٢ رجلا . ليس هذا فحسب بل إن نحواً من هذا العدد من الرجال أضيفت أسماؤهم إلى لا ئحة المعاشات ، غير أنهم لم يتقاضوا تعويضاً ما ، بل اكتفوا بأن تعفيهم الدولة من أداء الضرائب ؛ ولم يكونوا يقومون ، لقاء ذلك ، بأية خدمة عسكرية ولكنهم كانوا أبداً على استعداد لتأييد الانكشارية في كل حركة من حركات العصيان والتمرد . وإذ ازدادت أعطيات الانكشارية تضاؤلا ، على كرور الأيام ، فقد اضطروا إلى

أن يعتمدوا في معاشهم ، أكثر من ذي قبل ، على بعض الصناعات اليدوية ، في حين حاول ضباطهم الترفيه عن أنفسهم من طريق الالتحاق بخدمة السفراء الأجانب .

وبينا لم تتخذ الأسلحة النارية سبيلها إلى فرق المشاة والفرسان إلا تدريجياً ، نجد العثمانيين يخصّون المدفعية بأعظم العناية ، منذ اللحظة الأولى . والواقع أن محمداً الثاني نفسه جلب صُناع المدافع والمعلّمين المختصين بهذا الفنّ من ألمانية وبلاد المجر . ولقد عرف الجيش العثماني ، حتى أيام بايزيد الثاني ، فرقةً خاصة بالمدفعية (طوبجي) بلغ عدد أفرادها في عهد سليم الأول ألف رجل . فلما كان عهد سليمان عُني ، في المحل الأوّل ، بتكوين فرقة مدفعية جبلية مزوّدة بما تحتاج إليه من قوافل التموين .

والحق أن الجيوش العثمانية كانت تضطر في توغلها في بلاد المجر وفارس ، مجتازةً مناطق أتى عليها النهب ، أو مخربة تخريباً مقصوداً منظماً — إلى أن تصطحب قوافل عظيمة من المؤن والذخائر . وكانت هذه القوافل تمثل ، منذ البدء ، عبئاً يثقل كاهل تلك الجيوش . فقد رافق الجيش الذي حاصر فينّا سنة ١٥٢٩ مثلا ، ما لا يقل عن ٢٢,٠٠٠ بعير محملة بالدقيق . ليس هذا فحسب بل لقد رافق ذلك الجيش مثلُ هذا العدد من البغال . وكان أمر العناية بهذه الشؤون منوطاً بفرقة الـ « ويْنُوق » التي كانت تتألف في الأعمّ الأغلب من الفلاحين البلغار ، والتي كان أفرادها لا يتقاضون أعطيات البتة ، فهم يخدمون لقاء إعفائهم من الجزية ، وغير ذلك من الامتيازات . وكانت المدفعية الجبلية وفرقة مصلحي الأسلحة (جَبه جي) ، تتقدمان الجيش عند الهجوم . وكان الانكشارية يرافقون طليعة الجيش هذه ، يتبعهم آغاواتهم واثنان من قضاة العسكر ، والمحاسبون . وكان موكب السلطان نفسه ، يبدو بعد هؤلاء جميعاً ، يحيط به حرسه الخاص وحجابه ، ويرتفع وراءه « بيرق الحرب » وهو العلم الامبراطوري — الذي استُبدلت به راية الرسول منذ عهد سليم الأول — والألوية الستة الخاصة بفرق الجيش المختلفة ، بالإضافة إلى

أعلام ستة صغيرة تمثل فرسان السباهية المرتزقة . أما القلب فكان يحتله الصدر الأعظم والوزراء مع حاشيتهم الغفيرة ؛ ووراءهم باشا الروم ايلي وباشا الأناضول وجمهرة الفرسان الاقطاعيين . وكـان باشا الروم ايلي يتقدم زميله في الحملات الأوروبية في حـين كان التقدّم لبـاشا الأناضول في الحملات الاسيوية . وكانت تتبع الجميع في السّاقة (المؤخرة) قوافل العتاد والمؤن .

وكان باشا الروم ايلي وباشا الأناضول يتقدمان إلى الصف الأول عند ابتداء المعركة ، وههنا كان الجناح الأيسر يُعتبر محل الشرف . وكان يدعم كلا الجناحين فرقةٌ من المدفعية وأخرى من طلائع الجيش الخيالة (آقينجي) ، يتلوهما فرسان السباهية في حين يقف الانكشارية إلى الوراء في القلب . وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم ، وإلى جانبه بيرق الحرب والحاشية السلطانية .

والحق أن جميع المصادر الأوروبية حافلةٌ باطراء روح النظام التي تكشف آعنها الجيش العثماني . فلم يكن فيه مكان للخمر أو القمار ، أو البغاء ، وهي فات لم تسلم منها في يوم من الأيام جيوش أوروبة ، لذلك العهد . وكانت الحرب ضد « الكافرين » لا تزال تعتبر واجباً دينياً ، ولقد كان لذلك أثر كبير في ضمان الغلبة على النصارى ، يوم كان الجيش العثماني في أوج قوتـــه .

الاسطول

ليس من شك في أن تاريخ العثمانيين برمته كان يدفعهم إلى الحرب في البرّ . وإذا كانوا قد انساقوا إلى حرب البحـار ، فبحكم بعض الأحداث والملابسات لا بحكم ميلهم الشخصيّ إلى ذلك . والحق أن انتصار البنادقة على العثمانيين في غاليبولي (٢٩ نوار سنة ١٤١٦) هو الذي حملهم على التفكير جدياً في إنشاء أسطول بحري . ولكن محمداً الثاني كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها ، في البحر أيضاً . ففي ربيع سنة ١٤٥٦

انطلقت مائة وثمانون سفينة شراعية من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه . ابتغاء تدميرها . ثم ان سليماً الأول واصل تعزيز هذا الأسطول ، في نشاط بالغ ، حتى إذا رقي سليمان العرش زادَ سفنه إلى ثلاثمائة . وفي عهده وفق القرصان خير الدين بربروسا ، كما ذكرنا آنفاً ، إلى أن يحمل الهول الذي كان ينطوي عليه اسم العثمانيين ، حتى الشواطىء الاسبانية . ولكن الأسطول العثماني كان يعوزه ذلك العمود الفقري الذي مكّن للأساطيل اللاتينية المعادية ، في البحر ، وأمدّها بقوة فائقة ، أعني بحرية تجارية قوية . وليس من شك في في أن العثمانيين كانوا مقابل ذلك ، متفوّقين تفوّقاً واضحاً في الثروة المادية ، بفضل الغابات القائمة على شواطىء البحر الأسود . وكانت تمدهم بمعين لا ينضب من الأخشاب ، على الرغم من استغلالها استغلالاً طياشاً غير حكيم . أما المعادن الضرورية لصناعة الملاحة فكانت تقدمها مناجم البغدان والافلاق، في حين كان قماش الأشرعة يُستورد من فرنسة .

وكان الإشراف على بناء السفن في الأعمّ الأغلب ، في أيدي البنادقة ، وكان الصناع والعمال ، في العادة ، من اليونان الذين لم تكن خدمتهم في دور الصناعة تتسم بطابع الدوام ، فهي تتأثر بأحكام الحاجة ومقتضيات الظروف ، مما أضعف الصناعة وأضرّ بها . ومع ذلك ، فكثيراً ماوقفت أوروبة مدهوشة بالمرونة والسرعة اللتين تمثلتا في أعمال دور الصناعة العثمانية . ولكن اختيار المواد الضرورية لبناء السفن ودقة الصناعة نفسها كانا بعيدين عن الإتقان المرغوب . والواقع أن آفة الأسطول العثماني الحقيقية كانت ، منذ البدء فقدان روح الأمانة في الإدارة وهي آفة قُدّر لها أن تستمر جيلا بعد جيل حتى العصر الحديث . وكان إنشاء السفن الحربية المفردة وتسليحها ، حتى في عهد السلطان سليم الأول يُترك للربابنة ، وكان بينهم في سنة ١٥٩٢ مثلا ٤٦٠ رباناً تناولوا المعاشات لأنفسهم وبحارتهم ، في حين لم يزد عدد القائمين بأيما خدمة فعلية منهم على مئة وخمسين أو أقلّ قليلا . وكان الملاحون ، في العادة ، من النصارى الطليان أو اليونان الفارين الذين اجتذبتهم إلى بيره،

زرافات زرافات، المغانمُ الوافرة التي كانوا يحصلون عليها في خدمة الأسطول العثماني . وكان هنالك بين الملاحين عنصر آخر أقل جدارة بأن يُعتمد من هؤلاء ، أعني البحارة العبيد الذين كان يُشَد وثاقهم إلى السفينة ، والذين بلغ عددهم في أيام السلطان سليم حداً يكفي لتعبئة أربعين سفينة . غير أن عددهم هذا تضاءل تضاؤلا سريعاً بعد مطلع القرن السابع عشر . والواقع أن الدولة حاولت أن تملأ المراكز الشاغرة عن طريق التجنيد المنظم من بين رعاياها الوطنيين . فقد قُسمت الامبراطورية كلها إلى مناطق يتعين عليها أن تُسهم في خدمة الأسطول بنصيب محدود . وكان في ميسور المجندين أن يشتروا حريتهم ، من جديد ، فيعتاض الربان عنهم بعبيد أقل نفقة إلى حد بعيد . وإذ كانت أوروبةُ مثقلةً بتزويد الجيش البرّي بالجنود ، فقد اعتمد الأسطول في الدرجة الأولى على العناصر الآسيوية ، وهي عناصر أصابها الوهن فلم تبق أهلا لتحمّل التبعات الجسام . وهكذا تطور نظام « البَدَل » شيئاً فشيئاً حتى لقد انتهى إلى أن يصبح ضريبة خاصة بالأسطول تعود على الدولة بدخل عظيم . والواقع أن جميع أقسام الجيش البري تقريباً قد سيقت تدريجياً إلى خدمة الأسطول ، وهنا أظهر الانكشارية تفوقهم أيضاً ، فكانت بسالتهم ، وبخاصة في اقتحام السفن ، تلقي الرعب في قلوب أعدائهم النصارى .

وكان الأسطول العثماني يتألف من دوارع ثقيلة (ماعون) * تنتظم كبراها ٥٧٦ مقذّفاً من العبيد ، (وقد بُنِيت سنة ١٥٧٥) ومن طرادات خفيفة (جَكْتِري ، جكدري) متوسط عدد مقذّفيها مائة وخمسون . وكانت مدفعية الأسطول ضعيفة جداً في بادىء الأمر ، فهي لا تستطيع أن تصطنع أكثر من عشرين مدفعاً ثقيلا على كل قارب . حتى إذا وقعت معركة لَبَانْتي (ناوباقتوس) ومني العثمانيون بهزيمة قاسية عمدت الدولة إلى

* « ماونة » بالتركية . (المعربان)

تعزيز قوة الأسطول المدفعية ، فاستوت ومدفعية البنادقة ، من حيث عدد المدافع على الأقل .

وكانت سفن القرصان العاملة في شاطىء إفريقية الشمالية تؤلف — ابتداء من عهد بربروسا — جزءاً هاماً جداً من الأسطول العثماني . فقد كان هؤلاء القرصان يلتحقون بأسطول الدولة ، زرافات زرافات ، كلما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحرية لينزلوا، في حماية هذا الأسطول، أعظم الأذى بتجارة النصارى . وإذ كانت سفنهم الشراعية مجهزة تجهيزاً جيداً بالرجال فقد رحبت الدولة بادىء الأمر ، بمساعدتهم . بيد أن نزعتهم إلى الخروج على القانون وعدم الانصياع ما لبثت أن استثارت غضب الباب العالي عليهم ، خاصة وانهم كانوا — أيام السلام — يورطون الدولة في مشكلات دبلوماسية ما تكاد تنقطع .

وتزايدت مهام قائد الأسطول مع نمو الأسطول نفسه . فقد كان والي سنجق غاليبولي هو الذي يقود القوات البحرية ، في بادىء الأمر ، ولكن الدولة عهدت بعد إلى بربروسا ، بوصفه أميراً للبحر ، بالولاية على جزائر بحر إيجه أيضاً ، وبذلك شمل سلطانه أربعة عشر سنجقاً. وإذ كان في ميسوره أن يكسب لنفسه كسباً عظيماً كلما جهز أسطولاً حتى ولو التزم في ذلك منتهى الأمانة، فقد أصبح هذا المنصب أكثر مناصب الدولة ربحاً وأعظمها. وعلى الرغم من من أن الدولة أعادت بناء الأسطول ، بعد كارثة لبانتي (ناوباقتوس) في همة بالغة ، فالواقع أنها لم تستطع يوماً أن تستعيد اعتبارها من طريق نصر مؤزر تصيبه في البحر . ومالبث نشاط الأسطول أن اقتصر ، شيئاً فشيئاً ، على خفر السواحل . حتى إذا دخلت سنة ١٥٧٦ لم يكن قد بقي عند الدولة غير أربعين قارباً كاملة التسليح ، من أصل الثلاثمائة التي كانت تملكها من قبل . أما المائتان والستون قارباً الباقية فقد تُركت عزلاء مهملة في الأحواض وعلى الأرصفة البحرية .

وكان السلطان هو السلطة المهيمنة على الجهاز السياسي والعسكري الذي انبثق عن نظام الاقطاع . فقد كان الأمراء العثمانيون ، أول أمرهم ، تابعين اقطاعيين لسلاطين قونية السلاجقة . ولكن أورخان ماعتم أن تصدّر للسيادة فضرب السكة باسمه ، وأمر بأن يخطب له على المنابر . أما لقب « السلطان » الذي سبق للسلاجقة ، منذ الحروب الصليبية على الخصوص ، ان اصطنعوه ، بموافقة الخليفة ، وبوصفهم حماة الإسلام ، فقد وفق بايزيد الأول — كما أشرنا آنفاً — إلى الفوز به من طريق الخليفة العباسي في القاهرة ، على الرغم من أن أسلافه حملوه بصفة غير رسمية ، إذا جاز التعبير ، قبل عهده بزمن . فلما تم للعثمانيين فتح القسطنطينية اتخذ محمد الثاني لقب سلطان البرين والبحرين . أما لقبا « خُنكار » * و « بادشاه » فكانا أكثر شيوعاً على ألسنة الناس . وبعد فتح ادرنة تسمى مراد الأول بلقب « خليفة الله »، أما مايقال من أن سليماً الأول حمل الخليفة العباسي في القاهرة بطريقة من الطرق، على أن يتنازل له عن هذا اللقب سنة ١٥١٧ فلم يرد إلا في رواية متأخرة . ومن الجدير بالملاحظة أن ساسة العثمانيين لم يوهموا الأوروبيين بأن الخليفة يُعتبر كالبابا، الرئيس الروحي الأعلى لجميع المسلمين — فيتعين ، بالتالي ، أن يُخطب له في المناطق الخاضعة لحكم النصارى أيضاً ، وهو مافعلته النمسا إذ أقرّت بهذا الحق لعبد الحميد ، بعد أن ضمت إليها البوسنة — نقول ان هذا الإيهام لم يقع إلا بعد عقد معاهدة « كوجك قينارْجه » سنة ١٧٧٤، عندما خضع بعض المسلمين للحكم النصراني . ومهما يكن من أمر ، فالواقع أن نزعة الولاء للحاكم ، هذه النزعة المغروسة في الخلق التركي نفسه، ازدادت قوة وتأصلاً ، حتى في العصور القديمة ، من طريق بعض العادات الدينية ، حتى لقد تم للسلطان من السلطة المطلقة في رعاياه أكثر مما تم لأيما حاكم غربي

(*) من « خداوندكار » الفارسية . (المعربان)

معاصر . كذلك كانت له سلطة على جميع موارد الدولة، وهي سلطة مطلقة ما كان ليحدّ منها، إلى حين، غير القوة من مثل استبداد الانكشارية بخاصة. ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت الدولة تُعتبر ، من الوجهة النظريـــة، ملكاً خاصاً به . وكان محصول الضرائب الصافي بعد تغطية النفقات الجارية، يصب في بيت ماله المعروف بخزانة الأبراج السبعة (يدي قوله) . وليس بين أيدينا إلا تقديرات غير دقيقة عن ضخامة الميزانية العثمانية . ولقد قدّر العالم البيزنطي خالقونديلاس مجموع موارد الدولة ، خلال السنوات العشر الأخيرة من حكم السلطان محمد الثاني ، بأربعة ملايين « دوكه » . ومهما يكن من أمر ، فحوالي منتصف القرن السادس عشر ارتفع هذا المبلغ ، حسب ماجاء في بعض التقارير البندقية إلى عشرة ملايين أو خمسة عشر مليون دوكه كان نصيب خزانة السلطان مليونين منها، كل سنة . والواقع أن بعض السلاطين ، ومراد الثالث بخاصة ، كنزوا في خزائنهم أموالاً طائلة ، سحبوها من التداول . وعلى أية حال ، فقد كان على خزانة الدولة أن تنهض بمطالب ثقيلة في أثناء الأزمات العامـــة ، أما في حال تغير السلاطين فقد كانت مطالب الانكشارية كثيراً ما تستنفد جميع ما في هذه الخزانة من المال . وكان الرأي العام يعتبر اهتمام السلاطين بإنشاء المباني على نطاق واسع أمراً مفروغاً منه .و الحق أن جميع السلاطين لجأوا إلى ذلك ، خلا نفراً قليلا منهم .

وانحصرت السلطة السياسية كلها نظرياً ، كما انحصرت فترة طويلة من الزمان عملياً أيضاً ، في يدي السلطان . ولكن منصب الوزير — ولم يكن بادىء الرأي أكثر من مستشار أول للسلطان — ما لبث أن أمسى ، بحكم نمو الامبراطورية العاجل ، منصباً خطيراً تتعاظم أهميته مع الأيام . والحق أن السلطـــان محمداً الثاني رفع الوزير مقاماً علياً ، في الفقرة الأولى من القانون الأساسي الذي وضعه للدولة ، (قانون نامه) حتى لقد جعله وصياً فعلياً

على الامبراطورية [١٣٠] . وكان مفروضاً فيه ، بوصفه معتمد البادشاه المطلق الصلاحية ، أن يسيطر على فروع الإدارة كلها ، وان يقطع في شؤون الدولة وفي مسائل الموت والحياة أيضاً ، متفرداً مطلق السلطة . وكان الصدر الأعظم يحمل الخاتم الامبراطوري والطغراء السلطانية رمزاً إلى ما يتمتع به من قوة ونفوذ [١٣١] كذلك حفظ له نظام التشريفات الخاص بالبلاط مقامه كنائب عن السلطان . فكان يتقبل في أيام ثابتة من الأسبوع — شأن السلطان نفسه — ولاء موظفي البلاط والدولة ، وكان لا يظهر للجماهير إلا وسط حاشية ممتازة . وهكذا انتهى قصره في « الباب العالي » حيث كان يجمع رؤساء الدولة للمشاورة ، إلى أن يصبح هو مقر الحكومة الحقيقي . أما سليمان الأول فقد حوّل إلى ابراهيم باشا — وكان أبوه يونانياً من برغة — جزءاً هاماً من سلطته الخاصة كسلطان . وذلك في البراءة (الفرمان) التي رفعه فيها سنة ١٥٢٤ إلى منصب الصدارة العظمى . والواقع أن ابراهيم شغل هذا المنصب عدة سنوات ، مؤيداً بكامل ثقة السلطان الذي كان حفياً به ، حتى لقد زوّجه من أخته . ولكن الصراع العائلي الذي عكر صفو السنوات الأخيرة من عهد سليمان عصف بمكانة الصدر الأعظم أيضاً . فقد اتهم ، بادىء الأمر ، بأنه طامع في عرش المجر ، ثم اتهم بأنه طامع في العرش العثماني نفسه ، وهما تهمتان لم يقم عليهما برهان . وفي ١٥ آذار سنة ١٥٣٦ وُجد مقتولا في مضجعه ، في السراية الملاصقة لسراية السلطان . والحق أن أحداً من الصدور العظام الذين تعاقبوا من بعده لم ينعم بالمكانة التي نعم بها والسلطة التي تمت له ،

---

(١٣٠) « ليعلم اولا ان الصدر الاعظم هو رئيس الوزراء والامراء . انه اعظمهم جميعاً ، وصاحب الصلاحيات المطلقة في ادارة شؤون (الدولة) . اما القيم على املاكي فهو الدفتردار . غير ان (الصدر الاعظم) هو رئيسه . وللصدر الاعظم في حركاته وسكناته وفي قيامه وقعوده حق التقدم على جميع موظفي الدولة » راجع « قانون نامه عثماني » استانبول . ١٢٣٠ . ص ١٠ .

(١٣١) اما في المراسيم المتعلقة بالشؤون المالية ، وفي القرارات المبنية على القانون الديني (الشرع الشريف) فقد كان الدفترداريه وقضاة العسكر يحملون الطغراء ايضاً . (المصدر نفسه ، ص ١٦) .

غير خلفه الثاني، محمد صوقللي ، وكان صقلبياً (سلافياً) من قرية صوقلل في البوسنة ؛ ولكن محمداً هذا كان من الدهاء وبعد النظر بمحلّ ساعده على اجتناب المخاطر التي طوحت بابراهيم باشا . وكان يطمع في إنماء ثروته بأكثر من طمعه في تعزيز قوته وسلطته . ولقد وفق إلى أن يضاعف ، من طريق الرشوة ، موارد منصبه — وكانت عظيمة في ذاتها — حتى لبلغت أرقاماً خيالية . فقد كان على باشاوات الولايات أن يعيدوا شراء مناصبهم ، كل سنة ، بالهدايا ؛ ويقال ان باشا القاهرة كان يدفع مايزيد على مائة ألف دينار بندقي * سنوياً إلى صوقللي . وكان هذا الصدر الأعظم يسند المناصب الشاغرة بالوفاة إلى من يمهرها بالثمن الأعلى . أضف إلى ذلك أنه كان يقبل الهدايا والهبات من الدول الأجنبية : فقد تعيّن على القيصر الألماني أن يزيد سراً إلى ثلاثة أضعاف (إحدى) الهبات الحولية (وقدرها ثلاثة آلاف طالير) التي كانت نصت عليها معاهدة السلم الحديثة العهد (ليحتفظ الصدر الأعظم بالضعفين لنفسه) . وفي سنة ١٥٧٣ اشترت منه البندقية صلحاً لا يشرف اسمها لقاء خمسة عشر ألف دوكه . وطبيعي أن يكون لهذا المثل الخبيث ، يضربه أصحاب المناصب العليا في الامبراطورية ، أسوأ الأثر في فروع الإدارة كلها . وفي ١١ تشرين الأول سنة ١٥٧٩ قتل صوقللي بيد مجرمة — ولعل اغتياله كان على سبيل الانتقام الشخصي ليس غير — . ومن ذلك اليوم فقد هذا المنصب ، فجأة ، ماكان له قبل من شأن عظيم وأهمية بالغة. وليس من شك في أن النتائج الهدامة الناشئة عن نظام الحريم، هذه النتائج التي استطاع محمد كوبريلي أن ينقذ الدولة منها بعد قرن من الزمان، كانت هي المسؤولة عن هذا.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه عندما خوّل محمد الثاني كبير وزرائه تلك السلطة القريبة من المطلقة سارع في الحال فأجلس «وزراء القبة» ** إلى جانبه،

* « zechino » ويعود اصلها الى كلمة « سكة » العربية . المعربان

** « قبة وزيرلري » بالتركية . وذلك لأنهم جلسوا مع الصدر الاعظم تحت سقف « قبة » واحد . غير انهم لم يشركوه في السلطة . (المعربان)

ابتغاء الحدّ من سلطته . ولكن ماهدف اليه السلطان لم يتحقق في يوم من الأيام . وعلى الرغم من أن[أعلامهم] الحاملة شارة مراتبهم الخارجية ، وتمثل ثلاثة من أذيال الخيل كانت تسويهم بالصدر الأعظم فالواقع أن نفوذهم لم يكن كبيراً في يوم من الأيام . أما عددهم ، وكان مقصوراً أول الأمر على أربعة ، فقد ارتفع بعد إلى ستة . وكان هؤلاء الوزراء كثيراً مايحاولون أن يحققوا بطرق خاصة ، مالا تساعدهم صلاحياتهم الدستورية على تحقيقه . وهكذا كان دأبهم أن يمثلوا دوراً هاماً في المؤامرات التي لم تنقطع يوماً عن زعزعة سلطة الصدارة العظمى من الأساس ، وتهديدها بأعظم الأخطار .

« الديوان » و « اركان الدولة »

وكما كان « قورولتاي » * المغول لا يجمع حول الخان أمراء بيته فقط بل ينتظم جميع قواد جيشه للتشاور في شؤون الدولة الحيوية ، كذلك كان عند العثمانيين القدماء مايسمى « الديوان » ، وهو مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة ، ويجتمع لبحث القضايا الهامة ، ولتقرير السلم أو الحرب بخاصة ، على متون الخيل ، كما كانت الحال في عهد البداوة . ولكن « الديوان » مالبث أن تطور شيئاً فشيئاً مع الزمان ، فإذا هو مجلس وزاري اعتاد السلطان محمد الثاني، في أواخر عهده ، أن يسند رئاسته إلى الصدر الأعظم ، وكان من قبل مجلساً يضم الزعماء على الشكل الذي وصفنا . ولم يحتفظ بحق الاشتراك في هذا المجلس الوزاري غير « أركان الدولة » (أركان دولت) وهم (١) قاضيا العسكر ، وكان أحدهما من الأناضول والآخر من الروم ايلي . ثم أضيف إليهما، بعد فتوح سليم الكبرى، قاض ثالث من افريقية ؛ (٢) وكلّ من باشا آسية وباشا أوروبة ؛ (٣) وكلّ من الدفتردارين المنوط بهما أمر الإدارة المالية في نصفي الامبراطورية . وقد أضيف إليهما ثالث فيما بعد أيضاً ؛ (٤) وآغا الإنكشارية بوصفهم ممثلي الجيش ؛

* راجع القسم الثاني من هذا الكتاب .

(٥) وأمير البحر (قبودان باشا) — وهو منصب أنشئ أول ما أنشئ لخير الدين بربروسا — بوصفه ممثلا للأسطول ؛ (٦) وصاحب التوقيع (نشانجي) القيم على خاتم السلطان وطغرائه. وكان كبار رجالة الدولة هؤلاء يحملون — شأن رجال الدولة الإسلامية السابقة المنظمة على الطريقة الفارسية — ألقاباً معقدة، ومحددة تحديداً دقيقاً. وكانت هذه الألقاب تعتبر، في الحق، شيئاً ذا أهمية فائقة، حتى لقد نص عليها السلطان محمد الثاني في ختام الا «قانون نامه» الذي اصدره، محدداً كلاً من هذه الرتب في دقة ووضوح. وكان الديوان يُعقد، في اطراد، اربع مرات في الاسبوع، أيام السبت والاحد والاثنين والثلاثاء، في قاعة بفناء السراية الثاني. وكانت المناقشات تبدأ من الصباح، ثم تتوقف مرّتين ليتناول الاعضاء الطعام معاً، ولا تنتهي إلا في ساعة متأخرة من الأصيل. والواقع انه كان ميسور ايّما فرد من افراد الرعية بادىء الأمر، ان يمثل امام المجلس عارضاً مطالبه ومظالمه، لتحال بعدُ، في الأعم الأغلب، الى الدائرة المختصة لدرسها والبتّ فيها. وكان السلطان يرئس بنفسه جلسات «الديوان»، ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه المهمة مكتفياً باستقبال المجلس، عند انتهاء اجتماعاته الاسبوعية، استقبالاً رسمياً، ليعرض على مسامعه تقريراً عن اعماله ومقرراته.

وإذ كان لكلٍّ من حاكمي آسية وأوروبة العامين كرسي وصوت في «الديوان» فقد كان لا يزال في ميسورهما، من غير شك، أن يؤثرا بعض التأثير في إدارة الولايات. ولئن كانت الرشوة منتشرة انتشاراً كبيراً بين الموظفين في الحكومة المركزية لقد كانت في الولايات غير محددة، في الغالب. وإذ قد تعين على الباشا أن يعيد شراء منصبه، من الصدر الأعظم، كل سنة، فطبيعي أن نجده يبتز ثمن ذلك المنصب من عماله ومن هم دونه، وأن نجد هؤلاء يبتزونه، بدورهم، من رعاياهم. والواقع ان كلاً من الباشاوات العشرين، بل ان كلاً من بكوات السناجق المائتين والتسعين، كان يسعى الى أن يحيط نفسه بحاشية يُفرض على منطقته الادارية تغطية

نفقاتها . وكان مرؤوسوهم ، الصوباشية ، يستغلون دائماً قوة الشرطة الموضوعة تحت تصرفهم ، في سبيل الابتزاز علانية من غير تورّع أو خوف . وأما في المناطق التي جرى بكوات السناجق على أن يتركوا لبعض الأفراد التزام خراجها ، الى أجل مسمى ، فكانت الأحوال أسوأ من ذلك أيضاً . ولكن الشعب الرازح تحت هذا النير الثقيل لم يحاول الثورة على هذه المظالم إلا نادراً ، فقد اتحد اليونان والأتراك في قبرس ، مثلاً ، فوفقوا إلى أن يفتكوا بالباشا ويقطعوه ارباً إرباً ، وكان بغيضاً اليهم لجشعه ووحشيته .

القانون والقضاء

ولقد نشأ القانون ، اول ما نشأ ، على أساس عسكري ، شأن آلـة الادارة العامة . ومن هنا كان قاضي العسكر لا يزال ، حتى في عصر متأخر جداً ، رأس الهيئة القضائية . والواقع ان السلطان مراد الأول كان أول من أحدث هذا المنصب على غرار مصري مملوكيّ من غير شك . ثم إن محمداً الثاني وسليماً الأول أقاما إلى جانب هذا القاضي قاضيين آخرين احدهما لاوروبة والثاني لافريقية . ولكن سلطة قضاة الجيش هؤلاء لم تكن مقصورة على الشؤون العسكرية ، بل تعدتها إلى القانون المدني برمته . فقد كانوا هم الذين يعيّنون جميع الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانوا يؤلفون أيضاً محكمة الاستئناف العليا التي لم يكن ليحد من صلاحيتها غير سلطة الصدر الاعظم القضائية ، وغير السلطان نفسه . وكان يتلو قضاة الجيش في الترتيب العلماء الكبار ، وهم قضاة العاصمة وعواصم الولايات ، ثم العلماء الصغار الذين كانوا يتولون القضاء في عشر مدن ثانوية من مدن الولايات ، كبغداد وصوفيا . اما قضاة الدرجة الثانية وما دونها فكانوا ينقسمون الى طبقات ثلاث : المفتشين ، والقضاة ، ثم نواب القضاة .

وكان القاضي هو صاحب السلطة القضائية العليا في منطقته . فهو وحده الذي يقضي عند غياب المدعي العام في القضايا المدنية والجنائية وفقاً لمبادىء

« الشرع الشريف » (أي القانون الديني القائم على اساس من القرآن والسنة) ، وهو الذي ينهض بأعمال الكاتب العدل جميعاً وباعداد الوصايا وما الى ذلك. والواقع ان المزايا الناشئة عن سرعة الاجراء التي اتسم بها القانون العثماني كان يقابلها ، هنا ايضاً ، فساد ضمائر القضاة وترديهم في مهاوي الرشوة. ولقد حاول بايزيد الاول ، منذ سنة ١٣٩٤ ، أن يضع حداً لهذا البلاء ، المتأصلة جذوره منذ القديم ، في القضاء الاسلامي ، فاحدث رسوماً قضائية معينة ، ولكن محاولته باءت بالفشل.

رجال الدين

وخضعت الهيئات القضائية والدينية كلها ، بعد سليم الاول ، لسلطة مفتي استانبول ، بوصفه « شيخ الاسلام » ، ولكن هذه السلطة كانت نظرية بالكلية. فقد كان عليه ان يفتي في ما يُرفع اليه من المسائل القضائية ، ولكنه لم يكن يملك القوة على إنفاذ فتواه ، بالرغم من ان احداً من القضاة ما كان يجرؤ الا نادراً على عدم الرضوخ لأحكامه. ثم ان محمداً الثاني وسليمان الاول ثبّتا مركز المفتي الاستثنائي على رأس الادارة برمتها. وفي الحق ان السلاطين كانوا شديدي الحرص على تأييد سلطته ، اذ كانوا يفزعون الى استغلالها والافادة منها كلما حزبهم أمر أو ألمت بهم احوال سياسية عسيرة. وهكذا استصدر سليم الاول فتوى تبيح له حرب المسلمين في مصر. وفي سنة ١٥٧٠ استصدر سليم الثاني من [الشيخ] ابي السعود ، المفتي الشهير ، فتوى تبيح له ما لا يجوز عرفاً من الاخلال بشروط السلم والمبادرة الى العدوان ضد البندقية عند بداءة الحرب القبرسية. ومهما يكن من شيء ، فقد اغفل السلاطين المتأخرون في اغلب الاحيان ، هذه السلطة الدينية التي لا يبعد ان تكون أثراً باقياً من ذلك العهد الصوفي الشيعي الذي مرت به الدولة قديماً ، خاصة وان اصحاب هذه السلطة من رجال الدين كثيراً ما شاركوا في المؤامرات السياسية واخذوا منها بنصيب.

وكان تثبيت الموظفين الدينيين في العاصمة في مناصبهم منوطاً بالمفتي ايضاً ، في حين نهض قاضي العسكر ، في الولايات ، بهذه المهمة . اما ترشيح الموظفين لهذه المناصب الدينية فكان يُترك ، في العادة ، الى منشئي المساجد . وكان الامام ينهض وحده بجميع المهام الدينية في المساجد الصغرى ، وبخاصة في الارياف ، بينا كان يتوزّع هذه المهام ، في الجوامع الكبرى ، اكثر من رجل واحد . وكانت مهمة الامام ، في هذه الجوامع ، مقصورة على الصلاة بالناس في الاوقات الخمسة المفروضة يومياً . وكان يتقدمه في المرتبة واعظ الجمعة ، او الخطيب ، الذي عُهد اليه ، فوق ذلك ، في تقوية روح الجماعة الدينية ، من طريق الرياضات الرّوحية الاستثنائية . اما امر العناية بالجوامع من حيث النظافة وما اليها فكان منوطاً بالقيّمين . وكان هؤلاء — بالاضافة الى الموقّتين الذين يعينون مواقيت الصلاة وفقاً لساعات الزوال ، والمؤذنين الذين يدعون الناس الى الصلاة — يؤلفون طبقاتٍ خاصة من الموظفين الدينيين .

وكان الإعداد للمناصب الدينية يجري وفقاً لتقليد عريق أعاد محمد الثاني تنظيمه من جديد في مرسوم خاص . وتفصيل ذلك أن المرشحين لهذه المناصب كانوا يتلقون العلم في المدارس الدينية الكثيرة التي تنافس السلاطين والوزراء . تنافساً نبيلاً ، في انشائها في العاصمة والولايات ، بحذاء المساجد عادةً . وكانت هذه المدارس تنتظم طبقات ثلاثاً . أما الطلبة بالمعنى الدقيق فقد عرفوا بـ « صُوفْتَه » ، وهو نحتٌ نقع عليه في اللغات الاوروبية وغير الاوروبية ايضاً ، من كلمة « صوفي » العربية ، وكلما « سوخته » الفارسية ، ومعناها « الملتهب » (اي : بحب الله والمعرفة) . ولقد بلغ عدد هؤلاء الطلبة ، عهد مراد الثاني ، تسعين الفاً منتشرين في ارجاء الامبراطورية ، على ما جاء في احصاء رسمي . واذ كان هؤلاء الطلبة شباباً تعمر قلوبهم الحماسة وتغلب عليهم سرعة الانفعال فكثيراً ما تدخلوا ، في العهود الحديثة بخاصة ، في المسائل السياسية . أما الطبقة الثانية ، وهي اعلى مقاماً ، فكانت

تتألف من المعيدين ، او المعلمين . وكان العالم الشاب يحمل ، عند نهاية دراسته ، لقب دانشمند ، او عالم ، ليتخير واحداً من ثلاثة اتجاهات : هي التدريس ، والقضاء ، والعمل الديني . اما اذا رغب احد من هؤلاء في الالتحاق باحد الصفوف العليا الخاصة بصغار العلماء أو كبارهم فكان يتعين عليه ان ينصرف ، بوصفه دانشمند ، الى تحصيل العلم في احدى المدارس ، سبع سنوات أخرى . حتى اذا أتم تحصيله هذا ، تقدم الى اداء الامتحان أمام المفتي ، فاذا ما نجح رُشح لمنصب « مدرّس » . وكان هؤلاء المدرسون ينقسمون ، بدورهم ، الى طبقات عشر ، مرتبة بحسب أهمية المدن ، وكان صغار العلماء يُختارون من بين مدرسي الطبقة العاشرة . اما اصحاب المناصب العليا من كبار العلماء فكانوا يفدون على الامبراطورية العثمانية من مصر ، في الغالب ، ومن فارس في النادر ، حتى اذا سلخوا في خدمة الدولة فترة من الزمان انقلبوا ، في الاعم الاغلب ، الى اوطانهم الاصلية .

وخضعت حياة الجماهير الدينية لتأثير [مشايخ] الطرق الصوفية (الدراويش) المنتشرة انتشاراً واسعاً في آسية الصغرى ، منذ القدم ، وفي الروم ايلي بعد ذلك بزمن ، كالنقشبندية والمولوية والبكتاشية ، بأكثر مما خضعت لتأثير رجال الدين الرسميين ؛ والواقع ان نظام الدرجات المتصاعدة في المذاهب السرية كان مصطنعاً أبداً ، بنجاح كبير ، في الطرق [الصوفية] الاسلامية . وبينما كان أتباع هذه الطرق لا يحجمون عن الذهاب الى اقصى حد من الصوفية القائلة بوحدة الوجود — هذه الصوفية التي لم تُلغ العقيدة الاسلامية فحسب ، بل حللت اصحابها من وصاياها الاخلاقية ايضاً — كانت العاطفة الدينية تنمّى عند الناس ، من طريق « الوجد » . وعلى الرغم من ان النظر في الخرافات الدينية كثيراً ما قام بدور لا يستهان به في هذه الامور ، وعلى الرغم من ان الخرافات نفسها كثيراً ما كانت مطيّة يستغلها المشعوذون لمآربهم النفعية ، فلا بد من الاعتراف بما كان للطرق

الصوفية من أثر في تهذيب العامة وتلطيف مظاهر الهمجية التي سادت حياتها .

الحركة العلمية

كانت حياة العثمانيين العلمية خلواً ، أو تكاد ، من الأصالة والابداع ، فهي تتخذ سبيلها في مجاري التقليد والاتباع الثابتة . ذلك أن العلم لم يكن يعني عند المسلم ، اكتساب معرفة جديدة ، بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي انتجتها الأجيال السالفة . وكان أعظم القدر والاعتبار يُخلع على التفقه في الدين والشرع الاسلامي الذي لم يكن ليُفصل عن القانون المدني ، والذي طغى على هذا القانون ايضاً . واذ كانت أمهات الكتب القانونية موضوعة بالعربية ، فقد اصطنع العلماء العثمانيون ، في آثارهم التشريعية ، هذه اللغة أيضاً ، في الأعم الأغلب ؛ ولم يكتب باللسان الوطني غير بعض الكتب الوعظية الموضوعة لعامة القراء . والواقع ان فضيلة العلماء العثمانيين ليست في عمق التفكير وجراءته ، ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور .

التأليف في التاريخ

ولئن تتلمذ العثمانيون على العرب في العلوم الدقيقة ، لقد سعوا الى تقليد النماذج الفارسية في كتابه التاريخ . والحق ان أقدم المؤرخين الأتراك وضعوا كتبهم باللغة الفارسية . وعلى الرغم من انهم اصطنعوا ، بعد ذلك ، اللسان الوطني فقد جاءت لغتهم في هذه المؤلفات ملقحة تلقيحاً كاملاً بالألفاظ العربية والفارسية ، في حين نزعوا في أسلوبهم الى تقليد أسلوب الكتابة الفارسي بتكلفه وزخرفه اللفظي — ذلك الأسلوب الذي كان قد طغى طوال قرون على كتب التاريخ الفارسية ، كما طغى لمدة قصيرة ، على كتابات العرب التاريخية لا سيما تلك التي وصلتنا من دواوين الحكومة المختلفة . أما من حيث المادة فقد قام العثمانيون بعمل رائع في حقـــل التاريخ

صحيح أننا لا نعرف عن أوّلية الامبراطورية وأحوالها في القرون القليلة التي تلت تأسيسها الا معلومات هزيلة جداً يغلب عليها الاختلاط وتتسم بسمة الخيال فليس من الميسور تعليلها وتمحيصها من غير الاستعانة بالمؤرخين البيزنطيين ، ولكننا نملك — في ما يتصل بالكثرة المطلقة من أحداث التاريخ العثماني بعدُ ، وهي أكثر خطراً وأعظم شأناً — أوصافاً وروايات مفصلة قيمة جداً وضعها شهود عيان هم ، في العادة ، موظفون كبار شاركوا شخصياً في تلك الأحداث نفسها . والواقع ان المحاولات الأولى لتدوين التاريخ الوطني تدويناً منظماً بدأت في عصر باكر أيضاً . وأول أثر من هذا القبيل كتاب وضعه أحمد عاشق باشا زاده المتصوف ، على عهد بايزيد الأول ، وفي أسلوب شعبي خالص لم يكن قد تحرّر بعد من سلطان الخرافة الغالب عليه . ومنذ القرن السادس عشر شرع الباب العالي نفسه في الاهتمام بكتابة التاريخ ، من طريق تعيين مؤرخين رسميين . وكان سعد الدين المتوفى سنة ١٥٩٩ — وقد شغل منصب مؤدّب الأمراء وقضاء الجيش والافتاء — هو أول هؤلاء المؤرخين الرسميين .

علم الجغرافيـا

ولم تَغزُ المعرفة الغربية حياة العثمانيين العلمية إلا في حقل الجغرافية . ذلك بأن الرواد اللاتين كانوا قد وضعوا — حتى قبل عصر الكشوف الكبرى — كتباً في الملاحة الشراعية ، وأطالس لرحلاتهم . وانما نحا نحوهم ، في القرن السادس عشر ، امير البحر التركي « بيري رئيس » فوصف لنا شواطىء البحر الابيض المتوسط ، بعد ان تمّت له معرفتها من طريق الرحلات العديدة التي قام بها تحت قيادة عمه «كمال رئيس » وتحت قيادة بربروسا في ما بعد . ليس هذا فحسب ، بل لقد جمع ، استعداداً للحرب ضد اسبانية والبرتغال ، معلومات عن الاكتشافات التي تمت لهما في اميركة . واذ كانت هاتان الدولتان شديدتي الحرص على احاطة هذه المعلومات بسياج من الكتمان

فقد تعين عليه أن يتلقفها من طريق العملاء الطليان . ثم انه رسم في غاليبولي ، سنة ١٥١٣ ، خريطة موضوعة على اساس خريطة كولومبس ، تمثل المحيط الأطاسي مع اميركة والشواطىء الغربية من اوروبة وافريقية ، وقد ظهرت عليها الأسماء بالشكل الايطالي الذي تلقاه من عملائه ؛ وفي سنة ١٥١٧ رفع خريطته هذه الى السلطان سليم في القاهرة . وإذ كان من المفروض في هذه الخريطة ان تخدم أهدافاً سياسية معينة فقد حُفظت في قصر السلطان ولم تنشر شأن الكتاب الذي وضعه صاحبها عن الملاحة [واسمه « بحريّت »] والواقع انه لم يعثر عليها ، من جديد ، الا سنة ١٩٢٩ في مكتبة السراية . كذلك قدّم الى السلطان سليمان الاول ، سنة ١٥٢٩ ، بعد ثلاث سنوات من انجاز كتابه عن الملاحة ، خريطة ثانية عُثر حديثاً على جزء منها في المكان نفسه ، وهي تمثل ايضاً اكتشافات أهل البرتغال في اميركة الجنوبية والوسطى وفي الارض الجديدة (نيوفاوندلاند) ، هذه الاكتشافات التي كان قد جاءه نبأها في تلك الفترة [١٣٢] . ووفق بيري رئيس بوصفه أمير البحر بمصر ، الى ان يفتح عدن سنة ١٥٤٧ ، ومسقط سنة ١٥٥١ ، ثم انه حاصر في ما بعدُ هرمز على الخليج الفارسي ، حتى اذا جاءته الانباء بأن اسطولاً معادياً يقصده ، اضطرّ الى الانسحاب ، ولكن [عاصفة] حطمت سفنه عند جزر البحرين ، فعاد ادراجه الى السويس ولم يبق من اسطوله غير سفينتين اثنتين . وفي سنة ١٥٥٤ حُكم عليه بالموت ، في القاهرة ، بسبب من الكارثة التي حلت بالاسطول . وبعد قرن من الزمان نجد حاجي خليفة — (وكان من اعظم العلماء العثمانيين ، وقد شارك في الحملات الآسيوية كموظف اداري في الجيش فتمت له من طريق الملاحظة الشخصية معرفة بجزء عظيم من الامبراطورية) — يُعدّ سنة ١٦٥٤ — ١٦٥٥ [لوامع النور في ظلمة

---

(١٣٢) انظر براونلش **E.Bràunlich Zwei türkirche Weltkarten aus dem Zeitatler der Grossen Entdeckungen, in Berichte uber die Verh, der Sàchs. Akademie der Wiss. in Leipzig, Phil - hist. Kl., Vol, 89,1937.**

اطلس مينور] وهو ترجمة تركية لـ « الأطلس الصغير » * الذي وضعه « مركايتور » و « هونديّاس » ، [واستعمل حاجي خليفة لترجمته هذه] طبعة آرنهايم ، سنة ١٦٢١ ؛ مستعيناً [بفرنسي] كان قد اعتنق الدين الاسلامي [وتسمى باسم اخلاصي شيخ محمد افندي] . والحق أنه كان قد رفع إلى السلطان محمد الرابع ، سنة ١٦٤٨ ، كتاباً في تاريخ الكون والموجودات اسمه « جِهانْنُما » . فلما أنجز ترجمة « الأطلس الصغير » عمد إلى كتابه هذا فأخرجه إخراجاً جديداً بالكلية ، على أساس الأطلس المشار اليه وغيره من المصادر الاوروبية ، ولكن المنية باغتته ، سنة ١٦٥٧ ، قبل إتمامه . وكان قد نشر ، في السنة التي سلفت ، كتاباً في تاريخ البحرية العثمانية [اسمه ، « تحفة الكبار في أسفار البحار »] .

الأدب والشعر

وكان ابداع العثمانيين في ميدان الأدب أقلّ وأضأل من إبداعهم في حقل العلم نفسه . وليس من شك في ان البلدان الناطقة بالتركية قد عرفت في القرون الاولى ، شأنها حتى اليوم ، ثروة ضخمة من الأغاني والحكايات الشعبية . والواقع ان « الدراويش » نفخوا في الأغاني الشعبية روحاً قوية من التصوف والدين ، على ما نرى في قصائد « يونس أمرَه » » بخاصة ، التي ظلت حقبة طويلة تنشد في حلقات الصوفية وأتباعهم ، والتي عمد الى تقليدها خلقٌ كثير . ولم يزدهر هذا الفن في المناطق المركزية من الامبراطورية فحسب ، بل ازدهر في أرجائها الشرقية القصوى أيضاً . وفي القرن الرابع عشر اصطنع نَسيمي ، شاعر الطريقة الحُروفية ، لهجة الأناضول الشرقي وآذربيجان في منظومه — وقد قتل نسيمي هذا في حلب سنة ١٤٠٤ أو ١٤٠٥ بتهمة الزندقة . ثم اصطنع اللهجة نفسها ، في القرن السادس عشر شاعرٌ بغداديّ الموطن اسمهُ فضولي . كذلك كانت القصص الشعبية عن حياة

Atlas Minor of Mercator and Hondius (Arnheim, 1621) (*)

الرسول والحسين الشهيد ، وقد انتشرت بخاصة في الاوساط الشيعية ، وعن حياة الاولياء من الصوفية وسلاطين العصور الغابرة وأبطالها ، تتحدث باسلوب نثري بسيط إلى الفلاحين والجنود ، فتأخذ منهم بمجامع القلوب . ولكن إفراغ هذه القصص نفسها في القوالب الشعرية كان مفضلاً عندهم . وخير الأمثلة على ذلك « المحمدية » الشهيرة التي أتم نظمها يازيجي اوغلو الغاليبولي سنة ١٤٤٩ ، والتي حظيت بمقام رفيع عند الاتراك القاطنين على الجانب الآخر من البحر الاسود . اما جماعة المثقفين فنظرت ، في الغالب نظرة ازدراء ، إلى مثل هذه الآثار الادبية . ذلك بأن هؤلاء المثقفين كانوا يعتدّون الفرس أئمة لهم في الشعر شأنهم مع العرب في العلم ؛ ويرون ان تقليد الشعر الفارسي هو وحده العمل اللائق بالعقل المثقف . وهكذا عكف العثمانيون ، بما امتازوا به من جلد ونزعة إلى الاتقان ، على دراسة الشعر الفارسي دراسة عميقة . والواقع انهم قاموا بعمل ماهر في ميدان الشرح اللغوي (الفيلولوجي) للنتاج الكلاسيكي عند الفرس . ولقد امتاز في ذلك ، بشكل خاص كلٌّ من سروري (الذي لمع عهدَ سليمان الأول والذي كان مؤدباً للأمير مصطفى فوضع له تفسيره الشهير لأثار الشاعر سعدي) و « سُودي » البشناقي . واحتفظ العثمانيون فترة طويلة من الزمان باللغة الفارسية ، بالاضافة إلى قوالب الشعر الفارسي ، حتى أن السلطان سليم الأول نفسه نظم ديواناً كبيراً بلغة الفرس . ولكنهم حاولوا ، إلى ذلك أن يقلدوا في لغتهم الخاصة فنون الشعر الفارسيّ جميعاً . وكانوا يعتبرون الغزل تاج الفنون الشعرية قاطبة ، ولكن شعراءهم الغزلين سعوا الى المجد من طريق واحد ليس غير ، طريق التكرار والتوليد في عالم من المعاني والاحاسيس ضيّقٍ محدود . والواقع ان عدداً من السلاطين شاركوا في ذلك ايضاً . وحتى القرن التاسع عشر كان زعيم هذا الفنّ الاكبر هو الشاعر باقي ، الذي توفي في استانبول سنة ١٦٠٠ ، والذي حجبت ديباجته الموسيقية ضحلَ إحساسه الشعري وسطحيته . كذلك نزع الشعراء نزوعاً شديداً الى تقليد « مَثْنَوي » جلال الدين الرومي ،

و « مثنوي » كل من جامي و نظامي ، ذوات الاتجاه الصوفي الرومانتيكي . حتى ابو اسحق الشاعر الفارسي الذي كان يمدح النهم ساخراً متهكماً ، وجد بين العثمانيين من يقلده ويترسم خطاه .

« الرعايـا » : اليونان

وعلى الرغم من ان العثمانيين لم يكونوا يوماً اولي ضخامة عددية فقد استطاعوا ان يفرضوا سيطرتهم على مناطق مترامية الاطراف بفضل نظام الاقطاعات العسكرية الذي نثرهم في كل مكان ، كسادة أثرياء . والحق ان ابواب الدخول في عداد العنصر الحاكم هذا لم تسد سداً محكماً على الاطلاق . فقد امتزج الاتراك بسكان آسية الوسطى الوطنيين ، حتى في عهد السلاجقة . ولما طاف الرحالة البندقي ، ماركو بولو ، في تلك البلاد سنة ١٢٧٢ وجد الاتراك لا يزالون بدواً رحلاً يعنون بتربية الماشية ، في حين كان اليونان [الروم] والارمن ، دون غيرهم ، سادة المدن . ولكن سوء الادارة الذي اتصف به الملاكون البيزنطيون الكبار قذف بسكان الريف اليونان الى احضان الاتراك الذين اجتاحوا المدن أيضـاً ، في القرن الرابع عشر . وانما ترينا سجلات البطريركية الارثوذكسية ، لذلك العهد ، كيف تضاءلت قوة الكنيسة في آسيا الصغرى وتقلصت ، وكانت من قبل على غاية من القوة والزهو ، في وجه الاسلام والاتراك[١٣٣] . والواقع أن العثمانيين رحبوا ، منذ البدء ، بكل من يدخل في الدين الاسلامي ويلتحق ببلاطهم وجيشهم ، ومنحوه حقوق المواطن الكاملة . ولقد كانت احدى الاسر الاربع الاولى التي تؤلف الارستقراطية العثمانية العسكرية ، وهي أسرة ميخال أوغلو ، تتحدر من أصل يوناني ، ينتهي إلى كوسه ميخال ، سيد قلعة « خرمن قيا » القائمة على سفح جبل اولمبوس البيتيني — الذي

(١٣٣) انظر واختر A. Wàchter, **Der Verfall des Griechentums in Kleinasien im XIV. Jahrhundert,** Leipzig, 1903.

اعتنق الاسلام سنة ١٣٠٨ وانتهى إلى أن يكون بطلاً مغواراً من أخلص الرجال الذين خدموا عثمان وابنه أورخان ، فمُنح رتبة قائد فرقة الآقينجي ، التي توارثها أعقابه من بعده . وليس من شك في ان العثمانيين استطاعوا أن يمتصوا من طريق ضريبة الغلمان ، زهرة شباب الامم الخاضعة لهم ، فترة طويلة من الزمان . وقد رأينا من قبل كيف ان هؤلاء الا « عجم اوغلان » كانوا بمثابة معين يقدم الى الدولة كبار موظفيها الاداريين ، ايضاً . ومن الجدير بالذكر ان « جلزر » [١٣٤] احصى الصدور العظـام الذين تعاقبوا على الحكم ، والامبراطورية العثمانية في أوج مجدها وازدهارها ما بين سنة ١٤٥٣ و ١٦٢٣ ، فبلغت عدتهم ثمانية واربعين * صدراً أعظم ، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركي . أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي : واحد جركسي من القبق [القوقاز] ، وعشرة من أصل غير معروف ، في حين كان ثلاثة وثلاثون من الداخلين حديثاً في الاسلام وبينهم ستة من اليونان [الروم] ، وأحد عشر البانياً ، وأحد عشر صقلبياً (سلافياً) ، وواحد ايطالي ، وواحد أرمني ، وواحد كرجي من جورجيا (بلاد الكرج) . وليس من شك في أن الوضع الاجتماعي الممتاز الذي تمتع به العثمانيون في البلقان قد اغرى كثيراً من رعاياهم ايضاً باعتناق الاسلام ، فعل الكثرة من الألبانيين ، وفعل طبقة النبلاء البشناق برمتها ، هذه الطبقة التي وفقت بفضل ذلك الى الاحتفاظ بسلطانها القديم على ممتلكاتها . ولكن هؤلاء المسلمين لم يذوبوا في البوتقة التركية شأن سكان آسية الصغرى . فقد احتفظ الألبانيون والبشناق ، كما احتفظ البلغار الذين اعتنقوا الاسلام ، والبوماق ** وأهل جزيرة إقريطش بلغاتهم القومية ،

---

(١٣٤) H. Gelzer, Geistliches und Weltliches aus dem Griechisch turkischen Orient, p. 179.

* كذا في الاصل ، والملحوظ أن مجموع الارقام الفرعية التالية ٤٩ (المعربان)

** تطلق كلمة « بوماق » على المسلم البلغاري اللسان . (المعربان)

وهذا ما يفسر لنا لمَ عجز العثمانيون عن فرض سيطرتهم على شبه جزيرة البلقان بصورة دائمة. وكان أهل الارياف المسيحيون، او «الرعايا»، يشكون، الى جانب فقدانهم الحقوق السياسية، ارهاق الدولة لهم بالعمل الالزامي الثقيل، وبخاصة في الولايات القصوى. وكان عليهم أن يسهموا في الدفاع عن الدولة من طريق أداء الجزية التي بلغت (في سنة ١٥٩٠) ديناراً بندقياً واحداً على كل فرد او ما يساوي نحواً من دولارين؛ على ان يتمتعوا مقابل ذلك بحماية العثمانيين العسكرية — أما في العاصمة نفسها وضواحيها حيث كان من الممكن الاستنجاد بالسلطة المركزية ضدّ استبداد الموظفين الصغار وتعنتهم، في سهولة ويسر، فقد تمتع النصارى — وكانوا يُقسمون بحسب الجنسية والطائفة الى «ملل» — بالحرية المدنية والدينية الكاملة، وبخاصة اذا كانوا من اليونان (روم مِلّتي). والواقع أنه كان لبطريرك الروم [في القسطنطينية] من القوة والسلطان، في ظل العثمانيين، أكثر مما كان له في عهد بيزنطة نفسها. وكانت مراسيم المعمودية والزواج والدفن تقام علانية، وفي فخامة وأبهة في معظم الاحيان. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت السلطات العثمانية نفسها تسعى، في الاعياد الكبرى، الى أن تضمن للمصلين جواً من الهدوء وذلك بأن تعهد الى حرس من الانكشارية في المرابطة أمام أبواب الكنائس.

اليهود والارمن

وإذ كانت الدولة العثمانية لا تتدخل، من حيث المبدأ، في قضايا الدين، فقد انتهت في الواقع إلى أن تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة الى اليهود المطرودين من اسبانية والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر. فما وافت سنة ١٥٩٠، على وجه التقريب، حتى بلغ عدد سكان الحي اليهودي في استانبول نحواً من عشرين الفاً. واتخذ اليهود سبيلهم إلى قصر السلطان، بادىء الامر، بوصفهم مضحكين ومشعوذين، وقد حظوا، بخاصة،

عند السلطان سليم الثاني الذي كان شديد الولوع بهذا الضرب من اللهو والعبث . ولكنهم عرفوا ، إلى ذلك ، كيف يفرضون أنفسهم على البلاط بوصفهم أطباء. والواقع ان الطبيب ناثان سلمون أشكنازي ، الالماني الاصل ، وفق إلى أن يسيطر على محمد صوقللي سيطرة بعيدة . وفي عهد سليم الثاني لعب يهودي آخر يدعى يوسف ناسي دوراً مماثلاً لذلك الذي لعبه ميخال قانتاقوزن . وكان يوسف هذا قد هاجر من البرتغال إلى القسطنطينية ، سنة ١٥٥٠ ، حاملاً ثروة طائلة . فاتصل بسليم وهو لا يزال ولياً للعهد وحاكماً على كوتاهيه واستغلّ ، في براعة فائقة ، حبه للهو ورغبته في اللذات . حتى إذا رقي سليم عرش السلطنة عهد اليه في التزام جباية الضرائب على الخمر ، بالإضافة إلى موارد عشر من جزائر بحر إيجه . ولقد أجيز له ان يلقب نفسه في علاقاته مع الاوروبيين بـ « دوق ناقسوس » ، وكان ينوب منابه في حكم الجزائر الايجية رجل اسباني . واحتفظ ناسي ، حتى بعد وفاة السلطان سليم ، بهذه الموارد ، على اعتبار انها ستؤول عند موته – ولم يكن له ولد – إلى خزانة السلطان ، على أية حال . وكان الأرمن – الذين قدّر لهم أن يصبحوا ، في العصر الحديث ، أخطر منافسي اليونان واليهود في ميدان الحياة الاقتصادية – لا يزالون يمثلون في ذلك العهد دوراً متواضعاً جداً في استانبول ، على الرغم من أنه كان لهم بطريرك خاص يتعين عليه أن يؤدي الى الدولة ضريبة سنوية مقدارها الف دوكه . والواقع أنهم كانوا يكسبون رزقهم – شأن كثير منهم في القرن التاسع عشر ايضاً – من طريق الخدمة في المنازل ، أو الأعمال التجارية الصغيرة .

الالبانيون والصقالبة

وبينا كان « رعايا » العاصمة يعرفون دائماً كيف يكيفون أنفسهم وفقاً للاحوال القائمة ، كان « رعايا » الولايات يتطلعون في لهفة وشوق ، إلى اليوم الذي يخلعون فيه نير الحكم الاجنبي . وكان اليونان في شبه الجزيرة

البلقانية مستعدين أبداً لتأييد الدول الاوروبية كلما كتب لها النصر في نضالها مع الباب العالي . ولكن الالبانيين [الارنأوط] كانوا كما سبق منا القول ، هم الممثلين الحقيقيين لفكرة التحرّر ، فالحق ان هذه الفكرة ظلت تراودهم حتى في العهود التي تلت إخضاعهم ، والتي عانوا فيها أشدّ الضغط وأثقله . أما الصقالبة (السلاف) ، والصّرب منهم خاصة ، فقد احتفظوا بفكرة التحرّر حيّة في شعرهم القومي الذي مجد ، في ألوان متوهجة ، نضالهم ضد الاتراك ، مغنّياً بخاصة مآثر بطلهم المعروف بالملك ماركو كرالجوفيك ابن ووقاجين (١٣٧١ – ١٣٩٥) .

نشوء الامبراطورية الفارسية الجديدة والنزاع التركي الفارسي

كانت ايران ، منذ هبّت العاصفة المغولية الكاسحة ، أشبه شيء بالكرة يتنازعها جماعة من أمراء القبائل المتنافسين يرجع بعضهم إلى أصل تركي ، وينتسب بعضهم الآخر إلى المغول . ولقد رأينا في ما سلف كيف وُفّق أوزون حسن التركماني ، رأس قبائل آق قيونلي ، إلى التغلب على منافسه جهان شاه ، رأس قبائل قره قيونلي ، ليبسط سلطانه بعد ذلك ، سنة ١٤٦٩ ، على آذربيجان وإرمينية وإيران حتى خراسان — حيث كانت السلطة ما تزال بيد التيموريين — وعلى الجزيرة الفراتية ؛ كما تحدثنا عن النزاع الذي نشب بينه وبين العثمانيين ، والذي أيدته فيه مدينة البندقية ، وكيف اضطر بعدُ الى النكوص على عقبيه . حتى إذا قضى نحبه خلفه ابنه خليل ، في كانون الثاني سنة ١٤٧٨ . ولكن أخاه يعقوب ، ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة ، ما لبث أن هزمه في تموز من السنة نفسها ليستولي على ممتلكات أبيه ، بعد مصرع خليل في ميدان القتال .

وفي عهده ظهرت دولة أرْدَبيل الصوفية التي سبقت الاشارة اليها ، والتي قُيض لها أن تصبح ، بعد ، نواة لدولة إيرانية راسخة الاصول ، قوية الدعائم . ولقد رأينا في ما سلف من فصول ، كيف تم الاتحاد ، غير مرة ، بين الحياة الروحية وأغراض السياسة الحربية ، وكيف كان هذا الاتحاد يتجه أول الامر الى حرب الكفار ، حتى إذا انقضت فترة من الزمان اتجه الى محاربة اهل البدع (الزنادقة) من المسلمين أنفسهم ، شأن دولة المرابطين في شمالي افريقية مثلاً . وحوالي سنة ١٣٣٤ توفي في أردبيل الشيخ اسحق صفي الدين — وكان صوفياً ينتسب إلى رجل من العلويين هاجر في ما يظهر من بلاد العرب الجنوبية ؛ وإنما تقع أردبيل هذه في آذربيجان الشرقية ، على مسيرة [٣٥ ميلاً] من الساحل الجنوبي الغربي من بحر الخزر (قزوين) ، وكان قد تزوج من ابنة شيخه زاهد الجيلاني — وجيلان مقاطعة تقع على الساحل الجنوبي من بحر قزوين — وحظي بمقام كبير عند رشيد الدين وزير الايلخان في فارس . وقنع الشيخ اسحق ، شأن اعقابه حتى الجيل الثالث ، بالشهرة التي تمت له كولي من الاولياء ، فلم يسع بسبيل الحصول على أيما سلطة سياسية . والواقع أن حفيده ، خوجا علي ، بلغ من ذيوع الصيت مبلغاً حدا بتيمورلنك ، بعد انتصاره على بايزيد ، إلى أن يجعل اردبيل وضواحيها وقفاً عليه وعلى أعقابه . وهكذا انتهت ملكية هذا الوقف إلى أن تكون إرثاً يؤول الى أعقاب الشيخ المؤسس ، كمشيخة الطريقة سواء بسواء . بيد أن هذا الارث لم يكن من حق الارشد ، بل من حق من يختاره الشيخ من أولاده . وكان يمثل الشيخ ، لدى اتباعه المقيمين خارج أردبيل ، « خليفة » ينوب منابه ، شأنه في ذلك شأن مشايخ الطرق الاخرى جميعاً .

الشيخ جنيد وابنه حيدر

وما هي إلا فترة حتى لفت المتعصبون من اتباع هذه الطريقة ، وكانوا

يعتنقون العقيدة الشيعية في حماسة تتزايد مع الايام ، أنظار الحكام المدنيين المجاورين . وكان الشيخ صدر الدين بن الشيخ صفي الدين قد زُج في السجن ، في يوم ما من أيام سنة ١٣٦٠ ، بأمر من حاكم آذربيجان المغولي في ذلك الحين . وفي سنة ١٤٤٧ نشب النزاع بين الشيخ جُنَيد —وكان لا يزال دون سن الرشد— وبين عمه جعفر الوصيّ عليه ، فحرّض هذا الاخير حَمَا ابنه * جهان شاه خان القره قيونلي ، على إبعاد جُنيد من البلاد ، ففعل . وهكذا اضطر جنيد إلى أن يحيا فترة من الزمان ، في آسية الصغرى ، حياة المغامرة والترحّل من مكان إلى مكان ، حتى وجد ، آخر الامر ، مُعتَصَماً في جبل أرْسُوس على خليج الأسكندرونة ، حيث جمع أتباعه في قلعة قديمة من قلاع الصليبيين . ولكن مؤامراته الشيعية أوقعت الشك في نفس جقْمَق ، سلطان المماليك ، فرغب في اعتقاله ؛ فلم يكن منه إلا أن فرّ إلى جانيق ، على البحر الاسود ، وهناك وُفّق جُنيد إلى أن يجمع حوله عدداً كبيراً من الاتباع ، ايضاً . ثم إنه أعلن الجهاد ضدّ مملكة طَرابزُون ، ولكن السلطان محمد الثاني العثماني حرمه ثمرة نصره بأن ألحق طرابزون بامبراطوريته . ومهما يكن من شيء ، فقد لقي جُنيد حفاوةً بالغة في حمى اوزون حسن ، خصم السلطان العثماني ، بديار بكر . والواقع أنه استطاع ان ينشر طريقته في البلاد الواقعة في حوزة اوزون من غير أن يلقى معارضةً ما . حتى إذا وافت سنة ١٤٥٩ انقلب الى وطنه بعد أن تزوج من ابنة اوزون حسن . ولكي يتلافى النفي مرة اخرى على يد خان القره قيونلي ، أعلن الجهاد ضدّ الجراكسة . ثم انه تقدم في أراضي شِروَان شاه فتصدى له هذا الأخير ؛ وفي ٤ آذار سنة ١٤٦٠ سقط قتيلاً في معركة دارت رحاها بوادي قَرَه صُو (الفرات الغربي) .

وفي آمِد وضعت زوج جنيد ، بعد انقضاء شهر على وفاته ، غلاماً

(*) اي : ابا زوجة ابنه .

اسمه حيدر . ونشأ حيدر في كنف اوزون حسن ورعايته ، حتّى إذا كانت سنة ١٤٧٠ أعاده إلى أردبيل ليخلف أباه في حكمها . ولما بلغ سنّ الرشد ، وانتهت وصاية عمه جعفر عليه ، زوّجه اوزون حسن كبرى بناته من دَسْبِينَة خاتون ، أميرة طرابزون . فرُزق في ١٧ تموز سنة ١٤٨٧ ثاني أولاده ، اسماعيل ، الذي قُيض له أن ينشىء في ما بعد السلالة الصَفَويّة . والواقع ان حيدر — وكان قد أصبح ، على الجملة ، مستقلاً في أموره بعد وفاة جدّه — أعاد تنظيم طريقته على أسس جديدة رامزاً إلى ذلك ، جرياً على العادة في الشرق ، باستحداث لباس للرأس ، جديد ، هو « تاج حيدر » الأحمر ذو الاثنتي عشرة ذؤابة ، كنايةً عن الاثني عشر إماماً . ومن هنا دعا العثمانيون مصطنعي لباس الرأس هذا الجديد « قِزِل باش » اي « الرؤوس الحمراء » . وكان أتباع حيدر ينتسبون إلى مختلف القبائل التركية ؛ ولقد احتلّ أبناء اسرى الحرب الأناضوليين الذين كان قد تركهم تيمورلنك [عبيداً] لخوجا علي مركزاً ممتازاً بينهم . وفي سنة ١٤٨٣ افتتح حيدر حملاته الحربية بغزوة ناجحة ضدّ الجراكسة أجاز له شِروان شاه أثناءها عبور الاراضي الواقعة في حوزته . ولكن حيدر كان يطلب عند هذا الاخير ثأر أبيه . فلما وافت سنة ١٤٨٨ أخذ شروان شاه على حين غرّة ، بعد أن تظاهر بالرغبة في شنّ حملة جديدة على الجراكسة ، وحاصره في قلعة كُلِسْتان . بيد أن الامراء التابعين لشروان شاه ما لبثوا أن وجهوا إليه النجدات فاضطر حيدر الى الانسحاب ، ونجا شروان شاه بنفسه . ومهما يكن من شيء فقد تعيّن على شروان شاه أن يفر في الحال إلى قلعة أخرى بعد أن هزم حيدر جيوشه من جديد . وفي هذه الاثناء وجّه السلطان يعقوب التركماني ، ابن عم حيدر ، جيشاً لمقاتلة نسيبه هذا بينا كان ملقياً الحصار على قلعة دَرْبَنْد (باب الابواب) . وفي ٩ تموز سنة ١٤٨٨ دارت بين القِزِل باش والتركمان ، عند سفح جبل ألْبُرْز رحى معركة سقط فيها حيدر قتيلاً . وحمل يعقوب أولاد نسيبه القتيل ، ومعهم أمهم ، من أردبيل

إلى إصْطَخْر في مقاطعة فارس .

وتوفي يعقوب في نهاية عام ١٤٩٠ ، فنشبت الحروب بين أبنائه المتنازعين على خلافته . وفي غمرة هذا الصراع أُطلق اولاد حيدر من السجن ليدعو أتباعهم إلى نصرة رستم ، حفيد دسبينه على بايسُنْقُر بن يعقوب . وفي سنة ١٤٩٣ وُفّق السلطان عليّ ، أكبر أولاد حيدر ، وجنوده القزل باش ، إلى ان ينزل الهزيمة بجند بايسنقر . ثم تابع تقدّمه ، ليتولى زعامة الدولة الصوفية في أردبيل . ولم يكد يبلغ قريةً قريبةً من موطنه حتى تصدّى له رُستم . وفيما كانت رحى المعركة دائرة ، سقط عليّ في النهر فغرق .

أما اسماعيل وابراهيم ، أخوا السلطان عليّ ، فقد حجبهما أتباعهما في أردبيل عن أعين المكلفين بتعقّبهما . ثم ان اسماعيل حُمل الى مأمن في جيلان ، وكان حاكمها على صلات حسنة بأسرته ، رغم تبعيته للآق قيونلي . وهناك عاش متخفياً إلى أن فقد رستم عرشه وحياته سنة ١٤٩٧ ، على يد ابن عمه أحمد [١٣٥].

اسماعيل يخضع بلاد الفرس

كان اسماعيل في الثالثة عشرة عندما خرج مطالباً بأرث أبيه ، وليس معه ، كما تزعم الروايات ، غير سبعة نفرٍ من أتباعه . ولكن سلطان التركمان علي بلك جاقَرْلي ، ما لبث ان أخرجه من أردبيل فانكفأ الى أسْتَارَه على بحر قزوين . وهناك جمع حوله ، من بلاد الاناضول وسورية بخاصة ، عصبة من الاتراك تكاثر أفرادها مع الأيام تكاثراً كبيراً ؛ فما وافى ربيع سنة ١٥٠٠ حتى آنسَ من نفسه القدرة على اعلان الجهاد ضد النصارى في بلاد الكرج (جورجيا) . والواقع انه اتخذ من ذلك ذريعةً الى الانتقام

---

(١٣٥) انظر هنز W.Hinz, **Irans Aufsteig zum Nationalstaat im** 15. **Jahrhundert,** Berlin and Leipzig, 1936.

لأبيه من شروان شاه . وفي معركة دارت رحاها عند كُلستان قُتل فَرَّخشاه . فانتهت بموته سلالته التي كانت تعتبر نفسها متحدرة من كسرى انو شروان السّاساني . ثم ان اسماعيل احتل باكو ، لينقلب بعدُ لقتال ألوَند ، خان الآق قيونلي في آذربيجان . والواقع أن انتصاره على ألوَند هذا مهد أمامه السبيل الى تَبريز حيث توّج ملكاً (شاه) على بلاد فارس . ومع أن علماء الشيعة التبريزيين اعلموه بأن ثلثي سكان المدينة على الأقل ، وكانت تضم ثلاثمائة الف ، من أهل السنّة ، فقد سارع الى جعل التشيع مذهب الدولة الرسمي ، ثم أردف ذلك بأكراه رعاياه جميعاً على سبّ أبي بكر وعمر وعثمان .

وبعد ان أنزل هزيمة جديدة بجند ألوَند انقلب لقتال مراد أخي ألوَنْد ، فوفق الى ان ينتزع منه سنة ١٥٠٣ ، السلطة على شيراز ، ويبسط سلطانه على أستَراباد و «يَزْد» . ثم انه فتح الجزيرة الفراتية والعراق ، في سهولة ويسر ، وهكذا انتهت اليه السيادة على المدينتين الشيعيتين المقدستين : النجف وكربلاء . وكانت قد ظهرت في ذلك العهد ، في بلدة الحُوَيزة ، فرقة شيعية غالية ألّهت علياً وادّعى زعماؤها الالوهية لأنفسهم . فناصب هؤلاء الزنادقة العداء ، وكان قاسياً عليهم كمثل قسوته على أهل السنة .

اخضاع الاوزبك في خراسان

فلما تمّ لاسماعيل إخضاع بلاد الفرس كلها بهذه الطريقة ، لم يبق أمامه من عدوّ غير العثمانيين في الغرب والاوزبك في الشرق . ولقد سبق منا الكلام على النزاع بينه وبين سليم الاول . أما قبيلة الاوزبك التركية فكانت قد استولت على الامر في تركستان بزعامة الخان محمد شَيْباني ، الذي تمرس بفن القتال في الحروب التي نشبت بين امراء المغول في تلك البلاد . وفي سنة ١٤٩٤ قضت هذه القبيلة على بقايا التيموريين في خراسان وهراة لتصبح بذلك متاخمة للدولة الفارسية . ولسنا نستطيع أن نقرر ، في يقين ، ما اذا كان شيباني — وهو من أنصار السنة الراسخين — قد

استفز اسماعيل بدعوته الى الرجوع الى احضان السنة ، أم لا . ولكن الذي يبدو ثابتاً محققاً أنهما تبادلا ، وفقاً لما جرت به العادة في ذلك العصر ، رسائلَ في هذا الموضوع كانت لهجتها تزداد شدة وقسوة مع الايام . أما السبب المباشر الذي ادّى الى نشوب الحرب بينهما فكان غزوَ الاوزبك لمقاطعة كِرْمان الفارسية . وفي سنة ١٥١٠ جرّد اسماعيل ، ابتغاءَ الانتقام ، حملة على الشرق أتاحت له في الوقت نفسه زيارة ثاني الاماكن المقدسة الكبرى عند الشيعة ، اعني ضريح الامام عليّ الرضا في مدينة مَشْهد . فلما كان اليوم الاول ، او اليوم الثاني ، من شهر كانون الاول التقى جمعاهما عند طاهر آباد قرب مَرْو فدارت الدائرة على شيباني وسقط صريعاً . ومن الجدير بالذكر ان اسماعيل بعث بجثته محنطة الى السلطان بايزيد في حين وضع جمجمته في غشاء من الذهب ليتخذ منها كأساً للشراب . ولكنّ هذه الهزيمة لم تقض على قوّة الاوزبك ، فتقطعت مدةً طويلة وهم يتهددون حدود ايران الشرقية تهدّداً متواصلاً . وبعد اندحار اسماعيل في معركة جالْدِران [امام السلطان سليم] عقد مع العثمانيين صلحاً ، ولم يجروْ على [الحرب مرة اخرى] والقيام بحملة جديدة ضد نصارى مملكة الكُرج الا بعد وفاة السلطان سليم . ثم ان اسماعيل توفي بعد ذلك بقليل — وكان يزور اردبيل — في ٢٣ نوار سنة ١٥٢٤ ، وليس له من العمر غير ثمانٍ وثلاثين .

الحياة الفكرية عهد اسماعيل

قلنا سابقاً ان تأسيس الامبراطورية الصّفَوية يُعتبر بمثابة ارتقاء ايران الى مستوى الدولة القومية . ولكنّ من غير اليسير حقاً ان نخلع الصفة القومية على سلالة من سلالات ايران المالكة كان يجري في عروقها ، الى جانب الدم العربي ، الدمُ التركي ، والدم اليوناني ، وكانت تعتمد في العاصمة على الجنود التركية ؛ هذا بصرف النظر عن أن فكرة القومية كانت غريبة

بالكلية عن البيئة التي نشأت فيها هذه الدولة . والواقع ان العلماء الذين ساعدوا اسماعيل على النهوض بالشيعة الى مقام القوة في ايران تحدّروا في الأعم الأغلب من اصول اجنبية ، ولم يكن في استطاعتهم ان يرتاحوا الى أنهم يمثلون الامة الايرانية ، لا سيما وقد اصطنعوا العربية لغةً للتأليف . ولم يكن عهد اسماعيل ، الحافل بالنضال والكفاح ، أفضل ما يكون لازدهار الانتاج الأدبي ، فوجد شعراء عصره القلائل من الرعاية والحظوة في قصور التركمان والتيموريين الصغرى ما لم يجدوه في بلاطه هو . والحق أن واحداً من أشهر هؤلاء ، هِلالي الاسترابادي ، كان تركي الاصل ، وكان مديناً بمكانته الفنيّة للرعاية التي أحاطه بها نَوَائي ، الشاعر التركي الشرقي الكبير . ونحن في شك من أن رعايا اسماعيل الفرس اعتبروا حكمه سناداً لعزّتهم القومية ، هذا إذا سمحت لهم الاضطرابات الدينية بأن يتحسسوا مثل هذه العزّة أصلاً .

طهماسب بن اسماعيل

وخلف طَهْماسب أباه اسماعيل وهو في العاشرة ، واستطالت مدته حتى لقد استغرقت اثنين وخمسين عاماً ونصف حفلت بالحروب المتصلة ضد أعدائه : الاوزبك في الشرق ، والعثمانيين في الغرب . والواقع أن عُبيد خان بن شيباني خان شنّ ما لا يقل عن سبع حملات ، على بلاد الفرس ، ابتداء من سنة ١٥٢٥ حتى وفاته سنة ١٥٤٠ . وكان من نصيب هراة أن تعاني أكثر من ايما مدينة أخرى ، باستثناء « مَشْهد » المقدسة ، غارات أهل السنة المتعصبين الذين اضطهدوا الشيعة اضطهاداً متواصلاً عنيفاً . ولقد تكلمنا آنفاً على الحملات التي شنها العثمانيون على فارس . فنضيف هنا أن طهماسب كان يفيد من فترات السلم المعترضة ما بين حروبه ضدّ أهل السنة فيغزو نصارى الكرج . والحق أن عدد غزواته ضد هؤلاء بلغت سبعاً ، ولكنه لم يوفق فيها إلى انتصارات دائمة ، على الرغم من أنّ كثيراً من الكرج

دخلوا في خدمته في ما بعد. وليس من شك في أن عهد طهماسب هذا، الذي سعى إلى المجد من طريق الاتّباع الدقيق، إلى أقصى الحدود، لجميع التعاليم الشيعية، مهما تكن ثانوية، والذي حبس نفسه طوال السنوات الاخيرة من حكمه حبساً يكاد يكون كلياً في قصره، أقول ليس من شك في أن هذا العهد الطويل لم يكن، بالضبط، نعمة على البلاد الفارسية، لا سيما وأن عصابات اللصوص كانت تعكر صفو السلامة العامة تعكيراً متواصلاً بسببٍ من الاضطرابات الحربية المستمرة. ولقد روى لنا «فنسنتو دي أليساندري»، سفير البندقية في بلاط الشاه، كيف عزم هذا الاخير، مرة، على أن يخفف من وطأة الضرائب التي تثقل كواهل رعاياه، لأنه رأى في ما يرى النائم ملاكاً يتوعده من اجلها. والذي يؤخذ من السيرة التي ترجم فيها لنفسه أن الاحلام قد لعبت على العموم، دوراً هاماً في حياته. فقد أقلع عن معاقرة الخمر وهو في العشرين من عمره، وأمر باغلاق جميع حوانيتها في البلاد إثر رؤيا قرّعه فيها الامام عليّ الرضا..

وتوفي طهماسب في ١٤ نوار سنة ١٥٧٦ من غير أن يسمي خليفةً. وكان ابنه البكر محمد خُدَابَنْدَه الذي أقام في هراة من سنة ١٥٣٦ الى سنة ١٥٥٦ بوصفه حاكماً عليها، والذي اضطر إلى أن يتخلى عن مركزه هذا ويستعيض عنه بحكم شيراز بسببٍ من نزاع نشب بينه وبين أحد الموظفين الكبار — أقول كان ابنه البكر هذا قد فقد البصر، أو كاد، منذ وقت طويل، فأقصي عن خلافة أبيه جرياً على العادة الغالبة في بلاد الشرق. أما ابنه الثاني، اسماعيل، الذي كان على نقيض والده وأخيه، مفعماً بالعزيمة العسكرية محبباً بالتالي إلى القزل باش، فقد سبق ان لمع نجمه في الحروب التي خاضها قومه ضد العثمانيين، وفي العمل الجريء الناجح الذي قام به ضد حاكم أرْضرُوم اسكندر باشا سنة ١٥٥٢، بخاصة؛ حتى إذا عُهد اليه سنة ١٥٥٦ في الولاية على خراسان خلفاً لاخيه الاكبر، استثار شكوك ابيه بما أظهره من استقلال في العمل العسكري وتفرّد في رسم الخطة له؛ فأمر بحبسه، سنة ١٥٥٧

في قلعة قهقهه في جبل سوَلان بين أردبيل وتبريز . وكان للشاه سبعة أولاد آخرين ، احبهم اليه ابنه حيدر ؛ وكان قد أمر سفيره لدى الباب العالي بأن يقنع الدولة العثمانية بألا تعارض في ارتقاء حيدر العرش . وإنما أيده فريق الكرج في البلاط ، وقبيلة أستاجلو من بين القزل باش ؛ وحظي فوق ذلك بتأييد رعاياه الفرس من غير شك . ولكن انصار اسماعيل وفقوا ، بقيادة اخته لأمه ، بيري خان خانم، إلى أن يستولوا على القصر، في العاصمة ، قزوين ، ويفتكوا بحيدر ، قبل أن ينجو اسماعيل من محبسه بقلعة قهقهه .

اسماعيل الثاني

وفي ٢٣ نوار سار اسماعيل إلى العاصمة ، بعد أن حرّره جلاده لدن تسامعَ بمصرع حيدر، فدخلها في ١٣ حزيران ، ليرتقي آخر الامر عرش آبائه في ٢٢ آب . والواقع أن الشاه الجديد ، وكان قد خُولط في عقله من جراء مُقامه الطويل في السجن ، لم يلبث أن جعل وكده تدعيم سلطانه والتمكين له مُفرغاً في سبيل ذلك كل ما يملك من جهد وقوة . ولم تمض فترة وجيزة حتى كان قد قتل جميع اخوته ، ما عدا محمد خدابنده ، وجميع أولاده باستثناء أكبرهم حسين ، الذي قُتل مع من قتل . اما عباس ، اخو حسين هذا ، الذي ارتقى العرش بعد ، فلم ينجُ إلا باعجوبة . ثم إن الشاه الجديد أحفظ القزِل باش ، وهم دعامة بيته ، بما اظهره من كراهية علنية للمذهب الشيعي ، فقد اغفل ذكر شعارهم على ما ضرب من نقود ، وحظر سبّ الخلفاء الثلاثة الاولين من على المنابر . والحق ان شخصيته الغامضة التي افسدتها المسكرات تجعل من العسير علينا ان نعيّن على التحديد ما الذي دفعه الى انتهاج هذا السبيل . اهو الامل في أن يسترضي بذلك اهل السنة ، اعداء دولته التقليديين ، ام هو مجرّد الرغبة في الانتقام من ذكرى والده الذي افسد عليه حياته اذ ألقاه طوال سنيه تقريباً في غياهب السجن . وبعد مدة وجيزة من مولد ابنه البكر ، قضى اسماعيل نحبه ، مسموماً على الارجح ، في منزل غلام كان يتعشقه ، (٢٤ تشرين الثاني سنة ١٥٧٧) . وكانت

أخته لأمه طموحاً ، وقد سبق لها أن فكرت بأن تتولى الوصاية الامبراطورية باسم ابنه الصغير . ولكنّ شيوخ القزل باش رفعوا محمد خدابنده ، وكان كما رأينا نصف اعمى ، الى العرش[١٣٦] . ولـــكن الدولة كانت قد أخذت في الضعف ، يدلك على ذلك ان شيخاً من مشايخ الطريقة القَلَنْدَرِية ما لبث ان ظهر في مقاطعة لُورِسْتان الكردية مدّعياً انه الشاه القتيل ، فعمّرت سلطته هناك حتّى سنة ١٥٨٢ .

وسارع محمد خدابنده ، عقب توليه العرش ، الى التخلص من اخته لأمه ، بيري خان خانم ، ومن ابن اسماعيل القاصر . والواقع ان زوجته – وكانت ابنة سيد مَرْعَشيّ من مازَنْدَرَان – هي التي تولت شؤون الدولة بالنيابة عنه الى ان قتلها احد زعماء القزل باش . واذ كان اعداء الدولة يستغلون ، من كل جانب ، ما انتهت اليه من ضعف ، فقد عزم عباس – ثاني اولاد الشاه ، وكان حتّى ذلك الحين حاكماً لخراسان – عـــلى التدخل في شؤون الحكومة المركزية في العاصمة ، بعد مصرع اخيه الأكبر . فلما وافى تشرين الأول من سنة ١٥٨٧ اكره أباه على التنازل عن العرش ، وسمل عيون أخويه الأصغرين وحبسهما في أَلَمُوت .

عصر الزهو في فارس

والحق ان السنوات الثلاث والاربعين التي استغرقها عهد عباس « الكبير » (١٥٨٨ – ١٦٢٩)[١٣٧] انتهت بايران الى ذروة قوتّها . فلم يكد الشاه يرتقي العرش وليس له من العمر غير سبع عشرة سنة حتّى سعى إلى ان يضمن لنفسه حرية العمل ، فأصدر امره بقتل مرشد قولي خان الذي سبق ان تعهده بالعناية ، اثناء ولايته على خراسان ، والذي ساعده على ارتقاء

(١٣٦) انظر هنز W. Hinz, Schah Esmail II, Mitteilungen des Seminars fur orient. Sprachen, 1933, 2, 9-99.

(١٣٧) انظر بلان A. Bellan, Chah Abbas, Les Grandes figures de l'Orient. III, Paris , 1933.

العرش . ثم ان عباساً القى نظرة حكيمة على مملكته فألفاها في وضع خطر . فما كان منه إلا ان سارع الى عقد صلح ذليل مع العثمانيين الذين ما انفكوا منذ وفاة اسماعيل الثاني ، يهاجمون فارس مرة بعد مرة . وبمقتضى هذا الصلح تنازل عباس للعثمانيين عن آذربيجان ، والكُرْج (جورجيا) ، وجزء من لورستان ، وكانوا قد احتلوا هذه الولايات كلها ، وتعهّد بالكفّ عن سبّ الخلفاء الثلاثة الأولين في اراضي مملكته ، وبأن يبعث بابن عمه حيدر ميرزا رهينة إلى استانبول . ومن ذلك الحين فرغ عباس لإقرار الامن في داخل مملكته ووقايتها من عدوان الاوزبك الذين غزوا خراسان غير مرة ، حتى اذا كانت سنة ١٥٩٨ توفي زعيمهم الخان عبد المؤمن ، فصار في ميسور عباس ان يطردهم من البلاد . وما هي إلا فترة وجيزة حتى ظهر في بلاطه مغامران انكليزيان — السير انطوني والسير روبرت شيرلي [١٣٨] — مكّناه ، آخر الأمر ، بمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما ، من ان يسلح الجيش الفارسي بسلاح المدفعية التي كان يعوزه من قبل والذي كان الفرس عاجزين ، بسبب من فقدانه ، عن مضاهاة الاتـــراك في الميدان . ولكي يتحرر من سلطة القزل باش الذين أعنتوا أسلافه وأزعجوهم أعظم الإزعاج ، أنشأ على غرار الانكشارية جيشاً من الكرْج والأرمن الداخلين حديثاً في الإسلام ، وحرساً تركياً جديداً ، سمي « شاه سَوَن » . وفي أواخر عهد السلطان محمد الثالث ، وكانت الامبراطورية العثمانية منهمكة في حرب مستمرة مع النمسا ، وفي إخماد الثورة التي قامت بها الطريقة الجلالية في آسيا الصغرى ، أعلن عباس الحرب على العثمانيين ، سنة ١٦٠٢ ، فتمكن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، بل تمكن من استرداد شروان وبغداد أيضاً ؛ وإن تكن هذه الأخيرة (بغداد) قد سقطت بعد ، عدة مرات ، في أيدي العثمانيين ، على عهد عباس نفسه . كذلك مكن للسلطة الفارسية في بلاد

---

(١٣٨) انظر **D. E. Ross. Sir Anthony Sherley and His Persian Adventure.**
S. C. Chew, The Crescent and the Rose, Oxford, 1937.

القبق (القوقاز) أيضاً ، وعزّز الحدود في الشرق حتى مرو وبلخ . وفي سنة ١٦٢٢ انتزع ، بمساعدة بعض السفن الحربية الانكليزية، جزيرة هُرمز في الخليج الفارسي من أيدي البورتغاليين وأنشأ قاعدة تجارية جديدة في ثغر كمرُون خلع عليها اسم بَندَر عباس .

ونقل عباس عاصمته إلى اصفهان ، بعد أن تحملت العاصمة القديمة، قزوين ، من الأرزاء ما سلبها بهجتها ورونقها . وهناك على ضفاف نهر آراس أنزل ارمن جُلفه (جُولا هَه) الذين خلعوا اسم موطنهم القديم على الضاحية التي استقروا فيها [بالقرب من إصفهان] . وزين عباس اصفهان نفسها بالمباني الضخمة ، من مثل الجامع الكبير وقصر الأعمدة الأربعين (جِهِل ستُون) والجسر الكبير القائم على نهر زَنْدَرُود وبالبساتين الأربعة (جارباغ) . وكما سبق له في معاهدة الصلح مع العثمانيين أن خفف من غلواء المعتقدات الشيعية فقد قاده تسامحه الآن إلى حدّ الترخيص للآباء الكرمليين بالإقامة في إصفهان . وفي عهده الطويل ازدهرت الحياة الفكرية ، في فارس من جديد . وكان محمد باقر بن محمد داماد أشهر الشموس اللامعة في البلاط ، فاحترمه الشاه نفسه وكرّمه . والحق أنه عني بالفلسفة والعلوم الطبيعية فضلا عن الفقه ، فأجرى بنفسه بعض التجارب العملية في النحل . ولمع في بلاط عباس أيضاً بهاء الدين العاملي ، وكان عالماً متعدد جوانب الثقافة، راغباً في أن يحيط بجميع العلوم المعروفة لعهده . أما الفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازي الذي لا تزال فلسفته الالهية ذات أثر واضح حتى يومنا هذا بوصفها عنصراً في تكوين عقيدة «الباب» [أو الدين البهائي] الجديد ، فقد آثر حياة التأمل في مدينة قُمّ المقدسة . كذلك ازدهر الشعر والموسيقى في ظلّ عباس أيضاً .

خلفاء عباس

بيد أن هذا العاهل الذي فاق أسلافه وسما عليهم سمواً كبيراً لم يتورع

عن قتل ولده البكر صَفيّ ميرزا ، بعد أن أوجس خيفة منه بسبب من الشعبيّة التي تمت له بين الناس . حتى إذا توفي ربيعَ سنة ١٦٢٩ ، في مقره الصيفي في فرَحَ آباد من أعمال مازندران خلفه حفيده سامْ ميرزا الذي تسمى باسم أبيه ، صفيّ ، عند ارتقائه العرش .

والواقع أن عهد سامْ ميرزا هذا كان من أتعس العهود التي عرفتها الأمة الفارسية في تاريخها الحافل بالأرزاء والآلام . ذلك بأنه سعى ، بوصفه طاغية عاجزاً ، إلى أن يمكّن لسلطته في الداخل من طريق الأعمال الوحشية المتكررة . أما في الخارج فقد وفق إلى صد غارات التركمان في خراسان . ولكنه أضاع قَنْدهار التي فُتحت في عهد طهماسب واستردّت في عهد عباس ، والتي تقع اليوم في أفغانستان — ليستولي عليها شاه جهان صاحب دلهي ، كما أضاع بغداد ليستولي عليها العثمانيون .

ولكن فارس ما لبثت أن عرفت ، عهدَ عباس الثاني ، الذي خلف أباه سنة ١٦٤٢ وهو في سن العاشرة ، فترة أخرى قصيرة من الازدهار وحسن الطالع . فقد استرد قندهار ؛ وكان عليه فيما عدا ذلك أن يخمد ثورة قام بها الكرج بقيادة طَهْمُورَثْ خان سنة ١٦٥٩ . والواقع أنه اصطنع العدل في معاملة رعاياه جميعاً بصرف النظر عن معتقداتهم ، حتى لقد تمتع النصارى أيضاً بالحرية الدينية الكاملة في عهده . وعلى الرغم من أنه حاول أن يحظر شرب الخمرة ، نزولا عند إلحاح رجال الدين ، فقد تردّى هو نفسه ، بعدُ ، في مهاوي الإدمان الذي ذهب بنضرته وعجّل وفاته .

وواصل صفيّ — الذي تسمى بسليمان عند ارتقائه العرش سنة ١٦٦٧ — سياسة التسامح التي وضعها أبوه ولكنه كان كأبيه مدمناً الخمر ، وكان في ساعات سكره كثيراً ماينزلق الى أعمال همجية يصب جامها على أفراد حاشيته . أما ابنه السلطان حسين ، الذي خلفه سنة ١٦٩٤ ، فكان منحطاً ضعيفاً . ولقد وكل شؤون الدولة كلها إلى رجال الدين من الشيعة فأساؤوا اصطناع السلطة

وأمعنوا في التنكيل بمواطنيهم من أهل السنة . وكان الملاّ محمد باقر مَجْلِسي أشد رجال الدين هؤلاء على الصوفية ، فاضطهدهم بشدّة عمياء . وسنرى بعد كيف أدى ذلك إلى سقوط السلالة الحاكمة ، وانتقال السلطة إلى الأفغانيين .

الدولة العثمانية في دور الانحطاط
حتى نهاية القرن الثامن عشر

هزيمة الاتراك البحرية في لبانتي

كان سليم الثاني حاكماً على مغنيسية عندما فوجئ بموت أبيه أمام أبواب سكتوار ، أثناء الحملة المجرية سنة ١٥٦٦ ، فلم يكن منه إلا أن هرع إلى بلغراد حيث انتظر عودة الصدر الأعظم ، محمد صوقللي ، آتياً بجثمان أبيه . والحق أنه لم يستطع دخول استانبول إلا بعد أن وهب الانكشارية أعطيات ضخمة جداً . ثم إنه واصل الاعتماد على الصدر الأعظم في تصريف شؤون الدولة ، فعقد هذا معاهدة صلح مع النمسا ، في شباط سنة ١٥٦٨ ، على أن يدفع هو جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكه وعلى أن تعترف الدولتان المتنازعتان بالوضع الاقليمي الراهن لكل منهما . وعلى الرغم من قلة كلفه بالأمور العسكرية والحربية فقد وفق اليهودي يوسف ناسي — وكان أثيراً لديه — إلى إقناعه بأن يخوض ، وشيكاً ، حرباً جديدة ضد البندقية . ذلك أن جزيرة قبرس الغنية ، وكانت في حوزة البنادقة ، استثارت جشع هذا اليهودي فأغرى السلطان باعلان الحرب على الجمهورية عندما امتنعت عن تنفيذ ماطلبه إليها سنة ١٥٧٠ من التنازل عن الجزيرة . والواقع أن الجيوش

العثمانية استطاعت الاستيلاء عليها من غير أن تلقى مقاومة ذات بال . وكان الأسطول البندقي يرابط ، في تلك الأثناء ، على شواطىء إقريطش (كريت) في انتظار النجدة تأتيه من الغرب . ولكن الجمهورية لم تستطع إقناع فيليب الثاني ملك اسبانية والبابا بولس الخامس بضرورة مدّ يد المساعدة إلا في نوار سنة ١٥٧١ ؛ حتى إذا وافى شهر أيلول اجتمعت الأساطيل المتحالفة في مرفأ مسّينا. ثم ان الرأي انعقد على أن تتعقب الأساطيل المتحالفة، بقيادة دون جوان ملك النمسا، الأسطول العثماني، وكان مرابطاً في خليج لبانتي، ناوباقتوس القديمة ، عند فم خليج كورنثوس . والواقع أنه كان قد عاد حديثاً من قبرس بعد أن سطا على مدن السواحل في إقريطش وعلى الجزر الايونية وبعد أن كان قد عزز بأربعين سفينة حربية معقودة لواؤها لباشا الجزائر . وعزم القبودان باشا على أن يغادر مرفأ لبانتي المأمون ليتقدم في إثر الأسطول النصراني، وكان قد دخل الخليج في ٧ تشرين الأول ؛ وإنما أقدم القبودان باشا على ذلك بالرغم من نصيحة مرؤوسيه الذين نبهوه لما يعانيه الملاحون من ضعف ، بسبب من حوادث الفرار المتعددة . وهكذا استطاع الأسطول الحليف المتفوق أن ينزل بالأسطول العثماني هزيمة قاصمة، ولم يوفق إلى النجاة غير باشا الجزائر وحده ، مستنقذاً الجناح الأيسر وسفنه الأربعين . ولكن دون جوان لم يستغل انتصاره . بل انه لم يهاجم لبانتي نفسها ، على الرغم من أن السكان النصارى ، في الداخل ، كانوا يترقبون ذلك للانقضاض على العثمانيين . وأخيراً انسحب الأحلاف ، حتى إذا كانت السنة التالية صار في مقدور السلطان أن يوجه إلى المعركة أسطولا يكاد يضاهي أسطولهم منعة وقوة . وهكذا فُتّ في عضد البنادقة ، الذين ظلوا مرابطين في دلماسيا دون أن يحسنوا مركزهم أو يعززوا قواهم . وزايلتهم الرغبة في مواصلة النضال فعقدوا مع الدولة صلحاً تنازلوا بموجبه عن قبرس ، في آذار سنة ١٥٧٣ . وما هي إلا سنة واحدة حتى انحطت صحة السلطان ، بسبب من إفراطه الشهواني وإدمانه الخمر ، ومات إثر نوبة أصابته في ١٢ كانون

الأول من السنة نفسها .

الحروب ضد فارس والنمسا عهد مراد الثالث

ورقي مراد الثالث ، ابن سليم الثاني البكر ، العرش غير مُدافَع . وإذ عُرف وهو لا يزال صغيراً بالرصانة والجد ، فقد كان من المتوقع له أن يترسم خطى جده . بيد أنه انغمس ، بأكثر من انغماس أبيه نفسه ، في ملذات « الحريم » تاركاً لأمه نور بانو ولزوجته الرئيسية صفيّة وهي من أسرة بَفّا الايطالية ، أن تفرضا سلطانهما الحاسم على جهاز الدولة .

وسعى البنادقة ، بعد أن تخلت عنهم الدول الغربية ، إلى إثارة طهماسب ، شاه فارس العجوز ، على السلطان العثماني ، وخوض غمار الحرب ضده . حتّى إذا خلفه على العرش ابنه المستضعَف محمد خدابنده اغتنم أنصار الحرب من العثمانيين هذه الفرصة الملائمة لمناجزة خصومهم القدماء ، كرة أخرى . ففي سنة ١٥٧٧ هاجم العثمانيون بلاد القبق (القوقاز) وفتحوا تفليس . وفي سنة ١٥٧٩ أنشأوا قلعة قَرْص ذات الأهمية العظمى في توطيد دعائم احتلالهم . ولكنهم لم يستطيعوا نقل الحرب إلى فارس ذاتها وانتزاع تبريز ، العاصمة السابقة ، إلا سنة ١٥٨٥ . أما الصلح الذي اشتراه عباس الكبير من العثمانيين ، عقب ارتقائه العرش ، فقد عرفتَ نبأه في الفصل السابق .

وعزّز العثمانيون نفوذهم ، أثناء الحرب الفارسية ، في جنوبي الروسيا أيضاً ، ليتخذوا منها مركزاً لحملاتهم ضد بلاد الكُرج ، سنة ١٥٨١ و ١٥٨٣ . كذلك أفسحت لهم الاضطرابات الناشبة بين أهل القبق في مجال التدخل في شؤون بولندة . والحق أن في ميسورنا أن نعتبر الملكين البولنديين اسطفان باثوري و (منذ سنة ١٥٨٧) سيجسموند تابعَين ، واقعياً ، للسلطان العثماني . وعلى الرغم من وقف القتال بهدنة سنة ١٥٨٣ ، فقد ظلت جمرات الحرب متقدة تحت الرماد وظل شررها يتطاير بالنزاع المستمر على الحدود النمساوية إلى أن اشتعلت نيرانها بعد عشر سنوات . وكان حاكم البوسنة قد

هُزم هزيمة مروّعة ، في حزيران سنة ١٥٩٣ ، أثناء غارة قام بها على سِسَك في بلاد المجر . ولم يكن بدّ من استئناف الحرب الكبرى ابتغاء الانتقام وغسل العار . ولكنّ السلطان مراد الثالث توفي ، في ١٦ كانون الثاني سنة ١٥٩٥ . قبل أن يقع شيء من ذلك :

معاهدة سيتفاتورك

وخلف مراداً الثالث ، على عرش السلطنة ، ابنه محمد الثالث ، وهو آخر وليّ عهد عثماني أُسند إليه حكم مقاطعة مغنيسية ليكتسب من ذلك دربة تهيئه لتسلم مقاليد السلطنة في مابعد . حتّى إذا كانت السنة التالية خاض هو بنفسه غمرات القتال ، وشاء له حسن طالعه أن يشارك في أول انتصار أحرزته قواته في هذه الحرب : أعني التغلب على جيوش آل هابسبورج في أكْري * . ولكن الحرب سارت ، بعد هذا النصر ، بخطى وئيدة جداً، ثم استمرت كذلك عقب وفاة محمد سنة ١٦٠٣ وارتقاء ابنه أحمد العرش . والواقع أن الحظ لم يجر في ركاب العثمانيين إلا عندما انحاز إلى جانبهم بُوكَسْكاي ، الزعيم المجري ، بعد أن نُصّب أميراً على ترانسلفانيا ، وهكذا عُقد الصلح ، آخر الأمر ، بين الفريقين بمعاهدة سيتفاتورك سنة ١٦٠٦ ، ولكن السلطان تنازل بموجبها عن الجزية التي كانت تُدفع إليه ، حتّى ذلك الحين ، على صورة هبة .

الثورات الداخلية

وبرز أمام العثمانيين حتّى في غمرة النصر الذي تم لهم في معركة أكري خطرٌ متأصل مافتىء يهدد كيان الدولة منذ أمد بعيد . ذلك أن روحاً من التخاذل والخيانة دبت في نفوس الجنود الاقطاعيين ، وبخاصة في في القسم الآسيوي من الامبراطورية . فإذا ذكرنا أن الانكشارية كانوا قد

---

* Keresztes

فقدوا ، منذ زمن بعيد ، احترامهم لسلطة السلطان ، أدركنا أن الجيش العثماني لم يكن في حال تدعو إلى الاطمئنان . والحق أن المصادر تنبئنا بأن مايزيد على ثلاثة آلاف من هؤلاء الجنود الاقطاعيين قد ولوا الأدبار ، في ذلك الحين ، بسبب من قساوة الصدر الأعظم ، جغالـَه ، فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أصدر أمره إلى مواطنيهم أنفسهم بتعقبهم ، ففعلوا . وفي سنة ١٥٩٩ أعلن عبد الحليم قره يازيجي – قائد فرقة « السكبان » الانكشارية – العصيان على الدولة ، بعد أن أعاد أفراد فرقته إلى وطنهم الأول . وأغلب الظن أن من انضم تحت لوائه من الناقمين كانوا ينزعون إلى الحياة العثمانية القديمة . ومهما يكن من أمر فقد وفق عبد الحليم إلى احتلال الرُّهاء . وظن الباب العالي أن في ميسوره أن يستميله ويتألفه إذا ماأسند إليه ولاية أماسِيَة ، ولكن هذا الإنعام لم يزده إلا تمادياً في العصيان ، وقدرةً على التوسع على حساب الدولة . فما وافى نيسان سنة ١٦٠٠ حتّى كان قد وفق إلى أن يهزم والي دمشق وبغداد في معركة دارت رحاها قرب كيسانية . بيد أنه مالبث أن قُتل في الميدان ، بعد ذلك بقليل ، فقام مقامه أخوه . ووفق هذا الأخير إلى أن يحتفظ بقوته فترة من الزمان ولكن الدولة استدرجته إلى أوروبة ، بما قد وعدته من الولاية على البوسنة ، حيث لقي حتفه ، هو والكثرة الكبرى من جنوده ، أثناء حصار بودا سنة ١٦٠٣ .

وفي تلك السنة نفسها تمردت حامية تبريز العثمانية ، فاغتنم الشاه عباس هذه الفرصة ، واستولى على المدينة . وهكذا وجد الباب العالي نفسه مضطراً إلى القتال على جبهتين . والواقع أن حرب الفرس كانت ثقيلة الوطأة على الدولة بسبب من الثورات المتعاقبة التي قام بها زعماء العصابات في آسية الصغرى ، وبسبب من تمرد جان بلاط * الكردي [139] في سورية ، والأمير الدرزي فخرالدين [المعْنِيّ] في لبنان . فلما تمّ صلح سيتفاتورك استطاع

* وتكتب ايضاً « جانبلاط » و « جانبولاط » . (المعربان)

(١٣٩) وكان يحكم كليس (اوكلز ، بكسر فكسر ، في كليهما) قرب حلب حكماً وراثياً .

العثمانيون في النهاية ، أن يهزموا جان بلاط فالتجأ إلى فخر الدين ، في لبنان كما استطاعوا القضاء على أخطر الزعماء الثائرين في آسية الصغرى. حتى إذا استرد العثمانيون تبريز أيضاً ، رضي عباس بمعاهدة سلم أعفته من الجزية غير أنهـا لم تسوّ مشاكل الحدود بين فارس والعثمانيين إلا تسوية موقتة على غرار ما سوّتها معاهدة سيتفاتورك بين المجر والدولة العثمانية.

وفي سنة ١٦١٧ توفي السلطان أحمد فخلفه أخوه مصطفى ، بوصفه أكبر أمراء البيت المالك سناً ، وفقاً لحق الخلافة القديم . بيد أنه اضطر بعد ثلاثة أشهر فحسب إلى التنازل عن العرش لابن أخيه الشاب ، عثمان . وما هي إلا فترة حتى أدت المنازعات القائمة على الحدود بين العثمانيين والبولنديين إلى نشوب معركة كبرى في ياش (٢٠ أيلول سنة ١٦٢٠) اضطرت السلطان إلى أن يشترك بنفسه في القتال . وكانت لعثمان خطط بعيدة المرامي . ولكنها تحطمت جميعاً عند أسوار قلعة خُوتين * حتى إذا ألفى نفسه ، سنة ١٦٢١ ، غير قادر على أن يحقق شيئاً من خططه تلك ، اضطر إلى أن يقبل بالصلح امع العدو . والواقع أن عثمان عزا إخفاقه هذا ، وكان محقاً في ذلك ، إلى لانكشارية ، ومن هنا كان في ميسور الصدر الأعظم أن يقنعه بمحاولة التخلص منهم ، والاعتماد من جديد على الولايات الآسيوية في الامبراطورية. وكان التدبير يقضي بأن يجرد السلطان حملة على الأمير فخر الدين في سورية ، وأن يؤدي فريضة الحج إلى مكة ليكون في ذلك مايساعده على إنفاذ خطته. ولكن الانكشارية اطلعوا ، من طريق الخيانة ، على ما بُيّت لهم ، فأكرهوا السلطان على إلغاء الحملة . حتى إذا أبى أن يسلم إليهم الصدر الأعظم طوقوه في السراية ، ورفعوا مصطفى إلى العرش من جديد ، وكان نصف أبله . ثم أن عثمان قتل في « يدي قوله » باشارة من الصدر الأعظم الجديد ، في ٣٠ نوار سنة ١٦٢٢ . ولم تمض غير سنتين اثنتين حتى اشتد ساعد العناصر الواعية

---

* Choczim

في استانبول وصارت كلمتها هي العليا ، كرة أخرى . وفي ١١ أيلول سنة ١٦٢٣ أُكره مصطفى على التنازل عن العرش لمراد الرابع ، خامس أولاد أحمد ، وكان صبياً في الحادية عشرة . ولقد وُفّق مراد ، آخر الأمر ، إلى أن يُفلت من نير الإنكشارية ، سنة ١٦٣٢ ، وإلى أن يتخلص من زعمائهم بمساعدة القدماء من رجال الدولة . ليس هذا فقط ، بل لقد أنقص عدد الإنكشارية بتعليق ضريبة الغلمان ، وأنشأ لنفسه جيشاً جديداً يستطيع الاعتماد عليـــــه .

الامير فخر الدين

وفي غمرة من هذا الاضطراب السائد العاصمة ، أُصيب الحكم التركي في سورية بضربة ثقيلة قاصمة . ذلك بأن أمير لبنان الدرزي ، فخر الدين ، كان قد أعلن الثورة ، بالاشتراك مع جان بلاط الكردي ، على الباب العالي، منذ سنة ١٦٠٣ ؛ ولكن الدولة لم تتعرض له، حتى بعد هزيمة جان بلاط ، بل تركت إليه حكم البلاد الواقعة في حوزته ، لقاء جزية سنوية يدفعها . وما لبث فرديناند الأول ، دوق تُسكانا، الذي عمرت نفسه روح المغامرة ، أن اتصل به ابتغاء فتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا ، في حين كان فخر الدين يرجو أن يستعين بفرديناند هذا، وبالبابا واسبانية أيضاً ، على فتح فلسطين . ثم ان فخر الدين استولى على بعلبك، سنة ١٦١٠ ، وهدّد دمشق نفسها بالاحتلال . ولكن أسطولا تركياً ماعتم أن ظهر على الشاطىء ، سنة ١٦١٣ ، فاضطر الأمير إلى الفرار إلى ليفورنو * ، وكان كوسموس الأول ابن فرديناند قد تولى مقاليد الحكم في تسكانا ؛ والحق أن فخرالدين عرض على كوسموس هذا مشروعاً بتجريد حملة صليبية جديدة ، ولكن كوسموس كان أعقل من أن يفكر في مثل ذلك . وقضى فخر الدين خمس سنوات في

---

* Leghorn

فلورنسا استطاعت أمه الحكيمة [نَسَبْ] في أثنائها أن تدافع عن بلاده ، باسم حفيده أحمد علي ، ضد باشا دمشق . حتى إذا رجع فخر الدين من إيطالية اضطر إلى أن يواصل الاعتراف بابنه أميراً على البلاد ، ولكنه قاد بالنيابة عنه الحرب ضد العثمانيين . والواقع أنه وفق ، أثناء الحرب الفارسية ، إلى أن يبسط سلطانه على الشاطىء السوري حتى انطاكية . وفي سنة ١٦٣١ نشأ بينه وبين الباب العالي نزاع بسبب من رفضه السماح لجيش من جيوش السلطان حُشِد لحرب الفرس أن يقضي فصل الشتاء في دياره ، وطردِهِ لهذا الجيش بقوة السلاح . وبعد سنتين اثنتين وجهت الدولة، رداً على هذا النقض لأحكام السلم ، أسطولا آخر إلى الساحل السوري فاحتل المرافىء جميعاً ، في حين هاجم الولاة العثمانيون الدروز في البرّ . وفي ١٥ تشرين الأول استُدرج عليّ بن فخر الدين ، إلى خوض معركة فاصلة دارت رحاها في السهول ، فهزم هزيمة شنعاء ولقي حتفه هو وعمه . وهكذا اضطر فخر الدين ، في ١٢ تشرين الثاني ، إلى أن يستسلم في مفزعه الأخير ليُحمَل إلى استانبول ، حيث حُزّ رأسه في ١٣ نيسان سنة ١٦٣٥ ، بعد أن قام ابن أخيه ملحم بمحاولة مخفقة في سبيل الإثثار لشرف أسرته من طريق الثورة المسلحة .

وفي سنة ١٦٢٣ اندلعت نار الحرب مع الفرس من جديد ، بعد أن أسلم الوالي العثماني بغداد إلى الشاه . ومن هنا نشبت بين الفريقين المتنازعين حرب عصابات دارت رحاها ، طوال خمس عشرة سنة ، حول هذه المدينة ، وفي القبق وآذربيجان أيضاً . وفي سنة ١٦٣٥ ، خرج مراد الرابع على رأس جيشه الجديد يريد إرمينية . فلما وافت سنة ١٦٣٨ وُفق إلى أن يفتح بغداد من جديد ، ليعقد الصلح مع الفرس في السنة التي تلت .

ولم يعش مراد الرابع ، بعد اختتام الحملة الفارسية على هذا الشكل السعيد ، إلا مدة يسيرة ، فقد غالهُ الشراب فمات في ٩ شباط سنة ١٦٤٠ . حتى إذا رقيَ أخوه ابراهيم عرش السلطنة اطلعت الفوضى الإدارية رأسها وقامت دولة النساء ، كرّة أخرى ، في استانبول ، وهما الآفتان اللتان

كبح مراد جماحهما في السنوات الأخيرة من حكمه . والواقع أن قره مصطفى الصدر الاعظم ، استطاع في السنتين الاولين من وزارته ان يصدّ تيار هذه العوامل في شيء من النجاح ، ولكنه اشترى بذلك عداء كثير من الناقمين الذين اوذوا في مصالحهم الخاصة بسبب من الاقتصاد في نفقات الجيش والاسطول ، واصلاح السكة (النقد) واقامة نظام الضرائب على اسس جديدة . وهكذا كان من الهين اليسير على السلطانة الوالدة وثلاث من محظيات ابراهيم أن يُثرن الانكشارية عليه ، حتى إذا طالب هؤلاء برأسه ، في ٣١ كانون الثاني سنة ١٦٤٤ ، لم يجرؤ السلطان على معارضتهم .

الحرب ضد البندقية

وعلى الرغم من ضعف ابراهيم فقد وُفق العثمانيون في عهده إلى أن يستجمعوا قواهم فينهضوا ، من جديد ، بعمل عسكري كبير في اوروبة . ذلك بأن البنادقة كانوا لا يزالون مسيطرين على بحر إيجه ؛ من جزيرة إقريطش (كريت) ؛ وان تكن استانبول قد عرفت ، منذ زمن بعيد ، كيف تستخف بهم وتزدريهم بسبب من تراجعهم عند كل اصطدام يقع على حدود دلماسيا ، او مع دويلات البربر [في افريقية الشمالية] وسعيهم الى شراء الصلح بالأموال . وأخيراً وطّدت الدولةُ العزمَ على أن تسلبهم آخر ممتلكاتهم في المشرق . فلم تطلّ سنة ١٦٤٤ حتى نشطت دُور الصناعة نشاطاً عظيماً ، وقام الاستعداد للحرب على قدم وساق . وفي غرّة حزيران من السنة التالية اصدر الباب العالي أمره باعتقال جميع البنادقة في طول الامبراطورية وعرضها ، ومصادرة اموالهم وممتلكاتهم ، مُعلناً بذلك الحربَ على البندقية . ثم إن الاسطول العثماني القى مراسيه في إقريطش ، من غير ما مقاومة جديّة ، واحتل حانيه * عند حلول الخريف . والواقع أن العثمانيين لم يتقدموا بعد ذلك الا تقدماً بطيئاً كان مدعاةً الى النقمة في استانبول

* Canea

حيث دُبّرت مؤامرة للتخلّص من السلطان ، الذي اعتُبر مسؤولاً عن هذا البطء ، والذي كان يبدّد موارد الدولة على متارفه المجنونة . فلما كان كان يوم ٨ آب سنة ١٦٤٨ خُلع ابراهيم ليُخنق بعد عشرة أيام . ثم رفع المتآمرون ابنه محمداً الرابع الى عرش السلطنة ، وكان صبياً لما يبلغْ سن الرشد .

كوبريلي يعيد تنظيم الامبراطورية

ولم تمض غير ثلاث سنوات حتى انفجرت في البلاط ثورة اخرى قضت على النفوذ السيء الذي كان لجدّة السلطان الصغير ، في حين كانت امه قد شرعت تتطلع بأنظارها الى الرجل الذي قُيض له ان يعيد تنظيم الدولة . وكان هذا الرجل هو محمد كوبريلي ؛ نسبة الى كوبري القائمة على نهر القزل إرماق ، قرب أماسيه . وقد هاجر اليها جدّهُ من البانيا . والذي يبدو انه دخل السراية ، اول ما دخلها ، كأحد افراد ضريبة الغلمان . ولكنه لم يلبث ان انتقل من الخدمة الدنيا في البلاد الى خدمة الدولة فكان خازناً للصدر الاعظم ، ثم اصبح والياً (باشا) على دمشق ، وطرابلس الشام ، والقدس ، ليعود بعدُ الى العاصمة فيتقلد وزارة القبة . حتى اذا انتهى الى هذه الغاية المرموقة نجح خصومه في الدس عليه والتآمر ضده فانقلب الى وطنه الاول . ثم ان الصدر الاعظم ، [محمد باشا] المعروف بلقب بويني اكري — اي العنق الأعوج — استدعاه من هناك الى العاصمة .

في هذه الاثناء كان البنادقة يسعون ، على غير طائل ، في سبيل حمل الدول الاخرى على مساعدتهم في حربهم اليائسة للاحتفاظ بمركزهم في الشرق . لقد عجزوا عن استنقاذ قَنديَة ، ولكنهم تقدموا شيئاً ما في دلماسيا ؛ وفي سنة ١٦٥١ وفقوا الى دحر الاسطول العثماني عند باروس .

وهنا جاء دور كوبريلي في العمل بعد أن انتهت الدولة العثمانية بسبب من هذه الهزيمة ، الى الدرك الاسفل من البؤس والعجز . والحق انه كان

قد بلغ الثمانين عندما قبل ان يتولى ، في ٢٢ ايلول سنة ١٦٥٦ ، منصب الصدارة العظمى شريطة ان يمنحه السلطان سلطة مطلقة ، واشرافاً على جميع المناصب والدوائر . وهكذا استأصل روح الثورة من طريق القتل الجماعي الذي اعمله في قسوة بالغة ، ومن غير ما استبقاء ، فاصاب فيمن أصاب نفراً من المقربين الى سراية السلطان نفسها . ثم انه انعش الحياة المالية من طريق الاستعارة من خزانة السلطان الخاصة بسخاء ، وحلّ الاوقاف واختصار الموارد الخاصة برجال الدين . ولقد وفق كوبريلي ، قبل وفاته سنة ١٦٦١ ، الى ان يضمن لابنه خلافته في منصبه ، فنجح هذا في توطيد دعائم الاصلاح الذي ابتدأه ابوه ، واتمامه من غير ان يلجأ الى اساليبه الوحشية الدامية .

والحق ان هذه النهضة الداخلية التي نفخت في الدولة العثمانية روحاً جديدة ما لبثت ان بدت آثارها في ما اتخذته الدولة من اجراءات تنضح بالعزم والقوة ضد جيرانها في الشمال . ففي ترانسلفانيا أقصى الباب العالي الامير جورج راغوجكي الذي حاول ان يتملص من التزاماته الاقطاعية تجاه السلطان ، واقام مكانه [الامير ميخال] آبافي ، وكان طيعاً سهل القياد . حتى اذا ابى الامبراطور ، بضغط من المجريـــين ، ان يعترف بـ « آبافي » هذا ، تهدده الباب العالي بالحرب . وهكذا بُعثت في اوروبا فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العالم المسيحي كله العمل في سبيل دفع الخطر التركي ، وهي الفكرة التي طالما رجا البنادقة تحقيقها على غير طائل . حتى الملك لويز الرابع عشر لبى دعوة البابا الى نصرة اخوانه في الدين ضد الاتراك ، على الرغم من صلاته الطيبة بالباب العالي ، فحمل الامراءَ الالمانَ الذين يؤلفون عصبة اوسبرج (اتحاد الرين) وكانوا حلفاءه ، على ان يضعوا عشرين الف رجل تحت تصرف الامبراطور الالماني ؛ فأحرجت هذه البادرة بلاط فينا ، وكان لا يزال يسعى الى اجتناب الحرب ويأمل في مفاوضة العثمانيين . ولكن صبر السلطان ما عتم أن نفد ، فأصدر امره

الى قواته بالهجوم على المجر ، في نيسان ١٦٦٣ . حتى اذا انتهى العثمانيون الى ان يهددوا فينا نفسها دعا الامبراطور اتحاد الرين ، بل دعا السويد ايضاً ، الى نجدته . ومهما يكن من امر ، فقد كُتب له النصر في معركتين طارت لأحداهما شهرة عريضة وهي تلك التي جرت عند جبل القديس غوتارد على نهر الراب . ولكنه ما لبث ، برغم هذا النصر ، ان عقد الصلح مع العدو ، سنة ١٦٦٥ ، لكي يفرغ لمناوأة السياسة الفرنسية .

سقوط اقريطش في يد العثمانيين

بذلك صار في مقدور العثمانيين ان يلقوا ، من جديد ، بقوتهم الكاملة الى ميدان الحرب في اقريطش ، حيث كان حصار قندية بعيداً ، ما يزال ، عن احراز ايما تقدم او نجاح . وكان البنادقة لا يفتأون يمنون النفس بمساعدة فرنسة على الاقل ، ولكن لويز الرابع عشر لم يكن راغباً في إثارة الباب العالي والاصطدام به . والواقع انه كان قد اعتذر رسمياً ، في استانبول ، من تقديمه المساعدة الى الامبراطور . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت استانبول تنقم منه اجراءاته القسرية ضد دويلات البربر في افريقية الشمالية . ذلك بانه احتلّ في ٢٣ تموز سنة ١٦٦٤ جيْجَل ابتغاء القضاء على القرصنة البحرية (ولكن الفرنسيين لم يستطيعوا الاحتفاظ به الى ابعد من ٣١ تشرين الاول) واطلق اسطوله النار على الجزائر وتونس سنة ١٦٦٥ . وهكذا لم يسمح لويز ، بعد صلح أكس لا شابل ، إلا لبعض الافراد من الضباط بالالتحاق في خدمة البندقية ؛ فكان على البنادقة ان ينتظروا مساعدته ، حتى صيف سنة ١٦٦٩ ، عندما أبحر الى اقريطش اسطول فرنسي يتألف من سبعة آلاف رجل . ولكن ، لا هذه المساعدة ولا تلك التي اسداها كل من الامبراطور ودوق برونزْويك ، استطاعت ان تنقذ القلعة المحاصرة من السقوط ؛ فتعيّن عليها ان تستسلم في ٦ ايلول . حتى اذا عُقدت معاهدة الصلح انسحب البنادقة من اقريطش .

وطمح العثمانيون ، بعد ان استعادوا سيطرتهم على شرق البحر المتوسط ، الى ان يبسطوا سلطانهم في الشمال الشرقي ايضاً . وفي سنة ١٦٦٨ انضوى الزعيم القوقازي دُورُوشَنكو ، وكان حتى ذلك الحين تابعاً للتاج البولندي ، تحت لواء الباب العالي . ولكن الدولة لم تطلب الى بولندة التنازل عن اوكرانيا الا سنة ١٦٧٢ ، بعد ان وثقت من ان لويز الرابع عشر لن يتدخل . فلما كان شهر ايلول عقد ميخال ، ملك بولندة ، معاهدة صلح ذليل مع الدولة ، تخلى فيها عن بُودُوليا واوكرانيا ، وذلك بعد ان فقد قلعة قامِنيج القائمة على الحدود ، إثر حصار قصير الأمد .. ولكنّ المارشال سُوبِيَسْكي ما لبث ان نقض هذه المعاهدة في السنة التالية ؛ فكُتِبَ له النصر في ١١ تشرين الثاني عند خُوتِين ؛ وإذ قد تُوفي الملك ميخال بعد ذلك بقليل فقد ارتقى العرش فعُرِف بـ « حنا الثالث » ، (١٦٧٤ — ١٦٩٦) بيد أنه لم يوفق ، هو ايضاً ، الى ان يحقق أيّما نصر دائم في الحملات التي تلت . حتى اذا حاول أن يعبر الدنيستر ، سنة ١٦٧٦ ، مستمداً القوة والعزيمة من انتصار احرزه في لوويج * ، طُوّقت قواته عند زُوراونو ، فاضطر الى ان يرتضي ، في تشرين الاول ، صلحاً تنازل بموجبه ، كرة اخرى ، عن القسم الأعظم من بودُوليا واوكرانيا . وفي السنة نفسها توفي احمد كوبريلي ، وليس له من العمر غير احدى واربعين سنة ، فيما كان يقـــوم برحلة الى معسكر السلطان ، قرب ادرنة .

وإنما تدين بولندة بهذا الصلح الشريف للنزاع الذي نشب ، آنذاك ، بين الروسيا والباب العالي ، والذي تعرضت بسببه سلامة الدولة العثمانية للخطر . ذلك بأن العثمانيين سبق أن تدخلوا في حروب اهل القبق [القوقاز] ضد الروس ، في اوكرانيا . فنشبت بين الفريقين (العثمانيين والروس)

---

* Lwow

حرب طاحنة تكبد كل منهما ، فيها خسائر فادحة . حتى اذا كانت سنة ١٦٨١ عُقدت بينهما معاهدة صلح استولت الروسيا بموجبها على كييف والمناطق المحيطة بها .

هزيمة الاتراك في فينا واخراجهم من المجر

ولم يكد العثمانيون يطمئنون الى استتباب السلام في الشرق حتى حشدوا كاملَ قوتهم لحرب المجر من جديد . وكان النبلاء المجريون ، وعلى رأسهم الكونت تُكُلي ، قد اقترحوا على السلطان اخضاع ما بقي من المجر تحت الحكم النمسوي ، مقابل أدائهم جزية سنوية ، فجهز السلطان جيشاً سار من بلغراد لقتال الامبراطور ، في نوار سنة ١٦٨٣ . وكان جيش الامبراطور يتوقع الحصول على إمدادات جديدة ، فانكفأ متمهلاً الى فينا . وفي ١٧ تموز حاصر العثمانيون العاصمة بقيادة الصدر الاعظم عمر مصطفى . ولكن جيشاً كبيراً ما لبث ان برز من المانية ، على الرغم من تهديدات الملك لويز ؛ ولقد استطاع هذا الجيش ، بالتعاون مع فرق بولندية ان يُنزل الهزيمة بالعثمانيين ، عند قاهْلنبرْج ، في ١٢ ايلول ، وان يكرههم على رفع الحصار عن العاصمة . ومع ان الخلاف ما عتم ان شجر بين الالمان وملك بولندة ، سوبيسكي ، بسبب من مطالب هذا الاخير ، فقد وُضعت الخطة الرامية الى استنقاذ المجر بكاملها في عزيمة وحزم . وفي ٥ آذار سنة ١٦٨٤ ، وبفضل تدخل البابا ، عُقد بين الامبراطور وسوبيسكي حلفٌ ، انضمت اليه البندقية ايضاً ، هدفه النضال المشترك ضد الاتراك .

ومُني العثمانيون ، بعد ذلك ، بالهزيمة تلو الهزيمة في المجر . وفي سنة ١٦٨٦ ظهرت القوات الامبراطورية الالمانية امام ابواب بودا وضربت عليها الحصار . وبعد شهرين اثنين سقطت هذه المدينة ، وكانت طوال ١٤٥ سنة دعامة الحكم العثماني في المجر ، في ايدي المحاصرين .

ولم يؤدّ احدٌ من اعضاء التحالف الآخرين ما فُرض عليه من مهام

باستثناء اهل البندقية ؛ ولكن انتصاراتهم اختُتمت هي ايضاً باحتلال اثينا ، سنة ١٦٨٧ ، ليُضطروا الى اخلائها في السنة التالية . وحاول البولنديون ، من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٦٨٧ ، ان يستردّوا قامنج ، على غير طائل . وفي سنة ١٦٨٧ انضمت الروسيا الى التحالف ولكن محاولتها الاستيلاء على شبه جزيرة القرم باءت بالأخفاق ايضاً .

ولكن بعد أن مُني الجيش العثماني بهزيمة اخرى قاصمة ، عند مُهاج (موهاكس) في المجر ، سنة ١٦٨٧ شبت نار الثورة على سليمان ، الصدر الاعظم ، لتمتد في الحال الى استانبول . وعلى الرغم من ان السلطان ضحى بسليمان هذا ، فقد أُخذ عليه اهماله لمصالح الدولة العليا بعد أن شغله عنها القنص والطرد . وفي ٨ تشرين الثاني انعقد في آيا صوفيا مؤتمر للعلماء ، فأعلن خلع السلطان [محمد الرابع] ثم رفع – نزولاً عند نصيحة القائمقام ، مصطفى بن احمد كوبريلي ، نائب الصدر الاعظم – أخاه سليمان الثاني الى العرش .

وفي الصيف التالي زحفت القوات الامبراطورية على بلغراد ، فاستولت عليها في هجوم شنته في ٦ ايلول سنة ١٦٨٨ . وكان البلاط الامبراطوري في فينا قد شرع منذ مدة ، يفكر في طرد العثمانيين من اوروبة كلها . ولكن العثمانيين وفقوا ، الى ان يجمعوا قواتهم ، كرة اخرى ، في تشرين الثاني سنة ١٦٨٩ عندما قفز الى رئاسة الحكومة صدرٌ اعظم جديد ، هو مصطفى كوبريلي الذي ذكرنا آنفاً ، اثر هزيمة شنيعة منيت بها القوات العثمانية في نيش . والحق انه كان رجل دولة مقتدراً ، وان جهوده في سبيل اصلاح الجهاز المالي وتنظيمه كانت ناجحة ، ولكن الخبرة العسكرية كانت تعوزه ، وان يكن قد وفق الى استرداد بلغراد في ٨ تشرين الاول سنة ١٦٩٠ . حتى اذا هاجم المجر في السنة التالية قضى نحبه ، في ١٩ آب ، في معركة سالانكَمَن المشؤومة .

صلح كارلوويج

واخيراً رقي العرش سنة ١٦٩٥ سلطان من أُولي العزم هو مصطفى الثاني الذي خلف عمه احمد الثاني . والواقع أنه تقلد بنفسه زمام القيادة العليا في المجر ، فوفق الى إنقاذ طَمِشْوَار * ولكنه وجد في شخص اوجين ، امير سافواي ، ضريباً له في قوة الشخصية ومضاء العزيمة ؛ ولقد استطاع اوجين هذا ان يبيد جيش السلطان عند زَنْطة ، على نهرِ تيس ، في ١١ ايلول سنة ١٦٩٦ . وهنا تولى مقاليد الادارة في استانبول رجلٌ آخر من اسرة كوبريلي هو عَموجه زادَه حُسين . ولما كان القيصر بطرس قد استأنف الحرب ايضاً ، سنة ١٦٩٥ ، ضد العثمانيين ، ليوفق سنة ١٦٩٦ الى ان يفتح آزُوف (آزاق) ، فقد قبل السلطان الوساطة التي عرضتها عليه بريطانيا وهولندة ، وهكذا عُقدت في كارلوويج ، ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٩ ، معاهدة صلح أُكره فيها الباب العالي على التخلي لآل هابسبورج عن ترانسلفانيا حتى طمشوار ، وعن المجر برمتها تقريباً ، وعن القسم الاعظم من إسلاوُونيا ** وكرواتيا ؛ كما اكره على ان يتنازل للبولنديين عن قامنج وجميع ما فتحوه في بودوليا وعن اوكرانيا ايضاً ، في حين تنازل للبنادقة عن الموره وعددٍ من الاماكن في دلماسيا .

والواقع أن السلطان انسحب ، بعد هذا الصلح غير المجيد ، الى أدرنة ، تاركاً شؤون الدولة كلها تقريباً للمفتي ، فيض الله [افندي] ، الذي كان قد طرد كوبريلي ، واستثار كره الناس وبغضهم بشحه وتقديمه لذوي قرباه ومحاباتهم من دون الناس وبغضهم . فما هي الا فترة يسيرة حتى اندلعت الثورة في تموز سنة ١٧٠٣ ، ودُعي السلطان إلى استانبول ليمثل امام الديوان ويبرر موقفه ، حتى إذا تخلف عن تلبية الدعوة خُلع عن العرش وانتخب أخوه احمد سلطاناً .

---

* Temesvar

** Slovenia

وبالتنازل عن آزوف الذي تم بُعيد معاهدة كارلوويج فتحت أبواب البحر الأسود في وجه القيصر ، وكان حتّى ذلك الحين بحيرة عثمانية . وإذ قد انتهى شارل الثاني عشر الى ان يصبح الآن خصماً خطراً للدولة العثمانية ، فقد آثر الباب العالي ان يحسّن صلاته به ، حتّى اذا هُزم في بولتاوا أسبغ عليه حمايته في قلعة بَنْدَر العثمانية . ولكن الباب العالي لم يشرع في الاستعداد لحرب القيصر الا في اواخر سنة ١٧١٠ ، بعد ان عجز عن الاتفاق معه على عودة شارل الى بلاده . وهكذا اضطر بطرس الى ان يطرّح عملياته الحربية في مقاطعات البلطيق ويعود ادراجه في اتجاه الجنوب . والحق انه كاد يقع في اسر العثمانيين هو وجنوده جميعاً ، على نهر البروت ، ليوفق بعدُ — بفضل الرشوة التي اشترى بها ضمير الصدر الاعظم ، وحدها — الى ان يتراجع في تموز سنة ١٧١١ بشروط غير شائنة . ولقد كان عليه ان يخلي آزوف ، ويدكّ حصون طيغان (تاغانروغ) دكاً .

صلح بازاروويج

واذا كان الباب العالي قد وافق على هذه المعاهدة التي لم تكن ، على ما يظهر ، في مصلحته فذلك لانه كان يتوق الى استعادة ما فقده من مقاطعات بحكم معاهدة قارلوويج بأكثر من توقه الى التوسع في الشمال الشرقي . وفي سنة ١٧١٤ اتخذ الباب العالي من خلاف نشب في الجبل الاسود ذريعة الى شن الحرب على البندقية ، وما هي إلا فترة يسيرة حتّى خسرت الجمهورية آخر ممتلكاتها في الموره وجزر الارخبيل . ولكن الامبراطور تدخل عندئذ في الحرب . وفي ٤ آب سنة ١٧١٦ احرز الامير اوجين نصراً في بتروارادين * ، وفي تشرين الاول فتح طَمِيشوار ، آخر الحصون العثمانية في الارض الهنغارية ،

* « وارادين » في المصادر التركية . (المعربان)

ليستولي في السنة التالية على بلغراد نفسها . ولكن السياسة الاسبانية في ايطاليا ما عتمت ان اعترضت سبيله الظافر . فاضطر الامبراطور الى ان يرتضي عروض الصلح العثمانية . وفي المعاهدة المعقودة في بازاروويج ، يوم ٢١ تموز سنة ١٧١٨ ، تنازل الباب العالي للامبراطور عن بلغراد وعن كامل منطقتها الى مصب نهر الآلوته في الطونه (الدانوب) في حين كان على البنادقة ان يتخلوا عن الموره .

دولة الافغان في فارس

ولكن الباب العالي الفى نفسه مضطراً ، كرة أخرى ، الى أن يحوّل اهتمامه الى الحالة في آسية ، بعد ان نشبت القلاقل في بلاد خصومه القدماء : الفرس . وتفصيل ذلك ان الخلاف شجر بين الشاه حسين — وهو آخر المتحدرين من الشاه عباس ، وقد رقي العرش منذ سنة ١٦٩٤ — وبين الافغانيين الذين سبق ان دخلوا في حماية الفرس فراراً بأنفسهم من الخضوع لحكم مغول الهند ، والذين استطاعوا مع هذا ان يحتفظوا باستقلالهم حتى ذلك الحين . حتى اذا حاول الشاه أن يحدّ من حريتهم أكثر ، شق زعيمهم ، مير ويس ، عصا الطاعة ، موطداً سلطته كأمير مستقل ، حتى وفاته سنة ١٧١٥ . ثم إن خليفته الثاني ، مير محمود ، انتقل الى الهجوم على فارس ، ليوفق في تشرين الاول سنة ١٧٢٢ ، الى أن يخلع آخر الصفويين ، في إصفهان ، عن العرش . والحق أن القيصر بطرس استغل هذه القلاقل فاستولى على مقاطعة داغِستان القوقازية . ومن هنا التمس زعيم قبائل اللاّزْ الذين استقروا في شَماخي عاصمة شروان ، حماية الباب العالي من القيصر ودخل في طاعة السلطان فأقطعه دَرْبَنْد . ولكن بطرس كان قد اندفع في تقدمه فبلغ باكو ، فاضطر الباب العالي الى ان يتنازل له عن تلك البلاد حتى مصب نهر كور في نهر آراس .

ولم يكن الفرس في وضع يساعدهم على مقاومته . فقد وفق حسين

ابن طهماسب الى ان يقف في وجه محمود ، الافغاني ، ويصده . ولكن اشرف ، خليفة محمود هذا ، عاد فأكره حسيناً على التراجع الى مازندران . حتى اذا أثار أشرف مسأله الاعتراف به إماماً مساوياً للسلطان اندلعت نار الحرب بين الفريقين . وعلى الرغم من النصر الذي أحرزه الافغان سنة ١٧٢٦ فقد انتهت هذه الحرب بتنازلهم عن دعاواهم ومطالبهم . ولكن سيطرتهم على فارس لم تعمر طويلاً . فقد تصدّر لحربهم في خراسان زعيم قبيلة الافشار التركمانية ، نادر قُولي ، ليهزمهم هم وطهماسب في تشرين الاول سنة ١٧٢٩ عند مِهْمان دُوسْت ، ثم في كانون الثاني سنة ١٧٣٠ عند شيراز . وقتل أشرف في بلوخستان بينا كان يلوذ بالفرار .

وهاجم طهماسب ، في الحال ، ممتلكات العثمانيين في فارس ايضاً ابتغاء استرجاع امبراطورية آبائه واجداده بحدودها السابقة . حتى إذا أظهر السلطان تردداً في إعلان الحرب عليه ثار الانكشارية في استانبول فخلعوا أحمد الثالث عن العرش ، في ١ تشرين الاول سنة ١٧٣٠ ، ونادوا بابن أخيه محمود الاول سلطاناً . ولكن النظام لم يُقَرّ في العاصمة إلا بعد سنتين اثنتين من طريق تصيّد المتمردين حتى قتل خمسون الف رجل .

فارس في ظل نادر شاه

ولكن نادر قولي الذي تسمى بنادر طهماسب قولي خان تيمناً باسم متبوعه شاه فارس ، ما لبث أن خرج على مولاه وتوج عباساً ، ابن الشاه ، وكان طفلاً في المهد ، ما يزال . ثم إنه عقد معاهدة مع الروسيا وأعلن الحرب ، في كثير من الجرأة والاقدام ، على العثمانيين . وبعد ثلاث حملات مظفرة استبد هو بأمر الدولة في ١٠ آذار سنة ١٧٣٦ (وكان عباس الصبي قد توفي) ، وعقد مع الباب العالي صلحاً تنازل العثمانيون بموجبه عن جميع مكاسبهم السابقة حتى بغداد . وكان نادر التركماني قد أكره ، قبل ارتقائه العرش ، جميع أشراف الفرس الذين عظموه كمنقذ ومخلص ، على أن

يطرّحوا العقائد الشيعية التي استحدثها اسماعيل الاول ، باعتبارها مخالفة لمذهب أسلافه. ومهما يكن من شيء فإنه لم يكلفهم العودة الى السنة ، بل اعتبرهم أصحاب مذهب سني جديد (خامس) اتخذ اسمه من الامام جعفر الصادق. والواقع أن نادراً سعى ، في معاهدة الصلح مع تركيا إلى أن يحتفظ لأتباع المذهب الجديد بمنطقة خاصة في مكة يؤدون فيها صلواتهم. ولكن هـــذا الاصلاح الرائـــع ما عتم أن أصبح ، عقب وفاته ، أثراً بعد عين.

وكان الباب العالي قد اصطدم بالروسيا ، غير مرة ، أثناء هذه الحرب ، بسبب من تتار شبه جزيرة القرم. ولكن ماجريات الامور في بولندة غلت يد الأمبراطورة حنّة ، على الرغم من أنها كانت قد وطدت عزمها على مواصلة التقدم نحو البحر الاسود وبحر قزوين متبعةً في ذلك خطوات بطرس [الاكبر]. ليس هذا فحسب ، بل لقد حالت الدول البحرية دون هجوم [الروس] على الباب العالي ، لان مصالح تلك الدول التجارية حدت بها الى الحدّ من اي توسع روسي آخر. حتى اذا انقضت الاضطرابات البولندية هاجم الروسُ العثمانيين في تشرين الاول سنة ١٧٣٥ ولكنهم لم ينتهوا بادىء الامر الى ابعد من آزوف. وحاول الامبراطور الالماني الذي كان مقيداً بمعاهدة تفرض عليه مساعدة الروسيا ان يتوسط بادىء الرأي بين الفريقين المتنازعين ، فلم يشارك في القتال الا في سنة ١٧٣٧. ولكن جيوشه منيت بالهزيمة تلو الهزيمة. حتى اذا كانت سنة ١٧٣٩ أسلمت بلغراد الى العثمانيين ولمّا يمض على حصارهم لها غير فترة يسيرة. والحق ان الامبراطور تنازل في المعاهدة التي عُقدت بعد ذلك مباشرة عن جميع المغانم التي كسبها في صلح بازارووبج ، ومن ثم اضطرت الروسيا الى ان توقع معاهدة لم تغنم بموجبها غير مدينة آزوف ، وكانت في حالة دمار. وفي سنة سنة ١٧٤٠ جدّد الباب العالي اعترافه بالحماية الفرنسية على نصارى المشرق ، جزاء تأييد فرنسة الديبلوماسي له في هذه الحرب.

وبعد ان أعاد نادر شاه إنشاء الامبراطورية الفارسية بالحدود التي كانت لها ايام الصفويين حدثته نفسه بشن حملة في اتجاه الجنوب على دولة المغول الواسعة الغنى في الهند ، وكانت في حال فاضحة من الضعف العسكري. وفي حزيران سنة ١٧٣٧ اجتاح غزْنَه وكابُل في سهولة ويسر ، ثم بعث ابنه رضا قولي إلى فارس نائباً عنه ووصياً على العرش. أما هو فسار بادىء الأمر إلى لاهور فسقطت في يده ، في شباط سنة ١٧٣٩ ، وهنا خرج لقتاله محمد شاه المغولي من دلهي فوقع في اسر نادر شاه بعد ان نزلت بجنده هزيمة ماحقة في ٢٤ شباط سنة ١٧٣٩ . وتابع نادر زحفه الى دلهي ، فدخلها ؛ وفي نوّار اعاد الى محمد شاه سلطته كحاكم بعد أن تنازل هذا للفاتح عن جميع المقاطعات الواقعة شمالي نهر السند. والواقع ان الجزية الهائلة التي فرضها نادر على المغوليّ ، والتي شملت في ما شملت الماسة المشهورة «كوهنور» و «عرش الطاووس» مكنته من اعفاء فارس كلها من الضرائب على اختلافها ، طوال سنوات ثلاث . ووجه نادر همته ، بعد الحملة الهندية ، الى الحدود الشرقية من امبراطوريته ابتغاء إخضاع الاوزبك في بخارى وخُوارِزم ، وكان الهجوم على خراسان دأبهم وديدنهم. ولقد وفق الى ذلك من غير ما اراقة للدماء ، وأعاد الى زعيمهم (ويلقب بالخان) سلطته ، على ان يكون تابعاً اقطاعياً له ، وأكرهه على الاعتراف بأن حدوده اصبحت على نهر جيحون. وفي ١٥ نوار سنة ١٧٤١ جرت محاولة لاغتيال نادر في مازندران ، اثناء الحملة التي شنها على اللاّز في القبق (القوقاز) وقد قيل ان مدبرها كان وليّ العهد رضا. واقتص الشاه من ابنه فسمل عينيه ، لينقلب منذ ذلك الحين الى طاغية لا يزيده كرور الايام الا تعطشاً الى الدماء. وكان الباب العالي قد أبى ان يجيب نادر شاه الى ما طلب من الاعتراف بالمذهب الخامس الجديد الذي أقامه في فارس ؛ فشنّ حملة على الممتلكات العثمانية في الجزيرة الفراتية. ولكن باشا بغداد وفق الى ان يصرف نادر شاه ، بالمفاوضة البارعة ، عما اعتزم من القتال. وهكذا قنع الشاه بالحج

الى مدن العراق المقدسة وحصل على اعتراف رسمي جديد ، من مؤتمر للعلماء عُقد في النجف ، بشرعية المذهب الذي أقامه . وكانت القلاقل الناشبة في داخل امبراطوريته قد عاقته عن السير بهمة اعظم ضد الاتراك في الجزيرة الفراتية ؛ حتى اذا كانت سنة ١٧٤٦ ووجّه اليه السلطان جيشاً جديداً ، قنع على الرغم من نصره الباهر في أريوان ، بأن يعدّل الحدود بينه وبين الدولة لتعود كما كانت عليه عهد مراد الاول ، وأقلع عن مطالبة الباب العالي باقرار مذهبه الجديد ، معلناً اعترافه هو بالسلطان العثماني خليفةً على المسلمين . وليس من شك في ان نادر شاه اخمد الثورات المتواصلة في امبراطوريته في قسوة كانت تزداد ضراوة مع الايام ، بدليل اهرام الجماجم التي تركها وراءه حيثما سارت جيوشه . والحق انه كان يخوض غمار حملة من هذه الحملات عندما اغتيل ، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٤٧ عند فتح آباد في مقاطعة قوجان الكردية بأيدي بعض زعماء قبيلته ، الافشار بالاتفاق مع القاجار ١٤٠ . وخلف نادر شاه ابنُ أخيه عليّ قولي — الذي تسمى بعد ارتقائه العرش عادل شاه — وما هي الا سنة واحدة حتى أضاع امبراطوريته في الحروب التي اضطر الى ان يخوضها ضد الطامعين في العرش ، الشاقين عصا الطاعة في كل مكان . وانما كُتب النصر ، آخر الامر ، لأحد هؤلاء ، كريم خان ، وهو فارسيّ من الجنوب ، من قبيلة زَنْد . والواقع انه حكم الامبراطورية كلها من شيراز ، من سنة ١٧٥٠ الى سنة ١٧٧٩ ، ولكنه كان يعتبر نفسه ممثلاً لاسماعيل الثالث ، آخر سلالة الصفويين ليس غير ، وكان كريم يحتفظ باسماعيل هذا اسيراً في أبادَه . وفي عهده نعمت مدينة الورود [شيراز] بفترة اخرى من الزهو والازدهار ، لا تزال تتمثل للعيان ، حتى اليوم ، في عدد من أجمل مبانيها وأروعها . ومهما يكن من شيء ، فقد انقسمت قبيلته على نفسها ، بعد وفاته ، وغدت طعاماً لنـــار

---

(١٤٠) انظر لوكهارت L. Lockhart. **Nadir Shah, a critical study based mainly upon contemporary sources, London 1938.**

العصبيات الدامية التي مهدت سبيل العرش ، كما سنرى بعدُ ، للقاجار .

واتاح انحطاط الدولة الفارسية السياسي عهداً طويلاً من السلم للامبراطورية العثمانية لم يعكر عليها صفوه احد ، حتى جاراتها الاوروبيات انفسهن . وفي سنة ١٧٥٧ رقيَ العرش سلطان مقتدر هو مصطفى الثالث ، وقد ترك امر الحكم ، في السنوات الاولى من عهده ، لكبير وزرائه راغب باشا الذي وُفق حتى وفاته سنة ١٧٦٣ ، الى ان يقرّ النظام في مالية الدولة ، والى ان يصون الجيش من التفسخ والانحلال . وكان فردريك الكبير يرجو ان يفيد من مساعدته لحمل الباب العالي على أن يشنّ هجوماً على النمسا أثناء حرب السنوات السبع ، وبالفعل عُقدت بين الدولة العثمانية وبروسيا معاهدة صداقة في ٢٩ آذار سنة ١٧٦١ . ولكن السلطان أبى ، بدافع من حبه للسلام وبتأييد من العلماء ، أن يتدخل في هذه الحرب أو يشارك فيها .

الحروب الروسية التركية

والحق ان نشوء المسألة البولندية هو الذي حمل الباب العالي على ان يشارك —كرة اخرى— مشاركة ناشطة في السياسة الاوروبية . وتفصيل ذلك ان استانبول وقفت من محاولة كاترينا اضعاف بولندة موقف المتفرج ، بادىء الامر ، على الرغم من ان الروسيا كانت تساعد الكرج ايضاً على العثمانيين ، وتثير المشكلات والمتاعب في وجه صاحب القرم ، ويلقب بالخان . ولكن حزب الائتلاف * في بولندة نجح آخر الأمر في حمل السلطان على الدفاع عن نفوذه في الشمال الشرقي . حتى اذا جرى تدمير مدينة بالطة على حدود بسارابيا سارع المفتي ، رغم تعلق زملائه بأهداب السلام ، الى الافتاء بضرورة الحرب ضد الروسيا .

عندئذ دفعت الدولة ثمن إهمالها المتطاول للجيش . فقد انزلت القوات

* Confederation Party.

الروسية الهزيمة بالتتار القرميين الذين افتتحوا الحملة بقيادة خان القرم كراي ، ثم استولت على خوتين ، بينا كان الجيش العثماني مرابطاً في دوبريُجه . وفي سنة ١٧٧٠ تقدم الروس عبر البغدان والافلاق الى ان بلغوا نهر الدانوب (الطونه) واحتلوا كيليا وبندر وابراثيل * بعد ان اخذوا من النبلاء الرومانيين يمين الولاء لكاترينا . وفي هذه الاثناء ظهر في بحر إيجه ، لاول مرة ، اسطول روسي عهد اليه في مهمة شاقة هي إشعال الثورة في اليونان ودعم الثوار ضد الباب العالي . وهكذا احتل القرصان الإيجيون عدداً من المواقع الحصينة في الموره ، ولكنهم لم يحسنوا الاحتفاظ بها . وفي تموز ١٧٧٠ وفق الروس الى إضرام النار في الاسطول العثماني ، في خليج جَشْمه ، على ساحل آسية الصغرى . وخيف على استانبول نفسها من هجوم مفاجىء ، ولكن الروس لم يستغلوا انتصارهم هذا .

وسجلت السنة الثانية نصراً آخر كبيراً للروس . فقد استطاعوا بعد هجوم استولوا فيه على برقوب ، أن يخضعوا شبه جزيرة القرم . والواقع ان وساطة بروسيا والنمسا ، التي تنازل الباب العالي لقاءها عن جميع مطالبه في بولندة ، ما لبثت أن أدت الى عقد هدنة بين الفريقين المتنازعين ، في حزيران سنة ١٧٧٢ . ولكن الفريقين لم يستطيعا الانتهاء الى اتفاق في ما يتصل بالحصون القائمة على البحر الاسود ، بالرغم من استعداد الباب العالي للتنازل عن شبه جزيرة القرم نفسها . وكان العثمانيون قد أعادوا ، خلال ذلك ، تنظيم جيشهم حتى لقد صار في ميسورهم ان يصدوا هجوم الروس في البلقان . ثم ان الروس اضطروا الى أن يرفعوا الحصار عن سلستره و « وارنه » والى ان ينسحبوا ، في اواخر سنة ١٧٧٣ ، عبر الدانوب (الطونة) . وكان السلطان قد اعتزم ان يتولى قيادة الجيش بنفسه ، ولكنه ما لبث ان مات في ٢٤ كانون الاول ١٧٧٣ بسبب من مرض ألمّ به .

Braila. *

ورقي عرش السلطنة من بعده اخوه عبد الحميد ولم يكن ذا شأن . وفي تموز سنة ١٧٧٤ سقط الصدر الاعظم محسن زاده في كمين نصب له عند شُملا، ففقد القسم الاعظم من قواته، عن طريق الفرار من الخدمة العسكرية، وكذلك اضطر الى ان يلتمس الهدنة من الفيلد مارشال روميانزوف . وفي كوجك قينارجه ، جنوبي سلستره ، وقعت معاهدة الصلح بين الفريقين في ٢٢ تموز ١٧٧٤ . والواقع ان الباب العالي تنازل في هذه المعاهدة عن اعظم قلاع البحر الاسود شأناً (كَرْجويني قلعة « يكي قلعة » وقين بروني)، وتخلى للروسيا عن قَبَرْطه (قبرطاي) الكبرى والصغرى في القبق (القوقاز) ، ومنح اسطولها حق المرور في الدردنيل . ليس هذا فحسب ، بل لقد أكره فوق ذلك على الاعتراف باستقلال التتار في شبه جزيرة القرم ، وعلى منح العفو العام وحرية العبادة لسكان البغدان والافلاق . وكان اعتبار الباب العالي قد هبط في اوروبة الى حدّ بدا معه وكأن طرد العثمانيين منها بات مسألة وقت . وافادت النمسا من هذه المحنة ، فسلخت بوُقووينه (بوكوفينا) عن جسم الدولة ، بعد عقد معاهدة الصلح مباشرة ، متذرعة بحجة واهية ، فلم يستطع الباب العالي لها دفعاً . وفي سنة ١٧٨٣ أخضعت كاترينا التتار ، فقضت بذلك نهائياً على استقلال شبه جزيرة القرم . ثم ان السلطان أكره على اقرار هذا ايضاً في معاهدة « آيينه لي قَوَاق » سنة ١٧٨٤ .

وما عتمت الفرصة ان سنحت للباب العالي للتعويض مما فقده في حربه مع الروسيا . ذلك بان اهل القبق (القوقاز) من مسلمين ومسيحيين ، ثاروا في العام نفسه (١٧٨٤) على هرقل امير الكرج المستظل بحماية كاترينا . ولكن محاولة الباب العالي استرداد شبه جزيرة القرم تحطمت على صخرة قيادة « سوفوروف » المتفوقة . فقد استطاع هذا القائد ان يدافع دفاعاً ناجحاً عن قين بروني ، حتى اذا كان شهر كانون الاول سنة ١٧٨٨ استولى على اجاقُوف عنوةً بعد ان تم تحطيم الاسطول العثماني في الصيف المنصرم ، على شواطىء القرم . وفي شباط من السنة نفسها اعلن جوزف الثاني امبراطور

النمسا الحرب على الباب العالي ايضاً ، ولكنّ جيوشه لم تتقدم الا تقدماً بطيئاً في الصرب وترانسلفانيا . وفيما كانت رحى هذه الحرب دائرة ، رقي العرش السلطان سليم الثالث ، في ٧ نيسان بعد وفاة عبد الحميد [الاول] فواصلها متكبداً خسائر جسيمة . ومهما يكن من شيء فان الخطر النمسوي لم يُدفع ، لاول مرة ، الا بعد وفاة جوزف الثاني . ثم ان وساطة بروسيا والدول البحرية أدّت الى عقد صلح زِشْتُوَى في ٤ آب سنة ١٧٩١ ، وبموجبه احتفظ الباب العالي بامارات الدانوب حتى أُرسُوْرَهُ . وبعد قتال مستحرّ في بسارابيا والقرم ، وعلى الدانوب ايضاً ، أتبع صلح زشتوى بصلح وقعه الباب العالي مع الروسيا عند ياش ، في ٩ كانون الثاني سنة ١٧٩٢ ، وقضى هذا الصلح بجعل نهر الدنيستر الحد الفاصل بين الدولتين ، وبتنازل السلطان للروسيا عن شبه جزيرة القرم نهائياً .

الحياة العقلية في هذا العصر

وفي ختام القرن الثامن عشر اضطرت الامبراطورية العثمانية الى ان تنتقل انتقالاً كاملاً من الهجوم الى الدفاع ، وبدا واضحاً ان تنافس الدول الاوروبية هو الضمانة الوحيدة لسلامة الاراضي العثمانية في اوروبة . وقد رافق هذا الضعف السياسي الذي تردّت فيه الامبراطورية ضعفٌ موازٍ في حياتها العقلية . ذلك بأن أحداً من سلاطين هذا العهد ووزرائه لم يكن يُعنى ، اقل العناية واضألها ، بالادب . وكان الشعر لا يزال — برغم العداء السياسي بين الدولة وفارس — خاضعاً لسلطان الروائع الفارسية الكلاسيكية ، وان تكن قد ظهرت بعض المحاولات الفردية الرامية الى ادخال الاسلوب الشعبي التركي على الادب . ولكنّ آلام العصر لم تعدم بين الشعراء من يعبر عنها ، شيئاً ما ، في مناحات مريرة وفي مقطوعات تنتقد الاحوال الاجتماعية السيئة انتقاداً لاذعاً . اما في النثر فقد طما سيل الصناعة اللفظية المتكلفة شيئاً بعد شيء . ولم يشذّ عن هذه القاعدة غير كتاب « سياحتنامه » الذي

روى فيه أوليا جلبي المتوفى بعد سنة ١٦٧٩ بقليل ، قصة رحلاته واسفاره ؛ وهو كتاب بارع لم يحظ ، لهذا السبب بالذات ، بحظ وافر من تقدير معاصريه . ولقد تحدّر اوليا جلبي هذا من اسرة عريقة في الجندية ، فشارك هو نفسه في الحروب التي دارت رحاها في الروسيا وترانسلفانيا والمجر . اما في فترات السلم فقد طاف ارجاء الامبراطورية كلها ، حتى سورية ومصر جنوباً . ونحن اذا ما اخذنا عليه إيثاره للقصص الموضوعة على ألسنة الحيوان وللخوارق والمعجزات فليس من ريب في ان كتابه هذا عملٌ فريد بما ينتظم من مادة غزيرة عن أحوال الامبراطورية العثمانية ، لا في الأدب العثماني فحسب بل في الثقافة الاسلامية جميعاً . والواقع ان القرن الثامن عشر حفل ، الى جانب «سياحتنامه» ، بجمهرة صالحة من كتب الرحـــلات ، ككتاب «رسمي» عن انطباعاته كسفير لدى بلاد فردريك الكبير مثلاً ، ولكنّ أحداً من اصحاب هذه الكتب لم يكن ليضاهي جلبي في وصفه الرشيق وصوره النابضة بالحياة .

الإسلام في القرن التاسع عشر

الامبراطورية العثمانية ومصر

ولم يكد ينقضي القرن الثامن عشر ويبزغ فجر القرن التاسع عشر حتى كانت الامبراطورية العثمانية ، التي ما فتئت تتصدر لمقام القيادة في العالم الاسلامي ، قد انتهت إلى الدَّرْك الأسفل من الضعف والانحطاط . فقد سبق لجارتيها الشماليتين ، النمسا والروسيا ، ان انتزعتا منها عدداً صالحاً من ممتلكاتها الهامة . ففي آسية كانت امبراطورية القياصرة قد اندفعت إلى الامام حتى لبلغت حدودَ [الدولة العثمانية] بعد تنازل الملك هِرَقْل صاحب بلاد الكُرْج (جورجيا) عن العرش سنة ١٧٨٤ . وكانت سوريا ومصر قد انتهتا إلى ما يقارب الاستقلال في ظل [احمد] باشا الجزار والمماليك . وفي أوروبة ، أطلعت النزعة الاستقلالية رأسها بين « الرعايا » ، على اختلاف الشعوب والأوطان . وكان الجيش قد انتهى إلى غاية من الفساد والتفسخ بعيدة ، بعد ان انهارت ، منذ زمن طويل ، تلك المؤسساتُ التي قام على أسسها ، مجدُهُ القديم .

عهد « التنظيمات »

وكان طلب الاصلاح (تنظيمات) يطغى — بصرف النظر عن عدد من حركات الارتداد — على السياسة الداخلية في الامبراطورية . فقد كان

ثمة رغبة في أن تفيد الامبراطورية من تلك المؤسسات التي كانت تُعتَبَرُ اساساً لتقدّم الشعوب الأوروبية وامتيازها ، من غير أن يكون في هذه الافادة ما يطغى على صفة الامبراطورية الاساسية . والحقّ ان الاصلاحات بدأت ، أولَ ما بدأت ، في الجيش الذي كان يؤلّف – على أية حال – آساس الدولة برمتها . وهكذا انتقل طغيان العسكرية والعسكريين – ذلك الطغيان الذي قُيض له أن يقرر مصير جميع التطورات التالية – إلى الطريقة التي كيّف بها العثمانيون أنفسهم للمدنية الاوروبية وطغى عليها . وكان الاصلاح العسكريّ يستهدف ، في المحل الاول ، إنشاء جيشٍ جديد ذي فعاليّة صحيحة يحلّ محل الانكشارية الذين انتهوا ، منذ زمن بعيد ، إلى ان يكونوا بلاء العاصمة ، بعد ان كانوا ، في سالفات الايام ، درعها الواقي . والواقع ان السلطان سليم الثالث حاول قبل ذلك إنشاء جيش جديد . وإذ كانت الديبلوماسية الفرنسية لا تزال ، حتى بعد الثورة ، واسعة النفوذ في بلاطه ، فقد اتخذ المؤسسات الفرنسية نموذجاً يحتذيه بارشاد من سفير نابوليون [في الاستانة] الجنرال سباستياني * . ولكنّ الانكشارية ما لبثوا ان تآمروا مع حاميات قلاع البوسفور – حتى قبل أن يتمّ تدريب هذا الجيش ، وقبل ان يكون في الامكان الافادة منه في إخضاع احدى الثورات الناشبة في البلقان – واكرهوا السلطان على التنازل عن العرش ، في ٢٩ نوار سنة ١٨٠٧ ، بعد ان استاقوا جميع أنصار الاصلاح إلى ميدان السباق (آت ميدان) حيث أعملوا السيف في رقابهم .

الثورة في بلاد الصرب واليونان

ولم يوفّق ابن عمه مصطفى الرابع – وكان يستمدّ التأييد من العناصر الرجعية في الجيش طبعاً – إلى ان يحتفظ بالعرش أكثر من عام واحد ، ليخلعه بعد ذلك حاكم سِلِسْتْرَه مصطفى بَيْرَاقدار . ولما كان سليم قد

---

* Sébastiani

أورد قبل ذلك مورد الردى ، فقد خلفه على العرش أخوه محمود الثاني . ولكن الرجعية كانت على جانب عظيم من القوة ، ما تزال ، حتى لقد اضطرّ بيراقدار إلى أن يرضخ أمامها ، كذلك اضطر محمود ، بسبب من إخفاقه المتعاقب في السياسة الخارجية ، إلى أن يرجىء إنفاذ خططه الاصلاحية التي جعلته منشىء تركية الحديثة . فقد خسر ، في حرب خاضها ضد الروسيا ، كلاً من نيقوبوليس وسيليستره وروسْجق ، ولم يحمل القيصرَ على توقيع صلح بخارست (٢٨ نوار سنة ١٨١٢) — وهو الصلح الذي اعترف فيه بنهر البروت حداً فاصلاً بين الروسيا والدولة ، والذي أعلن فيه رغبته عن ايّما توسع جديد في المستقبل — إلا خوفه من حرب يشنها نابليون على بلاده . ليس هذا فحسب ، بل لقد كان ثمة خطر يتهدّد الدولة العثمانية بأكثر مما تهدّدها ذلك كله ، أعني ثورات « الشعوب الرعايا » [في اوروبة] . فمنذ سنة ١٨٠٤ كان الصّرب قد أعلنوا الثورة على الدولة بقيادة قَرَه جورج * (قره‌يوركي) . ولقد استطاعوا ، في الحملة الأخيرة ، ان يقدّموا الى الروس مساعدةً فعّالة فأثابهم القيصر على ذلك بأن اشترط منحهم شبه استقلال داخلي ، وحق التقاضي أمام محاكمهم الخاصة ، في معاهدة الصلح . وإذْ لم يحرَّروا من ربقة الجزية الالزامية — وكانت أثقل ما يُنقض ظهورهم — فقد واصلوا النضال ضدّ الدولة ، حتى إذا فرّ قره‌جورج إلى النمسا قام مقامه ميلوش أوبرنوويج ** . وفي سنة ١٨٢٠ اندلعت نار الثورة اليونانية التي اذكتها الحماسة الاوروبية للهلينية ، والتي لم تحرم البابَ العالي مقاطعة لم يكن لها بالنسبة اليه أهمية عظمى ، فحسب ، بل كادت بخاصة إلى مشكلات ديبلوماسية لا حد لها ، أيضاً . ومهما يكن من شيء فقد وفق السلطان إلى القضاء على استقلال « الاعيان » في الروم إيلي والزعماء ***

---

* Karageorgios

** Milosh Obrenovich

*** وكان الواحد منهم يعرف بلقب « دربك » أي « أمير الوادي » . (المعربان)

في الأناضول ، والى توطيد هيبة الحكومة المركزية في الولايات .

محمود الثاني يقضي على الانكشارية

وفي هذه المعارك جميعاً أقام الانكشارية الدليل على انهم لا يقدرون على شيء . ولكن السلطان محموداً احسن الافادة من فترة الانتظار التي فرضتها عليه العناصر الرجعية فأسند معظم المناصب الرئيسية ، شيئاً بعد شيء ، إلى رجال مخلصين له شخصياً . حتى إذا وافى ربيع سنة ١٨٢٦ استطاع آخر الامر استئناف العمل لانفاذ خطط السلطان سليم [الثالث] . وهكذا أصدر أمره – في ظل من حماية الجيوش الاناضولية التي كان حاكم بينقوز (بيكقوز) قد حشدها على الضفة الشرقية من البوسفور – بانشاء جيش نظاميّ جديد أُطلق عليه اسم « مُعَلَّم أشْكينْجِي » (الحرس المدرَّب) . وانما بعث اليه بالمدربين الذين اقتضاهم انشاء هذا الجيش محمد علي والي مصر . ولقد استطاع ان يكتسب إلى جانبه ضباط الانكشارية فأقروا خططه الاصلاحية ، في حين ازدادت معارضة من دونهم من الجند ، لهذا الاصلاح شدّة وحدّة . وحُدد يو م ١٨ حزيران موعداً لعرض الجيش الجديد في كِآغد خانه قرب استانبول . ولكي يحول الانكشارية دون هذا العَرض ، فقد شقوا عصا الطاعة قبل ميقاته الموعود بثلاثة أيام ، واكتفوا بادىء الأمر بالمطالبة بالغاء قوانين التدريب المستحدثة للجيش الجديد . ولكن السلطان أمر ، بموافقة « العلماء » ، بأن تُنشر الراية النبوية ، وكأنه يبغي قتال فئة من الكفار ، وأوعز إلى الجيش ، بعد ان حُشد على وجه السرعة ، بتطويق الانكشارية في ساحة آت ميدان القائمة تجاه ثكناتهم . ولفظ المفتي اللعنة عليهم ، ومن ثم دارت رحى مجزرة لم يسلم من هولها احد منهم ، وقُتل نحو الف من الانكشارية في الاقسام الاخرى من المدينة . وأُلقيت رايتهم ، ولباسهم الفارق الخاص ، أي القلنسوة ، في الوحول ، وهُدّمت مساجدهم ومقاهيهم التي ألفوا غشيانها . ليس هذا فحسب ،

بل حلّت الطريقة البكتاشيّة المتصلة بالانكشارية ، كما حلّت فرق الاطفاء والحمالين ذات الصلة الوثيقة بها . والواقع ان الدولة لم تُغفل رجال المدفعية وحرس البوسفور ، الذين تعلقوا هذه المرة بأهداب الولاء على الرغم من انهم كثيراً ما أيدوا الانكشارية وتضامنوا معهم ، فقضت على كل امرىء منهم آنست فيه ميولاً رجعية أو ظنت به ذلك .

ولكن الدول الغربية لم تدع للسلطان وقتاً يجني فيه ثمرات هذا الاصلاح الدامي . ففي ٧ تموز سنة ١٨٢٧ عقدت فرنسة وانكلترة والروسيا الحلف الثلاثي ، الذي انضمت اليه بروسيا بعدُ ، ابتغاء اكراهه على تحرير الشعب اليوناني بعد ان حمل ابراهيم باشا بقواته المصرية الاضافية ، حملة ثقيلة على الثوار في الموره . وكانت آخر حصونهم ، ميسُولُونِكي ، قد اضطرت إلى الاستسلام في ٢٣ نيسان سنة ١٨٢٦ بعد حصار دام ستة اشهر ، وبرز اسطول السلطان في ساحل الموره حاملاً إلى ابراهيم نجدات تتألف من اربعة آلاف جندي من المشاة ، وخمسمائة من الفرسان ، وألقى مراسيه أمام ثغر ناوارين . ولكن وحدات من أساطيل البحر المتوسط التابعة للدول المتحالفة تصدت له هناك ، وحظرت على ابراهيم ، وكان قد تولى قيادته ، القيامَ بأي عمل عسكري جديد على الساحل اليوناني . حتّى إذا أبى ابراهيم ان ينصاع لهذا التدخل المتعارض مع سيادة سلطانه العسكرية العليا ، وقعت في ٢٠ تشرين الاول تلك المعركة البحرية الفاجعة التي حُطم فيها الاسطول العثماني ، المؤلف من أكثر من مئة قطعة ، تحطيماً كاملاً ، خلال اشتباك استغرق ست ساعات .

واستجاب الباب العالي لهذا الهجوم الوحشي الذي تم في رابعة السلم ، فاستولى على جميع القطع البحرية الأجنبية الراسية في القرن الذهبي . وبعد مفاوضات مخفقة غادر ممثلو الحلف الثلاثي استانبول في منتصف كانون الاول . ولكن الحرب على الباب العالي لم تُعلن — وقد افتتحها الروسيا بعد استعداد ضخم — إلا في نوار من السنة التالية . والواقع ان جيوشها

عجزت ، خلال السنة الاولى ، عن احراز تقدم ما ، سواء في البلقان أو في القبق (القوقاز) . فلما كان ربيع سنة ١٨٢٩ تولى الامير دِيبِتْش * قيادة الجيوش الروسية في أوروبة . فحاصر شُمْلا ، التي وقفت تقدُّمَهُ من قبل ، وتابع تقدمه حتى أدْرِنة ، حيث أملى شروط معاهدة الصلح على السلطان في ١٤ ايلول . وقنعت الروسيا ، في هذه المعاهدة ، بتخلي العثمانيين عن جزر الطونه (الدانوب) والمقاطعات التركية الواقعة في القبق (القوقاز) بين ولايتي ايمَرَتْيا وجو جيا (بلاد الكرج) ولكن السلطان أكره على الاشتراك في معاهدة لندن وبكلمة أخرى ، أجبر على الاعتراف باستقلال اليونان .

محمد علي والي مصر

بينا كان محمود لا يزال منهمكاً في العمل على زيادة فعالية الدولة من طريق الاصلاحات ، ولكن على غير طائل ، كان تابعه المصري محمد علي ، قد سبقه في هذا السبيل سبقاً بعيداً . وانما وُلد هذا الرجل ، وهو أعظم الشخصيات التي عرفها الاسلام الحديث شأناً ، في كانون الثاني سنة ١٧٦٩ ، في قَوالَه على الساحل المقدوني ، حيث كان عمه يشغل منصب « مُتسلم » (نائب الوالي) . وفي « ديوان » عمه هذا تمرس محمد علي بالاعمال والمعاملات من غير ان يحظى بتربية مدرسية صحيحة . حتى إذا بلغ سن العشرين كان قد نجح في تجارة التبغ وعَقْد الصفقات فيها . والتبغ مادة التجارة الرئيسية في بلده الأم . ومهما يكن من شيء فقد كانت تلك المقاطعة النائية أضيق من أن تسع طموحه البعيد .

وفي مصر ، كان المماليك قد احتفظوا بقوتهم حتى بعد الفتح العثماني ، عهدَ السلطان سليم ، سنة ١٥١٧ . وكانت الامبراطورية العثمانية لا تعلق ، في الجملة أيما أهمية على هذه البلاد إلا من حيث كونها قاعدة عسكرية تساعدها

---

* Diebitch

على الاحتفاظ بسيطرتها على سورية وبلاد العرب ، هذا بالاضافة إلى ما كانت تقدمه إلى الباب العالي من جزية . ولم تُجذب مصر إلى دائرة التاريخ العالمي إلاّ عندما تطلّع اليها نابليون بثاقب نظره ، كمركز للوثوب على الحكم الانكليزي في الهند . وفي سنة ١٧٧٨ عقدت بريطانية معاهدة تجارية مع زعيم المماليك علي بك الذي سبق ان احتفظ باستقلاله عن الباب العالي فترة قصيرة من الزمان ، صيانة لملاحتها في البحر الاحمر . وفي تموز سنة ١٧٩٨ جرد نابليون حملته على مصر بحجة أن سوء ادارة المماليك كان يعرّض ممتلكات المواطنين الفرنسيين للخطر ، فقضى بما تم له من نصر قرب الاهرام قضاء موقتاً على سلطتهم ، بالرغم من ان انتصار نلسون عند ابي قير ، غرة شهر آب ، كان قد جعل مركز الفرنسيين في الديار المصرية حرجاً يتعذر الدفاع عنه . ولم يكن في استطاعة السلطان سليم الثالث — على قلة ما أبداه من اهتمام بشؤون مصر في الماضي — ان يمر بهذا الاعتداء على سيادته مراً كريماً . وهكذا وجّه صيف سنة ١٧٩٩ ، بضع سفن حاملة جنوداً إلى مصر . وكان على عم محمد علي ان يبعث إلى مصر أيضاً بكتيبة مؤلفة من ثلاثمائة رجل ، فعهد في قيادتها الى ابنه الصغير وعيّن محمداً علياً مستشاراً له . ولم تكد الكتيبة تبلغ ارض مصر حتى تولى محمد علي القيادة الرسمية أيضاً . ثم انه أبدى من المقدرة — في المعارك التي تلت والتي اكرهت الفرنسيين على الجلاء عن مصر في آب سنة ١٨٠١ — ما ساعده على الوثوب دفعة واحدة إلى مقام القيادة العامة . وكان خُسْرَو ، وهو في الاصل من الارقاء الأبْخازيّين. قد عُين « باشا » بعد انسحاب الفرنسيين من مصر . واذ قد انغمس وشيكاً انغماساً كلياً في مؤامرات البلاط [العثماني] فقد انتهت مصر إلى ان تعني بالنسبة اليه مجرد درجة دنيا في سلّم مطامحه ، ومن هنا جعل همه السعي لمغادرة البلاد في وقت قريب حاملاً معه أضخم ما يستطيع جمعه من ثروة . ولما كان محمد علي يأخذ جنوده الالبانيين [الأرنأوط] بنظام أشد مما كان الوالي يفرض على جنوده ، فقد وفّق شيئاً بعد شيء الى إخضاع مصر السفلى

برمتها لسلطته ، وذلك من طريق إثارة المماليك ، في كثير من البراعة ، على خسرو . وفي سنة ١٨٠٣ دعي هذا الاخير إلى ترك منصبه ، وكان قد أمسى شحيح الموارد ، قليل العائدة . ولم تطل ولاية خلفه غير بضعة أشهر ، إذ ما لبث محمد علي أن أعلن نفسه ، بواسطة علماء الازهر في القاهرة ، صاحب السلطان الشرعي ، وكان الازهر قد انتهى ، منذ قرون ، إلى ان يصبح مثابةَ الشرع والفقه ، في نظر العالم الاسلامي . وفي تشرين الثاني سنة ١٨٠٥ أمسى محمد علي سيد البلاد الفعلي ، من أقصاها إلى أقصاها . فلما كان شهر نيسان سنة ١٨٠٦ تعين على الباب العالي أن يعترف به ويُقره والياً . ولقد ترك المماليكَ يحكمون مصر العليا ، فترة من الزمان ، لقاء جزية ضخمة يدفعونها اليه . حتى إذا شرعوا في مفاوضة بريطانية — وكان قد هزم جيوشها التي حاولت النزول إلى البر عند رشيد في نيسان سنة ١٨٠٧ — دعا زعماءهم إلى القاهرة (آذار ١٨١١) زاعماً انه يبتغي استشارتهم في أمر حملة يعتزم شنها على الوهابيين في بلاد العرب . وهناك اعمل السيف في رؤوسهم ، في ١١ من الشهر نفسه ، وكانت عدتهم ثلاثمائة رجل .

وهكذا دانت مصر لمحمد علي كما لم تدِنْ لحاكم آخر من قبله . بيد ان جنوده الألبانيين [الأرنأوط] الذين كانوا لا يزالون خاضعين خضوعاً بعيداً لتأثير الروح العثمانية ، لم يبرهنوا عن كفاءتهم في الحملات التي شنها ضد الوهابيين ، والتي شغلته حتى سنة ١٨١٥ . حتى إذا سعى إلى أخذهم بأشد النظام وأصرمه ، نشبت في القاهرة سنة ١٨١٦ ، فتنة ما لبثت ان أخمدت ، في سهولة ويسر . ثم ان محمداً علياً سرح القوات الالبانية بالكلية ، واستعاض عنها بالفلاحين الذين دعاهم إلى الخدمة العسكرية . وبهذا الجيش الجديد المزوّد بالسلاح الاوروبي والمدرب على الاسلوب الفرنسي باشراف الكابتن سيف *، الذي نال فيما بعد لقب « باشا » ، استطاع محمد علي

* Sève

اخضاع النوبة ، وسنّار ، ودُنقُلَة * ، ودارفُور في سلسلة من الحملات التي لم تكن في حقيقتها شيئاً أكثر من غزوات تهدف إلى استرقاق العبيد .

ووجّه محمد علي همّته ، في الوقت نفسه ، إلى النهوض بالبلاد من الوجهة الاقتصادية . فلم يكتف بتجميل القاهرة والاسكندرية بعدد كبير من المباني المشيدة على الطراز العثماني ، بل اتم فوق ذلك انشاء مرفأ الاسكندرية ووصله بالفرع الغربي من النيل بواسطة قناة أمر بشقها . ولكنه نظر إلى البلاد نظرته إلى ملك خاص كان همه الأوحد السعي إلى أن يجني منه أعظم محصول مستطاع . وفي سنة ١٨١٥ وضع يده على كامل محاصيل القطن والقنب والكتان ، ليضعها بعد سنتين على محاصيل النيلة والسمسم والنباتات الزيتية الأخرى . ولكن هذه الموارد لم تستطع ، على غناها ، ان تشبع مطامعه . وكان قد صادر منذ سنة ١٨١٢ جميع الاوقاف الدينية والاقطاعات كافة . ثم الف لجنة للتحقيق في صحة «كواشين» العقارات . وقد تعيّن على كل من لا يملك «كوشاناً». صحيحاً — وكانت كثرة الفلاحين الذين توارثوا العقارات جيلاً بعد جيل مفتقرة إلى ذلك — ان يحرث أرضه منذ اليوم بوصفه مزارعاً لا مالكاً . اما الارض فأصبحت ملكاً للباشا . ليس هذا فحسب ، بل لقد سخّر ، وفقاً للعادة الشرقية القديمة ، جميع النجارين والبنائين لينشئوا له اسطولاً ، واشترى جميع الخشب المستورد بأسعار محددة . والحق ان سياسته الجمركية الخاطلة التي استشعر جمهور الاهلين شدة وطأتها بسبب من انصبابها على السلع المستوردة من البلدان الاسلامية الأخرى بأكثر وأثقل من انصبابها على السلع الاوروبية ، ما لبثت ان أدت إلى ارتفاع لا يطاق في نفقات المعيشة .

أما نِعَم الحضارة الاوروبيـــة وبركاتها فقد أبدى محمد علي اعجاباً شديداً بها ، ما دامت تساعده على الارتفاع بقدرة بلاده على الانتاج .

---

* وجاءت أيضاً على دمقلة ودنكلة . (المعربان)

وكان أول ما انشأ من معاهد التعليم ، على الأسلوب الاوروبي ، مدرسة لتعليم الرياضيات اصطُنعت فيها اللغة الانكليزية اداة للتدريس . أما فيما عدا ذلك فقد كانت اللغة الفرنسية هي المعتمدة . والواقع انه استعان بعدد من الرجال الذين انصرفت همتهم ، في تفانٍ واخلاص ، إلى خدمة البلاد وتحسينها ، ولكن كان عليه ، إلى جانب ذلكٌ ، أن يتخلص لقاء ثمن باهظ من جمهرة من الدجالين المخادعين قبل ان يقع على رجل كفء يستطيع أن يعهد اليه في تنظيم مصانعه . وعلى الرغم من جميع الاخطاء التي حفلت بها سياسة محمد علي الانانية ، فليس من شك في ان الفضل يرجع اليه ، دون غيره ، في فتح أبواب مصر لمؤثرات الحضارة الاوروبية .

واستثارت قوة محمد علي المتعاظمة جزع استانبول ، وخوفها من ان يتخطى ، عاجلاً أو آجلاً ، حدود مركزه كحاكم اقليمي ، حتى في علاقاته مع البلدان الأجنبية أيضاً . والحق انه سعى إلى ان يجتنب ، بادىء الامر ، كل ما قد يدل على اهمال لواجبه نحو السلطان أو تضاؤل في احترامه له . وهكذا قدم اليه ، عن طيب خاطر ، مساعدة عسكرية على الثوار اليونان . وقاد ابنه ابراهيم بقايا الاسطول الامبراطوري المحطم في ناوارين إلى الاسكندرية مع السفن المصرية ، ليصار إلى تجديدها هناك . حتى إذا أمره الباب العالي بأن يبعث بكل من الاسطول التركي والمصري إلى استانبول سارع إلى تهدئة السلطان واسترضائه بمبلغ من المال أرسله اليه ، وهو ما كان دائماً موضع ترحيب من السلطان . ولقد أقطعه هذا الاخير جزيرة إقريطش (كريت) نفسها لقاء تحمّله تبعة قسم من الديون التي جرّتها على السلطان الحرب العثمانية الروسية .

ابراهيم يفتح سورية

ولكن جميع الدول الكبرى التي نبعت من قبل في مصر لم تجد بداً من ان تبسط سلطانها نحو سورية . وكان السلطان قد وعد محمداً علياً بأن يمنحه

تلك البلاد ايضاً جزاء مساعدته له في الحرب اليونانية ، ولكنه اخلف الميعاد . ومهما يكن من شيء فلم يخطر لمحمد علي قط ان يتخلى عن سورية ، وما هي إلا فترة حتى وجد ذريعة للاشتباك مع باشا عكا . ذلك ان فلاحي مصر ، الذين كانوا ينوءون تحت عبء سياسة محمد علي الريفية ، أخذوا يهاجرون زرافات زرافات إلى البلاد الشامية . ولم يكن في ميسور محمد علي ، طبعاً ، ان يقرّ بأن لرعايا السلطان حرية التنقل في انحاء الامبراطورية .

وفي خريف سنة ١٨٣١ سيّر محمد علي جيشاً بقيادة ابنه الى سورية فطوّق عبد الله باشا في عكا . ولكن حصار القلعة تطاول حتى نوّار من السنة التالية على الرغم من المساعدة التي أسداها الاسطول إلى القوات المصرية المحاصرة . وطالب محمد علي — جواباً على أمر ، معتدل اللهجة ، وجّهه اليه الباب العالي بسحب جيوشه — بان تقطعه الدولة ولايتي عكا ودمشق . وفي الوقت نفسه وفق ابراهيم ، بمساعدة أمير لبنان بشير الشهابي الذي انضم اليه بعد تردد طويل ، إلى ان يخضع فلسطين بكاملها . حتى إذا سقطت عكا بدورها ، في ٢٦ نوار سنة ١٨٣٢ ، صار في مقدور ابراهيم ان يتقدم حتى أطنه عاصمة قيليقية من غير ان يلقى مقاومة ما . وكان السلطان قد استعد ، في هذه الاثناء ، لمناجزة تابعه الثائر ، فوجّه نحو الجنوب جيشاً مؤلفاً من خمسين الف رجل بقيادة حسين باشا ، وهو انكشاري سابق . وكان حسين على خلاف مع وزير الحرب ، خسرو باشا ، وقد تمكن خسرو هذا من من ان يضمن تعيين محمد باشا ، ولده بالتبني ، رئيساً لأركان الحرب في جيش حسين باشا . ولكي يسبق محمد هذا رئيسه إلى اكاليل النصر المنتظرة تقدم بسرعة إلى حمص ، حتى إذا تصدى له المصريون هناك خاض غمار المعركة ، في الحال ، بجيشه المتعب الجائع . وما هي إلا اسويعات حتى ضمن ابراهيم النصر . وبعد ان التحق محمد برئيسه دارت معركة ثانية عند مجاز بَيْلان الذي يخترق الأمانوس ، فكُتب النصر هنا أيضاً للمصريين بفضل خطط ابراهيم المتفوقة . وانقلب حسين إلى قَرَمَان ، حيث تعين عليه ان يتخلى

عن إمرة الجيش للقائد الجركسي رشيد باشا . وما كان ابراهيم ليتباطأ في تقدمه بسبب من قسوة الشتاء التي لم تعتد قواته الصبر على مثلها ، فهزم الاتراك ، للمرة الثالثة ، عند قونية ، في ٢١ كانون الاول ، فانفتحت أمامه الطريق إلى البوسفور . ولكن الدول الاوروبية ما كانت لتسمح بذلك . فبعثت الروسيا عمارتين من اسطولها لمساعدة السلطان ؛ وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٣٣ عقدت في كوتاهيـَه ، في مقر قيادة ابراهيم ، وبوساطة الديبلوماسيين الروس والفرنسيين ، معاهدة صلح ضمنت لمحمد علي ضم سورية إلى ولايته . حتى إذا طالب بأن يُمنح مقاطعة أطَنَه في قيليقية ، علاوة على ذلك ، أجابه السلطان إلى ما طلب . ولكن الديبلوماسية القيصرية استطاعت ، قبل أن يبرح الاسطول الروسي البوسفور ، ان تحمل الباب العالي على توقيع معاهدة « خُونكَار أسكِلَه سي » في تموز سنة ١٨٣٣ ، وبمقتضاها أخذت كل من الدولتين عهداً على نفسها بتبادل المساعدة في حالة الاعتداء على إحداهما . وإذ كانت هذه المعاهدة تتضمن ملحقاً سرياً أعفى الباب العالي من أيّما التزام آخر مقابل وعده باغلاق الدردنيل إذا اقتضت الحاجة في وجه جميع الدول ما عدا الروسيا ، فقد انحدرت الدولة العثمانية ، في الواقع ، إلى نوع من التابعية للروسيا .

وفي سورية ، استُقبلت قوات ابراهيم استقبال المحرر المنقذ ، تقريباً ، من قبل الاهلين الرازحين تحت نير الادارة العثمانية الفاسدة . ولكن الاستياء المرير ما لبث ان اتخذ سبيله إلى نفوس السوريين . صحيح ان الادارة المصرية السديدة قد وضعت حداً للضرائب الاضافية العديدة التي اعتاد الموظفون الاتراك ان يملأوا بها جيوبهم ، ولكن السوريين خسروا ، لقاء ذلك ، البقية الباقية من حريتهم الشخصية . وكان الحكم المصري في سورية قد استُهل بتجريد السكان من سلاحهم تجريداً عاماً شمل دروز لبنان أيضاً نتيجة لخيانة امرائهم أنفسهم . وفُرضت الخدمة العسكرية العامة في قسوة بالغة ، وشعر السكان بعبء الضرائب الفادحة أكثر فأكثر لا سيما وأن

هذه الضرائب كانت تفيض إلى مصر دون ما انقطاع أو نقصان . وما هي إلاّ أشهر معدودة حتّى انقلب الرأي العام انقلاباً تاماً على ابراهيم ، وأخذه الحنين إلى الحكم العثماني ، على الرغم من انه انقضت سنتان تقريباً قبل أن يجرأ الاهلون الراسفون في أغلال العبودية ، على أن يعلنوا الثورة في وجه القوة العسكرية المنظمة التي يملكها سيدهم الجديد . وفي نوار سنة ١٨٣٤ اندلعت بين الفلاحين في جبال نابلس وحبرون ، نار ثورة أورثت ابراهيم عنتاً كبيراً بسبب من وعورة البلاد وصعوبتها . والواقع انه لم يوفق ، آخر الامر ، إلى اخماد هذه الثورة الخطرة إلا من طريق الخيانة .

الحركة الوهابية في بلاد العرب

ولم يحالف التوفيق محمداً علياً في شبه الجزيرة العربية بقدر ما حالفه في مصر وسورية . فهناك اصطدمت سلطته بحركة انبعاث وطنية كبرى . وتفصيل ذلك انه ولد في نجد ، المرتفعة في قلب الجزيرة ، محمد بن عبد الوهاب من قبيلة تميم ، ما بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، فنشأ محباً للعلم ، واقفاً نفسه على دراسة الفقه والشريعة ، وقصد وفقاً للعادة القديمة ، إلى عواصم الشرق الاسلامي طلباً للعلم في مدارسها . وفي بغداد درس محمد فقه احمد بن حنبل ، مؤسس آخر المذاهب السنية الاربعة الذي دافع ، في شدة وثبات ، عن مبدأ الأخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتماداً كلياً ضد نزعة الفقهاء السابقين إلى الاخذ بالرأي . ثم انه درس مؤلفات احمد بن تَيْمِيّة الذي كان قد أحيا ، في القرن الرابع عشر ، تعاليم ابن حنبل . والواقع ان دراسته لآراء هذين الامامين انتهت به إلى الايقان من ان الاسلام ، في شكله السائد في عصره — وبخاصة بين الاتراك — مشرب بالمساوىء [التي لا تمت إلى الدين الصحيح بنسب] . فلما آب إلى بلده الاول ، سعى أول ما سعى ، إلى أن يعيد إلى العقيدة والحياة الاسلاميتين صفاءهما الاصلي ، في محيطه الضيق . ولكنه

لم يكد يشجب مظاهر التقديس التي كان يحاط بها سعد ، وهو الولي الخاص بمسقط رأسه عُيَيْنَة ، ويفرض بين أتباعه القصاص المفروض على الزانية — أي الرجم — (وكان هذا القصاص قد أهمل على الرغم من نص الشارع عليه) حتى نفيَ من البلاد . وفي سنة ١٧٤٠ التجأ إلى محمد بن سَعود ، وكان خصماً لشيخ عيينة يقيم في بلدة محصنة هي الدَّرْعيّة ، الباعدة ست ساعات فحسب عن عيينة ، بوصفه شيخاً لعشيرة عَنَزَة . وهناك لقي محمد حفاوة وترحيباً . حتى إذا انقضت فترة قصيرة اكتسبت تعاليمه انصاراً ومريدين . ولقد شجب تقديس الرسول والاولياء على اختلاف صوره — وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قرون ، تقليداً للنصرانية وبعض الطقوس الدينية الاكثر بدائية — رامياً بالشرْك اولئك المسلمين الذين يشاركون في هذا التقديس ، والذين يقضي القرآن بحربهم حتى يرجعوا عن غيهم أو يُبادوا . وأخذ محمد أتباعه بأداء صلاة الجمعة ، في صرامة لا تعرف الرحمة ، ونهى عن كل زينة في اللباس ، وعن لبس الحرير بخاصة ، وحرّم أيمّا تزيين أو زخرفة للمساجد والاضرحة . ليس هذا فحسب ، بل لقد توسع في فهم التحريم الاسلامي لمختلف ضروب المسكر ، فحرم تدخين التبغ الذي أعلن جميع الفقهاء تقريباً ، من الحنابلة وغير الحنابلة ، معارضتهم له أول دخوله إلى بلاد الشرق . والواقع ان هذا المُصلح لم يكن يتمتع من خصب الافكار ، أو الابتكار ، بأكثر مما كان يتمتع به الرسول نفسه * بيد انه كان كالرسول قادراً على إلهاب نار الحماسة في قلوب أصحابه وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب في سبيل قضيته . وفي مدى عشر سنوات وفق محمد بن سَعود إلى أن يخضع ، لسلطته وللمذهب الجديد ، رقعة من الارض مساحتها نحو من ثلاثين ميلاً مربعاً . ولم يحشد خليفة امير الأحساء ، الذي أخرج المصلح يوماً من عُيينة ، قواته للنضال

---

* سبق ان علقنا على كثير من آراء المؤلف في السيرة النبوية والعقيدة الاسلامية ...
(المعربان)

ضده إلا في سنة ١٧٥٧ ، ولكنه هُزم فاستولى الوهابيون على إمارته ، وانتشروا منذ ذلك اليوم في اتجاه الغرب أيضاً . حتى إذا توفي محمد بن سعود سنة ١٧٦٥ خلفه ابنه عبدالعزيز ، وكان قد لمع نجمه في الحروب التي دارت على عهد أبيه . فواصل سياسة الفتح التي بدأها والده ؛ حتى إذا وافت سنة ١٧٨٨ انتهى في تقدمه إلى الكويت ، وهي الثغر الوحيد على الساحل الشمالي الشرقي من بلاد العرب . وكان قبل ذلك بعام قد جعل حق الخلافة في بيته بأن ثبّت ابنه سعوداً خليفة له في حشد عظيم من الناس ترأسه محمد بن عبدالوهاب . حتى إذا توفي هذا الاخير سنة ١٧٩٢ خلفه ابنه أيضاً في منصبه الديني ، اعني الافتاء .

ومع الايام انتهى تعاقب الوهابيين إلى ان يكون مدعاة قلق وإزعاج لجيرانهم . والواقع ان الشريف غالب – الذي حكم هو وأسلافه العلويون المدينة المقدسة ، مكة ، منذ القرن العاشر – حسبَ بادىء الامر ان في استطاعته ان يقضي وحده عليهم ، ولكن الجيش الذي سيره إلى نجد سنة ١٧٩٠ لم يقدر على شيء ، حتى إذا ارتدّ خائباً انزل به سعود هزيمة شنعاء . وفي السنوات التوالي واصل الوهابيون تقدمهم نحو الشمال ، حتى لقد اضطر باشا بغداد ، آخر الامر ، إلى اتخاذ اجراءات دفاعية ضدهم . وفي سنة ١٧٩٧ هاجم وسبعة آلاف جندي تركي وضعف هذا العدد من العرب منطقة الأحساء ، وهي أغنى ممتلكات الوهابيين وأخصبها . ولكنه لم يزحف على عاصمتهم الدّرْعية ، في الحال ، بل تمهل شهراً ضرب في خلاله الحصار على قلعة الأحساء . حتى إذا تقدم سعود بنفسه لقتاله لم يجروٌ على مهاجمته بل عقد معه صلحاً مدته ستة أعوام . بيد ان الوهابيين شرعوا منذ اليوم يستخفون بقوته ، ليهاجموا بلاده سنة ١٨٠١ ، وإنما كان هدفهم الاستيلاء على كربلاء وعلى قبر الحسين ، حفيد الرسول ، الذي يقدسه الشيعة جميعاً . وفي ٢٨ نيسان ، يوم عيد الفطر ، سقطت البلدة في أيديهم . ثم انهم هدموا القبة التي تظلل ضريح الحسين ، وغنموا

غنائم ضخمة .

وبعد ان انضمت جميع قبائل نجد ، تقريباً ، إلى الوهابيين خلال السنوات التالية ، شنوا هجوماً على مكة ، سنة ١٨٠٣ ، في أيام الحج من شهر نيسان . وعلى الرغم من ان البلدة كانت تغص بالحجاج الاجانب فقد استسلمت بعد مقاومة قصيرة . وفرّ الشريف غالب إلى ثغر جُدّة ، وتعيّن على امير الحج السوري ، عبدالله باشا والي دمشق ، ان يغادر مكة بعد ثلاثة أيام . ومهما يكن من شيء ، ففي السنة نفسها ثأر الشيعة لكربلاء من عبدالعزيز نفسه فصرعه رجل شيعي متقد حماسةً ، في مسجد الدّرعية .

ورفع ابنه سعود ، حفيد المصلح من جهة امه ، الحصار عن جُدّة وسمح للشريف غالب بالعودة إلى مكة كتابع له . ولقد كان على الشريف ، بسبب من تابعيته هذه ، ان يتنازل عن أخصب موارده ، أعني عائدات جُدّة الجمركية ، إذ كانت هذه العائدات تعتبر دائماً ابتزازاً غير مشروع ، في حكم النظرية الاسلامية القانونية ، الصارمة . وفي ربيع سنة ١٨٠٤ سقطت المدينة في أيدي الوهابيين . ولقد قُدّر للمدينة ، حيث مسخ المسلمون شعائر الحج إلى قبر الرسول إلى شبه وثنية ، أن تعاني من نقمة الفاتحين الجامحة أكثر مما عانت مكة . فطردوا الاتراك ، وكان كثير منهم قد استقروا هناك ، إلى خارج البلاد ، وخربوا القباب الضخمة التي تظلل قبر الرسول وجردوها من جميع النفائس التي تزينها . وهكذا انتهى الحجاز كله إلى أن يخضع لسلطان الوهابيين .

السلطان يعهد الى محمد علي في قتال الوهابيين

وكان على السلطان ، بوصفه خليفة المسلمين ، ان يحرر الأماكن المقدسة المستظلة بحمايته من سلطان أهل البدع ، فعهد إلى محمد علي والي مصر ، في هذه المهمة . ولكن محمداً علياً لم يفرغ لشيء من ذلك

حتى سنة ١٨١١ ، بعد القضاء على المماليك . وفي هذه الأثناء كان الوهابيون قد هاجموا النجف ودمشق كرة أخرى ؛ ومع ان المدينة الاخيرة وفقت إلى ان تدافع عن نفسها دفاعاً ناجحاً فقد بسطوا سلطانهم في الشمال حتى حلب . وبعد أن أعدّ محمد علي ما استطاع لحربهم من قوة ، وجّه ابنه طوسون على رأس جيش من الفرسان ، بطريق البر ، إلى بلاد العرب ، في حين أقلّ أسطوله جيشَ المشاة إلى ثغر يَنْبُع . وفي تشرين الاول زحف الجيش المصري إلى المدينة ، ولكنه هوجم على غرة قرب بدْر — حيث دارت رحى المعركة الشهيرة التي [انتصر] فيها الرسول [على قريش] — وكاد ان يُفنى عن بكرة أبيه رغم ما أبداه من مقاومة باسلة . ولم ينج طوسون من الموت إلا بفضل شجاعة توماس كيث * وهو اسكتلندي اعتنق الاسلام فعرفه القوم باسمه الجديد : ابراهيم آغا . ولكن بينا كان سعود وكثْرة قواته يندفعون نحو الشمال غازين مخربين ، اغتنم طوسون هذه الفرصة لتقوية جيشه ، في ينبع ، بامدادات جديدة . وفي تشرين الثاني سنة ١٨١٢ وفّق إلى فتح المدينة ، وفي كانون الثاني التالي سلّم الشريف مكّة إلى المصريين . وفي الصيف استطاع هؤلاء ان يحتلوا الطائف أيضاً .

ولكن لما كانت قوة الوهابيين لا تزال ، في موطنهم الاصلي ، سليمة لم تمسّ فقد وطّن محمد علي نفسه على ان يتولى قيادة الجيش شخصياً . حتى إذا بلغ بلادَ العرب قبض ، بادىء الامر ، على الشريف غالب الذي ساءه أن يوضع تحت الوصاية المصرية فحازب الوهابيين سراً . وحمل المصريون الشريف إلى سالونيك حيث توفي ، بعد ثلاث سنوات ، إثر وباء اجتاح البلد . وفي تشرين الثاني هزم طوسون هزيمة أخرى قاصمة ، عند تَرَبة ** كلفته مدفعيته برمتها . وأخيراً أدرك محمد علي ان حرب الوهابيين لا تنطوي إلا على خسائر جديدة ، فحوّل انظاره عن نجد — التي

* Thomas Keith

** وجاءت ايضاً على تُربة . (المعربان)

تكشفت له عن عائدة ضئيلة – ليتطلع إلى ثروات بلاد العرب الجنوبية .

الادارة الوهابية في عهد سعود

وتوفي سعود في ٢٧ نيسان سنة ١٨١٤ . وهو يعتبر مثال الحاكم العربي . فقد كان يختلط بشيوخ البدو على قدم المساواة المطلقة ، ولكنه كان قادراً ، دائماً ، على أن يفرض نفسه عليهم بمزاياه الشخصية ، وبخاصة الفصاحة التي لا تزال إلى اليوم محل تقدير عظيم ، في بلاد العرب . وقد عاش مع اسرته في الدّرعية ، في بيت مرتفع عن المدينة ، بعض الشيء . وكانت الخيل هي وجه الترف الوحيد في حياته ، وكان يملك منها ، في ما يُقال ، نحواً من ألفين . والواقع ان اداة الادارة التي انشأها استطاعت ، على بساطتها ، أن توطد دعائم السلامة العامة ، وكانت مفقودة في بلاد العرب منذ قرون ، فلم تعد المنازعات القضائية تحل من طريق اللجوء إلى الوسائل الشخصية ، ولكن من طريق قضاة يتناولون رواتبهم من الدّرعية ، ولا يسمح لهم بأن يكلفوا المتقاضين رسوماً مهما تكن . وكانت تبعة العدوان المسلح تلقى على عاتق القبيلة التي يقع الحادث في منطقتها . وبدلاً من طلب الثأر ، أشار سعود بقبول الدية ، التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين شيئاً معيباً ، وكثيراً ما فرضها بالقوة . ليس هذا فحسب . بل إنه ألغى حق القبيلة القديم في ان تحول بين المجرم والعقوبة بأن تسبغ حمايتها عليه . ولقد أمر بتطبيق قانون العقوبات تطبيقاً كاملاً ، وفقاً للأحكام القرآنية . كذلك أخذ الناسَ بأداء الفروض الدينية في قسوة بالغة ، وكان الموت جزاء من يُفطر في رمضان ، بعض الاحيان . ولم تعرف إدارته أيما نوع من الابتزاز التحكمي ، فهي تكتفي بجمع الزكاة من المكلفين ، وفقاً للمبادىء التي نصّ عليها القرآن . وليس من شك في ان الحملات العسكرية كانت وزراً ثقيلاً يُنقض ظهور المؤمنين ، إذ قد تعيّن على كل منهم ان يتسلح وان يُعدّ مطيته وزاده من غير ما مقابل، غير الأمل في ان يصيب حظاً من الغنيمة . وكانت موارد

الدولة تتألف من خمس الغنائم والصدقات (الزكاة)، وعائدات الممتلكات المصادرة من القبائل والمدن التي ثارت، من جديد، بعد اخضاعها. وكانت الصدقات، المستوفاة من أهل المدن والفلاحين: تصبّ في بيت المال وتنفق، بالاضافة إلى أغراضها التي فرضت لها، على القضاة والمعلمين، وفي سبيل انشاء المساجد وحفر الآبار العامة والاشراف عليها. أما الضرائب المستوفاة من البدو فكانت تصب في خزانة الامير الخاصة، فهو يفيد منها في تغطية نفقاته المنزلية، وفي سد حاجات حرسه الخاص أيضاً. ولقد قُدرت موارد هذين المصدرين الاجمالية بمليون ونصف طالير من عهد ماري تيريز.

وخلف سعوداً ابنه عبد الله، وكان هو أيضاً مقاتلاً شجاعاً مجرباً، ولكنه لم يكن برغم ذلك كفوءاً لدفع الخطر المصري الماثل أمامه. والحق ان محمداً علياً انتقم لهزيمة ابنه الاخيرة بما انزله بالوهابيين من هزيمة، عند بَسَل. بيد أنه غادر، بعد ذلك، بلاد العرب الشمالية وهاجم قبائل عَسير في المنطقة الجبلية الموحشة الواقعة في جنوبي تِهامة. فلما تسامع بعض شيوخ البدو، في شمالي نجد، بانتصاراته عرضوا على ابنه طوسون، المرابط في المدينة، أن يساعدوه على الوهابيين. وعندئذ تقدم طوسون لغزو مقاطعة القَصيم، ولكن الامير عبد الله فرض عليه، هناك، صلحاً تنازل هذا الاخير بموجبه عن المدينتين المقدستين، ولكنه اشترط أن يجلو المصريون عن نجد، وان يسلموا اليه الشيوخ الذين خانوه. وأبى محمد علي أن يوافق على هذه المعاهدة، وكان قد غادر هو نفسه، في أثناء ذلك، بلاد العرب تاركاً متابعة القتال لابنه بالتبني إبراهيم [باشا].

ابراهيم يخضع الوهابيين

وفي آب، سنة ١٨١٦: سار ابراهيم من القاهرة، حتى إذا بلغ بلاد العرب هاجم القَصيم من جديد. وتراجع الأمير الوهابي، في وجه خصمه العنيد، إلى عاصمته الدرْعيّة حيث حاصره ابراهيم في نيسان سنة ١٨١٨.

وعلى الرغم من الحصون البدائية المحيطة بالعاصمة فقد اضطر المصريون إلى ان يلقوا الحصار عليها طوال الصيف ، بسبب من المسافة الشاسعة التي كانت تفصلهم عن قاعدة عملياتهم العسكرية ، وتجعل أمر تموينهم عسيراً جداً . وفي ٩ ايلول سنة ١٨١٨ استسلم عبد الله ، بعد أن لم يبق حوله غير اربعمئة نفر من حرسه الاسْوَد . ولقد لقي حتفه في استانبول على يذي الجلاد . أما مدينة الدرعية فدكّت دكاً . ثم ان ابراهيم عين احد الموظفين الاتراك حاكماً على نجد ، وانسحب إلى المدينة .

وكان محمد علي أبعد عن التوفيق في مشروعاته الخاصة ببلاد العرب الجنوبية . ذلك أن جميع ما بذل من جهد للاستيلاء على منطقة عسير ذهب أدراج الرياح ، بعد ان صمد سكان هذه المنطقة للهجمات المصرية ونجحوا في صدها طوال اثني عشر عاماً (١٨٢٥ – ١٨٣٧) . ومع الايام تضاءلت رغبة محمد علي في تلك البلاد بسبب من انهماكه العظيم بأمر علاقاته مع الباب العالي . وفي سنة ١٨٣٩ ، عندما احتل البريطانيون عدن ، اطرح نهائياً جميع خططه في بلاد العرب ، متنازلاً عن المدينتين المقدستين اللتين كلفه احتلالهما ثمناً باهظاً ، للباب العالي أيضاً .

وحتى في نجد لم يعمر الحكم المصري زمناً طويلاً . فقد اجتمع شمل الوهابيين ، من جديد ، حول رجل من أسرتهم كان قد نجا بنفسه في الدرعية ، اعني « تُركي » ابن عم عبد الله . وفي الرياض ، غيرَ بعيد من الدرعية ، أسس تركي دولة جديدة ما لبثت أن أزعجت المصريين ازعاجاً كبيراً . صحيح ان تركي صُرع سنة ١٨٣٢ بيد أحد المغتصبين ، ولكن ابنه فيصلاً وفق ، بمساعدة قائده عبد الله بن رشيد ، إلى ان يضمن لنفسه خلافة أبيه . وكوفيء عبد الله على صنيعه هذا بأن مُنح الحكم الوراثي على قبيلة شَمّر . وفي سنة ١٨٣٨ وقع فيصل أسيراً في يد القوات المصرية ، فحمل إلى مصر . ومهما يكن من أمر ، فقد ساعده خَلَفه ، عباس ، على الهرب ، فقاد الوهابيين كرة أخرى ، واكره آخر حاكم مصري على مغادرة البلاد سنة

١٨٤٩ . وبعد وفاة فيصل ، في آخر العقد السابع من القرن التاسع عشر ، نشب النزاع على الامارة بين أولاده . وهكذا استطاع تابعُهم ، أمير شَمَّر ، أن يتقدمهم ويعلو عليهم . والواقع انه كان على عبد الله بن رشيد ، بادىء الأمر ، ان يوطد دعائم السلطة التي منحه إياها فيصل . حتى إذا تخلص من شيخ شمر وفق الى التمكين لنفسه بفضل تنكّبه جادة التعصب الوهابي وجنوحه إلى الاعتدال الحكيم ، وبفضل علاقاته الحسنة مع حاكم المدينة التركي . وما لبثت حاضرته حايل ان فاقت الرياض شأناً ، إذ استطاع ان يجذب اليها الحركة التجارية . وما آذن القرن التاسع عشر بالانتهاء حتى كانت هي وحدها الحاضرة الاميرية الهامة في بلاد العرب . وفي سنة ١٨٤٧ خلفَه طَلال ، ثم خلف هذا الاخيرَ محمد بن رشيد سنة ١٨٧٦ ، وفي عهدهما ران الهدوء على المذهب الوهابي . أما في الهند ، حيث كان سيّد أحمد « الراي باريلائي » قد سعى إلى نشره عقب ادائه فريضة الحج سنة ١٨٢٢ — ١٨٢٣ ، فقد أحدث في العقود التالية كثيراً من الاضطراب بسبب من أن أتباعه في مقاطعة الفِتَن واصلوا اعلان الجهاد ضد غير المسلمين . وسنعرض في ما بعد لانبعاث الحركة الوهابية كرة أخرى ، في الجزيرة العربية ، خلال الحرب العالمية الأولى .

اعادة تنظيم الجيوش العثمانية

منذ حملة ابراهيم المظفرة على سورية ، والسلطان محمود مَعْنيّ في الدرجة الاولى باستعادة هذه الولاية المفقودة . ولم يكن بدٌّ ، تحقيقاً لهذا المطلب ، من اعادة تنظيم الجيش العثماني تنظيماً أبعد وأعمق من ذلك الذي جرى عقب نكبة الانكشارية . وكان قد أخفق ، حتى ذلك الحين ، في اكتساب المدربين الاوروبيين بسبب من تنافس الدول العظمى وتحاسدها . حتى إذا كان صيفُ سنة ١٨٣٦ وفَد على استانبول ، في رحلة خاصة ، قائدان بروسيان ، هما فون مولتكه * وفون بَرْج ** فقُدّما إلى السلطان . وبناء

* Von Moltke
** Von Berg

على اقتراح القائد العام (سَر عسكر) الذي فهم منهما اشياء كثيرة منذ الاجتماع الاول ، رغب السلطان إلى ملك بروسيا ان يمنح مولتكه إجازة تساعده على الاقامة المديدة في امبراطوريته ، ثم ان السلطان اصطحب مولتكه في رحلة قام بها في الروم ايلي . والواقع ان مقترحات مولتكه ، وبخاصة في ما يتصل بنظام التحصينات ، وقعت من نفس السلطان موقعاً حسناً جداً ، حتى لقد رغب إلى فردريك وليم الثالث في ان يبعث اليه بأربعة مدربين آخرين من ضباط الجيش البروسي . والحق ان اعادة تنظيم الجيش التي بدأها مولتكه وتابعها عدد من الضباط البروسيين من بعده ، زادت في قدرة الامبراطورية العثمانية على المقاومة شيئاً كثيراً . فقد اخضع رئيس الحرس وقائد المدفعية لسلطة وزير الحرب ، وكانا حتى ذلك الحين يتمتعان بمقام مثل مقامه . وقد رافق هذا التنظيم الجديد في الجيش تعديلات مماثلة في مناصب الدولة العليا . ففي سنة ١٨٣٧ ألغي لقب « الصدر الاعظم » موقتاً وأسندت سلطاته إلى الا « باش وكيل » ، الوزير الاول ، الذي كانت اليه ، في الوقت نفسه ، وزارة الداخلية . وفي نوار سنة ١٨٣٨ اتخذ اجراء آخر أبعد مدى : فقد مُنح موظفو الدولة جميعاً رواتب محددة ، بعد ان كانوا من قبل يحصلون على تعويضاتهم من الجمهور مباشرة – في الوظائف الدنيا ، ومن مرؤوسيهم ، في الوظائف العليا .

هزيمة الاتراك في نصيبين

وعلى الرغم من تحذير الديبلوماسيين الروس والمدربين البروسيين للسلطان محمود فقد التمس ، في غير ما انقطاع ، ذريعة لأعلان الحرب على محمد علي . وكان هذا الاخير قد رفض في شباط سنة ١٨٣٧ ما عرضه السلطان عليه من الولاية الوراثية على مصر وحُكم الساحل السوري مدى الحياة مقابل تخلّيه للدولة عن سورية الداخلية . فلما وافى شهر آب سنة ١٨٣٨ كان الجيش التركي بقيادة حافظ باشا ، قد ضرب خيامه في مَلَطْيَة حيث تفشت الحمى

وتفشي الزّحار (الديزنطاريا) في الجنود. ومع ذلك فقد وجد السلطان ذريعته المنشودة في مقاطعة قرب مَرْعَش كان المصريون يحتلونها، في حين كان الباب العالي يعتبرها إحدى ممتلكاته الخاصة. وفي كانون الثاني سنة ١٨٣٩ أصدر السلطان إلى قواته أمراً بالزحف، ولكنه سارع إلى الغائه في الحال إثر احتجاج الديبلوماسيين الأوروبيين. بيد ان هذا الالغاء لم يكن نهائياً، وإنما كان السلطان يترقب حلول الربيع ليجدد أمره بالهجوم في نيسان. وفي غمرة من المصاعب الهائلة اجتاز الجيش التركي طُورُس واحتشد في بِيرَه جِك، على الضفة اليسرى من الفرات الاعلى. ولم يكد الاتراك يعبرون النهر حتى ثار السكان، الساخطون منذ زمن طويل على الحكم المصري، وانحازوا إلى جانب السلطان. وكان ابراهيم، حتى ذلك الحين، ينتظر مترقباً بسبب من رغبة أبيه في اجتناب كل ما يُظهره بمظهر المعتدي في أعين الدول الاوروبية. ولم يتلق ابراهيم أمراً بالتقدم إلا في منتصف حزيران. فانقض على العدو في نَصيبين، في الرابع والعشرين من الشهر نفسه. والحق ان الاتراك ثبتوا ثباتاً غير متوقع في وجه الهجوم المباشر الجريء الذي شنه عليهم ابراهيم، ولكن حرسهم الفرسان ما لبثوا ان انقضوا فجأة على المصريين، وفي غير ما نظام، فأكرهتهم المدفعية على الارتداد، فوطئوا بسنابك خيلهم جيش المشاة التركي نفسه. وفي الحال فُقد النظام في صفوف الجيش التركي فقداناً كاملاً، فأطلق الأكراد نيران بنادقهم على ضباطهم أنفسهم، ولم يستطع القائد العام (سر عسكر) ان يدفع عن نفسه غائلة هجوم الثائرين إلا في مشقة وعسر. وهنا وقع شيء لم يُسمع مثله في تاريخ الحرب: فقد انضمت فرقٌ بكاملها من الجيش المنتصر إلى جانب العدو والتحقت الجيوش المصرية بالفرسان الاتراك، في جو من الهزيمة والفوضى اختلط فيه الحابل بالنابل. وهكذا كان من المتعذر على ابراهيم ان يفكر في تعقب الاتراك المتراجعين نحو مَرْعَش ومَلَطْية.

ولم يقدّر للسلطان محمود أن يسمع أنباء هذه الكارثة. فقد توفي في ٣٠

حزيران سنة ١٨٣٩ ، بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، ولم يكن قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره ولكن إدمان الخمر كان قد هدّ جسمه قبل ذلك بزمن طويل. وعلى الرغم من اخفاقه في السياسة الخارجية إخفاقاً حال ايضاً دون نضج خططه الاصلاحية — ولعلها كانت متسرعة طياشة — فالواقع ان السلطان محموداً سيعدّ دائماً واحداً من أفضل سلاطين بني عثمان. ولقد اعتبره الاتراك مؤسساً لعهد جديد في تاريخ دولتهم — شأن بطرس الاكبر في الروسيا ، وكان السلطان محمود مولعاً بأن يقارن نفسه به — وإن يكن النقاد من رجال تركية الفتاة قد انكروا ذلك عليه.

ورقي العرش بعد محمود ابنه عبد المجيد وليس له من العمر إلا ستة عشر ربيعاً. حتى إذا جاءت الانباء بهزيمة نصيبين قاد القبودان باشا ، فوزي باشا ، بمساعدة الاميرال الفرنسي لالاند * ، الاسطولَ العثماني إلى الاسكندرية ، وذلك بسبب من كراهية فوزي باشا ، لخسرو ، الصدر الاعظم (وكان هذا المنصب قد استُحدث إثر وفاة السلطان محمود). وكان محمد علي يعلل النفس منذ أمد طويل ، بأن ينهض بحكم الامبراطورية كلها بوصفه قهرمان السلطان ، فبدت له الفرصة سانحة الآن ، لانفاذ هذه الخطة. وهكذا اصدر أمره بإقامة الافراح ، في جميع الولايات الخاضعة له ، ابتهاجاً بارتقاء السلطان الشاب عرش الامبراطورية ، وشرع يسمي نفسه دائماً أخلص خدام السلطان. ليس هذا فحسب ، بل لقد دعا القوادَ الاتراك إلى أن ينضموا اليه للعمل في خدمة السلطان ضد الصدر الاعظم والروس. ولكن مكائده لم تقترن بالنجاح ، بعد ان عارضت الدول الاوروبية ، خلا فرنسة ، سياسته هذه ، وبعد ان غلّت المصاعب الداخلية يديه. وكانت مصر قد عجزت عن مد جيشه بعناصر جديدة إثر تلك التعبئات العسكرية التي اصطُنعت فيها القسوة البالغة ، خلال السنوات

* Lalande

السالفة ، في حين كانت سورية بأسرها تترقب هزيمة تحل به لتشق عصا الطاعة عليه . وكانت خزانته تشكو تناقصاً ذا بال . ولقد شن غزوة على السودان ابتغاء مثلثها ، ولكنها انتهت إلى اخفاق ذريع .

عبد المجيد الأول يصدر « خطاً شريفاً »

وكان وزير الخارجية التركية ، رشيد باشا ، قد ترك — في هذه الاثناء — منصبه كسفير فوق العادة في لندن وعاد الى استانبول . وهناك ، في لندن ، أعجب رشيد باشا باسلوب الحكم الدستوري البرلماني وصار من أشد الدعاة له حماسة . فعزم على ان يرتفع بتركية إلى مصَفّ الدول المتقدمة ، من طريق دستور ينص بلغة العصر على حقوق المواطنين الأساسية ويعلن الغاء المساوىء الاكثر بروزاً في ادارة الدولة ، وهكذا يكتسب عطف انكلترة وفرنسة ، ويأمن على تركية من عدوان الروسيا ذات الحكم المطلق ، ويسمو — بصورة خاصة — على محمد علي ، في نظر الرأي العام الاوروبي . وفي سهولة ويسر استطاع رشيد باشا أن يضمن لخطته هذه تأييد السلطان الشاب الذي أخذته سورة من الخيلاء إذ شعر انه يستطيع ان يظهر بمظهر منقذ وطني في أعين الدول الاوروبية جميعاً ، ومن ثم أعدت وثيقة الدستور في كتمان كلي . حتى إذا وافى اليوم الثالث من تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ دعي اقطاب الباب العالي جميعاً وممثلو اهالي استانبول العثمانيين وممثلو « رعايا » الدولة في أوروبة وأعضاء السلك الديبلوماسي ، إلى الكشك القائم إلى الجهة الجنوبية من السراية على بحر مرمرا ليسمعوا تلاوة الخط الشريف المشهور باسم « كُلْخانة » .

والواقع ان هذه الوثيقة خلت من أيما فكرة جديدة لم يسعَ السلطان محمود جهده إلى تطبيقها عملياً . ولقد كان للاعتبار المزدوج القاضي باسترضاء مشاعر الأمة الاسلامية واكتساب عطف النصارى أثره في ما انساق اليه واضع الوثيقة من تناقض يتمثل في تمجيده السنن الاسلامية القديمة بوصفها

السبيل الصحيح إلى انقاذ الدولة ، ثم في اشارته —رغم ذلك— بضرورة الأخذ بالدساتير الحديثة ابتغاء القضاء على المساوىء الناشئة عن مخالفة تلك السنن والاخلال بها . ووعد السلطان ، في هذه الوثيقة ، جميع رعاياه ، على اختلاف اجناسهم وأديانهم ، بصيانة أرواحهم ، وشرفهم ، وممتلكاتهم ، وبتوزيع نزيه وعادل للضرائب ، في حين وعد المسلمين على الخصوص بتعديل الخدمة العسكرية وبقصر مدتها على اربع سنوات أو خمس . ليس هذا فحسب ، بل لقد الغت الوثيقة الغاء تاماً ثلاثة من مساوىء العهد السابق كانت تُعتبر ظالمة بشكل خاص ، وكانت لا تنفك تُطلع رأسها رغم اعلانها لاغية منذ عهد طويل ، وهي الاحتكارات والمصادرات وتضمين جباية الضرائب في الولايات لمن يمهرها بالثمن الأعلى . أما عقوبة الموت فقد جُعلت رهنا بالحكم الصادر بعد تحقيق قانوني .

ولم يقنع الوزير الطموح ، رشيد باشا ، بما أغدقته عليه الصحافة الاوروبية من مديح ، اثر قيامه بضربته المسرحية هذه ، كما نعتها السفير الروسي . لقد رأى انه يتعين عليه ان يُظهر للعالم أفكاره التحررية من طريق دعمها بتمثيل شعبي . غير انه لم يكن من الممكن ، طبعاً ، ان يُترك أمر انتخاب النواب إلى الشعب غير المستعد إطلاقاً لهذه المهمة . وإذاً فقد كان على الحكومة ان تختار هؤلاء الممثلين . والواقع ان هؤلاء النواب المعينين استجابوا لخطاب العرش الذي القاه السلطان ، على الطريقة البريطانية ، بخطاب شكر وعرفان للجميل ، ثم سُرحوا بإحسان .

والحق ان السخرية المريرة التي جناها الباب العالي من هذا الاستغلال السمج لسذاجة الرأي العام الاوروبي أوقعت في نفس السلطان وحكومته الخوف من أيما إعادة لتمثيل المهزلة .

التحالف الرباعي وخروج ابراهيم من سورية

وفي هذه الاثناء كانت الدول الاوروبية قد انقذت السلطان من القلق

الذي كان يساوره من طموح تابعه المصري العنيد . فبينا كانت فرنسة تتطلع إلى ان تفرض على مصر ضرباً من الحماية ابتغاء التمكين لنفسها في بلاد الجزائر الخاضعة لاستعمارها ، كان اللورد بالمرستون * يخشى على طريق الهند من أيما دولة قد يتم لها توحيد سورية ومصر ، ومن هنا حمل الدول الاربع الكبرى على القيام بعمل مشترك ضد محمد علي . وبناء على اقتراح النمسا ، عقد في لندن ، شباط سنة ١٨٤٠ ، مؤتمر لدرس المسألة المصرية . ولقد عارضت فرنسة الاقتراح البريطاني القاضي بأن لا يُترك لمحمد علي غير فلسطين بالاضافة إلى الحكم الوراثي على مصر . حتى إذا تدخلت وزارة تيير ** ، التي تولت الاحكام بباريس ، في ٢ آذار سنة ١٨٤٠ ، لمصلحة محميّها [محمد علي] ، وكأنّ مصير تركية كلها منوط بارادتها ، وفّق الديبلوماسيون الروس إلى نسف التجانس الذي كان يسود ، حتى ذلك الحين ، العلاقات بين فرنسة وبريطانية . ففي غرة تموز سنة ١٨٤٠ عقدت بريطانية مع الروسيا واثنتين من الدول الالمانية ما يعرف بالتحالف الرباعي . وبموجبه تعهدت هذه الدول بأن تدافع عن وحدة أراضي الدولة العثمانية ، وان تكره محمداً علياً ، بقوة السلاح عند الحاجة ، على التخلي عن سورية ، على ان تحتفظ بفلسطين وحدها ، ولكن باستثناء عكا . حتى إذا أخفقت المفاوضات التي حاول الباب العالي القيام بها في الاسكندرية ، كرة أخرى ، أعلن السلطانُ محمداً علياً عدواً للدولة ، ولذا فقد خسر منصبه وفقد ما يلزم عن ذلك من حقوق واحترام . وهكذا اجتمعت على الشاطىء السوري وحدات الاساطيل الحليفة في البحر المتوسط وعدّتها اثنتان وعشرون سفينة حربية كبيرة ، ضم اليها الباب العالي بارجتين اثنتين وعدداً من بواخر النقل يُقل ستة آلاف من جيوش البر . وإنما كان الهدف من هذا الحشد البحري

---

* Palmerston

** Thiers

شن هجوم على ابراهيم . فلم يكد الاسطول الحليف يبلغ ثغر بيروت حتى أعلن موارنة لبنان الثورة من جديد ، وكانوا قد ثاروا قبل ذلك فردّهم ابراهيم إلى طاعته . فلما وطىء الحلفاء اليابسة ، في جونية ، الباعدة بضع ساعات إلى شمالي بيروت ، اندفع الموارنة زرافات نحو الشاطىء ليستولوا على البنادق التي حملها الحلفاء اليهم . ولكن القائد البريطاني ، سميث * ، اكتفى بتطويق بيروت ، وهكذا وفّق سليمان باشا ، قائد الحامية في المدينة ، إلى ان ينجو بنفسه ، في تشرين الاول ، بعد ان نفدت المؤن ، ليلتحق بجيش ابراهيم ، في بعلبك ، وكانت معنويات جنوده قد انحطت ، على كل حال ، انحطاطاً تاماً .

وفي تشرين الثاني القى السير تشارلز نابير ** الحصار على عكا ، وهي الحصن الشهير الذي استطاع ان يثبت ، ببسالة ، في وجه نابليون إثر انسحابه من مصر سنة ۱۷۹۹ ، وفي وجه حملة الباب العالي التأديبية سنة ۱۸۲۲ ، وذلك على عهد عبد الله [باشا] ثم في وجه ابراهيم باشا سنة ۱۸۳۲ ، والذي سبق لمحمد عليّ ان انفق أموالاً طائلة في سبيل إتمام تحصينه . وبعد اربع ساعات من إطلاق النار إطلاقاً لا يبقي ولا يذر انفجر خلاله مخزن البارود فقضى على حياة ربع رجال الحامية ، التمس الباقون وسيلة إلى النجاة بأنفسهم ، ولكنهم وقعوا في الأسر بعد معركة دامية سقطت على اثرها المدينة الحصينة في أيدي الفاتحين . ولم تكد هذه الانباء تبلغ مسامع ابراهيم حتى انقلب إلى دمشق حيث استولى على اربعين مليون غرش أخرى ثم لاذ بالفرار إلى مصر ، تاركاً للثائرين غنيمةً باردة من الأسلحة والمؤن .

وفي النصف الثاني من تشرين الثاني بلغ السير تشارلز نابير واسطوله مياه الاسكندرية واكره محمداً علياً على توقيع اتفاق تعهّد فيه باعـــادة

---

* Smith

** Sir Charles Napier

الاسطول العثماني إلى الباب العالي وبالجلاء عن سورية . ولقد وعده الاميرال ، مقابل ذلك ، بأن يضمن له حكم مصر حكماً وراثياً . وبعد أن أسلم محمد علي مصيره لرحمة السلطان ، في رسالة بعث بها إلى الصدر الأعظم ، وسلّم الأسطول العثماني إلى الدولة ، حُدّد وضعه الدستوري في مصر ، من جديد ، بمساعدة الدول الأوروبية . فقد تعيّن عليه ان يدفع إلى الدولة جزية سنوية مقدارها ثلاثون مليون غرش ، وان يقصُر جيشه على ثمانية عشر الف رجل ، كما تعيّن عليه ان يترك للسلطان تعيين كبار موظفي حكومته . وان يطبق في بلاده القوانين والضرائب نفسها المعمول بها في سائر أجزاء الامبراطورية وان يعترف بأن المعاهدات التي عقدها الباب العالي مع الدول الاجنبية مُلزمة لمصر أيضاً . أما ما منحه السلطان ، أول الامر ، من حق اختيار خلف لمحمد علي من بين أبنائه الباقين بعده على قيد الحياة فقد استعيض عنه ، في مؤتمر لندن ، بحق انتقال الحكم انتقالاً وراثياً إلى أكبر أبناء محمد علي سناً .

اعادة تنظيم سورية : الموارنة والدروز

وهكذا وقع عبء اقرار الامن والنظام في سورية على عاتق الباب العالي ، وهو عبء زادته الحرب ثقلاً على ثقل . وتفصيل ذلك أن أمراء وطنيين من أسَر تَنُوخ ومَعْن وشِهاب كانوا قد استقروا في لبنان ، منذ قرون . وبالطريقة نفسها التي سبق لمحمود ان اصطنعها لكسر شوكة الزعماء (امراء الوادي) في آسية الصغرى حاول الباب العالي الآن ان يخضع لبنان ، مباشرة ، لسلطة الوالي العثماني في تلك المنطقة . وكان الأمير بشير ، الذي أسلمَ البلاد يوماً إلى ابراهيم ، قد فرّ إلى مالطة ، في تشرين الاول سنة ١٨٤٠ على متن سفينة حربية بريطانية ، وكان ابنه الاكبر ضعيف العقل ، في حين حين كان ابنه الاصغر غير كفء لخلافته . ولكن فرنسة التي كانت قد ادّعت ان لها حق الحماية على نصارى الشرق ، وبالتالي على الموارنة ، لم تكن مستعدة للموافقة على تلاشي إمارة مسيحية من غير ان تحرك ساكناً . ونزولاً عند

ضغط الدول ، عين الباب العالي احد المتقدمين في السن من أبناء اخي الامير بشير حاكماً ، ولكنه حرّك الدروز في الوقت نفسه إلى الثورة ، مما اقتضى احتلال لبنان كله احتلالاً عسكرياً . حتى إذا رفع النصارى صوتهم بالشكوى عيّن الباب العالي لجنة اكرهت الاهلين على ان يرفعوا إلى السلطان عريضة يلتمسون منه فيها انشاء ادارة تركية في البلاد . وفي آب سنة ١٨٤٢ قرّرت الدولة تقسيم لبنان إلى منطقتين اداريتين يحكم إحداهما عينٌ من أعيان الدروز ويحكم الاخرى عين من أعيان الموارنة ، يحمل كل منهما لقب « قائم مقام » . أما في المناطق المختلطة ، من مثل منطقة المتن الهامة الواقعة على طريق دمشق ، حيث كانت أكثرية مارونية تعيش في ظل المشايخ الدروز ، فقد توجّب على كل قائم مقام ان يعين نائباً عنه . واذ كانت الدول ما تزال تُلح على ان يدفع الدروز التعويضات عن الخسائر الناشئة عن ثورة ١٨٤٢ فقد اندلعت نار الحرب الاهلية ، من جديد ، في نوار سنة ١٨٤٥ . عندئذ عمد الباب العالي إلى نزع السلاح من الفريقين ، وأقام إلى جانب كل قائم مقام مجلساً يتمتع بصلاحيات ادارية وقضائية ، ويتألف من ممثلين عن مختلف طبقات الشعب .

ومات محمد علي سنة ١٨٤٨ ؛ واذ كان ابراهيم قد توفي قبله بثمانية اشهر . فقد خلفه ابنه عباس باشا ، وكان مسلماً متعصباً يزدري التربيـــة الاوروبية ازدراء بعيداً . ولم يكد يرتقي العرش حى وضع المشروع القاضي بشق قناة تصل ما بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . واذ كان اصحاب رؤوس الأموال الفرنسيون يبدون اهتماماً بهذا المشروع فقد عارضه البريطانيون وروّجوا لمشروع مضادّ يقضي بمد خط حديدي عبر برزخ السويس ، وقد بدىء في إنشائه فعلياً سنة ١٨٥١ .

مسألة الأماكن المقدسة النصرانية

ومهما يكن من شيء ، فالحق ان مسألة المواصلات هذه ، التي انتهت

بعدُ إلى ان تكون ذات أهمية عظمى بالنسبة إلى العالم كله ، لم تكن هي التي قررت مصير الشرق في السنوات التالية . إنما الذي قرر مصيره مسألة أخرى كان الباب العالي يعتبرها تافهة ، ولكنها قدمت إلى الدول الأوروبية ذريعة لفرض سيطرتها على الشرق ، أعني مسألة الاماكن المقدسة الشهيرة . وتفصيل ذلك ان منطقة القدس وما جاورها ، التي يقدسها النصارى لما تحفل به من ذكريات عن حياة يسوع والرسل ، كانت منذ الحروب الصليبية ملكاً مشتركاً للطوائف النصرانية الست : اللاتين (أتباع الكنيسة الرومانية) ، والروم الارثوذكس ، والارمن ، والسُّريان ، والأقباط ، والاحباش . وكانت الكنائس الثلاث الاخيرة قد دخلت ، بسببٍ من ضعفها ، تحت حماية الارمن الذين لم يكن للباب العالي غنىً عنهم بوصفهم القوة المالية في الشرق . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الكنيسة الارثوذكسية أسمى هذه الكنائس رتبة بوصفها ممثلة لعشرة ملايين من رعايا السلطان الارثوذكس ، وبفضل حماية الروسيا لها أيضاً . وكان رجال الاكليروس اللاتيني ، ومعظمهم من أصل اسباني وايطالي ، يتمتعون بامتيازات أجنبية وبحماية وزارة الخارجية الفرنسية . والواقع ان هذه الطوائف المختلفة قد توارثت حقوقها جيلاً بعد جيل تبعاً للعرف والعادة لا استناداً إلى وثائق مدونة ؛ ولم تكن هذه الحقوق على أية حال ، محددةً بعضها بالنسبة إلى بعضها الآخر ، تحديداً واضحاً ، ومن هنا فكثيراً ما احتكمت الطوائف النصرانية إلى السلطات الاسلامية المحلية . وفي كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وكانت ملكاً مشتركاً بين جميع الطوائف ، لم يكن من النادر أن تنشب أعمال العنف والقتال بين رجال الدين ، وكان عددهم يتميز بالوفرة بقدر ما كانت مهامهم تتميز بالضآلة ، حتى لقد كان الحرس التركي يحفظ النظام والامن في القبر المقدس ، طوال أيام عيد الفصح .

وفي صيف سنة ١٨٤٧ فُقدت في كنيسة المهد في بيت لحم نجمة مزخرفة بالنقوش الفضية كانت معلقة فوق مسقط رأس المخلّص ، فاتّهم الارثوذكس

بنزعها ، ولكن السلطات التي كلفت التحقيق لم تستطع أن تقطع برأي ، في هذا الحادث . وفي سنة ١٨٤٩ عندما تسرب النفوذ الاكليركي كرة أخرى إلى الحكومة الفرنسية ، اتخذت هذه الحكومة من ذلك الحادث ذريعة لمقاومة النفوذ الروسي في الشرق . وهكذا أُمر سفيرها في استانبول بأن يطالب ، استناداً إلى امتياز ممنوح سنة ١٧٤٠ ، بتوسيع حقوق اللاتين التقليدية توسيعاً كبيراً . ولكن الروسيا تهددت الباب العالي بقطع العلاقات الديبلوماسية إذا ما أُدخل أيّما تعديل على الوضع الراهن في الاماكن المقدسة . وبعد مفاوضات واجتماعات لجان تطاولت نحواً من سنتين قرر السلطان إبقاء القديم على قدمه في القدس ، على ان يُعطى اللاتين المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء وبالسراديب القائمة تحت كنيسة المهد ، في بيت لحم . ومهما يكن من شيء فقد ظل مفتاح المدخل الرئيسي إلى كنيسة المهد من جهة الغرب في غير حوزة اللاتين ، ومع ذلك فقد اضطر السفير الفرنسي إلى ان يعلن ارتياحه لهذا الامتياز السخيف ، وهو الذي قام وقعد ، قبيل ذلك ، منذراً بالويل والثبور لأن كرامة امبراطوره قد امتهنت . ولكن الروسيا وطنت العزم على استغلال هذه الفرصة للقضاء على نفوذ عدوتها السياسي في الشرق فاحتالت لحمل الباب العالي على ان يوعز إلى متصرف القدس بأن يوضح للاتين ، لدن تسليمهم المفاتيح ، ان هذا الاجراء لا يُفيد أن لهم الحق في الدخول من الأبواب . ليس هذا فحسب . بل لقد أصدر السلطان أمره أيضاً بتدوين جميع حقوق الأرثوذكس في الاماكن المقدسة في سجلات محاكم المدينة واعتبار كل مطلب آخر من مطالب اللاتين باطلاً . حتى إذا مرت فرنسة بهذا التحدي أيضاً ، مرّاً هادئاً ، طالب القنصل الروسي العام في فلسطين بأن يُتلى فرمان الباب العالي الجديد ، في القدس ، علانيةً . ولقد احتج السفير الفرنسي على هذا ، وتهدد الدولة بالقاء الحصار على الدردنيل إذا مانزلت بعد اليوم عند إرادة الروسيا . حتى إذا تجاهلت الدولة هذا الانذار وأذعنت لمطالب الروسيا لم تجروْ فرنسة ،

هذه المرة أيضاً ، على ان تصنع شيئاً .

ثم ان مشكلة جديدة نشأت عن قضية الجبل الاسود . وتفصيل ذلك ان الباب العالي كان يعتبر سكان الجبل الاسود جزءاً من الا « روم ملتي » ، على الرغم من انه لم يقم بايما جهد لاخضاعهم رسمياً . والواقع انهم كانوا يحكمون ، منذ القرن السابع عشر ، من قبل كهان يحملون لقب « متروبوليت » الاكليركي ، وان كان أفراد الشعب يدعونهم « ولاديكا » ، فحسب ، ومعناها الحاكم . حتى إذا توفي الولاديكا* بطرس الثاني ، في تشرين الاول سنة ١٨٥٢ ، اطرح ابن أخيه وخلفه دانيلو** ، الرئاسة الاكليركية وشرع يحكم البلاد كموسس لسلالة وراثية مستقلة . ولقد اعتبر الباب العالي هذا الصنيع ، وكان على حق في ذلك ، ثورة عليه ، فوجه أبرع قواده ، عمر باشا ، لاخمادها . ووقف رعايا النمسا من ضقالبة الجنوب — وكانت حكومة فيينا مدينة لهم بمسلكهم خلال الثورة المجرية — إلى جانب أبناء عمومتهم ؛ ولقد وجه الامبراطور ، نزولاً عند طلبهم ، رسولاً فوق العادة إلى استانبول ابتغاء حمل السلطان على التساهل . واستشعرت الروسيا انها ملزمة بأن تتدخل في هذه المسألة . والواقع ان رسولها فوق العادة ، منشيكوف*** ، الذي لم يصل إلى استانبول إلا بعد حل قضية الجبل الاسود ، سلك في استانبول مسلكاً متهوراً حمل فؤاد باشا على الاستقالة من وزارة الخارجية . فطالب منشيكوف الباب العالي بتسوية مسألة الاماكن المقدسة من طريق معاهدة خاصة مع الروسيا ، وبأن يعترف بالبطريرك الارثوذكسي رئيساً روحياً مستقلاً .

حرب القرم

ولكن الباب العالي ابى ان يقر هذه المطالب المتعذرة ، فلم يكن من

---

* Vladika

** Danilo

*** Menshikoff

السفير إلا ان غادر استانبول . وفي ٢٦ حزيران وجه القيصر نيقولا إلى شعبه البيان الشهير الذي أعلن فيه ان الرسالة التي تضطلع بها الروسيا منذ القدم ، وهي الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية قد اضطرته – بعد ان تدخل الباب العالي في حقوق الكنائس الشرقية – إلى ان يبعث بجيوشه إلى امارات الدانوب ، لا لكي تشهر حرباً ، ولكن لكي تحصل على ضمانة لاعادة هذه الحقوق السليبة . وبعد اسبوع عبرت الجيوش الروسية نهر البروت . وفي استانبول انبعثت الروح العسكرية القديمة ، في الحال . حتى إذ أخفقت محاولة التوسط من جانب الدول الكبرى أبحرت عمارة بحرية فرنسية وأخرى بريطانية إلى بحر مرمرا ، ليستقبل السكان المسلمون رجالها ، كحلفاء ، استقبالاً حماسياً . وفي ٤ تشرين الاول أعلن الباب العالي الحرب على الروسيا ، وبعد اسبوعين عبرت جيوشه نهر الدانوب ، بقيادة عمر باشا ، ولكنها اضطرت وشيكاً إلى النكوص على أعقابها واضطر الاتراك ، حتى في ما وراء القوقاز (القبق) ، إلى ان يتراجعوا إلى قَرْص * ، أعظم الحصون في إرمينية التركية ، على الرغم من انهم استولوا قبل ذلك على حصن روسي يقع على البحر الاسود . ولم تنقطع الدول الغربية ، خلال ذلك ، عن التوسط لحل الخلاف ، ولم تبعث بأساطيلها إلى البحر الأسود إلا بعد ان دمر الروس عمارة تركية في مرسى سينوب . وفي ربيع سنة ١٨٥٤ قام الروس بتقدم جديد عبر الدانوب ، ولكن قلعة سِلِسْتْرَه ما لبثت أن وضعت حداً لتقدمهم . حتى إذا طالبت بروسيا والنمسا نفسُها بالجلاء عن مقاطعات الدانوب ، وشرع الاتحاد الجرماني في حشد جيوشه على الحدود الغاليسية ، اضطرت الروسيا إلى الاذعان والتراجع . وفي تلك الاثناء كانت الدول الغربية قد حشدت هي أيضاً ، قوىً برية في استانبول ، هاجمت بها الروسيا في شبه جزيرة القِرَم (ايلول سنة ١٨٥٤) . وفي العشرين من الشهر نفسه مني

---

* وجاءت ايضاً : القارص (بكسر الراء) . (المعربان) .

الروس بهزيمة قاصمة عند نهر ألما . ومهما يكن من شيء فقد صمدت قلعة سِباسْتوبول حتّى ٨ ايلول سنة ١٨٥٥ . اما في القبق (القوقاز) فقد كانت كفة الروس هي الراجحة ، على الرغم من ان رعاياهم من المسلمين ، اللاز (يقودهم بطلهم الوطني الشهير شامل) والأبْخاز والجركس شقوا عصا الطاعة عليهم . وفي ٢٨ تشرين الثاني سقطت قَرْص في أيديهم ، بعد حصار متطاول .

محاولة جديدة في سبيل الاصلاح

ولكي تضمن الدول الغربية استمرار السلام في المستقبل — وكانت المفاوضة ما تزال قائمة لعقد معاهدة الصلح — ولكي تقطع على الروسيا في الوقت نفسه سبيل التدخل كرة أخرى في شؤون الباب العالي الداخلية ، فقد أصرت على ضرورة القيام بأصلاح جديد في استانبول . وهكذا أصدر السلطان تحت ضغط هذه الدول ، منشور اصلاح ثانياً عُرِف باسم « خط همايون » (غرّة شباط) ، وقد اكد السلطان في هذا المنشور الحقوق التي مُنحها رعايا الدولة في الخط الشريف المعروف بـ « كلخانة » . وبموجب هذه الوثيقة لم تبق المسائل المدنية الخاصة بالشعوب النصرانية منوطة برجال الدين دون غيرهم ، شأنها من قبل ، بل عهد في إدارتها إلى مجلس مختلط من المدنيين والاكليركيين ينتخبه الشعب بنفسه . واطّرحت نعوت التحقير التي كانت حتى ذلك الحين تُصطنع في خطب الجمعة ضد النصارى من رعايا السلطان . ليس هذا فحسب ، بل لم يعد من الممكن إكراه المسلمين الذين يعتنقون النصرانية على الارتداد ، كما كانت الحال من قبل . وفُتحت أبواب الانتساب إلى معاهد التعليم الرسمية ، وبالتالي إلى وظائف الدولة المدنية ، في وجه النصارى . وفرضت الخدمة العسكرية عليهم أيضاً ، وكانت من قبل امتيازاً خاصاً بالمسلمين ، ولكنهم مُنحوا حرية دفع البدل العسكري ، ووعدوا بأن يمثلوا تمثيلاً أكثر فعالية من ذي قبل ، في مجالس الولايات

والمجالس المحلية .وسمح للاجانب بامتلاك الاراضي ، على شروط معينة . وأخيراً وضع السلطان بوضع نظام للضرائب يكون أقرب إلى العدل ، وبوضع ميزانية سنوية ، وبقطع دابر الرشوة على اختلاف صورها .

ولم تتقبل الرعية هذا المنشور الجديد بمثل الحماسة التي تقبلت بها الخط الشريف الكلخاني في الماضي . فأما المسلمون فقد ساءهم أن يفقدوا امتيازاتهم القديمة ، واما النصارى فلم يتوقعوا فوائد عملية من القوانين الجديدة ، بعد أن أفقدتهم التجارب المحزنة الثقة بوعود الحكام . أضف إلى ذلك ان مضامين المنشور كانت محل ريبة عند المسلمين والنصارى على السواء لأن نسبتها إلى الحكومات الاوروبية لم تكن لتخفى عليهم جميعاً .

معاهدة باريس

حتى إذا اعتبر الديبلوماسيون أنهم قاموا بواجبهم في استانبول انتقلوا إلى المفاوضة الجدية في معاهدة الصلح التي عقدت بعد في مؤتمر باريس ، في آذار سنة ١٨٥٦ . وقضت هذه المعاهدة بأن تنسحب جيوش كل من من الفريقين من الاراضي التي احتلتها خلال حرب القرم . وضمنت الدول استقلال الامبراطورية العثمانية وأجازت لها ، بوصفها عضواً في مجموعة الدول الاوروبية ، أن تتمتع بجميع امتيازات القانون الدولي . ليس هذا فحسب بل لقد قضت المعاهدة بأن يظل الدردنيل موصداً ، شأنه من قبل ، وبأن يصبح البحر الاسود منطقة حياد . اما الملاحة في الدانوب فقد نصت المعاهدة على أن تنظم تنظيماً حراً باشراف لجنة خاصة . وتعهد الباب العالي بأن يمنح كلاً من البغدان والأفلاق إدارة أهلية مستقلة وان يضمن لسكانهما حرية العبادة ، والتشريع ، والتجارة ، والملاحة كاملة غير منقوصة . وكان على السلطان ان يمنح الحريات نفسها بلاد الصرب على ان تظل هذه خاضعة للباب العالي ، وعلى أن يحتفظ البالي العالي بحقه في وضع حاميات عسكرية في بعض القلاع الصربية .

وبعد اربع سنوات من صلح باريس وجدت الدول الأوروبية فرصة جديدة للتدخل في شؤون الامبراطورية العثمانية الداخلية . ذلك بأن نظام الحكم الثنائي الذي أنشىء في لبنان ساعد على قيام حالة من الخلاف المتواصل بين الدروز والموارنة ، خاصة وان الاتراك المتعصبين الذين وجدوا أنفسهم هناك في نجوة من رقابة الديبلوماسيين الاوروبيين الدائمة ، كان ينفّسون عن بغضهم للنصارى من طريق إثارة الدروز عليهم . وفي نوار سنة ١٨٦٠ اندلعت نار الحرب الأهلية كرة أخرى ، وطغت على البلاد موجة من التقتيل والنهب دامت حتّى شهر تموز ، بسبب من ان الجند الذين لم تُدفع لهم أرزاقهم منذ أشهر أحجموا عن التدخل . وفقد ثلاثون الف نصراني ونيف حياتهم في هذه الفظائع ، وكان للمثل السيء الذي ضربه أبناء الجبل اثره في نفوس المتعصبين من أبناء السهول ، فبدأت في دمشق حركة اضطهاد ديني كادت تأتي على المسيحيين جميعاً لولا ان انبرى الامير عبد القادر [الجزائري] الذي اشتهر في حروب التحرر الجزائرية من النير الفرنسي والذي كان منفياً في دمشق — إلى انقاذ كثير منهم ، يساعده أولاده ونفر قليل من الرجال . وكان لهذه الوحشية صدى استنكار بالغ في أوروبة حتّى لقد رأى الباب العالي ان من الخير ان يوجه فؤاد باشا مزوداً بسلطات مطلقة ، لمعاقبة الجناة . وارسلت فرنسة أيضاً ستة آلاف جندي إلى سورية ، في حين اكتفت الدول الاخرى بالقيام بمراجعات ديبلوماسية . وفي لبنان ودمشق أصدر القضاء أحكاماً شديدة القسوة . ومهما يكن من شيء ، فقد وجد الدروز تأييداً عند الانكليز الذين كانوا في حاجة اليهم كقوة يلقونها في الكفة الاخرى من ميزان التنافس الدولي ، في لبنان ، بعد ان شملت فرنسة النصارى بحمايتها . والواقع ان الاحتجاج البريطاني حال دون مواصلة حملة الاعدام التي كانت قد شنت على زعماء الدروز . وأُبعِد ٢٤٩١ درزياً إلى طرابلس ولكنهم ما لبثوا أن مُنحوا ، بعد خمس سنوات ،

حرية العودة إلى ديارهم .

السلطان عبدالعزيز

وتوفي السلطان عبد المجيد في ٢٥ حزيران ، سنة ١٨٦١ . فخلفه أخوه عبد العزيز وكان حتى ذلك الحين أسيراً في بيت أمه ، فهو لا يتصل إلا بالدراويش ومفسري القرآن ، وكان هؤلاء قد حشوا دماغه بأحلام خيالية عن عظمة السلطان الدينية وقوته الدولية . والحق انه استهل حكمه بأحسن النيات ، فألغى « الحريم » الذي كان لسلفه وأعلن رغبته في الاكتفاء بزوجة واحدة ، واختصر جميع النفقات في بلاطه . ولكن استانبول كلها كانت تفيد من النفقات الخاصة بالحريم . وهكذا كان من المتعذر عليه أن يعارض التيار ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى انقلب السلطان الجديد إلى فاسق خالع العذار . أضف إلى ذلك ان عبد العزيز وجد نفسه ، منذ توليه العرش ، في ضيق مالي عظيم ، فقد خلّف أسلافه وراءهم ديناً مقداره ١٥ مليون جنيه استرليني ، وفي سنة ١٨٦١ كان العجز قد بلغ ٤٥٠ مليون غرش ، أي ما يعادل ١٠٣ ملايين فرنك . وفي السنة التالية وفق الباب العالي إلى عقد قرض مع بريطانية قيمته ستة ملايين جنيه استرليني ، ولكنه اضطر ، مقابل ذلك إلى ان يوافق على تعيين مفوض بريطاني مهمته مراقبة الوجوه التي تُنفق فيها أموال القرض . وبعد برهة وجيزة ارتضى السلطان تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى . وبناء على اقتراح هؤلاء الممثلين أنشىء [في استانبول] ديوان للمحاسبة وبنك للدولة ، ولكن هاتين المؤسستين لم تستطيعا ، على أية حال ، إصلاح المالية العثمانية اصلاحاً كبيراً لافتقارهما إلى الموظفين الاكفاء .

نشوء دولة رومانيا

وفي عهد عبد العزيز فقدت الامبراطورية العثمانية ، نهائياً ، مقاطعة من أهم مقاطعاتها واغلاها . وتفصيل ذلك ان الباب العالي كان قد عين ،

في تموز سنة ١٨٥٦ ، وفقاً لمعاهدة باريس ، النبيل بالش * والنبيل غيكا ** قائمقامين في البغدان والأفلاق . وما هي إلا ثمانية اشهر حتى توفي بالش ، فحل محله وزير ماليته ، فوكوريدس *** ، نجل أمير ساموس السابق . وقد أنيط درس الدستور الأساسي الخاص بالامارتين بجمعية تشريعية انتخبت لهذا الغرض . وفي آخر كانون الاول سنة ١٨٥٨ انتخبت هذه الجمعية الكولونيل كوزا **** رئيساً للبُغدان ليُعترف به بعد ذلك بقليل في الافلاق أيضاً . ولكن كوزا بدد موارد البلاد على بطانة من المقربين والحظايا لم يُسمع بمثلها حتى في الاخبار المروية عن ملوك الشرق القدماء . والواقع ان مستشاره ذا القدرة الكلية ، واسمه لايبرخت ***** كان ساقياً في احدى مقاهي أوستند، فاذا به يصبح مديراً لشؤون البريد والبرق في الحكومة الجديدة . وفي شباط سنة ١٨٦٦ أكره كوزا على الاستقالة اثر مؤامرات دبرت ضده . ولقد وفقت الحكومة الموقتة إلى ان تكسب للعرش الشاغر الامير الشاب كارول فون هوهنزلرن ****** . وفي ١٣ نوار أعلن المجلس النيابي اتحاد الامارتين وملكية كارول الوراثية . ولقد قُدر لرومانيا ان تخطو ، في ظله ، خطوات واسعة في سبيل التقدم والرقي .

قناة السويس

وفي مصر كان عباس باشا الذي تكشف عن طاغية تنقصه الكفاية والمقدرة قد توفي ، في تموز سنة ١٨٥٤ ، بسبب من سُم دُس له ، في أغلب الظن . فخلفه سعيد ، رابع أبناء محمد علي ، وكان ذا ثقافة أوروبية . وفي كانون الاول سنة ١٨٥٦ اتخذ سعيد قراراً مثقلاً بالنتائج الخطيرة فيما

* Baish
** Ghika
*** Vogorides
**** Cuza
***** Liebrecht
****** Carol von Hohenzollern

يتصل بتطور مصر في المستقبل : فقد منح الكونت فرديناند دي ليسابس * ، وكان بوصفه قنصلاً فرنسياً صديقاً له منذ أمد بعيد ، حق انشاء قناة عبر برزخ السويس . وعلى الرغم من المساعي التي بذلتها وزراة الخارجية البريطانية للقضاء على المشروع فان الباب العالي لم يرفض ، مباشرة ، طلب الموافقة عليه . ولكنه لم يعلن نهائياً عدم معارضته لشق الترعة إلا في سنة ١٨٦٠ . ومهما يكن من أمر فقد كان ليسابس قد شرع في عمله قبل ذلك . وفي ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٦٣ توفي سعيد ، حامي ليسابس ونصيره ، ولم يكد يخلفه اسماعيل حتى واجهته ازمة مالية نشأت عن نزعته الشديدة الى تبديد المال . والواقع ان البريطانيين استغلوا هذا الوضع لشن هجوم جديد على المشروع الذي كانوا يعارضون . وإذ كانت أسعار القطن قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً بسبب من الحرب الأهلية الأميركية فقد سعوا إلى إقناع اسماعيل بأن في مقدوره ان يجني ثروة طائلة اذا ما استخدم الفلاحين الستين ألفاً المسخرين لشق الترعة في زرع القطن في الأراضي التي تركها سلفه لشركة انشاء القناة . حتى إذا طلب الى مجلس ادارة الشركة ان يعيد اليه أرضه وعماله أعلن ليسابس أول الأمر ان هذا العمل يعني خراب المشروع كله . وتوسط نابليون الثالث في الخلاف ، فرفعت القضية الى هيئة تحكيم تنظر فيها . وقد قضت هذه الهيئة بمنح الشركة ، مقابل تنازلها عن ستين ألف هكتار من الأرض وعن أربعة أخماس العمال ، تعويضاً مقداره ثلاثون مليون فرنك مقابل الأرض وثمانية وثلاثون مليوناً مقابل العمال .

وقد كان لاعتزام اسماعيل التحول الى زراعة القطن — هذه الزراعة التي ما لبث ان حذا حذوه فيها معظم أصحاب الأراضي الكبار — نتائج تكاد تكون أبعد أثراً في تطور مصر الاقتصادي من حفر ترعة السويس نفسه . فبينا كانت مصر قادرة حتى ذلك الحين لا على إعاشة نفسها من محاصيل

* Ferdinend de Lesseps

قمحها الوافرة فقط بل على تموين جاراتها أيضاً بهذه المادة الغذائية فقد أقحمتها زراعة القطن منذ اليوم في غمار الاقتصاد العالمي بأزماته ومشكلاته ، وما هي إلا فترة وجيزة حتى خسرت استقلالها . واستعاض ليسابس بالآلات عن الأيدي العاملة التي انتُزعت منه . حتى اذا كان الخريف من سنة ١٨٦٩ تمت القناة — وتبلغ ٩٣ ميلاً ونصف طولاً ، ومن ٩٦ الى ١١٠ يردات عرضاً و ٣٥ قدماً عمقاً — بعد ان استغرق حفرها اثنتي عشرة سنة . وهي تبدأ من بور سعيد على البحر الأبيض المتوسط ، متجهة في خط مستقيم عبر بحيرتي المَنْزَلة والبَلاح ، ثم تخترق تل الجسر البالغ ارتفاعه ١٦ متراً وبحيرة التمساح و « السرابيوم » والبحيرتين المُرّتين (البحيرة المرّة الكبرى والبحيرة المُرّة الصغرى) ثم تصب في البحر الأحمر ، عند السويس وبور توفيق . وفي ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ دشنت القناة في احتفال بالغ الروعة أطلق فيه اسماعيل العنان لنزعته الى البذخ والاسراف ، واستطاع ان يخطر على قدم المساواة ، مع الأمراء الأوروبيين الذين شهدوا الاحتفال : فقد حضر امبراطور النمسا بنفسه الى مصر ، في حين أناب نابليون الثالث عنه الأمبراطورة أوجيني ، وأرسل ولهلم ملك بروسيا ولي عهده بالنيابة عنه

مصر في ظل الخديوي اسماعيل

ولقد اعتبر اسماعيل نفسه ، وكان له بعض الحق في ذلك ، المنفّذ الكفء لوصية جده الكبير السياسية . فمنذ سنة ١٨٦٦ وفق الى حمل استانبول على أن تمنح أسرته حق الاستخلاف المباشر ، الذي ينتقل معه العرش من الأب الى الابن على الطريقة الأوروبية * ، بدلاً من طريقة الاستخلاف التركية التي تقضي بأن يتولى العرش في حال خلوّه أكبر أفراد الأسرة سناً ** ، وإنما تم له ذلك لقاء مساعدة عسكرية قدمها إلى الباب العالي — وكان آنذاك

* نظام البنوة الكبرى . (المعربان)
** نظام السن الكبرى. (المعربان)

في حرج شديد من ثورة نشبت في إقريطش (كريت) — ولقاء زيادته قيمة الجزية التي يدفعها الى الدولة من ٣٠٧,٠٠٠ الى ٧٢٠,٠٠٠ ليرة تركية. وفي السنة التالية انتزع من الباب العالي حق الاستقلال التام في اصدار القرارات المتصلة بجميع الاجراءات الحكومية، باستثناء المعاهدات الدولية. ولقد خلع عليه، في الوقت نفسه، لقب «الخديوي» الفارسي القديم (ومعناه «الحاكم» أو «السيد») الذي سما به سمواً كبيراً فوق مرتبة الوالي أو الحاكم العام، والذي كاد ينطوي على الاعتراف بسيادته واستقلاله. ولكن السلطان طلب اليه، في ما بعد — بتحريض من بريطانية والأمراء المصريين المتقدمين في السن — ان يتخلى عن أسطوله المسلح وأن يختصر جيشه البري، وأن يقدم ميزانية سنوية الى الباب العالي، وألا يقبل أي قرض أو يعقد أي اتفاق سياسي من غير موافقة السلطان. وإذ لم تعد فرنسة، بعد إتمام قناة السويس، في حاجة ماسة الى مساعدة الخديوي — شأنها من قبل — فقد عدم هذا الأخير ايما سند من جانب نابليون الثالث وسفرائه يعتمده في دفع هذه الاهانة. ولكن ألدّ أعدائه العثمانيين الصدر الأعظم عالي باشا، ما لبث ان توفي في ايلول سنة ١٨٧١ ليخلفه محمود [باشا] الذي بدا أكثر استعداداً لخدمة اسماعيل ومطامحه الواسعة. وفي حزيران سنة ١٨٧٣ أصدر السلطان فرماناً عدّل فيه الوضع الدستوري الخاص بالخديوي. فازدادت قوته الاقليمية بعد ان منح قائم مقاميّي سَواكِن ومَصَوَّع، وثُبّت حقه في الاستخلاف المباشر، ومنح الاستقلال التام في الادارة والتشريع بعد ان وافق السلطان، قبل ذلك بعام، على الدستور القضائي الجديد وفقاً لمقترحات اللجنة الدولية المنعقدة سنة ١٨٦٩. كذلك أجيز له ان يزيد جيشه الى الحد الذي يراه ضرورياً، واعترف بحقه في عقد المعاهدات غير السياسية مع الدول الأجنبية، وقبول القروض المالية. ليس هذا فحسب، بل لقد اكتسب مركزاً أكثر حرية في معاملاته مع البلدان الأجنبية عندما أبطل نظر القضايا المدنية أمام المحاكم القنصلية، سنة ١٨٧٥،

وحوّلت صلاحية الحكم فيها الى المحاكم المختلطة

النهضة المصرية عهد اسماعيل

والواقع ان جهود اسماعيل لرفع شأن بلاده في مضمار الحضارة كانت موفقة أيضاً. فقد خدم الزراعة بانشاء قنوات جديدة للري متفرعة من النيل، وبانشاء صناعة السكر. وخدم التجارة بما بنى من أحواض السفن والمرافيء، وما مدّ من سكك حديدية وخطوط تلغرافية جديدة، وما أدخل من التحسين على جهاز البريد. وفي عهده نعمت القاهرة والاسكندرية والسويس، لأول مرة، بمصالح لتوزيع الماء والغاز. ورفع اسماعيل مستوى التربية الوطنية بمضاعفة المدارس الأميرية، إذ ارتفع عددها في عهده من ١٨٥ إلى ٤٨١٧ وإنما تدين له مصر أيضاً بأول مدرسة أنشئت فيها للبنات، وبمدرسة للطب، وبمعهد عسكري فني.

اخفاق الحملة على الحبشة

ورغب اسماعيل في ان يبسط سلطانه في اتجاه الجنوب أيضاً، فِعلَ مؤسس أسرته [محمد علي]. والواقع انه انتهى بعد ان ضمّ سلطنة دارفور ومصوّع الى أن يحتك بأمبراطورية الحبشة النصرانية، وكانت ما تزال تعيش، بالكلية، تحت وطأة حكومة اقطاعية من طراز حكومات العصر الوسيط، ولكنها كانت تملك برغم ذلك جيشاً باسلاً، وان يكن غير مدرب. وبعد أن أخضع المصريون هَرَر سنة ١٨٧٥ حسبوا ان في استطاعتهم ان ينفذوا الى المناطق الجبلية في قلب بلاد الحبشة. ولكن أول حملة تجرّأوا على تسييرها الى الداخل هزمت عند قُنْدُت على يد الأمبراطور يوحنا. حتى اذا وجّه المصريون، سنة ١٨٧٦، جيشاً ثانياً الى تلك الديار، بقيادة حسن باشا، أحد أولاد الخديوي، وقع برمّته في أسر الأحباش.

وفي معركة ثالثة دارت رحاها عند قُرَع * خسر المصريون مدفعيتهم كلها . وقد كان من حسن طالعهم ان ثار عدد من تابعي الامبراطور يوحنا عليه ، وهكذا أعلن استعداده سنة ١٨٧٧ لعقد معاهدة صلح مع المصريين تاركاً لهم مَصوَّع . وكانت مهددة بالسقوط في أيدي العدو .

نهاية الخديوي اسماعيل

وليس من شك في ان هذه الحملات المشؤومة ، مضافاً اليها ما اعتاده الخديوي من تبذير هو أقرب شيء الى الجنون ، قضت على مالية بلاده الغنية ، التي سبق لسعيد أن أنقض ظهرها بقرض تبلغ قيمته ثلاثة ملايين جنيه انكليزي . وعبثاً حاول اسماعيل ان يزيد محصول ممتلكاته الواسعة جداً من طريق الافادة من أحدث مخترعات الصناعة الأوروبية ، فالمحاريث البخارية وغيرها من الآلات التي اشتراها بثمن غال لم تخدمه الا فترة قصيرة ، هذا اذا كانت قد استعملت اطلاقاً . فلما كان شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧٥ اضطر اسماعيل — في غمرة ازمة مالية — الى ان يبيع اسهمه في قناة السويس لبريطانية العظمى لقاء أربعة ملايين جنيه استرليني . وفي سنة ١٨٧٦ كان الدين الاجنبي قد ارتفع الى مئة مليون جنيه تقريباً . عندئذ حاول اسماعيل ان يقتدي بالسلطان الذي كان قد تخلص ، في عام ١٨٧٥ ، من وطأة الدين بإعلان الافلاس والتوقف عن الدفع . وفي نيسان سنة ١٨٧٦ انقطع ، طوال ثلاثة أشهر ، عن دفع فائدة ديونه العامة والخاصة . ليس هذا فحسب ، بل لقد توقف عن دفع الرواتب لموظفي الدولة وضاعف الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين . ولكن هيئة القضاء المختلطة في الاسكندرية ، وهي التي حلت محل المحاكم القنصلية وفقاً للتنظيم القضائي الجديد الذي أقره السلطان ، قضت على الخديوي بأداء ديونه وأصدرت حكمها بالقاء الحجز على منقولات سراي الرمل الخديوية .

---

* Gura

وعينت بريطانية وفرنسة لجنة (مندوبية) للتحقيق في مالية مصر. وفي سنة ١٨٧٨ أكرهت هذه اللجنة الخديوي وأسرته على التنازل للدولة عن معظم ممتلكاتهم، وعلى الامتناع عن فرض أيما ضريبة جديدة من غير موافقة برلمان مؤلف من أعضاء وطنيين وأجانب. وفي الوزارة التي ألفت حديثاً والتي رئسها الأرمني نوبار باشا عُهد الى ولسن البريطاني في نظارة (وزارة) المالية والى «دي بلينير»* الفرنسي في نظارة الأشغال العامة. ولكن الخديوي المحتدم غيظاً لم يستطع صبراً على هذه الوصاية، خاصة بعد ان اقتُرح عليه تخفيض عدد قواته أيضاً. ولقد وفق الى ان يضرم نار ثورة عسكرية على النصارى، ابتغاء حمل الأجانب على التراجع. ولكن نوبار باشا وحده استقال من منصبه. في حين اشترك ولسن ودي بلينير في الوزارة الجديدة برئاسة ولي العهد الأمير توفيق. وهنا أعلن الخديوي تسريح الوزراء الأجانب. وذلك بتحريض من مجلس مؤلف من بعض الأعيان الوطنيين، في ما يبدو، محاولاً في الوقت نفسه ان يخفف من التزاماته تجاه دائنيه بمرسوم أصدره بنفسه. فكان من نتائج ذلك ان قدمت اليه الحكومة الامبراطورية الالمانية، في نوار سنة ١٨٨٠، مذكرة احتجاج أقرتها الدول الأخرى أيضاً. وبناءً على تدخل هذه الدول أعلن السلطان خلع اسماعيل، في ٢٦ حزيران، وعيّن ابنه الأكبر، توفيق، خديوياً.

الباب العالي يعلن افلاسه ايضاً

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ — ١٨٨٠) عانت الأمبراطورية العثمانية أيضاً مصاعب مالية متصلة الحلقات. وإنما بلغت هذه المصاعب المالية أوجها سنة ١٨٧٥. وعبثاً حاول الباب العالي ان يعقد قرضاً جديداً في باريس وأن يجعل من البنك العثماني جابياً وخازناً،

---

* de Blignières

في آن واحد ، في الامبراطورية كلها . ولو قد استطاع السلطان عبد العزيز ان يوطن نفسه في ذلك الوقت على التضحية بجزء من ثروته الضخمة الخاصة أو اختصار نفقات بلاطه على الأقل اذاً لكان من الميسور تلافي ما هو أسوأ من ذلك جميعاً . ولكن مثل هذه التضحية ما كانت لتُنتظر منه ، وهكذا لم يبق أمام الباب العالي الا أن يعلن افلاس الدولة ، بصرف النظر عن ان السفير الروسي كان قد أشار عايه بذلك ايضاً . وفي تشرين الأول أعلن الصدر الأعظم ان العجز في ميزانية الدولة سيضطر الباب العالي ، خلال السنوات الخمس التالية ، الى ان يدفع نصف قيمة الفائدة نقداً ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المئة . ولم يُستثن من ذلك الا القرضان الأولان اللذان عقدا بسبب حرب القرم واللذان ضمنتهما بريطانيا وفرنسة ، والسندات المالية التي يملكها السلطان وتبلغ قيمتها نحواً من ١٤٤ مليون فرنك . والواقع ان الباب العالي كان قد عقد في العشرين السنة السابقة عشرة قروض ، آخرها ذاك الذي عقد بأبخس ما يمكن من أثمان الأصدار وبفائدة يبلغ معدلها ٩,٥ في المئة . وعند اعلان الافلاس قُدّر الدين القديم ، مضافاً اليه الديون الجارية الناشئة عن شراء السفن الحربية ومدافع « كروب » * وبنادق « مارتن » ** ، بما يزيد على ستة ملايين وربع مليون فرنك .

الثورات في الهرسك وبلغاريا

وكان الاضطراب عاماً في ارجاء ولايات الروم إيلي الصقلبية [السلافية] كلها ، وقد اتهمت القنصليات الروسية — ولم يكن ذلك بهتاناً كله من غير شك — بالمساهمة في إذكاء الثورة ضد العثمانيين . ففي الهَرْسَك — حيث كان النصارى يستغلون وتُبتز أموالهم ابتزازاً ليس له نظير من قِبل نبلاء بلادهم أنفسهم الذين دخلوا في الاسلام ، عقب الفتح — نشبت الاضطرابات

* Krupp
** Martin

منذ شهر تموز سنة ١٨٧٥ . وحشد الباب العالي جيشاً لاخماد الثورة ، ولكنه حاول بادىء الأمر القيام ببعض الأعمال الاصلاحية ، فعين مجلساً ادارياً انتظم في عداد أعضائه بعض الموظفين النصارى ، أيضاً . حتى اذا حاول هذا المجلس ممارسة صلاحياته في المناطق الثائرة صده المسلمون عن ذلك . وفي كانون الثاني سنة ١٨٧٦ اندلعت الثورة في بلغارية أيضاً بعد ان أصدر الباب العالي — المتخبط في دياجير ضيقه المالي — امراً بجباية جميع الضرائب المتأخرة ، في مدى أربعة أسابيع . وفي ٦ نوار نشب نزاع في سالونيك بين النصارى والمسلمين ، بسبب من فتاة بلغارية ، ذهب ضحيته القنصلان الالماني والفرنسي . حتى اذا ظهرت ، بسبب من ذلك ، عمارة بحرية أوزوبية أمام شاطىء سالونيك ثار « الصوفته » (وهم طلاب الفقه والقانون) في استانبول فخلعوا الصدر الأعظم وشيخ الاسلام . واقترحت الدول الثلاث الامبراطورية عقد هدنة مدتها شهران ، بين النصارى والمسلمين . أما اذا لم يتوصل الفريقان خلال هذه المهلة الى اتفاق سلمي فعندئذ تعمد هذه الدول الى اتخاذ اجراءات أكثر فعالية .

مدحت يرفع مراداً الخامس إلى العرش

والحق ان تبذير السلطان الجنوني وعجزه الكلي أديا الى تدبير مؤامرة ضده كان الموحي بها مدحت [باشا] الذي سبق له أن أسدى لبلاده خدمات جليلة أثناء ولايته أولاً على بلغارية ، ثم أثناء ولايته — بعد سنة ١٨٦٩ — على بغداد ، والذي كان فترة قصيرة من الزمان عضواً في وزارة محمد رشدي باشا ، الصدر الأعظم ، بوصفه وزيراً بلا وزارة (وزير دولة) . وتفصيل ذلك ان مدحت باشا بعث ، في الأشهر الأولى من سنة (١٨٧٦) مذكرة مغفلة الى الدول الاجنبية — باستثناء الروسيا — أعلن فيها ان خلع السلطان بات أمراً يحتمه الشرع الاسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكاً لكامل قواه العقلية . وفي مساء ٣٠ نوار انطلق المتآمرون

ـ وكان بينهم حسين عوني باشا وزير الحربية ـ الى قصر « طُولمه باغجه » حيث فأجأوا السلطان وتلوا عليه فتوى بخلعه صادرة عن شيخ الاسلام. وفي تلك الليلة نفسها رفع مراد الخامس الى العرش. ثم ان عبد العزيز وُجد ميتاً في قصره جراغان، في ٥ حزيران، والمعتقد انه انتحر بأن قطع أوردة معصميه بالمقص. وكان السلطان الجديد قد نُشّيء على الطريقة الأوروبية، واشتهر بأنه رجل مستنير. ولكن صحته كانت قد تحطمت، قبل ذلك بزمن طويل، بسبب من إدمانه الخمر. أضف الى ذلك ان المشاهد المريعة التي رافقت ارتقاءه العرش هدمت أعصابه، وزادت الطين بلة.

وفي بلغارية، رأى الباب العالي ان يقمع الثورة بما استطاع من قوة. وكان قد أسكن في تلك البلاد المهاجرين الجركس الذين برحوا القوقاز (القبق) الروسي بعد حرب القرم، فاذا هو الآن يطلق لهم عنان الوثوب على النصارى، فيخربون بالاشتراك مع الفرسان غير النظاميين المعروفين بالباش بُوزُق ـ وكانوا نصف متوحشين ـ مناطق بكاملها. والواقع ان هذه الفظائع البلغارية أثارت عاصفة قوية من السخط في بريطانية العظمى حتى لقد طالب غلادستون*، زعيم المعارضة، بطرد العثمانيين عن بكرة أبيهم من أوروبة.

وفي بلاد الصرب انتهى حزب الحرب الى ان يكون الآن هو صاحب الكلمة العليا، أيضاً. وفي ٢٧ حزيران وجهت حكومة بلغراد الى الباب العالي انذاراً طلبت فيه سحب الحاميات التركية والعصابات غير النظامية من الحدود الصربية، وتعيين الأمير ميلان** نائباً للسلطان على البوسنه. حتى اذا كان اليوم الثاني من تموز أعلن ميلان الحرب على الباب العالي

---

* Gladstone

** Milan

من مقر قيادته في دَلِيجراد . ودخل الجبل الأسود أيضاً في هذه الحرب علانية ، واشترك فيها اشتراكاً مباشراً . وفي صيف سنة ١٨٧٦ ، بينما كان الصّرب يلقون من الاتراك مقاومة تحول دون تقدمهم ، أحرز جنود الجبل الأسود في ٢٨ تموز ، نصراً مؤزّراً على العدو .

عبد الحميد الثاني والدستور العثماني الأول

وكان اختلاط مراد العقلي قد شاع — في هذه الأثناء — وذاع ، حتّى لقد أعلن شيخ الاسلام خلعه في ٣١ آب . وفي غرة أيلول رقي العرش أخوه عبد الحميد الثاني . وما هي الا فترة قصيرة حتّى تولى مدحت باشا مقاليد الصدارة العظمى . ثم إن القيصر ألكسندر الثاني اتفق معه على عقد هدنة شهرين في البلقان ، فلم يكن من الباب العالي إلا أن اتخذها وسيلة الى الاستعداد وإعادة التسلح . وهنا اقترحت بريطانية عقد مؤتمر للسفراء في استانبول ، ابتغاء توطيد السلم كرة أخرى ، من طريق مُقترحات جديدة لإجراء الاصلاح . والواقع ان الدول الكبرى طالبت بأن تحتفظ هي بحق الموافقة على تعيين حاكم بلغارية خلال السنوات الخمس الأولى ، وان تعيّن لجنة دولية للمراقبة . وسعى مدحت باشا الى اجتناب هـذا العدوان على سيادة السلطان بإجراء اصلاحات داخلية . فألّف لجنة من ستة عشر موظفاً مدنيّاً ، وعشرة « علماء » ، وقائدين كبيرين وعهد اليها في وضع مشروع دستور للدولة . وبعد مصاعب بالغة أقرّت اللجنة هذه المقرّرات المستوحاة من الدستور البلجيكي والتي نُشرت تحت اسم « قانون أساسي » في ٢٣ كانون الأول : إلغاء امتيازات استانبول التي كان لها * حتّى ذلك الحين ادارة خاصة والتي كان سكانها مُعفَيْن من الخدمة العسكرية وضريبة الدخل ، واطلاق لفظ « العثمانيين » على جميع

---

* أي لاستانبول .

رعايا الدولة والاعتراف بحريتهم الشخصية ، واعتبار الاسلام دين الدولة ، على ان تتولى الدولة حماية جميع المذاهب الدينية المعترف بها أيضاً ، وإطلاق حرية الصحافة ضمن نطاق القانون ، وإفساح المجال أمام جميع العثمانيين المتمكنين من اللغة التركية لاحتلال أيما منصب في الدولة وَفْقاً لكفاياتهم ، وإقامة التمثيل الشعبي من طريق مجلسين ، أحدهما للنواب (المبعوثان) والآخر للشيوخ (الأعيان) على ان يتمتع أعضاؤهما بحصانة تنجيهم من الاضطهاد بسبب من آرائهم أو أصواتهم . كذلك قررت اللجنة ان ينعقد المجلسان في غرّة تشرين الثاني من كل سنة ، وان يُفتتحا بخطاب عرش ، وان تُوضع القوانين التي يقترحها المجلسان معاً موضع التنفيذ بعد أن يقرّها كلٌّ منهما ويوافق عليها السلطان ، وان يُعَيِّن السلطان أعضاء مجلس الأعيان ورئيسهم مدى الحياة ، وأن يُنتخب نائب واحد لكل خمسين ألف مواطن على أن لا يشغل النائب أي منصب عام غير الوزارة ، وان يُنتخب النواب لأربع سنوات ، يتمتعون من بعدها بحقّ خوض الانتخابات كرة أخرى ، على ان يُمثّل كلٌّ منهم العثمانيين جميعاً لا منطقة أو جماعة بعينها ، وأن ينتخب الناخبون نائبهم من بين سكان منطقتهم ، وان يختار السلطان رئيس مجلس النوّاب ونائبيه من بين النواب الذين يرشحهم المجلس لتولي هذه المناصب . ليس هذا فحسب . بل لقد قرّرت اللجنة ان يُناط وضع الميزانية بمجلس النواب ، وان تكون جلساته علنية يشهدها الجمهور ، وأن تُنشأ محكمة عليا مؤلفة من عشرة أعضاء في مجلس الأعيان ، وعشرة مستشاري دولة ، وعشرة مستشارين في محكمة الاستئناف يكون من صلاحيتها مقاضاة الوزراء والرؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف والمتهمين بالعصيان والخيانة العظمى ، وأن تقوم ادارة الولايات على أساس اللامركزية ، وأن يكون التعليم الابتدائي الزامياً بالنسبة الى جميع العثمانيين .

وحاول الباب العالي ، بادىء الأمر ، التهرب من تنفيذ مطالب الدول

الكبرى بأن أعلن عجزه عن القيام بأي تنازل جديد من غير موافقة مجلسي الأعيان والمبعوثان . وإذ كان هذان المجلسان لم يُنتخبا بعد فقد عمد الباب العالي ، شأنه في مواقف مماثلة من قبل ، الى دعوة مجلس كبير مؤلف من مئتي عضو ونيّف اشترك فيه كبار رجال الدولة الحاليين والسابقين ومندوبون عن الجاليات النصرانية واليهودية . وفي ١٨ كانون الثاني رفض هذا المجلس ، بالاجماع ، مطالب الدول ، فلم يكن من ممثليها إلا ان غادروا استانبول . ولكن مدحت باشا ما لبث ان وفق ، بحنكته الديبلوماسية ، الى ايقاع الشقاق ، كرة أخرى ، بين خصومه . وفي ٢٨ شباط ، عقد مع الصرب معاهدة صلح على أساس الوضع الراهن . وإذ قد طالب الجبل الأسود بتوسع إقليمي أبى أن يقرّه البرلمان العثماني ، الذي انتظم عقده في ١٩ آذار ، فان أجَلَ الهدنة لم يُمدّ .

الحرب الروسية التركية في البلقان : مؤتمر برلين

وفي ٢٤ نيسان أحاطت الروسيا الدول الكبرى علماً بأن الاضطرابات في الشرق تعوق تطورها السلمي ، فهي مضطرة — من جراء ذلك — الى أن تتدخل تدخلاً فعلياً . فلم يكن من هذه الدولة التي ضمنت في معاهدة باريس استقلال الامبراطورية العثمانية ووحدة أراضيها الا أن أعلنت حيادها . ولم يكن في طاقة رومانيا ان تحول دون تسلل عدد غفير من الضباط الروس ومن المتطوعين ، عبر أراضيها ، الى بلاد الصرب . ليس هذا فحسب بل لقد اضطرت بعد الى أن تسمح للجيوش الروسية بالمرور ، وما كانت هذه الجيوش لتستطيع الاشتباك بالقوات العثمانية من غير هذه السبيل . ولما أنتهك العثمانيون ، بعد ذلك ، حرمة حدود رومانيا أيضاً وقعت ميثاقاً عسكرياً مع الروسيا وضعت بموجبه جميع مواردها وطرق مواصلاتها تحت تصرف الحكومة القيصرية . وفي ١٣ نوار أعلنت رومانيا الحرب على الباب العالي ؛ وفي ٢١ نوار أعلن مجلسا البرلمان استقلال البلاد .

وعبرّ القائد الروسي جوركو * نهر الطونة (الدانوب) ، في أواخر حزيران سنة ١٨٧٧ ، وتقدم الى البلقان — على الرغم من ان بعض القوات التركية كانت لا تزال مرابطة على جانبي الطريق التي سلكها — واحتل ممر شيبكا الذي يسيطر على الطريق المؤدية الى أدرنة . وتقدّم عثمان باشا من معسكره [في وَدِين] الى مدينة بْلِفْنَه خلف الجيوش الروسية ، وكانت على ملتقى الطرق العمومية الموصلة الى شمال بلغارية ، ولكن سليمان باشا قائد القوات العثمانية في جنوبي البلقان لم يفكر في أمر الاتصال به ، بل قام بمحاولة يائسة لانتزاع ممرّ شيبكا من أيدي العدو . عندئذ دخل كارول ، أمير رومانيا ، الحرب ، ولكنه لم يوفق الى اكراه عثمان باشا على الاستسلام الا في العاشر من كانون الأول ، بعد حصار طويل . وفي كانون الثاني ، سنة ١٨٧٨ ، اجتاز الروس البلقان واحتلوا أدرنه . وهناك عقدوا ، في ٣١ كانون الثاني ، هدنة مع الاتراك . والواقع ان الروسيا اضطرت الى ان تتخلى عن الهدف الذي رمت اليه سياستها الشرقية منذ القديم ، أعني الزحف على استانبول ، بعد ان أبحر الاسطول البريطاني الى خليج بزيكا ، وبعد ان أقر البرلمان البريطاني مشروعاً بزيادة التسلح . وفي ٣ آذار وُقعت معاهدة صلح موقت في سان ستيفانو . وبموجبها تنازل الباب العالي عن قلعة قرص (وكان الروس قد احتلوها) في إرمينية ، وعن ثغر باطوم الهامّ ، ووافق على ان تُنشأ امارة بلغارية مستقلة تمتد حدودها حتى بحر إيجه ، ولا يربطها بالدولة غير اعترافها بسيادة السلطان عليها . بيد ان هذه المعاهدة لم تقترن باعتراف بريطانيا العظمى وهي التي كان الباب العالي قد تخلى لها عن جزيرة قبرس جزاء ما أسدته اليه من معونة عسكرية . واذ كانت النمسا ماضية ، هي أيضاً ، في التسلح فقد اضطرت الروسيا الى أن توافق على إعادة النظر في معاهدة الصلح ، في مؤتمر اتُفِق على ان يُعقد

---

* Gurko

في برلين . وفي ١٣ حزيران سنة ١٨٧٨ التأم مؤتمر برلين فاستغرقت اجتماعاته أربعة أسابيع . وبمساعدة بسمارك استنقذ الباب العالي بلغارية الجنوبية ، على الأقل ، التي جُعلت ولاية ذات استقلال داخلي على رأسها حاكم مسيحي وعُرفت بالروم ايلي الشرقية ، في حين رُفعت بلغارية الشمالية الى مرتبة إمارة مستقلة . أما رومانيا ، والجبل الأسود ، وبلاد الصرب فقد منحت استقلالها التام ، بينما قنعت اليونان ايضاً بترضية اقليمية . وقضى المؤتمر كذلك بأن تتخلى رومانيا عن بسارابيا للروسيا لتحصل لقاء ذلك على دُوبرُيُنْجَه وهو تعويض لا يتكافأ ، على الاطلاق ، مع ما فقدته . ولكن القرار الذي انتهى الى ان يصبح أعظم القرارات خطراً وأسوأها نتائج هو ذلك الذي منح النمسا حق احتلال البوسنه والهرسك وسنجق يني بازار (يكي بازار) * .

الاستبداد الحميدي

وكان الاستياء قد استولى على السلطان عبد الحميد لتخلّف بريطانية عن تقديم المساعدة المنتظرة ، فأقال مدحت باشا من منصبه كصدر أعظم ، في ٥ شباط سنة ١٨٧٧ . ونفاه بتهمة الخيانة العظمى ، وكان مدحت هو الذي أوصى باتباع سياسة الاعتماد على الدول الغربية . والحق ان الدستور الذي وضعه هذا السياسي الكبير لم يصبح في يوم من الأيام ذا فعالية . ولقد صرف عبد الحميد همته ، الآن ، الى تدريب جيشه تدريباً جديداً على ايدي خبراء من الالمان ، ولكنه أبى القيام بأي اصلاح آخر على النمط الأوروبي . والواقع انه سعى لتوطيد سلطانه من طريق الأخذ بأردأ أساليب الطغيان الشرقي . فقد قضى على كل حركة فكرية حرة نشأت في الامبراطورية ، وهي في المهد . فاضطر ممثلو فكرة الاصلاح المعروفون برجال تركية الفتاة

---

* Novibazar أي « بازار الجديدة » . (المعربان)

الى مغادرة البلاد لينشئوا في باريس وجنيف مراكز جديدة للحياة الفكرية. ليس هذا فحسب. بل انه استغرق استغراقاً متعاظماً، يوماً بعد يوم، في جوّ من أحلام اليقظة الوهمية مؤكداً في المحل الأول على مقامه الديني كخليفة، رجاة ان يبسط سلطانه، من هذه الطريق، على جميع المسلمين. وانما كان السلطان عبد الحميد متأثراً في ذلك كله بعصبة البلاط التي ما انفكت تلقي في قلبه خوف المؤامرات، والتي وفقت الى ان تسيطر عليه، فكرياً، في شخص ابي الهدى الصيّادي، فقيه البلاط السوري الأصل. وليس من شك في ان فكرة عبد الحميد هذه، القاضية بتدعيم مركزه كخليفة، لقيت هوىً في قلوب فئة كبيرة من المثقفين، وعند رجال الدين «العلماء» بخاصة. ذلك ان الاسلام كان يقوم، في نظرهم، مقام الوعي القومي المفقود، وكانوا يحلمون بأن يثيروا في وجه التفوق الأوروبي ردّ فعل دينياً وينتظم ديار الاسلام جميعاً.

ومهما يكن من أمر فقد كان ضعف الامبراطورية العثمانية متفاقماً الى درجة بعيدة، حتى لقد تابعت طريقها المخوف نحو التفكك وتقطّع الأوصال في سرعة متزايدة. وفي افريقية الشمالية التي لم تكن في الواقع مرتبطة يوماً بالباب العالي، بأكثر من رباط ضعيف، فقدَ العثمانيون تونس بعد ان احتلها الفرنسيون، سنة ١٨٨١.

الثورة العرابية واحتلال الانكليز مصر

وفي مصر كانت اللجنة الأوروبية المكلّفة تسويةَ الديون تحدّ شيئاً بعد شيء من سياسة الخديوي توفيق المالية. حتى اذا أكرهت هذه اللجنة الخديوي، وكان مستضعفاً — على ان ينقص عددَ جيشه، عصفت ريح المعارضة بين الضباط. ولكن العمل الموحّد تعذّر على هؤلاء الضباط، أول الأمر، بسبب من انقسامهم الى حزبين: حزب تركي وحزب مصري. فمنذ عهد محمد علي وكثيرٌ من الأتراك يحتفظون بالمناصب الرئيسية في الجيش، فهم

يعطفون على أبناء جنسهم . بيد ان زعيماً وطنياً مصرياً ما لبث ان برز في شخص أحمد عرّابي – وكان ابن فلاح – الذي شق طريقه في الجيش حتى انتهى الى رتبة اميرالاي (كولونيل) وتولى قيادة الفرقة الرابعة . وفي كانون الثاني ، سنة ١٨٨١ ، أعلن احتجاجه ، هو وعلي فهمي قائد الفرقة الأولى ، على الاجراءات التي اتخذتها حكومة عثمان باشا رفقي ؛ وهكذا أمسى رئيساً للحزب الوطني الذي ناضل في الوقت نفسه عن مصالح الفلاحين ضد اصحاب الأطيان الواسعة من ذوي الأصول التركية . ثم وقعت حوادث عدة عُيّن على أثرها وزيراً للحرب ، في شباط سنة ١٨٨٢ . ولكنّ الضباط الاتراك دبّروا ضده مؤامرة انتهت الى نشوب الخلاف بينه وبين الخديوي . وهنا دعا مجلس النُظّار الى عقد مجلس من الأعيان رغم ارادة الخديوي . فاعتبرت بريطانية ان سلامة الأوروبيين في مصر قد أمست في خطر ، وأوعزت الى أسطولها بالقيام بمظاهرة حربية في مياه الاسكندرية اشترك فيها الأسطول الفرنسي أيضاً . والواقع ان هذه المظاهرة زادت في حدة التوتر بمصر ، فوقعت في الاسكندرية حوادث ضد الأجانب ، في ١١ حزيران . واذ كان عرابي يخشى تدخّل الدول الكبرى ، فقد انبرى الى تحصين الاسكندرية . وكانت حكومة غلادستون خالية الذهن من فكرة احتلال مصر . واذ كانت فرنسة تعاني مصاعب كثيرة في تونس ، وفي الهند الصينية أيضاً ، وتعاني على الأخص أزمةً في علاقاتها بالرايخ الالماني ، فقد استدعت أسطولها من الاسكندرية . وهكذا استشعرت بريطانية انها وحدها المسؤولة عن سلامة الأوروبيين ، فما كان من أسطولها الا أن ضرب الاسكندرية في ١١ تموز ، بعد ان رفض عرابي وَقْفَ أعمال التحصين . وكان الخديوي قد التمس ، قبل ذلك ، حماية بريطانية وضمّ جيوشه الى الوحدات البريطانية التي نزلت الى البر . فلم يكن من عرابي الا ان أعلن نفسه نائباً للسلطان ، ولكن هذا الأخير أعلنه متمرداً خارجاً على طاعته . ثم ان عرابي سار بقواته المسلحة تسليحاً رديئاً لمقاتلة قوات الجنرال

وولزلي * التي نزلت الى البر في التل الكبير (١٣ ايلول) فهُزم ثم أسِر بعد يومين في القاهرة. وصدر الحكم عليه أول الأمر، بالموت، ثم استعيض من هذه العقوبة بالنفي الى سيلان، ليُسْمَح له بعد بأن يؤوب الى القاهرة سنة ١٩٠١.

والحق ان هزيمة التل الكبير قررت تاريخ مصر طوال نصف قرن. ففرضت بريطانيا رقابتها على المالية المصرية وقيادة الجيش المصري العليا، هذا الجيش الذي قامت الى جانبه حامية بريطانية دائمة في الديار المصرية. ليس هذا فحسب، بل لقد أقامت القنصل العام، اللورد كرومر، الى جانب الخديوي ليكون هو الحاكم الفعلي للبلاد، شأن المقيمين البريطانيين الذين جرت عادتها على تعيينهم مستشارين للحكام الوطنيين في الهند. واذاً فقد أمسى تاريخ مصر، في هذه المدة، جزءاً من تاريخ الامبراطورية البريطانية، وانتهت مصر الى ان تصبح مركزاً للمحافظة على طريق الهند وفرض السيطرة البريطانية عليها. ولم يُوفق المصريون الى استرداد استقلالهم الا عقب الحرب العالمية الأولى، بعد أن سلخوا عشرين عاماً من النضال المستحرّ العنيف.

سكة حديد بغداد والحجاز

وبينا كان عبد الحميد منهمكاً — من قصره «يِلْدِز» حيث اعتزل الجمهورَ اعتزالاً متزايداً يوماً بعد يوم — في كَبْت كل نزعة الى الحرية في الامبراطورية العثمانية بواسطة جهاز من الجاسوسية معقد واسع التشعب، نقول بينا كان عبد الحميد منهمكاً في ذلك اذا به يسعى، الى ان يمكّن لسلطانه، في الوقت نفسه، من طريق انعاش الحركة التجارية ايضاً. والواقع ان سكة الحديد الشرقية التي بدأها البارون هيرش ** من طريق

* Wolseley
** Hirsch

أرباح هائلة مشوبة بالغش كانت لا تزال غير جاهزة ، ولم يصبح في الامكان مدّها في همة ونشاط الا سنة ١٨٨١ بعد فسخ العقد معه . وفي آخر سنة ١٨٨٨ تمّ الخط الحديدي الذي يربط ما بين بلغراد والآستانة مع امتداد على الأرض الآسيوية من حيدر باشا الى إزميد . ثم ان مصرف الدولة الالماني استصدر لقاء ضمان لحدّ أدنى من الموارد طوال تسع وتسعين سنة ـ اجازةً بتمديد الخط الحديدي حتى أنقره التي تم ربطها بالسكة سنة ١٨٩٢ ، وفي الحال انبثق المشروع الرامي الى مدّ الخط عبر الأناضول والعراق حتى الخليج الفارسي . وبذلك يتيسّر ربط أهمّ بلدان الامبراطورية بالعاصمة ؛ وتُفتح أبواب مواردها الطبيعية الغنية في وجه التجارة العالمية أيضاً . ولكن هذا المشروع يهدد بالخطر ، في الوقت نفسه ، مركز بريطانية في الشرق ومطامع الروسيا في فارس . ومع ان رجال السياسة الالمان البعيدي النظر حذّروا من مخاطر هذا المشروع فقد أيدته الشخصيات المسيطرة التي كانت معنيّة ، في المحل الأول ، بخدمة مصالحها الاقتصادية ، ووفقت الى ان تقنع القيصر ولهلم الثاني بضرورة الاهتمام به . حتى اذا كانت سنة ١٨٩٨ وزار القيصر الاستانة في طريق عودته من بيت المقدس سأل السلطان الذي كان يعدّه صديقاً له والذي كان مديناً له بتدريب جيشه على أيدي ضباط ألمان برئاسة فون درغولتز باشا * ، ان يمنح امتياز انشاء مرفأ حيدر باشا الى مصرف الدولة الالماني ، على الرغم من الجهود التي ما انفكت بريطانية والروسيا تبذلانها للحيلولة دون تمديد الخط الحديدي . وكان التدبير ان يمتدّ من بروسّه ، حيث ينفصل الخط الفرعي القاصد الى أنقره ، عبر أفيون قره حصار وقونيَه ، وأرْكَلي وبُولغُورْلو حتى بغداد من طريق نَصيبين والموصل . ولقد بدأت المواصلات على القسم الممتدّ حتى بولغورلو ، في ٢٥ تشرين الأول سنة ١٩٠٤ . ولئن خدمت

---

* Von der Goltz Pacha

سكة حديد الأناضول اغراضاً اقتصادية وعسكرية ، لقد كان الهدف الذي رمى اليه السلطان من أبرز أعماله على الاطلاق — سكة حديد الحجاز — هو تعزيز مكانته كخليفة في طول العالم الاسلامي وعرضه . وبينا كان الحجّ الى المدينتين المقدستين غير ممكن — حتّى ذلك الحين — الا عن طريق القوافل المضنية ، من دمشق عبر الصحراء أو عن طريق الماء عبر البحر الاحمر . اذا بهاتين المدينتين تُربطان الآن بمركز الامبراطورية بقضبان السكة الحديدية . والواقع ان هذا الخط الذي أشرف على انشائه في الدرجة الأولى سكرتير السلطان الخاص ، عزت باشا [العابد] وهو عربيّ من سورية ، انتهى مدّه حتّى المدينة على ايدي مهندسين المان في ما بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٨ ، وإنما تبرّع المسلمون في مختلف أقطار العالم بثلث نفقات الخط البالغة ثلاثة ملايين ليرة تركية[١٤١] .

الأرمن والاكراد

واعتقد عبد الحميد ان عليه ان يخشى الأرمن وحدهم من دون سائر رعايا الامبراطورية الذين أفادوا من سكة الحديد الاناضولية ، وكانت النزعة الى الحياة القومية المستقلة قد أخذت تراود نفوس هؤلاء الأرمن منذ زمن بعيد . وكان أبناء جلدتهم المنتشرون في منطقة البحر الأبيض المتوسط كلها حتّى الهند قد انتهوا الى ان يجمعوا في كثير من الأحيان ثروات ضخمة ، فهم يغذّون هذه النزعة الاستقلالية ويذكون جذوتها . وكان الشعب الارمني المقيم في السلسلة الوسطى العليا من الجبال القائمة بين الأناضول وآذَرْبَيجان وبحر قزوين [الخزر] — وهو أكثر الشعوب الشرقية بؤساً وأقلها حظاً — قد حفظ خلال الأجيال خصائص الشعب الأناضولي العرقية الأصلية في أصفى حالاتها . ولكنه استعار لغته من احدى موجات المهاجرين الهنـــود

(١٤١) انظر اولر باشا Auler Pacha, Die Hidschasbahn, Petermanns Mitteilungen, Erganzungshefte 154 (1906) and 161 (1908) .

الأوروبيين وكيّفها بما يتفق مع لغة أجداده الأولين . وكان النظام الاقطاعي قد نشأ ، في بلادهم الحافلة بالسهول الواسعة القائمة ما بين الجبال الشاهقة ، منذ عهد باكر جداً ؛ ولقد ساعدهم هذا النظام على ان يتمتعوا بسلطة مركزية مرةً واحدة ليس غير ، وذلك في العصور القديمة في حين انهم وقعوا في جميع العهود الأخرى ، تقريباً ، فريسة سهلة للدول المجاورة . فلم يكادوا يخضعون للحكم التركي حتى تعاظم نفوذ جيرانهم الجنوبيين ، الاكراد ، في بلادهم تعاظماً متصلاً . والواقع ان عبد الحميد كان يعتقد على الرغم من ان أمه أرمنية * — بأن في استطاعته ان يثق بالأكراد ويتخذهم دعامة ليس أضمن منها ولا أثبت لسلطته وقوته . ومن هنا كان حرسه الخاص ، في استانبول ، « الفرقة الحميدية » ، يتألف في الدرجة الأولى من فئات كردية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطلق يدهم في بلادهم نفسها وان كان حريصاً على ان يحد من قوة بكواتهم ، ويقضي على كل توثب وطني عندهم . والحق ان الأرمن ، بوصفهم صناعاً أولي جلد ورجال عمل ذوي نشاط ، ولكن من غير ما دقة أو ضبط ، كانوا أكثر تقدماً من الوجهة الاقتصادية من جيرانهم . وكان اخوانهم المقيمون خارج البلاد منذ زمن طويل قد جمعوا في كثير من الاحيان ثروات كبيرة ، وكانوا ينزعون الى اصطناع نفوذهم لدى الدول الأجنبية لصالح مواطنيهم في الوطن . كذلك كان لنضال الشعوب البلقانية أثره في تحريك الأرمن — على الرغم من الاختلاف المطلق بين مركز هؤلاء ومركز أولئك — للمطالبة بدرجة ما من الاستقلال شبيهة بتلك التي منحها مؤتمر برلين للروم ايلي الشرقية . بيد ان هذه النزعة استثارت شكوك السلطان . ومن الثابت انه لم يعارض ، سنة ١٩٠٥ ، في المذبحة الوحشية التي قام بها الأكراد ، بالاشتراك مع الأتراك ، ضد الأرمن في مدن البلاد الكبرى كلها تقريباً . وفي طرابزون والرُّهاء بل وفي

* وهو امر لا يقره أحد حفدته الداماد عمر نامي بك نجل الداماد احمد نامي بك . (المعربان)

استانبول أيضاً . والحق ان هذه الفظائع التي تكررت في السنة التالية في ولايتي بيتليس ووان لم تحط من قدر الامبراطورية العثمانية واعتبارها في العالم المتمدن فحسب بل زعزعت آساس الدولة نفسها أيضاً .

الحرب مع اليونان

ولم يكن اليونان راضين ، بدورهم ، عن تعديلات الحدود كما قضى بها مؤتمر برلين . وكانت الرغبة في ضم جزيرة اقريطش (كريت) ، ومعظم سكانها من مواطنيهم ، الى المملكة اليونانية تلهب ، على الخصوص ، المشاعر الشعبية إلهاباً لا ينقطع . وفي سنة ١٨٩٦ اندلعت في الجزيرة نار الثورة بقيادة الأمير جورج اليوناني . وما لبثت هذه النار أن امتدت الى تسالية أيضاً ، ربيع سنة ١٨٩٧ . ولكن ضعف المملكة العسكري كان فاضحاً الى درجة اضطرت الدول الكبرى الى صيانتها من الانهيار الكامل . والواقع ان معاهدة الصلح التي أملتها هذه الدول ، نتيجة لذلك ، لم تحمل الى اليونان في الأرض الأم الا تعديلاً في الحدود لا يكاد يذكر ، ولكنها رفعت إقريطش الى ولاية مستقلة استقلالاً داخلياً وجعلت على رأسها حاكماً نصرانياً .

الثورة في مقدونية

وفي مقدونية ، حيث يقطن الأتراك واليونان والارنأوط والافلاقيون والبلغار والصرب جنباً الى جنب ويختلط بعضهم ببعض ، كانت متاعب الامبراطورية العثمانية أدهى وأمر . من أجل ذلك طمعت كل من الدول النصرانية الثلاث المجاورة في انتزاع هذه الولاية الخصبة ، الغنية بزراعة التبغ على الخصوص . ففي خريف سنة ١٩٠٢ تشكلت هناك عصابات بلغارية عاثت في أنحاء البلاد فساداً ، مروّعةً العناصر السلافية الأخرى . حتى اذا عجزت القوات العثمانية عن الضرب على أيديها طلبت الروسيا

والنمسا الى الباب العالي ان يسيّر اليها مفتشاً عاماً أوروبياً وقوة بوليسية يقودها ضباط أوروبيون. ولكن القائد الايطالي الذي عيّن على رأس هذه القوة البوليسية أخفق، هو أيضاً، في توطيد دعائم النظام. ليس هذا فحسب بل ان العناصر الأخرى ما لبثت ان شاركت في حرب العصابات، أسوة بالبلغار. وعجزت الدول الكبرى عن وضع حد للثورة؛ بعد ان أكرهت السلطان على اخضاع مالية البلاد لمراقبتها. وحاولت النمسا ان تستغلّ هذه الحال فمدّدت خط سيراجيفو الحديدي الى سالونيك، عبر سنجق يني بازار، الخاضع للادارة النمسوية. ولقد استثار هذا الصنيع حسد الروسيا وغيرها من الدول الكبرى التي طالبت، منذ اليوم، بتعيين حاكم عام خاضع لمراقبتها هي.

تركية الفتاة

والواقع ان هذه الاهانة الجديدة التي وجهت الى الدولة أثارت في نفوس الضباط الاتراك، المرابطين مع قواتهم في مقدونية، سُخطاً عميقاً. حتى اذا كان حزيران سنة ١٩٠٨ واجتمع في ريفال [عاصمة استونية] الملك ادورد السابع والقيصر نيقولا الثاني اجتماعاً مَهَرَ الحِلْفَ المعقود بين بريطانية والروسيا بموجب معاهدة ١٨ — ٣١ آب سنة ١٩٠٧، توقّعت تركية ان تكشف الايام عن خطط جديدة لتقسيم امبراطوريتها. فلم يكن من هذا الخطر الجديد إلا ان أذكى روح النقمة والهياج في أوساط الضبّاط حتى بلغت نقطة الغليان. وكانت حركة «تركية الفتاة» التحرّرية التي حاول السلطان كبحها والقضاء عليها فترةً طويلة من الزمان قد تسرّبت رغم جميع شبكات التجسّس، الى صفوف الجيش العثماني. وفي مقدونية تولى أنور بك — الذي كان قد اطلع بوصفه ملحقاً عسكرياً في برلين على تنظيم الجيش الالماني وأساليبه في القتال — ونيازي بك* الذي

* «القول آغاسي».

كان قد اكتسب خبرة عسكرية في الحرب ضد العصابات المقدونية — نقول تولى هذان الرجلان زعامة مؤامرة هدفها المباشر بعث دستور سنة ١٨٧٦ الذي وضعه مدحت باشا[١٤٢] . أما بين الموظفين المدنيين فقد وجدا تأييداً في شخص طلعت الموظف في دائرة البرق . وقد تلقى المتآمرون الذين دعوا أنفسهم « جمعية الاتحاد والترقي » مساعدة مالية من الـ « دونمه »

(١٤٢) إن المعلومات التي أملاها مصطفى كمال ، حول حياته هو ، على رئيس تحرير جريدة «وقت» الاستانبولية في مطلع سنة ١٩٢٢ والتي اقتبسها آ . فيشر في الـ **Leipzig Illustrierte Zeitung** عدد ٤٠٨٤ الصادر في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ ، والتي وردت ايضاً في سيرة حياته المكتوبة بقلمه والمنشورة في **Turkun Altun Kitabi Ghazinin hayati** (استانبول ، ١٩٢٨) ص ٢٠ ، وفي ما ترجمه **J. Deny** في **Revue du monde musulman** (مجلد ٦٣ ، ١٩٢٠ ، ص ٤٦ وما بعدها) عن كتاب **Devletsalname** الذي وضع على أساسه التاريخ التركي الرسمي المسمى **Tarih IV** (استانبول ١٩٣١ ص ١٤٠) وما بعدها — نقول ان هذه كلها تفيد ان مؤسس الدولة التركية الحديثة يجب ان يعتبر أيضاً الموحي بالانتفاضة المقدونية . والذي يؤخذ من هذه المصادر أنه ألف ، منذ أن كان مرابطاً مع الحامية في دمشق سنة ١٩٠٦ ، جمعية ضباط باسم « وطن حريت جمعيتي » اكتسبت اعضاء في بيروت ويافا والقدس ايضاً . وتذهب هذه المصادر ايضاً إلى انه فيما كان يقضي اجازته في أزمير غادرها سراً إلى مسقط رأسه ، سالونيك ، حيث أسس فرعاً محلياً لجمعيته . حتى إذا علمت السلطات بعد بأنه أساء استخدام اجازته على هذا الشكل نقل ، بعد عودته إلى سورية ، إلى قيادة الثغور في العقبة — حيث كانت الدولة تنفي القوات المتمردة — ؛ وبعد ثلاث سنوات فقط نقل إلى هيئة أركان القيادة العليا للروم إيلي في سالونيك . والجدير بالذكر ان الروايات المعاصرة التي دونها أحد زعماء الحركة المقدونية ، نيازي ، في مذكراته (« خاطرات » ، استانبول ١٣٢٦) ، ويونس نادي رئيس تحرير الصحيفة الاستانبولية « تصوير أفكار » في كتابه « اختلال وانقلاب عثماني » . (استانبول ، ١٣٢٥) لا تذكر شيئاً عن نشاط مصطفى كمال هذا . قابل أيضاً مناقشة المسألة في المجلة التاريخية التركية **Belleten I** (انقره ، ١٩٣٧ ، ص ٢٨٩ — ٣٠٩ و ٦١٩ — ٦٢٥) . أما الميجر جنرال ايمهوف **Imhoff** فقد ذهب في **Die Welt des Islams, I,** (برلين ١٩١٣ ص ١٧٤) إلى أن أول جمعية عسكرية أسست في دمشق هي تلك التي أسسها الدكتور حاجي مصطفى ، في حين ان مصطفى كمال أسس جمعية جديدة في سالونيك . ومن المعلومات التي اوردها ايمهوف وجمعها بنفسه في تركية حيث كان يعمل كمدرب للجيش ، نرى ان الجمعيات السرية كانت تنشط في أماكن مختلفة من الدولة العثمانية ، ومن غير ان تعلم احداها بالأخرى . وهكذا فليس عجيباً ان تتضارب الروايات في ما يتصل بنشوء الحركة الثورية .

وهم يهود سالونيك الداخلون في الاسلام والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في تلك المدينة .

الزحف الى استانبول واحياء الدستور

وفرّ نيازي مع عدد من رفاقه الى جبال رَسْنَه حيث ساعده قائم مقام المنطقة سراً. وبعد ان التحق بأيوب أفندي في أوخري (أخريدا) وجّها معاً برقية الى السلطان يسألانه فيها إعادة الدستور. وبعث السلطان بشمسي باشا للقبض على الرجلين فقُتل بعيار ناري. ثم ان أنور أيضاً غادر سالونيك ونشط في خدمة الجمعية، في تِكْوِش. ولكن المتآمرين كانوا قد أخذوا يستشعرون طمأنينة بعيدة حتى لقد أعلنوا الدستور في (مُنَسْتير) يوم ٢١ تموز سنة ١٩٠٨ وفي سالونيك في اليومين الثاني والعشرين والثالث والعشرين. وفي ذلك الشهر نفسه زحف المتآمرون زحفاً مفاجئاً على استانبول فاحتلوها من غير ما قتال تقريباً، وأكرهوا السلطان على اقرار الدستور وعلى تعيين وزراء يرضون هم عنهم. وفي ١٧ كانون الأول صار من الميسور افتتاح البرلمان العثماني.

خلع عبد الحميد

واستقبلت الامبراطورية كلها سقوط النظام الاستبدادي على هذه الصورة المفاجئة استقبالاً حماسياً. ولقد حسب زعماء تركية الفتاة ان في استطاعتهم ان يكسبوا ثقة جميع الشعوب النصرانية وتأييدها أيضاً. من طريق اعلان المثل الاعلى الدستوري الجديد القائل بالغاء جميع ضروب التمييز بين العثمانيين على اختلاف طبقاتهم وأديانهم وأجناسهم. ولكن الصلح الذي عقده عبد الحميد مع رجال تركية الفتاة لم يعمر طويلاً. ففي ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ اندلعت الثورة ضد الحكام الجدد. وفي ١٥ نيسان سمى السلطانُ توفيق باشا صدراً أعظم وعهد اليه في إعادة الشريعة

أو القانون المقدس ، إلى حيز التنفيذ . وللمرة الثانية تدخل جيش سالونيك العثماني في الأمر . ففي نيسان أيضاً تقدم قائد هذا الجيش ، حسين حسني باشا ، يصحبه مصطفى كمال بوصفه رئيس اركان حربه ، إلى العاصمة ، وبعد قتال قصير وفّق محمود شوكت باشا إلى احتلالها . وفي ٢٦ نيسان عقدت في سان ستيفانو جمعية وطنية ، فاتخذت بناء على فتوى من شيخ الاسلام قراراً بخلع السلطان . وهكذا رفع إلى العرش أخوه محمد [رشاد] الخامس . وفي البرلمان الجديد الفت الجماعات البرجاسية * التي تسمّت بالاحرار والتي اتخذت من « الحرية والائتلاف » برنامجاً لها — نقول الفت حزباً واحداً سعى إلى ان يحد من نفوذ الضباط الكاسح . ولكن الحالة الخارجية لم تفسح للامبراطورية العثمانية في مجال التمرس بالحياة الدستورية في هدوء واطمئنان .

ايطالية تستولي على طرابلس الغرب

في تلك الاثناء كانت ايطالية تبحث لسكانها المتكاثرين في اطّراد عن مستعمرة في حوض البحر المتوسط لكي تضع حداً لهجرة شبانها إلى البلدان الأجنبية ، بعد ان استولت فرنسة على تونس التي كانت قد استوعبت عدداً كبيراً جداً من المهاجرين الايطاليين ، فاذا بانظارها تقع الآن على طرابلس الغرب . وكانت الامبراطورية العثمانية تنظر إلى طرابلس الغرب دائماً نظرتها إلى ثغر مفقود . حتى إذا أبى رجال تركية الفتاة ، حفاظاً على الشرف ، ان يتخلوا عنها بعد ان فاجأهم الطليان بهذا الطلب ، أعلنت ايطالية الحرب في ٢٩ ايلول سنة ١٩١١ ، فوطئت قواتها الارض الافريقية في ٥ تشرين الاول . ووقع عبء الدفاع على عاتق انور باشا ومصطفى كمال الذي كسب ، ههنا ، أول اكاليل من اكاليل مجده العسكري .

---

* أي البورجوازية ، bourgeoise ، وقد اعتمدناها كما جاءت في نص لأسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار (تحرير فيليب حتي ، برنستون سنة ١٩٣٠ ، ص ١١٥ ، ١٤١) . (المعربان)

وعلى الرغم من ان المواطنين العرب والبربر ناصروا الاتراك في حماسة واندفاع فقد هُزموا آخر الامر . وفي معاهدة اوشي المعقودة سنة ١٩١٢ تخلت الدولة عن طرابلس وبنغازي لأيطالية ، ولم يحتفظ الخليفة إلا بحق تعيين الموظفين الدينيين في تلك البلاد .

دول البلقان تعلن الحرب على الامبراطورية العثمانية

وفي تشرين الاول سنة ١٩١٢ أعلنت دول البلقان الحرب على الامبراطورية العثمانية ، ولم تكن معاهدة الصلح مع ايطالية قد عقدت بعد . ومع ان هذه الدول كانت على خلاف فيما بينها حول قضايا كثيرة ، فقد استشعرت ان مصالحها المشتركة باتت في خطر من جراء مشروع الحكومة العثمانية الرامي إلى ربط مقدونية بالامبراطورية ربطاً أكثر إحكاماً ، من طريق حركة استيطان اسلامية جديدة . والواقع ان الاتراك كانوا أضعف من ان يثبتوا في وجه هذه القوة البلقانية الموحدة ، فالقى البلغار الحصار على ادرنه ، بينا احتل اليونان سالونيك . وعقدت الوزارة التركية الجديدة هدنة مع العدو وأبدت استعدادها للتخلي عن ادرنة . ولكن ضباط الجيش ، وعلى رأسهم أنور ، احتجوا على هذا الخِزْي ، وفي ١٣ كانون الثاني سنة ١٩١٣ أكرهوا الوزارة على الاستقالة ليؤلفها محمود شوكت . وإذ كانت أدرنة قد سقطت في أثناء ذلك ، فقد اضطرت القوات العثمانية إلى أن تَقْتَصِر دفاعها على خط جتالْجَه فحسب . ولكن الاتراك أكرهوا آخر الأمر ، في مؤتمر الصلح المنعقد في شهر نوار بلندن . على ان يتخلّوا عن جميع المناطق الواقعة غربيّ خطّ إينْوس على بحر ايجه ومِيدْيا على البحر الأسود ، بيد ان الأعداء لم يتوصلوا إلى اتفاق حول تقسيم الغنائم فنشبت الحرب في ما بينهم . ومن هنا امتشق انور الحسامَ ، كرّة أخرى ، فاستنقذ أدرنة التي اضطُر البلغار إلى التخلّي عنها آخر الأمر وفقاً لما قضت به معاهدتا استانبول (ايلول ١٩١٣) واثينا (١٩١٤) .

وطبيعيّ ان يتعذّر نشوء ايما سياسة داخلية قويمة في الامبراطورية العثمانية ، وسطَ هذه المتاعب والاضطرابات كلّها ، وكان المثل الأعلى الطامح إلى خلق جامعة عثمانية تنتظم جميع المواطنين في الامبراطورية قد اخفق اخفاقاً ذريعاً لتحلّ محله شيئاً فشيئاً فكرة القومية عند الأتراك . والواقع ان القومية انتشرت أولَ ما انتشرت بين شعوب أوروبة الشرقية ، معتمدةً على مبادىء الثورة الفرنسية والرومانتيكية الألمانية ، لتقودها إلى انتصاراتها السياسية الكبرى . فليس عجباً ان تجد هذه الفكرة الآن أرضاً صالحة بين الأتراك . ولمّا كانت اللغة تمثّل الرابطة القومية الحقيقية فقد اعتقد الاتراك ان بأمكانهم ان ينشئوا وحدةَ مُثُلٍ تربطهم — وراءَ الحدود السياسية — بأخوانهم في اللغة المقيمين في ظلّ الحكم الاجنبيّ . وكانت جمهرة من الكتّاب الموهوبين قد هاجرت إلى تركية من مناطق الروسيا الجنوبية الآهلة بالتتار ، فراراً من العسْف القيصري ، ليكون لها في موطنها الجديد أثرٌ حاسمٌ في نشوء مَثَلٍ أعلى جديد يقول بالطورانية وينتظم الأتراك جميعاً . وإنما وجد هذا المثلُ الأعلى تعبيرَه الأدبيّ الأجمل في رواية لخالدة اديب ، شاعرة تركية اللامعة في العصر الحديث . ولكن هذا المثَلَ كان خليقاً بأن لا يُحدث — في غمرة الهيجان التي سبقت سقوط الامبراطورية القديمة — غير اثرٍ هدّامٍ . فقد انتهى برجال تركية الفتاة إلى أن يصبحوا غرباء عن عرب الامبراطورية الذين قضى الاسلام بأن يتحدوا معهم ضدّ النصارى ، وخاصّةً بعد أن أرادوا العرب على ان يطّرحوا ثقافتهم القومية ليتعلقوا بأهداب ثقافة تركية خالصة . والواقع ان الفكرة القومية لم تستطع ان تبسط سلطانها المطلق إلاّ في تركية الحديثة التي انشأها مصطفى كمال دولةً قوميةً منكمشة على نفسها .

أما في حقل العلاقات الاجتماعية فقد نجح الحل الذي وضعه رجال تركية الفتاة لقضية المرأة نجاحاً خاصاً . فبينا كانت المرأة تتمتع في الارياف والمدن الصغرى — حتى قبل هذا العهد نفسه — بحقوق مساوية لحقوق الرجل بوصفها شريكته في العمل ، كانت دائرة نشاطها مقتصرةً في البيئات الراقية ، على البيت و « الحريم » ؛ حيث قضت التقاليد الاسلامية بأن تعيش في الأسْر . صحيح ان عدداً قليلاً جداً من النساء التركيات ، من مِثل الشاعرة خالدة أديب التي سبقت الاشارة اليها ؛ استطعن ان يوسّعن افق ثقافتهنّ من طريق الدراسة ، على المناهج الاوروبية ، في الكلية الاميركية باستانبول . ولكنّ اياً من أبواب النشاط العامّ لم يكن مفتوحاً لهن في ظل النظام القديم . والحقّ ان الحرب العالمية هي التي حرّرتهنّ من هذه الاغلال بعد ان مسّت الحاجة إلى اقتحامهنّ ميادين العمل ابتغاءَ ملء الفراغ الذي تركته غيبة الرجال المحاربين في الجبهة . ومن ذلك الحين والنساء التركيات يُكيّفن انفسهن وفقاً لحياة شقيقاتهن الأوروبيات ، في سرعة عجيبة ، إلى ان منحتهنّ الدولة القومية الجديدة الحقوق السياسية ، وحرية العمل في جميع الحقول .

تركية في الحرب العالمية الاولى

وخاضت تركية غمار الحرب العالمية الاولى في صف الدول الوسطى رجاةَ أن توفّق إلى القضاء على نفوذ بريطانية وفرنسة الراجح في الشرق الادنى . والواقع ان الاعمال الحربية الباهرة التي قام بها جيش الدولة التركية واسطولها الذي اشتدّ أزره بعد أن ألحق به الطرّادان « غوبن » * و « برسلو » ** وقد أطلق عليهما الاتراك اسمي « سليم ياوُزْ » و « ميدِلْلِي » — نقول

* Goben

** Breslau

ان هذه الاعمال الباهرة استطاعت أن تُفسد الهجوم البريطاني على الدردنيل ، وههنا أقام مصطفى كمال ، في دفاعه عن أنافورطه ، دليلاً جديداً على عبقريته العسكرية اللامعة .

ليس هذا فحسب . بل ان الجيش التركي – يقوده فون در غولتز * الذي قضى نحبه بالتيفوس في ١٩ نيسان ١٩١٦ – وفّق إلى أن يُوقف زحف الحملة الانكليزية الهندية على العراق ، بقيادة الجنرال تَوْنْشَنْدْ ** ، ويصدّ جيشاً بريطانياً من جيوش النجدة ، ويُكره فرقة تونشند ، المحاصَرة في كُوت العمارة على الاستسلام في ٢٩ نيسان سنة ١٩١٦ . ولكن القوات التركية ما كانت لتستطيع الاحتفاظ بالعراق ، فترة طويلة من الزمان ، بسبب من تفوّق البريطانيين العسكري . حتى إذا وافى شهر شباط سنة ١٩١٧ كان البريطانيون قد أعادوا فتح كوت العمارة ، لتسقط بغداد في أيديهم في آذار من السنة نفسها . والحق ان هذا النجاح قد ضمن لبريطانية السيطرة على آبار النفط الفارسية والعراقية ، التي قادت سيولها المتدفقة ، كما قال اللورد كَرْزِن *** الحلفاء إلى النصر النهائي[١٤٣] . ولم يكن ممكناً أن ينجح الهجوم الذي قامت به القوات التركية على قناة السويس ، ومع ذلك فان هذه القوات وُفقت إلى أن تحمل بريطانية على تجميد جزء كبير من قواتها هناك . ومهما يكن من أمر فقد استطاع البريطانيون أن يتقدموا إلى فلسطين ، في كانون الاول سنة ١٩١٧ . وفي الجزيرة العربية ، كان العامل البريطاني ت. إ. لورنس **** قد أقنع شريف مكة – كما سنرى عند الكلام على تطوّر البلاد العربية بعد – بالانفصال عن الامبراطورية

---

* Vou der Goltz

** Townshend

*** Curzon

(١٤٣) انظر ايرلند W. Ireland, Iraq, p. 24.

**** T. E. Lawrence

العثمانية بعد أن أوقع في نفسه الامل بالحصول على الاستقلال السياسي . وهكذا تقدّم مع القوات العربية ، حتّى العاصمة السورية ، دمشق ، في أوائل تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، ليوفّق إلى احتلالها بعد ان أخلاها الاتراك .

ولم يستطع الاتراك أن يحققوا انتصارات باقية إلا في جبهة القوقاز (القبق) . صحيح انهم اضطروا هناك إلى أن ينسحبوا من وجه الروس ، في تموز سنة ١٩١٦ ، ولكنهم ما لبثوا أن تقدموا عقب سقوط النظام القيصري عبر ارضروم ، في نوار سنة ١٩١٨ ، ليبلغوا باطوم وباكو وهما النقطتان المركزيتان لصناعة البترول .

ولكن الخسائر الضخمة التي مُنيت بها تركية طوال اربع سنوات من الحرب الدفاعية اليائسة ، ضد عدو متفوق عليها تفوّقاً لا حدّ له ، شلّت بالضرورة رغبتها في الحرب ، بعد أن اضطر حلفاؤها إلى ان يقطعوا كل أمل لهم في الحصول على النصر النهائي . ليس هذا فحسب . بل لقد عجزت قوات « يِلْدِرِم » * — وهي الجيوش التي شُكلت حديثاً في الشرق بقيادة فون فالكنهاين ** والتي كان مفروضاً فيها أن تنتزع بغداد من أيدي البريطانيين — عن انقاذ الوضع اليائس فترة أخرى من الزمان ، خاصة بعد ان ذرّ قرن الاختلاف في وجهات النظر ، حول القضايا الستراتيجية ، بين القواد الالمان وزملائهم الاتراك . وأخيراً مُهر سقوط الامبراطورية بهدنة مودروس الموقّعة في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩١٨ . عندئذ غادر زعماء تركية الفتاة البلاد . فقصد أنور إلى الروسيا ، ليُصرع في تركستان (٤ آب سنة ١٩٢٢) أثناء النضال الذي قام به الباصمق *** ضد

---

* أي « قوات الصاعقة » (المعربان »

** Von Falkenhayn

*** تحريف باصمهجي » بمعنى طباع . وهو اسم جماعات كانت تؤمن بالجامعة الطورانية والجامعة الاسلامية . (المعربان)

البولشفيك [144] ووجد طلعت متفزعاً في المانية ليُصرع بعدُ في برلين ، بيد احـــد الارمن . أما جمـــال باشا . وزير الحرب ، فولى وجهـــه شطر افغانستان ، حيث عُهد اليه في تنظيم الجيش ، حتى إذا كانت سنة ١٩٢٢ اغتاله أحد الارمن في تِـفلِيس .

كذلك كانت نهاية الامبراطورية العثمانية . لقد قضت بوصفها ممثلة لمبدأ أبلته الايام وطرحته وراءها ظهرياً ، لتنهض على انقاضها الدولة التركية القومية الحديثة التي سنحدثك حديثها في القسم الخامس من هذا الكتـــاب

(١٤٤) راجع اخبار موته في كاستانييه : Castagné, Les Basmatchis Paris, 1925, P. 60. وفي كريـــت : G. Krist. Allein durchs verbotene Land, Vienna, 1937.

الحياة العقلية في الامبراطورية العثمانية ومصر في القرن التاسع عشر

. النهضة الصحفية والتعليمية

كانت عقلية الشعب التركي ، المتعلق بتقاليد الماضي ، أقدر على مقاومة مؤثرات الحضارة الغربية في صعيد الفكر منها على مقاومتها في شؤون السياسة والحرب ، خلال القرن التاسع عشر بطوله . وليس من شك في ان اول خطوة قام بها الاتراك في سبيل الانسجام مع روح العصر الحديث كانت إنشاء صحيفة يومية هي « تقويم وقائع » (سنة ١٨٣١) التي ما لبثت أن أتبعت بصحف أخرى ذات نزعات أدبية من مثل « تَرجُمان أحوال » (سنة ١٨٦٠) و « تصوير افكار » (سنة ١٨٦٢) . والحق ان عهد الاصلاح المعروف بالتنظيمات أدى أيضاً إلى تعديل في نظام التعليم المدرسي والجامعي . فبينا لم يعرف العهد السابق أياً من المدارس الابتدائية ـــ خلا مدارس تعليم القرآن ـــ وبينا لم يكن من الممكن اكتساب أيما ثقافة أعلى إلا من طريق « المدارس » أو الكليات الدينية ، أنشيء في سنة ١٨٥٣ مكتبٌ خاصٌ لوضع الكتب المدرسية التي تحتاج اليها المعاهد الابتدائية . وفي سنة ١٨٦١

فتُحت أول مدرسة عالية لتعليم البنات . ليس هذا فحسب ، بل لقد أنشئت سنة ١٨٦٩ جامعة للدراسات العليا ، ولكنها ما لبثت أن أقفلت أبوابها بعد سنتين اثنتين تحت تأثير عاصفة من الرجعية . ولم تُكتب الحياة إلا لمدرسة الطب ومدرسة الحقوق ، ليس غير .

ابراهيم شناسي

وفي ميدان الادب تعلّق العثمانيون ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بالموضوعات الفارسية والاسلوب الفارسي . ولكن عدداً من الشبان الموهوبين ما لبثوا ان وُجّهوا ، اثر حركة الاصلاح التعليمي ، إلى باريس استكمالاً لدراستهم . وكان بين هؤلاء ابراهيم شِناسي الذي عكف هناك على دراسة الادب الفرنسي ، في المحل الاول . وبعد ان قضى شناسي خمس سنوات في باريس ، حيث شارك على ما يقال في ثورة سنة ١٨٤٨ ، استدعي لرئاسة ادارة التربية والتعليم ، ولكنه ما لبث ان استقال من الوظيفة الحكومية ليعمل في أول جريدة تركية غير حكومية ، « ترجمان أحوال » التي أنشئت سنة ١٨٦٠ . وفي سنة ١٨٦٢ أنشأ جريدة خاصة به دعاها « تصوير افكار » ، فثبتت لجميع الزعازع السياسية حتى سنة ١٩٢٥ عندما ألغاها مصطفى كمال . والحق ان شناسي ادى ، خلال نشاطه الصحفي ، خدمات جليلة إلى لغة الكتابة التركية ، هذه اللغة التي حررها من التكلف وعاد بها إلى سهولة العبارة التي تمتاز بها لغة الشعب . وفي سنة ١٨٥٩ نشر أول ترجمة تركية لمختارات من النثر والشعر الفرنسيين مع أصولها على صفحات متقابلة (احدى عشرة صفحة في كل من اللغتين) . وقد اظهرت هذه النشرة لمثقفي الاتراك ان الافكار التي يعرفونها جيداً في أصولها الفرنجية يمكن أن يُعبّر عنها في لغتهم الوطنية أيضاً ، ومن هنا ازدهرت حركة الترجمة عن الآداب العالمية . أما موهبة شِناسي الشعرية فلم تكن عظيمة ، وهو لم يفارق في منظومه عمود الاسلوب القديم . ومع ذلك فقد كان صاحب أول كوميديا في الأدب

التركي ، وقد دعاها [«شاعر أوْلَنْمَسِي»] أي «زفاف الشاعر» وعالج فيها مشكلة المرأة ، هذه المشكلة التي كثرت مناقشتها في الادب منذ ذلك الحين .

نامق كمال

ولقيت محاولات شناسي ارضاً خصبة : فقد أدرك جمهور المتأدبين ان عهد الأدب القديم أمسى خبراً ماضياً . وهكذا ولى الكتّاب الناشئون وجوههم جميعاً شطر الحركة الجديدة . وواصل ضيا باشا تنقيته للغة التركية في ما نقل عن روسو وموليير . ولكن اعظم مريدي شناسي وتلاميذه هو نامق كمال الذي عهد اليه ابراهيم في تحرير صحيفته عندما سافر إلى باريس سنة ١٨٦٤ . وكان نامق كمال يقول بان اقتباس الأفكار الفرنسية ليس كافياً ، وبان الادب يجب أن يتوجه نحو معالجة الموضوعات «الاهلية» لكي يحدث اثره في نفوس الناس . ولكن نشاطه السياسي حال دون انصرافه إلى الانتاج الادبي . ولما كان قد التحق بجمعية تركية الفتاة التي أسسها ضيا ، فقد اضطر إلى أن يفر معه إلى لندن سنة ١٨٦٦ . ولم يتمكن من العودة إلى الوطن إلا بعد وفاة عالي باشا الصدر الاعظم ، سنة ١٨٧١ . وفي السنوات الاخيرة العاصفة من حكم عبد العزيز ، عندما كان البلقان كله يغلي كالمرجل على النار ، نشر (سنة ١٨٧٢) درامة بعنوان [«وطن ياخود سِلِسْتَره»] أي «الوطن أو سلستره» مجدت الدفاع عن هذا المعقل الحصين ضد الروس ، سنة ١٨٥٤ ، وعرّفت الاتراك ، لأول مرة ، إلى فكرة الوطن المستقل عن شخص السلطان . والحق ان المسرحية أثارت عاصفة عنيفة من الحماسة الوطنية ، حتى لقد عدتها الحكومة خطراً يجب تلافيه ، وأصدرت قراراً بمنعها بعد ان مُثلت مرتين ، ونفت الشاعر الى قبرس . وكان عبد الحميد أقل احتمالاً لنقده وللصفة الوطنية والنزعة الشعبية اللتين يتميز بهما فنه ، ومن هنا حرص على ان يبقيه أبداً بعيداً عن العاصمة — وان يكن قد اعتبر

نفيه غير شائن إذ عيّنه آخر الامر متصرفاً (حاكماً) على خيوُس (ساقِز). ولكن مؤلفاته خلدت أفكاره، فكان لها أثر كبير في ابلاغ حركة تركية الفتاة إلى هدفها.

عبد الحق حامد

والواقع ان المُثل العليا الفنية التي اضطر نامق كمال إلى ان يضحي بها، في كثير من الاحيان، على مذبح أغراضه السياسية إنما حققها تلميذه عبد الحق حامد الذي قُدر له ان يخدم بلاده، من طريق العمل في السلك السياسي، في باريس ولندن وبروكسل، وان يسعد ويبتهج — حتّى وفاته في ١٢ نيسان سنة ١٩٣٧، وهو في السادسة والثمانين من عمره — بقيام الدولة التركية القومية على انقاض الامبراطورية العتيقة. والحق ان مسرحياته المتأثرة في المقام الاول بالروائع الكلاسيكية الفرنسية، وان تكن قد تأثرت بشكسبير أيضاً، قد فتحت — بالاضافة إلى شعره الغنائي — سبلاً جديدة للأدب التركي برغم استمدادها من ينابيع الحياة الوجدانية المنبثقة من الثقافة الاوروبية بأكثر من استمدادها من تلك المنبثقة من الثقافة التركية.

الادب التركي يتجه نحو الشعب

ولم يعدم الأدب التركي رجالاً سعوا جهدهم الى توجيهه وجهة شعبية خالصة. فقد كان النثرُ الوحيد الموثوق من تركيته، والشائع بين جماهير الشعب، وان تكن الطبقات المثقفة تزدريه حتّى ذلك الحين وتنظر اليه شَزْراً، هو ذلك الذي غذاه القُصّاص الشعبيون المعروفون باسم «مَدّاحلر» *، في قصصهم المنتزعة من حياة الشعب اليومية. فلم يكن من احمد مِدْحت الا ان أدخل فنهم هذا إلى هيكل الادب. صحيح انه اعتمد في كتابه «لطائف روايت» اعتماداً كبيراً على الموضوعات الفرنسية، ولكنه حشد فيه ثروة

---

* «مداحلر» جمع مداح. (المعربان)

من الملاحظات التفصيلية الدقيقة التي انتزعها من الحياة الواقعية ، والتي أحسن صوغها في قالب خلاب . ثم جاء محمد توفيق ففتح باب الادب للموضوعات الوطنية الصحيحة ، في كتابه « استانبول دَرْبِيرَسنه » (سنة في استانبول) الذي يصور حياة الشعب في العاصمة ، هذه الحياة التي لم يكن الفساد قد تطرّق اليها بعد ، كما يصور أحاديث النساء البهيجة في ليالي الشتاء المتطاولة ، وصَخب المقاهي المرح ، والنزهات إلى «كَآغِد خانه » الأوروبية في أقصى القرن الذهبي . بيد ان حسين رَحْمي نفذ إلى حياة الشعب نفاذاً أبعد وأعمق ، وهو مدينٌ بثقافته — التي حمَلته في صعيد الوظائف الرسمية إلى مديرية سجلّ الضرائب غير المباشرة — لمدارس استانبول الحديثة دون غيرها ، ولم يتعلم قط اللغة الفرنسية . وكان بوصفه من أبناء الشعب مولعاً ، بخاصة ، بتمجيد طبقة الفلاحين الاناضوليين الاقحاح ، أمل البلاد ومعقد رجائها . ولكنه صوّر هذا الشعب كما كان في الواقع ، ولم يحجم عن الاختلاط بافراده اختلاطاً عميقاً وعن معرفتهم عن كثب . وهو يشارك من سبقه من الكتّاب نزعتهم التهذيبية وتشاؤمهم العميق اللذين لم يَبقيا عنده مجرد محاكاة وجدانية للغربيين ، بل انبثقا عن ظروفه الخاصة فهما أصيلان أبعد ما تكون الأصالة .

وفي دنيا الشعر الغنائي أيضاً تحرر الاتراك من القيود الكلاسيكية الثقيلة . فأضاف محمود أكرم الاغاني الشعبية الوطنية إلى الادب بعد أن رفع من شأنها من طريق إفراغها في قالَبيْ الـ **ballad** والـ **romance** الفرنجيين . وإنما اوفى هذا اللون الغنائي الشعبي على الغاية في قصائد محمد أمين ، وكان ابن صياد استانبولي ، تلك القصائد التي رافقت حركة تركية الفتاة وانتصاراتها .

السعي إلى تنقية اللغة التركية

واقترنت هذه الآمال الوطنية بنزعة عارمة ، لم تكن من قبل ، إلى التحقق بالصفاء اللغوي ، هذه النزعة التي تميز بها ، على الخصوص ، سامي فرَاشَري .

فبعد ان اطُّرح اسلوب الكتّاب الكلاسيكيين القدماء المثقل بضروب الصناعة واستعيض منه بلغة الشعب البسيطة قامت محاولة جديدة إلى تحرير اللغة التّركية شيئاً فشيئاً مما أثقل كاهلها من الكلمات الاجنبية غير الضرورية ، من عربية وفارسية ، وكانت قد اجتاحت المفردات التركية التي ازدرى بها أصحاب الأدب القديم واعتبروها عامّية يجب اجتنابها . وهكذا نشر أحمد جودت محرر مجلة « إقدام » ذات المكانة الكبرى ، والمتوفي سنةَ ١٨٨٠ ، نصّ كتاب نَوَائي وترجمته إلى التّركية ، وهو الكتاب الذي مجّد فيه صاحبه اللغةَ التّركية ، على حساب العربية ، في بلاط التيموريين في هَراة . والواقع ان هذه المحاولة ذهبت في بعض الأحيان إلى أبعد من ذلك فعملت على اطّراح الكلمات الاجنبية التي انتهت مع الايام إلى ان تكون جزءاً لا يتجزأ من اللغة الوطنية لتُستبدل بها كلمات تركية ماتت منذ زمن طويل . ومهما يكن من شيء فليس من شك في ان جهود القائلين بتنقية اللغة التّركية كانت — برغم هذه المغالاة — ذات أساس سليم ، ولم تمض من غير ما نجاح .

خالد ضيا يضع اساس الرواية التّركية الحديثة

وفي أواخر عهد السلطان عبد الحميد تعيّن على الادب ان يواجه مصاعب كبرى . ذلك ان هذا السلطان كان يخشى رجال تركية الفتاة بوصفهم أعداء سلطته الفردية ، ومن هنا كان أيسر على بطانته —كاما سعى إلى اعتزال الناس في قصره ، « يلدز » —أن يُدخلوا الى نفسه الشك في الحركات التقدّمية السليمة التي تمخّض بها شعبه . والواقع ان ما لم يفرضه ممثلو الشعب على أنفسهم طوعاً واختياراً من سكوت ، فرضته عليهم رقابة مضنية قاتلة الى أبعد الحدود . فقد عمدت السلطة إلى شلّ نشاطهم من طريق هذه المراقبة ، فمَنعت ، مثلاً ، ترجمة « ولهلم تلّ » * ، ولم تسمح

* وهي اسطورة احد الرماة المشهورين ، وقد وفق إلى أن يتخلص من الطاغية بعد ان أصاب التفاحة التي كان الملك قد وضعها على رأس ابنه وأمره بأن يرميها بنشابه . (المعربان)

حتى باستعمال كلمة « وطن » . وهكذا فان الأدب التركي ، الذي ضَرَبَ خلال هذه السنوات على غرار الشعر الفرنسي المعاصر واتخذ لنفسه شعاراً هو « الفنّ للفنّ » ، لم يُنتج غير ثمرات تغلب عليها نزعة عاطفية مريضة متشائمة . وقد اجتمع ممثلو هذا الأدب حول مجلة « ثروت فنون » التي نشر فيها خالد ضيا روايتيه [ماوي وسياه] أي « الازرق والاسود » [وعَشْق ممنوع] أي « الحب الممنوع » اللتين وضعتا الأساس الحقيقي – رغم اسلوبهما الصناعيّ – لهذا الفنّ الأدبي ، عند الاتراك . ولا بدّ لنا من ان نذكر ، إلى جانب خالد ضيا هذا ، أحمد حكمت الذي انتزع إعجاب القراء بأقاصيصه الخيالية المُفرّغة في اسلوب بسيط ، والتي تجري حوادثها في عوالم من الخرافة ، في الأعم الأغلب .

القومية التركية الجديدة وأثرها في الأدب

ولم يكد رجال تركية الفتاة يتولون زمام الأحكام حتى حرّروا الأدب من قيود الرقابة الثقيلة . فلم يُقم على الولاء للمُثل الجمالية الخالصة التي شاعت في العهد السابق غير عددٍ قليل من الشعراء ، نجتزىء ههنا بالاشارة الى واحد منهم ، ليس غير ، هو أحمد هاشم الشاعر الغنائي . وهكذا برز إلى حيز الوجود أدب قومي فتيّ ما لبث ان اتخذ سبيله نحو التطور النشيط المستمر . وبعد فترة قصيرة من قيام ثورة تركية الفتاة هذه تأسست جمعية « تورك درنكي » التي خلفتها بعد اربع سنوات ، عام ١٩١٢ ، جماعة « المُسْتَوْقَد التركي » (تورك اوجاغي) وكانت أكثر من سابقتها نشاطاً . والحقّ ان مجلة هذه الجماعة « تورك يُوردي » (الوطن التركي) لم تدافع عن المثل الاعلى الجديد للقومية التركية من طريق الادب فحسب ، بل من طريق الدراسة التاريخية العميقة أيضاً . وقد نافسَ العثمانيين في تكوين الافكار الجديدة – كما رأينا سابقاً – عددٌ من الكتّاب التتار الهاربين من الروسيا القيصرية . ولكن الخلفاء ما لبثوا أن اعتبروا قائد هذه الحركة ، ضيا كوك

آلنْب ، خطراً عليهم فنفوه بعد احتلال استانبول ، إلى مالطة . ولقد استطاع بقصيدته الرمزية « قِزل ألْما » ، وعلى الأخص بدروسه في الجامعة الجديدة ، التي أسست أثناء الحرب العالمية الأولى ، ثم بمحاضراته المتعدّدة أن يُلهب نفوس الشباب بالمثل القومي الأعلى الذي عبّرت عنه الشاعرة خالدة أديب ، أجمل تعبير ، في روايتها « طوران » . ولم تستطع الكارثة التي حلّت بتركية عند انتهاء الحرب أن تقضي على هذه الحركة . ولسوف نرى بعدُ أنها نهضت نهضةً عارمةً في ظلّ الدولة التركية الجديدة .

الحياة الأدبية في سورية ومصر

ولئن استطاع الاحتكاك بالحضارة الاوروبية أن يؤدّي تدريجياً إلى وقوع انقلاب شامل في الحياة الأدبية في تركية نفسها ، لقد كانت المُثُل القديمة أقدر على الثبات مدةً أطول في البلدان العربية — على الرغم من ان هذه البلدان خضعت لمؤثرات أوروبية أقدم وأكثر رسوخاً — فلم يتطرّق إليها الضعف ، شيئاً فشيئاً ، إلا في الفترة التي عقبت الحرب العالمية الأولى . والحقّ ان انفصال مصر السياسيّ عن الامبراطورية العثمانية التي ظلت سائر البلدان العربية ، ما خلا شمالي افريقية ، خاضعةً لها قد حال دون تطوّر الأدب العربيّ تطوّراً موحّداً . أضف إلى ذلك انه لم تكن هنالك أهداف وطنية مشتركة تجمع ما بين المسلمين ومواطنيهم من النصارى الذين كانوا أكثر نشاطاً من الناحية العقلية . وفي مصر كانت الطبقة الحاكمة من أسرة محمد علي واتباعها تُعْنى بالأدب التركي أكثر مما تُعْنى بالأدب العربي . ومن ميزات هذه الفترة ان المطابع التي أنشأتها الحكومة في القاهرة لم تطبع الأنظمة العسكرية باللغة التركية فحسب ، بل طبعت فوق ذلك سلسلة كاملة من آثار الأدب التركي الكلاسيكية قبل ان تفكر في إسْباغ هذا الشرف على الادب العربيّ . أما في سورية فكان الموارنة — ومعظمهم من العاملين في خدمة البعثات النصرانية التي أسست الجامعة الاميركية في بيروت ومنافستها جامعة القديس يوسف اليسوعية — يتنافسون في إحياء الادب القديم والعودة

باللغة الفصحى إلى صفائها الاول ، وقد اعتمدوا في المحل الأوّل على عمل ناصيف اليازجي (ت سنة ١٨٧١ في بيروت) الذي حاول ان يقلد في شعره ابا الطيب المتنبي ، وان يترسّم في مقاماته خطى الحريري . أما المحاولة التي قام بها مارون النقاش (ت سنة ١٨٥٥ في بيروت) بسبيل خلق مسرحية على الطريقة الفرنسية ، ولكنها ذات موضوعات شرقية ، فقد ظلّت فريدة ولم تجد من يقلّدها . والواقع ان الرقابة التّركية حالت دون تطوّر الصحافة في سورية بما فرضته عليها من قيود تعدل قساوتها تلك التي فُرضت على صحافة استانبول . وهكذا آثر كثيرٌ من الصحفيين الموهوبين الاقامة في مصر ، وخاصة لأن السلطات البريطانية كانت قد منحت الصحافة هناك حريةً أكبر وأوسع . وإنما يتمثّل الأدب العربيّ في سورية ، في ظل عبد الحميد ، [بيوسف بن اسماعيل] النّبْهاني ، رئيس محكمة الحقوق في بيروت [حتى عام ١٩٢٦] الذي كان صديقاً لأبي الهدى ، إمام السلطان ، والذي تكشّف عن نشاط أدبيّ خِصْب جداً ، صادر عن روح الاسلام القديم ، ابتغاء وقايته من تيّارات أوروبة المسيحية .

وفي مصر حمل المسلمون لواء الأدب العربيّ وحدهم بادىء الأمر بَيْنا لم يبرز الاقباط إلى هذا الميدان إلاّ في ظل الاحداث السياسية الجديدة التي مرّت بمصر بعد الحرب العالمية الاولى . وليس من شك في أنّ إقبال محمد عليّ على الحضارة الاوروبية قد أدّى الى ازدهار حركة النقل والترجمة : فبالاضافة إلى المؤلفات التّقنيّة * والعلمية التي اتجهت الرغبة اليها بادىء الأمر ، ما لبثت ان ظهرت مجموعة ضخمة من الروايات الفرنسية التي تُرجمت في الأعمّ الاغلب من غير ما تخيّر فسيطرت في كثير من الاحيان على ذوق الجمهور ، وقامت عقبةً في سبيل نموّ الفنون الوطنية وازدهارها . بيد ان هناك عملاً فريداً لم يُقْدم أحدٌ على تقليده ، أعني ترجمة الالياذة

* technical

التي نهض بعبئها الاديب السوري سليمان البستاني ، مُراوحاً ما بين البحور العربية في أجزاء النشيد الواحد ، والتي أحسنت خلقَ الجو الملحميّ ولكنها لم تستطع ، إلا نادراً ، تقريب هذا الموضوع الغريب الى جمهور القرّاء العرب على الرغم مما حفِلت به من حواشٍ متعدّدة تنمّ عن علم غزير .
أما في عالم الشعر فقد طغت النزعة إلى تقليــد أمراء الشعر الكلاسيكي في العصر العباسي عند وزير الحرب [محمود] سامي البارودي الذي نفاه الانكليز عقب الثورة العرابية إلى سيلان ليعود إلى وطنه وهو شيخٌ كبير . ولقد وفّق في منفاه إلى أن يصوّر ما كان يَعْتوره من حزن وضيق تصويراً مُبدِعاً موثّراً . وتحدّر البارودي من اسرة تركية ؛ وكذلك اختلط الدم العربي بالدم التركي في عروق شاعر الخديوي ، أحمد شوقي ، الذي جازاه الانكليز على مدح سيده ، في أثناء الحرب العالمية الاولى ، بالنفي إلى اسبانية . وكان هذا الشاعر غارقاً في لُجج التقليد أيضاً ، ولم يشقّ لشعره سبلاً جديدة إلاّ بعد الحرب العالمية الاولى . وفي ميدان النثر القصصي سادت روايات الاديب السوري جرجي زيدان الدائرة على محور التاريخ الاسلامي ، هذه الروايات التي لم تكن أبداً عميقة جداً ولكنها استطاعت مع ذلك ان تستحوذ على القرّاء بأسلوبها السهل وتصويرها الرافل بالخيال ، وهكذا مهدت السبيلَ لازدهار الفنّ القصصي في فترة ما بعد الحرب . وسعى زيدان ، فوق ذلك ، لتعريف العرب بثمرات البحث الأوروبي في التاريخ وعلم الاجتماع . وفي مصر أيضاً لم تَنْم المسرحية إلا نموّاً بطيئاً بسبب فقدان أيّما تقليد سابق . وقد اقتصر النجاح الحقيقي على التمثيليات الفرنسية ذات الاسلوب الخفيف ، وإن لم يعدم المسرح محاولات لتقديم المآسي الفرنسية الكلاسيكية إلى جمهور النظارة . وقد قام عثمان جلال (١٨٢٩ — ١٨٩٨) بمثل هذه المحاولة ، ولكنه ما لبث ان ولىّ وجهه شطر ملاهي موليير ليعدّل موضوعاتها تعديلاً بارعاً يتفق والاحوال المصرية ابتغاء جعل هذه الملاهي سائغةً في نفوس مواطنيه . والواقع انه ابتدع في عمله هذا بدعةً جديدة فاصطنع اللهجة العامية

بدلاً من اللغة الفصحى التي كانت لا تزال سائدةً المسرحَ المصري سيادة مطلقة ، ولكن نجاحه هنا كان ضئيلاً جداً ، فلم تمثل رواياته حتى سنة ١٩١٢ لتغيب وشيكاً عن المسرح . وفي ميدان الصحافة التي نمت في مصر نمواً كبيراً نشأ اسلوب نثري جديد اصطنعه السياسيون الذين ظهروا في ظلّ الحكم البريطاني وسيلةً من وسائل الدعاية لهم . ومن هؤلاء السياسيين الذين تجب الاشارة اليهم هنا قاسم أمين (ت . سنة ١٩٠٨) الذي أدّى صدور كتابَيْه «تحرير المرأة» (١٨٩٩) و «المرأة الجديدة» (١٩٠١) إلى طرح مشكلة المرأة على بساط البحث في طول العالم الاسلامي وعرضه . حتى إذا مضت تركية قُدُماً في حلّ هذه المشكلة حلاً عملياً ، لم يحجم المجتمع المصري عن ترسّم الخطى التركية ، في تردّد لم يلبث أن اقترن بنجاح ثابت .

حركة التجديد الديني : جمال الدين الافغاني

ومهما يكن من أمر فقد كان الاسلام ولا يزال هو المهيمن على الحياة الدينية في مصر . وانما يرجع الفضل في ذلك ، في المحل الأوّل ، إلى تأثير جمال الدين ، وهو فارسيّ آثر لأغراض سياسية أن ينتسب إلى الافغان حيث قضى سني شبابه . حتى إذا اضطر سنة ١٨٧٠ الى ان يغادر الافغان بعد موت حاميه ، الامير دُوْست محمد ، قصد أوّل ما قصد إلى استانبول ؛ وكانت شهرته كعالم عظيم قد سبقته إلى هناك ، على الرغم من انه لم يكن قد نشر أيّما كتاب ، فاستُقبل استقبالاً وديّاً من قبل الحكومة والاوساط العلمية ، هذه الاوساط التي استطاع ان يُحْدِث فيها تأثيراً بعيداً بما ألقى من دروس ومحاضرات في الجامعة المنشأة حديثاً . ومهما يكن من أمر فقد نجح شيخ الاسلام في اثارة الشكّ حوله كمفكّر حرّ ، وفي اقصائه عن العاصمة . ثم انه انتقل إلى القاهرة حيث استُقبل استقبالاً حاراً . وهنا نشطَ جمال الدين في حريّة ، ومن غير ان تكون له صفة رسمية ، حتى الثورة

العرابية ، وبعث في نفوس الشبان المصريين الامل في التحرر من السيادة الاوروبية إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه التعليمية ابتغاء الدفاع عن الاسلام بوصفه ديناً أكثر إمعاناً في مضمار الرقي . وبعد الاحتلال البريطاني نُفي إلى الهند . حتى إذا كانت سنة ١٨٨٣ صار في ميسوره الذهاب إلى باريس حيث أصدر هو وتلميذه [الشيخ] محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » الاسبوعية التي كانت عظيمة الاثر الى أبعد الحدود ، على الرغم من أنها لم تعش غير فترة قصيرة . وسنتحدث عن مصايره في ما بعد عند كلامنا عن تاريخ فارس .

محمد عبده

وفي سنة ١٨٨٥ رجع تلميذه [الشيخ] محمد عبده إلى بيروت ، ثم إلى وطنه مصر ، سنة ١٨٨٨ ، حيث رحب به مواطنوه بوصفه رسول الحرية اليهم . وقد بدأ نشاطه الرسمي كقاضٍ في المحاكم الأهلية ، ليعيّن سنة ١٨٩٩ مفتياً للديار المصرية ، وكان له ، حتى وفاته في ١١ تموز سنة ١٩٠٥ ، أثرٌ بعيدٌ في إصلاح القضاء وفي مناهج التعليم بالجامعة الازهرية القديمة أيضاً . والواقع أنه أسس حركة التجديد في الاسلام ، هذه الحركة التي هدفت إلى الرجوع إلى تعاليم الرسول ابتغاء تصفيتها من كل ما علق بها بعد من زيادات غريبة عنها ، وبذلك يُقام الدليل على قدرتها على الحياة حتى في العالم الشرقيّ الذي غيّرت مدنية الغرب وجهه تغييراً كبيراً . ولا تزال آراء محمد عبده تهيمن على الحياة الدينية المصرية حتى اليوم [١٤٥].

---

(١٤٥) راجع آدمز Ch. C. Adams, Islam and Modernism in Egypt, London 1933.

وانظر ايضاً جب H. A. R. Gibb, Modern Trends in Islam, Chicago, 1947.

شمالي افريقية

طرابلس الغرب

منذ أن فتح العثمانيون شمالي افريقية في القرن السادس عشر وطرابلسُ الغرب وتونُسُ والجزائرُ خاضعةٌ لحكام اقليميين يحملون القاب «باشا» و «باي» و «داي» ويتمتعون بقسط من الاستقلال عن الحكومة المركزية باستانبول أكبر من ذالك الذي تمتع به باشاوات مصر وسورية أنفسهم ، لأن السلطان لم يكن يملك ، منذ القرن السابع عشر ، اسطولاً ذا غناء . وفي نوار سنة ١٨٣٥ توفي يوسف ، باشا طرابلس الغرب ، وهو ينتسب إلى عشيرةٍ قَرَمانيةٍ حكمت تلك الديار منذ عام ١٧١١ . عندئذ تنازع خلافته رجلان من ذوي قرباه ، اعتمد احدهما على النفوذ الفرنسي واعتمد ثانيهما على النفوذ البريطاني ، وكانت كل من فرنسة وبريطانية قد اتخذت موطىء قدم لها في البلاد بعد حملة نابليون على مصر . ثم ان الفريقين المتنازعين ارتضيا الاحتكام إلى الباب العالي ، الذي ابتهج بهذه الفرصة المواتية لاستعادة سلطته المفقودة في هذا الجزء النائي من الامبراطورية . فسيّر قسماً من اسطوله إلى طرابلس وعيّن الفريق الذي تحميه فرنسة حاكماً عليها . حتى إذا قصد الاخير إلى استانبول ليتسلم براءة التعيين بنفسه اعتُقل كأسير سياسي وبُعث

بمحمد رؤوف باشا ليحل محله في حكم طرابلس . ولكن المطالب الآخر بالعرش ما لبث ان شقّ عصا الطاعة عليه وحاصره في قلعة طرابلس التي لم تقوَ على المقاومة إلا في صعوبة وعُسر . ولم يوفق الاتراك إلى إخضاع الاقسام الداخلية من البلاد ، كرةً أخرى، الا عندما هبّ أمير البحر الكبير لنجدتهم على رأس عمارة بحرية في شهر نيسان سنة ١٨٣٦ . ثم ان حسن باشا الذي تولى مقاليد الولاية في السنة التالية — وكان رجلاً حكيماً — وفق الى اقناع البربر ، النازلين في المناطق الوعرة التي لا يمكن بلوغها ، بالاعتراف بسلطة الباب العالي ولو اسمياً . وما لبثت أن تكوّنت في المدينة ، في ظل الحكم التركي ، جالية ايطالية ناشطة ، وقد حدثناك ، في الفصل الاول من هذا القسم ، عن استيلاء الايطاليين على البلاد سنة ١٩١١ — ١٩١٢ .

الفرنسيون يفتحون الجزائر

وكان « بايات » تونس و « دايات » الجزائر قد مارسوا هم وأصحاب طرابلس القرمانيون وحكام مرّاكُش ، حتى مطلع القرن التاسع عشر ، أعمال القرصنة في جد ودأب ؛ وكان المسلمون ينظرون إلى هذه الاعمال ، بوصفها موجهة ضد النصارى ، نظرتهم إلى حرب مقدسة يحظى المشاركون فيها بأجر عظيم . ولم توفق الدول النصرانية يوماً الى ان تقوم بعمل مشترك ضدهم ، ولكنها آثرت أن تضمن كل منها حرية الملاحة لسفنها — مستقلةً عن الاخرى — من طريق جزية تدفعها اليهم . وفي أواخر القرن الثامن عشر ذهبت فرنسة إلى أبعد من ذلك ، فأنشأت علاقات ودية مع « داي » الجزائر . وعندما أخذ نابليون في الاستعداد لحملته على مصر أمده الداي بمقادير من الحنطة . ولكن الفريقين لم يتوصلا إلى اتفاق على دفع ثمن هذه الامدادات . وكانت قد قامت بالمفاوضات لعقد هذه الصفقة التجارية شركتان يهوديتان ، هما شركة بكري وابي نازك * (وكان رئيسهما ، ويدعى نَفْتالي ، قد

* Busnach وتلفظ عادة « بوزناك » . (المعربان)

سيطر على البلاد وامتص خيراتها منذ سنة ١٧٨٠ ، حتى اذا كانت سنة ١٨٠٥ ثار عليه الانكشارية فقتلوه مع كثير من اليهود اخوانه في الدين) . وبعد دعاوى استغرقت سنوات طويلة مُنحت الشركتان ، في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨١٩ ، مبلغ سبعة ملايين فرنك . ولكن دائنيهما حجزوا على هذه الاموال في فرنسة ، في حين طالب الداي بأن يصار إلى دفع القيمة إلى محميّه [وكيل الشركتين] مباشرة . وهكذا شرع يوقف السفن الفرنسية في عرض البحر ويعرقل أعمال البيوتات التجارية في بلاده . وقد صبّ نقمته بصورة خاصة ، على القنصل ، ديفال * الذي كان الداي يعتبره المسؤول الحقيقي عن هذه المماطلة . وفي صباح عيد الفطر ، ٣٠ نيسان ١٨٢٠ ، فقدَ الداي السيطرة على أعصابه ، بينما كان يستقبل رجال السلك السياسي ، فضرب ديفال بخيزرانة [بمروحته] ** وطرَدَهُ . حتى إذا أبى ان يقدّم الترضية المطلوبة طوقت فرنسة شواطىء الجزائر طوال سنتين . وإذ كانت الحكومة الفرنسية راغبة في اجتناب الحرب فقد تساهلت في مفاوضاتها مع الداي ، الذي عدّ هذا التساهل من فرنسة عجزاً . وفي تموز سنة ١٨٢٩ وقع حادث جديد . وتفصيل ذلك ان قائد السفينة لابروفانس *** ، كان يفاوض في الجزائر ، على غير طائل ؛ وبينا كان يغادر المرفأ أُطلِقت عليه النار من إحدى القلاع . ولم يكن في وسع فرنسة أن تسكت عن هذه الاهانة الجديدة . ففي ٢٥ نوار سنة ١٨٣٠ أقلع وزير الحرب ، دي بورمون **** ، بنفسه من مرسيليا على رأس ستمائة سفينة شراعية وسبع بواخر صغيرة تُقلّ جيشاً من ثلاثين الف مقاتل إلى إفريقية . وفي ١٤ حزيران وطىء الفرنسيون أرض الجزائر ، وما هي إلا اربعة أسابيع حتى اضطر الداي

---

* Deval

** هكذا في « تحفة الزائر » لمحمد الجزائري ج ١ ص ٨٢ (المعربان) .

*** La Provence

**** de Bourmont

إلى الاستسلام . ثم ان دي بورمون احتل وَهْران وبُونـه من جهة البحر وتوغّل في البلاد حتى بلغ بُلَيدة القائمة على سفح الاطلس الصغير . وفي هــذه الاثناء اندلعت ثورة تموز في باريس ، وعيُن الجنرال كلوزيل * محل دي بورمون . ووطىء كلوزيل هذا أرض الجزائر في ٢ ايلول ، وسعى في الحال إلى استعمار البلاد . فما وافى شهر تشرين الاول حتى كان قد انشأ المزرعة النموذجية الاولى . ثم انه قدّم مقاطعة قُسَنْطينة إلى باي تونس غير محتفظ لفرنسة الا بسهل مَتيْجة الخصب في ضواحي الجزائر . ولكن هذا التصرف الاعتباطي أثار نقمة باريس عليه فأقيل من منصبه في مطلع السنة التالية . أما خلفاؤه في القيادة فقد انفقوا قواهم ، على العموم ، في مناوشات صغيرة مع العرب والبربر . والواقع ان الحكومة أوشكت على التخلّي عن المستعمرة بسبب من خوفها من بريطانية خوفاً مردّه إلى الجبن قبل كل شيء .

الامير عبد القادر يعلن الجهاد

وفي هذه الاثناء عمّت الفوضى مقاطعة وَهْران ، فاستغلها مغامر شابّ يدعى عبد القادر . وكان عبد القادر هذا ابن أحد المرابطين ، وكان قد أدّى فريضة الحج إلى مكة مرّتين . وإذ كان ، إلى تقواه ، بارعاً وشجاعاً فقد وضعت قبيلتا هاشم وعامر أنفسهما — بعد ان تعبتا من الخصومة المستمرّة — تحت إمرته على الرغم من حداثة سنه ، فقد كان عمره لا يتجاوز الثانيــة والعشرين . وما هي إلا فترة ، حتى وفق إلى اقصاء الزعماء الآخرين عن الميدان ثم انه تسمّى بأمير المؤمنين ودعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين . فدخل الجنرال دي ميشال ** ، قائد وهران ، في مفاوضات معه ، ولكن خلَفه الجنرال تريزل *** استخفّ بقوته فحاول الاستيلاء على الجزء الداخلي من البلاد

* Clauzel
** Desmichel
*** Trézel

بقوات هزيلة . وفي ٢٦ تموز سنة ١٨٣٥ مني القائد الفرنسي بهزيمة شنعاء عند نهر المَقْطَع * ، ومن ذلك الحين عُدّ عبد القادر ، في طول افريقية الشمالية وعرضها ، حامي الاسلام ومنقذه .

وفي غمرة هذه المحنة عيّنت الحكومة الفرنسية الجنرال كلوزيل حاكماً عامّاً ، كرة أخرى ، في شهر آب سنة ١٨٣٥ فوفق إلى ان يُخرج عبد القادر من عاصمته مَعَسْكر ، وإلى ان يُنجد الاتراك الذين كان جنود عبد القادر يحاصرونهم في تِلِمسْان . وإذ أحجمت الحكومة الفرنسية عن تحمّل نفقات حملة عسكرية كبيرة ، فقد تعين عليه ان يجتزىء بفتح قُسَنطينة . والواقع ان شاباً من الطامحين إلى الحكم وعد كلوزيل بأن ينصره على الباي الذي كان يحكمها ، والذي كان قد حصل على لقب باشا من الباب العالي ولكنه اكتسب كره رعاياه وعداءهم بما ابتزّ من أموالهم . وحسب كلوزيل ان في ميسوره الاستيلاء على البلاد بسبعة آلاف مقاتل ، ولكنه اضطر في تشرين الثاني إلى ان يرجع ، بعد قتال عنيد ، بخفّي حنين ، ليعين محله ، بسبب من هذا الاخفاق ، الجنرال دامريمون ** (شباط ، سنة ١٨٣٧) .

وكان الجنرال بوجو *** قد حمل ، في أثناء ذلك ، حملة موفقة على عبد القادر الذي ما انفك ينزل ضرباته بالمواقع الفرنسية في الغرب . ولكن لما كانت الحكومة راغبة في أن تغسل ، أول الامر ، العار اللاحق بها في قسنطينة فقد اضطر بوجو إلى ان يعقد مع عبد القادر ، عند نهر تافْنا (٣١ نوار) ، معاهدة صلح لم تكن في صالح فرنسة على الاطلاق ، ذلك بأن عبد القادر لم يسترد بموجبها مَعَسكر فحسب بل مقاطعة وهران برمتها تقريباً وجزءاً كبيراً من مقاطعة الجزائر . ومهما يكن من أمر ، فقد بسط

* ويعرف أيضاً بنهر « هبرة » . (المعربان)

** Damrémont

*** Bugeaud

عبد القادر سلطانه ، بالاضافة الى ذلك في اتجاه الشرق أيضاً بأن أقام حاكماً على كل من مَجانة وزيبان ولَغواط * كذلك تقدم في الصحراء ، واقتحم في تشرين الثاني سنة ١٨٣٨ ، بعد حصار دام خمسة اشهر ، حصن [عين ماضي] وكان صاحبه مرابطاً يدعى محمد التُّجيني ، وكان محمد هذا قد ناهضه استناداً إلى نفوذه بين البربر . ولقد سعى عبد القادر ، قبل كل شيء إلى التمكين لحكمه من طريق تدريب جنده على الطرائق الاوروبية .

وفي أواخر ايلول سنة ١٨٣٧ سار دامريمون على رأس اثني عشر الف مقاتل إلى قسنطينة . فلما كان اليوم السادس من تشرين الاول بدأ قذف المدينة بالمدافع ؛ وكان دامريمون يودّ أن يشرع في اقتحام المدينة بعد ستة أيام ، بيد انه سقط صريعاً فيما كان يعدّ العدة لهذا الهجوم فحل فاليه ** محله في القيادة . وبعد معارك دامية دارت رحاها آخر الامر في شوارع المدينة نفسها سقطت القَصَبة ، وهي الحصن المطلّ على المدينة ، في ١٣ تشرين الأول . ومنذ ذلك الحين خطا احتلال البلاد خطوات واسعة إلى الامام . وانشئت مدينة فيليب *** لتكون ميناء لقسنطينة . ومن الجزائر احتل الفرنسيون بُليدة أيضاً ؛ وفي تشرين الاول سنة ١٨٣٩ صار في ميسور جيوش الجزائر وقسنطينة ان تلتقي عند بُوَيْره ، عبر الاطلس .

واعتبر عبد القادر تقدم الفرنسيين هذا نقضاً لمعاهدة تافنا ، فدعا في المَديّة إلى الجهاد ضد الفرنسيين ، فهاجم عامله [أحمد] بن سالم متيجة . وانقضت فترة المّ الخطر فيها بالجزائر ، وكانت حاميتها ضعيفة ، ولكن فاليه ما لبث ان هزم عبد القادر عند شِفّة ، ثم احتل المدية في ١٨ نوار سنة ١٨٤٠ .

وفي أواخر العام عُين بوجو ، أفضل رجال فرنسة العسكريين ، حاكماً

* وأصلها « الأغواط » وهو الصواب ، غير ان المتعارف عليه « لغراط » . (المعربان)

** Vallée

*** Philippeville

عاماً على الجزائر . فلما كان الربيع من سنة ١٨٤١ افتتح الحملة ، على عبد القادر ، من المدية ، فانتصر عليه انتصاراً باهراً في ٤ نوار . ثم انه انقلب إلى الشاطىء ، ليزحف من مُسْتَغانم إلى الداخل ، كرة أخرى ، وليحتل في ١٨ نوار عاصمة عبد القادر الجديدة ، تاكْدَمْت ، مُخرباً من قاعدته في (مَعَسْكر) قصر والد الامير ، حيث كان الامير نفسه يلتمس الراحة في كثير من الاحيان . وقد أتى على هذا القصر حينٌ من الدهر كان فيه مركزاً خطراً من مراكز التعصب الديني في الاسلام .

مصير عبد القادر

وفي ربيع سنة ١٨٤٢ احتل بوجو تلمسان ، وفي ٩ شباط خسر الامير مدينة سَبْدُو ، آخر مدنه المحصنة . ومن ذلك الحين لضطرّ إلى ان يضرب في البلاد مع جيشه ، وكانت عدّته نحواً من خمسين الف رجل ، ليطارده الفرنسيون من مكان إلى مكان . وفي ١٦ نوار وفق دوق دومال * بعد زحف مستمر ، إلى مباغتة العدو والتغلب عليه . وهكذا سقط اربعة آلاف من رجال الامير ، وسقطت أمواله وعائلات عدد من أكثر أتباعه قوةً ومكانةً في أيدي الفرنسيين . ولكن عبد القادر ، الذي استماتت حرسه في الدفاع عنه ، استطاع هذه المرة أيضاً ان يُفلت من الوقوع في قبضة العدوّ ، ليجد الامن في الارض المراكشية . وفاوض بوجو المراكشيين في شأن تسليمه ، ولكن على غير طائل . فلم يكن منه إلا ان عبر الحدود بنفسه . وكانت عمارة من الاسطول الفرنسي قد تقدمت في الوقت نفسه، إلى شواطىء مراكش مهدّدة طَنْجَة والصُّوَيْرة ** . وفي ١٤ آب دارت رحى المعركة في وادي إيسْلي ، احد روافد نهر تافنا ، بين الفرنسيين والجيش المراكشي وكانت عدّته ٦٥ الف رجل تحت قيادة ابن السلطان . ولم يكن تحت تصرّف بوجو

---

* Duc d'Aumal

** Magador . وترد ايضاً « السويرة » بالسين .

(المعربان)

أكثر من ستة آلاف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع ان يهزم هذه الجيوش الضعيفة السلاح ، الفاقدة النظام . عندئذ أعلن السلطان استعداده لعقد الصلح . ولكنه لم يُسلم عبد القادر إلى الفرنسيين . ولو قد أراد تسليمه وخلصت نيته في الامر لما وجد إلى ذلك سبيلاً لأن القبائل البربرية الضاربة على طول الحدود لم تكن تحترم سلطته إلا قليلاً . واذكى أتباع الطرق ، ولا سيما « الدّرقاوا » ، نيران العصبية الدينية بين القبائل فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين . وفي ربيع سنة ١٨٤٥ برز إلى الميدان بطلٌ من ابطال الجهاد جديد هو المرابط « بو مَعْزَة » (أي الرجل صاحب الشاة) فقاد قبيلة ضَهْرَة البربرية لقتال الفرنسيين .

وعندما عاود عبد القادر الهجوم على الجزائر وجّه بوجو ثماني عشرة فرقة لمطاردته ، طوال الخريف والشتاء من سني ١٨٤٥ — ١٨٤٧ ولكنها لم توفق إلى اللحاق به . حتى إذا هُزِم أكثر من مرّة خلال الربيع فزع إلى الاراضي المراكشية ، كرة اخرى . ولكن ممثلي الحكومة الفرنسية استطاعوا ان يُقنعوا السلطان ، آخر الامر ، بأن يوجّه اليه جيشاً ، ويخرجه من البلاد . وفي ٢١ كانون الاول عبر عبد القادر نهر مُلُوية — القائم على الحدود — تحت نيران القوات المراكشية ، فطوقته الجيوش الفرنسية ليستسلم في الثالث والعشرين من الشهر نفسه بعد أن وُعِد بأن يُنقل إلى عكا أو الاسكندرية . إذ كان يرجو ان يؤدي فريضة الحج كرّةً أخرى . وبدلاً من ان يحقق له الفرنسيون وعدهم هذا ، حملوه إلى طولون ثم أسروه في قلعة آمبواز . وفي ٢ كانون الاول سنة ١٨٥٢ فكّ نابليون الثالث إساره . ولقد نزل ، أول ما نزل ، في بروّسه ، حتى إذا وقع زلزال سنة ١٨٥٥ أقام في استانبول ثم في دمشق . وقد ذكرنا في الفصل الاول من هذا القسم كيف انقذ هو

ومواطنوه الذين رافقوه إلى المنفى ، بعض النصارى من الموت على أيدي الدروز ، سنة ١٨٦٠ . وتوفي عبد القادر بدمشق سنة ١٨٨٣ .

لالا فاطمة تحارب الفرنسيين

وفي الجزائر ، كان على الفرنسيين أن يسلخوا فترة طويلة في قتال البربر النازعين أبداً الى الثورة ، في شرقي البلاد . وفي سنة ١٨٥٧ ظهرت في قبيلة يَنّي نبيّة اسمها لالاّ فاطمة ، فاتبعتها القبائل المجاورة كلها . وقد اضطر الحاكم العام ، راندون ، * ان يخرج بنفسه لقتالها على رأس ثلاثين الف رجل . وبعد معارك دامية أسر راندون لالاّ فاطمة واخضع القبائل إخضاعاً كاملاً .

سي سليمان يعلن الثورة على الفرنسيين أيضاً

وفي جنوبي الجزائر كان الفرنسيون قد عهدوا في الحكم إلى عشيرة « أولَـد سيدي شيخ » الوطنية ومنحوها سلطات واسعة . وفي سنة ١٨٦٤ استشعر ثالث ممثلي هذه الاسرة ، سي سليمان ، ان كرامته قد مست بسبب من سلوك بعض الضباط الفرنسيين . فأعلن الثورة ، في شهر شباط ، بتحريض من عمه ، سي لالا . فلم يكن من القائد العام ، بوبريتر ، ** إلا أن هرع من تيارتْ لأخماد الثورة . ولكن خيالته الوطنيين خدعوه وفتكوا به وبفرقة المشاة التي كان يقودها ، وان يكن قد استطاع ، وهو في النزع الاخير ، أن يطلق النار على سي سليمان الذي كان قائماً الى جنبه فيرديه قتيلاً . بيد ان مصرع سي سليمان لم يضع حداً للثورة ، فقد نهض بعبء القيادة من بعده اخوه محمد والمرابط سي لازرَق . وإذ كان نابليون الثالث قد بعث بأفضل جيوش الاحتلال المجرّبة إلى المكسيك والهند الصينية ، بعد ان اطمأن

* Randon
** Beauprêtre

إلى سلامة البلاد ، فقد استمرت الحرب فترة طويلة في جنوبي الجزائر . صحيح أن زعيمي الثورة صُرعا في شتاء ١٨٦٤ – ١٨٦٥ ، ولكن اتباعهما المعتصمين في الجبال التي تعذر على الفرنسيين بلوغها لم يلقوا السلاح ، وكانوا يفزعون إلى الارض المراكشية كلما آنسوا خطر القوات الفرنسية عليهم . وعلى الرغم من ان الجنرال ويمبفان * انزل العقاب بحلفائهم سنة ١٨٧٠ فقد ظل الثوار يتراجعون شيئاً فشيئاً في الصحراء ولم يكن في الامكان اخضاعهم نهائياً إلاّ في سنة ١٨٨٤ .

آخر حركات التحرر في الجزائر

بيد ان هزائم فرنسة في حربها مع المانية وتحولها إلى النظام الجمهوري سنة ١٨٧١ انعشت في الجزائر آمالاً جديدة في الحرية والاستقلال . واعتبر المسلمون على الخصوص مرسوم ٢٤ تشرين الاول سنة ١٨٧١ القاضي بمنح جميع اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية أمارة من امارات الضعف . فلم تكد تبدأ السنة التالية حتى نشبت الاضطرابات بسبب من تجنيد السباهيين وحشدهم على الحدود التونسية بخاصة . وانما وجدت الحركة زعيماً قوياً في شخص مُقْراني باش آغا مَجانه ، يؤيده مرابطان اثنان أيضاً . وكان مقراني هذا ينتسب إلى اسرة من أغنى الاسر وانبلها في مقاطعة قسنطينة ، وكانت الحكومة قد امطرته بوابل من انعاماتها جزاء ما أبداه في ذلك العهد من اخلاص وولاء . ولكنه ما لبث ان استقال من منصبه ، عند تأسيس الادارة المدنية ، لأنه يأبى ، كما قال ، ان يطيع رجلاً من اليهود . والواقع ان العامل الشخصي لعب دوره ، في قضيته ، إلى جانب الاستياء السياسي . ففي أثناء مجاعة سنة ١٨٦٧ اضطرّ إلى ان يثقل ظهره بديون جسيمة ابتغاء مد يد المساعدة إلى مواطنيه ، حسب مقتضى الشرف عند العرب ، ولكن الحكومة لم تف يوماً بما وعدته به من تعويض . وهكذا دعا ، في منتصف

* Wimpfen

آذار ، إلى اجتماع قبَلي كبير ثم أعلن الحرب على قائد أقرب موقع عسكري . وفي ٨ نيسان انضم اليه رأس الطريقة الرّحمانية . الشيخ الحداد ، بعد ان حرّضه على ذلك ابنه «العزيز» ، وكان طموحاً . وما هي إلا فترة حتّى اشتركت قبائل البلاد كلها ، من البحر حتّى الصحراء ، في القتال ، وطفق الثوار ينتشرون على مقربة من الجزائر . وفي ٦ نوار قُتِل مُقراني في معركة دارت رحاها في وادي سُفْلَة قرب أومال ، فقام مقامه اخوه بومَزْراك الذي اضطر إثر معارك عدة ، إلى الامعان في الارتداد جنوباً ليقع في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ أسيراً في يد العدو ، قرب رُوَيْسات . حتّى إذا أخمدت الثورة آخر الامر تعين على القبائل ان تدفع نفقات الحرب الباهظة ، فالغيت ادارتها البلدية المستقلة وأكرهت على أن تتخلى عن نحو ٤٥٣٠٠٠ هكتار من أراضيها ليستقر فيها المستعمرون الفرنسيون . وهكذا أخمدت حركة التحرر الجزائري ، وأخلد القوم للسكينة فلم تعرف البلاد إلا بعض الانتفاضات غير الهامة . وما لبث المهاجرون الاوروبيون ان اجتاحوا البلاد شيئاً بعد شيء ، فاذا تاريخها يرتبط ، منذ ذلك الحين ، بتاريخ الاستعمار الفرنسي .

الفرنسيون يحتلون تونس أيضاً

وكان باي تونس لا يزال محتفظاً باستقلاله ، ولكنه كان قد أهمل واجباته الادارية إهمالاً ليس أبشع منه حتّى لقد انتهى ثلث الاراضي التونسية الخصبة إلى ان يصبح ، في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، بلقعاً . وكان يقطن في عاصمته كثير من الايطاليين ، وكانت ايطالية تطمح منذ زمن طويل إلى ان تحذو ههنا ، في يوم من الايام ، حذو فرنسة في الجزائر . ولكن رومة لم تجروُ على ان تخطو خطوة حاسمة في هذا السبيل خشية ان تخلق بذلك ازمة دولية ، في حين تدخلت فرنسة عند أول فرصة سانحة لتبسط سلطانها على هذه البلاد أيضاً . حتّى إذا نشب خلاف بين البـــاي

واحدى الشركات التجارية الفرنسية ، سنة ١٨٨١ . جُرِّد الباي من سلاحه ، في العاصمة ، على يد جيش كان قد اجتاح تونس بحجة تأديب قبيلة بدوية اخترقت الحدود وقامت بأعمال عدائية هناك . والحق ان الفرنسيين أبقوا للباي عرشه ، اسمياً ، إلا انهم سلبوه جميع السلطات الحقيقية ، بلا استثناء .

اشراف مراكش العلويون

منذ سنة ١٥٤٤ ومراكش خاضعة لحكم أسرة علوية من الاشراف [الحسنيين] هم بنو سعد . وقد دام ملك هؤلاء حتى سنة ١٦٤٤ عندما خلفهم بنو فِلال الحسنيون الذين لا يزالون يحكمون البلاد إلى اليوم ، حكماً اسمياً * . ويحمل كل من ممثلي هذه الأسرة لقب « الخليفة وامير المؤمنين » . وهم يقيمون سلطانهم على أساس من مبدأ الشرعية المتمثل في تحدّرهم من الرسول ، ومن هنا جاز لنا ، في الحق ان ندعوهم شيعة . ولكن العلويين المراكشيين لم تكن لهم ، في يوم من الايام ، أية صلة بالتطور الديني الذي عرفه الشيعة في الشرق ، وفي جنوبي بلاد العرب ، وعلى الخصوص في فارس . والواقع ان مذهب مالك السنّي الصارم هو الغالب على مراكش ، شأنه في شمالي افريقية كلها .

وانتهى بنو سعد إلى محلّ السلطة عندما كان البرتغاليون يسعون لتوطيد سلطانهم في جنوبي مراكش فلا يقوى المتأخرون من بني مَرين على صد هجماتهم . وفي سنة ١٥١١ تولى شريف تاكمادارَت قيادة المجاهدين ، فوفق ابنه محمد ، بعد ان ردّ الاجانب على أعقابهم سنة ١٥٥٤ ، إلى أن يهزم أتراك الجزائر الذين كان بنو مَرين يطمعون في أن يستعيدوا مملكتهم بمساعدتهم ، وهكذا فرض سلطانه على البلاد برمتها . ثم ان ابنه وخليفته الرابع احمد الأول المنصور (١٥٧٨ — ١٦١٠) بسط سلطان اسرته حتى

* كان ذلك قبل استقلال البلاد طبعاً . (المعربان)

قلب الصحراء وفتحَ تمبَكْتو * وخرّب مملكة سَكيَّة صاحب كَاغوْا .
ولكن هذه الانتصارات الخارجية التي مكّنته من أن ينعم ببلاط زاهر في مَرّاكُش ، انتهت به إلى أن يُهمل التنظيم الداخلي لامبراطوريته . فبدلاً من أن يوطّد دعائم سلطته في الداخل اكتفى بأن يستخدم جيوشه التي ألّفها من قبائل البربر الجنوبية ومن عَرَب تلمسان ووُجْدَة وأنزلها في ضواحي فاس ، لجمع الضرائب وتقديمها إلى الخزانة العامة أو « المخزن » . وفي عهد خلفائه المستضعفين أعلنت فاسٌ نفسها استقلالها ؛ ليس هذا فحسب ، بل إن مسلمي الاندلس الذين أخرجوا من اسبانية ونزلوا في رِباط وسَلا والذين اكتسبوا ثروات صالحة من طريق القرصنة ، ما لبثوا ان انشأوا جمهوريات تتألف كلٌ منها من مدينة واحدة ، شأنهم في الأندلس ، من قبل . كذلك بسط عددٌ من المرابطين سلطتهم الزمنية على اتباعهم في « زواياهم » أو مستعمراتهم الدينية . ومن بين هؤلاء ظهرَ ، الرشيدُ ، وهو رأس العشيرة الشريفية الحَسَنية في تافيلالت ، بعد مصرع آخر بني سعد سنة ١٦٦٠ ، فقضى شيئاً بعد شيء على سلطة الحكام الصغار . ثم ان اخاه وخليفته ، اسماعيل ، (١٦٧٢ — ١٧٢٩) أنشأ جيشاً قوياً من الرقيق الزنجي أقسمَ أفراده يمين الاخلاص له على « صحيح البخاري » ، ومن هنا عُرفوا بعبيد البخاري ، أو العسكر البخاريّ . وقد استطاع ، بواسطة هذا الجيش ، أن يخضع قبائل البربر وان يسعى لتطهير البلاد من الدخلاء الأجانب الذين استغلوا ضعف بني سَعد في العهد السابق . والواقع ان البرتغاليين احتلوا طوال قرنين تقريباً (١٤٧١ — ١٦٦١) ثغر طَنْجة ، أعظم المرافىء الواقعة على البحر الابيض المتوسط ؛ وفي سنة ١٦٦١ قدّمت الاميرة كاترينا البرتغالية هذه المدينة صداقاً إلى زوجها شارل الثاني ملك

---

* وجاءت في « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » لابن بطوطة « تنبكتو » بضم التاء الاولى والباء . راجع طبعة باريس ١٨٧٤ — ١٨٧٩ ، ج ٤ ص ٣٩٥ .
(المعربان)

انكلترة . ولكن اسماعيل وفّق سنة ١٦٨٤ الى ان ينتزع المدينة من الانكليز ، بعد حصار دام ست سنوات . فطرد الاسبان من قواعدهم على المحيط الاطلسي . والحق ان سَبْتة دون غيرها (وهي التي غنمها فيليب الثاني إذ ضمّ البرتغال إلى اسبانية سنة ١٥٨٠ والتي ظلّت في قبضة الاسبان حتى بعد إقامة المملكة البرتغالية من جديد) — ثبتت سبعة وعشرين عاماً (١٦٩٣ — ١٧٢٠) في وجه جيوش اسماعيل المحاصِرة ، على الرغم من ان الوطن الأمّ ، المنهمك في حرب الوراثة الاسبانية ، لم يُبْدِ أيّ اهتمام بالحامية الباسلة . حتى إذا توفي اسماعيل تردّت مراكش ، كرة أخرى ، في دياجير الفوضى ، وانتهت جيوش الزنج إلى أن تستخدم قوتها لرفع الأمراء وخلعهم . ولم يوطّد الأمن إلا على يدي محمد الاول ، حفيد اسماعيل ، (١٧٥٧ — ١٧٩٢) الذي حاول أيضاً القضاء على قرصنة رعاياه من طريق عقد معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية . ولكن هذه المعاهدات لم تَعُدْ على بلاده بالفائدة التي كان يرتجيها . وفي عهد خلفائه تجلّت مساوىء الحكومة أكثر فأكثر ، وقد سعوا إلى ان يحموا أنفسهم من طريق إيصاد أبواب البلاد إيصاداً شديداً في وجه الأوروبيين الذين لم يُسمح لهم بحقّ التمثيل السياسي إلا في طنجة .

النظام الاداري في مراكش

وقد ميّز القانون المراكشي العام تمييزاً واضحاً بين « بْلاد المَخْزِن » ، وهي المقاطعات المغلوبة الخاضعة للحكومة ، وكانت تؤدّي الضرائب وتقدّم العساكر ، وبين « بْلاد السّايبة » وهي المقاطعات المستقلة ، وتبلغ مساحتها اربعة أضعاف أو خمسة اضعاف مساحة « بلاد المخزِن » . وكان الاطلس في جملة البلاد المستقلة عدا مقاطعة صغيرة جداً كانت تُعتبر من « بلاد المخزن » . والواقع ان قبائل قليلة جداً فقط كانت قد أخضعت اخضاعاً فعلياً ، في الغرب ، في الاقاليم القريبة من البحر ؛ أما القبائل الأخرى فكانت ، رغم إقرارها الاسمي بسيادة السلطان ، لا تؤدي ضريبة ما ،

بل تكتفي بإرسال الهدايا ، بين الفينة والفينة إلى مَرّاكُش . ولعل عدداً من القبائل النازلة في الاجزاء التي لا يمكن بلوغها من الاطلس لم تكن تعلم ان هناك سلطاناً . والواقع ان زعماء البربر الكبار كانوا يعتبرون أنفسهم كالسلطان قوةً وبأساً ، فهم ينظرون اليه كمجرّد زعيم لقبيلة معادية تعيش بعيداً عنهم . ففي سنة ١٨٨٩ مثلاً رفضت احدى القبائل ان تقدّم حتى التبن لجيش السلطان البالغ عدده عشرة آلاف رجل ، والمرابط في أراضيها . وفي السنة التالية منعت القبيلة نفسها سفيراً ايطالياً من المرور في منطقتها ، وكان هذا السفير يبغي ان يقدّم أوراق اعتماده إلى السلطان . وفي مثل هذه الاحوال كان على السلطان ان يلجأ إلى اصدار أوامره إلى القبائل المجاورة للقبيلة العاصية بالانقضاض عليها ، وذلك بأن يسمح لهذه « بأكل » تلك ، وهو اصطلاح فنّي في السياسة المراكشية . ولكن هذه الوسيلة أيضاً لم تكن فعّالة دائماً ، فقد استطاعت عدة قبائل صغيرة ، من مثل قبيلة مَزْكَلْدَة ، ان تتحدى السلطان سنوات طويلة . وكان يتعيّن على السلطان ، في الأعم الأغلب ، أن يفاوض القبيلة . ونادراً ما كانت سلطته تعدو منح تثبيت اسميّ لرئيس القبيلة المنتَخَب . وكان من همّ السلطان ، في المحل الأوّل ، ان يسعى دائماً إلى إقامة علاقات حسنة مع المرابطين الذين تمتعوا بنفوذ كبير عند البربر ، فهو لا يجروُ على ان يُغفل تقديم أسنى الجوائز إليهم كلما وفدوا لزيارته أو سار هو لزيارتهم .

وحتى في « بلاد المخزن » لم تكن ثمة حكومة منظمة أيضاً . وكان السلطان يمارس سلطاته المدنية بواسطة القوّاد الذين كانوا يحملون في المدن الكبرى (مراكش ، وفاس ، ورباط ، ومكْناسة) لقب باشا . وكان أول واجباتهم أن يجمعوا الضرائب ، في حين كان عليهم ، في المقام الثاني ، ان يوطدوا الأمن ، وان ينفذوا الأحكام القضائية . ولم يكونوا يتقاضون رواتب ما ، وفقاً للعرف الشرقي القديم ، بل كانوا على نقيض ذلك يشترون مناصبهم شراءً . وهكذا اضطروا إلى أن ينتزعوا من الناس ، بالاضافة إلى الضرائب

الشرعية وإلى مواردهم الخاصة . أثمانَ هذه المناصب التي لم تكن بخسةً بحال من الأحوال . وكان السلطان يجد نفسه أحياناً في موقف خلفاء بغداد قبله : فقد كان يُضْطَرّ ، في بعض المناطق التي سبق ان خضعت لسلطته . إلى ان يُثبّت في مقام « القيادة » رجلاً استهلّ حياته قاطع طريق ، كل ذلك حفاظاً على آخر مظاهر سلطته الاسمية .

الجيش

وكان القواد يقدّمون إلى السلطان « المَخْزَنية » ، وهي في الأعم الاغلب جيوش اقطاعية خيّالة . كان بعضها يقوم على حراسة المقرّ في حين كان بعضها الآخر يقوم على حفظ النظام والامن في أنحاء البلاد وقصباتها المنتشرة في مخارج شعاب الاطلس . وفي سبيل مدّ هذه الجيوش بالعناصر الجديدة كان السلاطين يجندون المشاة في جميع المدن الرئيسية ، ويخضعونهم لمقدار معين من التدريب ، على الأساليب الاوروبية . وكان على رأس هؤلاء المشاة في مطلع القرن العشرين ، ضابط بريطاني هو « القائد » ماك لين * ومهما يكن من أمر فقد كانت اسلحة الجنود وتدريبهم ، على الجملة ، دون الغاية المرجوّة .

السلطان حسن وابنه عبد العزيز

وفي ١٨٧٣ رقيَ العرش السلطان حسن ، وملء بُردَيه آمال عراض في القوة والثروة . والواقع أنه انفق جهده كله في النضال ضدّ الاحوال السيئة التي كانت تسود امبراطوريته ، ولكن هذه المساوىء استعصت على الأصلاح بمثل القوة المحدودة التي كان يملكها ، على الرغم من انه استطاع أن يوسّع « بلاد المخزن » في اتجاه الجنوب ، ويقوم بتقدّم جديد في الصحراء .

* Mc Lean

وفي سنة ١٨٩٤ توفي السلطان حسن في حملة عسكرية جرّدها على احدى قبائل البربر الثائرة ، بعد أن أوصى بالعرش لابنه القاصر ، عبد العزيز ، وقد رُزِقَهُ من جارية جركسية ، من دون أخ له أكبر منه . ووفق مستشاره الواسع النفوذ ، سي احمد بن محمد ، إلى أن يكتّم نبأ الوفاة إلى ما بعد نقل جثمان السلطان إلى رباط حيث كان يقيم عبد العزيز . وهناك نادى بهذا الأخير خليفةً ونصّب نفسه وصياً عليه . بعد وفاة وزيره ، سنة ١٩٠٠ ، أضاع السلطان الشاب عطف رعاياه من طريق إيثاره لثمرات الحضارة الاوروبية وزيادته الضرائب . فخرج عليه ثائرون متعددون في جميع أنحاء البلاد نخصّ بالذكر منهم روكي عمر الزَّرْهُوني المعروف بـ « بو حمارة » أي « الرجل راكب الأتان » (الشعار الشرقي القديم للحاكم المنقذ أو المخلص) الذي أورث حكومة تازَة متاعب كبيرة مدةً طويلة من الزمان ليقع في الاسر سنة ١٩٠٩ وينفّذ فيه حكم الموت .

مؤتمر الجزيرة الخضراء

وحاولت فرنسة ان تفيد من ضعف مرّاكش فتوسّع ممتلكاتها الاستعمارية في اتجاه الغرب . وفي سنة ١٩٠٤ انتزعت فرنسة موافقة بريطانيا واسبانية على مشروعاتها التوسعية بعد أن اعترفت بمركز الاولى في مصر ، وبعد ان منحت الاخرى منطقة نفوذ أوسع في ممتلكاتها السابقة في الشمال . وكان الفرنسيون قد قدّموا إلى السلطان مشروعاً للاصلاح الأداري يوضع موضع التنفيذ بمساعدتهم ، عندما وَطِيء القيصر ولهلم الثاني ، في ٣١ آذار سنة ١٩٠٥ أرض طنجة — وكان يقوم برحلة في البحر المتوسط — بعد ان حرّضه على ذلك مستشاروه الذين كانوا يؤيدون مصالح الاخوة مانْسمان * الاقتصادية الشديدة الغموض في مناجم مراكش . وهناك في طنجة القى القيصر خطاباً أيّد فيه استقلال السلطان . وعلى اثر هذا الخطاب نجح عبد العزيز في عقد

* Mannesmann brothers

مؤتمر دولي لبحث المسألة المراكشية . ولقد عُقِدَ هذا المؤتمر في الجزيرة الخضراء (١٥ كانون الثاني إلى ٧ نيسان ١٩٠٦) لينتهي إلى الاعتراف بسيادة السلطان والاتفاق على انشاء بوليس دولي للمرافىء ومصرف للدولة يكون رأسماله أوروبياً .

عبد الكريم بطل الحرية المراكشية

وإذ قد عجز عبد العزيز ، على الرغم من هذه المساعدة ، عن توطيد النظام والأمن ، ليضطرّ بسبب من ذلك إلى ان يقف مكتوف اليدين في وجه الاحتلال الفرنسي لـ « وُجْدَةَ » والدار البيضاء سنة ١٩٠٧ ، فان أخاه عبد الحفيظ ما لبث أن ثار عليه ، مُستغلاً الاستياء العام في طول البلاد وعرضها ، وحملَ الفقهاء على خلعه . وفي فترة وجيزة اخضع البلاد كلها لطاعته ، واعترفت به أيضاً كل من اسبانية وفرنسة بعد ان اقرّ اتفاقات الجزيرة الخضراء . ولكن عبد الحفيظ لم يكن أقدر على مواجهة الاوضاع العسيرة من أخيه ، فطوّقه الثوار في فاس ، سنة ١٩١١ ، ليُضطر إلى التماس المساعدة من فرنسة . والواقع ان هذا الحادث قرّر مصير البلاد ، على الرغم من ان المانية ظلت تحاول ان تضمن لنفسها بعض الحقوق من طريق هجومها على اغادير * ، هذا الهجوم المعروف بـ « وثبة النمر » [١٤٦] ، بعد ان كانت اسبانية قد وسّعت منطقتها أيضاً باحتلال العرائش والقَصْر . ومهما يكن من أمر فقد اعترفت المانية نفسها ، آخر الأمر ، بالحماية الفرنسية التي حُدّدت شروطها تحديداً رسمياً بمعاهدة عُقدت مع السلطان في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٢ . وخَلَفَ عبدَ الحفيظ السلطانُ يوسفُ ، حتى إذا توفي هذا سنة ١٩٢٧ خَلَفَه ابنه محمد الثالث . ووطّد المارشال ليوتي ** ، بما شنّ من

---

* وردت أيضاً « أغدير » و « أكادير » بالكاف الفارسية . (المعربان)

(١٤٦) إذ ارسلت إلى « أغادير » مركباً حربياً اسمه النمر « **Panther** »

** **Lyautey**

حملات على القبائل المعادية ، سلطة الحكومة التي انتهى السلطان إلى أن يُصبح مجرّد رئيس اسميّ لها . واحتفظت فرنسة ، خلال الحرب العالمية الاولى ، بالمركز الذي اكتسبته في مرّاكش ، لتبسط سلطانها ، من طريق سلسلة من حروب العصابات المضنية ، على البلاد كلها ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٤ . ولم تعرف البلاد المراكشية بعدُ غير بطل واحد من أبطال الحرية هو عبد الكريم الذي كانت اسرته قد استقرّت منذ زمن طويل في الريف عند أجْدِر على خليج الحُزامَى . ففي سنة ١٩٢١ شقّ عبد الكريم الطاعة على الاسبان الكي يحفظ على افراد قبيلته ، الذين لم تكن اسبانية قد اخضعتهم بعد لسلطتها ، نعمة الحرية والاستقلال . ولم يكن مع عبد الكريم غير عدد قليل من الرجال ، أول الامر ، حتى إذا تراخت الايام نمت قواته نمواً سريعاً وانضمت اليه جميع القبائل في مراكش الشمالية تقريباً . وانزل عبد الكريم باعدائه ، الاسبان ، خسائر فادحة ثم هاجم المنطقة الفرنسية وتهدّد فاس بالاحتلال . عندئذ تعاونت اسبانية وفرنسة في سبيل القضاء عليه ، وفي شباط ١٩٢٦ اضطرّ عبد الكريم إلى القاء السلاح ، فنُفيَ أول الأمر إلى مرسيليا ثم إلى جزيرة [١٤٧] [ريـُونيُون بالقرب من جزيرة القُمْر أي مدغسكر] ومنذ ذلك الحين وطدت اسبانية أيضاً سلطتها في مراكش ، والواقع ان المحاربين المراكشيين الشجعان أسدوا إلى فرانكو خدمات جُلّى في نضاله بسبيل الاستيلاء على اسبانية نفسها .

لم ترتفع الحياة العقلية في إفريقية الشمالية كلها حتى اليوم عن مستوى القرون الوسطى . فما برح العلماء المراكشيون يواصلون النشاط العلمي

---

(١٤٧) انظر مذكرات عبد الكريم **Abd - el - Krim, Memoiren, mein Krieg gegen Spanien und Frankreich,** (adapted by J. Roger - Mathieu, editor of Le Matin), Dresden. 1927 . وقد كان لبطولته صدى بعيد في العالم الاسلامي كله، فظهرت في القاهرة سنة ١٩٢٥ أربعة كتب عربية ، على الاقل ، استعرضت حياة عبد الكريم ونضاله . راجع ايضاً : A. Sanchez Perez, **La acciôn decisiva contra Abdelkrim**, Madrid, 1931.

التقليدي الذي بدأه أسلافهم ، فهم يضعون الشروح على الكتب الشهيرة ، وهم يكتبون التراجم الواسعة ، في الاسلوب القديم عينه . والواقع ان السلطان عبد الحفيظ شارك مشاركةً كبرى في هذه الدراسات . فقد كان هو نفسه مؤلفاً ، وقد طبع عدّة كتب كلاسيكية على نفقته . وفي الجزائر وتونس لم يوفّق العرب إلى أن يبلغوا مرتبة أسمى ، في دنيا الفكر ، على الرغم من التعليم الابتدائي الذي يقدّمه اليهم الفرنسيون . كذلك عجز مسلمو شمالي إفريقية عن النهوض بعبء النضال الفكري ضدّ الحكم الاجنبي إلا بعد اخوانهم في الدين أبناء مصر وسورية بزمن طويل . ومهما يكن من أمر فقد تأسس في تونس حزب إصلاحي وحزب دستوري ازعجت مطالبهما ، في وقت من الاوقات ، حكومة الحماية ، حتى إذا رقيَ العرش الباي محمد الحبيب ، في ١٠ تموز ١٩٢٢ أدْخلت بعض تعديلات غير جوهرية على الحكومة . ولم تكن نتائج النضال الفكري أحسن حالاً في الجزائر ومراكش ، فقد خابَتْ آمال الفئات الجزائرية المثقفة — وعلى رأسها الطبيب ابن (بن) جلّول — في الاصلاح ، كما خابت آمال المثقفين المراكشيين ، وعلى رأسهم الزعيم علاّل الفاسي الذي أبعدَهُ الفرنسيون إلى « غابون » في السنغال الفرنسي ، أوائل سنة ١٩٣٨

السُّودَانْ

السودان يعتنق الاسلام

كان المرابطون في المغرب قد نشروا الاسلام في الاقاليم الآهلة بالزنوج ، من العرق الحاميّ المتوسطيّ ، * وبالنيليّين ** والنوبيين والواقعة جنوبي الصحراء ، من السنغال حتى وادي النيل الاعلى . ومنذ القرن الحادي عشر اعتنق امراء غانه ، وتابِعوهم حكام تَكْرُور ، ومَلِك مَالّي على نهر النيجَرْ الأعلى ، نقول منذ القرن الحادي عشر اعتنق هؤلاء جميعاً دينَ سادتهم ، الأسلام . وفي القرن الثالث عشر أصبحت تِمْبَكْتُو مركزاً للثقافة الاسلامية التي أضعفها الغزو المراكشي ، سنة ١٥٩١ ، بدلاً من أن يقوّيها . ولم تكسب الدعوة الاسلامية حافزاً جديداً إلاّ في القرن الثامن عشر عندما أنشأ التَكَارِنة نظاماً ثيوقراطياً جديداً في فوتاجَلّون ، سنة ١٧٢٠ ، وفي سنة ١٧٧٦ ، اخضعوا الفول (الفلاّتة) الوثنيين وفرضوا عليهم الاسلام . ثم وفق عثمان دَانْ فُوجُو التكروري إلى ادخال الحَوْز في الاسلام ، وأسس سنة ١٨٠٢ مملكة سُوكُوتُو . وكان عمر — وهو

* نسبة إلى البحر الابيض المتوسط . (المعربان)
** نسبة الى نهر النيل . (المعربان)

ينتسب إلى قبيلة عثمان نفسها — قد التحق ، فيما كان يؤدي فريضة الحج إلى مكة ، بالطريقة « التيجانية » المجاهدة التي كانت ذات نفوذ كبير في مراكش ، فأقطعه رئيسها الاكبر السودان . ولقد أخضع ، ابتداء من سنة ١٨٣٨ ، القسم الاعظم من السودان الذي اعترف لدن وفاته ، سنة ١٨٦٤ ، بالاسلام ديناً للدولة . وبعد سنة ١٨٩٠ خضع خلفاؤه للمستعمرين الفرنسيين .

وفي السودان الأوسط ، عند بحيرة شاد ، انتشر الاسلام منذ القرن الحادي عشر في كانم . ولكن دعائمه لم تتوطد في بورنو (برنو) وباجرمي إلا في القرن السادس عشر ، في حين لم يتم له ذلك ، في ودّاي * إلا في القرن السابع عشر [١٤٨] .

وفي السودان الشرقي دخل أهل النوبة وكانوا نصارى حتى القرن السابع في الدين الاسلامي ، في وقت مبكر جداً ، من طريق مصر . ثم ان سليمان ، الذي أسس اسرة حاكمة جديدة ، نشر الاسلام في دارفور ، في القرن السادس عشر ؛ وفي القرن الثامن عشر اخضع أحد خلفائه كردوفان ، ولكن الاسلام لم يحقق تقدماً كبيراً جداً إلا بعد الفتح المصري في القرن التاسع عشر . والواقع ان الحكم الاجنبي أذكى ، في الوقت نفسه جذوة التعصب الديني الذي وجد زعيماً له في شخص المهدي المشهور .

---

* وجاءت أيضاً : وداي (من غير تضعيف الدال) ووداي (بتضعيف الدال). (المعربان)

(١٤٨) انظر وسترمان D Westermann, Der Islam in West und Zentralsudan, Die Welt des Islams, 1, 1913, 85 - 108.

وانظر ميير P. C. Meyer, Erforschungsgeschichte und Staaten bildung des Westsudan, Petermanns Mitteilungen, Erganzungsband XXVI, Gotha, 1898 .

وانظر ايضاً براس A . Brass, Eine neue Quelle zur Geschichte des Fullreiches Sokoto, Der Islam X (1920), 173 .

وُلد محمد بن عبد الله حوالى منتصف القرن الماضي في مقاطعة دُنقُلَة ، وكان ابوه [نجاراً يعمل في بناء المراكب] وتزعم اسرته أنها تتحدّر من الرسول . وبعد ان اتمّ دراسته الفقهية التحق بالطريقة الصوفية « السَمانيّة » ليستقرّ سنة ١٨٧٠ في جزيرة أبا (آبا) في النيل الأبيض حيث انصرف إلى الرياضة الدينية في كهف على ضفة النهر . ثم انه اختلف مع شيخه بعد أن حلّلَ هذا الاخير أتباع طريقته من تحريم الميسر والرقص ابتهاجاً بيوم ختان أبنائه ؛ وقد لام شيخَه في ذلك ففُصلَ من الطريقة . ولم يرتضِ بعدُ اية مصالحة . وأقرّت البلاد كلها تزهده وتقشفه ، وما لبث أن انضوى تحت لوائه جمهرة كبيرة من المريدين . ثم انه دعا هؤلاء المريدين ، في سلسلة من المؤلفات ، إلى مكافحة الفساد الديني المنتشر آنذاك ، إذْ لم يكن ثمة مجال —كما قال— لتوقّع أيما مساعدة من الحكومة . وهكذا دَخَلَ في روعه ، شيئاً فشيئاً ، انه مدعوّ لأداء رسالة كبرى ، حتى نضجت هذه الفكرة في نفسه ، ووعد المؤمنين بوصفه المهدي المنتظر (شأن كثير من المصلحين في الاسلام قبله) مُقسماً لهم بالنبي ، جده ، انه سيملأ العالمين عدلاً وصلاحاً . ولقد قوّى هذا الاعتقاد في نفسه صديقه عبد الله بن محمد الفقيه ، الذي أصبح بعدُ خليفة ، وهو من قبيلة « التّعَايِشَة البقّارة » العربية في جنوب غربيّ دارفور . وقد حثّه عبد الله هذا على القيام برحلة إلى كردوفان ، بعد ان بدا له ان قبائل الغرب —وكانت أشدّ بأساً وأعظم شجاعة— مستعدة أكثر من غيرها للثورة . وفي هذه الرحلة احتكّ محمد بجميع الزعماء المدنيين والروحيين ، ومن هنا اقتنع اقتناعاً تاماً بأن النقمة تسود البلاد من أقصاها إلى أقصاها . فقد كان ثمة استياء من انغماس السلطات المصرية في الرشوة ، ومن توزيع الضرائب الثقيلة إلى أبعد الحدود توزيعاً غير عادل وجبايتها بالقوة والعنف . أضف إلى ذلك ان الحكومة المصرية كانت قد أعلنت الغاء الرقيق ، تحت ضغط الحكومة البريطانية الوصيّة

عليها ، وبذلك أصيبت الحياة الاقتصادية كلها بالاضطراب .

الصراع بين المهدي والحكومة المصرية

ولفت المهدي أنظار الحكومة المصرية اليه ، شيئاً فشيئاً ، وخاصة ، بعد ان أثار شيخه السابق الشكوك حوله غير مرّة . وفي تموز سنة ١٨٨١ أصدر رؤوف باشا حاكم السودان العام امره إلى محمد ، وكان في أبا (آبّا) ، بالشخوص إلى الخرطوم لدفع التهم عن نفسه . ولكن المهدي رمى بهذه الدعوة عرض الحائط ، ونادى بنفسه ، منذ اليوم ، سيّد البلاد ، معلناً الجهاد ضدّ الكفّار الذين كان يدخل في عدادهم طبعاً المسلمون غير المعترفين بدعوته . واستخف رؤوف باشا بقوته ، حاسباً ان في ميسوره القضاء عليه بمئتي رجل من حملة البنادق [ومدفعيَن] . وفي مساء ١١ آب وصلت هذه القوة إلى جزيرة أبا يُقلّها مركب بخاري صغير ، فطوّقت الاكواخ وأطلقت عليها النار . ولكن المهدي وأتباعه — ولم يكن معهم حتّى ذلك الحين أسلحة نارية — ظلوا في مكمنهم ولم يخرجوا من وراء الاعشاب الطويلة إلا بعد ان هبط الليل . وما هي إلاّ فترة حتّى أفنيت القوة المصرية كلها ، أو كادت ، فلم ينج منها إلا عدد قليلٌ جداً بلغوا المركب البخاري سباحةً . وعلى الرغم من هذا النصر ، وطّن المهدي النفس على ان يهاجر إلى كردوفان حتّى لا يكون على مقربة من الخرطوم . ولقد تقدّم ، من غير أن يلقى مقاومة ما ، حتّى بلغ جبل قَدِير ، حيث قضى على القوة التي وجهها لقتاله « مدير » فاشُودَه . وفي نوار سنة ١٨٨٢ سيّرت الحكومة لحربه جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف رجل . ولكن هؤلاء المقاتلين المتمرّسين بالحرب ، والذين كانوا قبيل ذلك قد وفقوا إلى الاستيلاء على دارفور ، استهانوا بالدراويش إلى حد جعلهم يهملون اتخاذ إجراءات الوقاية المألوفة في السودان والتي تقضي بأحاطة المعسكر ، طوالَ الليل ، بسياج شائك . وهكذا أتاهم العدو بَياتاً فبدّد شملهم .

والواقع ان هذا النصر أكسب المهديّ أنصاراً حدداً عرف كيف يتألف قلوبهم ، على طريقة الرسول ، بالغنائم الوافرة . وفي مطلع ايلول ظهر أمام أبواب الأبيّض . وكان تجار البلدة قد دخلوا معه في مفاوضات ، ولكن الحامية المصرية أعدّت للقتال . وبعد أن صُدّ الهجوم الأول طوّق المهدي البلدة لتضطرّ إلى الاستسلام في [١٩] كانون الثاني سنة [١٨٨٣] . ومنذ ذلك الحين اتخذ الأبيّض هذه مقراً له . وتقاطر المؤمنون من أطراف السودان لرؤية « وليّ الله » . وكان يظهر أمام أتباعه في منتهى البساطة والتواضع ، فهو لا يرتدي غير جبة وسروال من كتان ، وهو يتمنطق بمنطقة أو حزام من القطن على حقويه . ولكنه كان قد استسلم منذ زمن طويل الى حياة الترف والملذات . فقد كان شديد الرغبة في النساء ، وقد اعتاد ان يختار أجمل فتيات الغنيمة لنفسه .

وكان نظام الحكم الذي اصطنعه المهدي غايةً في البساطة . فقد كان خُمس الغنيمة ، بالاضافة إلى أموال جميع المتهمين بالخيانة العظمى والسرقة ومعاقرة الخمور أو تدخين التبغ ، تصبّ كلها في خزانة الدولة وفقاً للقانون الاسلامي . وكان الذين يشكون في رسالة المهديّ يعاقبون إما بمصادرة الممتلكات أو الموت . وحُرّمت دراسة الكلام والفقه ، وكانت من قبل فرضاً واجباً ، وأحرقت جميع الكتب التي تعالج هذه الموضوعات . وأوصى المهدي ، بدلاً من ذلك ، بقراءة القرآن وشيء من حديث النبي قراءة تدبّرٍ وتأمل ولكنّه حرّم دراستهما في المجالس العامة .

وكانت القوات البريطانية قد احتلت مصر في هذه الاثناء ، فاذا بحكومة الاحتلال تبعث بـ « هيكس »* باشا إلى السودان ، على رأس عشرة آلاف مقاتل مصريّ . وكان تقدّم هذا الجيش بأبِلِهِ البالغ عددها ستة آلاف بطيئاً جداً بسبب من نقمة الجند على الحكم البريطاني ، حتى لقد استطاع المهدي

Hicks Pasha *

ان يستعدّ للقائه على مَهَل . وفي ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٨٣ تقدّم لقتال المصريين في البِرْكَة الواقعة على نحو سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرقيّ الأبيّض . وقد وفق المصريون إلى صدّ هجومه الأول على معسكرهم ، بيد انه هاجم الجيش في اليوم التالي ، في اثناء مسيره ، وأبادَهُ عن بكرة ابيه .

غوردن يسعى لتوطيد الحكم البريطاني المصري في السودان

وانطرحَ السودان كله ، بعد هذا النصر ، على قدمي المهدي ، ولاذ الاوروبيون والمصريون النازلون في المدن الرئيسية بأذيال الفرار . وفي كانون الاول سنة ١٨٨٣ استسلم سلاتين باشا * — وهو ضابط نمساوي سابق ، وكان قائد « دارَة » عاصمة دارفور — بعد أن حارب اتباع المهدي طوال سنة كاملة ، على غير طائل . وكانت الحكومة البريطانية قد استعدت للتنازل نهائياً عن السودان ، وبعثت بالجنرال غوردُن ** قامع ثورة « تايبنْج » في الصين ، إلى الخرطوم لكي ينقذ الاوروبيين الذين ما انفكوا يعيشون هناك ، ويعود بهم إلى مصر . وقد سبق لغوردن هذا ان كان حاكماً عاماً على السودان ، فحسب انه يتمتع بشعبية خاصة هناك ، وان في ميسوره أن يوطّد دعائم الحكم البريطاني المصري ، على مسؤوليته الشخصية ، ولكنّ مكانته كانت قد ضعفت كثيراً بسبب من مكافحته تجارة الرقيق . وفي ١٨ شباط وصل إلى الخرطوم ، وفي الحال بعث بكتاب إلى المهديّ أبدى فيه استعداده للاعتراف به سلطاناً على كردوفان ، وإباحة التجارة بالرقيق ، واقامة علاقات تجارية معه إذا ما اطلق سراح أسراه . فأجابه المهدي طالباً الاستسلام . وفي ٢٢ آب خرج يريد الخرطوم ، جامعاً حوله قوات مقاتلة من كل مكان ، فيما كان يزحف متمهلاً . وفي تشرين الأول حاصر المدينة ، ولكنّ الحصار لم يحرز بادىء الأمر غير تقدم ضئيل لأن جيوش المهدي

---

* Slatin Pasha

** Gordon

كانت أعجز من ان تتغلب على المدفعية البريطانية . وإذْ كان غوردن قد اهمل إخلاء المدينة من غير المحاربين فقد انتهى المحاصَرون إلى ان يعانوا ، وشيكاً ، ازمة في الأقوات حادّة . وفي نيسان سنة ١٨٨٤ تقدّم جيش بريطاني في النيل وهزم قوات المهدي المعسكرة في المراكز الأمامية عند المتَمّة . ولكن أمّ دُرْمان استسلمت في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٨٥ ، وفي ليل ٢٥ — ٢٦ كانون الثاني شنّ المهديّ ، على رأس اتباعه ، هجوماً على المدينة . وقُتل غوردن في قصره .

وكان على البريطانيين أن يتركوا السودان وشأنه ، موقتاً . فنقل المهدي مقره إلى الخرطوم حيث بلغ أوج قوته . ولكي يقي أتباعه — الذين حُملوا على ان يلبسوا مثله لباس الدراويش — من جميع المؤثرات المعادية له فقد ضرب ستاراً حديدياً حول مملكته ومنع الحجّ إلى مكة . والحق ان قدَراً سعيداً أنقذه من شرّ العيش إلى زمن يرى فيه إلى سلطته تضعف وتنحلّ . فأصيبَ في منتصف حزيران سنة ١٨٨٥ بالتيفوس ، ليموت بعد ذلك باسبوع .

الخليفة عبد الله

وفيما كان المهدي على فراش الاحتضار ثبّت ، للمرة الثانية ، صديقه عبد الله ، خليفة له وكنّاه بأبي بكر . وكان عبد الله يد المهديّ اليمنى في حياته ، فبايعه المؤمنون من غير ما اعتراض . ثم إنه مكّن لنفسه بأن خلعَ الخليفتين الآخرين اللذين عينهما المهدي . ليس هذا فحسب ، بل لقد استدعى الاميرَ عبد الكريم الذي كان يحاصر الحامية المصرية في كَسَلا بسبب من انه فاه ببعض الملاحظات الطائشة حول سلطة الخليفة ، واكرهه على ان يسلّم الجيوش الزنجية المقسمة يمين الاخلاص له شخصياً . ونقل عبد الله عاصمته إلى ام درمان ، وهي قلعة الخرطوم ، الواقعة على ضفة النيل اليسرى ، والتي كان اتباع المهدي قد استولوا عليها .

وفي هذه الاثناء كانت كَسَلا قد سقطت ، وأخذت القوات المصرية أيضاً في الجلاء عن سائر المراكز الحصينة الواقعة على الحدود الحبشية . وعيّن الخليفة على القلاّبات اميراً ما لبث ان خرج مهاجماً الحبشة ؛ ولكنه لم يكد يغزو مقاطعة أمْهَرَه حتى أنزل به الحاكم ، الرأس عدّار ، هزيمة قاسية . ولكي ينتقم الخليفة لهذا الأخفاق فقد سيّر إلى الحبشة جيشاً كبيراً يتألف من نحو ستين الف مقاتل . عندئذ تقدّم الرأس عدّار للقائهم في سهل دَبْرَسِيْنَة ، فمُني بهزيمة قاصمة ، فما كان من أتباع المهديّ إلا ان زحفوا إلى قُنْدرْ (غوندار) ، عاصمة الحبشة آنذاك ، وأحرقوها ، بعد أن غادرها سكّانها ، ثم عادوا إلى القلاّبات .

وفي مطلع سنة ١٨٨٩ عزم يوحنا امبراطور الحبشة على ان يغسل هذا العار فحشد جيشه كله ، ثم سار إلى القلاّبات على رأس فرقتين تتألف احداهما من مقاتلين من قبيلته هو ، تِيغْري ، وتتألّف الأخرى من مقاتلي أمهره . وفي اليوم الاول من الحصار وُفق الامهريون إلى دخول المدينة ولم تكن محصنة تحصيناً قوياً . فدبّ الحسد إلى قلب يوحنا فأمر فحُمل على عرشه وسار موكبه بين صفوف جنده يستفزهم ويحثهم على القتال . فجُرح وتوفي في الليلة نفسها ، ٩ آذار سنة ١٨٨٩ . عندئذ انسحب الاحباش — بعد ان فقدوا زعيمهم — تحت جنح الظلام لأنه كان من النادر عندهم ان يتولى العرش امبراطور جديد من غير شقاق وخصام . فتعقبهم اتباع المهدي واكرهوهم على مغادرة معسكرهم هاربين .

وكانت المقاطعة الاستوائية التي احتفظ بها للمصريين ، حتى ذلك الحين ، امين باشا (الدكتور شنتزلر *) — قد سقطت في أيدي أتباع المهدي ،

* Dr. Schnitzler

صيف سنة ١٨٨٨ ، بعد ان انسحب امين باشا مع ستانلي * إلى الساحل الشرقي .

الخليفة يحاول غزو مصر

بعد هذه الانتصارات عزم الخليفة ، [عبد الله التعايشي] ، على غزو مصر ، وهو مشروع كان المهدي ينوي تحقيقه . وفي نوار سنة ١٨٨٩ سيّر جيشاً إلى الشمال ، على رأسه عبد الرحمن النجومي ، وعهد اليه في اجتياز وادي حالفا ، والاستيلاء على أسوان ، حيث كان عليه ان ينتظر أوامر جديدة . ولكن حامية وادي حلفا نفسها استطاعت أن تنزل به خسائر جسيمة ، أثناء زحفه . وفي طوشكي خرج لقتاله قائد الجيش المصري العام فقضى على جيشه قضاء تاماً . والواقع ان عام ١٨٨٩ هذا حمل اليه نحساً جديداً ، فقد انتشرت في السودان مجاعة لم يكن للخليفة قبلٌ بمكافحتها بسبب من احاطة الاعداء به من كل جانب وعجزه عن تموين البلاد من الخارج .

وفي سنة ١٨٩٠ وفّق الخليفة إلى اخضاع الشِلُك ، اشجع القبائل الزنجية في السودان ، فكان في ذلك تعويض له من خسائره السابقة . وقد هوجمت هذه القبائل ، بالمراكب ، في عاصمتها فاشوده فلم تقو على الصمود طويلا في وجه اتباع المهدي المسلحين بالرشاشات .

واستثار حكم الخليفة الاعتباطي نقمة انسباء المهدي بخاصة ، بعد ان تقلص نصيبهم في الحكومة وتضاءل . فلم يكن من زوجة المهدي الرئيسية التي كان قد دعاها عائشة امّ المؤمنين ، اقتداء بالرسول ، إلا ان انبرت من بين ارامله جميعاً ، لتحريض الناس على الخليفة ، شأن سميتها عائشة التي حرضت المؤمنين على علي بن ابي طالب . وتلقّى الخليفة من عيونه وجواسيسه تقارير عن مؤامرة يدبرها ضده أنسباء المهدي الذين كانوا يُدعون

* Stanley

« الاشراف » على غرار آل البيت النبوي . والحق ان هذه التقارير بلغت المهدي في الوقت المناسب . فلم يكادوا يجمعون شملهم ويتأهبون للهجوم عليه حتّى وفق إلى تطويقهم برجاله ، ولكنه عفا عنهم حرصاً منه على سلامة المؤمنين ، وتنازل لهم عن أمور كثيرة . حتّى إذا القوا السلاح ، واثقين من حسن نيته ، اجرى تحقيقاً قضائياً ضدهم ونفاهم إلى فاشوده .

وعلى الحدود الحبشية تعرّضت دولة المهدي لخطر من جانب الايطاليين الذين كانوا قد احتلّوا مَصَوّع بعد انسحاب المصريين ، والذين أخذوا يندفعون الآن من هناك إلى أنحاء البلاد الداخلية . وهنا اصطدموا ، في تشرين الثاني سنة ١٨٩٣ ، بأحد جيوش الخليفة ، وكان مؤلفاً من نحو عشرة آلاف مقاتل على أهبة القيام بغزو ضدّ العرب في السودان الشرقي ، فنجحوا في التغلّب عليه . وفي ربيع سنة ١٨٩٤ هاجموا كَسَلا . فأبت الحامية المهديّة ، وكانت ناقمة على قائدها ، ان تقاتل الايطاليين وانسحبت إلى قوز رجب . ولكن امبراطور الحبشة مَنَلَيك حال دون تقدّم الايطاليين إلى أبعد من ذلك . والواقع ان الهزيمة الدامية التي أنزلها بهم عند عَدْوَة في غرّة آذار سنة ١٨٩٦ قضت على كل خطر كان يمكن أن يتهدّد أتباعَ المهدي من هذه الجهة .

كتشنر يقضي على امبراطورية المهدي

ولكن العاصفة التي قدّر لها أن تضع حداً لدولتهم كانت في تلك الاثناء ، قد أخذت تتجمّع في الشمال . ففي خريف سنة ١٨٩٦ صدر الامر إلى السردار كتشنر * ، القائد العام للجيش المصري ، بتجريد حملة على السودان ، فقضى في معركة ام درمان الدامية التي قُتل فيها الخليفة نفسه ، قضاءً نهائياً

* Kitchener

على امبراطورية المهدي . ولكن هذا النصر لم يستطع أن يقضي على تعاليم المهدي أيضاً . فقد كان على حاكم السودان البريطاني العام ، حتى تموز سنة ١٩٢٨ ، أن يبرّر ضرورة الاحتفاظ بسلاح جويّ قويّ هناك بالاشارة إلى أن ثمة خطراً ، قد يكون خفيّاً ولكنه ماثلٌ أبداً ، من انفجار جديد للحركة المهدية ١٤٩ .

محمد بن عبد الله حسن مهدي الصومال

وفي أواخر العقد العاشر من القرن التاسع عشر (١٨٩٠ — ١٩٠٠) ظهرت حركة ذات صلة بالحركة المهدية بين صوماليي القرن الشرقي من افريقية ١٥٠ . ذلك ان محمد بن عبد الله حسن ، من قبيلة أغادين كان قد حجّ إلى مكة سنة ١٨٩٥ ، وهو في الخامسة والثلاثين تقريباً ، وهناك أقنعه محمد بن صالح ، تلميذ الصوفي السوداني ابراهيم الرشيدي ، بالانضمام إلى الطريقة الصالحية التي أسسها هو ، والتي تفرّعت عن الطريقة المهدية . حتى إذا رجع إلى وطنه نزل بين ظهراني قبيلة دُلْبُهانْتَه وطفق يعمل ، على آثار استاذه ، في سبيل خلق جوّ من التقوى بين المسلمين يكون أعمق وأصحّ . وسرعان ما اكتسب نفوذاً كبيراً في القبيلة ، وبين أنسبائه من قبيلة أغادين ، حتى لقد رأت الادارة البريطانية في بَرْبَرَة أن تفيد منه في تهدئة الاضطرابات الناشبة بين البدو . ولكنه أعلن سنة ١٨٩٩ أنه المهديّ . ومن ذلك الحين أقضّ « المُلاّ المفتون » ، كما دعاه البريطانيون ، مضاجع هؤلاء ومضاجع الأيطاليين ، والأحباش أيضاً بغزواته الحربية ، طوال عشرين عاماً تقريباً . وعلى الرغم من ان البريطانيين هزموا عصاباته أكثر من مرة

---

(١٤٩) انظر الورد لويد **Lord Lloyd Egypt since Cromer II, London. 1934, p. 346.**

(١٥٠) انظر جاردينا **D Jardina, Il Mullah del paese dei Somali, trad. da Mario Quercia, Rome, 1929.**

فقد كانت الدولتان الاستعماريتان على استعداد لأن تتخليا له سنة ١٩٠٥ عن الجزء الايطالي من وادي نُوجال (بالجيم المصرية) كمنطقة مستقلة . ولكنه عاود سنة ١٩٠٨ غاراته على المستعمرات الايطالية والبريطانية . وفي أثناء الحرب العالمية الاولى وفق الايطاليون إلى القضاء على سلطته في شمال الصومال من طريق معاهدات عقدوها مع زعماء القبائل التي كانت معادية له . ولكن بريطانية لم توطن النفس على القيام بعمل حاسم ضده إلا في مطلع سنة ١٩٢٠ ؛ وقد كان من اليسير على اسطولها الجوي أن يدمر مواقعه كلها . ثم إنه لاذ بالفرار إلى قبيلته أغادين ، بعد ان طاردته الهجانة البريطانية وحلفاء البريطانيين من أهل الصومال ، حيث قضى نحبه في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ . والواقع ان محاولته توحيد شعبه على أساس ديني بصرف النظر عن جميع المنازعات القبلية إذ حاول ان لا يحكم إلا عن طريق الدراويش على غرار المهدي السوداني – نقول ان محاولته هذه كانت قد انتهت إلى الاخفاق سنة ١٩٠٥ بعد أن اصدر استاذه في مكة ، بتحريض من البريطانيين والايطاليين ، قراراً بفصله من الطريقة ، ومن هنا أصبح في مقدور الطريقة القادرية ، الواسعة الانتشار بين الصوماليين أيضاً ، ان تقاتله بوصفه مبتدعاً أو زنديقاً . ومن ذلك الحين أمسى مجرد زعيم من زعماء القبائل يتّبعه أنصاره طمعاً في الغنيمة الوافرة ليس غير .

وفيما كان دراويش المهدي يسيطرون على شرقي السودان ، كانت قد نهضت في الغرب قوة جديدة على انقاض الممتلكات المصرية السابقة . فقد كان بحر الغزال خاضعاً في العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ – ١٨٨٠) للزبير باشا وهو عربيّ حكم الاقليم ، من قِبَل الخديوي ، حكماً مستقلاً نسبياً [١٥١] . وفي أواخر سنة ١٨٧٤ ، عندما استدعي إلى القاهرة

(١٥١) انظر تيلو **M. Thilo , Ez - Zber Rahmat Paschas Autobiographie, Ein Beitrag zur Geschichte des Sudans , Bonn - Leipzig, 1921 .**

ليواجه منتقديه بنفسه ، عيّن ابنه سليمان نائباً عنه ، وقد ظل هذا في منصبه حتى بعد سجن والده . وبينما كان غوردن يكافح تجارة الرقيق سنة ١٨٧٩ ، بوصفه حاكم السودان العام ، اتفق سليمان مع هارون ، سلطان دارفور المخلوع ، على حربه . ووفّق جسّي باشا * الايطالي إلى ادراكه بعد ملاحقة طويلة ، وأعلن سليمان استعداده للاستسلام اليه ولكن اخاه في الرضاعة ، رباح ** —وهو عربي من سنّار كان قد خدم أباه خدمة مخلصة ومن ثم شاركه في مصائبه كلها — حاول ان يثنيه عن ذلك ، حتى إذا أصرّ سليمان على رأيه غادر رباح المعسكر مع بضعة آلاف من أفضل جنود الزبير . ثم إنه تمركز في مقاطعة دارمانجة الجبلية ، وأخذ يشن من هناك غزوات تهدف إلى السبي والرقيق . وبعد ان اخضع حاكم دولة كوتي الزنجية وصدّ هجوماً قام به سلطان ودّائي الذي كان يحاول انجاد هذا الاخير ، تلقى سنة ١٨٨٤ أمراً بالخضوع للمهدي . ولكنه أبى ذلك مستنداً إلى موقف شيخ الطريقة السّنوسية الذي رمى المهدي بالزندقـــة .

الحركة السنوسية

والسّنوسية أخَويّة دينية نزل موسسها محمد بن علي (المولود في طُرُش قرب مُسْتَغانم في الجزائر سنة ١٧٩١) في الجبل الأخضر بطرابلس الغرب سنة ١٨٣٤ ، بعد ان أقام مدة طويلة في مكة حيث أسس زاوية شهيرة للدراويش . وفي سنوات قلائل نشر محمد طريقته ، من هناك ، في افريقية الشمالية كلها . ولكنّ عداوة السّنّة المتغلّبين في تلك الديار اضطرّته إلى ان ينقل مقرّه إلى جغبوب الواقعة على مسيرة يومين أو ثلاثة جنوب شرقي واحة سِيْوَه . كذلك وفّق إلى ان يكسب نفوذاً كبيراً في الدول الزنجية من طريق رُسله ومبعوثيه . حتى إذا توفي سنة ١٨٥٩ خلّفهُ في زعامة

---

* Gessi Pasha

** وفي بعض المصادر « رابح » أيضاً . (المعربان)

الطريقة ابنه الشاب محمد المهديّ الذي توفي في جُرُو سنة ١٩٠١ . وقد نقل محمد هذا مقر الطريقة إلى كُفْرة سنة ١٨٩٥ ثم إلى جرو سنة ١٨٩٩ . ولكن ابن أخيه أحمد ، الذي خلفه في زعامة الطريقة ، نقل مقرّه إلى كفرة ، كرة أخرى ، سنة ١٩٠٢ . وفي كثير من المواطن في داخل إفريقية ، وعلى طول طريق القوافل إلى مكة بصورة خاصة ، كانت للسنوسية زوايا يعيشون فيها على الزراعة والفلاحة ، وينشرون مُثُلهم الثيوقراطية الخالصة ، مُنكرين في الوقت نفسه ان يكون للسلطان التركي حقّ في الخلافة . وبعد احتلال الايطاليين طرابلس الغرب شاركت الطريقة في النضال ضدّهم ؛ وفي الحرب العالمية الأولى وقفت إلى جانب تركية ، فهاجمت في شتاء ١٩١٥ — ١٩١٦ مصر بعد أن استولت على مرفأ السّلّوم الهام ، وحتى بعد ان استعاد البريطانيون هذا المرفأ في شباط ١٩١٦ ، هدّد السنوسيون مصر عدة مرات اخرى خلال صيف ١٩١٦ . ولكن طاقتهم العسكرية كانت قد تضاءلت كثيراً ، على الرغم من ان أخاً للشيخ محمد العابد ، وكان اصغر سناً من محمد هذا ، واصل القتال ضدّ الفرنسيين في الصحراء الكبرى حتى سنة ١٩١٨ . وبعد أن أخضع الجنرال غزاتزياني * طرابلس الغرب نهائياً عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى قصد الشيخ إلى أنقرة رجاءَ أن يستطيع هناك مواصلة النضال في سبيل مبدأه وعقيدته . ولكن الدولة التركية الجديدة انتهجت سُبُلاً مغايرة ، فاضطرّ وشيكاً إلى وقف نشاطه والاخلاد إلى السكينة .

رباح واتساع الامبراطورية الفرنسية في افريقية

وولى رباح وجهه شطر الغرب نحو بحيرة شاد ، بعد أن أخفق هجومه على سلطنة ودّاي سنة ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ هاجم سلطان باجِرْمي واحتل عاصمته بُوجُومَن ، بعد حصار دام سبعة اشهر . ثم إن بُورْنو

---

* Graziani

– وهي من أقدم وأعظم الدول القائمة في داخل افريقية ، ولكن أهلها كانوا قد نسوا منذ زمن طويل صناعة الحرب – سقطت في يديه سنة ١٨٩٣ . ونقل رباح مقرّه إلى دِكْوَهْ ، على الشاطىء الجنوبي الغربي من بحيرة شاد ، وكانت في مطلع القرن التاسع عشر عاصمة بُورْنو فترة قصيرة من الزمان .

وكان رباح قد أبقى على الأمراء الوطنيين في امبرطوريته – الممتدة ما بين ودّاي في الشمال ، وسُوكوتو في الجنوب ، وامارة أدماَوه التي خضعت بعدُ للالمان ، في الجنوب الغربي ، والدولة المهدية في الشرق – بوصفهم تابعين له ولكنه عيّن إلى جانبهم نفراً من المقربين اليه كمستشارين ومراقبين ، ولم ينصّب حكاماً جدداً إلا في عدد قليل من المناطق . ومن ناحية نظرية ، حاول رباح ان يضع القانون الاسلامي موضع التطبيق ، وكان قاضي القضاة في عهده هو « هياتو » أمير سوكوتو الذي حيل بينه وبين التربع على العرش في بلاده فوقف حياته للعلم . وإذْ كانت الضرائب المفروضة على المناطق – وكان رباح يختصّ نفسه بنصفها – غير كافية لسدّ نفقات جيشه فقد واصل شن غارات السبي والرقيق التي ساعدته في الوقت نفسه على ان يضمن لرجاله تدريباً عسكرياً دائماً . وكانت طرابلس الغرب ، في العادة ، سوقاً لغنائمة البشرية ، ولكن طرق التجارة عبر الصحراء الكبرى أمست ، بعد الفتح الفرنسي لتمبُكتو في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٩٤ ، عُرْضة لغزوات الطّوارق الذين كانوا قد انسحبوا في اتجاه الشرق .

وهكذا شرع يبحث عن أسواق جديدة في الغرب فهاجم سنة ١٨٩٦ دولة الفول (الفلاتة) في سوكوتو . وعلى الرغم من إحرازه عدداً من الانتصارات فقد تخلّى عن هذا المشروع لاضطراره إلى الاحتفاظ بقواته سليمةً استعداداً للنضال ضد الفرنسيين الذين كانوا يبذلون غاية الجهد ، منذ زمن طويل ، في سبيل الاستيلاء على بحيرة شاد ، ابتغاء توحيد مستعمراتهم في شمالي افريقية وغربيها .

وفي سنة ١٨٩٧ قصد أحد موظفي الادارة المدنيين في الكونغو الفرنسي ، واسمه جنتيل* ، الى بحيرة شاد ، وانشأ يفاوض امير باجِرْمي ؛ فلم يكن من رباح إلا ان اشعل النار في عاصمة تابِعه هذا ، عقاباً له وتأديباً. وفي سنة ١٨٩٩ سار الحاكم الاداري الفرنسي بروتونيه ** لقتال رباح على رأس اربعة واربعين سنغالياً من حملة البنادق متوهماً أنّ في استطاعته التغلب عليه بهذه القوة وبأربعمئة من المقاتلين التابعين لامير باجِرْمي ، ولكنه هُزم في ١٨ تموز وقُتل هو ورجاله جميعاً. ثم ان رباحاً انقلب الى بلدة كُونو الحصينة فهاجمه جنتيل متقدّماً نزولاً مع مجرى نهر شَري. وفي آخر تشرين الاول اشتبك الفريقان في معركة وحشية دارت رحاها في الشوارع ، فأصيب الفرنسيون اصابات شديدة اضطرّت نصفهم الى مغادرة الميدان ، وأصيب رباح نفسه بجراح ، ولكن القلعة الرئيسية ظلت صامدة. ومن الشمال تقدّم القومندان لامي *** إلى بحيرة شاد ، عبر الصحراء الكبرى ، ونصّب سلطاناً جديداً في بورنو ، والتقت قواته بقوات جنتيل في دلتا نهر شَري. وفي ٢٢ نيسان نشبت معركة فاصلة انتهت بانتصار الفرنسيين على اعدائهم انتصاراً كلّفهم غالياً. وقد قُتل في هذه المعركة رباح نفسه ، واحتُلّت عاصمته ، دِكْوَه ، وذلك في غرّة نوّار. والواقع ان ابنه فضل الله ، الذي لجأ بادىء الامر إلى المنطقة البريطانية على ضفاف نهر بَنُوَه ، وفّق إلى استنقاذ دكوَه ، ولكنه ما لبث ان هُزم وقُتل. وقسمت البلاد الواقعة حول بحيرة شاد — وفقاً لمعاهدتي ١٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩٣ و١٥ آذار سنة ١٨٩٤ — بين فرنسة وبريطانية والمانية. وفي ١٠ تموز ١٨٩٨ عندما سقطت دولة المهدي في صراع مع بريطانيا العظمى زحف القومندان مارشان ****

---

* Gentil

** Bretonnet

*** Lamy

**** Marchand

الفرنسي إلى منطقة فاشوده الآهلة بالشّلُك ، والتي كان خليفة المهدي قد اخضعها سنة ١٨٩٠ . ولكنه اضطرّ ، في ١٩ ايلول ، إلى ان ينسحب في وجه كتشنر ؛ وبعد مفاوضات متطاولة ألحقت فاشوده بالسودان المصري البريطاني ، في ١١ كانون الأول . وفي سنة ١٩٠٤ ، بعد عقد الحلف الثلاثي ، غُيِّر اسم فاشوده المشؤوم فصار كُودوك ابتغاء القضاء على ذكرى النزاع الذي نشب حولها بين الدولتين الغربيتين [١٠٢] .

(١٠٢) انظر فون اوبنهايم von Oppenheim, Rabih und des Tschadseegebiet. Berlin, 1902 .

فارس وافغانستان

آغا محمد القاجاري يبسط سلطانه على فارس

وفي فارس ، تنازعت السلطةَ بعد تفسّخ دولة نادر شاه جمهرةٌ من الأسر التابعة في مختلف أجزاء البلاد . ومن أشهر الذين شاركوا في هـــذا الصراع وأكثرهم نجاحاً « القاجار » الذين كانوا قد جاءوا الى فارس بوصفهم احدى القبائل التركية السبع في جيش اسماعيل الأوّل الصّفوي ، والذين حاول الشاه عباس الاول الحدّ من قوّتهم فقسمهم جماعات ثلاثاً وانزلهم قرب مرو ورَوَان (أريوان) وجَنْزَه في بلاد الكرج (جورجيا) ، وكذلك في أستَرْاباد على الشاطىء الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . وبعد وفاة نادر شاه ، أعلن زعيم فرع أستراباد ، محمد حسن ، استقلاله بالمقاطعات القزوينية ثم فتحَ آذَرْبيجان . حتى إذا تصدّى بعد ذلك لقتال كريم خان صاحب شيراز اصطدم بأحد الزعماء القاجار ، ليُقْتَل على يد هذا الزعيم . وكان ابنه آغا محمد ، الذي خصاه عليّ شاه في سن الخامسة ، يقيم في بلاط كريم خان كرهينة سياسية . فلما توفي كريمٌ هذا سنة ١٧٧٩ فرّ إلى مازَنْدَرَان ، ومن هناك بسطَ سلطانه على فارس كلها بما شنّ من غزوات وحروب استغرقت عشرة أعوام . ونقل آغا محمد عاصمته إلى طهران . وفي سنة

١٧٩٥ اخضع بلاد الكرج ، وكان ملكها هرقل قد حالف الروسيا سنة ١٧٨٣ ولكن حُماته تخلوا عنه . وفي السنة التالية توّج نفسه شاهاً على فارس . ثم ان الامبراطورة كاترينا الروسية رغبت في تعديل سياسة الروسيا الفاشلة نحو بلاد الكرج ، فجهزت سنة ١٧٩٦ جيشاً احتل ، قبيل وفاتها ، دَرْبَنْد [باب الابواب] وباكو . ولكن ابنها بطرس ، وكان مستضعَفاً ، سارع إلى استدعاء الجيش . فلما كانت سنة ١٧٩٧ زحف الشاه إلى بلاد الكرج من جديد ، حتى إذا احتل « شيشة » ، على ضفاف نهر آراس ، اغتاله خادمان كان قد حكم عليهما بالموت لسبب تافه .

وخاف آغا محمد ابنُ اخيه فتح علي شاه الذي اضطر بادىء الامر إلى استخلاص العرش ، بقوة السلاح ، من عمه صادق خان . وإنما كان همه العاجل اعادة بناء طهران التي كان الافغان قد دمروها . بيد انه لم يكن يمضي فيها غير اشهر الشتاء ، في حين كان يقضي الصيف ، جرياً على عادة اسلافه البُداة ، في مخيمات كبيرة في سهل السلطانية . والحق انه نظر إلى فارس نظرته إلى بلاد معادية مفتوحة ، فليس من واجبه ان يحكمها بل ان يستغلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وكان اولاده حكاماً على الولايات ، وكانوا يترسمون في ذلك خطاه .

فتح علي ونابوليون

وإذا كانت سياسة فارس الخارجية مقتصرة ، حتى ذلك الحين ، على علاقاتها بالروسيا والامبراطورية العثمانية ، فالواقع ان نابليون كان قد أدخلها في نطاق خططه الخطيرة . ذلك بانه كان يتطلع اليها ، حتى بعد انسحابه من مصر وسورية كقاعدة للعمليات الحربية ضد الهند . وعندما ذرّ قرن الخلاف بينه وبين الروسيا ارسل بعثة خاصة على رأسها الجنرال غاردان * من فارصوفيا إلى طهران سنة ١٨٠٧ ، بعد ان عقد مع الشاه

* Gardanne

معاهدة ضد الروسيا ، في ٧ نوار . ومهما يكن من أمر ، فقد قضت معاهدة تيلْسِتْ على كل امل كان يراود الشاه في الحصول على مساعدة نابليون . وهكذا ولى الشاه وجهه شطر بريطانية ملتمساً منها ان تمده بضباط يُتمّون العمل الذي بدأته البعثة العسكرية الفرنسية في الجيش الفارسي . بيد ان هؤلاء المدربين لم يستطيعوا خدمة الجيش إلا قليلاً لأن الناهضين باعباء الحروب في فارس كانوا حتى ذلك الحين جماعات من الفرسان البدو ليس غير ، ولم يكن ثمة ايما أساس لتكوين جيش مدرب من المشاة .

الحرب ضد الروسيا

وعلى الرغم من ان الشاه اعلن استعداده ، بادىء الامر ، للاشتراك في حملة يقوم بها نابليون على الهند ، فالواقع ان هدفه الرئيسي كان اعادة فتح بلاد الكرج ، التي ألحقت رسمياً ، سنة ١٨٠٠ ، بالروسيا بعد ان قدّم آخر ملوكها ، جورج الثاني عشر ، تاجه إلى القيصر ، وهو (اي جورج) على فراش الاحتضار . وكان الشاه لا يزال قادراً على ان يصد زحفاً اولياً قام به الروس على رَوَان ، سنة ١٨٠٤ ؛ كذلك استطاع ان يدافع عن شواطىء بحر قزوين دفاعاً ناجحاً أيضاً . ولكن جيشاً روسياً ما لبث ان سار سنة ١٨١٢ لقتال الفرس على نهر آراس ، فدارت بين الفريقين معركة هُزم فيها الفرس هزيمة قاصمة ، وقُتل قائد المشاة البريطاني . عندئذ أكرهت فارس على قبول الصلح . فلم يكن من عباس ميرزا ، وليّ العهد الذي كان يقود الجيش ، إلا ان تخلى عن كل مطمع للفرس في ولايات القوقاز : جورجيا وداغستان ومينكرلي ، وإيمرتيا ، والابخاز ، كما تنازل للروسيا عن دَرْبَند ، وباكو ، وشِروْان ، وشَكّي ، وقره باغ ، والجزء الاكبر من تَلِش (الطيلسان) في مقاطعة جيلان على بحر قزوين ، متعهداً فوق هذا بأن لا يحتفظ بسفن حربية في هذا البحر في المستقبل — كل ذلك مقابل حصوله على وعد بتأييده عندما يتولى العرش .

ولكنّ معاهدة كلستان هذه لم تعين الحدود الفاصلة بين الدولتين تعييناً دقيقاً . فكان من نتائج ذلك أن نشب بين الفريقين خلافٌ انتهى إلى اندلاع نار الحرب من جديد ، في صيف سنة ١٨٢٦ . عندئذ عبرَ وليّ العهد ، عباس ميرزا ، حاكم آذربيجان ، نهرَ آراس واحتل تَلِيش . ولكنه هُزِم في ايلول قرب جَنْزَه ، وأكرِه على الارتداد عبر النهر إلى الضفة الاخرى .

وفي ربيع سنة ١٨٢٧ عبر الروس بقيادة الجنرال باسكيفتش* الحدودَ الفارسية . فقاومتهم مدينة رَوَان الحصينة مقاومة ناجحة ، ولكنهم وفقوا الى احتلال أجميَاجين المجاورة — مقر البطريركية الارمنية — واحتلال نَخْشَبان** وقلعة عباس آباد الهامة أيضاً . حتّى إذ خفّ عباس ميرزا لاستنقاذ عباس آباد هذا مُني في ١٨ تموز بهزيمة قاسية ، ولكنه ما لبث ان وُفق في ٢٩ آب إلى احراز نصر على الروس عند أجمياجين . بيد ان الشاه الشحيح ضنّ عليه بالمال الضروري لمواصلة الحملة فاضطر إلى ان ينسحب من الميدان امام الروس الذين استولوا على روان في ١٣ تشرين الاول . عندئذ انطرحت آذربيجان كلها على أقدامهم ، فاحتلوا تَبْرِيز ، ودمروا في تشرين الأول أرْدبيل ، حيث ولدت الدولة الصفَوية . وفي ٢١ شباط سنة ١٧٢٨ أكرِه الشاه على عقد صلح تُركُمانجاي الذي تنازل بموجبه عن مقاطعتي روان ونخشبان ومنح الروس امتيازات في امبراطوريته ، على غرار الامتيازات المعمول بها في تركية . وما هي إلا فترة حتّى طالبت الدول الاوروبية الاخرى بمثل هذه الامتيازات . والواقع أن بريطانية استغلت العُسْر المالي الذي ألمّ بالشاه بسبب من نفقات الحرب الروسية لكي تحمله على التخلي عن حقه في المساعدة التّي وُعد بها في معاهدة طهران سنة ١٨١٤ .

---

* Paskievitch

** وهي « نسف » (بفتح ففتح) وتسمى أيضاً « نخشب » . (المعربان)

وحاول الشاه ان يعوض خسارته للمقاطعات الغربية من طريق الانصراف إلى استثمار خراسان استثماراً جدياً ، وهي التي كانت تؤلف منذ زمن طويل جزءاً اسمياً من امبراطوريته . وكانت قد عُمّرت في تلك الديار جماعة قوية من نبلاء الفرس ، وكانت البلاد عُرضة لغزوات البدو من التركمان التي ما تكاد تنقطع . وفي خريف سنة ١٨٣١ وُجه عباس ميرزا إلى هناك ، فأخضع البلاد في سنتين ، بعد ان اضطر إلى ضرب الحصار على المدن الرئيسية فترات طويلة من الزمن في بعض الاحيان . والواقع ان سقوط سَرَخْس ، التي كان يحكمها « خانٌ » تركمانيّ ، أكرَهَ جاره « خان » خُوَارِزْم ، الذي قام بمحاولة مخفقة لنجدته ، على وضع حد لغزواته .

محاولة اخضاع افغانستان أيضاً

وسعى عباس بعد هذا الفوز ، لاخضاع افغانستان أيضاً . وفي هذه البلاد ، التي كانت منقسمة في عهد الصَّفَويين بينهم وبين مُغول الهند ، كانت القبائل الأفغانية النازلة في الجبال قد احتفظت باستقلال نسبي ، وكان تكاثرها الطبيعي قد أخذ يفيض في مجرَيين ، اولهما في اتجاه الشرق نحو السهل الهندي والآخر في اتجاه الغرب نحو الاراضي المنخفضة في حوض نهر هِلْمَنْد . حتى إذا تفسخت دولة الصفويين كان محمود ، زعيم قبيلة الغِلْزَائي ، قد صار ملكاً على بلاد الفرس ، ولكن نادر شاه ما لبث ان خلع ، اشرف ، ابن عم محمود وخليفته . وبعد وفاة نادر ، استولى على الأمر في قَنْدهار احد زعماء قبيلة الأبْدالي العاملة في جيش نادر ، مُدّعياً انه الوصي على حفيد نادر ، شاه رُخ ، ثم استولى على خراسان أيضاً . وقد اتخذ ، بوصفه شاهاً ، لقب دُرّ دُرّان ، ومن هنا عرف بين أفراد قبيلته بالدُرّاني . ونقل خلفهُ تيمور شاه (١٧٧٣ - ١٧٩٣) عاصمته إلى

كابُل . وفي سنة ١٨٠٠ خُلع ابن هذا الاخير ، زمان شاه ، على يد اخيه محمود شاه . وفي خلال حكمه المليء بالاضطرابات والمؤامرات خسر كابُل التي استولى عليها دُوست محمد (وكان أخو دوسْت هذا ، فَتْح خان ، قد ساعده قديماً على تقلد زمام الحكم فلم يكن من دُوست بعد ذلك ، إلا ان غدر به) ، كما خسر باقي البلاد ، وفيها هراة ، ليستولي عليها زعماء قبيلة البارَكزاي . وبعد وفاة محمود سنة ١٨٢٩ تولى الأمر في هراة ابنه كامْرَان . عندئذ دعاه عباس ميرزا إلى التسليم ، حتى إذا أبى عقَدَ النية على قتاله . والواقع انه خرج في رحلة إلى طهران ، استعداداً للحملة ، ولكنه مات في طريقه اليها ، عند مَشْهَد بخراسان ، في ٢١ تشرين الاول سنة ١٨٣٣ . وسارع ابنه محمد إلى طهران — وكان قد ضربَ الحصار ، في أثناء ذلك ، على هراة — لدن جاءه نبأ الوفاة لكي يضمن العرش لشخصه بعد أن أشرف فتح علي ، العجوز ، على الفناء . وفي الواقع فقد توفي هذا الأخير في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٨٣٤ .

الحياة في بلاط فتح علي

وقد وصف لنا الحياة في بلاط فتح علي وصفاً دقيقاً احد اولاده ، عَضُد الدولة ، في مذكراته . فقد احتلت المقام الاول في «حريمه» الواسع الارجاء مجموعة نساء من قبيلة القاجار وسائر العشائر الارستوقراطية في البلاد يبلغ عددها نحواً من اربعين . وكانت اجملهن آسيَة خانم ، أمّ ولي العهد . وكانت إلى جانبها امرأة واحدة فقط تمتعت بمحبة الشاه وعطفه هي أمّ الامير قاسم . اما الباقيات فكان عليهن ان يقنعن بشرف التقدم على غيرهن من النساء في المجتمع ، في حين كانت الحظايا — اللواتي ينتسبن على العموم إلى طبقات الشعب الدنيا ، وبينهن مريم خانم اليهودية — يسيطرن على قلب الشاه — وقد عهد في الإشراف على مالية البلاط إلى امرأة كانت من قبل أمَة ؛ وكانت ساقية القهوة على مائدة الشاه تحتل مكانة مرموقة

أيضاً. وكن يتمتعن بامتيازات منها ان يأتين ببرغوث التقطنه في قميص الشاه إلى احد الامراء لكي يتسنى له شرف التفرد بقتل تلك الحشرة لقاء مبلغ من المال يعيّنه الشاه نفسه. والواقع ان الأسراف الذي تكشفت عنه حياة البلاط لم يكن، رغم شُحّ الشاه، ليعرف حدوداً ينتهي عندها. وتذهب الروايات إلى ان المحظية طاووس خانم وحدها كانت تنفق ما لا يقل عن ١٢ ألف تومان (٢٣٠٠٠ دولار) سنوياً على التوابل والأفاويه. وقد سعى الشاه إلى النهوض بنفقات هذه الأسرة الضخمة من طريق الصداق أو البائنة. وكان دخله الرسمي من الضرائب المفروضة على الأراضي المؤجرة إيجارات معتدلة لا يزيد على ٩٨٩,٠٠٠ تومان، في حين بلغت موارده من هدايا النوروز (السنة الجديدة) والغرامات المالية والمصادرات نحواً من ١,٥٠٠,٠٠٠ تومان سنوياً. ويجب ان لا ننسى انه كان على كل من الجيش وجهاز الادارة كله ان يتولى تأمين نفقاته بنفسه.

واضطُر محمد شاه إلى ان يستخلص العرش، بادىء الأمر، من عمّيه، فَرَمْان فَرَمْا، حاكم مقاطعة فارس، وظِلّ سلطان حاكم طهران الذي كان «اميرُ الدولة»، رئيسُ وزراء الشاه المتوفى، يؤيده ويناصره. وفي تبريز، حيث كان محمد مقيماً، قدم السفير البريطاني، كامبل*، سلفة اليه يستعين بها على دفع رواتب قواته التي ما لبثت ان زحفت إلى طهران بقيادة بِشُون**، الانكليزي. ولم يُبدِ ظِلّ سلطان ايما مقاومة، في حين اضطر بثون إلى ان يزحف إلى إصفهان فيقاتل فَرَمْا ويهزمه عند قُوميشاه، وقد وقع فَرَمْان في الأسر، ليموت في طريقه إلى منفاه بأردبيل.

محمد شاه يصطدم بالبريطانيين في افغانستان

ولم يكد محمد يرتقي العرش حتى استأنف نشاطه الذي كان قد بدأه

* Campbell
** Bethune

وهو امير ، ضد الأفغان ، بعد ان اقام كامران على رفضه دَفْع الجزية ، وعدا ذلك إلى احتلال مقاطعة سِجِسْتان (سِيستان) التي تدّعيها فارس . وفي تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ غزا محمد الاراضي الافغانية . ولكن هراة استبسلت في الدفاع عن نفسها ؛ وانما يرجع الفضل في هذا الثبات إلى ملازم بريطاني من مدفعية بومبـــاي اسمه بوتّنجر * ، وهو ابن اخي المقيم البريطاني في السند ، وكان قد جاء هراة متخفياً . وكان قد تعين على الضباط البريطانيين ان يتركوا خدمة الشاه قبل بدء الحملة . ووقع محمد شيئاً فشيئاً تحت تأثـــير السفير الروسي ، الكونت الدلماسي « سيمونتش » ** الذي وضع عدداً من الضباط الروس تحت تصرفه لقيادة العمليات الحربية . وفي حزيران سنة ١٨٣٨ بعث الانكليز بـ ٣٨٧ سباهياً إلى جزيرة خَارَك ، في الخليج الفارسي ، وهددوا الشاه بالهجوم إذا لم يرفع الحصار عن هراة . وكان دوست محمد ، حاكم كابل ، قد أبى حتى ذلك الحين ان يقتنع بحجج كل من العمال السياسيين البريطانيين والروس الذين حاولوا ان يحملوه على الاشتراك في الصراع سواء مع هراة ام عليها . حتى إذا اخفق هجوم آخر ، وضع خطته الروس ، على القلعة ، نزل محمد عند رغبة السفير البريطاني فرفع الحصار عن المدينة ، وقفل راجعاً في ٨ ايلول .

ولكي يتلافى البريطانيون تعرض الحدود الهندية للخطر كرة أخرى ، سواء من جانب الفرس أو من جانب الروس ، فقد احتلوا كابُل وقندهار ، سنة ١٨٣٩ ، وسموا شاه شجاع ، من قبيلة سَادُوزَاي ، أميراً فكان آلة طيّعة تنفذ سياستهم بحذافيرها . ولكن دوست محمد ما لبث ان انزل بالبريطانيين هزيمة دامية ، سنة ١٨٤٢ ، فاضطروا إلى الجلاء عن البلاد والاعتراف به أميراً .

---

* Pottinger

** Simonich

وواصل محمد شاه ، رغم اخفاق سياسته ، ايثار الروس ومنحهم أعظم النفوذ في بلاده ، راضياً عن امتداد حكمهم إلى ما وراء بحر قزوين باحتلالهم جزيرة أشُرَادَه . وكان من عادة محمد شاه أيضاً أن يبيع الولاية على مختلف المقاطعات للرجل الذي يمهرها بالثمن الأعلى ، فليس غريباً ان يعمد هذا إلى ابتزاز ما دفع من أموال ، على أسرع وجه ممكن ، إذ كان ابداً على خوف من ان يُباع هو نفسه ، في وقت قريب . وهكذا نجد احد ولاة كرمان شاه ، وكان قد تقلد منصبه حديثاً ، يصادر في سنة ١٨٤٦ جميع الاغنام ويبيعها خارج البلاد ، غير مكترثٍ بالمجاعة التي تفشت على الاثر في ارجاء مقاطعته .

ناصر الدين شاه ووزيره تقي خان

وعندما توفي محمد شاه في ٤ ايلول سنة ١٨٤٨ خلفه أكبر أولاده ناصر الدين ، وليس له من العمر غير ستة عشر عاماً . والواقع ان حكمه بدأ بداية سعيدة ، فيما يبدو ، على الرغم من انه اضطر أول الامر إلى ان يقمع ثورة قام بها « خانٌ » قاجاريّ شاب من آذربيجان وجد انصاراً في خراسان ، كما لقي تأييداً من الافغان أيضاً . وعيّن الشاه الشاب مرافقه العسكري ، تقي خان ، — وهو ابن طاه كان يعمل في خدمة وزير محمد — وزيراً أول ، فاطّرح تقي لقب الوزير مكتفياً بلقب « امير نظام » أي قائد الجيش الاعلى . والحق ان جهوده في سبيل القضاء على المساوىء الادارية المتعددة اقترنت أول الامر بالنجاح ، وعادت عليه بعداوة كثير من ذوي النفوذ ، وفيهم الملكة الوالدة نفسها . حتى إذا كانت سنة ١٨٥١ وفق هؤلاء الخصوم إلى إيغار صدر الشاه عليه بسبب شعبيته بين افراد الجيش ، فأقصي عن البلاط ، ليُقتل بعد ذلك بقليل . وحصد ناصر الدين ما كان والده قد زرعه بطغيانه الاعمى . ولقد كان عليه ان يواجه إلى جانب الثورات الناشبة في مواطن مختلفة بين الرعية المضطهدة ، حركة دينية خطِرة .

وُلد مؤسس هذه الحركة ، سيد علي محمد في بُوشير (بوشَهْر) في ٢٦ آذار سنة ١٨٢١ ، وهناك تدرّب على التجارة ، ولكنه ما لبث ان عكف ، في سن باكرة جداً ، على النظر في المسائل الدينية . ثم انه وقف ، أثناء حجه إلى كربلاء ، على عقيدة الشيخية الباطنية ، حتى إذا قفل إلى بلاده شنّ في مسجد الحدادين بشيراز حملة على التعاليم الشيعية الغالبة على البلاد . وبعد وفاة رئيس مذهب الشيخية ، سيد كاظم الرَّشتيّ ، انتخبه رجال المذهب خليفة له . ووضع سيد علي محمد ، أثناء حجه إلى مكة ، مجموعة من الرسائل اعتدّها أتباعه وحياً إلهياً . حتى إذا انقلب إلى شيراز ، في ٢٣ نوار سنة ١٨٤٤ ، بعد انقضاء الف سنة تماماً على غيبة الامام الثاني عشر ، الذي كانت الاثنا عشرية تترقب ظهوره ، استشعر انه مدعوّ — على حد قوله هو — إلى ان يكون « الباب » الذي يستطيع البشر الاتحاد بواسطته مع الامام منفّذ الارادة الالهية . صحيح ان عقيدة الباب هذه ، التي دُعي اتباعه نسبة اليها ، بـ « البابية » ، كانت من العقائد التي قال بها الشيعة دائماً ، وبخاصة الشيخية منهم ، ولكن علي محمد ذهب إلى أبعد منها وسمى نفسه في ما بعد « نقطة أعلى » (النقطة العليا) أو « نقطة بيان » (نقطة البيان) أي « الوحي » . ثم دعا نفسه « القائم » (أي الرجل الذي سيقوم من آل الرسول في آخر الزمان) . وكان آخر ما ذهب اليه انه تجسدٌ للوحي الالهي ذاته الذي ظهر على الارض ، لآخر مرة ، قبل ظهوره هو بـ ١٢٧٠ سنة ، في شخص محمد الرسول . ومع الايام ازداد تباعده ، شيئاً بعد شيء ، عن العقائد الاسلامية الاساسية التي لزمها بادىء الامر ، ليخطو خطوات أخرى في سبيل تكوين عقيدته الخاصة . وبينا لم يرغب أول الامر إلا في ان يُعتبر الامام المهدي — الذي بشر محمد بظهوره ، كما بشر المسيح بظهور محمد عينه في « البارَقْليط » — فاننا نجده يدعو نفسه ، بعد ذلك ، « المرآة » التي يستطيع المؤمنون ان يشاهدوا بها الله نفسه . وكما أيِّدت نبوة محمد

بالتنزيل فقد تجلت دعوة الباب بـ « البيان » . والواقع ان التفنن في اصطناع الاعداد الذي احتل مكاناً واسعاً في الصوفية الاسلامية القديمة ، ساعده على تفسير عقيدته وتأويلها حتى تصبح مقبولة . وكان العدد ١٩ ذا قُدسية خاصة عنده ، لأنه يمثل القيمة العددية لكل من مجموع أحرف الكلمتين العربيتين « واحد » و « وجود » ، ومن هنا قسم السنة إلى ١٩ شهراً ، وقسم كلاً من هذه إلى ١٩ يوماً ، وعيّن مجلساً يتألف من ١٩ زعيماً من زعماء الطائفة . كذلك استند إلى العقائد الوطنية القديمة الخاصة بالدين الزرادشتي ليطلب إلى اتباعه دفن موتاهم في نواويس حجرية ، تلافياً لتدنسها بالتراب ، كما استند إلى هذه العقائد ليجعل العيد الرئيسي عيد النوروز الذي كان يُحتفل به دائماً في ظل الاسلام أيضاً في أبهة بالغة ، وليستحدث استقبال الشمس بالسلام صباح الجمعة . وحرر النساء من الحجاب وأجاز لهن الاختلاط الاجتماعي بالرجال . وحظر دراسة الفقه والفلسفة وقد كانت دراستهما شائعة آنذاك . والواقع ان دينه استهدف السيادة العالمية كالاسلام سواء بسواء . وقد انبثقت هذه السيادة من مقاطعات فارس الخمس المقدسة ، وقضت بأن لا ترتضي الكفارَ حكاماً على أتباع الدين الجديد بعد اليوم .

الصراع بين « الباب » وحكومة الشاه

وفي سنة ١٨٤٥ وجه الباب رُسله من بوشير إلى شيراز ؛ ولكنهم ما لبثوا ان استثاروا انتباه الحكومة وحذّرها . وفي ٦ آب حظر عليهم حاكم مقاطعة فارس القيام بأي نشاط تبشيري جديد . وفي العشرين من الشهر نفسه بعث بفرسانه إلى بوشير لألقاء القبض على الباب نفسه . حتى إذا نُقل إلى شيراز حوكم والقي في غياهب السجن ، ولكنه وفق بعد ستة أشهر إلى ان يفرّ ، لينزل بعد على الرحب والسعة في حمى مِنوجَهر خان ، حاكم إصفهان . حتى إذا توفي نصيره هذا في شباط أو آذار سنة ١٨٤٧ اقتيدَ إلى ماكو في آذربيجان حيث سلخ ثلاث سنوات في السجن . وكان مريدوه

ينشطون ، في أثناء ذلك ، نشاطاً قوياً في سبيل نشر تعاليمه في طول البلاد الفارسية وعرضها ، وقد اقترن هذا النشاط بنجاح كبير . وكان لدخول قرّة العين ، شاعرة قزوين الجميلة الشابة ، صدى خاص . فقد حمّقت باديء الامر تعاليمه في ما يتصل بالمرأة ، بأن نزعت الحجاب وطفقت تبشر في المجتمعات العامة . من أجل ذلك لعنَ خالها — وكان عالماً مجتهداً مشهوراً — الباب ، وسرعان ما تصدّى له بابيّ في احد المساجد فقتله . وفي صيف سنة ١٨٤٨ كان البابية قد أخذوا في احداث القلاقل في مشهد أيضاً ، حتى إذا اخرِجوا من بَارْفُرُوش (بَالفُروش) تحصنوا بالقرب من ضريح الشيخ الطَبَرْسِي على مسافة ١٢ أو ١٥ ميلاً جنوبي المدينة . وهنا بعث الشاه الجديد ، ناصر الدين ، جيشاً لقتالهم . ووفق الباب واتباعه إلى صد الهجوم الاول بنجاح ، ولكنهم اضطروا في تموز — آب سنة ١٨٤٩ إلى الاستسلام بعد ان نالوا وعداً بالعفو . وعلى الرغم من هذا الوعد فقد اعمل جند الشاه السيوف في رقابهم . اما في زَنجان فقد صمد اتباع الباب طوال سنة ١٨٥٠ كلها تقريباً في وجه قوات حكومية تفوقهم قوةً وعدداً . وفي ٨ تموز من السنة ذاتها أعدِم البابُ نفسهُ مع أحد مريديه ، في تبريز .

ولكنّ ميتة الشهداء هذه التي ماتها زعيم البابيّة كانت أول حافز أثارهم إلى المقاومة حقاً . والواقع أن الثورة انتظمت البلاد كلها ، وعجّلت في سقوط كبير الوزراء . وفي ١٥ آب حاول عددٌ من اتباع الباب ان يغتالوا الشاه بينا كان يغادر قصره الصيفي قاصداً إلى الصّيد . فكان من نتائج ذلك ان شنّت الدولة حملةً من الاضطهاد جديدة ، على أتباع الباب . وكانت الحملة عنيفةً دامية ، أُعدِمت خلالها ، في آخر آب ، قرة العين الشاعرة مع عددٍ من الشهداء .

بهاء الله

وفزعَ زعماء الطائفة إلى بغداد ، فراراً بأنفسهم من هذا الاضطهاد .

وكان كبيرهم صبحِ أزَل (صبح الازل)، ولكن أخاه الصغير، بهاء الله، كان حتى في ذلك الحين أبرز منه وأظهر. وفي سنة ١٨٦١ – ١٨٦٦ وضع كتابه «إيقان» الذي ذاع بين أفراد الطائفة أكثر مما ذاعت مؤلفات المؤسس نفسه. وإذ كان مُقام البابيّة في بغداد، غيرَ بعيد عن حدود الدولة الفارسية، لا يزال يشكّل، في رأي حكومة الشاه، خطراً ماثلاً، فقد طلبت الحكومة الفارسية إلى الباب العالي ان ينقلهم إلى مكان أبعد، في داخل الامبراطورية. وهكذا حُمِلوا في صيف سنة ١٨٦٤ إلى استانبول، ثم نُقِلوا في كانون الاول إلى أدرنة. وهناك ادّعى بهاء الله انه المظهر الأوّل للأرادة الالهية التي بشّر بها الباب. عندئذ نشب الخلاف بينهما، بعد أن رفضَ حزب أخيه أن يُقرّ دعواه. حتى إذا ادّى النزاع إلى اصطدامات دامية تعيّن على الباب العالي أن يفصل ما بين الفريقين المتخاصمين. فنُفي بهاء وأتباعه إلى عكا، ونفي صبح الأزل وأتباعه إلى قبرس حيث خصصت له الحكومة البريطانية راتباً معيناً. وبعد وفاة البهاء في ٢٧ نوار سنة ١٨٩٢ انتهى ابنه عبد البهاء إلى أن يكون زعيم الطائفة غيرَ منازَع. والواقع أنه ضحّى شيئاً فشيئاً بالعناصر الاسلامية والصوفية في مذهبه ابتغاءَ جعله ديناً انسانياً عامّاً. ولقد وُفّق إلى ان يكسب لمذهبه سيدة انكليزية، اسمها لورا كليفّورد بارناي * نشرت تعاليمَهُ في ترجمات انكليزية وفرنسية، وامدّت دينَهُ بالأتباع. وفي سنة ١٨٩٣ كانت البهائية قد ظهرت في أميركة، وما هي إلا فترة يسيرة حتى نشأت في جميع المدن الاميركية الكبرى جاليات بهائية انتظمت، بالاضافة إلى الداخلين في الديانة الجديدة من مختلف الاديان والمذاهب، جماعاتٍ كبيرة من الزنوج.

وكانت السنوات الاولى من حكم ناصر الدين شاه سنواتٍ مشؤومة جداً، في صعيد السياسة الخارجية أيضاً. فقد تقلّد زمام السلطة في هراة،

* Laura Clifford Barnay

سنة ١٨٥١ ، شابٌ عديم الكفاية اسمُهُ سعيد محمد ؛ فسعى إلى ان يرتبط مع فارس بمعاهدة تحالف . وعلى الرغم من ان الشاه كان قد تعهّد للحكومة البريطانية ، سنة ١٨٥٣ ، بأن لا يوجّه أيّما قوة إلى هراة ، فقد احتلّ هذه المدينة سنة ١٨٥٦ . وحاولت بريطانية ، بادىء الأمر ، أن تحمل دوست محمد على أن يتصدى للفرس ؛ حتى إذا أبى تكليفَها هذا اضطرت إلى أن تُنزل قواتها في فارس نفسها . وبعد معارك ثانوية دارت في سبيل الاستيلاء على بوشير وخوزستان تعيّن على الشاه ، في معاهدة باريس سنة ١٨٥٧ ، أن يجلو عن افغانستان ويعترف باستقلالها . ولكنّ الفرس كانوا قد وفقوا سنة ١٨٥٦ ، إلى ان يطردوا ممثّل أمير مسقط ، حاضرة عُمان ، من ثغر بندَر عباس المواجه لبلاده والذي كان الأمراء قد استأجروه منذ سنه ١٧٩٨ ، كما وفقوا إلى فرض سلطة الشاه على مقاطعتي سجستان وبلوخستان اللتين كانتا حتى ذلك الحين مستقلتين استقلالاً نسبياً . بيد أن أفغانستان ما لبثت ان طالبت هي ايضاً بضمّ سجستان اليها بعد عهد أحمد شاه . وأكّد شير عليّ ، ابن دوست محمد ، الذي خلفَ أباه سنة ١٨٦٣ ضرورةَ هذا الضمّ ؛ وفي سنة ١٨٧٢ قرّرت بعثة بريطانية لتخطيط الحدود تقسيمَ البلاد ، فلم تنل افغانستان غير المناطق المجدبة المحاذية لحدودها .

الزحف الروسي في آسية الوسطى

وعلى الحدود الشمالية وُفّق الشاه ، بفضل حاكم خراسان ، إلى ان ينتزع مرو ، سنة ١٨٥٧ ، من ايدي التركمان الذين كانوا قد اشاعوا في البلاد جواً من الذعر الدائم بسببٍ من غزواتهم الهادفة إلى اقتناص الرقيق ؛ ولكنّ خليفته اضاع المدينة إثر هزيمة شنعاء مُني بها بعد ثلاث سنوات . والواقع أن الروس ما لبثوا ان حرّروا الشاه ، شيئاً فشيئاً ، من كل قلقٍ كان يساوره على سلامة هذه الحدود . فمنذ إخضاع القيرغيز في القرن الثامن عشر وضمّ القبائل الصغرى في مقاطعة أورنبُورج سنة ١٨٢٢ ، والروسيا

على احتكاك عدائي متزايد بخانات الأوزبَك في خُوارِزْم وبُخارى . ومنذ سنة ١٧٤٩ شرع الروس يتقدّمون في وادي نهر سَيْحُون ، حيث اصطدموا بخانيّة خُوقَنْد (خُواقَنْد) . وفي سنة ١٨٦٨ هُزِم أمير بخارى وأكره على التخلي عن سمرقند . وفي سنة ١٨٧٣ ضُمت خُوارِزم إلى امبراطورية القيصر ، كما ضُمّت خواقَنْد بدورها إلى هذه الامبراطورية سنة ١٨٧٦ . وفي ما بين سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٨١ أُخضع تركمان التّكّه في سُهُوب قره قُوم ؛ وفي سنة ١٨٨٤ استوى مركز الروسيا في آسية الوسطى وتوطّدت دعائمه باستسلام مَرْو إليها عن رضا وطيب نفس .

البريطانيون في افغانستان

وطبيعي ان ترى بريطانية العظمى في هذا الزحف الروسي خطراً يتهدّد الهند . والواقع أنه بعد أن رفضت بريطانية الاعتراف بمعاهدة سان ستيفانو التمهيدية التي عقبت الحرب الروسية التركية ، وبعد ان هدّدت الامبراطوريةَ القيصريةَ بأن تحرمها ثمرات نصرها عُهد إلى الجنرال سكوبليف * الروسي في مهمة تهدف إلى تحويل البريطانيين عن الامبراطورية العثمانية بواسطة هجوم يشنّه على افغانستان . ولكن مؤتمر برلين اختتم أعماله قبل أن يستطيع سكوبليف اتخاذ الاستعدادات الكافية للنهوض بمهمته العسيرة . والحق أن هجومه على تركمان التّكّه ، وكانوا لا يزالون آنذاك مستقلين ، قد اقترن بالاخفاق . ولكن الجنرال ستوليتوف ** استطاع أن يتقدّم إلى كابل فيدخلها مع بعثة عسكرية ، ومن ثم اقنع الأميرَ شير عليّ بعقد حلف ضدّ بريطانية التي كان شير عليّ يشعر بأنها غبنته عند تخطيط حدود سجستان . ولم يكن في ميسور بريطانية أن تمرّ بهذه المناورة مرّ الكرام ، فطلبت اليه ان يستقبل بعثة بريطانية مع حاشية عسكرية ، حتى إذا ردّ هذه البعثة على أعقابها عند

Skobelev *

Stolietov **

الحدود ، اقتحم اللورد روبرتس * افغانستان ، في كانون الأول سنة ١٨٧٨ ، واحتل بعد وقت قصير كلاً من كابُل وقَنْدهار . عندئذ لجأ شير عليّ إلى تركستان ، فقضى نحبه في « مزار شريف » سنة ١٨٧٩ . فولي الامر من بعده ابنُهُ يعقوب ، الذي كان قد أعلن الثورة عليه في وقت مضى بتأييد من حكومة الهند ، والذي كان ابوه قد ألقاه في غياهب السجن . والواقع أنه لم يكتف ، في معاهدة « غانْداماك » في ٢٨ نوار سنة ١٨٧٩ ، باستقبال بعثة بريطانية في كابل ، بل تخلى أيضاً عن مجاز بُولان ووادي قُرّم مما جعل من اليسير على القوات البريطانية اقتحام البلاد الافغانية ساعة تشاء . حتى إذا شنّ الروس على التركمان ، كرّةً أخرى ، هجوماً لم يقترن بالتوفيق ، في صيف سنة ١٨٧٩ ، هبت الغوغاء في كابل فقتلت السفير البريطاني كافانياري ** وحاشيته . وعلى الرغم من ان يعقوب اعتذر شخصياً من هذا الحادث لدى حكومة الهند فقد سُيّر روبرتس إلى افغانستان ، للمرة الثانية ، فاحتل كابل ولكنه اضطر بعد ذلك إلى بذل جهود جبارة حتى ينجو من نقمة الجيوش الشعبية التي كانت تحاصره . ثم خُلع يعقوب عن العرش ونفي إلى الهند . وقام ابن أخيه عبد الرحمن — الذي كان قد فر إلى تركستان — بمحاولة لارتقاء العرش بمساعدة الروسيا ، ولكنه ما لبث ان رأى ان من الحكمة السعي الى التفاهم مع بريطانية . صحيح ان ايوب خان ، أحد ابناء شير علي ، أعلن الثورة عليه من هراة ، ولكن روبرتس هزمه قبل ان يصل الى قندهار . ومن ذلك الحين تمت لعبد الرحمن السيادة على البلاد كلها . وفي هذه الاثناء كانت مقاليد الامر في بريطانية قد انتهت الى غلادستون الذي اطّرح ، بوصفه من الاحرار ، سياسة دزرائيلي *** الاستعمارية السابقة ، وفي الحال أصدر أمره الى القوات البريطانية بالانسحاب ،

Roberts *

Cavagnari **

Disraeli ***

وذهب الى ابعد من ذلك فتعهد بأن يكون السفير البريطاني في بلاطه رجلاً مسلماً ، دائماً . وهكذا تم لافغانستان ، من جديد ، قسط لا بأس به من الحرية في ميدان السياسة الخارجية .

محاولات الاصلاح في فارس

وبعد ان استتبّ السلام بهذه الصورة ، على حدود فارس كلها ، تمتعت هذه البلاد ، في ظل الشاه ناصر الدين ، بنحو عشرين عاماً من التطور الهادىء الذي لم يؤتِ ، بادىء الامر ، على كل حال ، غير ثمرات قليلة بسبب من تأخر البلاد العام . وفي سنة ١٨٦٤ وافق الشاه — الذي كان معنياً بثمرات الحضارة الغربية بقدر ما كانت تساعده على توطيد سلطته وزيادة موارده — على مشروع بريطاني لخط تلغرافي يربط بغداد ببوشير ماراً بكرمان شاه وهمذان . وفي سنة ١٨٧٠ ربط الاخوة سيمنس * هذا الخط بخط ممتد من لندن الى تبريز من طريق الكسندروفسك وأودسّا وتفليس . ثم ان الاخصائيين البريطانيين ما لبثوا ان انشأوا خطوطاً فرغية امتدت إلى سائر المقاطعات ، مما ساعد الحكومة المركزية على ضبط الاحوال فيها ضبطاً أكثر فعالية . وفي سنة ١٨٧٢ منح رئيس الوزراء مجموعة ضخمة من الاحتكارات إلى البارون جوليوس دي رويتر ** ، البريطاني التبعة ، مقابل تعهده بمد الخطوط الحديدية ، وفتح المناجم ، وانشاء بنك وطني في البلاد . حتى إذا قام الشاه في السنة التالية برحلة إلى اوروبة ابتغاء الاطلاع على ما بلغته من الحضارة لقي في بطرسبرج نفوراً شديداً من هذه المشاريع ، في حين لم يجد حماسة لها في لندن . وهكذا قرر لدن عودته ، وكان على حقّ في ذلك ، الغاء هذه الامتيازات .

وقام الشاه برحلتين اخريين إلى اوروبة سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٨٩ بمناسبة

---

* Siemens brothers

** Julius de Reuter

المعرض الدولي في باريس . ولكن نتائج هاتين الرحلتين العملية في بلاده لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى نفقاتهما ، والواقع انه قصّ على رعاياه ما شاهده واختبره في هاتين الرحلتين وفي حجته إلى كربلاء سنة ١٨٧٣ في كتاب وضعه في اسلوب يمتاز بالبساطة والجمال ، ويبتعد ابتعاداً مرضياً عن زخرفة الاسلوب القديم في كتابة التاريخ . وقد كان لهذا الاسلوب أثر محمود في تكوين النثر الفارسي الحديث .

اختلاف الشاه وجمال الدين الافغاني

وفي رحلته الاخيرة التقى الشاه ، في مونيخ سنة ١٨٨٩ ، جمال الدين الافغاني ، الداعي إلى الوحدة الاسلامية ، واصطحبه إلى طهران . وكان جمال الدين قد مكث فترة قصيرة في بلاط الشاه ، سنة ١٨٨٦ ، بدعوة منه ، ولكنه اضطر بعدُ إلى ان يغادر البلاد لأن مكانته بين الفرس ما لبثت ان استثارت مخاوف الشاه . وفي هذه المرة أيضاً تنكّر الشاه لجمال الدين — بعد ن اظهر بادىء الأمر اهتماماً كبيراً بآرائه في الأصلاح — تحت تأثير كبير الوزراء أتابك أعظم عليّ أصغر خان . والتمس جمال الدين مفزعاً في مسجد الشاه عبد العظيم في طهران الذي كان يعتبر ملجأ لا تُنتهك حرمته البتة . ولكنه استطاع ان يواصل من هناك ، طوال سبعة اشهر أخرى ، التأثير في مريديه الذين انشأوا بعد ذلك بقليل حزباً اصلاحياً . ولكن الشاه ما لبث أن أمر بانتزاعه من هناك واخراجه عبر الحدود التركية إلى العراق . وقصد جمال الدين ، أول ما قصد ، إلى لندن . ومن هناك شرع يثير الأوروبيين ضد الحكومة الفارسية واستبدادها ، وواصل توجيه انصاره في البلاد من طريق رسائل مفتوحة كان يبعث بها اليهم . وما هي إلا فترة حتى دعاه عبد الحميد إلى استانبول رجاةَ ان يتخذ منه آلة تخدم مشاريعه الهادفة إلى الوحدة الاسلامية . ولقد عاش هناك حتى وفاته ، في ٩ آذار سنة ١٨٩٧ ، في نشان طاش ، ولكنه كان موضع حذر السلطان ومراقبته وخاصة بعد مصرع الشاه ،

وان يكن قد أبى تسليمه إلى الحكومة الفارسية .

مصرع ناصر الدين شاه

وحاول الشاه الخروج من الازمة المالية التي تخبط فيها ، بسبب من رحلاته الاوروبية المتّسمة بالاسراف البالغ ، من طريق اخضاع التبغ لاحتكار حكومي ، وهكذا حوّل الاشراف على زراعة التبغ وتجارته كلها إلى نفر من الرأسماليين الاوروبيين لقاء مبلغ سنوي قدره خمسة عشر الف جنيه استرليني يضاف اليها ربع الارباح . ولكن هذا الاستغلال الوحشي لاحدى مسرات الشعب الاكثر انتشاراً ما لبث ان اثار عاصفة من الاستياء بين أفراد الرعية ، حمل لواءها رجال الدين أنفسهم . والواقع ان أعظم مجتهدي البلاد دعا الناس إلى الاقلاع عن التدخين ، فأطاعه خلق كثير في كل مكان . واخيراً اضطر الشاه ، بعد ان نشبت الاضطرابات في البلاد ، إلى شراء الامتياز بنصف مليون جنيه واضعاً بذلك اساس الدّين الفارسي العام للبنك الملكي البريطاني الذي كان الشاه قد أنشأه سنة ١٨٨٩ إرضاء لـ « دي رويتر » . ولكن هذا الاجراء لم يكن كافياً لاخماد نار الاستياء الشعبي . ففي سنة ١٨٩٦ ، بينما كان الشاه يستعد للاحتفال بالذكرى الخمسين لارتقائه العرش ، خرّ صريعاً برصاص احد مريدي جمال الدين ، فيما كان يتلقى العرائض من رعاياه ، وفقاً للعادة القديمة .

تفاقم الحالة المالية في عهد مظفر الدين

وانتقل ابنه مُظفّر الدين من تبريز ، وكانت مقرّه كولي للعهد ، إلى العاصمة طهران يصحبه السفيران البريطاني والروسي — حيث ارتقى العرش غير منازَع . وما هي الا فترة قصيرة حتّى حذا حذو والده فقام برحلة الى اوروبة بحجة الاستشفاء بالمياه المعدنية . وحاول الشاه الجديد أن يسد حاجته إلى المال من طريق قرض يعقده في بريطانية ، ولكن محاولته لم تؤتَ

أكلها . فعقد قرضاً قيمته ٤٢ مليون روبل – لم تلبث ان بُدّدت في الحال – مع البنك الذي انشأته طهران سنة ١٩٠٠ وزارة المالية الروسية مقابل حصولها على امتياز بانشاء طريق عامة تمتد من جُلْفَه (جولاهه) إلى طهران ، ومقابل حصولها على حقوق التنقيب عن الفحم الحجري والبترول . ولضمان أداء هذه الديون وُضعت ادارة الجمارك تحت اشراف موظف بلجيكي وشُجعت التجارة الروسية تشجيعاً خاصاً . والحق ان الشعب القى تبعة هذه التدابير المالية الجديدة بأن تُنزل بالبلاد أذىً كبيراً ، على عيّن الدولة ، صِهر السلطان وكبير وزرائه ، الذي لم يُبد أيّما مقاومة لمطالب الشاه المالية غير المنقطعة . وهكذا نشأت ، شيئاً فشيئاً ، في نفوس الطبقات المثقفة ، رغبة في ان يكون لها سلطان ما على الحكومة .

الثورة والحياة البرلمانية

ولم تكن في فارس ، حتى ذلك الحين ، صحافة تستطيع ان تعبر عما يعتلج في نفوس الجماهير . صحيح ان ناصر الدين شرع ينشر ارداته الملكية – ابتداء من ١٨٥١ وهي السنة الثالثة لحكمه – في صحيفة ما لبثت ان ألحِقت بعدُ بصحف أخرى . ولكن القارىء الفارسي لم يكن يستمد ثقافته الشعبية إلا من مجلة اسبوعية كانت تصدر في استانبول ابتداء من سنة ١٨٧٥ باسم « أخْتَرْ » (النجمة) . وقد عطلها السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٦ بعد مصرع ناصر الدين . أما أولى الهجمات العنيفة التي شنت على الحكومة فقد ظهرت على صفحات جريدة « القانون » التي أسسها في لندن ، سنة ١٨٩٠ ، الامير « ملكوم خان » – وكان أبوه أرمنياً – بالاشتراك مع جمال الدين الافغاني ، وقد طالب فيها ، لأول مرة ، بالتمثيل الشعبي . وكان قد أسس خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر (١٨٦٠ – ١٨٧٠) نادياً في طهران ما لبثت الحكومة ان حلته . ثم إنه نُفي من البلاد ، ولكنه عُيّن سنة ١٨٧٢ سفيراً في لندن .

والواقع ان السبب المباشر للثورة إنما نشأ ، شأنهُ في كثير من الاحيان ، عن حادث غير مهمّ في ذاته ، أعني الجلد الذي أمرّ بانزاله حاكم طهران بعدد من التجار (كانون الاول سنة ١٩٠٥) بسبب من ارباحهم الفاحشة في تجارة السكر . وكانت العادة قد جرت في فارس ، منذ القِدم ، على ان يعتصم الناس في احد المساجد إذا آنسوا عنفاً من جانب السلطان (وقد أطلق على هذه العادة اسم « بَسْت » أي ملجأ) فعلَ جمال الدين الافغاني من قبل . وفي مسجد الشاه عبد العظيم نفسه الذي تحدّى فيه الافغانيّ ناصرَ الدين أخذ المستاءون من أحكام الجلد يجتمعون في عدد متزايد يومياً ، ويلقون تأييداً كبيراً لا من رجال الدين فحسب ، ولكن من ولي العهد ، في ما يُظنّ ومن الوزير الذي سبق ان تولى الأمر قبل الوزير غير الشعبيّ الحاكم آنذاك ، أيضاً ، حتى لقد اضطر الشاه إلى ان يَعد بأقالة هذا الاخير . ولكن الشاه لم يكن يعتزم الوفاء بوعده ، بعد ان تفرّق شمل المجتمعين ، ومن هنا تمّ « بَسْت » آخر في ربيع سنة ١٩٠٦ انتهى بهجرة كبار الزعماء الدينيين الى مدينة قُمّ المقدّسة حيث يقوم ضريح فاطمة بنت الامام السابع إلى جانب أضرحة عدد كبير من المتقين . وقد هدّدت هذه الهجرة النظام القضائي الخاضع لسيطرتهم ، بالشلل . حتى إذا حاول عين الدولة ان يُكره التجار على فتح الاسواق بالقوة لجأوا إلى المقرّ الصيفي للسفارة البريطانية في « جولاهك » حيث احتشد في جنائنها ، آخر الامر ، اثنا عشر الف رجل . عندئذ اضطرّ الشاه إلى الرضوخ في النهاية ، فعزل عين الدولة ، واستدعى رجال الدين من قُمّ . ولكن الشعب لم يعد مستعداً لأن يكتفي من الاصلاح بهذا القدر . فاضطر الشاه ، إثر وساطة السفارة البريطانية ، إلى ان يَعِد بدعوة مجلس تمثيلي عام يُنتخب من بين أمراء البيت المالك ، ورجال الدين ، والنبلاء ، وأصحاب الاراضي ، والتجار ورجال الاعمال . وفي تشرين الاول ، توفي الشاه بعد بضعة أيام من افتتاحه الجمعية الوطنية (المجلس) .

ولم يكن لخلفه، محمد علي، رغبةٌ تعدو في شدّتها وإلحاحها رغبتَهُ في ان يملأ خزائنه الفارغة من طريق القروض، جرياً على خطة أبيه من قبله، ولكن المجلس أبى عليه تحقيق هذه الرغبة. فلم يكن منه إلا ان دعا أتابك أعظم عليّ أصغرخان، الذي قضى السنوات السابقة في الخارج، إلى إنفاذ إرادته على الرغم من الجمعية الوطنية. ولكن احد المتعصّبين اغتال الوزير بعد ان قام بمفاوضات مخفقة مع العناصر الاكثر اعتدالاً. فخلَفَه في منصبه ناصر المُلْك، وهو إداري حكيم نجح فترة قصيرة من الزمن في تنظيم مالية البلاد بما اتخذ من اجراءات جريئة ابتغاء التوفير على الخزانة العامة. ولكنه كان عاجزاً أيضاً عن تذليل الصعاب السياسية الضخمة. وكانت قد ظهرت، بعد اعلان الدستور، مجموعة كبيرة من الصحف لم يُعْنَ منها بتنوير الشعب، عنايةً صحيحة، إلا قليل من مثل «المجلس»، و«صُورْ إسرافيل»، في حين اقتصرت كثرتها الغالبة ــ ولم يعش معظمها غير فترة قصيرة ــ على إثارة النعرات السياسية وحسب[١٥٣]. وكانت الجمعية الوطنية تنتظم ــ بالاضافة إلى السياسيين البعيدي النظر مثل تقي زاده[١٥٤] التبريزي ومواطنيه، وإلى مجتهدي طهران الفصحاء وعدد من النبلاء ــ نواباً عن الولايات الجنوبية التي كانت لا تزال متأخرة جداً. أما قوة الثورة الدافعة فكانت تتمثل في «الأنْجُمَن» وكان بعضهم جماعات محلية، في حين كان بعضهم الآخر أعضاء في أندية للمناظرات يُبَشَّرُ فيها بالافكار الفوضوية ويُدعى إلى الأرهاب؛ وكان رُسُلهم، من مثل قاتل أتابك اعظم، يدعون أنفسهم «فدائيين» على غرار «الحشاشين» من قبلهم.

---

(١٥٣) انظر براون E. G. Browne, The Press and Poetry of Modern Persia, Oxford, 1914.

(١٥٤) تجد رسمه في براون E. G. Browne, Brief Narrative of Recent Events in Persia, London, 1909.

وانشأ الشاه ، صيانةً لنفسه من هذه القوى الجديدة ، كتائب خاصة مؤلفة من جنود قوزاق مدرّبين ، جارياً في ذلك على الطريقة الروسية . وفي كانون الاول سنة ١٩٠٧ خطر له ان يبطش بالجمعية الوطنية بمساعدتهم ، ولكنه اقلع عن تنفيذ هذه الفكرة بسبب من المقاومة العنيفة التي أبداهـا « الأنْجُمَن » الذين تلقّوا إمدادات من قزوين .

الروسيا وبريطانية تقتسمان النفوذ في فارس

وفي هذه الأثناء انتهت كلٌّ من الروسيا – التي شرعت توجه جهودها التوسّعية ، أكثر فأكثر ، نحو آسية الوسطى ، بعد هزيمتها في الحرب الروسية اليابانية – وبريطانية التي أرادت ان تشدّ الروسيا إلى الغرب لكي تحوّلها عن الهند – نقول انتهت كل من الروسيا وبريطانية إلى اتفاقٍ قسمَ فارس إلى منطقتي نفوذٍ بينهما . وإذ كانت بريطانية لا تطمع بأكثرَ من قاعدة للدفاع عن الهند ، وإذ كانت من أجل ذلك لم تطالب بغير الأجزاء ، الأقلّ اهمية ، الواقعة في جنوبي فارس والممتدة من حدود الأفغان حتى بَندر عباس ، فقد تركت للروسيا الجزء الشمالي الممتدّ من قصر شيرين حتى الحدود الروسية الأفغانية ، وهو يشمل – فيما يشمل – إصفهان ويَزْدوكاخ . وعلى الرغم من ان كلاً من الامبراطوريتين اعترفت باستقلال فارس ، فقد شعر الفرس ان بريطانية خانتهم ، وهي التي ساعدتهم حمايتُها على ان يخطوا خطواتهم الأولى في طريق الحرية .

وأياً ما كان ، فلم يكن في ميسور الشاه أن يرضخ لتقييد الجمعية الوطنية لسلطته ؛ ولقد اخفقت جميع المحاولات للوصول إلى تسوية . وفي شباط سنة ١٩٠٨ ألقيت قنبلة على سيارته فقتلت أحد رجال حاشيته . وفي مطلع حزيران غادر الشاه العاصمة ثم سيّر كتيبته القوزاقية ، بقيادة الكولونيل لياكهوف * من مقرّه الصيفي إلى طهران لكي تقصف بناء البرلمان بالمدافع

* Lyakhov

وتفرض على العاصمة الأحكام العرفية .

اندلاع الثورة من جديد وخلع الشاه

وثار الوطنيون في تبريز على هذا العدوان ، يحدوهم نجاح الثورة التي كانت قد اندلعت قبل ذلك بقليل ضدّ عبد الحميد في تركية ، وطردوا أنصار الشاه من المدينة . وفي آب سيّر الشاه قواته إلى المدينة فضربت عليها الحصار إلى ان احتلّها الروس في نيسان سنة ١٩٠٩ .

ولكن القضية الوطنية كانت قد اكتسبت نصيراً جديداً في قبيلة « البختيارية » احدى قبائل الفرس الجنوبية البادية ، وكان زعيم هذه القبيلة ، سِرْدَار أسد ، غائباً عن البلاد في رحلة قام بها إلى أوروبة ، ولم يكد يقفل من رحلته هذه حتى اندلعت نيران الثورة . ولقد وُفّق إلى أن يوجّه قبيلته لنصرة القضية الوطنية ، فقادها بادىء الامر إلى إصفهان ، وحرّر الاصفهانيين من عسف حاكمهم . حتى إذا تألف في رَشْت جيش محاربٌ أيضاً — قوامه جنودٌ قوقازيون وأتراك وأرمن تحت قيادة محمد والي خان ، الجنرال السابق ، وصانع ارمني يُدعى افرايم ، قرّر سردار أسد أن يُفيد من هذا الجيش في هجوم مشترك على طهران ، رغم الانذار الذي وجهه اليه سفيرا الروسيا وبريطانية . وقبل ان يستطيع الروس إرسال قواتهم لنجدة الشاه — وكانت هذه القوات قد رابطت قبل ذلك بقليل عند أنزَلِي — وُفّق الوطنيون إلى الاستيلاء على العاصمة بعد قتال دارت رحاه في الشوارع ثلاثة أيام متوالية ، وإلى خلع الشاه الذي فزع إلى السفارة الروسية في ١٦ تموز .

وتولى أسَد المُلْك ، أحد زعماء القاجار البارزين ، الوصايةَ على احمد ، ابن الشاه السابق ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ، في حين رحلَ الشاه السابق نفسه إلى أودسّا ، بعد ان مُنِحَ مرتب تقاعد . وعلى الرغم من الجهود التي بذلها افرايم ، بوصفه مديراً للشرطة ، لاقرار النظام في المدينة ، فقد دب التحاسُد ما بين زعيم البَخْتِيارِيّة ، وكان يتولى وزارة الداخلية ،

وابلجنرال والي خان ، وكان يتولى وزرارة الحربية . والواقع ان أولهما كان مؤيّداً من قبل المتطرفين في الجمعية الوطنية ، ويُعرفون بـ « الأنقلابيين » ، الذين أخرجوا تقي زاده الحذر من طهران ، فتمكن بمساعدة هذه العناصر المتطرفة من إقصاء وزير الحربية من الحكم . وحاول الشاه السابق ان يُفيد من القلاقل لاسترداد عرشه السليب . والواقع انه غادر أستراباد على رأس جيش من المتطوّعة ، ابتغاءَ الاستيلاء على طهران ، في حين تقدّم أنصاره من كرمان شاه يريدون الالتحاق به . وأيّدت الروسيا الشاه ، ولكن بريطانية عارضت بشدة في عودته إلى العرش ، وهكذا اضطرّ إلى ان يرجع بخفي حنين .

شوستر الاميركي يحاول القيام باصلاح مالي

وعُني الحزب الثوري ، الذي تقلّد الآن زمام السلطة ، بتنظيم المالية الفارسية ، في المحلّ الاول ، وكانت قد أصيبت بفساد كامل بسبب من سوء الأدارة في العهود السابقة . وإذْ لم يكن في ميسوره أن يُفيد كثيراً من المستشارين الأوروبيين الذين أبوا بطبيعة الحال ، إلاّ ان يخدموا مصالح الدائنين الاجانب ، فقد اتجه شطرَ السفارة الاميركية طالباً المساعدة . وبناء على اقتراح ناظر الخارجية الاميركية عيّن أحد موظفي بنك « يونيون تراست » * في واشنطون مورغان شوستر ** أميناً عاماً للخزانة الفارسية وألحقَ به أربعة مساعدين من مواطنيه الاميركيين . وليس من شك في أنّ هذا الاميركي — الذي كان بالِغَ النشاط ولكنه جاهلٌ كل الجهل أحوالَ البلاد وظروفها — كان شديد الرغبة في خدمة البلاد التي دعته اليها والتي وصف أحوالها التعيسة في اتهامٍ صريح العبارة [١٥٥] ، ولكنه ما لبث أن اخطأ اختيارَ الأساليب

---

* Union Trust

** W. Morgan Shuster

(١٥٥) The Strangling of Peria, London, 1912.

والوسائل إلى هذا الأصلاح . والواقع ان البرلمان وضع تحت تصرّفه قوة مسلحة خاصةً به لكي يستطيع ضبط جباية الضرائب ضبطاً صحيحاً . فرغب في اسناد قيادة هذه القوة إلى الملحق العسكري في السفارة البريطانية ، وكان يتأهب لمغادرة وظيفته ، ولكن الروس حالوا دون تحقيق رغبته هذه . ومهما يكن من أمر فقد أخفق في أولى محاولاته إلى اتخاذ إجراءات حازمة بواسطة قواته الخاصة .

وكان البرلمان قد قرّر مصادرة ثروة شجاع السلطنة ، أخي الشاه المنفيّ ، بسبب من تأييده لهذا الأخير في محاولته استرداد العرش . حتى إذا حاول شوستر إنفاذ هذا القرار بواسطة قواته المسلحة سيّر القنصل الروسي العام قوةً من القوزاق لتمنع قوات شوستر من القيام بمهمتها ، بحجة ان شجاع السلطنة مدينٌ للبنك الروسي . عندئذٍ هاجم شوستر القوزاق بقوة أكبر ، فآلَ ذلك إلى ادعاء الروس ان اثنين من قناصلهم قد هُدّدوا . وفي ٥ تشرين الثاني طالبَ الروس ، لقاء ذلك ، بأقالة شوستر ، حتى إذا رفضت الحكومة الفارسية إجابة الروسيا إلى ما طلبت زحفت القوات الروسية – التي كانت قد حاربت الوطنيين في تبريز ورشت وأنزلي – إلى العاصمة طهران . فاضطر البرلمان ، إزاء هذا الضغط ، إلى الموافقة على اقالة شوستر في ٢٥ تشرين الثاني .

بلاد فارس الشمالية في ايدي الروس

وما لبثت تلك البلاد البائسة ان استشعرت شدة الوطأة الروسية عليها . ففي ١١ آب سنة ١٩١١ ضرب شجاع الدولة ، احد قواد الشاه المنفي المتقدين حماسة ، الحصار على تبريز ، معقل الوطنيين ، وكان يقود جيشاً من « الشاه سوَن * » اي حرس الشاه السابق . وفي ٢ كانون الثاني ، سنة ١٩١٢ ،

* راجع القسم الثالث الثالث من هذا الكتاب .

وفّق إلى دخول المدينة حيث أمر بانزال اشد العقوبات بالزعماء الوطنيين [١٥٦] . ثم ان الروس تذرعوا بذريعة واهية ليقصفوا بمدافعهم ، في ٢٩ آذار ، ضريح الامام الرضا نفسه ، الذي يُعد من الاماكن المقدسة عند الشيعة ، زاعمين ان الرعايا الروس في مَشهد – مدينة خراسان المقدسة – أمسوا في خطر من جراء الاضطرابات التي أثارها عمالهم أنفسهم . ومنذ ذلك الحين والقسم الشمالي من البلاد واقع في ايديهم بعد ان قنع البريطانيون بالعمل على اقرار النظام في منطقة نفوذهم ، في الجنوب ، بمساعدة قوات مسلحة يقودها ضباط سويديون . ولم تستأنف الجمعية الوطنية اجتماعاتها الا في تموز سنة ١٩١٤ ، بعد تتويج الشاه – وكان قد بلغ سن الرشد – لكي تستمع إلى خطاب العرش الذي أعلن فيه حياد فارس في الحرب العالمية المؤذنة بالانفجار .

فارس في الحرب العالمية الاولى

وفي الحرب العالمية الاولى قُدِّرَ لفارس ان تكون ميداناً حربياً تقاتلَ فيه الاتراك والروس – عند حدودها الغربية – فترةً قصيرة من الزمان . ففي كانون الثاني سنة ١٩١٥ هاجم الاكراد تبريز ، ولكن الروس استطاعوا اخراجهم منها في اليوم العاشر من الشهر نفسه . وفي بحيرة وان وأرمية زشبت ، في خريف سنة ١٩١٧ معارك دامية بين الأكراد واعدائهم القدماء ، النصارى النساطرة الذين كانوا مؤيدين من الروس ، وقد أصاب النصارى من جرّاء هذه المعارك آلام لا حدّ لها . وبعد انتصار كُوت العمارة اجتازت الجيوش التركية الحدود ، مهددة طهران ؛ بيد انها ما لبثت أن انسحبت ، بأمر من حكومتها ، لحاجتها الملحّة إلى الافادة منها في ميادين الحرب الاخرى . وفي فارس الجنوبية وفّق واسمُوس * القنصل الالماني السابق في بوشير

(١٥٦) راجع براون : **The Reign of Terror at Tabriz, England's Responsibility (With Photographs and a Brief Narrative of the Events of December 1911 and January 1912), compiled for the use of the Persian Committee,by E. G. Browne, London, October 1912.**

* **Wassmuss**

ـ وكان يتمتع باحترام كبير بين القبائل في الاقسام الداخلية من البلاد ـ إلى ان يُزعج البريطانيين إزعاجاً بالغاً ، وإن يكن قد عجز عن بلوغ الهدف الذي تمّ تحقيقه لندّه البريطاني ، لورنس ، في بلاد العرب ، أعني ان يقود أصدقاءه بنفسه إلى ساحة القتال [١٥٧] كذلك لم يوفق فون نيدَرْماير * واعوانه في محاولاتهم إثارة الفرس والافغان ضد مضطهديهم القدماء ـ الروس والبريطانيين ـ على الرغم من جميع الجهود الجبارة التي قاموا بها في سبيل ذلك [١٥٨] والواقع ان انهيار الجبهة الروسية مكّن الفرس ، في الشمال ، من التمتع بالحرية كرّة أخرى ، بعد أن تخلى البلاشفة عن جميع الحقوق الموروثة عن العهد القيصري . وسنرى في القسم التالي من هذا الكتاب كيف قُدّر لهذه البلاد المتعبة ان تزدهر من جديد بعد الحرب العالمية الأولى ، في ظل حاكم حازم ، [هو رضا خان بهلوي] .

---

(١٥٧) انظر سايكس Christopher Sykes, Wassmuss, the German Lawrence, Leipzig, 1937 .

* von Niedermeyer

(١٥٨) انظر فون نيدرماير Oskar von Niedermeyer, Unter der Glutsonne Irans , Dachau bei München, 1925.

الدول الإسلامية

بعد الحرب العالمية الأولى

تركية

هدنة مودروس

في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ خرجت الامبراطورية العثمانية من الحرب اثرَ هدنة مودروس. ولم يكن في ميسور طلعت وأنور، اللذين عقدا هذه المعاهدة، ان يقوما بمفاوضات الصلح، لأنهما كانا في أعين الأعداء المسؤولين الرئيسيين عن دخول تركية الحرب. كذلك لم يكن عزت باشا وتوفيق باشا، اللذين تقلد احدهما بعد الآخر رئاسة الحكومة، موضعَ ثقة الحلفاء واطمئنانهم ايضاً. ولم يرتحِ المنتصرون إلا للداماد فريد باشا، خصم الوطنيين، الذي قبض على أزمّة الحكم في ٤ آذار (مارس) ١٩١٩. بيد ان ثقته بمبدأ ولسن،* الثاني عشر الذي نصّ على ان تتمتع الاجزاء التركية من الامبراطورية العثمانية بالسيادة الكاملة ما لبثت ان مُنِيَت بخيبة فاضحة. وفي ١٥ نوار (مايو) سنة ١٩١٩ احتلّ اليونان إزمير بالاتفاق مع الحلفاء، ولم يلقَ احتجاج فريد باشا على ذلك اذناً واعية في مؤتمر الصلح المنعقد بباريس في شهر حزيران (يونيو).

* Wilson

وعبثاً حاولت الجماعات الوطنية في استانبول ان تعمل على انقاذ البلاد. ففي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨، دعا الدكتور أسعد — وهو طبيبٌ عينيّ طموح جداً ولكنه سياسي تنقصه الكفاية — الى عقد مؤتمر وطني في العاصمة ضمّ ثمانية احزاب وعدداً كبيراً من الكتل الصغيرة؛ وما هي إلا فترة حتّى انفض هذا المؤتمر بعد ان عقد عدة جلسات لم تُثمر شيئاً. ولم تحظَ بنصيبٍ اكبر من النجاح تلك الجماعةُ المؤلفة من ثلاثين من الوزراء السابقين واصحاب المقامات العالية التفّوا حول رئيس المجلس ورئيس الدولة السابق، احمد رضا؛ وقد عُرفت هذه الجماعة باسم «الوحدة الوطنية».

وما كان الخلاص ليأتي الا من الأناضول، بسكانه الأتراك المتجانسين اقوى ما يكون التجانس وكثرتُهم الساحقة من الفلاحين الذين لم تذهب الحرب الضروس المتطاولة بشيء من حيويتهم البالغة. وهكذا ثارت ضد اليونان — الذين اقترفوا من الفظائع في إزمير شيئاً لم يُسمع بمثله من قبل — عصابات تركية من المجاهدين (باش بوزق) يقودها الحدّاد أفه محمد، ويوروك علي. وسرعان ما التحقت بهذه العصابات قوات نظامية على رأسها ضباط من هيئة اركان الحرب، وبذلك تمكن الثوار من ان يشغلوا أعداءهم في حرب عصابات صعبة المراس. وفي ٣ نوّار (مايو) انطلق الجنرال كاظم قره بكير الى شرقي الاناضول حيث وفق الى إرجاء تسليم السلاح الى لجنة المراقبة البريطانية. ثم ان الوطنيين في أرضروم — يقودهم النائب السابق، رؤوف — قرروا الدعوة الى مؤتمر، ينعقد في ٣٠ نوار (مايو)، للدفاع عن البلاد.

مصطفى كمال يتزعم الحركة الوطنية بالاناضول

عند ذلك هيأت الدول الحليفة نفسُها الفرصةَ السانحة للرجل الذي قُدّر

له ان ينشيء تركية الحديثة . فقد طلبت الى الحكومة إقرار النظام في الأناضول ، ولو اقتضاها ذلك اللجوء الى السلاح . ولم تجد الحكومة من تؤهله كفاياته للنهوض بهذه المهمة غير مصطفى كمال المتمرس بالحروب ، والذي دافع عن أنافورْطَه ، وصانَ هو وجنوده ، افراد فرقة يِلْدِرِم ، الشرف العسكري التركي في معارك فلسطين وضواحي حلب . وفي ١٥ نوار (مايو) وصل الى الأناضول وتولى ، في الحال ، قيادة الحركة الوطنية ، (وكان أتباع الحركة في استانبول قد لحقوا به الى هناك) . ومن أماسِيَه ، وجه الدعوة في ٢١ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٩ لعقد مؤتمر تركي عام في سِيْواس . وقبل ان يتمكن هذا المؤتمر من الانعقاد افتتح مصطفى كمال مؤتمر أرضروم — ولم يكن قد حُضّر تحضيراً وافياً — في ٢٣ تموز (يوليو) وهو اليوم الذي اعتُبر منذ ذلك الحين عيد تركية الوطني . وفي ٧ آب(اغسطس) أصدر هذا المؤتمر الاول قراراً بالمحافظة على سلامة الاناضول التركي وبدعوة القوات الوطنية للدفاع عنه .

ثم ان مؤتمر سيواس انعقد بعد ذلك ، في ٤ ايلول (سبتمبر) برئاسة مصطفى كمال ، وقد شهده مندوبون عن الروم إيلي أيضاً . وصدّق هذا المؤتمر مقررات أرضروم ، بتعديل طفيف . عندئذ أصدرَ فريد باشا — وكان لا يزال حاكماً على استانبول — أمره الى مصطفى كمال بالعودة الى العاصمة ؛ حتى اذا أبى هذا الاخير امتثالَ الأمر عدّه فريد باشا ثائراً ، وسعى الى حَمْل الحلفاء على أن يظنوا به الظنون . ولكنّ مصطفى كمال كان قد بسط نفوذه ، في هذه الأثناء ، في طول الاناضول وعرضه ، وكان قد وُفّق الى ان يقطع كل اتصال بين حكومة استانبول والاناضول . وفي ٢ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٩ اضطرّ فريد باشا الى اعتزال الحكم . ونزلَ خَلَفُهُ ، علي رضا باشا ، وزير الحرب السابق ، عند إصرار مصطفى كمال وأعاد انتخاب البرلمان التركي ، من جديد ؛ ولكنه دعا البرلمان الى الانعقاد في استانبول ، في حين كان مصطفى كمال قد طالب بنقله الى الاناضول

أسوة بمجلس وّيمار الوطني . وعلى الرغم من أن علي رضا قدّم الى الدول الحليفة ، في ٦ كانون الثاني (يناير) ، مقترحات اصلاحية تمنح مفوّضيها سلطات رقابية واسعة ، وعلى الرغم من أن البرلمان تردّد في ان يجاهر بتأييده لمصطفى كمال ، فقد أقرّ ، في ٢٨ كانون الثاني (يناير) الميثاق الوطني (ميثاق ملّي) المشهور الذي أكّد مقرّرات أرضروم وسيواس إذ طالب بالاستقلال والحرية التامين لجميع الأقاليم الآهلة بأغلبية تركية ، وفي جملتها استانبول ومنطقتها الممتدة على بحر مرمرا ، على أن يقرّر مصير سائر اجزاء الامبراطورية من طريق الاستفتاء[١٥٩] .

وجواباً على هذا التعبير الصريح عن الارادة الوطنية اكره الحلفاء علي رضا على الاستقالة في ٧ آذار (مارس) ، واحتلوا استانبول في ١٦ من من الشهر نفسه ، مبعدين الزعماء الوطنيين ، وفيهم ضيا گوك ألب ، الى مالطة . ثم ان فريد باشا ، الذي تولى الحكم من جديد في ٥ نيسان (ابريل) ، أصدر حكمه بالاعدام — من طريق مجلس حربي استثنائي — على مصطفى كمال وكبار اعوانه ، ومن بينهم الشاعرة خالدة اديب .

انتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمعية الوطنية الكبرى

وهكذا لم يعد في وسع مؤسس تركية الحديثة ان يقيم اي وزن لحكومة استانبول . فدعا الى عقد الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة ، حيث افتتحت في ٢٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ وعدّة اعضائها ثلاثمائة وخمسون . وقد انتخبت هذه الجمعية مصطفى كمال رئيساً لها كما اختارته في الوقت نفسه رئيساً للجنتها التنفيذية ، ولمجلسها الوزاري .

---

(١٥٩) انظر ياشكه G. Jâschke, Zur Geschichte des Türkischen Nationalpaktes (Mitteilungen des Seminars fur orientalische Sprachen, 36, Berlin, 1933, II, 101 - 116).

واضطر فريد باشا الى ان يقبل، في ١٠ آب (اغسطس)، بتوقيع معاهدة سيفر، بعد ان هدّده الحلفاء بإخراج الاتراك من اوروبة كلها اذا ما رفض. والواقع ان هذه المعاهدة كانت تعني، لو نُفذت بحذافيرها، القضاء على وجود الاتراك القومي ايضاً. ذلك بأنها لم تقضِ بسلخ الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية فحسب، بل قضت الى ذلك بأن تُمنح إزمير والاقسام الداخلية التابعة لها استقلالاً داخلياً، وبأن تصبح ارمينية دولة مستقلة. في حين تُضم تراقية، خلا رقعة ضيقة، الى اليونان، ويُخضع البوسفور والدردنيل لرقابة لجنة دولية. وفي الوقت نفسه تمّ الاتفاق بين الحلفاء على أن تُعطى قيليقية وكردستان الجنوبية لفرنسة، وعلى ان يعطى الاناضول الجنوبي حتى منطقة إزمير لايطالية.

موقعة مقارية

وعلى الرغم من ان هذا العمل العدواني العنيف أثار عاصفةً من الاستياء في العالم الاسلامي كله، وبخاصة لدى مسلمي الهند الذين كان على بريطانية ان تراعي شعورهم، وعلى الرغم من انه أكسب الجيش التركي عدداً كبيراً من المتطوعين من مختلف البلدان الاسلامية فقد أبدت حكومة انقرة، بادىء الامر، استعدادها للموافقة على احتلال إزمير من قبل اليونان، وعلى التخلي عن أدْرَنَة ايضاً. وفي شباط (فبراير) سنة ١٩٢١ اقترح مندوبها، بكر سامي، في مؤتمر عُقد بلندن، جَعْل إزمير ولاية مستقلة استقلالاً داخلياً في ظل حاكم نصراني. ولكن هذا العرض لم يحظ بالقبول، سواء من جانب اليونان او من جانب الحلفاء، على الرغم من انهم ما لبثوا ان اطّرحوا فكرة اخضاع الوطنيين الاتراك من طريق حملة عسكرية بقيادة الجنرال فوش، بسبب من المصاعب الجدية التي كانت تعترض الحملة، وبحكم روح الملل العام من الحرب. وبينا كانت فرنسة غير راغبة في ان ترى انتدابها

على سورية يتعرّض للخطر من جراء مغامرة في آسية الصغرى ، وبينا كانت ايطالية لا تود ان ترى ممتلكاتها الجديدة في جزر الدوديكانيز محصورة بدولة يونانية كبرى تقوم الى جوارها ، نجد بريطانية تشجع اليونانيين على الزحف من إزمير الى ما وراءها . وهكذا تحولت حرب العصابات السابقة ضد المجاهدين الاتراك الى حرب نظامية في سبيل الاستيلاء على الاناضول الغربي . وفي ٢٣ آذار (مارس) زحف اليونان الى أسكي شَهْر وأفيون قره حصار ، وتُعتبر كلٌ منها مركزاً هاماً من مراكز التقاء الخطوط الحديدية . والواقع انهم وُفّقوا ، في الجنوب ، الى ان يحتلوا أفيون قره حصار فترة قصيرة من الزمان ، ولكنهم مُنوا في الشمال بهزيمة حاسمة ، عند إين أونُو ، خلال الايام الاولى من نيسان (ابريل) وأكرهوا على الارتداد الى برُوْسَه . بيد أنهم عاودوا التقدم ، منذ العاشر من تموز (يوليو) ، في اتجاه كوتاهية ليخوضوا ثمة معركة فاصلة . وبعد كوتاهية ، سقطت أفيون قره حصار وأسكي شَهْر في ايديهم ايضاً . ومهما يكن من امر ، فقد كان مصطفى كمال يحشد القوات التركية المقاتلة ، في سقارية . وفي ٢٤ آب (اغسطس) هاجمه اليونان هناك ، ولكنهم اضطروا بعد قتال مرير ، الى التراجع في ١٦ ايلول (سبتمبر) . والحق ان هذا الانتصار الذي تمّ للاتراك على « الكفار » قرر نهائياً مصير الدولة الجديدة ، وقد احتفلت به الجمعية الوطنية بأن خلعت على مصطفى كمال لقب « الغازي » .

المعاهدات مع فرنسة والروسيا السوفياتية

وكانت فرنسة أسبق الدول الى الاستفادة من هذا الوضع الجديد . ففي ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) عقدت في انقرة معاهدة مع تركية — وقّعها بالنيابة عنها فرنكلين بويون * — تخلّت فيها عن قيليقية مقابل حصولها على امتياز لاستثمار مناجم الحديد والكروم والفضة في وادي نهر خَرْشُوط

* Franklin - Bouillon

الذي يصبّ في البحر الأسود ؛ وبذلك حرّرت نحواً من ثمانين ألف رجل صار في إمكان تركية ان توجّههم ، مع اعتدتهم الحربية الوافرة ، لقتال اليونان . وجلت ايطالية ، بدورها ، عن آطالية ، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢١ . وفي ١٦ آذار (مارس) عقدت تركية معاهدةً مع الروسيا السوفياتية ، أتبَعَتْها باتفاق مع جمهوريات إرمينية وجورجيا وآذَرْبَيجان السوفياتية ، في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) . فقد ضمنت لهذه الجمهورية حمايتها مقابل تخلّيها لها عن قَرْص (القارِص) . والواقع ان هاتين الدولتين اللتين كانت تفصل ما بينهما في السابق الجمهورية الأرمنية التي أنشأها الحلفاء ، واللتين استشعرت كلٌّ منهما الخطرَ من جرّاء سيطرة بريطانية على البحر الأسود ، نقول إنّ هاتين الدولتين كانتا بادىء الامر على خلاف ؛ فقد سبقَ لكاظم قره بكير أن احتلَّ رَوان (أرِيوان) في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٠ ، ليحتل قَرْص في تشرين الاول (اكتوبر) . وفي كانون الاول (ديسمبر) عُقِد الصلح في رَوان مع السلطات السوفياتية القائمة هناك . ولكن مرفأ باطوم الهامّ — الذي كان البريطانيون قد احتلوه إثر هدنة مودروس ، ثم جلوا عنه بعدُ — ما لبث ان أمسى ، في شهر آذار (مارس) ، هدفاً لكلّ من الاتراك والجيش الأحمر ؛ وقبل ان تندلع نيران الحرب بين الفريقين عُقِدت مع موسكو معاهدة ضُمّت باطوم بموجبها ، إلى الجمهورية الكرجية (جورجيا) .

إخراج اليونان من ازمير

وانقضى صيف ١٩٢٢ في مفاوضات عقيمة ، على الرغم من ان مصطفى كمال كان مستعداً ، آخر الامر ، لأن يقدّم لليونان وحُماتهم البريطانيين ترضيات عظيمة . وفي ١٨ آب (اغسطس) استؤنفت أعمال العدوان . فاستولى الاتراك (٢٦ آب « اغسطس ») على أفيون قره حصار التي حسبَ اليونان أنهم حصّنوها حتى ليستحيل سقوطها في يد العدوّ . وبعد ان مُني

اليونان بهزيمة أخرى في دوملوپينار ولوا الادبار مضرمين النار في جميع المواطن المأهولة التي اجتازوها . وفي ٩ ايلول (سبتمبر) استطاع الاتراك ان يحتلوا إزمير من غير أن يطلقوا رصاصة ، تقريباً . ولكنهم أحرقوا ، بدورهم ، نصف المدينة لكي يزيلوا آخر أثر من آثار الاحتلال اليونـــاني .

معاهدة لوزان

عندئذ وطن مصطفى كمال العزم على استنقاذ تراقية ايضاً . والواقع ان جنوده كادوا يصطدمون بحامية چناق قلعه ، على الدردنيل ، حيث حاول الجنرال هارنجتون * ان يعترض سبيلهم ، كما حالَ ، في شهر تموز (يونيو) ، بين اليونان وما اعتزموه من الهجوم على استانبول ؛ ولكن الحادي عشر من تشرين الاول (اكتوبر) شهدَ توقيع هدنة مودانية التي تخلّى فيها اليونان عن تراقية حتى مَريج . ثم إنّ لويد جورج ** ، الذي اخفقت سياسته الشرقية بحكم هذه الاحداث ، ما لبث ان استقال في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) . وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ افتتح مؤتمر الصلح في لوزان ، ولكنه انفضّ في ٤ شباط (فبراير) ١٩٢٣ من غير ان يُسفر عن نتيجة ما . وفي ٢٣ نيسان (ابريل) اجتمع المندوبون كرّةً اخرى فوفّقوا الى انجاز معاهدة الصلح في ٢٤ تموز (يوليو) . وبموجب هذه المعاهدة بسطت تركية سلطانها ، من جديد ، على آسية الصغرى كلها وعلى استانبول وتراقية الشرقية ، وتعيّن على سكان آسية الصغرى اليونان ان ينقلبوا الى وطنهم الاول في حين رجع الاتراك ، الذين كانوا لا يزالون في دول البلقان ، الى الاناضول زرافات زرافات . ولم يبقَ معلّقاً غير مشكلة ملكية المَوْصل . فقد كانت هذه المنطقة – ذات الأهمية الاقتصادية البالغة بسببٍ من آبارها النفطية – آهلةً في الدرجة الاولى بالاكراد الذين

---

* Herrington

** Lloyd George

كانت غالبيتهم المقيمة في الشمال خاضعةً للحكم التّركي ؛ وسنحدثك بعد ، عند الكلام على تاريخ العراق ، عن اشتباك تركية بجارتها الجنوبية . أما في حقل السياسة الداخلية التّركية فقد تخلى الحلفاء عن الحقوق الخاصة التي ورثتها الأقليات النصرانية عن نظام الـ « مِلّـت » القديم ؛ وهكذا ألغيت هذه الحقوق كما ألغيت الامتيازات الخاصة بالاجانب .

إعلان الجمهورية وإلغاء الخلافة

بعد هذا النصر المؤزّر الذي أحرزه الوطنيون بقواهم الخاصة ومن غير ما تعاون مع السلطان محمد السادس [وحيد الدين] الذي بقي في استانبول الخاضعة لاحتلال الحلفاء ، أعلنت الجمعية الوطنية الجمهوريةَ التّركيةَ ، في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٣ ، وانتخبت مصطفى كمال رئيساً لها . وكانت الرغبة متجهة نحو الاحتفاظ ، موقتاً ، بالخلافة ؛ ومن هنا اختير عبد المجيد ، ابن السلطان عبد العزيز ، لهذا المنصب . وعلى الرغم من ان الخليفة الجديد لم يحاول ان يمارس السلطة شخصياً[١٦٠] ، فسرعان ما أدرك مصطفى كمال ان زعيماً دينياً أعلى معترفاً له بهذه الصفة في العالم الاسلامي كله خليق بأن يصبح ، سواء شاء ذلك ام لم يشأ ، نقطة الدائرة التي تلتقي عندها آمال الرجعيين .

ووطّن مصطفى كمال النفس على ان يسير بالدولة التي أنشأها في طريق الحضارة الأوروبية ، وهي طريق تقتضي السائرَ فيها ان لا يقف ليُلقي أيما نظرةٍ الى الماضي الاسلامي ، لأن مثل هذا النظر خليق بأن يعوق صاحبه

---

(١٦٠) حتى التاريخ التركي الرسمي « تاريخ » ، جزء ٤ ص ١٩٠ وما بعدها ، لم يأخذ عليه غير التحدث عن أسلافه في كثير من الإجلال والاحترام ، وغير توقيع برقيــة الى مسلمي فنلنده بوصفه « خليفة رسول رب العالمين » ، وغير سكوته عن بعض التصريحات التي أدلت بها الأوساط الرجعية ، وغير أحداثه صلات مع السفراء الأجانب ، وغير محاولته القيــام بمفاوضة أنقره حول بيت المال الخاص بالخلافة .

عن بلوغ الغاية . وهكذا آثر أن يتخلى عن المنافع التي كانت دولته جديرة بأن تجنيها لو رغب في إبقائها مركزاً روحياً للاسلام . وفي ٣ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ اتخذت الجمعية الوطنية قراراً بإلغاء الخلافة وإخراج الخليفة من البلاد ؛ ومن ثم أعلنت صيغةٌ جديدة للدستور التركي ، في ٢٠ نيسان (ابريل)[١٦١] . والواقع انه كان لهذه الخطوة صدى استياء شديد جداً ، وبخاصة لدى مسلمي الهند الذين علّقوا على تركية الحديثة آمالهم في الخلاص من الاستعمار البريطاني ، والذين كان نفر قليل منهم قد هاجر الى أنقره فعلاً . وكانَ طبيعياً ان تخفق جميع المحاولات التي بذلت في سبيل إحياء الخلافة في البلاد الاسلامية الاخرى لأن الاحوال الملائمة لذلك لم تكن متوفرة في أي بلد من هذه البلاد ؛ حتى اذا عُرض على الغازي ان يتبوأ هو كرسي الخلافة أبى هذا العرض في شدة وحزم .

الثورة الكردية

ومهما يكن من أمر فان هذه المفارقة لماضي البلاد الاسلامي لم تتم من غير اضطرابات عنيفة . وتفصيل ذلك ان الاكراد ، وهم شعب إيراني لم يسبق له ان حقق ، خلال التاريخ ، ايّما حياة استقلالية صحيحة في بلاده التي قامت دون اتصالها بعضها ببعض سلاسل من الجبال الشاهقة —كانوا قد دخلوا في طاعة العثمانيين سنة ١٥١٥ ، ولكن رجلاً منهم ، هو المؤرخ ادريس البتليسي ، وُفق الى ان ينقذ سلطة زعماء بيوتاتهم النبيلة ، من طريق مفاوضات بارعة . وليس من شك في ان عبد الحميد كان قد كبت كل حركة وطنية فيما بينهم ، وحظّر حتى طبع اول كتاب في النحو الكردي

---

(١٦١) راجع نص هذا الدستور وترجمته في : **Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, Berlin, 1924. 11. 137-251.**

وانظر ايضاً وبستر : **D. E. Webster, The Turkey of Atatürk, Philadelphia, 1939, pp. 297-306.**

لمؤلفه يوسف خالدي ولكنه اصطنعهم في التضييق على الارمن والتنكيل بهم ، بل ذهب الى أبعد من ذلك فألف حرّسه الفرسان ، « الحميدية » ، من الأكراد في الأعم الاغلب . وكان رجال تركية الفتاة قد واصلوا سياسة عبد الحميد هذه ، وأفادوا من الاكراد اثناء الحرب العالمية الاولى في قتال الارمن . اما الآن ، بعد ان فصلوا عن اخوانهم في منطقة الموصل — هذه المنطقة التي كانت بريطانية وتركية تتساومان عليها منذ زمن طويل — فقد تنبهوا ، هم ايضاً ، على الرغبة في الاستقلال الوطني ، وداخَلَ نفوسَهم الأمل في التخلص من الحكم التركي . والواقع ان الاكراد وجدوا الذريعة الى ذلك في نقض الدولة التركية للقانون الاسلامي بإلغائها الخلافة . ففي ١٣ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٥ رفع الشيخ سعيد ، شيخ الطريقة النقشبندية التي كانت تتمتع بسلطة عظيمة عند الاكراد ، راية العصيان على الاتراك . وسرعان ما ضمنت له صلته الوثيقة بنبلاء الاكراد عدداً ضخماً من المؤيدين والانصار . وما هي إلا فترة يسيرة حتى عمت حالة الثورة الولايات الشرقية الثلاث ، حيث يؤلف الاكراد أغلبية السكان . ولقد طالب الثائرون بتنصيب سليم ، ابن عبد الحميد ، خليفة وسلطاناً . وإذ كانت الحكومة التركية تخشى ان تُعلن العناصر الرجعية الثورة في استانبول فقد طبقت الاحكام العرفية هناك ايضاً . وشن الاكراد ، بادىء الامر هجوماً على ديار بكر (آمِد) فسقطت المدينة في ايديهم ، في ٧ آذار (مارس) ، ولكنها ما لبثت ان حُرّرت من جديد . وإذ كان قواد الاكراد الرئيسيون لاقوا حتفهم في هذه المعارك فقد تلاشت قدرة الثوار على مواصلة المقاومة . ومهما يكن من أمر فلم يقع الشيخ سعيد في الاسر إلا في شهر حزيران (يونيو) ليُعْدم بعدُ بأنقرة . وفي سنة ١٩٢٩ نشبت ثورة كردية اخرى في إقليم أراراط وبحيرة وان ولكن الحكومة التركية سيّرت ، على وجه السرعة ، قوّات ضخمة لاخمادها فوفقت هذه القوات الى ما نُدِبَت له . ولكي تحول دون نشوب أيما ثورة جديدة في المستقبل ، لجأت الحكومة الى طريقة إبعاد

السكان عن مواطنهم الأصلية — وهي طريقة مألوفة في التاريخ الشرقي — ونقلت بعض الأكراد الى تراقية الشرقية [١٦٢]

الانقلاب الديني والاجتماعي

هذه الثورة التي كان على الاتراك ان يواصلوا استئصال خلاياها المفردة من طريق المحاكم الاستثنائية ، حدت بحكومة مصطفى كمال الى ان تخطو خطوات جديدة نحو صبغ الدولة بالصبغة المدنية . والواقع ان وزارة الاوقاف كانت قد ألغيت ، قبل ذلك ، في ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ ، وعهد في شؤونها الى وزارة المعارف . وفي حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٥ حُرّمت جميع الطرق الصوفية ؛ وفي ايلول (سبتمبر) أُغلقت زوايا الدراويش جميعاً . وقضت الحكومة في قسوة وعنف ، على كل نقد دينيّ لتدابيرها . وفي سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ ذهبت الى أبعد من ذلك فحدّدت عدد المساجد ، ولم تسمح بغير واحد منها في كل دائرة من الارض يبلغ محيطها خمسمائة متر . كذلك خُفض عدد الواعظين الذين تدفع الدولة اجورهم الى ثلاثمائة واعظ ، وفُرض عليهم ان لا يقصُروا خطبة الجمعة على الامور الدينية فحسب ، بل ان يضموا اليها فوائد عملية في ما يتصل بالشؤون الزراعية ايضاً . وأوصدت ابواب جامعتَين من اشهر جوامع استانبول في وجه المصلين ، ليحوّل اولهما — آيا صوفيا — الى متحف ، وثانيهما — مسجد الفاتح — الى مستودع . اما القانون الديني ، الشريعة ، الذي كان حتى ذلك الحين معمولاً به في صعيد العلاقات العائلية والزوجية فقد استُبدل به قانونٌ مدنيّ مستمد من القانون السويسري . وانما ادّى ذلك الى القضاء نهائياً على تعدّد الزوجات الذي كان ، من الوجهة العملية ، مقتصراً من غير شك على الطبقات الموسرة ، لأسباب اقتصادية على الأقل . ليس هذا فحسب ، بل لقد اصدرت

(١٦٢) انظر فون فسندونك : G von Wesendonk, **Das Kurdische Problem,** Preus. Jahrb. 1931, 117 sq.

الحكومة في ٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٤ قانوناً قضى باحداث اسم للأسرة . مما لم يكن معروفاً قبل ذلك في تركية .

اما المرأة التركية التي سبق لها ان نزلت الى ميدان العمل ، لتحل محلّ المحاربين من الرجال في كثير من المهن ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد مُنحت الآن المساواة التامة في جميع الحقوق الشرعية ، ثم حصلت آخر الأمر على حقها في ان تَنتَخِبَ وتُنتخَب ؛ وفي الانتخابات الجديدة التي جرت في ربيع سنة ١٩٣٥ دخلت سبع عشرة امرأة الجمعية الوطنية الكبرى .

واتخذت حركة اقتباس المدنية الغربية التي سعى اليها مصطفى كمال مظهراً خارجياً يرمز اليها في قانون ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) الذي استبدل القبعةَ بلباس الرأس الوطني السابق ، الطربوش ، كما سبق لهذا الطربوش نفسه ان حلّ محلّ العمامة في عهد السلطان محمود الثاني ١٦٣ . وما هي إلا فترة حتى فُرض اللباس الاوروبي على طبقات الشعب جميعاً .

استبدال الأحرف اللاتينية بالأحرف العربية

ولكن مصطفى كمال لم يكتفِ بتكييف شعبه ، هذا التكييف الخارجيّ ، وفقاً لعادات الغرب بل طمع في ان يُشْرِبهم روح اوروبة ايضاً . ولم يكن بدٌّ ، لبلوغ هذا الهدف ، من اطّراح الاحرف العربية اولاً . وبعد ان استبدل الارقامَ الدولية * بالارقام العربية ** ، في ٢٨ آذار (مارس) سنة ١٩٢٨

---

(١٦٣) أما أهمية الطربوش العظمى في نظر الأتراك ، بوصفه أحد مظاهر القومية الخارجية —وهو ما لا يستطيع العقل الأوروبي أن يفهمه أحياناً — فتتجلى في إحدى أقاصيص يعقوب قدري : « القبعة » ؛ وهي تصور المصير الفاجع الذي انتهى اليه عثماني حاول ، إرضاء لخطيبته النصرانية ، ان يمشي في الأسواق وعلى رأسه قبعة ، فما كان من الغوغاء المتعصبين إلا ان فتكوا به . والواقع ان الغازي اضطر الى ان يقوم برحلة الى مقاطعة قسطموني ، لابساً القبعة ، ابتغـاء القضاء على مقاومة العناصر الرجعية لهذا الإجراء .

* يقصد الأرقام العربية المستعملة اليوم في اللغات الأجنبية . (المعربان)

** يريد الأرقام الهندية المستعملة حتى اليوم في اللغة العربية. (المعربان)

وطّن النفس على اطّراح الاحرف العربية التي كانت على اية حال لا تفي بحاجات اللغة التركية إلا قليلاً. وفي ٢٦ حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٨ ألفت لجنة عُهد اليها في تعديل الاحرف اللاتينية بحيث تلائم اغراض الكتابة التركية. فقامت بمهمتها في براعة عظيمة إذ انتهجت خطة وَسَطاً بين تصوير الاصوات تصويراً اقرب ما يكون الى الصحة وبين المحافظة على صور الحروف التقليدية. وفي ٢ ب (اغسطس) وُضعت الاحرف الجديدة موضع الاستعمال في انقرة؛ واصرّ الغازي نفسُه على ان يظهر امام الناس بمظهر المعلّم لهذه الاحرف. ففي ٩ آب (اغسطس) اعلن اصطناعها بخطاب ألقاه في استانبول، حتى اذا كان اليوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) اصبح هذا الاعلان قانوناً. وانشئت المدارس في طول البلاد وعرضها لتعليم الناس على اختلاف اسنانهم الحروف الجديدة التي اصبحت «وطنية» في اقصر ما يمكن من الوقت. وفي اول ايلول (سبتمبر) حُذِفَ من مناهج الكليات التعليم التقليدي بالعربية والفارسية، وهما اللغتان اللتان كان الاتراك يعتبرون دراستهما ضرورية لفهم الادب التركي. وحُرّم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية، اما الكتب التي سبق لمطابع استانبول ان أخرجتها في العهود السالفة — وهي كثيرة لا تكاد تُعدّ — فقد صُدّرت الى مصر وفارس والهند. والواقع ان هذا الانقلاب أدى الى قطيعة اخرى ما بين تركية وماضيها الاسلامي من جهة، وما بينها وبين اخوان الاتراك في الدين، في سائر الامصار الاسلامية. وهي قطيعة لا نستطيع، الى اليوم، تقدير نتائجها كلها.

القومية التركية الجديدة واتجاهاتها المتطرفة

ومن باب التعويض عن القيَم الروحية التي انطوت هذه الاجراءات

كلها على التخلي عنها اعتزم الغازي أو أتاتورك [١٦٤] أن ينفخ في شعبه روحاً جديدة من الاعتزاز بقوميتهم . فبعد ان تعيّن على رجال تركية الفتاة ان يقطعوا الرجاء من امكان اكتساب جميع رعايا الامبراطورية لتأييد مبدأهم السياسي (القائل بأن تركية وطن يسكنه شعب واحد — العثمانيون — متمتع بحقوق متساوية) نشأت محاولة الى ربط الاتراك وجميع اخوانهم في اللغة برباط من الوعي القومي جديد ، قوامُه المثل الاعلى القائل بـ « الطورانية » . والحق ان مصطفى كمال اطّرح هذه الفكرة اطّراحاً ينم عن تبصّر سياسي اصيل . وانما كان يهدف ، بدلاً من ذلك ، الى ان يُدخل في نفوس اتراك الاناضول العزة والفخارَ بوصفهم احفاد شعب قديم راقٍ ، شأن المصريين المحدثين الذين سعوا لتعزيز وعيهم القومي ، في وجه مضطهديهم البريطانيين ، من طريق الاعتزاز بثقافة النيل الموغلة في القِدَم . من اجل ذلك تبنّى الافتراضَ الواهي غير العلمي الذي قال به نفر قليل من العلماء الاوروبيين والذي يذهب الى ان لغة السومريين ، منشئي الحضارة البابلية القديمة ، كانت ذات صلة بالتركية . وكانت الحفريات التي اجراها العالم الالماني ونكلر * في الاناضول ، عند بوغاز كُوِي ، قد كشفت عن بعض آثار من الحضارة الحثية أنشأتها شعوب آسية الصغرى ثم اقتبستها طبقة حاكمة من الجنس الاوروبي الهندي الدخيل . والواقع ان هؤلاء الحثيين ايضاً اعتُبروا ، من طريق استقراء تاريخي جريء ، أسلاف الاتراك الاولين . وهكذا انتهى الاتراك الى ان يصبحوا هم أصحاب أقدم حضارة في العالم . وسرعان ما ظهرت في تركية الكمالية ايضاً فكرة تذهب الى ان اللغات الأوروبية الهندية واللغات السامية كانت في الأصل ذات صلة باللغة التركية وأنها نشأت

---

(١٦٤) خلعت الجمعية الوطنية هذا الاسم ، ومعناه « ابو الأتراك » على مصطفى كمال في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٤ بعد تصديق القانون الخاص بألقاب الأسر « كتعبير عن إجلال الأمة وعرفانها لجميل أعظم أبنائها على الإطلاق » .

* H. Winkler

عنها ؛ وقد سعى القائلون بهذه الفكرة الى اقامة البرهان عليها من طريق بهلوانية لغوية رائعة لا ترضخ لأيما نقد علمي او قياس . ولتأييد هذه الفرضيات وُضعت — في الاوساط وثيقة الاتصال برئيس الجمهورية ، على ما يبدو — نظريةٌ خيالية تُعرف بـ « النظرية الشمسية في اللغات » . والواقع ان هذه النظرية اعتبرت جميعَ الكلمات الاجنبية التي تحفل بها اللغة التركية مادةً لغوية تركية سليمة النسب ؛ وبذلك افسحت في مجال الابقاء عليها في صُلب اللغة ، بعد ان حاول المتزمتون من اللغويين ، في السنين السابقة ، استئصالها ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، والاستعاضة عنها بكلمات ميتة سعوا الى احيائها من متن اللغة التركية القديمة . فقد أُدخلت كلمة école الفرنسية ، مثلاً ، الى صلب اللغة التركية ، فاذا هي تلفظ okul ، وذلك بعد ان ارجعوها الى فعل okumak او « قرأ » . والواقع ان المشتغلين بهذه المباحث اللغوية لم يحجموا عن إلحاق عدد من أواخر الكلمات الاجنبية (من مثل اللاحقة الفرنسية الملائمة : « al - » في كلمة social الخ) ببعض الكلمات التركية او العربية الخالصة . ومن هنا نشأت لغة كتابة جديدة يكاد فهمها يتعذر على الرجل العادي . وهكذا عُلّقت فوق كرسي رئيس الجمعية الوطنية في أنقرة ، التي صارت تدعى « Kamutai » ، القاعدة الرئيسية في الدستور التركي : « السيادة مستمدة من الشعب » على هذا الشكل « Egemenlik Ulusundur » الذي ما كان احد من الاتراك ليفهم منه شيئاً ، قبل بضع سنوات فقط ، غير اللاحقة lik - — في الكلمة الاولى ، والصلة dur في ختام الثانية . ومهما يكن من أمر فالذي لا شك فيه ان هذه المظاهر المنبثقة عن وعي قومي مغالىً فيه ما لبثت ان خضعت لاعتبارات اكثر رصانة وحكمة . ذلك بأن الاتراك ، مهما استشعروا الرغبة في التخلي عن تقاليد [١٦٥]

(١٦٥) في سنة ١٩٣١ بلغ احتقار الماضي حداً يتمثل في بيع مجموعات نفيسة من الوثائق القديمة الخاصة بوزارة المالية ، لبلغارية ، بوصفها أوراقاً لا قيمة لها . حتى إذا نوقشت هذه المسألة في الجمعية الوطنية الكبرى استطاعت الحكومة استنقاذ ثلاثة وخمسين كيساً من هذه الوثائق الثمينة بأن اشترتها من جديد وضمتها الى المحفوظات الوطنية .

ماضيهم الاسلامي ، يظلون اصحاب تراث قومي خاص هو من الغنى بحيث لم يكونوا في حاجة الى تدعيم وعيهم القومي ببهارج مستعارة . والحق ان العلماء الاتراك يحاولون منذ مدة طويلة ، وفي نجاح كبير ، اكتشاف الكنوز الحقيقية التي تنطوي عليها ثقافتهم من طريق البحث العلمي المنظم .

ولكن تحرّر الاتراك من السيطرة الفكرية التي كان يفرضها عليهم ممثلو الاسلام المتحرجون ، جعل القِيَم الدينية الاسلامية الصحيحة قريبة المنال من افراد الشعب . فقد تُرجم القرآن — ولم تكن تلاوته ميسورةً قبل ذلك إلا بالعربية — الى اللغة التركية لأول مرة في نيسان (ابريل) سنة ١٩٣١ ونُشر مع تفسيرٍ له تركي . وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٢ تُليت أقسام من هذه الترجمة على الناس ، لأول مرة ، في احد جوامع استانبول ؛ ومن ذلك الحين صار المؤذّنون ايضاً يؤذّنون للصلاة باللغة التركية . ليس هذا فحسب . بل إن الحرية الدينية أدّت الى اعتناق عددٍ من الاتراك النصرانيةَ سنة ١٩٣٢ ، وهو عملٌ كان القانون الاسلامي القديم يعاقب عليه بالقتل .

الفنون والآداب

وفي هذه الحقبة ازدهرت الفنون في سرعة تدعو الى الدهش ، بفضل الرعاية النشيطة التي أحاطها بها رئيس الجمهورية ، بعد ان كانت مهملة إهمالاً كاملاً — باستثناء فن العمارة — في ظل الامبراطورية القديمة . ففي العاصمة الجديدة ، انقرة ، التي قُدّر لها ان تنقلب في بضع سنين من مركز ريفي مهمل الى عاصمة عصرية ، كان المهندسون المعماريون ، وكثرتهم المطلقة من الالمان ، ينشطون منذ سنة ١٩٢٧ في العمل على تجديد المدينة وفقاً لأحدث الطرُز الاوروبية الحديثة . ولكن عدداً من المعماريين الأتراك كان يعمل الى جانب هؤلاء ايضاً ، محاولين ان يلائموا ما بين النظريات الأجنبية وطبيعة البلاد والسكان ؛ وقد نجحوا في ذلك الى حد بعيد . ووضع النحاتون الالمان ايضاً اول تماثيل أتاتورك — وهي شاهد على النزعة الثقافية

الجديدة الى التحرر من العداء الاسلامي القديم للتصوير — فنُصبت في ميادين المدن الكبرى كلها ؛ وقد ساعدت هذه المدرسة الفنية على ظهور نحاتين وطنيين ذوي شأن. وفي ميدان الرسم — الذي لم يُمارس في فارس والهند إلا لزخرفة الكتب في حين أُهمل في تركية ، خلال العهود الماضية ، اهمالاً كلياً — لمعت مواهب كثيرة ، تحت تأثير من الفنانين الفرنسيين خاصة ؛ حتى اذا كانت سنة ١٩٣٦ وُفقت هذه المواهب الى عرض آثارها في معرض اثينا. اما الموسيقى فقد احتفظت بطابعها الشرقي الخالص حتى سنة ١٩٢٨ ؛ وكانت الآلات الوترية والنايات تصاحب الانغام الرتيبة — الباكية في الاعم الاغلب — التي كان ينشدها المغنون الشعبيون الاتراك. وكان معروفاً ، منذ وقت طويل ، ان رئيس الجمهورية مصمم على ان يقود شعبه نحو آفاق جديدة ، في هذا الميدان ايضاً. وفي سنة ١٩٢٨ دعا مؤلفاً موسيقياً نمسوياً للعمل في المعهد الموسيقي باستانبول. وفي سنة ١٩٣٤ انشئت في انقرة مدرسة حديثة للموسيقى عُهد في ادارتها الى هِنْدِمِتْ * وپريتوريوس ** ابتغاء تكييف الموسيقى الغربية و « تتريكها » ، ولكنها سعت لإغناء الموسيقى التركية وجعلها أعمق غوراً ايضاً.

وفي ميدان الادب كما في ميدان الفن التجسيمي (صنع التماثيل) والتصويري ، اتجه الاتراك وجهات جديدة خليقة بأن تنتهي بهم الى ما يبتغون من تكييف ثقافتهم وفقاً للثقافة الغربية. والواقع ان زعيمة النساء التركيات ، خالدة اديب ، التي لحقت بمصطفى كمال الى الاناضول وشاركت بنفسها في معارك التحرير وصوّرتها تصويراً يأخذ بمجامع القلوب في روايتها « قميص النار » — اضطرّت الى ان تغادر ارض الوطن بسبب من اختلاف في وجهات النظر السياسية. وهناك في انكلترة دوّنت مذكّراتها الحافلة

---

* P. Hindemith

** E. Praetorius

بالمعلومات المفيدة ، باللغة الانكليزية ؛ ثم عاشت بعد ذلك فترة من الزمن ، في باريس . اما الشاعر الغنائي الكبير ، عبد الحق حامد ، المتوفى في ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٣٧ ، في الثمانين من عمره ، والشاعر احمد هاشم [١٦٦] ، المتوفى سنة ١٩٣٤ ، فقد أبقيا تقاليد عهد « تركية الفتاة » حية . وكان يعقوب قدري [١٦٧] الذي رفع قواعد الفن الروائي الحديث ، قد وقف الرواية على خدمة الحركة الثقافية الجديدة ؛ كذلك وُفق رشاد نوري ، وصدري أرتم ، وشوكت ثريّا الى ان يعبّروا تعبيراً فنياً عن الحياة القومية الجديدة التي أبصرت النور في أرض الاناضول .

السياسة الداخلية

كان أتاتورك ، بوصفه رئيساً لحزب الشعب (خلق فرقه سي) الذي أسسه بنفسه ، قادراً على ان يحتفظ بالسياسة الداخلية التركية ضمن مجارٍ ثابتة محددة ، على الرغم من ان الخلافات ما عتمت ان ظهرت في السنوات الاولى ، حتى في دائرة اعوانه ومساعديه ، لتتمثل احياناً في مناقشات عنيفة دارت في الجمعية الوطنية نفسها . وكان قد تأسس منذ سنة ١٩٢١ حزب عُرف بـ « الحزب الثاني » ، ثم ما لبث ان تسمى سنة ١٩٢٤ بـ « حزب الاحرار » ليدعى بعدُ « حزب الترقي الجمهوري » . والواقع ان هذا الحزب انتظم عناصر سياسية ودينية رجعية الى جانب زعماء حركة تركية الفتاة السابقة ، كما انتظم في الوقت نفسه عدداً من اعوان مصطفى الاولين . وعلى سبيل المعارضة لهؤلاء تسمى حزب الشعب بـ « حزب الشعب الجمهوري ». حتى اذا اندلعت نار الثورة الكردية وبرزت الحاجة الملحة الى قيام اتحاد مكين بين القوى الوطنية جميعاً حُلّ حزب المعارضة على اساس من قرار اصدرته محكمة الاستقلال بانقرة ، في حزيران (يونيو) ١٩٢٥ . وما

---

(١٦٦) انظر دودا H. Duda in Die Welt des Islams, XI, 1928, 200-244.

(١٦٧) انظر هارتمان R. Hartmann, ibid., 1918, 264-282.

هي إلا سنة واحدة (حزيران «يونيو» ١٩٢٦) حتى اكتُشفت مؤامرة في ازمير تهدف الى القضاء على حياة رئيس الجمهورية، بأيدي مغتالين مستأجَرين، لدُنْ دخوله الى المدينة. وصدرت الاحكام بالموت على ثمانية عشر من اركان المؤامرة، ومنهم خمسة من زعماء تركية الفتاة السابقين. وأبعد عن البلاد، مدة عشر سنوات، كل من رؤوف بك رئيس الجمعية الوطنية، ورئيس مجلس الوزراء السابق، والدكتور عدنان بك — الذي سبق له ان مثل وزارة الخارجية في استانبول — مع زوجه خالدة اديب، في حين بُرىء كل من الجنرال كاظم قره بكير والجنرال علي فؤاد باشا. وبعد اربع سنوات نشبت في مَنِمَن، شمالي ازمير، ثورة اخرى اهاجها رجال الطريقة النقشبندية؛ وقد وُفق فيها الثوار الى القضاء على جيش صغير معقود لواؤه لملازم من ضباط الجنود الاحتياطية، ولكن الثورة ما لبثت ان أُخمدت في سهولة ويسرٍ. وفي سنة ١٩٣٠ حاول الغازي ان يُجيز، كرة اخرى، المعارضة البرلمانية يحدوه الى ذلك — في المحل الاول — رغبته في الحد من حملات النقد الاجنبية على حكومته. وهكذا صار في ميسور فتحي بك، رئيس الوزراء السابق وسفير تركية في لندن، ان يدخل الجمعية الوطنية المنتخبة حديثاً، على رأس الحزب الجمهوري المستقل؛ ولكن هذا الحزب لم يلبث ان حُلّ، بعد عدة اصطدامات وقعت في إزمير بين انصاره وانصار حزب الشعب. حتى اذا كانت الانتخابات الجديدة، سنة ١٩٣٦، انتخب ثلاثة عشر نائباً مستقلاً، بينهم اثنان يمثلان اليونان وواحد يمثل الارمن وواحد يمثل اليهود؛ وكان الأمل معقوداً على هؤلاء في ان يعززوا جهود الحكومة والحزب عن طريق الرقابة المخلصة والنقد النزيه. واذ كان الخلاف كثيراً ما يقع بين ممثلي حزب الشعب وموظفي الحكومة في الولايات، فقد اضيفت مبادىء الحزب الى الدستور بقانون صدر في ٣ شباط (فبراير) سنة ١٩٣٧، وعُيّن وزير الداخلية، في الوقت نفسه، اميناً عاماً للحزب، واستدعي ممثلوه في الولايات. وهكذا حُسم الصراع

في سبيل السلطة لمصلحة الدولة من غير اعتداء على صفتها الديمقراطية ، لأن سلطة هذه الدولة مستمدة ، على كل حال ، من الجمعية الوطنية غير المسؤولة تجاه احد ، خلا ناخبيها . اما التقدم الهائل الذي حققته حياة تركية الاقتصادية في ظل النظام الكمالي فقد وُصف من قبل مراراً عديدة ، بحيث لا نرى حاجة الى ان نأتي على وصفه ههنا . ومهما يكن من امر فحسبنا التذكير بأن الزراعة لا تزال تؤلف ، من غير شك ، العمود الفقري في الاقتصاد الوطني التركي ، ولكن الصناعة التي كادت تكون مفقودة في العهد السابق — اذا اغفلنا صناعة السجاد القديمة المتركزة عادة في البيوت — ازدهرت ازدهاراً سريعاً يدعو الى الدهش ، بفضل التوجيه الحكيم الذي أخضعت له . والواقع ان هذه الصناعة تؤلف في الوقت نفسه الاساس المتين لسياسة الحكومة العسكرية التي تعتمد على جيش مجهز ومدرّب على أساليب جديدة بالكلية ، كما تعتمد على اسطول مُعدّ لكي يسد حاجات الدفاع الوطني .

السياسة الخارجية

كان العنصر الرئيسي في سياسة تركية الخارجية خلال السنوات الأولى من حياة الدولة الناشئة ذلك الصراع الذي خاضته في سبيل امتلاك ولاية الموصل القديمة . ذلك بأن لهذه الولاية أهميتها الخاصة لما تنطوي عليه من ثروة بترولية لم تكن قد استغلت بعد ، ومن هنا طالبت بريطانيا بأن تُضم الى العراق الموضوع تحت انتدابها ، في حين طالبت بها تركية على اساس من الميثاق الوطني ، لأن كثرة سكانها هم من الاكراد شأن الولايات المحاذية . وكان صلح لوزان قد أرجأ تسوية هذه المشكلة تسوية نهائية ، على ان تُحال الى عصبة الامم اذا تعذّر الوصول الى اتفاق بشأنها . وبعد مفاوضات وتحقيقات متطاولة قامت بها لجنة برئاسة الجنرال لايدونر * الاستوني ،

* Laidoner

اعتُبر هذا الاقليم – وهو ذو اهمية استراتيجية ايضاً بالنسبة الى تركية – جزءاً من اراضي العراق الواقعة تحت الانتداب ، في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٥ . وفي اتفاق أنقرة الموقّع في ٥ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٦ نزلت تركية عند هذا القرار بعد أن حصلت على تأكيد باشراكها بنسبة ١٠٪ في مشروعات استثمار البترول المزمع تنفيذها في المستقبل . ومن ذلك الحين زال التوتر الذي كان سائداً علاقات بريطانية وتركية ، بفضل التقارب الاقتصادي والتعاون القائم على الثقة المتبادلة بين الجانبين . وفي ١٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٢ انتُخبت تركية عضواً في عصبة الأمم .

أما المعاهدة التي عقدتها الجمهورية التركية مع الاتحاد السوفياتي – بعد قيام تركية الجديدة مباشرة – فقد التُزمت التزاماً دقيقاً على الرغم من التباين الاساسي في مفاهيم الحياة الوطنية والاقتصادية عند الفريقين ، ثم عُزّزت بزيارتين قام بأولاهما وفد تركي على رأسه رئيس الوزراء عصمت اينونو الى موسكو سنة ١٩٣٢ ، وقام بالاخرى الى أنقرة وفد سوفياتي برئاسة فوروشيلوف * ، مفوض الحزب . ومع أن الحكومة التركية حظرت كل دعاية شيوعية في أراضيها – حيث كان يتعذر على مثل هذه الدعاية ان تمد جذورها بعيداً لعدم وجود طبقة ضخمة من عمال الصناعة ، على أي حال – فقد جنت تركية فائدة اقتصادية كبيرة من الروسيا ، بالاضافة الى ما حققته من اطمئنان على سلامة حدودها الشرقية [١٦٨] .

وكان على تركية بعدُ ان تسوّي – مع جارتها الجنوبية ، سورية الخاضعة للانتداب الفرنسي – مشكلة سنجق الاسكندرونة حيث يعيش السوريون مع أقلية تركية قوية . وفي معاهدة عُقدت مع فرنسة في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢١ اتفق الجانبان على أن تكون لهذا السنجق ادارته

---

* Voroshilov

(١٦٨) انظر ياشكه G. Jaschke, Der Weg zur russisch - türkischen Freundschaft (Welt des Islams, XVI, 1936, 23-38)

الخاصة ، وعلى جعل التركية اللغة الرسمية فيه ، وعدم التعرض لحياة الاتراك الثقافية . بيد أن هذه المشكلة التي أثارت الرأي العام التركي شيئاً كثيراً ، لم تسوَّ الا بعد مفاوضات متطاولة بين الدولتين انتهت بمعاهدة صدقها مجلس عصبة الأمم في ٢٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٧ . وقد ضمنت هذه المعاهدة للسنجق استقلاله التام في الادارة الداخلية ، ولم تربطه بسورية الا في ما يتصل بالسياسة الخارجية . (١)

واستطاعت تركية ان توفق ، بدبلوماسية لبقة ، ما بين مطالب أعدائها القدماء في شبه الجزيرة البلقانية ومقتضيات كيانها السياسي المستقل الجديد . والواقع أنه كان من العسير جداً على اليونان أن تتخلى عن آمالها في استرداد مستعمراتها الايونية القديمة ، وهي آمال غذّاها الحلفاء أثناء الحرب . وقد استطاعت الدولتان القضاء على مصدر خطر من مصادر الاحتكاك بينهما من طريق تبادل السكان على نطاق واسع أورث اليونان ، باديء الأمر ، متاعب اقتصادية كبيرة . حتى اذا أُنجز هذا التبادل سنة ١٩٢٩ صار في ميسور الدولتين أن تعقدا ، في السنة التالية ، معاهدة حياد . وفي سنة ١٩٣٣ أُتبعت هذه المعاهدة بضمان للحدود مدته عشر سنوات . أما بلغارية فقد وفقت تركية الى ان تعقد معها منذ سنة ١٩٢٥ معاهدة صداقة ما لبثت ان وُسعت ودعِمَت سنة ١٩٢٩ بمعاهدة حياد ، على الرغم من ان بلغارية ظلت خارج الميثاق البلقاني الذي وقعته في اثينا (٩ شباط «فبراير» سنة ١٩٣٤) كل من تركية واليونان ويوغوسلافية ورومانيا ، والذي تعهدت فيه لا بحفظ السلام في ما بينها واحترام حدود كل منها فحسب ، بل بتبادل المساعدة العسكرية في حال الهجوم على إحداها . كذلك درست مصالح الدول الاربع الاقتصادية في مجلس اقتصادي مشترك قرر في اثينا ، آذار (مارس)

سنة ١٩٣٧ أن ينظم تصدير بعض المنتجات الزراعية تنظيماً مشتركاً. والحق أن آخر القيود العسكرية التي فرضتها معاهدة الصلح على تركية انتهت الى أن تصبح ملغاة، سنة ١٩٣٨، عندما عادت الحاميات التركية الى احتلال الدردنيل وأدرنة من جديد.

وفاة اتاتورك

وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨، توفي أتاتورك في استانبول وشعبه في أمس الحاجة اليه، إثر مرض متطاول، تاركاً للأتراك دولة مصونة من الخارج، مزدهرة في الداخل يدبّر شؤونها رفيقه القديم، عصمت إينونو، بوصفه ثاني رئيس للجمهورية التركية.

مصر

لم تعد أقدار مصر ، بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢ ، مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصة بسائر الدول الاسلامية . صحيح ان بريطانية لم تستولِ ، بادىء الامر على بلاد النيل إلا لصيانة طريقها البحرية الى الهند ، عبر قناة السويس ، ولكنها لم تكد تتولى مقدّرات هذه البلاد حتى واجهت مهام جديدة بالكلية . والواقع ان البريطانيين كانوا ينزعون ابداً الى ان يعالجوا هذه المهام –وفقاً للروح العملية التي تميز الانكلوسكسونيين– واحدة بعد اخرى بحسب ظهورها ، كما كانوا يتحاشون اتخاذ اي قرارٍ حول مستقبل البلاد[١٦٩] . وليس يحق لنا ، دون شك ، ان نعدّ من باب الرياء السياسي تلك التوكيدات التي اكثرَ الساسة البريطانيون من ترديدها والتي تنص على انهم لا يهدفون الى المحافظة على مصالح الامبراطورية في تلك البلاد فحسب ، بل الى رفع مستوى المصريين من الوجهتين المادية والفكرية ايضاً * .

فالحق ان مصر ، على ما اعترف بعض الوطنيين المصريين الحصفاء ، مدينة للادارة البريطانية الى حد بعيد جداً . وإنه لمن العبث الذي لا طائل تحته

(١٦٩) قابل اقرار اللورد كرومر Cromer في خاتمة كتابه **Egypt** .

* لا حاجة بنا الى النص على اننا لا نشارك المؤلف رأيه هذا وكثيراً من آرائه في هذا الفصل وغيره . والحق ان كثيراً منها في حاجة الى فضل غربلة وتمحيص . (المعربان)

ان نحاول الآن بحث ما اذا كان ممكناً ، لولا تدخل البريطانيين ، أن تُوَفّق الثورة العرّابية الى ايجاد تسوية بين مطالب أسرة محمد علي ، بارستوقراطيتها التركية المدنية والعسكرية ، ومطالب أهل مصر الاصليين . ويحسن بنا أن نقرّ ان بريطانية ، وان لم تستطع ، بعد استيلائها على مصر ، حل هذه المشكلة ، فقد نجحت على الأقل في وضع اساس لحلها على الوجه الاكمل . صحيح ان الطبقات التي استبدت بالحكم في العهود السابقة كانت كثيراً ما تشمئز من وصاية القنصل البريطاني العام ، السير افلين بارنج * (الآرل كرومر في ما بعد) الفظة القاسية ، من ١١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٨٣ الى ٦ نوار (مايو) سنة ١٩٠٧ ؛ ولكنّ ثمة مجالاً كبيراً للشك في ما اذا كان من الميسور ان يتحقق ازدهار البلاد وارتفاع مستوى سكانها الفكري والمعنوي بمثل هذه السرعة التي تحققا بها فعلاً ، لولا هذه الوصاية . ومهما يكن من شيء ، فليس ههنا محل للكلام المفصل على تاريخ الادارة البريطانية ؛ انه بحث يتصل بدراسة الامبراطورية البريطانية . كذلك لن نشغل انفسنا هنا بالتأريخ للتقلبات الوزارية التي لا تدل الا على مدى النفوذ البريطاني في الدوائر الحاكمة . ولكننا سنجتزىء بمحاولة وضع صورة موجزة عن تطور الشعب المصري في ظل الاحتلال البريطاني .

في ظل كرومر

حتى السفير البريطاني في استانبول، اللورد دافرين ** ، وكان اول من مثل حكومة بلاده في مصر بعد الاحتلال ، عمل جاهداً لتحسين احوال الفلاحين البائسة . فقد جرت عادة الموظفين الاداريين المصريين ، حتى ذلك الحين ، بان يحققوا مهمتهم الرئيسية ، أعني جباية الضرائب ، من طريق إنزال أقسى العقوبات الجسدية وغيرها من ضروب التعذيب بكل

* Sir Evelyn Baring

** Lord Dufferin

من يتخلف عن أداء الضريبة . وانما حُرّمت هذه الاساليب بأمر وضعه اللورد دافرين موضع التنفيذ . وأُتبع ذلك بإلغاء العمل الالزامي (السخرة) — الذي كان يُفرض على الفلاحين ابتغاء تنظيف قنوات الري قبل فيضان النيل — إثر نضال سياسي متطاول مع ممثلي لجنة الرقابة المالية الدولية التي لم يكن بد من انتزاع موافقتها في سبيل الحصول على الاموال الضرورية للنهوض بأعباء العمل الحر . ولم يتم التحرر نهائياً من العمل الالزامي حتى وفاة توفيق باشا ، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٩٢ ، فكان هذا الحدث بمثابة هدية قُدمت الى الشعب المصري بمناسبة ارتقاء الخديوي الجديد العرش . ولكن الضرائب التي كان السكان يرزحون تحتها ظلت مع ذلك ثقيلة فادحة ؛ إذ كان عليهم ان ينهضوا ، بالاضافة الى نفقات الادارة العامة ، بنفقات الاحتلال البريطاني والمستشارين البريطانيين المعينين في مختلف الوزارات — والذين كان لهم نفوذ ضخم يفرضونه في كل صغيرة وكبيرة — وجمهرة من الموظفين الاداريين أيضاً . والواقع ان مستشاري وزارة المالية — السير فينسانت * اولاً ثم السير ألوين بامر ** ابتداء من سنة ١٨٨٨ — وُفّقا تحت إشراف اللورد كرومر الى ان ينظما المالية المصرية تنظيماً دقيقاً جداً ، ولكنهما عجزا عن تخفيض دين الدولة تخفيضاً محسوساً . اضف الى ذلك ان احترام الرقابة المالية الدولية قاد في بعض الاحيان الى اتخاذ اجراءات شاذة بعض الشيء . كذلك عجز المشرفون على الشؤون المالية عن تخفيف وطأة الضرائب الثقيلة . ولم تُغفل السلطات مورداً من موارد الضريبة الا استغلته . وكان في استطاعة الافراد الخاضعين للخدمة العسكرية ان يشتروا اعفاءهم منها بواسطة البدل العسكري كما جرت العادة من قبل ، مع ان ذلك ظلّ وقفاً على الاثرياء دون سواهم . ولكن علينا ان لا نغفل عن ان زراعة القطن التي سبق لمحمد علي ان ادخلها الى مصر ، والتي عززها

---

* E. Vincent

** Elwin Palmer

اسماعيل من بعده ، قد انتهت الى نجاح لم يخطر لأحد ببال ، على ايدي المهندسين المائيين البريطانيين الذين استطاعوا ان يطبّقوا ههنا خبرتهم المستفادة في بلاد الهند . من أجل ذلك كان لا بد من انشاء سلسلة من الخزانات تساعد على اصطناع نظام في الري غير خاضع لرحمة الاحوال الجوية . وهكذا جدّد سكوت مونكريف * في ما بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٩٠ الخزان الذي سبق لأحد المهندسين الفرنسيين ان أقامه عند مدخل الدلتا في ما بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٦٣ والذي أثبتت الايام انه غير واف بالحاجة ؛ ومن ثم تضاعف محصول الدلتا من القطن . وفي سني ١٨٩٨ — ١٩٠٢ تم انشاء خزان اسوان ، وهو من عمل السير وليم ولكوكس ** . ويجب ان لا ننكر ، من غير شك ، ان مصر قد سيقت ، من هذه الطريق ، الى مخاطر الاقتصاد العالمي ، هذا الاقتصاد الذي اخذت تحس ازماته الثقيلة في مناسبات مختلفة ، وبذلك فقدت قدرتها على ان تؤمن تغذية سكانها من نتاج تربتها الخاصة . وكان من الطبيعي ان يستنكر المصريون سكوت بريطانية وعدم تحريكها ساكناً للقضاء على نفوذ الاجانب ومركزهم الممتاز الذي تمتعوا به بفضل « الامتيازات الاجنبية » ، والذي ساعدهم في كثير من الاحيان على التحكم بحياة البلاد الاقتصادية . وكان من الطبيعي ايضاً ان يحسب المصريون هذا السكوت حيفاً وظلماً . ولكن أبرز ما تُلام عليه ادارة كرومر ، لوماً كبيراً ، انها لم ترصد غير اعتمادات هزيلة جداً لتعليم الشعب ، في حين خصصت أموالاً ضخمة للانشاءات التي تنطوي على خدمة المصالح البريطانية ايضاً ؛ فمن سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩٠٢ مثلاً لم تبلغ اعتمادات التعليم الشعبي نصف نفقات خزان اسوان الا بعد جهد . وقد حاول خلفه اللورد لويد *** ، ان يلتمس له عذراً ، فأشار الى فقدان الوسائل الضرورية لذلك ، قائلاً

---

* Sir Colin Scott - Moncrieff

** William Willcocks

*** Lord Lloyd

انه لم يكن من همّ الدولة المحتلة ، على كل حال ، ان تفرض نفوذ الثقافة البريطانية على البلاد [١٧٠] . وليس من شك في ان هذه الثقافة ما كانت لتُفيد المصريين إلا قليلاً ، ولكنها كانت خليقة بان تخدم مصالح البريطانيين وتعزّز ثقافتهم في وجه الثقافة الفرنسية التي اقبلت عليها الطبقات المصرية العليا . ومهما يكن من شيء ، فيجب ان لا نغفل حقيقة راهنة وهي ان الدوائر الحاكمة في مصر ، حتى بعد تحرّرها من السيطرة البريطانية ، لم تُبْدِ من الاهتمام بقضايا الثقافة إلا قدراً يبدو ضئيلاً جداً اذا قيس باهتمامها البالغ بالمسائل الاقتصادية ؛ وهي حال كانت موضع الشكوى المريرة من قِبل الدكتور طه حسين ، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة * ، في كتابٍ له ظهر في مطلع سنة ١٩٣٩ .

بين عباس حلمي والانكليز

في مثل هذه الظروف يكون من العبث التحدّث عن حياة سياسية مستقلة في مصر ، قبل الحرب العالمية الأولى . فالواقع ان أول حركة من حركات المقاومة الوطنية ضدّ الحكم الاجنبي ، وكانت ضعيفة بادىء الأمر ، لم تظهر إلا سنة ١٨٩٢ عندما رقي العرش عباس الثاني (حلمي) بعد وفاة ابيه توفيق ؛ وكان عباس في ميعة الشباب آنذاك ، وقد تلقى علومه في فينا . وفي السنوات الاخيرة من حكم توفيق كان على رأس الحكومة نوبار باشا ، وكان أرمنياً ، ثم خلفه رياض باشا ابتداءً من سنة ١٨٨٨ ، وقد كان عليهما جميعاً ان يعتزلا الحكم عند اول محاولة ، مهما تكن ضئيلة ، الى تخطي الاجراآت التي اتخذها كرومر . فلما رقي عباس العرش كانت مقاليد الحكم في يد مصطفى فهمي ، وكان موالياً لبريطانية لا يعصي لها امراً .

---

(١٧٠) انظر **Egypt since Cromer. I. London, 1933. p. 159.**

* وزير المعارف المصرية سابقاً . واما الكتاب الذي يشير اليه المؤلف فهو « مستقبل الثقافة في مصر » . (المعربان)

حتّى اذا اشتدّ عليه المرض في نهاية سنة ١٨٩٢ اغتنم عباس هذه الفرصة ليتخلص منه وعيّن خلفاً له فخري باشا. ولم يُستشر اللورد كرومر في ذلك مقدّماً. ولكن هذه الخطوة نفسها كانت وبالاً على الخديوي؛ فقد اضطر، تحت الضغط البريطاني، الى ان يقيل الوزير الذي اختاره، وإن يكن البريطانيون لم يُكرهوه على التعاون مع مصطفى فهمي، كرةً اخرى، إذ تولى الحكومة هذه المرة رياض باشا. ولقيَ الخديوي إهانةً ثانية عندما تجرّأ على انتقاد حالة الجيش، وكان يقوده ضباط بريطانيون، في رحلة تفتيشية قام بها في وادي حلفا. عندئذٍ أُكرِه على تسريح وكيل نظارة الحربية، ماهر باشا، ليحلّ محله أحد صنائع السّردار كِتشنر الطيعين؛ ليس هذا فحسب بل لقد أُكره الخديوي على ان يسحب انتقاده بصورة علنية أيضاً. ومن ذلك الحين أقلع عباسٌ عن التدخل في شؤون الحكومة وفرّغ لأدارة ممتلكاته الخاصة. والحق انه لم يلقَ من جانب مولاه عبد الحميد، أيما تأييد ضدّ بريطانية. كذلك تخلّت فرنسة عن نفوذها في مصر بعد أن أطلقت بريطانية يدها في مرّاكُش في اتفاق ٨ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٤. أما مدى شعور بريطانيا بسيادتها على مصر فيتجلى في الخلاف الناشب حول ميناء العَقبة في شبه جزيرة سيناء. وتفصيل ذلك أن السلطان مدّد سكة حديد الحجاز حتّى مَعَان، خريف سنة ١٩٠٤، ابتغاء تدعيم مركزه كخليفة، في بلاد العرب؛ ويقال إنه كان يعتزم انشاء خط فرعي الى العقبة، وهو خطٌ يمكن ان يُفيد منه الحجاج المصريون. وفي حين كانت بريطانية حتّى ذلك الوقت لا تَشغَل نفسها، إلا في النادر، بشؤون شبه جزيرة سيناء اذا بها الآن توجّه بعثة مكلفةً تعيين الحدود — وكانت ما تزال غامضة لم تتضح معالمها — بين الامبراطورية العثمانية ومصر؛ وأكرهت السلطانَ على التخلي عن مشروعاته بأن تهدّدته بمظاهرة يقوم بها اسطولها البحري.

ولم يجد الخديوي ، في جميع خلافاته مع السلطة البريطانية ، أيما مساندة من الشعب المصري . فقد علّق آماله ، سنة ١٨٩٣ ، على [الشيخ] عليّ يوسُف مؤسس جريدة « المؤيّد » ، ولكن على غير طائل ؛ فقد عجز الحزب الاصلاحي الصغير الذي اجتمع حول محرّر « المؤيد » عن احراز ايما نفوذ سياسي . والواقع ان أُولى النزعات نحو تكوين إرادة وطنية لم تصدر عن الخديوي ، ولكن عن ممثل الطبقة البرجاسية * التي اقتضت الادارة البريطانية اول الأمر نشوءها والتي تلقى أبناؤها ثقافتهم في فرنسة . من هذه الطبقة ظهر مصطفى كامل — وكان أبوه مهندساً مصرياً — فدرس القانون في تُولوز حيث تعرّف الى الصحافية الفرنسية البعيدة النفوذ ، جوليت آدم ** فلما آب مصطفى الى وطنه [انقطع للجهاد في سبيل الاستقلال ، واخيراً] أسس « الحزب الوطني » سنة ١٩٠٧ . وانما كان يأمل في ان يكتسب تأييد الرأي العام الاوروبي لقضية بلاده وتحريرها من الاحتلال فبذل غاية الجهد لنشر الحقيقة عن القضية المصرية في جميع العواصم الغربية وفي مصر نفسها . والواقع ان صحيفته « اللواء » التي أسسها سنة ١٩٠٠ ، والتي ظهرت ابتداء من سنة ١٩٠٧ باللغتين الانكليزية والفرنسية ايضاً ، نالت رواجاً واسعاً . وفي سنة ١٩٠٤ أنعم عليه السلطان بلقب باشا ، بعد ان دافع عن مشروع الخط الحديدي الحجازي دفاعاً ملتهباً . ولكن الخديوي اخذ يخشى نفوذه ، بعد ان هوّل كرومر عليه *** وفتّ في عضده ؛ وفي تلك السنة نفسها اقلع عن نصرته وتأييده .

حادثة دنشواي

وانتعشت آمال الشرقيين جميعاً انتعاشاً عظيماً لدن تسامعوا بانتصارات

---

* Bourgeois . راجع هامش ص ٨١ من القسم الرابع من هذا الكتاب . (المعربان)

** Juliette Adam

*** اي على الخديوي .

اليابانيين على الروسيا ، هذه الانتصارات التي غناها شعراء مصر في ذلك العهد كمثل يتعين على جميع الشعوب الآسيوية ان تحتذيه في صراعها ضد الاستعمار الاوروبي . وكان لحادثة غير ذات اهمية في حد ذاتها ان تكشف للشعب كافة ، لاول مرة ، عن مركزه الحقيقي — ذلك المركز الذي لا يليق به . ففي ١٣ حزيران (يونيو) ، سنة ١٩٠٦ ، كان بعض الضباط البريطانيين يصطادون الحمام في قرية « دِنْشَوَاي »[١٧١] في الدلتا فأصابوا امرأة مصرية . فلم يكن من الفلاحين ، الذين هاجهم الحادث هياجاً كبيراً ، الا ان هجموا عليهم بالهراوى والنبابيت فقتلوا واحداً منهم فيما هو يلوذ بأذيال الفرار . وأمر كرومر بانزال أشد العقاب بأولئك الفلاحين ، فشُنق اربعة منهم على رؤوس الاشهاد في ٢٨ حزيران (يونيو) ، وجُلد سبعة عشر بالسياط ثم حملوا الى السجن . والواقع ان هذا القصاص الوحشي أثار عاصفة من الاستياء — لا في مصر وحدها ، بل في اوروبة وفي البرلمان البريطاني ايضاً — ظل صداها يتردد زمناً طويلاً في الصحف المصرية والشعر الوطني ، وزعزعت مركز بريطانية في البلاد من آساسه . واحتج مصطفى كامل بشدة لدى رئيس حكومة الاحرار في لندن ، السير كامبل بانرمان — وطالب باقالة كرومر* . والحق ان هذا الاخير غادر مصر في نوار (مايو) سنة ١٩٠٧ بعد ن ابدى عدم استعداده للنزول عند رغبة حكومة حزب الاحرار البريطاني (وكان هذا الحزب مستولياً على الحكم آنذاك) في ترضية الشعور المصري . وانما حل محله السير ألدون جورست ** الذي أبدى استعداده لتنفيذ سياسة الاحرار آملاً من وراء ذلك تدعيم مركز بريطانية على ضفاف النيل . وسرعان ما واجه جورست مصاعب جسيمة ، اذ كانت

(١٧١) وقد حرفت في التقارير البريطانية ، ومن ثم في جميع المصادر الاوروبية ، الى Denshawi

* Sir Campbell Bannerman

** Eldon Gorst

البلاد رازحة تحت وطأة ازمة مالية خطيرة ، ومهددة في الوقت نفسه بهبوط غير طبيعي في مستوى مياه النيل. واذ قد حاول جورست بادىء الامر ان يكسب عطف الخديوي فقد أعلن مصطفى كامل الحرب عليه ايضاً ، ودعا الى عقد مؤتمر وطني ينتظم ١٠١٧ مندوباً يمثلون البلاد عن بكرة أبيها . ولقد انتخبه هذا المؤتمر رئيساً له مدى الحياة ، فألقى خطبة متقدة ألهب بها عواطف سامعيه مؤكداً الهدف الذي يعمل من اجله : وهو ان تكون مصر للمصريين من طريق ثقافة سياسية تستغرق افرادَ الشعب كله . بيد أن مرضاً متطاولاً ما لبث ان قضى على حياته في ١٠ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٨ . والواقع ان حزبه ضعف من بعده ضعفاً كبيراً ، فلم يكن له ، سنة ١٩٣٨ ، غير ثمانية مقاعد في البرلمان المصري .

كتشنر يخلف جورست

ولم يكتفِ جورست باثارة الخديوي على الحزب الوطني بل عدا ذلك الى تحريك الاقباط عليه ، بحجة ان مؤسسه [مصطفى كامل] كان يقول بالجامعة الاسلامية التي عمل لها السلطان العثماني . فلما استقال رئيس مجلس النظار ، مصطفى فهمي ، حمل جورست الخديوي على إسناد هذا المنصب الى رجل قبطي ، هو بطرس غالي باشا ناظر المالية السابق . فما كان من الوطنيين الا ان شنوا عليه حملة شعواء أدّت الى مصرعه ، في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٠ ، والى قطيعة بين المسلمين والاقلية النصرانية تهددت البلاد بنشوب حرب اهلية دامية . حتى اذا مرض جورست مرضاً ثقيلاً ، سنة ١٩١١ ، أسندت الحكومة البريطانية منصبه الى سردار الجيش المصري السابق ، اللورد كتشنر . ولقد وفق بادىء الامر ، الى ان يحول بين الوطنيين ومدّ يد المساعدة الى الاتراك إبان الحملة الايطالية على طرابلس الغرب . وبينا اصطنع جورست الخديوي سناداً له بادىء الامر عمد كتشنر في الحال الى فرض سيادته عليه . ففي صيف سنة ١٩١٢ ، عندما حاول بعض الطلاب

الاعتداء على حياة كل من الرجلين قضى كتشنر تقريباً على الحزب الوطني بما اصطنع من شدة بالغة في معاقبة المحرضين على الاعتداء. ليس هذا فحسب، بل انه سعى الى رفع مستوى الفلاحين ليوازن بهم مؤيدي الحزب من الطبقات البرجاسية المثقفة، فأصدر قانوناً حرم به نزع ملكية الاراضي الزراعية التي تقل مساحتها عن خمسة افدنة [لحماية الفلاح الصغير من براثن المرابين] * ومما لاشك فيه ان نظارة الزراعة التي انشأها انما خدمت المصالح البريطانية في زراعة القطن المصري، في حين عملت في الوقت نفسه للقضاء على ما كان لشركة الخديوي الزراعية من تغلّب وسلطان.

واخيراً آن للبريطانيين، في ما يبدو، ان يلبّوا رغبة الشعب المصري في التمتّع بنعمة النظام البرلماني الاوروبي. وكان القانون الاساسي المعمول به حتى ذلك الوقت هو القانون الذي ادخله اللورد دافرين في غرّة نوار (مايو) عام ١٨٨٣. وقد اوجد هذا القانون، علاوة على مجالس المديريات، مجلساً للشورى ** مؤلفاً من ثلاثين عضواً، اربعة عشر منهم معينون من قبل الحكومة والآخرون منتخبون بواسطة مجالس المديريات والمدن الرئيسية، وجمعيةً عموميةً مؤلفة من اثنين وثمانين عضواً، ستة واربعون منهم منتخبون، اما الباقون فكانوا الوزراء الستة واعضاء مجلس الشورى. ولكنّ الدستور الذي أعلِن في ٢٤ تموز (يوليو) سنة ١٩١٣ استعاض من هذه الجمعية العمومية ومجلس الشورى بجمعية تشريعية مؤلفة من واحد وثمانين عضواً، تُعيّن الحكومة خمسة عشر نائباً منهم ويُنتخب الباقون (وعددهم ستة وستون) انتخاباً غير مباشر. ومع ان هذه الجمعية التشريعية كانت تملك صلاحية تصديق الضرائب. فلم يكن في وسعها رَفْض المشاريع التي كانت تتقدم بها الحكومة اليها. بيد ان هذه الحياة النيابية الجديدة ما لبثت ان تعطّلت فُجاءةً عند نشوب الحرب العالمية الاولى.

---

* قانون « الخمسة الافدنة ». (المعربان)

** « مجلس شورى القوانين ». (المعربان)

وفي ٤ آب (أغسطس) سنة ١٩١٤ فُرِضت الأحكام العُرفية في طول البلاد وعرضها ؛ وفي ١٠ ايلول (سبتمبر) أعلنت الحرب على تركية. ثمّ ان الحكومة البريطانية اعلنت الحماية على مصر في ١٨ كانون الاول (ديسمبر)، وخلعت الخديوي عباس حلمي وأقامت [عمّه] الأمير حسين كامل [اكبر افراد الاسرة الخديوية إذ ذاك] سلطاناً على مصر وسرعان ما تولى حكم البلاد الفعليّ السير هنري ماكماهون *، السكرتير السياسي السابق لحكومة سِملا في الهند، بوصفه مندوباً سامياً. وكانت مهمته الرئيسية أن يحشد جميع موارد البلاد لا للدفاع عن جبهة شبه جزيرة سيناء فحسب، بل لشنّ حرب هجومية على تركية. وفي آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ أرسل جيش من العمال المصريين الى مودروس. ولكن الاجور المرتفعة نفسها ما لبثت ان عجزت عن اجتذاب الفلاحين للتطوع في مثل هذا العمل الذي يُبعدهم عن اهلهم ووطنهم، وخاصة بعد ان تعرضت احدى فرق العمال لشواظ من نار، في شبه جزيرة سيناء ؛ ومن ذلك الحين اضطرت الحكومة الى أنّ تجند العمال بالقوة.. والواقع ان المهام المضنية التي كان على المندوب السامي ان يضطلع بها، والتوفيق بين مطالب القيادة العليا الملحّة من جهة، والمقاومة السلبية المصرية من جهة اخرى، وعدم تيسر المعونة والمشورة من لندن المشغولة عنه بأمور اخرى — كل هذه اضطرت ماكماهون الى ان يتخلى عن منصبه لاسير ريجينلد وينْجت **، حاكم السودان العام السابق.

وليس من شك في ان الآلام التي اضطرت مصر الى احتمالها في حرب لم تكن يوماً في مصلحتها انما خُففت الى حدّ ما بسبب من الاموال الاجنبية التي اخذت تتدفق على البلاد مع تدفق الجيوش، على الرغم من ان نفعها

---

* Henry Mcmahon

** Reginald Wingate

اصاب في الدرجة الاولى التجار لا الفلاحين الذين اقتُلعوا من بيوتهم وانتزعت منهم مواشيهم وانعامهم. وكانت المتاعب التي أدت اليها زراعة القطن المطردة النمو، في ما يتصل باعاشة البلاد، قد انتهت آخر الامر الى ان تبلغ حداً اضطر الحكومة الى ان تحظر، في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٧، زراعة القطن حظراً تاماً في مصر العليا؛ ولكن اصحاب الاراضي كانوا يجدون أن من مصلحتهم الاستمرار في زراعة القطن ودفع الغرامة الطفيفة المفروضة على مخالفي قرار الحكومة، بعد أن رأوا الى اسعار هذه البضاعة ذات السوق المتسعة، سعةَ العالم، ترتفع ارتفاعاً مذهلاً حقاً[١٧٢]. وإذ قد اخفقت جميع التدابير المتخذة لكبح جماح المجاعة فقد ثقلت وطأة الحرب على الطبقات الفقيرة اكثر فأكثر، في حين أفاد منها الاغنياء، ووُفقوا الى التهرّب من إسداء ايما مساعدة للمعوزين.

السلطان فؤاد يخلف حسين كامل

وفي ٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٧ توفي السلطان حُسين [كامل]، وكانت صحته قد ساءت منذ زمن طويل. ولما كانت بريطانية قد خسرت بوفاته سنادها الرئيسي في البلاط فقد بدا لها ان تضمّ مصر الى امبراطوريتها، وخاصة بعد ان تخلى ابن السلطان، تخلياً صريحاً عن حقه في العرش. ولكن البريطانيين آثروا آخر الامر ان يختاروا سبيلاً اكثر حصافة، فداروْا عواطف المصريين وأسندوا الأمر الى [الأمير] احمد فؤاد، أخي السلطان، على الرغم من أنه كان يحيا، على الغالب، في ايطالية، وكان قد اصبح غريباً عن البلاد، او يكاد.

---

(١٧٢) فبينما كان السعر في شتاء ١٩١٤ – ١٩١٥ لا يزيد على ١٢ دولاراً للقنطار، اشترت الحكومة البريطانية، سنة ١٩١٨، كامل محصول القطن بـ ٤٢ دولاراً للقنطار؛ وفي سنة ١٩١٩ ارتفع السعر ايضاً حتى لبلغ ٢٠٠ دولار. راجع:
Lord Lloyd. Egypt since Cromer, I, P. 244.

وعندما وضعت الحرب العالمية اوزارها واجهت بريطانية حالةً جديدة بالكلية ، في مصر . ذلك بأن تصريحات ولسن* القائلة بأن العالم سينظم ، من جديد ، على اساس من حقّ الشعوب في تقرير مصيرها كانت قد لقيت صدىً حماسياً في تلك الديار ، أيضاً . وهكذا برز الرجل الذي قُدِّر له ان يقرّر تاريخ مصر طوال العقد التالي : أعني سعد زغلول باشا . ولم يكن سعد آنذاك حديث عهدٍ بالسياسة ، بدليل هذا اللقب الذي كان يحمله . وُلد [في بلدة إبيانة من اعمال مديرية الغربية] ، وكان أبوه فلاحاً . فدرس الحقوق واحترف المحاماة ، فعهدت اليه الأميرة نازلي بنت الأمير مصطفى فاضل ، وكان صديقاً لرجال تركية الفتاة ، في الاشراف على ممتلكاتها . وقد مثّل أول ادواره السياسية — بوصفه صِهر مصطفى فهمي أحد المقرّبين الى اللورد كرومر — سنة ١٩٠٧ عندما أسس حزب الشعب الذي كان كرومر يرجو أن يحدّ بهِ من نفوذ حزب مصطفى كامل (الحزب الوطني) . ولكن حزب الشعب هذا لم يوفّق الى الاتصال بالأمة ، فاضطرّ الى ان يقف نشاطَهُ منذ السنة الثانية من الحرب العالمية . ثم ان كرومر أسند الى سعد نظارة المعارف المنشأة حديثاً ، مكافأةً له على خدماته . وفي عهد جورست تولى سعد نظارة الحقانية (وزارة العدل) ؛ ولكنه استقال في نيسان (ابريل) سنة ١٩١٢ إثر خلافٍ مع الخديوي عباس حلمي ؛ وسرعان ما انتُخب بعد ذلك نائباً لرئيس الجمعية التشريعية الجديدة . وما هي إلا فترة حتى اكسبته فصاحته الفطرية عدداً من الانصار كان يتزايد يوماً بعد يوم ؛ وقد وفّق بتأييد من هؤلاء إلى ان يُورث كتشنر نفسه مصاعبَ خطيرة في بعض الأحيان . والواقع ان القنصل العام أضاع في مطلع سنة ١٩١٤ فرصةً سنحت للتخلص من هذا المهيّج المُتعِب

* Wilson

عندما حاول حمو سعد أن يحرره من عُسرِه المالي بتعيينه رئيساً لبعثة الطلاب المصريين في باريس ؛ وإنما اضاع القنصل العام هذه الفرصة السانحة بحكم نفوره منه وكراهيته له . كذلك لم تقترن رغبة [السلطان] فؤاد في اسناد احدى الوزارات اليه بموافقة السير ريجينلد وينجت . ولكن هذا الرجل الطموح وجد الآن الفرصة المناسبة للعمل فاغتنمها . ففي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ شكل وفداً باسم الشعب المصري لمقابلة السير وينجت . وكان هذا الوفد يتألف من سعد رئيساً ، ومن صديقيه [عبد العزيز فهمي بك (باشا) وعلي شعراوي باشا] ، حتى اذا اجتمعوا الى ممثل بريطانية سألوه السماح لهم بالسفر الى انكلترة ليطلبوا الى حكومته ان تعلن استقلال مصر التام ، فلم يكن من المندوب السامي الا ان أجابهم بأنه لا يستطيع ان ينزل عند رغبتهم . في تلك الساعة ولد حزب الوفد الذي استطاع ان يعتبر نفسه ، طوال عقدين من الزمان ، الممثل الوحيد المفوض للشعب المصري . وإذ كانت البلاد العربية الاخرى لا تزال تعلل نفسها ، في ذلك الحين ، بأمل الدفاع عن مصالحها أمام مؤتمر الصلح فقد استشعر المصريون ، الذين أنكر عليهم هذا الحق بالضيم الشديد ، لا سيما وقد ضحوا تضحيات كبيرة جداً في سبيل انتصار بريطانية . والواقع ان السير ريجينلد ادرك ، في الحال ، ان سعداً وانصاره خليقون بأن يكونوا اقل خطراً في مؤتمر الصلح ، حيث سيتعيّن عليهم ان يعملوا في جوّ لم يألفوه ، منهم في مصر نفسها حيث كان في ميسورهم أن يرسموا لبريطانية الخطوط الرئيسية لسلوكها ؛ من اجل ذلك اقترح على وزير خارجية بريطانية ، الذي كان قد استدعاه الى لندن للمناقشة في الأمر ، ان يُقر مطالب الوفد ، ولكنه لم يلق أذناً واعية . وكانت حكومة مصر قد استقالت ، اثناء غيابه ؛ وفي ٣ آذار (مارس) هدد سعد السلطان باللجوء الى العنف اذ ما قام بمحاولة لتأليف حكومة جديدة . وفي هذا

الجو المضطرب حسبَ السير ميلْن تشيتهام*، القائم باعمال وينجت، ان أفضل سبيل لحل الأزمة هو إبعاد زعماء الوفد عن البلاد. ووافق وزير خارجية بريطانية على اقتراح تشيتهام القاضي بنفيهم الى مالطة، وفي ٨ آذار (مارس) سِيقَ سعد وثلاثة ** من أشد أعوانه صلة به، من الاسكندرية الى المنفى، على متن مدمرة بريطانية. وما تسامع الناس بنبأ اعتقالهم حتى نفر الطلاب الشباب الى الشوارع متظاهرين — وقد ألّف هؤلاء الطلاب ايضاً طليعة جميع الحركات الثورية التي قامت بعد — وسرعان ما أصبحت البلاد كلها في حالة تمرد وثورة. وفي ١٧ آذار (مارس) قُطع كل اتصال مع القاهرة، وحاصر الثوار الحاميات الصغيرة في مصر العليا. ولم يوفق الجنرال بولفن*** الى إقرار النظام في طول البلاد وعرضها الا في ١٠ نيسان (ابريل)، من طريق استعمال الطائرات لنقل الجنود. وعلى اية حال، فقد كان لويد جورج قد عزم، في تلك الاثناء، على ان يبعث بالجنرال السير ادموند اللنبي ****، الشهير بقيادته للحملة الحليفة في فلسطين، الى مصر، مكلفاً اياه الحفاظ على الحماية بأي ثمن. فلم يكد يصل الى القاهرة في ٢٥ آذار (مارس) حتى حاول تهدئة الشعب ببيان اذاعه؛ وفي ٧ نيسان (ابريل) وعد باطلاق سراح الزعماء المنفيين في مالطة. وفي ٩ نيسان (ابريل) تولى رشدي باشا رئاسة الحكومة من جديد، ولكن الاضطراب واضراب الموظفين لم ينتهيا الا بعد ان هدد اللنبي، في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، بتطبيق الاحكام العرفية في أقسى صورها. فخشي الموظفون سوء المَغَبّة واستأنفوا أعمالهم؛ وفي نوار (مايو) صار في ميسور [محمد] سعيد باشا ان يؤلف حكومة

---

* Milne Cheetham

** وهم اسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا (المعربان)

*** Bulfin

**** Edmund Allenby

جديدة ؛ ولكن الثوار كانوا قد اختبروا قوتهم فهم على استعداد لاستعمالها من جديد ، عند اول فرصة تسنح لهم . وانما سنحت هذه الفرصة عندما عهدت الحكومة البريطانية الى اللورد ملنر * — بناء على اقتراح اللنبي — في رئاسة لجنة مهمتها دراسة الحالة السياسية في البلاد واقتراح ما تراه مناسباً بسبيل وضع دستور جديد . ومهما يكن من أمر فقد كان الوفد غير راغب في أن يحصل على هذا الدستور من الخارج ، بل كان يبغي ان يقرّر بنفسه مستقبل البلاد . ولسنا ندري السبب الذي من أجله أفسحت الحكومة البريطانية للوفد في هذا المجال ، فتركته يثير الشعب على بريطانية طوال اشهر الصيف والخريف ، حتى اذا بلغ ملنر القاهرة في ٧ كانون الاول (ديسمبر) كان سعيد باشا قد استقال كرةً اخرى وكانت ثورة الشعب قد نفّست عن نفسها عن طريق سلسلة من الاعتداءات على الجنود البريطانيين . وفي ١٥ كانون الاول (ديسمبر) جرت محاولة للقضاء على حياة [يوسف] وهبة باشا رئيس الوزراء الجديد ، فلم ينجُ منها إلا بمعجزة .

مشروع ملنر

تحت ضغط هذا الاضطراب السياسي الذي استفحل أمره في مطلع السنة الجديدة بما انضاف اليه من ازمات اقتصادية ، انتهت لجنة ملنر الى رأي يقول بأن مركز مصر الدولي ، الذي لم يكن قد حُدّد بعدُ ، تحديداً نهائياً من وجهة النظر القانونية ، لا يمكن ان يسوّى إلا بمعاهدة مع بريطانية . وقد نص مشروع هذه المعاهدة على ان تعترف بريطانية باستقلال مصر شرط أن توافق على بقاء قوة عسكرية بريطانية في الاراضي المصرية ، وتعيين مستشار بريطاني في وزارة الحقانية (العدل) وآخر في المالية ، وشرط ان تتعهد بألا تعقد معاهدة سياسية ما مع دولة اجنبية اخرى بغير

---

* Milner

موافقة بريطانية ، وان تمنح بريطانية حق حماية الاجانب من تطبيق القوانين المصرية تطبيقاً جائراً عليهم . ولكن هذه الشروط — وتعتبر ذات أثر خطير اذا قيست بالشروط التي سبق لبريطانية تقديمها — أثارت معارضة شديدة في البلاد . وكان رجال الوفد لا يزالون في باريس — وقد سافروا اليها تواً من مالطة — فاضطر ملنر الى دعوتهم لمؤتمر يُعقد في لندن ، [فشخصوا اليها] وافتتحت المفاوضات في ٧ تموز (يوليو) . واعلن سعد موافقته على عقد معاهدة مع بريطانية ، ولكنه لم يسمح لنفسه باتخاذ موقف قاطع من بعض النقاط [التي أصرّ عليها الجانب البريطاني .]

عدلي يكن يفاوض بريطانية

ومضت مدة غير قصيرة أحجمت حكومة لويد جورج ، خلالها ، عن توطيد العزم على استئناف المفاوضات مع مصر على اساس التقرير الذي وضعته بعثة ملنر . والواقع أنها لم تسأل السلطان [فؤاد] تعيين وفد للمفاوضات الا في ٢٢ شباط (فبراير) ، سنة ١٩٢١ . وقد قادت المذاكرات الخاصة بذلك الى تغيير الوزارة ، فتولى رئاسة الحكومة عدلي يكن باشا ؛ ولكن مركزها تقلقل بعد ان صرح سعد زغلول [بحديث له مع احد الصحفيين ان الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شرط العمل المشترك ثم فصّل شروط الوفد] مطالباً ان تُلغي بريطانية الحماية والرقابة على المطبوعات وحالة الحصار قبل بدء المفاوضات . وفي ٥ نيسان (ابريل) رجع سعد الى مصر فاستقبله انصاره استقبالاً حماسياً . حتى اذا ألّف عدلي وفداً للمفاوضة اختار أعضاءه جميعاً من بين انصاره — وهم رجال الارستوقراطية التركية من كبار الموظفين — مستبعداً الوفد المصري ، نشبت الاضطرابات كرة أخرى في ١٠ نوار (مايو) ١٩٢١ في القاهرة والاسكندرية ، حيث استهدفت هذه المرة اليونان والايطاليين على الخصوص . وفي اول تموز (يوليو) سنة ١٩٢١ شخص عدلي باشا على رأس وفده الى لندن تاركاً الميدان لسعد يُكمل تدعيم مركزه في البلاد .

بعد هذه المفاوضات العقيمة مع الحكومة البريطانية رجع عدلي باشا الى القاهرة في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ليقدم استقالة وزارته بعد ثلاثة أيام. ولم يؤانس [عبد الخالق] ثروت باشا في نفسه استعداداً لتأليف وزارة جديدة ؛ إلا في الحادي عشر من الشهر عينه ، بعد أن اعلنت بريطانية استعدادها لألغاء الحماية والسماح بأنشاء وزارة للشؤون الخارجية. وهنا امر المندوب السامي باعتقال سعد تدعيماً لمركز ثروت ، حتّى اذا نشبت الاضطرابات من جديد بسبب من هذا الاعتقال حُمل سعد ، في ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) ، الى سيلان ، ومن هناك الى سيشيل. ولكن الحكومة لم توطن النية على إعلان الغاء الحماية والوعد بإلغاء حالة الحصار إلا في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٢ بعد ان شرح اللنبي بنفسه في لندن خطورة الموقف وضرورة معالجته على وجه السرعة. وعندئذ فقط استطاع ثروت ان يؤلف ، آخر الامر ، وزارته ، وفي ١٥ آذار (مارس) ١٩٢٢ اتخذ « السلطان » فؤاد لقب « ملك مصر ».

ومهما يكن من شيء ، فقد عجزت هذه التدابير كلها عن وضع حدّ للأزمة. وتصرّم عام ١٩٢٢ في مفاوضات عقيمة حول الدستور الجديد ؛ وكانت مسألة السودان محور الخلاف الرئيسي. وعلى الرغم من ان جمهرة كبيرة من الموظفين البريطانيين شرعت تترك الخدمة فقد استمرّت محاولات الاعتداء على البريطانيين من غير انقطاع. ولم يستطع يحيى ابراهيم باشا ، الذي عيُن رئيساً للوزارة في ١٥ آذار (مارس) سنة ١٩٢٣ بعد ان عدل وزارته مرتين والذي لم يكن ينتمي اي الى حزب من الاحزاب ، نقول لم يستطع يحيى باشا ان يعلن الدستور الجديد[١٧٣]

(١٧٣) راجع نصه وترجمته في Mitteilungen des Orientalischen Seminars zu Berlin, 1924, II. 1 - 82 .

الا بعد ان تنازل فؤاد عن حقه في لقب « ملك السودان » . ورغبت بريطانيا في ان تكتسب الرأي العام المصري من طريق الافراج عن سعد (الذي كان قد نُقل في ٢٤ آذار « مارس » من سيشل الى جبل طارق) ولكن من غير ان تسمح له بالعودة الى الوطن . وأياً ما كان ، فلا هذا التدبير ولا إلغاء الاحكام العرفية أديا الى ما كان يتوقع لهما من نجاح ، فاضطرت بريطانية الى السماح لسعد بالعودة الى مصر في ١٧ ايلول (سبتمبر) . وسلك سعد بادىء الأمر مسلكاً حذراً تجاه الملك والمندوب السامي ، ولكنه ما لبث أن شن حملة عنيفة على الدستور الجديد . حتى اذا جرت الانتخابات النيابية في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٤ نال سعد أكثرية تبلغ ١٩٠ من ٢١٤ مقعداً ، وهكذا اضطر الملك الى ان يعهد اليه في تأليف الوزارة ، في ٢٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٤ .

مفاوضات سعد — ماكدونالد

وفي هذا الوقت بالذات ، تقريباً ، كان حزب العمال قد تولى الحكم في بريطانية ؛ فارتأى زعيمه ، رمزي ماكدونالد* ، ان افضل وسيلة للافصاح عن عطفه على الآمال المصرية في الاستقلال هي اطلاق سراح نحو ١٥٠ معتقلاً سياسياً . وإذ قد وثق سعد من هذا العطف ، فقد بادر الى شنّ حملة سياسية شعواء في السودان ، أدت الى نشوب اضطرابات ؛ وكم كان استياؤه عظيماً عندما اعلنت الوزارة البريطانية في مجلس اللوردات ، (٢٥ حزيران « يونيو ») عزمها الوطيد على عدم التخلي عن السودان أبداً . ولم تستهدف سياسة سعد الداخلية ، بادىء الأمر ، غير إسناد الوظائف

راجـع ايضاً : Royal Institute of International Affairs, Information Dept, Paper No. I9, Great Britain and Egypt, London, 1936.
وانظر ايضاً : Current History, New york, 1927, pp. 532-538

* Ramsay Macdonald

الى انصاره ؛ فكان من نتائج هذه السياسة أن جرت محاولة لاغتياله . وفي ٢٥ تموز (يوليو) لبي دعوة ماكدونالد الى لندن لمفاوضته شخصياً في أمر المعاهدة المزمع عقدها مع بريطانية العظمى . ولكن هذه المفاوضات لم تبدأ الا في ٢٥ ايلول (سبتمبر) . ثم انها قطعت في آخر تشرين الاول (اكتوبر) بسبب من اصرار سعد على ضرورة جلاء البريطانيين جلاء تاماً عن مصر . وما هي إلا فترة قصيرة حتى خلفت وزارة ماكدونالد وزارةٌ من المحافظين .

مصرع السردار لي ستاك

وعبرت الحماسة التي اذكى الوطنيون نارها ضد الاجانب ، عن نفسها في مصرع سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام ، السير لي ستاك * . وسعى سعدٌ الى ان يتجنب تنفيذ مطالب بريطانيا المعقولة [في مثل هاتيك الظروف] للتعويض عن الحادث . وقد اشتملت هذه المطالب شروطاً تعزز اعمال الري في السودان على حساب مصر . واضطر سعد ، في النهاية ، الى ان يرضخ عندما دعم المندوب السامي مطالبه باحتلال جميع الجمارك ، فخلفه في رئاسة الوزارة احمد زِيور باشا ، في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) . وعدّلت بريطانية مطالبها من حكومة زِيور ؛ ولكن هذه الحكومة تلكأت في اجابة بريطانية الى مطالبها على الرغم من ان البريطانيين جلوا عن الجمارك في ٢ كانون الاول (ديسمبر) . والواقع ان بريطانية لم تصرّ على ان يشغل قائد بريطاني منصب السردار القتيل .

الصراع بين الملك وسعد زغلول

وحسب زيور باشا ان في ميسوره ان يمكن لسلطته بالاعتماد على خصوم الوفد . وكان عدلي باشا قد أسس سنة ١٩٢٢ «حزب الاحرار

---

* Lee Stack

الدستوريين » ؛ فولّى صدقي باشا ، احد اعضاء هذا الحزب ، وزارة الداخلية وأقصى عن الادارة صنائع الوفد وانصاره . اما الملك فسعى الى تقوية نفوذه من طريق « حزب الاتحاد » ؛ ولكن أياً من الحزبين لم يوفق الى ان يُضعف من قوة الوفد المتشعبة . ودخل سعد البرلمان بعد الانتخابات الجديدة مع عدد ضخم من رجاله حتّى لقد انتخب رئيساً للمجلس . وبدلاً من ان يعهد الملك اليه في تشكيل الحكومة ، حلّ البرلمان في ٢٤ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ ؛ وسرعان ما أفاد من اختلاف الوزراء اختلافاً غير ذي بال في احدى المسائل ليتخلص من الوزراء « الدستوريين » وليحكم البلاد مع رجال حزبه « الاتحاديين » ليس غير . والحقّ ان الملك فؤاداً تخلى بعد ذلك عن ممارسة سلطته ، شيئاً فشيئاً ، لرئيس ديوانه [حسن] نشأت باشا .

ولكن سعداً ما كان يفكر في التخلي عن نفوذه ، خاصة بعد ان سعى الاحرار الدستوريون المستاءون [من سياسة البلاط] الى التعاون معه . واذ لم تُقدِم الحكومة على دعوة البرلمان الى الانعقاد ، فقد دعا هو بنفسه النواب الى الاجتماع في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ؛ حتّى اذا وجد الندوة النيابية محتلة انتقل معهم الى « اوتيل كونتينانتال » حيث انتُخب ، كرة اخرى ، رئيساً . ولم يكن في وسع بريطانية ان تظل مكتوفة اليدين في مثل هذه الحال ، من غير ان تفقد هيبتها في البلاد . فما كان من المندوب السامي الجديد ، اللورد لويد ، الذي تقلد منصبه هذا في ٢١ تشرين الاول (نوفمبر) سنة ١٩٢٥ ، إلا ان أقنع الملك بأقالة رئيس ديوانه [حسن نشأت باشا] ليُعيَّن بعدُ سفيراً لمصر في مدريد .

وأخيراً كان على الملك أن يوافق على إجراء انتخابات جديدة بعد أن قامت حكومته بمحاولة مخفقة بسبيل تعديل قانون الانتخاب لمصلحتها . وفي ٢٥ نوار (مايو) سنة ١٩٢٦ تكشّفت الانتخابات عن اكثرية سعدية

انتزعت ١٤٤ مقعداً من أصل ٢٠١ . وعلى الرغم من أنّ سَعداً كان قد اعلن عجزه ، بسبب من سنّه العالية ، عن تولي الأحكام من جديد ، ورغبته في الاعتزال ليتسنى له النهوض بالمهام الملقاة على عاتقه بوصفه « أبا الوطن » فقد سعى الى ان يشكل هُوَ الحكومة في ٢٧ من الشهر نفسه [نوار] . وإذ كانت بريطانية تخشى ، بطبيعة الحال ، تجدد الاضطرابات فقد طلب اللورد لويد من حكومته ان تبعث بسفينة حربية الى الاسكندرية بعد ان رفض سعد التخلي عن حقه ، وكان اللورد لويد قد وجّه اليه انذاراً ، ولكن انصار سعد حملوه على التنازل عن حقه خشيةَ أن يفقدوا ثمرات نشاطهم السياسي ؛ فعُهِد الى عدلي باشا في تشكيل الحكومة بيد انّ القوة التي تمتع بها زغلول ومارسها بواسطة انصاره في جميع انحاء البلاد لم تفقد شيئاً من عظمتها ، على الرغم من انه اضطر إلى ان يمسك عن استعمالها احياناً اجتناباً للاصطدام ببريطانية العظمى . وكان هدف حزبه المباشر العمل على تقوية نفوذه في الجيش المصري . وأبى عدلي باشا ان يتحمل تبعة ذلك فاتخذ من حادثة برلمانية ، ليست هامة في ذاتها ، ذريعةً الى الاستقالة في ١٨ نيسان (ابريل) . وفي هذه المرة أيضاً رأى الوفد أن من الحكمة الاّ يرشح زعيمه لرئاسة الحكومة ، وان يترك مقاليد الأمر لثروت باشا . ومهما يكن من أمر فقد نزلَ وزير الحرب في هذه الحكومة [احمد] خَشَبة بك ، عند ضغط الوفد في ما يتصل بتعزيز الجيش ، وعمل على وضع حدٍ لنفوذ المفتش العام البريطاني ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وبعد مفاوضات طويلة مع المقيم البريطاني نزل سعد عند المطالب البريطانية التي وافقت عليها الحكومة [المصرية] والتي اثبتت مرة اخرى سلطة المفتش العام ونفوذه .

وفاة سعد : اثره في النهضة المصرية

وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٢٧ سافر ثروت الى انكلترة لاستئناف

المفاوضة لعقد معاهدة بين البلدين . وعلى الرغم من انه لم ينتزع من الحكومة البريطانية وعوداً صريحةً جازمة ، فقد كان في ميسوره ان يؤوب الى وطنه ، في شهر آب (أغسطس) ، مُعَلّلاً النفسَ بأنه قد سوّى مشاكل وطنه التي تعترض سبيله نحو الاستقلال المنشود . ولكنّ مشروع المعاهدة – وكان لا يزال مُثْقَلاً بالشروط والتحفظات – كان خليقاً بأن لا يقرّه البرلمان إلا بقوّة سعد ونفوذه . غير ان المنية تخطّفت « أبا الوطن » فجأةً ، في ٢٣ آب (اغسطس) ، فغادر الميدان تاركاً خلفه فراغاً في الحياة السياسية المصرية لم يكن من الميسور أن يُملأ بادىء الامر . والواقع ان سعداً هو صاحب الفضل الرئيسي في إيقاظ المصريين – بعد عبودية تطاولت الف سنة في ظل الحكام الوطنيين والاجانب – وتنبيههم إلى حقّهم في تقرير مصير أمتهم وبلادهم . وقد تكون مقدرته خضعت لمناحي ضعف لم يكن بدٌّ منها اذا اعتبرنا عصره وبيئته ، ولكن المصريين يحفظون له اجمل الذكرى وأعمقها اذ وقف حياته – التي لم تكن ، على التأكيد ، فقيرة بالتضحيات الشخصية – لخدمتهم .

مصطفى النحاس يخلف سعداً

وفي الوقت نفسه استأنف ثروت مفاوضاته بلندن ، في تشرين الاول (اكتوبر) ؛ وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ؛ رجع الى الوطن حاملاً مشروع معاهدة طالبت الحكومة البريطانية بضرورة قبوله من غير ما تعديل . ولكنه اضطر الى الاستقالة في آخر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٨ ، قبل ان يوفق الى عرض المشروع على البرلمان ، لأن مجلسي النواب والشيوخ كانا قد أقرا قانوناً ينزع من الحكومة أيما سلطة قد تستعملها للحد من حق الشعب في عقد الاجتماعات الحرة .

وكان حزب الوفد قد انتهج ، بعد وفاة سعد ، مسلكاً زاخراً بالتطرف . وليس من شك في ان خليفته في زعامة الحزب – مصطفى النحاس باشا

الذي عمل سكرتيراً لسعد فترة طويلة من الزمان — لم يكن ليقل عنه طموحاً وصلابة ، ولكنه كان دونه من حيث المواهب السياسية المطلوبة في رجل الدولة . ومهما يكن ، فقد ألقيت على عاتقه الآن تبعة مستقبل مصر ؛ إذ عهد اليه الملك في ١٥ آذار (مارس) ، بتأليف الوزارة . وعلى الرغم من ان الحكومة البريطانية أحاطته علماً ، في وضوح لا يحتمل اللبس ، انها لا تستطيع ان توافق على قانون الاجتماع الجديد الذي هدد الامن في البلاد ، فقد كان بعدُ قادراً ، بادىء ذي بدء على ان يتجنب نتائج ذلك بالاجابة [على الانذار البريطاني] جواباً مسالماً اعلنت بريطانية رضاها به . ولكن الملك ما لبث ان عَمَدَ ، في حزيران ، (يونيو) إلى اقالة النحاس باشا ، وتعيين محمد محمود باشا — وكان من اغنى اصحاب الاراضي في مصر — رئيساً للوزراء . ليس هذا فحسب ، بل لقد ذهب الملك الى ابعد من ذلك فأمر رئيس وزرائه بحل البرلمان وتأجيل الانتخابات الجديدة ثلاث سنوات .

وفي هذه الفترة التي حكم فيها الملك حكماً مطلقاً ، وُفّق الى ان يسوّي مسألة توزيع مياه النيل بين مصر والسودان تسويةً كانت في صالح بلاده ، ولا حاجة الى النص على ان مسألة المياه هذه من المسائل الحيوية بالنسبة الى الديار المصرية . وكان الملك قد شرع يفكّر ايضاً في الحدّ من بعض الامتيازات الاجنبية الاكثر إرهاقاً ، وبخاصة في توسيع صلاحيات المحاكم المختلطة على حساب القضاء القنصلي .

محمد محمود يفاوض لعقد معاهدة مع بريطانية

ولكن آمال الوفد في العودة الى الحكم — وكان لا يزال يتمتع بثقة الفلاحين المطلقة — ما لبثت ان انتعشت في نوار (مايو) سنة ١٩٢٩ عندما تولى حزب العمال البريطاني مقاليد الحكم من جديد . والواقع ان اول خطوة قامت بها الحكومة البريطانية كانت استدعاء اللورد لويد

الذي أُخِذ عليه تهاونه في القيام بالخطوات الضرورية لتطور البلاد المصرية نحو الاستقلال. وفي حزيران (يونيو) شرع محمد محمود باشا يفاوض، في لندن، لعقد معاهدة تسوّى بها العلاقات بين البلدين، ولكن الجانب البريطاني أوضح له ان مثل هذه المعاهدة، يجب ان تقترن بتصديق البرلمان المصري. والحق ان الاقتراحات التي نُشرت في كتاب ابيض، خريف سنة ١٩٢٩، لعقد هذه المعاهدة، ذهبت الى أبعد جداً من الشروط التي وُفّق اليها ثروت باشا، والتي وصفت قبل بأنها غاية ما يمكن ان تجيزه الحكومة البريطانية من التساهل. وكان طبيعياً بعد ذلك في ان يتوقّع المصريون النجاحَ في تحقيق مطالب ابعد بمجرد اصرارهم على وجهة نظرهم. ومهما يكن من شيء فقد اعلنت بريطانية استعدادها لأن تسحب قواتها من القاهرة والاسكندرية الى منطقة القنال، وان تستدعي جميع الضباط البريطانيين العاملين في الجيش المصري، وان تتخلى عن كل حق لها في الدائرة الاوروبية في وزارة الداخلية المصرية.

الوفد يعود الى الحكم

واذْ كان الملك راغباً في تصديق المعاهدة مع بريطانيا فقد تعيّن عليه ان يوافق على اجراء انتخابات جديدة؛ فنال الوفد — كما كان متوقعاً — اكثرية ساحقة هذه المرة ايضاً، واضطر الملك الى ان يعهد الى النحاس باشا في تأليف الحكومة. وفي ٣١ آذار (مارس) سنة ١٩٣٠ استأنف رئيس الوفد المفاوضات، في لندن، لعقد معاهدة مع بريطانيا. ولما كان سَلَفُهُ قد حصل على معظم ما تصبو اليه مصر، فقد أفرغ همته كلها لحل مسألة السودان. ولكنه أصرَّ على ان تكون هجرة المصريين الى السودان غير محددة منذ اليوم، وأراد بادىء الأمر ان لا يعترف بحكم بريطانية ومصر للسودان حكماً ثنائياً الا لمدة عام آخر فحسب. من أجل ذلك اضطر الى ان يعود الى الوطن مجرراً أذيال الخيبة؛ وما هي الا فترة قصيرة

حتى أقال الملك وزارته . فحلّ محله في الحكم اسماعيل صدقي باشا زعيم حزب الشعب . والواقع ان صدقي باشا تمكن ، بواسطة قانون للانتخاب جديد ، من إقصاء الوفد عن البرلمان ، واضطلع بمهام الحكم كتابع للملك الى ان اضطر سنة ١٩٣٣ الى الاستقالة لأسباب صحية . حتى اذا مرض الملك ايضاً تعاظم نفوذ رئيس ديوانه غير المسؤول الى درجة بعيدة اضطرت رئيس الوزراء الجديد ، يحيى باشا ، الى طلب المساعدة البريطانية ضدّه . عندئذ هبت عاصفة من الاستياء الشعبي طوّحت بالوزارة واضطر الملك الى ان يعهد الى خَلَفِه ، [محمد توفيق] نسيم باشا ، في وضع قانون الانتخاب الذي الغاه صدقي باشا موضع التنفيذ . وهكذا عاد الوفد الى الحكم ، كرّةً اخرى .

معاهدة سنة ١٩٣٦

وبينا كانت السياسة الداخلية المصرية تُنفق طاقتها كلها في صراع حزبيّ كثيراً ما قرّرت مظاهرات الطلاب نتائجه ، رأت مصر وبريطانية الى مصالحهما المشتركة في السودان مهدّدة بالخطر بسبب من مطامع إيطالية في الحبشة . ذلك أنّ تمركز دولة اجنبية قوية في تلك الديار خليقٌ — بمساعدة الاساليب العلمية الحديثة — بأن يهدّد احد روافد النيل الهامّة ، الذي ينبع من بحيرة تانا . والواقع ان الاحزاب المصرية لم تكد تدرك هذا الخطر الذي تعرض له مورد من اهم موارد الثروة الوطنية حتى اجتمعت في جبهة متحدة ابتغاء إبلاغ المفاوضات ، التي تعثرت غير مرّة ، الى غاية اخيرة . وفي ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ طلب زعماء الاحزاب المتحدة الى المندوب السامي ، السير مايلز لامبسون * دعوة الحكومة البريطانية الى استئناف المفاوضات . فما كان من هذه الحكومة إلا ان اعلنت رغبتها في ذلك اذا كان الجانب المصري مستعداً لأن يبحث بادىء

---

* Miles Lampson

ذي بدء المسألتين الأبلغ اهمية : مسألة تنظيم الجيش ، ومسألة السودان . وكان علي ماهر باشا ، الذي انسحب من حزب الاتحاد ، قد وُفق في الوقت نفسه الى تأليف وزارة حيادية كفَتْ زعماء الاحزاب مؤونة الخوف من تقديم الحساب عن نتائج المفاوضات الى الناخبين . وفي ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٣٦ اجتمع الوفد البريطاني المفاوض ، برئاسة مايلز لامبسون ، والوفد المصري المفاوض ، برئاسة النحاس باشا ، في القاهرة ؛ وكان الوفد المصري يتألف من سبعة اعضاء وفديين [عدا النحاس باشا] وستة اعضاء من الاحزاب الأخرى بينهم ثلاثة رؤساء وزارة سابقين : هم [محمد] محمود ، و[اسماعيل] صدقي ، و [ابراهيم] يحيى . وفي ٢٦ آب (اغسطس) وقعت المعاهدة في لندن ، ثم صدّق عليها البرلمان المصري في ١٥ و ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ، والبرلمان البريطاني في ٢٤ و ٢٥ من الشهر عينه . وقضت هذه المعاهدة بوضع حد للاحتلال البريطاني لمصر نهائياً ، على ان تحتفظ بريطانية بعشرة آلاف جندي على [ضفتي] قناة السويس (منطقة القنال) للدفاع عنها . وإقراراً بسيادة مصر المطلقة قضت المعاهدة بأن يمثل بريطانية ، منذ اليوم ، في القاهرة ، سفيرٌ له حقّ التقدّم على ممثلي الدول جميعاً ؛ كما قضت بأن تكفل بريطانية انضمام مصر الى عصبة الأمم . ليس هذا فحسب ، بل لقد عُقدت محالفةٌ بين البلدين وتعهد كلٌّ منهما بأن لا يعقد مع اية دولة أخرى معاهدات تضر بهذه المحالفة . وفي حال الحرب تعهدت مصر بأن تضع جميع موارد البلاد تحت تصرف بريطانية ، وان تفرض عند الاقتضاء الأحكام العرفية والرقابةَ على المطبوعات . كذلك تعيّن على مصر ان تنشىء شبكة خطوطها الحديدية وفقاً لوجهات النظر السّتراتيجية التي تراها بريطانية ضرورية . اما ادارة السودان فقد أبقيت في يد حاكم عام تعيّنه بريطانية وتخضع له القوات المصرية أيضاً ، من غير ان يكون في ذلك مَساسٌ بمسألة السيادة المصرية على السودان . ولقد حُرّرت هجرة المصريين الى السودان من

جميع القيود إلا اذا حالت أحوال الصحة والامن العام دون ذلك . واخيراً أعلنت بريطانية استعدادها لتأييد مصر في الغاء الامتيازات الاجنبية ابتغاء التخلص نهائياً من المحاكم المختلطة . اما مدة المعاهدة فقد جُعلت عشرين عاماً ، على ان تُرفع جميع الاختلافات الناشئة بين البلدين ، بعد انقضاء هذه المدة ، الى مجلس عصبة الامم .

انشقاق الوفد ونشوء « الهيئة السعدية »

بهذه المعاهدة تحرّرت مصر آخر الأمر من الحكم الاجنبي ؛ وعلى الرغم من ان مركزها الدولي ظل مرتبطاً اشدّ ما يكون الارتباط بسياسة بريطانية الخارجية فليس من شك في ان سبيلها الى التطور الداخلي أمسى منذ اليوم رحباً طليقاً . بيد ان هذا التطور ظلّ مرهوناً بالنزاع الحزبي . والواقع أن الوفد — الذي استطاع زعيمه ، النحاس ، ان يحقّق للشعب المصري استقلاله المنشود منذ وقت طويل — ما لبث ان غالى في اصطناع ما تمّ له من نفوذ عظيم . فقد عمد الى إنشاء « القمصان الزرقاء » من بين الشباب المنضوين تحت لوائه ، وهو حرَس قُصد به الى تقليد احدى المنظمات المشهورة ، في ذلك العهد ... والحقّ ان رَغبة النحاس في التفرّد بالرأي ... أدّت آخر الأمر الى أن ينفضّ من حوله نفرٌ من اقدم اعوان سعد ، بقيادة الدكتور احمد ماهر — أخي علي ماهر باشا — والنقراشي باشا ؛ وقد انشأ هؤلاء حزباً جديداً تسمّى بـ « الهيئة السعدية » (نسبة الى سعد زغلول) .

وفي ٢٨ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٦ توفي الملك فؤاد ؛ وكان ابنه [الأمير] فاروق ، المولود في ١١ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ ، يتلقى دروسه في الكلية الحربية البريطانية في وولتش * وقد تولى شؤون البلاد ، خلال السنة الاخيرة التي سبقت بلوغه سنّ الرشد ، مجلس وصاية ، حتى

---

* Woolich

اذا انتهى شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧، وتولى الملك فاروق سلطاته الدستورية، ادرك في الحال ضعفَ الوفد الذي حقّق مهمته التاريخية بما ضمن لمصر من استقلال... وفي ٣٠ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٧ أقال الملك رئيس الوزراء النحاس باشا، داعياً محمد محمود باشا — رجل الدولة المحنّك — الى تأليف الحكومة. وفي ٢ شباط (فبراير) ١٩٣٨ حلّ البرلمان أيضاً، وكان الوفد ممثلاً فيه بمئة وسبعين عضواً يؤلفون اكثرية بلغت اربعة اخماس المجموع. حتى اذا جرت الانتخابات الجديدة في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) سنة ١٩٣٨ رجع منهم الى المجلس ثلاثة عشر فقط، لم يكن فيهم زعيمهم النحاس وابرز اعوانه. وسعى حزب «مصر الفتاة» بزعامة احمد حسين المحامي إلى ان يجمع شمل الشباب المصري، من اوساط الطبقة المتوسطة بخاصة،... وان يلهب حماستهم في سبيل حركة وطنية مغالية موجهة ضد الاجانب. وقد عارض هذا الحزب «قمصان الوفد الزرقاء» بمنظمة «القمصان الخضراء» التي حلت قبيل نشوب الحرب سنة ١٩٣٩ [١٧٤]. وقد ابدت الحكومة الجديدة رغبتها في رفع مستوى الحياة لأبناء الشعب جميعاً، وفي تحسين حال الفلاح، قبل كل شيء، بتخفيض الضريبة على الاراضي وبناء منشآت الري، كما اعلنت رغبتها في حماية الصناعة الوطنية بضرائب جمركية تفرضها على المنسوجات القطنية التي كانت اليابان — بالاضافة الى بريطانية — قد اغرقت بها الاسواق المصرية. ومهما يكن من أمر فقد واصلت العمل على التخلص من «الوصاية» البريطانية، فضاعفت — كدليل على ذلك — عدد افراد الجيش المصري ليبلغ اربعين الف مقاتل. وليس من شك في

(١٧٤) للاطلاع على برنامج هذا الحزب انظر: B. Spuler in the **Orientnachrichten, IV, 18** (of Sept. 16, 1938, p. 281)

وانظر ايضاً A. Fischer, **Die politischen Parteien Agyptens in Forschungen und Fortschritte,** 1938, pp. 279 - 281.

ان زعامة مصر في الحقول الثقافية وفي الدوائر الاسلامية ـ تلك الزعامة المعترف بها منذ عهد طويل ـ خليقة بأن تنمو تبعاً لتعاظم سلطانها السياسي لتحقق ، آخر الامر ، أيضاً هدفاً ما فتئت ترنو اليه من زمن بعيد : أعني التحرر من وصاية أوروبا العقلية .

شبه جزيرة العرب

الشريف حسين – آل سعود وآل رشيد

كانت شبه جزيرة العرب. – المنتظمة اسمياً في الامبراطورية العثمانية – قد تجزأت عند نشوب الحرب العالمية الاولى الى دويلات عديدة. كان الحجاز، وعاصمته مكة، خاضعاً لحكم الشريف حسين بن علي بن عون، من البيت الهاشمي، الذي كان يقيم في استانبول منذ عام ١٨٩٣ « ضيفاً » على السلطان عبد الحميد، والذي مكنه رجال تركية الفتاة، سنة ١٩٠٨، من استعادة تراث أسلافه، آل الرسول. أما نجد فكان موزعاً بين إمارة شمّر – واصحابها آل رشيد، وعاصمتها حايل – وبين الوهابيين وعاصمتهم الرياض. ونحب ان نجتزىء هنا من تاريخ آل رشيد الحافل – كتواريخ الأسر العربية الحاكمة، في العادة – بالمنازعات العائلية، نقول نحب ان نجتزىء من ذلك كله بالنص على أن اعظم رجال هذه الاسرة، محمد بن عبد الله بن رشيد (١٨٧٢ – ١٨٩٧) وُفّق بمساعدة الاتراك الى ان يقضي على سلطة آل سعود، وهم الأسرة الأعرق في الرياض. وأياً ما كان، ففي عهد ابن اخيه وخليفته عبد العزيز بن مُتْعَب استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سَعود – الذي كان قد التجأ الى حمى

الشيخ مبارك صاحب الكويت الخاضعة لبريطانية — ان يسترد بمساعدة هذا الاخير حاضرة أسرته ، الرياض ، سنة ١٩٠٢ حتى اذا توفي عبد العزيز ابن متعب سنة ١٩٠٦ خلفه ابنه سعود ، بعد منازعات متطاولة . ولكن بينا كانت روح الوهابية القديمة قد انطفأت ، او كادت ، في إمارة ابن رشيد هذا ، وفق عبد العزيز بن سعود الى بعث هذه الروح من طريق تأسيس جماعة « الأخوان » ، سنة ١٩١٠ . والحق انه فرض على اتباعه هؤلاء التقيد التام بقواعد الشرع الاسلامي . وكما دربت الطريقة السنوسية اعضاءها على حياة العمل المنتج بأكثر مما دربتهم على حياة التأمل الصوفي * كذلك أسكن ابن سعود « إخوانه » — الذين كانوا يؤلفون آنذاك جيشه النظامي — في مستعمرات زراعية في اجزاء من نجد خصبة نسبياً محدثاً بذلك ، في وسط الحياة البدوية ، المراكز الاولى للتنظيم السياسي . وفي سنة ١٩١٣ أفاد من ضعف الامبراطورية العثمانية ، المنهمكة في حرب البلقان ، فاستولى بالاتفاق مع حكومة الهند البريطانية ، على مقاطعة الأحساء المحاذية لممتلكاته ، من جهة الشرق ، والخاضعة حتى ذلك الحين لسلطة [والي] بغداد [العثماني] . وهكذا انتهى الى ان يملك منفذاً الى البحر . وبدلاً من ان تعاقبه الدولة العثمانية على هذا الصنيع ، سعت لاكتسابه الى جانبها فسمته والياً على نجد من غير ان تفرض عليه أيما التزام .

احمد الإدريسي في عسير

اما منطقة عسير الجبلية الواقعة جنوبيّ الحجاز ، والتي حاول محمد علي إخضاعها على غير طائل فكانت مستقلة استقلالاً تاماً ، رغم بقائها اسمياً ، جزءاً من الامبراطورية العثمانية . وفي اواخر القرن الثامن عشر استقرّ في تلك الديار احمد الادريسي ، وهو علويّ من الفرع المراكشي ، بعد ان ادّى فريضة الحج الى مكة . وسرعان ما نظر اليه سكان المنطقة —

---

* راجع القسم الرابع من هذا الكتاب .

وهم على مستوى ثقافي وضيع — نظرتهم الى وليّ او قدّيس ، مما ضمن لخلفائه شبهَ سلطةٍ سياسية . والواقع ان احد هؤلاء ، السيد محمد الذي تلقى علومه في الجامعة الازهرية بالقاهرة ثم عاش فترةً مع السنوسية في كُفْرَة من اعمال برقة ، جمع شملَ أتباعه في الاراضي الجبلية ونظّمهم تنظيماً اكثر صرامةً . وفي سنة ١٩٠٩ ابى الخضوع للاتراك — وكان آنذاك في الخامسة والثلاثين — فهُزم هو وحليفُهُ الامام يحيى إمام الزيدية ؛ ولكنه وُفق — شأن حليفهِ ايضاً — الى ان يحرّر نفسه [من العثمانيين] آخر الامر بمساعدة الايطاليين .

الصراع بين الإمام يحيى والأتراك

وفي اليمن المجاورة لعسير ، وفقت السلالة الزيدية الى التمكين لنفسها في البلاد على الرغم من ان الاتراك ما انفكوا يحاولون ، منذ سنة ١٨٥٠ ، إخضاع الديار اليمنية . وبعد ان ادركت حكومة عبد الحميد ، خلالَ المعارك الضارية التي خاضتها هناك سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ، ان هذه الولاية النائية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة ، اعلنت استعدادها لان تُطلق يد الامام يحيى في حكم الاقسام الداخلية الجبلية منها . بيد ان رجال تركية الفتاة رأوا في هذا التخلي إهانةً للشرف الوطني ، فاستأنفوا الصراع حتى اضطروا في تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١١ الى توقيع معاهدة صلح ، مع الإمام ، بالشروط نفسها .

وفي المناطق الساحلية الممتدة على شواطىء المحيط الهندي والخليج الفارسي ، من حَضْرَمَوت الى عُمان ومن هناك الى الكويت ، كان يُقيم عددٌ من الحكام الثانويين العرب الذين دعوا أنفسهم سلاطين أو شيوخاً ، والذين خضعوا جميعاً خضوعاً مباشراً حيناً وغير مباشر حيناً لبريطانيا العظمى التي مكّنت لنفسها في عَدَن ، منذ سنة ١٨٣٩ ، والتي كانت مَعْنيّة الى ابعد الحدود بسلامة طرقها البحرية الى الهند ؛ حتى

في الخليج الفارسي .

المراسلات بين الشريف وماكماهون ، واتفاقية سايكس بيكو

وكان الشريف حسين – الذي ادرك خلال اقامته الاجبارية في استانبول ما كانت عليه الدولة العثمانية من ضعف – قد سعى منذ ربيع ١٩١٤ الى الاتصال بالبريطانيين في مصر ، بواسطة ابنه عبدالله ، رجاةً ان يساعدوه على الاستقلال عن دولة الخلافة . فلما دخلت تركية الحرب أعلن استعداده لأن يُصمّ اذنيه دون دعوة « شيخ الاسلام » الى الاشتراك في الجهاد أو الحرب المقدسة . ولكن بريطانية كانت تطمع في ان تستدرجه الى المشاركة الفعلية في الحرب ضد الاتراك بعد أن اخفقت في محاولتها حملَ عبد العزيز ابن سعود على مثل ذلك . وهكذا شرعت توزّع بواسطة الطائرات والسفن الحربية ، نشرات الدعاية على الأهلين ، داعمةً حملتها بمنع استيراد القمح المصري الذي كان الحجازيون في أمسّ الحاجة اليه . وفي تموز (يوليو) سنة ١٩١٥ انتهى الشريف حسين الى ان يكون مستعداً ، شخصياً ، للدخول في مفاوضات مع المندوب السامي البريطاني في مصر [السير هنري] ماكماهون . وفي مذكرة بعث بها إلى ماكماهون في ١٥ تموز (يوليو) تكلم الشريف باسم الأمة العربية وعرض على بريطانية مساعدة العرب لها اذا ما وعدتهم بالاستقلال في كامل الرقعة الممتدة من مرسين الى اطنه في الشمال الغربي حتى الحدود الفارسية [في الشرق] والمحيط الهندي [في الجنوب] ؛ وإذا اعلنت موافقتها على إنشاء خلافة عربية . ولقد اجاب ماكماهون على هذه المذكرة ، في ٣٠ آب (اغسطس) ، مؤكداً ان بريطانية لا تعارض في انتقال الخلافة الى رجل يتحدّر من سلالة الرسول ولكنها ترى انّ الوقت لم يحن بعد لتعيين الحدود النهائية لدولة عربية مستقلة لا سيما وان كثيراً من العرب لا يزالون يحاربون في صفوف الاتراك .

وعلى الرغم من ان مراسلات[١٧٥] الشريف حسين ـ ماكماهون تطاولت حتى نهاية كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ من غير ان يحصل الشريف على ايمّا وعد قاطع (وإنما ارجأ ماكماهون التقيّد بمثل هذا الوعد مراعاة للمصالح الفرنسية) على الرغم من ذلك فقد تعهد الشريف بان يحرّض القبائل الخاضعة له والقبائل الموالية أيضاً، على ان تخوض الحرب ضد الاتراك كما تعهد بأن يشارك هو في هذه الحرب بقواته الخاصة. والواقع ان ابنه فيصلاً اجترأ على اقتحام عرين الاسد إذ أقام في دمشق، ابتداء من كانون الثاني (يناير) بسنة ١٩١٥، ضيفاً على القائد التركي [احمد جمال الدين [جمال باشا] ، حيث أفاد من صلاته السابقة بجمعية الضباط العرب، «العهد العربي» وزملائهم في التآمر على الدولة العثمانية، اعني اعضاء جمعية «الفتاة» المدنيين، بسبيل التحريض على خلع النير العثماني. ولكن الشريف حسين حُرم ثمرات النصر الموعودة، حتى قبل ان يوفق الى الخروج على سيده السلطان العثماني، بحكم الاتفاق الذي عقد في بطرسبرج، نوار (مايو) ١٩١٦ بين وزير الخارجية الروسي، سازونوف، *

(١٧٥) هذه المراسلات التي اقتبس ايرلند Ireland بعضها في كتابه (Iraq. pp. 68-69) من المحفوظات البريطانية دون غيرها إنما نشرت اول ما نشرت كاملة في كتاب «يقظة العرب» The Arab Awakening لجورج انطونيوس (لندن، ١٩٣٨ ص ٤١٣ – ٤٢٧) وفي كتاب أبيض نشرته الحكومة البريطانية، في أوائل آذار (مارس) سنة ١٩٣٩، أثناء انعقاد مؤتمر فلسطين في لندن. وحتى في المذكرة الأخيرة المؤرخة في ٣٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ يكتفي ماكماهون بمجرد إعلان استعداده لدرس مسألة ولاية بغداد بعد النصر النهائي، وارتياحه لاعتراف الشريف حسين بالتزامات بريطانية تجاه فرنسة. و. ت. ا. لورنس ايضاً لا يشير في كتابه الأخير «أعمدة الحكمة السبعة» (لندن، ١٩٣٥ ص ٦٦ وما بعدها) الى ايما وعود اخرى ارتبط بها ماكماهون. وليس عجيباً ان تكون بريطانية قد ارتأت، فيما بعد، ان تذكر هذه الالتزامات بالنسبة الى فرنسة. ونحن نشك في ما إذا كان النص المنشور في مجلة المنار العربيـة مجلد ٢٥ العـدد ١ (القاهرة ١٩٢٤) والترجمـة الألمانيـة المبنيـة على أساسه في Mitteilungen des orient. Seminars zu Berlin, II, 130 - 131, يمكن ان يعتبر معاهدة مصدقاً عليها. انظر ايضاً: W. Ireland, Iraq, p. 177, n. 4.

* Sazonov

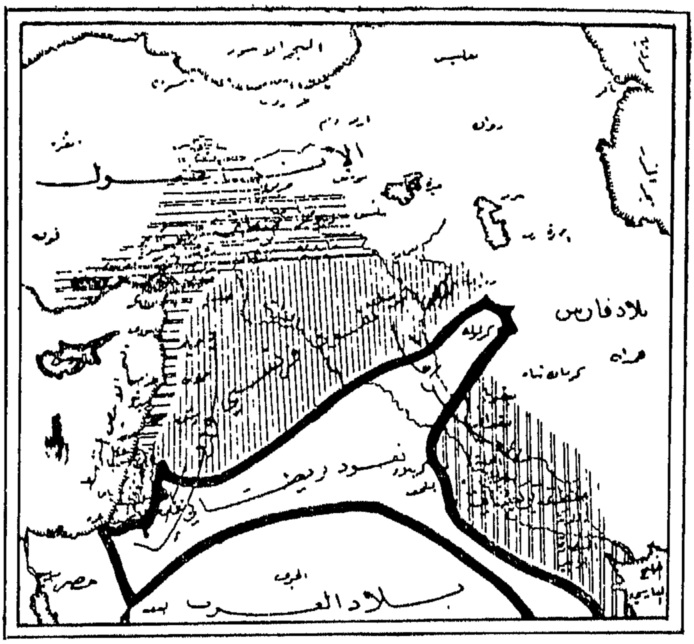
والخبير البريطاني في الشؤون الشرقية مارك سايكس * والقنصل الفرنسي العام السابق في بيروت ، ف. جورج بيكو ، ** والذي رسم الخطة لاقتسام الامبراطورية العثمانية في المستقبل. والواقع ان اتفاقية سايكس – بيكو هذه ، التي لم تطبق الا على الولايات العربية ، بعد خروج الروسيا من التحالف الثلاثي ، نصّت على ان تقام في فلسطين إدارة دولية ، وعلى ان يكون الجزء الساحلي الواقع الى الشمال حتّى خط ممتد على محاذاة دمشق وحمص وحلب منطقة نفوذ فرنسي ، كما نصت على ان يكون العراق من نصيب بريطانية ، في حين تُنشأ دولة عربية مستقلة او اتحاد عربي مستقل في الاراضي السورية الداخلية الواقعة ضمن هاتين المنطقتين وفي ولاية الموصل ليس غير.

الثورة العربية

ومهما يكن من أمر فان الحرب الضارية في سبيل الاستيلاء على الدردنيل ، والحرب في العراق ، حيث نزلت ببريطانية اول الامر خسائر جسيمة ، لم تساعدا بادىء الرأي على وضع المفاوضات التي كانت تدور مع الشريف حسين موضع التنفيذ.

حتّى اذا جرى الجلاء عن غاليبولي بدا من المستحسن دعوة قوات الحجاز الى العمل ، وكان الجنرال موري *** قائد الجيوش العاملة في مصر لا يتوقع منها ، بادىء الأمر ، خيراً كثيراً. وكان فيصل قد قفل في هذه الاثناء الى بلاده ، فهو يهدّد المدينة (يثرب) التي ما برح الأتراك يحتلونها ، بجيش من أعراب جبل صُبْح ؛ في حين كان عزيز علي المصري – العربي الجركسي الاصل ، والأميرألاي السابق في الجيش التركي – يعمل على

* Mark Sykes
** F. G. Picot
*** Murray



اتفاقية سايكس – بيكو

تدريب المتطوعين من سورية والعراق في واحة رابـــغ الواقعة في نقطة أبعد الى الجنوب . ولأدارة هذه الحركة العربية وجّه المكتب العربي في القاهرة ب. إ. لورنس ، الى الحجاز ، وقد اشتهر لورنس هذا في ما بعد بما وضع من كتب ذات صدى أدبي بالغ ، روى فيها مغامراته[١٧٦] وكاد يصبح بطلاً قومياً عند الشباب البريطاني . وادرك لورنس ، في الحال ، ان فيصلاً – اكثر ابناء الحسين إقداماً – يحتل موقعاً هو اصلح ما يكون للنضال ضد الاتراك ، فالتحق به ؛ ولكنه لم يكد يبلغه حتى اضطر الى التراجع في وجه الاتراك والانسحاب الى ثغر ينْبُع . وعزم فيصل ، عملاً باقتراح لورنس ؛ على ان يحشد قواته في موقع ابعد الى الشمال ،

(١٧٦) منها : **Revolt in the Desert,** London 1927 ; **Seven Pillars of Wisdom,** London, 1935.

قرب الوجه ليكون في ميسوره ، من ثم ، مهاجمة الخط الحديدي الحجازي في سهولة بالغة . وبينا كان موري يرجو أن يرى القوات التركية تباد وهي تتراجع من الوجه ، كان لورنس يطمع في الاستيلاء على نقطة اعتماد شمالية أبعد . وفي حين ظل فيصل في الوجه ، وفق لورنس الى ان يشن على ثغر العقبة هجوماً مفاجئاً ، فيحتله في ٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٧ بمساعدة [الشريف ناصر] ومن هناك كان يطمع في ان ييسر لأللنبي الزحف للتقدم الى شبه جزيرة سيناء وفلسطين وفي ان يحمي له ميمنة جيوشه . حتى اذا اضطر اللنبي الى نقل قواته الى الفلاندرز بعد الاستيلاء على القدس ارجأ لورنس زحفه وانقلب الى فيصل ليُعدّ للهجوم على المدينة (يثرب) وبذلك يحوّل القوات التركية عن الجبهة الفلسطينية جهد الطاقة . وبعد ان قُطع الخط الحديدي الحجازي في ثلاث نقاط ، شنّ اللنبي هجوماً مفاجئاً على الاتراك ، في فلسطين ، وطردهم عبرَ الأردنّ . عندئذ زحف لورنس و [فيصل] شمالاً ، فوفّقا الى دخول دمشق في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ ، بقواتهما التي أُمدت بفرقة من الاوستراليين .

بريطانيا تخذل الحسين وابن سعود يستولي على الحجاز

وبينا كان فيصل وعبدالله يقاتلان الاتراك في الميدان كان ابوهما ، الحسين ، منهمكاً في توطيد سلطانه في الحجاز . من أجل ذلك أوحى الى اشراف مكة بالمناداة به « ملكَ العرب » (٢٩ تشرين الاول « اكتوبر » سنة ١٩١٦) [١٧٧] وَقَبِلَ منهم البيعة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) جرياً على العادة القديمة . وانما قصد بذلك الى أن يؤكد ، من اول الطريق ، الحقوق المنصوص عليها في المعاهدة التي حسِبَ انه عقدها مع ماكماهون .

---

(١٧٧) ذكر ستروثمان Strothmann في Islam XVII, 38, اعتماداً على توينبي Toynbee ان المناداة بالحسين ملكاً على العرب لم تتم إلا بعد فتح دمشق في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ . والواقع ان هذا يتناقض مع ما جاء في المصادر الأخرى . انظر E. Topf, p. 23 و Antonius, p. 213 .

ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة امل مريرة ؛ إذ لم تعترف به بريطانية وفرنسة وايطالية إلا بوصفه ملكاً على الحجاز ، وذلك في مذكرة مشتركة قدمتها إليه في ٣ كانون الثاني (يناير) . ولقد كانت هذه البادرة كافية لأن تُظهر له انه غالى في تقدير قوّته الفعلية بأحلام رومانتيكية عن عظمة بيته [الهاشمي] ، كما اخطأ في تقدير مركزه في شبه جزيرة العرب . والواقع ان عبد العزيز ابن سعود ، كان قد انتهى ، في هذه الاثناء كما سنرى بعد قليل ، الى ان يبسط سلطانه على نجد . فلم يكن في مكنته ان يُقرّ بدعوى الحسين السيادةَ على بلاد العرب ؛ وليس من شك في انه لم يكن في حاجة الى ان يحرّضه خالد بن لُؤَيّ ، ابنُ عم الحسين وعدوّه ، على مهاجمة قوّات هذا الاخير . وفي ١٩ نوار (مايو) ١٩١٩ انتصر انتصاراً حاسماً في تَرَبَة (تُرَبَة) قرب الطائف ، على قائد هذه القوات الامير عبدالله [بن الحسين] . وبدلاً من أن يعمد الحسين الى غسل هذا العار ، الذي انزل بنفوذه في شبه الجزيرة ضربةً قاسية ، وجّه اهتمامه الكامل نحو مؤتمر السلام في باريس — وكان لا يزال يأمل في ان يقر ذلك المؤتمر مطالبه . حتى اذا خاب أمله في المؤتمر أشدّ ما تكون الخيبة أبى أن يعترف بمعاهدتي فرساي وسيفر ، ولكن رفضه هذا لم يَعدْ عليه بغير نتيجة واحدة : هي عدم دعوته الى الاشتراك بمؤتمر لوزان . وبعد ان انتهى ساسة بريطانية ورجالها العسكريون ، في مؤتمر عقدوه بالقاهرة ، آذار (مارس) سنة ١٩٢١ ، من وضع القواعد العامة لمعالجة المسألة العربية ، أرسل ب. إ. لورنس الى ثغر جُدة في آخر آب (اغسطس) لعقد معاهدة مع الحسين . والواقع ان بريطانية كانت تريده على الاعتراف بالانتداب الذي فُرض في تلك الاثناء على كل من سورية والعراق في سان ريمو ، وذلك مقابل ما قدمته حتى ذلك الحين من معونة مالية متصلة ، ومقابل الوعد بحمايته من كل هجوم قد يُشنّ عليه في الحجاز . ولم يكن في وسع الحسين ان يرضى بذلك ، على الرغم من انه ما كان يتوقع ان يحصل بعد اليوم على عُروض

اخرى . وهكذا تطاولت المفاوضات حتى صيف سنة ١٩٢٤ ، لتُخفق آخر الأمر بسبب رفضه الاعتراف بالانتداب على فلسطين بعد ان كان قد ارتضى بالوضع في سورية والعراق . ونستطيع ان ندرك الى أي حد كان الحسين لا يزال يخطىء في تقدير مركزه اذا علمنا انه نزل ، نصف كاره ، عند رغبة ابنه عبدالله الذي كان البريطانيون قد نصبوه في اثناء ذلك اميراً على شرقي الاردن ، فارتضى خلال زيارة قام بها الى مقر ابنه هذا في الشؤون لقبَ الخليفة ، وكان منصب الخلافة قد خلا [بنفي آخر الخلفاء العثمانيين عبد المجيد الثاني والغاء منصب الخلافة على ايدي الكماليين] ولكنه لم يوفق الى ان ينتزع اعتراف السوريين انفسهم بخلافته هذه ، بله الهنود المسلمين الذين لم يغفروا له يوماً خروجه عن طاعة السلطان العثماني . ومهما يكن من امر فقد كانت مكانته في العالم الاسلامي آخذة في التضاؤل بسبب من تقاعسه عن وضع حد لاستغلال الحاج الى مكة ــ وهو استغلال يرقى الى عهود سابقة جداً ، على كل حال ــ وبسبب من إحجامه عن تحسين الادارة في البلاد . والواقع ان ادعاءه الخلافة اعطى عبد العزيز ابن سعود ذريعةً لحربه كمبتدع * ، حتى اذا تطلع الحسين الى البريطانيين يلتمس منهم المساعدة عليه اكتفوا بالتخلي عنه لصالح القوة الجديدة الناهضة في شبه الجزيرة . وفي الاسبوع الاخير من آب (أغسطس) سنة ١٩٢٤ زحف الوهابيون الى الطائف فأخربوها واعملوا السيف في رؤوس سكانها . عندئذ التمس اهل مكة من الحسين ان يتنازل عن العرش ، فحوّل السلطة الى عليّ ، اكبر ابنائه ، وفرّ الى العقبة . ولكن ابن سعود تابع زحفه في غير ما تردّد ؛ وفي ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) احتل نائبه في القيادة ، الشريف خالد بن لؤيّ ، مكة . أما هو نفسه فلم يدخل المدينة المقدّسة إلاّ في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ، بعد أن هدّأ من روع أهل السنّة الذين كانوا يخشون ان تُمثل ، كرةً أخرى ، تلك الفظائع التي رافقت

---

* heretic

استيلاء الوهابيين الأول على مكة . وأقام [الملك] عليّ في جُدّة حتى كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٥ ثمّ لاذ بأخيه [الملك] فيصل في العراق . وهكذا أعلن ابن سعود نفسه ملكاً على الحجاز في ٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٦ . وإذ كان ابن سعود يطالب بالعقبة ايضاً فقد اخرج البريطانيون [الملك] حسين منها وسمحوا له بالالتجاء الى قبرس . وفي أواخر سنة ١٩٣٠ أجيز له ان يحلّ ضيفاً على ابنه في عمان ، [عاصمة] شرقي الأردن ، حيث توفي في حزيران (يونيو) سنة ١٩٣١ فدُفِنَ في بيت المقدس . والحق أن أقدار البيت الهاشمي تجلت وانتهت في شخصه كرةً اخرى : فقد غفل آخرَ الأمر ، في غمرة من اعتقاده بحقه الالهي ، (شأنَ كثيرٍ من اجداده **العلويين**) عن كلّ اعتبار لظروف هذا العالم واحواله فذهب ضحيةَ هذا الاعتقـــاد .

عبد العزيز يتوج ملكاً على نجد والحجاز

لما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى كان أمير الوهابيين ، عبد العزيز ابن سعود ، لا يزال منهمكاً الى أبعد الحدود في تنظيم إمارته تنظيماً داخلياً ؛ من اجل ذلك لم يرغب في تعريضها للخطر من طريق الوفاء الدقيق لالتزاماته كوال تركيّ . وإذ كانت توجيهات شكسبير ، قنصل بريطانية في الكويت ، ذات أثر في نفسه ، فقد ناصر الاتراكُ سعوداً الرشيدي عليه ، خاصة بعد ان قُتِل زامِل [السَّبهان] وكان وصياً على سعود هذا بيد ابن عمه الطموح سعود [بن سبهان] . وإذ كان الاتراكُ يُمدون هذا الأخيرَ بالذهب والسلاح فقد نجح شكسبير آخر الأمر في دفع الوهابيين الى القتال . وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ جرت بين الفريقين معركة عند جراب . وكان ابن سعود مقتنعاً بأن النصر قد تمّ له بفضل خيالته المتفوقة عندما أُخِذَ مشاته على حين غرّة اثناء تقدّمهم في طريق أخرى . عندئذ انقضّ أعراب قبيلة العجمان ، الذين سبق له ان حرمهم مراعيَهم في الأحساء ،

على معسكره فانتهبوه ، فحقّت على ابن سعود الهزيمة ، ذلك اليوم . وقد صُرع في هذه المعركة شكسبير ، الذي لم ينسَ أن يُطلق على العدو نيران المدفع الأوحد الذي كان يملكه ابن سعود في تلك الايام . ومن ذلك الحين سلك ابن سعود طريق الحذر والتريث ، خاصة بعد أن صارت حكومة الهند البريطانية لا تُبدي اهتماماً كبيراً بميدان الحرب العربي إثر الاخفاق الأوّليّ الذي مُنيت به في العراق . وكانت المهمة المنوطة بها في الحرب ضد تركية قد أُلقيت ، اثناء ذلك ، على عاتق الشريف حسين كما قد رأينا . ولكن حكومة الهند البريطانية رأت ان من واجبها أن تضمن مساعدة ابن سعود لكي تنجح في ميدان الحرب العراقيّ ، فأرسلت سنجن فيلبي * إلى الرياض . وسرعان ما اكتسب ثقة الأمير التامة . وكانت محاولة الحسين للتوغل في نجد قد أُحبطت على يد ابن سعود في معركة تَرَبَة (تُرَبَة) ، بيد أنه تعيّن عليه ، قبل الانصراف الى تصفية حسابه مع الحسين ، أن يقضي اولاً على آل رشيد الذين كانوا يتهدّدونه من وراء . وفي حايل كان الأمير سعود قد قُتل في ربيع سنة ١٩٢٠ . فاتخذ ابن سعود من هذا الحادث ذريعة الى الهجوم على عبدالله بن متعب ، خَلَفِ الأمير القتيل . وبعد أن هُزِمَ عبدالله في نيسان (ابريل) سنة ١٩٢١ قام مقامه محمد بن طلال فدافع عن العاصمة حتى تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢١ . حتى إذا سقطت وُفّق ابن سعود الى ان يفرض سلطان بيته ، كرةً اخرى ، على بلاد نجد كلها . أما توسّعه في اتجاه الشمال فقد حُدّ بقيام دولتي سورية والعراق الخاضعتين حديثاً للانتداب . ومهما كان ، فقد وُفّق — بسبب من أن حدود الدولتين لم تكن قد عُيّنت بعد — الى ان يتقدّم في اتجاه الغرب عبر وادي السِّرحان وفي اتجاه الشرق عبر وادي الرّمة . ولكنّ إقدام الحسين ، من غير ما تبصّر في العواقب ، على ادعاء الخلافة اعطى ابنَ سعود ذريعةً — بل أعطاه الحقّ ، في نظر المؤمنين — إلى إخراجه

* St. John Philby

من عاصمة ملكه وَبسطِ السلطان الوهابيّ على الحجاز . ولكي يهدىء ابن سعود من المخاوف التي اثارها في العالم الاسلامي استيلاؤه على الديار المقدّسة — وكان المسلمون ينظرون اليه نظرتهم الى مُبتدع — فقد دعا الى عقد مؤتمر إسلامي عام في مكة ، في حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٦ ، بعد ان درس مؤتمر القاهرة الاسلامي مسألة الخلافة ، في شهر نوار (مايو) ، من غير ان ينتهي الى اتفاق ما . واذ كان عدد المندوبين الوافدين الى شبه الجزيرة كبيراً ، بحكم الطبع ، واذ قد عوّض اقبال الوفود من الروسيا وافغانستان وجاوه والسودان عن غيبة وفود افريقية الشمالية ؛ فقد انتظم مؤتمر مكة ضِعفَ عدد الوفود المشتركة في مؤتمر القاهرة (٦٠ مقابل ٣٠) . والواقع ان سياسة الوهابيين الحصيفة قد ساعدت على نجاح المؤتمر في منح الفرق الدينية المختلفة حقوقاً متساوية في الكعبة والحرم ، ومن ثم في ضمان حرية الحاج من جميع اطراف العالم الاسلامي على الرغم من ان المؤتمرات الدورية التي وعد المؤتمر بعقدها والتبرعات التي أقرّ المؤتمر فرضها وجمعها لتلك الغاية لم تثمر البتة [١٧٨] . وفي سنة [١٩٢٧] نودي بابن سعود ، في مكة ، ملكاً على نجد والحجاز .

النزاع بين ابن سعود والامام يحيى

والحق ان سياسة ابن سعود الخارجية انما قُررت بادىء الأمر على ضوء علاقاته بجيرانه في الجنوب . ففي عسير كان الخلاف قد نشب بين وارثي السيد محمد [الكبير] المتوفى سنة ١٩٢٣ ، فما كان من الامام يحيي [حميد الدين] الزيدي الا أن افاد من هذا الوضع فاحتل المنطقة الساحلية ، وفيها ثغر الحُدَيْدَة الهام ، الذي كان البريطانيون قد جلوا عنه في ٣١ كانون

(١٧٨) انظر آشيل سكالي Achille Sekaly, Le Congrès du Khalifat et le Congrès du Monde Musulman, Paris, 1926. (Collection de la Revue du monde musulman) .

الاول (يناير) سنة ١٩٢١ . عندئذ التمس شيوخ عسير ، دفعاً لهذا العدوان ، المساعدة من ابن سعود واضعين بلادهم تحت حمايته بموجب معاهدة عُقدت في مكة في [٣١] تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٦ .

وكان الامام يحيى قد انشأ ، في أثناء ذلك ، علاقات مع ايطالية التي ، كانت تطمع في وقاية الصومال الواقع تحت استعمارها ، من الساحل المقابل والتي كانت قد اكتسبت ، منذ عهد طويل ، مركزاً تجارياً في اليمن . وفي ٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٦ عقد معاهدة صداقة مع ايطالية وعَدَ فيها بتشجيع المشاريع الايطالية وبالاشتراك في مكافحة تجارة الرقيق اذا ما ساعدته ايطاليا اقتصادياً وقدمت له ما يحتاج اليه من الاسلحة الحربية . وفي اول حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٧ زار ولي العهد ، سيف الاسلام محمد ، مدينة روما لمفاوضة رجال الصناعة الايطاليين . والواقع ان الامام بالغ في تقدير المساعدة المتأتية عن هذه الطريق ، وكان يعتقد بادىء الأمر ان في ميسوره أن يبسط سلطانه على منطقة عَدَن الداخليـــة ، على حساب البريطانيين . وإذ كانت بريطانية غير مَعْنيّة في الواقع إلا بثغر عدَن نفسه فقد رغبت بادىء الأمر في الوصول الى تسوية ، على الرغم من ان الامام ما انفك يهاجم محميتها ؛ ولم تلجأ الى استعمال اسطولها الجوي إلا عندما طالبَ بتخليّها عن جميع الاراضي التي كانت تابعةً في ما مضى ، لليمن . ومع ان الامام جلا عن جزء من الاراضي التي احتلها فقد امتنع فترةً طويلة من الزمان عن عقد معاهدة مع بريطانية ، بل لقد ثبّته في مقاومته وفد تجاري سوفياتي . والواقع انه لم يرتضِ عقد هذه المعاهدة إلا عندما وجد نفسه مهدداً من جانب ابن سعود . ذلك بأن الحدود المشتركة بين اليمن وعسير ، الواقعة تحت الحماية الوهابية ، كانت دائماً مثار احتكاك واصطدام حتى لقد اضطرّ ابن سعود الى ان يقوم بعمل حاسم . وهكذا زحفت جيوشه ، في مطلع سنة ١٩٣٤ ، زحفاً سريعاً فاحتلت الاقسام الداخلية من تهامة بالاضافة الى الحُدَيدة . ولكن ابن سعود اكتفى في معاهدة الصلح المعقودة في الطائف ،

في ٢٠ نوار (مايو) سنة ١٩٣٤ ، باعتراف اليمن بحدوده فلم يطالب بضمّ ايما اقليم جديد الى ممتلكاته .

سياسة ابن سعود الداخلية

والحق ان ملك نجد والحجاز كان ، ولا يزال ، معْنياً بالعمل على تدعيم سلطانه اكثر من عنايته بالعمل على توسيعه . وعلى الرغم من انه اضطر في بعض الاحيان الى ان يقمع بقوة السلاح ثورات بعض القبائل البدوية فقد كان يؤثر ، على العموم ، ان يمكن لسلطته — شأن الرسول العربيّ من قبلُ — من طريق التصاهر مع شيوخ القبائل ، يساعده على ذلك نظام تعدد الزوجات في الاسلام وسهولة الطلاق . ولكنه كان يُعنى دائماً ايضاً ، وفي نجاح ، بتعريف بلاده الى ثمرات الحضارة الحديثة مسترشداً في هذا المضمار بنصائح سنجن فيلبي الحكيمة . ولقد سبقت منا الاشارة الى إنزاله « الاخوانَ » في مستعمرات زراعية . وانما وجّه اهتماماً خاصاً نحو مسألة المواصلات ، وكانت ذات شأن كبير بسبب من طول المسافات وتباعدها . وكما عمل الفرنسيون والانكليز في سورية والعراق على إحلال السيارات ، في صور متزايدة ، محلّ قوافل الجمال — هذه القوافل التي عادت على العرب بربح طائل خلال الحرب العالمية الاولى — كذلك ادخل ابن سعود السيارة الى شبه الجزيرة . حتى لقد انتهت مواصلات الحج الى ان تكون اليوم آليّة بالكلية . ليس هذا فحسب ، بل لقد اصطنع ابن سعود ، منذ طويل ، كلاً من التلفون والراديو في دوائره الحكومية ؛ وطفق يسعى مؤخراً — وخاصةً بعد ان لمس شخصياً حسَنات الطب الاوروبي — إلى ان يجعل منافع عِلْمي الصحة والطب الحديثين في متناول رعاياه . كذلك لقيَ التعليم — الذي كان مهملاً حتى ذلك الحين في شبه الجزيرة ، باستثناء مكة والمدينة ، اهمالاً تاماً — اهتماماً وعناية من جانب العاهل السعودي .

سورية وفلسطين وشرقي الأردن والعراق

الوعي القومي والجمعيات العربية السرية

كان لثورة الحسين على الاتراك اثر كبير في إنعاش آمال العرب في طول الامبراطورية العثمانية وعرضها. بيد ان الفروق الاجتماعية والدينية كانت ما تزال تحول، حتى ذلك الحين، دون نشوء وعي قومي صحيح في سورية، فبالاضافة الى الاقليات القومية من اكراد وأرمن ومن جراكسة متشتتين في البلاد، كانت مصالح البدو والفلاحين وسكان المدن الاقتصادية متباينة تبايناً بعيداً يحول دون توحيد ابناء البلاد المتوزّعين الى سنّة وشيعة ودروز ونُصَيْرية من جانب، والى كاثوليك وموارنة ومَلكيين ويعاقبة تابعين لرومة وروم ارثوذكس ونساطرة من جانب آخر. والواقع ان الشعور بقومية واحدة تشدّ السوريّ الى السوري في نضال مشترك ضدّ الاتراك الحاكمين لم يستيقظ إلا في الاوساط الراقية، تحت تأثير الثقافة الفرنسية، التي كانت راسخة القدم منذ قرن ونيف، والافكار الديمقراطية التي نشرتها جامعة بيروت الاميركية. وبينا كبتَ حكمُ عبد الحميد الاستبدادي حرية الفكر كبتاً كاملاً، فاضطر جمهرة من السوريين، بسبب ذلك وبسبب

من تأخر البلاد الاقتصادي ايضاً ، الى الهجرة الى مصر واميركة ، نجد ان استيلاء رجال تركية الفتاة على الحكم – وكانوا يريدون جمع شتات المواطنين في انحاء الامبراطورية العثمانية كلها حول مثل أعلى دستوري جديد ، من طريق القضاء على التمييز العنصري ، ومن ثم حاربوا الثقافة العربية بعنف – قد قوّى رغبات العرب في التحرّر وتقرير المصير . وكان طبيعياً ، في مثل هذه الظروف السياسية التي شرحناها ، ان يضطر احرار العرب الى تشكيل جمعيات سرية ، على غرار ما فعل رجال تركية الفتاة أنفسهم . وفي سنة ١٩٠٤ انشأ نجيب العازوري ، السوري ، جمعية وطنية عربية غايتها سلخ الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية بمساعدة فرنسة ؛ حتى اذا أعلن الدستور اعتبر العازوري ان هدفه قد تحقق فانقطع عن نشر صحيفة « الاستقلال العربي »* التي أسسها بالاشتراك مع موظف سابق من موظفي وزارة المستعمرات الفرنسية ، إ. يونج ** . وبعيد إعلان الدستور العثماني مباشرة ألّف عدد من العرب المقيمين في استانبول جمعية دعوها « الأخاء العربي العثماني » ابتغاء تعزيز مُثلهم العليا في نطاق الدولة الجديدة ؛ ولكن هذه الجمعية حُلت بعد الانقلاب الذي قام به عبد الحميد . وخوفاً من المصير نفسه فقد اسس الموظفون والنواب والكتاب العرب في استانبول ، صيفَ سنة ١٩٠٩ نادياً ظاهره ادبيّ محض دعوه « المنتدى الأدبي » ؛ وما لبث هذا النادي ان انشأ له فروعاً في مصر وسورية ، عاملاً في المقام الاول على اثارة الشعور القومي العربي في نفوس الشباب ؛ وفي آذار (مارس) سنة ١٩١٥ حُلت هذه الجمعية . والواقع ان عدداً من كبار موظفي الدولة العرب ، فيهم وزير الاوقاف السابق خليل حماده باشا ، وضابط الاركان عزيز علي المصري الذي رأيناه يعمل في خدمة الحسين ، اقول ان عدداً من كبار موظفي الدولة العرب أسسوا – ضمن هذا النادي – لجنة أصغر ذات اهداف سياسية ،

---

* L'Indépendence Arabe

** E. Jung

وسموها « القحطانية » ومنها انبثقت جمعية الضباط المعروفة بـ « العهد » والتي انضم اليها في ما بعد فرع عراقي أفصح عن اهدافه الحقيقية بهذا الاسم الجديد الذي اتخذه : « الثورة العربية » . وفي لبنان ، الذي كان يتمتع منذ زمن طويل – على اية حال – بأدارة تكاد تكون مستقلة عن النفوذ العثماني أسست جمعية « النهضة اللبنانية » التي قالت بضرورة احتلال فرنسة للبلاد . ومن هنا حظيت بتأييد كبير من جانب القنصل الفرنسي العام في بيروت . وقد تعاون مع « النهضة اللبنانية » هذا حزب آخر اسمه النصارى في بيروت ، اعني « الجمعية الاصلاحية » . والحق ان معظم هذه الجمعيات ما لبثت أن ذابت في الجمعية اللامركزية التي انشئت في مصر اواخر سنة ١٩١٢ والتي انتشرت فروعها في جميع البلاد الناطقة بالضاد . والى هذه الجمعية ايضاً انضمت جمعية « العربية الفتاة » التي أسسها طلاب العرب في باريس سنة ١٩١١ ، والتي تعاونت تعاوناً وثيقاً مع جمعية « العهد » وخاصة في أوساط الموظفين المدنيين في سورية [١٧٩]. وفي مؤتمر عقد في باريس ، في حزيران (يونيو) سنة ١٩١٣ ، حدّد ممثلو هذه الجمعيات مطالبهم ، وكان أهمها قَصْر الخدمة العسكرية على ارض الوطن (دون البلدان النائية) واعتبار العربية لغة رسمية . وقد اظهر رجال تركية الفتاة الذين كان لهم مندوبوهم في هذا المؤتمر رغبتهم في الموافقة – تحت ضغط الحرب البلقانية –

---

(١٧٩) افضل المراجع في مـــا يتصل بتنظيم الجمعيات العربية هو الكتـــاب التركي الاخضر **La Vérité sur la question syrienne, publié par le Commandement de la IVème Armée, Stamboul, 1916.** راجع ايضاً جورج انطونيوس « يقظة العرب » **The Arab Awakening** ص ١٠١ وما بعدها . وامين سعيد (محرر الصحيفة القاهرية المقطم) (سابقاً) : « الثورة العربية الكبرى » (وهو عرض مرفق بوثائق عدة ، وقد منع الفرنسيون تداوله في سورية : انظر **(Oriente Moderno XV 1935, p, 157** الجزء الاول ، القاهرة ص ١ – ٥٠ ؛ وانظر ايضاً حافظ وهبه ، سفير المملكة العربية السعودية في لنـــدن : « جزيرة العرب » القاهرة ١٩٣٥ ص ١٧١ وما بعدها : وج. كامبفماير.
G. Kampffmeyer, Dokumente zun Kampf der Araber umihre Unabhangigkeit . Welt des Islams, VIII 1926, p. 79 - 186 .

على هذه المطالب . حتى اذا نشبت الحرب العالمية الاولى رفض جمال باشا ، قائد الجيش الرابع العام في سورية ، ان يسمح لهذه الجمعيات بأن تنشط وتتآمر على سلامة الدولة . ثم إن المراسلات الدائرة بين هذه الجمعيات وبين [جورج] بيكو ، قنصل فرنسة العام في بيروت ، وقعت في يده فأخضع اعضاءها لأقصى عقوبات القانون العسكري ، فحكم الديوان العرفي المنعقد في عاليه ، لبنان ، على ثلاثة وثلاثين منهم بالموت .

الحلفاء يخيبون آمال العرب

ولكن آمال الوطنيين العرب انتعشت من جديد وبلغت أوجها عندما اذاعت بريطانية وفرنسة ، في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ ، بعد هدنة مودروس ، بياناً مشتركاً صرحتا فيه ان ما هدفتا اليه من الحرب — وهو تحرير الشعوب الخاضعة للنير العثماني — قد تحقق الآن ، وانهما مستعدتان منذ اليوم لأقامة حكومات مستقلة في سورية والعراق تكفل لهذين القطرين تطوراً سياسياً حراً [١٨٠] . أمّا ما اذا كان في استطاعة الشريف حسين — لو حافظت بريطانيا على وعودها العرجاء — ان يلاقي النجاح في توحيد هذه الفئات المتفرقة والمصالح المتباينة ، فموضع شك ، على الرغم من جميع الاتصالات والعلاقات التي انشأها ابنه فيصل في دمشق . ولكن اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور (٢ تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩١٧) الذي ينص على ان الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود ، في فلسطين ، اظهرا وحدهما أن الحلفاء كانوا قد انتهوا الى قرارات مختلفة جداً عن [منطوق البيان الفرنسي البريطاني المشترك] في ما يتصل بمستقبل الاجزاء العربية المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية . وكانت المسألة بالنسبة الى فرنسة ، مسألة نفوذ واعتبار ، ورغبة في ان تجني آخر الأمر ،

---

(١٨٠) انظر ايرلند Iraq ص ٤٥٩ وما بعدها ؛ وانظر انطونيوس Arab Awakening ص ٤٣٥ وما بعدها .

بعض الفائدة السياسية مما زعمته لنفسها ، طوال قرون عدة ، من حقّ حماية النصارى في الشرق ، ومما بذلته من جهود ناجحة بسبيل نشر الثقافة الفرنسية في سورية ، على الرغم من ان مصالحها الاقتصادية في هذه البلاد لم تكن قد نمت واتسعت بعد . اما بريطانية فكان عليها ان تفكر دائماً بمصالح امبراطوريتها الحيوية ، في العراق ، لكي تصون طرقها البحرية الى الهند من أي اعتداء تتعرض له من الخليج الفارسي ، ولكي تعزّز هذه الطرق بالطرق الجوية الجديدة ، ولتسخر اخيراً ينابيع النفط الغنية في جنوبي إيران وفي العراق لخدمة سيادتها البحرية .

فيصل ينتخب ملكاً على سورية

وسعى ابناء الحسين الى استنقاذ ما يمكن استنقاذه ، على الاقل ، بعد ان شيّع ابوهم آماله . وكان فيصل قد راضٍ نفسه على الرضا باحتلال الفرنسيين للمنطقة الساحلية السورية بعد اتفاق سايكس ـ بيكو ، راجياً ان يُعترف به اميراً ، على الأقل ، في المناطق الداخلية ، حيث كان الامل بانشاء دولة « مستقلة » لا يزال قائماً . وهكذا شخص فيصل الى لندن ، في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ ، ليفاوض وزارة الخارجية البريطانية والزعماء الصهيونيين ؛ وفي ٦ شباط (فبراير) سنة ١٩١٩ دافع هو ولورنس عن حق العرب في الاستقلال التام امام مؤتمر الصلح في باريس ، على الرغم من ان الجمعية السورية اللبنانية في باريس كانت طالبت بأن يكون لسوريا ولبنان وضع خاص تحت الانتداب الفرنسي . وإذ كان فيصل يؤكد توكيداً شديداً على ضرورة الاستماع الى اماني السكان انفسهم فقد اقر مجلس الاربعة * في ٢٥ آذار (مارس) ، اقتراح ولسن القاضي بارسال بعثة تحقيق الى سورية مؤلفة من الخبيرين الاميركيين كنج .** وكرين *** . فخيّل ذلك لفيصل

---

* المؤلف من ممثلي الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة وايطالية . (المعربان)
** H. C. King
*** Charles R. Crane

انه نال ما يبتغي ، فانقلب الى سورية في الاسبوع الاول من نيسان (ابريل) . وهناك انصرف في الحال للعمل ضد فرنسة ؛ ومن اجل ذلك اكتسب تأييد الاتراك ؛ واكتسب على الخصوص تأييد بريطانية التي زودته بالمال وزودت انصاره بالسلاح . وفي اول شباط (فبراير)تحوّلت جمعية « العربية الفتاة » السرية الى حزب يعمل في العلَن باسم « حزب الاستقلال العربي » وعقدت مؤتمراً طالب باستقلال سورية وفلسطين تحت تاج فيصل . وعلى الرغم من انه رفض إخضاع البلاد للانتداب فقد التمس مساعدة اميركية ؛ او مساعدة بريطانية على اية حال ، في إقامة الدولة الجديدة . وطوّفت لجنة كنج — كرين في انحاء فلسطين وسورية طوال اسابيع ستة ، ابتداء من ١٠ حزيران (يونيو) ؛ وقد ايدت ملكية فيصل على سورية ، وأوصت بتطبيق نظام الانتداب ، ولكنها رفضت ان تُسلّم فلسطين للصهاينة . واذ كان ولسن قد لزم فراش المرض بعد عودة اللجنة مباشرة ، فقد أهمل تقريرها ولم يُحدث اثراً في تقرير مستقبل سورية . حتى اذا اخفقت فرنسة وبريطانية في الوصول الى اي اتفاق ، دعا لويد جورج فيصلاً الى لندن ، كرّة اخرى في آب (اغسطس) سنة ١٩١٩ ؛ ثم إن فيصلاً عقد اتفاقاً مع كليمنصو * بباريس ، في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ، بعد ان زوده لويد جورج بارشاداته ، وقد قضى هذا الاتفاق بأن تعترف فرنسة بالدولة الفيصلية دولة مستقلة [ضمن الحدود التي سيعينها لها مؤتمر الصلح] إذا ما قبِل فيصل مساعدة فرنسة في إنشاء هذه الدولة . وسرعان ما شرعت بريطانية ، بعد ذلك ، في الجلاء عن شمالي سورية ؛ حتى اذا تقدّمت القوات الفرنسية لاحتلال هذه المنطقة [اي شمالي سورية] اصطدمت بمقاومة القوات العربية في طرابلس وبعلبك وغيرهما . والواقع ان اتفاق فيصل مع كليمنصو قوبل ، لدن عودته الى سورية ، بنقد عنيف ؛ بيد ان الامير العربي استطاع ان

* Clemenceau

يهدّىء من ثائرة انصاره بعد ان اوضح لهم صفة هذا الاتفاق الموقتة. وفي ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ عُقد في دمشق مؤتمر وطني أعلن فيصلاً ملكاً على سورية.

سورية تحت الانتداب الفرنسي

ولكن مؤتمر سان ريمو عهد الى فرنسة، في ٢٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠، بالانتداب على سوريا كلها [١٨١] فلم يكن من الجنرال غورو * قائد القوات الفرنسية في لبنان إلا ان وجّه – استناداً الى هذا القرار – انذاراً الى فيصل (١٤ تموز «يوليو» سنة ١٩٢٠) يطلب اليه فيه الاعتراف بالانتداب الفرنسي، واخضاع الخطوط الحديدية للرقابة الفرنسية، واقرار الورق السوري الذي اصدره غورو نقداً للبلاد، ومعاقبة «الثوار». ونزع فيصل بادىء الأمر الى الاذعان، ولكنه اضطر بعدُ الى رفض الانذار، تحت ضغط الرأي العام الهائج. وفي ٢٢ تموز (يوليو) هزم الجنرال غويبت ** جيوشه؛ وفي ٢٣ تموز احتلت حلب لتتبعها دمشق في ٢٥ من الشهر نفسه. وانتظر فيصل ان تُنجده بريطانية، ولكن انتظاره كان على غير طائل. وفي معاهدة سيفر (١٠ آب «اغسطس» سنة ١٩٢٠) وُضعت سورية، كدولة مستقلة، تحت الانتداب الفرنسي ريثما تصبح أهلاً للحكم الذاتي؛ ولكن هذا لم يمنع فرنسة من تجزئة سورية الى اربع دول هي (أ) لبنان الكبير (ب) دمشق (ج) حلب (د) دولة العلويين (وهي منطقة النصيرية

---

(١٨١) والواقع ان العالم ادرك حقيقة هذه الانتدابات أول ما ادركها في ٢٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٢٠ من الخطاب الذي القاه اللورد كرزن وزير الخارجية البريطانية، في مجلس اللوردات، والذي اعلن فيه في صراحة تحمد له ان التدابات جمعية الامم حديث خرافة، لانها ليست سوى وسيلة لتوزيع البلدان المفتوحة بين المنتصرين. راجع النص في ايرلند:
Ireland, Iraq, p. 263

* Gouraud

** Goybet

الواقعة شمالي لبنان بين العاصي والبحر الابيض المتوسط .) ليس هذا فحسب . لقد ضُمت بيروت وطرابلس والبقاع (وكان يعرف قديماً بسورية المنخفضة *) الى لبنان ايضاً ، حتى لقد حيلَ بين سورية الامّ وبين البحر حيلولةً تامة . وبيناكان في لبنان ، قبل ذلك ، اكثرية من الموارنة الموالين لفرنسة — ويبلغ عددهم ٢٠٠,٠٠٠ نسمة — انتهى منذ اليوم الى ان ينتظم الى جانب الموارنة ١٣٥,٠٠٠ من النصارى المنتمين الى مختلف الطوائف ، بالاضافة الى ٣٠,٠٠ ارمني . و ٢٠,٠٠٠ من الاجانب ، فضلاً عن ٢٥٠,٠٠٠ سني ، و ١٠٥,٠٠٠ شيعيّ و ٤٤,٠٠٠ درزي . واذا ذكرنا ما كان بين هذه الجماعات المتعددة من خلاف ادركنا ان التنظيم السياسي الداخلي لهذه البلاد خليق بأن يكون عسيراً جداً . اما مقاطعة حوران الدرزية التي كانت حتى ذلك الحين متمتعة باستقلال داخلي فقد ضمت الى دمشق . وفي الدول الاربع جميعاً تقلد ازمّة السلطة موظفون فرنسيون ، على الرغم من إسناد حكومة دمشق الى حاكم سوري موال للدولة المنتدبة :

وعلى اية حال ، فلم تكن هذه التجزئة لتهدىء من ثائرة السوريين فهبوا لمقاومتها لا في صحفهم المحلية فحسب ، بل بواسطة مواطنيهم في اوروبة ايضاً . وحاولت فرنسا ان تقضي على هذه المعارضة ، سنة ١٩٢٢ ، فأعلنت دمشق وحلب ودولة العلويين دولة اتحادية سورية ، مقابل لبنان الكبير . ولكنها لم تُحدث ايما تعديل أساسي في تنظيمها الداخلي . وبموجب دستور ٢٢ نوار (مايو) سنة ١٩٢٦ حُوّل لبنان الكبير الى جمهورية ؛ بيد ان جهاز هذه الجمهورية ما لبث ان اختصر اختصاراً كبيراً خلال السنتين التاليتين ، ابتغاء الاقتصاد في نفقاته الجسيمة .

وحصلت الدولة الاتحادية السورية على مجلس اتحادي ينتخب رئيسه مرة كل عام ؛ ولكن قرارات هذا المجلس لم تكن توضع موضع التنفيذ

* « Coele - Syria »

الا بعد ان يصدق عليها المفوض السامي الفرنسي ، ومن هنا لم يكن لها غير أثر ضئيل في ادارة كل من دول الاتحاد على حدة ، هذه الادارات التي كانت مستقلة بعضها عن البعض الآخر في سائر الشؤون . من اجل ذلك الغت فرنسة ، بعد اختبار دام سنتين ، هذا النظام الاصطناعي الملفق . وفي مطلع كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٥ حل الجنرال ويغان ، * الذي خلف الجنرال غورو ، الاتحاد وادمج دمشق وحلب في دولة سورية واحدة ، بينا ترك دولة العلويين « المستقلة » وشأنها .

الثورة السورية

وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٢٥ انفجرت نقمة السوريين — هذه النقمة التي كانت قيّدتْ الاختمار منذ زمن طويل بعد ان رزىء القوم بآمالهم الوطنية — في ما بين الدروز الذين كانوا يعتزون باستقلالهم طوال قرون ، وذلك إثر عمل جلفٍ صدر عن ضابط فرنسي ** كان يحكمهم بوصفه مندوباً عن المفوض السامي . وعلى الرغم من ان الجنرال ويغان استطاع ان يُنقذ في ايلول (سبتمبر) ، حملة التأديب الفرنسية التي حاصرها الدروز في السويداء ، فقد امتدت الثورة الآن الى دمشق وعمّت البلاد من أقصاها الى أقصاها . ولم يُحجم الفرنسيون عن تسليح الجراكسة والارمن والسماح لهم بان ينزلوا حيثما شاءوا . وعلى الرغم من إقالة الجنرال ساراي *** بعد ان امر بقذف دمشق بالقنابل من الجو ومن القلعة ، فقد انساق خَلَفُه ، دي جوفنيل **** ، ولم يكن عسكرياً ؛ الى ان يسلك مسلك سلفه ، في نوار (مايو) سنة ١٩٢٦ ولم تخمد حرب العصابات نهائياً إلا في ربيع سنة ١٩٢٧ .

---

* Weygand

** الكابتن كربيه . المعربان .

*** Sarrail

**** De Jouvenel

وفي آب (اغسطس) سنة ١٩٢٦ اضطرت فرنسة الى ان توجه الى سورية ، بدلاً من الحكام العسكريين ، رجلاً ادارياً مجرّباً ، هو المسيو بونسو * الذي وُفق الى ان يعوّض خلال سبع سنوات من الخدمة ، عن الاخطاء الجسام التي اقترفها أسلافه ولكنه لم يستطع ان يُجيب الوطنيين السوريين الى مطالبهم . وفي شباط (فبراير) سنة ١٩٢٨ عهدَ الى احد هؤلاء الوطنيين ، [الشيخ] تاج الدين الحسَنيّ ، في تأليف الحكومة ، وأصدر قراراً بأن يجري ، في شهر نيسان (ابريل) من السنة نفسها ، انتخابُ الجمعية التأسيسية التي تضع لسورية دستورها . ومع ان بونسو لم يدع وسيلة للتأثير في الانتخابات إلا اصطنعها فقد أسفرت عن نصر كاسح للوطنيين الغلاة الذين انتخبوا ، لدن انعقاد الجمعية ، هاشم بك الاتاسي رئيس الوزراء في عهـــد فيصل ، رئيساً للجمعية التأسيسية . وفي ٢ آب (اغسطس) اتمت اللجنة الدستورية المنبثقة من الجمعية التأسيسية مشروعاً للدستور اهمل الانتداب اهمالاً تاماً ، وطالب بجمهورية ينتخب رئيسها لمدة ثلاث سنوات وبِجَعْلِ الاسلام ديناً للدولة . وإذ قد رفضت الجمعية التأسيسية احتجاج بونسو على مطالبها التي لا تتفق والانتدابَ المفروض من جانب عصبة الامم ؛ فقد اضطر الى حل الجمعية . ولم يوفق المسيو بونسو الى انفاذ الدستور الجمهوري سنة ١٩٣٠ ، إلا بعد مفاوضات طويلة مع زعماء الاحزاب الذين تفككت ، وشيكاً ، تلك الجبهة الموحدةُ التي واجهوا بها معارضة المفوض السامي من قبل ؛ وفي حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٢ اسفرت الانتخابات ، التي نجح الفرنسيون هذه المرّة في التدخل بها اكثر من ذي قبل ، عن برلمان رضي عنه بونسو . ثم ان هذا البرلمان انتخب رئيساً ** للدولة موالياً للفرنسيين . وفي السنة التالية قدّم بونسو الى

---

* Ponsot

** صبحي بركات . (المعربان)

البرلمان مشروع معاهدة كان يُقصد منها ، ان تقوم مقام الانتداب شأن المعاهدة التي عقدتها بريطانية مع العراق . بيد ان هذا المشروع لم يأت وفق الاماني التي كان يعمل لها الوطنيون ، فرفضه البرلمان . وعندئذ قدّم بونسو استقالته ، فخلفه [الكونت] دي مارتل * الذي حل البرلمان بعد ان رفض إقرار مشروع المعاهدة ، كرةً أخرى ، وتولى مقاليد الحكومة بمفرده . وفي النصف الاول من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٦ ، أمر دي مارتل بأن تفتش الشرطة مكاتب الكتلة الوطنية بمناسبة احتفالها بذكرى احد زعمائها . فبلغ الاستياء الشعبي من اساليبه التعسفية أقصاه ، وأضربت البلاد احتجاجاً ؛ فشُلّت الحياة الاقتصادية طوال أسابيع عدّة . وفي آخر شباط (فبراير) وجد المفوض السامي نفسه مضطراً الى الاذعان لأرادة الشعب ؛ وعندما أعلنت الحكومة الفرنسية استعدادها لأن تفاوض ، في باريس ، وفداً سورياً لعقد معاهدة بين البلدين ، خُتِمَ الاضراب في أول آذار (مارس) . ولكن الوفد السوري لم يوفق الى التفاهم مع الجانب الفرنسي على معاهدة ترضي السوريين الا في ٩ ايلول (سبتمبر) بعد ان خلف ليون بلوم ** المسيو دالادييه *** في رئاسة الحكومة الفرنسية ؛ وعلى غرار هذه المعاهدة استطاع دي مارتل ان يعقد معاهدة أخرى مع الجمهورية اللبنانية في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) . والواقع ان المعاهدة التي اتفق على ان لا توضع موضع التنفيذ إلا بعد انقضاء ثلاث سنوات ، قضت بأن يحتفظ الفرنسيون في سورية بحامية عسكرية في كل من حوران واللاذقية ، وبقاعدتين جويتين دائمتين ، ليس غير ، في حين احتفظوا ، في لبنان ، بحق الاحتلال غير المحدود ؛ وتعهدت فرنسة بأن تساعد الدولتين السورية واللبنانية على الانضمام الى عصبة الأمم . وقد كان هذا خليقاً بأن يحقق للوطنيين السوريين مطالبهم

---

* de Martel

** Leon Blum

*** Daladier

الأكثر إلحاحاً وان يمهد السبيل لتطوّر الدولتين تطوّراً حرّاً من غير ان يكلف فرنسة الانقطاع عن اداء رسالتها الثقافية في الشرق .

المشكلة الفلسطينية

كانت خيبة آمال العرب في فلسطين ، عند انتهاء الحرب العالمية الاولى اشدّ وأمرّ من خيبة آمال السوريين انفسهم ، لانهم بذلوا تضحيات كبرى — في جانب البريطانيين — بسبيل تحرير بلادهم من الحكم التركي . والحقّ ان الشريف حسين كان دائماً ينظر الى فلسطين وبيت المقدس — وهي محلّ تقديس من جانب المسلمين ايضاً — كجزء اساسيّ من الدولة العربية التي كان يرجو اقامتها . غير ان الحملة التركية على قناة السويس اقنعت بريطانية كرةً ثانية ، بصحة النظرية التي طالما برهن التاريخ على صوابها : أن التحكم في شؤون مصر لا يتم الا من قاعدة سورية ، وان شبه جزيرة سينا ، التي استولت عليها لتلك الغاية ، لم تكن تفي بالمراد . وفي سنة ١٩١٥ اقرّ اللورد غراي *. ولويد جورج المشروع الذي وضعته القيادة العليا في مصر والقاضي بضمّ فلسطين الى الامبراطورية . ولكن الحكومة البريطانية رأت من الحكمة ان تخفي هذه الخطة وراء ستار انساني ؛ وقد وجدت ذريعة ملائمة لذلك في المطالب التي انبثقت عن المؤتمر الصهيوني الاول المنعقد في مدينة بال ** ، وفي آب (اغسطس) سنة ١٨٩٧ ، لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . واذْ كانت فرنسة لا تزال تطالب ببسط نفوذها على سورية كلها ، فلم تنص اتفاقية سايكس بيكو ، في ما يتعلق بفلسطين ، الا على انشاء ادارة دولية فيها ، يُعين شكلها [بعد استشارة الروسيا] وبالاتفاق مع بقيـة الحلفاء وممثلي شريف مكة . والحق ان بلفور *** كان اول من اعلن

* Grey
** Basel
*** Balfour

ـ في صراحة ـ عن عطفه على فكرة الوطن القومي ، وذلك في رسالة وجهها الى اللورد روتشيلد * في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ . واكتسبت بريطانية تأييد الصحافة اليهودية بسبب من سياستها الفلسطينية . ولكن خططها اثارت معارضة فرنسة في مؤتمر الصلح بباريس ؛ ولم تستطع بريطانية انفاذ هذه الخطط إلا بعد ان تهددت فرنسة بأن تتخلى عن تأييدها في سياسة الابتزاز التي سارت عليها في ألمانية .

وفي مؤتمر سان ريمو وُفقت بريطانية الى ان تخضع فلسطين لانتدابها ، (٢٤ تموز « يوليو » سنة ١٩٢٢) ضاربةً عرض الحائط بمسألة الادارة الدولية . وفي ١٠ آب (اغسطس) نشرت بريطانية دستور فلسطين الذي انطوى في ذات نفسه ـ بحكم ما يكتنف مضامينه من غموض اقتضته ثنائية الهدف الذي رمت اليه السياسة البريطانية ـ على بذور التطور المحزن الذي قدّر لتلك البلاد . وبموجب هذا الدستور مُنح المندوب السامي المعين من قِبل الحكومة البريطانية سلطة تكاد تكون كاملة وأطلقت يده في تقسيم البلاد الى مقاطعات إدارية ، وفي التصرّف بالاراضي الاميرية والموارد المعدنية وثروة البلاد الطبيعية وغيرها ، وفي تعيين الموظفين وعزلهم . وقضى الدستور بأن يعاون المندوبَ السامي مجلسٌ تشريعي يتألف من عشرة موظفين وإثني عشر عضواً منتخَباً . والى جانب المحاكم المدنية التي اعتزمت السلطة المنتدبة إنشاءها ، والتي خُصصت إحداها لمنطقة بئر السبع لكي تفصل في المنازعات الناشبة بين البدو وفقاً لقانونهم العشائري ، كانت المحاكم الدينية الخاصة بالمسلمين واليهود والنصارى تنفرد بالحكم في قضايا الاحوال الشخصية جميعاً . واعتُبرت الانكليزية والعربية والعبرية لغات رسمية متساوية . وأنيطت مسائل الهجرة بلجنة تتألف من احد عشر عضواً من اعضاء المجلس التشريعي ، على الاقل ؛ فاذا وقع خلافٌ في الرأي بين

* Rothschild

هذه اللجنة والمندوب السامي كان القول الفصل في المسألة لوزير الخارجية البريطانية . اما سياسة فلسطين الخارجية ، فقد عُهد في توجيهها الى الحكومة الامبراطورية التي تولت ايضاً مهمة الدفاع عن البلاد بجيوشها . وعلى الرغم من ان الحكومة البريطانية اوضحت في الحال ان هذا الدستور لا يُقصد منه التمهيد لاقامة دولة يهودية في فلسطين ، فسرعان ما خشي العرب مسلمين ومسيحيين — ان تهدد الهجرة اليهودية مصالحهم السياسية والاقتصادية وبخاصة بعد ان رأوا الى بريطانية تختار السير هربرت صموئيل — وهو يهودي — ليكون اول مندوب سامٍ لها في فلسطين . وفي الحق أن الرأسماليين اليهود وفقوا الى شراء بعض الأراضي التي كانت حتى ذلك الحين بوراً غير مستثمرة ، من كبار المالكين العرب — وكان كثير منهم يحيا خارج فلسطين — وإنشاء مستعمرات زراعية يهودية عليها . وفي المدن ، وبخاصة في تل ابيب المنشأة حديثاً ، أقامت الرأسمالية اليهودية صناعات مزدهرة واجتذبت التجارة اليها شيئاً بعد شيء . والواقع ان البلاد عرفت منذ اليوم ازدهاراً اقتصادياً لا يُنكر ، ولم يكن في ميسور سكان للبلاد الاصليين إحداثه ، ولكن هؤلاء السكان الاصليين لم يُفيدوا من هذا الازدهار غير فائدة قليلة الى ابعد الحدود ، بل انهم على العكس رأوا الى مستوى حياتهم الخاص ينحطّ عما كان عليه قبل . وبينا نلاحظ ان الهجرة اليهودية المتعاظمة باطراد لم تأخذ في التناقص الا ابتداءً من سنة ١٩٢٥ حتى لقد زاد عدد المهاجرين من البلاد سنة ١٩٢٧ على عدد المهاجرين اليها ، نجد انها ما لبثت ان تضخمت تضخماً كبيراً منذ سنة ١٩٣٣ . وفي سنة ١٩٢٥ كان عدد اليهود العاملين في خدمة الحكومة الفلسطينية (٦٧٨) قد زاد على عدد الموظفين المسلمين في تلك الحكومة (٦٣٢) ، ولكنه ظل اقل بكثير من عدد الموظفين النصارى (١,٢٤٤)[١٨٢] . والواقع ان الخلاف بين الاسلام

* Herbert Samuel

(١٨٢) كانت كثرة النصارى العرب من سكان المدن ، فلم يكن يعيش منهم في الأرياف ،=

والمسيحية — هذا الخلاف الذي اشتد بشكل خاص ، في البلاد المقدسة ، منذ القدم — قد حال في السنوات القليلة الاولى دون اتحاد العرب لدرء الخطر المحدق بهم . حتى اذا وافت سنة ١٩٢٨ صار في الأمكان عقد مؤتمر عربي في القدس ، وفي ٢٣ تموز (يوليو) طالب هذا المؤتمر المندوب السامي باقامة مجلس تمثيلي ، فلم يكن من اليهود الا ان عارضوا هذا المطلب أشد المعارضة لان الاكثرية في مثل هذا المجلس ستكون للعرب . ولكن الحكومة البريطانية رأت ان من المتعذر عليها ، من وجهة نظرها الخاصة ، إقرار هذا الطلب ايضاً .

وفي سنة ١٩٣٣ تدفق على البلاد سيل من الهجرة اليهودية من المانية ، واخذت هذه الهجرة في التضخم حتى لبلغ عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ٦١,٥٤١ مهاجراً خلال سنة ١٩٣٥ ، فكان طبيعياً ان يُحدث هذا كله ردّ فعل عنيفاً من جانب العرب . وفي هذه الفترة عقد النصارى والمسلمون الخناصر للدفاع المشترك عن البلاد ، وتوارت عن المسرح ايضاً خصومات الأسر الاسلامية المتزعمة ، هذه الخصومات التي كانت حتى ذلك الحين عنيفة صارخة . واكتسب مفتي القدس [الحاج] امين الحسيني ، بوصفه زعيم المسلمين ، نفوذاً متعاظماً يوماً بعد يوم . واذا كانت النقمة العربية قد عبرت عن نفسها اول الأمر من طريق اصطدامات متفرقة وقعت بين العرب واليهود (بصرف النظر عن التعرض للسياح ، وهو أمر مألوف منذ القدم) وعجزت شرطة الدولة المنتدبة نفسها عن وقفها ، فقد بلغت هذه النقمة الآن أوجها لتنقلب شيئاً بعد شيء الى حرب أهلية . ومنذ سنة ١٩٣٥ نظّم المتطوعون العرب صفوفهم ليربحوا لمواطنيهم معركة الاستقلال وتقرير المصير . وليس في ميسورنا ان نفصّل القول ، ههنا — وليس من

— حسب إحصاء سنة ١٩٣١ ، غير ٢١,٢١٨ مقابل ٦٩,٢٨٩ كانوا يعيشون في المدن . أما المسلمون فلم يكن يقطن منهم المدن غير ١٨٤,٤٣٨ في حين كان ٤٩١,١٩٦ منهم فلاحين و ٦٠,٠٠٠ منهم بدواً .

حاجة الى ذلك — على هذه الاحداث المحزنة ، خاصة واننا لا نملك حتى الآن الوثائق الموضوعية التي تساعدنا على اصدار الحكم .

وليس من شك في ان المحاولات التي قامت بها بريطانيا للتعويض عن هذا الاخفاق العظيم في سياستها الشرقية لا تزال الى اليوم بعيدة عن النجاح . ففي صيف سنة ١٩٣٦ وجهت بعثة ملكية الى فلسطين لدرس الوضع فيها . ولكن العرب قرروا لسوء الحظ ، ان يقاطعوها ولم يُقلعوا عن هذا المسلك الخاطل الا قبل خمسة ايام من مغادرتها للبلاد ، ومن هنا كان معظم اتصال البعثة بالمراجع البريطانية واليهودية . وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧ قدمت البعثة تقريراً خلصت فيه الى اقتراح متعذّر يقضي بتقسيم البلاد — التي لا يمكن ان تؤلف ، بحكم تكوينها ، غير وحدة اقتصادية — الى ثلاث دول مستقلة : دولة يهودية في الشمال الغربي حيث يقطن نحوٌ من ٣٠٠,٠٠٠ عربي كان مقدراً عليهم أن يكونوا من رعايا هذه الدولة ، ودولة عربية تنتظم سائر البلاد ، ما خلا جزءاً اقترحت اللجنة اخضاعه لانتداب بريطاني جديد على ان تكون ضمن هذا الجزء المدن المقدسة الثلاث : القدس وبيت وبيت لحم والناصرة . وعلى الرغم من عاصفة الاستياء التي اثارها هذا التقرير في الاوساط العربية فقد أرسلت الحكومة البريطانية ، ربيع سنة ١٩٣٨ ، بعثة فنية اخرى الى فلسطين لكي تدرس ما اذا كان في الامكان تنفيذ التقسيم ، ولو من طريق نقل السكان من منطقة الى منطقة ، على نطاق واسع ، اذا اقتضى الامر . وفي تلك الأثناء اقتنعت الحكومة البريطانية بان حل هذه المشكلة العسيرة لن يتأتى من طريق التقسيم ، فسعت الى ان تجمع زعماء الفريقين المتنازعين في مؤتمر يهدف الى اجراء تسوية ودّية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت ان تدعو الى هذا المؤتمر مفتي القدس الاكبر الذي كان قد لجأ الى بيروت في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة سنة ١٩٣٧ فراراً بنفسه من خطر الاعتقال ؛ ولهذا السبب تعذّر عقد المؤتمر حتى شباط (فبراير) سنة ١٩٣٩ ؛ وقد دعيت لشهوده سورية والعراق

ومصر والمملكة العربية السعودية ايضاً. بيد ان العرب رفضوا الاجتماع الى مندوبي اليهود. وهكذا كانت مصاير فلسطين، في مطلع آذار (مارس) سنة ١٩٣٩، لا تزال معلقة غير مقطوع فيها.

مسألة شرقي الأردن

كانت البلاد الواقعة شرقيّ نهر الاردنّ جزءاً من سورية، في مختلف عهود التاريخ، وكان من المفروض ان تشكل جزءاً من الدولة العربية التي نصت اتفاقية سايكس — بيكو على انشائها. ولكن مؤتمر سان ريمو اخضعها، سنة ١٩٢٢، لانتداب بريطانية العظمى بوصفها «واقعةً بين نهر الاردن وحدود فلسطين الشرقية.» وقد الحقتها بريطانية، ضمناً، بممتلكاتها لان الامبراطورية البريطانية كانت في حاجة ماسة اليها لتقوم سدّاً في وجه المملكة العربية السعودية ولتكون صلة مع العراق. وعلى الرغم من ان هذه البقعة كانت ولا تزال، من الناحية الاقتصادية، «مواتا» غير مستثمرة ومعظم سكانها من البدو، فقد هيأت لبريطانية فرصة مناسبة تساعدها على ان تصرف انظار العالم العربي عن نكثها بما قدّمت من وعود لآل الحسين. وفي ختام سنة ١٩٢٠ ظهر عبد الله، اخو فيصل — وكان قد سمّي، بادىء الامر، ملكاً على العراق ولكنه اضطر الى التنازل لأخيه — أمام حدود فلسطين الجنوبية، على رأس قوة صغيرة من البدو، ابتغاء التدخل في سورية؛ بيد ان اولي الامر من البريطانيين اقنعوه بالتريث، ففعل وان لم ينقلب الى الحجاز. وكان فيصل قد شخصَ، في كانون الاول (ديسمبر) الى لندن وأقنع تشرشل *، وزير المستعمرات البريطاني آنذاك، بان من مصلحة بريطانية ارضاء أخيه. من اجل ذلك قَصَدَ تشرشل نفسه الى القاهرة، في آذار (مارس) سنة ١٩٢١، واتجه من هناك الى بيت المقدس. ثم انه اصدر امره الى احد الموظفين البريطانيين بان يرافق عبد الله، على قطار

* Churchill

خاص من قُطر الخط الحديدي الحجازي ، الى الكرَك وعمان حيث تلقى البيعة من شيوخ القبائل الذين كان المندوب السامي البريطاني ، السير هربرت صموئيل ، قد « بشّرهم » بنفسه بالاستقلال العتيد في خطبة القاها بمدينة السلط ، في ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠ [١٨٣]. وفي ٢٨ آذار (مارس) استقبله تشرشل في القدس وثبته اميراً على شرقي الاردن. واحتفظت بريطانية لنفسها بمجرد ايفاد مندوب سام الى العاصمة ، عمان ، وانشاء قاعدتين جويتين في عمان والجيزة . ولكن الحكومة البريطانية رأت ان مصلحتها إبقاء هذه المسألة معلقة ، حتّى حين .

وفي تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٢ شخص عبد الله الى لندن يصحبه كبير وزرائه رضا الركابي ، الذي سبق ان وزّر لاخيه فيصل في دمشق ، ابتغاء الوصول الى قرار حاسم . ولكن السير صموئيل لم يستطع ان يعلن ان بريطانية مستعدة للاعتراف بامارة عبد الله اذا ما عقد معها معاهدة حول حقوق الانتداب ومنح البلاد دستوراً — نقول إن صموئيل لم يستطع ان يُعلن ذلك الا في ١٤ نوار (مايو) سنة ١٩٢٣ ، عندما زار عمان بمناسبة الاحتفال بعيد الفطر . والواقع ان هذا الطلب الذي يقيد سلطة الامير — الضئيلة على كل حال — تقييداً جديداً اثار سخط البدو ، غير البالغين رشدهم سياسياً ، وأثارَ اسباب النزاع القديمة تحت ستار تشكيل احزاب منظمة على الاساليب الحديثة . وهكذا وقعت في آب (اغسطس) سنة ١٩٢٤ — وكان الامير يؤدي فريضة الحج آنذاك — اضطرابات امتدت الى الحدود السورية ، حتى اذا رجع الامير الى عاصمته تلقى انذاراً بريطانياً لم يطلب اليه تسليم الثائرين فحسب ، بل اقصى الادارة المالية ايضاً عن دائرة نفوذه . والحق انه اضطرّ الى ان يرضى بتأليف حكومة يتولى ثلاثاً من اهمّ وزاراتها موظفون بريطانيون . وفي ٢٠ شباط (فبراير) سنة

---

(١٨٣) اعتمدنا في هذا العرض ، الذي يختلف في بعض التفاصيل عما أورده توينبي Toynbee على كتاب « الثورة العربية الكبرى » لأمين سعيد ج ٢ ص ١١ .

١٩٢٨ عُقِدت في لندن معاهدةٌ سلبتهُ السلطةَ الحقيقية كلها [١٨٤]. والحق ان بريطانية استخفت بقوى البلاد وطاقاتها. فلم يكن من الصحف العربية جميعاً الا ان اعلنت سخطها على هذا الاستسلام، وعلى الانتقاص من حقوق الوزراء العرب وسلطاتهم، فاشتعلت نيران الاضطراب والاضرابات، وحاولت بريطانية ان تخمدها بقنابل الطائرات. اضف الى ذلك ان الدستور الذي فُرض على الامير في ١٦ نيسان (ابريل) لم يمنحه هو ولم يمنح شعبه ايما حقوق بالنسبة الى بريطانية، ومن هنا استهدف لمقاومة عامة. وفي تموز (يوليو) سنة ١٩٢٨ عقد شيوخ القبائل ووجهاء المدن مؤتمراً في عمان لمعالجة الموقف، وقد اجتمع الرأي فيه على رفض الانتداب البريطاني لانه تجاوز غايته الاصلية وهي مساعدة البلاد [مساعدة فنية نزيهة] حتى تصبح قادرة على الاستقلال، وعلى المطالبة ببرلمان منبثق عن انتخابات حرة. حتى اذا حاولت الحكومة — خلال الخريف — إجراء الانتخابات على الشكل الذي يضمن مصالحها، قاوم الشعب هذه المحاولة اعنف مقاومة واشدها؛ ولم توفق الحكومة الى اقامة «مجلس تشريعي» الا في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٩ — وهو مجلس تقدم لانتخاب اعضائه ٣٪ فقط من المواطنين الذين يملكون حق الانتخاب. فكان من المتعذر ان تنشأ في البلاد في ظل هذه الظروف التي شرحنا، حياة سياسية متطورة. والواقع ان جلسات البرلمان كثيراً ما كانت تؤجل لفقدان النصاب القانوني. اما حياة البلاد الاقتصادية فكانت مضطربة؛ وقد ساعد على اضطرابها، بشكل خاص، ما قام به الصهيونيون من محاولات لشراء الاراضي، او استئجارها للمهاجرين اليهود. وفي سنة ١٩٣٣ استأجر اليهود من الامير عبد الله نفسه ٦٥,٠٠٠ دونم (الدونم ٩٠٠ متر مربع) وفي غَوْر الكبِد، لمدة تسع وتسعين سنة، لقاء عشرين

---

(١٨٤) انظر النص الانكليزي المبني على الكتاب الأبيض الصادر يوم ٢٦ آذار (مارس) سنة ١٩٣٨ في The Near East and India, vol, 33 (1928) pp 427-429. اما النص العربي فتجده في «الثورة العربية الكبرى» لأمين سعيد ج ٣ ص ٢٥–٣١.

الف جنيه فلسطيني . حتى اذا زار الامير ، بعد ذلك بقليل ، ضريح أبي عُبيدة عامر ابن الجراح اعتبر الشعب انه قام بهذه الزيارة تكفيراً عما سلف منه . ومهما يكن من شيء فان نفراً من كبار اصحاب الاراضي — من مثل مثقال باشا الفائز شيخ بني صخر — حبذوا مبدأ استثمار اليهود للأراضي الاردنية ايضاً ، وانشأوا حزباً جديداً كانت صحيفة « صدى الصحراء » تنطق بلسانه . ليس هذا فحسب ، بل ان هذا الحزب عقد مؤتمراً في عمان لدراسة الحياة الاقتصادية والوسائل الآيلة الى تطويرها . بيد ان حسين باشا الطراونة ما لبث ان عقد مؤتمراً مناوئاً دعا الى الصمود في وجه المشروعات الاقتصادية اليهودية . وتحت تأثير هذا المؤتمر أقر « المجلس التشريعي » ، في نيسان (ابريل) ١٩٣٣ ؛ قانوناً حظّر بيع ايما ارض او تأجيرها — للصهيونيين — او « لكل اجنبي عن البلاد » ، بحسب الصيغة التي اصطُنعت عند نشر القانون في تشرين الاول (اكتوبر) . ومن هنا سقط ايضاً مشروع البنك الزراعي الذي كان اللورد ملتشت * يفكر في إنشائه مع اثنين من اليهود المصريين .

القوات البريطانية الهندية تفتح العراق

كان العراق — الذي تمتع قبل سائر الدول العربية بنعمة الاستقلال — يحيا حياة سياسية من نوع خاص ، خلال القرون المتطاولة التي خضع فيها للحكم العثماني . ذلك بان الادارة التركية لم توفق ههنا — شأنها في مصر — الى ان تسيطر يوماً على الاحوال الداخلية العسيرة سيطرة كاملة ؛ وقد مرت بالعراق فترات استولى فيها المماليك على مقاليد الحكم ، كالذي حصل في مصر سواء بسواء . وحوالي منتصف القرن الثامن عشر جمعت قبائل البدو الضاربة على ضفاف الفرات الأدنى شملها ، وعرفت باسم المُنْتَفِق **

---

* Melchett

** وهو الصواب ، على ان الشائع المتعارف الآن هو « المنتفك » . (المعربان)

في اتحاد أورث باشا بغداد متاعب جمة . وكان الشيعة المقيمون في النجف وكربلاء والكاظمين وحواليها – وكلها مقدسة عندهم – على اتصال دائم وثيق باخوانهم في فارس ، فهم لا يعدون انفسهم من رعايا السلطان « المبتدع » الا على كره . وحتى مطلع القرن العشرين كانت الحياة الفكرية متأخرة جداً عند أهل السنّة . ومن هنا نرى ان ظروف العراق كانت أقل مواتاةً – الى حد بعيد – لنشوء وعي قومي عربي ، من ظروف سورية . والحق ان الضباط والموظفين الذين تلقوا علومهم في استانبول هم وحدهم الذين تأثروا – دون سائر العراقيين – بالافكار الحديثة . وقد اكتسب انصار « العهد » بعض الضباط العراقيين العاملين في الحاميات السورية لمبادىء حزبهم ، حتى اذا آبوا الى الوطن انشأوا فيه بضعة فروع لهذا الحزب الوطني .

وفي أثناء الحرب العالمية الاولى تولى فتح العراق جيش بريطاني هندي بعد ان رأت حكومة الهند ان عليها ان تحمي مصالحها في الخليج الفارسي . حتى اذا استولى هذا الجيش على البصرة سارع الموظفون الحكوميون الملحقون بالحملة الى انشاء ادارة منظمة وفقاً للاساليب التي جرى اختبارها في الهند ؛ وقد كان هؤلاء يعتزمون ان يُسكنوا جاليات هندية في العراق ، وان يُدخلوا اليه زراعة القطن . ولكن الادارة العسكرية كانت عبئاً ثقيلاً على البلاد . فقد عبّىء الفلاحون للعمل الألزامي – كما عبىء الفلاحون في مصر – وكثيراً ما كانوا يُفصَلون عن ذويهم ويُبعدون عن بيوتهم ؛ والحق ان السلطة المحتلة حظرت تجارة المواد الغذائية ، في كثير من الاحيان ، الا بعد أن تكون حاجات الجيش قد سُدّت كلها . صحيح ان قبائل المنتفق كانت قد أضعفت عن طريق تحضير بعضها وتشجيعها على مزاولة الزراعة ، فعلَ مدحت باشا الذي حاول ذلك من قبل في نجاح كبير . ولكن البدو تميزوا من الغيظ ، كرة اخرى ، عندما طُلب اليهم ان يدفعوا الضرائب الى السلطة . وبعد ان ارضت الحكومة بعض شيوخ القبائل حاولت ان تستميلهم وتحظى بموآزرتهم . وكانت السلطات العسكرية قد خيبت آمال الضباط [العرب] الفارّين من

الجيش التركي كما ردّت الزعماء الذين تقدموا اليها بخططهم ، على اعقابهم (مثل طالب باشا [النقيب] الذي تطوّع لاشعال نار الثورة ضد الاتراك في جنوبي العراق) ؛ ولم تقتصر على ذلك بل [نفت بعضهم] الى سيلان والهند ومصر .

استفتاء ولسن « الشعبي »

وما لبثت هذه السياسة التي دشنها موظفو الحكومة البريطانية الهندية ورجالها العسكريون أن أُرْدِفَتْ ، بعد الاستيلاء على بغداد ، بالقواعد العامة الموجّهة للحكومة البريطانية ، والمبنيّة على الاختبارات الادارية في مصر وعلى سياسة لورنس في الحجاز . والواقعُ ان رغبة السلطة المحتلّة في الاحتفاظ بولاية البصرة ، التي فُتحت قبل غيرها ، تحت الادارة البريطانية الدائمة ومحاولة تغطية ذلك ، في بغداد ، بـ « واجهة عربية » ، لم تكن لتوضَعَ موضعَ التنفيذ الا في صعوبة وعُسْر . كذلك خاب امل السلطة في حمل العرب على ان يشهروا الحرب ضد الاتراك . ولكن هدنة مودروس كفَت القيادة العليا مؤونة ذلك ، ومن ثم تعيّن على بريطانية ان تُعيد تنظيم الوضع في العراق وفقاً للتصريح البريطاني الفرنسي الصادر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ . ومن أسفٍ أن الادارة المدنية حُرِمت في الوقت نفسه أقدر رجالها ، السير برسي كوكس ، * الذي عيّن في آذار (مارس) سنة ١٩١٨ سفيراً لدولته في طهران . وبينا كانت وزارة الخارجية البريطانية تفكّر ، بناءً على اقتراح لورنس ، في إنشاء دولتين مستقلتين في الجزيرة العليا والجزيرة الدنيا لولدَيْ الحسين الآخرين ، عبد الله وزيد ، وبذلك تكافىء البيت الهاشمي — ما دامت سورية ستكون من نصيب فيصل — على خدماته وتَشدُّده في الوقت نفسه الى بريطانية ، نقول بينا كانت وزارة الخارجية تفكّر في ذلك اعترض الحاكم السياسي العام ، السير آ . ت . ولسن ** ،

---

* Percy Cox
** A. T. Wilson

على المشروع ذاهباً إلى ان مثل هذا التقسيم متعذّر وان اياً من اولاد الشريف لن يستطيع أن يقوم للأعيان المحليين . وهكذا اقترح إجراء استفتاء مداره ما اذا كان الشعب يرغب في إنشاء دولة عربية موحّدة تحت الحماية البريطانية ، أم في تنصيب أمير عربي حاكماً على البلاد ، وفي هذه الحالة من هو المرشح المفضّل لهذا المقام . وقد أقرت هذا الاقتراح اللجنة الوزارية المختصة بشؤون الشرقين الأدنى والأوسط .

ونظراً لغلبة الأمية على الكثرة الكبرى من سكان البلاد المزارعين فقد اجتزأ المندوب السامي باستطلاع آراء الشيوخ ، وكبار اصحاب الاراضي في المناطق البدوية والمدن الصغيرة . وقد أجاب هؤلاء — شأن بعض الوجهاء الذين اختيروا بعناية في البصرة والموصل — بأنهم يرغبون في أن تحكم البلاد ادارة بريطانية . واعلن الاكراد في توكيد قوي انه يستحيل عليهم ان يحيوا في ظل الحكم العربي . اما الشيعة فلم يُجمعوا على رأي واحد : ففي النجف ، المتأثرة بسبب أهميتها السّتراتيجية بالنفوذ البريطاني ، أعلن القوم تأييدهم لبريطانية ؛ بينا كفّر رجال الدين في كربلاء والكاظمين كلّ من يؤيد حكم الكفار . وفي بغداد طالب المندوبون المسلمون ، على الرغم من ان عملية الانتخاب كانت قد دُبرت تدبيراً محكماً ، بتنصيب احد أبناء الحسين حاكماً على البلاد .

وعلى الرغم من هذه النتيجة التي أسفر عنها « الاستفتاء الشعبي » — وهي غير مشجعة جداً — فقد اعتقد مندوب الحكومة البريطانية السياسي ان في ميسوره ان يقترح مشروع دستور ينص على ان يكون رئيس الدولة الأعلى مندوباً بريطانياً سامياً يعاونه حكام عرب يتولون أمر الولايات من قبله ومجلس يمثل الولايات ينتخب اعضاؤه من مجالس المناطق المختلفة . وفي حين كان هذا المندوب راغباً في ضم ولاية الموصل الى العراق جاءه أمر اللورد كرزن — الذي تردد في القيام بأي تعديل في الوضع الراهن قبل اختتام مفاوضات الصلح — القاضي بأن يجعل الموصل ولاية عربية مستقلة عن العراق ،

ومحاطةٌ بسلسلة من الدول الكردية المتمتعة بالحكم الذاتي .

الحركة الوطنية تبلغ أشدها

وكان من نتائج قيام دولة مستقلة في سورية ، خلال ذلك الوقت ؛ (على الرغم من ان تلك الدولة لم تكن لتعيش طويلاً) ان ارتفعت اصواتٌ سورية ، يساندها الضباط العراقيون الذين كانوا في دمشق ، بالمطالبة باستقلال العراق وتحريره ، في النهاية ، من الحكم الاجنبي . وما لبثت هذه الحركة الوطنية ان بلغت ذروتها على أثر تدخل الحاكم البريطاني السياسي [في الشؤون العراقية] تدخلاً بعيداً عن الحكمة . ذلك بان السلطات العسكرية كانت ترغب في ان تبسط لواء الاحتلال حتى « القائم » على الفرات الأوسط ، ليس غير ، ولكن الحاكم السياسي أصرّ – بحجة الحؤول دون تقدم الاتراك – على ضرورة احتلال دير الزور الاكثر إمعاناً في الشمال ، والتي كانت الحكومة السورية قد ضمتها الى ولاية حلب . فما كان من الوطنيين إلا ان احتجوا احتجاجاً عنيفاً على هذا التصرّف وحرّضوا البدو على غزو القوافل التي كانت تسير تحت حماية البريطانيين وحراستهم ، غزواً متلاحقاً . حتى اذا تعيّن على البريطانيين الجلاءُ عن هذا الموقع الأمامي النائي عُدَّ هذا الجلاء نصراً للعرب ، وعُزِيَ الى خوف السلطة البريطانية من قوات عبد الله .

وفي ٨ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ أعلن فرع جمعية « العهد » العسكرية عبد الله بن الحسين ملكاً على العراق . وهكذا بدا أن كل تأثير من جانب بريطانية في إعلان رغبتها في إنشاء حكومة وطنية يعرّض هيبتها للأذى . ولكن وزير الخارجية ، اللورد كرزن ، كان لا يزال في رَيب شديد من مقدرة الشعوب الشرقية على ممارسة الحكم الذاتي ، وكان يعتقد فوق كل شيء بأن عليه أن ينتظر قرار لجنة الانتدابات المنعقدة في سان ريمو .

وفي هذه الاثناء عهد الحاكم السياسي إلى لجنة من موظفيه الاداريين

برئاسة المستشار العدلي السير بونهام كارتر * ، في أن تدرس دراسة عميقة الطرائقَ التي يحسن ساوكها ابتغاء تحويل الحكومة العسكرية القائمة الى حكومة مدَنية . وقد انتهت اللجنة الى هذه النتيجة : وهي أن إقامة حكومة مستقلة يرضى عنها الشعب ، في ظل الانتداب البريطاني ، هي افضل الوسائل الى إشاعة الاستقرار في البلاد شرطَ أن تنبثق من مجلس تأسيسي على غرار المجلس المصري ؛ أما صلاحيات هذا المجلس الخاضع للمندوب السامي فلم تقطع اللجنة فيها برأي . ولكن الحركة الوطنية العارمة ما لبثت ان تلاطمت امواجها كرةً اخرى ، في بغداد ، اواخرَ نيسان (ابريل) ، عندما عُهد الى بريطانية بمهمة الانتداب على العراق . فعقد في احد المساجد اجتماع شعبي كبير عهد الى خمسة عشر مندوباً في مقابلة الحاكم السياسي العام ؛ وقد تمت هذه المقابلة في ٢ حزيران (يونيو) بحضور اربعين من أعيان البلاد اختارهم المندوب بنفسه لما يعتقد من أنّ هواهم مع بريطانية . ولكنّ هؤلاء الاعيان رفضوا بدورهم أن يستمعوا الى مقترحات بونهام كارتر ، وطالبوا بضرورة عقْد جمعية وطنية عراقية . وهكذا ادرك الحاكم السياسي العام ان سياسته القاضية بحكم البلاد وفقاً للقواعد المجرّبة في الهند — دون اعتبار للرغبات الوطنية التي كان يعتقد بأنها مصطنعة اكثر منها حقيقية — قد أخفقت ، فاقترح استدعاء السير برسي كوكس الذي كان يتمتع وحده بمكانة في البلاد كلها تجعله قادراً على توطيد اركان الانتداب وتدعيمها .

الثورة العراقية

ولكنّ جو البلاد كان مشحوناً بقدْر عظيم من الاضطراب حتى أن حادثاً بسيطاً كان كافياً لاضرام نار الثورة ، في ٣٠ حزيران (يونيو) ، في رقعة كبيرة من البلاد . اما هذا الحادث البسيط فكان خلافاً بين احد شيوخ القبائل وموظف سياسي بريطاني في الرُّمَيْثَة الواقعة على الفرات الادنى .

---

* E. Bonham - Carter

ولم يستطع جيش الاحتلال أن يخمد نيران الثورة التي امتدت في آخر ايلول (سبتمبر) من الفرات الأدنى الى المدن الشيعية ومنها الى حدود فارس من غير ان تصلى بغداد، على كل حال، بنارها — نقول ان جيش الاحتلال لم يستطع ان يخمد نيران الثورة إلا بعد معارك كلفته غالياً وبعد ان أمدّ بقوات اضافية من الهند. حتى اذا دخل السير برسي كوكس البصرة، في غرة تشرين الاول (اكتوبر)، بوصفه مندوباً سامياً، كان الاضطراب لا يزال يسيطر على نصف البلاد، ولم يكن من الممكن الأجهاز على الثورة قبل ربيع سنة ١٩٢١.

وسعى السير برسي كوكس باديء الأمر الى اقامة حكومة موقتة برئاسة احد أعيان العرب؛ وكان يساعد كوكس في مهمته الآنسة جرترود بَل * التي عرفت الشرق معرفة جيدة بحكم دراستها الآثارية التي استغرقت سنوات عدة، وسِنْجِن فيلبي الذي اشتهر بارتياده [للربع الخالي] وبمفاوضاته البارعة مع ابن سعود. وبعد معارضة متطاولة قَبِلَ نقيب الأشراف في بغداد، السيد عبد الرحمن الكيلاني؛ رئاسة الحكومة. واسندت وزارة الداخلية الى السيد طالب باشا الذي رجع الى الوطن، في شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ بعد ان أذنت له بريطانية بذلك؛ في حين أُسندت وزارة الدفاع الى جعفر العسكري احد كبار الضباط السابقين في الجيش التركي. أما وزارة المال فوُسِدت الى ساسون افندي وهو يهودي يملك مصرفاً في بغداد. وقد بذلت محاولة لاكتساب الشيعة من طريق إسناد وزارة المعارف الى أحد علماء كربلاء.

في ظل فيصل

ولكن الحكومة البريطانية كانت قد أدركت، في اثناء ذلك، انها لن تستطيع ان تمكّن لنفوذها في العراق إلا اذا نصّبت عليه ملكاً. والواقع

* Gertrude L. Bell

ان اختيار احد النبلاء الوطنيين للعرش العتيد كان امراً مناسباً ، في ذاته ، ولكن احوالاً حالت دون اختيار كل من نقيب الاشراف في بغداد ، السيد عبد الرحمن الكيلاني ، وطالب باشا النقيب ؛ وكانا مرشحين للعرش ؛ فأما الاول فكان ذا سنّ عالية ؛ واما الثاني فكان رجلاً ذا طموح بعيد اكسبه عداوة كثير من الناس وبغضاءهم . وكان كثير من الضباط يرشحون الامير العثماني ، برهان الدين ، ولكن ذلك كان خليقاً بأن يُوقع الدولة في خلاف مع تركية الكمالية . وهكذا حظي الرأي القائل بتتويج احد ابناء الشريف حسين ملكاً على العراق بأكبر التأييد ؛ وقد اعلن احد هؤلاء ، عبد الله ، استعداده لأن يُفسح المجال امام اخيه فيصل الذي أخرجه الفرنسيون من دمشق . وأخيراً وقع اختيار ممثلي بريطانية السياسيين والعسكريين الذين دعاهم تشرشل إلى الاجتماع في القاهرة (١٢ آذار « مارس » سنة ١٩٢١) على الأمير فيصل . فلم يكن من طالب باشا ، الدّ اعداء فيصل واعظمهم خطراً ، إلا ان هدّد — في حماقة واضحة — باستدعاء انصاره البدو للثورة اذا ما قامت الحكومة بأي محاولة للتأثير في الانتخابات ، فأُبعِدَ كرةً أخرى إلى سيلان . وبذلت الآنسة جرترود بلّ كل ما لديها من قوة ونفوذ في سبيل فيصـــل .

ووطىء فيصل البصرة في ٢٣ حزيران (يونيو) فاستقبله الشعب استقبالاً حماسياً في بغداد ، في التاسع والعشرين من الشهر نفسه ، في حين لم يُستقبل غير استقبال متحفظ فاتر في المدن الثانوية التي مرّ بها في طريقه الى العاصمة . وهكذا بدا من الضروري توطيد عرشه بضرب من الاستفتاء الشعبي . وإذ كانت السلطة غير واثقة من النتيجة التي قد يُسفِر عنها انتخاب جمعية وطنية ، فقد اجتزأت باستطلاع آراء الاعيان والموظفين في مختلف أنحاء البلاد ، تحت اشراف المستشارين البريطانيين . وعلى أساس هذا الاستفتاء أعلن السير برسي كوكس الامير فيصلاً ملكاً على العراق ؛ في ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٢١ .

وأعلن فيصل في خطاب العرش [١٨٥] عن عزمه على ان يعرض على [المجلس التأسيسي] معاهدة تقيم الصلات بين العراق وبريطانية على أسس جديدة . وعلى الرغم من ان الحكومة البريطانية كانت مستعدة لتلافي لفظة « الانتداب » البغيضة ، الى ابعد حدّ مستطاع ، فقد عارضت كل ما يهدف الى تحديد نفوذها معارضة بالغة الشدة . وحاول اول مشروع للمعاهدة رفعته الحكومة الى الملك ان يُرضي ، الى حد بعيد ، مطالب البريطانيين هذه ، من اجل ذلك عارضه الوطنيون في شدة وعنف . واعتقد فيصل ، أن في استطاعته اعتماداً على هؤلاء الوطنيين التخلصَ من المراقبة البريطانية ، وهكذا قبلَ استقالة وزارته الاولى ، وكانت برئاسة النقيب [الكيلاني] في ١٤ آب (اغسطس) سنة ١٩٢٢ .

حتّى إذا استغل الحزبان الوطنيان المؤسسان حديثاً ، الذكرى السنوية الاولى لارتقاء الملك فيصل العرش في سبيل القيام بمظاهرة ضد الانتداب ، تذرع المندوب السامي بمرض خطير ألمّ بالملك لكي يستبد بحكم البلاد . وبعد أن نفى المندوب السامي عدداً من زعماء الاحزاب الى جزيرة هنجام الصغيرة ذات الشواطىء الشاهقة في الخليج الفارسي وأكره آخرين ، من طريق التهديد والوعيد ، على مغادرة العراق ، اضطرّ الملك الى ان يوافق ، بعد إبلاله من مرضه ، على عودة النقيب [الكيلاني] الى رئاسة الحكومة ، وتصديقه المعاهدة . بيد ان النقيب [الكيلاني] ما لبث ان قدّم بُعيد ذلك استقالته ، بطوعه واختياره ، فخلفه عبد المحسن بك السعدون في رئاسة الوزارة .

ومن المهام العسيرة التي كان على الحكومة العراقية ان تنهض بها ايضاً مهمة وضع دستور للبلاد تتمثّل فيه اماني العراقيين الوطنية ومصالح بريطانية

---

(١٨٥) تجد نصه العربي في « الثورة العربية الكبرى » لأمين سعيد ج ٢ ص ١٠٥-١٠٧ ؛ وتجد مقتطفات منه في ايرلند : Ireland, Iraq, pp. 336 - 337.

في وقت معاً . وليس من شك في انه كثيراً ما تعالت الشكوى ، في بريطانية ، من نفقات السياسة الشرقية الباهظة ؛ بل إن طلب الجلاء عن العراق ما لبث أن اتخذ وسيلة للدعاية في حملة الانتخابات البريطانية التي عقبت سقوط وزارة لويد جورج في ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٢ . وكان العراق ينوء ، بدوره ، تحت عبء الادارة البريطانية التي كان رجالها يتقاضون رواتب أعلى ، الى حد بعيد ، من رواتب الموظفين الوطنيين[١٨٦]. ولكن الحكومة البريطانية لم تكن تفكّر ، على الاطلاق ، في التخلي عن البلاد وانما كان من همّها ان تُحسِن الافادة من نفوذها عند الملك حيناً ، بواسطة المندوب السامي ، وعلى الوزراء والبرلمان حيناً آخر بواسطة المستشارين . ولما كان التدخل البريطاني واضحاً في وضع الدستور ، فقد أبدى الشيعة اعنف المعارضة لانتخابات الجمعية التأسيسية التي عُيّن شهر تشرين الاول (اكتوبر) من سنة ١٩٢٢ ميعاداً لها . والواقع أن الحكومة لم توفق الى اجراء هذه الانتخابات إلا بعد أن نُفي زعماء الشيعة الى مواطنهم في فارس . ومن ثمّ التأمت الجمعية التأسيسية في ٥ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ .

المعاهدة العراقية البريطانية

ولم تصدّق الجمعية التأسيسية المعاهدة العراقية البريطانية إلا بعد مناقشات متطاولة تجاوزت شدتها ، في بعض الاحيان ، قاعة الجمعية نفسها الى الشارع ، والا بعد أن هددت بريطانية الحكومة العراقية بانها ستتقدم بطلب الى عصبة الامم يخوّلها اتخاذ اجراءات جديدة في العراق ، إذا لم توضع المعاهدة موضع التنفيذ . ومهما يكن من أمر فان مرونة الجمعية التأسيسية تأثرت ايضاً بالنزاع الناشب بين العراق وتركية حول ولاية الموصل ، وهو نزاعٌ ما كان في

---

(١٨٦) والحق ان الأجانب لم يكونوا ، على أية حال ، عاملا لا يستغنى عنه ، بالكلية ؛ في رخاء البلاد وازدهارها . يدلك على ذلك الإحصاءات الرسمية التي تشير الى تناقص الموظفين البريطانيين من ٨٧١ الى ١٦٠ موظفاً والموظفين الهنود من ٢,٠٣٥ الى ٣٦ خلال المدة الواقعة ما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣١ . راجع : Ireland, p. 367, note 2.

ميسور العراقيين أن يضمنوا فيه النصرَ من غير مساعدة بريطانية . وقد عرفت بريطانية كيف تستغلّ خوفَ العراقيين هذا لكي تنتزع منهم حقّ استثمار ينابيع البترول الغنية في كركوك ، حتى اذا حملت الأنابيب الممدودة عبر الصحراء هذا البترول العراقيّ الى ثغر حيفا الفلسطيني ، حققت الامبراطورية احدى مصالحها الاكثر حيويةً وخطراً في العراق . وهكذا أتبعت تسوية امتيازات الزيت بنشر الدستور العراقي ، في شكله النهائي ؛ في ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٢٥ .

وفي بروتوكول معاهدة ٣٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٣ مع بريطانية اتُفق على ان تنتهي مدة المعاهدة عند انضمام العراق الى عصبة الأمم . وحتى ذلك الحين ، تعهدت بريطانية بأن تدرس كل اربع سنوات ــ طوال خمسٍ وعشرين سنة ــ امكانيةَ ترشيحها العراق لعضوية عصبة الامم ، وما اذا كانت الاتفاقات المتصلة بالمالية والجيش تحتاج الى تعديل . حتى اذا انقضت المرحلة الأولى ، سنة ١٩٢٨ ، شخصَ فيصل وكبير وزرائه جعفر العسكري الى لندن حيث سَعيَا في سبيل إقناع الحكومة البريطانية بان العراق امسى من النضج في محل يؤهله للانتظام في صفوف اعضاء العصبة ؛ ولكنّ الحكومة البريطانية وعدتهما بتحقيق ذلك سنة ١٩٣٢ . فلما تولى حزب العمال الحكم ، انتعشت آمال العراقيين ــ كما انتعشت آمال المصريين ــ في ان تتفهم بريطانية رغباتهم الوطنية وتعمل على تحقيقها . والحق ان الحكومة الجديدة لوّحت بأملها أن تتبنى إدخال العراق في عصبة الأمم عند حلول عام ١٩٣٢ وأعلنت استعدادها لعقد معاهدة جديدة مع العراق ، ومع مصر ايضاً . وعلى الرغم من ان الوطنيين احتجوا في عُنفٍ على التحفظات البريطانية ــ القاضية بوضع موارد العراق تحت تصرّفٍ بريطانية في حال الحرب والأفادة الدائمة من القواعد الجوية ــ فقد كان البرلمان العراقي الجديد على استعداد لان يصدّق المعاهدة ، في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ومن ذلك الحين بدأت بريطانية فعلاً في تصفية جهازها

الاداري في البلاد. وبعد ان تعهد العراق في ٣٠ نوار (مايو) سنة ١٩٣٢ بأن يحترم حقوق الاقليات وبأن يطبّق نظاماً قضائياً موحداً على جميع الرعايا العراقيين وعلى جميع الأجانب على السواء؛ قُبل عضواً في عصبة الامم في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) من السنة نفسها.

فتنة الآشوريين

وكدّرت صفوَ السنة الاخيرة من عهد فيصل مشكلة خطيرة. ذلك بأن البقية الباقية من الاشوريين [187] الذين نجوا من الهلاك على ايدي اعدائهم القدماء، الاكراد، كانوا بعد عقد الصلح بين الحلفاء ودول الوسط يقطنون ولاية الموصل، وكانوا يعاملون معاملة حسنة بشكل خاص من جانب السلطة البريطانية المنتدبة، نزولاً عند رغبة رجال الدين الانكليكان، ولأنهم أثبتوا صلاحهم للخدمة العسكرية ايضاً. ووضع هؤلاء الاشوريون ثقتهم بهذه الضمانة فدخلوا في خدمة البريطانيين العسكرية بوصفهم قوات مرتزقة واشتركوا اشتراكاً فعلياً في الحرب ضد جيرانهم الاكراد لاخماد عدد من ثورات هؤلاء المتعاقبة فكسبوا عداوتهم المرة. فلما تقلص النفوذ البريطاني افتقدوا تلك المعاملة الخاصة التي ألفوها فلم يكن منهم إلا ان انساقوا، في تهوّر وطيش، إلى الثورة على الحكومة الوطنية، ولكنّ الزعيم (الكولونيل) بكر صدقي أخمد ثورتهم هذه بقسوة بالغة.

وتوفي فيصل في ٨ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٣ فكان في موجة الحزن التي عمت العراق لدن نعيه ما يشهد على ان القوم كانوا يلمسون في حكمه فائدة كبرى للبلاد. ومع أن مشورات المندوبين السامين البريطانيين وارشاداتهم كانت تحول بينه، في بعض الاحيان، وبين القيام بخطوات بالغة الجرأة، إلا إنه يستحق، من غير شك، الثناء لما وفّق اليه من تدعيم سلطة العرش

---

(١٨٧) الأشوريون هم النساطرة الناطقون بالسريانية، وقد ثاروا في الحرب العالمية الأولى على الأتراك.

الذي رقّيه — على كل حال — كرجل غريب عن البلاد ، وفي ظروف دقيقة صعبة الى ابعد الحدود . والحق ان حنكته الكبيرة مكّنته من أن يجد — وسط الشعب العراقي غير المتجانس اجتماعياً ودينياً — مستشارين مستعدين دائماً لان يؤيدوا خطته السياسية التي اختيرت منذ البدء اختياراً صالحاً والتزمت التزاماً كاملاً والتي تهدف الى السير بالبلاد نحو الحياة السياسية المستقلة والرخاء الاقتصادي مع المحافظة على الاساليب البرلمانية والاعتراف بمطالب بريطانية لا سيما وان البلاد لم تكن قد اصبحت بعد في غنى عن الحماية البريطانية . والكثرة الكبيرة من الوزارات التي ألفت في عهده إنما كانت تتلقى أوامرها منه لا من البرلمان ، ولم يتدخل مرة في شؤون الحكومة إلا وكان ذلك التدخل لمصلحة البلاد . ولقد استطاع فيصل ان يحسّن صلاته ، بوساطة بريطانية ، مع خصم اسرته القديم ، عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز ؛ الذي كان ينزع في وقت من الاوقات الى بسط سلطانه في اتجاه الشمال ، على حساب جاره الهاشمي . وهكذا صار في الامكان ان يعقد العراق ، في ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٦ وفي عهد غازي بن فيصل ، معاهدة صداقة مع الملك السعودي .

الملك غازي الأول

رقيَ غازي الاول العرش في الحادية والعشرين وهي سنٌ لم تكن لتؤهله لمواصلة عمل أبيه ، بالنجاح نفسه . والواقع ان أولى محاولاته ، بعد ارتقائه العرش ، لتشكيل حكومة جديدة قد اخفقت بسبب العداء المستحكم بين مستشاريه البريطانيين ومستشاريه العراقيين ، ومن هنا لم يكن له تأثير حاسم في التقلبات الحكومية التالية أيضاً . وقد تجلى اضطراب الوضع السياسي الذي عانته البلاد ، في انقلاب ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) العسكري . وتفصيل ذلك أن قامع فتنة الاشوريين ، بكر صدقي الذي سبق للملك أن رقاه ، بدافع من حماسة الشباب واعجابه بأعماله البطولية ، الى رتبة فريق ،

هاجم العاصمة بجيوشه وطائراته ، بينما كان يقوم بمناورات عسكرية ، بالقرب من بغداد ، لكي يُسقط وزارة ياسين باشا [الهاشمي] المتّهم بانه ذو نزعات رجعية . وفي اثناء المفاوضات اغتيل وزير الحرب جعفر باشا [العسكري] ، وكان شيخاً كبيراً يتحلى بمواهب عالية . وبعد انسحاب ياسين باشا تقلد زمام الحكم حكمت سليمان – اخو محمود شوكت باشا كبير وزراء تركية سنة ١٩١٣ – وأعوان بكر صدقي . واذا كان ياسين الهاشمي قد جاهر غير مرة بأعجابه العظيم بأتاتورك فالحق أن العراق لم يشهد محاولة جادّة بسبيل اتباع اساليب اتاتورك إلا في عهد الحكومة الجديدة . ولكن الاوضاع كانت غيرها في تركية . فقد كانت تركية غير خاضعة لايما سلطان اجنبي وكان شعبها متجانساً متراصاً . اما العراق الخاضع لرقابة بريطانية واشرافها فقد تعيّن عليه ان يتابع النضال في كثير من الصعوبة والعُسر في سبيل حلّ مشاكل الاقليات واقامة التوازن بينها ، والعمل على تعمير الداخل ، وتدعيم الوضع المالي .

الحياة العقلية في العراق

هذه السنوات العاصفة لم تكن مواتية ، على الخصوص ، لازدهار الحياة الفكرية في العراق . وإذ كانت العناصر الاهلية الشيعية والسنية ، المتنافسة في احياء تراث البلاد الادبي القديم ، خاضعةً لسلطان هذا التراث خضوعاً هو اقرب الى العبودية ، فقد وجهت الحكومة وجهها ، في المحل الاول ، نحو سورية ومصر لتجتذب ممثلي الثقافة الحديثة الى البلاد ؛ ولكن هؤلاء نادراً ما استطاعوا الاحتفاظ بمناصبهم فترات طويلة لشدّة حساسية العصبية العراقية . وهكذا فُصِل سنة ١٩٢٧ احد الاساتذة السوريين الشباب من عمله كمدرس للتاريخ في دار المعلمين بغداد لانه وضع كتاباً مجّد فيه الامويين *

* هو الأستاذ انيس زكريا النصولي صاحب كتاب « الدولة الأموية في الشام » مطبعة السلام، بغداد ، ١٩٢٧ . (المعربان)

ومهما يكن من أمر فقد أخذت روح الثقافة الحديثة تقتحم بتأثير الصحافة المصرية أبواب العراق ، شيئاً بعد شيء ، محاولةً أن تنتزع الميدان من المحافظين وخاصة في حقلي الشعر والتأريخ .

فارس وافغانستان

الروس والبريطانيون في فارس بعد الحرب العالمية

كانت الفوضى تسيطر على بلاد الفرس كلها ، تقريباً ، بُعَيد انقضاء الحرب العالمية الأولى . صحيح ان البلاشفة تخلوا عن جميع مكاسبهم وعن مطامع الحكومة القيصرية في البلاد إثر معاهدة برست ليتوفسك * مباشرةً ؛ ولكن البريطانيين احتلوا في الحال ، المناطق التي جلت عنها الجيوش الروسية . وفي ٩ آب (اغسطس) سنة ١٩١٩ وُفّق السير پرسي كوكس الى عقد اتفاق مع فارس أُخضعت بموجبه الحكومة والجيش ، على غرار الحال في مصر والعراق ، لسلطة «المستشارين» البريطانيين . وفي الوقت نفسه كان في باريس وفدٌ فارسي ، يسعى على غير طائل ، ومن غير تعليمات كافية من حكومته ، الى اثارة انتباه الحلفاء وكسب عطفهم ، في حين كان هؤلاء منهمكين في النزاع على مصير العالم .

ولكنّ البلاشفة ايضاً ما لبثوا ان استأنفوا نشاطهم في فارس . فبعد احتلال باكو في نوار (مايو) سنة ١٩٢٠ تعقّب البلاشفة عمارة بحرية صغيرة تحت إمرة الجنرال الروسي الابيض دنيكين ** كانت قد فزعت

---

* Brest - Litovsk

** Denikin

الى ثغر أنزَلي الفارسي الواقع على بحر قزوين ، حيث جرّدها الفرس من السلاح ؛ وقد قصفوا الثغر بنيرانهم وطاردوا القوة البريطانية المتقهقرة داخل البلاد حتى « رشت » ، حيث اقاموا حكومةً موقتة برئاسة كوَجك خان . والواقع انهم كانوا قد شرعوا يتهددون طهران ، عندما استولت فرقة القوزاق الفارسية على رشت لتنسحب بعدُ الى ما وراء الخطوط البريطانية .

وقد عزا ضباط القوزاق الفُرسُ هذا الأخفاق ، ولعلّهم لم يَعْدُوا الحقّ ، الى رفاقهم الروس . وكان بين هؤلاء الضباط رضا خان المازَنْدَراني وهو ابن ضابط برتبة « سرتيب » (قومندان) ، وقد وُلد في سَوَادْكُوه ، في ١٦ آذار (مارس) سنة ١٨٧٨ . وكان رضا خان قد اشتبك مع الروس في معركة صغيرة عندما سرّح تنفيذاً لأوامر حكومته ، ضابطاً روسياً كان قد رفض أن يتخلى عن منصبه . ليس هذا فحسب ، بل لقد عدا ذلك الى تسريح الضباط الروس جميعاً بالحزم ذاته ، والى إنشاء حرس خاص بنفسه مخلص له كلّ الاخلاص ، من افراد كتيبة القوزاق التي استعادت بفضله مكانتها العسكرية .

وبينا كان البريطانيون لا يزالون يفكّرون في التخلي نهائياً عن مركزهم المتقلقل في فارس كان السفير الفارسي « مشاور الممالك » يفاوض شيشرين * في موسكو لعقد معاهدة تخلّت الروسيا ، بموجبها ، عن جميع ممتلكاتها في الاراضي الفارسية ، وتنازلت عن جميع حقوقها الناشئة عن الامتيازات القديمة .

رضا خان يزحف على طهران

وكانت حكومة طهران ، وعلى رأسها الشاه احمد [القاجاري] ، عاجزةً عن رسم خطة سياسية واضحة تتمشى عليها ؛ من أجل ذلك عزمَ

---

* Chicherin

ضباط القوزاق في قزوين ، نزولاً عند رغبة رضا خان ، على التدخل في العاصمة . وحسب الضبّاط ان حركتهم هذه في حاجة الى أديب ذرب اللسان ، بليغ البيان ، فاذا هم يقعون على ضالتهم المنشودة في شخص السيد ضياء الدين . وفي ٢ شباط (فبراير) بلغ رضا خان وجنوده — وعدّتهم ٢٥٠٠ رجل — ابواب العاصمة ليفرض على الشاه حكومةً جديدة . وبعد معركة قصيرة مع رجال الدرك انضمّ قائدهم السويدي الى صفوف القوزاق . فلم يكن من الشاه — وكان قد بدأ يستشعر الخوف على ذاته — الا ان وافق من غير ما معارضة على تشكيل حكومة جديدة برئاسة ضياء الدين الذي سارع الى محاسبة الحكّام السابقين الذين لم يكن لهم همّ غير الأثراء على حساب الشعب ، وصادر اموالهم التي جمعوها بطرق غير مشروعة وردها الى خزينة الدولة . وعُيّن رضا خان وزيراً للحرب وقائداً أعلى (سَرْدارِسپه) فتفرّغ في همة لا تعرف النّصَب ، لتحويل بقايا الجيش المتفرقة في البلاد ، بالاضافة الى كتيبته القوزاقية ، الى جيش حديث مستعدّ للقتال . حتى اذا اراد رئيس الوزراء ، ضياء الدين ، ان يفرض على هذا الجيش مدرّبين بريطانيين ، تخلّص رضا خان منه وحمل الشاه على ان يعهد في رئاسة الحكومة الى قوام السلطنة ، احد حكّام الولايات المعتقلين .

النضال ضد الثوار

ولكن حكام الولايات أقاموا على رفضهم الخضوعَ للسلطة المركزية الجديدة . ففي جيلان كان على الحكومة أن تقضي ، لا على كوجك خان الذي كان الروس قد نصّبوه هنالك فحسب ، بل على عددٍ من زعماء العصابات الآخرين المؤيدين من جانب الروسيا ايضاً . وفي آذَرْبَيْجان أعلن احد زعماء الاكراد الجمهوريةَ ، وكان الحزم يقتضي الحكومة ان تعجل في إخماد فتنته قبل ان يستشعر البلاشفة ان من مصلحتهم الوقوف الى جانبه . وخلالَ سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ أخضع رضا خان ، في حرب العصابات المدمرة

التي خاضها ضد الثوار ، الاجزاء الشمالية من البلاد ؛ وفي سنة ١٩٢٣ تدخّل أيضاً في الجنوب حيث كان البريطانيون قد قضوا على هيبة الحكومة المركزية قضاء كاملاً .

وكان رضا خان لا يأبه ، وهو في ميدان القتال ، بما كان يدبر في العاصمة من مؤامرات أدت ثلاث مرات إلى زحزحة رئيس الحكومة من منصبه ليحلّ محله رجل آخر . حتى إذا اكتشف في تشرين الأول (اكتوبر) مؤامرة كان قوام السلطنة يدبرها للقضاء على حياته هو (اي رضا خان) تولى رئاسة الوزارة بالاضافة الى وزارة الحرب . أما الشاه الذي كان ، شأنَ أسلافه ، لا يفكر في غير مصلحته الشخصية ، فقد رأى من الخير له أن يتهرّب من أداء واجباته برحلة يقوم بها في اوروبة ، فترةً غير محدودة من الزمان .

أزمة دستورية

والواقع ان وَضع رضا خان كان يُشبه وضع مصطفى كمال الى حدّ بعيد حتى ليتوقع المرء منه أن يسلك مسلك زميله التركي من حيث القضاء على السلطنة وإلغاء الخلافة . ولكن رضا خان كان من الحصافة بمحلّ جعله لا يغالي في تقدير قوته في بلاد هي من الناحية القومية ، ابعد ما تكون عن الوحدة ، وهي من الناحية الدينية غير متراصّة على الرغم من ان الشيعة يؤلفون كثرة سكانها . وهكذا التزم جانب الحذر عندما صدرت الدعوة الى اعلان الجمهورية ، سنة ١٩٢٤ ، من جهتين : فبينا كان «حزب النهضة» الممثل في المجلس يعتقد ان في إمكانه حمل البرلمان في ما بعد على تعديل الدستور بما يتفق وميوله الجمهورية ، ناضل المجتهد الشيعي محمد الخالصي ، الذي كان البريطانيون قد نفوه من النجف ، في سبيل إجراء انتخابات جديدة تنبثق عنها «جمهورية شعبية» ، ولعله فعل ذلك تحت تأثير النفوذ البلشفي . وفي آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ جرت حول مسألة الدستور مناظرات عنيفة

في المجلس ترددت أصداؤها في ضروب الشغب الشارعي والاضرابات العامة . والحق ان رضا خان عالج القضية الجمهورية بحنكة وكياسة ظاهرتين . فقد قصدَ الى مدينــة قُمّ المقدسة حيث كلفه رجــال الدين فيها — وكانوا يتمتعون باحترام عظيم في طول البلاد وعرضها — أن يدافع عن الاسلام ، بوصفه الأساس الذي تقوم عليه الدولة ، ضد الثورة الحديثة . حتى إذا اصدر بياناً من هناك فلم يلق آذاناً واعية استقال من مناصبه ، ورجع في ٨ نيسان (ابريل) الى رُوذَان . عند ذلك هدّد قوادُه بالزحف على طهران ؛ وفي الحال شخصت بعثة من المجلس لمقابلة رضا خان تلتمس منه العودة . ووجد المجلس نفسه مضطراً الى اعلان ثقته به ، فتقلد ازمّة الحكم من جديد . وبعد أن اخضعت قواته ثورة كانت قد اندلعت في اثناء ذلك بين اللور ، أفرغ همته كلها في سبيل انشاء الجيش وتعزيزه ، مزوّداً إياه بالاسلحة الحديثة التي استوردها من المصانع الفرنسية .

وكانت خوزستان ، الآهلة بكثرة من العرب ، آخر الولايات خضوعاً للحكومة المركزية ، وتفصيل الأمر ان بريطانيا كانت قد وضعت يدها على آبار البترول في هــذه الولاية منذ سنة ١٩٠٥ من طريق معاهدة عقدتها مع الشيخ خزعَل أمير المحمّرَة . وكان الجيش البريطاني الهندي قد احتلّ جنوبي العراق ، عند نشوب الحرب العالمية الاولى ، صيانةً لانابيب البترول المنتهية في عبادان ، على فم شط العرب ، والتي تُمِدّ السفن البريطانية العاملة في المحيط الهندي بحاجتها من الوقود . والواقع ان حكومة طهران منحت ، في ذلك الحين ، شركةَ الزيت البريطانية الفارسية امتيازها ، ولكن بريطانية كانت قد عقدت معاهدة خاصة مع الشيخ خزعل الذي كان يحكم الضفة اليسرى من شط العرب بكاملها ومياه نهر قارون الدنيا الصالحة للملاحة ابتداء من الاهواز [حتى المحمرة في الجنوب] ، ووعدته بمساعدة عسكرية إذا ما تعرّض لأي اعتداء . ومع ذلك فقد تقاعست عن تطبيق المعاهدة عندما دعاه رضا خان الى أداء الضرائب المتأخرة . وحاول خزعل ،

العجوز ، تحريض قبيلة البختيارية – التي انتزعت السلطة فترة من الزمان أثناء الثورة الفارسية – على رضا خان ، ولكن عبثاً ، حتى اذا زحف هذا الاخير على رأس قواته الى خوزستان لم يبقَ امام الشيخ ما يستطيع ان يفعله غير الاستسلام . وعلى اثر هذه الحملة التي لم تُرَق فيها الدماء والتي أعادت الامبراطورية الايرانية الى حدودها القديمة حجَّ رضا خان الى مدن الشيعة المقدسة في العراق .

خلع الشاه احمد

وعلى الرغم من هذه الانتصارات المؤزّرة التي تمت للسردار سبه بهلوي (كما اراد رضا خان ان يُدعى ، منذ ذلك الحين ، بعد ان اصطنع اسم أسرته القديم) فقد تعلّق الشاه احمد ، المقيم في باريس ، بآمال فارغة خيّلت له أنه لا يزال في ميسور ابنه محمد حسن ميرزا ، الذي بقيَ في طهران ، أن يجمع شمل أنصار القاجار للقيام بحملة تكون في صالحه . ومع أن المجلس لم يؤيد اقتراحاً عُرض عليه بضرورة دعوة الشاه الى العودة فقد جروٌ في غرة تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٢٥ على ان يحيط رئيس الوزراء علماً بأنه مزمع على القدوم الى الوطن . فلم يكن من رضا خان إلاّ ان كتب الى الشاه في كثير من الحصافة ، مُرحباً بعزمه هذا ، وإلاّ أن اذاع النبأ في طول البلاد وعرضها من طريق الرسائل والمناشير . والحق ان ولاية آذربيجان هي التي تزعمت هذه المرة ايضاً الحركة المناوئة للقاجار . وقد بدأت هذه الحركة ؛ اول ما بدأت ، باعتصام الثائرين في المساجد (بَسْت) وفقاً للمألوف عندهم في حال الثورة . أما أنصارهم في طهران ، فقد اعتصموا في الكلية الحربية ، وامطروا رئيس الوزراء البهلوي وابلاً من الرسائل يطلبون فيها ان يحول دون عودة الشاه البغيض . وأخيراً اجتمع المجلس في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) للمناقشة في اقتراح يقضي بخلع الشاه وتحويل السلطة التنفيذية الى رئيس الوزراء ريثما تقوم جمعية وطنية جديدة بوضع دستور للبلاد جديد . وعلى الرغم من ان بطل الدستور العجوز ،

النائب تقي زاده ، قد تدخل كرة أخرى للدفاع عن الدستور دفاعاً جريئاً ، فقد أقرّ المجلس الاقتراح ، إثر مناقشة قصيرة . وفي اليوم نفسه أخرج رضا خان وليّ العهد من قصر كلستان ، مبعداً إياه الى بغداد ، من طريق قزوين .

رضا بهلوي يتوج شاهاً على ايران

وفي سبيل الحفاظ على الشكل تناقشت الجمعية الوطنية الجديدة طوال ستة أسابيع في الدستور الجديد الذي اصطفى رضا شاه بهلوي عاهلاً وراثياً على إيران ، ريثما يُقسم يمين الولاء للدستور الجديد في المجلس ، في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٢٥ . وفي نيسان ابريل) سنة ١٩٢٦ ارتقى رضا «عرش الطاووس» المتألق بجواهر يرجع عهدها الى حملة نادر شاه على الهند .

وإنما كان ذلك ايذاناً ببدء عهد من التقدم والرقي في ايران التي استطاعت ان تعوض ، في مدى عقد واحد ، ما قد أُهمل في قرون . فقد وفق الشاه الجديد الى ان يداري ، بحكمة ، أحاسيس رجال الدين الشيعة الذين ما فتئوا يتمتعون بنفوذ كبير ، كما وفّق الى ان يقود ، في الوقت نفسه ، الشعب الايراني في معارج الحضارة الحديثة . والحقّ ان هذا الجندي المحنك أقام الدليل على أنه رجلُ دولةٍ من الطراز العالي استطاع ان يضع موضع التنفيذ إصلاحاتٍ ذات فائدة في جميع ميادين الحياة السياسية . وكان «المجلس» لا يزال قائماً اسمياً ، بيد انه لم يبق له من عمل غير قبول القوانين التي يسنها الشاه . وادرك رضا شاه ، في تبَصّر جازم ، أنّ رَبْط أجزاء البلاد بعضها ببعض من طريق وسائل جديدة للمواصلات يجب ان يكون اساساً يقوم عليه كل اصلاح ؛ وهكذا نشطت الحكومة ، سنة ١٩٢٥ ، لبناء السكك الحديدية مُنفقةً في هذه السبيل عائداتها من الضرائب المفروضة على مادتي الاستهلاك الرئيسيتين ، أعني الشاي والسكر ، وهي اعظم العائدات التي كانت تجنيها

الدولة على الاطلاق . وانما بدأت بانشاء الخط الشمالي الجنوبي الممتدّ من بَنْدَر شاه — وهي أنزَلي قديماً — على بحر قزوين حتّى بندر شاپور ، على الخليج الفارسي ، شركة ج . برجر * الالمانية سنة ١٩٢٩ وأتمتّه ابتداء من سنة ١٩٣٣ شركة كامبساكس ** الهولندية السويدية . والحق ان هذه الانشاءات التي تُعَدّ احدى معجزات التقنية *** الحديثة استطاعت ان تذلّل ، خلال ثلاث سنوات ، جبال الشمال بخمسة وسبعين نفقاً وعدد كبير من الجسور ؛ وفي ٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٧ صار في الامكان تدشين الجزء من الخط الممتد حتّى طهران على مسافة ٤٦١ كيلو متراً يستغرق اجتيازها خمس عشرة ساعة . ويستطرد الخط سبيلَهُ عبر قُم وسُلطان آباد مجتازاً مائة وخمسين نفقاً في جبال زَارگز **** أما الخط الذي بدىء بانشائه في الوقت نفسه من الخليج الفارسي فقـــد رُبط بالخط الشمالي في ٢ آب (اغسطس) سنة ١٩٣٨ .

الإصلاح المالي

وفي سنة ١٩٣٧ أُعيد تنظيم الحياة المالية . فعُهِد الى البنك الوطني (بنك ملّي) في إصدار الاوراق المالية بدلاً من البنك الامبراطوري المؤسس سنة ١٨٩٠ ؛ والوحدة النقدية الفارسية هي الريال ؛ وتعادل قيمته أربعة سنتات ذهبية . وقد بلغت اوراق النقد المتداولة سنة ١٩٣٧ ثمانمائة مليون ريال . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٢ نُشِرت الاتفاقية المعقودة مع شركة النفط البريطانية الفارسية التي تستخدم ، في خوزستان ، عشرين الف

---

* J. Berger

** Kampsax

*** التكنيك

**** Zagros ذكرت هذه الجبال في القسم الأول من هذا الكتاب حيث ضبطت « الصقر » . أما المتعارف الآن في فارس فما ضبطناه هنا « زارگز » بالكاف الفارسية المضمومة . (المعربان)

عامل ايراني ، وهي في صيغتها الجديدة تضمن للدولة نصيباً من انتاج الشركة وعائداتها .

وفي سنة ١٩٢٨ الغيت الامتيازات الاجنبية — التي لا تتفق وكرامة الدولة الحديثة — على الرغم من معارضة بريطانية العنيفة لذلك . وبدلاً من القانون الديني [الشريعة] الذي كان نافذاً وحده حتى ذلك الحين ، وُضع موضعَ التنفيذ قانون مَدَني جديد وآخر للعقوبات ؛ وقد بُنيا على الاساس الفرنسي .

وعرفت فارس ، في عهدها الجديد عناية خاصة بالزراعة . وكان حتماً على الدولة ان تحضّر البدو الذين انتهى تأخرهم في كثير من الاحيان إلى ان يكون خطراً عليها ؛ من اجل ذلك وُزّعت عليهم سنة ١٩٣٧ ، الأراضي الاميرية الواقعة قرب بوشير (بوشهر) . ونَشرَت المدارسُ الزراعية والمزارعُ النموذجية الاساليبَ الحديثة في استغلال الأرض واستثمارها . وفي سنة ١٩٣٤ وزعت الحكومة مليوني نبتة شاي في البلاد . ليس هذا فحسب ؛ بل لقد جَعلت اليوم الخامس عشر من شهر آذار (مارس) مهرجاناً للشجرة ، لكي تربط الفلاحين بالارض ، برباط روحي أيضاً .

وتغلب الفُرس ، منذ سنة ١٩٢٦ ، على عقبة من اصعب العقبات الحائلة دون تقدمهم ، أعني تخلّف المرأة عن مجاراة روح العصر . تخلفاً اقتضته العادات الدينية والاخلاقية ، وذلك بألغاء الـ « چَادُر » وهو اشد أشكال الحجاب صرامةً ؛ حتى اذا كانت سنة ١٩٣٦ بطل الحجاب نهائياً في فارس . وفي سنة ١٩٣٥ أسست الاميرة شمس بهلوي أول النوادي النسائية وأول فرق البنات الكشفية . وفي السنة نفسها أصدرت الحكومة قانوناً جديداً للزواج رفع الحد الادنى لسنّ الفتيات المرشحات للحياة الزوجية إلى الخامسة عشرة ، ومنح المرأةَ حق الطلاق إذا ما رغب بعلها في الزواج من امرأة اخرى .

ونمت الحركة التعليمية نمواً مطرداً . ففي سنة ١٩٣٥ تخرجت من المدارس

الايرانية ٣,٢٥٣ فتاة ، إلى جانب ٦٦٢١ فتى . وفي ٤ شباط (فبراير) ١٩٣٥ افتُتحت في طهران جامعةٌ تنتظم كلية للعلوم الطبيعية ومعهداً موسيقياً (كونسرفاتوار) ؛ وقد نهض بعبء التدريس فيها ، عدا الاساتذة الوطنيين ، نفرٌ من الاساتذة الأوروبيين . ليس هذا فحسب بل لقد أنشأت الحكومة ، في تلك السنة نفسها ، المجمعَ (الاكاديمية) الايراني ، « فَرْهَنْگستَان » ؛ المؤلف من سبعة وثلاثين عضواً والذي قُصِد منه إلى ان يعمل – شأن مجمعي دمشق والقاهرة – على تنقية اللغة قبل كل شيء . وعرَف الادب الفارسي – الذي كاد يذوى في عهد القاجار رغم عبقرية الايرانيين – نهضة قوية في العهد الجديد ، فأخرج ثمرات مُرضية وبخاصة في حقل التأريخ . والواقع ان الاعتزاز بتراث إيران الفكري الخصب كان له ابعد الأثر في تعزيز العِزّة القومية عند الايرانيين ؛ وقد تجلى ذلك اوضح ما يكون في الاحتفال بالذكرى الالفية لميلاد شاعرهم الكبير الفِردَوْسي ، سنة ١٩٣٤ . ولكن تاريخ البلاد السابق للاسلام كان قد اكتسب هو الآخر عناية الفرس من مهندسين وفنانين وصناع ، فلما اعيد تشييد البنك الوطني في طهران ذهبت الجرأة بالمهندس المعمار الى حدّ حاول فيه ان يحذو حذو الفكرات المعمارية التي تتمثل في ايوان كسرى في عاصمة الساسانيين ، المدائن .

وفي صعيد السياسة الخارجية وفّق رضا خان بهلوي الى أن يعزّز ، بالاضافة الى مصالح بلاده ، الحياة الثقافية والدينية في الشرقين الادنى والاوسط . وفي سنة ١٩٢٥ عمدَ ، عقب تقلده ازمّة الحكم مباشرة ، إلى تعيين حدود بلاده تعييناً رسمياً ، في الجنوب والجنوب الشرقي بمعاهدات عقدها مع البريطانيين في بَلوخستان ومع الحكومة الافغانية . وفي حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٤ انشأ علاقات شخصية مع أتاتورك من طريق زيارة قام بها الى أنقرة . وفي ٨ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٧ عُقدت ، في سَعد آباد (مقرّ الشاه الصيفي ، الباعدة ستة عشر كيلو متراً شمالي طهران) معاهدة مع تركية والعراق وأفغانستان ، لمدة خمس سنوات ، ضمنت بموجبها

كلٌ من الدول الاربع حدود الدولة الاخرى ؛ وتعهدت بالامتناع عن كل تدخّل في شؤون الدولة المجاورة الداخلية ، كما تعهدت هذه الدول جميعاً بأن تحلّ ايما خلاف قد ينشأ فيما بينها من طريق المفاوضات السلمية ، وان لا تعقد ايما محالفات عدوانية مهما تكن مع الدول الاخرى . وشدّ الزواج الذي مهد له الشاه بين وليّ عهده والاميرة [فوزية] * المصرية اواصرَ الصداقة بين هاتين الدولتين الاسلاميتين بعد ان استعادتا حريتهما واستقلالهما .

افغانستان في العصر الحديث

ولعبت جارة إيران الشرقية ، افغانستان – منذ الحرب العالمية الاولى – دوراً ناشطاً في وقاية العالم الاسلامي من خطر الغرق في خضمّ الروسيا والخضوع لسلطان بريطانية . والواقع ان آخر محاولة قامت بها بريطانية لاخضاع البلاد انتهت سنة ١٩١٩ الى انتصار ديبلوماسي احرزته افغانستان – برغم هزيمتها العسكرية – إذْ تخلّت بريطانية نهائياً عن فكرة الاستيلاء على هذه البلاد . وكان على الروسيا ان تتخلى بدورها عن خطتها القاضية بأدماج افغانستان في حلقة الجمهوريات التركية السوفياتية التي اسستها ؛ وقد فقدت ، من غير شك ، والى الأبد ، كل امل في اجتذاب افغانستان الى فَلَكها الثقافي نتيجةً للدعاية الالحادية التي اخذت في بثّها في البلاد الاسلامية أيضاً ، والتي اكرهت كثيراً من المؤمنين على الهجرة الى افغانستان . وتعرّض مركز السلالة المالكة للخطر ، فترةً من الزمان ، بسبب خطأ ارتكبته . وتفصيل ذلك ان الامير أمان الله خَلَفَ أباه الشاه حبيب الله الذي قتله الثوار في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٩ بقيادة أخيه نصر الله . وقد وُفق الى إخضاع ثورتي الأليزاي في سنة ١٩٢٣ ، والمنْكَل سنة ١٩٢٤ ، كما اخضع ثورة الباتان الذين عاشت كثرتهم في الهند تحت الحكم البريطاني .

---

* وقد تم الطلاق بينهما مؤخراً . (المعربان)

ولكن حماسته في سبيل الاصلاح — من غير ما روية ودونما تدرّج — كلّفته عرشه . ذلك بأنه سعى لرفع بلاده ، اسوةً بأتاتورك ورضا بهلوي ، الى مراتب الدول المتمدنة — دفعة واحدة — من طريق تعريفها بجميع مبتكرات العلم الحديث ، وإجراء الاصلاح في الأدارة والقوانين ، والنهوض بالنظم التعليمية ، وبالعمل — فوق كل شيء — على انشاء جيشٍ نظاميّ . بيد ان النقمة التي احدثتها هذه التدابير في نفوس رعيته — ولم تكن على نضج يمكنها من تمثل تلك الحركة — ما لبثت ان تفجرت سنة ١٩٢٨ في اثناء رحلته الى اوروبة لاعداد العدة للاصلاحات الجديدة . حتى اذا رجع مسرعاً الى وطنه حاول — ولكن على غير طائل — إخضاع الثورة التي كان قائدها باجا سقا ، قد استخلص البيعة لنفسه وتلقّب بحبيب الله الثاني . وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٩ اضطر أمان الله الى التخلي عن العرش ومغادرة البلاد . ولم يوفق ابن عمه نادر خان الى القاء القبض على زعيم الثوار ، الذي تمركز في كابُل وإعدامِه إلا في تشرين الاول (اكتوبر) . وعلى الرغم من انه وضع حداً لجميع التدابير التي اتخذها امان الله ، والتي ادت الى الثورة ، فقد صُرِع في قصره في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٣ ونُودي بابنه محمد الظاهر خان ملكاً على البلاد ، وليس له من العمر غير عشرين سنة . ولم يعكّر صفوُ عهده ، حتى سنة ١٩٣٩ ، غير مرّة واحدة ، وذلك عندما شقّ عصا الطاعة في وزيرستان (كانون الثاني « يناير » سنة ١٩٣٤) ثائر مغامر هو محمد سعدي الجيلاني الدمشقي ولكن هذه الثورة أُخمدت في الحال .

وفي سنة ١٩٢٣ عقدت افغانستان معاهدة مع جارتها ، فارس ؛ وفي سنة ١٩٣٧ أُتبِعَت هذه المعاهدة بميثاق سعد آباد الذي سبقت الأشارة اليه ، والذي جعل افغانستان طرفاً في هذه المحالفة الدولية التي تزعمها الشاه رضا بهلوي . وكان نادر شاه قد منح البلاد ، قبل ذلك ، (٣١ تشرين الاول « اكتوبر » سنة ١٩٣١) دستوراً يُشبه الدستور الفارسي ولكنه احتفظ

بالسلطة التنفيذية للشاه ووزرائه . ومنذ ذلك الحين عاودت افغانستان سلوك سبيل الاصلاح ، في حذر واحتياط ، من طريق الجهود التي بذلتها الحكومة لاقتباس الاساليب الاوروبية وتكييفها حسب حاجاتها . والواقع ان الفكرة القومية نمت واشتدت أيضاً . ففي سنة ١٩٢٨ انشئت في كابُل أكاديمية هدفها تعزيز اللغة الوطنية ، البُشْتو ، وتنميتها حتى تصبح لغة الأدب والعلم . وكانت لغة التأليف ، ولغة الصحافة نفسها ، حتى ذلك الحين ، هي اللغة الفارسية وحدها . فلما انشىء المجمع اللغوي شرعت لغة البشْتو تغزو الصحافة شيئاً بعد شيء ؛ وفُرضت معرفتها على جميع موظفي الدولة . ومهما يكن من شيء ، فلا يزال امام الدولة الافغانية ، وهي اصغر الدول الاسلامية سناً ، مدى شاسع يجب ان تقطعه قبل ان تتبوأ مركزها الى جانب حليفاتها من الدول الاسلامية .

جدول تاريخي

سنة	١٠٦ م	سقوط الدولة النبطية .
	٢٧٣	نهاية الاسرة الحاكمة العربية في تدمر .
	٥٢٩	الحارث الخامس الغساني يصبح بطريقاً وينال « التاج » .
	٥٣٠	الاحتلال الحبشي لبلاد العرب الجنوبية .
حوالى	٢٥٠ — ٦٠٢	الدولة اللخمية في الحيرة .
	٦١٠	انتصار العرب على الفرس في ذي قار .
	٦٢٢	الهجرة النبوية وبدء التاريخ الاسلامي .
	٦٢٤	وقعة بدر وانتصار النبي على أهل مكة .
	٦٢٥	وقعة أحد واندحار النبي .
	٦٢٧	وقعة الخندق .
	٦٢٨	اخضاع الجاليات اليهودية في الجزيرة العربية .
	٦٢٩	موتة وانتصار البيزنطيين على المسلمين فيها .
	٦٣٠	فتح مكة . وقعة حنين .
	٦٣٢	حجة الوداع . وفاة النبي (٨ حزيران) .
٦٣٢	— ٦٣٤	خلافة ابي بكر . حروب الردة واخضاع الجزيرة العربية .
	٦٣٣	فتح العراق الجنوبي .
	٦٣٤	وقعة أجنادين ضد البيزنطيين في فلسطين .

٦٣٤ — ٦٤٤		خلافة عمر .
	٦٣٥	فتح دمشق . اندحار الفرس في القادسية .
	٦٣٦	وقعة اليرموك واندحار البيزنطيين .
	٦٣٧	اندحار الفرس في جاولاء . مؤتمر الجابية .
	٦٣٩	فتح مصر .
	٦٤٠	فتح فارس .
٦٤٤ — ٦٥٦		خلافة عثمان .
	٦٤٧	فتح طرابلس الغرب .
	٦٤٩	حروب معاوية ضد البيزنطيين في البحر . احتلال قبرس .
	٦٥١	اغتيال يزدجرد ، آخر الساسانيين ، في خراسان .
	٦٥٣	تدوين القرآن على يد عثمان .
٦٥٦ — ٦٦١		خلافة علي .
	٦٥٦	وقعة الجمل .
	٦٥٧	وقعة صفين .
	٦٥٨	التحكيم في أذرح .
٦٦١ — ٧٥٠		الدولة الاموية .
٦٦١ — ٦٨٠		خلافة معاوية بن ابي سفيان .
٦٦٢ — ٦٧٥		ولاية زياد ابن ابيه على العراق .
	٦٧٠	فتح افريقية على يد عقبة بن نافع .
٦٧٤ — ٦٧٩		حصار القسطنطينية .
٦٨٠ — ٦٨٣		خلافة يزيد بن معاوية .
	٦٨٠	مقتل الحسين في كربلاء .
٦٨٣ — ٦٩٢		خروج عبد الله بن الزبير في مكة .
	٦٨٣	الصراع بين الكلبية والقيسية في سورية .
٦٨٤ — ٦٨٥		خلافة مروان بن الحكم .

٦٨٥ ــ ٧٠٥		خلافة عبد الملك بن مروان .
٦٨٥ ــ ٦٨٧		ثورة المختار في العراق .
٦٩١		مصرع مصعب بن الزبير . عبد الملك يخضع العراق .
٦٩٢		الحجاج بن يوسف يفتح مكة .
٦٩٤ ــ ٧١٤		ولاية الحجاج بن يوسف على العراق .
٧٠٥ ــ ٧١٥		خلافة الوليد بن عبد الملك .
٧١١		وقعة وادي بكة ، وفتح الاندلس .
٧١١ ــ ٧١٢		غزو السند وما وراء النهر .
٧١٥ ــ ٧١٧		خلافة سليمان بن عبد الملك .
٧١٧ ــ ٧٢٠		خلافة عمر بن عبد العزيز . اصلاح الخراج .
٧٢٠ ــ ٧٢٤		خلافة يزيد بن عبد الملك .
٧٢٤ ــ ٧٤٣		خلافة هشام بن عبد الملك .
٧٣٢		معركة تور .
٧٤١		ثورة البربر . الحروب ضد البيزنطيين في آسية الصغرى .
٧٤٣ ــ ٧٤٤		خلافة الوليد الثاني (ابن عبد الملك) .
٧٤٤ ــ ٧٥٠		خلافة مروان الثاني (ابن محمد) . تنظيم الجيش .
٧٤٦		ثورات الكلبية في سورية والخوارج في العراق . دعوة ابي مسلم الخراساني للعباسيين في خراسان .
٧٤٨		انتصار قحطبة على الامويين في خراسان .
٧٤٩		استيلاء العباسيين على فارس ، زحفهم على الكوفة .
٧٥٠		اندحار مروان الثاني في معركة الزاب . مقتله في مصر .
٧٥٠ ــ ٧٥٤		خلافة السفاح . استئصال شأفة الامويين .
٧٥٤ ــ ٧٧٥		خلافة ابي جعفر المنصور .
٧٥٦ ــ ٧٨٨		عبد الرحمن الداخل ــ امير قرطبة .
٧٦٢ ــ ٧٦٣		ثورات العلويين في العراق وفي المدينة . بنـــاء بغداد .

٧٦٧ وفاة ابي حنيفة .
٧٧٥ — ٧٨٥ خلافة المهدي . نقل الكتب الفارسية الى العربية وتأثر الادب العربي بالمؤثرات الفارسية . الصراع ضد المانوية .
٧٧٨ — ٧٨٠ ثورة المقنع في خراسان .
٧٧٨ حملات شارلمان في الاندلس .
٧٨٥ — ٧٨٦ خلافة الهادي . بناء مسجد قرطبة .
٧٨٦ — ٨٠٩ خلافة هرون الرشيد . ازدهار الادب العربي .
٧٩٦ — ٨٢٢ امارة الحكَم الاول في الاندلس . الاضطرابات في قرطبة جمهورية مستقلة في طليطلة .
٨٩٩ استقلال الاغالبة في افريقية .
٨٠٣ نكبة البرامكة .
٨٠٩ — ٨١٣ خلافة الامين .
٨١٣ — ٨٣٣ خلافة المأمون . ازدهار الحركة العلمية والفكرية في الاسلام. المعتزلة واشتداد النزاع في مسألة « خلق القرآن » .
٨١٧ محاولة ارضاء العلويين .
٨١٩ استقلال طاهر بن الحسين في خراسان . السامانيون يخضعون لـــطاهر .
٨٢٢ — ٨٥٢ امارة عبد الرحمن الثاني في الاندلس (قرطبة) .
٨٣١ استيلاء العرب على بلرم .
٨٣٣ — ٨٤٢ خلافة المعتصم . تغلب السنة على المعتزلة . ظهور المرتزقة الاتراك .
٨٣٦ بناء سامراء .
٨٣٧ القضاء على بابك وحركته « الشيوعية » .
٨٤٢ — ٨٤٧ خلافة الواثق .
٨٤٧ — ٨٦١ خلافة المتوكل .

حوالى ٨٥٠	بدء الدولة الاويغورية في اواسط آسية .
٨٥٢ — ٨٨٦	امارة محمد الاول في الاندلس . . النصارى والمولدون يثيرون الاضطرابات .
٨٦١ — ٨٦٢	خلافة المستنصر .
٨٦٢ — ٨٦٦	خلافة المعتز .
٨٦٦ — ٨٦٩	خلافة المهتدي .
٨٦٩	علي بن محمد يؤسس « دولة » الزنج في البصرة .
٨٦٨ — ٩٠٦	الدولة الطولونية في مصر .
٨٦٩ — ٨٩٢	خلافة المعتمد . استبداد أخيه الموفق بأمور الدولة .
٨٧١ — ٨٧٩	يعقوب ابن الليث الصفار يستولي على فارس .
٨٧٦	انتصار الموفق على يعقوب في دير العاقول .
٨٧٧	أحمد بن طولون يستولي على سورية .
٨٨٣	القضاء على ثورة الزنج .
٨٨٨ — ٩١٢	امارة عبد الله في قرطبة . كفاحه ضد الثوار .
٨٩٠	ظهور القرامطة في العراق .
٨٩٢ — ٩٠٢	خلافة المعتضد .
حوالى ٩٠٠	ظهور الزيدية في جنوبي بلاد العرب .
٩٠٢ — ٩٠٨	خلافة المكتفي وحروبه ضد القرامطة .
٩٠٨ — ٩٣٢	خلافة المقتدر ووفاة الخليفة المنافس عبد الله بن المعتز .
٩٠٩	انتصار أبي عبد الله على آخر الاغالبة ودعوته للفاطميين .
٩١٠	عبيد الله المهدي وبدء الدولة الفاطمية في المهدية .
٩١٢ — ٩٦١	عبد الرحمن الناصر أمير قرطبة يأتي بالمرتزقة من الصقالبة .
٩١٣ — ٩٤٢	نصر بن سامان الثاني .
٩٢٣	وفاة المؤرخ الطبري .
٩٢٨	القرامطة يدخلون مكة ويحملون الحجر الاسود منها

٩٢٩	عبد الرحمن الناصر يتخذ لقب الخليفة .
٩٣٢ ـ ٩٣٤	خلافة القاهر .
٩٣٢ ـ ٩٤٠	خلافة الراضي .
٩٣٦	محمد بن رائق أمير الامراء .
٩٣٩	ردمير الثاني ملك ليون يهزم عبد الرحمن الناصر .
٩٤٠ ـ ٩٤٣	خلافة المتقي .
٩٤٣ ـ ٩٤٦	خلافة المستكفي .
٩٤٤ ـ ٩٦٧	سيف الدولة الحمداني صاحب حلب . حروبه ضد البيزنطيين . المتنبي الشاعر والفارابي الفيلسوف في بلاط سيف الدولة .
٩٤٥	البويهيون في بغداد .
٩٥٤ ـ ٩٦١	عبد الملك الساماني (الاول) ، ألبتكين صاحب غزنة .
٩٦١ ـ ٩٧٦	خلافة الحكَم الاول في الاندلس .
٩٦٩	جوهر يستولي على مصر باسم الفاطميين . تأسيس القاهرة .
٩٧٦ ـ ٩٩٧	سبكتكين الغزنوي .
٩٩٦ ـ ١٠٢١	خلافة الحاكم الفاطمي في مصر . ظهور الدعوة الدرزية .
٩٩٨ ـ ١٠٣٠	محمود الغزنوي . الفردوسي صاحب الشاهنامه (ت ١٠٢٠) .
١٠٠٦	محمود الغزنوي يهزم ايلك خان التركستاني .
١٠٢٣ ـ ١٠٩١	بنو عباد في أشبيلية .
١٠٢٧ ـ ١٠٣١	هشام الثالث آخر الامويين في قرطبة .
حوالى ١٠٣٠	«تحقيق ما للهند» للبيروني .
١٠٣٧	طغرل بك السلجوقي وأخوه داود يستوليان على خراسان .
١٠٥٥	دخول طغرل بك بغداد واستيلاؤه على أمور الخلافة من القائم .

١٠٦٢ قيام دولة المرابطين واستيلاء يوسف بن تاشفين على مراكش.
١٠٦٣ – ١٠٧٢ الب ارسلان يخلف طغرل بك . الحروب ضد البيزنطيين (معركة ملازكرد ١٠٧١) .
١٠٧٢ – ١٠٩٢ ملكشاه السلجوقي . وزيره نظام الملك . حجة الاسلام الغزالي (ت ١١١١) . عمر الخيام . الحريري.
١٠٧٢ – ١١٠٧ سليمان السلجوقي في آسية الصغرى .
١١٠٧ – ١٣٠٠ دولة السلاجقة من نسل سليمان في قونية .
١٠٨٣ الفونس السادس ملك قشتالة يهزم المعتمد صاحب أشبيلية .
١٠٨٦ يوسف بن تاشفين يهزم النصارى في الزلاقة .
١٠٩٠ حملة يوسف بن تاشفين الثانية على الاندلس وعزله ملوك الطوائف .
١٠٩٩ الصليبيون يستولون على القدس .
١١٠٧ – ١١٣٠ محمد بن تومرت يؤسس دولة الموحدين .
١١٣٢ – ١١٦٣ عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت ، خلفه على العرش يوسف (حتى ١١٨٤) ويعقوب المنصور (حتى ١١٩٩)
١١٣٧ انحلال دولة السلاجقة على ايدي الاتابك .
١١٤٠ اتسز يؤسس دولة شاهات خوارزم .
١١٤٥ نهاية تاشفين ، آخر المرابطين .
١١٥٠ الغوريون يدمرون غزنة .
١١٥٤ نور الدين زنكي (١١٤٦ – ١١٧٣) يستولي على دمشق .
١١٧١ صلاح الدين الايوبي يقضي على الدولة الفاطمية في مصر .
١١٧٤ صلاح الدين يستولي على دمشق ويخضع سورية .
١١٨٠ – ١٢٢٥ الناصر العباسي آخر الدهاة من بني العباس .
١١٨٧ صلاح الدين يهزم النصارى في حطين ويستولي على بيت المقدس .

١١٩٣ وفاة صلاح الدين واقتسام ابنائه ملكه .
١١٩٥ يعقوب المنصور ، الخليفة الموحد ، يهزم نصارى قشتالة في معركة الارك .
١١٩٩ — ١٢٢٠ قطب الدين محمد خوارزم شاه يبلغ أوج قوتـــه .
١٢٠٣ تموجين (الذي عرف بعد ١٢٠٦ بجنكيزخان) يؤسس امبراطورية المغول .
١٢١٧ — ١٢٣٨ الكامل سلطان مصر .
١٢٢٠ المغول يخضعون خوارزم وبخارى وسمرقند .
١٢٢٠ — ١٢٣١ جلال الدين منكبرتي آخر شاهات خوارزم .
١٢٢٥ الموحدون يجلون عن الاندلس . قيام دولة بني مرين في فاس. بنو زيان في تلمسان . بنو حفص في تونس . ابن هود في الاندلس .
١٢٢٧ وفاة جنكيزخان . تقسيم امبراطوريته في أيام ابنه اوكتاي .
١٢٣٢ — ١٤٩٢ بنو الاحمر في غرناطة . بناء الحمراء .
١٢٤٨ لويز التاسع ملك فرنسة في دمياط .
١٢٥٤ — ١٥١٧ المماليك في مصر .
١٢٥٦ — ١٢٩١ سعدي ، الشاعر الفارسي .
١٢٥٨ هولاكو يستولي على بغداد . نهاية الخلافة العباسية .
١٢٦٠ المماليك يهزمون المغول في معركة عين جالوت .
١٢٧٣ وفاة الشاعر المتصوف جلال الدين الرومي .
١٢٧٧ الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٦ — ١٢٧٧) يهزم المماليك في ألبستان .
١٣٢٦ اورخان ، الزعيم العثماني ، يستولي على بروسه .
١٣٣٧ اخفاق اورخان في هجومه على بيزنطة .
١٣٥٧ الامير سليمان يستولي على غاليبولي .

١٣٦٢ — ١٣٨٩ مراد الاول فاتح أدرنة .
١٣٦٩ تيمور يخضع خراسان وما وراء النهر .
١٣٧١ انهزام الصرب عند نهر مريج وفقدانهم ممتلكاتهم في مقدونية .
١٣٨٥ — ١٣٨٦ احتلال العثمانيين نيش وصوفيا .
١٣٨٧ انهزام العثمانيين في بلوشنك .
١٣٨٩ موقعة قوصوه . وفاة الشاعر الفارسي حافظ .
١٣٨٩ — ١٤٠٢ بايزيد الاول .
١٣٩٠ استيلاء العثمانيين على آلا شهر (فيلادلفيا) .
١٣٩١ — ١٣٩٣ الامراء السلاجقة يخضعون للعثمانيين .
١٤٠٠ تيمور يدخل سيواس .
١٤٠٢ تيمور يقهر بايزيد الاول في أنقره ويأسره . عودة السلاجقة الى اماراتهم .
١٤٠٣ — ١٤٢١ محمد الاول يحارب اخوته ويتغلب عليهم .
١٤٠٥ وفاة تيمور . اقتسام امبراطوريته .
١٤٠٨ انتصار قبائل قره قيونلي على ميران شاه .
١٤١٦ انتصار الاسطول البندقي على العثمانيين قرب غاليبولي .
١٤٢١ — ١٤٥١ مراد الثاني .
١٤٣٠ استيلاء العثمانيين على سالونيك .
١٤٤٣ حملة صليبية بقيادة يوحنا هونيادي تقهر العثمانيين عند جالوواز .
١٤٤٧ — ١٤٥٢ الغ بك التيموري .
١٤٤٨ مراد الثاني ينتصر على هونيادي عند قوصوه .
١٤٥١ — ١٤٨١ محمد الثاني (الفاتح) .
١٤٥٣ فتح القسطنطينية .
١٤٥٦ حصار بلغراد .

١٤٥٨ وفاة جورج برانكوفتش . اخضاع الصرب .
١٤٦١ اخضاع المورة والقضاء على سلامة كومنينس في طرابزون .
١٤٦٨ اخضاع الالبانيين .
١٤٦٩ اوزون حسن يقهر أبا سعيد التيموري .
١٤٦٩ — ١٥٠٦ حسين بايقرا يستقل في هراة .
١٤٧٠ البنادقة يخسرون نغربونت في جزيرة أوبه . محالفتهم اوزون حسن .
١٤٧٣ محمد الفاتح يهزم اوزون حسن في ترجان .
١٤٧٥ طرد الجنويين من «كفه» . التتار في شبه جزيرة القرم يخضعون للعثمانيين ويمسون تابعين للسلطان .
١٤٧٩ الصلح مع البندقية .
١٤٨١ — ١٥١٢ بايزيد الثاني . نزاعه مع أخيه جم (وفاة جم في نابولي عام ١٤٩٥) .
١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية العرب في الاندلس .
١٤٩٧ — ١٥٠٣ بناء مسجد بايزيد في القسطنطينية .
١٤٩٩ — ١٥٠٣ الحرب ضد البندقية .
١٥٠٢ اسماعيل الصفوي صاحب اردبيل يجعل التشيع دين الدولة الفارسية .
١٥١٢ — ١٥٢٠ سليم الاول العثماني (ياوز سلطان) . اضطهاد الشيعة .
١٥١٤ انتصار سليم الاول على اسماعيل الصفوي في جالدران .
١٥١٦ انتصار السلطان سليم على قانصوه الغوري عند مرج دابق .
١٥١٧ العثمانيون يفتحون مصر .
١٥٢٠ — ١٥٦٦ سليمان القانوني .
١٥٢٢ فتح رودس .
١٥٢٦ موت لويز ملك المجر في معركة مهاج (موهاكس) .

١٥٣٢	حصار قلعة كوسك . اسطول اندريا دوريا على شواطىء المورة .
١٥٣٤	استيلاء العثمانيين على تبريز وبغداد .
١٥٣٣ — ١٥٤٦	خير الدين بربروسا يهاجم الاسطول الاسباني .
١٥٤٣	اخضاع المجر .
١٥٤٤	اشراف مراكش العلويون (بنو سعد الحسينيون) .
١٥٤٧	بيري رئيس يستولي على عدن .
١٥٥٠	بناء جامع السلطان سليمان في القسطنطينية .
١٥٥١	بيري رئيس يستولي على مسقط .
١٥٦٦	وفاة السلطان سليمان قرب سكتوار .
١٥٦٦ — ١٥٧٤	سليم الثاني .
١٥٧٠	استيلاء العثمانيين على قبرس .
١٥٧١	كارثة الاسطول العثماني في لبانتي (ناوباقتوس) .
١٥٧٤ — ١٥٩٥	مراد الثالث .
١٥٧٧ — ١٥٨٥	الحرب ضد فارس . استيلاء العثمانيين على تفليس وقرص وتبريز .
١٥٧٨ — ١٦١٠	احمد الاول المنصور (من بني سعد) يستولي على تمبكتو .
١٥٨٦ — ١٦٢٨	عباس الكبير شاه فارس .
١٥٩٥ — ١٦٠٣	محمد الثالث .
١٥٩٩	وفاة سعد الدين (المؤرخ) .
١٦٠٠	وفاة الشاعر الغزلي باقي .
١٦٠٣ — ١٦١٧	احمد الاول . ثورة الامير فخر الدين المعني .
١٦٠٦	صلح سيتفاتورك .
١٦١٧ — ١٦٢٢	مصطفى الاول .
١٦١٨ — ١٦٢٢	عثمان الثاني .

١٦٢٣ — ١٦٤٠ مراد الرابع .
١٦٣٣ هزيمة فخر الدين المعني .
١٦٣٨ استرجاع بغداد من الفرس .
١٦٤٠ — ١٦٤٨ السلطان ابراهيم .
١٦٤٥ الحرب ضد البندقية في اقريطش .
١٦٤٨ — ١٦٨٧ محمد الرابع . « جهاننما » لحاجي خليفة .
١٦٥١ انتصار الاسطول البندقي على العثمانيين قرب باروس .
١٦٥٦ محمد كوبريلي الصدر الاعظم .
١٦٦٤ انهزام العثمانيين عند جبل القديس غوتارد قرب نهر الراب.
(الرشيد الحسني) الفلالي في مراكش .
١٦٦٥ الاسطول الفرنسي يقصف الجزائر وتونس .
١٦٦٩ البندقية تتخلى عن اقريطش للعثمانيين .
١٦٧٢ بولندة تتخلى عن بودوليا واوكرانيا للعثمانيين .
١٦٧٣ انتصار سوبيسكي عند خوتين .
١٦٧٦ انتصار سوبيسكي عند لوويج وهزيمته عند زوراونو .
١٦٧٩ وفاة الرحالة اوليا جلبي .
١٦٨١ العثمانيون يتخلون عن كيف للروس .
١٦٨٣ العثمانيون على ابواب فينا .
١٦٨٦ العثمانيون يخسرون المجر .
١٦٨٧ العثمانيون يدحرون عند مهاج (موهاكس) .
١٦٨٧ — ١٦٩١ سليمان الثاني .
١٦٨٨ النمساويون يستولون على بلغراد .
١٦٨٩ هزيمة العثمانيين في نيش . مصطفى كوبريلي الصدر الاعظم.
١٦٩٠ العثمانيون يستردون بلغراد .
١٦٩١ مصطفى كوبريلي يسقط قتيلاً في معركة سالانكمن .

١٦٩١ — ١٦٩٥ احمد الثاني .
١٦٩٥ — ١٧٠٣ مصطفى الثاني .
١٦٩٦ بطرس الاكبر يستولي على آزوف .
١٦٩٧ هزيمة الاتراك عند زنطه على نهر تيس .
١٦٩٩ صلح كارلوبج .
١٧٠٣ — ١٧٣٠ احمد الثالث .
١٧١١ هزيمة بطرس الاكبر عند نهر البروث .
١٧١٤ البندقية تخسر آخر ممتلكاتها في المورة وبحر ايجه .
١٧١٦ الامير اوجين ينتصر على العثمانيين في بتروواردين ويستولي على طمشوار .
١٧١٨ صلح بازاروويج .
١٧٢٢ مير محمود الافغاني يخلع آخر الصفويين . الفتوح الروسية في القوقاز .
١٧٢٩ — ١٧٣٠ نادر قولي خان يطرد الافغان من بلاد فارس .
١٧٣٠ — ١٧٥٤ محمود الاول العثماني .
١٧٣٥ — ١٧٣٩ انتصار العثمانيين على النمسا والروسيا .
١٧٣٦ — ١٧٤٧ نادر شاه الفارسي .
١٧٣٩ نادر شاه يستولي على دلهي .
١٧٠٣ — ١٧٨٧ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية .
١٧٥٠ — ١٧٧٩ كريم خان صاحب شيراز يحكم فارس .
١٧٥٤ — ١٧٥٧ عثمان الثالث .
١٧٥٧ — ١٧٧٤ مصطفى الثالث .
١٧٥٧ الوهابيون يستولون على الاحساء .
١٧٦١ معاهدة صداقة بين العثمانيين وفردريك الكبير .
١٧٧٠ الحرب ضد الروس وتدمير الاسطول العثماني في خليج جشمه

١٧٧٣ – ١٧٨٩ عبد الحميد الاول .
١٧٧٤ صلح كوجك قينارجه . النمسا تحتل بوقووينه .
١٧٧٩ – ١٧٩٧ آغا محمد يؤسس الدولة القاجارية .
١٧٨٣ الامبراطورة كاترينا تخضع تتار القرم .
١٧٨٤ معاهدة آيينه لي قواق .
١٧٨٩ نابليون في مصر .
١٧٨٩ – ١٨٠٧ سليم الثالث . اول محاولات الاصلاح (تنظيمات) على النمط الفرنسي .
١٨٠١ الوهابيون يغيرون على كربلاء .
١٨٠٣ – ١٨٠٤ الوهابيون يستولون على مكة والمدينة .
١٨٠٤ الثورة الصربية بقيادة قره جورج (قره يوركي) .
١٨٠٧ المعاهدة بين فتح علي شاه (١٧٩٧ – ١٨٣٤) ونابوليون ضد الروسيا .
١٨٠٧ – ١٨٠٨ مصطفى الرابع .
١٨٠٨ – ١٨٣٩ محمود الثاني .
١٨١١ محمد علي باشا يفتك بالمماليك ويبيدهم .
١٨١٢ صلح بخارست بين العثمانيين والروس .
استخلاص طوسون مكة والمدينة من ايدي الوهابيين .
١٨١٨ ابراهيم باشا يخضع الوهابيين .
١٨٢١ – ١٨٢٩ الثورة اليونانية على الدولة العثمانية .
١٨٢٦ محمود الثاني يبيد الانكشارية .
١٨٢٧ الحلف الثلاثي ضد العثمانيين . معركة ناوارين .
١٨٣٠ احتلال فرنسة للجزائر .
١٨٣١ – ١٨٣٢ ابراهيم باشا يفتح سورية . عباس ميرزا يستولي على خراسان .
١٨٣٢ ابراهيم باشا يهزم العثمانيين قرب قونية .

١٨٣٣	صلح كوتاهيه . توقيع معاهدة الصلح بين العثمانيين والروس في خونكآر اسكله سي .
١٨٣٤ — ١٨٤٨	محمد شاه الفارسي .
١٨٣٥	عبد القادر الجزائري يهزم الفرنسيين عند نهر المقطع . فون مولتكه وفون برج يدخلان في خدمة السلطان .
١٨٣٦	استرداد السلطان طرابلس الغرب .
١٨٣٧	الـ « باش وكيل » يحل محل الصدر الاعظم . الفرس يحاصرون هراة (تدافع عنها حامية بقيادة انكليزي) .
١٨٣٩	الحرب العثمانية المصرية . هزيمة العثمانيين في نصيبين . البريطانيون يحتلون كابل وقندهار . البريطانيون يحتلون عدن.
١٨٣٩ — ١٨٦١	عبد المجيد الاول .
١٨٣٩	بعث الصدارة العظمى . رشيد باشا وزير الخارجية .
١٨٤٠	مؤتمر لندن لتسوية العلاقات العثمانية المصرية .
١٨٤٢	ثورة الدروز . اعادة تنظيم لبنان . دوست محمد يطرد البريطانيين من افغانستان .
١٨٤٣	عبد القادر الجزائري يجتاز الحدود الى مراكش. محمد بن علي يؤسس السنوسية في طرابلس الغرب .
١٨٤٤	الباب ميرزا علي محمد .
١٨٤٥	المرابط بو معزة يثور في الجزائر . سقوط عبد القادر في قبضة الفرنسيين .
١٨٤٨	وفاة محمد علي . عباس يتسلم زمام الأمور .
١٨٤٨ — ١٨٩٦	ناصر الدين شاه .
١٨٤٩	فيصل بن تركي يخرج المصريين من الحجاز .
١٨٤٩ — ١٨٥٢	النزاع على الاماكن المقدسة في فلسطين .
١٨٥٠	الفتك بأتباع الباب .

١٨٥٢	دانيلو اول حاكم علماني يؤسس سلالة وراثية في الجبل الأسود .
١٨٥٣	حرب القرم .
١٨٥٤	العثمانيون يصمدون في قلعة سلستره في وجه الروس . هزيمة الروس عند نهر ألما .
١٨٥٤ ـ ١٨٦٣	سعيد باشا صاحب مصر .
١٨٥٥	سقوط سباستوبول . شامل يقود ثورة اللاز ضد الروس .
١٨٥٦	« خط همايون » . صلح باريس . بريطانية تشهر الحرب على فارس . ابراهيم شناسي . بدء الادب التركي الحديث .
١٨٦٠	بدء العمل في فتح ترعة السويس . حوادث الستين .
١٨٦١ ـ ١٨٧٦	السلطان عبد العزيز .
١٨٦٣ ـ ١٨٨٠	اسماعيل باشا صاحب مصر يتخذ لقب خديوي في١٨٦٦ .
١٨٦٩	افتتاح ترعة السويس رسمياً .
١٨٧٠	ظهور المهدي محمد بن عبدالله في السودان .
١٨٧٣	تعديل الوضع الدستوري المصري .
١٨٧٣ ـ ١٨٩٤	السلطان حسن المراكشي .
١٨٧٥	المحاكم المختلطة في مصر . المصريون يستولون على هرر في الحبشة . هزيمة المصريين على يد الامبراطور يوحنا . الثورة في الهرسك .
١٨٧٦	الفظائع في بلغارية . مؤامرة مدحت باشا على السلطان عبد العزيز وتنصيب مراد الخامس .
١٨٧٦ ـ ١٩٠٩	عبد الحميد الثاني .
١٨٧٦	الصرب والجبل الاسود يشهران الحرب على الدولة . مدحت باشا ، الصدر الاعظم ، يعلن الدستور .
١٨٧٧ ـ ١٨٨٨	الحرب الروسية العثمانية . معركة بلفنه وممر شيبكا .

الروس في ادرنه . صلح سان ستيفانو الموقت . تخلي الدولة العثمانية عن قبرس لبريطانية .

١٨٧٨ مؤتمر برلين .

١٨٨٠ — ١٨٩٢ توفيق باشا خديوي مصر .

١٨٨١ فرنسة تحتل تونس . هزيمة عرابي باشا عند التل الكبير . بريطانية تحتل مصر .

١٨٨٢ المهدي يخرج المصريين من السودان .

١٨٨٣ المهدي يحتل الابيض .

١٨٨٥ الهجوم على الخرطوم . مقتل غوردن . وفاة المهدي وخلافة ابي بكر عبدالله التعايشي .

١٨٨٨ المهديون يهزمون الرأس عدار ويحرقون قندر ويخضعون مقاطعة الخط الاستوائي .

١٨٨٩ هزيمة الحبشة في القلابات . مقتل الامبراطور يوحنا .

١٨٩٢ رباح يؤسس دولة عند بحيرة شاد .

١٨٩٤ الفرنسيون يستولون على تمبكتو .

١٨٩٤ — ١٩٠٧ السلطان عبد العزيز المراكشي .

١٨٩٦ كتشنر يقضي على المهديين في ام درمان . مقتل الخليفة عبدالله . الحرب العثمانية اليونانية . اغتيال ناصرالدين شاه .

١٨٩٦ — ١٩٠٩ الشاه مظفر الدين .

١٩٠٠ الفرنسيون يقضون على امبراطورية رباح .

١٩٠٤ مؤتمر الجزيرة الخضراء .

١٩٠٦ حادثة دنشواي . استقالة كرومر .

١٩٠٧ تقسيم بلاد فارس الى منطقتي نفوذ بريطانية وروسية .

١٩٠٨ ثورة رجال « تركية الفتاة » .

١٩٠٩ الثورة في فارس . تنازل مظفر الدين شاه عن العرش

واعتلاء احمد شاه . الزحف الثاني على استانبول .

١٩٠٩ - ١٩١٨ السلطان محمد رشاد الخامس .

١٩١١ - ١٩١٢ ايطالية تستولي على طرابلس الغرب .

١٩١٢ حرب البلقان .

١٩١٣ انور يسترد ادرنه . معاهدة صلح القسطنطينية ومعاهدة صلح اثينا (١٩١٤) .

١٩١٤ (اول تشرين الثاني) الدولة العثمانية تدخل الحرب الى جانب المانية . حسين كامل سلطان مصر .

١٩١٥ الهجوم على ترعة السويس. معركة المضايق. حصار الجنرال تونشند وقواته البريطانية الهندية في كوت العمارة .

١٩١٦ (٢٩ نيسان) استسلام تونشند . الروسيا تتقدم في القوقاز وفارس .

١٩١٧ (آذار) البريطانيون يحتلون بغداد . (كانون اول) فتح القدس . فؤاد سلطان مصر . محمد السادس (وحيد الدين) يرقى عرش الخلافة والسلطنة .

١٩١٨ فيصل ولورنس يحتلان دمشق (تشرين اول). معاهدة مودروس — (٣٠ تشرين اول). بدء حركة الوفد في مصر.

١٩١٩ اليونان في ازمير (١٥ نوار) . مصطفى كمال في الاناضول (١٥ نوار) . مؤتمر ارضروم (٢٣ تموز) . الميثاق الوطني . الاضطرابات الوطنية في مصر .

١٩٢٠ الحلفاء يحتلون الاستانة (آذار) . افتتاح المجلس الوطني في انقرة (٢٣ نيسان) . مؤتمر سان ريمو يبحث الانتدابات . معاهدة سيفر . بعثة ملنر في مصر . الفرنسيون يخرجون فيصل من سورية . رضا خان يزحف على طهران .

١٩٢١ الغازي مصطفى كمال يهزم اليونانيين عند نهر سقاريه .
المعاهدة التركية مع فرنسة والمعاهدة التركية مع الروسيا .
نفي زغلول الى سيشل . فيصل ملك العراق (٢٣ آب).
ثورة عبد الكريم في الريف المراكشي .

١٩٢٢ طرد اليونان من آسية الصغرى . معاهدة لوزان . السلطان فؤاد يصبح ملك مصر (١٥ آذار) . وضع الدستور الفلسطيني .

١٩٢٣ اعلان الجمهورية التركية والغاء السلطنة (٢٩ تشرين الاول) . عبد المجيد يصبح خليفة . اعلان الدستور المصري .

١٩٢٤ الغاء الخلافة (٣ آذار) . فؤاد يحل البرلمان المصري .
زغلول رئيس الوزراء . ابن سعود يستولي على الحجاز .

١٩٢٥ الثورة الكردية ضد تركية . حل الطرق الصوفية واستبدال القبعة بالطربوش . الثورة السورية . ضم الموصل الى العراق . رضا خان يصبح شاه ايران .

١٩٢٦ مؤامرة ازمير . زغلول يعود الى رئاسة الوزراء . الجمهورية اللبنانية . ضم عسير الى الحجاز . المؤتمر الاسلامي العام في مكة . القضاء على ثورة عبد الكريم .

١٩٢٧ وفاة زغلول . ثروت يفاوض بريطانية لعقد معاهدة .

١٩٢٨ استبدال الاحرف اللاتينية بالعربية في تركية .

١٩٢٩ الاضطرابات في فلسطين . تنازل امان الله عن عرش افغانستان . البدء في مد السكة الحديدية في ايران (١٩٢٩ – ١٩٣٨) .

١٩٣٠ تركية تدخل عصبة الامم . تحديد عدد المساجد في تركية .

١٩٣٢ العراق يدخل عصبة الامم . فتنة الاشوريين .

١٩٣٣ الاضطرابات في فلسطين . وفاة الملك فيصل (٨ ايلول). غازي ملك العراق .

١٩٣٤ المعاهدة التركية مع دول البلقان . المعاهدة التركية الايرانية . اصطناع اسماء العائلات في تركية . مصطفى كمال : اتاتورك . الحرب بين ابن سعود والامام يحيى. معاهدة صلح الطائف .

١٩٣٥ انتخاب النساء لاول مرة في المجلس الوطني التركي . اشتداد المقاومة العربية في فلسطين . تحرير المرأة في ايران . جامعة طهران .

١٩٣٦ عقد المعاهدة البريطانية المصرية . وفاة الملك فؤاد (٢٨ نيسان) . فاروق ملك مصر . اللجنة الملكية في فلسطين . الانقلاب العراقي على يد بكر صدقي .

١٩٣٧ تركية تنتزع لواء الاسكندرونة . معاهدة سعد آباد بين تركية والعراق وايران وافغانستان . وزارة محمد محمود باشا في مصر . هرب المفتي من فلسطين .

١٩٣٨ وفاة اتاتورك (١١ تشرين الاول) . عصمت اينونو يخلفه في رئاسة الجمهورية . حل البرلمان المصري . اللجنة الملكية في فلسطين تقدم اول مشروع للتقسيم .

١٩٣٩ مؤتمر الدائرة المستديرة في لندن لدرس القضية الفلسطينية . الكتاب الابيض . وفاة الملك غازي (٤ شباط) . فيصل الثاني ملك العراق .

فهرست الأعلام

— ج —

— ز —

ــ ش ــ

— ض —

— ط —

– ظ –

– ع –

— غ —

ــ ف ــ

— ن —

ــ هـ ــ

المحتويات

اوفست كونروغرافير
فماطي ودكروب
بيروت ـ تلفون ٢٩٢٣١١

دار العلم للملايين
بيروت

ISBN 978-9933-407-05-6